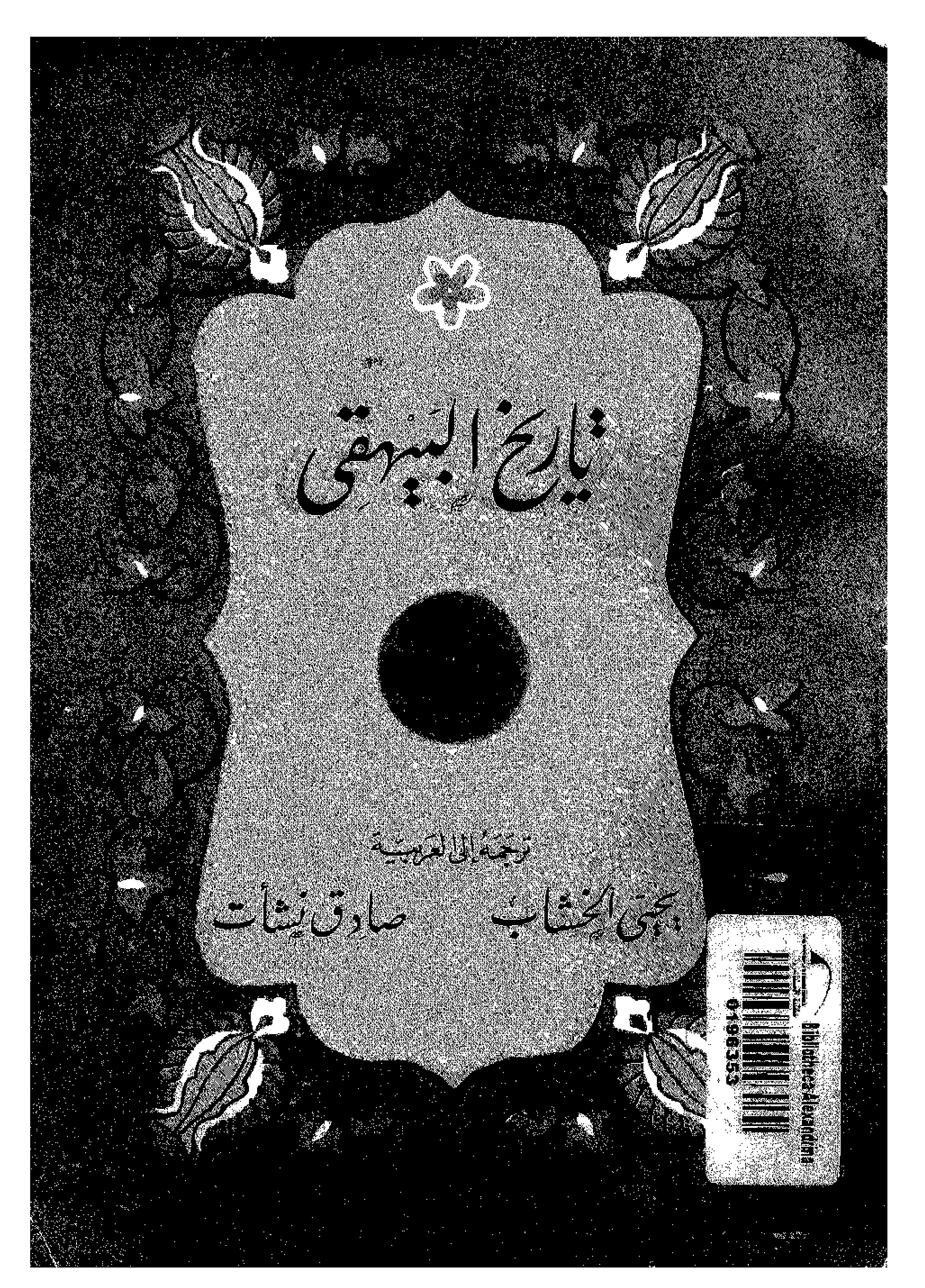
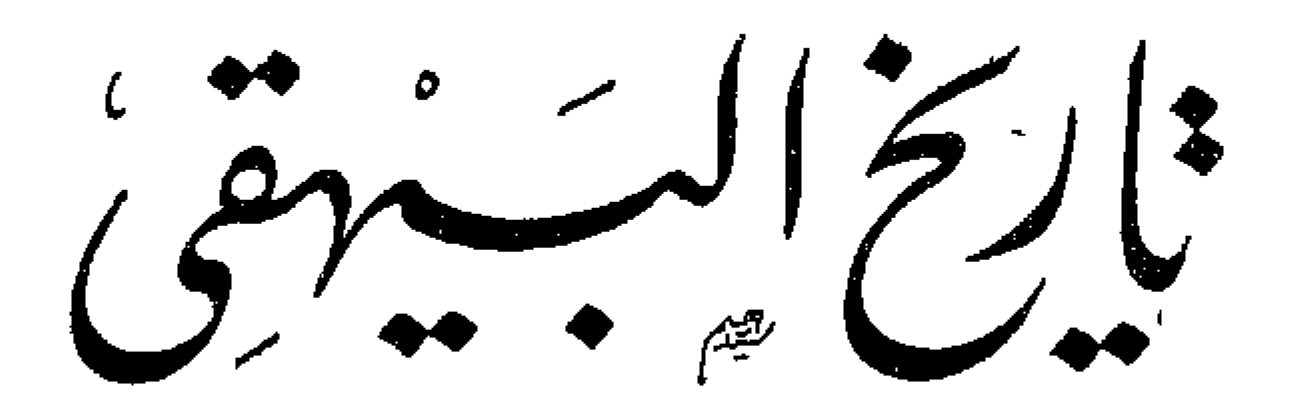

تاريخ البيهقي
ترجمة إلى العربية
يحيى الخشاب
صادق نشأت
Bibliotheca Alexandrina
0196353

تاريخ البيهقي



أبو الفضل البيهقي

نائب رئيس ديوان الرسائل

في عهد السلطان مسعود الغزنوي

ترجمه إلى العربية

بتكليف من الإدارة العامة للثقافة ، وزارة التربية والتعليم بمصر

يحيى الخشاب

أستاذ الدراسات الشرقية

بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

عميد كلية الآداب سابقا

صادق نشأت

أستاذ بكلية المعقول والمنقول

بجامعة طهران وبكلية الآداب .

جامعة القاهرة

الناشر

مكتبة الانجلو المصرية

دار الطباعة الحديثة

٥ شارع [illegible] - ت ٩٢٣١٨

مقدمة

(١)

صاحب هذا الكتاب أبو الفضل محمد بن حسين البيهقى . ولد فى قرية بيهق ، فى الجنوب الشرقى لخراسان ، حوالى سنة ٣٨٥ / ٩٩٥[١] ، وتوفى فى صفر سنة ٤٧٠ / ١٠٧٧ . وقد كتب عنه ابن فندق وهو يتحدث عن أعيان بيهق فى كتابه المعروف « بتاريخ بيهق » الذى ألف بعد وفاة البيهقى بحوالى ثلاث وتسعين سنة[٢] . وقد عاش فى مطلع حياته بنيسابور حيث تعلم علوم القرآن والحديث وقرأ الآداب العربية ، وعاشر أهل العلم والأدب . وهذا الكتاب الذى نقلناه إلى اللغة العربية وهو جزء من سفر كبير ، شاهد على سعة اطلاعه وعمق ثقافته وتمكنه من ناصية اللغتين الفارسية والعربية . ويقول ابن فندق إنه استمع إلى كثير من الأحاديث ورواها كما أن له أشعارا عربية . والتحق بالعمل فى ديوان الرسائل كتلميذ لأبى نصر مشكان رئيس الديوان أيام محمود الغزنوى ومسعود وكان فى السابعة والعشرين من عمره حينذاك[٣] . وقد حال صغر سنه دون ارتقائه إلى رياسة ديوان الرسائل بعد وفاة أستاذه فلبث فى منصبه متعاونا مع أبى سهل الزوزنى . ولكن فى رعاية تامة من السلطان والوزير أحمد عبد الصمد . ولعل البيهقى كان يؤثر هذا الوضع فى

---

(١) ذلك لأن البيهقى يقول إنه كان فى الخامسة عشرة من عمره سنة ٤٠٠ / ١٠٠٩ (ص ٣٨٠) وأنه كان فى السادسة عشره سنة ٤٠٢ / ١٠١١ (ص ٢٢٥) .

(٢) كتب ابن فندق كتابه سنة ٥٦٣ / ١١٦٧ .

(٣) يقول فى صفحة ٦٥٨ أنه عمل مع أبى نصر مشكان تسع عشرة سنة وقد مات هذا سنة ٤٣١ / ١٠٣٩ .

ذلك الوقت ، فإنه حين يتكلم عن أبى سهل أحمد على الذى كان من أقوى أركان ديوان العرض والذى لم يرق عن مرتبة النيابة أى لم يبلغ رياسة هذا الديوان، يقول « ولذلك فهو مستريح هادىء البال ويمضى حياته على الهامش لا يسأل إذا عزل عارض وولى غيره . والعاقل من يسير سيرته » (ص ٥٣٦ — ٥٣٧) . وظل يعمل فى الديوان حتى أصبح رئيسا له فى عهد السلطان عبد الرشيد ، وأثناء ذلك ثار العبد طغرل ، من عبيد محمود ، وقتل السلطان وزج بأنصاره فى السجن ولبثت الفوضى أربعين يوما . ثم استرد فرخ زاد الملك وقتل طغرل وأفرج عمن اعتقلوا وكان البيهقى واحدا منهم ، وحين خرج عكف فى بيته على القراءة والتأليف إلى أن مات .

وللبيهقى ، عدا سفر التاريخ ، الذى يعد تاريخ البيهقى الذى ننقله إلى العربية جزءً منه ، كتب أخرى . منها « زينة الكتاب » « ومقامات أبى نصر مشكان ». ويذكر الأستاذ فياض فى مقدمته أنه رأى فى مكتبة الحاج حسين آغا ملك فى طهران بضع صفحات فى أدب الإنشاء تنسب للبيهقى .

(٢)

وكتاب البيهقى على ضخامته جزء من سفر كبير كان فى ثلاثين جزء كما قلنا ، وهذا القسم الباقى هو الذى نقدمه اليوم للمكتبة العربية .

وقد لفت كتاب « تاريخ البيهقى » أنظار المشتغلين بالدراسات الشرقية منذ زمن بعيد ، فكانوا ينقلون عنه أخذا من المخطوطات الكثيرة له فى الهند وفى إيران وفى أوربا ، إلى أن أتيحت لهم أول طبعة لهذا الكتاب فى الهند سنة ١٨٦٢ . وكان مورلى[١] قد هيأ الكتاب للنشر ولكنه مات قبل إنجاز

(١) يشار إلى هذه النسخة بالرمز مو .

ذلك فقام بطبعه من بعده ناسوليس . ولكن لم يتح لهذه الطبعة الأولى الدقة التى ينبغى أن تتوفر لمثل هذا الكتاب ، ثم إنها جاءت خلواً من المقارنات والحواشى التى لا غنى عنها فى النشر العلمى الحديث ، كما أنها خلت من الفهارس التى تعين على البحث وتهيء الفائدة المرجوة من النشر .

وفى سنة ١٨٨٧ أخرج السيد محمد أديب البيشاورى[٢] طبعة حجرية فى طهران لتاريخ البيهقى . وقد لاحظ علماء إيران والمشتغلون بالدراسات الشرقية أن هذه الطبعة الحجرية الجديدة لم تسد النقص الذى كانت عليه الطبعة الهندية السابقة عليها ، بل إن العيب الذى يلازم هذا النوع من الطباعة قد أساء إلى هذا الكتاب القيم ولم يتح للعلماء أن يفيدوا منه الفائدة المرجوة . ولكن هذا العيب لا يخفى الفضل العظيم الذى أضفاه السيد أديب البيشاورى على نص الكتاب من حيث التحقيق والشروح والحواشى فهذه من غير شك قد أضافت إلى الكتاب قيمة علمية جديدة . فإن البيشاورى قد رجع فى حواشيه وشروحه إلى كتب لغوية معاصرة للبيهقى لكى يفسر ويوضح المصطلحات التاريخية التى استعملها . وكذلك أفاد البيشاورى من ثقافته الواسعة فى تحقيق كثير من مواضع الغموض فى الكتاب .

وفى السنوات الأخيرة ظهر لكتاب تاريخ البيهقى طبعتان فارسيتان . أما الأولى فقد قام بها الدكتور سعيد نفيسى وقد أخرجها فى جزءين بغير كشاف وأصدر بعد ذلك جزءاً ثالثاً يحوى الحواشى التى تبدأ من صفحة ٩٦٩ وتنتهى فى صفحة ١٥٩٥ والتى تتناول تسعا وسبعين صحيفة من نص البيهقى . وهذه الحواشى الطويلة التى تصلح كل حاشية منها أن تكون كتاباً أو رسالة

---

(٢) يشار إلى هذه النسخة بالرمز يب .

على حدة تشهد بدقة الأستاذ نفيسى وسعة اطلاعه وجلده على البحث والتحرى. وقد أفدنا منها كثيرا ولكنا لم نستطع أن ننقلها إلى العربية مع جدارة الكثير منها بهذا النقل.

أما الطبعة الحديثة الثانية فقد قام بها الدكتور قاسم غنى والدكتور على أكبر فياض. ولم يكن قصد الأستاذين أن ينشرا النص كاملا، ولكنهما رأيا ذلك بعد دراسة لطبعتى كلكتا وأديب، ولم يكن الأستاذ نفيسى قد فرغ من طبعته. ولوزارة المعارف فى طهران اتجاه محمود فى تقريب أمهات الكتب الفارسية إلى عقول الطلاب فى المدارس والجامعة وذلك بأخذ أهم ما فى هذه الكتب وعرضه عرضاً مشوقاً ميسوراً على الطلاب. وقد عهدت الوزارة إلى الأستاذين « غنى وفياض » بأن يقرآ هذا الكتاب وأن يلخصاه وأن يعرضاه عرضاً يسيراً مشوقا، وذلك ليكون من مطبوعات هذه الوزارة. ولكن الأستاذين رأيا أن هذا الكتاب القيم لم يظفر بعد بطبعة كاملة مقارنة ذات كشاف كامل وأن الأولى للمكتبة الفارسية أن تظفر بهذه الطبعة قبل أن يختصر هذا الكتاب ويعد ليعرض على التلاميذ والطلاب. وعكف الأستاذان سنوات عدة حتى أخرجا سوياً الطبعة الرابعة لهذا الكتاب وهى الطبعة التى نقلنا عنها هذه الترجمة العربية والتى اتخذناها أصلا والتى أثبتنا صفحاتها مع صفحات ترجمتنا العربية. وعنى الأستاذان بتصحيح النص والمقارنة مع النسخ الخطية فى طهران وفى الهند[1] كما عنيا عناية شديدة بالحواشى التى يبدو منها حرصهما الشديد على الإفادة من حواشى السيد البيشاورى وكذلك ألحق بهذه الطبعة كشاف مفصل للأعلام بذل فيه من العناية والدقة ما يجعل لهذه الطبعة الأخيرة

(١) رجعا فى طهران إلى نسخة خطية فى المكتبة الفاضلية أشير إليها برمز فا. وإلى نسخة فى مكتبة المجلس أشير إليها برمز مج.

مكانة بين الكتب التى يفخر المستشرقون فى أوربا بنشرها وتيسير الاطلاع عليها بالكشافات الدقيقة المدروسة . هذا وقد أفدنا من طبعة الأستاذ «نفيسى» التى ظهرت كاملة فيما بعد وقد أثبتنا ما أخذنا عن مقارنة نسخة «غنى وفياض» بنسخة نفيسى فى ترجمتنا العربية . والكتاب يعتبر من ناحية أسلوبه الفارسى من أحسن ما كتب بهذه اللغة . ويكفى أن نذكر هنا رأى الدكتور فياض وهو حجة فى أسلوب البيهقى فهو يقول : « إنه بلغ الأوج فى الكتابة الفارسية وإن إنشاءه يعتبر أبرع مثال لما كتبه الرعيل الأول من كتاب اللغة الفارسية ، فقد كان يتحرى الجمال والبساطة وتمكن لاتصاله بطبيعة اللغة الفارسية من الإتيان بتعابير تلائم جمال الطبيعة وحيويتها وبساطتها وإبداعها وإن فى كتابه هذا نماذج للإنشاء تعد صوراً رائعة للنثر الفارسى كما أن كتابته فى التاريخ تعتبر مثالا رائعاً فى تدوين هذا العلم » .

والمستشرق « كازى ميرسكى » فى مقدمته لديوان « منوجهرى » يبدى ثناءه وإعجابه بأسلوب البيهقى ويذكر وهو يتحدث عن النصوص العربية التى ترجمها إلى الفارسية أن هذه الترجمة قد خلت من عيب الالتواء فى التعبير كما خلت من التكرار وجاءت صورة صحيحة كاملة للنص العربى الذى كتبت به أصلا . والبيهقى فى كتابه الذى كتبه فى التـــاريخ رجل سياسى مؤرخ أديب . فهو قد اشتغل تلميذاً « لأبى نصر مشكان » رئيس ديوان الرسائل والتلميذ هنا تعنى الوكيل والنائب وهى فى الإصطلاح الديوانى فى ذلك الوقت كانت العمل الذى يسبق المنصب الأعلى فى أى منصب من المناصب . وقد اشتغل مع أبى نصر تسعة عشر عاما أيام السلطانين « محمود الغزنوى» و « مسعود » وكان «أبو نصر مشكان » هذا آية ــ كما يقول البيهقى ــ فى كتابة الرسائل السياسية التى كانت توجه من السلطان إلى الخليفة أو من السلطان إلى الملوك الآخرين أو منه إلى حكامه فى الأطراف . وقد أتيح للبيهقى أن يعمل فى وقت واحد مع «أبى نصر مشكان»

ومع « أبى الحسن الميمندى » الذى كان وزيراً « لمحمود » ثم وزيراً « لمسعود » ومع « أحمد عبد الصمد » الذى يعتبر - كما يصوره البيهقى - أكبر عقل فى عهد « السلطان مسعود ». أتيح للبيهقى أن يكون زميلا لهؤلاء جميعاً وأن يكون واحداً منهم فى تصريف شئون الدولة .

هذا الاتصال المباشر بسياسة الدولة ، وهذه المشاركة فى تسيير هذه السياسة بالرأى والكتابة وبالمسعى الجميل ، كل هذا أتاح للبيهقى أن يكون رجل سياسة من الطراز الأول يحكم تحرير الرسائل ويحسن فهم معانيها ما ظهر منها وما بطن .

فهو حين أخذ على نفسه أن يكتب التاريخ لم يكن كمعظم المؤرخين بعيداً عن مجرى الحوادث التى يؤرخ لها ولم يكن درسه لهذه الحوادث دراسة بعيدة عن البيئة التى جرت فيها وعن الأشخاص الذين سيروا هذه الحوادث . ولم يكتف البيهقى بسرد التاريخ سرداً ولكنه كان يقف حيثما يجب التوقف ليبدى رأيه ورأى الوزير ورئيس الديوان ولا يغفل صدى التصرفات التى تصدر فى موضوع معين عند الرأى العام . وأتيح له أن يضمن كتابه الوثائق الرسمية التى كانت تدخل فى حوزته بوصفه الكاتب المسئول عن نسخها ثم عن حفظها . وهكذا ذكرت الرسائل السياسية ، التى تعتبر من أهم الرسائل السياسية الإسلامية كما يقول كازيمرسكى ، بنصها فى كتابه . ثم إنه أخذ عن أستاذه رئيس الديوان رسائل كثيرة وضمنها كتابه ، وهو ينقل عن هذا الرئيس كثيراً وقد عمد إلى تدوين ما كان يسمع منه أو من الوزير فى حينه حتى لا يأتى النسيان على ما يسمع وحتى يجعل تاريخه كاملا بقدر الطاقة .

ويرى بارتولد ، صاحب مقال البيهقى فى دائرة المعارف الإسلامية ، وأسبق العلماء إفادة من كتاب البيهقى ، أن تاريخه ليس تاريخاً لدولة أو لبلد بالمعنى المعروف إنما هو حديث رجل سياسى عن حياة الملوك الذين عمل معهم وعما

كان يجرى فى الشؤون الداخلية والخارجية . وبهذا قال البيهقى نفسه ، ثم يقول بارتولد : « وإذاً فلدينا صورة قوية عما جرى فى البلاط الغزنوى أيام السلطان مسعود وعن طرائق الحكم فى الدولة التى أنشأها سبكتكين ومحمود، صورة ليس لدينا ما يماثلها عن أى عصر آخر فى القرون الوسطى الإسلامية . » فالبيهقى صادق حين يقول إن هذا التفصيل الذى يتصف به كتابه لا يتوفر فى كتب التاريخ الأخرى التى اقتصر أصحابها على نبذ وجيزة من أن ملكا فتح بلداً يوم كذا وأن حربا أو صلحاً قد تم وهكذا ، يقول : «أما أنا وقد تعرضت لهذا العمل فإنى أود أن أؤدى حق التاريخ كاملا وأن أبحث عن الخفايا حتى لا يخفى شىء من الحوادث . وإذا طال هذا الكتاب فإنى طامع فى ألا أثقل على القراء، فليس من حادث إلا وهو جدير بأن يقرأ ولا تخلو قصة من عبرة » (ص ١١) .

ويذكر البيهقى أن بعض هذه الوثائق التى كتبها بخطه والتى كان يحتفظ بصور منها قد أتلفوها عمداً وأنه آسف أشد الأسف لضياع تلك الرياض الرضوانية (الرسائل) فقد كانت تجعل من هذا التاريخ سجلا فريداً . ثم يقول إنه ليس يائساً من العثور عليها يوما ما (ص ٣٢٣) .

والظاهر أن البيهقى قد بدأ تاريخه من سنة ٤٠٩ / ١٠١٨ وهى السنة التى انتهى إليها محمود الوراق فى كتابه الذى ألمه سنة ٤٥٠ / ١٠٥٨ (ص ٢٨٧) ، وأنه كان قد فرغ من ستة أجزاء من كتابه وبدأ فى المجلد السابع متحدثا عن سنة ٤٢٤ / ١٠٣٢-٣٣ (ص ٤١٠) فكان ذلك فى سنة ٤٥١ / ١٠٥٩ حين وصل بالتاريخ إلى عصر أبى المظفر إبراهيم بعد وفاة فرخ زاد ، وأنه انتهى من المجلد التاسع قبيل سفر مسعود إلى الهند (ص ٧٣٠) ، وأنه يبدأ قبل المجلد العاشر بهذه الرحلة ثم يتحدث فى بابين عن خوارزم والجبال(ص ٧٣٠) ، وأنه وصل بالتاريخ إلى عهد أبى المظفر إبراهيم بن ناصر دين الله فى سنة ٤٥١ / ١٠٥٩

أيضا (ص ٤٠١)، وأنه يأمل أن يفرغ من عصر إبراهيم « ليطرز هذه الديباجة الخسروانية باسمه الكريم بطراز من ذهب » (ص ٤١٠) .

ويبدو أن المجلدات الثلاثين قد طالت ، فهو يعتذر عن هذه الإطالة بأنه دون حوادث خمسين عاما وأنه تناول الحديث عن كثير من العظماء والسادة من شتى الطبقات (ص ٢١٤) .

وفيما عدا التاريخ الذى يستمد مصادره من الوثائق التى كانت فى حوزته أو بما رآه أو سمعه من الوزير أو رئيس الديوان أو غيرهما يتحدث البيهقى عن أخبار الماضى والوسيلة التى يصل بها المؤرخ إلى تدوينها . وهو يرى أن « هذه الأخبار قسمان ليس لهما ثالث ، إما أن تسمعها من رجل أو تقرأها فى كتاب . ويشترط فى السماع أن يكون المتحدث ثقة صادقاً ويشهد على صحة قوله العقل ويؤيده كلام الله تعالى ، فقد قيل: « لا تصدق من الأخبار مالا يستقيم فيه الرأى » وكذلك يكون حكم الكتاب فتكون الأخبار التى فيه على صورة لا يردها العقل ويؤمن بها السامع ويستمع إليها العقلاء ويقبلونها » (ص ٧٣٣) .

ويتحدث البيهقى فى عدة مواضع من كتابه عن روايات استقاها من جماعة يثق فى أفواههم (ص ٧٦ ، ٤٣٧ ؛ ٧٥٧) ، كما أنه يذكر كتبا أخذ عنها مثل كتاب محمود الوراق (ص ٢٨٧) . وكتاب المسامرة فى أخبار خوارزم للبيرونى (ص ٧٣٤) ، ومقامة الخواجة عبد الغفار فى معنى ولاية عهد الأمير مسعود (ص ١١٥) .

ومن رأيه أن التاريخ يزدان بالقصص . والحق أن حسن اختياره لما يروى من هذه القصص والاستشهاد به فى المواضع التى اختارها يشهد بدقة ذوقه وحسن فهمه للتاريخ كما يشهد بدقة فهمه للأوضاع الاجتماعية التى كانت سائدة حينذاك . والمعروف أن استخدام القصص فى كتب السياسة كان شائعا فى ذلك

الوقت لما فى هذا القصص من العبر التى يقصد بها الكاتب توجيه القارىء ، وهو غالبا السلطان ، إلى نواحى الخير والاستقامة ، وكتاب السياسة لنظام الملك ، الذى ألف بعد وفاة البيهقى بخمسة عشر عاما خير دليل على شيوع القصص الموجه فى كتب ذلك الزمان . والبيهقى يقرر « أن هذه الأقاصيص ولو أنها بعيدة عن التاريخ ، فإنه جرى على ذكر أن فلانا السلطان قد بعث القائد فلانا للحرب وإن يوم كذا جرت المعركة أو تم الصلح . ولكنى أكتب ما أراه واجب التدوين » (ص ٢٧٥) .

ويلخص البيهقى الميزة التى يتصف بها تاريخه فيقول . إنه يذكر هذه الأخبار بهذا التفصيل لأنه كان معتمدا فى تلك الأيام « ولم يكن أحد من الكتاب واقفا على هذه الأحوال سوى أستاذى أبى نصر الذى كان يعد المسودة وأقوم بنسخها . وكانت هذه هى القاعدة طوال حياة أبى نصر فيما يختص بكتب ملوك الأطراف والخليفة وخانات تركستان وبكل ما هو هام من أعمال الديوان ... والشاهد العدل على ما قلت هو ما لدى من التقاويم فكلها ناطق بهذه الأخبار ولكل من لا يعتقد فى صحة قولى أن يحضر أمام قاض عدل لتعرض عليه الحوليات فتكون شاهد صدق على قولى (ص ٦٠٥) . »

ورغم الصلة الوثيقة التى ربطت البيهقى بالسلطان وبالوزيرين الميمندى وعبد الصمد وبرئيسه أبى نصر مشكان فإنه لم يستح من الحق وهو يتحدث عن التاريخ . فهو مؤرخ بعيد عن الهوى ، وليست له ميول خاصة تؤثر فى رواياته أو تثنى تفكيره وهو يبدى رأيه إلى اتجاه معين . لقد حماه السلطان من أبى سهل الزوزنى حين اضطره هذا إلى طلب إعفائه من منصبه ، وخصه السلطان بثقته وطلب منه النصح فى مواقف عدة ، ومع هذا فإنه لم يتردد فى انتقاد السلطان فى كل موقف كان خطأ السلطان فيه واضحا . فهو يأخذ عليه

انسياقه وراء أبي سهل الزوزني في مطالبة الناس بما خلع عليهم الأمير محمد من صلات وأنه قد نتج من ذلك أن بلغ سوء السمعة إلى مالا يمكن وصفه ، وأن الوزير الميمندي كان يبرأ من إسناد هذا الأمر إلى نصحه وكان يقول إن مسؤلية هذا الظلم ترجع للسلطان وللعارض الزوزني ؛ وينتقد البيهقي السلطان لأنه كان بدوره يبرأ من هذا التصرف ويحيل المسؤلية إلى الوزير والعارض . ثم يقول في صراحة إن الناس « قد يئست قلوبهم وخمدت في نفوسهم كل تلك الميول والعواطف البالغة التي كانوا يبدونها للسلطان » . وحين يذكر ما تقرر من مال يجبى من أهل آمل ، يذكر رأى الوزير الذي يقول إنه يتمنى أن تمتلىء خزانة السلطان بالمال ولكن ما طلب من الآمليين فوق طاقتهم ، ويذكر إصرار السلطان على رأيه ويقول بعد أن أنصف الوزير : « إنه لعزيز على أن يجرى قلمي بمثل هذا النقد للسلطان ولكن ماحيلتي في ذلك والتاريخ لا يعرف المحاباة » (ص ٤٩٤) . وحين قدم سورى ، صاحب ديوان خراسان ، هدية هذا الإقليم للسلطان ، لم يتردد البيهقي في أن يروى ماقصه عليه أبو منصور المستوفي من أن السلطان ، حباً للمال ، قد أوعز بأن تقوّم هذه الهدية سراً فكانت ألف ألف درهم مرات وأنه قال عن سورى « ياله من خادم طيب لو كان لنا مثله خادمان أو ثلاثة لحصلنا على فوائد عظيمة » ، وكان أبو منصور يود أن يقول للسلطان : أولى بنا أن نسأل رعايا خراسان كم من العنت والإرهاق وقع عليهم حتى اكتملت هذه الهدية . (ص ٤٣٧) ويعلق البيهقي المؤرخ على هذا التصرف بقوله إن أعيان خراسان كتبوا الرسائل إلى ما وراء النهر وأوفدوا رسلهم شاكين لأمراء الترك كي يغروا التركمان بالغزنويين ، وأما الضعفاء من أهل خراسان فقدبثوا الله آلامهم . ولكي يؤكد البيهقي انتقاده لسلوك السلطان في حبه للمال وتقريبه الرؤساء الذين يرهقون الناس بجمع هذا المال ظلما وعدوانا يذكر قصة يحيى البرمكي مع هرون الرشيد حين بعث هذا على بن عيسى إلى

خراسان وما وراء النهر ، فجمع منهما الأموال واشترى هدية لم يقدم أحد مثلها للرشيد(ص٤٤٢)،وأن الفضل بن يحى بالذات لم يقدم مثلها حين كان مكان على ابن عيسى . يقول البيهقى « والتفت هرون الرشيد إلى يحى وسأله أين كانت هذه الأشياء أيام ابنك الفضل ؟فقال يحى :« لقد كانت هذه الأشياء أيام ولاية ابى الفضل فى بيوت أهلها فى مدن العراق وخراسان » . ويذكر البيهقى ويكرر خوف يحى البرمكى من أن يستعين أهل خراسان بالترك . وبعد أن يفرغ من سرد قصة الرشيد والبراكمة يقول إنى أذكرها ومثيلاتها فإنها ذات فوائد .

وكم من مرة سجل البيهقى انتقاده للسلطان لانصرافه إلى اللهو والعبث فى ساعات العسرة . ولم يتردد فى أن يسجل أنه خسر معركة مرو لأنه تعاطى الأفيون فنام ولم يجرؤ أحد على إيقاظه فى الوقت المناسب (ص ٦٦٤) . ولم تخل كتابته عن الوزيرين وعن رئيسه من النقد إذا رأى خطأ منهم أو إذا قدر أنهم عدلوا عما هو أولى .

ومع جسارته فى إبداء رأيه فى أخطاء حكام زمنه فإنه لم يغمط من ينقده منهم حقه إذا كانت له محاسن جديرة بالتنويه ، فهو قد بيّن ، كما سبق ، أن خراسان ضاعت بسبب ظلم سورى وعدوانه ولكنه لا يلبث أن يذكر أن سورى هذا كان كريما فى الصدقات مؤديا للصلوات وأن له آثارا طيبة فى طوس منها التحسينات التى أدخلها على قبر الإمام على بن موسى الرضا ؛ وأنه قد بنى فى نيسابور مصلى لم يبن مثله أحد من الأمراء قبله . ويقرر بعد ذلك أن هذا فى تقديره ليس شيئا بجانب ظلم الضعفاء . وليس حلالا سرقة الخبز من الجار والتصدق به على الجار الآخر ولا أجر على ذلك (ص ٤٣٨) .

وفضلاً عن حوادث التاريخ السياسى فإن الباحث يرى فى كتاب البيهقى بيانا عن العادات والنظم التى كانت شائعة فى العصر الغزنوى . فمن ذلك ما نص

عليه من الاحتفال بالأعياد الإسلامية كعيدى الفطر والأضحى وبالأعياد الفارسية التى كانوا يعيّدونها حتى ذلك الوقت . ومن ذلك عيد المهرجان ، ففيه يجلس السلطان للمعايدة ، وتدور كؤوس الشراب وتقدم الهدايا وفيه يأكلون الدجاج المشوى على السفود والخصى والبيض المسلوق وما يلزم فى المهرجان من المحمرات والسميط ، ويتناولون الطعام على طريقة الاستلات (أى بأصابعهم) ، ثم يعزف العازفون على القيثارة ويغنى المطربون (ص ٥٤١) .

وكذلك كانوا يعيدون عيد السذق ، وهو من الأعياد الفارسية القديمة ، يقول عنه البيرونى[1] إنه فى العاشر من شهر بهمن (يناير — فبراير) وإنه أهم أعياد النار وإن الفرس فى مسائه يتبخرون لطرد السوء حتى صار فى كل رسوم الملوك فى ليلته إبقاء النيران وتأجيجها وإرسال الوحوش فيها وتطيير الطيور فى لهبها والشرب والتلهى حولها . ويصف البيهقى هذا العيد فيقول (ص ٤٧٠—٤٧١) « وكان عيد سده قد اقترب فساقوا إلى الصحراء جمال السلطان وكل جمال الجيش وأخذوا فى جمع حطب الطرفاء ليوم سده ، ثم ساروا وأحضروا عيدان الحطب وألقوها فى صحراء بها نهر كبير مملوء بالثلج فتراكمت وأصبحت كالقلعة وأقاموا عرائس من الخشب وملؤوها بالطرفاء ثم جمعوا أكواما أخرى كثيرة حتى صارت كالجبل ارتفاعا ، وأتوا بكثير من المعدات والطيور وما يلزم ليلة هذا العيد من الحاجيات . ولما حل العيد جلس السلطان فى الليلة الأولى فى مخيم أعد له على شاطىء النهر ، وجاء الندماء والمطربون ، وأشعلوا النار . وسمعت بعد ذلك أن ضياء هذه النار كان يرى على بعد عشرة فراسخ تقريبا وأطلقوا الطيور المبللة بالنفط ، وأطلقت الوحوش التى أحاط

---

(١) الآثار الباقية ص ٢٢٦ — ٢٢٧ . وانظر الترجمة العربية لكتاب كريستنسن « إيران أيام الساسانيين » ليحيى الخشاب ص ١٦٦ .

بها الثلج فكانت تجرى وقد علقت بها النار » . ومن هذه الأعياد عيد « كلوخ انداز[1] » وكان يحتفل به قبل حلول شهر رمضان (ص ٥٣٨) .

ومن العادات التى يذكرها البيهقى ما سماه « هدية تعب الأسنان » فقد كانوا يقدمون للضيف بعد الأكل مالا باسم « مزد دندان » أى مكافأة تعب الأسنان على ما تجشمت من المشقة أثناء الأكل (ص ٣٢٠) . ومن ذلك أيضا « هدية الحمام » (ص ٤٤) .

ويتحدث البيهقى عن نظام السخرة وينص على أنه كان متبعا ، فالعمال يسخرون لإزالة الثلوج من الطريق (ص ٥٨٠) وكذلك استخدمت السخرة فى بناء الجوسق المسعودى (ص ٥٣٧) .

وكان نظام الجاسوسية دقيقاً فى الدولة الغزنوية ، وحين نصح نظام الملك السلاطين السلجوقية باتباع نظام التجسس والمنهين لم يكن عجيبا أن ينهج نهج الغزنويين فى ذلك (الفصلين ١٠ و ١٣ من سياستنامه نشر عباس إقبال) ، فإن البيهقى يبين فى طيات كتابه إلى أى حد كان نظام الجواسيس والمنهين دقيقا أيام مسعود . وهو يحدثنا أن السلطان مسعود قد بث بين الرجالة والسواس اللذين صحبوا رسول الخليفة رجلا من العيون يسير متنكراً لينهى كل مايرى قل أو كثر إلى الحضرة السلطانية ثم يقول : وكان السلطان مسعود آية فى مثل هـذه الأمور (ص ٣٢٤) . وحين يذكر البيهقى قصة الغاشية التى منحها الأمير نصر أخو السلطان محمود أبا القاسم الرازى وكيف أمر البرغشى بإلقاء غاشيته بعد أن صار أبو القاسم من أصحابها ، يقول إن على المنهين والجواسيس مراعاة ذلك وعليهم ألا يخفوا مثل هـذه الأخبار (٣٨١) . وكانوا يستخدمون المنهى المتنكر (ص ٣٨٢) .

---

(١) يقول Steingass فى قاموسه « كلوخ اندازان » عيد فى آخر شهر شعبان .

ويوضح البيهقي أصناف الخلع التي كانت تمنح لكبار رجال الدولة . فخلعة الولاة تتكون من عمامة ذات ركنين ولواء وحلة مطرزة برسم الغزنويين وسرج وكمر من ذهب وثلاثين ثوباً غير مخيطة ، وقد منحت هذه الخلعة للسلاجقة الكبار الثلاثة،داود وطغرل وبيغو(ص٥٢٨)،وخلعة الوزير الكمر والمهد وعشرة غلمان من فرسان الترك ومائة ألف درهم ومائة ثوب(ص٤١٣) وفي خلعة الوزير فيلان ، ذكر وأنثى، والبغل والصقر(ص٦٥١)؛ وخلعة كبير الحجاب العلم واللواء والطبل والكوس والأابسة وحقائب وخرائط الفضة وغيرها (ص ٥٣٤)"[1] .

كما أنه يعطى تفصيلا عن الألقاب ،وقد أفاد من فكرة الألقاب التي شاعت عند الغزنويين نظام الملك في الفصل الذى عقده لها في سياستنامه (فصل ٤١ ، ص ١٨٥ - ١٩٧)، والبيهقي حريص على هذه الألقاب التي تميز أصحابها وتبين مكانتهم وفضلهم ؛ فأحمد عبد الصمد ، حين كان وزيراً لألتونتاش ،لقب بالشيخ وبالعميد وبالمعتمد ، وحين أصبح وزيراًلمسعود لقبه بشيخي ومعتمدى (٣٧٦ و٤١٣) ولقب أبونصر مشكان بالشيخ الجليل السيد (٣٩٦) .

ولقب ابن على تكين بالأمير الفاضل الولد (ص ٤٩٦)؛ ولقب أبو سهل الحمدوى بالشيخ العميد (ص ٤١٣) ؛ ولقب أمراء السلاجقة بلقب دهقان (ص٥٢٨) ؛ وخوطب هرون بن التونتاش بولدىومعتمدى(ص٣٧٦). وحين عرف مسعود أنهم بايعوه بالسلطنة خاطب كبير الحجاب على قريب

---

(١) وخلعة الحجابة قباء أسود وقبعة ذات ركنين ومنطقة من ذهب (ص ٣١٢) ، وخلعة العارض كان منها المنطقة ذات سبعمائة مثقال (ص٣٠٧)، وخلعة إمارة الحج منها المهد وعدة من ذهب وغاشية (ص ٣٧٨) ، وخلعة رياسة نيسابور فيها طيلسان ودراعة (ص ٦٧٢) ، وخلعة سالارية الكرد والعرب كمر من الذهب (ص ٥٣٤) ، وخلعة سالارية الهند طوق مرصع بالجواهر (٥٣٤) .

بالأخ الفاضل الحاجب (ص ٧) ؛ وخاطب التونتاش خوارزمشاه بالعم (ص ٩٠) .

ومن العادات التى يذكرها البيهقى أن البياض كان رسم العزاء وأن الأمير مسعود حين عرف خبر موت أبيه جلس للعزاء مرتديا قباء ورداء وعمامة بيضاء كلها ، وحضر الأعيان والمقدمون وأصناف الجند للعزاء مرتدين البياض ، وقد استمر العزاء ثلاثة أيام (ص ١٤) .

وكذلك يتحدث البيهقى عن طريقة عد الجند ويقول إنهم كانوا يعدونهم بضربات السياط (ص ٥١٦)

ويحدثنا البيهقى عن تقليد حسن كان يسير عليه السلطان محمود ذلك أنه كان يربى رجاله بحيث يستخدمون كتلاميذ قبل أن يلوا مناصب الأستاذية فى المناصب الكبرى (ص٤٨٤) .ويحدثنا البيهقى أن السلطان مسعود ووزيره أحمد حسن الميمندى كانا فى نزاع من أجل تطبيق هذا المبدأ ، فحين خلت وظيفة قائد الهند أشار الوزير باختيار رجل جدير بهذا المنصب الخطير ممن تمرسوا بمثل هذا العمل ومرنوا عليه ، ولكن السلطان كان يميل إلى اختيار أحمد ينالتكين فأشار بأن سابق خدمته مع السلطان محمود ولأنه كان خازنا له ورافقه فى جميع أسفاره يشفع له بأن يشغل المنصب الشاغر (ص ٢٩٣) . وكان الوزير يتشدد فى أن يكون التلميذ الذى يراد رفع مرتبته نابها ؛ ولكن السلطان حين يميل إلى رفع مرتبة أحد التلاميذ كان يقول إن من التلاميذ من يكون خامل الرأى ضعيفا ولكنه حين يصبح أستاذا ويلى المناصب الرفيعة يتغير سلوكه ويصبح جديرا بما أوليه من الثقة (ص ٣٥٦) . والبيهقى ينبه لهذه القاعدة التى يجب احتذاء سياسة

محمود فيها ويقول « إنى أذكر هذه النقاط فى معنى رعاية الرعية عسى أن تفيد » (ص ٤٨٤) . والذى يبدو من كتاب البيهقى أن النزاع بين المحموديين والمسعوديين كان قد بلغ إلى درجة إفساد أمر الدولة ، فإن الأدوات التى يحكم بها السلطان هذا الملك الواسع ينبغى أن يحسن اختيارها وعلى هذا الاختيار يتوقف حسن سير السياسة فى الداخل وفى الخارج وقد بلغت الدولة الغزنوية الذروة فى عهد محمود الغزنوى لأنه أحسن اختيار الأدوات التى أدار بها الدولة · والبيهقى فى مواضع عدة من كتابه يندد بالمحدثين والمتملقين الذين اختارهم مسعود ، ويبرز المحاولات التى يبذلها الوزير ورئيس ديوان الرسائل ليحملا السلطان على العناية باختيار هذه الأدوات التى هى عماد الدولة .

ويستفاد من البيهقى مدى ما كان من صلات المجاملة بين السلطان والخليفة ومدى حرص السلطان على هذه المجاملات فى الجمعة التى خطب فيها باسم الخليفة الجديد القائم بأمر الله · جلس السلطان ومعه رسول الخليفة بعد الصلاة ، فجاء خزنة السلطان ووضعوا تحت المنبر عشرة آلاف دينار فى خمسة أكياس من الحرير نثارا من السلطان للخليفة ، ثم أخذ النثار يتوالى بعد ذلك من الأمراء وأنجال السلطان والأستاذ الرئيس وكبير الحجاب وغيرهم ، وكان الموكلون بجمع النثار يضعون كل هدية فى مكان معد لها وكانوا ينادون باسم المهدين ، اوكان يتجمع من هذا هدايا عظيمة . وبعد ذلك تجمع هذه الهدايا وتحمل إلى الخزانة مارة فى طريقها بالسوق فكان أهله ينثرون كثيراً من الدنانير والدراهم والطرائف المختلفة وكان هذا كله يضم إلى نثار الخليفة . ثم يبين البيهقى الرسم المتبع فى هدية الدولة للخليفة ، وقد سأل السلطان وزيره عن ذلك فقال إن الرسم جرى على أن يرسل للخليفة عشرون ألف منّ من النيلج ، وكل ما جمع من النثار فى يوم الخطبة ، ثم يضاف إلى هذا ما يأمر به السلطان . وكان مسعود يطلب تفويضاً من الخليفة لحكم خراسان وخوارزم وغيرهما ، كما كان

يطلب إليه أن يقطع صلته بخانات تركستان ، ولذلك سخا فى هدية الخليفة ، فأمر بأن يضاف إليها مائة حلة ثمينة من شتى الأنواع بينها عشر منسوجة بالذهب ، وخمسون حقة من المسك ، ومائة شمامة من الكافور ، ومائتا شارة مقصبة ، وخمسون سيفاً هندياً ، وكأس من ذهب يزن ألف مثقال مملوء باللؤلؤ ، وعشر قطع من الياقوت ، وعشرون قطعة نفيسة من لعل بدخشان وعشرة خيول ختلية بسروج وبراقع من ديباج ، وخمسة غلمان أتراك . وأهدوا إلى رسول الخليفة خلعة مما يخلع على الفقهاء . كما أهداه الوزير هدية قيمة ومنحوه فوق ذلك مائة ألف درهم (ص٣٢٢ وما بعدها) .

وكما كان السلطان يبعث إلى الخليفة بجميع ما قدم إليه من الهدايا يوم الخطبة ، فكذلك كان الوزير يبعث إلى السلطان بجميع ما يهديه إليه الأفراد حين يلى الوزارة .

ومن الطريف أن البيهقى يتحدث عن رجلين كان لهما شأن فى الدولة الغزنوية ، هما حسنك وبكتغدى ويقول إنهما كانا أميين لا يقرآن ولا يكتبان ، وكان أولهما وزيراً لمحمود وكان الثانى من أعظم قواد مسعود (ص ٣٢٢) . ونكتفى بهذا القدر من التقاليد السياسية والاجتماعية التى تستفاد من نص البيهقى .

(٣)

ويصور لنا البيهقى الأمير مسعود ثم السلطان مسعود فيما بعد صورة كاملة قل أن نظفر بها عن حاكم من حكام المسلمين . كان لمحمود الغزنوى ولدان فى سن واحدة ، مما يبين أنهما من أمين ، وهما مسعود ومحمد . وكان يؤثر ولده الأول واختاره ولياً لعهده . وينقل البيهقى مقامة عبد الغفار فى معنى ولاية العهد ، وفيها يبين كيف كانت تربية الأمراء عامة وتربية ولى العهد منهم خاصة .

وقد ترك محمود ولديه ومعهما أخوه الصغير يوسف فى رعاية جد الخواجة عبد الغفار ومعهم ريحان الخادم وحاشية ممن يوثق بهم فى القيام بخدمة أبناء السلطان ، وقد شاركت زوج جد عبد الغفار فى تنشئة هؤلاء الأمراء الثلاثة وهى سيدة تعرف القراءة والكتابة وتحفظ القرآن وتلم بعلم الحديث وتعبر الرؤى. وكانت مع هذا كله تجيد الطهى وتختص بألوان منه مما حببها إلى الأمراء الثلاثة . وكان سالمى ، من المؤدبين ، يقوم بتعليمهم . وقد حظى مسعود ، لأنه ولى عهد أبيه ، بمكانة خاصة فى هذه الفترة ، وكان عمره أربعة عشر عاما . فقد كان أولاد ريحان الخادم يقدمون الأمير فى الاجتماعات ، ففى مباريات ألعاب الصولجان كانوا يجلسون مسعود فى الصدر ثم يحضرون محمدا ويجلسونه إلى يمينه على أن تكون ركبتاه فى خارج الصدر ويأتون بالأمير يوسف ويجلسونه خارج الصدر إلى اليسار [1] . وهكذا كان مسعود يشعر منذ صباه بأنه أفضل من أخيه وأكثر حظوة عند أبيه وأنه يعد إعداداً خاصاً ليكون سلطانا على هذا الملك الواسع الذى تظله الدولة الغزنوية . وحين شب مسعود وأصبح قادراً على أن يقوم بحملات فى الغزو اختاره أبوه لكثير من هذه الحملات فكان له فضل كبير وأثر ملموس فى ازدياد الرقعة التى تحكمها الدولة . وبدأت الشيخوخة تدب فى جسد محمود وبدأ يحس بأن ابنه مسعود يزداد مكانة بفضل ما يبديه من الشجاعة والجرأة فى غزواته ، وأخذ عملاء السوء يبذرون بذور الفتنة بين الوالد وولده ، فأخذ محمود يتتبع عثراته ويبعث إليه الجواسيس والعيون ليعرف هذه السقطات ويلومه عليها عسى أن تكون سبباً فى أن يعلن غضبه عليه وعزله عن ولاية العهد. وكان مسعود كثير العبث فى صباه ، فقد أعد لنفسه ملهى فى الجوسق العدنانى يلهو فيه مع ندمائه وقيانه ، وعبثا حاول الجاسوس

---

(١) البيهقى ، ص ١١٥ — ١١٦

الذى كان يعد عليه أنفاسه من قبل أبيه أن يعرف مكان هذا الملهى من القصر، ولكن عيون السلطان محمود المنبثين بين خدم الأمير قد نقلوا إلى السلطان ما يجرى فى هذا الملهى وما على جدرانه من صور . فبادر هذا بإرسال فارس يفاجىء مسعود وهو فى لهوه ويتحقق من حقيقة ما نقل إليه عن سلوكه . ولكن مسعود كان حذرا ، وكان له بين حاشية أبيه وخدمه ، عيون تنقل إليه كل ما يجول فى القصر من دسائس تحاك له ، وكانت أخت محمود ، الحرة الختلية ، تحب مسعود وتبعث له بكل ما يصل إلى علمها مما ينبغى أن يعرفه .

وهكذا عرف مسعود بتدبير أمر الفارس فأمر بمحو ما على جدران الملهى من الصور وما فيه من أدوات اللهو والطرب ، وجاء الفارس ودخل إلى حيث أمر أن يدخل فلم يجد شيئاً . وعاد إلى محمود مقرراً كذب ما قال أهل السوء عن ولده ، فأدرك أنه أخطأ وقال إنهم يلفقون ضد ولدى الأكاذيب ، وكف بعد ذلك عن النظر أو البحث فى مثل هذه الأمور[1] . ولكن محمود رغب عن ولده مسعود فى آخر حياته وأساء الظن به ، ومسعود نفسه يقول : ولم تكن هذه الظاهرة خاصة به وحده بل هى تظهر عادة فى أواخر أيام الملوك بالنسبة إلى ولاة العهد ليقينهم أن هؤلاء سيحلون محلهم[2] . وحاول غلمان مسعود وأعوانه أن يعزلوا أباه وأن ينصبوا أميرهم ولكن هذا رفض أن يمس أحد أباه بسوء وطلب إلى المخلصين من أعوانه أن يفوا بعهدهم له بعد أن يموت أبوه[3] .

ويشتد غضب أبيه عليه ويتمادى فى الإساءة إليه ويعمد إلى إيثار محمد إلى حد أن يغير خطبة ابنة الأمير يوسف التى كانت باسم مسعود ويجعلها باسم محمد بعد أن توفيت أختها التى كانت خطيبته .

---

(١) البيهقى ، ص ١٢٦ وما بعدها . (٢) ص ٨٠ (٣) ص ١٤٢

ويمر مسعود على هذا مرور الكرام ولكن نفسه كانت مليئة بالحقد وبشهوة الانتقام لا من أبيه الشيخ المريض ولكن من هؤلاء الذين زينوا لأبيه هذا التصرف وأمثاله . وقد كظم غيظه إلى أن واتته الفرصة بعد موت أبيه فلم يتوان عن الانتقام من المحموديين ، وآثر هذا الانتقام على مصلحة الدولة نفسها .

وبعد موت محمود وتولية مسعود كشف هذا أمر الرقاع التي بعثها أبوه إلى الملوك والحكام والتي تضمنت عزل ولده عن ولاية العهد لأنه ولد عاق. وحين طلب الزوزني حفظ هذه الرقاع ليطلع عليها الناس وليقتص من كاتبها رفض مسعود طلبه وقال إنه إذا جفانا مرة في آخر حياته لغاية في نفسه فينبغي أن ننظر إلى آلاف من النعم أحاطنا بها ، وإلى زلات كثيرة لنا تجاوز عنها ، وصاح في وجه الزوزني أن « عقمت النساء أن يلدن مثل محمود » ، وأما كاتب الرقاع فمعذور لأنه مأمور ولا حيلة للمأمور سوى الطاعة . ثم أمر بالرقاع فألقيت في الكظائم[1] .

وقد مارس مسعود في صباه أنواع الرياضة وشغف منها بالصيد وقد أفاده هذا كثيرا في تسامحه مع من هم أضعف منه وصبره على الشدائد وتجلده في ساعة العسرة ، كما أنها أكسبته اعتزازاً شديداً بقوته وثقته في أن النصر سيكون له في كل معركة يخوضها . ويروى عنه البيهقي ، نقلا عن الخواجة عبد الغفار ، أنه مارس أيام صباه وصدر شبابه المصارعة وحمل الأحجار الثقيلة والمبارزة . وأنه كان يمارس الصيد في البرد القارص وعلى الثلج متحملا في هذا من المشقة مالا يحتمله غير الحجر الصلد ، وكان يقول : ينبغي أن يتعود المرء على مثل هذا حتى لا يعجز إذا ما قابلته صعاب أو ساعات شداد . ويصف عبد الغفار

---

(١) الكظائم هي الكلمة العربية لكهريز .

صيده للأسود ومغالبته لها بيديه ومصارعته إياها وهو على ظهر الفيل. ويروى قصة قتله لثمانية أسود دفعة واحدة ، الأمر الذى دعا أبا سهل الزوزنى أن يكتب القصيدة التى يقول فيها :

من كان يصطاد فى ركض ثمانية   من الضراغم هانت عنده البشر [1]

وبجانب هذا كان مسعود صاحب فن رفيع ، وإن رسمه للجوسق المسعودى وإشرافه على بنائه ثم الصفة التى شيدت فى هذا القصر ، مما حمل البيهقى على القول بأنه كان آية فى الفن المعمارى ، كل هذا يبين ما كان عليه هذا السلطان من الذوق الرفيع والإحساس الفنى (٥٣٧ ، ٥٨٧) .

والحق أن هذه الرياضة وهذا الذوق أكسبا مسعود كثيراً من المزايا ولو صاحب هذه ثقة فى ناصحيه ودقة فى اختيار أعوانه وتحرز قليل فى الاعتداد بنفسه وترفق بالمحموديين المخلصين لاتخذ تاريخه لونا آخر ولاستمر عهد أبيه فى التوسع فى الفتح بدلا من النقصان الذى اعترى الدولة فى عهده .

اتصل أبو سهل الزوزنى بمسعود اتصالا وثيقا . لأنه أوذى من أجله إبان ولايته للعهد ، فلما ولى مسعود السلطنة كافأه بأن عينه عارضاً . وجعله فى مقام الوزير ، فكان يأخذ رأيه فى شتى ما يعرض من أمور الدولة فى عهدها الجديد. وكان أبو سهل يوجه السلطان حيثما يريد . وأبو سهل من رجال الدولة الذين يضل تفكيرهم إذا ما تعلق الأمر بخصم له . وقد وضع نصب عينيه أن يقضى على رجال السلطان محمود وأن ينكل بكل من يستطع التنكيل به منهم ، بل إنه تمادى فى حقده على أقرانه فأساء إليهم جميعاً عدا الميمندى فقد كان يخشى بأسه

---

(١) ص ١٣٠ وما بعدها .

ويهابه . وسيطر هذا الميل إلى الانتقام من المحموديين على سياسة الدولة فى العهد الأول لحكم مسعود .

وأهم مظاهر هذه السياسة تبدو فى خمس حوادث : ١ — اعتقال على قريب وأخيه منكيتراك — ٢ — محاولة القبض على التونتاش — ٣ — قتل حسنك — ٤ — اعتقال عم السلطان — ٥ — استرداد مامنح من صلات فى عهد السلطان محمد .

وقد بدأ هذا الطابع فى معاملة على قريب وأخيه منكيتراك . وكان على هذا يعرف مصيره بعد استدعائه إلى هراة وقد قال لأبى نصر : يجب أن تعلم أن الأمور قد تحولت إلى وجهة أخرى ، فإنك عند بلوغك هراة سوف تعتريك الحيرة فى أمرك ، ستشاهد عيانا قوماً حديثى النعمة قد آلت إليهم الأمور حتى أصبح أصحاب محمود فى حكم الخونة والغرباء ، ولا غرو فإن أبا سهل الزوزنى قد أصبح المرجع الأول فى كل أمر .. وستسير الأحوال مع السلطان مسعود على هذا المنوال مالم يستح وإلا فأنتم على شفا جرف هار[١] . وحين التقى على قريب بالسلطان وكان التونتاش فى حضرته ، أراد هذا أن يسدى النصح بعدما أحس بما يدبر للمحموديين فقال للسلطان : إن فى الخدمة كثيرين من حديثى العهد الجديرين بالثقة وسيلحق بهم آخرون ، وفى الحضرة الآن كذلك نفر من المعمرين الذين شاخوا فى خدمة السلطان محمود ، فإذا أبقاهم السلطان فى خدمته فذلك أمر حكيم ، لكيلا يتشفى فيهم أعداؤهم ، فإن الشيوخ زينة الملك[٢] . ولكن لم يكد التونتاش يخرج من الحضرة حتى قبضوا على علىّ ثم على أخيه منكيتراك . ولم يقدم السلطان على هذه الخطوة فى قوة وصراحة ولكنه استخدم المكر والغدر . كان يتلذذ بهذا الأسلوب الخادع فى

---

(١) ص ٥٢ — ٥٣ . (٢) ص ٥٥ — ٥٦ .

معاملة رجال أبيه ورجاله . يروى البيهقى أن منكيتراك استأذن السلطان فى أن يستضيف أخاه ، فهش السلطان إلى سؤاله وأمر بأن يهيء خدمه وليمة على قريب فى بيت أخيه . وخرج منكيتراك ليرى أخاه مصفدا بالأغلال وليرى نفسه وقد أخذوه فغلوه وساروا بهما إلى حيث لا يعرف أحد .

وأدرك التونتاش أن البداية لا تبشر بالخير وأن القيم سينهار نظامها وأن الخير فى أن يبادر بالسفر إلى خوارزم حيث يعيش كما يعيش السلطان مسعود نفسه وهناك يكون فى مأمن من الغدر الذى حل بعلى قريب وأخيه . وقد أسر برأيه لرئيس ديوان الرسائل : إن السلطان رجل عظيم ولكن الذين أحاطوا به يعد كل واحد منهم نفسه وزيراً ، وهو يسمع لهم ويعمل بقولهم فيزينون له الباطل ويصدونه عن الحق ، وإنهم سيهدمون بدسائسهم هذا الصرح المشيد[1] . وتوسط أبو نصر فى توضيح السياسة التى يجب أن تتبع واستمع إليه السلطان وقال له إنهم لا يريدون أن تسير الأمور فى مجراها السليم بوشاياتهم ، وأمر بكتابة رسالة إلى التونتاش حتى يعود ، ولكن هذا يدرك ما انطوت عليه نفس مسعود من الغدر فلا يذعن لطلبه ويسير كى يبقى آمناً فى خوارزم ويتعهد بألا يخرج عليه ، وبأن يمده بمن يشاء من الجند ، وأن ينفر للقتال حيثما يوجهه . ولم تقف دسائس الزوزنى عند هذا الحد بالنسبة لألتونتاش فقد وجه لمنجوق كتاباً بإمضاء السلطان لقتل التونتاش ؛ فملء منجوق غروراً وتطاول على التونتاش ولكن وزيره أحمد عبد الصمد فطن إلى القصد من هذا التطاول فأمر بإقصائه ووكل به رجاله حتى قضوا عليه . وافتضح أمر كتاب السلطان . ولولا حرص الوزيرين ، الميمندى وزير مسعود وعبد الصمد وزير التونتاش ، وهما أعظم رجلين فى العهد المسعودى ، لخرج التونتاش على الدولة وافتقدت الدولة بخروجه أخلص .

---

(١) ص ٨٦ وما بعدها .

الرجال لها . وبين الميمندى الوزير للسلطان سوء النصح الذى أداه الزوزنى ومدى ماترتب عليه من الحـــرج ، ولـكن السلطان أسرع بالاعتذار بأنه كان مخمورا حين وقع الـكتاب لمنجوق . ولم يتعظ من سياسة السير وراء الزوزنى .

لم يكن الزوزنى قدقنع بما حطم من قيم وما ظلم من رجال فإنه كان متعطشاً لدم حسنك وزير محمود . وهو ينتهز فرصة شعور مسعود نحو هذا الوزير حين كان يحبذ غضب السلطان محمود عليه . وهو ينتهز فرصة وجود الميمندى الذى كان وزيرا لمحمود ثم عزل وحبس فى قلعة بالهند فى الوقت الذى رقى فيه حسنك إلى منصب الوزارة . ولـكن الميمندى يعلن أنه قد عاهد الله وهو فى محبسه على ألا يتسبب فى إراقة دم أحد وأنه لا يعلم عن سلوك حسنك شيئا يستحق أن يعزر من أجله . والسلطان نفسه يعلن أنه يعفو عن هفوات حسنك وأنه لا يريد سفك دمه . فيلجأ الزوزنى إلى القول بأن حسنك قرمطى وأن الخليفة طلب رجمه وأنه قطع صلته بالسلطان محمود من أجله ، ويتأثر مسعود بهذه الدسيسة ويرتضى سياسة الزوزنى قبل حسنك ، ويبعث لحسنك يذكره بقوله « حين تصبح سلطانا اصلبنى » ويبذل الوزير ويبذل رئيس ديوان الرسائل كل ما فى الوسع لإثناء الزوزنى عن قتل حسنك ولـكن بلا جدوى . ويتجمع الناس حول المشنقة التى أعدت ليشد إليها ويطلب الزوزنى من النـــاس أن يرجموه ولـكنهم يصيحون باكين ساخطين ولا تجرؤ يد على الإمساك بحجر لتلقى به فى وجه حسنك ، ويخاف الزوزنى أن تفلت منه الفرصة فيوعز إلى جمـــاعة من السوقة برجم حسنك ولـكن الجندى المـكلف بالوقوف عليه يأبى أن يقتل الوزير رجماً بالحجارة من السوقة فيقتله شنقا . ويعلو نحيب الناس وصياحهم ويشتد سخطهم وتبدو خيبة أملهم فى العهد المسعودى الجديد . ويعرف الوزير ورئيس ديوان الرسائل ما تم فى

الصباح فلا يتناولان إفطاريهما حزنا ، ويسير فى الناس حديث أم حسنك حين رأت جثة ابنها وقد قطعت رأسه فقالت : « ياله من رجل عظيم ولدى يمنحه ملك كمحمود عالم الدنيا فيمنحه ملك كمسعود عالم الآخرة » ، ويشيع بين الناس قول أسماء بنت أبى بكر حين رأت جثة ولدها عبد الله بن الزبير معلقة فوق المشنقة : « أما آن الوقت لينزل هذا الفارس عن جواده[1] » . وأدرك مسعود حقيقة كل ماحدث ، وكان له غير الوزير ورئيس الديوان ، عيون تنقل إليه كل مايجرى فى دولته ، ولكنه لم يستطع أن يتخلص من تأثير الزوزنى فيه ولم يستطع أن يوقف أطماع هذا الرجل ، فى إشفاء غله من المحموديين .

ونالت هذه السياسة الهـــدامة أسرة السلطان نفسها ، فاعتقل عم السلطان وسيق إلى القلعة[2] . وقتل رجلان من أعظم قادة الدولة هما أريارق والغازى .

والحادثة الخامسة التى تميز هذه الفترة من حكم مسعود هى اتباع رأى الزوزنى فى استرداد مامنح للناس من أموال البيعة والصلات إبان الفترة القصيرة التى حكمها السلطان محمد ، وذلك أنه من الحيف أن يبذل من أجل أمر لم يتم أكثر من ثمانين ألف ألف درهم للأتراك والأعراب وأصناف الجند . وقد زين الزوزنى وأتباعه هذا الأمر للسلطان وقالوا : إن المحموديين لخداعهم وريائهم لايرغبون أن يسترد السلطان هذه الأموال . وطلب أبو سهل من مسعود أن يطلب من القائمين على الخزائن قوائم بما أنفق من مصروفات وأن ترسل هذه القوائم إلى ديوان العرض ، الذى هو رئيسه ، كى يحيل مرتبات الجند بعضهم إلى بعض بطريقة التسبيب[3] ، وليوزع البراءات كى تستوفى هذه

---

(١) ص ١٩٢ وما بعدها .   (٢) ٢٧٠ ومابعدها .
(٣) أنظر صفحة ٢٨٢ حاشية ١ لشرح هذا الاصطلاح .

الأموال على ألا تصرف نفقات الجند من الخزانة مدة عام حتى يتم ذلك . واعترض الوزير بشدة على هذا وشاركه رئيس ديوان الرسائل الذى رد كل ما أخذ أيام السلطان محمد . ووقع على الناس مظالم كثيرة وساءت سمعة السلطان ولكنه لم يرعــو ، وكان لخجله من هذا التصرف يلقى مسؤليته على الوزير والعارض . والوزير من هذا الوزر برىء . وبعد أن أحسن أهل غزنة استقبال السلطان امتلأت قلوبهم حسرة وألما . وفى الفترة التى كان الجند يتقاضون مرتباتهم قهرا بجمع ماكان الناس قد أخذوه أيام محمد ، وبينما المظالم تقع على الصغير والكبير ، كان مسعود ، كعادته فى مثل هذه الملمات ، يمارس الصيد خارج المدينة[1] .

(٤)

وأخذ مسعود بعد هذا يدبر شئون مملكته الواسعة، وعرضت أسماء بعض كبار المحموديين لشغل المناصب الكبيرة ولكن السلطان رفض اختيار أحدهم. وتحددت صلة الدولة بخان ماوراء النهر ، كما تم العهد مع خان كشغر . وبعد ذلك قر فى نفس السلطان وجوب التخلص من أبى سهل الزوزنى لما جره على الدولة وعليه من الويلات ، فأمر بمصادرة أمواله ثم قبض عليه وسيق إلى قلعة كوهتيز . وكان لهذا التصرف أثره الحميد فى استرضاء ألتونتاش الذى كان يخشى أن ينضم إلى على تكين خان ماوراء النهر . وهكذا تخلص البلاط المسعودى من مستشار السوء. ويستشهد بعد ذلك التونتاش فى حربه مع على تكين بأمر مسعود. ولا يلبث مسعود أن يفقد وزيره الخواجة أحمد حسن الميمندى . وكانت شخصية أحمد عبد الصمد وزير التونتاش فى خوارزم ماثلة فى أذهان رجال البلاط وعند السلطان نفسه ، فالرسائل التى كانت تصدر

---

(١) ص ٢٨١ ومابعدها .

باسم التونتاش والتى تمثل الحنكة السياسية والدراية التامة بما يجرى فى الدولة والدقة فى التحرير والأسلوب ثم الاتجاه القويم الذى امتاز به عهد التونتاش والذى يرجع الفضل فيه إلى وزيره ، ثم ما كان من هذا فى الحرب التى قتل فيها التونتاش مما يدل على أنه رجل يجمع حقاً بين الرأى والسيف ، كل هذا جعل اسم عبد الصمد يبرز بين الأسمـــاء اللامعة الأخرى التى ذكرت حين فكر مسعود فى اختيار الوزير . وفى الفترة العصيبة التى اجتازها العهد المسعودى ، هذه الفترة التى بدأ السلاجقة فيها التفكير فى إقامة دولة ، كان دور عبد الصمد دور صاحب الرأى السديد ، ولو أنه لا رأى لمن لا يطاع ، فقد طغى استبداد مسعود على سداد رأى وزيره .

فى هذه الفترة كانت الفتن قائمة فى أرجاء الدولة . فالخلاف على أشده بين أحمد ينا لتكين والقاضى فى الهند وكان ينا لتكين يعمل بوصية الميمندى منذ سار إلى هناك ، فقد كان الوزير حاقداً على القاضى لأن السلطان محمود كان يشيد بكفاءته وجدارته بالوزارة مما يهوّن شأن الميمندى ، وطغت الخصومة بين الرجلين على مصلحة الدولة . وسار القائد فى الغزو إلى بلاد لم يفتحها أحد من المسلمين من قبله . وأشيع عنه أنه ينزع إلى الاستقلال عن الدولة ، ولم يكن بد من حربه وهزيمته .

وفى خوارزم يقع النزاع بين هرون بن التونتاش وعبدالجبار ابن الوزير أحمد عبد الصمد ، ويعمل هرون ورجاله على إبعاد عبد الجبار ، وهو لا يفعل هذا كرها منه لعبد الجبار وحده إنما يضيق صدره بمسعود وبدولته أيضاً ولذلك فإنه يتفق مع السلاجقة على أن يسير معهم من مرو ويفتح معهم خراسان . ويدبر عبد الصمد الخطة مع ولده لكى يغتال هرون ، ولكن عبد الجبار يقتل بعده بقليل ، ويلى خوارزم خندان بن ألتونتاش فيعلن خروجه على مسعود ويمنع اسمه

من الخطبة ثم يستقبل مبعوثين من قبل السلاجقة ليتفق معهم ضد الدولة الغزنوية .

وفيما وراء النهر كان على تكين خصما وبالرغم من أنه لم يكن شديد المراس إلا أنه خصم وليس بصديق . فقد كان يأمل أن يمكنه السلطان محمود من الاستيلاء على جزء من تركستان فى مقابل ولائه له ، ولكن محمود لم يبلغه مأربه وجاء مسعود فلم يلتفت إلى نية على تكين وتسرع فى الكتابة إليه كى يعينه فى الاستئثار بالملك دون أخيه محمد ووعده بأن يمنح أحد أبنائه إقليما عظيما إذا أعانه فى حربه ضد أخيه . وكانت هذه زلة من مسعود فإن على تكين لم يعاونه فى شىء وتم له عزل أخيه وارتقاؤه العرش دون قتال ومع هذا فإنه حمل مسعود على أن يبعث التونتاش لقتاله فهزمه، ثم إنه ذهب سرا وفى خبث ، بعد وفاة ألتونتاش خوارزمشاه ، وأغار على الصغانيين وانتهب منهم أموالا طائلة. وبموت على تكين يؤول أمر ملكه إلى ولديه وهما فى سن الشباب ، وقد حاولا التمرد ولكنهما أدركا أن مقاتلة جند السلطان ليست هينة وبعثا يعتذران عن خطئهما . وأدرك الوزير أحمد عبد الصمد أن من الخير استرضاءهما وأن على السلطان أن يقبل التصالح معهما وأن ما عملاه شىء والنية شىء آخر . وانتهى الأمر معهما على أن تخطب أخت إيلك للأمير سعيد وأن تخطب بنت عم السلطان إلى إيلك وأن يكتب لأرسلان خان، خان تركستان ، بأن الأسرتين الغزنوية والتكينية قد أصبحتا أسرة واحدة. وحين آل الأمر لبورتكين بن إيلك خرج هذا على مسعود وانضم إلى السلاجقة ، وعبثا حاول مسعود أن يسترضيه .

وفى تركستان كانت الصلة مع قدرخان طيبة وكان مسعود يقدره ويرعى

صداقته ، ولكن الأمر فيها آل إلى ولديه ولم يكونا متحابين . وكانت السلطة في الظاهر بيد أرسلان . وقد بدأ صديقين لهرون بن ألتونتاش الذى دفعهما إلى الاستيلاء على ترمذ ولكنهما غلبا . وسعى الوزير إلى إقامة الصلات الودية معهما ؛ وخطبت بنت قدرخان لمسعود ، وخطبت بنت أرسلان خان لمودود ابنه . ولكن الولد الثانى لقدر خان ، بغراتكين،كان مغيظاً فإنه كان قد خطب زينب بنت السلطان محمود ولكن هذا تغاضى عن إتمام الزواج ،فأعاد طلبه لمسعود الذى كتب لأرسلان شاكيا تطاول أخيه فى أمر الميراث وفى لباقة رد الرسل الذين جاءوا لطلب زينب .ولم يكن بغراتكين هيناً، فهو الذى ربى طغرل وهو الذى يستطيع نصحه وتوجيهه لحمله حقده على مسعود وحرصه على الانتقام منه على أن يكتب إلى طغرل بأنه سوف يمده بعون من رجاله إذا هاجم السلطان . وضبطت رسالته ونصح أبو نصر مشكان بألا تفضح حفظاً للصلات الطيبة مع أرسلان خان . ولكن ضبط الرسالة لم يحل دون التأييد الذى لقيه السلاجقة من هذه الأسرة .

وفى طخارستان وختلان قامت فتنة ذهب أحمد عبد الصمد الوزير لإخمادها ونجح .

أما الرى والجبال فأهلهما لايحبون الخراسانيين، والرى موضوع الدسائس والفتن ، وقد دبر ابن كاكو الأمر للاستيلاء عليها وقد نصح الحمدوى السلطان بأن يتوجه الأمير سعيد إلى إصفهان ـوكان أول طلب للخليفةمن مسعود قبل أن يلى العرش هو الشفاعة لتعاد إصفهان إلى ابن كاكو ـ التى تقطع لابن كاكو، ولكنه قرر أنه لايتحمل مسؤلية ذهاب الأمير إلى الرى . وكان ابن كاكو يستعين كثيراً بجند من التركمان ،

هذا ولم يكن أقارب السلطان مسعود والموتورون من المحموديين ومن يحقدون على مسعود من رجاله المعزولين ، كل هؤلاء لم يكونوا أقل خطرا من أعدائه ، وقد انضموا إلى السلاجقة وعملوا فى طليعة جيوشهم إثباتا لإخلاصهم لهم .

(٥)

استعان السلطان محمود بالتركمان ، كاستعانته بالطوائف الأخرى ، فى جيشه . وفى غزواته للهند وللعراق العجمى كانت فرقة التركمان تحارب فى قوة ضمن جيشه . وفى خوارزم كان التونتاش يسمح للتركمان بالإقامة فترة من السنة . والتركمان قبائل تركية تتجمع حول رئيسها وتفعل مايمليه هذا الرئيس ، وهم جند مأجورون يحاربون فى جيش من يدفع لهم الأجور . ولكنهم يمتازون عن سائر الجند المرتزقة بالجرأة فى القتال والاعتزاز بالنفس وبالكبرياء والاستقلال فى الفكر ، وهم كالبدو الرحل يميلون إلى النهب والسلب وليس من اليسير السيطرة عليهم [١] . اضطر السلطان محمود ، لما رأى من طغيانهم ، أن يلقى بهم بحد السيف من بلخان كوه . ولكن السلطان مسعود استعان بهم ليزيد عدد جنده ، فقدموا وعلى رأسهم ثلاثة من مقدميهم ، قزل وبوقة وكوكتاش فأدوا بعض المهام ، ثم انقلبوا إلى سيرتهم الأولى من النهب والسلب ، وكانوا قد ذاقوا حلاوة غنائم خراسان . وآل الأمر إلى أن قبض على قائد عظيم كتاش فراش وضاعت نواحى الرى والجبال بسعيهم ولم ينصرفوا عنها إلا بعد جهد عنيف [٢] . وفجأة عرف أهل بلاط السلطان مسعود فى دهشة وحيرة وذعر أن هؤلاء الرعاة حداة الإبل الذين كانوا يستهينون بهم

---

(١) Kazimirsky ص ٩٨ مقدمة ديوان منوچهرى

(٢) البيهقى ص ٦٨

كما كان الفرس يستهينون بالعرب أيام الساسانيين أصبحوا يكونون قوة واحدة تعترف بالقيادة لثلاثة من زعمائهم هم طغرل وبيغو وداود [1] .

وقد اتبع السلطان سياسة غير رشيدة مع هؤلاء القوم ؛ فقد أمر بالقبض على تراكمة هراة وترحيلهم إلى غزنة ، ولم تكن هذه الخطة لترضى أحداً من أهل الرأى ، فلم يكن يسيرا أن يقبض على أكثر من ثلاثة آلاف رجل ومعهم نساؤهم وأطفالهم وأمتعتهم . ولم يكن يسيرا إخفاء هذا الأمر على بقية التركمان فى الدولة وعلى حدودها ، فتركمان الرى سوف يثورون وتركمان بلخان كوه سوف ينتصرون لإخوانهم ، وقد عرف التركمان مايدبر لهم فذعروا وجاءوا من الرى إلى خراسان وأفسدوا فى الأرض كثيراً . وحار رجال الدولة فى نتيجة هذا التصرف . ويتحدث أبو نصر مشكان عن هذا السلطان المستبد برأيه عن غير روية وعن المصير الذى لا يدرى أحد ماذا يكون . واستمر طغيان السلاجقة وقاومتهم الدولة الغزنوية ، حسب تفكير سلطانها مسعود ، وبلغ الأمر إلى حد أن كتب السلاجقة رسالة إلى سورى يطلبون المزيد من البلاد برضا من السلطان وأصبحت الجماعة المأجورة قوة تملى شروطها ، ولكنهم استخدموا اللباقة فى أسلوبهم ، ولو قوبلت قوة السلاجقة حينذاك بقوة يسندها الرأى السليم لقضى عليهم ولكن شتان بين الفريقين فى هذه الحرب . لقد كان السلاجقة خفافا لا تعوقهم مؤنهم عن الحركة ولا يرتبطون بهذه المؤن وكانوا مطيعين لقوادهم الثلاثة لا يخالفون لهم رأى ، وهؤلاء الثلاثة كانوا يتشاورون فى كل مايصدرون من أمر . أما الغزنويون فكانوا امترفين بجنودهم ينفرون إلى الحرب

---

(١) مقدمة ديوان منوجهرى ، ص ٩٨ .

وعليهم من الملابس والدروع مايعوق حركاتهم بسرعة، وكانوا مرتبطين ارتباطاً شديداً بما معهم من المتاع، وأما قادتهم فقد كانوا مسيرين للحرب برأى السلطان لا بآرائهم ،ولم تكن آراء السلطان تصدر عن روية وتدبير إنما كان الاستبداد يسيطر عليها، ففى حرب بعث بكتغدى ، القائد الشيخ المجرب ، وبعث معه عشرة من القادة ، وعبثاً حاول أهل الرأى أن يبينوا للسلطان ماينجم عن تعدد القادة من أضرار ، وفى حرب أخرى تدخلت الدسائس ضد قائد آخر عظيم، سباشى،لكى يحملوه حملا على شن حرب ضد السلاجقة :وحاول هذا القائد أن يبين أن الخير فى التريث ؛وسواء كان متردداً أو كان حذراً فإنه لم يقدم على الحرب إلابعد أن كتب له السلطان بخط يده يأمره بذلك ،ولم ينج هذا القائد من النمامين من رجال السلطان فاتهموه بالتهاون فى بدء الحرب لأنه يتاجر فى علف الجيش،واتهموه بأنه يعيش منغمساً فى اللهو مع الحسان التركيات وأنهن يشغلنه عن أداء واجبه ، ولم يكن هذا كله إلا عن سوء التوفيق الذى حمل السلطان على أن يختار رجالا متنافرين متحاسدين للمناصب العليا فى الدولة ، وسباشى هذا الذى كان مغضوباً عليه من مسعود والذى كان يجرحه رجال البلاط هو الذى كان السلاجقة يخشون بأسه ويرهبون لقاءه وكانوا يسمونه سباشى الساحر . وكان مسعود شديد الاعتداد بنفسه ، وفى الحروب التى خاضها ضد السلاجقة وهو على رأس جيشه كان يهزمهم لما له من الهيبة فى نفوس جنده ولما جبل عليه من الشجاعة والصبر ، ولكنه مع هذه الميزة الهامة فى القائد لم يكن يعرف هدفاً واحداً يسير إليه ،فكان بعد هزيمة العدو فى المعركة ينصرف دون أن يفكر فى إمكان عودة العدو . هزم جيش السلاجقة فى سرخس ولكنهم عادوا وكروا على الجيش السلطانى وكانت هزيمة نكراء لهذا الجيش . وبادر الوزير أحمد عبد الصمد بالكتابة إلى السلاجقة وكان يريد أن يجرب

السياسة معهم وأن يستغل استعداد السلطان لقبول رأيه وماتراءى إليه من عيونه من أن السلاجقة فى رعب من جيش السلطان رغم أنهم غلبوه ، واستطاع أحمد عبد الصمد أن يهدىء القتال فترة ، ولكن السلطان لم يترك له حرية التصرف ولم يكن يميل إلى المهادنة .

فى هذا الوقت مات أبو نصر مشكان رئيس ديوان الرسائل ، وقد سجل البيهقى مدى ما كان فى نفسه من المرارة قبيل وفاته ومدى ما كان عليه من القلق للمستقبل المظلم لدولة مسعود . وأقام السلطان مكانه أبا سهل الزوزنى الذى كان قد عزله وجرده من أمواله واعتقله فى قلعة كوهتيز . وعاد الزوزنى وعاد معه التطرف فى خصومة المحموديين والانتقام منهم ، وقويت فى نفس السلطان فكرة الاستبداد والاعتداد برأيه دون رأى النصحاء المخلصين . وجرت بعد ذلك موقعة دندانقان وهزم جيش السلطان وعلت كلمة السلاجقة . وأحاط المتملقون بمسعود وكثرت أحاديثهم عن الانتقام وعن الفرص المواتية الآتية وعن التهوين من شأن ماحدث ، وازداد نفورا من الذين يصارحونه بالحق والذين ينصحونه بما يجب أن يفعل ، وفى سورة من الغضب أمر بالقبض ، بالغدر الذى عرف به ، على ثلاثة من أكبر قادة الدولة هم سباشى وبكتغدى وعلى داية . وكانت إجابة هذا القائد كاشفة عن سياسة الانتقام من المحموديين فى الوقت الذى كانت الدولة شديدة الحاجة إلى كفاءاتهم ،فهو يبدى عدم المبالاة بالأمر الصادر بتجريده وسجنه ولكنه ينصح السلطان بألا يتمادى وراء الوشاة من أنصاره ويحذره من الزوزنى ، ومن سورى ، الذى ضيع خراسان ، كى لا يضيع غزنة .

واستولى الرعب على السلطان وأصبح حريصاً كل الحرص على خزائن

غزنة ، فهو يريد أن يهرب بها إلى الهند . وحاولت عمته حرة الختلية وأمه أن تثنياه عن عزمه ولكنه ردهما رداً عنيفا فلم يستطع أحد معارضته بعد ذلك . وينتهز البيهقى فرصة كتابة رسالة من السلطان للوزير فيكتب لهذا معناه يقول فيها : « إن هذا السلطان قد ذهل من أمر لم يقع ولن يثنى العنان حتى يبلغ لاهور . . ويبدو أنه لا يلبث بها . . . ولم يبق أحد من الحرم فى غزنة وقد أسقط فى أيدى الأولياء والحشم المقيمين هنا وهم جميعا فى حيرة من أمرهم وكلهم يعلق أمله على الوزير ، فالغوث الغوث ليتدارك سريعا هذا التصرف الأخرق » . وكتب الوزير للسلطان يهدىء من روعه ويبين له ألا وجه لترك البلاد والذهاب إلى الهند ، لأن الجيش قادر على رد السلاجقة وطردهم بعيدا عن بلخ ، ولأن هيبة الدولة تزول ويزداد طمع الأعداء فيها لو عرف الناس أن السلطان سائر مع الحرم والخزائن إلى الهند ، ولأن الهنود أنفسهم لا يجوز الاعتماد عليهم وليس من الحكمة نقل هذه الخزائن إلى بلادهم ولم يكن الغزنويون محسنين إليهم ، ولأن من الخطر المحقق إجتياز الصحراء بهذه الخزائن والغلمان الحراس ليسوا أهلا للثقة ؛ ويختم الوزير رسالته للسلطان مذكرا إياه بأنه لايزال يعمل مستبدا برأيه بعد أن رأى مرات عاقبة هذه الخطة التى يأسف الجميع لها .

ولكن هذا لم يجد نفعا ، وسار السلطان مع الخزائن عبر الصحراء ، وهناك طمع الغلمان فيما تحويه الخزائن وصرّح الشر فانقضوا وعلى رأسهم نوشتكين على الخزائن ثم قبضوا على السلطان وزجوا به فى قلعة ماريكلة . وتذكر كتب التاريخ أنهم جاءوا بأخيه محمد فملكوه فقبل الملك بعد تردد ، وفى رواية أخرى أن ابنه أحمد هو الذى ملك وأنه أمر بقتل مسعود . وهكذا كانت نهاية هذا السلطان الذى استغرقت سيرته كتاب البيهقى .

وقد جاء فى كتاب « سلطنت غزنويان[1] » ، أن أبا القاسم فرشته يقول

---

(١) استاد خليلى ، انجمن تاريخ افغانستان ، ص ٢٣١ .

فى تاريخه إن السلطان مودود أمر بإقامة قبر أبيه مسعود فى غزنة . ويقول أستاد خليلى إنه يقال إن هذا القبر فى حديقة من حدائق غزنة اليوم وقد أقيم عليه صندوق نفيس من المرمر الجلاّنى ليس عليه سوى آيات من القرآن وقد أقاموا عليه قبة ؛ وهو يطالب بالمحافظة على هذا الأثر حتى لا يندرس .

* * *

وإنه ليسعدنى أن أختم حديثى هذا منوّهاً بالفرصة الطيبة التى أتاحت لى أن أتعاون مع صديقى وزميلى الأستاذ صادق نشأت ، هذا التعاون الذى أخرج كتاب تاريخ البيهقى إلى العربية على هذا الوجه .

هذا وقد تعمدنا أن نترك الألفاظ العربية التى وردت فى الكتاب كما هى لكى تعبر عن مدلولاتها فى العصر الذى كتبت فيه وكذلك تركنا عناوين الفصول بالعربية كما جاءت فى النص الفارسى . ولا نزعم أن الكتاب قد خلا من الأخطاء ولكنا نشهد بأنا بذلنا جهدنا لكى نجعله أقرب إلى الصحة ، وإنا لنرجو أن يتاح لمن بعدنا تدارك ما فاتنا ، وحسبنا أن نقدم اليوم هذا السفر للمكتبة العربية ، شاهداً بالتعاون المحمود بين جامعتى القاهرة وطهران ، شاهداً على ما بين الثقافتين العربية والفارسية من صلات يجب أن نرعاها ، رعايةً للتراث الإسلامى العظيم .

يحيى الخشاب

جمادى الأولى ١٣٧٦

ديسمبر ١٩٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

(يروى صاحب هذا التاريخ «أبو الفضل البيهقى» الكاتب، ما شاهده بنفسه من الحوادث فيقول: إن الأمير مسعود، النجل الأكبر وولى عهد السلطان محمود الغازى بن سبكتكين رضى الله عنه، كان بعيدا عن عاصمة الملك، حينما توفى والده السلطان وأسلم روحه الطيبة لخالقها بغزنة؛ فقد كان إذ ذاك فى إصفهان، يريد الرحيل إلى همدان وبغداد، فاتفق أمناء الملك، وكبار رجال الدولة أمثال كبير الحجاب الأمير على قريب، وأخى السلطان المتوفى، عضد الدولة، الأمير أبى يعقوب يوسف بن ناصر الدين سبكتكين وكان السپاهسالار، والوزير الأمير حسن المشهور بحسنك، وصاحب ديوان الرسائل أبى نصر مشكان، وصاحب ديوان العرض أبى القاسم كثير، وسالار غلمان السراى بكتغدى، وأبى النجم إياز، وعلى دايه، وهما من أقرباء السلطان المتوفى، رأى هؤلاء وجماعة أخرى من العظماء والكبراء أن الخير فى أن ينتهزوا الفرصة السانحة، وأن يدعو الأمير أبا أحمد محمد، نجل السلطان محمود الأصغر، وكان يقيم فى بلدة جوزجان[1] على مقربة من العاصمة، وأن يجلسوه على عرش والده العظيم، على أن يتولى كبير الحجاب، أعظم أمناء الدولة، الأمير على قريب تدبير شئون الملك فى خدمته.

فلما انتهى إلى الأمير مسعود، بإصفهان، نبأ وفاة والده وخبر تنصيب أخيه تحول مسعود عن بغداد إلى غزنة، فسار من إصفهان إلى الرى، ومنها إلى

(١) من ولاية خراسان، كانت أيام السلطان محمود تحت إمرة ولده محمد.

نيسابور ، ثم إلى هراة ، ووصلت أنباء ذلك إلى أسماع الأمناء والقادة ، فاستصوب الأمير على والعظماء الرأى باعتقال الأمير محمد بقلعة كوهتيز بتكيناباد[١] ، على أن يرسلوا إلى الأمير مسعود كتابا مع أخى كبير الحجاب ، منكيتراك ، وأبى بكر الحصيرى ، الذى كان نديما للسلطان المتوفى ، يتضمن الاعتذار عما جرى لأنه كان لصالح الدولة[٢]) .

نص الكتاب الذى أرسله أركان الدولة المحمودية ٢

من تكيناباد إلى الأمير مسعود بهراة

« أطال الله حياة ملك الدنيا السلطان الأعظم ولى النعم ، فى العظمة والغنى والملك والنصر وبلوغ الأمانى والنعم فى الدنيا والآخرة . يعلن جماعة العبيد من تكيناباد فى يوم الإثنين لثلاثة أيام خلت من شوال ، عن أحوال العسكر المنصور الذى هو اليوم مقيم هنا ، وأنهم بعد هذا حين يصل أمر السلطان العالى يقصدون خدمة السلطان ملك العالم أطال الله بقاءه ونصر لواءه . هذا وقد خلصت النيات واجتمعت القلوب على الطاعة ، بزوال العوائق والموانع وتحول الأمور واستقامتها على النحو اللائق ، والحمد لله رب العالمين والصلاة على رسوله محمد وآله أجمعين . أما قضاء الله تعالى فإنه يجرى كما يشاء سبحانه ، لا كما يبتغيه الإنسان ، والأمر كله إليه تعالى إذ بمشيئته تدور الأقدار ، له الأمر فى كل ما يأتى به من محنة ومنحة أو سعادة وقدرة ، وكله يصدر عنه جل شأنه ، وهو عين

---

(١) مدينة كانت بموضع قندهار الحالية فى أفغانستان .

(٢) هذه المقدمة ، التى وضعها غنى — فياض بين قوسين محل اختلاف فى النسخ . فهى غير موجودة فى بعضها ، كما هو الحال فى نسخة مورلى ، وفى البعض الآخر ذكرت مع تفاوت فى الرواية من هذه الناحية ، ومن ناحية الاسلوب أيضاً ، يرجح غنى — فياض أن هذه المقدمة ليست من عمل البيهقى ، بل هى مقدمة زادها النساخ كى يوضحوا مطالب الكتاب وقد آثر الناشران مقدمة نسخة يب لأنها أوضح عبارة .

العدل والصواب ، وكذلك ينتقل الملك بأمره تعالى من هذا إلى ذاك ، ومن ذاك إلى هذا ، حتى يرث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

أما الأمير أبو أحمد ، أدام الله سلامته ، فإنه فرع من دوحة السلطان الراحل ، أنار الله برهانه ، وكل فرع من تلك الدوحة المباركة هو أجدر بالتبرك ٣ به ، ما دام أجدى وآكد ثمرا ، فإن خاض أحد الخدم فى حق أحد أفراد تلك الأسرة العظيمة بما لا يليق ، فإنه ولا شك ينال بقوله من ذلك الأصل العريق أيضا ، وقد قدر له[1] بحكم الأزل أن يتربع مدة من الزمن على أريكة ملك غزنه وخراسان والهند ، مكان أبيه وجده من قبل ، رحمة الله عليهما ، فلم يكن من ذلك بد . فزين ذلك العرش ، وكان هذا لازما لذلك الوقت ،ولم يكن بد من أن يمارس الملك ويأمر فى كل باب كسائر الملوك ، ولم يكن ثمة مناص من أن يأتمر بأمره من كان حاضرا إذ ذاك ، مراعاة لشروط الطاعة ، فأطاعه الجميع من شريف وحقير ، حتى إذا انقضت أيامه ، ووهب الله الناس الفرع الأكبر من الدوحة العظمى ، وأمد على الدولة ظله ، ولى العهد على الحقيقة والمعتبر بحق خليفة المصطفى عليه السلام ، فإنهم يسارعون اليوم إلى الحق ، ويدخلون فى طاعته ، ويلزمون أنفسهم بالقيام على خدمته ، من وقت تحرير هذه الوثيقة المذيلة بأسماء العبيد جميعا .

هذا وامتثالا للأمر العالى المحرر بالخط الشريف ، قد بودر باعتقال الأمير محمد بقلعة كوهتيز . ومما يذكر ، أن جدالا جرى والأمير محمد فى سرادقه ، والجند مصطفون بأسلحتهم وعتادهم من قرب السرادق إلى مدى بعيد من الصحراء ، وكان رد الأمير على هذا الجدل أن طلب إعادته مع أهله إلى جوزجان ، أو أن يوفد إلى الحضرة العلية ، واستقر الرأى أخيرا على أن يعتقل

---

(١) الأمير محمد .

بالقلعة مع خاصته وندمائه وأتباعه ، إلى أن يصدر الأمر السلطانى بما ينبغى فى شأنه ، كما تقرر أن يقوم الحاجب بكتكين بحراسة القاعة فى شارستان تليل[1] مع فرسانه وخمسمائة من الخيالة ، كيلا يحدث ما لا تحمد عقباه أثناء سفر العبيد إلى الحضرة السلطانية وتغيبهم عن هنا . وقد اختير العبدان أبو بكر الحصيرى ومنكيتراك من بين الأعيان ليتشرفا بالمثول لدى الحضرة ويشرحا ما حدث .

والمرجو من ولى النعم السلطان الأعظم ، أدام الله سلطانه ، أن يعفو عما سلف من عبيده ، فإنهم إذا كانوا قد قاموا بعمل لتسكين الأحوال ، فإنهم فعلوا هذا رعاية لعهد السلطان الراحل ، والآن وقد ظهر من هو أحق بالأمر وأولى ، وقد بلغهم أمره ، فقد قام الجميع بما توجبه عليهم العبودية وشروط الطاعة .

هذا وإنهم يستعجلون الجواب ، ليعرفوا ما يجب القيام به من أمور إزاء الأمير أبى أحمد ، وكذلك بالنسبة للشئون الأخرى ، حتى يقوموا بما ينبغى حسب الأوامر ، وقد أوفد الرسل من الفرسان بالبشائر إلى غزنة مسرعين ليحيطوا النـــاس علماً بما تم ، ولتسعد السيدة الملكة الوالدة وتطمئن وسائر الخاصة ، بوصول رايات النصر إلى هراة ، كما تقرر أن تذهب وفود أخرى إلى السند والهند ، لإعلام القوم بهذه البشرى ، حتى تستقيم الأمور فى تلك الأنحاء ، بإذن الله تعالى جل شأنه . »

* * *

وذهب أبو بكر الحصيرى ومنكيتراك[2] للقيام بهذه المهمة ، وأرسل ثلاثة من الخيالة المسرعين من هذا الطراز إلى غزنة أيضا ، وتليت الخطبة فى يوم الجمعة

---

(١) فى هذه الكلمة اختلاف كبير : رتيل ، رتيل ، بيل ، وشارستان بمعنى داخل المدينة أى داخل أسوارها .

(٢) أبو بكر الحصيرى نديم السلطان محمود وسيذكر كثيرا ومنكيتراك هو أخو على قريب حكبير الحجاب وستأتي قصته .

بتكيناباد ، باسم السلطان مسعود ، وحضر يومها إلى مسجد الجمعة الخطيب السلطانى ، وكبير الحجاب ، وجميع الوجوه والأعيان . وأقيم حفل عظيم ، نثروا فيه على الناس أموالا طائلة من الدراهم والدنانير ، كما أبلغوا أهل بست لتتلى الخطبة لمسعود هنالك ، ونهض أهل بست بالأمر على خيروجه . وكان الحاجب على بن إيل أرسلان القريب ، يركب كل يوم ، فى جماعة الأعيان من أرباب السيف والقلم ، إلى ظاهر البلدة ، حيث يظلون ممتطين خيولهم حتى الظهيرة ، وهم يتحدثون ، فإن أتاهم خبر جديد تناقلوه فيما بينهم ، وإذا جاء خبر بوقوع خلل فى جهة ما تداركوه بالرسل والرسائل كما تقتضيه ظروف الحال والمشاهدة . ويعودون بعد ذلك إلى خيامهم .

وكانوا يسعون لراحة الأمير محمد ، إلا أن مقابلاته كانت مقصورة على خاصة ندمائه ، كما كان قوّالوه والمطربون والقائمون على أمور شرابه يحملون إليه أنواع الشراب والفاكهة والرياحين . وقد أخبرنى عبد الرحمن القوّال أن الأمير محمد كان إبان بضعة أيام فى حيرة وهمّ ، وكان يأذن لخاصته بالانصراف بعد الأكل (فلا يعقد مجلس الشراب) . وفى اليوم الثالث خاطبه أحمد أرسلان قائلا : « أطال الله حياة مولانا ، إن قضاء الله لا مرد له ، ولا جدوى من الحزن ، فليعد الأمير إلى الشراب والطرب ، وإنا ، نحن العبيد ، نخشى أن تتغلب السوداء على مولانا ، فتورثه علة ، والعياذ بالله » . فترك الأمير رضى الله عنه بعدها ما كان عليه من الإعراض عن الطرب ، وأخذ يسمع منى شيئا من الملح والنكات ، وأخذ ينزع رويدا كل يوم إلى ما كان عليه من المرح ، وظل على هذا المنوال حتى إذا سار الجيش شطر هراة ، أخذ الأمير محمد يعود إلى الشراب ، ولكن فى تكلف ومع تناول النقل ، فإن الشراب والطرب إنما يستساغان فى أوقات الراحة وساعات الهناء ، أما ما يقال من أنه يجب على المحزونين احتساء الخمر حتى تخفف شدة الغم ، فإنه خطأ محض ، فالشراب ، ولو أنه يقلل الغم

ويخفف وطأة الهم فى الحال ، إلا أن الحزين إذا احتسى الخمر ونام ، فإنه يصاب ٦ بخمار منكر بعد يقظته ، ويظل على هذا الحال بضعة أيام .

وعاد الفرسان الذين كانوا قد أوفدوا بالبشائر إلى غزنة ، يذكرون أن جميع أهلها ، شريفهم ووضيعهم ، شيوخهم وشبابهم ، قد أقاموا الأفراح ، فور وصول الأنباء السارة إليهم ، فنحروا الذبائح ووزعوا الصدقات ابتهاجا باستقرار الأمور واتساق الأحوال ، كما أوصى أبو على الكوتوال[1] بأن تكتب الرسائل إلى سائر الجهات بهذه الأنباء ، وذكر فى رسالته أنه أمر بأن تنسخ صور من البشرى بعد وصولها من تكيناباد ، لإرسالها إلى السند والهند وسائر نواحى غزنة وبلخ وطخارستان وجوزجان ليستبين أهل هذه البلاد الحقيقة ، وتستتب الأمور فيها ؛ وكذلك عاد الرسل الموفدون يذكرون أن الأعيان والفقهاء والخطباء والقضاة الذين كانوا قد اعتزلوا الناس بسبب تلك الأحوال ، وأقاموا آسفين فى رباط جرمق ، قد استبشروا لدى وصولنا من تكيناباد وعادوا إلى غزنة فرحين مسرورين ، وذكروا أيضا أنهم حين بلوغهم غزنة وتسليمهم رسالة الكوتوال ، أمر أن تدق الطبول وأن تنفخ الأبواق فى الحال على القلعة ، إعلانا للأمر ، وأن تذاع البشائر فى كل مكان ، كما أنهم قالوا إن السيدة الملكة والدة السلطان مسعود نزلت من القصر مع الحرائر[2] ، وذهبن جميعا إلى قصر أبى العباس الإسفراينى ، الذى كان مقاما للأمير مسعود فى عهد أبيه السلطان محمود ، وكذلك سار إلى هناك كافة الفقهاء والأعيان والعامة ، لرفع التهانى ، وجاء المغنون وأهل الموسيقى من شادى آباد (حى الملاهى) أفواجا إلى الحضرة . وأخذوا ٧ يدورون بنا (الرسل) ؛ وقد حصلنا فى ذلك اليوم على أكثر من خمسين ألف درهم من الذهب والفضة ، وكثير من أنواع الملابس ، وكان يوما مشهودا لم يخطر

---

(١) جاء فى حاشية بب : الكوتوال بمعنى صاحب القلعة وفى البرهان : كوت بالهندى القلعة ، واستعملناه كما هو .

(٢) الحرائر جمع حرة . ولقب بهذا نساء الاشراف والعظماء تمييزا لهن عن الجوارى فى القصور . وكانت هذه الكلمة متداولة فى العصرين الأموى والعباسى (حاشية التاج ص ١٤٢ أحمد زكى)

مثله ببال أحد حتى ذلك الحين . هذا وكنا قد بلغنا غزنة صباحا وعدنا بأجوبة الرسائل بعد منتصف الليل . وسر كبير الحجاب على قريب بتلك الأنباء سرورا بالغا ، وكتب إلى السلطان مسعود رسالة شرح فيها تلك الأحوال ،وأرسلها مع ما وصل إليه من الرسائل من غزنة ، مع فارسين من قبله . ووصل رد السلطان مسعود فى يوم السبت ، منتصف شوال مع اثنين من فرسانه ، أحدهما تركى والآخر عربى وكان معهما أربعة خيول . وقد استغرقت رحلتهما أربعة أيام ونصف يوم ، وكانت رسالة السلطان مسعود جوابا على الرسالة التى حملها إليه الفرسان والتى جاء فيها نبأ اعتقال الأمير محمد بقلعة كوهتيز . وما أن قرأ على الرسائل حتى ركب وخرج إلى ظاهر المدينة ، وأرسل فى طلب الوجوه والأعيان ، فحضروا فورا . وتلا أبو سعيد الكاتب الرسالة على الملأ ، وكان هذا الرد بخط الكاتب طاهر صاحب ديوان رسائل الأمير مسعود ، وهو ينطوى على كثير من العطف وعبارات التقدير والتلطف إلى القادة والجيش والأعيان ، ويزدان بالتوقيع الشريف ، كما أنه كان مذيلا ببضعة أسطر بخط الأمير مسعود إلى كبير الحجاب على قريب ، يخاطبه فيها بالأخ الفاضل الحاجب ويلاطفه بما يفوق الحد والوصف من العبارات ، مجاملة الند للند . ولمّا تفوه أبو سعيد باسم السلطان مسعود ، ترجل الجميع إجلالا ثم ركبوا ثانيه ، واستمر فى التلاوة حتى انتهت الرسالة ، وجاءت الجيوش بعد ذلك أفواجا لتستمع إلى ما جاء فيها ، ثم قبّل الجميع الأرض وانصرفوا .

وكان الأمر السلطانى يشير فى تلك الرسالة إلى أن عليا ينبغى أن يوجه ٨ الموالى والحشم والجيوش فوجا فوجا حسبما يراه صالحا ، ثم يسير بنفسه ومعه جيوش الهند والفيلة ومعدات القتال[1] وخزائن المال سالمة إلى الحضرة ، كما أن

---

(١) زرادخانة وقد جاء فى حاشيه يب : زراد خانه مكان يوضع فيه الأسلحة وأدوات الحرب .

عليه أن يعلم أنه سيكلف بالقيام على جميع شئون البلاد ، وأنه صاحب الكلمة فى كل أمر ، وأن يده هى العليا ، وأن ليس فوق يده يد أخرى . فقال كبير الحجاب للنقباء ينبغى أن تأمروا الجند بالعودة ، وأن ينزل الأعيان ، فإن لى اليوم مع المقدمين والأعيان أعمالا هامة يجب إنفاذها ، وندبر غدا إيفادهم أفواجا أفواجا حسب أمر السلطان . فسار إليه نقيب كل طائفة من طوائف الجيش. ورجع الجيش كله ونزل الجند . ومن ثمة عاد كبير الحجاب علىّ مستصحبا جملة الأكابر والعظماء من قادة العرب والترك ، واجتمع بهم فى ناحية ، وأخرج علىّ رسالة بخط السلطان مسعود ، لم يكونوا قد علموا بها من قبل ، وأعطاها إلى الكاتب سعيد ليقرأها عليهم ، وقد جاء فيها بخطه :

« لقد قدر علينا فقد أبينا السلطان الماضى ، فاستدعوا أخانا الأمير الجليل أبا أحمد ليرقى سرير الملك ، إذ كان فى ذلك وحده صلاح الحال وقتئذ ، وكنا حينذاك قد تم لنا فتح بلاد بعيدة كل البعد فأخذنا فى الاتجاه نحو همدان وبغداد ، حيث لم يكن لأمراء الديالمة شأن خطير ، وقد أرسلنا لأخينا كتابا مع الرسول العلوى[١] يتضمن التعازى والتهانى والنصائح ، ولو أن أخانا أصغى إلينا وعمل بما جاء فيها ، وأرسل إلينا ما طلبنا منه إذ ذاك ، لصار خليفتنا ولما بخلنا عليه بشىء ، ولما حدث ما يكدر صفوه ، ولكننا دعونا أصحاب الرأى من العظماء والقادة لنسير بهم إلى بغداد ، فتستقر بلاد الإسلام بذلك ، تحت لوائينا أنا وأخى ، ولكن الأخ لم يتبين طريق الرشاد ، وظن أن التدبير يغير التقدير ، والآن ؟ وقد بلغ الأمر هذا الحد ، والأخ يقيم فى قلعة كوهتيز منعما مع خاصته ، فلا نرى من الحكمة إمكان إرساله إلى جوزجان بأية حال ، ومن العار إحضاره معك وهو معتقل ، فإنا لا نستطيع أن نراه على تلك الحال حين يصل إلى هراة ؛ والأولى به فى رأينا ، أن يظل فى مقامه بالقلعة مع خاصته عزيزا مكرما ، هو

---

(١) سيرد اسم هذا الرسول فيما بعد وهو السيد عبد العزيز .

وكل من فى خدمته ، فإنا لا نأذن بأن يشتغل أحد من خاصته . هذا والحاجب بكتكين جدير بما كاف به من الإقامة مع رجاله حول القلعة ، وقد فوضنا إليه ولاية تكيناباد وشحنة مدينة بست ليعين فيها خليفة من قبله ، وسينال من صلاتنا بقدر ما يبدى من الإخلاص والاجتهاد فى مهمته ، وسنتنقل من هراة إلى بلخ حيث نقضى فصل الشتاء ، ثم نسير منها إلى غزنة ، بعد انقضاء النيروز ، ونقضى فى أمر أخينا بما ينبغى ، فليس لدينا من هو أعز علينا منه ، هذا ما لزم بيانه بعونه تعالى » .

فقال الجميع ، بعد أن استمعوا إلى نص خطاب السلطان : لقد أبدى السلطان نحو أخيه غاية العدل والإنصاف حين بعث الرسول ، وهو الآن يزيد من إنصافه . فماذا يرى الحاجب فى ذلك . فقال إذا كنتم تعنون هذا الكتاب فينبغى إرساله إلى الأمير محمد ، ليعرف أنه سيبقى فى مقامه حيث هو بناء على الأمر السلطانى ، وقد حضر من يقوم على رعاية شئونه ، وأننا جميعا قد أعفينا ١٠ من الاشتغال بأمره . فقالوا لابد من إرسال الكتاب كى يعرف الأمير محمد حقيقة الموقف ، ويعرب عما يراه للحاجب بكتكين . ولما سألهم كبير الحجاب عمن يرونه جديرا بأداء هذه المهمة فوضوا إليه أمر اختياره ، فاختار نبيه الفقيه ومظفر الحاكم وقال لهما : « إذهبا بهذه الرسالة إلى الأمير محمد فأقرآها عليه وأسديا إليه بعض النصح ، ثم طيبا خاطره وبينا له أن رأى السلطان فيه خير كله ، وبأنا نحن العبيد ، سنزيد من عطف السلطان ولطفه عليه ، حينما نصل إلى حضرته العالية ، وأن القوم سيغادرون المقام فى هذه الأيام القليلة ، وأن الحاجب بكتكين سيتولى وحده شئونك ، وهو رجل ذكى أريب يقدرك حق قدرك . وذلك حتى يحدثه الأمير بما يرى .

فذهب هذان الرسولان ، إلى الحاجب بكتكين وأبلغاه أمر مهمتهما ليأذن لهما بدخول القلعة ، إذ لم يكن ذلك ميسوراً لأحد ، بغير إذنه ، فأوفد بكتكين

كتخداه معهما ، ودخل الجميع القلعة ، وقابلوا الأمير محمد ، وأدوا مراسم التحية فسألهم الأمير قائلا : « ما أخبـــار أخى ومتى يتوجه الجيش إلى حضرته » فأجابوا : إن أخبار مولانا السلطان كلها خير ، وسيسير الجيش كله إلى حضرته فى هـذه الأيام المعدودة ، وسيرحل فى أثر الجيش كبير الحجاب ، وأما نحن فقد جئنا ، نحن العبيد ، بهذه الرسالة ؛ ثم قدماها إليه فقرأها ، فامتقع وجهه قليلا . فقال نبيه ، أطال الله حياة الأمير إن أخاك السلطان يرعى حقك ، وهو يعطف عليك كل العطف ، فلا تأس وارض بقضاء الله عز وجل . وأفاض فى الحديث فى هذا الباب ، وكان القصد من ذلك أن يعرف الأمير أن المقدر واقع لا محالة ، وأن يظل متمتعا باللهو والطرب . فقد قيل « إن المقدر كائن والهم فضل » فأحسن الأمير إليهما وقال : لا تنسيانى . ١١

ثم عاد الرسولان وقصا على كبير الحجاب علىّ ما كان من أمر الأمير محمد. ومن ثم تفرق القوم استعدادا للرحيل إلى هراة ، استجابة لأمر كبير الحجاب ، كما أنه أمر بتصفية حسابات مرتبات عمال الأمير محمد ووظائفهم ، وأوعز لعامل تكيناباذ كى يحتاط لكى لا يحدث اضطراب ، كما استدعى الحاجب بكتكين وسلمه منشور[1] توليته شحنة مدينة بست وولاية تكيناباذ ، فوقف الحاجب بكتكين ثم ولىّ وجهه شطر الحضرة ، وقبّل الأرض ، وأذن له كبير الحجاب بالانصراف وأثنى عليه، وقال له « احتفظ بفرسانك ، وابعث ببقية الجند الذين معك حول القلعة إلى المعسكر ليسيروا معنا ، ولتكن حذرا يقظا كى لا يحدث اضطراب » فامتثل الأمر وعاد من فوره إلى القلعة ، وأرسل من كان معه من الجند إلى المعسكر ، واستدعى كوتوال القلعة وقال له . « يجب أن نتخذ تدابير خاصة ، وأن نحذر كل الحذر ، لأن الجيش سيغادرنا ، كما يجب أن لا تسمح لأحد بالاقتراب من القلعة دون إذن منى » . وهكذا استقرت الأحوال وأخذ القوم يسيرون إلى الحضرة فى هراة .

---

(١) المنشور ما كان غير مختوم من كتب السلطان (القاموس) .

ذكر ما جرى من الأمير مسعود

بعد وفاة والده السلطان محمود رضوان الله عليهما فى مدة ملك أخيه بغزنه إلى أن قبض عليه بتكيناباد وصفى الأمر له وجلوسه على سرير الملك بهراة رحمة الله عليهم أجمعين

لم تذكر كتب التاريخ الأخرى هذه التفاصيل ، فقد أخذوا الأمور فى يسر ولم يذكروا إلا القليل . أما أنا وقد تعرضت لهذا العمل فإنى أود أن أؤدى حق التاريخ كاملا ، وأن أبحث عن الخفايا حتى لا يخفى شى من الحوادث . وإذا طال هذا الكتاب وزاد ملل القراء منه ، فإنى طامع بفضلهم ألا يعدونى من الثقلاء ، فليس من حادث إلا وهو جدير بأن يقرأ ، ولا تخلو قصة من عبرة .   ١٢

وقد ذكرت فى باب خاص ، كل ما جرى على يد الأمير مسعود ، فى حياة أبيه فى الرى وبلاد الجبل ، إلى أن استولى على مدينة إصفهان . ذكرت كل ذلك كما هو معلوم فى موضعه . كما شرحت ما حدث أيام حكم أخيه الأمير محمد ، وما آلت إليه الأحوال من اعتقاله فى قلعة كوهتيز ، وكذلك أشرت إلى جواب الكتاب الذى أرسله أمناء الدولة إلى السلطان مسعود ، واستدعائه إياهم إلى الحضرة من هراة ، وسيرهم إليها وكيفية ذلك ووصولهم إلى الحضرة ، وقد كان لزاما على ذكر ما تم على يد الأمير مسعود إبان حكم الأمير محمد حتى وقت بلوغه نيسابور من الرى ، ومنها إلى هراة ، ففى هذه الفترة مرت عجائب كثيرة لا مفر من ذكرها وذلك حتى يتم شرط التاريخ .

والآن أبدأ فى ذكر ما عمل الأمير مسعود رضى الله عنه وما جرى على يديه فى الفترة التى لحقت وفاة أبيه ومجىء أخيه محمد إلى غزنة وجلوسه على العرش

إلى أن اعتقل فى تكينا باد ، حتى يعرف كل ذلك . وحين أفرغ من هذا أعود إلى ذكر مسير الجند من تكينا باد إلى هراة . وكيفية سيرهم وسير الحاجب على أثرهم وكيف بلغوا هراة وما جرى بعد ذلك ، وإلى أى مدى بلغ حال الأمير محمد إلى أن سار به بكتكين الحاجب من قلعة تكينا باد إلى قلعة منديش ، وسلّمه إلى الكوتوال ثم عاد إلى غزنة ، وجلوس مسعود على العرش ، وما حدث فى عهده من حوادث بعد تلك المحن التى ألمت بأخيه الأمير محمد .

كان الأمير مسعود فى إصفهان حين استقر رأيه على أن يسير إلى ناحية همدان وبلاد الجبل ، بعد أن يترك السياهسالار تاش فراش فى إصفهان ، وقد نقل الخدم والحشم سرادق الأمير إلى خارج إصفهان وكان إزماع الأمير الخــــروج منها يوافق يوم السبت من ذلك الأسبوع وذلك لعشرة أيام خلت من جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة (١٠٣٠) ، ففوجىء بخبر وفاة والده السلطان محمود رضى الله عنه ، وقيام كبير الحجاب على قريب بتدبير شئون المملكة ، وإرساله فرسانا مسرعين إلى جوزجان ، واستدعاء الأمير محمد لارتقاء العرش . فلما وقف الأمير مسعود رضى الله عنه على هذه الأخبار ١٣ ، تولته حيرة شديدة ، قضت على التدابير التى كان قد اتخذها .

وقد سمعت ، بعد مجىء الأمير مسعود إلى بلخ من هراة واستقرار الأمور ، طاهر الكاتب يقول : ما أن وصلت هذه الأنباء إلى الأمير مسعود بإصفهان حتى دعانى فى أضحية ذلك اليوم ، واختلى بى ، ثم تحدث إلى قائلا : لقد توفى أبى وأجلسوا أخى على سرير الملك . فقلت « أدام الله مولاى » ؛ وكان بيده ملطفة[1] فألقاها إلى وأمرنى بقراءتها وفتحتها فرأيتها بخط عمته الحرة الختلية ، تقول فيها : « لقد توفى عميدنا السلطان محمود ، رحمه الله بعد صلاة عصر يوم الخميس لسبعة أيام خلت من ربيع الآخر فانتهت بوفاته أيام عز عبيده ، وإلى الآن

---

(١) الملطفة اصطلاح يطلق على الكتب المقصيرة التى تكتب فى الأمور المستعجلة .

وجماعة الحرم نقيم فى قلعة غزنة ، وسنذيع خبر وفاته بعد غد . هذا وقد وُورى جثمانه فى « باغ بيروزى »[1] بعد صلاة العشاء ، وإن حزننا لفراقه لشديد ، وخاصة ونحن لم نتمكن من رؤيته لسبعة أيام قبل الفاجعة الأليمة ، وتسير الأمور الآن بتدبير علىّ الحاجب ، كما أن الرسل أسرعت بعد الدفن فى الليلة نفسها ذاهبة إلى جوزجان لاستدعاء الأخ محمد للجلوس فور مجيئه على العرش . وقد كتبت عمتك هذا إليك تفيدك بما جرى فى نفس الليلة بدافع الشفقة والعطف ، كما أنى أمرت بإرساله مع الفارسين المسرعين اللذين كانا قد حضرا فى بعض الأمور إلى غزنة حتى يسرعا به إليك فى سرو خفية ، والأمير يعلم أن أخاه لا يستطيع القيام بهذا العبء الثقيل ، وأن لأسرتنا أعداء كثيرين ، وأننا قد صرنا نحن الحرائر وكذلك خزائن المال بذلك هدفا للأغراض ، فالواجب على الأمير أن لا يشتغل بما استولى عليه من البلاد وبما يمكن الاستيلاء عليه ، وأن ينهض للأمر كله لأنه ولى لعهد أبيه ، هذا والأمور سارت إلى اليوم بهيبة السلطان الوالد ، إلا أنها بعد إذاعة خبر الوفاة ستسير على نحو آخر ، ويجب أن تعلم أن غزنة هى الأصل ومن ثم خراسان ، وبقية البلاد ، فإنها فروع لها فلتتأمل جيدا فى كل ما كتبته إليك ولتستعد للعودة بأسرع ما تستطيع حتى لا تضيع وتفقد هـذا العرش ، ولترجعن الرسل فورا فإن عمتك تترقب قدومهم وستوالى إطلاعك على كل ما يجد من أحداث هنا » فقلت بعد أن وقفت كل شيء ، أطال الله حياة ولى النعم ، لا حاجة إلى أية مشورة ، فيجب أن يعمل بكل ما أشارت به فكله نصح خالص ولا يتأتى من أحد الزيادة عليه . فقال الأمير : « إنه كذلك والصواب ما ارتأت وسأفعل كذلك إن شاء الله تعالى ، ولكن لابد من المشورة . فلتقم الآن ولتبعث فى طلب السباهسالار تاش والتونتاش كبير الحجاب وكذلك

---

(١) باغ بيروزى معنى حديقة النصر .

بقية الأعيان والمقدمين لنتكلم معهم أيضا ونقف على رأيهم ثم نعمل بما يستقر عليه الرأى . فذهبت ودعوت القوم فحضروا ، فلما اجتمعنا عند الأمير واستقر بنا المقام أفضى الأمير إليهم بالأمر ، وناولنى الكتاب لأقرأه عليهم . فلما فرغت من القراءة ، هتفوا أطال الله حياة الأمير ثم قالوا : « لقد قامت الملكة بأداء النصيحة فى الوقت المناسب تماما ، وإن الخير كل الخير فى وصول هذا النبأ هنا ، فلو أن الركاب العالى تحرك بالسعادة وألقى ظله على جانب آخر قبل أن يتم أمر ووصل الخبر هناك ، لكان من غير اللائق أن يغير الأمير وجهة سيره ، وأن يحجم بعد إقدام . والآن ماذا يرى ولى النعم فى الأمر » .

فسأل الأمير ماذا تقولون وما هو الصواب فقالوا : « نحن لا نرى صوابا فى غير المسارعة بالعودة » فقال : « وأنا أيضا أرى ذلك ، ولكنا سنأمر بإعلان خبر وفاة أبينا غدا ، ثم نوفد بعد انتهاء العزاء رسولا إلى ابن كاكو لاستمالته إلينا ، وليس من شك فى أن خبر الوفاة سيكون قد وصله قبل أن يصل إليه رسولنا ، وأراه سيقر عينا بعودتنا ويقبل القيام بكل ماتحكم عليه فى مال الضمان ولا يماطل فى شىء ، بأن يتأخر فى تقديم ما تقرر عليه ، فإنه يعلم أنا سنواجه عند عودتنا مهاما كثيرة ، لن نفرغ منها لوقت طويل ، ولكن سيكون لنا على أى حال عذر فى العودة . فقالوا جميعا : « عين الصواب وأجمل الرأى وليس شىء أصوب منه ، وكلما يسرع الركاب العالى نحو خراسان يكون ذلك أصلح وأقرب إلى الخير ، إذ الطريق طويل وقد يفتر القوم فى غزنة فيطول بنا الأمر » . فقال الأمير : « اذهبوا الآن حتى أزيد إمعانا فى التفكير فى هذا ، ثم آمر بما يجب » فانصرف القوم . وفى اليوم التالى أذن الأمير للناس مرتديا قباء ورداء وعمامة بيضاء كلها ، وحضر كل الأعيان والمقدمين وأصناف الجند إلى الخدمة مرتدين البياض وكان الجزع شاملا واستمر العزاء السلطانى على الرسم ثلاثة أيام . وأعجب الجميع بوفاء الأمير لأبيه ، ثم أرسل الأمير بعد انقضاء أيام العزاء رسولا

١٥

إلى علاء الدولة أبي جعفر كاكو ، وكانت المسافة قصيرة إليه ، وقبل إنبائه بهذا النبأ كان خطاب أمير المؤمنين قد كتب بالشفاعة لتعاد إصفهان إليه، وأن يكون « نائبا لكم فيها ، ويقدم كل مايوضع عليه من مال الضمان » . ولبث حامل الخطاب هناك فى انتظار ما يكون من الإجابة له غير أن الأمير مسعود اغتنم الفرصة التى سنحت فعلا من هذا الحال فأوفد رسولا وكتابا ومشافهة بهذا المعنى :

« إننا تقبلنا شفاعة أمير المؤمنين بالسمع والطاعة ، إذ من حق السادات أن يأمروا العبيد لا أن يشفعوا ، وإذ نحن الآن بصدد مهمة أعظم شأنا من إصفهان ، فليس من أحد أجدر من علاء الدولة ليكون خليفة لنا فيها ، ولو لم يتخذ فى بادىء الأمر ، عندما قصدنا هذه الديار وأرسلنا وأقمنا عليه حجتنا ، طريق العناد والمقاومة ، لما حدثت تلك الكارثة ، ولكن ما الحيلة والمقدر كائن . أما الآن وقد تغير وجه الأمور ، فإنا نترك الحبل على الغارب إذ أمامنا عمل هام وإنا سائرون شطر خراسان ، فقد لقى السلطان الأعظم ربه وتعرضت بعده شئون الملك إلى الإهمال الشديد الفاحش ، وتقديم الأصل أولى وأهم من الاشتغال بالفرع ، خاصة والشقة بعيدة ، وقد تفوت الفرصة ، وسيعين حكام لتدبير شئون الرى وطارم وسائر ما استولينا عليه من البلاد ، كيلا يحدث اضطراب فى غيبتنا بأية حال ، فإن حلم أحد كان ذلك الحلم وتلك الخيالات التى يراها منتهية بجلوسنا على عرش أبينا ، ولا نهمل بعد ذلك شأن هذه الديار فإنا قد أحطنا بما فى هذه الديار من حسن ورديء ، وشاهدناه وسنتخذ ، ونحن على عرش أبينا ، لتدبير أمرها لونا آخر ، فهناك بحمد الله لدينا الكفاية التامة من الرجال والعدة والعتاد . فالواجب أن ينهى الأمير هذه المهمة بأسرع ما يكون ولا يجعلها موضع الأخذ والرد ، حتى نعود من هنا وقد دُبّر أمر . ويجب أن لا ينخدع بتقرير أحد بأن يلقى فى روعه أن يتساهل الآن لأن مسعود على سفر ولن يستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك ، فيجب ألا ينخدع أو يستمع لمثل هذا الكلام ، لأن سطوتنا

عظيمة ونحن إذا ما عدنا بالسطوة غاضبين سيكون تلافى هـــذا الأمر بلون آخر والسلام . »

وذهب الرسول وبلغ الرسالة فسمعها ابن كاكو جيدا واغتنمها فرصة سانحة ، ورد ردا حسنا ، وبعد مفاوضات استمرت ثلاثة أيام استقر الرأى على أن يكون خليفة للأمير مسعود فى إصفهان أثناء تغيبه عنها ، وأن يؤدى عن كل عام مائتى ألف دينار هروى[1] وعشرة آلاف ثوب من منسوجات تلك البلاد ، ومن الخيول العربية والبغال المسرجة ، ومن كل نوع من معدات السفر ، وذلك فضلا عن أنواع الهدايا فى النوروز والمهرجان . وقد قبل الأمير رضى الله عنه ١٧ اعتذاره ، وأكرم الرسول وأمر بكتابة منشور التولية لأبى جعفر كاكو على إصفهان والنواحى ، وأعدوا خلعة فاخرة وبعثوا بها .

وغادر الأمير إصفهان إلى الرى بعد إيفاد الرسول ، مظفرا مسرورا لخمسة أيام بقين من جمادى الآخرة ، فلما قدم الرى وتبين أن الناس قد عرفوا ذلك ووجد المدينة ، وقد زينوها بأبهى الزينات التى تفوق الحد والوصف ، ولكنه نزل بظاهر المدينة ، حيث أقاموا السرادق ، وقال إنه سيرحل . وخرج أهل الرى خاصتهم وعامتهم ، وقدموا الهدايا الكثيرة ، وأرسل ثقاته إلى المدينة ليشاهدوا ما قام به أهلها من الزينات . فذهبوا ، ثم حدثوه عما شاهدوا فأثنى الأمير على أهل الرى تقديرا لتلك العبودية . وهنا وصلته من كتب الثقاة أخبار بوصول الأمير محمد إلى غزنة واستتباب الأمر له ، ودخول الجند فى طاعته . وأهل الدنيا كما قيل « عبيد للدينار والدرهم » ، فاشتغل بال الأمير لهذا الخبر كثيرا ، واستصوب إيفاد السيد عبد العزيز العلوى على الفور إلى غزنة ، وكان من دهاة زمانه ، برسالة تحمل التهانى والتعازى لأخيه الأمير محمد ، وقد أبلغه

---

(١) دينار هريوه — بكسر الأول والثانى — يقال إنه نسبة إلى هراة ويقال إنه يطلق على الذهب الخالص والرائج (برهان قاطع)

فيها أمورا فى معنى الإرث والسلطنة ، يأتى شرحها عند التحدث عن عهد إمارة الأمير محمد ، وتكون فيها الكفاية .

وقد وصل منشور أمير المؤمنين القادر بالله ، بعد سفر هـــذا العلوى ، يتضمن التعازى والتهانى حسب الرسم فى مثله ، جوابا على الكتاب الذى كان قد أرسل بنعى السلطان محمود من إصفهان وإزماع السفر إلى خراسان وطلب اللواء والعهد وما يترتب على ذلك من نعوت وألقاب ، باعتباره ولى عهد السلطان محمود . وقد أبلغه أمير المؤمنين فى المنشور إقراره أياه على ما دخل فى حوزته من ولايات الرى والجبال وإصفهان ، وأمره بأن يعجل بالسير إلى خراسان كيلا يقع اضطراب فى ذلك الثغر العظيم ، كما وعده بأن يرسل إليه على الأثر ما طلبه من اللواء والعهد والكرامات مع رسوله .

اطمأن خاطر الأمير مسعود بهذه الرسالة واستبشر بها كثيرا ، وأمر بأن تقرأ على الملأ ، وبأن ينفخوا الأبواق ويدقوا الطبول استبشارا ، ونسخوا من تلك الرسالة صورا أرسلوها إلى إصفهان وطارم ونواحى الجبل وجرجان وطبرستان ونيسابور وهراة ، حتى يتأكد لدى الناس أنه خليفة أمير المؤمنين وولى عهد أبيه .

وفى تلك الأثناء وصل رسل مسرعون من غزنة ، يحملون رسائل من الأمير يوسف[١] وكبير الحجاب على وأبى سهل الحمدوى والخواجة على ميكائيل والسرهنك أبى على الكوتوال ، يقدمون جميعا فروض الطاعة ويقولون ، إن الأمـــير محمد قد استدعى إلى غزنة منعا من وقوع الاضطرابات وتهدئة للأحوال ، وإنه لن يستطيع القيام بهذا الأمر على أية حال ، لانصرافه تماما الى اللهو والشراب ، وإن على مولانا ، الذى هو ولى عهد أبيه فى الحقيقة ، أن يسارع رابط الجأش قرير العين إلى قاعدة ملكه فورا ، والجميع سيسارعون إليه

---

(١) عم السلطان مسعود سيأتى ذكره فيما بعد .

طائعين بمجرد أن يسمعوا باسمه العظيم من خراسان . وكذلك أيدت والدة الأمير محمود ، وعمته « الحرة الختلية » بكتابيهما وبيننا أنه ينبغى الاعتماد على ما قاله هؤلاء العبيد ، فإن الحق ما قالوا .

اطمأن الأمير رضى الله عنه بهذه الرسائل ، وعقد مجلسا دعا إليه أعيان قومه وتحدث إليهم فى هذه الأحوال وقال يخطابهم : لقد بلغت الأمور هذا الحد ، فماهو التدبير. فقالوا : الصواب هو ما يراه مولانا . فقال : إنى أرى أن الأمور قد تصعب علينا ، إن نحن تعلقنا بهذه الديار وقد استولينا على عدة أقطار عظيمة بحد السيف ، لكنها فرع والتعلق بالفرع دون الأصل محال، ويبدو لنا أن الصواب فى أن نعجل بالسير شطر نيسا بور وهراة ونقصد الأصل ، فإذا انقادت لنا ، كما كتبوا دون قتال ، ورقينا العرش ولم يبق ثمة منازع لنا ، استطعنا حينئذ تدبير أمر هذه البلاد . فقالوا خير الرأى ما رآه مولانا ، وكلما أسرعنا فى المسير كان الصواب أكثر ، فقال « لابد من تعيين شحنة هنا . فمن ترونه جديرا بهذا العمل . وكم من الفرسان ينبغى إبقاؤهم » قالوا : « أى عبد يختاره مولانا ، إذ كل شخص يبقى سيظل مكرها هنا ، كما أنه واضح مقدار ما يمكن إبقاؤه من الرجال ، وإذا أراد أهل الرى الوفاء ، سيأتمرون بأمر من يسميه مولانا عاملا عليهم ، وإن هم أرادوا العصيان فلن تنفع معهم كثرة الرجال . فقال : « حقا وكان يدور بذهنى أيضا قولكم هذا وسأترك حسن سليمان مع خمسمائة من الفرسان المسومين ، فادعوا غدا أعيان الرى حتى يبلغوا ما ينبغى فى هذا الشأن فإنا مزمعون السير بعد غد على كل حال ، فلا وجه للبقاء . فقالوا : سمعا وطاعة . وعادوا وأرسلوا رسلا لأعيان الرى وقالوا : إن الأمر العالى يقضى بأن يكون الجميع على باب السرادق . فقالوا سمعا وطاعة . وخرج فى اليوم التالى فوج عظيم من الأعيان وبينهم العلويون والقضاة والأئمة والفقهاء والأكابر وكثير من عامة الناس من أتباعهم من كل صنف ، وكان الأمير رضى الله عنه قد أمر بأن

يعدوا موكبا عظيما للغاية ، فوقف غلمان كثيرون على باب السرادق فى الصحراء مع كثير من الخيالة والمشاة المدججين بالأسلحة ، وأذن للناس ، وكان القادة والأعيان جلوسا بحضرته والباقون وقوف . ثم قدموا خمسين أو ستين من وجوه أعيان الرى ، فأشار الأمير بإجلاسهم جميعا على بعد . ثم افتتح الكلام . وعندما كان ٢٠ هذا السلطان يتناول الحديث يخيل للناس أن الدر ينتشر والسكر ينثر ، وينبغى أن نأتى فى هذا التاريخ بما قاله وما كتبه ، ليتضح للقارئ أن ما قيل عن حديث الملوك لم يكن من قبيل المبالغة أو التهويل ، فقد قال الله تعالى وقوله الحق : « وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء[1] » .

ثم خاطب الأمير الأعيان يسألهم : « كيف كانت سيرتنا فيكم هذه المدة ، لا تخجلوا وأجيبوا دون خوف أو وجل » فقالوا : « أمد الله فى حياة الأمير ، منذ نجونا من جور الديالمة وعسفهم وشملنا اسم هذه الدولة العظيمة أدامها الله ونحن ننام فى أمن آمنين على أرواحنا وأموالنا ونسائنا وأولادنا ، نأكل فى أمن وننام فى دعة ونعيش فى سعة ، رافعين أكف الضراعة إلى المولى سبحانه ليديم ظل رحمة الأمير وعدله علينا إذ لم نكن فى شىء من هذا على عهد الديالمة . فقال الأمير : « إنا سائرون ، إذ أمامنا أمر عظيم هو الأصل ، فقد وصلتنا رسائل من موالينا وعبيدنا ينعون فيها والدنا السلطان رضى الله عنه ، ويشيرون علينا بالمسارعة بالعودة ، حتى تنتظم شئون الملك ، فخراسان والهند والسند ونيمروز وخوارزم ليست بالولايات الصغيرة ، وليس من اليسير إهمال شأن تلك البلاد لأنها الأصل ، وبعد الفراغ من تلك نقوم بالواجب فى تدبير هذه النواحى فنوفد أحد البارزين من أبنائنا ، أو قائدا من القواد المشهورين ، ومعه ما يلزم من عدد وآلات . والآن نترك فيكم عاملا من قبلنا مع ثلة من الرجال

---

(١) سورة ٢ آية ٢٤٧

لنبلو طاعتكم ولنرى ما يحصل منكم ، فإذا آنسنا منكم النصح والطاعة دون رياء ، قابلنا ذلك منكم بالعـــدل والإحسان الشامل ، أما إذا استبان خلاف ذلك فستلقون جزاءً وفاقا لا يؤاخذنا الله عليه لأن البادئ أظلم ، وفى إصفهان وأهل تلك البقاع عبرة لمن يعتبر ، فأجيبونى إجابة صدق لكى ٢١ أطمئن إليها[1] » .

وأخذ أعيان الرى ، بعد انتهاء كلام الأمير ، يتبادلون النظرات فيما بينهم وبدوا كأنما استولت عليهم حيرة ودهشة جد كبيرة ، وأشاروا إلى خطيب المدينة وكان شيخا كبيرا فاضلا طاف العـــالم وخبر كثيرا من أحوال الأمم فنهض وقال : « أطال الله حياة ملك الإسلام ، إن هؤلاء الحضور فى هذا الحفل العظيم ، الذى تحفه المهابة والجلال عاجزون عن الإفصاح عما تكنه جوانحهم ، وهم يحجمون عن الجواب ، فإذا رأى السلطان ، أذن لأحد ثقاته ليذهب بهم إلى خارج السرادق حيث يجلس طاهر الكاتب فيسمع الجواب . فقال الأمير : « حسناً » . وذهبوا بأعيان الرى إلى الخيم الكبير حيث كان طاهر الكاتب ، وكان ، لتقدمه ، يقوم بتدبير كافة مهام الأمور . فجاء طاهر وجلس وحضر أمامه القوم . وكانوا قد اتفقوا فيما بينهم على ما ينبغى أن يكون عليه جوابهم . وقال طاهر : « قد سمعتم ما قال مولانا ، فما جوابكم . فقالوا : « أمد الله فى حياة الخواجة العميد ، لقد اتفق العبيد على رأى واحد ، أنهيناه إلى الخطيب ليبلغ الأمير ما سمعه منا . فقال طاهر : « نعم ما رأيتم وحتى لا يطول الكلام فما هو الجواب ؟ » فقال الخطيب : « إن هؤلاء الأعيان والمقدمين زمرة يعمل الناس فى المدينة ونواحيها ، ولو كانوا ألف ألف شخص مرتين بما يقولون ويرسمون ، ويمتثلون أوامرهم ، وهم يقولون لقد مرّ على حكم الديالمة الظالمين ثلاثون عاما

---

(١) إشارة الى « الغارة الشعواء » على اصفهان التى شنها محمود ٤٢١ــ١٠٣٠ والتى أشار اليها صاحب محاسن اصفهان ص ٤٧ ، ١٠٧ . والتى قال عنها صاحب شذرات الذهب (ج ٣ ص ٢٢٦) فعل ما لا تفعله الكفرة . نقلا عن نسخة ب ، غنى ــ فياض حاشية (١) .

لم يراعوا خلالهافينا إلّا ولا ذمة، درست أثناءها سنن الإسلام ، إذ انتقل الملك بعد رجل كفخر الدولة والصاحب بن عباد إلى يد امرأة وصبى ٢٢ قاصر ، فتضرعنا إلى الله تعالى فألهم ملك الإسلام محمود أن يأتى إلى هنا وأغاثنا وأنقذنا من القرامطة والمفسدين ، واستأصل شأفة أولئك العجزة الذين لم يستطيعوا تدبير أمورنا ، وترك هذه الولاية ومضى بعيدا ، مفوضا أمرنا إلى أمير عادل عطوف حازم ، ومنـــذ رحل ذلك الملك لم يسترح هذا الأمير يوما ولم تجف لبد سرجه ، يفتح العالم ، ويقطع دابر الخارجين والخاملين ، ولو لم تقع هذه الحادثة العظمى ، أى وفاة والده ، لكان قد بلغ الآن بغداد واستأصل بقية العاجزين والظالمين وأغاث رعايا تلك الأنحاء فذاقوا حلاوة العدل والإحسان والنصفة فى ظل حكمه كما ذقنا ، وإلى اليوم ، وراياته ما تزال تخفق على إصفهان ، كان هذا فى المدينة أما فى نواحينا فكان حاجب شحنة بمئتين من الفرسان ، ولم يجرؤ أحد من بقايا المفسدين على أن يحرك ساكنا ، فلو أراد أحد أن يثير فسادا ويأتى إلى هنا ومعه الألف أو الألفان حتى العشرة آلاف من الجنود لحمل بلا شك شبابنا وأبطالنا الأسلحة وانضموا إلى شحنة السلطان وقطعوا دابر المفسدين وفازوا بنصر الله تعالى ، ولو أن هذا السلطان امتد سيره إلى مصر لما تغير حالنا عن هذه الحال ولما عرفنا فرقا بين هاتين الشقتين ، فإذا فرغ مولانا مما أمامه من المهام ، وسرعان ما يفرغ منها فإنها ضئيلة إزاء همته ، فسيعود إلينا هنا بالسعادة واليمن ، أو سيبعث قائدا ، وكما نحن اليوم عبيد مطيعون ، فإنا سنكون فى الغد أكثر عبودية وطاعة ، ولن نفرط يوما فى هذه النعمة العظيمة التى نتمتع بها اليوم ٢٣ ولو أن السلطان نصب علينا يوم اعتزامه الرحيل سوطا[1] لما تخلفنا عن الطاعة » .

وانتهى الخطيب من الكلام قائلا : « هذا جوابنا الذى أجمعنا عليه »

---

(١) من باب المبالغة وعلى سبيل المثال . غنى — فياض حاشية ١ ص ٢٣ .

ثم التفت إلى القوم وقال : « هل ترونني أحسنت الإعراب عن رأيكم » فأجابوه جميعا « نعم وإنا لأكثر عبودية مما وصفت » . وقال طاهر : « نعم ما قلتم جزاكم الله خيرا ، فقد قمتم بحق راعيكم العظيم » .

ثم نهض فمشى إلى الأمير وأخبره بما جرى ، فارتاح الأمير إلى ذلك وقال :

« ياطاهر إن السعادة حين تقبل تسايرها الأمور من كل الوجوه ، وهؤلاء القوم جديرون بكل إحسان ، فقد انطوى جوابهم على الحكمة . والآن لتبلغ أوامرنا بأن يخلع فورا على القاضي والرئيس والخطيب ونقيب العلويين وقائدهم وسالار المطوّعة[1] ، ولتكن خلع الرئيس ونقيب العلويين والقاضي من الذهب ، وللباقين من الطرز الموشاة ، وليتقدموا إلينا بعد ارتداء هذه الخلع ليستمعوا إلى أوامرنا ، ثم أعدهم مع رجال الحاشية إلى المدينة بالتجلة والاحترام » .

فنهض طاهر وانتحى ناحية ودعى القائمين بأعمال الخزائن فأعدوا الخلع ، ثم عاد إلى أعيان الري ، فقال لهم :

« لقد أبلغت السلطان جوابكم ، فأعجبه وسر منه كثيرا ، وأمر لسراتكم والقائمين بالعمل فيكم بالخلع السنية فلتكن عليكم مباركة ، هيا بنا باسم الله إلى خزانة الألبسة لتلبسوا الخلع هانئين » .

وذهب العرفاء بخمسة من الأعيان إلى الخزانة وألبسوهم الخلع ، ثم عاد بهم طاهر ٢٤ إلى الأمير ، وقدموا جملة الأعيان فلاطفهم الأمير وخاطبهم بالحسنى ، فدعوا له كثيرا وعادوا يصحبهم رجال الحاشية إلى المدينة في أبهة فائقة ، فسر بهم

---

(١) يقول في النص ما يفيد أنهم ستة من الأعيان ولكنه يذكر فيما بعد أنهم خمسة . ويرجح غني – فياض ان كلمة (سالار علويان) زائدة وانها من سهو النساخ . ويؤيد هذا أن لقب (سالار علويان) لم يسبق ذكره . والمطوعه جماعة تجمع لقتال الكفار وكانوا يكونون جيشا له سالار خاص يسمى سالار غازيان أو سالار غازى ، وكان هذا النظام قائما أيام الغزنويين .

أهل المدينة كثيرا ونثروا عليهم الدراهم والدنانير الكثيرة ، تعبيرا عن سرورهم بذلك . وأعادوا أرباب الرتب بالحسنى والسرور .

وفى اليوم الثانى ، وقد انتهت المراسيم ، أقبل كافة أعيان الرى إلى الخدمة مع هؤلاء المقدمين بينما وقف أكثر من عشرة آلاف من نساء ورجال متفرجين، وقد أجلسوا أعيان الرى فى المخيم(نيم ترك) [1] ودعا الأمير رضى الله عنه حسن سليمان أحد أعيان أمراء جبال هراة ولاطفه قائلا :

« إنا مزمعون على الرحيل غدا ، وقد رأينا أن نستعملك شحنة على هذا الإقليم ، وأنت قد سمعت مقالة أعيان الرى ، فلتكن كيسا يقظا كيلا يقع خلل فى غيابنـــا . ولتسر فى أهل هذا الإقليم سيرة حسنة ، وأعلم علم اليقين أنا سنعمل الفكر فى شئون هذه النواحى عندما تستقيم لنا الأحوال ونصل إلى قاعدة ملكنا ، وسنبعث قائدا كبيرا إلى هنا مع جيش عظيم بصحبته أحد الأكفاء الثقاة من أرباب القلم ، ليتخذه الجميع مثالا حسنا فى أعمالهم ، حتى يدخل باقى العراق فى طاعتنا إنشاء الله ، وينبغى رضاء الأعيان والرعية عن سيرك فيهم ، وأن يكونوا شاكرين ، هذا وسيكون نصيبك من العطايا والأموال والمنزلة والجاه وفيرا بفضلنا » . فنهض حسن سليمان ، وكان ممن له درجة للجلوس فى المجلس السلطانى ، وقبّل الأرض ثم وقف وهو يقول :

« إننى عبد مطيع ، ولست حقيقا بهذه المنزلة ، أما وقد شرفنى مولاى بهذا ، فسأبذل غاية الجهد فيه » . وأمر الأمير أن يذهبوا به إلى خزانة الملابس وألبسوه خلعة شحنة الرى الثمينة ، وهى قباء خاص بالأمير من الديباج الرومى ، ومنطقة ذهبية تقدر بخمسمائة مثقال وأشياء ٢٥ أخرى تناسبها ، فتقدم للأمير بالخلعة وأدى الخدمة . فتلقى الثناء من الحضرة العالية ، ثم رجع إلى مخيم طاهر ، فأثنى

---

(١) نيم ترك : نوع من الخيام وجاء فى حاشية يب انه نوع من الخيام الصغيرة

عليه كثيرا. وأحضروا أعيان الرى هنالك، وحدثهم طاهر بما تم فظهر سرورهم البالغ ولهجت ألسنتهم بالدعاء والثناء الكثير، ومن ثمة أمر طاهر حسن سليمان بالسير إلى المدينة مرتديا الخلعة فى جند كثيف تحف به الأعيان، وكانت المدينة مزدانة بأبهى الزينات وأخذ أهلها ينثرون الأموال الوفيرة، وأنزلوه قصرا مشيدا وقدر الناس حقه أيما تقدير.

وفى اليوم التالى، وكان يوافق الخميس لثلاث عشرة ليلة بقين من رجب سنة إحدى وعشرين وأربعمائة (١٠٣٠)، ارتحل شهاب الدولة الأمير مسعود عن الرى فى أهبة تامة وجند كثيف، كامل العدة والعتاد، يصحبه اليمن والإسعاد، وقد صحب الموكب خلق كثير، جاءوا لوداعه ومشاهدة الرحيل، حتى مسيرة فرسخين بعيدا عن المدينة حيث نزل الأمير ووقف الركب. ولبث طيلة اليوم التالى فى ذلك الموضع، وأذن لحسن سليمان والمودعين بالعودة. وجد فى المسير حتى وصل الموكب إلى ناحية خوار الرى[1] ومن ثم عهد بالأمر فى تلك الناحية إلى زعيمها، ثم غادرها بعد أن أصدر الأوامر اللازمة. وفى دامغان تقدم إليه الخواجة أبو سهل الزوزنى، وكان قد فر من غزنة خفيفا كما مر شرحه سابقا[2] فأكرمه الأمير غاية الإكرام، وقدم له رجال الأمير مسعود من الزينة والآلة ما بلغ به الغاية، واختلى به الأمير خلوة دامت من صلاة العشاء حتى منتصف الليـــل.

وكان هذا الرجل فى مقدمة حاشية الأمير شهاب الدولة، أيام كان فى هراة، ولكنه كان يأخذ الناس بالشدة ويقسو عليهم ويسىء إليهم؛ ولأن أمره كان معروفا وقد لقى ربه: فلن أقول فى حقه أكثر مما قلت، والموت غاية كل حى، والإحسان إلى الناس وحسن الخلق هما خير ذخيرة للإنسان فى دنياه وآخرته،

---

(١) اسم موضع قريب من مدينة الرى، يقال له الآن خواروراميى

(٢) لا يوجد هذا الشرح فى هذا الكتاب ـ ولعله مذكور فى أحد الأجزاء التى فقدت انظر حاشية غنى ـ فياض رقم ٤.

٢٦ ولكنه استخدم فى أيام السلطان محمود إلى غزنة وقتئذ ، وسجن فى القلعة لوشاية رجال الحاشية الذين كانوا ينفسون على الزوزنى مكانته من الأمير مسعود رضى الله عنه ، فكتبوا فى حقه العرائض واتهموه بالخيانة ورموه بسوء المعتقد ، على النحو الذى جاء ذكره فى كتابنا المعروف تاريخ يمينى ، والآن وقدمات الزوزنى والجماعة التى كانت تحيك له تلك المكائد ، وقد آذنت شمس العمر بالمغيب ، فنحن فى أثرهم سائرون ، فلن أقول فى معتقده بغير الحسنى ، فقد عاشرته قرابة ثلاثة عشر عاما أو أربعة عشر ، وخبرت أحواله فى الصحو والسكر ، فما سمعت قط منه كلاما يمكن أن يكون دليلا على سوء عقيدته . وهذا كل ما أعرفه عنه وأشهد به يوم القيامة وسيلاقى من دبروا له تلك المكائد ربهم يوم الحشر أيضا ويجيبون عما يسألون ، والله يعصمنا وجميع المسلمين من الحسد وشراسة الطبع وسوء الخلق والخطأ والزلل بمنه وفضله . أقول ، عندما وصل الزوزنى إلى دامغان ، وحاله من المهابة على ما وصفنا ، شاهد رجال الحاشية إقبال الأمير البالغ عليه واختلاءه به ، تلك الخلوة الطويلة ، فتغيرت نظرتهم إليه وعظم فى نظرهم ، وتلاشت تلك الأمانى الحلوة التى طالما كانوا يمنون بها أنفسهم قبل قدومه إلى دامغان ، فقد قال الشاعر :

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر

وبلغ الرجل لدى الأمير ما يشبه مرتبة الوزير ، حتى أصبح الرجل الوحيد الذى يخاطبه فى كل الشئون ، وهكذا ذهبت ريح طاهر وأبهة الآخرين وازداد الزوزنى رفعة وعظمة حتى آل إليه وحده تصريف الأمور . ولما وصل ركاب الأمير شهاب الدولة من دامغان إلى قرية فيها كهريز كبير [١] ، تبعد فرسخا عن دامغان ، تقدم إليه هناك فارس ، بتوقيع عظيم [٢] من قبل السلطان محمود

(١) كهريز ، قناة تحفر تحت الأرض ، لجلب المياه .
(٢) كتاب من السلطان .

رضى الله عنه ، جاء فيه عتاب بشأن أموال إصفهان وخزائنها ، ورقاع أخرى قصيرة إلى ابن كاكو ، ٢٧ ومقدمى الجيش وغيرهم مُصرحا بأن ابنى ولد عاق ، كما ذكرت من قبل . وقد ترجل الفارس عن جواده ، وتقدم فقبل الأرض وأخرج ذلك الكتاب الهام من بطانة قبائه ، وقدّمه لجذب الأمير عنان الجواد ، واستلم أحد الحجاب الكتاب ، وسلمه للأمير فأخذ فى قراءته ، حتى إذا انتهى وجه الحديث إلى الفارس ، قائلا : « لقد حررت هذه الرسالة منذ خمسة أو ستة شهور ، فأين كنت يا هذا طوال تلك المدة ، وما دعاك إلى التأخر للآن ؟ فأجاب : « أطال الله حياة مولانا لقد اعترانى مرض ، عندما ذهبت من بقلان[1] إلى بلخ فمكثت هنالك مدة ، حتى إذا وصلت إلى سرخس ، وكان فيها الحاجب الغازى سباهسالار خراسان جاء الخبر بنعى السلطان محمود ، فسار إلى نيسابور واصطحبنى معه ، ولم يتركنى لأسير إلى الحضرة ، إذ قال لى « إن ولى النعم آخذ فى المسير باليمن والسعادة ، وليس فى سيرك إليه الآن فائدة ، لأن الطرق غير مأمونة ولا ينبغى أن تذهب منفردا ، كيلا يصادفك مكروه ، ولما بلغه خبر ارتحال مولانا من الرى ، سمح لى بالسفر ، فأخذت فى المسير بكل حيطة وحذر لأن الطريق بين نيسابور وهذا المكان محفوفة بالأخطار » .

فسأله الأمير : « أين الرقاع الصغيرة التى سلمك إياها أبو نصر مشكان ، وأوصاك بالمواظبة على إخفائها حتى تسلمها » . فأجاب : إنها . معى . ورفع السرج وأخرج من لبده رقاعا مقفلة بالشمع ، ثم رفعها . فقال الأمير رضى الله عنه لأبى سهل الزوزنى خذها واقرأها لنعرف ما بها . فقال أبو سهل بعد قراءة رقعة منها ، إنها بذلك المضمون الذى قاله مولانا . ثم قرأ رقعة أخرى وقال : وهذه عين تلك ؛ فكلها بمعنى واحد . وتناول الأمير واحدة من الرقاع وقرأها ، ثم أبدى تعجبه بقوله :

(١) هكذا فى سائر النسخ ورجح صاحب ب انها بغلان (بالغين لا بالقاف) . قال عنها ياقوت انها بلدة بنواحى بلخ . وقيل بين بغلان وبلخ ستة أيام . معجم البلدان ح ٢ ص ٢٤٦ طبعة مصر .

« سبحان الله العظيم ، هذا عين ما كتبوه لنا من باقلان . ملك بلغ غاية العمر من الحياة ، وتحققت له كل الرغبات ، وترك ولده فى أرض الغربة بين أعداء أشداء وخصوم ألداء ، فإذا أغاث الله سبحانه ذلك الابن وأعانه وأيده ، فأجرى على يده الفتوح الكثيرة ٢٨ والأعمال الباهرة العظيمة ، كان الأولى به أن يظهر السرور والفرح ؛ فما معنى كل هذا الغضب .

فقال أبو سهل والذين كانوا مع الأمير : « لقد أراد أمرا وأراد الله تعالى أمرا آخر ، فترك عرشه والأموال والخزائن وكل ما يملكه لمولانا ، أما هذه الرقاع فينبغى أن تحفظ حتى يطلع عليها الناس ، ليعرفوا ما كان يصبو إليه السلطان الماضى وما قضى به القدر ، ويعرفوا قلب الكاتب ورأيه . فقال الأمير : « ما هذا الكلام ، إنه إذا جفانا فى آخر حياته مرة كهذه وكانت له فيها غاية ، فينبغى أن ننظر ألف مصلحة رعاها لنا ، وأنه قد تجاوز عن زلات لنا كثيرة ، وسأفيد اليوم من ذلك اللوم ، تغمده الله برحمته ورضوانه ، فقد عقمت النساء أن يلدن مثل محمود ، أما كاتبوها فإنهم معذورون لأنهم مأمورون ، ولا حيلة للمأمور سوى الطاعة ، خاصة مع السلطان ، ونحن مثلا إذا أمرنا كاتبا بتدوين شىء ولو أدى إلى هلاكه ، فهل له جرأة على أن لا يكتب » .

ومن ثم أشار الأمير بإلقاء تلك الخطابات بعد تمزيقها فى الكهريز الكبير الذى مر ذكره ، وتحرك الركاب بعد أن أكرم الرسول بهبة قدرها خمسة آلاف درهم .

والعقلاء حينما يقرأون هذا الفصل سيصبحون أكثر علما بأحوال وعادات هذا السلطان العظيم ، ويتقرر لديهم أنه كان نسيج وحده ، وإنى ، أبو الفضل ، تذكرت هنا نادرتين : أولاهما عن أثر قصة الخواجة أبى سهل فى قلوب خدام الأمير مسعود الذين وجب عليهم عنـــد رؤيته ٢٩ تعظيمه ، أرادوا

أو لم يريدوا ، لأن الرجال ينبغى أن يبذلوا جهدهم ليكونوا ولو لمرة واحدة كبارا ومشهورين ، فإذا تحقق هذا فإنهم يلقون حقهم من الرعاية ، سواء كانوا فى النعمة أو فى النقمة ، وتظل لهم الشهرة والعظمة ما داموا على قيد الحياة ؛ والثانية حديث تلك الرقاع وتمزيقها وإلقاؤها فى الماء ، ففى هذا العمل طمأنينة وراحة لنفوس من دبجوا تلك الرقاع ومن كان يراد خطابهم بها على السواء ، إذ أدركوا أنه لن يأخذهم بها .فكأنما الملوك، فى مثل هذه الأحوال ، يلقون إلهاما من المولى عز وجل .

وأما حديث العظمة فقد قرأت فى أخبار الخلفاء أن أمير المؤمنين هرون الرشيد بعد أن ارتحل من بغداد إلى خراسان ، وتلك حكاية طويلة ذكرت فى الكتب بواعثها وأسبابهـــا ، اعتراه مرض شديد بعد بلوغه طوس ، وأشرف على الهلاك ، فاستدعى الفضل بن الربيع ، وكان الرشيد قد استوزره بعد البرامكة ، فلما أتى اختلى به وقال :

« يا فضل ، لقد دنت ساعتى وآذنت نهايتى ، فإذا ما مت فادفنى هنا وابعث بعد الفراغ من دفنى ومأتمى ، بكل ما معى من الخزائن ومعدات الحرب وباقى الأشياء وبالعبيد والغلمان والخيل والدواب ، إلى ابنى المأمون فى مرو ، فإن محمدا فى غنى عنها ، إذ له ولاية عهد بغداد ، ولديه هناك سرير الخلافة والجند وشتى أنواع الخزائن ، ولا تمنع أحدا ممن هنا من الجند والخدم من أن يسير إلى المأمون إذا رغب فى ذلك ، ثم ارجع ، بعد أن تفرغ من كل هذا ، إلى بغداد ، عند ٣٠ محمد لتكن له وزيرا وناصحا ، ولتحافظ على ما خلفته لأولادى الثلاثة ، ولتعلم بأنك ، إن آثرت الغدر وسلكت طريق البغى ، أنت أو أى من خاصتى لكان عارا ، فإنكم بذلك تسخطون الله وتلقون عقابه » . فقال الفضل بن الربيع : « أعاهد الله تعالى وأمير المؤمنين على أنى سأحفظ هذه الوصية وأقوم بتنفيذها . » ومات الرشيد رحمة الله عليه فى تلك الليلة ودفن فى اليوم التالى ، وأقيم له مأتم

عظيم ، وأوعز الفضل إلى كافة الجند والحاشية بالشخوص ، فساروا إلا قليلا منهم كانوا يميلون إلى المأمون فساروا سرا أو علانية إليه فى مرو . وارتحل الفضل وبلغ بغـــداد وقام بأعباء الوزارة وانصرف محمد بن زبيدة إلى اللهو والمجون . ثم عمل الفضل حتى أسقطوا اسم المأمون من ولاية العهد ، وأوعز إلى الخطباء أن يذكروه بالسوء من فوق المنابر ، كما أمر الشعراء بهجائه ، وتلك قصة طويلة ونحن نهدف إلى أمر آخر . وبذل الفضل كل ما فى وسعه للحط من شأن المأمون وتحقيره ، بيد أنه لم يستطع الوقوف فى سبيل قضاء الله تعالى ، فقد سار طاهر ذو اليمينين إلى الرى حيث كان يعسكر على بن عيسى بن ماهان فغلبه واحتز رأسه وجاؤا به إلى المأمون فى مرو ، ثم اتجهوا من الرى إلى بغداد من جهتها ، فهاجمها من إحدى جهاتها طاهر بينما كان هرثمة بن أعين يهاجمها من جهة أخرى ، واستمرت الحرب سجالا مدة عامين ونصف عام ، إلى أن انتهت بوقوع ابن زبيدة بيد طاهر فقتلوه ، وأرسلوا برأسه أيضا إلى المأمون فى مرو .

واستقامت الخلافه بعد ذلك له ، ولبث بمرو سنتين وقعت خلالهما بعض الأحداث ، حتى قدم المأمون إلى بغداد ، فاشتد بذلك إزر الخلافة واستتبت أمورها وزالت كل أسباب النزاع والخلاف وانتهت الاضطرابات ، وتوارى الفضل بن الربيع عن الأنظار على أثر ذلك أكثر من ثلاث سنوات ثم وقع فى يد المأمون ، وهذه قصة طويلة جاءت أخبارها فى تاريخ الخلفاء .

وكان المـأمون كما اشتهرعنـه ، نسيج وحده حلما وعقلا وفضلا ومروءة ، مستجمعا لكل ما ينبغى أن يتحلى به العظماء والسراة ، فصفح عن الفضل وغفر له مع ٣١ كل ذلك الجفاء ، على أن يقيم فى منزله وألا يتولى الخدمة . ومرت الأيام الطوال على الفضل فى ذلك الحال ، حتى عزم جماعة من حاشية المأمون وخاصته ، على انتهاز الفرص المواتية ، فشفعوا له عند المأمون لمـا كان للفضل من المكانة والمنزلة والأيادى البيضاء التى لا تنسى ، وما زالوا بالخليفة يستعطفونه

حتى رق قلبه له فعفا عنه ، وأمر بأن يعود الفضـــل إلى الخدمة ، وبعد أن صدر هذا الأمر أرسل الفضل رجلا إلى عبد الله بن طاهر ، كبير حجاب المأمون فى ذلك الوقت وكانت بينهما صداقة قوية ليقول له : « لقد تجاوز أمير المؤمنين عن زلتى وأمر أن أعود إلى خدمة الدركاه ، وإنى أعرف أن هذا الأمر قد تم ، بعد فضل الله تعالى ، بعون منك ، فقد بذلت كل ما فى وسعك من جهد حتى حققت لى هذه الأمنية ، غير أنك تعلم ما كان لى وما كان لأبى من مكانة ، فما عسى أن يكون شأنى فى الخدمة ، ومنزلتى فى الدولة بعد الآن ، فأرجو أن تبذل جهدا آخر لأعلم ما ستكون عليه منزلتى وهى مهمة تستطيع القيام بها لأنها من جملة أعمالك فأنت كبير الحجاب ، وأرجو أن لا يعرف أمير المؤمنين صدور هذا الالتماس عنى » .

فقال عبد الله للرسول « سأبذل شاكرا كل ما أستطيع لذلك » . وذهب عبد الله إلى الحضرة بعد صلاة العصر ، لكنه لم يجد إذنا ، فكتب رقعة إلى مجلس الخلافة قال فيها : « لقد أمر مولانا أمير المؤمنين كما هو منتظر من حلمه وكرمه بالعفو عن ذلك العبد المذنب ، الفضل بن الربيع ، فأحياه بذلك ، وأذن له بالعودة إلى الخدمة ، ففرح بهذه المنة العظيمة التى منّ بها على الخدم أجمعين ، وأطمأنت إليها نفوسهم ، والآن أسأل عما يكون الأمر العالى عن الدرجة التى يجب وضعه فيها إلى أن يتشرف بخدمة سدة الخلافة » . فلما أوصل الخادم الخاص الرقعة إلى الخليفة ، وكانت عادة عبـــد الله بن طاهر مع الخليفة المأمون عندما يحتجب عن الناس ، أن يرسل إليه أمثال تلك الرقعة ٣٢ كتب الخليفة ردا بخطه جاء فيه : « ياعبد الله بن طاهر ، لقد اطلع أمير المؤمنين على ما كتبته بشأن الباغى الغادر الفضل بن الربيع ، أما وقد بقى حيا للآن فقد امتد به الطمع ، فأخذ يطلب لنفسه الجاه والرفعة وينبغى أن تجعله فى أخس الدرجات بحيث لا يرقى شأنه عن شأن فارس خامل الذكر والسلام » .

فلما قرأ ابن طاهر هذا الجواب ، أسف غاية الأسف ، وأرسله مع أحد ثقاته سرا ، وقد كتب على ظهر الجواب ، إلى الفضل بن الربيع ليقول له : « ها قد وصل الجواب على هذا النحو ، والصواب أن تأتى فى الصباح الباكر ، فتجلس فى المكان الذى أمرت بإعداده لك فإنه لا مجال للكلام واستطلاع الرأى خشية أن يحدث ما لا تحمد عقباه . ومولانا هذا ، شهم كريم ، ولعله لو رآك لا يعجبه أن تكون على تلك الحال الوضيعة ، ويتم هذا الأمر على مر الأيام . »

وبعد أن وصل المعتمد إلى الفضل وبلغه الرسالة واطلع على الرقعة والجواب . قال : سمعا وطاعة إنى سأعمل بما يأمرنى به ويرى فيه صلاحى : يا عبد الله بن طاهر ، سترى انى لن أحيد عما تأمر به قيد شعرة .

وأمر عبد الله بن طاهر أن يشيدوا فى مدخل دار الخلافة مصاطب ، وأن يفرشوها بالبسط[1] للجلوس ، ثم أوعز بأن يجلسوا الفضل على إحداها فى مدخل القصر ، على أن يكون العبور من هذه الصفة إلى السراى الآخر ، وكانت السرايات تختص بكل من له مرتبة من أرباب النوبة والجند إلى مقام الوزير وكبير الحجاب . وكأمر أمير المؤمنين ، جعل موضع الفضل فى السراى الخاص ، وأوعز إليه بالحضور وقت الغسق ، فجاء وجلس فى تلك الصفة تحت ٣٣ الشاذروان ، فلما طلع النهار وأخذ الناس فى الوفود إلى القصر الخارجى ، كانوا يتقدمون إلى الفضل ، بالضرورة عند رؤيته ، ويحيونه بتجلة واحترام ، لما كان له فى نفوسهم من علو المنزلة وسامى المكانة ، فقد كانت عيونهم ممتلئة من مهابته ، وكان هو ، بالتالى يحتفى بهم ويعتذر إليهم بكل لطف وتواضع حتى يجوزوه ،

---

(١) هنا يعبر بكلمة محفور . وجاء فى القاموس أن محفورة بلدة بشط بحر الروم وينسج بها البسط . واستخدم البيهقى المحفور عدة مرات بمعنى البساط المحفورى .

وكذلك كان الحجاب والأمراء والأعيان يعاملونه تلك المعاملة الطيبة ، وكانوا يحتفون به الحفاوة اللازمة ، أما كبير الحجاب عبد الله بن طاهر ، فقد كان أكثرهم تجلة واحتراما له معتذرا عن إجلاسه فى القصر الخارجى الذى تم امتثالا للأمر ، وأمله بالعمل على إصلاح الحال بأقصى ما يستطاع من الجهد . ثم تركه وذهب إلى مجلسه حتى حل وقت الاستقبال . وحينما أذن أمير المؤمنين دخل كل الأعيان كالوزير وأصحاب المناصب والأمراء والعظماء وأركان الدولة والحجاب والقواد والوضيع والشريف . وحل كل منهم فى مكانه ، حسب رتبته واقفا أو جالسا ، واستقر بهم المقام . تقدم عبد الله بن طاهر كبير الحجاب إلى أمير المؤمنين ، قائلا « لقد جاء العبد الفضل بن الربيع تنفيذا للأمر ، وقد جعلت مكانه فى القصر الخارجى حسب الأمر وأنزلته المنزلة الوضيعة ، فما هو أمركم فى تقديمه ». ففكر أمير المؤمنين برهة، ثم غلب عليه حلمه وكرمه فأذن له بالمثول ، فأوعز عبد الله بن طاهر إلى حاجب باستقدام الفضل بن الربيع ، وعندما وصـــل إلى حضرة الخلافة أدى فروض الطاعة والعبودية والولاء كما يجب واستعطف كثيرا أمير المؤمنين باكيا متضرعا حتى يعفو عما صدر عنه من الخطايا والذنوب ، فاستحيا الخليفة وعطف عليه وصفح عنه وأذن له بتقبيل يده . وعندما انتهى الاستقبال وعاد كل إلى موضعه أخذ كبير الحجاب عبد الله ابن طاهر الوزير معه شفيعا ، وبذلوا الجهد فى شأن الفضل بن الربيع حتى شمله الخليفة بالرضا ثانية ، وأمر أن يعينوا له مكانه فى السراى التى يجلس فيها الأعيان وأن يوعد بالعناية والإحسان .

وخرج عبدالله بن طاهر من لدن الخليفة فى الحال وأبلغه هذا التشريف ٣٤ الذى أمر به الخليفة ، وبيّن منزلته وأمّله بعنايات أخرى . فعادت الحياة إليه بذلك ، وهدأ خاطره إلى المكانة التى عينها له طاهر . وحينما فرغ عبد الله بن طاهر من خدمة الخلافة وحان وقت العودة وركب من دار الخلافة ليسير إلى داره

كان الفضل بن الربيع بعد فى دار الخلافة، فلما عاد عبد الله بن طاهر بادر الفضل لمشايعته فلوى عبد الله العنان، ووقف والتمس من الفضل أن يرجع، ولكنه لم يعد بأية حال، وسارا والعنان إلى العنان حتى باب قصره . وعندما وصل عبد الله إلى باب سرايه، كان خجله من الفضل بن الربيع عظيما، وبدا عليه ذلك واعتذر إليه يلتمس منه العودة فقال له الفضل إنك قمت بحقى من إحسان وعناية وسؤدد كما كان متوقعا من أصالك وفضلك ومروءتك وليس لى فى الدنيا شىء أراه جديرا فى مقابل صنيعك أعظم من أن أضع عنانى إلى عنانك من عتبة الخلافة إلى عتبتك، وأقسم بالله تعالى، أنى ما سقت عنانى إلى عنان الخلفاء طيلة حياتى للآن، وها أنذا قد ضممت عنانى إلى عنانك مكافأة لتلك المكرمة التى قدمتها لى . فقال عبد الله « إنه لكما تقول، وها أنا قد تقبلت هذه العناية الكبرى بقلبى وناظرى، وعرفتها منة عظمى وأدخر هذا الفضل لأسرتى » . ثم لوى الفضل عنان الجواد وعاد إلى الدار، فوجد محلته وسرايه مشحونتين بالعظماء وأفاضل الحضرة، فجلس فى مكانه وأخذ يعتذر للناس، ويبعدهم، واستمر حتى الليل . وجاء عبد الله بن طاهر بعد صلاة العصر، وأدى مراسم التهنئة وعاد .

انتهت هذه القصة، وإن العاقل الذى يتأمل فيها يستطيع أن يرى على أى نحو كان عظماء العصر هؤلاء .

وأما حديث الرقاع فى الوقت الذى كان فيه المأمون بمرو، كان طاهر وهرثمة ٣٥ بباب بغداد، وضيقوا الخناق على محمد بن زبيدة، واستمرت رحى تلك الحروب الطاحنة تدور زمانا وكان المقدمون والأكابر وأصناف الناس يتقربون إلى المأمون ويكتبون الرسائل، فأمر أن تودع تلك الرسائل فى بضعة أسفاط واحتفظوا بها؛ وكذلك فعل محمد . فلما قتل محمد، ووصل المأمون إلى بغداد، أحضر الخزنة تلك الرقاع التى كان الأمين قد أمر بحفظها، أمام المأمون، وعرضوا أمر الرقاع التى كانت قد كتبت من مرو فاختلى المأمون

بوزيره الحسن بن سهل وذكر حال أسفاطه وأسفاط أخيه ، وقال « ماذا ينبغى العمل به فى هذا الباب » فقال الحسن « يجب إبعاد خونة الجانبين » فضحك المأمون وقال « فلن يبق إذا ياحسن أحد من الفريقين فيذهبون وينضمون إلى العدو ويدعوننا ، وكنا أخوين كلانا يستحق سرير الملك ولم يكن هؤلاء الناس يعلمون إلى أينا تؤول الأحوال ، فرأوا أن الأولى بهم رعاية أنفسهم ، ولو أن كل ما أتوه كان خطأ ، لأنه ينبغى للعبيد مراعاة الأمانة ولن يضار أحد من أجل الصدق .

وإذ أعطانا الله تعالى الخلافة ، فإنا ننسى هذا ولا نؤلم قلب أحد » . فقال الحسن « إن مولانا على الحق فى هذا الرأى العظيم الذى رأى وإنى على باطل ، فبعداً لعين السوء » . ثم أمر المأمون فأحضروا الأسفاط وألقيت فى النار حتى احترقت تلك الرقاع . ويعلم العقلاء غور هاتين الحكايتين وقد انتهيتا . وأعود ثمة إلى التاريخ ، والغرض من ذكر ٣٦ تلك الحكايات هو أن يزدان بها التاريخ ، وأن كل ذى عقل ترافق الهمة عقله يجد العون من الأيام ويرفعه ما يتخذ من الحيلة حتى يزيد من منزلته بالتكليف والتدريج والترتيب ، ولا يعوّد طبعه على التفكير فى أن تلك الدرجة التى بلغها فلان يصعب بلوغها فيتراخى ويتقاعس ، أو يقول كيف الوصول إلى ذلك العلم الذى لفلان ، بل يبذل الهمة حتى ينال تلك الدرجة وذلك العلم . فإن أكبر عيب للرجل الذى أعطاه الله عز وجل همة سامية وفهما ثاقبا ، دون عناء ، وهو يستطيع أن يحصل على منزلة أو يتعلم علما ، ألا يعنى به وأن يتراجع خائرا . وقد أتى أحد العظماء فى هذا الباب بمعنى بليغ هو ، شعر :

ولم أر فى عيوب النـاس شيئا كنقص القادرين على التمام[1]

---

(١) من قصيدة للمتنبى مطلعها :

ملومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

وفائدة الكتب والحكايات وسير الماضين أن تطالع على مهل ، فيأخذون منها ما يهمهم ويفيدهم والله ولى التوفيق .

* * *

وحينما أراد الأمير شهاب الدولة ، رضى الله عنه ، الرحيل من دامغان أمر أن يكتب إلى الغازى الحاجب سپهسالار خراسان وكذلك إلى القضاة والأعيان والرئيس والعمال بأنه قادم إليهم ، فيجب أن تنظم الشئون كما ينبغى فى مثل هذه الأحوال ، وعلى الحاجب الغازى أن يتأهب للقاء الأمير ، وأن يكون معه جنوده القدماء ومن أعدهم حديثا ، وأن يكونوا جميعا مجهزين بأكمل عدة وسلاح ، هذا وسيجزى الحاجب الغازى خير الجزاء لقاء ما أدى لنا من الخدمات الخطيرة ، كما سينال الجند الجدد قسطا وافرا من الرعاية والإحسان ، ويجب أن نكون فى اطمئنان إلى ما أعده الرئيس والعمال من العلوفة ليستكمل الجميع كل نقص ويتلافوا كل عيب ، فإن قدومنا إليهم قد بات قاب قوسين أو أدنى .

٣٧ فلما بلغ الرسل المسرعون الأوامر إليهم ، أخذ الحاجب الغازى ومن معه فى القيام بكل ما يلزم من الأعمال بأسرع ما يستطاع ، وقاموا دون توان أو إهمال ، بما طلب إليهم ، فلم يبق بعد ذلك ثمة نقص فى أى أمر من الأمور ، وتم كل ما كان يراد القيام به من الأعمال على يد أهل السلاح . ثم وصل ركاب الأمير مسعود باليمن والسعادة إلى رستاق بيهق ، وسارع إلى استقباله سپهسالار خراسان ، تصحبه الجيوش الجرارة بأبهة واحتشام ، ووقف الأمير على ربوة ، فسار إليه الغازى وقبّل الأرض بين يديه ثلاث مرات ، فأمر الأمير أن يكرموه وأن يأخذوا بعضده حتى يقوم ، فاستوى واقفا وقبّل ركاب الأمير ، فقال هذا :

« لقد أديت ما عليك حق الأداء ، فبق أن نقوم نحن بما علينا أيضا ، ولقد منحناك السپهسالارية اليوم ، وسنضيف إليها الخلع الواجبة ريثما نصل سالمين إلى نيسابور » .

فقبّل الغازى الأرض ثانية ثلاث مرات ، ثم أحضر مقدمو الجيش جواد السپهسالار وأركبوه إياه ، فوقف بعيدا عن الأمير واستدعى إليه النقباء وقال : « ينبغى أن يوعز إلى الجند ليتهيئوا للتعبئة ويسيروا ليراهم مولانا ، وعلى الطلائع والمقدّمين أن يحسنوا الخدمة » . فأسرع النقباء وأبلغوا المقدّمين فارتفعت أصوات الطبول وعلا نفير الأبواق وشقت نداءات الرجال عنان السماء ، وبدأت الجنائب تسير بكامل أسلحتها ودروعها والغلمان المجهزون بالعلامات والمطارد وخيل الخاصة بكثير من الفرسان والرجّاله ، وفى أثرهم أفواج خيالة كل مقدم ، بتمهيد حسن وعدة كاملة ، ومروا فوجا فوجا ، وعلى كل فوج قائده الذى كان يقبّل الأرض ويقف ، وظل هذا العرض ممتدا من الضحى حتى المساء ، حتى مروا جميعا . ثم تعطف الأمير على الغازى السپهسالار والمقدمين ٣٨ ونزل من تلك الربوة .

وفى اليوم التالى ركب الأمير إلى المدينة ، وكانت المسافة إليها نحو ثلاثة فراسخ ، وكان قد تحرك ما بين الصلاتين ووصلها وقت العشاء ولم يبق فى مدينة نيسابور أحد إلا وخرج للاستقبال والمشاهدة ، تلهج ألسنتهم بالدعاء ، وكان القراء يرتلون آيات الذكر الحكيم ، والأمير رضى الله عنه يثنى على الأعيان جميعا ، ولاسيما على الإمام صاعد القاضى ، وقد كان أستاذه ، وكان الناس عطشى لرؤية هذا الملك ، وكان يوما لم يعهد أحد مثله . ولما وصل الأمير إلى حدود المدينة ، أمر أن يعيدوا الناس ، ثم سار شطر حديقة شادياخ فنزلها بالسعد واليمن فى العاشر من شعبان تلك السنة . وكانت الأبنية والعمارات المشيدة فى شادياخ مزدانة كلها بأنواع الرياش ، وقد فرشت بالفرش الثمينة التى أعدها الوزير حسنك

خاصة لهذه المبانى مما لم يذكر أحد مثلها ، ويشهد من رأوا تلك القصور بصحة ما أكتب هنا .

وفى اليوم التالى اعتلى العرش ، وكان فى صفة التاج وسط الحديقة ، واستقبل فى حفل مهيب ، إذ امتدت صفوف الغلمان بما يلى الصفة بعيدا ، والعرفاء وأهل الرتب لا يحصون عدا ، حتى باب الحديقة ، وفى الساحة وقف كثير من الفرسان والحشم للتحية وظلوا بين واقف وقاعد ، وأمر الأمير بإجلاس السپهسالار الغازى ، ثم دخل القضاة والفقهاء والعلماء وتكلموا فى التهانى والتعازى ، وأثنوا على الأمير رضى الله تعالى عنه ، ولكنه لم يحتف بأحد احتفاءه بالقاضى صاعد وأبى محمد على وأبى بكر اسحق مَحْمَشاد الكرامى ، ثم إلتفت إلى الجميع قائلا ٣٩ :

« إن هذه مدينة مباركة أحبها وأحب أهلها ، وما قمتم به فى حى لم أر له نظيرا فى أى من بلاد خراسان ، وأمامنا عمل يبدو أنه سينتهى سريعا بفضل الله عز ذكره ، وسننظر بعد الفراغ منه فى شئون أهل خراسان عامة ، وأهل هذه المدينة خاصة ، وسنأمر الآن بإلغاء ما استحدثه حسنك من النظم والمراسيم ، وبأن تكون قاعدة الأعمال فى القضاء وغيرها بنيسابور على ما كان متبعا من ذى قبل ، وقد كنا نسمع ونحن فى هراة بما يصيب الناس من عسف وجور على يد حسنك وأعوانه ، ولم نرض به ، بيد أن الأحوال وقتئذ لم تكن تساعد على الحيلولة دون ذلك ، وسيلقى هؤلاء جزاء ما اقترفوا من آثام فى تلك الأيام ، ومنذ الآن ستنظر المظالم يومين فى الأسبوع ، على أن تفتح أبواب دار الولاية للجميع دون تفريق بين شريف ووضيع ، فيعرض كل صاحب مظلمة ظلامته ، ويطلب العدل فيها ، دون أن يتجشم أى عناء . وسيبقى الحاجب الغازى السپهسالار خارج مجالس المظالم مع بقية النواب ، وينبغى أن يقصدوا الديوان والدركاه وترفع إليهم الظلامات ليعملوا فيها بما يجب . وقد أمرنا بأن نستعرض

السجون اليوم ، وبأن تفك قيود المسجونين وأن يطلق سراحهم ، كى يتمتع الجميع ويهنأوا بقدومنا لهذه المدينة ، فإن اقترف أحد إثما بعد ذلك يعاقب عليه فى حينه » .

وسر الحضور بهذه البيانات الملكية سرورا كبيرا ، وأثنوا على السلطان ثناء عاطرا ، وقال ٤٠ القاضى صاعد : « أجل ، لقد أبدى الأمير فى هذه الجلسة الواحدة من الكرم والشهامة مالم يبق معه لأحد أى كلام ، وإن لى حاجة واحدة أعرضها إن أذن لى ، فاليوم يوم سعد ، والمجلس مجلس مبارك » . فقال الأمير : إن كل ما يقوله القاضى هو عين الرشد والصواب . فقال القاضى : يعلم السلطان أن الأسرة الميكائيلية أسرة قديمة وهم من خواص هذه المدينة وآثارهم ظاهرة وإنى لأعترف بحقهم علىّ ، فقد نشأت فى ظل نعمتهم وبلغت هذه المرتبة من العلم بعد فضل الله برعايتهم ، ولهم حقوق فى عنقى ، وقد أصاب من بقى منهم من جور حسنك وغيره حيف كبير وضرر بالغ ، فصودرت أملاكهم ودرست أوقاف آبائهم وأجدادهم ، فتغيرت معالمها وطرقاتها ، فإن رأى الأمير أن يأمر بإرجاعها إليهم اليوم كما تقضى همته وديانته ، فتلك منة عظيمة ينتفع بها أفراد تلك الأسرة وجماعة آخرون اضطربت أحوالهم وتشتت شملهم ، فتحيا تلك الأوقاف ويصل ريعها أيضا إلى عابر السبيل . فقال الأمير رضى الله عنه : إن هذا الرأى سديد . وأشار توا إلى القاضى مختار بن أبى سعد كى يستخلص أوقاف الميكائيلين من يد المغتصبين ويسلمها لمن يثق به حتى يقوم بتدبيرها ، فتعم الفائدة من غلاتها وينفق ريعها فى الوجوه الموقوفة عليها . ثم قال الأمير : أما أملاكهم الخاصة فلا علم لنا بها ، ولا نعرف ما دعا السلطان الماضى العظيم إلى اتخاذ تلك الطريقة بشأنها ، فليذهب أبو الفضل وأبو إبراهيم ابنا ميكائيل لمقابلة أبى سهل الزوزنى بالديوان ليخبراه بما يعلما من أمر تلك الأملاك ، ليعرض الأمر علينا فنأمر فيه بما ينبغى ، وللقاضى أن يحيطنا علما بأمثال هذه الأمور لنجيبه إليها جميعا ، كما أن له أن يكتب

إلينا بعد سفرنا . فقال القاضى « سمعا وطاعة » ولهجت ألسنة الجميع بالثناء الوافر ، ثم حضر آل ميكائيل وجماعتهم ٤١ ومن يتبعهم إلى الديوان ، وعرضوا أحوالهم ، فألقى القبض على كافة الدهاقين والوكلاء والمزارعين الأثرياء وغيرهم ممن ذكروا أسماءهم ، واستوفى منهم مال كثير وافر ، فأصبحوا أذلة بعد عزة . وأبلغ أبو سهل حقيقة الأمر للأمير ، فأعيدت إلى آل ميكائيل أملاكهم ، وأصبحت لهم المنزلة المرموقة ، وفى تلك الأيام وصلت من الرى رسائل جاء فيها :

« إن جماعة من المغرورين يتزعمهم أحد الشاهنشاهية قصدوا إلى الرى ، بعد أن غادرها الركاب العالى ، لإثارة الفتنة فى البلاد ، وإن زعيمهم هذا ، الذى هو من أعقاب آل بويه ، أوفد إلى حسن سليمان رسولا ، وإن حسن سأل أعيان الرى قائلا : « ماذا ينبغى أن يكون الجواب وماذا يجب أن نعمل » فأجابوه قائلين « دع لنا هذا الأمر ونحن نريحك منه » . ثم أدخلوا الرسول إلى المدينة وأخذوا يعدون العدة ثلاثة أيام ويجمعون الناس ، وفى اليوم الرابع ذهبوا بالرسول إلى ظاهر المدينة حيث أوقفوه على ربوة ، وأقبل حسن سليمان بخيله المسوّمة ومر به ومن ورائه أهل المدينة ، أكثر من عشرة آلاف رجل ، بأتم سلاح ، أكثرهم من رجّالة المدينة ونواحيها القريبة ، وبعد أن مر ذلك الموكب خاطب أعيان المدينة الرسول قائلين له :

« لقد رأيت ما رأيت ، ألا فاعلم أن مليكنا هو السلطان مسعود ابن السلطان محمود ، ونحن له ولرجاله مطيعون ، وليس لصاحبك أو لمن يأتى إلى هنا دون أمر سلطاننا جواب لدينا سوى حد السيف وطعن الرماح ، فعد ، وأخبر صاحبك بما سمعت وصف ما رأيت من غير نقصان ، ولا تخن ، وقل له ، إن السلطان أنقذنا من أيدى الديالمة ، وإن أهل الرى قد ذاقوا بعد خلاصهم منهم طعم الراحة والهناء » .

فوعدهم الرسول بتحقيق مطالبهم فأثابوه ، ومضى إلى سبيله فأخبر بما رأى . هذا وقد أكدت حفنة من المفسدين والغوغاء الذين اجتمعوا حول المغرور البويهى بأن « لا خطر من العامة فينبغى قصدهم حتى نسلمك الرى فى يومين أو ثلاثة » . فنفخوا الأبواق وحثوا السير إلى الرى .

وما أن عرف حسن سليمان وأعيان الرى بمجىء المخالفين حتى أرسلوا الخطيب إلى الأمير الديلمى المغرور ينصح له أن لا يطمع فى الحصول على مغنم على يد هؤلاء الحمق الذين ٤٢ تجمهروا حوله ، وينبئه بأن أهل الرى لا يعترفون بغير السلطان مسعود ملكا عليهم ، فالأولى به أن يحقن دماء من حوله وإلا تسبب فى إهلاكهم عن بكرة أبيهم ، فتمتلىء المقابر بأجسادهم ، على أنه إن كان يريد شيئا من المال فالقوم مستعدون للبذل ، لأنه من أصل كريم معروف ، هذا وكل ما يقال فى هذا الشأن ليس إلا لكف الأذى ودفع الفتنة وإلا فقد أعذر من أنذر .

فذهب الخطيب وأبلغ الديلمى ومن معه الأمر ، بيد أن الأمير المغرور وأصحابه من الغوغاء ثاروا جميعا ونفروا للقتال ، وعاد الخطيب إلى قومه يبلغهم : « أنه لم يلق من تلك الجماعة لقوله قبولا ، وأنتم الآن أعلم بما يجب عمله » .

فعبأ حسن سليمان جيشه تعبئة رائعة ، وأعطى كل شىء حقه ، وكذلك جهز من لم يكن تسليحه كاملا ، هذا وقد خرج إلى باب المدينة أكثر من خمسين أو ستين ألفا من سكانها ، إلا أن حسن أوعز إلى الرئيس والأعيان كى يأمروا الناس بالتريث فى أماكنهم ، فلا يخرج أحد من المدينة ، بينما يذهب هو والجند لقتال الأعداء . فنفذ الرئيس والأعيان وصيته وأخذوا للأمر عدته ، وسار حسن ، متوكلا على الله عز ذكره ، نحو الأعداء بكل تؤدة وإحكام ، فوقف المشاة المدرعون إلى جانب الفرسان ، وبرز إليهم الخصوم فكانت معركة عنيفة

هائلة ، رجحت فيها كفة المخالفين أكثر من مرة ، بيـــد أنهم لم يفيدوا شيئا فى النهاية ، فقد عبأ حسن جيشه بمنتهى المهارة والدقة والإحكام ، فما أن اشتدت حرارة النهار ، واستبد العطش بأولئك المخذولين وأنهكهم التعب ، حتى أمر حسن قبيل الظهر بالتقدم بالراية الكبرى فحمل ومعه جماعة من الفرسان الممتازين على الأعداء حملة موفقـة ودهموا قلب العدو فهزموه ٤٣ هزيمة منكرة ، واستولوا على راية الأمير البويهى المغرور ، فلاذ بفضل جواده العربى ومعه نفر على خيول سريعة بالفرار . أما مشاة الأوباش فقد عجزوا عن الفرار وأسقط فى أيديهم ، وتفرقوا أيدى سبا بين الأنهار والوديان ، وصاح حسن برجاله : « عليكم بهم ، أثقفوهم حيث وجدتموهم ، وألقوا بالرعب فى نفوسهم ، حتى لا يرجعوا ثانية ، ولا يحدثن أحد نفسه بعد هذا بالاستيلاء على الرى » . فسارع فرسان حسن بخيولهم وأعملوا السيف فيهم ، وخرج أهل المدينة وراءهم أيضا يشبعون الأعداء ضربا فقتلوا منهم خلقا كبيرا وأسروا آخرين . وعند صلاة العصر أمر حسن رجاله بالكف عن القتل والأسر ، فكفوا ، وعادوا بعد مغيب الشمس إلى المدينة ، ولاذ من كان قد اختفى من بقية المخذولين بالفرار ، فى سواد الليل البهيم .

وفى اليوم التالى ، أمر حسن بإحضار الأسرى ، ورءوس القتلى ، فكانوا أكثر من ثمانية آلاف وثمانمائة رأس وأكثر من ألف ومائتين من الأسرى ، فأوعز حسن بإقامة نصب تعلق عليها الرءوس ، فأقاموا مائة وعشرين مشنقة فى الطريق الذى سار فيه الأعداء مولين ، وشنق الأقوياء والبارزون من بين الأسرى والمفسدين ، فروّع الجميع من هول ذلك ، ثم أطلق سراح بقيـة الأسرى ، وقيل لهم : اذهبوا فاذكروا كل ما رأيتم ، وليأتنا من يتمنى المشنقة والقتل . وذهب أولئك الأسرى لشأنهم ، وأما أهل الرى فقد وفوا بما عاهدوا الأمير ، أطال الله حياته ، عليه ، ولم ٤٤ يتوانوا فى أداء حق الولاء

والإخلاص ، وهكذا تحققت بيمن طالع الدولة العظيمة هذه الهيبة العظمى ، بحيث لم يقصد بعد ذلك طامع هذه البلاد ، فإن استصوب مولانا أن يكافىء هؤلاء الأعيان لقاء ما بذلوا ، فإنهم يزدادون بذلك حرصا على الخدمة إن شاء الله » .

وحينما اطلع الأمير مسعود قدس الله روحه على هذه الرسالة ، سر بها سرورا بالغا وأمر أن تدق الطبول وتنفخ الأبواق ، وأن يطاف بمن جاءوا بالبشرى . وأغدقوا عليهم الصلات ، وذهب أعيان نيسابور إلى المصلى شكرا على قدوم الأمير إلى بلدتهم ، وعلى هذا الفتح الجديد . ووزعت الصدقات وقربت القرابين الكثيرة ، وكانت البشائر تترى كل يوم على الأمير .

وفى هذا الأسبوع وصلت الأخبار بوصول رسول الخليفة القادر بالله رضى الله عنه قرب بيهق ، حاملا من الصلات والإنعامات السنية ما لا يذكر الناس أن سلطانا قد حظى بمثلها من قبل فطابت نفس الأمير ، رضى الله عنه ، بتلك الأخبار تماما ، وأمر من فوره بتهيئة ما يلزم من المعدات الكاملة لاستقباله . وجاء أهل المدينة إلى القاضى صاعد وقالوا إنهم سمعوا بوصول الأمير قرب نيسابور وهم يريدون إقامة أقواس النصر ومراسم الابتهاج . ولكن الرئيس قال : إن مثل هذه المظاهر لا تتناسب وما عليه الأمير الآن من الحزن لمصابه الكبير فى أبيه السلطان محمود ، أنار الله برهانه ، وإنه يقول هذا بأمر منه ، وينبغى إرجاء هذا لوقت آخر . وها قد انقضت مدة والأمور تزداد حسنا كل يوم ، والرسول آت الآن من بغداد بجميع الآمال ، فهلاّ يرى القاضى استئذان الأمير حتى يلقى فى قلوب الكثيرين من الخلق السرور ، ويأذن حتى يقيموا المهرجانات العظيمة ؟ فأجابهم القاضى : « نعم ، إن الفرصة تبدو الآن مواتية وهذا لعمرى رأى رشيد » .

وفى اليوم التالى التمس القاضى٤٥ الإذن من الأمير فأذن له . ثم أبلغ القاضى الرئيس بما أذن به الأمير قائلا : « أرى أن تكون تلك الزينات والمهرجانات غاية فى العظمة والبهاء » . فعاد الرئيس إلى منزله واستدعى أعيان الأحياء والتجار وقال لهم : « لقد أجاب الأمير سؤالكم فعليكم أن تقيموا المهرجانات وأن تزينوا المدينة بصورة لم يسبق لها مثيل ، ليعلم رسول الخليفة حال هذا البلد ويزداد تعلق السلطان به ، إذ تمت له فيه هذه المفاخر » فقالوا : « سمعا وطاعة » . وعادوا وقاموا بما لا يخطر على بال أحد ، واتصلت محافل الطرب وسرادقات الأنس والمباهج من أبواب المدينة حتى السوق ، قوسا بعد قوس وقبة وراء قبة ، ومنه إلى مبنى مسجد الجمعة الذى أعد خصيصا لنزول الرسول . وبعد أن تمت هذه الترتيبات وجاء النبأ بأن الرسول على مسيرة فرسخين من المدينة ، خرج رجال الحاشية لاستقباله ، ومعهم خمسون من الجنائب، وركب جميع العسكر وتقدموا فى موكب عظيم ، وأبهة فائقة . وأمامهم السپهسالار ومن بعدهم جماعات القضاة والسادة والعلماء والفقهاء ، ثم موكب أعيان الدركاه من أرباب القلم ، وأنزلوا الرسول وهو من أقرباء الخليفة الأقربين ، وهو أبو محمد الهاشمى ، وكان ذلك يوم الإثنين لعشرة بقين من شعبان تلك السنة ، على أحسن صورة . أما الأعيان ومقدمو الجند فإنهم فارقوا الرسول عند أبواب المدينة وعادوا إلى منازلهم ، وجاء أصحاب الرتب إلى السوق ، وأنزلوا الضيف فى البيت المعد لنزوله ، وكان الناس ينثرون على الموكب الدراهم والدنانير والسكر وغيرها ، فى حين كان أهل الطرب والمجون يبدون العجائب من فنونهم، وكان يوما مشهودا لم يسبق لأحد أن رأى مثله .

وبعد أن استقر بالرسول المقام ، أمر الموكل بالضيافة بمد السماط وكان فيه ما تشتهيه الأنفس مما لذ وطاب ، وقد أثنى الرسول بالعربية أثناء تناول الطعام على أهل نيسابور ودعا لهذا الملك كثيرا وقال إنه لا يذكر أنه رأى

فى حياته يوماً كهذا اليوم . وبعد الفراغ من الطعام جيء بما لا يحصى من من النزل[1] مع عشرين ألف درهم من الفضة برسم هدية الحمام[2] مما أدهش الرسول، وأثنى الأمير على أهل نيسابور. ٤٦

فلما انقضى على ذلك يومان أو ثلاثة ، أمر السلطان باستدعاء الرسول إلى الحضرة على أن يكون موكبه حافلا بكل مظاهر العظمة . فقال أبو سهل الزوزنى: « إن كل ماهو خاص بالجيش والبلاط وديوان الإمارة والغلمان وأهل المناصب وغيره مما يشبهه فهو مما يقوم بشئونه السپهسالار ،وليبين لى الأمير ما يريده من الأمور لأقوم بها من جهتى حسب ما شاهدت وقرأت على عهد السلطان الماضى رحمه الله ، حتى أوعز بإعداده وتنظيمه » .

فقال الأمير « حسناً » وأمر باستدعاء السپهسالار غازى .وقال له : تأمر أن يقدم رسول الخليفه مع ما أتى به من منشور وخلعة وكرامات ونعوت، وأن تصل أخبار هذه الحفلات وذلك التكريم إلى مسامع الناس فى سائر البلاد . وينبغى أن توعز للجيش ليجعل نفسه فى هذه الليلة على أتم ما يمكن من الأبهة والنظام ، على أن يحضروا جميعاً صباحاً فى أهبة تامة للغاية وأن يكونوا فى زينة ليس أتم منها حتى تأمر بما ينبغى . فقال السپهسالار « سأفعل ذلك » وعاد فأصدر الأوامر اللازمة فى كل شأن ، وأصدر الأمير من جهة أخرى أوامر تتصل بالخدم وغلمان الخاصة ، كما أصدر أوامر أخرى كلها ملكية قوية .

وفى اليوم الثانى جاء السپهسالار غازى إلى الدركاه يصحبه موكب الجيش، وأمر كافة المقدمين أن يقفوا صفين مما يلى الدركاه بخيولهم وأعلامهم، وكانت

---

(١) نزل ضم الأول وسكون الثانى أو ضمه يعنى الرزق (كتاب السامى) أو كل مايقدم للضيف (الصحاح والقاموس) غنى — فياض حاشية (٢) .

(٢) كانوا يقدمون مبلغا باسم (هدية الحمام) للضيف عند قدومه .

الأعلام تمتد إلى مسافة بعيدة من أبواب قصر شادياخ ، وقد وقف غلمان الخاصة والخدم فى داخل الحديقة صفين من أمام صفة التاج حتى الدركاه ، فى تمام أسلحتهم وملابسهم المختلفة الألوان والأشكال ، وكان معهم أهل المراتب ، وكانت البغال قد سبقت لحمل الخلعة من نيسابور ومرت بقرب الرسول ، بينما أرسل أبو سهل رجلا يطالب بالمنشور والأوامر سرا ، فطالعها وترجمها ثم أعادها فى خرائط[1] من الديباج الأسود إلى الرسول .

وعندما وصل الموكل بالضيافة إلى الرسول أركبه جنيبة وكان قد ارتدى السواد ، وأعطى٤٧ اللواء لفارس ليسير به فى أثر الرسول . ومن خلفهما بغال تحمل الصناديق المحتوية على خلع أمير المؤمنين ومعها عشرة خيول . وكان بينها جوادان يزدانان بسرجين ونعال ذهبية ، أما الثمانية الأخرى فكانت مسرجة بسروج من الديباج والأطلس ، وكان طريق الرسول مزدانا بأبهى الزينات وكان الناس ينثرون عليه الدراهم والدنانير إلى أن بلغ صفوف الفرسان فعلت أصوات الطبول والأبواق وهتاف الجماعات .

وكانوا يمرون بالرسول والأعيان بين صفى الجند ، والمقدمون من الجانبين ينثرون عليه النثار حتى بلغ السرير ، وكان الأمير متربعاً عليه ، وقد أذن لهم . وكان الموالى والحشم بين واقف وقاعد . فأنزلوا الرسول فى محل لائق ، ثم سار فى هيئة مهيبة فتقدّم إلى الأمير وقبّل يده ، ثم أجلسوه قرب السرير . وبعد أن استقر به المقام بلّغ سلام أمير المؤمنين وألحقه بالدعاء الجميل ، فأجابه الأمير مسعود بما يناسب مكانته الملكية . ثم قام الرسول ووضع المنشور والرسالة على السرير فقبلهما الأمير ، ثم أشار إلى أبى سهل الزوزنى ليأخذهما فبدأ يقرأ ، وما أن جاء ذكر الأمير فى المنشور حتى نهض واقفاً وقبل بساط السرير ثم

---

(١) فى القاموس الخريطة وعاء من أدم وغيره تشرج على ما فيها .

جلس ، ولما فرغ من قراءة المنشور والرسالة ترجم باختصار فصلين منها إلى الفارسية . ثم فتحوا الصناديق وأخرجوا الخلع منها ، وكانت تحتوى على أقمشة مخيطة وغير مخيطة. فقام الرسول ورفع سبعة دواجات[1] ، كان أحدها أسود والبقية ديبقيات بغدادية ملكية نادرة . فنزل السلطان عن السرير ، وبسطوا السجادة التي كان قد صلى عليها يعقوب بن الليث فى مثل هذه المناسبة ، وارتدى مسعود الخلعة وصلى ركعتين . وقد تم هذا بإيعاز من أبى سهل الزوزنى ، إذ كان المعروف أن ارتداء هذه الخلع دليل على توريث الخليفة إياه ملك أبيه بتمامه ، وأحضروا تاجا وطوقاً وجوادا وسيفاً وحمائل وكل ما كان متعارفا ٤٨ عليه. وقد وضع الموالى والحشم التحف والهدايا الكثيرة التي لا تقدر ولا تحصى أمام السرير. ثم أعيد الرسول على أحسن ما يكون ونهض السلطان وذهب[2] إلى الحمام فغيّر ملابسه وأمر بتوزيع مائتى ألف درهم على الفقراء ، ثم جاء أهل البساط والسماط وكانوا قد أعدوا خوانا فخما دعوا إليه الرسول وأجلسوه على مائدة السلطان . وبعد انتهاء الطعام ألبسوه خلعة فاخرة وأعادوه إلى منزله بالاحترام والإجلال ، وعند صلاة عصر ذلك اليوم ذهب الموكل بالضيافة بالصلات السلطانية الخاصة بالرسول نفسه ، وكانت مائتى ألف درهم وجوادا بسرج من ذهب مع خمسين ثوباً من الثياب الفاخرة غير المخيطة ، وعدة خرائط من العود والمسك والكافور . وأُذن له بالرحيل . وعاد الرسول فى سلخ شعبان .

وأمر السلطان بأن يكتب إلى هراة وبوشنك وطوس وسرخس ونسا وباورد وبادغيس وكَنج روستاق بهذه البشائر التي منحها من مجلس الخلافة ، فنسخت صورا من المنشور والرسالة أبرزوا فيها الألقاب التي يدعى بها هذا السلطان

---

(١) الدواج كرمان وغراب اللحاف الذى يلبس (القاموس) .

(٢) آثرنا أن نلقب مسعود من هنا بالسلطان بدلا من الأمير ، وذلك لوصول منشور الخليفة والخلعة التي تدل على ذلك . وأما البيهقى نفسه فيقول فى ص ٩٥ إن مسعود ارتقى سرير الملك منذ اليوم الذى قبضوا فيه على أخيه فى تكيناباد .

الجليل ويخطب بها على المنابر ، وكانت النعوت السلطانية كما يلى : ناصر دين الله ، حافظ عباد الله ، المنتقم من أعـــداء الله ، ظهير ٤٩ خليفة الله ، أمير المؤمنين .

كما كان المنشور ينطق بأن كل ما كان فى حوزة أبيه « يمين الدولة ، وأمين الملة ،ونظام الدين ، وكهف الإسلام والمسلمين ،وولى أمير المؤمنين » قد فوض أمير المؤمنين أمرها إليك ، وأن يكون لك كل ما فتحته من الرى والجبال وإصفهان وطارم والنواحى الأخرى ، وكذلك كل ما تفتح بعد ذلك من ممالك المغرب والمشرق . وحمل الرسل هذه الرسائل ، وأقيمت الخطب فى كافة البلاد التى ذكرتها باسم السلطان مسعود . وامتد سلطانه على كافة نواحى خراسان .

وقويت عزيمة السلطان مسعود بعد أن عاد هذا الرسول وأخذت الأمور لونا آخر . ثم أتى شهر الصيام فصاموا ، وتحرك ركاب السلطان من نيسابور فى أواسط رمضان من هذه السنة إلى هراه ، بعد أن أمر بالخلع السلطانية للقاضى صاعد وأبنائه وللسيد أبى محمد العلوى وأبى بكر محمد محشاد ولقاضى المدينة وخطيبها . وصادف يوم بلوغه هراة أن كان ليومين باقيين من رمضان ، فنزل فى الجوسق المبارك حيث أقيمت مراسم عيد الفطر وكان هذا العيد بحيث شهد الجميع بأنهم لم يروا للملك عيدا مثله . فقـد مدوا سماطا للسلطان فى المبنى الجديد الذى أنشأوه فى الحديقة العدنانية [1] ، كما أعدوا موائد أخرى ، فى البستان المذكور أجلسوا إليها قواد الأفواج المختلفة ومقدمى الفرسان

---

(١) الحديقة العدنانية تنسب إلى أبي عامر عدنان بن محمد الضبي الذى كان رئيسا لمدينة هراة فى أواخر عهد السامنيين ، وقد انشأ بديع الزمان الهمذانى باسمه رسائل وقصائد ، وجاء فى إحداها .

بادهرانك لامحالة ،زعجى عن خطتى ولكل دهر شان
فاعمد براحلتى هراة فإنها عدت وإن رئيسها عدنان

عن — فياض حاشية(١)حيث أشار الى يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٩٦ ، ٢٠١

بينما كان الشعراء ينشدون الأشعار ، وفى أثناء تناول الطعام نهض كبار رجال الحاشية الذين كانوا على خوان السلطان وقبلوا الأرض بين يديه وقالوا : « هاقد انقضت خمسة شهور أو ستة لم يأمر السلطان خلالها بإعداد موائد الشراب والطرب ، والأمور تسير اليوم على مايرام ولم يبق بعدوجه لدوام الحزن والحـــداد ، فإذا شاءت إرادة مولانا العظيم يأمر بالشراب . »

فاستجاب لهم السلطان وطلب الشراب فأعدوه ومدت الموائد ، وأخذ المطربون فى الغناء والتوقيع ، وبلغ الطرب غايته ، وعم السرور الحاضرين جميعاً ، ولكن السپهسالار ٥٠ لم يذق شيئا من الشراب لأنه لم يكن معتاداً عليه .

وكانت الرسائل تترى كل يوم من معسكر غزنة تعرب عما يقومون به هنالك من أمور تنفيذا لأوامر السلطان .

وفى أضحية يوم الإثنين لعشر خلون من شوال وصل منكيتراك أخو كبير الحجاب على قريب مع الفقيه نديم الحصيرى فجأة إلى الحضرة السلطانية ، فأخبروا السلطان فوراً ، فأمر بإدخالهما ، فدخلا وقبَّلا الأرض وقالا : بورك للملك فقد صار مستقراً ، وإن الأخ قد اعتقل . فأجلسهما السلطان وشملهما بعطفه البالغ ، ثم قدما رسالة موالى تكينا باد . فأمر السلطان بقراءتها ثم قال بعد أن وقف على مافيها :

« لقد أبدى الحاجب بحصافته وإخلاصه ما كنا نتوقع منه ، وقد عرف الذين شايعوه حقنا عليهم أيضا ، وسيكافأ المخلصون بإخلاصهم ، وحيث أنكما وصلتما بهذه السرعة فاذهبا الآن لتستريحا بعض الوقت ، ثم عودا بعد صلاة العصر ، لتشرحا لنا الأحوال وتفضـــيا بما عندكما من أنباء » .

فذهبا حيث أنزلا معاً فى قصر منيف وبعثوا إليهما بكثير من المأكولات والنزل فأكلا ثم ذهبا إلى الحمام .

وبعد أن أذن لهما السلطان بالذهاب ، استدعى أبا سهل والكاتب طاهر وبقية الأعيان واختلى بهم ، ثم أخذ يتجاذب معهم أطراف الحديث إلى أن قر الرأى على أن يمنح منكيتراك عند الصلاة الأخيرة منصب الحجابة وأن يلبسوه السواد ويخلع عليه خلعة فاخرة ، وكذلك على الحصيرى .
وعند الصلاة الأخيرة بعثوا بجنيبتين وأحضروا عليهما منيكيتراك والحصيرى فتقدما وجلسا مختلين ومعهما طاهر الكاتب وأبو سهل الزوزنى ولم يكن عند السلطان سواهما ، ثم أنهيا إلى السلطان ما لديهما من الأنباء وبينا ما عليه الحال .

وعندما أراد الانصراف أمر السلطان أن يذهبوا بمنكيتراك إلى خزانة الملابس وألبسوه خلعة الحجابة ، ثم عاد إلى الحضرة متشحا بالقباء الأسود والقلنسوة ذات الركنين ، فهنأه السلطان وقال له « إن منزلتك هى أن تقف للحجابة بما يلى موضع أخيك كبير الحجاب علىّ ». فقبّل الأرض وقفل راجعاً .

أما الفقيه أبو بكر الحصيرى ، فقد ألبسوه خلعة فاخرة للغاية مما ينعم به على ٥١ الندماء ، وقدموه أيضاً فشمله السلطان بعطفه قائلا : « لقد احتملت من أجلنا فى عهد أبينا كثيراً من المتاعب والهوان ، فوجب الآن أداء حقك علينا لقاء ما أديت لنا من خدمات ، وهذه الخلعة هى باكورة الإنعامات التى سنشملك بها مستقبلا ». فدعا للسلطان ثم انصرف .

وأوعز السلطان إلى الأعيان والخدم حتى يذهبوا إلى منزلها للتهنئة ، فقدموا لهما الهدايا والإنعامات الكثيرة . وعند صلاة العشاء أمر السلطان بكتابة جواب رقيق على رسالة تكينا باد ، كما كتبوا رسالة تتضمن عطفا بالغاً لعلىّ كبير

الحجاب ، وقد وقعها السلطان ثم كتب بخط يده فصلا منها ، وكتبوا كذلك منشوراً ورقاعا ، وعين لحلها فارس ورجل عربى من خيالة السعاة المسرعين واتجها شطر تكينا باد وقت صلاة العشاء . والله أعلم بالصواب

ذكر ما انقضى من هذه الأحوال والأخبار تذكرة

بعد هذا وورود العسكر من تكينا باد إلى هراة وما جرى فى تلك المدة

وحيث أنى شرحت فيما مضى فى تلك المدة ما حدث فى عهد الأمير محمد وكيف ٥٢ انتهى الأمر باعتقاله فى قلعة كوهتيز ، باتفاق كبير الحجاب والرؤساء والأعيان وما أخبروا به السلطان مسعود عن إقدامهم على اعتقال أخيه ، وقد انتهت تلك الأحوال بموافقة السلطان عليها وإرساله ردا بذلك مع الرجلين اللذين أشرنا إليهما آنفا ، وها نحن الآن نعود إلى ذكر ما جرى بعد ذلك من سير أفواج الجيش واحدا بعد آخر إلى هراة .

فبعد وصول جواب الرسالة من السلطان ، أحضر كبير الحجاب الرؤساء وقال لهم : لقد تقرر أن تسير الأفواج جميعها اليوم أو غدا إلى هراة ، وأن يبقى معى جيش الهند لأسير به بعد ذلك ، وسأكون على ساقة الجيش . فقالوا سمعاً وطاعة ، ثم رحلوا من فورهم . أما الأعيان والوجهاء من أهل خراسان ، فقد تركوا أثقالهم لينفروا خفافاً مع سائر الجند ، وأما حسنك الوزير فقد تقرر بأمر من السلطان أن يحمل ليلا إلى هراة ، أى قبل مسير الجيش ، وكان هذا الأمر قد أتى به ثلاثة نفر من خاصة فرسان أبى سهل الزوزنى ، الذى كان متحاملا على حسنك هذا ؛ وكان أبو نصر مشكان صاحب ديوان الرسائل قد سارع بالمسير كذلك ولكنه قابل كبير الحجاب عليا قبل رحيله ومكث معه فتحدثا ساعات ، وكان برفقته أبو الحسن العقيلى ومظفر الحاكم وأبو الحسن الكرخى

٥٣ وبديه الفقيه وجماعة الندماء وغيرهم من شتى الطبقات، وكانت تبدو على كبير الحجاب إمارات الخوف والارتياب . فقد سمعت أبا نصر مشكان يقول: « إنى عندما قصدت السفر إلى هراة سألت الحاجب هل تأمر بعمل أؤديه بهراة قبل وصولك إليها فاختلى بى ثم رد على قائلا :

«وداعا أيها الصديق الوفى لقد قضينا مدة مديدة معاً ، فى وفاق وإخلاص».
فقلت له : « ماذا دها الحاجب حتى أراه على هـذه الحال من اليأس والقنوط فيتكلم هكذا ؟ »فقال : « على الصدق والوفاء ولم يحدث منى خيانة أو انحراف ، وأما قولى لك الآن سر فى أمان الله ، فلم يكن لأنى أزمعت على التوانى عن السفر إلى هراة ، ولـكن سر فى أمان الله ولتعلم أنك لن ترانى بعد أن تقع عين مسعود على ، وأما هذه الرسائل اللطيفة والخطابات الرقيقة ، وما كتبه السلطان بخط يده ، وإنعامه بمنصب الحجابة على أخى ، فـكل ذلك خداع لايخفى شئ منه على رجل مثلى ، وهى كلها حبائل لصيدى ، فإن على داية بهراة وكذلك الحاجب بلـكاتـكين وجماعة آخرون لايعدون من الرجال ولا يحسبون بين النساء ، وكل هؤلاء القوم سيلتحقون بالسلطان أيضاً ويحملونه على إقصاء الحاجب على من الميدان ، وقد أسندت السپهسالارية إلى غازى الحاجب ويقال إنه صاحب الأمر كله فـكيف يتحمل أن يرانى ، ومن السهل على أن أجمع هـــذه الخزائن والفيلة وفوجا قويا من الهنود وأجهز كل شيء وما أملكه من الغلمان الـكثيرين والأتباع والحاشية وأقصد سجستان فإنه يمكن ضبط كرمان والأهواز حتى بغداد بهذا الجند، إذ ليس فيها إلا جماعة من الهمج والرعاع لاحول لهم ولا قوة ولا سند ولا عمد ، فآمن بذلك على نفسى ، وأما الوحشة المستولية على قلب هذه الأسرة فلن تزول لأنى السبب فيها ، وملوك الأطراف يسندون هذه العيوب ٥٤ كلها إلى مولاى السلطان محمود فيقولون « ملك مثله عمر طويلا وقهر ملوك

الأرض جميعاً ، لم يفكر فى تدبير شئون أسرته قبل حلول أجله ، حتى وقعت هذه الأحداث » ، وإنى أتمنى أن يعتقلونى فى زاوية أعيش فيها فى عزلة وانفراد فأدعو الله ليغفر لى ما ارتكبته من الخطايا والذنوب الكثيرة ، ولكننى على يقين من أن هؤلاء الصعاليك لن يتركوا ابن مولاى هذا ليبقينى حياً لأنهم يخشوننى وسيطمع هو أيضاً فيما لدى من هذا المال والحطام فيسىء إلى سمعته .

« ولقد ارتكبت بادى الأمر خطأ كبيرا عند وفاة سيدى وقد عرفت اليوم ، ولات حين مناص ، ماذا كان من إحضار محمد أخيه ، كان لزاما علىّ ترك الحبل على الغارب حتى يحضر أولاد السلطان ويتفاوضوا ويتوسط الموالى والحشم بينهم ، وأنا واحد منهم ، فكانوا يرجعون غالبا إلى رأى ويستقر الأمر ، ولكنى لم أفعل ذلك ، بل كنت كالظئر التى تدعى أنها أحرص على سلامة الوليد من أمه ، فشمرت للأمر وقد خذلنى اليوم جميع الرفاق ، خذلونى ونجوا بأنفسهم ، وسمّونى عليا الأمير ، وجرى القدر بما شاء وأنا لا أتنصل من حكم ربى ومشيئته ولكنى لن أقبل سوء السمعة لنفسى بأية حال » .

فقلت : « أطال الله حياة الأمير كبير الحجاب ، لن يكون غير الخير والبركة ، فماذا ترى أن أفعل والحالة هذه بعد وصولى إلى هراة » .

فقال « لا تذكر شيئا عما حدثتك به لأنه سيتأكد إنى قد ارتبت فيه ، وأنى قد تكلمت معك فى هذه الأبواب فتضار بها ولا ينالنى خيرا منها ، فإذا جرى حديث ، وأظنه لن يجرى قبل أن أقع فى قبضتهم ، فجدير بك أن ترعى حق الصحبة والخبز والملح حتى ترى ما يكون . وكذلك يجب أن تعلم أن الأمور قد تحولت إلى وجهة أخرى ، فإنك عند وصولك إلى هراة سوف تعتريك الحيرة فى أمرك ، ستشاهد عيانا إذ ترى أن قوما حديثى النعمة قد آلت إليهم الأمور حتى أصبح أصحاب محمود فى حكم الخونة والغرباء ، ولا غرو فإن أبا

سهل الزوزنى قد أصبح المرجع ٥٥ الأول فى كل أمر ، فتحكم فى الرقاب وملك ناصية الأمور ، وستسير الأحوال مع السلطان مسعود على هذا المنوال ، ما لم يستح ذلك السلطان وإلا فأنتم على شفا جرف هار » .

قال هذا وبكى ثم احتضننى وودعنى وسرت . وأقول (أنا أبو الفضل) إنه قلما يوجد رجل كعلى . وكأن ما ذكره عن نفسه لأستاذى أبى نصر مشكان يدل على أنه كان يرى بثاقب نظره ما ستئول إليه الأحوال .

فقد سمعت بعد أن قبضوا عليه فى هراة ، وانتهت أيامه ، بمدة طويلة أنه عند مسيره من تكيناباد إلى السلطان مسعود بهراة ، كان قد كتب خطابا بواسطة كتخداه ومعتمده فى غزنة إلى رجل يدعى سبستى وإلى ابنه محسن ، وهو الآن حى يرزق ، وقد جاء فى هذا الخطاب بخط على « إننى ذاهب إلى هراة وأظن أن لقاءنا إياك وباقى الأسرة سيكون يوم القيامة ، ولذلك لا أجد الآن باعثا على توجيهك فى أى أمر من الأمور ، فإذا تم بفضل الله تعالى خلاف ما أتوقع فسأنبئك بما يجب العمل به فى كل شأن من الشئون » . وقد سمعت هذا من كاتبه أبى سعيد بعد وفاة على رحمة الله عليهم أجمعين .

وعندما وصل الجيش إلى هراة خرج السلطان مسعود فى موكب عظيم حافل إلى ظاهر المدينة ، وتقدم الجند فوجا فوجا ، وكانت تبدو عليهم سيماء الطاعة والإخلاص لشدة تعلقهم بالسلطان ، حتى كأنهم يرون أنفسهم اليوم فى الجنة يتمتعون بما وعدهم الله من روح وريحان .

وقد شمل السلطان الجميع بعطفه البالغ ولاطفهم بحديثه كثيرا ، وكان الحاجب غازى يصرف الأمور جميعا لأنه السپهسالار ، كما كان على داية يأمر وينهى أيضا لأنه أعاد الغلمان من غزنة وذهب إلى نيسابور ، بيد أنه لم يكن مرعى الجانب كما كان الحاجب غازى ، وهذا ما كان يسبب امتعاضه دون

جلدونی — وقد أبدى السلطان عطفه البالغ نحو أستاذى أبى نصر مشكان ، غير أن أصحاب محمود كانوا كمن ارتكبوا إثما كبيرا ، وكأنهم غرباء بين المسعوديين ، وكان أبو نصر يذهب كل يوم إلى الخدمة ولا ينظر إلى ديوان الرسائل ، وكان الكاتب طاهر يتصدر الديوان فى عظمة وكبر وخيلاء . ٥٦

ثم جاء الخبر بوصول كبير الحجاب على إلى إسفزار [1] ومعه الفيلة والخزائن وجيش الهند والرجال ، فسروا بذلك سرورا كبيرا . وقد سمعت أنهم لم يخطر ببالهم أن عليا سيأتى إلى هراة ، فأخذوا يوفدون الرسل الثقاة بالهدايا تباعا لاستقباله حتى يبرهنوا بذلك على صدق نواياهم نحوه ، أما أخوه الحاجب منكيتراك فكان يحاس ويقول : ينبغى الإسراع فإن الأمور أصبحت على مايرام . ودخل علىّ المدينة مبكرا فى يوم الأربعاء لثلاثة من ذى القعدة من هذه السنة مع عشرين غلاما ، بينما كانت الرجال والجيش على بعد خمسة أو ستة فراسخ ، وكان الظلام مايزال شديدا ، فقصد البلاط فور وصوله وجلس فى مدخل السراى العدنانى الأول . وكان السلطان مسعود قد أنشأ فضلا عن هذه السراى قصرا فسيحا جميلا آخر وحدائق وعمائر أخرى ، وكان يجلس لاستقبال الوافدين عليه فى السراى العدنانية الأولى تارة وفى المقصورة الثانية تارة أخرى ، وكان كل من يصل إلى الدهليز حيث يجلس علىّ يؤدى له من التحية والتعظيم ما يؤدى للملوك ، لأن القلوب والعيون كانت ملأى بعلو قدر هذا الرجل وجلال شأنه ، كما كان هو يلقاهم ، رغم الابتسامة الحزينة التى ترتسم على شفتيه ، بكل لطف وإكرام ، وكان بادى الحزن والأسى ، كأنه يعلم ما سيكون . ولم أره يضحك جهرا فى أى وقت إذ كان يكتفى بالابتسامة فقد كان رجلا صعب المراس .

(١) جاء فى حاشية يب : اسفزار بفتح الهمزة وسكون السين وكسر الفاء مدينة قرب هراة .

وأذن السلطان عند طلوع النهار للوافدين بالمثول فى حضرته فى تلك المبانى المشيدة خارج الحديقة العدنانية ، ودخل علىّ وبقية الأعيان إلى الحضرة من باب هذه السراى ، وخوارزمشاه وقوم آخرون من الباب الذى يلى الشارستان ، وكان السلطان متربعاً على أريكة نصبت له فى الرواق المتصل بقصر الربيع ، وقد أجلس التونتاش عن يمين الأريكة ، كما أجلس العم الأمير يوسف عضد الدولة أمامه ، وكان وبقية الأعيان والكبراء بين واقف وجالس ٥٧

وتقدم كبير الحجاب علىّ وقبّل الأرض فى ثلاثة مواضع ، فرفع السلطان يده إيذانا له بالتقدم ثم أعطاه يده ليقبلها ، فوضع أمام السلطان عقدا من الجوهر الثمين ، ونثر ألف دينار كانت معه ، ثم أشار السلطان إليه بالجلوس إلى اليسار ، فأمسك الحاجب مسكيتراك بساعده ، فقبّل الأرض وجلس فى مقابل الونتاش خوارزمشاه ، وأعاد تقبيل الأرض مرة أخرى ؛ فقال له السلطان « مرحباً بك ياعلىّ ، لقد لقيت فى حبنا نصباً » فقال « أطال الله حياة مولانا إنى لم أقم بأمر جليل ، ولكن التشجيع الذى يتفضل به مولاى قد أنعشنى وزادنى قوة ومد فى حياتى » . فقال التونتاش :

« لقد كان السلطان بعيدا عن حاضرة ملكه ، وقد يصل إليها بعد أمد بعيد ، وكانت هناك مهام خطيرة ، ولا يمكن التفريط فيها لحفظ تلك البلاد العظيمة التى حصل عليها ، وكنا نحن العبيد نترقب هذا اليوم الذى حظينا فيه بالمثول فى الحضرة ، كما قد تجشم العبد علىّ متاعب جمة ، حتى لا يقع أى مكروه ، وإنى بالرغم من بعد المقام آليت على نفسى أن أكتب ما أراه لصالح الأمور ، والآن والحمد لله قد إتسقت الأحوال على نهج واحد ، دون أن يقع حادث ، فالمليك قد تم له الأمر بالجلوس على عرش أبيه فى ريعان شبابه ، وسيكون أمامه أمد طويل للتمتع بالملك والشباب ، ولو أن

فى الخدمة كثيرين من حديثى العهد الجديرين بالثقة ، وسيلحق بهم آخرون ، إلا أنه فى الحضرة الآن كذلك نفر من المعمرين الذين شاخوا فى خدمة السلطان محمود ، فإذا شاء الرأى العالى إبقاءهم فى الخدمة فذلك أمر حكيم ، لكيلا يتشفى فيهم أعداؤهم ، فإن الشيوخ زينة الملك ، ولست أقول هذا مستعطفاً لنفسى ، فواضح أن أجلى قريب. ولكنها نصيحة أسديها ، ولو أن الملك أعظم من أن يحتاج إلى نصح العبيد ، بيدأنى أرى من الواجب علىّ أن أعرض أمثال هذه النصائح ماحييت » .

فقال السلطان: « إنّ كلام خوارزمشاه هو بمثابة كلام الوالد وإنا نصغى إليه بالرضا ٥٨ ونتقبل نصحه الودى ، ولعمرى متى كان خوارزمشاه لا يرعى جانبنا ، هذا ولا يخفى ماأداه فى هذه الأيام من خدمات ، وكل شىء كتبه أو ذكره واضح وسنكافئه لذلك » .

فنهض خوارزمشاه وقبّل الأرض ، وعاد من نفس الباب الذى دخل منه ، ثم قام الحاجب علىّ ليخرج ، ولكن السلطان أشار ليجلس ، فخرج القوم واختلى به السلطان ، وكان هنالك أيضاً الحاجب منكيتراك وأبو سهل الزوزنى والكاتب طاهر والكاتب العراقى وبدرحاجب السراى وكانا واقفين، وحول الأريكة رجال مسلحون وكانوا وقوفا ومئة غلام من خاصة الخدم [1].
فقال السلطان لكبير الحجاب « يجب أن يظل أخونا محمد بقلعة كوهتيز حيث هو أو فى مكان آخر ، إذ لا يسوغ الآن الإتيان به على الفور ، ونحن

---

(١) يعبر عنهم بكلمة وثاقيان . والوثاق بمعنى الحجرة . وهى تبديل لكلمة أتاق كما قال السيد إقبال (مجلة ايران امروز السنة ٢ العدد ١٠) ، وتطلق كلمة وثاق فى هذا الكتاب على حجر الغلمان ، فمن الغلمان جماعة تتصل حجراتهم بمبانى السراى ويسمون خاصة الخدم أو « الوثاقيين » غنى فياض ص ٥٨ حاشية ١ .

مزمعونُ السفر إلى بلخ فى فصل الشتاء ؛ فإذا وصلنا فى الربيع إلى غزنة سنرى فيه عند ذلك رأينا . فقال على : الرأى اليوم لمولانا يأمر بما يشاء ، وقلعة كوهتيز من القلاع المنيعة كما أن الحاجب بكتكين يقيم خارج القلعة يترقب ما يصدر إليه من الأوامر . فقال السلطان : أجل ، وما هو أمر تلك الخزانة التى أرسلت مع كتخداه حسن إلى جوزجان . فأجاب على : أطال الله حياة مولانا ، لقد أوصلهـــا حسن إلى قلعة شادياخ[1] وهو رجل ناضج بصير بالعواقب لا يفعل شيئا لا يقدر عليه ، فإذا رأى مولانا فلعله من الصواب أن يبعث معتمداً ما يأتى بتلك الخزانة . فقال السلطان : لتذهب الآن على بركة الله فتستريح فإن لنا معك تدابير ومهام كثيرة ، فقبّل على الأرض ثم نهض وخرج من نفس باب الحديقـــة الذى دخل منه بإرشاد أرباب الرتب ، وذهب٥٩ .

وقال السلطان لعبدوس : إذهب فى أثر الحاجب وأبلغه أن يتريث ساعة فى الصفة القريبة منا ، فقد تكون هنالك حاجة تستدعى حضوره . فذهب عبدوس . ثم قال السلطان لطاهر الكاتب : سل الحاجب عن المدة التى دفع عنها مرتبات الجند[2] ، وأيهم أحسن عدة وعتاداً وأصلحهم للرحيل ، لأنى عازم على إنفاذ حملة إلى مكران لتأديب عيسى المغرور جزاء عصيانه ، واستعمال أخيه أبى العسكر[3] الذى فر من وجهه ولاذ بيلاطنا بدلا منه .

---

(١) شادياخ — اسم يطلق على مدينة نيسابور على قرية من ضواحى بلخ كما جاء بمعجم البلدان ؛ والغالب إن تكون المراد هنا الموضع الثانى .

(٢) بيستكانى : وهى مرتبات الجند التى تدفع لهم أربع مرات فى السنة وهذا هو رسم ديوان خراسان (مفاتيح العلوم ص ٤٢) ، وتعرف الكلمة فى العربية (بالعشرينية) ولعلها تفيد يزن عشرين مثقالا . غنى — فياض حاشية (١) .

(٣) ذكره صاحب الكامل ج ٩ ص ١٠٤ بأبى العساكر .

فذهب طاهر ثم عاد ليقول : إن كبير الحجاب يقول إن مرتبات الجند قد دفعت إليهم حتى آخر العام ، وإنهم جميعاً مجهزون بأحسن عدة وأكمل سلاح ولا ينقصهم أى شىء ، وكل من يأمره مولانا يستطيع الذهاب فقال السلطان : حسن جدا ، فليؤذن للحاجب بالعودة . ثم قبل منكيتراك الحاجب الأرض وقال : ليأذن مولاى بأن أستضيف علياً ومن معه اليوم ، فقد أوصيت بتهيئة حساء لهم. فأجابه السلطان هاشاً إلى سؤاله : حسن جدا ، وأضاف قائلا : وإن كانت هناك حاجة أخرى فليقم بتهيئتها خدمنا . فقبل منكيتراك الأرض مرة ثانية وخرج مسروراً . وأى أخ يا ترى كان لمنكيتراك أن يستضيفه وقد قبضوا على علىّ ؟ فقد كان ماجرى على لسان السلطان لطاهر ، وتلك المشافهة عن الجند ومكران « ريح فى القفص » (١) . فكانوا قد دبروا له تدبيراً، إذ أمر السپهسالار غازى بأن يذهب من فوره حينما يدخل الحاجب علىّ عند السلطان مع جمع غفير من الفرسان فينهبوا كل ما يوجد برحله . وقام غازى بما طلب إليه أداؤه . وعندما خرج منكيتراك قيل له إن كبير الحجاب موجود الآن فى هذه الصفة ، فلما وصل إلى الصفة برز إليه ثلاثون ٦٠ غلاما وقبضوا عليه وسلبوه قلنسوته وقباءه وخفّيه كما فعلوا مع أخيه من قبل ، ثم ذهبوا به إلى حجرة مجاورة لتلك الصفة ، فحمله الفراشون وأخاه على ظهورهم لأنهما كانا مصفدين بأغلال ثقيلة ، وكان هذا آخر العهد بهما .

هذا ما كان من أمر على وعهده وجماعته ونهايته ، والمخدوع من يغتر بهذه الدنيا الغدارة ويقيم وزنا لعزها وجاهها ومالها ومنالها ، والعقلاء لا يأبهون بها ولا يغترون بمظاهرها .

---

(١) من أمثال المولدين كناية عن الباطل الذى لا حقيقة فيه ، مجمع الأمثال ص ٢٧٩ انظر طبعة غنى — فياض ص ٥٩ حاشية ٤ .

ولنعلم ما قال الشاعر العتابي فى هذا الباب

ذريني تجئني ميتتي مطمئنة ولم اتقحم هول تلك الموارد
فإن كريمات المعالى مشوبة بمستودعات فى البطون الأساود[١]

والعظيم بحق هو من يستطيع أن يكبح جماح الحرص وأن يعتز بالقناعة ، وقد أصاب ابن الرومى عين الغرض بقوله فى هذا المعنى :

إذا ما كساك الله سربال صحة . . وأعطاك من قوت يحل ويعذب
فلا تغبطن المكثرين فإنما على قدر مايعطيهم الدهر يسلب

كما أن الأستاذالشاعر رودكى٦١عرف الزمان حق المعرفة وعرفه للآخرين بقوله :

إن هذه الدنيا تنم وتخدع ، ويعرفها من كان له قلب يقظ نخيرها شر ، وسرورها غم ، فكيف تطمئن إليها وأنت تعلم أنها غداره ، باطنها قبيح وظاهرها جميل ، سيئة السلوك ولكنها بديعة المنظر[٢] .

أما قصة القبض على علىّ وما جرى له ، فإنها تشبه من وجوه قصة أبى مسلم وأمثاله ، كما أفاضت فى ذكره كتب التاريخ ، ولربما قيل إن أسبابا أخرى خفية دعت إلى ذلك ، ولكنها على كل حال ليست واضحة لدينا والله سبحانه

---

(٢) هكذا ورد البيتان فى البيان والتبيين . ولكنهما وردا فى نسخ البيهقى كلها على النحو التالى :

كفى محتى قلبى بها مطمئنة ولم اتجشم حول تلك الموارد
فإن جسيمات الأمور منوطة بمستودعات فى بطون الأوارد

(٢) اين جهان باك خواب كرداراست ان شنا سدكه دلش بيداراست
نيكى أو بجايكاه بداست شادى أو بجاى : بيماراست
جه نشينى بدين جهان هموار كه همه كاراونه همواراست
دانس او نه خوب وتجهرش خوب زشت كرداروخوب ديداراست

أعلم بحقائق الأمور . وليس من شأنى الدخول فى ذلك إذ لا أتوخى غير سرد الحوادث ، فقد ذهب الكل لشأنهم وسيجتمعون فى صعيد واحد حيث تتكشف الأسرار وتظهر الحقائق ، وأقصى ما يمكن أن يأخذه العقلاء على هذا الرجل العظيم هو أن يتساءلوا عما دعاه إلى تنصيب أمير وخلع آخر ، والظاهر أنه كان قد قُدر أن تنتهى أيامه على هذه الصورة ، فكان ما كان ، ونعوذ بالله من القضاء الغالب بالسوء .

* * *

بعد الفراغ من أمر علىّ الخطير ونهب رحله وخزائنه وكل ما فى يد خدمه وغلمانه عاد السپهسالار غازى وتبين أنه كان قد أخذ كل الحيطة حتى لا يسلب أحد من الحاشية والموالى الذين كانوا برفقة كبير الحجاب شيئا ، (كيلا يزعجهم ويضعف أملهم فى السلطان) . هذا وقد استولى الرعب على قلوب جماعة « المحموديين » من جراء القبض على علىّ ، وقد أرسل السلطان عبدوس ليبلغ التونتاش خوارزمشاه « بأن عليا قام بما ليس من شأنه القيام به ، أفلم يكن الأولى به أن يقتدى بخوارزمشاه وأن يكون على شاكلته ؟ لقد كان عليه أن يصبر حتى نأتى ، فإنه واحد من الموالى والحشم ، فكان الأجدر به أن يفعل مثلما ٦٢ فعلوا وأن يسير كما ساروا ، ثم ما الذى حمله على الوقيعة بأخى بعد أن عمل على تنصيبه ؟ ولماذا خالف أوامر الله تعالى وحنث بتلك الأيمان المغلظة . لقد كان يبطن الخيانة وهذا ما دعانا إلى اعتقاله ، لأن المصلحة كانت تدعو إلى ذلك ، وهو الآن يقيم فى مكان أمين لن يناله أذى أو مكروه ، حتى يحسن رأينا فيه » .

وأما غاية السلطان من ذكر ذلك لخوارزمشاه فهى دفع الريبة عن خاطره كيلا ينقلب على عقبيه ويتخذ سيرة أخرى . وكان جواب خوارزمشاه أن

ما تفعله الملوك فى عبيدها هو عين الحق والصواب ، ومن ذا يستطيع أن يرى ما يراه مولانا ، والحق أنى نصحت عليا بألا يتمادى حينما كنت فى خوارزم كتابة آنا وشفاها بطريق الرسل آنا آخر ، إلا أن أمرا جللا كان قد وقع فلم يستمع إلىّ وجرى القضاء بما قدر ؛ بيد أنه رجل ذو منزلة وشهامة قل أمثاله ، ولا غرو فإن له أعداء وحسادا وهو من أقربائنا . فلا يأخذ السلطان بأقوال حاسديه ، فليس عنده مثله » . وأرسل السلطان الإجابة بأنى هكذا سأفعل ، وسوف أفيد من علىّ فى مهام خطيرة ، وإنما كان هذا تأديبا وتنبيها له .

سمعت من المسعدى وكيل الباب[1] (البلاط) أن خوارزمشاه اشتد يأسه وأسقط فى يده[*] ، ولكنه تجلد لكيلا يعرفوا عما يدور فى ضميره شيئاً ، وأبلغ، بواسطته ،أبا نصر مشكان وأبا الحسن العقيلى سرا عن خشيته من سير الأحوال على هذا المنوال : « ماذا كان ذنب علىّ حتى يعامل بهذه الطريقة وظاهر الأحوال يدل على أن هذه الزمرة الحديثة النعمة لن تدع أحدا حياً من خاصة محمود، ٦٣ ، فلتدبروا بلطائف الحيل[2] من الوسائل ما أتمكن به من العودة إلى بلدى ، فأجاب أبو الحسن كعادته جوابا خشناً بقوله :

يامسعدى لتتركنى وشأنى فإن السلطان يعدنى من المحموديين كذلك . ولما كان السلطان حسن الظن بى ، مقتنعاً بحرصى على المصلحة ، فسأشمر ساعدى لهذا الأمر وأبادر اليوم للقيام به حتى يتحقق الغرض ويعود خوارزمشاه كما يتمنى له المحبون ، وإن هذه الزمرة الحديثة ، ولو أن الأمر بيدها الآن،

---

(١) جاء فى نسخة مج : أن وكيل البلاط هو الموظف الذى يوفده الى البلاط حكام الأقاليم ليفيم به لينهى ما يخصهم من الأعمال ويراقب مصالحهم . غنى ــ فياض ، حاشيه ٢ .

(*) : دست وپاى مردن ــ كناية عن شدة الخوف . غنى ــ فياض ص ٦٢ حاشية ٣ .

(٢) فى النص سازند وبكارآرند والظاهر أنها سازيد وبكارآريد . غنى ــ فياض ص ٦٢ حاشية ٨ .

إلا أن السلطان سيتحدث فى مثل هذه الأبواب مع أصحاب أبيه ، لأنه عرفهم وجربهم .

وقال أبو نصر مشكان : « إنى قائم بما طلب إلىّ شاكرا ممتنا ، هذا وقد غمرنى السلطان بعطفه وطمأننى بجميل الطاعة ، وقد سمعت ممن أثق بهم أنه لم يأذن لأحد بالخوض فى شأنى ، وقد يتحدث إلىّ بكل ماجرى ، ولكنه إلى الآن لم يحدثنى بشىء فى هذا الباب ، فإذا استشارنى فى شىء فسأبدأ بحديث خوارزمشاه ليعود على الحال التى تتمناها ، ولكن ليس من الحكمة المبادرة بالحديث قبل أوانه ، فإذا تحدث بشىء عنه فالصواب القول بأنه قد شاخ ، ولن يستطيع القيام بشىء ، وغايته أن يعتزل الجندية وأن يقيم فى جوار ضريح السلطان الماضى ، وأن يسير أحد أنجال مولانا ليقوم بالإمارة الخوارزمشاهية ليقف أبناء العبد ومن بيده فى خدمته ، وإن هذا لأمر سديد إن تُكلم به على هذا النحو فلن يشق على السلطان فيعيده سريعاً ، فإنه يعلم أن صيانة ذلك الثغر الهام والمحافظة عليه لا تتم إلا بهيبته » . فاطمأن خاطر خوارزمشاه بهذين الجوابين وخاصة بكلام أبى نصر مشكان وهدأ وطاب نفساً .

وقد أرسل السلطان منشورا بتولية السپهالارغازى ولاية بلخ وسمنكان[١] ، فأسرع أصحابه بذلك المنشور إلى بلخ حتى يخطب له فيها ، وأخذوا بتيسير الأمور وكانت الكلمة لغازى ، كما أن المشاورات السرية للجيش اختصت به دون غيره ، فآلم هذا أصحاب محمود ألما شديدا ، وجعلهم يتميزون غيظاً . فقضوا عليه وأسقطوه أخيرا كما سيأتى بيانه ، ثم تألق بعده نجم معتمده ٦٤ سعيد الصراف ، ولكل قوم يوم ، وإنه لم يكن مقصرا فى عمله ولكنه ارتكب خطأ واحدا فقد خدعوه ليكون مشرفا على سيده . وقد انخدع بالخلعة والذهب الكثير الذى

---

(١) مدينة فى طخارستان فيها وراء بلخ وبغلان (معجم البلدان) . غنى — فياض ص ٦٣ ملحوظة ٧ .

حصل عليه . فقام بالإشراف ، فسقط سيده ، وسقط هو من بعده أيضاً .

والصدق خير مايزدان به خدم الملوك. وبعد سقوط غازى السپهسالار ، أخذ الفلك يدور بسعيد ولمع نجمه مدة ثم أفل . فكان يخدم تارة ويقال من الخدمة تارة أخرى ، فصار كما قيل « بعد العز والرفعة صار حارس دجلة »(٭) ، وهو الآن ، أى فى سنة خمسين ، يعول تان فى خدمة الخواجة العميد عبد الرازق[1] ، وهو يعمل منذ سنوات نديما له منزويا قانعاً بالقليل . وعندى لكم أخبار طويلة سأوضحها إن شاء الله تعالى .

* * *

واختل شأن حسنك الوزير ، لأنه ارتكب فعالا غير جديرة أيام شبابه ، ولم يحفظ لسانه وآلم قلب هذا السلطان العظيم شيئا فشيئا ، ولنعم ما يقول الشاعر :

احفظ لسانك لا تقول فتبتلى   إن البلاء موكل بالمنطق[2]

وقال آخر فى مغبة الأعمال التى يقوم بها الأحداث :

إن الأمور إذا الأحداث دبرها   دون الشيوخ ترى فى بعضها خللا

وسمعت أبا على إسحق يروى عن أبى محمد ميكائيل أنه قال : ما معنى البعض والحق أن فى كلها خللا .

(٭) هكذا فى النص ولكنه يصح الالف واللام قبل دجلة .

(١) هو الأمير عبد الرازق بن أحمد حسن الميمندى — غنى فياض حاشية ١ .

(٢) ان هذا البيت اصبح من الامثال السائرة منذ امد بعيد ، الا انه لم يعرف صاحبه ، وقد ورد فى كتاب خاص الخاص وفى الجمهرة دون ذكر قائله . وجاء فى الجزء الثانى ص ٣٠٥ من كتاب عيون الاخبار لابن قتيبة أن عبيد بن شريه الجرهمى هو أول من قال « البلاء موكل بالقول » وكذلك جاء فى الجمهرة (ص ٥٥) أن مضمون البيت مأخوذ من الحديث النبوى ؛ غنى — فياض ص ٦٤ حاشية ٢ .

هذا وقد كان الوزير أبو سهل الزوزنى خصما لدودا لحسنك الوزير أيام وزارته ، إذ كان يعمل على الحط من شأنه ويوغر صدر السلطان عليه ، فأذاقه ما أذاقه فى بلخ ، ثم أمر أبو سهل بتسليم الوزير حسنك فورا إلى خادم أبى سهل الخاص على رايض لحمله إلى داره وأذاقه شتى ألوان الهوان . وأخذ الناس يلومون أبا سهل الزوزنى على ما جرى ويسلقونه بألسنة حداد ، فإن ٦٥ العظماء من الرجال لم يحصلوا على حسن السمعة إلا بعد العفو عن أعدائهم ، ومقابلتهم بالإحسان إليهم لأن الإحسان خير من الهوان ، والعفو عند المقدرة جد ممدوح وكذلك جاء فى الأمثال « إذا ملكت فأسجح[1] » . إلا أن أبا سهل لم يكن له مثل تلك المهمة ، فوجد فى الانتقام سرورا لقلبه ؛ وقد طواهما الدهر فلم يبق أبو سهل ولا حسنك ، وقد دونت هذا الفصل لعله يفيد أحدا .

وأوفد الوزير أبو سهل الزوزنى بهرام النقيب بمنشور سلطانى إلى جنكى[2] بباب كشمير ليفك أسر الخواجة الكبير أحمد حسن رضى الله عنه فى الحال ، ويرسله عزيزا مكرما إلى بلخ ، لأن الدولة بحاجة إلى مثله ، كما تقرر أن يأتى بصحبته جنكى نفسه لينال مكافأته إزاء الرعاية التى قام بها نحو هذا الخواجة وخدمته له وحفظه من أعدائه بعد وفاة السلطان الماضى .

وأما سبب اختياره بهرام[3] للقيام بهذه المهمة ، فهو أن بهرام كان قد قام برعاية شئون أولاده وتأديبهم حينما كان أبو سهل مضيقا عليه فى الرزق ومضطهدا ورأى منه الإحسان فأراد أن يكافئه بهذه المهمة . وقد استولى الرعب الشديد على أعداء الخواجة حين سمعوا بذلك .

---

(١) فى مجمع الأمثال للميدانى « ملكت فأسجح » بدون إذا . واسجح فعل أمر من السجح والسجاحة وهى حسن الخلق .

(٢) كان كوتوال قلعة كالنجر والموكل بسجن أحمد حسن . — غنى فياض ٨٥٦ حاشية ١

(٣) هنا ثلاث روايات فى نسخ ب ، مو ، فا ذكرها غنى — فياض فى حاشيه ٤ .

وسأذكر قصة مجيء الخواجة إلى بلخ وتاريخ إسناد الوزارة إليه .

وكان أستاذى أبو نصر مشكان فى تلك الأيام كثير القلق ولم يجلس فى الديوان ، وكان طاهر وحده فى الديوان يدير الأمور، إلا أن السلطان مسعود استدعاه بعد مضى أسبوع وأجلسه وغمره بعطفه وسأله : « لماذا لا تجلس بديوان الرسائل ؟ » . فقال : « أطال الله حياة مولانا ، إن طاهرا هناك وهو كفء لذلك ، وقد بلغ حد الكمال فيه ، كما أنه يعرف جيدا رغبات مولانا السلطان وميوله ، وقد بلغت من الكبر عتيا ولم تبق لى قدرة على العمل ، فإذا رأيتم ٦٦ أن آتى إلى الحضرة وأؤدى خدمة فالأولى أن أشتغل بالدعاء لمولانا السلطان » . فقال السلطان « ما هذا الكلام ، إنى أعرفك حق المعرفة ، ولا أعرف طاهرا ، فينبغى أن تذهب إلى الديوان لأن مهام الملك كثيرة ، ولا غرو فإنك تعد بعشرة رجال ، وليس لنا غيرك ، فكيف يصح أن لا تجلس فى الديوان ، وفضلا عن ذلك كله ، فإن ثقتنا فيك أكثر من ثقة والدنا عشر مرات فلتبادرن إلى العمل ولتعرض علينا تلك النصائح التى كنت تعرضها على والدنا ، فإنا مستعدون للعمل بها ، ولقد وثقنا منذ أمد بعيد بنصحك وإخلاصك » .

فأدى أبو نصر فروض الخدمة ، ثم أرسل إلى الديوان فى رعاية وإكرام وبلغ منتهى العزة ، وأخذ يصرف الأمور فى الأعمال والخلوات ، ولكن أبا سهل الزوزنى سدد نحوه سهم العصبية والغرض ، ولم يقف عند حد فى إيذائه حتى لقد قال إنه من المستطاع أن يؤخذ من أبى نصر ثلثمائة ألف دينار . فقال السلطان : « ليس لأبى نصر مثل هذا المال الطائل ومن أين حصل عليه ، وإذا كان لديه هذا المال فإنى أرى أن استحقاقه إياه خير من فائدته لنا فتجنب الكلام عنه لأنى لا أريد أن تخوض فى حقه » . وذكر ذلك لأبى العلاء الطبيب وشكا من أبى سهل الزوزنى قائلا : « إنه يقول كذا فى حق أبى نصر وقد أجبناه بكذا » . فأنهى أبو العلاء هذا الحديث لأبى نصر .

وقد سمعت الخواجة أبا نصر يقول : « لقد استدعانى السلطان يوما فى هذا الأسبوع واختلى بى ثم قال : « لقد سارت الأمور فى إتجاه واحد بحمد الله ومنّه ، وإنى أرى أن لانسير إلى غزنة بهذه السرعة ، وأن نرحل من هنا إلى بلخ ، فيشمل عطفنا البالغ خوارزمشاه الذى هو بمعيتناولا يزال على إخلاصه، ويعد مثله غنيمة لنا فى هذه الأيام وأن نعيده مكرما . ثم نراسل خانات[1] تركستان بعد ذلك ونفاوضهم فى هذه الأمور ، ونوفد الرسل ونجدد العهود ثم نرحل إبان الربيع إلى غزنة ، فما رأيك فى هذا » . فقلت : « إن الصواب ما رآه السلطان ولا ينبغى شيء غير هذا » . فقال : « نعم أريد أكثر من ذلك ، فينبغى أن تنصح دون وجل وأن تبين وجه الخطأ والصواب فى هذه الأمور » ٦٧ فقلت : أطال الله بقاء مولانا ، إن لى بضع نصائح ولكنى أخشى أن تكون ثقيلة ، والحق مر ، ولعل ما أقدمه من نصح يذكره مولانا لخاصته فلا يستسيغونه ، ويقولون : لا ينبغى لأبى نصر أن يستمر على هذه الحال ، فقد امتدت يده إلى الوزارة والتدبير ، فالأولى بى أن أظل بديوان الرسائل مشتغلا بمهنتى أى بالكتابة وحدها، وإنى لأرجو أن أعفى من المسائل الأخرى . فقال السلطان : « إنى لا أوافق مطلقا على ما تقول ، فليس لأحد جرأة على أن يفاتحنى فى مثل هذه الأمور ، لأن منزلة كل شخص واضحة معروفة » . فقلت له : « أطال الله حياة مولانا، فما دام مولانا يرغب فى سماع نصيحتى ، فإنى أبين بعض النقاط الدقيقة وفى بيانها وفاء منى لحق هذه الأسرة العظيمة على . ليعلم مولانا أن السلطان الماضى كان فريد عصره فى كل الأمور ، وكانت الدنيا فى زمانه كالعروس المزدانة بأبهى الزينة والجلال ، وقد عاش طويلا[2] ، وعرك الأمور ظاهرها وباطنها ، واتخذ طريقه سويا ثم تركنا ومضى ، ويفضل العبد أن يكون السير على طريقته ، فلا

---

(١) يقول حانيان يعنى امراء خانية تركستان . غنى — فياض حاشية ٤ .

(٢) روزكار يافت ، يعنى عمر درازكرد . غنى — فياض حاشية ١ .

يفسح المجال لأحد ليقول له « لو عملت كذا لكان أصلح » وهذا كيلا يحدث خلل . والآن وقد انضوى الجيشان تحت لوائك وأصبحت الكلمة العليا لك ، فإنك تستطيع أن تستولى على وجه البسيطة ، وأن تحكم كل هذه الممالك الواسعة، فينبغى أن يستمروا فى السير على هذه الحال ويبقوا كذلك ،وقد بينت هذا المقدار اليوم ، وما دام العبد فى الخـــدمة وكلامه موضع للاستماع ، فإنه لا يبخل بما يرى فيه صلاحا، وذلك جل غرضى » . فقال السلطان : « نعم ما قلت وإنى لعامل بنصيحتك » ، فدعوت له وذهبت لشأنى ، والحق أقول إنه لم يمض أسبوعان حتى رحلنا عن هراة وتغير ذلك الإعداد » .

ومن جملة الأخطاء الفاحشة التى وقعت أن الأنباء التى تصل من غزنة ، قبل أن يأتى السلطان مسعود من نيسابور إلى هراة ، كانت تفيد أن الجنود هنالك قد أخذوا يعدون ويتأهبون للحرب ، فأدرك السلطان أن ثمة حاجة ماسة لمضاعفة جيوشه ، فأخذ يفكر فيما يجب أن يتخذه ٦٨ من شتى التدابير ، فأوفد رسولا قويا يدعى أبا القاسم الرحّال إلى على تـكين وكتبوا رسالة جاء فيها : « إننا نتأهب للسفر نحو أخينا فإذا أعاننا الأمير [٣] فى هذه الحرب لحضر بنفسه إلينا أو أوفد أحد أبنائه مع جيش مجهز بالعدة والعتاد ، وانتهى ما نحن بصدده من الأمر فسنمنح أحد أولاد الأمير إقليما عظيما من هذه الناحية » . وكان ناصحوه قد بينوا له أن ما عزم عليه السلطان أمر خطير ، ولا يمكن أن يقنع على تـكين بعد الفراغ من هذه المهمة بهذه الناحية الواحدة وسيطمع فى أماكن أخرى ، كما أنه حين لم يعط تلك الناحية التى أرادها ، ذهب سرا ، بعد وفاة ألتونتاش خوارزمشاه ، وأغار على الصغانيين وانتهب منهم أموالا طائلة يأتى ذكرها فيما بعد .

---

(٣) يقصد على تكين .

وكانت الغلطة الثانية أنهم استمالوا التركمان الذين كانوا قد ذاقوا حلاوة غنائم خراسان ، وكان السلطان الماضى قد ألقى بهم بحد السيف من بلخان كوه[١] فدعوهم ليزيدوا بهم عدد الجيش ، فتقدم هؤلاء وعلى رأسهم قزل ، وبوقه ، وكوكتاش ومقدمون آخرون ، وقد قاموا بأداء بعض المهام ، ثم انقلبوا وعادوا سيرتهم الأولى من النهب والسلب ، كما سيأتى بيانه . وآل الأمر إلى أن قبض على قائد مثل تاش فراش وضاعت نواحى الرى والجبال بسببهم ، ولم ينصرفوا عنها إلا بعد الجهد العنيف الذى بذله أرسلان جاذب وغازى السپهسالار فى إجلائهم عن خراسان ، ولا مرد لقضاء الله عن ذكره .

أجل ، إن هؤلاء التركمان حضروا إلى خدمة السلطان ونصب عليهم القائد خمارتاش سپهسالار ، وفى أثناء هذا عزم السلطان على إيفاد جند إلى مكران مع قائد كبير ليصطحب معه أبا العسكر ، الذى كان قد فر من وجه أخيه المغرور والتجأ إلى نيسابور منذ عدة سنوات ؛ لينصبوه أميراً على ٦٩ مكران فتستأصل شأفة عيسى المغرور هذا ، وقد اختير اقتغمش[٢] الجامه دار لقيادة جيش يتكون من أربعة آلاف فارس سلطانى وثلاثة آلاف راجل وذلك بعد مشورة التونتاش والسپهسالار غازى ، وعلى أن يؤمر الحاجب خمارتاش ليذهب مع هؤلاء التركمان على أن يعملوا تحت إمرة الجامه دار لأنه القائد . فساروا إلى مكران مجهزين بكامل العدة من هراة بصحبة أبى العسكر .

وبعد إيفادهم قال السلطان لعمه الأمير عضد الدولة : « إنك ياعمى قد استرحت طويلا ويقال إن والى قصدار قد أخذه الغرور فى هذه الفترة ، فأرى أن تسير الآن إلى بست مع غلمانك وتقيم فى قصدار حتى يعود القصدارى إلى

---

(١) سلسلة جبال بين إيران وتركستان ، تعرف بهذا الإسم الى اليوم .

(٢) ذكر هذا الاسم بصور أخرى فى النسخ المختلفة . قفل . قمش . واقتمش . وفى مكان آخر من هذا الكتاب ذكر باسم باق تغمش وبارق تغمش . غنى — فياض ، حاشية ١

الصلاح ويرسل ضرائب السنتين » إلينا ، ويكون في مقامك في نفس الوقت بقصدار قوة كبيرة للجيش الموفد إلى مكران» . فقال الأمير عضد الدولة يوسف : إن هذا حسن جدا ، والأمر لمولانا في كل ما يأمر . فأبدى السلطان مسعود عطفه عليه ومنحه خلعة غالية . وقال له : سر على بركة الله وسوف نستدعيك بعد أن يصل ركابنا من بلخ إلى غزنة بعد انقضاء النوروز ، بحيث تصل معنا إلى غزنة . ثم سار مع غلمانه وبصحبته سبعة من المقدمين السلطانية أو ثمانية وخمسمائة فارس من هراة شطربست وزابلستان[١] وقصدار[٢] .

على أنني علمت يقينا أن السلطان مسعود كان قد أوصى سرا ، المقدمين الذين أوفدهم مع الأمير يوسف أن يكونوا آذانا عليه حتى لا يرتحل إلى جهة أخرى ، كما سمعت أنهم جعلوا حاجبه طغرل مشرفا عليه سرا يحصى عليه أنفاسه ويبين كل مايجرى . وقد ضمن هذا الخائن ذلك الأمر رغم أن الأمير يوسف كان يعده ولدا له ، بل كان لديه أعز من ٧٠ الولد[٣] فبعثوا بيوسف بهذه الذريعة لأنهم ظنوا أن غرور القيادة قد تمكن من رأسه ، وأن الجيش اتجه إليه ، فيكون بهذا بعيدا مدة عن الدركاه .

---

(١) جاء في حاشية يب : « زابل اسم ولاية جنوبي بلخ وطخارستان . وهي تشمل على هذا النحو غزنة وبلاد دوار وقندهار وسيستان . وأما قصد صاحب الكتاب فسيستان » . غني — فياض حاشية ٣ .

(٢) جاء في حاشية يب « قصدار أو قزدار . قال ياقوت انها من نواحي السند . وعندي انها جزء من بلوجستان الواقعة غربي السند » غني — فياض . ملحوظة ٢ .

(٣) تفسير غني — فياض حاشية ٥ .

ذكر بقية أحوال الأمير محمد رضى الله عنه

بعد ما قبض عليه إلى أن حول من قلعة كوهتيز إلى قلعة منديش[1]

بينت قبل ذلك ما اتخذه كبير الحجاب (على قريب) من احتياط بشأن الأمير محمد عند سفره من تكينا باد إلى هراة، وذلك بناء على الأمر العالى الذى وصل من السلطان مسعود وتعيين الحاجب بكتكين. وما ترتب على ذلك من خير وشر مما سبب الوقيعة بالحاجب المذكور فى هراة. والآن بعد أن انتهينا من سرد ماحدث من إيفاد الجيوش إلى هراة، وما نكب به الحاجب على قريب والأعمال الأخرى، ووصلنا إلى ذكر ما حدث بعد ذلك من ارتحال السلطان مسعود من هراة إلى بلخ، وقفنا بالتاريخ إلى هنا. وأذكر بقية أحوال هذا الأمير المعتقل وما حدث فى تلك الأيام من حركة الجند من تكينا باد صوب هراة، ونقله من قلعة كوهتيز إلى قلعة منديش، سأذكر كل ذلك فيتم التاريخ، وبعد الفراغ منه نردفه بسفر السلطان مسعود من هراة إلى بلخ إن شاء الله.

سمعت من الأستاذ عبد الرحمن القوّال[2] يقول إنه بعد أن سار الجيش من تكيناباد إلى هراة بقيت أنا وباقى الخدم الخاصة بالأمير كأسماك أخرجت من الماء إلى اليابسة، وكنا كمن نهبوا وأصبحوا محوزين ولم يرض ضميرنا أن نبتعد عن قلعة كوهتيز، وكنا نؤمل أن يستدعى السلطان مسعود الأمير محمد إلى هراة فتنكشف هذه الغمة. وكنا نذهب كل يوم حسب العادة، ٧١ أنا وزملائى من المطربين والقوالين ومن شاخ من الندماء إلى الخدمة، فنتناول شيئاً هناك ونعود

---

(١) منديش اسم ولاية فى غور وهذه القلعة بها.

(٢) يراد بهذه الكلمة « المغنى والمطرب » وتستعمل الى الآن فى الفارسية بهذا المعنى فى فى بعض نواحى ايران.

وقت صلاة العشاء ، وكان الحاجب بكتكين رغم تشديده الحراسة القوية على القلعة لا يمنع أحدا منا ، بل كان يزداد عطفاً ورفقاً ، فكان يبذل قصارى جهده لإعداد كل مايطلبه الأمير محمد فى الحال ، ولو كان من قبيل ابن الدجاج مثلا . وهذا ماأدى إلى تهدئة روع الأمير محمد فأخذ فى الشراب بغير انقطاع .

وأذكر أننا جلسنا يوما فى أعلى مكان من القلعة الخضراء[1] للشراب وكنا جلوساً فى حضرته وكان المطربون يعزفون ، فرأى إلينا مثار نقع من بعيد ، فقال الأمير رضى الله عنه ماذا يمكن أن يكون وراء هذا الغبار يا ترى . فقالوا « لا نستطيع أن نتبين حقيقته » .فقال لأحد ثقاته « إنزل على عجل وانظر ما هذا الغبار » . فسار مسرعا وعاد بعد مدة ودنا من الأمير وهمس فى أذنه شيئا . فقال الأمير الحمد لله وسر سرورا بالغاً ، ظهرت آثاره على أساريره ، فظننا أن هنالك نبأ عظيما لكنا لم نجرؤ على السؤال . ولما دنا وقت صلاة العشاء عدنا فنادانى الأمير من بين الجماعة وأدنانى إليه كما لم يدننى يوما وقال : « إن أبا بكر الكاتب قد سار بالسلامة إلى كَرمسير[1] (مكران وسجستان) ليذهب عن طريق كرمان إلى العراق ومكة ، وقد ارتاح خاطرى من أجله لأنه نجا من حبائل هؤلاء الطغاة ، ولا سيما من أبى سهل الزوزنى الذى يتعطش لدمه . وكان هو سبب تلك الغبرة إذ يسير بجنائب الإبل مسرورا موفقاء . قلت : « الحمد لله الذى أراح قلب الأمير بهذه البشرى » فقال : « إن لى أمنية أخرى إذا تيسرت أكون قد حصلت على كل ما أتمناه فاذهب الآن واكتم هذا الحديث » . فعدت إلى مقامى .

---

(١) المقصود بالخضراء .

(٢) كرمسير — جاء فى حاشية يب (المشهور إطلاق كرمسير على نواحى سيستان ومكران) ويقول ياقوت فى مادة بست أنها تسمى كرمسير . غنى — فياض حاشية ٥ .

وبعد أيام وفد قرب صلاة العشاة نفر من الجمازة[١] من هراة إلى بكتكين الحاجب فأخبروا ٧٢ بذاك الأمير رضى الله عنه ، فأرسل أبا نصر الطبيب ، الذى كان من جملة الندماء ، إلى بكتكين ليقول سمعت بوصول مجمز من هراة فما خبره ؟ فأجاب بكتكين إنه خير ، إن السلطان قد أمر بالقيام بأمور أخرى . وعندما طلع النهار عزمنا على الذهاب إلى القلعة للخدمة فقال رجال بكتكين : لاتذهبوا اليوم فإن هناك أمرا واجبا مع الأمير ، فقد وصل أمر يعود بالخير والبركة ينبغى إنجازه وسوف تذهبون بعد هذا كعادتكم . فاضطربنا لذلك كثيرا . وعدنا وقد امتلأت قلوبنا غما . فقلق الأمير محمد بعد يومين من هذا فقال للكوتوال : ينبغى أن تسأل الحاجب عما دعى إلى ألا يحضر لدى أحد . فأرسل الكوتوال رجلا ليسأل . فأرسل الحاجب كتخداه ، ليقول له : وصل من هراة مجمز برسالة من السلطان تتضمن الخير والإحسان للأمير ، وسوف يأتى معتمد من هراة إلى الأمير ببعض المشافهات الهامة ولعله يصل اليوم ، ذكرت ذلك حتى لايقلق الخاطر فليس ثمة سوى الخير والحسنى . فقال الأمير رضى الله عنه « حسن جدا » . وهدأ قليلا ولكن لا كما ينبغى .

وعند صلاة الظهر وفد المعتمد واسمه أحمد طشتدار[٢] ، وكان من خاصة المقربين للسلطان مسعود ، فأرسله الحاجب بكتكين إلى القلعة فى الحال ، فمكث عند الأمير حتى صلاة المغرب ثم عاد ، وظهر بعد ذلك أن الرسول كان قد كلف بإبلاغ أوامر خاصة إلى الأمير من قبل السلطان مسعود يقول فيها : إننا قد أقررنا صحة ماقد حصل حتى الآن . وسنصدر أوامرنا بما ينبغى فى كل شأن . فعلى أخينا الأمير أن يطمئن خاطرا

---

(١) جمز الإنسان والبعير وغيره يجمز جمزى وهو عدو ... وبعير جماز وناقة جمازة . والجماز اسم فرس هو أكرم خيول العرب . والمقصود بها هنا السعاة المسرعون . (القاموس)

(٢) طشت دار ومعناه الموكل بالطشت

وألا يسيء الظن بشيء ، فإنا سنمكث هذا الشتاء فى بلخ وعندما نأتى فى الربيع إلى غزنة ، ندبر شأن استدعاء الأخ ، أما الآن فيجب أن تسلم القوائم الخاصة بالأموال التى أرسلت من الخزائن مع كتخداه إلى جوزجان لهذا المعتمد ، كما ينبغى أن تسلم كل ما أخـــذوه من الخزائن بأمره من الذهب والملابس والجواهر ٧٣ وكل ما أودع فى أى مكان وما معه من سراى الحرم بجملته إلى الحاجب بكتكين ، حتى يرد إلى الخزانة ، وأن يعطى المعتمد نسخا من جميع القوائم التى سلمت إلى الحاجب بكتكين للاطلاع عليها . فأعطى الأمير رضى الله عنه القوائم للحاجب وسلّم كل ما كان معه وما عند الحريم أيضا ، وقد استغرقت هذه الأعمال يومين تماما لم يؤذن لأحد فيهما بالاتصال بالأمير .

وفى اليوم الثالث ركب الحاجب وسار إلى أقرب موضع من القلعة ، مصطحبا معه فيلا عليه مهد ، وأبلغ أن الأمر يقضى بحمل الأمير إلى قلعة منديش حيث تكون أكثر راحة ، ولن يأتى الحاجب وجنده المقيمون حول القلعة ، لأنه مكلف بالسير مع جماعته لمهمة أخرى . فلما عرف الأمير جلال الدولة محمد ذلك اتضح له حقيقة الحال فاستعبر وبكى لأنه تأكد من أنه مرغم على الرحيل أراد أو لم يرد . وأنزل من القلعة وحده فارتفعت أصوات نسائه بالبكاء والعويل ، وبعد نزوله صاح الأمير فى أحد حراسه أن اسأل الحاجب أهو مكلف بالرحيل وحده . فأجاب الحاجب : لا ، بل إن القوم جميعهم سيكونون معك وكذلك الأولاد كلهم يعدون للسفر ، إذ ليس من اللائق أن يسافروا الآن بصحبتك . وسأكون هنا لأبعث بهم مرتاحين هانئين فى أثره ، وسيكونون سالمين عنده حين صلاة العصر .

فسار الأمير فى حراسة ثلثمائة فارس وثلثمائة راجل مدججين بالسلاح ومعهم كوتوال قلعة كوهتيز ، وأركبوا النساء الهوادج وأركبوا الحاشية والخدم

البغال والحمير ، ولم يراعوا حرمة الأمير فى تفتيش رحله عند سفره ، وهذا ما سبب لوم الناس وإستياءهم ، لأنه مهما يكن من شىء كان ابن محمود. وعندما سمع السلطان مسعود بذلك لام بكتكين ولكن بعد فوات الأوان .

ولنعم ما قال أستاذ الكلام ليثى الشاعر فى هذا الباب : ٧٤

سارت القافلة من الرى إلى دسكرة

فصادفت ماء وازدحم الخلق جميعا على القنطرة

فشاهدتهم جماعات اللصوص من بعيد ، فسارع كل منهم للنهب كالليث الكاسر فانتهبوا ما وقع فى أيديهم وساروا ، ولم يبق هنالك أحد ، فقد ذهبوا بذهاب اللصوص ، فاتفق أن مر عابر سبيل فوجد مالا غفل عن أخذه اللصوص فاغتنمه وكان كل جوابه « نهبت قافلة فسعدت جماعة » .

وصل الجماعة عند صلاة العصر إلى حيث نزل الأمير محمد فشكر الله على ذلك ، إذ وجدهم جميعا ولم يأبه بربح أو خسران [١] ، كما وصل الحاجب هنالك أيضا ونزل بعيدا عنه ، وأمر أن يسيروا بأحمد أرسلان مكبلا إلى غزنة ليرسله المقدم أبو على الكوتوال إلى مولتان حيث يبقى معتقلا . وأبلغوا سائر الخدم كالندماء والمطربين أن يذهب كل لشأنه ، إذ لم يؤذن لأحد منهم أن يكون معه .

قال عبد الرحمن القوّال فانفرط عقد الجمع فى اليوم التالى ، وسرت أنا وصديق الناصرى البغوى [٢] متنكرين معه ، لأننا لم نستطيع صبرا على فراقه ،

---

(١) النص الفارسى بقول حديث سوزيان . وفسرها غنى ــ فياض « يعنى سود وزيان » يعنى حساب نفع وضرر . حاشية ٦١ . وانظر تعليقات نفيسى ص ١١٥٥ (المجلد الثالث) .

(٢) فى النص وناصرى وبغوى . قال نفيسى (ص ٧٦ حاشية ٢) والاسم لرجل واحد هو الناصرى البغوى . وأحال إلى تعليقاته فى آخر طبعة ، ولكنه لم يذكر شيئا عن صفحة ٧٦ فى المجلد الثالث . وانظر حاشية ٨ غنى ــ فياض .

فقلت : إن الوفاء يدعونا لأن نذهب معه إلى القلعة ثم نعود راجعين بعد وصوله إليهما ، وعندما ارتحلوا من جنكل آباد [١] وبلغوا كورة والشت [٢] ٧٥ ظهرت معالم قلعة منديش من بعيد على يسار الطريق فخثوا السير نحوها ، وظللت أنا وهذا الرجل الحر نسير مع الركب حتى بلغنا القلعة فوجدناها حصنا منيعا على غاية من الضخامة والارتفاع ، وقد علق عليها سلم لا تحصى درجاته كثرة ، فترجل الأمير محمد وكان مقيدا ورأيته مرتديا قباء من ديباج أحمر وعلى رأسه قلنسوة وفى قدميه خف بسيط . فشاهدناه دون أن نستطيع خدمة أو إشارة ثم أجهشنا بالبكاء أنا والناصرى البغوى وانهمرت دموعنا تجرى جريان دجلة والفرات ، وكان هناك أحد ندماء ذلك الملك يقرض الشعر وينشده جيدا ، فبكى وقال أعلى البديهة :

« ماذا أدهاك أيها المليك حتى أصبح قميصك عدواً لك وصارت محنتك كبر المحن ، وأمسى نصيبك من ملك أبيك قلعة منديش »

فرأيته يرتقى السلم بجهد وقد أخذ رجلان شديدان بساعديه ، وكلما ارتقى درجات يجلس ليستريح ثم يأخذ فى الصعود . وعندما ارتقى عالياً السلم وجلس ليستريح مرة أخرى كانت العين ما تزال تستطيع رؤياه . وظهر جمّاز من بعيد فى الطريق ولحظه الأمير محمد فتوقف عن الصعود ، ومكث ليسأل عن مجيء الجماز . وأرسل شخصا من لدنه إلى بكتكين الحاجب . ووصل المجمز برسالة بخط السلطان مسعود إلى أخيه ، فأرسلها الحاجب بكتكين فورا إلى أعلى ، بينما كان

---

(١) هنا وفى نسخ أخرى جنكل اياز ، ويقال إنه خطأ والصحيح ماذكرنا فى الترجمة العربية. غنى ـ فياض حاشية ٩ .

(٢) فى النص كور والراجح أنها كورة . ووالشت نذكر أحيانا بالس (حدود العالم) وهى ناحية فى حدود إقليم داور ورخذ وغور ، ووالشت قسمان عليا وسفلى ومجموعهما يسمى والشتان. غنى ـ فياض حاشية ١ .

الأمير جالسا على تلك الدرجة من السلم ، فشاهدته وقد سجد بعد الفراغ من قراءتها ، ثم أعاد الكرة آخذا فى الصعود إلى أن بلغ أعلى القلعة فغاب عن الأنظار. وأوصلوا القـــوم جميعهم ، مع نفر من رجال الخدم حسبما يقضى الأمر . وأنا الفضولى عبد الرحمن ، كما تقول عجائز نيسابور ، « أماتت الأم والدين درهمان » ، قد أدركت الرجلين الذين ٧٦ كانا يأخذان بساعدى الأمير وسألتهما « لماذا كانت سجدة الأمير تلك » فأجابا مالك ولهذا ألم تقرأ ما قاله الشاعر :

أيعود أيتها الخيـــام زماننا   أم لا سبيل إليه بعد ذهابه

قلت : حقا إن هذا القول سديد ، ولكنى تريثت لأعرف سرا آخر وأسير . فقالا « كانت رسالة له بخط السلطان تقول : « إنا أمرنا باعتقال الحاجب على قريب جزاء على إقدامه على اعتقال الأمير لكى لا يجرؤ فيما بعد خادم على الإساءة إلى مولاه ، وأردنا أن نطلع على ذلك أخانا الأمير لأنا نعلم أن هذا سيبعث فى نفسه سرورا عظيما » . فسجد الأمير محمد وقال « رضيت الآن بما جرى على اليوم بعد ما عرفت أن ذلك اللئيم لقى جزاءه وانتهت أيامه » . ثم ذهبت أنا وزميلى لشأننا .

وبعد مضى سبعة أعوام على تدوين هذا التاريخ ، سمعت يوم الأحد لأحد عشر خلون من رجب ســـنة خمس وخمسين وأربعمائة (١٠٦٣) حينما كنت أذكر حديث الملك محمد ، عبد الرحمن القوال يقول : « كان الأمير محمد يلح علىّ فى أن أكرر هذا الصوت رغم أنى أحفظ عدة أصوات نادرة وقل وندر مجلس أحضره ولا يكلفنى فيه بغنائه :

أما البيتان فهما :

وليس غـدركم بدعا ولا عجبا[1]   لكن وفاءكم من أبدع البدع

---

(١) فى النص بدع ولا عجب ، وقد صححها غنى — فياض ص ٧٦ حاشية ٢

ماالشأن فى غدركم الشأن فى طمعى　　وباعتدادى بقول الزور والخدع

على أن هذين البيتين مما يخاطب به العاشق معشوقه إلا أن العاقل البصير إذا تأملهما يجدهما فألا جرى على لسان ذلك الملك رضى الله عنه، إذ كان عهده مليئا بالأحداث ٧٧ الجسام[1] على حين كان فى غفلة عنها، مع رفقه وحنانه بالنسبة للجيوش والرعية. وكأن هـذا كان مغزى البيتين عنده والمقدر كأن وما قضى الله عز وجل سيكون « نبهنا الله عن نومة الغافلين بمنّه ».

وسأذكر فيما بعد ما جرى لهذا الأمير المعتقل فى مكانه. أما الحاجب بكتكين فإنه بعد أن فرغ من تلك المهمة سار إلى غزنة بأمر من السلطان، كى يذهب منها إلى مدينة بلخ بصحبة والدة السلطان ونساء الحرم الآخرين وعمته « الحرة الختلية » فبلغوها حذرين.

وبعد أن تمت هذه المهام كلها فى هراة قال السلطان مسعود لأستاذى أبى نصر إن كل ما ينبغى القيام به من الأمور قد تم وسنرحل فى غضون هذا الأسبوع إلى بلخ لنقضى الشتاء هنالك وننظر فيما يجب العمل به مع خانات تركستان، وندرس شئون تلك البلاد ويصل الخواجة أحمد حسن عند ذلك فيتعهد شئون الوزارة، ومن ثمّ نسير إلى غزنة. فأجاب أبو نصر: إن كل ما يراه مولانا لازم وهو عين الصواب. فقال السلطان: يجب أن نرسل كتابا إلى أمير المؤمنين يتضمن كل ما جرى من الأحوال، حسب الرسم، ليعلم أن كل هذه الأمور قد تمت دون أن يراق دم. فقال أبو نصر: نَعم هذا من الواجبات، ويجب أن يكتب أيضا إلى قَدَرخان، ويمضى بهذه البشرى ركابدارى (فارس) ويبلغها بأسرع وقت، وبعد أن يصل الركاب العالى بالسعد والإقبال إلى بلخ نقوم بتدبير إيفاد رسولٍ من العظماء للتوسط فى أمر العقد والعهد.

---

(١) فى حاشية بب ـ خير خيرها يعنى الظلمة والكدورة.

فقال السلطان نعم يجب الإسراع فى ذلك فإن رحيلنا إلى بلخ بات قريبا ، حتى يرسل هذان الكتابان قبل رحيلنا من هراة . وكتب أستاذى الرسالتين على أبلغ ما يكون ، إحداهما بالعربية إلى الخليفة والأخرى بالفارسية إلى قَدَرخان . وقد ضاعت النسختان كما بينت ذلك فى عدة مواضع . ومن الغريب أنهم كانوا قد أتوا بنفر من العراق من أمثال أبى القاسم حريش وغيره لينافسوا بهم ٧٨ أستاذى ويفضلوهم عليه . والحق يقال إنهم كانوا يجيدون قرض الشعر والكتابة إلا أن الأسلوب الذى يجب فى الكتابة من ملك إلى ملك شيء آخر . وكل من يأخـــذ فى كتابة هذه الرسائل يستطيع أن يسبر غورها ، فإن أستاذى فضلا عما كان عليه من عقل وعلم ، كان ممن تثقفوا على يد السلطان محمود تثقيفا وعدّ فى ذلك نسيج وحده : أما هؤلاء فقد كتب كل واحد منهم نسخة ، حسداً منهم لأستاذى ؛ ولكننى أستحى من أن أبين ما كانت عليه . وقد تبين ذلك للسلطان مسعود ، وبعد أن وصل الأستاذ الرئيس أحمد ازداد يقينا بهذه الحقيقة فذهبت ريحهم . وقد نسخت منها صورة ، كما فعلت فى مواطن أخرى ، وأدرجتها فى هذا التاريخ ومن جملتها الرسالة الخاصة بأمير المؤمنين وسأذكرها فيما بعد للاطلاع عليها إن شاء الله عز وجل .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الصدر والدعاء . يعلم الخان أن العظماء وملوك الدهر عند ما يتصادقون وتتوثق بينهم صلات المودة ، تقوى بينهم رابطة الإخاء والوفاق ، ويعامل بعضهم بعضا بالود ، ويبلغ لطف تلك الأحوال بينهم إلى درجة تجعلهم

يقابلون[1] بعضهم البعض مقابلات أخوية ، ويقومون فيها بشروط المالحة[2] ، ويتعهدون — فى آداب لا حد لها — بتنفيذ المواثيق والعقود التى أبرموها ، حتى يتقوى بين الأسرتين أواصر القربى وتزول عنهما جميع بواعث الغربة ، وهم يفعلون كل ذلك حتى إذا ما لبوا نداء الله وارتحلوا إلى الدار الآخرة وتركوا سرير الملك يكون أبناؤهم المستحقون للملك من يخلفونهم ناعمى البال فى أيامهم ، ولا يتسنى لأعدائهم أن ينتهزوا فرصة أو يقصدوا شيئا أو يبلغوا مرادا .

وغير خاف على الخان كيف كانت سيرة والدنا السلطان الماضى ، فقد بلغت أبعد حد فيما ينبغى للملوك العظام ، إذ أن الحشمة والكمال والعظمة والجلال التى كان يزدان بها ٧٩ والدنا معروفة لا تحتاج إلى بيان ، كما أنه يعلم ما تحمله العاهلان الراحلان[3] من المتاعب الكثيرة حتى تمت مثل تلك الألفة والتوافق والصداقة والمشاركة وكيف تمت مقابلتهما على باب سمرقند فى ودّ وصفاء مما عرفه الدانى والقاصى والعدو والصديق ، وسيخلد التاريخ كل ذلك ومن المؤكد أن القصد من كل تلك المتاعب التى احتملوها هو أن يسعد أبناؤهم بهذه الألفة فيجنوا ثمار تلك البذور التى زرعها آباؤهم . فاليوم وقد صار إلينا الملك ، وتم على يدنا ما لا يخفى على الجانبين ، فإن العقل يدعونا والتجارب تقتضينا أن نبذل الجهد حتى تصبح تلك الصداقة الأكيدة فى الود أكثر رفعة مما كانت ، حتى تطيب بذلك نفوس الأصدقاء من الجانبين وتنتهى حياة الحاسدين والأعداء ، وتموت بها فى عمى وخذلان ، ويتحقق للعالم أن

---

(١) يشير الى المقابلة الودية التى تمت بين السلطان محمود وقدرخان على باب سمرقند ، وقد وصف الكرديزى فى كتابه هذه المقابلة (زين الاخبار طبع طهران ص ٦٥) غنى — فياض حاشية (٣)

(٢) يقصد بالمالحة المشاركة فى الخبز والملح .

(٣) يقصد ما كان بين السلطان محمود وطغان خان أخى قدرخان الذى كان ملكا على التركستان قبل اخيه . غنى — فياض حاشية ١ .

الأسرتين كانتا واحدة وأنهما اليوم أحسن وداً مما كانتا عليه . ونرجو التوفيق الأصلح من الله تعالى فى هـــذا الباب لأنه الموفق لعباده « وذلك بيده والخير كله » .

ولعل الخان أدام الله عزه قد عرف أننا عند وفاة والدنا كنا بعيدين عن حاضرة الملك ، وقد استولينا على أراض فسيحة من العالم تبعد ستمائة فرسخ أو سبعمائة . وكانت أمامنا ولايات عظيمة تمنى أهلها أن تسمى بلادهم باسمنا وتزدان بحكمنا ، وهم يدعون الله ليكونوا من رعايانا ، وأن أمير المؤمنين أعزنا كثيرا بتأييده وولانا بالمكاتبة حتى نسارع فنذهب إلى مدينة السلام لنطهر مركز الخلافة من فرقة الأذناب[1] ونزيل عنها هذا الإثم .

وكنا قد عقدنا النية على القيام بما يشير إليه الأمر العالى لكى نسعد بشرف لقاء ٨٠ أمير المؤمنين ، بيد أنه بلغنا أن والدنا قد انتقل إلى جوار ربه ، وأن الموالى والحشم قد انتهزوا فرصة غيابنا واستقدموا أخانا من جوزجان وأجلسوه على سرير الملك ، وسلموا عليه بسلام الإمارة وقصدوا بذلك تهدئة الحال لأننا كنا بعيدين .

إن والدنا مع ما كان عليه من العظمة والرفعة رغب عنا فى أواخر أيام حياته ، وأساء الظن بنا ، ولم تكن هذه الظاهرة خاصة به بل هى تظهر عادة فى أواخر أيام الملوك بالنسبة إلى ولاة العهد ، ليقينهم أن هؤلاء سيحلون محلهم ، فبقينا فى الرى . وكان معلوما أن تلك البلاد تنتهى من جهة بالروم ، ومن جهة أخرى إلى مصر طولا وعرضا ، وكلها تزدان بحكمنا ، ونفوّض أمر بقية البلاد من غزنة إلى الهند وما حولها إلى أخينا ، ليكون خليفتنا عليها ، ولا يبقى للغير

---

(١) يقصد اسرة الديالمة . وكان الأمير الديلمى فى بغداد فى هذه السنة : جلال الدولة او طاهر بن بهاء الدولة . (ابو الفدا ، ج ٢ ص ١٥٦) . غنى ـ فياض حاشية ٥ .

طريق للتدخل بيننا . فأرسلنا من قبلنا رسولا ليبلغ أخانا التعزية بوفاة الوالد والتهنئة بالجلوس على سرير الملك ، وحملنا الرسول مشافهات فيها إصلاح ذات بيننا ، ولتستقر أحوال آلاف الألوف من الناس الذين يعيشون فى خراسان والعراق ، وقد صرحنا بأن أمامنا بلادا مترامية الأطراف يجب الاستيلاء عليها وضبطها بأمر من أمير المؤمنين ، فينبغى الوفاق والتساند بين الأخوين ، وإزالة كل أسباب الفرقة والخلاف ، لكى يتم على أيدينا ما هو جدير بصلاح العالم . إلا أنه يشترط أن يرسل إلينا من مخازن الحرب خمسة آلاف من الإبل محملة بالأسلحة والمعدات الكاملة ، وعشرين ألفا من خيل الركوب مع ألفى غلام تركى ، وذلك بأسرع وقت مجهزين بكامل العدة ، ومعها خمسمائة من الفيلة المختارة الخفيفة الحركة ، وأن يعتبر الأخ نفسه خليفتنا ، فيذكر اسمنا فى الخطبة أولا ويكون اسمه من بعدنا ، وكذلك الحال فى النقود والأعلام وطراز الألبسة فينقش ٨١ عليها اسمنا أولا ومن بعده اسمه ، وأن يتم اختيار القضاة وأصحاب البريد الذين ينهون الأخبار من جانبنا ، حتى نصدر ما ينبغى لصالح الإسلام من الأوامر اللازمة ، فنبادر إلى العراق وغزو الروم ؛ ويكون فى حوزته الهند وغزنة ، حتى تؤدى ما علينا من فرائض لسنة نبينا صلوات الله عليه ، ونحافظ بذلك على سيرة آبائنا أيضا ، ونبقى مثلا صالحا يحتذيه أعقابنا ، كما صرحنا بأنا سنضطر إلى إهمال ما فى أيدينا من البلاد وتركه والسير إليكم إذ ما تبين أنكم تقضون الأوقات فى التسويف وأنكم لستم مستعدين للقيام بما طلبنا العمل بموجبه ، فنتجه إلى قاعدة الملك لأنها الأصل أما الباقى ففرع ، فإذا ثبت وجود الأصل تيسر لنا الاحتفاظ بالفرع كذلك . وأى خلاف يحدث بيننا والعياذ بالله سيؤدى إلى إراقة الدماء يقع وزره على مسببه ويعود عليه . وإنا لكوننا ولى عهد الوالد ونراعى هذه المجاملة سوف يعرف العالم أننا قد أدينا حق الانصاف تماما .

« ولكن بعد أن وصل رسولنا إلى غزنة وجد أخانا مأخوذا بعزة الملك

وأبهة السلطان ، ماداً يده إلى الخزائن يبدد ما فيها ، صارفا ليله ونهاره فى اللهو والشراب ، كما أن الذين استولوا عليه[1] لم يرغبوا فى استقرار الملك لمستحقه ، كيلا يعاملهم بمـا يستحقون لحملوا أخانا على أن يرد رسولنا ، وسيروا معه رسولا بتضليلات وتقولات : « بأنه ولىّ للعهد وأن أبانا قد عهد إليك بملك الرى ليقتصر كل منا على ما فى حوزته بعد وفاة أبينا ؛ ولو أن أخانا يقنع بما فى يده[2] من البلاد فسنرسل له ما يطلب منا من الغلمان والفيلة والخيل والجمال والسلاح ، بشرط ألا يسير إلى خراسان ولا يحدّث نفسه بأننا خليفة له . وأن لا يكون اختيار القضاة وأصحاب البريد بيده » .

« فلما وجدنا إجابته على هذا النحو تأكد لنا أنه ليس بمنصف[3] ، ولا يتبع الطريق السوى ، ٨٢ فسرنا فى نفس اليوم من إصفهان ، فى حين أننا كنا عازمين على الرحيل إلى همدان وحلوان وبغداد .

أما الحاجب غازى فقـد أعان أمرنا فى نيسابور وغيّر الخطبة ، فدخل فى طاعتنا الرعية والأعيان من تلك النواحى . وجهز جيشا كبيرا مزودا بكامل العدة والسلاح . ثم أطلعنا أمير المؤمنين على عزمنا وطلبنا منه أن يرسل إلينا عهد خراسان وجملة مملكة أبينا مع كل ما فتحناه من الرى والجبال وإصفهان وكل ما نوفق إلى فتحه بعد ذلك . ومع كوننا على الحق فقد طلبنا ذلك ليكون عملنا مطابقا لمـا يأمر به الشرع .

وبعد أن بلغنا نيسـابور بلغها رسول الخليفة يحمل إلينا العهد واللواء والنعوت والـكرامات التى لم يكن لملك عهد بأمثالها . ومن المصادفات النادرة

---

(١) التعبير الفارسى : دت برك وى نهاده بودند بمعنى التسلط . ونظيره مايقال اليوم : رك حواب كسى رابيدا كردن . غنى ــ فياض حاشية ٣

(٢) استخدم النص كلمة « نهاد » بقصد الاقرار والمواضعة . غنى ــ فياض حاشية ٤ .

(٣) النص الفارسى : انصاف نخواهد بود . غنى ــ فياض حاشية ٤

أن وفد فى تلك الأثناء المقدم على عبد الله وأبو النجم إياز ونوشتكين الخادم الخاص من غزنة ، يصحبهم جمع كبير من خاصة الخدم . كما وصلت إلينا رسائل سرية من غزنة تقول إن زعيم الحجاب على بن إيل أرسلان والحاجب بكتغدى[1] أمير الغلمان قد دخلوا فى الطاعة ، كما كتب أبو على الكوتوال وجماعة المقدمين يبدون الطاعة والعبودية ، وأضاف الكوتوال أبو على أن أخانا لم يستطع القيام بأعباء الملك ، وما أن تصل راياتنا حتى يبادر الجميع إلى إظهار العبودية .

وقد أمرنا أن يكرموا وفادة هؤلاء الجماعة الذين جاءوا من غزنة ، وكتبوا لأعيان غزنة ردودا لطيفة . ثم رحلنا من نيسابور . وبعد إثنى عشر يوماً من حلول العيد جاءت الرسائل من الحاجب على قريب وأعيان الجند الذين كانوا فى تكيناباد مع أخينا ، تفيد بأنهم اعتقلوه بقلعة كوهتيز حينما بلغهم خبر مسيرنا من نيسابور .

وقد وصل منكيتراك أخو الحاجب على والفقيه أبو بكر الحصيرى إلى هراة وشرحا لنا كل الأحوال تماماً ، واستطلعا رأينا ليعملوا حسبما نصدر إليهم من الأوامر .

فأصدرنا الجواب وأملّنا عليا وجميع الأعيان وكافة الجند ، وأمرنا أن يحافظوا على أخينا فى القلعة على سبيل الاحتياط ، وأن يحضر علىّ وكافة الجند إلى الحضرة .

ثم وصلت الأفواج تباعا إلى هراة ، وتوحد الجيشان وهدأت أحوال الرعية والجيش ، واستقرت على طاعتنا والعبودية لنا ، وسارت الرسائل إلى

(١) بضم التاء مكون من بك بمعنى كبير ، تغدى بمعنى ابن وذلك فى التركية : غنى — فياض حاشية ١ .

الرى وإصفهان وجميع أنحاء البلاد بما ٨٣ تم فى ذلك الوقت ، حتى يتأكد للجميع من قريب وبعيد أن الأمور استحالت إلى وجه واحد قولا وعملا، وزالت أسباب الفتن والخصومات ، كما أوفد رسول إلى حضرة الخلافة وكتب رسائل فى معنى هذه الأحوال ، والتمست الأوامر العالية فى كل باب . كما أبلغنا ابن كاكو وغيره من قواد الرى والجبال حتى عقبة حلوان بكل ذلك ، وصرحنا بأنا عازمون فى النو على إيفاد قائد كبير يضبط ما استولينا عليه من البلاد ويفتح غيرها ، حتى لا تحدثهم أحلامهم بأنا سنهمل أمر تلك الديار .

وقد حضر لدينا الحاجب الفاضل العم آلتونتاش خوارزمشاه ، ذلك الناصح الذى لم يستمع القوم فى غزنة إلى نصحه الصادق إبان غيبتنا ، وقد أعيد ، وسوف يصل مصحوبا بالتجلة والاحترام كما تقتضيه أحواله ومنزلته وصدقه . وسنرحل فى غضون هذا الأسبوع . فإن جميع الأحوال قد استقرت ، وأذعن لطاعتنا العالم ، وقد أرسلت رسالة سلطانية ليأتى إلى بلخ الخواجة الفاضل أبو القاسم أحمد بن الحسن الذى كان معتقلا بقلعة جنكى[1] مصحوبا بالعناية والعطف البالغ ، وتقطع عنه يد المحنة وتزدان دولتنا بحسن تدبيره وصائب رأيه .

كما أمرنا أن يحضر أريارق الحاجب قائد الهند إلى بلخ . ثم وصلت إلينا رسالة أبى على الكوتوال من غزنة تفيد بأنه قد سلم معتمدينا جميع الخزائن من دينار ودرهم وشتى أصناف النعم والألبسة والأسلحة ، ولم يبق شىء من أسباب الخلاف التى تقاق البال والحمد لله ، واستقرت الأحوال على أحسن ما يرام .

وحيث أن الأمور تمت على هذا المنوال آثرنا أن نبشر الخان ليطلع على

---

(١) سبق هذا الاسم فى ص ٦٤ على انه حارس القلعة التى اعتقل بها أحمد حسن ، وهنا نسبت اليه القلعة لأنه حارسها . والمقصود أن أحمد حسن كان معتقلا فى قلعة يحرسها جكى . وانظر غنى — فياض حاشية ٤ .

كل ماجرى وينال نصيبه من السرور ، وليقوم بإذاعتها وإعلانها إلى كل من حوله فى تلك البلاد فيعرفها القاصى والدانى . وليدرك أن مايسرنا يسركم ، لأن أسرتينا أسرة واحدة ، وقد عين على أثر ذلك أبو القاسم الحصيرى ، وهو من ٨٤ جملة ثقاتنا وأبو طاهر النباتى [١] من أعيان القضاة لحمل الرسالة ، ليأتيا إلى تلك الديار الكريمة حرسها الله لتجديد العهود . ونحن الآن فى انتظار جواب هذه الرسالة بأسرع ما يمكن ، حتى نرتدى لباس الحبور بتجديد البشائر عن سلامة الأمور وسيرها على ما يرام ، فإن ذلك من أكبر المواهب عليا بمشيئة الله عز وجل وبإذنه »

* * *

وقد أرسلت هـــذه الرسالة مع فارس إلى قدرخان إذ ما يزال على قيد الحياة ، وقد توفى بعد عامين . كما أنه أرسل كتابا آخر بهذا المعنى مع فقيه شه [٢] رسول إلى الخليفة رضى الله عنه . ثم ارتحل السلطان من هراة إلى بلخ عن طريق بادغيس [٣] وكنج روستاق وبصحبته كافة الجيوش بأبهة فائقة . وكان ذلك فى يوم الإثنين الخامس عشر من شهر ذى القعدة من تلك السنة وكان فى معيته خوارزمشاه آلتونتاش خائفا وجلا يفكر فى مصيره . وقد تحدث أبو الحسن العقيلى غير مرة بشأنه مع السلطان فكان هذا يذكره بالخير والحسنى ويبدى ارتياحه نحوه ويقول ينبغى أن يسير إلى خوارزم كى لا يحدث شىء . فأطلع أبو الحسن ألتونتاش على نوايا السلطان الطيبة ، وفضلا عن ذلك فإن أبا نصر مشكان أخبر كاتب ألتونتاش بما سمعه فسكن بذلك روع سيده .

---

(١) فى حاشية ب : تقرأ كلمة نباتى بضم النون وتخفيف الباء وهى نسبة إلى بلد فى ماوراء النهر . ولكن السمعانى يقول إنها بفتح النون وتشديد الباء ، بمعنى بائع التبن . عنى ــ فياض حاشية ١ .

(٢) جون نيم رسولى .

(٣) بلدة من أعمال هراة ، ولم تزل معروفة بهذا الاسم ويقول ياقوت إن اسمها معرب باد خيز ومعناه قيام الريح ، لكثرة الرياح بها . عنى ــ فياض حاشية ٢ .

وسمعت من الخواجة أبي نصر أنه رغم أن أحوال التونتاش كانت على هذا المنوال ، وقد رضي عنه السلطان كل الرضا لتلك النصائح التي أسداها إليه ، فإنه اليوم وقد سمع باتساق الأمور سارع بالحضور إلى هراة ، وجاء بكثير من الهدايا والأموال ، ولكنهم كانوا قد عملوا على الإيقاع به . واختلى السلطان مع خاصته في الطريق وظهر منه شيء في هذا المعنى ، ولكنا نصحناه كثيرا وقلنا : « إنه عبد مطيع ، وله أبناء وعبيد وخدم وأتباع وأموال كثيرون ، ولم تصدر منه زلة توجب القلق ، وخوارزم ثغر الأتراك ٨٥ وقد ظل مصونا[1] . فأجاب السلطان : « نعم إنه كذلك وهو كما يقولون وإنا راضون عنه وأمرنا بعقاب من ذكره بالمحال ، وليس لشخص جرأة بعد هذا على أن يتكلم في حقه إلا بالحسنى . » وأمر السلطان أن يخلع عليه حتى يسر . واستدعى أبا الحسن العقيلي وحمله مشافهات لطيفة إلى التونتاش ، وقال له : « كنا قد عزمنا أن يكون بصحبتنا إلى بلخ وأن نمنحه الخلعة ونأذن له في الذهاب إلى خوارزم ، لكني خشيت أن يتأخر هنالك ، وأخشى أن يقع خلل في تلك الديار ، وفضلا عن ذلك فإن طريق فارياب[2] إلى أندخوذ[3] قصير . فينبغي أن يأخذ أهبته ليسير من فارياب » .

وبعد أن سمع التونتاش ذلك قام وقبّل الأرض وقال : « وددت لو أعتزل الجندية لأبقى في غزنة بجوار ضريح السلطان الماضي ، وقد بلغت من الكبر عتيا ، ولكن الأمر العالي مطاع وسأمتثل ما أمرني به مولاي » . وفي اليوم التالي ، حين وصل ركب السلطان إلى فارياب أمر بإحضار الخلعة التي كانت

---

(١) في هذه الجملة الأخيرة اختلاف بين النسخ ، ولم ترد في نسختي بب ، مح . ورجح فتى — فياض أنها روى بسه است . بمعنى مصون . غنى — فياض حاشية ١ .

(٢) فارياب ، من أعمال جوزجان وتبعد عن بلخ ستة منازل ، ومن المعلوم أن هذه البلدة ليست فارياب تركستان . غنى فياض — حاشية ٢ وقد رجعنا إلى حاشية بب .

(٣) مدينة بين بلخ ومرو .

قد أعدت له وكانت فاخرة جدا وأعظم مما كان على عهد السلطان محمود ، فخلعت عليه ثم تقدم وأبدى فروض الطاعة والعبودية ، فاحتضنه السلطان وأبدى نحوه عطفا بالغا وعاد موفور الكرامة ، وسار إليه جميع الأعيان وكبراء الحضرة وقدروا حقه كثيرا ثم أذن له بالسفر فى اليوم التالى .

وقد أرسل التونتاش كاتبه أبا منصور سرا إلىّ أنا ، أى أبى نصر ، فى الليل ، وكان هذا الرجل من أخص ثقاته يقول « أذن لى بالذهاب إلى خوارزم ، وفى الليلة القادمة حين ٨٦ يعرف أنى مسافر أكون قد غادرت وابتعدت ، فلم تبق ثمة حاجة لى أن أسألك عن شىء بعد هذا . لأنى أرى القاعدة فى اعوجاج . ولا غرو فإن السلطان كبير كريم وهو رجل عظيم ولكن الذين أحاطوا به يعد كل واحد منهم نفسه وزيرا ، وهو يسمع لهم ويعمل بقولهم فيزينون له الباطل ويصدونه عن الحق . فسيهدمون بدسائسهم هذا الصرح المشيد ، إنى ذاهب ولا أدرى ما سيكون عليه حالكم ، فليس هنا ما يدل على الخير أبدا . وأنت يا أبا نصر ينبغى أن تفكر بشأنى كما فعلت حتى الآن ، مع أنه من الممكن ألا تبقى أنت أيضا فى عملك ، لأن الأوضاع التى سادت من قبل قد انقلبت رأسا على عقب . ولكنى لا أخبرك الآن بشىء » .

فقلت نعم هو كذلك . لكنى بقيت مشتت البال أكثر مما كنت رغم علمى بالعواقب أكثر منه .

وبعد انقضاء ردح من الليل ركب التونتاش مع خاصته وذهب ، وأمرهم بأن لا تضرب الطبول والأبواق لكى لا يطلع على ذلك أحد . واتفق أنهم أغروا السلطان على الإيقاع بالتونتاش فى تلك الليلة نفسها بحجة ألا تفوته هذه الفرصة السانحة ، ولكنهم عرفوا رحلته حين كان قد ابتعد عنهم مسافة اثنى عشر فرسخا أو عشرة فراسخ نحو بلاده . فأرسلوا فى أثره عبدوس وقالوا بقيت بعض الأمور التى لم تشافه بها ، وبعض المنح لم تشرف بها ، وكنا قد

أذنا لك بالذهاب ، فذهبت وتأخرت تلك المهام . ولكنهم بقوا مترددين لا يعرفون إن كان التونتاش سيعود أم لا يعود .

وعندما اتصل به عبدوس أجاب « إنى قد أمرت بالرحيل ونفذت الأمر العالى ، ومن العيب أن أعود . فمن الممكن إبلاغ هذه الأوامر الباقية كتابة . وفضلا عن ذلك فقد وصلت إلى رسالة من أحمد عبد الصمد يقول فيها ، إن قبائل كجات وجفراق وخفجاق[1] بدءوا يتحركون فأخشى أن يحدث لطول غيابى فتنة هنالك ، وسخا فى إكرام عبدوس حتى يرعى حقه[2] ويظهر معاذيره . وركب التونتاش لساعته وصحب عبدوس لمسافة فرسخين متظاهرا بأنه يريد الكلام معه فى بعض المهام ثم أسر اليه ببعض الكلام وأعاده .

وبعد ما عاد عبدوس إلى المعسكر . وذكر ما سمعه من التونتاش ، تحقق لديهم أن الرجل ٨٧ قد خشى العاقبة . ودار فى ذلك اليوم بينهم كثير من التقولات ، وقالوا إن العقيلى الذى كان وسيطا فى المشافهات لألتونتاش قد ارتكب خيانات وتحيز له ، وقالوا إن جماعة المحموديين لن يدعوا مجالا للسلطان حتى يحصل على مراده ، أو يجنى مالا ، وكأنهم جميعا يتكلمون بلسان واحد ، أى أن كل ما يجرى على لسان أحدهم يجرى على ألسنة الآخرين . فصرخ السلطان فى وجوههم وحقرهم ثم دعانى واختلى بى وقال يظهر أن التونتاش قد استولت عليه الوحشة وذهب خائفا . فقلت « أطال الله حياة السلطان ولأى سبب ؟ فإنه من الرجال المجربين وله خبرة بكل شىء ، وفضلا عن ذلك فقد نال إنعاماتكم السنية فلم يبق حينئذ سبب لاستيحاشه وخشيته وقد شكركم كثيرا أمام عبيدكم[3] » . فقال :

---

(١) ثلاث قبائل من الترك . غنى — فياض حاشية ٢ عن تعليقات (رك) .

(٢) التعبير الفارسى « نوبت نيكو دارد » . غنى — فياض حاشية ٣ .

(٣) التعبير الفارسى « باينبدكان » وفسرها غنى — فياض (نزدما بندكان) . غنى — فياض حاشية ٢ .

« نعم إنه لكذلك نسمع أنه أساء الظن » . قلت وما السبب فى ذلك ؟ فأخذ يقص أن هؤلاء الجماعة لن يدعوا الأمور تسير على مقتضاها ثم ذكر لى كل ما جرى . فقلت له « إن العبد ذكر كل هذا فى هراة ، وتفضلتم بالقول بأن هؤلاء لن يستطيعوا ذلك ، والآن أرى وأسمع أن لهؤلاء قدرة فائقة ، وقد تكلم معى ألتونتاش أثناء مسيرنا فى الطريق وذكر لى بعض النقاط ، وبالرغم من أنه لم يشك من شىء إلا أنه كان يبدى أسفه على أحوال المملكة وشئون الدولة ويقول « إنها أصبحت لا تسير على مقتضى الحكمة والمصلحة » ، وكان يثنى على مولانا السلطان ويقول « إنه ملك عظيم النفس[1] لا نظير له[2] وحليم ، وكريم ، ولكنه يصغى إلى قول هذا وذاك ، فصار لكل جرأة على الكلام فوق حده ، وهم لا يتركونه وشأنه ، لا يدعونه يعمل برأيه ، ولن يصدر عنى ، أنا التونتاش ، أمر سوى الطاعة والعبودية ، وها أنذا ذاهب بأمر السلطان وأنا فى غاية الهلع والخشية من أهل هذه الدولة العظيمة ، كما أنى كباقى العبيد المخلصين لا أدرى مآل هذه الأحوال » . هذا ما تكلم به معى ولا أظنه توهم سوءاً ، فهل سمع مولانا شيئا آخر ؟ ثم إن السلطان قص علىّ كل ما بلغه من الحاشية بشأن ألتونتاش . فقلت له إنى أنا العبد أبو نصر ضامن ٨٨ ألا يصدر عن ألتونتاش سوى الصدق والطاعة »

فقال « ولو أن الأمر كذلك ، ولكن ينبغى استمالته ، فيجب أن تكتب رسالة أوقعها وأذيلها بفصل بخط يدى ، فإنا كنا قد بلغناه على لسان عبدوس بمشافهة تفيد أن لنا معه بعض المهام فأجاب بالنحو الذى سمعته ، فإذا لم نجبه بشىء فسيبقى فى وحشة ويظن بنا السوء .

---

(١) فى ثلاث نسخ (بزرك نفيس) وفى الرابعة بزرك ونفيس . والأغلب أنها بزرك نفس . غنى ــ فياض حاشية ٣ .

(٢) التعبير الفارسى (نيست همتا) وهو صفة معناها (بى همتا) أى لا نظير له . واستخدمها البيهقى أكثر من مرة . غنى ــ فياض حاشية ٤ .

قلتُ « فليأمر مولانا بما يراه جديرا بالكتابة إليه لأبادر به » . فقال « أكتب له عن مصالح الملك ، وعما نحن بصدده من الأعمال وكل ماهو صواب ويؤدى إلى ارتياح خاطره ، بحيث لا يبق ما يسيء ظنه » فبادرت بالعمل وقلتُ إنى فهمت كيف ينبغى أن أكتب الرسالة ولكن من الذى يختاره مولانا لحملها . قال يجب أن يحملها نائبه بالبلاط ليذهب بها مع عبدوس. قلت سمعا وطاعة، وحررت الرسالة على هذه الصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الصدر والدعاء ، إن للعم الفاضل الحاجب التونتاش خوارزمشاه فى قلبنا منزلة تعادل تلك التى كانت لوالدنا السلطان الماضى ، ذلك لأنه قد شملنا منذ طفولتنا إلى اليوم بعطف ورعاية تعادل عطف الآباء ورعايتهم لأبنائهم ، وإنا لنذكر جميله حينما تشاور والدنا معه ومع أكابر الحضرة بشأن من ينتخبه ولياً للعهد ، إذ رشحنا لتلك المرتبة وأيدنا وآزرنا حتى وافق الوالد على رأيه ، وتقررت لنا ولاية العهد بحسن مؤازرته وتأييده . كما أننا لا ننسى ذاك الموقف الذى وقفه عندما غير الكاشحون والأعداء قلب أبينا علينا فأبعدنا إلى مولتان ، وعزم على أن يغير رأيه الحسن فينا ، وأن يمنح خلعة ولاية العهد للغير ، فلا ننسى كيف أن العم أخذ يترفق بالوالد ويتلطف معه بشتى الحيل ، حتى صرفه عن ذلك وأعادنا من مولتان ثم أوفدنا إلى هراة .

وعندما قصد الرى كنا فى معيته وتوجه الحاجب من جرجانج إلى جرجان[1] ، ثم دار الحديث ٨٩ هنالك عدة مرات بشأننا نحن الإخوة عن

---

(١) قالت النسخ الفارسيه كلها (كرمان) ولاحظ فى ــ فياض انه خطأ لاشك فيه فإن البيهق يذكر فى كتابه فى مناسبة أخرى أن هذه الصحبة كانت فى جرجان ، وكتب التاريخ تقول إن السلطان محمود ذهب من جرجان للرى وليس من كرمان . حاشية ١ . وانظر نفيسى ص ٩١ حاشية ٣ .

تقسيم الولاية ، وأرسل إلينا سراً بأن « ليس اليوم مجال الكلام فينبغي الانقياد لكل ما يراه السلطان ويأمر به » ، فتقبلنا هذه النصيحة الأبوية وكانت نتيجتها ما ظهر اليوم . وحين توفى والدنا وجاءوا بأخينا إلى غزنة ، كتب تلك الرسالة البليغة التى لا يكتبها سوى من كان قلبه قد جبل على الإخلاص والوفاء وتركهم وانحاز إلينا ، وقد أخبرونا بكل تلك الأحوال واتضحت لدينا .

فمن كان على هـــذه الدرجة يمكن معرفة مدى ما يكون عليه من الود والإخلاص ، ونحن إذ شاهدنا منه هذا الوفاء والصدق ، يمكن معرفة مدى رأينا فى الإحسان إليه وتفويض الولاية وتوسيع الملك له ورفع منزله ، وترقية أنجاله وتلقيبهم ورفع درجاتهم . وبعد بلوغنا هراة استدعيناه لحضرتنا ، ليرى بعينه ثمرة إخلاصه ونتيجة وده ووفائه ، وقبل أن تصل إليه الرسالة كان قد تحرك وسار إلى الحضرة على أن يكون بصحبتنا فى بلخ لنستضىء برأيه فى مهام الملك المتعطلة أمامنا ، ككتابة خانات تركستان ، وقطع العهود والمواثيق معهم أولا ، وإعادة جاركم على تكين الذى غلبه الغرور فى هذه الفترات إلى الحد الذى كان عليه ، ورعاية الموالى والحشم ، ومعاملة كل منهم على قدر منزلته ومرتبته ، وإبلاغهم إلى ما يأملون ؛ نعم كان هدفنا أن تجرى كل هذه الأحوال بحضرته ورأيه .

أما السبب الثانى لدعوته فهو لكى نعيده بأحسن وجه إلى بلده ؛ بيد أنه فى خلال هذه الأحوال خشينا أن يحصل خلل من طول غيابه فى خوارزم ، مع ما لها من الأهمية العظمى بين الثغور البعيدة ، فلذلك أوعزنا إليه بالسير إلى تلك الناحية ، ولعل الأعداء كانوا يتقولون أقاويل أخرى ، فأمرناه بالذهاب .

واتفق أن وصلت إليه ، كما قال عبدوس ، رسائل تفيد أن الانتهازيين أخذوا يتحركون ٩٠ وقد جاء أمر بالعودة ؛ فتعجل السير فوراً ، وجاء عبدوس بأمر

منا على أثره ، وشاهده وأبلغه غاية إكرامنا ، وبيّن أن هنالك مهمات أخرى ينبغى التحدث إليه عنها ، وأجيب : حيث أنه قد ذهب فلعله يكون من العبث طلبه للعودة ثانية ، والعمل والأمر الذى هنالك يمكن إنجازه برسالة .

فلما جاء عبدوس إلى الدركاه وذكر ذلك ، وجدنا رأى الحاجب وجيها فى هذا الباب ، ووجب علينا ما رآه ، نظراً لنصحه لنا ولإشفاقه علينا وعلى الدولة، فإنه حينما أدرك أنه سيحدث خلل بمن فى ذلك الثغر ، كما كتب له ثقاته ، هرع حتى يصل سريعا إلى عمله ، فإن هذه المهام التى ينبغى أن يؤخذ رأيه بالمشافهة فيها يمكن إتمامها بالمراسلة . ولكن شيئاً واحداً نخشاه ، ويسبب ضجرنا ، ونرجو أن لا يكون[1] ، هو أن حساد هذه الدولة الذين لا عمل لهم سوى بذل الجهد لفراره وهربه والذين يضيفون الوساوس والأوهام كالعقرب تلدغ ما يصادفها ، فهمهم بلوغ مآربهم[2] على أننا لا نعلم إن كان ماخالج ضميرنا حقا أو باطلا ، لكننا نرى لزاماً أنه ينبغى الاهتمام بكل ما يؤدى إلى راحته واطمئنانه ، فآثرنا أن نأمر بهذه الرسالة ، وأكدناها بتوقيعنا وفى آخرها فصل بخطنا . وصار الأمر لعبدوس ولأبى سعد المسعدى وكيل البلاط ومعتمده ، ليسارعا بحملها وتوصيلها إليه ، ويأتيا بالجواب حتى يعلم ذلك .

وهناك واجبان سنقوم بأدائهما بعد بلوغنا بلخ سالمين ، من قبيل المكاتبة مع خانات تركستان واستدعاء الخواجة الفاضل أبى القاسم أحمد بن الحسن أدام الله تأييده ، لتسند إليه الوزارة ، وكذلك مسألة الحاجب اسفتكين[3] الغازى الذى خدمنا تلك الخدمة العظيمة فى ٩١ نيسابور فرفعناه جزاء وفاقا على حسن صنيعه إلى مرتبة السپهسالارية .

---

(١) كه نبايد بمعنى مبادا . حاشية ٢ .

(٢) خود رسيده باشند . حاشية ٣ .

(٣) تضاربت أقوال المؤرخين فى اسم (اسفتكين) وقد رجح غنى — فياض ص ٩٠ أن تكون آسفتكين . حاشية ٤ .

وعليه (التونتاش) أن يستمع إلى تلك المعانى التى بلغناه إياها ويرد على ذلك كله رداً مستفيضاً لنقف عليه ، وليعلم أن فى آرائه ، كما قال والدنا من قبل ، البركة والصواب . فينبغى أن يقوم هو أيضاً بما نتوقعه من إبداء رأيه الصائب ونظره الثاقب لأننا عازمون على العمل بما يراه ويشير به » .

وجاء فى ذيل الرسالة عبارة بخط السلطان هى : « ليتأكد الحاجب الفاضل خوارزمشاه أدام الله عزه صحة هذا الخطاب وليطمئن قلبه وليعلم أننا نعطف عليه . والله المعين لقضاء حقوقه » .

* * *

وعاد الرسولان عبدوس وأبو سعد المسعدى بعد وصولنا إلى بلخ يحملان جواباً ينطوى على إظهار الطاعة ، وإبداء العبودية التامة ، والاعتذار عن الإسراع بالذهاب ، بعبارة بليغة جدا . واختلى السلطان بنا ، أنا وعبدوس ، وقال : نعم ما عملنا حتى أزلنا ما كان قد علق بخاطر التونتاش ، فإنهم كانوا قد أخافوه فتعجل بالذهاب ، فزالت وحشته واطمأن باله ومضى مسرورا .

وكان رده على الرسائل على هذا النحو :

« لا شك أن حديث خانات تركستان هو من الأهمية بمكان ، وسنتفاوض معكم بشأنه عند مجيئكم إلى بلخ بالسلامة والسعادة ، كما أن إيفاد الرسل لأمر العهود والعقود أمر لابد منه ، إذ لا يخفى ما تحمل السلطان الماضى من المشقة والنفقات حتى توطدت أقدام قدرخان فى الحكم هنالك ، واستتبت له الأمور فى تلك الأنحاء ، فيجب أن تنمى اليوم هذه الصلات لتزداد بواسطتها تلك الألفة ، وهم ليسوا فى الحقيقة أحباء ولكن مجاملتهم واجبة كيلا يركنوا إلى إلى الفساد . أما على تكين[1] فإنه عدو لدود ، وهو كالثعبان الأبتر ، لأن

---

(١) جاء فى حاشية يب إن على تكين هذا هو أخو إيلك خان الذى انهت بموته دولة آل سامان فى تركستان . حاشية ٣ .

أخاه طغاخان حرم من حكومة بلاساغون[1] بأمر من السلطان الماضى ، ولا يمكن أن يكون العدو صديقاً فى يوم من الأيام ، فيجب على أية حال أن نعقد معه عهدا ولو بصورة شكلية ، ٩٢ فإذا أبرم العهد فينبغى أن تحشد ثغور بلخ وتخارستان وصغانيان وترمذ[2] وقباديان[3] وختلان بالرجال والجند ، فإن من عادته أن يهاجم كل ناحية يعرف أنها خالية من معدات الحرب والدفاع ، فينهبها ويتركها .

وأما حديث السيد الخواجة أحمد فليس للعبد دخل فيه ، لأنه فى ناحية أخرى ، وقد عرف الناس أن صلاتى مع السيد الفذ ليست على مايرام ، وينبغى العمل بما يراه الرأى العالى أليق وأوفق . وأما حديث اسفتكين الحاجب فإن السلطان الماضى كان قد أسند إليه عمل تلك الجهات بعد وفاة أرسلان جاذب ، وقد اختاره من بين الكفاة الكثيرين الذين كانوا فى خدمته ، وذلك بعد ما اختبره وعرف مقدرته ، فكان يرى الآخرين ويعرفهم ، ولو لم يكن جديرا بذلك المنصب الخطير لما اختاره ، وقد خدم مولانا خدمات جليلة ، فينبغى أن لا يقام وزن لما يقول به الناس ، وأن يراعى ما فيه صلاح الملك .

وإذا أمرنى السلطان فى كتابه بإظهار وجه الصواب بالمكاتبة فإنى أبين نقطة واحدة مع هذا المعتمد ، والرأى لمولانا ، وإنه غنى عن قولى ، وقول سائر العبيد ، فإن السلطان الماضى انتهى أجله بعد أن شيد ملكا متين الدعائم قوى البنيان ،

---

(١) بلاساغون — مدينة كبيرة من ثغور الترك قرب (كاشغر) فى شمال (نهر سيحون) . حاشية ٥ .

(٢) ترمذ تنطق بفتح التاء أو ضمها أو كسرها . والمتداول على لسان أهل تلك المدينة فتح التاء وكسر الميم ، والمعروف قديما كسر التاء والميم جميعا . والمتأخرون بضمون التاء والميم . معجم البلدان .

(٣) من نواحى بلخ وإليها ينسب ناصر خسرو .

فإذا استصوب الرأى العالى فليأمر بألا يجرؤ أحد على تغيير قاعدة تتغير بسببها كل تلك الأعمال . هذا ما يرى فيه العبد الكفاية من القول » .

فسر السلطان كثيرا بهذه الأجوبة . ثم عدنا . وفى اليوم التالى جاءنى المسعدى يقول عن لسان ألتونتاش إن الخصوم عملوا ما أرادوا وقال السلطان بأنى العبد الخاص الفريد الأمين وهذا ما يجدر بجلالته ، وإنى لعلى يقين من أنك وقفت على كل ذلك . وقد أصبحتُ أهدأ قليلا وسرت لتأنى ، ولكن يجب أن يعلم بأننى لن أحضر لبلاطه ولو كانت له ألف مهمة . ولينأكد ٩٣ أننى سوف لا أحضر بعد هذا إليه بنفسى البتة ، ولكننى سأوفد له الجيوش إذا ما دعت الحاجة ، كما أنى مستعد للقيام بالعمل فى أية ناحية يأمرنى بالسير إليها ، فأكون قائدا مقداما وأؤدى تلك الخدمة ولا أبخل عليه بنفسى ومالى ورجالى ، فإنى أحطت خبرا بحاله وتيقنت من أن هذه الزمرة لا يرضيها أن تسير الأمور سيرها المستقيم وتبقى ثابتة وليس بالسلطان عيب . وإن العيب كل العيب فى الذين يتزلفون إليه .

فذهبت أنا أبو نصر وقلت للسلطان كل ذلك رعاية للأمانة ، وطلبت إليه كتمانه ولكنه لم يظل مكتوما . ثم إنهم دبروا مكيدة للإيقاع بألتونتاش لكنها كانت خطة واهية ولم تتم ، بل إنها زادت فى سوء ظن الرجل . وسوف أذكرها فى مكانها[1] .

وفى أثناء الطريق . لحق بالموكب السلطانى ، بمرو الرود ، الخواجة حسن أدام الله سلامته وهو كتخدا الأمير محمد قادما من جوزجان ، وقد أودع خزانة الأمير محمد فى شادياخ بأمر من السلطان مسعود ليحملها معتمده إلى غزنة . فأدى بذلك خدمة وإخلاصا عظيمين .

---

(١) يشير هنا إلى قصة القائد منجوق مع التونتاش وستَرِد بعد ذلك فى هذا الكتاب .

وعندما مثل أمام السلطان أدى رسوم الخدمة ، وقدم النثارات الكثيرة والهدايا الوفيرة فأثنى عليه السلطان ، ولاطفه وامتدح صدقه وأمانته ، وأعجب كافة أركان الدولة وأعيانها بذلك الإخلاص وتلك الأمانة والخدمة التى أداها بشأن هذه الخزانة العظيمة : فإنه حين عرف أنه يخدم مولاه لم يطمع فى ذلك المال ، ولم يسلم نفسه للشيطان ، وسلك طريق الصدق والحق . فقد كان رجلا كامل العقل ، ذاق حلو الدنيا ومرها وطالع الكتب وتبصر العواقب ، فلا جرم أن ظلت منزلته ثابتة .

وكان أبو سهل الحمدوى يجلس أثناء الطريق فى خيمة فى الديوان ، ويتحدث فى المعاملات لأنه كان أكثر الجميع خبرة بها ، وقد حسب نفسه فى منزلة الوزارة ، وكان السلطان ينظر إليه بعين ٩٤ الرضا . كما أن الخواجة أبا القاسم كثير كان يجلس فى ديوان العرض حيث يفاوضه السلطان فى أمور الجيش . وكان يجلس مع أبى سهل الحمدوى طاهر وأبو الفتح الرازى وغيرهم من سادات الدركاه والمستوفين . وكان يقوم بأعباء الوزارة آنذاك أبو الخير البلخى الذى كان عاملا على إقليم ختلان على عهد السلطان الماضى . أما طاهر والعراقى وبقية الكتاب الذين كانوا قد حضروا من الرى ، فكانوا يجتمعون فى مجلس أبى نصر مشكان ، وكان لطاهر والعراقى أحلام واسعة . وكانت أغلب الخلوات بأبى سهل الزوزنى ، وكان وحده يصرف الأمور وينهى المعاملات ويقر المصادرات ، فهابه[1] الناس وكانت الأوامر تصدر بواسطته ، وغالب شئون الملك رهن تصرفه . كما أن عبدوس أصبح أيضا من المقربين ، وكان ينظر فى كل الأمور . وقد سار مؤذن ، أحد معتمدى عبدوس ، بكبير الحجاب على قريب إلى قلعة كرك[2] بجبال هراة وسلمه إلى كوتوالها الذى كان معينا من قبل عبدوس ،

(١) استخدم لفظ شكوهيدن بمعنى ترسيدن (برهان قاطع) حاشية ٣ .

(٢) لم يرد ذكر كرك هذه فى ياقوت . وهو يذكر كرك على أنها قلعة حصينة فى طرف الشام ، وبرية كبيرة قرب بعلبك . وذكرها لسترنج فى « بلدان الخلافة الشرقية » ص ٣٥٢ .

وكان السلطان يتكلم مع عبدوس فى جميع شئون علىّ ، وكان هو الذى يعرض الرسائل الواردة من كوتوال كرك عليه . ثم كان يرسلها إلى أستاذى وأقوم أنا (أبو الفضل البيهقى) بكتابتها حسبما يوجهنى .

هذا وسأذكر ما جرى بشأن علىّ قريب حتى آخر لحظة من حياته . أما منكيتراك فقد ساروا به لقلعة غزنة وسلموه إلى على الكوتوال واعتقلوه بها ، كما قبضوا على سائر أخوته وقومه وصودرت أموالهم جميعا ، وأبعدوا محسن المقدّم نجل علىّ إلى مولتان . ومع أنه كان شابا يافعا فقد كان يمتاز برجاحة العقل وسعة التجربة ، فأطلق سراحه ونجا من المحنة وعاد إلى غزنة ، وهو اليوم يعيش عزيزا مكرما بها وقد استشعر الإباء والقناعة ، ومارس الخدمة ولم يطلب مزيدا ، أبقاه الله سالما .

أما السلطان مسعود رضى الله عنه ، فقد كان يسير مستمتعا مبتهجا حتى شُبورقان[1] حيث احتفل بعيد الأضحى ، واتجه بعد ذلك إلى بلخ فبلغها يوم الإثنين السابع من شهر ذى الحجة ٩٥ سنة إحدى وعشرين وأربعمائة (١٠٣٠) ونزل باليمن والسعادة فى جوسق عبد الأعلى ، وصارت الدنيا كالعروس المجلاة فى عهده الميمون ، ولا سيما مدينة بلخ فى تلك الأيام . وفى اليوم التالى جلس للاستقبال فى أبهة فائقة ، وعاد أعيان بلخ الذين حضروا مجلسه وقدموا النثار فرحين برعايته ، وقام كل بعمله ثم جلس للشراب .

وقد سقت أخبار هذا السلطان إلى هنا ، وكان الواجب يقضى أن أقول إنه ارتقى سرير الملك منذ اليوم الذى قبضوا فيه على أخيه فى تكيناباد ، ولكنى لم أذكر ذلك . لأن هذا الملك كان عندئذ متأهبا للنهوض[2] موليا وجهه

---

(١) بفتح الشين أو بضمها بلدة قرب بلخ . غنى — فياض حاشية ٧

(٢) مستوفزى . حاشية ٢ .

شطر بلخ ، واليوم إذ وطأت قدم السلطان مدينة بلخ فقد عادت المياه إلى مجاريها، فينبغى سرد التاريخ على منوال آخر ، وسأبدأ أولا بتحرير خطبة ،أضم إليها فصولا من الكلام ثم أسوق الحديث إلى عهده المبارك ، فإن هذا الحديث سيكون كتاباً مستقلا . وأطلب من الله عز وجل التوفيق الأصلح والمعونة فى إنجاز هذا التاريخ ، إنه سبحانه خير موفق ومعين بمنّه وسعة رحمته وفضله وصلى الله على محمد وآله أجمعين .

ابتداء تاريخ السلطان شهاب الدولة مسعود بن محمود

رحمة الله عليهما

يقول أبو الفضل البيهقى محمد بن الحسين رحمة الله عليه : ولو أن هذا الفصل من التاريخ مسبوق بالذكر عما تقدمه ، لكنه مقدم من حيث المرتبة . يجب أن نعلم أولا ، أن السلطان الراحل رحمة الله عليه ، كان برعم الشجرة التى تفرع منها الملك وأينعت ثمارها ، وكيف وصل السلطان الشهيد مسعود إلى الملك ، وتربع فى مكان أبيه . وقد قام الأفاضل الذين دونوا تاريخ الأمير العادل سبكتكين رضى الله عنه منذ نعومة أظفاره إلى أن دخل قصر البتكين كبير الحجاب وسپهسالار السامانيين[1] ، وما مر به من الحوادث الجسام إلى أن نال إمارة غزنة ، ووفاته فى العز ، ثم انتقال الملك إلى السلطان محمود حسبما دونوه وشرحوه ، وقد كتبوا ذلك حتى آخر أيام حياته وقد أدوا واجبهم ، وكتبت أنا بقدر معرفتى ، إلى أن وصلت إلى هذا السلطان العظيم . هذا ولست ذا فضل ولا أبلغ درجتهم ، بل سرت «كالمجتاز[2]» حتى وصلت إلى هنا . وليس غرضى أن أعرض أحوال السلطان مسعود ، أنار الله برهانه ، لأهل هذا العصر ،

---

(١) يقصد البتكين — غنى — فياض حاشية ٣ .

(٢) هكذا فى النص الفارسى وفسرها غنى — فياض بكلمتى رهسپار و رهگذر . حاشيه ٢ .

فقد رأوه بأعينهم وعرفوا جلال شأنه وتفرده فى مناحى السياسة والرئاسة فى الملك ، بل إن غايتى أن أشيد للتاريخ ركنا ركينا وأقيم له صرحا شامخا يخلد ما بقى الدهر ، وأرجو من الحضرة الصمدية التوفيق فى إنجازه والله ولى التوفيق ، ولما كنت قد آليت على نفسى أن أكتب لجلوس كل ملك خطبة ، ثم أتابع المسير فى تدوين التاريخ ، فسأقوم الآن بذلك بمشيئة الله وعونه .

فصــــل

أقول إن أعظم الملوك الماضين جميعا وأفضلهم إثنان . أولهما الإسكندر اليونانى والآخر أردشير الفارسى ، وبما أن ملوكنا قد تعالى شأنهم عن هذين الملكين فى كل شىء ، فينبغى أن نعلم من ذلك أنهم كانوا أعظم ملوك العالم طرا ، فإن الإسكندر كان رجلا توهجت فيه شعلة بلغت أوجها أياما معدودة ، ثم مالبثت أن استحالت رمادا ، وأما ما فتحه من البلاد العظيمة ، وما دار فيه من معمورة الأرض ، فقد كان مثله فيها كمثل من يذهب إلى مكان بقصد السياحة ، وكذلك كان مثله مع من قهر من الملوك الذين قهرهم واضطرهم إلى الطاعة والرضوخ له ، كمثل من أقسم الأيمان المغلظة ليقومنّ بعمل وليحققنه ، ففعل مافعل كيلا يكون حانثا ، فما الفائدة من التجول فى العالم ؟ إن الملك ينبغى أن يكون حكيما ، لأنه إذا استولى على بلد ، ثم تركه وشأنه ، ليشرع فى فتح بلد آخر يتركه وشأنه كذلك ليسير إلى بقعة من الأرض ثالثة ، فإنه يفسح بذلك مجالا للومه ، ومكانا للقول بعجزه .

هذا وأعظم ما ذكروا للإسكندر من مآثر ، هو أنه استطاع قتل دارا ملك فارس وفور ٩٧ صاحب الهند ، بيد أنه كان له مع كل منهما زلة لا تغتفر ، فكانت زلته مع دارا أنه ذهب إلى معسكره بنيسابور متنكرا فى زى رسول ، ولكنهم عرفوه وهموا بالقبض عليه فأفلت منهم ، وقتل دارا بيد ثقاته ، ومن

ثم انقلبت الأمور رأسا على عقب ؛ أما زلته مع فور فهى أن الحرب بينهما طالت سجالا ، وانتهى الأمر بأن دعا فور الإسكندر إلى المبارزة فسارا للإلتقاء . ولا يسوغ للملك أن يقبل مثل هذه المخــــاطرة . وكان الإسكندر محتالا ماكرا ، فدبر حيلة لقتل فور قبل أن ينزل ، إلى الميــــدان وكانت الحيلة أن أوعز إلى نفر أن يصرخوا صراخا عاليا خلف جيش فور ، فانشغل باله والتفت إلى تلك الناحية ، وسنحت بذلك الفرصة للإسكندر فحمل عليه وقتله . وكان الإسكندر رجلا طويلا عريضا ذا صراخ ورعد وبرق وصاعقة ، كأنه سحابة الربيع أو الصيف ، مرت على ملوك الأرض فأمطرتهم وانقشعت ، كما قيل « سحابة صيف عن قليل تقشع » . وإنما بقيت من بعده دولة اليونان وامتدت على وجه الأرض مدة خمسمائة سنة بفضل تدبير أرسطا طاليس الحكيم أستاذ الإسكندر ، حيث قال : « يجب أن تقسم البلاد بين الملوك ، حتى يشتغل بعضهم ببعض ، فلا يتعرضون لملك الروم وقد عرف هؤلاء الملوك بملوك الطوائف [1] » .

وأعظم ما يؤثر عن أردشير بابكان ، أنه جدد دولة الفرس المندرسة ، وأرسى سنن العدل بين الملوك ، وقد سار من بعده جماعة على هديه وسنته ، ولعمرى ، لقد كان هذا أمرا عظيما ، ولكن الله عز وجل ، كان قد أنهى بتقدير منه حكم ملوك الطوائف ، فيسر هذا لأردشير ذلك العمل الجليل .

هذا ويقال إن لهذين الرجلين مثل ما كان للأنبياء من معجزات . وقد كان لأسرة هذه الدولة العظيمة [2] ، تلك المناقب والآثار التى لم تكن لغيرهم ، مما مر ذكره فى هذا التاريخ ومما سنذكره بعد ذلك . ولئن زعم كاشح أو قادح أن ٩٨ أصل هذه الأسرة العظيمة قد نبت من طفل خامل الذكر ، فالجواب على زعمه هو أن الله تعالى عز ذكره ، قدر بحكمته ، منذ أن خلق آدم ، أن ينتقل

(١) انظر فى كتاب تنسر ، الترجمة العربية ليحيى الخشاب ، ص ١٩–٢٣ ، نصيحة ارسطاطاليس فى هذا الشأن .

(٢) أى الدولة الغزنوية .

الملك من أمة إلى أخرى ومن جماعة إلى غيرها ، وكلام الله عز وجل حيث يقول : « قل اللهم مالك الملك توتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير[1] » هو أكبر برهان على ما أقول ، فينبغى أن نعلم أن انتزاع قميص الملك من طائفة وإلباسه لأخرى غيرها،إنما يكون لحكمة من الخالق وهو صلاح للخلق كافة ، مما يعجز عن إدراكه العباد ، هذا ولا يحق لأحد أن يتفكر فى ذلك فكيف بالخوض فيه .

ولو أن هذه القاعدة صحيحة محكمة ، ولابد من الرضاء بقضاء الله تعالى ، فإن العقلاء إذا وكلوا بالفكر هذا الأمر الخفى ، وأرادوا الاستقراء والاستنباط تطلعا إلى دليل واضح ، لتيقن لديهم أن الله جل جلاله عالم بما لم يكن ، وأنه قد مر بعلمه أن سيظهر رجل فى بقعة « كذا » من الأرض تتم على يده الراحة والأمان لعباده ، فيهيء لتلك البقعة الخير والبركات ويسن لها القواعد الأساسية ، بحيث إذا وصلت البذرة إلى يد ذلك الرجل زرعها فأنبتت نباتا حسنا يستظل به الوضيع والشريف ، فيطيعون جميعا أمره وينقادون إليه دون أن يداخلهم الخجل من الرضوخ إلى حكمه .

وحينما يقيم الله هذا الملك يهيء له جماعة من الأعوان والخدم يليقون بشخصه بحيث يكون كل واحد منهم أفضل وأشجع وأكفأ وأليق وأجود وأعلم من أخيه ، فتزدان تلك البقعة بوجود ذلك الملك وأعوانه طوال المدة التى قدرها الله تعالى تبارك الله أحسن الخالقين .

وقد سارت هذه القاعدة عينها كذلك بالنسبة إلى زمرة الأنبياء والمرسلين من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الرسل والأنبياء ، محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ولا بد أن ننظر كيف كان الصحابة الذين منح الله المصطفى عليه السلام

(١) سورة ٣ آية ٢٦ .

إيام ، وقد كان فريدا على وجه البسيطة ، وماذا صنعوا وإلى أى درجة أبلغوا مقام الإسلام بعد وفاته . كما جاء ذلك فى السير والتواريخ . وسيبقى نور هذه الشريعة الغراء إلى قيام الساعة قويا ساطعا باهرا ولو كره المشركون .٩٩.

سارت الدولة اليمينية الحافظية الناصرية المعينية [1] على هذا النهج حتى ورثها السلطان المعظم أبو شجاع فرخ زاد بن الناصر لدين الله ، أطال الله بقاءه ، إرثا حلالا ، فعندما أراد الله تعالى لهذه الدولة العظيمة الظهور فى الأرض أخرج الأمير العادل ، سبكتكين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ومن عليه بالإسلام ، ورفع شأنه حتى نبتت من دوحة ذلك الأصل المبارك فروع صارت أقوى وأمتن من أصلها ، ازدان بها الإسلام ، وشد الله أزرهم بقوة خلفاء النبى عليه السلام . إذا تأملنا وجدنا أن محمود ومسعود كانا شمسين منيرتين سطع نورهما بعد غسق الليل ومضى الفجر . وقد انبثق الآن من تلك الشمس كواكب عظيمة وسيارات مضيئة لاتحصى ، دامت هذه الدولة العظيمة رغم كيد الأعداء والحاسدين .

* * *

وأبدأ بعد الفراغ من هذا الفصل ، فصلا آخر ، أقرب إلى القلوب وأسرع إلى الأسماع وأخف وقعا على العقول .

اعلم أن الله تعالى منح الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين قدرة ، كما أيد الملوك والسلاطين بحوله وقوته ، وأوجب على أهل الأرض الإيمان بهاتين القوتين ليعرفوا بهما الصراط المستقيم الإلهى ، ومن يعتقد فى غير ذلك أو يؤمن

---

(١) لعل هذه الأوصاف مأخوذة من ألقاب السلاطين الغزنوية ، الناصر لدين الله ، يمين الدولة ، حافظ عباد الله ، هذا وكلمة « معينية » ربما كانت مأخوذة من لقب المعين لخليفة الله . غني ــ فياض حاشية ١ .

بتأثير الفلك والكواكب والبروج فى مثل هذه الأمور، فهو دهرى أو معتزلى سيحكم الله عليه بالفناء ويخلده فى الجحيم أبدا ، نعوذ بالله من الخذلان .

فالقدرة التى خص الله تعالى بها الأنبياء عليهم السلام ، هى المعجزات التى يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها ، وقوة الملوك فى التفكير الدقيق واليد الطولى والانتصار على الأعداء والظفر بهم والعدل الذى يقيمونه وفقا لأحكام الله تعالى ، هى الفارق بين الملوك المؤيدين الموفقين وبين الخارجين المتغلبين فالملوك إذا كانوا عادلين حسنى الأعمال والآثار والسيرة ، وجبت طاعتهم إذ تبين أنهم على الحق ، كما ينبغى أن نعتبر المتغلبين الظالمين الجائرين خارجين ، ويجب جهادهم . . .
هذا هو الميزان الذى يوزن به الصالح والطالح فيتميزان و يعرف بالضرورة أيهما ينبغى أن نختار .

فليغفر الله سبحانه وتعالى للماضين من ملوكنا . وليحفظ من هو منهم على قيد الحياة ، ولنتأمل سيرتهم لنرى كيف مشوا على سنن الحق والعدل والعفة والديانة ، وكيف أدبوا العصاة والبقاع وقطعوا أيدى المتغلبين والمتعسفين ، فيتحقق لنا أنهم كانوا مختارين من الله ، تقدست أسماؤه وجل جلاله وأن طاعتهم كانت فريضة وما تزال . فإذا لحقت غضاضة حق هؤلاء الملوك فى تلك الأثناء فقاسوا حرمانا ، أو وقعت نادرة سبقها كثير من أمثالها فى العالم ، فيجب على العقلاء أن يتأملوها بعين العقل وألا يدعو الخطأ يتطرق إلى نفوسهم ، ذلك لأن تقدير الخالق جل جلاله الذى أجرى القلم به فى اللوح المحفوظ لا يتغير ولا مرد لقضائه عز ذكره . فينبغى أن نعتقد دائما أن الحق حق والباطل باطل ، وكما قالوا : الحق حق وإن جهله الورى ، والنهار نهار وإن لم يره الأعمى .
أسأل الله تعالى أن يعصمنا وجميع المسلمين من الزلل ويجنبنا الخطأ بطوله وجوده وسعة رحمته .

وحيث أنى فرغت من الخطبة ، أرى لزاماً أن أعقد فصلا آخر يفيد منه الملوك ويستمتع بقراءته الآخرون ، فيأخذ منه كل نصيباً بقدر علمه ، وسأبادر بوصف العادل العاقل الخليق بلقب الفاضل ، كما أصف بالمثل الظالم الجائر الحقيق بأن يوسم بالجاهل . ليتقرر أن الأرجح عقلا أجدر بالثناء وأن الأكثر جهلا أكثر هواناً على الناس .

يقول أكبر الفلاسفة القدامى : إن الله تعالى قد أوصى الناس بواسطة أنبيائه أن يعرف كل فرد نفسه ، إذ المرء إن عرف نفسه يستطيع معرفة كنه الأشياء كافة [١] . وقد قال نبينا عليه السلام : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » . وهي كلمة وجيزة تستوعب معاني كثيرة ، إذ كيف يتسنى لمن لا يستطيع معرفة نفسه إدراك سائر الأشياء ومثل هذا كالأنعام بل أضل سبيلا ، فالأنعام لا تملك القدرة على التمييز وهو يملكها .

ونحن إذا أمعنا النظر وجدنا في طيات هذه الكلمة العظيمة اللطيفة والجملة القصيرة فوائد جمة ، فكل من عرف نفسه يعلم أنه حيّ لا يلبث في النهاية أن يموت وأنه سوف يبعث حياً كرة أخرى ، فيعرف ربه ويتحقق لديه أن الخالق ليس كالمخلوق ، فتحصل له الديانة الحقة والاعتقاد الصحيح ، فيعلم أنه مركب من أربعة أشياء قائم عليها كيانه ، إن اختل شيء منها اختل القسطاس المستقيم ، وظهر النقص . ففي هـــذا الجسم قوى ثلاث : إحداها العقل والنطق وموضعها الرأس بمشاركة القلب ، ثم الغضب وموضعه القلب ، والقوة الثالثة هي الشهوة والأماني ومقامها في الكبد . وقد عرف أن لكل من هذه القوى الثلاث نفساً خاصة بهـا رغم اجتماعها كلها في جسد واحد . والكلام في ذلك يطول ، بحيث لو أنا تمـادينا فيه ضاع علينا القصد وابتعدنا عن الغرض . فأكتفي هنا بالإشارة توضيحاً للغاية .

أما قوة العقل والنطق فإنها في الرأس ثلاثة مواطن ، يسمى أحدها بالتخيل

وهو الأساس فى إمكان رؤية الأشياء وسماعها ، والثانى هو الذى يميز بين الأشياء ويتذكرها ، وبهذه الوسيلة يمكن معرفة الحق والباطل والتمييز بين الحسن والقبيح والممكن وغير الممكن ، والثالث هو الذى يستطيع أن يفهم كل ما تراه العين وتحفظه . فنعرف من هذا بالضرورة أن القوة الوسطى التى تميز بين الحق والباطل ، أشرف من أختيها لأنها بمثابة الحاكم العاقل الذى يستنبط الحكم الحق بما يعرض عليه من الأمور . أما الأولى فإنها بمنزلة شاهد الصدق ، إذ تخبر الحاكم بما رأت حتى إذا ما طلبه تسلمه .

هذه حقيقة حال النفس الناطقة . أما النفس الغاضبة فيطلب بها بعد الصيت وحسن السمعة ولها إباء الضيم فتبادر إلى الانتقام إذا ووجهت بظلم . أما النفس الشهوانية ففيها ١٠٢ الميل إلى المآكل والمشارب والاستمتاع بسائر الملذات الأخرى .

فينبغى أن نعلم ضرورة أن النفس الناطقة هى الملك المتصرف الغالب القاهر وينبغى أن يكون له عدل وسياسة قوية تامة للغاية لا تبيد ولا تمحق ورفق لا يشوبه الضعف والهوان .

أما القوة الغاضبة فهى جيوش هذا الملك التى يتدارك بها الخلل وتحصن بها الثغور وتطرد بها الأعداء ، فيجب أن يكون الجيش عظيم الأهبة مستعداً لتنفيذ أوامر الملك .

والنفس الشهوانية رعية هذا الملك ، فعليها أن تخشى بأسه وبأس جنوده كل الخشية وأن تسير على الطاعة . وكل امرىء توازنت فيه هذه القوى الثلاث وتعادلت فلم يتطرق إلى إحداها نقص بالنسبة لأختيها ، يكون بلاشك جديراً بأن يلقب بالرجل الفاضل الكامل التام العقل ، أما إن كان فى إحدى هذه القوى الثلاث عند امرىء زيادة بالنسبة إلى أختيها ، فمن الضرورى أن يكون النقص بنسبة الغلبة . ولو أمعنا النظر فى تركيب أجسام الناس ، لوجدنا أنها تساوى

البهائم من جميع الوجوه . ولكن الإنسان الذى منحه الله هاتين النعمتين ، العلم والعمل لاجرم يمتاز عن البهائم ، ومن ثم ينال الثواب والعقاب . فيمكن أن نعلم بالضرورة الآن أن كل من بلغ هذه الدرجة وجب عليه أن يسوس نفسه حتى تسير على أفضل نهج ، ويعرف مابين الحسن والقبيح من فرق فيهرع إلى الأفضل على أحسن وجه ويبتعد عما هو الأسوأ ويتجنبه .

ويظهر أمامنا بعد ذكر هذا طريقان ، الخير والشر ولكل منهما إشارات وعلامات يمكن بواسطتها معرفة الحسن من القبيح ، فيجب على الناظر أن يتأمل فى أحوال العباد فما تراءى له منهم حسنا يعرف أنه حسن ثم يقارن أحواله بها فإن لم يرها مطابقة عرف أنها سيئة ، لأن المرء لايستطيع معرفة عيوبه بنفسه ، وقد أشار أحد الحكماء إلى ذلك بقوله : إن العين لا ترى عيوبها ، شعر :

أرى كل إنسان يرى عيب غيره ... ويعمى عن العيب الذى هو فيه

وكل امرىء تخفى عليه عيوبه ... ويبدو له العيب الذى لأخيه

وعندما تتغلب على الرجل العاقل قوتا الشهوة والغضب تضعف فيه القوة العاقلة ١٠٣ وتنهزم ، فيسقط ذلك الرجل فى الخطأ لا محالة . ويمكن أن يعلم أنه واقع بين خصمين قويين وأن كليهما أقوى من عقله ، فينبغى للعقل أن يدبر الحيل حتى يتغلب على هذين العدوين . وقد قيل « ويل للقوى بين الضعيفين » وإذا وقع ضعيف بين قويين أمكن معرفة ما سيكون عليه حاله . هنالك تبرز العيوب والمثالب وتختفى المزايا والمحاسن ، وقد شبه الحكماء بدن المرء بدار يجتمع فيها رجل وأسد وخنزير ، أرادوا بالرجل العقل وبالأسد الغضب وبالخنزير الشهوة ، وقالوا إن من كان من هؤلاء الثلاثة أكثر قوة تكون الدار له . وتشاهد هذه الحالة بالعيان وتعرف بالقياس . فإذا وجدنا رجلا أمكنه أن يكبح جماح شهوته ويكسر سورة غضبه جاز أن يدعى بالرجل

العاقل والورع ، أما من تتغلب شهوته عليه وتنصرف إلى تحقيق ميوله ورغباته ، فإنه فى حكم الخنزير الحريص ، كما أن من يتسلط عليه الغضب بحيث لا يبقى له مجال لرؤية الحق والعمل بالرحمة ، فمثله كمثل الأسد الكاسر. وينبغى زيادة توضيح هذه الحقيقة فقد يوجه أحد نقدًا لها بقوله : إن قوتَىْ الغضب والشهوة إذا كانتا تؤديان إلى الفساد والخسران فما هى الحكمة من خلقهما . وجوابنا على ذلك أن كل ماخلق الله تعالى له حكمة ظاهرة ومصلحة عامة ، فلولم تخلق الشهوة لما اعتنى أحد بالغذاء الذى به قوام البدن ، ولا التفت إلى الزوجة التى بها يكون بقاء النسل ولفنى الناس واضمحل العالم ، ولولم يخلق الغضب ما استطاع أحد أن يدفع عن نفسه وأهله السوء وينتقم من عدوه ويدافع عن شرفه ويزود عن ماله ، فتنقطع بسبب ذلك المصلحة العامة فى الخلق بالضرورة . بيد أن الواجب والأفضل أن تكون قوتا الغضب والشهوة مطيعتين لسلطان العقل ، فيجعلهما بمثابة دابتين يركبهما ويسوقهما ويصرفهما كما يريد ، ١٠٤ فإن لم تكونا منقادتين ذلولين ، أخافهما بسوطه فى الحال ، وهو يضربهما عند الحاجة ، فالشهوة إذا أتت علفها ربطها بإحكام إلى المعلف بحيث لا تستطيع إفلاتا فإنها إذا أفلتت أهلكت نفسها وأهلكت من عليها ، أى راكبها . فينبغى للمرء أن يعلم أن هذين العدوين اللذين معه ليس ثمة أقوى ولا أصعب منهما عداء ، وأن يكون دائما على حذر كى لا يفتنانه يوما ويظهرا أنهما صديقان له كما هو الشأن مع العقل [1] ، فقد يقترف عملا سيئا يظنه حسنا ويظلم نفساً ويزعم أنه يعدل . فينبغى والحالة هذه أن لا يقدم على أمر دون عرضه على العقل ، حتى يأمن مكر هذين العدوين : وكل من وهبه الله تعالى عقلا نيرا وعرض الأحوال على ذلك العقل الذى هو الصديق فعاد وانضم العلم إلى ذلك العقل وقرأ أخبار السلف وتأملها وراقب

---

(١) هكذا شرحها غنى — فياض حاشية ٢

أوضاع زمانه أيضا . أمكنه أن يعرف الحسن والقبيح من الأعمال وعاقبة كل منها خيرا أم شرا ، وما يقول الناس وماذا يعجبهم وما خير ذكرى يخلفها الناس . وهناك كثير من العقلاء يدعون الناس للسير على محجة الصواب ولكنهم لايسيرون فى الطريق الذى يدعون إليه. وما أكثر من رأيت من العقلاء ممن يأمرون قائلين للناس اتركوا كذا ويرون أنفسهم فى غنى عن ذلك ، ومثل هؤلاء كمثل كثير من الأطباء يقولون ينبغى عدم تناول كذا فإنه يحدث علة كذا وهم أنفسهم يكثرون من تناوله ؛ كما أن هنالك فلاسفة ، يسمونهم أطباء الأخلاق ، ينهون عن الأعمال القبيحة المنكرة ، وحينما يخلو المكان يقترفون تلك الآثام نفسها . أما جماعة الجهلاء الذين لا يعرفون غور هذه الأعمال ونتائجها فإنهم معذورون لأنهم لا يعلمون، ولكن العلماء العارفين ليسوا فى أخطائهم معذورين . والعاقل الحازم صاحب العزم هو من يكون بقلبه ١٠٥ وبرأيه المنير مع الناس واحدا ، ومن كف الشهوة عن طلب المحال . وإذا لم يجد المرء مساعدة تامة من قواه ، وجب عليه أن يختار نفرا من أنصح الناس وأفضلهم ليدلوه على عيوبه ، لأنه إذ يجاهد الخصوم والأقوياء المتمكنين من نفسه وقلبه ، يستشير أولئك الناصحين إذا عجز عن دفعهم ، حتى يبينوا له وجه الصواب ، كما قال المصطفى صلوات الله عليه « المؤمن مرآة المؤمن » . وكذلك فإن جالينوس الحكيم ، أوحد أهل زمانه فى الطب والحكمة ، لمعرفته الواسعة بطبائع الدم واللحم وخصائص الجسد، بالإضافة إلى سداد فى الرأى فى معالجة الأخلاق ، له فى ذلك رسائل جد مفيدة فى تعريف الإنسان نفسه ، مما تفيد القراء فائدة كبيرة وهو خير مرجع فى هذا الأمر ، يقول : « ينبغى لمن لا يستطيع معرفة عيوب نفسه من العقلاء أن يلجأ إلى نفر من أصدقائه يكونون أكبر عقلا وأكثر نصحا وأوضح فضلا فيكل إليهم فحص عاداته وأخلاقه حتى يوقفوه على ما به ، دون محاباة ،

من حسن وقبيح، والملوك أكثر من غيرهم حاجة إلى ما أقول، لأن أوامرهم كالسيوف البتارة وليس لأحد جرأة على مخالفتهم، وأخطاؤهم يصعب تلافيها.

وقد قرأت فى أخبار ملوك الفرس، مما نقله ابن المقفع، أن أكابر ملوكهم كانوا قد اعتادوا أن يجالسوا أعقل عقلاء الزمان، نهارا وليلا حتى وقت النوم، وكان هؤلاء لهم كأصحاب الزمام[1]، يرشدونهم إلى كل ما يقع، حسناً كان أو قبيحاً، من أوامر وأحوال وعادات أولئك الطغاة أى الملوك، فإذا ماتحولت فى أحدهم شهوة تكون قبيحة، وأراد أن يبدى هيبة ١٠٦ وسطوة فيهما هلاك الناس واستئصال البيوتات، اعترضوه وبينوا له محاسن ذلك القصد وقبائحه، وقصوا عليه سير الملوك الماضين وأخبارهم. ونبهوه وأنذروه عن طريق الشرع حتى يستنبط الأمر برأيه وعقله، وتسكن فيه تلك السطوة وذلك الغضب، لأنه حين يستولى عليه الغضب وتبدو عليه السطوة تتمكن من عقله فى تلك الساعة آفة كبيرة فيحتاج حينئذ إلى طبيب يعالج تلك الآفة، حتى يهدأ ذلك البلاء.

والناس، سواء كانوا من الملوك أو من غير الملوك، لكل منهم نفس، يقال لها الروح وهى عظيمة قوية، وجسم يقال له البدن وهو ضئيل ضعيف. وكما أنهم يختارون أطباء معالجين للبدن ليسارعوا إلى مداواة كل مرض يعتريه ويستحضروا له العقاقير والأغذية ليعود سليما معافى، فالأولى بالروح أن يختاروا لها أطباء ومعالجين كذلك لعلاج تلك الآفة أيضاً. فالعاقل الذى لا يفعل ذلك يسىء الاختيار، لأنه يكون قد ترك الأهم واشتغل بالمهم. وكما أن لأولئك

---

(١) الكلمة المستخدمة « زمامات » وجاء فى الحاشية ٢ من غنى — فياض أن الزمام كلمة عربية بمعنى الناظر والمشرف.

الأطباء أدوية وعقاقير يأتون بها من الهند وغيرها فكذلك لهؤلاء أدوية هي العقل والتجارب الجيدة ، مما رأوا وطالعوا في الكتب .

وكذلك قرأت في أخبار السامانيين أن نصر بن أحمد الساماني كان في الثامنة من عمره عند وفاة والده ، فأجلسوه وهو طفل على العرش ، غداة مقتل أبيه متصيدا ، فنشأ ذلك الشبل منقطع النظير سديد الرأي حازما تتجلى فيه جميع محاسن الملوك ولكنه كانت فيه رعونة[1] وسيطرة وحِدّة مفرطة خطرة ، فكان يصدر الأوامر الشديدة عن غيظ وغضب ، فنفر الناس منه ، ولكنه كان في نفس الوقت يراجع عقله ، فيعرف أن تلك الأخلاق غير حميده . فاختلى يوما بالبلعمي ، أعظم وزرائه ، وأبي الطيب[2] المصعبي صاحب ديوان الرسائل ، وكانا من ١٠٧ نوادر عصرهما علماً وفضلا ، وشرح لهما أحواله ، قائلا : وإنى أعلم أن كل مايصدر عني خطأ عظيم ، ولكني لاأستطيع كبح جماح غضبي ، وإنني ليساورني ، بعد أن تهدأ سورتي ، الندم ، ولكن ما الفائدة وقد أمرت بقتل الأبرياء ، فمحوت العائلات واستعملت غاية القسوة وهدمت البيوت ، فكيف يكون التدبير لهذا الأمر . فقالا لعل من الصواب أن يقيم مولانا لديه أعقل الندماء ممن يضمون إلى العقل الكامل رحمة ورأفة وحلما ، ويأذن لهم ، إذا ما شاهدوا الملك غاضباً ، أن يلحوا دون خشية بالشفاعة ويستعملوا لطائف الحيل حتى تهدأ سورة غضبه ، وأن يبينوا له ، إذا أقدم على أمر خليق بالملوك ، محاسن هذا الأمر حتى يكون في شوق إلى العمل بمثله دائماً . فارتاح نصر بن أحمد لإشارتهم واستحسن مقالتهم وامتدح كلامهم ، ثم قال : سأضيف إلى ما أشرتما به عملا آخر يؤكده وهو أن أقسم يمينا مغلظة ، أن لا ينفذوا أي أمر يصدر مني في حالة الغضب إلا بعد ثلاثة أيام ، تكون قد هدأت سورة الغضب فيها

---

(١) في النص زعارت بمعنى سوء الطبع والميل إلى الشر والرعونة . غني — فياض ، ٢ .

(٢) في معظم النسخ الطيب وصححها غني — فياض . حاشية ١ .

وتكلم الشفعاء معى خلالها فى تلك الأوامر ، ثم أنظر فى الأمور عن روية ، فإن كان منشأ ذلك الغضب عن حق ضرب المذنب أقل من مئة عصى . وإن كان عن غير حق ، أسقط عنه العقاب ، وأرفع شأن من كنت قد أمرت بعقابه إن كان جديرا بذلك ، وإن كانت العقوبة على مقتضى الشرع تجرى كما يأمر بها القضاة . فقال البلعمى وأبو الطيب : أجل ، بذلك ينتهى كل شيء وهذا عين الصلاح . ثم قال : اذهبا وابحثا عن أعقل الناس فى بلادى واستقدما أى عدد تجدانه منهم إلى الدركاه حتى آمر بما ينبغى . فرجع هذان العظيمان مسرورين ، لأنهما كانا يتوقعان لنفسهما بلاء عظيما[1] ، وبحثا عن العقلاء فى طول البلاد ١٠٨ وعرضها حتى جمعا منهم أكثر من سبعين رجلا من أهل البيوت العريقة والأنساب الشريفة ، فجاءوا بهم إلى بخارى التى كانت إذ ذاك قاعدة الملك ، وأخبروا نصر بن أحمد بذلك ، فأمر أن يظل هؤلاء العقلاء سنة ثم يمتحنوا جميعاً لاختيار أرجحهم عقلا . فقاموا بتنفيذ أمره واختاروا ، فى النهاية ، ثلاثة من الشيوخ كانوا أرجح الجميع عقلا وأكثرهم فضلا وأوسعهم تجربة ، ثم جيء بهم إلى نصر بن أحمد حيث ظل يختبرهم أسبوعا ، وعندما وجدهم أفذاذاً باح لهم بسره ، وكتب بخطه أيمانا مغلظة وأجراها على لسانه وأذن لهم بالشفاعة فى كل باب والتحدث إليه فى غير محاباة . وما أن انقضى على ذلك عام حتى أصبح نصر أحنف بن قيس[2] آخر وبلغ من الحلم ما صار به مضرب الأمثال ، وزالت عنه تماماً الخصال السيئة .

* * *

---

(١) من غضب الأمير .

(٢) الأحنف بن قيس التميمى الذى عرف عند العرب بالحلم والحكمة . عن — فياض ، حاشية ١ .

لقد فرغنا من كتابة هذا الفصل كذلك ، ونحن نعلم أن العقلاء سوف يطالعونه راضين عنه رغم إطنابنا فيه ، إذ لايوجد شيء مكتوب لايستحق القراءة ولو مرة واحدة ، وسوف تكون موضوعاته مرجعاً يطالعه من يأتى بعد هذا العصر ، وقد تأكد لدى اليوم وأنا أكتب هذا التاريخ أنه يوجد فى هذه الحضرة العلية أدامها الله رجال عظماء ،لو أنهم قاموا بكتابة تاريخ هـــذا الملك لأصابوا الغرض وأثبتوا للناس أنهم الفرسان وأنى دونهم راجل ، أسير فى ركابهم أعرج يعجزه التقرس . فكان لزاما أن يكتبوا وأتعلم وأن يتكلموا وأسمع . ولـكن قد شغلتهم الدولة حتى يعملوا الفكر فى المهام العظيمة ، فشمروا عن ساعد الجد ليقوموا بما يجب كيلا يحصل خلل يفرح به عدو وطاعن وحاسد وينال مرامه ، فكيف ، مع كل ذلك ، تتهيأ لهم الفرصة لكتابة التاريخ وجمع أمثال هذه الأحوال والأخبار وكيف يستطيعون لها تفرغا . فقمت بهذا العمل نيابة عنهم إذ لو تريثت حتى يقوموا به لكان من الممكن أن لايمارســــوه ، ولأصبح من الجائز أن تبتعد هــذه الأخبار عن قلوب ١٠٩ الناس وعيونها لطول الزمن ، ولئن أراد أحد القيام بهذا العمل لما استطاع ، إذ أنه لايملك الدابة التى أركبها ، ولا تدرست الآثار العظيمة التى لهذه الأسرة الشهيرة ، هذا وقد اطلعت على التواريخ الكثيرة التى دونها قبلى للملوك الماضين خدامهم وأنقصوا منها وزادوا فيها لتزدان بذلك. وسيرة ملوك هذه الأسرة رحم الله ماضيهم وأعز باقيهم ليست كذلك فإن معاليها بحمد الله تضىء كالشمس المنيرة ، وقد أغنانى الله جل ذكره بذلك عن التلبيس والتمويه فكل ماسقته للآن أو ماسأسوقه بعد هو برهان واضح .

وقد بادرت بعد الفراغ من تحرير هذه الخطبة ، إلى تدوين التاريخ راجيا

---

(١) وهكذا فسر غنى — مياض هذه العبارة . حاشية (١) .

من الله تعالى التوفيق للنهوض بالأمر على القاعدة المتبعة فيه وقد حررت قبل هذا بابين تحدثت فيهما عن هذا الملك العظيم أنار الله برهانه ، فذكرت فى الباب الأول ماجرى على يديه من جسام الأمور بعد إياب السلطان محمود من الرى وإسناد ولايتها إليه ، وفى الباب الثانى ما تهيأ له من أسباب السعادة والرفعة بعد وفاة والده ، وأيام إمارة أخيه إلى أن بلغ هراة وما استقرت عليه الأمور من حال واحدة ، فأحرز ماكان يطلبه من نجاح فى كافة الشئون مما سيطالعه القراء . وكذلك ما وقع له من نوادر وعجائب فى أيام أبيه ، عدة وقائع أوردتها جميعاً فى مكانها من هذا التاريخ فى أيام السلطان محمود ونكت أخرى جديرة بالعلم عن طفولته وقعت جميعها عند بلوغه سن الرشد حين اختاره أبوه وليا للعهد مما وقفت على بعضه إبان وجودى فى نيسابور قبل أن أسعد بخدمة هذه الدولة ثبتها الله .

وقد كانت أمنيتى دائماً أن أسمع هذه الأخبار والنوادر عن شخص موثوق به رآها رأى العين ، ولم يتفق لى ذلك . والآن وأنا أعمد إلى تدوين هذا التاريخ يشتد حرصى على معرفتها ، إذ قد مضت سنين عـــدة وأنا مشتغل بهذا العمل وأخشى أن لا تتم لى معرفة تلك النكات حين أصل إلى أيام هذا الملك المباركة فيكون ثمة غبن من تركها .

من خير ما اتفق لى فى أوائل سنة خمسين وأربعمائة (١٠٥٨) ، أن تفقدنى فى عزلتى وتجشم ١٠١ المتاعب لزيارتى الخواجة أبو سعيد عبدالغفار فاخر بن شريف ، حميد أمير المؤمنين أدام الله عزه ، فتفضل على بما كنت أجد فى طلبه ، وحرره بخطه وهو من الثقات المعروفين بالصدق ورجاحة العقل فلا يحتاج إلى شاهد فيما يسجله ، وقد دخل هذا السيد فى خدمة هـــذا الملك ، منذ كان فى الرابعة عشرة من عمره ، حيث قضى زمناً فى خدمته فذاق حلو الدنيا ومرها واحتمل فى سبيل ذلك المصائب الكثيرة وتعرض للمخاطر الكبيرة مع ملك مثل محمود

رضى الله عنه وحين ارتقى مولانا سرير الملك أبقاه على ما كان عليه من عز وثقة تامة .

هذا وقد اتصلت بهذا الخواجة فى أواخر سنة إحدى وعشرين (١٠٣٠) حين وصلت رايات السلطان الشهيد رضى الله عنه إلى بلخ ، فوجدته على درجة عظيمة من الفضل ، وكان يجلس مع أستاذى فى ديوان الرسائل ويقضى جل يومه مع السلطان فى خلوته الخاصة فوجب أن أرعى له جانب الحرمة فى الخطاب ، بل إن ذلك كان فرضاً علىّ . على أن التاريخ لايحتمل أكثر مما ذكرت ، وكل لبيب يتمتع بشىء من الفطنة يمكنه أن يدرك أن لقب « حميد أمين المؤمنين » من الألقاب التى تصدر عن سدة الخلافة الجليلة ، وأى خطاب أعظم من هذا . وقد تم له هذا التشريف العظيم فى عهد السلطان مودود ، إذ أوفده فى مهمة خطيرة إلى بغداد ، فقام بها خير قيام ، فإنه رجل خبر الدنيا وعرف أسرارها وعرك تجاربها . وسأوضح ذلك أثناء الكلام على السلطان مودود . وكذلك وقع عليه الاختيار من بين جميع المعتمدين فى سفارة إلى خراسان فى عهد السلطان عبد الرشيد تتعلق بمهام عظيمة من عهود ومواثيق مع زمرة من الأكابر لهم الآن ولاية خراسان ، وكنت آنذاك أدير ديوان الرسائل وسأشرح تلك الأحوال فى موضعها . وقد مرت بهذا السيد أحوال مختلفة ، حلوة ومرة ، إلى أن أسند إليه منصب الرئاسة فى مدينة بُست فى هـذا العهد الميمون المقترن بحكم السلطان السعيد أبى شجاع فرخ زاد بن مسعود أطال الله بقاءه ونصر لواءه فلبث هنالك مدة مديدة ، وخلف آثاراً جديرة . أما اليوم فهو يقيم فى داره بغزنة عزيزاً مكرماً . وقد أشرت الآن إجمالا إلى أحواله ، حتى أتطرق إلى التفاصيل بصورة واضحة فى مواضعها إن شاء الله تعالى كما كتبت هذه الإشارات الوجيزة عن السلطان مسعود ليطلع القارىء عليها ، وسوف أذكر قصة جلوس هذا السلطان على أريكة الملك وأسوق الحديث عن تاريخ أيامه المباركة .

المقامة في معنى ولاية العهد للأمير شهاب الدولة مسعود وما جرى من أحواله[1]

أمر السلطان محمود في شهور سنة إحدى وأربعمائة (١٠١٠)، عند مسيره للغزو إلى بلاد الغور عن طريق أرض داور من بلابست، ابنيه الأميرين مسعود ومحمد وكذلك أخاه الأمير يوسف رحمهم الله أجمعين، بالنزول في موضع داور، حيث يمكثون ومعهم الأحمال الثقيلة.

وكان ولداه إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمرهما، وكان الأمير يوسف في السابعة عشرة، وقد دعاه إلى إصدار ذلك الأمر اعتقاده بأن أرض داور هذه ميمونة مباركة، إذ هي أول ولاية أسندها إليه والده الأمير سبكتكين العادل رضي الله عنه، وأمر السلطان محمود جدي[2] بالقيام على خدمتهم وأداء ما يلزمهم من وظائف ورواتب حيث نزلوا في دار بايتكين بأرض داور وكان أميراً على تلك النواحي من قبل السلطان محمود، وكانت لي جدة ذات ورع وتقوى، تستطيع القراءة والكتابة وتحفظ القرآن وتحيط علماً بالتفاسير والتعبير وأخبار النبي صلى الله عليه وسلم إلى جانب مهارتها في تجهيز لذيذ الأطعمة ورائق الأشربة وكانت آية في ذلك، فعملت مع جدي في خدمة أولئك الأمراء حيث نزلوا هنالك، وكانت جدتي تلك العجوز، تتأنق في صنع ما يطلبون من شهي المآكل والحلاوى فتأتي بأحسن ما يكون، وكان الأمراء يتمتعون بها دائماً فتقص عليهم السير والأخبار والحكايات المسلية، فزاد ذلك من ألفة الأمراء لها، وكنت ١١٢ إذ ذاك قد بلغت سن الرشد، أذهب إلى المدرسة وأتعلم القرآن وأؤدي ما يستطيع الصبية أداءه من الخدمات وأعود، وكان أستاذي المدعو «سالمي»[3] يأتي معي

---

(١) هذه المقامة كلها من رواية الخواجة عبد الغفار.

(٢) أي جد «الكاتب» عبد الغفار.

(٣) ذكر الكاتب جملة لا يفهم منها إلا ما ذكرناه.

إليهم أحياناً . وقال الأمير مسعود : ينبغي أن يحفظ عبد الغفار شيئاً من الشعر فعلمني أستاذي هذا عدة قصائد من شعر المتنبي وأبياتاً من قفا نبك ، فازددت بقراءة تلك الأشعار عليهم جرأة في الكلام. وكان ترتيب مجالسهم في ذلك العهد أن يأتي أولاد ريحان ، وكان من خاصة خدم السلطان محمود كما كان له الإشراف على الأمراء ، بالأمير مسعود فيجلسونه في صدر المجلس ثم يحضرون الأمير محمد ويجلسونه إلى يمينه على أن تكون ركبته في خارج الصدر ويأتون بالأمير يوسف ويجلسونه خارج الصدر إلى اليسار ، وعندما يأخذون جلستهم يشاهدون ألعاب الصولجان والأميران محمد ويوسف في خدمة الأمير مسعود ، ومعهم الحاجب الخاص بالمجلس وعند صلاة العصر حين يرجع المؤدب ،كان يبارح هذان الشخصان المجلس أولا ويذهبان ثم يخرج الأمير مسعود بعدهم بساعة .

وكان ريحان الخادم يتعهدهم جميعا بالتربية فينتهرهم ويصرخ فيهم إن لاحظ عليهم ما لا يليق، وكانوا يركبون إلى الريف للتنزه مرتين في الأسبوع. وقد اعتاد الأمير مسعود أن يحضر له جدي وجدتي ،كلما هم بالركوب أنواع المأكولات، وكثيرا ما كان يطلب منهما تهيئة اللذيذ من المآكل خفية دون علم أحد من عمال المطبخ ، وقد كان قراتكين الغلام الصغير يبلغ جدي وجدتي بما يطلبه الأمير مسعود ، ويقال إن قراتكين هذا كان في مبدأ أمره غلاما للأمير ثم بلغ إلى منصب النقابة في هراة ثم صار حاجبا للأمير مسعود، وكانوا يفاجئونهم بالمآكل في الصحراء ، فيقيمون المآدب ، وكانت المآدب الكبيرة هي التي كان يدعى إليها الأمير حسن بن الأمير فريغون أمير جوزجان وشبان آخرون من أقرانهم وكان يمنحهم شيئاً بعد الفراغ من الطعام .

وكذلك كان بايتكين حاكم ناحية داور من غلمان السلطان محمود ومحلا لرعايته وكانت له زوجة جد تقية صالحة ، فلما جلس السلطان مسعود بعد أبيه ، على أريكة الملك أبدى عطفا ١١٣ بالغا نحو هذه المرأة جزاء لخدماتها السابقة ،

فقد كان يحترمها احترامه للسيدة الوالدة ، وقد سمعتها أثناء وجودى بمجلس الأمير مسعود بغزنة ، عدة مرات ، تقص الحكايات والأخبار عن سيرة هذا الأمير وأحواله فى تلك الأيام ، وكان يلذ للأمير سماع ذلك فيسألها كثيرا عن تلك النواحى والقرى والمآكل . وقد جاء بايتكين هذا ، حين استولى السلطان محمود على سيستان وأسقط خلف،[1] بمائة وثلاثين من طيور الطاووس بين ذكر وأنثى ، ويقال إن تلك الطيور كانت تربى كالدواجن ، فنشأت فى البيوت بناحية داور ، وكان أكثرها يبيض ويفرخ داخل القباب المنتشرة هنالك ، فشغف الأمير مسعود بها حبا وكان يذهب لرؤيتها إلى سطوح المنازل ، وقد باض بعضها وأفرخ فى مكانين أو ثلاثة من قبة كانت بدارنا . ونادى الأمير مسعود يوما جدتى من على السطح ، ودعاها وقال لها عندما اقتربت منه : رأيت نفسى فى المنام وكأننى ببلاد الغور حيث شاهدت سورا يشبه السور الذى لدينا ، ورأيت هنالك عددا كبيرا من طيور الطاووس والديكة فكنت أمسكها وأضعها تحت ثيابى فتقاوم محاولة أن تطير ، ولما كنت تعرفين كل شىء فماذا يكون تعبير هذه الرؤيا . فأجابت العجوز « سوف يتسلط الأمير على أمراء الغور ، ويدين الغوريون بالطاعة » فقال : « إننى لم أبلغ بعد مكان أبى فى الملك فكيف أستطيع القبض عليهم » . فأجابت العجوز : « سيصبح ذلك مستطاعا إن شاء الله تعالى حين تكبر فإنى أذكر أن والدك السلطان ، الذى كان أيام الطفولة وكانت هذه الولاية له ، استولى الآن على أكثر البلدان وما يزال يستولى ، وسوف تكون أنت أيضا كأبيك » . وقال الأمير : إن شاء الله .

وقد تحققت هذه الرؤيا بعد ذلك ودخلت فى طاعته بلاد الغور وله فى بلاد الغور آثار جليلة سيأتى ذكرها فى هذه المقامة .

وفى شهور سنة إحدى وعشرين وأربعمائة (١٠٣٠) حين التحقت (عبدالغفار)

---

(١) خلف بن أحمد آخر الأمراء الصفاريين فى تلك البلاد .

بخدمة هذا الملك طلب منى عددا من تلك الطواويس بين ذكر وأنثى فأتيته بستة أزواج منها فأمر بإيداعها البستان حيث أخذت تبيض وتفرخ ، ومن ثم تناسلت فى هراة .

هذا وقد أتى أمراء الغور إلى الحضرة بين مطيع وكاره ، بعد أن رأوا من آثار سطوته العظيمة ما أخافهم وقطع أنفاسهم . ولم يتفق أن حدث فى عهد ما وكذلك لم أقرأ فى كتاب أن الغوريين خافوا ١١٤ أو أطاعوا ملكا مثل مسعود من قبل .

وفى سنة خمس وأربعمائة (١٠١٤) زحف السلطان محمود من مدينة بست إلى خوابين وهى ناحية من بلاد الغور تتصل بأراضى بست وداور ، حيث كان الكفار أعظم قوة وأكثر خبثا إذ كانت لهم المعاقل القوية والحصون العديدة ، وقد صحب معه إلى تلك المواقع الأمير مسعود الذى أبدى خلال الزحف بالغ الجرأة وعظيم الشجاعة على مشهد من أبيه فكان يقتلع الفرسان من فوق ظهور الجياد ، ولما لاذ جمع من الأعداء بالمعاقل والحصون ، شوهد أحد قادتهم فوق برج حصن يستهزىء بالمسلمين بما يؤلم شعورهم فسدد نحوهم سهما أصابه فى حلقه فسقط عن الحصن ومات لساعته فانكسرت قلوب أصحابه وسلموا الحصن ، وكل ذلك بفضل ضربه الأمير النادرة . وبعد أن فرغ السلطان محمود من الحرب وعاد إلى الخيمة ، أنزل ذلك الشبل فيها فتناول معه الطعام وشمله بعطفه وحنانه البالغ ، وقد كانت هذه المآثر وأمثالها من أهم ما دعا السلطان لأن يخصه بولاية العهد صبياً ، إذ كان لا يرى ولا يعرف أحدا يستطيع النهوض بأعباء ذلك الملك الواسع العظيم من بعده غير هذا الأمير ، وأثبتت الأيام صحة هذا الرأى ، فقد انقضت تسعة وعشرون سنة على وفاة السلطان الماضى رضى الله عنه وقعت أثناءها حوادث خطيرة ، لم يستطع أحد تدبيرها سوى مسعود فحافظ على كافة الرسوم والآداب الموروثة وأقر العدل على صورة لم يسبق لها مثيل

فى بلاد الكفر والإسلام . فاتدم أيام هذه الأسرة الكريمة بنصر أوليائها وقهر أعدائها وليعش مليكها العظيم السلطان فرخ زاد تجل ذلك السلطان الأعظم متمتعا بدوام الملك وبهجة الشباب بمحمد وآله .

وفى سنة احدى عشر وأربعمائة (١٠٢٠) ذهب السلطان إلى هراة ليرحل منها فى تلك السنة إلى بلاد الغور فسار من هراة يوم السبت ، لعشرة خلون من جمادى الأول وفى صحبته الفرسان وعدد كبير من الرجالة ، ومعهم خمسة من الفيلة السريعة وكانت المرحلة الأولى باشان[١] والثانية خَيْسار[٢] والثالثة بريان[٣] فمكث فيها يومين حتى ١١٥ وصلت جميع العسكر ومن ثم توجه إلى پار[٤] وارتحل منها بعد يومين إلى چشت[٥] ثم منها إلى موضع يدعى (باغ وزير بيرون) وهو أول موضع من حدود الغور . فما أن عرف الغور خبره حتى لجأوا إلى حصونهم ومعاقلهم المنيعة وتأهبوا للقتال وكان السلطان رضى الله عنه قد تمكن من أن يستميل أبا الحسن بن خاف وكان من أبرز مقدمى الغور ، قبل مسيره إليهم وتواطأ معه ليحضر بجند مجهز حين تصل الجيوش المنصورة برايتنا إلى هذا الموضع ، فحضر أبو الحسن فى هذا اليوم وفى معيته كما قالوا جيش قوامه ثلاثة آلاف من الرجال المجهزين بالقوى والعتاد ، وتقدم إلى السلطان وأدى الخدمة وقدموا النثار الكثير والهدايا من دروع ولامات وبما اختص بصنعه أهل الغور

(١) قرية فى ناحية هراة . عنى — فياض ١

(٢) مدينة بين غزنة وهراة

(٣) فى بعض النسخ بيرداى . ولكن حاشية بب تقول «زيان» كما يقول باقوت وهى قرية فى ناحية هراة .

(٤) اسم غير معروف . عنى — فياض حاشية ٤ .

(٥) لاحظ غنى — فياض أن هذه الكلمة تذكر بصيغ مختلفة حسب النسخ والتى هنا مطابق لنسخة بب التى تقول فى الحاشية إنها موضع فى جبال هراة به قبر السلطان مودود بن مسعود حاشية ٥ . وذكره لسترنج خشت ، أنظر بلدان الخلافة الشرقية ، مطبوعات المجمع العلمى العراقى ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، ص ٣٠٣ ، ٤٥٣ ، ٤٦٠ .

وقد شمله الأمير بعطف بالغ وجاء على أثره شيروان فى فرسان كثيرين ورجاله يحمل إلى السلطان الهدايا ونثار لا يحصى وكان هذا الرجل مقدم آخر من حدود الغور وجوزجان ممن أستمالهم ابن السلطان، وقد بذل الأمير محمد الكثير من المحاولات أيام حكمه ليسير إليه هذا المقدم ويكون من أتباعه ذلك لأن ولايته كانت تتصل بجوزجان ولكن لم يجبه إلى ذلك فقد كان الناس جميعاً إلى جانب مسعود . وقوى شأن السلطان بحضور هذين المقدمين أبى الحسن بن خلف وشيروان ومن ثم نهض يوم الجمعة فسار بالمقدمة وكانت تصحبه جريدة مجهزة ومعها خمسون أو ستون غلاما ومائتان من الرجالة الأكثر استعدادا من شتى الأصناف وبلغوا حصنا مكينا يدعى برتر يضم زمرة من شجعان المقاتلين بسلاحهم. وطاف السلطان أولا حول الحصن وتفقد الأهداف الحربية ولم يكن لهذا الحصن شيء ١١٦ من الأهمية إزاء همته القعساء فلم يتمهل ريثما تصل الجيوش بل بادر بالقتال مع هذا النفر القليل وتقدم بنفسه الغالية مع الغلمان والرجالة ، وثار ملاعين حصن الغور وضجوا ضجة هائلة كادت لهولها الأرض تنشق وحسبوا أن عسكر السلطان ليس إلا تلك الفئة المجتمعة حول الحصن . وأمر السلطان الغلمان أن يبادروا برمى السهام وكانت تتقاطر بحيث لم يجرؤ العدو على التطلع من وراء الجدران وطفق المشاة يتسلقون جدران الحصن بحبال الأوهاق وقتلوا مقتلة عظيمة وهزموا أولئك اللئام وقتلوا خلقا كثيرا وأسروا عددا كبيرا واستولوا على أموال وغنائم مختلفة من كل شيء .

وبعد أن استسلم الحصن وصلت جيوش أخرى ، فتعالت أصوات الناس بالترحيب لدك ذلك الحصن بهذا العدد القليل من الرجال .

وسار السلطان بعد ذلك إلى ناحية رزان[1] وحين بلغ أهلها نبأ هذا الحصن

---

(١) فى بعض النسخ زران . حاشية ١ .

آثر أغلبهم الفرار ولم يبق منهم إلا شراذم قليلة توارت فى الجواسق ، فأعطاهم السلطان الأمان حتى آب جميع الهاربين ، وقبلوا الجزية وقدموا له كثيرا من الهدايا من الذهب والفضة والسلاح ، وكانت المسافة إلى جروس[1] ، مقر درميش بت[2] عشرة فراسخ فلم يجد فى السير ولم يتجه إليهما لأن حاكمها درميش بت هذا كان قد بعث إلى السلطان رسولا يعلن الطاعة والعبودية . ويعد أنه سيحضر بنفسه للخدمة ، بعد أن يعود السلطان إلى هراة ، ويتقبل الخراج لذلك لوى السلطان عنان السير ميمما شطر وى وهو موضع جد حصين من ناحية تمور وأهله أشجع وأقوى . وكانت وى هذه فى الأيام الماضية قاعدة لبلاد الغور وهى من ١١٧ المنعة والقوة بحيث كان من يتسلط عليها يستطيع أن يمد سلطانه على جميع تلك الأصقاع . فلما سار السلطان إليها أوفد من قبله فقيها برسالة وبصحبته رجلين من أتباع أبى الحسن خلف وشيروان ليقوما بالترجمة وكانت المشافهات بينهما قوية منطوية على الوعد والوعيد ، كما جرت العادة بذلك .

ذهب الرسل أولا والسلطان فى أثرهم ، ولكن القوم أخذوا لدى مقابلة الرسل يولولون ويصرخون فى وجوههم قائلين إن السلطان على خطأ كبير ، إذ يظن أن هذه الناحية وأهلها على تلك الشاكلة التى رآها ومر بها ، ألا[3] فليتقدم فإن هنا السيوف والحراب والحجارة .

وعاد الرسل وأبلغوا المشافهات ، وكان السلطان قد وصل متضايقا ، فنزل فى تلك الليلة بسفح الجبل ووزعوا السلاح على الجند ، ثم ركب السلطان

---

(١) بضم الجيم وسكون الراء وفتح الواو كذا فى معجم البلدان .

(٢) جاء فى تعليقات رك : درميش عنوان أو لقب شخص .

(٣) تتردد النسخ بين نبايد وبايد وأكثرها على بايد . غنى ـ فياض حاشية ١ .

فى طليعة الفجر ، فتعالت أصوات الطبول والأبواق وتأهب عسكره للتسلق إلى أعالى الجبال ، وظهر الغور على رأس الجبل كالنمل والجراد المنتشر مدججين بالأسلحة بين فارس وراجل وسدوا المعاقل والمضايق وعلا دوى صراخهم هائلا ، وطفقوا يقذفون الحجارة بالمقالع ، ولكن ذلك الجبل كان لحسن الحظ مكونا من الرمال والأتربة الناعمة يمكن تسلقه من جميع الجهات فوزع السلطان الجيش على المسالك ، وسار بنفسه إلى المقدمة ، حيث كانت نار الحرب أشد استعارا ووضع أبا الحسن خاف على الميمنة ، وشيروان على الميسرة .

وحمل أولئك اللئام [١] على جيش السلطان وأبلوا بلاء حسنا ولا سيما فى القطاع الذى كان يواجه السلطان . فسدوا بذلك أغلب منافذ الجبل فى أغلب مواضعه بسهامهم ولكنهم ، وقد شعروا بضيق الخناق عليهم ، تجمعوا بجملتهم فى مواجهة السلطان فقامت هنالك حرب طاحنة . وتقدم ثلاثة من فرسانهم المبارزين أمام السلطان ، فرفع السلطان يده ، وضرب أحدهم على صدره بعمود زنته عشرين منا [٢] فافترش الأرض ولم تقم له قائمة. وأظهر الغلمان من النشاط فى القتال ما ألقوا به الفارسين الآخرين على الأرض . ولهذا السبب ١١٨ جفل الغور ، وانهزموا وتراجعوا وهم يكرون ويفرون إلى قرية فى أسفل الجبل . وقد تكبدوا خسائر فادحة فى الأرواح وأسر منهم عدد هائل .

بعد أن وصل المنهزمون إلى تلك القرية اتخذوها معقلا وكانت جد منيعة ذات جواسق شيدت على طراز الغور . وبادروا بالحرب وأرسلوا النساء والأطفال والأموال إلى حصن منيع آخر يقع من ورائهم. ودامت الحرب

(١) أى الغور .

(٢) المن ما يساوى عشرة أرطال من الوزن .

سجالا حتى صلاة المغرب فقتل عدد كبير من الملعونين واستشهد كثير من المسلمين . ولما أرخى الليل سدوله أخلى أولئك اللئـــام القرية وولوا هاربين فاشتغل الجيش المنصور طوال الليل بنهب أموال العدو فاستولوا على غنائم وفيرة .

وأمر السلطان فى الفجر بضرب الكوسات وركب قاصدا حصونهم ، على مسيرة فرسخين من معسكره ، وكان يتخلل طريقها المضايق الوعرة ، فلما بلغوها قبيل صلاة الظهر ، وجدوا أمامهم قلعة منيعة التحصين بحيث لم يكن يوجد ، كما قيل ، فى مثل تحصينها ومناعتها حصن آخر فى سائر بلاد الغور ولم يذكر أحد أنها فتحت يوما عنوة ، فنزل السلطان هنالك وأمر أن ينزل الجيش حول جهاتها الأربع وظلوا طوال الليل يعملون وينصبون حولها المجانيق . فلما طلع النهار وركب السلطان وتقدم إلى العمل بنفسه . ثم بدأت المجانيق تدك المتحصنين بالحجارة دكا . وقاوم الغور على الأبراج مقاومة شديدة وحاربوا حربا لم يكن أشد منها ، وكان جند السلطان كلما وصلوا إلى برج تجمع فيه رجال كثيرون وحاربوا وجها لوجه[1] ، ودامت الحرب هكذا سجالا أياما أربعة يشتد أوراها كل يوم عما قبله من أيام . وفى اليوم الخامس اشتدت الحرب كثيرا ودارت رحاها بين الجانبين على صورة لم يقع مثلها . وأمر السلطان غلمان الخاصة أن يتقدموا الصفوف ويضربوا العدو بسهامهم ، فتمت لهم بذلك الغلبة على الغور . وآزرت ثلاثة من المنجنيقات ضرب النبال ، وكان السلطان يأمر أن تتقدم الراية شيئا فشيئا ويتابعها ، فيشتد بذلك بأس الغلمان ويتشجعون على الحرب . وخارت عزائم الغور وأخذوا يهربون . وسقط عند الظهر الجدار الأعظم لذلك الحصن نتيجة لضرب المجانيق المتواصل .

---

(١) رينارس . حاشية ٣ ص غنى ــ فياض .

فتصاعد الغبار والتراب والدخان والنار إلى عنان السماء ١١٩ وأصيب الغور بثلمة أهاجت ثائرة الغور ، وتدفق الجيش على تلك الثلمة من الجوانب الأربعة ، فقاوم الغور باستماتة وأبلوا بلاء حسنا ، وباؤا فى النهاية بالهزيمة واستولى الجيش على الحصن بحد الحسام ، وقتلوا كثيرا من الغور ، وطلب عدد كبير منهم الأمان ، فأسروا ، وكانت الغنائم والرقيق لاحد لها ، فأمر السلطان أن ينادى ، لقد وهبنا المال والذهب والفضة والرقيق للجيش ؛ أما الأسلحة فيجب تسليمها . فأتوا بكثير من أنواع الأسلحة إلى باب الخيمة فأخذ الخاصة منها ماهو أحسن وأندر ، ثم وزعوا سائرها بين رجال الجيش . وأعطوا أبا الحسن خلف نصف الأسرى وشيروان نصفهم الآخر ، ليذهبا بهم إلى ولايتيهما . وأمر السلطان ، فدك الحصن حتى سوى بالأرض كيلا يغتر بعد ذلك مفسد بوجوده . وحين بلغ أمر الحصن أسماع الغور أعلنوا الطاعة جميعا خائفين . وخشى درميش بت العاقبة لأنه علم أن السلطان إن أراد قتاله قضى عليه فى أسبوع لا محالة ، فأوفد من قبله رسولا يؤكد للسلطان عبوديته وطاعته ، وأضاف كثيرا إلى ما كان قد تعهد به من الخراج والهدايا . وتوسط أبو الحسن خلف وشيروان لدى السلطان وطلبا العفو عن درميش بت وكان قد استشفع بهما وأرسل إليهما المشافهات ، فقبل السلطان الشفاعة ولم يقصده ، وأمر أن يصرف رسوله بالحسنى ، بشرط أن يتنازل سيده عن جميع ما استولى عليه من القلاع فى ناحية غرجستان ، فسلم درميش بت تلك البلاد جميعها لعمال[1] السلطان على رغمه[2] . وأرسل كل ما تعهد به من أموال الدركاه مع أن السلطان كان ما يزال بأرض الغور . فلما وصل سالما إلى هراة

---

(١) كوتوالان — أى رجال القلاع .

(٢) النص معول بالعربية « بلا حمد ولا أجر » .

حضر إلى الخدمة درميش بت فشمل بالعطف والخلعة ثم عاد إلى ولايته مع هذين المقدمين .

فلما فرغ السلطان من حرب الغور ، اتجه إلى حصن تور[١] وكان حصنا منيعا مشهورا ودامت الحرب هنالك سبعة أيام ، لجأوا فيها إلى الاستعانة بشجعان الغور واستولوا على ١٢٠ الحصن عنوة وقتل كثير من الغور وحصلوا على غنائم كثيرة . ثم قفل السلطان راجعا إلى هراة بعد أن أقام كوتواله هناك . وكانت الهدايا والغنائم التى تعهد الغور بتسليمها افتداءا لأنفسهم وما تعهد به درميش بت ، وقد تجمعت كلها فى مارآباد[٢] التى تبعد عن هراة عشرة فراسخ وفى خلال هذه الأحوال كان السلطان يذكرنى ، أنا عبد الغفار ، بتلك الرؤيا التى رآها فى أرض داور ويقول : لقد عبرت جدتك الرؤيا خير تعبير فجاء صحيحا . فكنت أبدى العبودية وأقول أن هذه بادرة سعد من أعمال السلطان .

أما ذكرى حكاية الغور وحربهم فللإشارة إلى أن ملكا لم يستطع التغلب عليهم ، وبسط اليد فيهم ، لا فى عهد الكفر ولا فى الإسلام كما تمكن من ذلك السلطان الشهيد مسعود رضى الله عنه ؛ وحتى فى أوائل عهد الفتوح الإسلامية بخراسان عندما اقتضت المشيئة الإلهية أن يعلو شأن الدين على يد أولئك الأكابر فى بدء الإسلام ، وعندما هزموا العجم وزحفوا من المدائن وهرب يزدجرد ومات أو قتل ، ووقعت تلك الوقائع العظيمة المشهورة ، لم يستطيعوا الدخول فى أرض الغور ، أما السلطان محمود فقد طاف مرتين أو ثلاثا بأرض داور بأطراف بلاد الغور ولكنه لم يلج مضايقها ، لا لأنه

---

(١) تذكر الكلمة بأشكال مختلفة حسب النسخ ، وهى مشكوك فيها ولم تذكر مرة أخرى فى هذا الكتاب . غنى ــ فياض حاشية ٥ .

(٢) قرية شرق هراة تسمى اليوم مروه . بارتولد فى « تذكرة جغرافيى تاريخى إيران ص ١٠٣ » . غنى ــ فياض حاشية ٢ .

لم يستطع إلى ذلك سبيلا ولكن خططه الحربية كانت تستهدف أمورا أخرى .
وفى عهد السامانيين قصد أحد أمرائهم ، ويدعى أبو جعفر الرمادى، بلاد الغور.
وكان أبو جعفر يعد نفسه فى القوة والعدة والأبهة والعظمة صنوا لابن الحسن
سيمجور ، وأمده أمير هراة بالعسكر والرجال ولكنه رغم ما أبداه من الهمة
ومضاء العزيمة لم يستطع الاستيلاء إلا على خيسار وقولك[1]. فكأنه لم يتمكن أحد
من التوغل فى مجاهل بلاد الغور سوى هذا السلطان العظيم . وقد قضى كلهم
رحمة الله عليهم أجمعين .

١٢١ ومما يؤثر عن يقظة هذا الملك الجليل مسعود رضى الله عنه وحزمه
واحتياطه ، إنه كان يعمد سرا فى شـــبابه ، إبان مقامه فى هراة ، إلى تناول
الشراب ؛ وإقامة مجالس الطرب ، فيؤتى إليه خفية بالمطربين والمطربات فى
فى غفلة من ريحان الخادم وكان قد أمر بتشييد بيت فى جوسق البستان العدنانى
للراحة وقت القيلولة وكانت مجهزة بأنابيب تجرى فيها المياه متصاعدة من الحوض
إلى أعلا السطح بتأثير الطلسمات فتدور فى الصنابير وتبلل ستائر الخيش[2] وقد زينت
جدران هـــذا البيت من السقف إلى الأرض بصور الألفية البديعة لمختلف
أوضاع اجتماع الرجال بالنساء وكلهم عراة على غرار ما صور فى ذلك الكتاب من
الصور والقصص والكلام وكان يذهب إلى تلك الغرفة حيث يقضى وقت القيلولة
هذا وللشبان أن يفعلوا مثل ذلك وأن يتمتعوا بمثل هذه المتع. على أن أباه السلطان

---

(١) الأصح أنها تولك ، كما جاء فى زين الأخبار وكانت قائمة فى بلاد الغور على حدود
جبال هراة . عن — وباس حاشية ٨

(٢) هو قماش من الكتان السميك والمراد الستائر التى كانت معلقة حول الغرفة الخاصة
براحة القيلولة ، وكانت تبلل هكذا طلبا لتلطيف الهواء ، وتلفظ هذه الكلمة فى العربية بفتح
الخاء كما قال عمر الوراق :

حبذا يقتل النا س على قطعة خيش
صرت بالخيش راض بالتى من كل عيش

محمود كان قد عين مشرفا على نجله الأمير حين يكون فى الخارج مع الندماء، وكان على هذا المشرف أن ينهى إلى السلطان أعمال الأمير ويحصى عليه أنفاسه ولكنه لم يصل إلى ما كان فى الخلوة. وهناك مشرفون يعرفهم الأمير من قبيل الغلمان والفراشين والعجائز والمطربين وغيرهم فكانوا ينهون إليه كل ما يقفون عليه من أحوال ذلك النجل حتى لا يخفى عليه شىء، وكان السلطان بذلك يطلع على كل شىء ومن ثم كان يؤنب الأمير فى رسائله وينبهه بنصائحه ١٢٢ فهو ولى عهده ويعرف أن سرير الملك سيكون له. وكما كان لأبيه عليه جواسيس فى السير كذلك كان لمسعود هو الآخر على أبيه مثلهم لينهوا إليه كل ما يجرى، وكان من جملة أولئك نوشتكين الخاصة، أقرب المقربين إلى السلطان محمود، وعمته الأميرة الحرة الختلية. فانتقل إلى السلطان خبر هذا البيت المصور على غرار الألفية وبينوا علامة عليه بقولهم: بعد المرور بالسراى العدنانى يوجد بستان واسع وعلى يمينه حوض كبير وهذا البيت على حافة الحوض من الجهة اليسرى، وهو مقفل الأبواب ليلا ونهاراً بقفلين أحدهما من أعلى والآخر من أسفل ولا يفتح إلا حينما يذهب إليه الأمير مسعود للنوم ومفاتيحهما فى يد غلام يدعى بشارت.

ولما وقف السلطان على هذا الخبر، جاء إلى الخركاه وقت القيلولة؛ وحدث نوشتكين الخاصة الخادم بهذا الحديث وأمره أن يدعو فلانا الفارس الذى كان فذا فى ركوب الخيل والعدو ليستعد حتى يوفد فى مهمة إلى جهة ما ويسرع فى الذهاب ويعرف حال هذا البيت، وينبغى أن لا يعلم بذلك أحد.

فقال نوشتكين «سمعاً وطاعة» ونام السلطان وعاد هذا إلى وثاقه فعين فارساً من مهرة فرسانه ومعه ثلاثة خيول من نجائب نسله واتفق معه أن يذهب سراً فى ستة أيام بلياليها إلى الأمير مسعود بهراة وكتب رقعة بخطه للأمير

يبين فيهـــا الأحوال وقال سيصل بعـــد هذا بيوم ونصف فارس من لدن السلطان ليشاهد ذلك البيت ، وأن هذا الفارس لن يهاب أحداً ، وسيذهب من فوره ليكسر الأقفال . فعلى الأمير أن يبـــادر بتلافى كل ذلك بما ينبغى .

سار ذلك المارد يعدو بفرسه حالا شطر هراة ، ثم أرسل نوشتكين يدعو الفارس الذى عهد إليه من قبل السلطان بالسير إلى هراة فجاء فى أتم استعداد .

واستيقظ السلطان محمود بين الصلاتين وأدى صلاة الظهر ، ثم أرسل يستدعى نوشتكين وسأله « هل حضر الفارس » فأجاب نوشتكين « إنه الآن فى وثاق » فقال «هات الدواة والقرطاس » فقدمهما نوشتكين ، وكتب السلطان بيده الكتاب المفتوح[1] ١٢٣ الآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، يأمر محمود بن سبكتكين ، هـذا الفارس أن يذهب فى ثمانية أيام إلى هراة ، على أن يذهب فور وصوله إليها إلى قصر ولدى مسعود ولا يهابن أحداً ، وليسل سيفه ويضرب عنق كل من يحاول منعه من الوصول إلى ذلك المكان ، كما يجب عليه أن يدخل القصر ولا يلتفتن إلى ولدى ، فيدخل من السراى العدنانى إلى البستان الداخلى فيجد إلى يمين البستان حوضا على صفته اليسرى بيت فليلجن البيت ويمعن بدقة فى جدرانه ، وينظر له بدقة[2] ، ثم ينقلب عائدا دون توان إلى غزنة ولا يكلمن أحداً وعلى قتلغ تكين بهشتى الحاجب[3] أن ينفذ هذا الأمر ، إن يريد حياته ، أما إن تمهل فى ذلك فستزهق

---

(١) كشاده نامه والمقصود به نامه سر كشاده مثل الفرمانات والمنشورات . غنى — فياض حاشية ٣ .

(٢) در جنرى ديدن اى ينظر اليه بدقة . غنى — فياض حاشية ٤ .

(٣) حاكم هراة من قبل السلطان محمود فى ذلك الحين .

روحه ، وعليه كذلك أن يمد الفارس بكل ماينبغى له من العون والإمداد ، حتى يقع له ذلك موقع الرضى ، بمشيئة الله وعونه والسلام » .

وبعد أن تم تحرير هذه الرسالة أدنى الفارس منه . وختمها بخاتمة ثم سلمها إليه وقال : « يجب عليك أن تصل إلى هراة فى ثمانية أيام وأن تفعل كذا وكذا وأن تكتشف ما ذكر من الأحوال وأن تخفى هذا الحديث » فقبل الفارس الأرض وهو يقول « سمعا وطاعة » ورجع ثم قال السلطان لنوشتكين الخاصة يجب أن تعطى أحد الجياد السريعة لهذا الفارس من الاصطبل مع خمسة آلاف درهم . فخرج نوشتكين وأمضى النهار بطوله[1] بحجة انتقاء[2] الجواد وتسليم الفضة إلى الليل وسلمها ليد الفارس ، فذهب مسرعا .

وكان فارس نوشتكين المغوار قد وصل إلى هراة فى الوقت الذى عين له بالضبط وقرأ الأمير مسعود الرقعة ، ثم أمر بإنزال الفارس فى مكان ما ؛ كما أمر فأحضروا ١٢٤ فورا الجصاصين فبيضوا الجدار بالجص الأبيض الناصع ، بحيث يظن أنه لم يكن قط أى نقش على هذا الجدار ، ثم أسدلت الستائر وأحكمت ، وأغلقوا الأبواب ، فلم يدر أحد شيئا عن حقيقة ما كان .

وعقب وصول فارس نوشتكين ، دخل المدينة فى وضح النهار الساعى الموفد من قبل السلطان ، وقد وافق ذلك اليوم الثامن ، وكان الأمير مسعود مجتمعا بالندماء فى صفة السراى العدنانى كما كان الحاجب قتلغ تكين هو وسائر الحجـــاب وأهل المراتب والحشم جميعاً على باب السراى ، وما أن وصل الساعى حتى ترجل عن حصانه واستل سيفه وتأبط دبوسه ، وترك الجواد ، فنهض إليه فوراً قتلغ تكين وخاطبه قائلا : ما شأنك ؟ فلم يجبه بشىء وسلمه

(١) فى النص روزرا ى‌سوختند تاشام را ، أى أمضى اليوم عبثا ، حتى صلاة المغرب .
(٢) فى النص به گزين كردن .

الرسالة ثم دخل السراى . فقرأ قتلغ الرسالة ثم قدمها إلى الأمير مسعود قائلا : ماذا يجب أن نعمل ؟ فأجاب الأمير : ينبغى تنفيذ أى أمر . وانتشرت الهزاهز[1] فى القصر .

وسار الفارس إلى باب ذلك البيت ، فوضع الدبوس وحطم القفلين وفتح الباب ودخل الغرفة ، فرآها نظيفة بيضاء وقد أسدلت ستائرها ، فخرج وقبل الأرض بين يدى الأمير مسعود ، وقال : ليس بد للعبيد من الطاعة فلم يكن ما بدر منى تجاوزا عن الأدب إلا بأمر من السلطان محمود ، هذا وقد أمرت أن أعود فى الوقت الذى أشاهد فيه هذا البيت ، وأنى الآن عائد . فقال الأمير مسعود : لقد أتيت فى الوقت المقرر ، ونفذت أوامر السلطان الوالد فامكث الآن يوما واحدا بأمر منا إذ من الممكن أن يكونوا قد أخطأوا فى ذكر مكان البيت فيرشدونك إلى كافة القصور والبيوت والغرف . فقال : سأمتثل هـــذا الأمر ولو أنى لم أومر بذلك . ثم ركب الأمير وأمر أن يسير جميع سكان القصور إلى بستان بيلاب وكان على فرسخين من هراة فى بقعـــة حصينة يسكن فيها مع أتباعه ١٢٥ وذهب الخدم والغلمان ، وما أن أخليت الدور والقصور حتى أخذ قتلغ تكين بهشتى والمشرف وصاحب البريد يطوفون بالفارس فى كل مكان ، ومن ثم أقر بأنه لا توجد ثمة أى غرفة لها من الأوصاف ما أنهوه إلى السلطان ، وحررت محاضر بواقع الحال وأعطوا الفارس عشرة آلاف درهم ثم صرفوه ، وعاد الأمير مسعود رضى الله عنه إلى هراة .

وبعد أن رجع الفارس إلى غزنه ذكر كل ما جرى هنالك ، وقرئت الرسائل . فقال السلطان محمود رحمة الله عليه : إنهم يلفقون ضد ولدى الأكاذيب . وكف بعد ذلك عن النظر أو البحث فى أمثال هذه الأمور .

(١) الهزهزة والهزاهز تحريك البلايا للناس والحروب .

وقد مارس الأمير مسعود ، أيام صباه وصدر شبابه ، أنواع الرياضات المختلفة كالمصارعة وحمل الأحجار الثقيلة والمبارزة ، كما أوعز ببناء أماكن خاصة[١] لإيواء الحواصل وغيرها من الطيور ؛ ولقد شاهدته عدة مرات يركب فى أيام باردة عصيبة ، وقد بلغ الثلج غايته ، حيث يمارس الصيد هنالك ، ثم يترجل ويسير على الأرض ، وقد احتمل إلى وقت الصلاتين من المتاعب ما لا يحتمله غير الحجر الصلد ، فكان يلبس الخف عارى القدمين فى سورة برد الشتاء القارس وهو يردد قوله : ينبغى التعود على مثل ذلك ، حتى لا يعجز المرء إذا ما قابلته مهام صعاب أو ساعات شداد . وكذلك كان يذهب إلى ختن اسفزار وَأَذْرِشْكَن[٢] ومنها إلى فراه وزيركاه وشيرنر[٣] ، ثم يعود إلى بست وغزنة . وكان يبارز الأسد وحده ولا يأذن للعبيد أو الخدم فى أن يساعدوه بشىء . وكان من قوة القلب ورباطة الجأش بحيث كان إذا ضرب أسدا ضربة ولم تؤثر فيه برز إلى الأسد برجولة ١٢٦ مكابرا حتى يقبض عليه ثم يقضى عليه فورا . وفى الأيام التى مرت عليه وهو يسير إلى ناحية مولتان ليقيم فيها منفيا من قبل والده السلطان نتيجة لما حيك ضده من الدسائس، وهى قصة طويلة فى تلك الأيام بارز أسدا فى حدود قيقان[٤] رغم أنه كان مصابا بالحمى[٥] وكان من عاداته فى صيد الأسود أن يمسك بحربة[٦] قصيرة مثبتة

(١) آوارها . وقد ترجمناها بأماكن خاصة . وذهب غنى ـ فياض إلى ذكر ما جاء فى حاشية ب من أنها اسم آلة تستخدم لصيد الطيور . انظر الحاشية ١ .

(٢) مدينة شرق اسفزار .

(٣) كلمة شيرنر غامضة وذهب غنى ـ فياض إلى أنها خطأ . حاشية ٤ وعندنا أن المرئى قد يقصد منها صيد السباع .

(٤) يعنى ولاية كيكان بالفارسية ، والمقصود بها هنا ولاية فى السند بجانب خراسان . غنى ـ فياض حاشية ٢ .

(٥) تب جهارم . وهى حمى الربع وهى قسم من حمى النوبة . اصطلاح طبى قديم . انظر جهار مقاله . بالعربية لعزام والخشاب ص ٧٥ .

(٦) خشق ـ وخشت حربة قصيرة تشبه الرمح . انظر غنى ـ فياض حاشية ٤ .

إلى يد قوية ورمح حتى إذا لم يصب الأسد بالحربة القصيرة ، تلقاه بالرمح الآخر وأوقف الأسد فى مكانه . وكان فى كل ذلك يعتمد على قوة بأسه ومضاء عزيمته ، فيدور مدة بالأسد حول الرمح حتى ينهكه تعبا ويسقطه ، وقد يكون الأسد قويا ، شرساً ، فيأمر عند ذلك الغلمان بمساعدته ، فيحملون معه على الأسد ويضربونه بالسيوف والطبرزين[1] . ولكن الأسد تزحزح عن مكانه فى ذلك اليوم فلم يصب المضرب القصير رأسه ، فضربه الأمير فى صدره ضربة عميقة بالرمح الآخر ، بيد أن الأمير لما كان فيه من ضعف الحمى لم يستطع تثبيت الرمح فى موضعه ، وكان الأسد كبير الجسم خفيف الحركة عظيم القوة ، فكسر الرمح وقصد الأمير فأنزل الأمير الباسل القوى الشكيمة ضربة بكلتى يديه على رأس الأسد ووجهه فحطم الأسد وسقط ، ثم أخذ الأمير يضغط عليه وهو ينادى الغلمان فبادر إليه غلام سيف اسمه قماش ، ويدعوه أهل البلاط جاندار[2] ، فضرب الأسد بسيفه ضربة قوية أجهزت عليه . وقد أثار هذا دهشة الحاضرين وحيرتهم فصدقوا ما جاء فى الكتب عن شدة بأس بهرام كور ورباطة جأشه .

أما بعد ذلك فقد بلغ الأمير من القوة والصلابة بحيث أخذ يمارس الصيد على ظهور الفيلة وقد شاهدته مرة يصطاد فى حدود الهند وهو راكب على فيل غشى وجهه بالحديد كما هى العادة وإذا بأسد هائل يخرج إليه من الأكمة ويهجم على الفيل . فصوب الأمير مضربا أصاب صدر الأسد فجرحه جرحا بالغا جعله يهتاج من شدة الألم فوثب وثبة وقع ١٢٧ بها على ظهر الفيل ، فاضطرب الفيل ، ونهض الأمير على ركبتيه وضرب الأسد بسيفه ضربة أطاحت يديه فخر الأسد على ركبتيه ميتا . واعترف كل من شهدوا هذا بأنهم لم يروا مثل تلك الشجاعة من أحد .

---

(١) ناجخ — نوع من الطبرزين . غز — فياض حاشية ٥ .

(٢) يعنى الجرىء .

وقبل أن يتبوأ سرير الملك وكان يقصد هراه ، سار يوما[1] للتنزه ، فقتل فى يوم واحد ثمانية من الأسود ، واصطاد واحدا بالوهق وعند ما نزل من الخيمة مال إلى التراب ، وكنت أنا ، عبد الغفـــار ، إذ ذاك واقفا ، ودار الحديث حول تلك الأسود ، فأخذ كل يبدى الثناء وطلب الخواجة أبو سهل الزوزنى دواة وقرطاسا ونظم أبياتا من الشعر لطيفة للغاية كعادته فقد كان فريد عصره فى اللغة من الشعر والأدب ، وراقت الأمير تلك الأبيات واستحسنها كما أعجب الجميع بها ونسخوها وكذلك نسختها أيضا ولكنى فقدتها فلا أذكر منها الآن غير أبيات علقت بذهنى ورغم أنها غير متتالية[2] فسأذكرها لتنتهى بها هذه القصة .

والأبيات للشيخ أبى سهل الزوزنى فى مدح السلطان الأعظم مسعود ابن محمود رضى الله عنهما « شعر » :

السيف والرمح والنشاب والوتر ... غنيت عنها وحاكى رأيك القدر

ما إن نهضت لأمر عز مطلبه ... إلا انثنيت وفى أظفارك الظفر

من كان يصطاد فى ركض ثمانية ... من الضراغم هانت عنده البشر

إذا طلعت فلا شمس ولا قمـــر ... وإذا سمحت فلا بحــــر ولا مطر

وقد قال هذا السيد صدقا ، فتلك الصفات بل أكثر منها ، كانت من مزايا هذا السلطان لجاه الشعر درا جميلا ، فلم يكن هذا الشعر مصداق ما يقولون « أحسن الشعر أكذبه » .

أما شجاعته وقوة قلبه وجرأته فكانت كما قدمنا ، وأما سخاؤه فكان

---

(١) العبارة هنا فى النص الفارسى معناها « ساريوما » ويرى المصححان الفارسيان أنها محل تأمل ، وترى أن المقصود « تصيد يوما » .

(٢) استخدم برولى — وفسرها غنى — قياس على التوالى . حاشية ٢ .

بحيث أعطى ١٢٨ ذات ليلة تاجرا يدعى أبو مطيع السجزى ستة عشر ألف دينار ، ولهذه الصلة حكاية فقد كان أبو مطيع هذا رجلا ذا مال ، عنده من كل شيء ، وكان أبوه يدعى أبو أحمد خليل ومن المصادفات الطيبة انه أتى إلى القصر ليلة ليقابل الحاجب فى مهمة تخصه فمكث هنالك طويلا ، ولما أراد أن يعود إلى داره خشى أن يصادفه فى الطريق مايزعج خاطره فقضى الليل فى دهليز الخاصة ، ولما كان معروفا لدىّ فقد أكرموا وفادته واستقر هنالك ولاطفه العرفاء ، وفى تلك الأثناء جاء خادم يطلب محدثاً وصادف أن لم يكن هنالك وقتئـــذ أحد من المحدثين ، فنهض ذلك الرجل النبيل أى أبى أحمد وذهب مع الغلام وظن الخادم أنه المحدث فلما وصلا إلى سرادق السلطان ، بادر أبو أحمد بالحديث . واستغرب السلطان صوته ، فنظر خلسة فعرف الرجل ولكنه لم يقل شيئا ، حتى انتهى من حديثه الذى كان لطيفاً عذباً ، فسأله السلطان « من أنت » فأجاب « أنا العبد أبو أحمد خليل ، والد أبى مطيع شريك مولانا » فسأله السلطان « ما مقدار المحصولات التى سلمها المستوفون فى هذه السنوات لابنك » فأجاب « تبلغ ستة عشر ألف دينار » فقال السلطان لقد وهبت المبلغ كله احتراما لشيخوختك وتقديراً لنجلك » فدعا الشيخ له دعاء حارا ، ثم عاد إلى مقامه وكانوا قد أتوا بغلام تركى من غلمان ابنه ليشتريه السلطان . فقال السلطان : أعطوه هذا العبد أيضاً ، لأننا لا نريد ولا نجيز أن يدخل شيء بماله فى ملكنا . وليس اعظم من ذلك همة ومروءة . وقد أكرم بأكثر من هذا رجلا يدعى مانك على ميمون ، وكان مانك هذا من أعيان غزنة وأثريائها وقد ترك بعد وفاته أموالا وأوقافا كثيرة ، منها الرباط الذى يقيم فيه الخواجة الإمام أبو صادق التبانى أدام الله بقاءه ، وسيأتى ذكر هذا الإمام بالتفصيل فى موضعه إن شاء الله عز وجل .

أما قصة مانك مع الأمير فهى أنه كان يجهز كل عام صنوفا من شتى الأطعمة

والأدام[1] اللذيذ ويهديها إلى السلطان محمود رحمة الله عليه . فأول ما وصل الملك ١٢٩ السلطان مسعود ، وقدم من بلخ إلى غزنة أهداه أنواعا من الأطعمة المجهزة والأقمشة القطنية التي حاكتها فضليات النساء . وسر السلطان بتلك الهدايا وعطف عليه وقال إن كل الأغنام التي عنده لأبي وهبتها له . كما ينبغي أن تسلم له أغنامنا الخاصة التي جاء بها من هراة ليرعاها . ويجب التساهل معه في حساب تلك الأغنام لتدر عليه فائدة تامة لأنه رجل صالح وممن يعول عليهم . وقد بادروا سريعاً إلى تنفيذ هذه الأوامر . وفي السنة التالية سار السلطان إلى بلخ للنظر في المهام التي سنذكرها بعد ، فأرسل مانك على ميمون جريا على عادته ، كثيرا من النقل والمأكولات بالإضافة إلى القديد[2] وغيره ، وطلب من صديقه ميكائيل البزاز أن يحملها إلى السلطان وأرسل معها قائمة الحساب مبينا بها أنه قد بقي في ذمته خمسون ألف دينار وستة عشر ألفاً من الأغنام ، وقد التمس أن يعهد إلى شخص آخر بالأغنام السلطانية التي لديه ، لأنه أصبح شيخا هرما لا يستطيع الاستمرار في تعهدها على أن يمنح مهلة ثلاث سنوات يستطيع خلالها أداء ما في ذمته منجما . وقد كنت — أعني عبد الغفار — واقفاً عنـــدما تقدم ميكائيل البزاز بذلك النقل والأطعمة المجهزة ورفعوا أغطية الأواني وأخرجوا منها النقل ولطيف المأكولات ، فشاهدت ميكائيل يعرض القائمة مع القصة على السلطان فأشار السلطان إليّ لأتسلمها منه وأقرأها فأخذتها وقرأتهـــا ، فضحك وهو يقول « إن لمانك حقاً كبيرا على أسرتنا وقد وهبت له هذه الأغنام

(١) كامها وقد شرحها غني ـ فياض وآثرنا ترجمتها على هذا النحو . حاشية ٧ .

(٢) أشار غني ـ فياض إلى أن أهل تركستان وأفغانستان يأكلون القديد حتى اليوم . فهم يحفظون اللحم في أشهر الصيف حتى إذا حل الشتاء وأحاط بهم الثلج أكلوا ما اختزنوا منه حاشية ١ .

وذلك الريع فليذهب عبد الغفار إلى ديوان الاستيفاء فيخبر المستوفين ليسقطوا ما فى ذمته من أموال » فكتبت بهـذا المنى أمرا وقعه وقد ارتفع شأن مانك لهذا السبب . ولعمرى لا تظهر أمثال هذه المواهب إلا من أصحاب الهمم العالية والصدور الواسعة ، ألا فليتغمدن الله ذلك الملك العظيم .

وهنالك قصة أخرى ، أجل وأعظم من هذه ، مع أبى سعيد سهل الذى كان ١٣٠ يشغل منصب كتخدا وصاحب ديوان العرض فترة ما للأمير نصر أخى السلطان محمود تغمدهم الله برحمته . وقد عهد السلطان محمود إليه ، بعد أن توفى الأمير نصر ، بالقيام على شئون ضياع غزنة كلها ، وقد كان هذا العمل ، من حيث أهميته ، يعدل عمل صاحب الديوان فى غزنة ، واستمر أبو سعيد فى هذه الخدمة مدة طويلة ، إلى أن توفى السلطان محمود فأسند إليه السلطان مسعود عمل صاحب الديوان بالإضافة إلى عمله فى مباشرة الضياع السلطانية ، وقد ظل خمسة عشر عاما فى مراقبة هذه الشئون إلى أن أمر السلطان يوما بمحاسبته فحاسبه المستوفون فبلغت الأموال سبعة عشر ألف ألف درهم ، ولم يكن لديه من أمواله الخاصة سوى ألف ألف درهم ، فأخذ الجميع يتساءلون عما ستؤول إليه حال أبى سعيد مع ما فى ذمته من هذا المال الكثير ، وقد كان هذا لأنهم شاهدوا ما كان يتخذه السلطان محمود من الشدة ، كالضرب بالسياط وقطع الأيدى والأرجل والتعذيب أثناء محاسبة معد لدار عامل هرات وأبى سعيد الخاص صاحب غزنة وعامل كرديز[1] . إلا أن السلطان مسعود كان واسع الرحمة كثير الحياء ، وفضلا عن ذلك فإن أبا سعيد كان قد أدى له خدمات خالصة أثناء مباشرته ضياعه الخاصة على عهد السلطان محمود ، فلما عرض عليه الأمر وعرف أن فى ذمة أبى سعيد كل هذا المال العظيم أمر بإحضار طاهر المستوفى

(١) بلدة بين غزنة والهند (ياقوت) حاشية ٤ من غنى — فياض .

وأبي سعيد وقال ، ينبغى أن تبينا لى حقيقة هـذه الحال . فأخذ طاهر يوضح الحساب للسلطان بابا بابا ، حتى ظهر من ذلك أن أبا سعيد لا يملك إلا ألف ألف درهم وما يبقى فى ذمته وهو ستة عشر ألف ألف درهم لا يظهر لها أثر فى أى مكان . ومن المسلم به أن أبا سعيد مكلف بدفع هذه المبالغ من أمو اله الخاصة .

فخاطب السلطان أبا سعيد بقوله : ما تقول فى هذا الأمر ؟ فقال : أدام الله حياة السلطان إن أعمال غزنة كبحر عميق لا حد لغوره ، وأقسم بالله وبحياة السلطان انى لم أخنه فى شيء وهذا الباقى من عدة سنين وهذا الريع هو من حق مولاى على عبده ۱۳۱ . فقال السلطان « لقد وهبتك هذ المـال ، لأن لك هذا الحق ، فقم واذهب إلى دارك سالما » فبكى أبو سعيد من شدة الفرح متوجعا . وقال له طاهر المستوفى « ليس هنا مكان للحزن والبكاء ، بل هنا مقام الشكر والسرور » فرد أبو سعيد قائلا « إنى أبكى لأننا نخدم ملكا على هذه المنزلة العظيمة من الحلم والصفح والعطف علينا ، ترى ماذا كانت أحوالنا تكون إذا لم يكن يشملنا بهذه العناية والرأفة » . فأثنى السلطان عليه وعاد . ليس لأحد همة أعلى من هذه . وقد ذهبوا جميعا رحمة الله عليهم أجمعين .

أما هبات السلطان وصلاته للشعراء فإنها لا تحصى ، فقد وهب فى ليلة للشاعر علوى الزينبى ما يساوى فيل وار [1] أى ألف ألف من الدراهم التى يبلغ عيار كل عشرة منها تسعة دراهم ونصف من خالص الفضة ، وأمر أن تحمل هذه الجائزة الكبيرة على فيل إلى دار العلوى المذكور . أما هباته التى كانت من ألف دينار أو خمسمائة دينار أو عشرة آلاف درهم أو أقل أو أكثر من ذلك فلم يكن لها عد أو حصر ، وكثيرا ما كان يهبها للشعراء والندماء والخدم إذ كان يتحين

(۱) الظاهر أن هذه الكلمة تدل على أكبر الأوزان المتعارفة فى ذلك العصر .

الفرص ليهبهم شيئاً . وقد كانت هباته فى أول عهده بلا حساب ، ولكن . تلك الرياح تراخت فى آخر أيامه قليلا ومن عادات الزمان أن شيئاً لا يبقى على حال واحدة ، إذ كل الأشياء عرضة للتغيير والتبديل والنقص والكمال .

وكذلك كان السلطان مسعود آية زمانه فى الحلم والعفو ، فقد جاء مرة إلى غزنة وعلم أن الخدم قد صدرت منهم أخطاء كثيرة وذنوب لا يجوز الصفح عنها فقال السلطان لحاجب السراى « يجب أن يجلد هؤلاء العشرون فراشا عشرين جلدة » فظن الحاجب أن السلطان يأمر بعشرين جلدة لكل منهم ، وبدأوا يضربون أحدهم خارج الدار فأخذ يصيح مستغيثاً بعد جلدات ثلاث . فقال السلطان . لقد أمرنا أن يجلد كل منهم جلدة واحدة وقد صفحنا عنهم فلا تضربوهم فنجوا جميعا ، ولعمرى إن هذا لغاية الحلم والكرم ، وما أحسن العفو عند المقدرة ١٣٢ .

وعندما قصد السلطان محمود الرى من جرجان وأقر ما ينبغى إقراره بين ولديه الأميرين محمد ومسعود ، وطلب فى ذلك اليوم أن يؤتى للأمير محمد بالجواد الخاص بأمير خراسان على باب القصر ، فركبه عائدا إلى نيسابور وسار الأميران محمود ومسعود ، الوالد والولد ، إلى الرى فى اليوم التالى . فلما استقرت الأحوال هنالك وعقد السلطان محمود النية على العودة خلع على مسعود ، وأرسل إليه أبا الحسن العقيلى يبلغه قوله « إنى كما سمعت قد أمرت أن يحضروا لنجلنا « الأمير محمد » جواد أمير خراسان على باب قصرنا ، وأنت اليوم خليفتنا فى هذه البلاد ، ولك بشئونها معرفة واسعة فأى شىء تختار لنفسك ، هل تفضل أن يوصف جوادك بجواد الشاهنشاه أو يعرف بجواد أمير العراق ؟ » فلما سمع الأمير مسعود مقالة والده قبل الأرض ثم جلس ، وهو يقول « قل لمولانا كيف يمكن أن أشكر رعايته الشاملة ، فإنه يمن على كل يوم بمكرمة ويشرفنى بمنحة لم تخطر بالبال . ولا يرجى من الملوك إلا أن يبذلوا لأبنائهم كل يوم عناية جليلة ، ويتكرموا

عليهم بالألقاب السنية منذ ولادتهم هذا وينبغي على الأبناء أن يتهيأوا للخدمة عنـــدما يبلغون سن الرشد ليرتفع صيتهم . وقد منّ مولاى علىّ بأعظم منة إذ سمانى مسعود والأعظم من ذلك أنه على وزن اسمه محمود دامت حياته . واليوم إذ أبتعد عن خدمة مولاى ورؤيتــــه امتثالا للأمر أرى لزاما أن يبقى بهذا الاسم حتى يتفضل على كل يوم بكرمة جديدة . وإذا أراد الله أن أدعى بذلك الاسم ، فسأبلغ بفضل مولاى » وقد كنت أنا ، عبد الغفار ، حاضرا عندما رد الأمير بهذا الجواب ثم سمعت بعد ذلك أن السلطان محمود اعتراه الخجل عند سماعه هذا الجواب وتأثر به وقال ما معناه لقد أحسن القول أيما إحسان فالرجل كل الرجل من يشتهر بالفضل .

وحينما سار السلطان ونجله رضى الله عنهما من جرجان إلى الرى ، ١٣٣ كان فى الخدمة نفر من غلمان السلطان محمود مثل قاى أغلن وأرسلان وحاجب جابك ممن نالوا بعد ذلك منصب الحجابة فى عهد السلطان مسعود رضى الله عنه ، وقد اتفق نفر من السرهنكية ورؤساء الغلمان[1] سرا مع الأمير الطفل الذى كان على رأس غوغاء غلمان القصر فأخذوا يبدون له الخضوع والولاء ويبلغونه مشافهات بواسطة فراش يروح ويغدو وبينهم ، وكان السلطان محمـود قد استمع إلى قليل من تلك المشافهات ، لأن الأمير محمد كان لديه أناس يعملون خفية على التحرى والتحقيق فى أعمـال أخيه وكانوا يعملون دائما على إساءة سمعة الأمير مسعود لدى والده .

وقد عزم السلطان الأب يوما على اعتقال الأمير مسعود فى منزل من منازل الطريق يعرف بحاشت خواران وحضر الأمير مسعود عند صلاة العصر

---

(١) سر وثاقان ، مفردها سر وثاق أى رئيس عنبر من عنابر الغلمان أو رئيس الغلمان عامة وعبر عنه نظام الملك فى سياستنامه بكلمة وثاقباشى (لا وشاقباشى) أنظر ص ١٢٩ من سياستنامه نشر إقبال طبعة طهران ، حاشية ٣ .

لزيارة والده ومكث ساعة وقام عائدا فأتاه أبو الحسن الكرخى[1] يقول له إن مولانا يأمرك أن لا تعود ، وأن تمكث فى خيمة النوبة هنا ، لأنا عازمون على الشراب ونحن نريد أن تشرب معنا ، لتنال هـذه الحظوة . فجلس الأمير مسعود فى خيمة النوبة مسرورا بهـذا التشريف العظيم ، وجاء على التو ذلك الفراش العجوز برسالة الغلمان : ينبغى أن يكون الأمير يقظا ، إذ يبدو أن السلطان الأب يقصدك بشىء . فقلق الأمير مسعود لذلك قلقا شديدا ، وأوعز فى الحال إلى خواص غلمانه أن كونوا يقظين وأسرجوا الجياد واحملوا السلاح لأن الأحوال تستدعى ذلك . فطفق هؤلاء يتحركون ، وأخذ غلمان السلطان محمود يلغطون ، وعم الذعر أركان المعسكر . وأطلعوا السلطان محمود فى الحال على ما جرى فبهت لأنه عرف أن غرضه لن يتم وأن شرا يصعب تلافيه قد يقع. فأرسل أبا الحسن العقيلى إلى ولده قبيل المغرب يقول له : لقد كنا عازمين على أن نجلس اليوم للشراب على أن تشاركنا فيه ، ولكن أمامنا مهمة كبيرة والوقت غير مناسب . فارجع الآن بالسعادة إلى مقامك ، ويرجأ هذا إلى حين وصولنا الرى وبعد الوصول ثمة سالمين إليها تنال هذا التشريف .

١٣٤ فقبل الأمير مسعود الأرض وعاد مسرورا ، وجاء الفراش العجوز مسرعا برسالة الغلمان يقولون ، انتهى الأمر بكل خير ، وكنا قد صممنا على أن نثير فتنة إذا قصدوا الأمير بسوء فإن عددا كبيرا من الغلمـان قد التحقوا بنا وهم رهن إشارتنا . فأبدى الأمير مسعود عليهم العطف ووعدهم بالحسنى وانتهت الأحوال بسلام . وبعد ذلك جلس السلطان محمود عدة مرات للشراب فى عرض الطريق وكذلك فى الرى ولم يستطع إشراك هذا النجل فى الشراب ، فتحدث الأمير مسعود فى الخلوة إلى عبيده وثقاته قائلا سرا : لقد أرادنى أبى بسوء ولم يرد الله ذلك .

---

(١) هكذا فى جميع النسخ ، وذكره صاحب تتمة اليتيمة بالجيم الكرجى (ج ٢ ص ٩٧)

ونزل السلطان محمود ، عندما وصلوا إلى الرى ، فى موضع دولاب قرب المدينة على طريق طبرستان بينما أقام الأمير مسعود معسكره فى « على آباد » على طريق قزوين فكانت المسافة بين المعسكرين نصف فرسخ ، واشتد الحر هنالك وركد الهواء فقضى الأكابر والزعماء القيلولة فى السراديب وأعدوا للأمير مسعود سردابا لطيفا واسعا قضى فيه الوقت من الضحى حتى صلاة العصر ينام ويلهو ويشرب سرا ويأمر بتدبير شئونه الخاصة ، فجاء ، فى يوم[1] قائظ غلمان السلطان محمود ومقدموه أولئك مشاة متنكرين فى الثياب الكرباسية التى تستخدم أثناء المطر وعلى رؤوسهم العمائم إلى حيث نزل الأمير مسعود وكان الوقت ظهرا وقد بلغ الحر أشده فاستقدمهم فيروز الوزيرى الخادم الخبير بهذه الأسرار إلى حضرة الأمير فى السرداب فأدوا مراسم الخدمة فلاطفهم الأمير وأكرمهم ووعدهم بالحسنى ، فقالوا : أطال الله حيـــاة مولانا إن السلطان الوالد يضمر لكم السوء ويبغى القبض عليك إلا أنه يخشى أن يفعل ذلك لعلمه بأن القوم قد ملوا حكمه ، وأن أقدامه على ذلك ربما يؤدى إلى مكروه عظيم فإن يأمر مولانا والعبيد والغلمان كلهم على اتفاق فى حبك قبضنا عليه فيفرغ فؤادك وتستريح من هذا الهم فإنا إذا ثرنا انضم إلينا الآخرون فأجاب الأمير : إنى لا أطيق ١٣٥ التفكير فى هذا الكلام ، فكيف بالعمل به ، ان للسلطان محمود أبى وأنا لا أتحمل أن تعصف ريح عاتية لتأنيبه وأنا مرتاح فإنه ملك لا نظير له فى العالم ، ولو أن شيئا من هذا تم والعياذ بالله ، للحقنا عار لا تمحى آثاره إلى يوم القيامة ، ولعمرى فقد شاخ وطعن فى السن وأخذ منه الضعف مأخذا وانى لأرجو من الله بقاءه ولا أتوقع منكم شـــيئا غير الوفاء ببيعتى عندما يأتيه الأجل المحتوم المقدر لكل ذى روح فى هذا العالم » ثم أمرنى أنا عبد الغفار ، بأن أستحلفهم وأطلب إليهم أن يعودوا إلى حيث أتوا .

---

(١) كرمكاه .

وكانت بين الأمير مسعود وأمير طبرستان منوجهر قابوس والى جرجان وطبرستان مراسلات متصلة سرية للغاية إبان وجوده فى هراة وفى هذه الأيام أيضا ، وكان قد أرسل إلى حضرة الأمير مسعود رجلا يدعى حسن ليقوم بوظيفة المحدث ، ويسلم المشافهات والرسائل ويحملها بين آونة وأخرى ، وكلما أوفده إلى جرجان تذرع بحجة أنه ذاهب للإتيـــان ببذور الرياحين[١] والموالح من الفاكهة[٢] وغيرها . وقد ذهب هذا المحدث عندما كان السلطان محمود وابنه مسعود بجرجان وقد عزما على السفر منها إلى الرى إلى مقر منوجهر قابوس بأستراباد[٣] ، فأرجعه منوجهر ومعه رجل من ثقاته يشبه الأعراب ويرتدى زيهم وكان جلدا منطيقا ، وقد أرسل معه الكثير من أنواع الطرف والهدايا من جرجان ودهستان[٤] وجملة من الرسائل والكتب المرسلة سرا من منوجهر للأمير مسعود وذلك فضلا عما كان قد أرسله إلى السلطان محمود نفسه . وقد تردد معتمداه ، أى هـــذا المحدث وصاحبه ، مرة أو مرتين وانتهى الأمر بمنوجهر إلى أن طلب من الأمير مسعود عهدا وميثاقا كما هى العادة بين الملوك .

وفى أحد ليالى تلك الأيام السعيدة جاء بعد صلاة العشاء الموكل بالستار الذى ١٣٦ يشغل الآن ، أى فى عهد السلطان المعظم أبو شجاع فرخ زاد بن ناصر دين الله منصب كوتوال قلعة سكاوند[٥] ، يدعونى أنا عبد الغفـــار وقد أدركت أنه إنما أتى لمهمة فأعددت العدة لكل ما يقتضى ذلك ، وذهبت معه

---

(١) سپرغم وهو الريحان وكل خضرة ذكية الرائحة . غنى ــ فياض حاشية ٢ .

(٢) هكذا ترجمنا قول البيهقى ترنج وطبقها .

(٣) فى النص ستار آباد وهو شكل آخر لكلمة استرآباد . غنى ــ فياض حاشية ٤ .

(٤) تطلق كلمة دهستان على أماكن عدة . والمقصود بها هنا الناحية المطلة على بحر الخزر والمتصلة بجرجان . وضبطها ياقوت بكسر الدال . والمستشرقون ينسبونها إلى دها وهو اسم طائفة ، ويضبطونها لذلك بالفتح . غنى ــ فياض حاشية ٥ .

(٥) كانت سكاوند بلدة صغيرة من أعمال باميان .

إلى الأمير فوجدته جالسا وحده على سرير فى السرادق وأمامه المحبرة والقرطاس وقد وقف فى حضرته كَوهر آيين الخازن الذى كان آنئذ من خواصه فأشار إلىّ بالجلوس بعد أن أديت له التحية والاحترام فجلست ، وقال لكَوهر آيين : إعط عبد الغفار الدواة والقرطاس . فوضعهما أمامى وخرج من السرادق . ثم رمى الأمير إلى بصورة العهد وكان قد نسخه بنفسه فى أسلوب بديع يعجز عن مثله أقدر الكتاب (وقد ذكر أبو الفضل صورا من أمثال هذه العهود فى مواضع مختلفة من تاريخه[1] فتأملت النسخة وإذا هى « يقول مسعود بن محمود إنى أقسم باليمين الذى يقسم بها فى العهود ، أنه ما دام الأمير الجليل فلك المعالى أبو منصور منوجهر بن قابوس وفيا بالشروط (ثم يعدد الشروط كلها بأحسن أسلوب وترتيب) .

فلما أتممت اطلاعى على صورة العهد أحسست كأنما قد صبوا على طستاملينا بالنيران وارتعدت فرائصى خوفا من سطوة السلطان محمود ، وجمدت فى مكانى . فأدرك الأمير ما بى فقال « ماذا دهاك » فسكت ، قال : وكيف ترى هذه الوثيقة ؟ فقلت : أطال الله حياة مولانا لا يستطيع أى أستاذ كاتب كتابتها على النحو الذى حرره مولانا ولكن هناك مالا أستطيع التنويه به وأخشى أن لا يقع موقعاً حسناً » إلا أن يأذن الأمير فقال « تكلم » فقلت « لا يخفى على مولانا أن منوجهر بن يخشون بأس السلطان الوالد الذى هو اليوم فى حال ظاهرة من الضعف يشعر بدنو أجله وقد بلغ هذا الأمر إلى مسامع الملوك ١٣٧ وعصاة الأطراف الذين يخشونه فهم الآن ينتهزون الفرصة للانتقام ، وقد تأكد لديهم أن الأمير محمد لن يستطيع النهوض بأعباء الملك بعد وفاة السلطان ولن يكون لحكمه ثبات وهم يخشون بأسك فإن سطوتك وهيبتك متمكنة فى نفوسهم ،

---

(١) الظاهر أن هذه الجملة الاعتراضية من كلام البيهقى نفسه ، ادمجها فى مقاله عبد الغفار .

ولن ينالوا منك شيئا. وكيف يؤمن أن لا يرسل منوجهر هذا العهد الذى يزينه توقيكم إلى السلطان تزلفا فتثور بذلك فتنة يحصل بها على مراده ويأمن على نفسه. هذ ويدبر الملوك كثيرا من الحيل عندما يدركون أنهم لا يستطيعون نوال شيء بالعداء جهرا فيتذرعون بالحيل والدسائس تحقيقا لأغراضهم. وإن لم يأت منوجهر مثل هذه الخيانة فإن السلطان محمود ذكى يعد لكل أمر عدته وقد وكل بالأمير الجواسيس والعيون، ووضع المنهين والمخبرين فى الطرق والمعابر فإذا قبضوا على حامل هذه الوثيقة واطلع السلطان عليها، فماذا يا ترى يكون الجواب عنها ؟ فقال الأمير مسعود إنك لعلى حق فيما تقول ومنوجهر إنما يسعى للحصول على هذا العهد لأنه يعلم أن شمس حياة أبى قد آذنت بالمغيب وهو يريد أن يوطد صلاته بنا، فإنه شيخ ذكى محنك، وإنى لأستحيى من عدم إجابته إلى طلبته مع ما قدم إلى من أياد وخدمات. فقلت: لعل الصواب أن يكتب إليه مالا يؤدى إلى غضب السلطان محمود إذا ما وقع فى يده. فقال وبأى أسلوب تفضل أن يكون تحريره. فقلت « أرى الصواب فى أن يكتب له أن الأمير واصلنا بالرسائل وتشبث بنا وتقرب إلينا عارضاً خدماته الصادقة وقد طلب أن يكون بيننا عهد، ونحن نرى أن نجيبه إلى ذلك لأنا لا نرى أن نرفض دعوة سيد يخطب ودنا ولكن حيث انى ولى عهد السلطان محمود ونجله المطيع فلا يمكننى أن أبرم عهدا دون علم أبى. ولو أنى فعلت غير ذلك لكنت ممن يعيبهم صديق الأمير أولا وكافة الناس من بعده وكيف لا ألبى طلبه وأتقاعس بينما هذا عهد واجب الوفاء، ثم كتبت العهد كما يلى:

١٣٨ نسخة العهد

« يقول مسعود بن محمود، أنه ما دام الأمير الجليل المنصور منوجهر بن قابوس مطيعا لمولانا السلطان المعظم أبى القاسم محمود ناصر دين الله أطال الله

بقاءه منفذا أوامره مؤديا الخراج له مقيما على احترام شروط العهود التى بذمته والتى أكدها بالأيمان المغلظة وأشهد على نفسه أن يحافظ عليها وألا يغير منها شيئا فإنى أقسم لأكونن له فى السر والعلانيـــة خِلّا وفياً بقلبى ونيتى وعقيدتى فأصادق أصدقاءه وأعادى أعداءه وأخالفهم وأقدم له مؤازرتى ومعونتى وشرائط الوحدة وأرعى جميل النوبه فى حضرة مولانا السلطان الوالد وأزيل كل خلاف أسمعه أو أراه فى المجلس السلطانى بالنسبة اليه ، وأسير معه على هذا النهج فيما إذا أمر السلطان الوالد أن أقيم من قبله فى الرى ، فأوافق على كل ما يكون فى صالح الولاية والأسرة ، وما يهم البلاد والعباد ، وأستمر معه على هذا العهد ما دام يحمل مطاوعا له مراعيا إياه، ولأكونن بريئا من الله عز وجل خارجا من حوله وقوته ، داخلا فى حولى وقوتى ، فيما إذا أخللت بالعهود ، أو حنثت بهذه الأيمان . كما أنى أكون بريئاً من ولاية النبيين والمرسلين إن خالفت ما أقول . وكتب بتاريخ كذا ومن هذا العهد على هذا المنوال ثم أرسله إلى منوجهر فتقبله بقبول حسن واطمأن إليه قلبه[1] . فينبغى والحالة هذه أن تتدبر ما كان عليه عبد الغفار من رعاية لمصالح هذا الأمير النجل وإخلاص له وولاء . وها أنذا وقد فرغت من سرد هذه القصص أعود إلى استئناف الحديث من أصل التاريخ .

ذكرت فى المجلد الخامس أن الأمير مسعود رضى الله عنه وصل إلى بلخ فى يوم الأحد من منتصف شهر ذى الحجة سنة إحدى وعشرين وأربعمائة (١٠٣٠) وقد بادر إلى الاشتغال بشئون الملك فصارت الدنيا وكأنها العروس المجلاة ١٣٩ وسارت الأمور على نسق واحد وركن الأولياء والحشم والرعايا لطاعته ولم يبق ثمت خلاف فى أمر من الأمور .

---

(١) الظاهر أن مقالة عبد الغفار الـكاتب تنتهي هنا .

وأخذت شئون الديوان تسير بتدبير الحاجب غازى إذ كان سپهسالار وله ولايتا بلخ وسمنجان وكان كتخداه سعيد الصراف يراقبه سراً ويبلغ خفية كل ما يجرى على يده من أمور . وكان يحضر كل يوم إلى الدركاه للخدمة بالديالمة الذين كانوا يمشون أمامه بما يقرب من ثلاثين من الدروع الفضية والذهبية يقدمهم نفر من الحجاب متمنطقين بالمناطق وعلى رءوسهم قبعات سود. وخلفه ثلاثون غلاماً يحمل كل منهم نوعاً خاصاً من المهمات . ولم أر خوارزمشاه أو أرسلان جاذب أو غيرهما من مقدمى السلطان محمود يأتون فى مثل هذا الموكب إلى الدركاه ، وكانوا يأتون بجواده إلى السراى الخارجى فى بلخ ، كالرسم مع الأمير مسعود ومحمد ويوسف من قبل ، ويظل فى الإيوان جالساً إلى أن يؤذن بالاستقبال بينما كان على دايه وأقارب السلطان وأكابر القادة يجلسون فى تلك الصفة المستطيلة فى السراى فيضطرون حين يمر بهم الغازى إلى القيام جميعا لتحيته وإن كانوا يضيقون ذرعاً لرؤيته على تلك الحال ، فقد عرفوه من قبل وضيعاً فكانوا يغارون منه ، ويتقولون عليه الأقاويل ولكن دون جدوى فإن العالم يدور حول الملوك فمن يرفعونه يرتفع ولا حق لغيرهم فى الاعتراض عليهم بشىء . وقد قال المأمون فى هذا المعنى : « نحن الدنيا من رفعناه ارتفع ومن وضعناه اتّضع » وقد قرأت فى أخبار الرؤساء أن أشناس الذى كان يدعى بالأفشين عاد إلى بغداد بعد أن تم له الانتصار فى الحرب على بابك الخرمى فأمر أمير المؤمنين رضى الله عنه أصحاب المراتب العالية كافة بالترجل عن خيولهم حينما يبـــدو لهم أشناس احتراما وأن يظلوا هكذا مترجلين إلى اللحظة التى يتم له فيها مقابلة الخليفة ، ولقد أذعن الحسن بن سهل مع ما كان له من رفيع المنزلة للأمر فترجل لأشناس ورآه حاجبه يمشى وخطواته تتعثر أثناء سيره فبكى ، فرآه الحسن ولم يقل شيئاً . فلما عادا سأل الحاجب : « لماذا كنت تبكى ؟ » فأجاب : ما كنت لأحتمل أن أراك على هذا

الجبال ١٤٠ ، فقال له الحسن : « أى بنى ، لقد رفعنا هؤلاء الملوك ولم نرفعهم نحن فليس لنا منهم إلا الطاعة ما دمنا فى خدمتهم » . وكانت هذه الاعتراضات والأقوال تصل إلى الغازى فيضحك منها ولا يأبه بها إذ كانت نفحة السلطان محمود تلعب برأسه ، فقد أسند إليه عمل رجل كأرسلان جاذب لأنه رآه أليق من غيره لهذا العمل .

وقد أشرت إلى هذا الحديث فى تاريخ اليمينى وذكرت حكاية نادرة آثرتها بالذكر هنا للاطلاع عليها فإن التاريخ يزدان بأمثال هذه الحكايات .

حكاية الفضل بن سهل ذى الرياستين

مع حسين بن مصعب

قيل إن الفضل بن سهل وزير الخليفة المأمون عاتب يوماً بمرو حسين ابن مصعب والد طاهر ذى اليمينين فقال له : « لقد تغير ابنك طاهر واغتر فنسى نفسه » فأجاب حسين : « أيها الوزير ، إنى شيخ وعبد مطيع لهذه الدولة، وأعرف أنكم تعتقدون فى نصحى وتقدرون إخلاصى وولدى طاهر أكثر عبودية وطاعة منى ولى جواب بسيط فى شأنه بيد أنه لا يخلو من الغلظة وشدة التأثير ، فإن أذنت عرضته عليك » فقال : « قد أذنت » فرد حسين قائلا : « أيد الله الوزير لقد اختاره أمير المؤمنين أحقر مواليه وخدمه وشق صدره وأخرج قلبه الضعيف ووضع بدله قلباً استطاع به أن يقتل أخا خليفة كمحمد ابن زبيدة ، ومنحه فضلا عن ذلك القلب القوى والجنود والمعدات ، واليوم هل تتوقع أن يكون كما كان من قبل وقد بلغ هذه المكانة العالية والمنزلة الرفيعة ؟ وان يكون ذلك بأى حال إلى أن ترده إلى حيث كان ، هذا كل ما أعلم والأمر إليك» . فسكت الفضل بن سهل وقد أخذته الحيرة فلم يدر ماذا يقول . ثم بلغ

هذا الحديث مسامع المأمون فأعجبه جواب حسن بن مصعب أيما إعجاب وقال : لعمرى لقد كان سرورى بهذا الجواب أكثر من سرورى لما تم على يد ابنه من فتح بغداد . وفوض إليه ولاية بوشنج[١] إذ كان يعيش فيها .

هذا والحديث ذو شجون بشأن لقب ذى الرياستين الذى كان للفضل بن سهل ، وذى ١٤١ اليمينين الذى كان يعرف به طاهر ، وذى القلمين الذى كان لصاحب ديوان رسائل المأمون ، وسأورد فى ذلك قصة طويلة حتى يعرف ذلك كل من لا علم له : بعد أن قتل محمد بن زبيدة ووصلت الخلافة إلى المأمون ، ظل مقيما بمرو أكثر من سنتين وتلك قصة طويلة ؛ فأراد الفضل بن سهل الوزير أن يحوّل الخلافة عن العباسيين إلى العلويين ، فقال للمأمون إنك قد نذرت بمشهد منى أن تختار أحد العلويين وليا للعهد إن كفاك الله تعالى أمر أخيك وصرت خليفة ، وهى وإن كانت لن تستقر لهم فإنك إن وفيت بنذرك تبرىء ذمتك . فقال المأمون: حسن جدا ، فمن الذى أختاره وليا للعهد . فقال الفضل : ذاك على بن موسى الرضا إمام العصر الذى يقيم الآن بمدينة الرسول . فقال المأمون : فينبغى أن يوفد شخص إلى طاهر سرا وأن يكتب إليه إننا مزمعون كذا وكذا ليرسل هو شخصا يأتى بعلى من المدينة ، ثم يبايعه خفية ويوفده مكرما إلى مرو ، حتى يعلن هنا أمر البيعة وولاية العهد . فقال الفضل : ينبغى أن يكتب أمير المؤمنين بخطه ملطفة إلى طاهر . فطلب من فوره دواة وقرطاسا وكتب هذه الملطفة ودفعها إلى الفضل . وعاد الفضل إلى داره وجلس مختليا حيث كتب كل ما ينبغى كتابته وأعد العدة ، وأرسل معتمدا إلى طاهر ، مع هذه الأوامر . فسر طاهر بهذا الحديث سرورا بالغا . ولما كان من ميله إلى العلويين فقد مهد الأمور على أحسن ما يكون وعين معتمدا من بطانته ليسير مع

---

(١) بوشنج مدينة كانت بالقرب من هراة .

معتمد المأمون. فذهب كلاهما إلى المدينة فاختليا بالرضا وعرضا عليه الرسالة وأبلغاه المشافهات . ولكن الرضا استكره قبول هذا الأمر لأنه كان يعلم أنه لن يتحقق ،بيد أنه وافق إذ لم يكن يستطيع لأمر المأمون رفضا .فسافرخفية متنكرا إلى بغداد حيث أنزلوه مقاما كريما وبعد ان استراح أسبوعا وافاه طاهر ليلا فى غاية الخفاء وأدى له الخدمة وبالغ فى احترامه والتواضع له ثم عرض عليه تلك الملطفة التى كانت بخط المأمون وهو يقول: إنى أول من يبايعك بأمر من مولاى أمير المؤمنين وإذ أبايعك هذه البيعة يبايعك معى ١٤٢ مئة ألف فارس وراجل يأتمرون بأمرى . فمد الرضا روّحه الله يده اليمنى ليتقبل البيعة كالمعتاد إلا أن طاهرا مد يده اليسرى فسأله الرضا : ما هذا ؟ فأجاب : إن يمناى مشغولة ببيعة مولاى أمير المؤمنين ويسراى فارغة ولذلك قدمتهـــا إليك . فأعجب الرضا بهذا الجواب وتقبل منه البيعة . وفى اليوم التالى أوفد الرضا فى موكب حافل فأتى إلى مرو ؛ فلما زالت عنه وعثاء الطريق حضر المأمون لزيارته ليلا وبصحبته الفضل. وكان لقاؤهما حارا ، وأثنى الرضا على طاهر ثناء عاطرا. وذكر قصة البيعة واليد اليسرى .

فسر المأمون بذلك كثيرا وأعجب بما فعل طاهر أيما إعجاب ثم قال : أيها الإمام إن تلك اليد هى أول يد لمست يدك المباركة وأنا اعتبرها اليد اليمنى . ولهذا اشتهر طاهر بذى اليمينين وظهر بعد ذلك أمر الرضا واتخذه المأمون وليا لعهده ، وترك الأعلام السود واتخذ اللون الأخضر شعارا . ونقش اسم الرضا على الدينار والدرهم وطراز الكسى وشاع الأمر . وقد قال المأمون للرضا : ينبغى أن تتخذ وزيرا وكاتبا يقومان بأعمالك . فقال : الرضا يا أمير المؤمنين إن الفضل بن سهل لجدير وترضينى كتخدائيته ، وأختار على بن سعيد صاحب ديوان رسائل الخليفة لكتابة رسائلى. وأعجب المأمون اختيار الإمام فأمر بإسناد

هذين المنصبين لهذين الرجلين ، ومن ثم لقب الفضل بذى الرياستين ، وعلى بن سعيد بصاحب القلمين .

وقد كان غرضى مما ذكرت أن أورد سبب هذه الألقاب الثلاثة ، هذا وللحكاية تفاصيل طويلة أعرض عنها وقد ورد ذكرها فى مختلف كتب التاريخ .

أصبح ظل الحاجب غازى ثقيلا كالجبل على قلوب جماعة السلطان محمود إذ كان شأنه آخذا فى العلو فارتفعت مرتبته وازدادت هيبته يوما بعد يوم وغمره السلطان مسعود رضى الله عنه بعطفه فأصبح أنيسه وجليسه يتناول وإياه الطعام ويجالسه فى مجال الشراب ويخلع عليه فى جميع المناسبات سنى الخلع . ومع أن الغازى لم يكن حتى ذلك الحين قد ذاق طعم الشراب فإنه لم يكن بين الرجال من هو أدهى أو أعلم منه ، وكان محسّدا من الجميع ١٤٣ وقد أعد لنفسه ألف فارس مجهزين بكامل العدة . غير أن المحموديين لم يكفوا عن تدبير الحيل والمكائد ، فما زالوا حتى أتوا به إلى غزنة ، وسأذكر خبر ذلك فى موضعه المناسب فليس الآن وقته .

وكان السلطان يتكلم معه فى شئون الجيش جميعا وكان دون غيره يستطيع التوسط فى شئون الجند . وهكذا أصبح الغازى قبلة للجميع فكان يعود من القصر كل يوم تحفه كوكبة عظيمة . وكانت أيدى المحموديين إذ ذاك لا تنفك عن العمل على الوقيعة به فكانوا يحملون الناس على إنهاء الأخبار الملفقة فى شأنه ، ولكن السلطان لم يكن ليصغى إليها ولم يكن ليخفى عليه مثل هذه الأمور . هذا ولم يقرأ أحد عن ملك أو يرملكا أكثر منه إدراكا وكرما وحلما ، إلى أن اتفق أن جلس يوما للشراب وكان قد أمضى الليلة عاكفا عليه ، وفى الصباح استقبل الوافدين فى الإيوان الكبير فتقدم الحجاب كعادتهم يتبعهم الأعيان طبقا للترتيب الخاص ، وبينما هم بين جالس وقائم ، إذ دخل الغازى من باب القصر ،

وكانت المسافة طويلة بينه وبين الإيوان ، فأمر السلطان اثنين من الحجاب بقوله : اذهبا واستقبلا السپهسالار. ولم يكن ليخطر ببال أحد أن يكون لأى سپهسالار مثل هذه المنزلة. فذهب الحاجبان وقابلا الغازى وسط السراى ، وكان قد وصل إليه نفر قبل الحاجبين وبشروه بذلك ، فلما وصل إليه الحاجبان نكس رأسه وقبّل الأرض ، فأخذا بساعديه وأجلساه مكرماً والتفت إليه السلطان وهو يقول : إن القائد منا بمنزلة الأخ ، وإنا لن ننسى ما أداه ويؤديه من خدمات منذ بلوغنا نيسابور حتى الآن ، ولئن أدينا بعض حقوقه علينا ، فقد بقى أكثرها ، وسنؤدى له على الأيام . وإنا نسمع أن زمرة يضيقون بمقامك فى القيادة ويدبرون لك المكايد ، فلو أنهم أرادوا أن يدسوا دسائسهم ليشغلوا خاطرنا فلا تأبه بهم فإن مقامك لدينا ما تسمع وترى . فنهض الغازى من مكانه ١٤٤ متأثراً وقبل الأرض وهو يقول : إنى لا أخشى أحداً ما دمت مشمولا برعاية السلطان . وأمر السلطان فأتوا بقبائه الخاص وألقوه على كتفه ، فنهض وارتداه ، وأمر السلطان أن يأتوا بمنطقة للصيد مرصعة بالجواهر ، ثم أدناه إليه وشدها إلى وسطه بيده الكريمة ، فقبّل الأرض . ثم عاد فى أبهة لم يخطر على بال أحد مثلها .

أما أستاذى أبو نصر فقد بقى فى هراة كسير القلب كما أشرت إلى ذلك قبل . وكان السلطان قد استماله وطيب خاطره عدة مرات ليقوى قلبه . وقد نال فى هذه الأيام عطفاً كبيراً فى بلخ ، ومع ما بلغ طاهر من رفيع المنزلة فى ديوان الرسائل فإن عناية الناس ظلت منصرفة إلى مراجعة أستاذى فى أكثر المطالب ، فقد رأوا طاهراً يوماً يقف بين يدى أبى نصر ، إبان نيابة الأخير فى عهد هذا السلطان فى وكالة البلاط وكان الطارم أمام ديواننا أما الأستاذ العميد أبو سهل أدام الله تأييده وكان صاحب ديوان الرسائل أيام

السلطان العظيم الناصر أدام الله تأييده لدين الله أبي شجاع فرخ زاد أدام الله دولته وأبو سهل الهمدانى [1] الذى خدم أبوه الوزراء العظام وهو لم يزل على قيد الحياة عزيزا مكرما وأخوه أبو القاسم النيسابورى [2] الأستاذ الكبير وأبو محمد الدرغارى [3] المدعو أديبك صاحب اليد الطولى فى الشعر والأدب وإن كان قصير الباع فى الكتابة والإنشاء فقد كانوا جميعا يجلسون إلى الجانب الأيسر من مجلس طاهر وكانوا يضعون أمام طاهر محبرة كبيرة فخمة من الفضة المغلفة بالديباج الأسود .

وكان أبو الحسن الكاتب العراقى قلما يجلس فى الديوان بل كان يقضى جل أوقاته ١٤٥ فى الخدمة لدى السلطان ، ومع أنه يحمل لقب الكاتب [4] فقد كان له حظوة تامة لدى السلطان . وقد اتفق أن حضر هذا الكاتب إلى الإيوان فى

---

(١) كذا فى نسختى مو و قا وفى بب « حدوى » وفى مج حدونى « وبعيد أن يكون المقصود هو أبو سهل الحدوى ، فقد كان له حتى الأمس القريب شغل الوزارة ، ثم تولى عمل الإشراف على المملكة ، كما سيأتي بعد فى الكتاب . فمن غير المحتمل أن يكون مثل هذا الشخص أحد الكتاب الخاضعين لطاهر ، ولكن يحتمل عند غنى — فياض أن يكون هذا الاسم قد أتى فى النصوص محرفا شأنه شأن غيره من الأسماء التى وردت محرفة ولعله « أبو العلاء الهمدانى » الذى ورد ذكره فى تتمة اليتيمة (ج ١ ص ١٠٧) وذلك لانطباق بعض الأوصاف المذكورة فى الكتاب عليه حاشية ١ .

(٢) هذه العبارة وهذا الاسم مجهولان لدى غنى — فياض . فمن يكون مرجع الضمير فى « وأخوه » ومن « أبو سهل الهمدانى » ، والمناسب ذكره هنا هو « أبو القاسم الطائى » (تتمة اليتيمة ج ١ ص ١٠٧) فقد قدم كما قدم الهمدانى وطاهر من الرى ، وعاد ثانية مع طاهر إلى الرى . أو يكون « أبو القاسم حريش » حاشية ٢ .

(٣) كذا فى قا وفى مو « غازى » وبب « داود بيك أبو محمد غازى » ، مج « أبو محمد » فقط ويقرب من اليقين لدى غنى — فياض أن « درغارى » و « غازى » كليهما محرف عن « دوغابادى » وأن « داود بيك » محرفة عن « أديبك » هذا والمقصود هو أبو محمد دوغابادى المذكور فى تتمة اليتيمه ج ٢ ص ١٨ . حاشية ٣ .

(٤) وردت « الكفاية » وظاهرا « الكتابه » .

يوم، كان الصدور فيه والكتاب يجلسون على تلك الهيئة التى وصفتها، فجلس إلى يمين الخواجة أبى نصر فى المقصورة فصار مجلسه بين هذين السيدين أمام الديوان وبدأ بالعمل وكان الآتون إلى الديوان من الأعيان أو غيرهم يبادرون بطبيعة الحال إلى الحديث مع أبى نصر حين يرونه، وكذلك كانوا إذا أرادوا كتابا أو رقعة يطلبونها منه أيضا. وكان الندماء الذين يحملون مشافهة من السلطان فى إحدى مهمات الملك يبلغونها لأبى نصر أيضا حتى استقام الأمر فى هذه الناحية وبقى أهل تلك الناحية يرون الأمور على هذا النحو اللهم إلا بعض من كان قد رأى طاهرا بالعراق فكانوا يراجعونه أحيانا لشفاعة أو إجازة، فكان طاهر يأمر أن يكتبوا له أو يتكلموا عنه. وبعد يومين أو ثلاثة من هذا الحال دعى السلطان أبا نصر فى ضحى يوم وكان قد سمع عن مجلسه فى الديوان، فقال له: ينبغى تسجيل أسماء الكتاب ممن كانوا معك أو ممن أتى معنا من الرى حتى نأمر بما يجب. فعاد أستاذى إلى الديوان وسجلت أسماء الطائفتين ثم تقدم بالقائمة فقام السلطان فقال: أخرج إسمى عبيد الله سبط أبى العباس الأسفراينى وأبى الفتح الحاتمى من هذه القائمة فإنا سوف نكل إليهما أعمالا أخرى.

فقال أبو نصر: أدام الله حياة مولانا لقد أمرنى الأمير محمد بإدخال عبيد الله إلى الديوان رعاية لسابقة جده، وهو شاب لبيب يكتب بخط جميل يفيد فى خدمة الديوان أما أبو الفتح الحاتمى فقد أمر مولانا بإدخاله إلى الديوان على عهد السلطان محمود لأنه نجل لعبدكم. فقال السلطان: «نعم إن الأمر كما تقول: ولكنهما كانا قد عينا من قبلنا للإشراف على ديوانك سابقا، وهما لا يليقان اليوم بالديوان» فأجاب أبو نصر «يا للغبن العظيم من أن أعرف هذا اليوم» فسأله السلطان: وماذا كنت تفعل لو أنك عرفت قبل ذلك؟

فأجاب : كنت أقصيهما عن الديوان فور علمى ، فإن الخائن لا يصلح للعمل فيه . فضحك السلطان وقال : ينبغى أن لا يعرفا بهذا الأمر ،كيلا يتأثرا بذلك.

١٤٦ ولعمرى ما شاهدت فى حياتى أكرم ولا أشفق منه ثم أضاف وسنأمر بما ينبغى ولكن ماذا كان يعمل عبيد الله . فقال أبو نصر : «صاحب بريد سرخس ، كما كان أبو الفتح صاحب بريد طخارستان » وأمر السلطان أبا نصر بالعودة فعاد ، وفى اليوم التالى كنا جميعاً وقوفا بين يدى السلطان عندما أذن بالاستقبال فنادى السلطان عبيد الله فخرج من الصف فقال له : «أتعمل فى ديوان الرسائل ؟ فأجاب : « نعم » فسأله : ماذا كان عملك فى عهد أبى ؟ فقال : كنت صاحب بريد سرخس . فقال السلطان : إنا نعيدك إلى ذلك العمل ثانية ، فينبغى أن لا تجلس فى الديوان لكثرة الزحام هنالك ، ولقد كان جدك وأبوك يزاولان هذه الخدمة من قبل ، وأنت تفيدنا فينبغى أن تكون مع الندماء فنفيد منك فى الوقت المناسب[1] . فقبل عبيد الله الأرض وعاد فى مكانه إلى الصف ، ثم نادى أبا الفتح الحاتمى ، فتقدم ، فقال السلطان : ينبغى أن يكون لبلخ وطخارستان مشرف كفء جدير[2] ، وقد اخترناك لذلك وسيبلغك عبدوس بما ينبغى من أوامرنا . فقبل هو الآخر الأرض ، وعاد إلى مكانه من الصف . ثم قال السلطان لأبى نصر: ينبغى أن يكتب منشوران لهذين حتى نوقعهما . فقال: «حسنا» . وانفض الاستقبال، وعاد أستاذى إلى الديوان، فحرر المنشورين وازدانا بالتوقيع ، وانقطع كلا الرجلين عن العمل فى الديوان دون أن يعرف أحد لذلك سببا ، أما أنا ، أبو الفضل، فقد سمعت كل ذلك من أستاذى . هذا وقد توفوا جميعا رحمة الله عليهم أجمعين . وصرفا عن أعمال الكتابة ومهامها وفوض عمل البريد فى سيستان إلى طاهر الكاتب ، وهذا العمل من المهام الكبيرة التى كان يقوم

(١) أى فى الديوان .

(٢) فى فا « داهى » .

بها الوزير حسنك من قبل وفوضت كتابة قهستان إلى أبي الحسن العراقى، ونظمت الحسابات فبلغت مرتباتهم سبعين ألف درهم فى كل شهر . فأى همة أعلى من تلك الهمة . أما الكتاب الناشئون ، وكانوا من قبل يخدمون دون أجر . فقد صرفت لهم مرتبات عن الأعمال أيضاً ، ولكن طاهر الكاتب كان كالمتردد لاختلال أعماله واعتراه الخجل . فلم يكن يحضر إلى الديوان إلا نادراً وإذا هو حضر يوما فسرعان ما كان يعود فيعكف على الشراب ، إذ كان ذا خير ومال كثير ١٤٧ فهو يملك عددا كبيراً من الغلمان الحسان وأبهة فائقة . واتفق أن أمر السلطان أن يختاروا أربعة من الرجال ويقوموا من قبله بأعمال الإشراف على المملكة كلها . وقال السلطان لطاهر ينبغى أن توعز من قبلنا إلى أبي نصر حتى يكتب المنشورات لهم . فجاء طاهر إلى أبي نصر وأخبره بالأمر ، فقال هذا : حسناً سأعد النسخ اللازمة . فانصرف طاهر مستاءا وأرسل حاجب داره إلى يبلغنى قوله : أريد أن أحدثك عن أمر هام ورسالة إلى أبي نصر فعرج علينا عند عودتك من الديوان فأخبرت أستاذى بذلك فقال اذهب . فسرت إليه بعد عودته من الديوان. وكانت داره فى حى سيمكران فى شارستان بلخ ، وإذا بى أرى دارا كالفردوس الأعلى ، مزدانة بأبهى زينة وأفخم رياش. وكان طاهر شهما كريما عالى الهمة فأجلسنى معه فى صدر الغرفة وصفوا أمامى ما لذ وطاب من شتى أنواع الطعام وأتى المطربون والندماء وأخذوا فى العزف والغناء، فأكلنا ثم انتقلنا إلى مجلس آخر كانوا قد أعدوه خصيصا للشراب وهناك رأيت من الترف والزخرف ما يفوق الحد والوصف وبدأنا فى الشراب وساد اللهو والغناء فلما أديرت الأقداح تقدم خازنه ووضع أمامى خمسة من الحلل الثمينة وكيسا يحتوى على خمسة آلاف درهم ثم قاموا ووزعوا أثر ذلك ما لا كثيرا وثيابا على الندماء والمغنيين والغلمان . فكلمنى طاهر همسا أثناء ذلك قائلا : إنى لا أنكر عظمة الخواجة العميد أبي نصر وتقدمه والمكانة التى نالها

من أمد بعيد ولكن الناس يتسابقون إلى حضرة السلطان بغية الحصول على الشهرة والجاه، وإني وإن كان لكلينا المقام الأول فى هذا الديوان لأقدره وأجله، وسوف يسند السلطان إلىّ عملا أكبر مما لى الآن فأتوقع من الأستاذ العميد أن يرعى جانبى كما أقر بفضله وأعترف بعظيم قدره ، وقد أمر السلطان اليوم بتحـــرير منشور المشرفين وتكلم فى ذلك معى ،ذلك لأنه والجميع يقرون بأنى أعرف من أبى نصر بالمعاملات والرسوم الديوانية وأعمالها وأموالها ولكنى آثرت أن أفوض الأمر إليه فعرضت عليه حرمة له كتابتهـــا وكان المتوقع أن يطلب إلى تحريرها فلما لم يفعل رجعت ١٤٨ متأثرا وإنما أتعبتك لأقول لك هذا كى تبلغه لو رأيت ذلك صوابا .

فطيبت خاطره وأجبته بما يقتضيه الحال ، ثم أديرت علينا الأقداح الكبيرة وانتهى اليوم ، فتفرقنا جميعا . وأرسل أستاذى يدعونى فجرا ، فذهبت إليـــه وسأل عن الحال فقصصت عليه كل ماجرى ، فضحك رضى الله عنه ، وقال : سأطلعك اليوم على حقيقة المعاملات والجهل بها . وانصرفت من لدنه ثم ركب إلى الديوان وسرت فى أثره . ومن عجيب ماجرى أنهم بعد أن أذنوا بالمثول التفت السلطان إلى أستاذى وقال : كنت قد أومرت إلى طاهر أن يتكلم معك بشأن منشورات الإشراف فهل أعددت نسخها ؟ فأجاب : « رتبت مسودة لأنسخها اليوم ليطلع عليها مولانا ومن ثم أحررها » فقال : « حسنا » وتغير وجه طاهر. وعدنا إلى الديوان فأخذ أبو نصر قلم الديوان وشرع يكتب وقد أجلسنى أمامه لأنسخ ما يكتب وامتد بنا العمل حتى صلاة الظهر وظهر المنشور بصورة أقر الصدور والأعيان بأنه ما رأى ولن يرى مثلها أحد فى معنى الإشراف أبدا ، وبيضته أنا بخط دقيق على ثلاث ورقات فحمله إلى السلطان وقرأه عليه فأعجب به غاية الإعجاب ، ونسخوا من ذلك المنشور نسخاً عديدة وبعد ذلك أقر طاهر بفضل أستاذى وعرف منزلته تماما ولم يعد يتكلم فى أمر

الكتابة أو يتدخل فيها إلى أن ذهب مع تاش فراش إلى العراق ورغم كل هذا فقد أرسلني إليه أستاذي لأبلغه رسالة طيبة فذهبت وأبلغته فطرب لذلك وسر للغاية . واتصلت بعد ذلك بينهما المراسلات والملاطفات واجتمع معاً وجلسا للشراب . وأستاذي ولو أنه كان كثير الانطواء على نفسه إلا أنهوأيم الحق كان يعد فريد زمانه فى مثل هذه الأبواب عليه رحمة الله ورضوانه .

ذكر تاريخ سنه اثنتين وعشرين وأربعمائة

١٠٣٠ — ١٠٣١

كان غرة محرم هذا العام يوم الثلاثاء فذهب السلطان مسعود رضى الله عنه فى هذا اليوم إلى الجوسق فى حى عبد الأعلى وسار إلى الحديقة ليقيم هنالك حيث١٤٩ أعدت الدواوين وأضيفت المبانى الكثيرة . وفى السنة التى ذهبت هنالك وجدت معالم تلك المبانى والدواوين والدهاليز قد تغيرت بأمر هذا السلطان فقد كانت معرفته فى فن البناء بحيث لم يكن لمعمار قدر إزاءه . وإن القصر الحديث الذى يشاهد اليوم فى غزنة لدليل كاف على ذلك ولم يكن بشادياخ نيسابور مدخل ولا ميدان نخططه بيده كما خطط قصرا نخما وعدة جواسق صغيرة وساحات ما تزال حتى الآن ماثله للعيان وأضاف إلى معسكر والده السلطان فى دشت جوكان يست مبانى كثيرة لم يزل بعضها باق للآن فكان هذا الملك آية فى كل شىء رحمة الله عليه .

وأرسلت من هراة رسالة سلطانية مع رجال أبى سهل الزوزنى باستدعاء الخواجة أحمد حسن إلى الدركاه .

وكان جنكى صاحب القلعة قد فك قيوده وكان [1] قد أفضى لأريارق

---

(١) أى الخواجة أحمد على — فياض حاشية ٧ .

الحاجب قائد الهند بأنهم شوهوا سمعتك لدى هذا السلطان والأولى بك أن تسافر معى ، فترى السلطان وأتكلم فى شأنك بما ينبغى حتى تعود مكرما بالخلعة إلى هنا فإن الأمور أصبحت على نهج واحد وجلس سيد كريم حليم كمسعود على سرير الملك فأنخدع [١] أريارق بهذ الكلام وسافر مع الخواجة ، وأدى له فى الطريق خدمات كثيرة لاتحصى ، فلم يكن أحد من الكتاب فى ذلك العهد يرقى لمنزلته [٢] فى الترسل والإنشاء وكان نجله الأكبر السيد الخواجة عبد الرازق معتقلا فى قلعة نندنه فأطلقه المدعو سارغ الشرابدار بأمر من أبيه ، وأتى به إلى حضرته وأثنى الإبن لدى الوالد على سارغ فأجابه الخواجة أجل وإنى لأكثر منك شكراً ثم قال للشرابدار فلتعودن الآن إلى نندنه إذ لاينبغى أن يترك ذلك الثغر شاغراً وسأذكر بعد أن أصل إلى الدركاه حالك وستنال ما يزيد فى شأنك ويرفع منزلتك . فعاد سارغ وسار الأستاذ الرئيس رويدا حتى إذا بلغ بلخ قدم لدى السلطان وأدى فروض الطاعة والاحترام فأحتفى السلطان به ولاطفه وحدثه بطيب الكلام فأدى الخدمة وعاد إلى الدار التى أعدت لنزوله حيث استراح ثلاثة أيام ثم جاء إلى القصر . وهنا يقول أبو الفضل البيهقى إنه بعد أن استراح هذا الرجل العظيم ، دارت الأحاديث فى شأن الوزراة بالمشافهات ولكنه لم يقبل ، وكان أبو سهل الزوزنى إذ ذاك ، هو الوسيط فى الأمر والمرجع الأول فى كل شىء ، من أخذ وعطاء ومصادرات ومواصفات وبيع وشراء وغير ذلك ، وكان السلطان أكثر ما يختلى به وبعبدوس اذ أختيرا من بين الجميع وإن كان كل منهما يبغض الآخر . أما أصحاب السلطان

---

(١) يعبر بقوله « جربك بجورد » وحربك هنا بمعنى الكذب الذى يشبه الصدق والبرهان والكلمة بهذا المعنى مصورة الأول . أما حين تكون بفتح أولها فيقصد بها قطعة من الخبز . عن — قباس حاشية ٩ .

محمود فقد كان جل ما يصبون إليه هو أن تمر عليهم الأيام بسلام . ولم أر قط أستاذى أبا نصر فى يوم أكثر حيرة وتفكراً منه فى تلك الأيام . وقد أجاب الخواجة أحمد حسن أبا سهل الزوزنى على مشافهاته إياه قائلا إنى قد كبرت ولا أستطيع القيام بهذا العمل أبداً وأبو سهل الحمدوى رجل كفء خبير ينبغى اختياره للعرض وأن تكون لك الوزارة وأما أنا فسأراقب المصالح عن بعد وأشير بما ينبغى . فقال أبو سهل إنى لا أتوقع من السلطان ذلك ولست أهلا لهذا العمل إذ لا قيمة لى . فرد عليه الخواجه بقوله : ياسبحان الله ، ألم تقم بكل تلك الأعمال ، ودبرت شئون الملك منذ أن قابلت السلطان فى دامغان ؟ واليوم وقد اعتلى السلطان سرير الملك وأخذت الأمور تسير على نهج واحد فأنت جدير بأن تكون أقدر من ذى قبل . وقد أجاب أبو سهل : نعم لقد قمت بكل ذلك إذا لم يكن أحد حاضرا للخدمة أما الآن وقد جاء سيد مثلك فأنى لى أو لأمثالى الجرأة وأى شأن يكون للذرة مع الشمس وكلنا باطل وقد أتى سيد مثلك بالحقيقة وكفت الأيدى جميعاً . فأجاب الخواجة حسنا إنا سنفكر فى ذلك . ثم عاد إلى داره وقد أرسل اليه خلال يومين أو ثلاثة بين الخمسين والستين من المشافهات فى هذا الباب ولكنه لم يستجب . وجاء يوما إلى الحضرة فلما هم بالانصراف ، استبقاه السلطان واختلى به وسأله : لماذا لم يتقبل الخواجة هذا العمل ؟ وهو يعلم أنه منا بمنزلة الوالد ٥١ وأن أمامنا مهاما عظيمة فلا ينبغى أن يبخل علينا بتدبيره وكفايته . فأجاب الخواجة إنى عبد مطيع وأنا مدين بالحياة بعد قضاء الله تعالى لفضل مولاى السلطان ولكننى أصبحت شيخا عاجزاً عن العمل فضلا عن أنى قد نذرت وأقسمت أيمانا مغلظة ألا أقوم بأى عمل وقد أصابنى نصب كثير . فقال السلطان إنا سنكفر عن يمينك فلا تصرن على الامتناع أكثر من هذا . فقال إن كان ولا بد من القبول فليأذن مولاى ليجلس عبده بالإيوان ويرسل مايعن له من

مشافهة على لسان ثقة إلى المجلس العالى ، ويسمع الجواب ، ثم أقوم بالأمر حسب الأمر العالى . فقال السلطان : حسنا وأى ثقة تختار ؟ فرد الخواجة : إن أبا سهل الزوزنى قائم الآن بالعمل ، فلعله من الصواب أن يتقدم أيضا أبو نصر مشكان فإنه رجـــل صدق ، فضلا عن أنه كان يحمل مشافهاتى فيما سبق . فقال السلطان حسنا جدا . وذهب الخواجة إلى ديوان الرسائل وجلسوا هنالك مختلين .

سمعت الخواجة أبا نصر مشكان يقول كنت قد هممت بالذهاب فأجلسنى قائلا لا تذهب ينبغى بقاؤك لحمل مشافهة إلى السلطان فإنه لا يدعنى حتى انحى زاوية إذ أن ما بقى من أيام فى حياتى أيام إنابة إلى الله لا أوقات وزارة .

فقلت : أدام الله حياة سيدنا ، إن ما رآه السلطان هو الأصوب ، ويستحسن ذلك العبيد ، ومن المسلم به أن قيام السيد بهذا الأمر يسبب له تعبا ، ولكن المهام كثيرة وإنجازها لا يمكن بغير حسن تدبير الخواجة وسداد رأيه . فقال : إنه لكذلك ولكنى أرى ثمت وزراء عديدين لا يخفى عليك أمرهم . فأجبت : نعم يوجد من على هذه المشاكلة ولكن لا مفر من الطاعة . ثم قلت له وما شأنى وهذه الأمور ؟ إن فى أبى سهل الكفاية وقد أتعبنى أمره وأعجزنى فأنا أفكر فى حيلة اعتزل بها . فأجابنى لا تفكر فى هذا ، فإنى أعتمد عليك . فأديت له واجب الاحترام ، ثم جاء أبو سهل بمشافهة من السلطان يقول فيها ، لقد عانى الخواجة أيام أبينا شتى المحن والآلام واحتمل اللوم الكثير ومن العجيب أنهم أبقوه حياً ، فصار بقاؤه ذخيرة لعهدنا ، فينبغى أن يقوم بهذا الأمر فإن فى ذلك تقديراً لحقك وسوف يأتمر بأمرك الكتاب والأعوان فتستقر وتنتظم الأمور . فقال الخواجة كنت قد نذرت أن لا أقوم بأى خدمة ولكن السلطان قد تفضل فقال سأكفر عن اليمين ، وقد آثرت

الطاعة أيضاً ، إلا أن هنالك شروطا لهذا العمل لو أن العبد طالبها جميعاً ، وأمر السلطان بها ، خرج عليّ كل هؤلاء الخدم وعادونى وأخذوا فى تلك الألاعيب التى حاكوها فى عهد السلطان الماضى فيوقعوننى بذلك فى محنة خطيرة ، وأنا الآن أعيش هانئا فارغ القلب ، إذ ليس لى ثمت أى خصم أو عدو ، وإن غضضت النظر عن تلك الشروط وقمت بالعمل بدونها أمسى خائناً وينسب إلىّ العجز وأكون مسئولا أمام الله تعالى وأمام السلطان كذلك فإذا وجب علىّ العمل فسألتمس منه الموافقة على الشروط جميعاً ، فإن أقرها ومكننى منها قمت بأداء الخدمة والنصح كما يقضى به الواجب . »

وذهب كلانا أبو نصر وأبو سهل لتبليغ السلطان قوله ، وقد قلت ونحن فى الطريق لأبى سهل : بما أنك الواسطة فى هذا الأمر فأى فائدة من وجودى ؟ فأجاب إن الخواجة هو الذى أرادك فلعله لا يعتمد علىّ . ولكنى رأيته متعضا لوجودى وعند مثولنا لدى الحضرة راعيت جانب الأدب ليبدأ أبو سهل فى الحديث فلما أخذ فيه اتجه السلطان إلىّ وطلب منى الكلام فضاقت نفس أبى سهل حرجا وشرحت المشافهة تماما . فقال السلطان إنى سأعهد إليه بجميع الأمور عدا اللهو والشراب والصولجان والحرب ، هذا وستجرى الأعمال فى الأشياء الأخرى بأمره وتدبيره ، ولن يكون من قبلنا أى اعتراض على رأيه ونظره . فعدت وأبلغت الجواب بيد أن أبا سهل بقى متألما رغم أنى كنت أقدمه فى كل شىء ولكن ما الحيلة وقد كان السلطان والخواجة كلاهما لا ينفكان عنى. وأجاب[1] بالسمع والطاعة قائلا : سوف أرى رأيى وأكتب شروطا لتعرض على الرأى العالى زاده الله علوا حتى يجيب عليها بخطه ويؤكدها بتوقيعه فيدار هذا العمل كما كان فى عهد السلطان الماضى . وأنت تعلم كيف استقامت الأمور

---

(١) أى الخواجة أحمد (غنى — فياض حاشية ٤)

فى ذلك العهد يا أبا نصر . فذهبنا إلى السلطان وبلغنا ١٥٣ مقالة الخواجة فقال: « حسنا ، يجب أن ينتهى الخواجة غداً من تمهيد الأعمال حتى يرتدى الخلعة بعد غد ».فأجبنا « نعم وسنبلغه ذلك وانصرفنا فنادانى السلطان أنا أبا نصر قائلا: عد إلينا بعد ذهاب الخواجة فإن لنا حديثاً معك . فقلت سمعاً وطاعة ودنوت من الخواجة وأخبرته بما كان ، ثم ذهب أبو سهل وبقيت أنا والخواجة فقلت: « أدام الله حياة مولاى ، لقد أبلغت أبا سهل أثناء الطريق فى أول مشافهة حملناها أن ليس لى شأن فى هذه الأمور مع وساطتك بالفعل. فأجابنى إنما دعاك الخواجة فلعله لا يثق بى. فقال الخواجة :نعم أردت أن يكون الواسطة بينى وبين السلطان رجلا مسلما لا يحرف الكلام ولا يكذب على عارفا بما ينبغى ، وهذا المغرور وزملاؤه يحسبون أنى إذا قمت بأعباء الوزارة ستذهب عنهم وزارتهم تلك المقنعة ، ولسوف أدق عنقه أولا حتى ينخلع روحه وكبده فيكف عن طلب الوزارة ،وكذلك سأفعل بالآخرين وإنى لعلى علم بأنه لن يستطيع صبرا وسيضيق بهذا الأمر ولقد فتح هذا السلطان الطريق لعرشه أمام كثير من الأذناب وزاد فى جرأتهم وسأقوم بما يجب من النصح والإرشاد حتى أرى ماذا يكون . ثم انصرف فذهبت إلى السلطان فسألنى ماذا يريد الخواجة أن يكتب ؟ فأجبت لقد جرت العادة إذا أرادوا أن يستوزروا عظيما بأن يكتب ذلك الوزير شروط عمله ، ويجيب عليها السلطان بخطه ويوقعها ويطلب فى آخرها إلى الله عز ذكره أن يرعى الوزير ، وأن يكون معها صورة القسم بشروطه التامة ليجرى على لسان الوزير وليذيلها بخطه ويشهد على نفسه أنه سيعمل بموجبها. فقال إذاً أكتب ما ينبغى كتابته فى جواب تلك الشروط وكذلك صيغة القسم حتى يتم غدا هذا الأمر ويرتدى الخواجة الخلعة بعد غد لأن الأمور كلها متوقفة . فقلت : سمعاً وطاعة . ثم انصرفت وأعددت هذه النسخ واختلى السلطان عند صلاة العصر ووقف عليها جميعاً فأعجبته . ثم جاء الخواجة فى اليوم التالى بعد الاستقبال وجلس

فى الإيوان مختليا بعد أن انتهى الاستقبال . وقدم أبو نصر وأبو سهل للسلطان الشروط ، فطلب المحبرة والقرطاس وكتب بخطه جواب الشروط واحدا بعد آخر ثم وقعها وكتب تحتها اليمين وجاؤا بها إلى الخواجة فلما قرأ الأجوبة نهض وقبل الأرض ودنى من السرير وقبل يد السلطان ، ١٥٤ ثم عاد وجلس فى مكانه، وقدم أبو نصر وأبو سهل صيغة القسم له وأجراها على لسانه ثم وقعها بخطه وأشهد أبا نصر وأبا سهل على نفسه ، وقد تلطف السلطان معه إزاء ذلك القسم ووعده بالحسنى وقبل الخواجة الأرض . فقال السلطان « عد إلينا غدا لنخلع عليك فإن الأمور متوقفة وأمامنا مهام كثيرة ينبغى إنجازها » فقال الخواجة « سمعاً وطاعة » وحملوا الشروط معه وأودعوا كتاب القسم الدوات خانة[1] . هذا وقد ذكرت صورة تلك الشروط وصيغة القسم فى كتاب المقامات المحمودية الذى ألفته ، ولذا عدلت عن ذكرها هنا خشية التطويل .

أيقن الجميع أن أمر الوزارة قد استتب فاستحوذ الخوف على القلوب إذ ليس القائم بأمر الوزارة رجلا صغيرا ولا سيما قلوب من كانت لهم سوابق فى إيذاء الخواجة ، أما أبو سهل الزوزنى فقد غلبه هوى لم يكن أشد منه وكان يتظاهر أمام الناس بأن هذه الوزارة إنما كانت له وأنه هو الذى استقدم الخواجة ، وكان العقلاء يعرفون أن الأمر ليس كما يقول ، فإن السلطان مسعود كان أعظم وأدهى وأكثر إدراكا من أن يرى الخواجة أحمد حسن أمامه ويقلد الوزارة غيره من الناس وهو الذى كان يعرف قدر كل شخص ومنزلته ومدى اقتداره على العمل ، والدليل الواضح على قولى أن السلطان كان يقول بعد وفاة الخواجة أحمد فى هراة لا يليق لمنصب الوزارة إلا الخواجة أحمد عبد الصمد رغم وجود تلك الجماعة . وسأشرح ذلك كله فى موضعه من

(١) يقصد بها ديوان الكتابة .

التـــاريخ . ولعمرى إن قولى فى أبى سهل ، ليس لأنه آلمنى وآذانى فإنه أى أبو سهل وكذلك كل القـــوم قد ذهبوا وقد أشرفت حياتى أنا الآخر على نهايتها ولكنى أقول الصدق وأعلم أن العقلاء ممن عركوا الدنيا لن يعترضوا على قولى ، ولن يعدوه تحاملا على أبى سهل ، هـــذا وجميع ما ذكرت فى هذه الأمور فى ذمتى وإنى لمستطيع أن أجيب عليـه والله عز ذكره يعصمنى وجميع المسلمين من الخطأ والزلل بمنه وفضله وسعة رحمته .

وحضر الخواجة فى اليوم التالى لتسع خلون من شهر صفر من هذا العـــام ١٥٥ إلى الدركاه وتقدم نحو الحضرة يتبعه الوجوه والأعيان والمقدمون والأكابر والموالى والحشم وأدوا جميعا فروض الطاعة ثم التفت السلطان نحو الخواجة وقال له « يجب أن ترتدى خلعة الوزارة فإن أمامنا مهاما كثيرة وكذلك ينبغى أن تعلم أن الخواجة خليفتنا فى كل ما تؤول إليه مصالح البلاد وإشارته وأمره نافذان فى كافة الشئون وليس لأحد أن يعترض على ما يراه » فقبل الخواجة الأرض وقال « سمعا وطاعة » ثم أشار السلطان إلى كبير الحجاب بلكاتكين[1] ، ليذهب بالخواجة إلى خزانة الملابس حيث مكث حتى الضحى منتظرا حلول الساعة السعيدة التى حددها المنجم الفلكى[2] لارتداء الخلعة وكان الموالى والحشم جميعا حضورا[3] فى انتظار عودته إلى البلاط وهم بين واقف وجالس . ارتدى الخواجة الخلعـــة وقد كنت أنا أعنى أبا الفضـــل أشاهد آنذاك ما يجرى فاست أقول الآن إلا ما رأيته وقتئذ بعينى أو من مذكراتى وتقويمى وكانت الخلعة مكونة من قباء

---

(١) بلكا ، بكسر الباء وسكون اللام فى اللغة التركية بمعنى « حكيم وعالم » (عن ديوان لغات الترك) غنى ــ فياض حاشية ١ .

(٢) فى قامج جاسوس منجم الفلك .

(٣) كذا فى بب مج وفى فا « مصطحبين » وفى مو « فى الديوان » وكلها صحيح (غنى ــ فياض حاشية ٣) .

سقلاطونى بغدادى ناصع البياض ، عليه نقوش دقيقة بديعة كبيرة مقصبة نادرة ولكنها لطيفة دقيقة الطراز مرتفعة القيمةوسلسلة ضخمة ومنطقة تزن ألف مثقال ، مرصعة بالفيروز . وكان الحاجب بلكاتكين جالسا على باب خزانة الملابس فلما خرج الخواجة قام مهنئا إياه ، وقدم إليه دينارا ومنديلا وفصين من الفيروز الثمين ركبا فى خاتم وهم ليدنو منه ، فخاطبه الخواجة قائلا : بحياة السلطان ورأسه تنح عنى ، ولتقل للحجاب أن يتنحوا عنى كذلك . فأجابه بلكاتكين لا ينبغى أن يطلب إلى الأستاذ الرئيس هذا الأمر ، وهو يعلم إخلاصى له وفضلا عن ذلك فإنه يرتدى خلعة سيدنا السلطان التى توجب علينا رعاية حرمتها ، ثم تقدم إلى الخواجة ومعه حاجبان آخران وكثير من أصحاب الرتب .ولقب أحد غلمان الخواجة بلقب الحجابة وألبس قباء ملونا لأن الرسم يقضى أن يدخل حجاب الوزراء عليهم بالسواد . وعندما توسط الخواجة الدار ، استقبله بقية الحجاب وذهبوا به إلى السلطان وأجاسوه ، فقال له « بورك للخواجة » فنهض ١٥٦ الخواجة فقبل الأرض ودنى من السرير ثم وضع فى يد السلطان عقدا من الجوهر يبلغ ثمنه على ما قيل عشرة آلاف دينار . وأعطى السلطان الخواجة خاتما من الفيروز ، نقش عليه اسمه وهو يقول : هذا خاتم ملكنا ، نسلمه إليك ، ليعلم الجميع أن أوامرك تالية لأوامرنا . فأخذه الخواجة وقبل يد السلطان ثم قبل الأرض وعاد إلى داره فى موكب عظيم لا يذكر أحد مثله ولم يبق على باب القصر سوى حراس النوبة ، ومر بباب عبد الأعلى ثم دلف إلى بيته وأخذ الأكابر والأعيان يفدون عليه ، مقدمين له من الغلمان والنثار والحلل مالم يره وزير من قبل . وكان بعضهم يتقرب إليه عن إخلاص والبعض عن خوف فأمر بتسجيل ما قدم إليه ، ثم أوعز بحمله إلى السلطان ، ولم يقبل لنفسه منه خيطا واحدا فكان فى هذا قدوة للجميع إذ كان أكثر أهل زمانه تهذيبا وسؤددا . وامتد به

الجلوس حتى صلاة الظهر ، فلم يفارق مجلسه إلا للصلاة ، وكان يوما مشهودا .
وحضر فى اليوم التالى إلى الدركاه بغير الخلعة مرتديا كعادته قباء كرديا وعمامة نيسابورية أوقاشية وهى الملابس التى كان يشاهد بها هذا السيد رضى الله عنه دائما .
وقد سمعت من ثقاته مثل الكتخدا أبى ابراهيم القائنى وغيره أن الخواجة كان له عشرون أو ثلاثون قباء من لون واحد يستعملها مدة سنة فكان الناس يظنون أنه لا يمتلك إلا قباء واحدا فيقولون سبحان الله ، أما آن لهذا القباء أن يخلق ؟
وعلى كل فقد كان رجلا نادرا لاحد لمآثره ونشاطه وسأشير إلى ذلك فى موضعه بعد ذلك . فلما انتهت السنة صنعوا عشرين أو ثلاثين قباء أودعوها خزانة الملابس فلما أتى إلى الخدمة فى هذا اليوم اختلى به السلطان مسعود رضى الله عنه بعد أن انتهى الاستقبال وطالت الخلوة حتى صلاة الظهر فجمدت أطراف جماعة من شدة الخوف . وجرت أمور من وراء ستار وارتفعت أصوات متضاربة ولم أستطع أنا أو غيرى معرفة ١٥٧ شىء مما تم فى ذلك المجلس ولكن عندما ظهرت أمارات من إسناد المناصب إلى جماعة ومنحهم الخلع وضرب ومحق جماعة آخرين اتضحت الأمور وثبت للعقلاء أن كل هذه الأحوال إنما كانت نتيجة لتلك الخلوة . وعندما دق طبل البلاط ، وقت صلاة الظهر خرج الخواجة وطلبوا جواده فركب عائدا وأخذ كل من يخشى العاقبة يأتى فى ذلك اليوم حتى الليل ليقدم النثار ، واستدعى الخواجة أبا محمد الفارسى الكاتب وكان من خواص كتابه وقد اشتغل بالكتابة لأبى القاسم كثير بأمر من السلطان محمود ، أيام محنة الخواجة ، وكان قد انتقل بعد ذلك إلى ديوان حسنك ، كما استدعى إبراهيم البيهقى الكاتب ، وكان من كتاب ديواننا ، وقال لهما « لا بد للكتاب من إطاعة الأوامر ، وأنا أضع ثقتى فيكما فينبغى أن تحضرا إلى الديوان غدا ، وتبادرا إلى العمل فى الكتابة وكذلك ينبغى أن يأتى النساخ والمساعدون ، فقالا سمعا وطاعة .

وشمل بعطفه الكاتب أبا نصر البستي الذى كان مشتهرا بجودة الخط والمهارة في الترسل والإنشاء وخدم الخواجة بالهند أيام محنته ، وهو ممن رفقوا به وأشفقوا عليه فى تلك الأيام وصحبه بعد خلاصه من السجن إلى بلخ . فأسند إليه عملا جليلا وذهب للاستحثاث[١] لحصل على مال كثير ، وقد توفى أبو محمد وأبو إبراهيم رحمة الله عليهما ، أما أبو نصر فلم يزل حيا يقوم بأعماله فى خدمة تلك الأسرة بغزنة وقد اختاره الخواجة عبد الرازق فى عهد وزارته ليكون صاحب ديوانه ، كما شمل برعايته أبا عبد الله الفارسى الذى واصل العمل فى خدمة الخواجة وكان أبو عبد الله الفارسى هذا صاحب بريد بلخ فى عهد وزارة الخواجة وكان يتولى منصبا رفيعا ، إلا أنه قاسى عذابا كبيرا إبان محنته وقد سار أميرك البيهقى من غزنة ليعجل بعزله ، كما ذكرت سابقا وقد سلبوه أموالا طائلة .

وفى اليوم التالى وكان يصادف الثلاثاء حضر الوزير إلى البلاط وقابل السلطان ثم ١٥٨ انصرف إلى ديوانه وكانوا قد بسطوا مما يلى مجلسه سجادة فيروزية اللون ، فصلى ركعتين ثم جلس بعيدا عن صدر المجلس ، وطلب محبرة ، فجاؤا بها مع مجموعة من الأوراق ودرجا خفيفا كما يقدم ويوضع للوزراء فأخذ ورقة وكتب فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين والصلاة على رسوله المصطفى محمد وآله أجمعين وحسبي الله ونعم الوكيل ، اللهم أعنِّي لما تحب وترضى برحمتك يا أرحم الراحمين ، ليعط الفقـراء والمساكين ، شكرا لله رب العالمين ، من الورق[٢] عشرة آلاف درهم ومن الخبز عشرة آلاف ومن اللحم خمسة آلاف ومن الكرباس عشرة آلاف ذراع» ثم رمى بها إلى الدوات

---

(١) المستحث جابي الخراج (كتاب السامى) غنى — فياض حاشية ٤ .
(٢) ورق بفتح الراء ، وكذا بكسرها بمعنى الدرهم المسكوك (عن الصحاح والقاموس) غنى — فياض حاشية ١ .

دار فنفذها فى التوّ ثم قال : « ادع المتظلمين وأرباب الحاجات » فقدم عدد منهم فاستمع إلى ظلاماتهم وأنصفهم ثم صرفهم شاكرين وقال : « إن مجلس الديوان وباب السراى مفتوحان بلا حجاب وليتقدم كل من له حاجة . فكثر دعاء الناس له وأملوا أنفسهم. وكان المستوفون والكتاب قد حضروا وجلسوا فى غاية النظام عن يمين المجلس وشماله فالتفت إليهم وخاطبهم قائلا : « لتكونن غدا على استعداد، للإجابة على أى سؤال أوجهه إليكم فى الحال ودون إمهـــال أو تسويف ، فإن الأمور إلى اليوم كانت تسير على أسوأ ما يكون ، إذ كان كل يعمل على هواه حتى تدهورت بسبب ذلك مصالح الدولة ، هذا وأحمد حسن يعرفكم تماما ولن يرضى بما أنتم عليه حتى الآن فينبغى أن تغيروا سيركم وأن يشتغل كل منكم فيما يخصه». فلم ينبس أحدهم ببنت شفة وخافوا جميعا وتجمدوا فى أماكنهم .ثم نهض الخواجة منصرفا إلى داره واستمروا فى تقديم النثار له فى ذلك اليوم . وبعد صلاة العصر طلب الخواجة القوائم وقابلها بما سجله خازنو السلطان ومشرفو الدركاه وقدموها للسلطان صنفا صنفا وكانت أموالا كثيرة لا تحصى من الذهب والفضة والملابس غير المخيطة وغلمان الأتراك الممتازين والخيول والنجائب الغالية وكل شىء من أعظم ما تزدان به القصور ١٥٩ والدور السلطانية ، فأعجب السلطان بها أيما إعجاب وقال إن الخواجة رجل خالى الوفاض فلم لا يأخذ هذه الأموال لنفسه ؟ ثم أمر عبدوس أن يحمل إليه عشرة آلاف من الدنانير وخمسمائة ألف درهم وعشرة من خيرة الغلمان الأتراك وخمسة من الخيل الخاصة وبغلتين مسرجتين وعشرا من النجائب . فلما تقدم عبدوس إلى الوزير بتلك الهدايا ، نهض هذا من مكانه وقبل الأرض ودعا للسلطان كثيرا ، وعاد عبدوس . وجاء الوزير إلى البلاط غداة ذلك اليوم وكان يوافق يوم الأربعاء لسبع خلون من شهر صفر وجلس السلطان للمظالم فكان يوما عظيما مشهودا ثم جاء الوزير بعد انتهاء الاستقبال إلى الديوان وبدأ يباشر أعماله فى تدبير الأمور كما يتوقع من مثله

واستدعى الخواجة أبا نصر مشكان عند الضحى فجاء إلى الديوان وأرسله بمشافهة سرية إلى السلطان يقول له « إن أعمال العرض كما بين العبد لمولاه وإن لأبى سهل الزوزنى حرمة وقد صار وجيها فإن رأى مولانا فليأمر باستدعائه ثم يخلع عليه ويكلفه بالقيام بهذا العمل فإنه من أهم الأعمال ، هذا وسيقدم العبد كل ما يعرف من المعونة والإرشاد حتى يسير أمر الجيش فى نظام .

وذهب أبو نصر فبلغ المشافهة وأشار السلطان إلى أبى سهل بالتقدم وكان جالسا مع الندماء فى المجلس فكلمه قليلا وقبل أبو سهل الأرض ثم انصرف فذهب به اثنان من الحجاب أحدهما من داخل السراى والآخر من خارجها إلى خزانة الملابس حيث ألبسوه خلعة فاخرة للغاية أعدت له ليلاً من جملتها منطقة ذهب بسبعمائة مثقال . فمثل أمام السلطان وأدى التحية والاحترام ، فقال له السلطان : بورك لك ، اذهب إلى الوزير ولتعمل بمشورته فى تنظيم أمور الجند ، فإنه من أهم الأعمال . فقال أبو سهل « سمعاً وطاعة » وقبل الأرض وذهب رأساً إلى ديوان الخواجة فأجلسه الوزير إلى جواره وتحدث إليه فى لطف كثير ثم رجع إلى داره ، فسارع إليه جميع الأكابر والموالى والحشم وقاموا بحقه خير قيام وحملوا إليه مالا كثيرا ، فأمر كذلك بتسجيل جميع ما أحضروه وأرسله إلى الخزانة .

وفى اليوم التالى خلعوا على أبى سهل الحمدوى ، وكان قد عزل من الوزارة [١] ، خلعة جدّ فاخرة وفوضوا إليه عمل الإشراف من قبل السلطان على المملكة على أن يأتمر بأمره عامة ١٦٠ المشرفين ومنهم المشرفون الكبار الأربعة ، فمثل بين

---

(١) كان وزيرا أيام الأمير محمد . غنى — فياض حاشية ٤ .

يدى السلطان وأدى مراسم الاحترام وقال له السلطان : إن لك حق السابقة فى الخدمة ، وقد ثبت إخلاصك وتفانيك لدولتنا فينبغى أن تقوم بهذا العمل خير قيام. فقال « سمعاً وطاعة » ثم انصرف إلى الديوان ، فأجلسه الوزير إلى يساره كما يقتضى الرسم فى غاية من الإكرام وأثنى عليه كثيرا وتقدموا إليه بالهدايا فأرسلها كلها إلى الخزانة. وانتظمت شئون الدواوين على صورة لا يذكر أحد لها مثيلا من قبـــل وأيده السلطان كل التأييد . وبدأ الوزير من فوره يمهد للانتقام فصدرت منه سرا ، أوامر فى شأن السادة أبى القاسم كثير المعزول من إمارة العرض وأبى بكر الحصيرى وأبى الحسن العقيلى وقد كانا من جملة الندماء وكان هؤلاء قد أقدموا على أمر أشرت إليه فى هذا التاريخ أما الحصيرى فقد كان من الجبابرة فى عهد السلطان محمود ، وقد جاوز حد الأدب مع هذا السلطان فى مجلس الشراب وعنف مرتين ، واشتغل أبو القاسم كثير بالوزارة واشترى[1] غلامه أبا الحسن ، وسأذكر بعد ما مر بكل منهم .

فى يوم الأحد الحادى عشر من شهر صفر ، كانوا قد أعدوا خلعة فاخرة لكبير الحجاب وكان من جملتها الكوس والرايات العريضة والشارات والغلمان وأكياس النقود والكساوى غير المخيطة وأشياء أخرى على النحو الذى منحه الحاجب على قريب فى جرجان ، فلما انتهى الاستقبال ،أمر السلطان أن يذهبوا بالحاجب بلكاتكين إلى خزانة الملابس ويلبسوه الخلعة ، فوضعت الكوس على الجمال والأعلام على باب السراى ، وتركت الشارات وأكياس الدراهم والغلمان فى وسط الحديقة ، وتقدم هو مرتديا الخلعة السوداء والقلنسوة ذات الركنين ومنطقة من ذهب فمثل بالخضراء حيث أدى فروض الطاعة ، فشمله السلطان برعايته وانصرف بلكاتكين إلى ديوان الخواجة فأثنى عليه هذا

---

(١) الضمير يرجع إلى الخواجة أحمد حسن يقصد أن سبب حقد الخواجة على أبى الحسن العقيلى أنه اشترى غلامه (وكان هذا حتما عند عزل الخواجة) عن — فياض حاشية ٣ .

ثناه عاطراً ، ثم ذهب إلى داره ، وقدم له الأكابر والأعيان هدايا كثيرة للغاية. وهكذا استقر منصب الحجابة الكبرى على هذا الرجل العظيم وقليلا ما شاهدوا رجلا فى مثل همته وشجاعته وسخائه وسعة سماطه ولكنه كان حاد الطبع سيء الخلق للغاية تغلب عليه خفة وبساطة غير محمودة . والمرء لا يخلو من العيب. ١٦١ والكمال لله عز وجل .

وقد وقعت لأبى بكر الحصيرى الفقيـــه فى تلك الأيام حادثة نادرة إذ صدرت عنه زلة فى حال سكره استخدمها الوزير فى التغلب عليه والانتقام منه . ومع أن السلطان قد تداركها بذكائه الملكى ، إلا أن ريح الرجل ذهبت فى وقتها ، ولات حين مناص ، وسأتحدث عن هذا فى بابه ولا مرد لقضاء الله عز وجل .

اتفق أن ذهب الحصيرى يوما مع نجله أبى القاسم إلى بستان الخواجة على ميكائيل وكان قريبا ، فتمادى فى احتساء الخمر ، وأمسى وبات وأصبح هنالك على الشراب والصـــبوح غير لائق ولا يكثر منه العقلاء . وقد ظل عاكفا على الشراب فامتدت به الحال إلى مابين الصلاتين ، ثم ركب وأخذ يقطع الطريق إلى محلة عباد وهو يشرب فلما وصل وهو فى مهد على البغل مع نجله وثلاثين من غلمانه إلى السوق المعروفة بـ « بازار عاشقان » اعترض طريقهم صدفة عبد من خاصة الوزير ، وكان الطريق ضيقا صعب العبور للمارة ولعبت الخمر برأس الحصيرى كما تفعل بالسكارى فكأنه قال لنفسه : لم لم يترجل هـذا الفارس ولم يؤد الاحترام فسبه بأشنع الألفاظ . وقال له الرجل لماذا تسبنى يا نديم السلطان إن لى سيدا مثلك ، بل هو أكبر منك ذلك هو الأستاذ الرئيس ، فسب الحصيرى الوزير وصاح قائلا اقبضوا على هذا الكلب حتى أرى من ذا يجرؤ على تخليصه. وتمادى فى سب الخواجة وإهانته وكذلك صرخ غلمان الحصيرى فى وجه الفارس ولطموه على قفاه وشقوا معطفه فصـــاح ابنه أبو القاسم فى الغلمان وكان يقظا عادلا بصيرا بالعواقب ، ودليل ذلك ماله اليوم من منزلة عظمى وقد اعتزل

الخدمة بعد عودته من الحج١٦٢ وانصرف فى زاوية إلى أعمال البر والإحسان أدام الله حياة السيد وهذا الصديق الطيب ، فتقدم نحو هذا الرجل معتذرا له مطيبا خاطره ملتمسا منه ألا يذكر شيئا عما جرى لسيده ، واعدا إياه أن يتلافى ما حدث فى غداة غد فإن كان قد تمزق له قباء واحد فإنه سيعوضه عنه بثلاثة. ثم ذهبوا جميعا ، أما الرجل فقد أخذ يفكر ولكنه لم يستطيع أن يغض النظر فإن عادة الغلمان المرتزقة أن يهولوا فى الأمور دون ما نظر إلى العواقب .

كانت هذه الواقعة يوم الخميس الخامس عشر من شهر صفر فسارع الفارس إلى الخواجة أحمد وقص عليه الحكاية مبالغا فيها عشر أو خمس عشرة مرة وعرض عليه رأسه ووجهه المصفوع ومعطفه الممزق. وجاءت هذه الواقعة مواتية لرغبة الخواجة الملحة لأنه كان يريد انتهاز فرصة يثب بها على الحصيرى ، فرأى أن الفرصة قد سنحت وأن السلطان الذى خلع عليه خلعة الوزارة بالأمس لن يتركه اليوم ويراعى جانب الحصيرى . وعلى كل فقد رأى السبب وأصاب الهدف وأراد السلطان أن يذهب فى اليوم التالى للصيد فى موضع ميخواران وكانوا قد حملوا السرادق وجميع آلات الطبخ وأدوات الطرب والشراب وغيرها إلى ظاهر المدينة ولم يركب الوزير فى ذلك اليوم وكتب رقعة بخطه وختمه وأرسلها إلى بلكاتكين يقول له إذا سأل السلطان لماذا لم يأت أحمد فسلم إليه هذه الرقعة ، وإن لم يسأل فسلمها له أيضاً لأنها مهمة لاتحتمل التأخير . فقال بلكاتكين سمعاً وطاعة وكانت صلتهما قوية جدا ، إلا أن السلطان لم يستقبل أحدا لأنه كان مزمعاً الخروج وكانوا قد أخرجوا العلامة والمظلة والغلمان على خيولهم بكثرة فى انتظاره ، ونودى بأن يحضروا أنثى الفيل بالمهد ، فأحضروها فاستقل السلطان المهد وساقوا الفيلة . وكان الأعيان كلهم وقوفا لتأدية الخدمة وما أن لاح لهم حتى أدوا فروض الولاء . وعندما وصل إلى باب الإيوان ولم ير الخواجة أحمد سأل

عنه قائلا : ألم يحضر الخواجة ؟ فقال أبو نصر مشكان : إن اليوم يوم جمعة ولعله عرف أن مولانا يريد الصيد فلم يحضر . فقدم الحاجب بلكاتكين الرقعة وهو يقول إن الوزير أرسلها إلىّ ليلا وقال لى ينبغى أن توصل الرقعة سأل مولانا لماذا لم يجىء أحمد أولم يسأل ، فأخذ السلطان الرقعة . وأوقفوا الفيلة حتى يقرأها١٦٣ وكانت كما يلى :

« أطال الله حياة مولانا ، إن كان العبد يقول إنى لا أستطيع النهوض بأعباء الوزارة فلأنهم لم يدعونى أفعل ، وقد اغتر كل منهم ، وما كنت أحب الوزارة فى مثل هذه السن المتقدمة لأرى الناس يدخلونك فى حرب معى ويعملون على إيذائى ، ولكن السلطان بنطقه الكريم وعدنى بالحسنى وتمت شروط ملكه وقد نجوت من الموت بعد فضل الله بدولته فلذلك وافقت على القبول ، ورغم أنه لم يمض أكثر من عشرة أيام على عملى يبادر الحصيرى فيقضى على مهابة هذا العمل أثناء عودته من البستان وهو يحتسى الخمر أثناء ركوبه ، فقدأمر غلمانه بضرب رجل من ثقاتى فضربوه على ملأ من الناس فى سوق السعيدية ضربا مبرحا ومزقوا قباءه ، وعندما قال إنى من غلمان أحمد سُبّ أحمد مئة ألف سبة على مسمع من الجمع . وإنى لن أحضر بعد هذا إلى الديوان ولن أذهب إلى الوزارة بأية حال من الأحوال ، فإن إحتمال الإهانة من هؤلاء القوم عسير . فإن رأى مولانا إعفائى لأسكن فى رباط أو قلعة حسبما يرى الرأى العالى وإلا فليأمر بعقاب الحصيرى عقابا يمس ماله وبدنه فإن هذا الرجل قد أخذته العزة وقد أصبح له ولنجله مال كثير أدى إلى اغترارهما ، وإنى مستعد لأن أقدم عنه وعن نجله ثلثمائة ألف دينار للخزانة العامرة ، وهذه الرقعة التى حررتها بخط يدى هى الحجة على ماأقول والسلام » .

وطوى السلطان الرقعة بعدقراءتها وسلمها إلى الدوات دار وكان من خاصة الغلمان قائلا : احتفظ بها . ثم ساق الفيلة . فأخذ الناس يظنون الظنون ويقولون ترى ما سيظهر من وراء الستار ، وأصـــدر أمرا فى الصحراء ليعود الغازى السپهسالار وأريارق قائد الهند وباقى الحشم إذ لم يكن لهم رخصة للصيد . وكان السلطان يسير مع خاصته فدعا إليه الحاجب بلكاتكين وتحدث معه باللغـــة التركية ثم عاد الحاجب وأرسل السلطان نقيبا يطلب أبا نصر مشكان وكان إذ ذاك فى الديوان فأسرع إليه النقيب قائلا : ان السلطان يدعوك . فركب مسرعا ولحق به واستمر فى السير معه . وكلمه السلطان فى المقابلة طويلا ثم أمره بالعودة ، ١٦٤ ولكنه لم يعد إلى الديوان بل ذهب إلى دار الأستاذ الرئيس بعد أن أمر أبا منصور حارس الديوان بأن يوعز إلى الكتاب ليعودوا إلى عملهم فعدنا ، أما أنا فقد سرت فى أثر أستاذى إلى دار الأستاذ الرئيس رضى الله عنه ، حيث وجدت زحاما شديدا وعدداً لا يحصى من الناس وقوفا ينظرون . فقلت لأحدهم كيف الحال ؟ فقال إن صاحب الشرطة أحضر أبا بكر الحصيرى مع نجله خليفة المدينة بالجبة والخفين إلى دار الوزير وأوقفاهما وأحضروا العقابين ولا يعلم أحد ماهو الحال . وجاء نفر من الأعيان ممتطين خيولهم يريدون السلام على الوزير لأن اليوم يوم الجمعة ، فلم يأذن لأحد إلا للخواجة أبى نصر مشكان فقد جاء ودخل إلى الدار . وبعد أن سمعت أنا أبو الفضل بالقبض على ذلك السيد وابنه بهت لما للحصيرى ونجله علىّ من الأيادى البيضاء ، فترجلت عن جوادى ودخلت الساحة وبقيت هنالك حتى قبيل الظهر . ثم أحضروا المحبرة والورق ولم أسمع شيئاً سوى ما قاله أبو عبد الله الفارسى على الملأ من أن الأستاذ الرئيس يقول : ولو أن السلطان قد أمر بضربك ألف عصا وبمثلها لابنك لكنى أشفق عليك وأصفح عنك فادفع الآن خمسمائة ألف دينار واشتر بها ضرب العصا وإلا نفذنا الأمر حالا ، فلا تكونن ممن يضرب بالعصا ويغرّم المال . فقال الوالد

والولد :سمعا وطاعة لكل ما يأمر به الخواجة ولكن فليمن علينا بتخفيض الغرامة لأنه يعلم أن ليس فى طاقتنا أن ندفع الآن عشر هذا المال . وكان أبو عبد الله الفارسى يروح ويغدو لتبليغ المشافهات إليهما إلى أن استقر الأمر على دفع ثلثمائة ألف دينار ، وسلما صكا بذلك . ثم صدر الأمر بنقلهما إلى الحرس، فنفذ الأمر خليفة المدينـــة واعتقلهما هناك ، ثم انصرف الناس . وظل أستاذى أبو نصر هناك للشراب ، وعدت إلى دارى وحضر عندى سنكوى وكيل الباب بعد ساعة وقال لى إن الأستاذ أبا نصر أرسلنى إليك وهو يأمرك أن تذهب إلى خدمة السلطان أنت يا أبا الفضل وتقول له : « إنى ذهبت إلى الخواجة حسب الأمر العالى وصببت الماء على النار حتى كفوا عن ضرب الحصيرى ونجله واكتفوا بأخذ ثلثمائة ألف دينار منهما١٦٥ وأمروا بحبسهما ، وقد سر الأستاذ الرئيس سرورا بالغا بعطف السلطان عليه وأبقانى للشراب معه ، وقد كان من الخطل إهمال الأمر ، وهذا سبب تأخر العبد وإرسال العبد أبى الفضل حتى لا يكون عملى هذا مغايرا لمقتضى الآداب والعبوديه» .

وذهبت فورا فوجدت السلطان ، وقد نزل فى بستان قرب المدينة ، منصرفا إلى الشراب والسماع ، وكان الندماء جلوسا والمطربون يعزفون ، فقلت فى نفسى ينبغى أن أكتب هذه المشافهة حتى إذا لم أجد مجالا للكلام قرأها بنفسه ويتم بذلك الغرض فكتبت رقعة شرحت فيها كل شىء ودنوت فنادانى قائلا ما شأنك ؟ فقلت له إن العبد أبا نصر أرسلنى بمشافهة وأريته الرقعة فأمر الدوات دار أن يتسلمها فتسلمها وقدمها إليه ، وبعد أن طالعها دعانى وأعطانى الرقعة وقال لى سرا: إرجع إلى أبى نصر وقل له نعم ما صنعت وإننا نقدرك لذلك وسوف نأمر بما ينبغى حينما نعود بعد غد ولنعم ما عملت ببقائك عند الوزير لمؤانسته فى الشراب . فعدت فوصلت عند صلاة العصر إلى المدينة ودعوت سنكوى وكتبت على ورقة : ذهب العبد وأدى المهمة . وسلمها سنكوى إلى أستاذى فاطلع

عليها . وقد مكث عند الوزر حتى صلاة العشاء وعاد من عنده ثملا للغاية . واستدعانى فى مساء اليوم التالى فذهبت إليه وكان جالسا مختليا فقال لى : ماذا فعلت . فقصصت عليه كل ما جرى . فقال : حسنا ، لقد دخل هذا الخواجة فى العمل وهو سيبالغ فى الانتقام ويقضى على القوم إلا أن هذا الملك العظيم راع ويقدر الحقوق فإنه حين قرأ رقعة الوزير رأى أن المصلحة تقضى بمراعاة جانبه إذ ليس من الخير الرضا عن التطاول على وزير لما يقض فى الوزارة أكثر من أسبوع ورأى من الحكمة أن يرسل كبير حجابه إلى الدركاه مع صاحب الشرطة ليحملا الحصيرى ونجله إلى سراى الخواجة مع العقابين والجلاد وأن يضرب كل منهما ألف سوط حتى لايجرؤ أحد بعد ذلك على ذكر اسم الوزير إلا بالحسنى ولما أصدر أمرا خطيراً كهذا لم يرد أن تزول حرمة الحصيرى مع أنه ١٦٦ كان قد ارتكب خطأ فاحشا ، وأسرع إلىّ يدعونى ، فلما حضرت خاطبنى علانية : ألا ترغب فى المجيء معنا للنزهة : فقلت : إن سعادة العبد أن يكون فى خدمة مولاه ولكن السلطان أمره بكتابة عدة كتب مهمة إلى الرى وتلك النواحى وأمره ألا يحضر وأن يبعث إليه بكاتب [1] النوبة : فضحك وكان آية فى اللطف فى كل حال ، وقال : نعم أذكر ذلك لكننى قصدت المزاح ثم أضاف قائلا : وهناك مسائل أخرى ينبغى الإشارة إليها فى تلك الرسائل وقد أردت أن نخبر بها عن طريق المشافهة لا بواسطة المراسلة . وأمر بإيقاف الفيل فترجل الفيّال ومساعده الذى كان فى المهد مع السلطان وابتعد القوم . أما أنا فقد وقفت قريبا من المهد ، فأخذ يتكلم أولا بشأن رقعة الوزير وقال : إن الحاجب قد ذهب ليستميل قلب الخواجة وذلك بأمر منى فإن السياسة تقتضى هذا لما صدر عن الحصيرى من خطأ

---

(١) أى الكاتب الذى عليه ملازمة السلطان فى ركوبه . من ـ فياض حاشية ٢ .

كيلا تذهب هيبة الوزير ، لكن الحصيرى له علىّ من الحقوق ماليس لأحد من خاصة أبى وقد عانى هوانا شديداً فى الولاء لنا وإنى لن أترك الوزير يستأصل شأفة أمثال هؤلاء الخدم انتقاما لشخصه ، وقد بيّنت لك الهدف ، فاكتم ماقلته لك وتدارك الأمر ، وأعمل سواء برأيك أو بنسبة الأمر إلينا ، حتى لا يصل إليه وإلى ولده سوء ، وقد كلمنا الحاجب بالتركية ليخيفهم ويوقفهم حتى تصل وتخمد هذه النار . فقلت لقد فهمت الأمر وسأقوم بما يقتضيه الواجب . ثم عدت مسرعا وكان الحال على ما رأيناه ، فقلت للحاجب تمهل فى تنفيذ أمر السلطان حتى أقابل الأستاذ الرئيس ثم خاطبت الحصيرى قائلا : ألا تستحى من هذه الشيبة وتسبب بين آونة وأخرى تعباً لنفسك وتشغل خواطر أحبائك . فقال ليس هذا وقت العتاب فالتقدير واقع وينبغى أن تتخذوا لدرئه ١٦٧ تدبيرا .

ثم طلبوا لى الإذن فأُذن لى فى الحال ، فصادفت فى طريقى أبا الفتح ألبستى مرتديا ثوباً خلقا وفى عنقه قربة صغيرة فاعترض طريقى قائلا : لقد مر على عشرون يوما اشتغل بحمل الماء إلى الإصطبل ، فاشفع لى ليصفح الأستاذ الرئيس عنى ويقينى أن الشفاعة لا تؤثر عند الوزير إلا أن تكون من مثلك . فقلت له إنى ذاهب الآن إلى مهمة خطيرة فإذا انتهيت منها أبذل الجهد فى شأنك وأرجو أن أوفق . فلما قابلت الوزير وجدته يتميز غيظاً وغضباً فأديت التحيـــة فالتفت إلىّ وخاطبنى بلهفة قائلا : سمعت أنك قد ذهبت بصحبة السلطان فما الذى دعاك للعودة ؟ فقلت أمرنى السلطان بالعودة لإنجاز مهام الرى التى لا تخفى على مولانا ويمكن كتابة تلك الرسائل غدا إذ ليس فى تأخيرها عيب وأتيت لأشارك سيدى فى الشراب فرحا بما أبداه السلطان من العطف على مولاى فى أمر الحصيرى . قال : نعم ماعملت وإنى أشكرك على ذلك لكنى لا أقبل البتة أن تشفع له فإنى لن أوافق على ذلك وستغضب ، إن هؤلاء المغرورين قد نسوا أحمد حسن لأنهم رأوا أن الميدان خال أمامهم وحسبوا أنهم بإزاء وزير ضعيف واستخفوا به وإنى أريهم نتيجة ماسوّلت لهم أنفسهم حتى يستيقظوا من سباتهم .

ثم التفت إلى أبي عبد الله الفارسي وقال : ألم يربطوهما بالعقابين فقلت سيربطونهما كما أمر سيدنا العظيم ولكني طلبت من كبير الحجاب أن يتريث قليلا حتى أقابل السيد . فقال : إنك قابلتني ولن أقبل شفاعتك فلا بد أن يضربا بالعصى حتى يفيقا ، يا أبا عبد الله إذهب ومر بحملهما بالعقابين . فقلت : فإن كان ولا بد من ضربهما فأذن لي بخلوة حتى أتحدث إليك في شأنهما وليوقف ضربهما ثم يكون الأمر بعد ذلك لمولانا .

فنادى أبا عبد الله لينصرف وأخلوا المجلس فلم يبق غيرنا فقلت « أطال الله حياة الوزير ١٦٨ ، ليس من المستحسن المغالاة في الأمور وقد قال الأكابر العفو عند القدرة ، وكانوا يغتنمون فرصة العفو عندما يرون في أنفسهم القدرة على الانتقام ، وقد أظهر الله تعالى قدرته وأبدى عفوه نحوك وأنقذك من السجن والمحنة ، فيجب الإحسان لمن أساء اليك حتى يكون عقابه خجله ، وإن أخبار المأمون وصفحه عن عمه إبراهيم ماثلة أمام نظر مولانا ومن المستحيل أن أخوض في أمثال هذه الأحاديث فأكون كحامل التمر إلى هجر ، ولما كان السلطان قد أبدى كرمه وراعى خاطر الخواجة وبعث بهذا الشيخ إلى هنا وعنّفه هذا التعنيف فينبغي أن تقدر ما احتمله من الألم ؛ ذلك لأنه يحب هذا الرجل ويقدره لما عاناه من الذل والهوان لولاته له أيام أبيه ، هذا وقد تأكد لديه أن الوزير سيفعل فعل السادة والعظماء فلا يمسه بأذى ، ويرى العبد أن الأفضل رعاية جانب السلطان فيأمر أن يوقفوا الرجل دون أن يضربوه ويأخذوا صكا منه ومن نجله بتسليم المال إلى الخزانة العامرة . وسوف يعرض حديث هذا المال على السلطان ليرى فيه رأيه . وأغلب الظن أن يهديه له ، ولو أن الخواجة التمس إعفاءه من أداء المال لكان أفضل فيكون قد منّ عليه من قبله أيضاً ، هذا ويعلم مولاي أن ليس لي في هذه الأمور غاية سوى مراعاة صالح الجانبين ، هـــذا ما أراه بقدر علمي والأمر لك » .

فلما سمع الوزير هذا الكلام أطرق برأسه مفكرا ، وأيقن أن لابد أن يكون لأقوالى سبب ، فإنه لم يكن ما تخفى ايهم أمثال هذه الأمور ، وقال : قد صفحت عن ضربهما حرمة لك ولكن يجب أن يعطى للسلطان مابيد الأب والإبن . فأديت له التحية . وأرسل أبا عبد الله الفارسى حتى انتهى الأمر إلى أخذ صك بأداء ثلثمائة ألف دينار منهما وأرسلا بعد ذلك إلى الحرس . ثم امر بإحضار الطعام والشراب والندماء والمطربين وأخذنا فى الشراب ، وبعد أن شربت قدحين قلت : مد الله فى حياة مولانا ، إنه يوم سعد وإن لى حاجة أخرى ١٦٩ . فقال اطلب فأجبك خيرا . قلت شاهدت أبا الفتح بالقرية وليس حسناً أن يعمل مثله فى الإصطبل ولو كان الواجب أن يعاقب فقد عوقب ، وإن له سابقة الخدمات الكثيرة عند مولانا ، وقد عرف السلطان قدره وهو يعطف عليه نظرا للقواعد المرعية من عهد السلطان محمود ، فإذا رأى الوزير عفا عنه . قال عفوتُ ، فليدعوه فدعوه ، وتقدم بتلك الكسوة الخلقة وقبل الأرض ثم وقف فقال له الوزير : هل تبت عن بث الأراجيف . قال يامولاى إن القرية والإصطبل قد علمانى التوبة . فضحك الوزير وأمر أن يذهبوا به إلى الحمام ويلبسوه حلة . وجاء وقبّل الأرض فأجلسه وأمر له بالطعام ، فتناول منه شيئاً ثم أمره باحتساء عدة أقداح فشرب ثم طيّب خاطره وصرفه إلى داره . وتمادينا فى الشراب مدة وعدنا . واعلم يا أبا الفضل أن أحمد حسن رجل عظيم ولكنه إنما جاء إلى الحكم لينتقم لنفسه ، وإنى لشديد الكره لما يرنو إليه ولكنه لن يستطيع السير طويلا بهذه الطريقة مع السلطان ، ذلك لأن السلطان لن يدعه يقضى علىّ وعلى خدمه ، فلعمرى لاأدرى ماستؤول إليه هذه الأحوال ، فاكتم هذا الحديث وأعد العدة لتذهب إلى السلطان . فرجعت وتأهبت للسير ثم عدت إليه فسلمنى رقعة مختومة وأخذتها وقصدت ساحة الصيد ، فوصلت هناك قبيل صلاة المغرب فوجدت السلطان قد قضى كل يومه فى الشراب ثم ذهب إلى السرادق حيث

جلس مختليا فسلمت الرقعة إلى آغاجى[1] الخادم ونزلت بموضع قرب السرادق ، فجاء وقت السحر فراش يدعونى فذهبت وتقدم بى آغاجى ، وكان السلطان جالساً على سرير خاص بالسفر ، فأديت التحية ، فالتفت إلى قائلا : قل لأبى نصر حسنا كل ما عملته بشأن الحصيرى ونحن سائرون إلى المدينة وسنأمر بما ينبغى . ورمى بتلك الرقعة نحوى فأخذتها وعدت . وصلى السلطان الصبح ثم يمم شطر المدينة . ولكنى ١٧٠ سقت أسرع منه إليها ، فقابلت أستاذى وشاهدت الأستاذ الرئيس قد حضر للاستقبال مع كافة القادة وأعيان الدركاه ، ورآنى أبو نصر ولكنه لم يقل شيئا فوقفت فى مكانى ثم ظهرت راية السلطان ومظلته وكان ممتطيا جواده ، فتقدم القوم ولحق بى أستاذى وأشار إلىّ فدنوت منه فهمس فى أذنى : ماذا عملت وماذا جرى . فقصصت عليه الحال فقال : عرفت ذلك . وساقوا وقدم السلطان ثم ركبوا وكان الوزير يسير عن يمين السلطان وأبو نصر على مقربة منه ، يتقدمهم بقية الأكابر والأعيان ، حتى لا يكون زحام ، واستمر السلطان يتكلم مع الوزير حتى وصلوا إلى البستان .

فسأل السلطان ماذا فعلتم بهذا الرجل المخدوع . فأجاب الخواجة بعد أن يئزل مولانا بالسعادة يرسل العبد مشافهة على لسان أبى نصر بما جرى وبما ينبغى أن يكون . فقال حسنا . ثم ساقوا وقد سار السلطان نحو الخضراء وجلس الوزير فى إيوان الديوان مختلياً ودعا أستاذى ليقول له : إن السلطان قد بالغ فى رعاية جانبى فى أمر الحصيرى بما يقتضيه مقامه السامى وإنى لا أستطيع أداء شكره تجاه هذه الرعاية السامية ما دمت حيا ؛ وإن الحصيرى ، رغم أنه ممن يبالغون فى أقوالهم وأعمالهم ، شيخ كبير له حق السابقة فى الخدمة وهو ممن يشهد

---

[1] يظهر أن كلمة آغاجى كان يلقب بها الخادم الذى يتولى ايصال الرسائل والمشافهات الى السلطان فى وقت الخلوة والراحة : يرجع الى تعليقات القزوينى على لباب الألباب (ص ٢٩٧ ج ١) غنى — فياض ٣

لهم بالإخلاص والوفاء فى الولاء لمولانا وقد عانى بسبب هذا الحب والإخلاص بلايا كثيرة كما عانى العبد ذلك أيضا ، هذا ونجله أكثر كفاءة وأوسع دراية منه وهو حقيق للقيام بكل عمل جليل وإذ يندر وجود أمثالهما بين الرجال وينبغى أن يكون لمولاى اليوم كثير من العبيد والخدم الأكفاء فكيف يجوز لى أن أرضى بإهلاك مثل هذين الرجلين ولقد كانت غايتى أن يعلم الخاص والعام مبلغ مالى من العنايه لدى الرأى العالى ، وقد تحقق ذلك وعرف الجميع أنهم مكلفون برعاية حدودهم ، وكنت أعرف وجوب العدول عن ضربهما ولكنى بعثت بهما إلى الحرس حتى يزدادا يقظة ، وقد كتبا صكا طوعا ورغبة على أن يقدما للخزانة العامرة ثلثمائة ألف دينار وهما يستطيعان دفع هذا المال ولكن سيصبحان فقيرين معدمين ، ويجب ألا يبقى الخادم فقيرا معدما ، فلو أذن مولانا بقبول شفاعة العبد فى حقهما وإعفائهما عن أداء هذا المال وإرسالهما معززين إلى دارهما فعل .

فذهب أبو نصر وبلّغ هذه الرسالة النبيلة ، فسرّ السلطان سرورا بالغا ١٧١ وأجاب : لقد قبلنا شفاعة الخواجة فى حقهما ، وأمرهما موكل إلى رأيه ، فلو رأى فليأمر بتسريحهما وبرد الصك إليهما . فعاد أبو نصر وبلغ الخواجة جواب السلطان . ثم نهض السلطان من السرادق ودخل إلى السراى ، وعاد الخواجه إلى داره أيضا ، وأمر أن يحضروا جوادين من خاصة خيله إلى باب الحرس وأركبوا الوالد والنجل وأتوا بهما مكرمين إلى الخواجة ، فلما تقدما قبّلا الأرض وجلسا مؤدبين وأخذ الخواجة فى عتاب الحصيرى بعبارات حلوة ومرة ، وانطلق الحصيرى يقدم اعتذاره فقد كان شيخا فصيحا منطقياً وأبدى كثيرا من التواضع ، فضمه الخواجة إليه واعتذر له وأحسن إليه وقبّل وجهه وقال : أرجو أن تعود بزيك هذا إلى المنزل لأنى أكره أن أغير زيك وسيأمر السلطان غدا بالخلعة لك . فقبل الحصيرى يد الخواجة وقبّل الأرض وكذلك فعل نجله ، ثم

ركبا جوادى الخواجة وعادا إلى منزلهما فى حى علاء مع وافر الكرامة . واستقبلهما الناس فرحين مهنئين ، لجلاس الولد مع الوالد ، وكنت أنا أبو الفضل جارا لهما فذهبت إليهما سرا قبل أى زائر ، فقال الحصيرى : إنى لا أستطيع أداء الشكر للخواجة أبى نصر ما دمت حيا ولكنى سأدعو له بالخير شاكرا . فلم أذكر له شيئا عما جرى إذ لم يكن الكلام جائزا ، ثم دعوت له وعدت فقصصت على أستاذى ما كان ، ثم ركب أستاذى للتهنئة وسرت معه ، واستقبله الحصيرى ونجله من مسافة بعيدة وجلسا وبالغا فى شكره . وقال أبو نصر : واضح أن عملى لم يكن شيئاً فينبغى أن تشكرا السلطان والخواجة . قال هذا وقفل راجعاً. ثم سمعت أبا نصر بعد أسبوع أو أسبوعين يقول إن السلطان ذكر للحصيرى بخلوة فى مجلس شرابه جميع ما جرى بشأنه ، وكان الحصيرى فى ذلك اليوم يرتدى جبة صفراء زعفرانية اللون وارتدى نجله جبة بندارية ثمينة ، وكانا قد قدما فى هذه الملابس . وفى اليوم التالى قدما إلى السلطان فبالغ فى إكرامهما والتمس الخواجة أن يذهبوا بهما إلى خزانة الملابس وأن يخلع عليهما بأمر من السلطان. ثم تقدما إلى السلطان وبعد ذلك ذهبا إلى الخواجة ، ثم ساروا بهما بكثير من الاحترام إلى الدار ، وأبدى سكان المدينة تقديرا كبيرا لهما . وقد توفوا جميعاً رحمة الله عليهم أجمعين ولم يبق منهم إلا نجله السيد أبو القاسم ، مد الله فى حياته. وكل من يطالع هذه المقامة ينبغى أن يتأملها بعين العقل والعبرة ، لا بعين الأسطورة والقصة ١٧٢ حتى يتأكد لديه كيف كان هؤلاء الأكابر . وقد قرأت حكاية فى أخبار الخلفاء جرت فى أيام المعتصم تشبه تلك القصة قليلا ، لكنها أعظم فى مغزاها ومبناها . فرأيت أن أنقلها لأن الكتاب ، وخاصة كتاب التاريخ يزدان بأمثالها ذلك لأن الحديث ذو شجون ، وهذا مما يزيد فى القراء النشاط فتزداد الرغبة فى القراءة والمطالعة إن شاء الله تعالى .

ذكر قصة الأفشين ونجاة أبى دلف من شره

يقول إسماعيل بن شهاب سمعت أحمد بن أبى داود ، وكان يلى إلى جانب منصبه كقاضى القضاة ، منصب الوزارة فكان أعظم وزراء أيامه وقد خدم ثلاثة من الخلفاء يقول : أذكر أنى استيقظت فى منتصف ليلة من نومى إبان خدمتى للمعتصم ولم أجد إلى النوم سبيلا رغم كل محاولة لذلك واعترانى ضجر وسأم عظيمان لم أعرف لهما سببا فساءلت نفسى عما يمكن أن يكون ، ثم ناديت غلاما يدعى سلام كان يلازمنى للخدمة دائما وقلت له مُر بأن يسرجوا الجواد . فقال أى سيدى نحن الآن فى منتصف الليل وليست نوبتك غدا وقد قال لك الخليفة إنه سيكون مشغولا بعمل كذا ولن يأذن لأحد . فإذا كنت تقصد لقاء شخص آخر فليس هذا الوقت مناسبا للركوب . فسكت إذ كنت أعلم أنه على حق ولكنى لم أتخذ فى الأمر قرارا ، فقد كان يخالج نفسى أن أمرا قد حدث : فنهضت أنادى الخدم ليضيئوا الشموع وذهبت إلى الحمام فغسلت وجهى ويدى فى عجلة ، ولم أسترح فعدت فارتديت ملابسى ، وكانوا قد أسرجوا حمارا ، فركبته وسقته دون أن يكون لى قصد البتة إلى جهة بعينها ، وأخيرا قلت لنفسى إن الذهاب إلى البلاط أرجح منه إلى أى مكان آخر ولو أن الوقت ما يزال مبكرا ، فإذا حصلت على الإذن فبها وإلا عدت حتى يزول هذا الوسواس عنى . وسقت حتى بلغت البلاط . وأخبرت حاجب النوبة بوصولى ، فقابلنى فى الحال وقال : ما الذى أتى بك فى مثل هذا الوقت ، وقد علمت من أمس أن أمير المؤمنين منصرف إلى الطرب وأن ليس لك مكان عنده . فأجبته : إن الأمر كما تقول ، ولكن لتبلغ مولانا بقدومى ١٧٣ فإن تفضل بالإذن دخلت وإلا عدت . فقال : بكل سرور . فأخبر فى الحال وعاد فورا وقال : ادخل باسم الله فإن أمير المؤمنين قد أذن لك . فدخلت ورأيت المعتصم منفردا بنفسه

غارقا فى التفكير ، وليس أمامه عمل قط . فسلمت فردّ على ثم قال : ولم تأخرت يا أبا عبد الله فقد كنت أتوقع قدومك منذ مدة . فلما سمعت هذا تحيرت وقلت : يا أمير المؤمنين لقد أتيت مبكرا جدا وكنت أظن أن سيدى يستريح فترددت بين أن أجد الإذن أو لا أجده . فقال : ألم تعلم بما قد وقع ؟ فقلت لا . فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون إجلس لتسمع . فجلست فقال إن هذا الكلب المغرور المنافق أبا الحسن الأفشين قد قام بخدمة جليلة بقضائه على فتنة بابك الخرمى واستمر فى قتاله حتى أسره وكافأناه على هذه الخدمة مكافأة عظيمة ورفعناه مكانا عليا وكان دائم الإلحاح علينا لنطلق يده فى أبى دلف القاسم بن عيسى الكرجى العجلى لكى يستحوذ على ما بيده من الولاية والنعمة ويقضى على حياته ، وأنت تعلم مدى ما بينهما من عداوة وعصبية ، وما كنت مجيبا إياه إلى شىء مما يبغى لما لأبى دلف من بيض الأيادى فى خدمتنا ، وما هو عليه من جدارة واتزان إلى جانب ما بينكما من صداقة ، إلا أنه سهو وقع ليلة أمس لكثرة إلحاح الأفشين ولرفضى طلبه عدة مرات ولكنه لم يكف فأجبته إليه ، ثم بقيت أفكر ليقينى أنه سيبادر إلى القبض عليه عند طلوع الفجر والمسكين لا يعلم ، وسيحملونه إلى هذا الزنديق الذى سيقضى عليه بمجرد أن يتمكن منه . فقلت : الله الله يا أمير المؤمنين إن هذا دم يراق بغير حق والله عز اسمه لا يرضى به. وطفقت أتلو الآيات والأخبار تأييدا لقولى ، ثم قلت إن أبا دلف عبد مولانا وهو من فرسان العرب وقد علمتم ما أدى من خدمات وما ترك من آثار إبّان ولايته فى الجبال وكيف خاطر بحياته حتى استقرت الأحوال هنالك فإذا هلك هذا الرجل فإن قومه لن يسكتوا ولسوف يغضبون وتثور الفتن الكثيرة . فقال : يا أبا عبد الله، إن الأمر كما تقول وهو غير خاف علينا ، ولكن الزمام ١٧٤ أفلت من يدنا ، لأن الأفشين أمسك يدى ليلة أمس وأخذ منى عهدا بأيمان مغلظة على أن لا أسترد أبا دلف وأن لا آمر بتخليصه من يده . فقلت : يا أمير المؤمنين فما

الدواء لهذا الداء ؟ فقال : لا أعرف شيئا سوى أن تذهب الآن بنفسك إلى الأفشين وإن لم يأذن لك فلتلاق بنفسك إليه وتتقدم نحوه فى تضرع وخشوع ملتمساً صرفه عن هذا الأمر على أن لا تبلغه من قبلى شيئا قل أو كثر ولا تفوهن بشىء قط فلعله يرعى حرمتك لأنه يعرف قدرك ، فيكف أذاه عن أبى دلف فلا يهلكه ويعهد به إليك ، فإذا رد شفاعتك فهذا أقصى ما يمكن العمل به وقد نفذ القضاء. قال أحمد وعندما سمعت هذا من الخليفة طار صوابى ثم عدت وركبت ميمما شطر حى الوزيرى وصحبت معى بعض من لحقونى من رجالى وأرسلت اثنين أو ثلاثة من الفرسان إلى دار أبى دلف وسقت حصانى مسرعا بحيث لم أعرف هل أنا على الأرض أم فى السماء ، ووقع الطيلسان منى دون أن أشعر فإن النهار قد أوشك وخشيت أن أصل متأخرا بعد أن يكونوا قد أتوا بأبى دلف فيقتل ولات حين مناص . وبعد وصولى إلى دهليز باب سراى الأفشين جرى نحوى حجابه وخدمه كسابق عادتهم ولم يفكروا فى أن يتذرعوا بحجة لإعادتى لأن الأفشين يغتاظ ويهوله أن أدخل عليــــه فى هذا الوقت ، بل رفعوا الستار وأدخلونى إلى الدار وأوعزت إلى رجالى أن يجلسوا فى الدهليز ويصغوا إلى صوتى وعندما توسطت الدار وجدت الأفشين جالسا فى صدر زاوية وقد فرشوا أمامه تحت الصفة نِطعا[1] وأقعدوا أبا دلف بسروال وأغمضوا عينيه والسياف واقف بسيفه المسلط والأفشين يناظر أبا دلف والسياف ينتظر قوله « اضرب » ليطيح برأسه وما أن وقعت عين الأفشين علىّ حتى أسقط فى يده واصفر واحمر غضبا وانتفخت أوداجه . وكانت عادتى معه ١٧٥ أن يقابلنى متى أذهب إليه وينحنى بحيث يلامس رأسه صدرى ، ولكنه لم يتحرك فى ذلك اليوم من مكانه بل أبدى استخفافا بشأنى ، أما أنا فلم أعبأ به ولم أخشه ، لأنى كنت ذاهبا فى مهمة خطيرة فقبّلت وجهه وجلست ولكنه لم يلتفت إلىّ فصبرت

---

(١) النطع بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس

على ذلك وتحدثت إليه لأشغل خاطره كيلا يقول للسيّاف « اضرب بالسيف » فلم يلتفت إلىّ فتوقفت ثم واصلت الكلام بلون آخر فى مدح العجم فإن هذا الرجل كان منهم ، وغيرت مجرى الحديث ودخلت معه فى حديث عن بلاد الفرس وكان من أرض أشروسنه [1] وفضلت فى أثناء كلامى العجم على العرب رغم أنى كنت أعرف ما فى هذا من خطأ كبير ، لكنى فعلت ذلك كيلا يراق دم أبى دلف ، إلا أنه لم يصغ لى . فقلت له جُعلت فداك يا أمير : إنى حضرت إليك من أجل القاسم بن عيسى لتعفو وتمن علىّ بحياته ولك على ذلك عدة أجور. فأجابنى بغضب واستخفاف إنى لم أعف ولن أعفو عنه وقد سلمنى أمير المؤمنين إياه وأقسم بالأمس أن لا يتكلم بشأنه وأن أفعل به ما أريد ، وهذا ما كنت أتمناه منذ أمد طويل . فقلت فى نفسى يا أحمد أتحتمل مثل هذا الاستخفاف من مثل هذا الكلب وكلامك وتوقيعك نافذان فى الشرق والغرب ؟ ولكنى وطدت نفسى على الصبر على ما يلحقنى من الاحتقار طلبا لنجاة أبى دلف ، فقمت وقبّلت رأسه وبادرت بالتفجع والاستعطاف . فلم يجد ذلك شيئا ، فقبلت كتفه مرة ثانية فلم يلتفت إلىّ فدنوت من يده وقبلتها ، وأدرك أننى قد هممت بتقبيل ركبتيه . فقال لى مغاضبا وإلى متى هذا ؟ والله لو قبلت الأرض أمامى ألف مرة فلن يؤثر ذلك فى نفسى ولن أقبل منك أمرا . فاستولت على ثورة من الضيق والغضب ذهبت بصبرى وقلت فى نفسى أيحتقرنى هذا الجيفة المنافق إلى هذا الحد ؛ وإلى متى أحتمل منه هذا الهوان والاستخفاف ؟ لأخاطرن بحياتى من أجل هذا الرجل الحر أبى دلف وليكن ما يكون فإنى ليسعدنى أن أنقذه ولو عرضنى ذلك إلى أى بلاء . فقلت له : يا أيها الأمير لقد خاطبتك بما ١٧٦ يخاطب به الرجل الحر زميله فلم ترع حرمتى مع أنك تعلم

---

(١) بلدة قرما وراء النهر ، وأهلها تفتح وتضم .

أن الخليفة وجميع عظماء الحضرة وكل من هو فوقك أو دونك من الأمراء يجلون قدرى كما أن قولى نافذ فى الشرق والغرب ، وإنى لأشكر الله تعالى أن لم تطوق عنقى بمنة ، وقد انهى حديثى فاستمع إلى مشافهة أمير المؤمنين ، فإنه يأمر ويقول لا تقتل القاسم العجلى ولا تتعرض له وأرسله فورا إلى داره فإن يدك أقصر من أن تناله وإن قتلته قتلت به . فلما سمع الأفشين هذا الكلام ارتعدت فرائصه وتجمدت أطرافه وقال : أهذا قول أمير المؤمنين حقا ؟ فأجبت نعم . هل سمعت بأنى غيرت يوما من أوامره ؟ ثم ناديت رجالى أن ادخلوا فدخل بين الثلاثين والأربعين رجلا كلهم مزكون عدول من كل صنف وقلت لهم : اشهدوا فإنى أبلغ رسالة أمير المؤمنين المعتصم لهذا الأمير أبى الحسن الأفشين فإنه يقول لا تقتل أبا دلف القاسم ولا تتعرض له وابعث به إلى داره فإنك إن أقدمت على قتله قتلت به . ثم قلت يا قاسم فقال لبيك ، قلت هل أنت سليم معافى ، فقال : نعم . ثم سألته هل فيك جرح ؟ قال كلا فقلت لرجالى ثانية اشهدوا بأنه فى صحة وعافية . فقالوا شهدنا وعدت غاضبا وعدوت بجوادى ، كذاهل مخبول ، وكنت أقول لنفسى أثناء الطريق : لقد أكدت بهذا قتله فإن الأفشين سيحضر الآن فى أثرى ويقابل أمير المؤمنين فيقول له إنى لم أبعث بهذه الرسالة ، فيعود ويقتل القاسم . وعندما وصلت إلى الخادم كنت أنضح عرقا وقد صعد الدم إلى وجهى . فأذن لى ، فدخلت وجلست وما أن رآنى أمير المؤمنين على تلك الحال حتى أمر خادما بتجفيف العرق عن وجهى وخاطبنى متلطفا : ماذا لحق بك يا أبا عبد الله ؟ فقلت مد الله فى حياة أمير المؤمنين ؛ لا أذكر أنى رأيت فى حياتى ما شاهدته اليوم ، فوا أسفا لمسلم يضطر إلى احتمال الضيم من خبيث غير مسلم . فقال لى قل ماعندك فقصصت عليه ماجرى وعندما وصلت إلى قولى أنى قبلت رأس الأفشين وكتفه ويديه ثم هممت إلى قدمه ١٧٧ وأن الأفشين رد على بقوله : كل هذا لن يجدى نفعا فإنى سأقتل القاسم ولو قبلت

الأرض ألف مرة » ، رأيت الأفشين داخلا من الباب بمنطقتــــه وقلنسوته فانكمشت وانقطعت عن الكلام وقلت فى نفسى وا أسفا لأنى لم أتم الكلام لأمير المؤمنين بأنى أبلغت الأفشين رسالة عنك لم تقلها ، وهى أن لا يقتل القاسم . فإن الأفشين سيذكر هذا النبأ لأمير المؤمنين فيجيبه بأنى لم أقل شيئا من هذا فيفتضح أمرى : ويقتل القاسم ، هذا ما كنت أفكر به ولكن الله أراد غير ذلك لأن الخليفة كان قد تألم للغاية لأنى قبّلت رأس الأفشين وكتفه ويده وهممت بتقبيل قدمه ولأنه ردّ على قائلا لو قبلت الأرض ألف مرة لما أجدى نفعا . ولما جلس الأفشين مغضبا خاطب الخليفة قائلا : « إن مولاى قد أطلق ليلة أمس يدى فى القاسم ، فهل ما أخبرنى به اليوم أحد من أن أتجنب قتل القاسم قول صحيح ؟ فقال المعتصم : نعم ، ذلك هو أمرى ومتى وأين سمعت أن أبا عبد الله يبلغ عنا أو بلغ عن آبائنا أمرا غير صحيح ، ونحن إذا كنا قد وافقنا على طلبك بعد إلحاحك ليلة الأمس بشأن القاسم فلتعلم أنه من ذرارى عبيد أسرتنا وكان الأصوب أن تدعوه وتمنّ عليه بحياته ثم ترسله إلى داره بالخلعة والإكرام ، والأسوأ من ذلك إزعاجك لأبى عبيد الله واحتقارك إياه ، ولكن كل يعمل على شاكلته وما ينضح به أصله ، وهل يمكن أن يحب أعجمى عربياً مع ما لحق آباءه من رماح العرب وسيوفهم ؟ فارجع وكن أكثر يقظة وأناة فى المستقبل .

فقام الأفشين محطما وقد جمــــدت أطرافه ، فلما رجع وانصرف قال لى المعتصم : يا أبا عبد الله كيف جاز لك أن تبلغ رسالة لم أذكرها ؟ فأجبته ما كنت لأستحسن إراقة دم مسلم ١٧٨ وسوف يثيبنى الله ولا يؤاخذنى على هذا الكذب، واستشهدت بآيات من القرآن وروايات عن النبى عليه السلام ، فتبسم الخليفة وقال : نعم ، إن ما قلته صحيح وإنى لأقسم بالله أن الأفشين سوف لا ينجو من يدى لأنه غير مسلم . فدعوت الله كثيرا وابتهجت لنجاة القاسم

وبكيت . وقال المعتصم : نادوا حاجبا فنادوه فأتى ، فقال له : اذهب إلى دار الأفشين بجوادنا الخاص ، وأركب أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى ثم سر به عزيزا مكرما إلى دار أبى عبد الله . فذهب الحاجب وانصرفت أنا كذلك . وكنت أتمهل فى السير حتى تأكدت أن القاسم والحاجب قد وصلا إلى دارى ثم سرت إلى الدار ، فوجدت القاسم جالسا فى الدهليز ، فما أن رآنى حتى انكب على يدى وقدمى ، فاحتضنته وقبّلته وأدخلته الدار وأجلسته مكرما ، وكان يبكى ويشكرنى فقلت له لا تشكرنى بل اشكر الله وأمير المؤمنين لهذه الحياة الجديدة التى فزت بها . ثم ذهب به حاجب المعتصم إلى داره موفور الكرامة .

وفى هذه الحكاية عبرة لمن يريد أن يعرف مقدار ما كان عليه هؤلاء الأكابر . والآن وقد ذهبوا جميعا لم يبق منهم إلا هذا الذكر الجميل ، وكل غرضى من سرد هذا القصص أن أفيد القراء ، وها أنذا بعد الفراغ أعود إلى كتابة التاريخ والله أعلم بالصواب .

قصة شنق الأمير حسنك الوزير « رحمة الله عليه »

سأعقد فصلا فيما يختص ببداية أمر شنق هذا الرجل ثم أعقبه بشرح ما جرى بعد ذلك .

إن هذا اليوم الذى أبدأ فيه بذكر هذه القصة يوافق شهر ذى الحجة من سنة أربعمائة وخمسين (١٠٥٩) فى العهد المبارك للسلطان الأعظم أبى شجاع فرخ زاد ابن ناصر دين الله أطال الله بقاءه ، هذا ولم يبق حيا من هؤلاء القوم الذين سوف أتكلم عنهم غير اثنين اعتزلا فى زاوية . ولم نتطرق إلى ذكر الخواجة أبى سهل الزوزنى إذ قد توفى منذ عدة أعوام وهو الآن مشغول بأداء الحساب عما قدمت يداه ، ورغم أنى كنت أكره هذا الرجل فإنى لن أخوض فى التحدث

عنه بأى حال لأنى أيضا نيفت على الخامسة والستين وسألحق به عما قريب ١٧٩ وان أسوق فى التاريخ الذى أنا بصدده مايستشف منه رائحة التعصب والخصومة كيلا يقول قراء هذا الكتاب إنه كان من الأولى لهذا الشيخ أن يستحى ، بل سأقول ما يوافقنى عليه القراء ولا يجدون فيه مطعنا على . وأبو سهل هذا علوى النسب وقد كان عزيز النفس فاضلا أديبا ، ولكنه كان فى نفس الوقت مجبولا على الخبث ولؤم الطبع ولا تبديل لخلق الله ، وكان لخبثه لا يرق لأحد بل كان دائما يترصد غضب سلطان عظيم جبار على خادم فيضربه ويقبض عليه فيخرج الرجل من زاويته وينتهزها فرصة ويكيد لهذا الخادم ويلحق به الضرر الشديد ثم يفاخر قائلا : ها قد دبّرت لفلان ، ولو كان حقا ما يقول فقد رأى وذاق بدوره طعم ما عمل أيضا ، وكان للعقلاء يعلمون أن الحقيقة غير ذلك ، فيهزون رؤوسهم ويضحكون منه سرا لأنهم كانوا يعرفون أنه يبالغ فى قوله . ولكنه مع كل المكائد والحيل التى كان يحيكها للإيقاع بأستاذى أبى نصر ما استطاع أن يناله بسوء ، وذلك لأن مكائده لم تقترن بقضاء الله تعالى فى شأنه ولأن أبا نصر كان بصيرا بعواقب الأمور أيضا ، فإنه أيام السلطان محمود كان يرعى خاطر الأمير مسعود من غير خيانة لمخدومه ذلك لأنه كان متأكدا من أن سرير الملك سيكون له بعد أبيه . أما حسنك فلم تكن أحواله كذلك فإنه آذى شعور مسعود لأن هواه كان مع الأمير محمد وراعى جانب السلطان محمود ، ففعل ما فعل وقال ما لا يحتمله منه الأكفاء فكيف بملك ؟ مثله كمثل جعفر البرمكى وهذه الطبقة التى وليت الوزارة على أيام هرون الرشيد فكانت عاقبة أمرهم ما لحق بهذا الوزير ، وجدير بالعبيد والخدم أن يحفظوا ألسنتهم مع سادتهم ، فمن المحال أن يكون للثعالب مجال مع الأسود . أجل إن أبا سهل ، مع كل ما له من نعمة وجاه وأتباع كان يعد بالنسبة إلى الأمير حسنك كقطرة من بحر أما حديث الفضل والعلم فمجاله غير هذا المكان .

وقد صدرت عن حسنك أخطاء تحدثت عنها قبل هذا فى التاريخ ، وأحدها أنه قال يوما لعبدوس قل لأميرك إننى أفعل كل ما أفعل بأمر من مولاى ١٨٠ فإذا نلت يوما سرير الملك فمر بشنق حسنك ، فلا جرم أن أركبوه على المركب الخشبى عندما صار هذا الأمير ملكا ، وما شأن أبى سهل وغيره فى ذلك فإن حسنك ذاق عاقبة تهوره وتعديه ولم يكن السلطان ليغض النظر بأى حال من الأحوال عن أشياء ثلاثة : الخلل فى الملك وإفشاء السر والتعرض للمرض ونعوذ بالله من الخذلان .

وعندما جاؤا بحسنك من بُست إلى هراة سلّمه أبو سهل الزوزنى لخادمه على رايض فأذاقه هذا من أنواع الذل والهوان ما أذاقه لأنه لم يكن وقتئذ يسأل عنه فقد جرى عليه ما جرى من التشفى والانتقام ، وأخذ الناس لذلك يسلقون أبا سهل بألسنة حداد ويقولون إنه من الممكن ضرب مسكين عاجز والرجل كل الرجل من عفا عند المقدرة فقد قال الله تعالى عز ذكره وقوله الحق «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين[1] » .

وحينما سار السلطان مسعود رضى الله عنه من هراة قاصدا بلخ ، كان على رايض يسوق حسنك مقيدا ويهينه انتقاما منه وتشفيا فيه وتعصبا عليه ، هذا مع أن عليا كان قد أسر لى يوما بقوله لقد راعيت هذا الرجل كثيراً وما أنزلت به سوى عشر ما كان يأمرنى به أبو سهل من العذاب ، ولقد وقف فى بلخ وألق فى روع السلطان أنه لابد من شنق حسنك وكان السلطان حليما كريما . وقد أخبرنى معتمد عبدوس أنه بعد قتل حسنك سمع أستاذه يوما يقول إن السلطان قال لأبى سهل لابد من حجة تجيز قتل هذا الرجل . فأجاب أبو سهل أى حجة أكبر من كونه قرمطيا قبل خلعة المصريين (الفاطميين) مما أدى إلى

---

(١) سورة ٢ آية ١٣٤ .

استياء أمير المؤمنين القادر بالله فانقطع عن مكاتبة السلطان محمود، وما زال إلى الآن يذكر ذلك، ويذكر مولانا أنه حين جاء رسول الخليفة إلى نيسابور باللواء والخلعة كانت المشافهة فى هذا الباب فيجب والحالة هذه رعاية جانب الخليفة فى ذلك. فقال السلطان: سوف أفكر فى هذا الأمر ١٨١

إن استاذى قص علىّ بعد ذلك قصة عن عبدوس الذى كان شديد الحقد على أبى سهل؛ حيث أن أبا سهل تكلم كثيرا فى هذا الشأن فقد قال السلطان يوما للخواجة أحمد حسن عند رجوعه من البلاط، فليجلس الخواجة وحده فى الطارم فإن له مشافهة على لسان عبدوس. فذهب الخواجة إلى الطارم ودعانى السلطان رضى الله عنه وقال: قل للخواجة أحمد إن حال حسنك غير خافية عليك فقد أنزل على قلبى آلاما عديدة وهو يعرف ما أبتغى تحقيقه من خطير المقاصد بعد وفاة والدى فى زمن أخى ولكنه لم يستطع شيئا، لأن الله تعالى منحنا الملك والسرير بغير عناء فالأفضل أن نتقبل أعذار المذنبين ولا نشغل بالماضى، إلا أنهم يتكلمون فى عقيدة هذا الرجل وعن قوله إنه قبل خلعه الفاطميين دون مرضاة الخليفة فتألم أمير المؤمنين وقطع المراسلات مع والدى، كما قالوا إن الرسول الذى جاء إلى نيسابور يحمل العهد واللواء والخلعة أفضى بمشافهة فقال إن حسنك قرمطى ينبغى أن يشنق، وكنا قد سمعنا ذلك فى نيسابور ولكننا لا نتذكره جيداً، فما رأى الخواجة فى هذا الأمر وماذا يقول.

فلما بلغت مقالة السلطان للخواجة أحمد فكر مليا ثم قال: ماذا يدعو أبا سهل الزوزنى إلى المبالغة فى الإصرار على قتل حسنك إلى هذا الحد؟ فقلت لا أستطيع أن أعرف سبب ذلك تماما إلا أنى سمعت أن أبا سهل ذهب يوما راجلا وعليه دراعه إلى دار حسنك، فأهانه أحد الحجاب وطرده. فقال ياسبحان الله وما خطر هذا الإيذاء حتى يكون سببا فى مثل هذا الجزاء، ثم مضى

يقول : قل للسلطان إنه فى الوقت الذى كان العبد معتقلا بقلعة كالنجر [1] وقد هموا بقتلى وحفظنى الله من كيدهم نذرت لله نذراً وأقسمت به أيمانا أن لا أخوض فى دم إنسان بحق أو بغير حق ، وإنه فى الوقت الذى جاء حسنك من الحج إلى بلخ ، وكنا متجهين شطر ما وراء النهر وقابلنا قدرخان أقصينا بعد العودة إلى غزنة ولا أعرف ماحدث بعد ذلك ، ولا أعرف ماجرى من حسنك ولا ما كان من شأن السلطان الماضى مع الخليفة من حديث فى أمره فالأولى أن يُسأل ١٨٢ أبو نصر مشكان فى هـذا الباب لأنه عارف بحقيقة ما كان ومولانا السلطان ملك يأمر بما ينبغى ، وحتى إذا ثبت أنه قرمطى فإنى لن أتكلم فى دمه كيلا يقال إن له قصداً فى ماله الذى أصبح اليوم لى ، فأنجو بذلك من أن يتكلموا بشأنه معى فإنى برىء من دم أهل العالم كله ، ومع هذا فإنى لا أبخل بالنصيحة على السلطان فأكون خائناً كيلا يراق دمه أو دم أى واحد لأن إراقة الدماء ليست لعباً . وقال عبدوس: بعد أن أبلغت السلطان هذا الجواب أطرق مليا ثم قال : قل للخواجة إنا سنأمر بما ينبغى . فنهض الخواجة وسار نحو الديوان وخاطبنى أثناء الطريق بقوله: يا عبدوس احرص ما استطعت على حمل السلطان على أن لا يريق دم حسنك لأن ذلك مما يورث سوء السمعة . فقلت سمعاً وطاعة وعدت إلى السلطان فتكلمت معه. إلا أن القضاء كان بالمرصاد يعمل عمله.

ثم جلس السلطان مسعود بعد ذلك مع أستاذى وعاد فقص علينا مادار فى تلك الخلوة من الحديث ، قال إن السلطان استفسر منى عن خبر حسنك ثم حكايته مع الخليفة وسألنى : ماقولك فى دين هذا الرجل ومعتقده وقبوله خلعة المصريين؟ فأخذت أقص عليـــه أحوال حسنك وسفره إلى الحج وسيره من المدينة إلى

(١) جاء فى حاشية يب : كالنجر كلمة هندية مركبة من لفظين ، كالن وكر . الأول بمعنى الأسود والثانى (وقد أصبح فى العربية جر) بمعنى القلعة . فالكلمة معناها القلعة السوداء وكانت قلعة شمالى لاهور وجنوبى كشمير .

وادى القرى فى إيابه عن طريق الشام وأخذه خلعة المصريين وضرورة أخذها ثم خروجه من الموصل دون أن يعرج على بغداد ، وتوهم الخليفة إن كل ذلك بأمر السلطان محمود . وقد شرحت كل ذلك تماما فقال السلطان مسعود : فماذا يكون ذنب حسنك بعد هذا فإنه لو سلك طريق البادية فى العودة لكان سببا فى إراقة دماء كل ذلك الخلق . فقلت : هكذا كان واقع الأمر إلا أنهم أوغروا صدر الخليفة من جهات عديدة حتى أركبوه مركب العناد ودعا حسنك بالقرمطى ، وجرت بهذا المعنى مكاتبات واتصالات عديدة ١٨٣ وقال السلطان الماضى يوما بطبعه الضجر اللجوج يجب أن يكتب لهذا الخليفة الخرف بأنى قد أدخلت إصبعى ، من أجل العباسيين ، فى كل جهات العالم أبحث عن القرامطة واشنق كل من أجده وتثبت عليه القرمطية ولو تحقق لنا أن حسنك قرمطى أيضاً لعرف أمير المؤمنين ما أفعل به ، وإنى أنا الذى ربيت حسنك وإنه ليتساوى عندى مع أبنائى وأخوتى ، فإذا كان حسنك قرمطياً فإنى قرمطى كذلك . ومع أن ذلك الكلام لم يكن جديرا بالملوك فإنى ذهبت إلى الديوان وكتبت ماينبغى أن يكتبه الرعايا للملوك ، وفى النهاية استقر الرأى بعد الغدو والرواح الطويل على أن يرسلوا تلك الخلعة التى أخذها حسنك والطرائف التى أرسلها المصريون إلى السلطان محمود مع رسول إلى الخليفة ببغداد حتى يحرقوها . وبعد أن عاد الرسول سأله السلطان عن المكان الذى أحرقت فيه الخلع والطرف لأنه كان قد تألم لاتهام الخليفة حسنك بالقرمطية ومع كل ذلك أخذ الخليفة يزداد حقدا وتعصباً إلى أن توفى السلطان محمود . هذا وقد بيّن العبد كل ماجرى تماما . فقال أجل لقد أحطت بذلك .

بيد أن أبا سهل لم يكف عن المكائد حتى بعد هذه الجلسة ، وفى يوم الثلاثاء لسبع وعشرين خلون من صفر وقد انتهى الاستقبال قال السطان للخواجة : يجب أن يعقد مجلس بالطارم وأن يؤتى هناك بحسنك ويحضر القضاة والمزكون

حتى يكتب باسمنا كل ماقد ابتاعه ويشهد على نفسه . فقال الخواجة : سأفعل ذلك . وذهب إلى الطارم واستدعى كل من يعتبر من السادة والأعيان وصاحب ديوان الرسائل والخواجة أبا القاسم مع أنه كان معزولا وأبا سهل الزوزنى وأبا سهل الحمدونى وأرسل السلطان نبيه الفقيه ونصر بن خلف قاضى العسكر إلى هناك وكذلك ذهب من كان حاضراً من قضاة بلخ وأشرافها وسراتها وعلمائها وفقهائها وعدولها ومزكيها من أصحاب الشهرة والوجاهة وحسن السمعة فاجتمعوا كلهم هنالك وجلسوا .

وبعد أن التأم هذا الجمع الكبير بقيت أنا أبو الفضل وجم غفير من شتى الناس خارج الإيوان منتظرين مجيء حسنك ساعةً . وبدا حسنك من بعيد ١٨٤ بلاقبو د مرتدياجبة قديمة حبرية اللون تضرب إلى السواد ودراعة ورداء نظيفين للغاية وعمامة نيسابورية منسجمة وخفا ميكائيليا جديدا . وكان شعر رأسه مصففاو مختفيا تحت العمامة فيما عدا قليل منه . وكان يصحبه أمير الحرس وعلى رايض وكثيرون من الرجالة من كل صنف فذهبوا به إلى الإيوان حيث مكث إلى قرب صلاة الظهر .

ثم أخرج وأعيد إلى الحرس وخرج فى أثره القضاة والفقهاء . وقد سمعت كلاما يدور بين اثنين عن ماذا دفع الخواجة أبا سهل إلى أن يعمل على فضيحة نفسه . وعلى الأثر خرج الخواجة أحمد مع الأعيان عائدا إلى داره . وقد سألت صديقى نصر بن خلف عما جرى ، فقال : عندما جاء حسنك نهض الوزير ومن أجل هذا التكريم الذى أبداه الخواجة نهض الجميع أرادوا أم لم يريدوا ، إلا أن أبا سهل الزوزنى وكان لا يتمالك نفسه من الغيظ تقاعس فى القيام ولم ينهض كل النهوض . فقال له الخواجة « أنقص فى كل الأمور يا أبا سهل ؟ »

فانفعل غاية الانفعال . ومع أن الأمير حسنك أصر على ألا يجلس بإزاء الخواجة إلا أن هذا لم يقبل ذلك فجلس إلى يمينى وأجلس الخواجة أبا القاسم وأبا نصر مشكان عن يمينه ومع أن الخواجة أبا القاسم كثير كان إذ ذاك معزولا فإنه كان يحترم للغــــاية . واشتد غيظ أبى سهل لجلوسه عن يسار الخواجة . ثم أقبل الأستاذ الرئيس بوجهه على حسنك وسأله قائلا « كيف حال السيد وكيف تمر الأوقات » فأجاب « شكرا لله » وقال الخواجة « ينبغى أن لا تحزن لأن الرجال عرضة لمثل هذه الأمور ، فينبغى الطاعة لكل ما يقضى به مولانا ، وما دامت الروح فى البــــدن فإنه يرتجى مائة ألف فرج وراحة » .

فلم يستطع أبو سهل صبرا وقال « كيف يسوغ لمولانا أن يخاطب مثل هذا الكلب القرمطى الذى سيشنق بأمر أمير المؤمنين بهذا الكلام ؟ » فنظر الخواجة شذرا إلى أبى سهل . وقال حسنك « إنى لا أعرف من هو الكلب فإن العــالم كله يعرف ما كان لى ولأسرتى من مجد وعظمة ومال ونوال . لقد حكمت الدنيا ودبرت شئونها ونهاية كل آدمى الموت ، فإذا قدر لى أن أشنق اليوم فليس باستطاعة أحد أن يمنع قتلى بالمشنقة أو بغيرها ، وأنا لست أعظم قدرا من الحسين . إن هذا السيد الذى يخاطبنى بهذا الأسلوب قد مدحنى بشعره ووقف على باب قصرى . أما حديث القرمطى فالأولى أن يوجه إليه لأنهم اعتقلوه ولم يعتقلونى من أجل ذلك وهذا شىء معروف ولا علم لى بهذه الأشياء » . فاغتاظ أبو سهل وصرخ فى وجه حسنك رافعاً صوته بالسباب فنهره الخواجة قائلا « ألا ينبغى أن تراعى ١٨٥ حرمة هذا المجلس السلطانى الذى اجتمعنا فيه ؟ لقد اجتمعنا اليوم للقيام بأمر فإذا انتهينا منه ، فإن هذا الرجل قد مضى عليه خمسة

أو ستة شهور وهو تحت رحمتك الك أن تصنع به ماشئت » فكف أبو سهل ولم ينبس ببنت شفة حتى انتهى بهم المقام .

وكانوا قد كتبوا حجتين دونوا فيهما كل ما يمتلك حسنك من الأسباب والضياع باسم السلطان ، فتليت عليه أسماء الضياع واحدة بعد أخرى وأقر من جانبه بيعها إلى السلطان عن طواعية واختيار . وتسلم الورق الذى كانوا قد عينوه ثمنا لها . وشهد على ذلك أولئك الرجال . وسجل الحاكم ذلك فى المحضر وعمل القضاة مثل ذلك على الرسم فى أمثاله . وبعد أن فرغوا من كل ذلك قيل لحسنك ينبغى العودة . فالتفت نحو الخواجة وخاطبه قائلا « أطال الله بقاء الأستاذ الرئيس إنى على عهد السلطان محمود قد تطاولت بأمر منه عليه ولم أكن فى ذلك مصيباً . ولكن لم يكن بد من الطاعة فقد أسندوا إلىّ الوزارة كرها ، ولم أكن أهلا لها . ولكنى لم أقصد الخواجة بسوء وكنت أراعى حق أهله » . ثم قال « لقد أخطأت وإنى لمستحق أية عقوبة يأمر بها مولانا ولكن المولى الكريم لم يتركنى وشأنى . والآن وقد قطعت الأمل فى الحياة فإنى لا أهتم إلا بأهلى وأولادى وأرجو أن يصفح الخواجة عنى » ثم انفجر باكيا .

فرقت قلوب الحاضرين له ، وترقرق الدمع فى عين الخواجة وقال له « أنت فى حل منى ولا ينبغى أن يبلغ اليأس بك هذا الحد ، فالأمل أن تصلح الأمور وقد دعوت الله وعاهدت نفسى أمامه تعالى على أن أرعى جانب أهلك وأولادك إذا ما جرى القضاء » .

ثم نهض حسنك وقام الخواجة وكل من حضر وأخذ يلوم أبا سهل بعد أن تفرق الجمع فاعتذر للخواجة كثيراً وقال « غلبت علىّ الصفراء فعجزت عن كبح جماح نفسى » .

وقد أنهى كل من قاضى العسكر ونبيه الفقيه إلى السلطان كل ما جرى

فى ذلك المجلس . فاستدعى السلطان أبا سهل ، وأخذ يعنفه بشدة ويقول له « لنفرض أنك متعطش لدم هذا الرجل ولكن كان ينبغى أن يكون لوزيرنا مهابة وحرمة » . فقال أبو سهل « نعم ١٨٦ . إننى ذكرت ذلك الجفاء الذى ارتكبه فى حق مولاى فى هراة على عهد السلطان محمود فلم أتمالك نفسى . ولم يقع منى أكثر من هذا السهو » . وقد سمعت من الخواجة العميد عبد الرازق أن أبا سهل حضر عند أبى فى عشية تلك الليلة التى شنق فى صباحها حسنك وسأله والدى فيم أتيت ؟ فقال « لا أبرح من عندك حتى ينام السلطان حتى لا تكتب رقعة إلى السلطان بالشفاعة لحسنك فى هذه الآونة . »

فقال والدى « لقد كتبت ، ولكنك أتلفتها وهـــذا جد قبيح » وذهب إلى مخدعه .

وفى ذلك اليوم وتلك الليلة دبروا خطة صلب حسنك . فألبسوا رجلين ملابس السعاة وكأنهما آتيان من بغداد برسالة من الخليفة ، يقول فيها : « يجب صلب حسنك القرمطى وقتله رمياً بالحجارة حتى لا يجرؤ أحد بعد ذلك على ارتداء خلعة الفاطميين على رغم الخلفاء أو يمر بالحجاج خلال تلك الديار » . وبعد أن مهدت الأمور ركب السلطان مسعود قاصداً الصيد واللهو لثلاثة أيام ليطرب مع ندمائه وخاصته وجمع من المطربين ، وكان ذلك يوم الأربعاء ليومين بقيا من شهر صفر . وأمر وهو فى المدينة صاحب شرطتها أن يقيم مشنقة مما يلى مصلى بلخ بساحة شارستان . فأخذ الناس يسيرون إلى ذلك المكان وجاء أبو سهل ممتطيا جواده إلى قرب المشنقة ، ثم وقف على ربوة عالية وكان الخيالة والرجالة قد ذهبوا ليأتوا بحسنك . فلما أخرجوه من ناحية سوق العشاق وتوسط ساحة شارستان ، كان ميكائيل قد وقف بجواده لاستقباله ، وأخذ يسبه بأشنع الألفاظ ودعاه « ياخائن » . فلم يلتفت إليه حسنك ولم يُحر جواباً . فلعنه عامة الناس لفعلته هذه الشنعاء ولتلك الشتائم التى جرت على لسانه . أما

خواص الناس فلا يمكن أن يقال ماذا أرادوا بميكائيل هذا . وكان ميكائيل هذا زوجا لأخت أياز[1] وقد تجرع غصصا كثيرة وبلايا لا تحصى من بعد واقعة حسنك ، وهو اليوم حى يقضى بقية عمره فى العبادة وتلاوة القرآن . وإذا ارتكب صديق كبيرة فلا مناص من بيانها . وجاءوا بحسنك إلى المشنقة ونعوذ بالله من قضاء السوء . وكانوا قد أوقفوا السعاة ليمثلوا دور الآتيين من بغداد . وكان القراء يقرؤن القرآن وأمروا حسنك بخلع ملابسه فمد يده وأحكم رباط إزاره وعقد أسفل سراويله ، ثم خلع جبته وقميصه وطرحهما مع عمامه وبقى عريانا بالإزار واضعاً إحدى يديه على الأخرى .

وبدأ جسمه أبيض كاللجين ووجهه فى جمال مائة ألف حسناء فانفجر ١٨٧ الناس باكين من أجله بكاء مرا وجىء بخوذة من حديد لستر الوجه تعمدوا أن تكون ضيقة بحيث لا تستر رأسه ووجهه ونادوا أن غطوا رأسه ووجهه حتى لا يتلفهما قذف الحجارة لأنا سنرسل رأسه إلى الخليفة ببغداد . وكان حسنك واقفا فى موضعه يحرك شفتيه كأنه يقرأ شيئا ، حتى جاؤا بخوذة أوسع . وفى هذه الآونة جاء المدعو أحمد جامه دار راكبا وخاطب حسنك بقوله : « إن السلطان يقول إن هذه كانت أمنيتك التى كنت تطلبها بقولك لنا (إذا ما تبوأت سرير الملك فاصلبنى) وقد آثرنا الصفح عنك . بيد أن أمير المؤمنين كتب يقول إنك أصبحت قرمطيا وأمر أن يصلبوك » . فلم يحر حسنك جوابا البتة . ثم غطوا رأسه ووجهه بالخوذة الواسعة ، التى كانوا قد أتوا بها، وأمروه بالعدو ولكنه لم يأبه بهم ولم يخشهم . فقال كل من حضر « أما تستحيون؟ مادمتم تريدون قتل الرجل فأصلبوه » . وكاد يظهر هياج شديد بين الناس لولا أن الفرسان حملوا عليهم وهدأوا ثورتهم ، وساقوا حسنك إلى المشنقة . وأركبوه

---

(١) أنظر عن اياز جهار مقاله الترجمة العربية عزام والخشاب ص ٤٢ .

مركبا لم يركبه من قبل ، وربطه الجلاد بإحكام وسحب الحبال ، ونادوا هلموا فارشقوه بالحجارة . فلم يمد أحد يدا إلى حجر بل أخذ الكل فى البكاء والنحيب ، ولا سيما أهل نيسابور . فأعطوا حفنةمن الأوباش نقودا ليغروهم بقذفه بالحجارة . ولكن الرجل كان قد مات لأن جلاده كان قد وضع الحبل فى العنق وخنقه . فهذا هو حسنك وتلك هى أيامه . ولقد كان رحمه الله يقول دائما « إن دعاء النيسابوريين يكفينى » ولكنه لم يكفه . وإذا كان قد استطاع أن يغتصب أرض المسلمين وماءهم فما بقى له أرض ولا ماء . ولم يغنه شيئا كل ماملك من غلمان وضياع وأسباب وذهب وفضة ونعمة . فمضى لشأنه ، وكذلك مضى كل من مكروا به رحمة الله عليهم أجمعين . وتنطوى هذه القصة على كثير من العبر . فهاهم قدتركوا كل هذه المنازعات والخصومات التى أثاروها من أجل حطام الدنيا جانباً ، ورأينا كيف تؤول كل هذه الخصومات[1] والمنازعات إلى زوال . والأحمق كل الحمق من يتعلق بأسباب هذه الدنيا فهى تعطيه نعمة ولكن سرعان ما تسلبها منه قسرا ويبقى فى أسوأ حال .

لعمرك ما الدنيـــا بدار إقامة إذا زال عن عين البصير غطاؤها

وكيف بقاء الناس فيها وإنما يُنال بأسباب الفنـــاء بقاؤها

ويقول رودكى ما معناه ١٨٨ :

« لا يسوغ للضيف أن يثق بهذه الدار الفانية دائما . إذ لابد أن تنام يوما تحت التراب ولو كنت اليوم تنام فوق الديباج ، وما الفائدة من وجودك بين الآخرين فى حين أنك ستلزم بالدخول إلى القبر وحدك ، وسيصاحبك فى القبر الديدان والبعوض ، عوضا عن الذوائب الحسناء . ان الذى زين شعرك وجمّله

---

(١) فى النص « مكاوحت » بمعنى المخاصمة والمنازعة . غنى ـ فياض حاشية ٤ .

بالرغم من أنه أخذ الدينار والدرهم ، إذا ما رآك ، مصفر الوجه اليوم ، فسيعمى قلبه ويغض الطرف عنك . »

وبعد أن فرغوا من هذا غادر أبو سهل والقوم وبقى حسنك وحيدا كما جاء وحيدا من بطن أمه . ثم سمعت من أبى الحسن الخربلى[1] وقد كان صديقى ومن خاصة أبى سهل يقول كنت معه يوما فى مجلس الشراب وكان حفلا تنتظم فيه كل أنواع الطرب والمطربين والمغنيين وكثير من الخدم وكان أثناء ذلك قد أوعز بأن يأتوا خفية برأس حسنك موضوعة فى طبق عليه غطاء . ثم خاطبنا قائلا « لقد أحضروا لنا فاكهة فى غير أوانها حتى نأكل منها » . فقال الجميع « أجل فلنتناولها » . فقال « أحضروها » . فجىء بطبق ورفعوا عنه الغطاء بعيدا ، وإذا به رأس حسنك . فغلبتنا الحيرة جميعا . وفقدت الوعى . فضحك أبو سهل . واتفق أن كان الكأس فى يده فسقط منه . ثم أعادوا الرأس . ولمته على هذه الفعلة فى يوم آخر كنت فيه مختليا به فأجاب « أنت رجل ضعيف ، هذا ما يجب فعله بالعدو » . ولما فشا الخبر بهذا الحديث لامه الجميع . وفى اليوم الذى صلبوا فيه حسنك لم يتناول أستاذى أبو نصر الإفطار ، وبدت عليه سيماء الحزن والتفكير العميق بصورة لم أره عليها من قبل . وكان يقول متسائلا . أى أمل لنا بعد هذا ؟ . وكان الخواجة أحمد حسن على هذه الشاكلة أيضا . ولم يجلس فى الديوان . وبقيت جثة حسنك معلقة بالمشنقة ما يقرب من سبع ١٨٩ سنوات . حتى يبست وصارت أشلاء قديمة وتناثرت فلم يبق منها أثر . ومن ثم استأذنوا فى دفنها فدفنوها . بيد أن أحدا لم يعلم أين دفنت الجثة ، ولا أين طرحوا الرأس . وكانت أم حسنك فيما أعلم امرأة ثابتة الجنان . وسمعت أنهم أخفوا عنها

---

(١) وردت فى بعض النسخ حربلى أو جرملى أو جربلى . فى يب ومج : خربلى ، مو : جرملى ، وفى نسخة بدل مو : جربلى ولا يعلم أيهم أصح . غنى — فياض حاشية ٢ .

خبر ابنها لشهرين أو ثلاثة . فلما سمعت بالخبر لم تجزع كعادة النساء ، بل أخذت تبكي بحرقة وألم ، حتى بكى من حولها من الحضور دما ، ثم سكتت هنيهة وقالت « يا لولدي من رجل عظيم ، يمنحه ملك كالسلطان محمود عالم الدنيا فيمنحه ملك آخر كالسلطان مسعود عالم الآخرة » . فأعجبت تلك الكلمة كل عاقل سمعها . وأقامت له مأتما عظيما . وقد نظم شاعر من شعراء نيسابور قصيدة في رثائه أذكر منها هذين البيتين :

أقطعوا رأسه لأنه كان رأس الرؤوس وقد كان زينة الدهر وتاج الملك فإذا كان قرمطيا أو يهوديا أو كافرا فقد كان صعوده من التخت إلى المشنقة عملا منكرا »

وقد حدث مثل هذا في التاريخ . وذلك عندما تولى الخلافة عبد الله ابن الزبير[1] رضي الله عنهما في مكة وخلا له الجو في الحجاز والعراق ، واستولى أخوه مصعب من قبله على البصرة والكوفة والسواد . فسار إليه عبد الملك بن مروان من الشام إلى العراق بجيش جرار ذي عدة وعدد عظيمين . ووقعت بينهما حرب طاحنة قتل فيها مصعب وعاد بعدها عبد الملك إلى الشام ، فأرسل الحجاج على رأس جيش كثيف إلى مكة . وقد جاء تفصيل تلك الأخبار في كتب التاريخ . وقدم الحجاج بجيشه إلى مكة ودارت الحرب بينه وبين عبد الله بن الزبير فحوصرت مكة ، والتجأ عبد الله إلى المسجد الحرام . ودامت الحرب سجالا . ثم قذفت الكعبة بحجارة المنجنيق ، حتى انهار ركن من أركانها . ولما ضاق عبد الله بالأمر ذرعا كف عن القتال . فأرسل الحجاج إليه يقول « لم يكن قد بقي على أسرك سوى يوم أو يومين وإني لعلى يقين من أنك لن تخرج بالأمان الذي أقطعه لك . فأخرج على حكم عبد الملك ، حتى أبعث بك إلى الشام غير

---

(١) تروى هذه الحوادث في كتب التاريخ الإسلامي ، كالطبري في حوادث عام ٧٣ باختلاف يسير في الألفاظ وآثرنا ترجمة كلام المؤلف .

مقيد عزيزا مكرما ليرى رأيه فيك إذ ذاك ، وتحقن الدماء ولا يزداد الخراب بالمسجد الحرام » . فقال عبد الله « سأنظر فى ذلك » . ثم اجتمع فى تلك الليلة بمن بقى من أصحابه وتداول معهم فى الأمر ، فرأى جلهم الخروج حتى تهدأ ١٩٠ الفتنة ولا يصاب بمكروه . فذهب إلى أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق ، رضى الله عنها ، وشرح لها الحال . فأطرقت أسماء هنيهة ، ثم سألته « أكان خروجك هذا ياولدى على بنى أمية للدين أو للدنيا » ؟ فقال « والله ما كان إلا من أجل الدين . ودليلى على ذلك أنى ما أقتنيت درهما من الدنيا وذلك معلوم لديك » . فقالت « فحينئذ لتصبرن على الموت والقتل والمثلة كما صبر أخوك مصعب من قبل . فان أباك الزبير بن العوام ، وجدك لأمك أبو بكر الصديق رضى الله عنه . أنظر ما فعل الحسين بن على رضى الله عنهما ، لقد كان كريما ولم ينزل على حكم عبيد الله بن زياد » . فقال « يا أمه وإنى لأرى ذلك أيضا ، ولكنى قصدت أن أرى رأيك فى هذا الأمر ، فالآن وقد علمته طاب لى الموت شهيدا ، بيد أنى أخشى أن يمثل القوم بى بعد قتلى » . فقالت الأم « إن الشاة المذبوحة لا يضيرها السلخ وتقطيع أوصالها » .

وبات عبد الله يصلى الليلة طولها ويتلو القرآن . ثم اغتسل وقت السحر وأدى صلاة الصبح جماعة . وتلا فى ركعتيه سورة « نون والقلم » وسورة « هل أتى على الإنسان » . ولبس لامته وتمنطق بسلاحه ولم يحارب راجلا أحد من العرب مثل ما حارب . ثم احتضن أمه مودعا إياها وكانت أمه فى ذلك الحين تثبت درعه على قامته وتخيط أبطه وهى تقول « عض على النواجذ فى حرب هؤلاء الفاسقين » .

وبدأت تلاطفه كأنما هى ترسله لتناول الفالوذج . ولم يظهر عليها جزع النساء البتة ، وخرج عبد الله فرأى أن جيشه تركه وانصرف عنه وتفرق أيدى

سبأ ، إلا زمرة قليلة من أهله صمموا على الثبات معه ، وكانوا مدججين بالسلاح من دروع ولامات ومغافر على أتم أهبة . فنادى أن هلمّوا إلىّ فولوا جميعاً وجوههم شطره فأنشد عبد الله هذا البيت :

إنى إذا أعرف يومى أصـــبر   إذ بعضهم يعرف ثم ينكـر

ولما بلغوا ساحة الحرب وقفوا . وكان اليوم يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين (٦٩٢) وطلع الحجاج من الناحية الأخرى بجيش كثيف . وعبأ أهل حمص فى مقابل الكعبة ، ورجال دمشق تجاه باب بنى شيبة ، وجند الأردن إزاء باب الصفا ١٩١ والمروة ، وجيش فلسطين أمام باب بنى جمح ، وعسكر قنسرين أمام باب بنى سهم ، ووقف الحجاج مع طارق بن عمرو ومعظم الجيش فى موضع المروة حيث نصبوا الراية الكبرى .

وعندما رأى عبد الله بن الزبير أن جيشاً يفوق الحصر والحد قد أحدق به من كل ناحية خاطب قومه قائلا « يا آل الزبير لو طبتم لى نفساً عن أنفسكم . كنا أهل بيت من العرب اصطلمنا فى الله لم تصبنا زباء بتة . أما بعد يا آل الزبير فلا يرعكم وقع السيوف فإنى لم أحضر موطناً قط إلا ارتثثت فيه من القتلى وما أجد من دواء جراحها أشد مما أجد من ألم وقعها ، صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم فإنى لا أعلم امرؤا كسر سيفه واستبق نفسه . فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل غضوا أبصاركم عن البارقة وليشغل كل امرىء قرنه ، ولا يلهينكم السؤال عنى ولا تقولن أين عبد الله بن الزبير إلا من كان سائلا عنى فإنى فى الرعيل الأول ، ثم قال :

أبى لابن سلمى أنه غير خالد   ملاقى المنـــايا أى صرف تيمما
فلست بمبتاع الحيــاة بسبة   ولا مرتق من خشية الموت سلما

ثم قال على اسمه تعالى « هلموا أيها الأحرار واحملوا على الأعداء » . وبرز كالأسد الضارى يصول على الأعداء من كل جانب وفى كل ناحية . وكانوا

يفرون من وجهه كما تفر الثعالب من وجه الأسود رغم أنه لم يكن معه فى كل صولة أكثر من عشرة رجال . فحاربوا فى استماتة الأعداء الكثيرين ، وحمى وطيس القتال ، فأبدى عبد الله بأسا ورمى فى وجه الحجاج بكافة الرجال المحتشدين تجاه الابواب ، فأشرفوا على الهزيمة . وأمر الحجاج أن يتقدموا بالراية وبرز من كان فى القلب ممن تمتع بالراحة من الشجعان المبارزين واشتبكوا بعضهم ببعض وفى أثناء هذا الاشتباك أصيب عبد الله الزبير بحجر صلد أدمى وجهه فرفع صوته قائلا :

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا يقطر الدما

وأصاب صدره حجر آخر أشد قوة فارتعشت منه يداه ، ورأى أحد مواليه الدماء تسيل فصرخ قائلا « لقد قتل أمير المؤمنين » وكان الأعداء لا يعرفونه لأنه كان قد غطى وجهه . فلما سمعوا صياح الرجل ، وعرفوا أنه عبد الله ، أسرع إليه كثير من الرجال فاحتووه بسيوفهم وقبضوا عليه . ثم أخذوا رأسه وحملوه إلى الحجاج فسجد شكرا وارتفع صوت ينادى « لقد قتل عبد الله بن الزبير » أما أتباعه فقد صبروا وثابروا حتى قتلوا عن آخرهم . وهدأت الفتنة ودخل الحجاج مكة وأمر بإصلاح الركن الذى انهار بفعل المنجنيق ، كما أمر بتشييد مبانى أخرى ، وبعث برأس عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما إلى عبد الملك بن مروان كما أمر بصلب جثته . ونقلوا خبر مقتله إلى أمه فلم تجزع وقالت « إنا لله وإنا إليه راجعون ، لو لم يفعل ولدى هكذا ما كان جديراً أن يدعى بابن الزبير وسبط أبى بكر الصديق رضى الله عنهما » . وبعد مدة سأل الحجاج « ماتعمل هذه العجوز ؟ » فأنبؤوه بمقالها ، ومبلغ صبرها فقال « ياسبحان الله العظيم لو كانت عائشة أم المؤمنين وشقيقتها هذه من الرجال ما انتقلت هذه الخلافة إلى بنى أمية أبداً ، فلعمرى لهذا هو الصبر ولهذا هو القلب . فاحتالوا حيلة لتمروا بها على جثة ولدها لكى نرى ما تقول » .

فكلفوا جماعة من النسوة بهذا الأمر فاحتلن عليها ومررن بها على جثة ولدها المصلوب . فلما شاهدت المشنقة وعرفت جثة ابنها التفتت إلى امرأة ، وكانت من أشرف النساء ، قائلة « أما آن الوقت ليُنزل هذا الفارس عن جواده » ولم تزد شيئاً على ذلك وذهبت .

واتصل هذا الخبر بالحجاج فغلبه العجب . وأمر بإنزال عبد الله ودفنه . وفى هذه القصة رغم طولها فوائد عديدة وفضلا عن ذلك فقد سقت الحديث فى واقعتين ليعلم ١٩٣ أن حسنك كان له أقران أعظم شأناً فإذا لحقه شيء مما لحقهم فليس ذلك بعجيب . كما أن أمه إذا كانت قد تمالكت نفسها ولم تجزع وفاهت بمثل ذلك القول الذى مر بنا فى موضعه فلا يشك فى ذلك أحد ويقول « هذا أمر ليس بالمستطاع لأن الفرق بين الرجال والنساء كبير » وربك يخلق ما يشاء ويختار .

وعندما أمر هرون الرشيد بقتل جعفر بن يحيى البرمكى أوعز بأن تقطع جثته إلى أربعة أوصال تعلق على أربعة مشانق وهذه الحكاية جد معروفة ولن أوردها خشية أن يطول الكلام ويمل القراء وتلهيهم أحداث التاريخ فينسبون لأبى الفضل ما لا يليق نسبته . وكان هرون قد كلف سرا رجالا ليقبضوا على من يقربون مشانق جعفر ويبدون التأثر والتفجع ويترحمون عليه فيأتوا بهم إليه حتى يعاقبهم . وبعد مضى مدة على هذا الأمر ندم هرون على ما ارتكبه بالقضاء على البرامكة . واتفق أن بصريا[1] كان يسير يوما فوقعت عيناه على إحدى مشانق جعفر فقال يخاطب نفسه :

---

(١) ينسب المؤلف هذين البيتين إلى رجل من البصرة وهى قطعة مشهورة فى الجزء الخامس عشر ص ٣٤ من الأغانى وقد نسبت مع بيتين آخرين للفضل ابن عبد الصمد الرقاشى وقد رواها ابن عبد ربه فى العقد ج ٣ ص ٢٦٦ ضمن تلك القصيدة المروعة :

هدأ الخالون عن شجوى وناموا　　　وعينى لا يلائمها منام

أما والله لولا خوف واش وعين للخليفة لاتنام
لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام

فوصل خبر هذا الرجل فى الحال إلى الرشيد فقبضوا عليه وأحضروه إليه فقال له قد سمعت نداء منادينا ، فلم ارتكبت هذا الخطأ ؟ .

فقال « أجل لقد سمعت المنادى ، ولكن للبرامكة علىّ يد بيضاء لم يسمع أحد بمثلها فأحببت أن أؤدى حقها سراً ، ١٩٤ وفعلت وقد أخطأت فى التخلف عما أمر به مولاى ، فإذا كان البرامكة جديرين بما هم عليه فإنى جدير بكل ما يلحقنى » فسأله هرون عن خبره ، فقص عليه الرجل قصته ، فبكى هرون وعفا عنه. وهذه الحكايات الطوال لا تخلو من العبرة والنادرة والنكتة .

هكذا قرأت فى أخبار الخلفاء إذ يقول أحد الكتاب إن أبا الوزير[1] أقامنى على ديوان الصدقات والنفقات على عهد هرون الرشيد ، وكنت أتصفح بعد نكبة البرامكة[2] جريدة عتيقة فرأيت مكتوباً فى ورقة : حملوا بأمر أمير المؤمنين إلى الأمير أبى الفضل جعفر بن يحيي البرمكى أدامه الله من الذهب كذا ومن الفضة كذا ومن الفرش كذا ومن الكسوة والطيب وأصناف النعيم كذا ومن الجوهر كذا ومن النقود ثلاثين ألف ألف . ثم حانت منى التفاته إلى ورقة

= ونسبها الى سليمان الأعمى

على أن ابن خلكان فى ج ١ ص ١٥٤ ذكر أبياتا من أول تلك القصيدة ونسبها الى الرقاشى ، ولكن صاحب العمدة حسب تحقيقه يرى أن شعر هذين الشاعرين اختلط وتعسر تمييز شعر أحدهما من الآخر . غنى — فياض حاشية ١ .

(١) إذا كان المقصود بأبي الوزير هو وزير الخليفة المتوكل ، فينبغى أن تكون عبارة « على عهد هرون الخ » . متعلقة بقوله « كنت أتصفح » أى كنت أتصفح جريدة عهد هرون الخ (غنى — فياض) .

(٢) يظهر أن المراد بلفظ الجريدة فى ذلك الزمن ما نسميه اليوم بالملف أو الدوسيه .

أخرى فوجدت مكتوباً فيها أنهم أنفقوا فى هذا اليوم أربعة دراهم وأربعة دوانيق. ونصف لشراء النفط والحصير من السوق لإحراق جثة جعفر البرمكى وسبحان. الله الذى لا يموت أبداً .

وقد طالعت أنا أبو الفضل كتبا كثيرة ، وخاصة ما اختص منها بالسير ، فالتقطت منها الكثير . وقد ذكرت أمثال هذه الحكايات فيما ذكرت من أنواع. الكلام الذى أسوقه ضمن هذه الأخبار . حتى يستيقظ النيام والمفتتنون بالدنيا، والذين يعملون مالا ينفعهم اليوم ولا غدا .

وكذلك صلبوا « ابن بقية الوزراء » فى العهد الذى استولى فيه عضد الدولة. فنا خسرو على بغداد وقتل ابن عمه بختيار المعروف بعز الدولة فى الحرب التى وقعت بينهما ، وهى قصة طويلة جاءت فى أخبار آل بويه فى كتاب التاجى الذى ألفه أبو إسحق الكاتب[1] وكان ابن بقية الوزراء هذا رجلا فاضلا ذا نعمة وآلة، وعدة ومكانة كبيرة إلا أنه كان متهورا[2] . وكان فى نفس الوقت الذى يقوم فيه بتدبير شئون الوزارة لبختيار ، يؤدى شئون الوزارة للخليفة الطائع لله . ١٩٥ولقد أظهر أثناء نزاع كان قائما بين بختيار وعضد الدولة سوء الأدب والاعتداء. والتهور ، ولم يتبصر فى العواقب . فقام بين رجل كعضد الدولة وآخر خامل. كمولاه بتلك الأفعال التى كان إتيانها خطأ كبيرا ، ولم يستطع مغالبة القضاء . فلا جرم أن أمر عضد الدولة بعد الاستيلاء على بغداد ، بصلبه وقتله بالسهام والحجارة .

---

(١) يقصد أبا إسحق الصابى المعروف . غنى ـ فياض ٢ .

(٢) يرجع فى أخبار ابن بقية هذا الى تجارب الأمم لابن مسكويه الجزء الثانى ، فلعله أكثر المصادر فى هذا الموضوع غنى وقيمة . غنى ـ فياض ٢ .

وقد قيلت فى رثائه هذه الأبيات[1] :

علو فى الحيـــاة وفى الممات ... لحق أنت إحـــدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصـــلات
كأنك قائم فيهم خطيبـــا ... وكلهم قيـــام للصلاة
لعظمك فى النفس تبيت ترعى ... بحفاظ وحراس ثقـــات
مددت يديك نحوهم احتفالا ... كمدهما إليهـــم بالهبات
وتشعل حولك النيران ليـلا ... كذلك كنت أيام الحياة
ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستنابوا ... عن الأكفان ثوب السافيات
ركبت مطية من قبـــل زيد ... علاها فى السنين الماضيات
وتلك فضيلة فيهـــا تأس ... تبعد عنك تعيير العـــدات
ولم أر قبل جذعك قط جذعا ... تمكن من عناق المكرمات
أسأت إلى النوائب فاستثارت ... فأنت قتيـــل ثأر النائبات
وكنت تجير من صرف الليالى ... فعاد مطالبـــا لك بالترات
وصير دهرك الإحسان فيـه ... إلينا من عظيم السيئات
وكنت لمعشر ســـعدا فلما ... مضيت تمـــزقوا بالمنحسنات
غليـــل باطن لك فى فؤادى ... يخفف بالدموع الجاريات١٩٦
ولو أنى قدرت على قيـــام ... لفرضك والحقوق الواجبات

---

(١) هذه القصيدة لأبي الحسن محمد بن عمر الأبارى وهى جد معروفة وهى من درر أشعار الرثاء ، وقد صححنا هذه القصيدة على كتب أخرى ، وخاصة ابن خلكان طبع بولاق ، (فتى — فياض حاشية ١)

ملأت الأرض من نظم القوافى ونحت بها خلال النائحات

وما لك تربة فأقول تسقى لأنك نصب هطل الهاطلات

ولكنى أصبّر عنك نفسى مخافة أن أعد من الجناة

عليك تحية الرحمن تترى برحمات غواد رائحات

وهذه الأبيات الجميلة من نظم ابن الأنبارى وهو يريد ببيته « وركبت مطية من قبل زيد » زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين . وكان زيد هذا قد ضاق بظلم بنى أمية وعسفهم فخرج عليهم أيام خلافة هشام بن عبد الملك . وكان نصر بن سيار إذ ذاك أمير خراسان وقصة هذا الخروج طويلة موضحة فى التواريخ . وكان آخر أمره أن شنق وقتل رحمة الله عليه وبقيت جثته معلقة على المشنقة مدة أربع سنوات ، حكم الله بينه وجميع آل الرسول وبينهم . وقد حث سديف شاعر بنى العباس أبا العباس السفاح على قتل بنى أمية فى القصيدة التى من جملتها هذا البيت :

واذكرن مصرع الحسين وزيد وقتيلا بجانب المهراس[1]

هذا وقد انتهيت من سرد قصة صاحب حسنك مشيرا خلالها إلى عدة حكايات ونكت طويلة محكمة للغاية . فلعل القراء يصفحون عنى ويقبلون اعتذارى ويتلقون هذا منى بعناية . وها أنذا أعود إلى ذكر التاريخ فإن عجائب كثيرة مازال وراء الستار سأذكرها إن شاء الله تعالى إن بقيت حيا .

ذكر إنفاذ الرسل فى هذا الوقت الى قدرخان

لتجديد العقد والعهد بين الجانبين

١٩٧ عندما تقابل السلطان محمود رضى الله عنه مع قدر خان وتوثقت عرى الصداقة بينهما نتيجة للعقود والعهود التى ذكرناها فيما مضى بالتفصيل ، تمّ الاتفاق بينهما على أن تخطب الحرة زينب رحمة الله عليها لبغراتكين ابن قدرخان الذى كان يعرف إذ ذاك باسم بغراخان ، وكان حياً يرزق إلى السنة الماضية أى عام أربعمائة وتسع وأربعين (١٠٥٧) ، وقد أظهر من الحرص والأثرة ما أدى إلى القضاء عليه بيد أرسلان خان ، فقتل ابن أخ له تلك المكانة ، ولكنه بعد أن استقر أمره مات وسوى بالتراب . وعجبا لأولاد آدم عليه السلام يقتلون ويهلكون بعضهم بعضاً دون وجل أو حياء من أجل هذا العرض الزائل الذى سرعان ما يزول فيضطرون إلى تركه عشية الحصول عليه أو ضحاها ، فلعمرى ما هى الفائدة التى تعود عليهم من هذا ؟ وأى لبيب تحدثه نفسه بالإقدام على مثل هذا ؟ ولكن ما الحيلة وتلك سنة القدر التى لا يستطيع أحد التغلب عليها . ومن جهة أخرى فقد عقدوا للأمير محمد على ابنة قدرخان فقد كان السلطان محمود فى تلك الحقبة من الزمن يجد ويجتهد فى أن يرفع من شأن ابنه محمد فى كل شىء وما كان يدرى ما وراء ستار الغيب . فلما قبض على الأمير محمد ولم يتيسر الإتيان بتلك الفتاة تقرر الإقدام على عقد نكاح جديد عليها للسلطان مسعود رضى الله عنه فاحتفل السلطان المذكور يوم الإثنين فى الثالث من

---

(١) ورد فى ابن الأثير ج ٩ ص ١١٢ أن أرسلان خان كان ابنا لبغراخان ، ولم يكن ابنا لأخيه ، وقد قضى بغراخان على هذا الأخ وخنقت زوجة بغراخان هذا الولد ، وتشير عبارة الكتاب الى غير هذا .

ربيع الأول من هذا العام بالوزير الخواجة أحمد وأستاذى أبى نصر وتشاوروا طويلا فى هذا الأمر ، حتى اتفق رأيهم على إيفاد رسولين بخطاب وأن يكون أحد الرسولين من جملة الندماء والآخر من جملة القضاة ليقوما بالعهد والعقد .

فأجمع رأيهم على اختيار أبى القاسم الحصيرى ، الذى ما يزال حيا إلى الآن ، ١٩٨ أدامه الله ، وأبى طالب التبانى الذى كان من أعاظم التبانيين فريدا فى الفضل والعلم والورع ذا أناة ، إلى جانب ماكان عليه من بهاء الطلعه واعتدال القامة ، وكان ذا خط جميل وإنشاء أنيق لا يقلان جمالا عن طلعته وقليلا ماوقع نظرى على خط يشبه خطه حسنا فى خراسان . وقد مكث هذا الفتى فى ديار الترك بعد وصوله إليها ثلاثة أعوام ، ثم عاد ناجحا ولكنه مات أثر وصوله إلى پروان على مقربة من غزنة وسأسرد قصته فى مكانها . هذا وقدكتب أستاذى رسالة فى هذا شفها بمشافهتين . وتعد هذه الرسائل نادرة فى بابها . وقد نسختها بخطى ليطلع عليها القارىء ، فإنها تكشف النقاب عن بعض دقائق الأمور .

وقد تلفت تلك النسخة فاضطررت إلى نسخها مرة ثانية كى تعرف لأنها ذات أسرار . وسأبدأ بقصة التبانيين لاتصالها بنكات تتعلق ببعض الملوك ، ثم آتى بصور أخرى فى كل فصـــل من هذه الفصول ، ليتم بها الاطلاع على النوادر والعجائب . وأنا أقوم بذلك وقد أطلت وأملى أن يعذرنى القراء فى زيادة التفصيل .

قصة التبانيـــة

ويجدر بنا عند ذكر التبانيين أن نذكر لمحة عن هذه الأسرة المعروفة فنقول إن التبانيين ينتمون إلى الإمام أبى العباس التبانى رضى الله عنه ، وهو جد الإمام أبى صادق التبانى أدام الله سلامته ، ويعد من المعمرين فى عهدنا هذا ،

ويقيم فى رباط مانك على ميمون ، وهو من العلم وسعة الفضل بحيث يجيب على ما يزيد على مئة فتوى كل يوم ويُعد إمام العصر فى كل العلوم .

وسآتى فى هذا الفصل بذكر أسباب اتصاله بالأسرة المحمودية . ثم أشير بمشيئة الله إلى ما كلفه به ملوك هذه الأسرة رضى الله عنهم أجمعين من الأعمال فى الإمامة والقضاء والمناصب . وجد أبى العباس هذا كان تلميذا ببغداد لأبى يوسف يعقوب بن أيوب الأنصارى ، قاضى قضاة بغداد ، فى أيام هرون الرشيد وتلميذ الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه إمام عصره بلا منازع .

وكان أبو العباس يعد من تلامذة الإمام أبى حنيفة أيضا . فلقد جاء فى مختصر صاعد الذى ألفه الإمام القاضى صاعد رحمه الله وكان مؤدب السلطان مسعود والسلطان محمد ابنى السلطان يمين الدولة رضى الله عنهم أجمعين عند الكلام عن أصول المسائل « إن هذا الرأى من قول أبى حنيفة وإنه هو ما ذهب إليه أبو يوسف ومحمد زفر وأبو العباس التبانى والقاضى أبو الهيثم » .

وكان من هذه الأسرة رجل فقيه يدعى أبا صالح ، وهو خال والدة أبى صادق التبانى هذا ، وقد عينه السلطان محمود إبان وجوده بنيسابور سپهسالارا للسامانيين ١٩٩ ليرسله إلى غزنة ليكون فيها إماما على مذهب أبى حنيفة رحمة الله عليه وكان ذلك فى عام خمس وثمانين وثلثمائة(٩٩٥) . وقد اشتغل بالتدريس فى باب بستان ، فى المدرسة التى هناك ، وتخرج على يده ، وأخذ العلم عنه ، قاضى القضاة أبو سليمان داود بن يونس أبقاه الله . وهو الآن من أبرز علماء تلك المدينة (غزنة) ولكنه بلغ من الكبر عتيا وساءت صحته . كما أن أخاه القاضى زكى محمود ، أبقاه الله ، أخذ العلم عن أبى صالح المذكور أيضا . وقد كانت منزلة أبى صالح هذا لدى السلطان محمود من الرفعة بحيث قال عند وفاته سنة أربعمائة(١٠٠٩) لوزيره الخواجة أبى العباس الإسفراينى :

« اذهب إلى مدرسة هذا الإمام لإقامة مأتمه ، إذ ليس له ولد يقوم بذلك . وكنت قد اعتزمت القيام بنفسى بهذا الواجب استجابة لضميرى ولكن نظرا لأن الناس قد يلوموننى أو يرون فى هذا عيبا رأيت أن تقوم بذلك . وليس بين خدامنا من هو أجل وأعظم منك شأنا لأنك وزيرنا وخليفتنا » .

وكان من جملة عظماء هذه الأسرة الإمام أبو بشر التبانى أيضا رحمة الله . وقد كان علما فى عصر السامانيين ذا ثراء عريض . وكان هذا التشريف عظيما فى ذلك الزمن لأنهم كانوا يضايقون فى الأعمال . ولو أن أحد المطالعين لذلك الكتاب سأل « ما هذا الإطناب الذى يعمد إليه أبو الفضل فى الكلام » فالجواب هو أنى أدون فى هذا التاريخ حوادث وقعت خلال خمسين عاما تناولت فيها الحديث عن كثير من العظماء والسادة من شتى الطبقات ، فإن أديت حقا لأهل بلدتى وزدت فى تعريف أسرة على هذا القدر من العظمة فقد وجب أن يصفحوا عنى .

والآن أعود إلى قصة سپهسالارية السلطان محمود عند السامانيين فأشير إلى بعض النقاط البسيطة من كل باب لما فيها من فوائد . كما أشير إلى إيفاد الإمام أبى طاهر التبانى هذا وقدوم بغراخان والد قدرخان إلى بخارى وانحلال الدولة السامانية فى شهر ربيع الأول من سنة ثمانين وثلثمائة (٩٩٠) . وهى قصة طويلة نكتفى منها بالحديث عن مجيء بغراخان إلى بخارى واستيلائه على الخزائن العظيمة والذخائر النفيسة التى كانت للسامانيين ومرضه بداء البواسير . ولما صحت عزيمته على العودة إلى كاشغر استدعى عبد العزيز بن نوح بن نصر السامانى وخلع عليه وقال له « سمعت أنهم اغتصبوا ولايتك وها أنذا أعيدها إليك . . لما أعهده فيك من الشجاعة والعدالة وحسن السيرة . فلتكن على ثقة بأنى سأكون عونا لك كلما دعت الحاجة إلى العون والمساعدة » . وعاد الخان إلى سمرقند واشتد المرض عليه هنالك وقضى رحمه الله ولكل إمرىء فى الدنيا نفس معدود وأجل محدود .

بيد أن الأمير الرضا [1] كر عائدا إلى بخارى فى يوم الأربعاء من منتصف جمادى الآخرة سنة ثمانين وثلثمائة (٩٩٠): حيث قبض على عمه عبد العزيز المذكور واعتقله، ثم ملأ عينيه بالكافور حتى أعماه، فيما روى ثقة الأمير الرضا أبو الحسن على بن أحمد بن أبى طاهر إذ يقول «كنت حاضرا فى ذلك الوقت الذى كانوا يعمون فيه هذا المسكين، فجزع وبكى كثيرا، ودعا الله ليقتص ممن ظلمه يوم الفزع الأكبر. فلو لم يكن للمظلومين يوم العدل هذا لتمزقت قلوبهم وأكبادهم حسرات فى هذه الدنيا».

وبعد أن استقر الأمير الرضا ببخارى، وجاوز أبو على سيمجور الحد فى الظلم والاستهتار، كتب الأمير نوح رسالة إلى الأمير سبكتكين وبعث رسولا إليه ورجاه أن يتعب نفسه ويأتى إلى صحراء نخشب ليقابله ويدبر معه ذلك الأمر. فسار إليه الأمير سبكتكين بجيش ذا أهبة ومعه فيلة كثيرة واصطحب معه الأمير محمود لأنه كان قد أمر بالإتيان به ليقلده سپهسالارية خراسان. فذهبوا والتقوا هناك ومنحوا الأمير محمود السپهسالارية ولقب سيف الدولة ورجعوا جميعا إلى بلخ. وسار الأمير الرضا بعد ذلك من بخارى بجيش عظيم واتفقوا جميعا وزحفوا إلى هراة حيث كان أبو على سيمجور يرابط هناك ومعه أخوته والأمير فائق وجند كثيف وأخذت الرسل تترى بينهم وبين أبى على سيمجور يومين أو ثلاثة للصلح الذى لم يتحقق، لأن جيش أبى على لم يرضخ فوقعت بظاهر هراة معركة كبيرة فى يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان سنة أربعة وثمانين وثلثمائة (٩٩٤) وانتهت بانكسار أبى على وتقهقره إلى نيسابور وسار أمير خراسان إلى بخارى، فى حين أن حما السلطان محمود أمير جوزجان أبا الحارث فريغون والأمير العادل سبكتكين سارا إلى نيسابور فى سلخ شوال من هذا العام لمطاردة أبى على سيمجور فاضطر إلى الانسحاب إلى جرجان.

---

(١) يقصد: نوح بن منصور.

والآن أدع هذه القصة لأذكرها فيما بعد . فإنها قصة تليق بالتعليق وهى ٢٠١ نادرة للغاية جديرة بالإحاطة تتعلق بسيرة الأمير سبكتكين .

قصة الأمير العادل سبكتكين رضى الله عنه

مع سيده الذى أتى به من التركستان والرؤيا التى رآها سبكتكين

قصّ علىّ الشريف أبو المظفر بن أحمد بن أبى القاسم الهاشمى الملقب بالعلوى فى شوال من سنة خمسين وأربعمائة (١٠٥٨) وهو الحسيب النسيب المعروف بالفضل وجودة النظم فقد نظم قرابة مائة ألف بيت من الشعر فى هذه الدولة وفى الملوك السالفين رضى الله عنهم وأبقى السلطان المعظم أبا شجاع فرخ زاد بن ناصر دين الله قوله : حين ذهب الأمير العادل إلى بخارى ليقابل الأمير الرضا أوفد جدى أحمد بن أبى القاسم بن جعفر الهاشمى إلى أمير بخارى، وسيّر أمير جوزجان معه باعتباره سپهسالارا فأنجزا ما كلفا به سويا . وقد تلطف معه الأمير الرضا ووضع[1] الخراج عن ضياعه التى كانت له فى ناحية حايطى ، وحين توفى جدى كتب ناحية حايطى باسم أبى وأصدر الأمير محمود ، الذى تمكن من الإمارة فى خراسان بعد انقراض دولة السامانيين إذ ذاك ، منشورا بالأمر . وقال جدى : بعد أن فرغنا من حرب هراة وتوجهنا شطر نيسابور كانت العادة المتبعة أن يأتى أمير جوزجان كل يوم بعد الصلاة ومعه أكابر القادة من الخراسانيين والسامانيين ثم يقفون ممتطين جيادهم بباب خيمة الأمير العادل سبكتكين ، وعندما يخرج الأمير من الخيمة يترجل الجمع كلهم ويظلون هكذا حتى يركب جواده فيركبون ويسيرون حتى يصلوا إلى منزل آخر

---

(١) مو : بموضوع : وظاهر أنه مصدر ميمى بمعنى وضع ، وهو اصطلاح ديوانى قال والخوارزمى فى مفاتيح العلوم «الوضع أن يحط على اسمه فيوضع من الجريدة» . غنى ـ فياض حاشية ٢

وعندما بلغ الركب إلى المنزل المعروف بخاكستر[1] مكث الأمير يوما هنالك وتصدق كثيرا على الفقراء ٢٠٢ وبعد صلاة العصر ركب وأخذ يطوف فى تلك الصحارى ومعه جميع الأعيان . وكانت الأكمات وسطوح الجبال متفرقة هنا وهنالك فرأينا الأمير سبكتكين وقد وقف أمام جزء من جبل وقال : ها قد وجدت ، ووقف فى موضعه ، ثم أمر خمسة أو ستة من الغلمان أن يترجلوا قائلا : احفروا موضع كذا ، فأخذوا يحفرون وتعمقوا حتى ظهر وتد ضخم من حديد يشبه ما يستخدم فى ربط الدواب وقد انفصلت عنه الحلقة فاقتلعوه وبعد أن شاهده الأمير سبكتكين ترجّل وشكر الله عز وجل وسجد وبكى كثيرا ثم طلب السجادة وصلى ركعتين ثم أمر أن يحملوا هذا الوتد ثم ركب وظل واقفاً فى موضعه .فقال أولئك العظماء : ما هذا . فقال : هذه قصة نادرة فاسمعوها : قبل أن أقع فى قصر الأمير البتكين كان السيد الذى كنت من مماليكه قد عبر بى وثلاثة عشر غلاما نهر جيحون إلى شبرقان ومنها إلى جوزجان ، وكان والد هذا الأمير إذ ذاك ملكا على جوزجان فحملونا إليه فاشترى سبعة سواى ورفضنى وخمسة آخرين ، فارتحل بنا السيد متجها نحو نيسابور ولما وصلنا مرو الرود وسرخس باع أربعة منا وبقيت أنا ومملوكان آخران وكنت أدعى سبكتكين الطويل ، وشاء الله أن تنفق تحتى ثلاثة من خيل سيدى .

وعند وصولنا إلى هذا المنزل أى خاكستر ، كان قد نفق تحتى جواد رابع فأشبعنى سيدى ضربا ثم وضع السرج على عاتقى فتألمت كثيرا من سوء طالعى وقصور حظى حيث لم يقدم أحد على شرائى وكان السيد قد أقسم أيمانا أن يسوقنى راجلا إلى نيسابور وقد تم ذلك فعلا فنمت ليلتى تلك فى غم وهم شديد . ورأيت

---

(١) لعله الموضع الذى يعرف بهذا الاسم اليوم فى الطريق من مشهد الى مرو . غنى — فياض حاشية ١ .

الخضر فى المنام، فتقدم منى وسألنى ما سبب كل هذا الغم، فأجبته لسوء طالعى. فقال لا تحزن وإنى أبشرك بأنك سوف تكون رجلا عظيما مشهورا وأنك ستأتى يوما إلى هذه الصحراء على رأس جمع غفير من العظماء فطب نفساً وأحسن إلى الناس واعدل بينهم عندما تبلغ هذه المنزلة تطول حياتك ويدوم الملك فى عقبك. فقلت شكرا. فقال مد إلىّ يدك وعاهدنى على ذلك. فسلمته يدى وعاهدته فضغط يدى بقوة ٢٠٣. واستيقظت من النوم. وها أثر تلك الضغطة ظاهر فى يدى ؛ فقمت فى نصف الليل واغتسلت وصلّيت خمسين ركعة ثم دعوت الله كثيرا وأنا أبكى ووجدت نفسى أكثر قوة مما كنت فحملت هذا الوتد وخرجت إلى الصحراء وغرسته ليكون علامة. فلما أصبح الصباح وشددنا الرحال سأل مولاى عن الوتد فلم يجده فضربنى ضربا مبرحا بالسياط وأقسم أيمانا مغلظة أن يبيعنى بأبخس الأثمان، وسرت منزلين راجلا حتى نيسابور وكان بها البتكين سپهسالارا للسامانيين، فكان عظيما، فباعنى وزميلىّ إليه. والحكاية بعد ذلك طويلة إلى أن وصلت إلى هذه الدرجة التى ترونى عليها. والله أعلم بالصواب.

حكاية الأمير العادل سبكتكين مع أنثى الغزال ووليدها ورفقه بهما وما رآه فى المنام

وقد سمعت أيضاً سنة خمسين وأربعمائة (١٠٥٨) فى مدينة بُست من عبدالملك المستوفى، وكان هذا الرجل الشريف شهما يمارس الكتابة وهو مقبول القول كفء، وكان آية فى الاستيفاء عندما استولى الأمير سبكتكين رضى الله عنه على بُست وانقرضت السلالة الباتيوزية[1] أنه كان فى ناحية طالقان زعيم يدعى أحمـــد

---

(١) كان باتيوز واليا فى بست، وقد انتهى حكمه على يد سبكتكين. يرجع الى تاريخ العتبى . غنى — فياض حاشية ١ .

أبا عمرو ، وكان رجلا طاعنا فى السن سديد الرأى ذا ثروة طائلة ، وكان ممن أعجب بهم الأمير سبكتكين من أهل تلك الناحية فأخذ يتلطف معه ويقربه إليه حتى بلغت عنايته به أن كان يستدعيه كل ليلة ويخلى به ويحدثه فى سروره وغمه ويفضى إليه بأسراره ويبقيـــه لديه إلى وقت متأخر . وكان هذا الشيخ صديقا لوالدى أحمد أبى ناصر المستوفى فحكى يوما لأبى وكنت حاضرا هذا المجلس أن الأمير سبكتكين كان يتحدث إليه ذات ليلة ويقص عليه أحواله وأسرار حياته فقال : قبل أن أنتقل إلى غزنة ركبت يوما قبيل صلاة العصر وخرجت إلى الصحراء ببلخ وكان لى حصان واحد سريع العدو قوى بحيث لا يفوته أى صيد ٢٠٤ يقع أمامى ، فرأيت غزالة ومعها وليدها ، فأهجت الحصان وواصلت العدو به فانفصل الوليد عن أمه وبدا مغموما فأمسكته ووضعته أمامى على السرج وعدت وكان النهار قد قارب الغروب وبعد أن سقت قليلا سمعت صوتا فالتفت وإذا بالغزالة أم الوليـــد تئن كأنها تلتمس الخلاص لوليدها . فأعدت الكرة لعلى أمسكها ولكنها فرت كالريح من وجهى فعدت ثانية وتكرر هذا الحال مرتين أو ثلاث والغزالة المسكينة تتبعنى بأنينها واسترحامها إلى أن كدت أصل إلى المدينة فقلت لنفسى ، وقد رق لها قلبى ، أى خير يعود علىّ من هذا الوليد الصغير ينبغى أن أرحم هذه الأم الشفوق فتركت الغزال الصغير بالصحراء فهرول نحو أمه وعلا صوتهما فرحين وأمعنا فى الصحراء ، ثم واصلت السير إلى الدار وقد أظلم الليل وليس لحصانى من شعير يأكله فتألمت كثيرا ونمت كالمهموم فى فراشى ، فرأيت أثناء نومى شيخا طلق المحيا يتقدم نحوى وهو يقول : يا سبكتكين اعلم أنا سنعوضك عن العطف الذى شملت به الغزالة وردك طفلها إليها وتركك حصانك بدون علف . إن المدينة التى تدعى غزنة والقطر الذى يسمى زاولستان منحة لك ولأولادك من بعدك . وإنى مبعوث الله جل جلاله إليك ، تقدست أسماؤه ولا إله غيره . فاستيقظت من النوم قوى الجنان مطمئن الخاطر أفكر

دائماً فى هذه الرؤيا وما سيكون من تعبيرها إلى أن بلغت هذه الدرجة التى أنا الآن فيها وإنى لعلى يقين من أن الملك سيبقى فى أسرتى وعقبى إلى ما شاء الله له أن يكون .

حكاية النبى موسى عليه السلام مع الحمل ورحمته به

وبعد أن قص الشيخ الطالقانى هذه الرؤيا قال أبى : إنها لرؤيا لطيفة رائعة فإن هذه الرحمة عظيمة فى بابها ولا سيما فى حق هذه العجماوات التى لا تملك حولا ولا طولا كالقطط وأمثالها ، وقد قرأت فى القصص أن موسى عليه السلام عندما كان يرعى الأغنام وكان ٢٠٥ وقت الصلاة والليلة مظلمة والمطر يهطل بشدة فساقها إلى الحظيرة ولكن أحد الحملان نفر عندما قارب الحظيرة ، فتألم قلب موسى عليه السلام وجرى فى أثره وكان قد هم أن يضربه بعصاة إن لحق به ولكنه بعد أن قبض عليه رقّ له قلبه وضمه إليه ومسح بيده على رأسه وخاطبه قائلا : أيها المسكين العاجز ، ليس وراءك خوف ولا أمامك أمل فلم هربت وتركت أمك . ومع أنه كان قد جرى فى حكم الأزل أن قد قدر له أن يكون نبيا فقد تأكدت له النبوة لتلك الشفقة التى أبداها على الحيوان الضعيف .

وما قصدت بذكر هاتين الرؤيتين وهاتين القصتين إلا ليعلم ويتأكد أن هذه الدولة ستدوم فى هذه الأسرة العظيمة آمادا طويلة . وأعود إلى القصة التى كنت قد بدأت بذكرها لأتمها .

بقية قصة التبانية

مكث الأمير سبكتكين مدة فى نيسابور حتى استقام الأمر للأمير محمود ثم عاد راجعا إلى هراة وكان أبو على سيمجور يريد الزحف من جرجان إلى

فارس وكرمان للاستيلاء على تلك الأنحاء . فقد كان جو جرجان رديئا فخشى أن يلحق به ما لحق بتاش الذى توفى هناك ولكنه لم يستطع أن يغض الطرف عن خراسان ونيسابور ولات حين مناص ، وقد قيل فى الأمثال يداك أوكتا وفوك نفخ[1] . فلما بلغه أن الأمير سبكتكين رحل إلى هراة وأن ليس مع الأمير محمود سوى شرذمة قليلة من الرجال سولت له نفسه الاستيلاء على نيسابور ثانية . فسار من جرجان فى غرة ربيع الأول من سنة خمس وثمانين وثلثمائة (٩٩٥) وكان معه أخوته والمدعو فائق الخاصة وجند كثيف كامل العدة والعدد ، وعندما وصل خبر ذلك إلى الأمير محمود خرج من المدينة ونزل ببستان عمرو ابن الليث ، على فرسخ واحد من المدينة ، وقد لحق بأبى على سيمجور أبو نصر محمود الحاجب جد الخواجة أبى نصر النوكى لأمه ، كان رئيسا لغزنة ، كما مشى عامة أهل المدينة فرحين باستقبال أبى على سيمجور وقد حملوا أسلحتهم متأهبين للحرب ، وكانت حربا خاسرة ، وأبدى الأمير محمود مقاومة عنيفة ، ولأنهم لم ٢٠٦ يستطيعوا ثباتا فقد أخلوا البستان وانتهت بخروج محمود من ذلك البستان وتراجعوا صوب هراة ، ثم جهز والده حملة من الفرسان وعبأ جيشا عظيما ، حشد فيه رجالا من الهند وخلج ومن كل مكان . وأقام أبو على سيمجور فى نيسابور وأمر بأن يخطب أسمه وما رؤى قط غالب أشبه بمغلوب منه .

وسار الأميران سبكتكين ومحمود من هراة وتركوا والى سيستان وشأنه فى بوشنك ولكنهم أخذوا نجله وجيشا كاملا معهم ، ولما سمع أبو على سيمجور بخبرهم رحل إلى طوس للقتال هنـــاك ، وذهب الأعداء فى أثره وأرسل إليه الأمير سبكتكين رسولا يقول إنك من بيت عريق لا أرغب أن يكون زوال نعمته على يدى فاقبل نصحى وتقدم للصلح حتى تعود إلى مرو وتكون

---

(١) يضرب لمن يجنى على نفسه الحين . مجمع الأمثال للميدانى ، طبعة مصر الجزء ٢ صفحة ٢٣٥

خليفة لنجلى محمود بنيسابور وأتوسط بينكما وأشفع لك حتى يرضى عنك أمير خراسان وتستقر الأمور وتزول الوحشة ، بيد أنى أعرف أنك لن تستجيب لهذا ، ولكن إرجع إلى صوابك وحاسب نفسك جيدا يتضح لك صدق قولى وتعرف أن ما أعرضه عليك نصيحة أبوية ولتعلمن يقينا أنى لست عاجزا ولا أسوق هذا الكلام عن ضعف فإنى بهذا الجيش العرمرم الذى هو تحت إمرتى أستطيع عمل المعجزات بإذن الله تعالى عز وجل ولكنى أريد الإصلاح ما أستطعت ولن أسلك طريق البغى . أما أبو على فكان يحس بآثار الإدبار فلم يستأمن لهذا العرض ، وتحدث بهذا مع خاصته فقالوا جميعا : ما هذا الكلام يجب أن نقاتل . إلا أن أبا الحسن بن كثير والد الخواجة أبى القاسم كان شديد الرغبة فى الصلح ، وقد بالغ فى النصيحة غير أنّ القدر كان واقفا بالمرصاد فذهبت نصائحه أدراج الرياح فإن الإدبار والعياذ بالله إذا حل يخطىء كل تدبير وقد قال الشاعر :

وإذا أراد الله رحلة نعمة . . عن دار قوم أخطأوا التدبيرا

ودارت رحى الحرب بين الفريقين فى مساء الأحد لعشر بقين من جمادى الأخرى سنة خمس وثمانين وثلثمائة (٩٩٥) ، وأبلى الفريقان بلاء حسنا وضربوا ٢٠٧ معظم جيش الأمير سبكتكين ضربة قوية فأشرف على الهزيمة ، بيد أن الأمير محمود ومعه ابن خاف برزا فجأة من كمين على رأس جريدة قد تمتعت بالراحه من الفرسان الشجعان المختارين وأنزلوا الضربات القاضية بفائق وإيلمنكو فألجآهما إلى الفرار ، ولما رأى أبو على ذلك انهزم وفر إلى در رود [١] ليمضى من هناك لشأنه . أما قومه من الأعيان والمتقدمين من أمثال الحاجب أبى على

(١) موضع بين طوس ونيسابور .

وبكتكين مرغابى وينالتكين ومحمد بن الحاجب طغان ومحمد شارتكين ولشكرستان الديلمى وأحمد أرسلان الخازن وأبى على بن نوشتكين وأرسلان السمرقندى فقد أسروا جميعا . وكذلك استردوا جميع الأسرى والفيلة التى كانت قد وقعت فى أيدى رجال أبى على أثناء المعركة الخاسرة التى انتهت بفرار محمد . وقد قال أبو الفتح البستى شعرا فى هذه الحرب :

ألم تر ما أتـــاه أبو على   وكنت أراه ذا رأى وكيس

عصى السلطان فابتدرت إليه   رجال يقلعون أبا قبيس

وصير طوس معلقه فصارت   عليه الطوس أشام من طويس

وهكذا قضت دولة السيمجوريين بخطأ واحد ألم بها ولم تثبت قدمهم بعد ذلك فى أرض وانتهى أبو على إلى خوارزم فاعتقلوه هنالك ، إلا أن خادمه إيلمنكو أقام القيامة على الخوارزميين حتى فكوا أسره ، وانطلت على أبى علىّ حيلة أمير خراسان(1) واستخف بالأمر وجاء إلى بخارى وبعد أن مكث عدة أيام يتردد على بلاط الأمير الرضا قبض عليه وعلى من معه من الرجال وانتزع مالديهم من سلاح وعتاد وخيل وماشية وسيق أبو على وخمسة عشر من أصحابه أسرى إلى قلعة قهندز حيث اعتقلوهم وكان ذلك فى شهر جمادى الأخرى سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة (٩٩٣) وكان الأمير سبكتكين إذ ذاك يقيم ببلخ فأخذ يبعث الرسل والرسائل تباعا إلى بخارى يقول : إن أحوال خراسان لم تستقر وتهدأ ما دام أبو على فى بخارى ، فينبغى سوقه إلينا ليعتقل فى قلعة غزنة. إلا أن ثقات الأمـــير الرضا قالوا لاوجه لإرساله وماطلوا فى الأمر بينما كان سبكتكين يلح عليهم ويهددهم . وكانت أيام السامانيين آخذة فى الزوال أرادوا

---

(1) أى السلطان السامانى .

أو لم يريدوا ، فأرسلوا أبا على وإيلمنكو إلى بلخ فى شعبان هذا العام . وقد حدثنى ٢٠٨ أحد فقهاء بلخ فقال : رأيت هذين الرجلين يأتون بهما إلى بلخ وكان أبو على راكبا على بغلة والقيد فى قدميه وعليه جبة عتابية[1] خضراء وعمامة من الخز فلما وصل إلى كجاجيان[2] سأل من حوله ما اسم هذا المكان فقيل له كذا فقال : أجل لقد أخبرنى المنجمون بأنى سأصل إلى هذا المكان يوما ولكنى ما كنت أعلم أن يكون مجيء على هذه الصورة .
أما الأمير الرضا فقد ندم على إرسال أبى على وقال إن ملوك الأطراف أخذوا يلوموننى ، وكتب رسالة طلب فيها إعادة أبى على ، غير أن معتمد سبكتكين الذى كان يقيم من قبله فى بخارى كتب سرا رسالة بهذا المعنى وصلت إلى سبكتكين قبل وصول كتاب الأمير الرضا فسارع الأمير سبكتكين إلى إرسال أبى على وإيلمنكو مع أحد رجاله إلى قلعة كرديز بغزنة قبل أن تصله رسالة الأمير الرضا ، فلما وصله الرسول أجابه بقوله إن خراسان الآن ثائرة وأنا منهمك فى ضبطها وبعد الفراغ من هذه المهمة سأتوجه إلى غزنة وأعيد أبا على .
وإتفق أن كان أبو الحسن نجل أبى على سيمجور قد إلتجأ إلى بلاط فخر الدولة بالرى حيث أكرموا وفادته للغاية ورتبوا له كل شهر خمسة آلاف درهم ولكنه رجع إلى نيسابور مفتتنا بحب امرأة أو غلام وعاش هناك متواريا عن الأنظار فجد الأمير محمود فى طلبه فقبضوا عليه وساقوه إلى غزنة حيث أودع قلعة كرديز ، ونعوذ بالله من الإدبار . وهكذا انقرض السيمجوريون واستتب أمر السپهسالارية لمحمود وعظم سلطانه ، وكان متعلقا بغزنة فقد أخذ يرسل إليهما كل من يجده من الرجال أو النساء ممن لهم خبرة أو معرفة بصناعة ، وكان

---

(١) العتابى نوع من القماش المموج وينسب إلى محله فى بغداد . ديوان البسته مولانا قارى ، ص ٢ ٢ .

(٢) بلدة قرب بلخ .

أبو صالح التبانى السابق الذكر رحمه الله واحدا من هؤلاء . هذا وقد انتهت هذه الحكاية التى لا تخلو من النوادر والعجائب الكثيرة . وهذا الإمام أبو صادق التبانى رحمة الله عليه الذى يقيم اليوم بغزنة ، والذى ذكرنا شيئا من أمر خاله أبى صالح ، كان يقيم بنيسابور مشتغلا بالعلم ولما أبرم السلطان محمود رضى الله عنه العهد والعقد مع منوجهر والى جرجان ورشح إحدى الحرائر لتزف إليه وحين أراد الخواجة على ميكائيل الذهاب فى سنة اثنتين وأربعمائة (١٠١١) خاطبه محمـــود قائلا : إن التبانيين وتلامذتهم هم من أصدق أتباع مذهب أبى حنيفة ٢٠٩ ولا يمكن الطعن فيهم بأى حال والآن وقد توفى أبو صالح فإذا بلغت نيسابور فاسأل عمن بقى من التبانيين وأيهم يليق بغزنة وبمجلسنا فاتملهم بعطفك وعدهم برعايتنا وحسن اصطناعنا ومعروفنا . فقال : سمعا وطاعة . وعنـــدما جاءوا بتلك الفتاة الحرة إلى نيسابور كنت أنا (أبو الفضل) فى السادسة عشرة من عمرى فرأيت الخواجة المذكور عند قدومه إلى نيسابور فى أبهة وجلال وعظمة وقد أقيمت الزينات وأقواس النصر بحيث لم ير فى نيسابور مثلها يوما . وشمل على ميكائيل جماعة التبانيين أمثال أبى صادق وأبى طاهر وغيرهم بالعناية ووعدهم بكل خير لدى السلطان ، ثم سار إلى جرجان وبصحبته الفتاة ، وكان معه أميرك البيهقى ليكتب إلى السلطان بما يتم من الأمور ، وكان عندئذ يشتغل بالكتابة فى ديوان الإنشاء تحت إشراف عبد الله الكاتب فرأيته إذ ذاك شابا حدثا على أكمل ما يكون ، ثم عاد الخواجة على من جرجان وكان أهلها قد بالغوا فى الاحتفاء به وقدم إلى نيسابور ومنها إلى غزنة .

وفى سنة أربع عشرة وأربعمائة (١٠٢٤) كان السلطان قد أمر حسنك بالذهاب إلى الحج وقال له ابذل العناية فى حق أبى صادق والآخرين عندما تصل إلى نيسابور فلما وصلها احتفى بأبى صادق والآخرين احتفاء بالغا ووعدهم بالحسنى ، ثم أدى الفريضة وعاد صوب بلخ . وكان السلطان محمود إذ ذاك يقيم

ببلخ لإعداد العدة للرحيل إلى قدر خان بعد حلول النيروز ، واصطحب حسنك معه الإمام أبا صادق وعددا من العلماء من نيسابور إلى بلخ . وكان أبو صادق هذا آية فى العلم والكمال ذا فضائل كثيرة بالإضافة إلى معرفته بالشريعة . واستفسر السلطان حسنك عن حال التبانيين فأجاب : إن أبا طاهر يتولى قضاء طوس ونسا ولم يكن مستطاعا الإتيان به دون الأمر العالى فأتيت بأبى صادق . فقال السلطان نعم ما فعلت . وكانت تشغلهم مهام كثيرة فأعادوا أبا صادق . وفضلاً عن ذلك فلم يكن حسنك ليريد أن يذهب به إلى مجلس السلطان لأنه كان قد صمم فى نفسه كما ذكر ذلك لأبى صادق بنيسابور أن يبنى له مدرسة عظيمة فى قمة جبل زنبيل بافان ويقيمه لتدريس العلوم فيها ، ولكن ينبغى أن يعلم أن الفضل مهما أريد إخفاؤه لابد وأن يظهر يوما ما هو كرائحة المسك لا يستطاع إخفاؤها ، فاتفق أن اختلط أبو صادق ٢١٠ مع أبى العباس قاضى بلخ والقاضى على الطبقانى[1] وآخرين من علماء بلخ وطرح على بساط البحث مسائل معقدة للغاية فى الخلاف ، فبرز أبو صادق إلى هذه المسائل وحاز فى حلها قصب السبق بحيث أقر هؤلاء العلماء بأنهم لم يروا قبل عالما مثله وأبلغ أبو بكر الحصيرى وأبو الحسن الكرخى هذا الأمر إلى السلطان محمود فسر بذلك سرورا بالغا واستدعاه إليه ورآه ، ثم أقيم فى حضرته مجلس علم ، أعجب به السلطان أيما إعجاب ، ثم قال له : ينبغى أن تتأهب للرحيل إلى ما وراء النهر ومن هناك إلى غزنة . وانصرف من هذا المجلس . وقصد السلطان محمود عبور النهر (جيحون) ثم خلع على حسنك وأمره بالعودة إلى نيسابور . فقال حسنك لأبى صادق إن السلطان يعتزم القيام بأمر خطير فهو ذاهب إلى أرض غريبة والأعداء كثيرون ولا يعرف أحد ما يكون وأنت رجـــل عالم ولم تعتد

---

(١) كذا ، ولعله : الطبقانى . أو الطايقانى بالياء نسبة إلى قرية من قرى بلخ (ياقوت) عن — فياض حاشية ١ .

الأسفار فلتعد معى إلى نيسابور عزيزا مكرما كيلا تتعرض إلى الأخطار ، فإذا ما أتم السلطان هذه المهمة وعاد إلى غزنة أذهب بك إليها ، فذهب أبو صادق معه إلى نيسابور . واجتمع السلطان محمود بقدر خان وعاد فى الصيف إلى غزنة واعتزم السفر إلى سومنات ، وأمر أن يكتب إلى حسنك بالبقاء فى نيسابور لأننا عازمون على الغزو فى بلاد بعيدة على أن تحضر إلى غزنة بعد عودتنا إليها سالمين . فذهب السلطان وغزا سومنات وعاد سالما مظفرا منصورا وأرسل فى طريقه إلى حسنك ليسارع إلى الخدمة على أن يصحب معه أبا صادق التبانى لحاجة مجلسنا إليه . فسار حسنك من نيسابور تصحبه كوكبة عظيمة من الفقهاء والقضاة والأكابر والأعيان لتقديم التهانى إلى السلطان فوجدوا منه الرعاية والخلع وحصل كل على قدر مرتبته ومنزلته . ومن ثمّ قفلوا راجعين إلى نيسابور. وأمر السلطان بإبقاء أبى صادق وشمله بعطفه وعنايته وعين له ماهية ، وبعد مدة وجيزة أسند إليه منصب قاضى قضاة ختلان حيث كانت هنالك بضع وعشرون مدرسة مع أوقافها ، وعاش طوال أيامه هناك ملكا مهيبا مطاعا ، وبقى هنا ، أى فى الحضرة العليه أدامها الله ، فليبقه الله كذلك لجزيل نفعه ، وسكن فى رباط مانك على ميمون ، وعهد إليه الملوك بمهام جليلة وانتدب من قبلهم رسولا مرات عديدة . وحينما أشرع ٢١١ فى بيان أحوال الملوك سأوضح ما قد أمرونى به إنشاء الله تعالى وأخّر فى الأجل .

وحينما قصد السلطان مسعود الرحيل من الرى إلى نيسابور كان أبو طاهر التبانى يقيم هنالك واستقبل هو والقاضى أبو الحسن بن القاضى الإمام أبى العلا السلطان على عدة مراحل من نيسابور وقد طلب هذا من السلطان أن يجعله قاضى قضاة الرى وتلك النواحى فأجيب إلى طلبه ، ولكن السلطان بعد أن وصل إلى نيسابور وحضر إليه القاضى أبو طاهر قال له : كنا قد عزمنا على إيفادك إلى

الرى لتكون قاضى القضاة فيها ولكنا قد استعملنا أبا الحسن فى هذا المنصب الآن فيجب أن تكون معنا حتى نعهد إليك بمنصب قاضى قضاة نسا وطوس بعد أن تستتب الأمور ويكون نوابك هنالك، وسنضم إليها قضاء نيسابور، وسوف نبعث بك لمهمة خطيرة كبرى فى تركستان لأمر العهد والعقد. وبعد الفراغ من هذه المهمة تعود إلى نيسابور بالخلعة والإكرام حيث تقيم بها فى منصب القضاء ونوابك فى نسا وطوس فإن ثقتنا فيك كبيرة. فقام بالخدمة وعاد مع السلطان إلى هراة واستقرت الأحوال. وارتحل السلطان إلى بلخ وانتهت الأمور إلى ما ذكرته من قبل واختير هذا القاضى، أبو طاهر، رحمه الله للذهاب إلى كاشغر بالتركستان مع الخواجة أبى القاسم الحصيرى سلمه الله لمقابلة قدرخان.

والآن وقد انتهينا من سرد قصة التبانيين، فسأذكر الرسائل والمشافهات للاطلاع عليها إنشاء الله تعالى.

ذكر نسخة الكتاب والمشافهتين مع الرسولين

المذكورين الموفدين إلى تركستان

بسم الله الرحمن الرحيم. مد الله فى حياة الخان الجليل، وبعـــد، عقب وصولنا إلى بلخ سالمين منتصرين واستقرار كل أسباب الملك أمرنا برسالة تتضمن ما يسّر الله لنا من فتوح وغزوات عظيمة لم تخطر ببال أحد، وذلك منذ أن بلغنا ٢١٢ إصفهان حتى الآن، وقد أرسلت هذه الرسالة مع فارس مسرع للوقوف على مضمونها حتى يشاركنا الخان المسرة والمتعة نظراً للود والاتحاد القائم بين الأسرتين، وقد أشرنا إلى أننا سوف نرسل على الأثر رسلا لعقد العهود والمواثيق طلباً لازدياد قوة دعائم الصداقة التى تجشمنا من أجلها عناء كبيراً. وقد أوفدنا إلى الخان أخانا ومعتمدنا أبا القاسم إبراهيم بن عبد الله

الحصيرى أدام الله عزه وهو من جملة ثقات مجلسنا وفى درجة خواص ندمائنا وقد كان موضعاً لعطف وتعدير أبينا السلطان الماضى أنار الله برهانه الذى كان يشاوره فى شئون الملك . وهو اليوم خير ذخيرة للقيام بأعمالنا وقد ظهرت لدينا كفايته وقدرته ، فأوفدناه ليبلغ أزكى سلامنا وأطيب تحياتنا إلى الخان وليبدأ بما كلف به ، ثم يعود بعد أن يتم إنجاز مهمته بصورة مرضية على أساس قويم وقاعدة صحيحة ، وضممنا إليه القاضى أبا طاهر عبد الله بن أحمد التبانى أدام الله توفيقه حتى إذا بدىء العمل فى إبرام العهد والعقد يعمل القاضى النظر فى النسخة التى مع الرسول بحيث تكون شروطها وفقا لقواعد الشرع . وهذا القاضى من أعيان علماء الحضرة ؛ وقد شغل مناصب خطيرة وقام بسفارات جليلة وقد ظهر فى كل منها إخلاصه وتدينه . وقد حملنا الرسول أبا القاسم مشافهة أكثر وضوحاً وتفصيلا ، على أن يعرضها عندما يؤذن له بذلك ، ومشافهة أخرى فى موضوع أكثر أهمية وسوف لا يعرضها إذا لم يجر حديث عنها ولكنه سيعرضها ضرورة إن جرى حديث بشأنها ، لتتم بذلك الأغراض جميعاً . وثقتنا بأبى القاسم قوية بحيث إذا دعى الأمر إلى التوسع فى السؤال والجواب يكون قوله بمثابة كلامنا . فقد تحدثنا معه عدة جلسات فى كل ما يمكن أن يدور الكلام حوله وتلقى منا الأجوبة القاطعة فى كل باب حتى لا يحتاج الأمر إلى أن يتريث لاستطلاع رأينا حتى يتم الأعمال كلها ويعود. وهو يحمل معه بعض الهدايا التى جرت الرسوم فى كل وقت بتبادلها والتهادى بها بين الجانبين فإذا لوحظت بعين الرضا استترت عيوبها ، والمأمول من كرم المقام الجليل أن لا يتأخر الرسل وأن يعادوا بالمراد ٢١٣ سريعاً ، فإن أهل البلدين العظيمين شاخصة أبصارهم نحونا ليروا توطيد دعائم الود بيننا . فإذا ما آب الرسل إلينا بالمراد فينبغى أن يكون معهم رسل ذلك الجانب المحروس ، وإنا عند وصولهم

إلى حضرتنا سوف نبذل كل ما التمسناه لديكم من الصداقة والاتحاد بإذن الله عز وجل .

المشافهة الأولى

يا أخى ومعتمدى أبا القاسم إبراهيم بن عبدالله الحصيرى أطال الله بقاءك، ينبغى بعد أن تصل إلى مجلس الخان أن تبلغه سلامنا بالتوقير والتعظيم ، وأن تقـــدم الهدايا التى أرسلت معك كدليل على الحب والعهد وإن تعتذر عن تفاهتها بأبلغ تعبير ، وقل إن هذا الشيء الحقير إنما أرسل مراعاة للآداب ؛ وقدم الاعتذارات أثر ذلك ، وستقدم الهدايا واللطائف الجديرة بالجانبين ، ثم قل له : إن الخان يعلم أن الناس اليوم فى الإقليمين العظيمين اللذين هما تحت حكم كل منا نحن صاحبي الدولة وكذلك الأجانب من قريب وبعيد شاخصة أبصارهم من كل صوب ليروا ماحصل بيننا من صلات الود والصفاء ، حتى إذا ماتأكدت عرى الاتحاد والألفة بين أسرتينا اللتين هما فى الواقع بحمد الله بيت واحد فرح بذلك أصدقاؤنا والأخيار لأنهم سيقضون الأيام فى أمن ودعة وفراغ بال، واغتم الأعداء والمفسدون وانكسرت قلوبهم إذ يروا سوقهم نافقة وبضاعتهم كاسدة . فالأولى والأفضل أن يكون بيننا نحن الصديقين عهد ونيق يؤكده عقد من الجانبين،فإذا ما تحقق الامتزاج والتواصل بيننا انقطع القيل والقال ونفقت سوق المفسدين والمذبذبين وثلمت أضراس أعداء الجانبين إذ يعلمون تعاطف قلوبنا وتعاونا فيعرفون أن لا مجال لهم بيننا ولن يبلغوا مرادهم بأى حال ، ويعرفون حين تتأكد الصداقة بيننا أننا سيتسنى لنا بالمعاونة والموافقة من الجانبين الاستيلاء على ولايات جديدة والقيام بغزوات خطيرة بعيدة فتبتهج بذلك أرواح الملوك الماضين رضى الله عنهم أجمعين ويرضون عنا لإحيائنا سنتهم فى الغزوات وتشملنا وأولادنا بركاتهم وبعد أن تنتهى من تقرير هذا الفصل ويميل الخان إلى إقرار العهد تأ ٢١٤ خذ

منه وعدا بيوم يراه مناسبا لإبرامه ثم تلتمس أن يحضر بمجلس الخان الأعيان والمعتمد من حشم ذلك الجانب الكريم وكذلك أعمامه وإخوانه وأولاده أدام الله تأييدهم كما يحضر ذلك المجلس أيضا أعيان القضاة والعلماء ، ولتذهب أنت هناك ومعك أبو طاهر حتى تقرر الشروط ، ولتخبر الخان أنه عندما يتم هذا العهد ويصل بصحبتك الرسل الموفدون من قبل المقام الكريم إلى حضرتنا وينالون لقاءنا فإننا أيضا سنوقع عهدا مماثلا لما عرضناه عليكم والذى هو معكم حتى لايقع فيه زيادة أو نقصان . ومن الضرورى أن لا يحدث تغيير أو تحريف فى نصوص العهد ، لأن الغرض كله الصلاح ، وليس من العيب الإلحاح فى أعمال عظيمة كهذه ، لأن العهود كلما كانت أكثر إتقانا كانت أكثر فائدة وإحكاما . وإذا تكلم أحد معتمدى ذلك الجانب فى باب من تلك الأبواب فأحسن الإصغاء إلى كلامه ثم أجبه بما يستحق ولتناظره فيما يجب دون محاباة ، لأن حكم المشاهدة تمت فى يدك . وسنرضى عن كل ما تصنعه ونوقع كل ما تراه صوابا . ولكن يجب أن لا يكون فيما نوافق عليه إضرارا بمصلحة الدولة وإذا ما عرضت لك مسألة أكثر إشكالا ولم تكن قد تلقيت أمرا بشأنها وتحيّرت فيها فينبغى أن تستطلع رأينا وترسل الرسائل مع السعاة المسرعين حتى تُحل تلك المسألة فإن المهمة التى تقوم بها عظيمة ويمكن أن لا ينتهى بحثها فى جلسة أو اثنتين أو أكثر ، ولا ضير فى أن تتأخر فى الوصول إلى الحضرة لأن العبرة فى أن تصل وأنت منجز عملا ناجحا لا يستلزم المراجعة . وعند ما يتقرر العهد يطلب القاضى أدام الله سلامته من الخان أن يجرى على لسانه تلك الشروط والأيمان التى سجلت فى نسخة العهد ، وأن يكون ذلك بمشهد من الحضور وليأخذ القاضى الحيطة التامة ليكون ما بالعهد مطابقا لمقتضى الشرع وليسجل الأعيان شهادتهم ، وبعد أن يتم إنجاز العهد بخطهم كالمرسوم قل للخان : حيث أنه قد تم بيننا عمل على هذه الدرجة من الكمال وسينال أعقابنا بركاته فإننا نرى أن يكون لنا من

بجانب الخان مصاهرتان ، إحداهما باسمنا والأخرى باسم نجلنا أبى الفتح ٢١٥ مودود دام تأييده أكبر أبنائنا وولى عهدنا فى الملك وينبغى أن تكون الوديعة التى تسمى باسمنا من كرائم بنـــات الخان المخدرات وأن تكون الأخرى من كريمات ولى العهد الأمير بغراتكين . على أن تكون العقيلتان الكريمتان كريمتى الطرفين . فإذا رأى الخان لكرم نفسه وسماحة أخلاقه إجابتنا إلى هذا الطلب الذى لا تجيز المروءة والشهامة رده بأى حال ، فليعلم أننا سنستمع إلى كل ما يطلبه منا ، وذلك لكى تتأكد بيننا هذه الصداقة بصورة لا تشوبها أحداث الزمان ، فإذا استجاب .ويقينى أنه يستجيب إذ ليس فى الزمن عظيم مثله، فاطلب موعدا ليوم آخر يتم فيه باليمن والبركة هذان العقدان واصحب معك القاضى أبا طاهر لإتمام العقدين وإنجاز كل ما من شأنه أن يتفق وأحكام الشرع وفرائضه ، على أن يكون صداق وديعتنا خمسين ألف دينار هروى وصداق تلك التى باسم نجلنا ثلاثين ألف دينار هروى كذلك ، وأوعز بعد عودتك من مجلس العقد إلى القائمين على الخزائن معك ليحملوا الهدايا والصلات المرسلة معكم ويسلموها فوديعتان لكل من الخان وولى العهد والخواتين (السيدات) وأمهات الوديعتين ومثلها للأعمام والأقرباء والحشم أدام الله تأييدهم وحفظهم جميعا ، وذلك كما فى الثبت الذى معك . وقدم العذر بقولك إن ما قدمته اليوم ليس أمرا جليلا وإنما هو من باب العمل بالآداب والرسوم . وعندما ترسل المهود لحمل العقيلتين يصحبهما ما تقتضيه الرسوم والعادات المرعية وما يليق بالجانبين الكريمين فى مثل هذه الأحوال . ولينظر الآن لهذه الهدايا بعين الرضا. وبعد الانتهاء من جميع هذه الأمور وإقرار كل هذه الأحوال استأذن للعودة واصحب رسل الخان إلينا حتى إذا وصل الجميع سالمين اقتدينا نحن أيضا بالخان فنقوم بكل ما هو واجب وما من شأنه أن يوثق المودة والوفاق إن شاء الله تعالى .

يا أخى ومعتمدى أبا القاسم الحصيرى أطال الله بقاءك ، لعلهم يسألونك عن حكاية أخينا الأمير أبى محمد أدام الله سلامته فيقولون : فى الزمن الذى حصلت فيه المقابلات والمعاهدات فى سمرقند ، كان هنالك عهود وصلات باسم أخينا وهى مما لا يخفى خبره واليوم ماذا ينبغى عمله من أجلها ؟ إذ أن الشرع لا يجيز بقاءها مهملة بأى حال من الأحوال . فإذا لم يذكروا عنها قليلا أو كثيرا وراعوا جانبنا فيها وتركوا الأمر لنا فلا تتحدث أنت أيضا بشىء عنها حتى يحضر إلى بلاطنا رسل الأمير الكريم بصحبتك فإذا تكلموا ثمت فيها يُرد عليهم حينئذ بما يليق . فإذا طلبوا منك جوابا فها قد بيّنا ذلك حتى يتبين لك أسلوب جوابك فى هذه المشافهة ولا تحتاج إلى رأينا فى شىء منها ، فقل لهم لم يكن خافيا ما كان عليه السلطان الماضى أنار الله برهانه من إعزاز لنا ورعاية وتفضيل فى عهد طفولتنا على جميع أبنائه وأنه قد اختارنا فى عام ست وأربعمائة (١٠١٥) لولاية عهده بعد مدة من انتهائنا من المدرسة ، ثم أخذ العهد والميثاق والأيمان أولا من أخويه نصر ويوسف وبعد ذلك من الأقرباء والموالى والحشم على أن يكون العرش لنا بعد وفاته . واتخذ لهذا الأمر كل ما يجب من الحيطة والعهد فأسند إلينا ولاية هراة وإلى أخينا ولاية جوزجان بعد أن أخذ عليه العهد والأيمان بأن يكون تحت إمرتنا وأن يعمل بطاعتنا عند اعتلائنا سرير الملك ، كما أمر لنا بكل ما جرت عليه العادة بالنسبة لأولياء العهود من الغلمان والأبهة والحشمة وكتخدا يشبه الوزير ومقدم وحجاب وخدم ، وأمرنا فى سنة ثمان وأربعمائة (١٠١٧) بالسير إلى هراة قاعدة خراسان فدخلناها وحضر لدينا بأمره الحشم والقضاة والعمال والأعيان والرعايا واستمعوا إلى حديثنا ، وكان غرضه من ذلك أن يعلم القريب والبعيد بأننا ولى عهده وخليفته

من بعده ، فلبثنا مدة فى هراة وأتمر الناس جميعا بأمرنا فى خراسان . ٢١٧ إلى
أن أوغر الحاسدون والماكرون قلب ذلك العاهل رضى الله عنه علينا لحاكوا
من الدسائس مالم يأت الله بشىء منه أبدا ، ولم يمر شىء منها بخاطرنا ، واحتالوا
شتى الحيل حتى حولوا جميل رأيه فينا فابتاع كل ما حاكوه لنا . ولعل الطبيعة
البشرية التى لا تستطيع أن ترى الشخص الذى يليق بأن يحل محل صاحبها هى
التى دفعت به إلى أن يجفونا ، فاستدعانا من هراة وبعث بنا إلى مولتان حيث بقينا
هنالك مدة كالسجين رغم أنه لم يكن سجنا بالاسم ؛ ورفع منزلة أخينا ، وغمره
بإحسانه ومنحه صنوف النعم حظاً من شأننا ، إلا أنه مع كل ذلك لم يسقط عنا
ولاية العهد ولم ير فى تغييرها وتبديلها رأياً فكان ينهر حسادنا وخصومنا الذين
كانوا يشيرون فى أحاديثهم من طرف خفى إلى هذا الغرض ، فصبرنا مفوّضين
أمرنا إلى الله تعالى حتى منّ علينا بفضله وعطف قلب السلطان رحمه الله علينا
فأدرك بغينا كل ما دبروه ، وكنا أبرياء ولم نقترف ذنبا ، فقد حاكوا أمثال
هذه المكائد فى عهد جدنا الأمير العادل ، أدرك السلطان ذلك وجرى على
لسانه : لقد لحق مسعودا منا ظلم كما لحق بنا من أبينا . فاستقدمنا من مولتان
وأفاض علينا الكثير من عطفه وأرسلنا ثانية إلى هراة . على أنهم مع كل ذلك
لم يرضوا ببقاء قلب السلطان راضيا عنا ، فأخذوا يتقولون مرة بأنى أطلب
البيعة من الجند لنفسى ويقولون أخرى بأنى عازم على السير إلى كرمان
والعراق ، ومن هذه التقولات وأمثالها تغير قلب السلطان علينا ثانية فأخذ
يتابع إرسال العتاب إلينا ، ويعيرنا بمحاسن أعمال أخينا ، وكنا نصبر على كل
ذلك ، فإن الله تعالى لايضيع أجر من استقام وصبر وتوكل عليه وأحسن عملا .
وبلغ من شدة تدليسهم وتزويرهم أن ساوى السلطان بينى وبين أخى فى كافة
مراسيم القصر من ذهاب وجلوس وإياب فى الأوقات التى كان يستدعينى فيها
إلى غزنة كل عام . بل لقد أمر أن أكون مقدّما يوما على أخى وأن يتقدم أخى

علىّ يوماً آخر . وذلك فى تلك ٢١٨ المدة التى كنا فيها فى الدركاه ، كما كان يرسل إلىّ كل يوم قليلا أو كثيراً من اللوم والتوبيخ بينما كان يبعث إلى أخى بالتقدير والثناء . وفضلا عن ذلك فإنه عندما طلب[1] لى ولأخى ولعمى يوسف زيادة الألقاب من الخليفة أمر بتقديم اسم أخى على اسمى ، فلم أضطرب وقلت لا يسوغ غير هذا ، فسكت على ذلك حتى لا يتـــذرعوا بحجة . وعندما بلغ السلطان جرجان فى طريقة إلى الرى ووافاه الحاجب الفاضل العم خوارزمشاه هناك وكانت نيته تهدف إلى أن يتركنى فى الرى وأن يختص أخى بخراسان وقاعدة الملك استشار خوارزمشاه وأعيان الجيش فى ذلك ولما لم تكن لهم الجرأة على إبداء رأيهم التمسوا أن يذهبوا ليتداولوا ويرسلوا إليـــه برأيهم فأجيبوا إلى ملتمسهم . وطال الأخذ والرد فيما بينهم حتى استقر الرأى على أن يبرم عهد بينى وبين أخى ، يقضى بألا يقصد أحدنا الآخر بعد وفاة والدنا ، فلم يجد مسوغا لإسقاط لقب ولايه العهد عنى بأى حال . ثم تقرر أن يؤدى أخى نصيبى بتمامه . فأوفد أخى إلى خراسان واصطحبنى معه ، وضبط تلك النواحى وعهد بأمرها إلىّ ثم عاد بسبب ما اعتراه من مرض كان نذيراً بقرب الأجل وتركنى فى الرى دون جند. وعتاد حتى يطمع فينا كل طامع ، وتسوء سمعتنا ونرجع عاجزين فتنقطع بنا الأسباب ، ولـكن الله تعالى أيدنى بفضله كالعادة فتحققت آمال كثيرة فى شتاء واحد كالقتال مع ابن جهان والقبض على قائد طارم ثم ضربى لابن كاكو والاستيلاء على إصفهان بما هو معروف واضح لدى الخان . وإن لم تـكن هذه معروفة لديه تماما فسوف يقوم بشرحها أبو القاسم الحصيرى فإنه عارف بها . وكنا قد عقدنا النية على السير من هنالك إلى همدان

---

(١) يرجع فى هذا إلى « زين الأخبار » ص ٦٩ . وفى « سياست نامه » ص ١٠٧ حكاية فى هذا الباب « غنى — فياض حاشية ١ .

وحلوان وكرمانشاهان وبغداد ، لولا أن بلغنا بإصفهان نعي والدنا السلطان العظيم والركن القويم رضى الله عنه ، فتغيرت القواعد وكنا قد صممنا على أن نحفظ وصيته ولا نخالفها فى شيء ولكنهم حالوا دون ذلك فاضطررنا إلى أن نعود إلى خراسان فى عقر دارنا ، الأمر الذى بسطناه ٢١٩ تماما على يد فارس وأحاط به الخان خبرا . واليوم وقد استقر أمر الملك علينا وجوبا واستسلم أخونا الذى كانت سيرته فى حياة والدنا كما شرحناه فى هذه المشافهة وجرى ماجرى بعد وفاة الوالد فتمكنت من رأسه شهوة الملك وطمع الحكم والجلوس على العرش وتبديد الأموال الطائلة ومنحها فكيف يصح أن يظل والحالة هذه طليقا ، ذلك لأنه من المستحيل أن يستوعب غمد واحد سيفين فى آن واحد ، ومن صالحه وصالح الجيش والرعية أن يبقى بأمرنا فى مستقر أمين مشمولا بأتم رعاية ، فإن إطلاق سراحه يؤدى إلى اضطرابات خطيرة ، وبعد أن تمضى مدة تستقر الأمور فيها على خير وجه ، سوف نتخذ بحكم المشاهدة وظروف الأحوال ماقدر الله عز وجل فى شأنه . ونحن بعد وقوف الخان على هذه المشافهة نعلم أنه بمقتضى العقل الراجح ومقومات الإمارة والحكم التى منّ الله بها عليه سوف يعذرنا فيما قلنا ولا يرى أن يذكر العقد الذى كان باسم أخى معه ، أدام الله نعمته عليه . فإن الخان يرعى اليوم مصالحنا رعايته لشئون نفسه ونسأل الله عز ذكره أن يوفقنا إلى دوام هذه الصداقة القائمة بيننا إنه خير موفق ومعين . وإذا لم تدع حاجة إلى ذكر هذه المشافهة التى أتى فيها ذكر العهد مع أخينا ولم ينظروا إليهـــا فمن الأولى تركها . ولكن إذا جرى الحديث بشأن هذه الأحوال فإن فى هذه المشافهة الإجابات القاطعة فاشرحها حتى يقتنع بها ، وقل كل ماترى واجباً بيانه فإنك المشاهد لكل الأحوال والخبير الذى لايخفى عليه شيء ، حتى لايبقى باب الكلام فى هذا الأمر مفتوحا بعد ذلك إن شاء الله عز وجل .

* * *

هذه كانت صورة الرسالة والمشافهتين التى يتم بقراءتها وإمعان النظر فيها فوائد كثيرة إن شاء الله تعالى . ومن ثمّ اختلى السلطان مسعود رضى الله عنه ٢٢٠ بالوزير الخواجة أحمد حسن وأبى نصر مشكان صاحب ديوان الرسائل وامتدت الخلوة التى دعى إليها الرسولان حتى صلاة العصر وتكلموا فيما ينبغى الكلام بشأنه مع الرسولين وأصدروا الأوامر فى كل باب وأحضروا قوائم الهدايا مما ينبغى أن يهدى فى اليوم الأول لمقابلتهما الخان ومما يجب تقديمه عند عقد الزواج . وكانت كلها من الهدايا الفاخرة الجليلة حسب الرسم تشتمل على كأسين من الذهب المرصع بالجوهر وعقود من اللؤلؤ وملابس نسجت بالذهب، وأخرى من كل نوع ، رومية وبغدادية وإصفهانية ونيسابورية ، وقطع منوعة من الأقمشة المقصبة وعلب من المسك والعنبر والعود وعقدين من الجوهر المسمى بالدر اليتيم . وكانت هذه الهدايا باسم الخان وابنه بغراتكين والأميرات والعروسين والأعمام والحجاب والحشم . وقد أحضر كل هذا حسب القوائم من الخزائن وعرضت للعيان ثم سلمت بعد ذلك للرسولين. ثم عاد الرسولان بعد أن تقرر أن يذهب معهما بأمر السلطان خازن مع مساعديه وثلة من حمالى الخزينة . وأحضر أبو على القائم بشئون استضافة الوفود والرسل وسلموه الخلعتين الفاخرتين لحملهما مع الرسولين . وبعد أن تم إعداد كل شىء تحرك الركب من بلخ فى يوم الخميس لعشر خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (١٠٣١) .

وسأذكر حديث هذين الرسولين فى موضعه وما جرى بعد وصولهما إلى كاشغر لدى قدرخان : وحديثه معهما عن العهد وشئون الزواج والعقد المحمدى والفترة الطويلة التى بقياها هنالك وما جرى من المفاوضات ومجىء الرسل والسعاة الذين جاءوا يحملون الرسائل ثم عودتهم بالإجابة عنها إلى نهاية ما استقرت عليه الأمور إنشاء الله تعالى .

ذكر القبض على أريارق الحاجب صاحب جيش الهند

وكيف جرى ذلك إلى أن قتل ببلاد الغور

رحمة الله عليه

ذكرت قبل هذا كيف لعب الغرور برأس أريارق صاحب جيش الهند فى عهد السلطان محمود رضى الله عنه وكيف ألقى القبض عليه وهو يتأهب لرفع راية العصيان ، كما ذكرنا ٢٢١ أنه لم يرضخ لحكم الأمير محمد ، وكيف استقدمه الأستاذ الرئيس أحمد حسن بالحيلة من الهند آنذاك وما قال الوزير عند مقابلته للسلطان : إذا كان هنالك حاجة للهند فيجب أن يبعد عنها أريارق . كما بيّنا كيف كان يحضر أريارق كل يوم إبان وجوده فى غزنة إلى الحضرة بصحبة الغازى السپهسالار ومعهما زمرة من المقدّمين والجنود المدرعين ، وكيف كان خاصة السلطان محمود من رجال الحاشية يضايقهم أن يشاهدوا مظاهر التجلة والتعظيم التى يعامل بها هذان الرجلان اللذان لم يكن لهما شأن يذكر فى عهد السلطان محمود واللذان لم يكن لهما من يقوم بتدبير شئونهما من الكتاب المجربين ممن ذاقوا حلو الدهر ومره ، وأى خير ينتظر من أمثال سعيد الصراف وشرذمة الخدم الخاملين . هذا ومن شأن الأتراك أن يجمعوا حولهم أناسا من هذا الطراز لا تجربة لهم ولا رأى أو بصيرة ، فيورطون أنفسهم ومن ثم يبوءون بالندامة والخذلان ولات حين مناص مع أنهم بطبيعتهم أسخياء نشيطون لا يعوزهم شىء من أسباب الزينة والترف ومظاهر الحياة ، ولكنهم لم يلجأوا إلى ركن وثيق للكتابة والتدبير ولم يفرقوا بين يومهم وغدهم . وقصارى القول أن خاصة محمود حين وقفوا على جلية الأمر وعرفوا مواطن ضعف هذين الرجلين أخذوا يحيكون الدسائس ويكيدون للإيقاع بهما ، وكانت

نتيجة إحدى تلك الدسائس أن أوعز السلطان إلى عبدوس ليغرر بعقدّمى الأميرين المذكورين حتى جيء بهما سرا إلى حضرة السلطان فشملهما ببالغ عطفه وكلفهما بأن يراقبا سيديهما وأن يعدا أنفاسهما ويخبرا عبدوس بكل بكل مايعرفانه أو يسمعانه منهما كي يخبر به السلطان، فانخدع الساذجان الخاملان بما لقياه من عطف السلطان إذ لم يدر بخلدهما رؤية مثله حتى فى المنام ولم يفكرا فى أنه إذا سقط سيداهما يوما فسيمسيان أذل من النعال وأخس من التراب، وأنّى لهما أن يفكرا فى ذلك ولم يسبق لهما طلب العلم أو مطالعة الأسفار؛ فبادرا إلى القيام بما طلب منهما وأخذا يفضيان إلى عبدوس ٢٢٢ بكل مايسمعانه إن صدقا وإن كذبا. وكان استياء السلطان يزداد بما يسمعه عن أريارق كما أخذت مكانة الغازى تتضاءل فى نظره إلى حد ما، فازدادت بذلك جرأة أصحاب محمـــود وأخذوا يخوضون فى حقهما ويتكلمون عنهما فى حضرة السلطان الذى كان يصغى إليهم ويسمع منهم، وبهذا نجحت خطتهم ونالوا ماكانوا يأملون، واتفقوا فيما بينهم على أن يبدءوا بإسقاط أريارق، فإذا أسقطوه وبقى الغازى وحيداً، أمكن إسقاطه هو الآخر أيضاً. واتفق أن اطلع خاصة محمود على كلام فاه به الكتخدايان المذكوران يفخران، وكانا ثملين، بأنهما من عبيد السلطان وتحقق لدى المحموديين أنهما انخـــدعا فسارعوا إلى استمالتهما وإكرامهما وإطعامهما وإفهامهما بأنه لو زال يوماً ظل الأميرين أريارق والغازى عنهما فإن السلطان سيسند إليهما المناصب العالية.

وكانت المحنة الثانية أن السپهسالار غازى مع أنه كان داهية لا يستطيع إبليس لعنه الله أن يغرر به[1] وكان لا يشرب الخمر فمال إليها بعد أن نال أمنيته

(١) استخدم النص الفارسي عبارة ترجمتها الحرفية: لا يستطيع إبليس أن يفتل حباله.

وامتلاث جعبته[1] وأفرط فى تناولها . فلما علم السلطان بذلك سقاهما شرابا كثيراً والشراب آفة خطيرة ولا سيما إذا جاوز حده ، ومن اليسير إنجاز كل أمر مع المدمنين على الشراب المفرطين فى احتسائه . بدأ الغازى لأنه كان سپهسالارا بإظهار العطف على الجنود ، فأخذ يدعو كل يوم منهم فوجا إلى داره ويكرمهم بالصلات والشراب وكان أريارق فى ضيافته ، وكان أكابر جند هذين القائدين يمتد حونهما بالتركية عندما تتمكن منهما سورة الشراب ويدعون الحاجب الأكبر بلكاتكين بالمخنث وعلى دايه بعلى ماده (أى الأنثى) وقائد غلمان الخاصة بكتغدى بالأعمى الأعرج كما كانوا يصمون الآخرين بغير ذلك من المثالب وسقط القول .

وقد سمعت بعد القضاء على هذين القائدين عبـــد الله ، كتخدا بكتغدى ، يقول : كان السلطان يلهو ذات يوم بالشراب ولم يستقبل أحدا وعاد الغازى وأريارق معا يصحبان معهما جمعاً من الناس وبادروا إلى الشراب ، فأرسلنى الأمير بكتغدى سرا إلى بلكاتكين وعلىّ لأقول لهما لقد تجاوز هذان الخاملان حدهما فإذا رأيا أن يركبا بحجة الصيد مع عشرين من الغلمان حتى يوافيهما هو مع أبى عبد الله وشرذمة من الخدم ليدبروا لهذا الأمر حلاً ، فقالا هذا رأى جد صواب لنذهب إلى جانب ميخواران حتى ٢٢٣ يحضر القائد ، ومن ثم ركبوا ومضوا وركب بكتغدى أيضاً وأخذنى معه وذهبوا بالصقور والفهود وشتى أنواع الجوارح ، وبعد مسيرة فرسخين وقف هؤلاء الثلاثة على ربوة مع ثلاثة من الكتخدائية هم أنا وأبى أحمد تكلى كتخدا كبير الحجاب والمدعو أميرك معتمد علىّ ، وأرسلوا الغلمان وحاملى الصقور والصيادين للصيد وبقينا نحن الستة . أما السادة فقد بدأوا الحديث بإظهار يأسهم من السلطان ومن تسلط هذين

---

(١) فى النص تفر وهو كيل ووزن وقال إنه معرب كوير أى كوز . غنى — فياض حاشية ٣ .

القائدين عليه فقال بكتغدى ومن العجيب أنه لم يكن فى قصور السلطان محمود أحد وقتئذ أحط منزلة من هذين الرجلين . فقد بلغ من انحطاطهما أن قبّلا الأرض أمامى ألف مرة ، ولكنهما تشجعا وظهرا بمظهر الرجولة وكان الغازى متملقا من المتملقين بينما كان أريارق حماراً من الحمير ، إلى أن رفعهما السلطان محمود مقاما عليا ، فصارا وجيهين ، أما الغازى فقد أدى خدمات جلى للسلطان الحالى إبان وجوده فى نيسابور فتمت له بذلك هذه المنزلة الرفيعة ، ومع أن السلطان يكره أريارق ويحب الغازى فإنه من الممكن أن يتغير على الغازى بعد تورطه فى اللهو والشراب ، إلا أنه لا يمكن العمل على إسقاط هذا مالم يسقط أريارق قبله ، فإذا بقى أحدهما فكأنما سقط كلاهما واسترحنا من شرهما . فقال كبير الحجاب وعلىّ : التدبير أن نهيء شرابا أو أن يغتال رجل أريارق علنا . فرد القائد بكتغدى : لا فائدة فى هذين التدبيرين وليس من المستطاع تنفيذهما بل سنذهب ريحنا ويؤدى ذلك إلى ارتفاع شأنهما والرأى عندى أن يؤجل هذا ونصادقهما فى الظاهر على أن نكل بهما أشخاصاً يدسون الدسائس ويهوّلون فى كل ما يقوله الأتراك وهذان القائدان ويعرض ذلك على السلطان ونرى إلى أين تنتهى الأحوال . فتواطئوا على ذلك وعاد الغلمان وعمال الصيد وكان اليوم ضحى وفتحوا الحقائب المعدة لوسائل السفر وأكل السادة والحاشية والغلمان والأتباع ثم عادوا وساروا للإيقاع بالرجلين حسب التدابير التى كانوا قد أعدوها ، ومرت بضعة أيام على هذه القصة فتغير قلب السلطان على أريارق واعتزم الإيقاع به ، فاختلى بالوزير وأخذ يعدد أخطاءه قائلا : ٢٢٤ سوف يصل الأمر إلى حالة تؤدى بالغازى إلى التهلكة فإن السلطان لا يحتمل مثل هذه الأمور وليس من الجدير أن يتنكب القادة سواء السبيل وإن أبناء السلاطين أنفسهم ينبغى أن لا يروا من حقهم أن يفعلوا مثل هذا ، فمن الواجب اعتقال أريارق حتى يسلك الغازى سبيل الصلاح فماذا يرى الخواجة

فى هذا ؟ فأطرق الوزير يفكر برهة ثم قال : أطال الله حياة ملك العالم ، إن فى ذمتى يمينا ألا أفرط فى أى شىء يمس مصلحة السلطان والحديث فى أمر القواد والجيوش أمر دقيق يعود الرأى فيه للسلطان وحده ، فإذا رأى الرأى العالى فليعفنى من هـــذه المسألة وحدها وليأمر بما يراه صوابا فإنى أخشى أن أخوض فيها بما لا يوافق رأى السلطان فيتغير قلبه علىّ . فقال السلطان : إن الوزير خليفتنا وموضع ثقتنا من بين جميع خدمنا فلا بد من أن نتشاور معه فى أمثال هذه الأمور حتى يعرض علينا ما يراه صالحا فنستمع إليه ثم نراجع بذلك رأينا ونأمر بما يكون صوابا . فقال الوزير : نعم يا مولاى الآن يستطيع العبد الكلام ، أمد الله فى حياة السلطان ، إن كل ما قيل فى حق أريارق سابقا كان فى وقته من باب إبداء الرأى وإسداء النصيحة بشأن الحالة فى هندوستان ، ذلك لأن هذا الرجل الذى حاز مكانة كبيرة فى تلك الأصقاع أخذه الغرور وبدا منـــه التهور والطيش مما أدى إلى الحط من شأنه ، فقد استقدمه السلطان الراحل ، إلا أنه تمهل وماطل فى ذلك وتعلل بشتى الأعذار ، كما أنه لم يذهب أيضا عندما دعاه الأمير محمد وأجاب قائلا : إن ولى عهد السلطان حقا هو الأمير مسعود ، فإذا ما رضى ببقاء أخيه محمد فى الحالة الراهنة ولم يسر من العراق إلى غزنة فسوف أكون عند ذلك رهن إشارتك . ثم إنه عندما سمع باسم مولانا وذكرت له كل ما يجب أن يعرفه جاء معى ، هذا ولم أسمع عنه طول مدة إقامته بيننا أمراً يدل على التهور أو العصيان من ناحيته ، وأما هذا التبسط فى العيش والظهور بالعظمة والأبهة وتناوله الشراب مع الغازى والأتراك دون أن يبادر بالاستئذان فإنه أمر يسير جدا ، وإنى أستطيع تقويمه فى جلسة واحدة معه ، وأرى أنه ليس من اللازم التحدث فى مثل هذه الأمور لا سيما وقد اتسعت البلاد فى عهد السلطان وأصبحت بحاجة إلى رجال قديرين ، والحصول على أمثال أريارق أمر عسير . هـــذا ما أراه والأمر لمولانا .

فقال السلطان : أجل فهمنا ذلك والأمر كما تقول ويجب كتمان هذا الحديث حتى نتأمله طويلا . فقال الخواجة : سمعا وطاعة ، ثم مضى لشأنه .

ولكن أصحاب محمود لم يكفوا عن الكيد والدس بحيث ألقوا فى روع ٢٢٥ السلطان ، أن أريارق يسىء الظن ويخشى على نفسه ويتآمر مع الغازى لإثارة فتنة ، أو يعودا من حيث أتيا إذا لم ينجحا فى ذلك وفضلا عن هذا فإن الجند فى طاعته وهم يأتمرون بأمره . واتفق يوما أن أذن السلطان إذنا عاما فاجتمع الناس كلهم فى حضرته وبعد أن انتهى الاجتماع قال السلطان : لا تذهبوا فإنا عازمون على الشراب . وحضر الحفل أيضاً الأستاذ الرئيس والأمير العارض وصاحب ديوان الرسائل ثم طفق الخدم يأتون بالموائد واحدة تلو الأخرى فوضعت مائدة على السرير أمام السلطان وأخرى أمام أريارق والغازى ووضعت واحدة لأبى سهل الزوزنى وأبى نصر مشكان معا كما خص كل نديمين بمائدة ، وكان أبو القاسم كثير يجلس فى زمرة الندماء ، وقد أعدوا بأمر السلطان الكثير من الحساء المعروف باسم لا كشته[1] ورشته ولما فرغ هؤلاء العظماء من الطعام نهضوا وعادوا إلى الإيوان حيث جلسوا وقد غسلوا أيديهم ، وأثنى الأستاذ الرئيس على القائدين خير ثناء . فأجابا : إنا نحس بكامل عطف السلطان علينا ونحن فداء له ولكنهم يقلقون بالنا ولا ندرى ماذا نفعل . فقال الأستاذ الرئيس : هذه سوداء ووهم باطل سأزيله الآن عنكما فتريثا برهة حتى أفرغ ويدعوكما . وتقدم وحده إلى السلطان وطلب الخلوة ثم أفضى إليه بذلك والتمس منه أن يهدىء من روعهما ويطيب خاطريهما ويرى بعد ذلك رأيه فيهما . فأجاب السلطان : نعم

---

(١) لا كشته : جاء فى حاشية يب لا كشته ولاخشته نوع من الحساء يطبخ من السماق . وجاء فى برهان قاطع أن لاخشته ولاخشه بمعنى تماج . والتماج فى ديوان لغات الترك بمعنى حساء من الدقيق . ويقول غنى — فياض « حاشية ١ » أنه قد يكون الحساء المعروف اليوم باسم لخشك فى خراسان .

وأما الرشتة فنوع من الحساء . ديوان أطعمة مولانا ص ١٧٨ .

فهمتُ ذلك . ثم أحضر القوم جميعاً وجاء المطربون وبادروا بالغناء والتلحين وبلغ السرور مداه ، وأخذ القوم يتكلمون فيما بينهم شتى الأحاديث حتى حانت ساعة صلاة الظهر ، فأشار السلطان إلى المطربين بالسكوت ، ثم أقبل على الوزير قائلا : قد أمرنا بتقدير حق هذين الأميرين حتى هذه اللحظة فإنا لو نظرنا إلى الغازى لرأينا أنه قام بأداء أعمال لم ينهض للقيام بمثلها أحد من العبيد وذلك أثناء وجودنا بإصفهان إذ جاء من غزنة إلى نيسابور ، وأما اريارق فإنه عندما سمع بقدومنا إلى بلخ بادر بالحضور إلينا بصحبة الأستاذ الرئيس ، وقد اتصل بنا أن نفرا من الناس يخوضون فى حقهما حسدا فيقلقون بذلك خاطريهما فيجب أن لا يفكرا فى ذلك وأن يثقا بقولنا هذا ، فإنا سوف لا نسمع لأحد فى حقهم ٢٢٦قولا . فقال الخواجة : أجل لم يبق بعد محل للكلام ، وأى رعاية أعظم من هذا الحديث الذى يجرى على لسان مولانا . فقبّل القائدان الأرض وقائمتى السرير ثم عادا إلى مجلسيهما حيث جلسا فى سرور بالغ . ومن ثم أمر السلطان فأتوا بقباءين خاصين مزركشين بالذهب وسيفين بحمائل مرصعة بالجوهر يبلغ ثمنهما كما قيل خمسين ألف دينار ، ثم دعا أريارق والغازى للمرة الثانية وأمر بإلباسهما القباءين ثم وضع بيده حمائل السيفين فى عنقهما فقبلا يد السلطان وسريره والأرض أمامه ثم نهضا واستأذنا وركبا وعادا . وسار كل أرباب المناصب فى البلاط معهما حتى مقرهما . واتفق أن كانت النوبة لى ، أنا أبو الفضل ، فى ذلك اليوم فشاهدت كل ماجرى وعلقت عليه فى تقويم تلك السنة . ثم أمر السلطان بعد العودة أن يحضروا كأسين ذهبيين مع الأوانى الملأى بالشراب ، وأن يعدوا صحاف النقل وزهريات النرجس للقائدين وقال لأبى الحسن الكرخى النديم : إذهب إلى السپهسالار غازى وستأتى هذه الأشياء فى أثرك ولتأخذ معك ثلاثة من المطربين وقل له « : لقد رجعت من مجلسنا دون أن تتم شرابك فلتتناول الشراب مع الندماء على غناء المطربين . وذهب أبو الحسن للقيام بما

أمر به ومعه المطربون الثلاثة وحمل الفراشون الهدايا . كما أمر السلطان مظفر النديم أن يذهب إلى أريارق مع ثلاثة من المطربين كذلك وأن يحمل معه مثل تلك الهدايا التي أهديت إلى الغازى .

وذكر الخواجة الوزير فصولا فى هذا المعنى مما كان يحسن القول فيه، ثم عاد قبيل صلاة العصر وتفرق الباقون عائدين معنا ، ولبث السلطان فى مجلسه إلى قبيل صلاة المغرب ثم نهض ودخل من فوره إلى الحرم ، واشتد حزن أصحاب محمود لما رأوا من هـــذه الأحوال ، بيد أنهم أو غيرهم لم يكونوا ليعرفوا ما يخبئه القدر ، فقد كان الزمان ينادى بلسان فصيح ولكن لم يسمع نداءه أحد :

يا راقد الليل مسرورا بأوله	إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
لا تفرحن بليل طاب أوله	فرب آخر ليـــل أجج النارا

وذهب هذان النديمان إلى القائدين مع كل تلك الهدايا يصحبهما المطربون . فأدى القائدان مراسم التحية ، وبعد أن بلغتهما رسالة السلطان أخذا فى تناول الشراب فرحين مغتبطين ولما أشرفا على السكر قدما للنديمين الخيل المطهمة الملجمة بالسيور المذهبة وغلمانا من الأتراك وأعاداهما مكرمين كما منحا المطربين ثيابا وفضة وأعاداهم أيضاً . ثم نام الغازى . وكان من عادة أريارق أنه إذا جلس ٢٢٧ للشراب يعكف عليه ثلاثة أيام أو أربعة بلياليها فبات يشرب الليل كله حتى الصباح مغتبطا بذلك التكريم الذى غمره به السلطان .

وجلس السلطان فى اليوم التالى وأذن بالدخول وحضر السپهسالار غازى شامخا بأنفه فى موكب عظيم . فلما استقر به المقام سأله السلطان : ولم لم يحضر أريارق . فقال الغازى : إن أريارق معتـاد على الاستمرار فى الشراب ثلاثة

أيام أو أربعة ، ولا سيما بعد ما لقى أمس من عطف مولانا السلطان . فضحك السلطان وقال : لنشرب اليوم نحن أيضاً ولنرسل لأريارق نصيبه . فقبّل الغازى الأرض ليعود فقال له السلطان تمهل . وبدأوا فى الشراب ثم أمر السلطان باستدعاء أميرك السپهدار الختار وكان له كلف كبير بالخمر وهو ممن يأنس إليهم أريارق ، وكان السلطان محمود قد أرسله إليه بالهند ليأتى معه إلى الدركاه ثم يعود إلى عمله وكان ذلك فى نفس الشهر الذى توفى فيه السلطان محمود كما قدمنا فتقدم أميرك وقال السلطان : سيُحمل إليك خمسون من القوارير الملأى بالشراب لتذهب بها إلى الحاجب أريارق وتمكث عنده حتى يثمل وينام لأنه يحب صحبتك وقل له إنا أذنا أن لا تأتى إلى الحضرة وأن تواصل الشراب كعادتك . فذهب أميرك فوجد أريارق يتدحرج ثملا كالكرة فى البستان وهو يشرب على غناء المطربين فبلّغه رسالة السلطان فقبّل الأرض وبكى كثيرا وأعطى أميرك والخدم والفراشين مالا وفيرا ، ثم عاد الخدم وظل أميرك عنده . أما السپهسالار غازى فقد لبث لدى السلطان بالحضرة حتى الضحى ، ثم عاد ومعه الحاجب ونفر من المقـــدمين وجلس للشراب ووزع فى ذلك اليوم الدنانير والدراهم والخيل والغلمان والثياب . واستمر أريارق كعادته ينام ويستيقظ ويتناول حساء الرشتة ويتبعها بالشراب إذ لم يكن يدرى ما ستفعل به الخمر فلم ينقطع قط عن تناولها فى ذلك اليوم وتلك الليلة واليوم التالى .

وفى غد ذلك اليوم جلس السلطان فى الخضراء إزاء إيوان ديوان الرسائل ولم يأذن بالمثول . وكان الاستعداد قد تم للقبض على أريارق ونحن إذ ذاك حضور فى الديوان ، وكنا نبعث بأحدنا سرا ليستطلع أخبار أريارق ، وفى منتصف النهار وقد حانت صلاة الظهر ، جاء عبدوس وهمس بشىء فى أذن أبى نصر مشكان وقال للكتاب : لتذهبوا الآن إذ يراد إخلاء البستان . فنهضوا جميعا وذهبوا ما عداى فقال ٢٢٨ لى همسا إبعث بالجواد إلى الدار واجلس أنت

فى ردهة الديوان فهنالك أمر هام يجب القيام به ولتكن يقظا لتسجل كل مايجرى ثم لتأت إلىّ بعد ذلك . فقلت سأفعل ذلك . وذهب هو وعاد الوزير والحاجب والعارض وجماعة آخرون أيضا ثم حضر بكتكين الحاجب صهر أبى على دايه إلى الدهليز وذهب إلى السلطان ومكث هناك ساعة عاد بعدها ونادى محتاج أمير الحرس وأسر إليه كلاما فذهب هذا وأتى بخمسمائة من الرّجالة المدججين بالأسلحة من كل صنف وأرسلهم إلى البستان حيث جلسوا مستخفين ، ثم جاء نقباء الهنود ومعهم ثلثمائة رجل هندى وجلسوا كذلك فى البستان ، ثم ذهب البرده دار[1] والسپهدار إلى أريارق فقالا له : إن السلطان يزمع الشراب وقد بعث من يدعو السپهسالار غازى إليه ، كما أنه يدعوك أيضا . بيد أن أريارق كان من السكر بحيث لا يستطيع تحريك يديه ورجليه فقال : كيف الوصول إلى الحضرة مع ما أنا عليه الآن وأى عمل أستطيعه ؟ . فقال السپهدار أميرك ، وكان السلطان قد أوقفه على الأمر ، أدام الله حياة السپهسالار يجب رعاية أمر السلطان والذهاب إلى الحضرة فإنه إذا رآك على هذا الحال فسوف يعذرك ومن ثمّ تعود إلى مقامك ، أما التخلف فإنه عمل قبيح يتأوله المؤولون . وأشرك أميرك التونتكين صاحب أريارق معه فى الرأى ليؤكد لسيده وجوب الذهاب . فارتدى أريارق ملابسه وخفيه وقلنسوته وأراد أن يصحبه جم غفير من الأتباع بينهم مائتان من الغلمان والرّجالة فقال أميرك لحاجبه : إن هذا أمر غير لائق فإنه ذاهب للشراب وعشرة من الغلمان المدرعين مع مئة من الرّجالة تكفى . فأرجع الحاجب ذلك الجمع الكبير دون أن يعلم أريارق نفسه شيئا ، فلما بلغوا القصر تقدم نحوه بكتكين الحاجب وأنزله بمساعدة أمير الحرس وسارا به إلى الإيوان حيث أجلساه ، فنهض أريارق بعد لحظة وهو يقول : إنى ثمل

---

(١) الموكل بالستار .

ولا أستطيع البقاء فلأعودن . فقال له بكتكين : لا يليق بك أن تعود بغير استئذان واصبر حتى نخبر السلطان . فجلس بالدهليز ، وكنت أنا أبو الفضل أنظر إليه ، ونادى الحاجي سقا فجاءه بكوز ماء ، وأخذ أريارق يدخل يده فيه ويخرج منه الثلج ويلتهمه فقال له بكتكين . هذا عمل لا يليق بك يا أخي فإنك سپهسالار فكيف تأكل الثلج في الدهليز ؟ ، إذهب إلى الإيوان وافعل ما تشاء فرجع أريارق ثانية إلى الإيوان . ولو أنهم أرادوا القبض عليه ولم يكن ثملا لطال بهم الأمر . فما أن استقر به المقام في الإيوان حتى أحدق به في التو خمسون من المقدّمين الأشداء المتحمسين وجاء بكتكين نحوه وأحاط به جميع المقدمين من يمين وشمال وأمسكوه بحيث لم يستطع أن يحرك ٢٢٩ ساكنا . فنادى بكتكين قائلا : يا أخي الغادر لقد أوقعتني في الشرك . وتقدم غلمان آخرون فخلعوا نعليه . وكان بكل منهما مديتان ، وحضر محتاج[1] وجيء بحبل قوى ربطوا به قدميه ونزعوا عنه قباءه فوجدوا في طياته سما وتعاويذ نزعوها كلها . وأحاط به خمسون راجلا من كل جانب كما سارع رجالة آخرون إلى القبض على حصانه وجهازه وغلمانه ، ولكن حاجبه فر من وجههم مع ثلاثة من الغلمان . أما غلمانه فقد حملوا السلاح وصعدوا إلى السطح وعلت ضجة هائلة ، وكان السلطان مع بكتكين عند القبض على أريارق فأوعز إلى نفر ليسارعوا بالخبر إلى بكتغدى وبلكاتكين كبير الحجاب وأمراء الجند بأن عليه إنهاء هذا الأمر ، حتى يمتطوا جيادهم وكانوا جميعا قد ركبوا على أتم استعداد ، وبعد أن قيدوا أريارق وثار غلمانه ذهب هذا الجمع مسلحين إلى دار أريارق وتبعهم فرسان آخرون من كل صنف فوقعت حرب هائلة فأوفد السلطان عبدوس ليقول لرجال أريارق : إن أريارق كان رجلا لا يعرف الجميل ، وقد كنتم معه في محنة ، وقد دعت المصلحة إلى القبض عليه اليوم

(١) أمير الحرس .

ونحن أولياؤكم فلا تكونوا كالصبيان واتركوا القتال فإنكم عدد قليل يمكن القضاء عليه فى ساعة ولن يستفيد أريارق من عملكم هذا . فإن عدتم إلى صوابكم فسوف نعطف عليكم ونحسن إليكم . كما أرسل السلطان إلى حاجب أريارق يمده بعطف بالغ عليه . وبعد أن أدى عبدوس هذه الرسالة هدأت الحال كأنما انصب الماء على النار ، فقبّل الحاجب والغلمان الأرض ونامت الفتنة و الحال واستحوذ الجند على الدار وختموا أبوابها . وما أن مالت الشمس إلى المغيب حتى تراءت تلك الدار كأنما لم يكن فيها ديار قط ، وعدت فرويت لأستاذى كل ما شاهدته . وذهبوا بأريارق بعد صلاة العشاء إلى قلعة قهندز [1] وساقوه بعد عشرة أيام إلى غزنة حيث سلموه إلى المقدم أبى على الكوتوال الذى أبقاه هنالك حسب الأوامر مدة لم يعرف أحد خلالها أن الرجل معتقل عنده ، ومن ثم بعثوا به إلى بلاد الغور لدى أبى الحسن خلف ليعتقله فى مكان ما . وانتهت حكايته عند هذا الحد وسوف أبين مصير حاله ومقتله فى موضعه وصادف إلقاء القبض عليه فى بلخ يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر ربيع ٢٣٠ الأول سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (١٠٣١) كما ألقى القبض غداة ذلك اليوم على الأمير فيروز الوزيرى الخادم وعلى أبى سعيد المشرف الذى لم يزل حياً للآن. مقيما برباط الكندى ولم يسندوا حتى ذلك الوقت رتبة الإشراف إليه إذ الإشراف فى البلاط كان خاصاً بالقاضى خسرو، وأرسل السلطان أبا الحسن عبد الجليل وأبا نصر المستوفى إلى دار أريارق فأحضرا مستوفى أريارق ومقدمه المعتقلين وفتحت الأبواب وجمعت أموال طائلة ودونت قوائم بشأن أمواله الكثيرة فى الهند واستمروا فى ثبت ممتلكات أريارق وحملها إلى البلاط ثلاثة أيام وحشروا الممتازين من غلمانه فى البيوتات ووهبوا الشيوخ منهم إلى الغازى

(١) أى القلعة أو الحصن القديم والمراد به « حصن المدينة » .

والحجاب ، كما أوفد السلطان أبا الحسن عبد الجليل وأبا سعيد المشرف كذلك
إلى الهند ليأتيا بما يملك أريارق من الأموال فذهبا مسرعين . وقبل أن يلقوا
القبض على أريارق كانوا قد أرسلوا الخيالة المسرعين إلى الهند برسائل لاعتقال
أتباعه على سبيل الاحتياط . وفى اليوم التالى حضر الغازى إلى البلاط حيث
كانوا قد أجلسوا أريارق وكان فى حالة شديدة من الفزع والألم وبعد أن
انتهى المجلس اختلى السلطان بالوزير والغازى وقال : إن أحوال هذا الرجل
تختلف عن أحوال باقى الخدم فقد كان رجلا عاصياً جباراً فى عهد والدنا
وأراق هنالك دماء بريئة ولم تكن للعيون وأصحاب البريد جرأة على إنهاء حقيقة
أحواله كما يجب خوفا منه على حياتهم فقد كان عماله لا يأذنون لأحد بالسير
فى الطرق دون إذن منه ، وكذلك لم يستجب لطلب والدنا بالحضور من الهند ،
فلم يأت ولو أنهم قصدوه لأثار فساداً كبيرا وقد تعب الخواجة فى التدبير حتى
تمكن من استقدامه إلى هنا ، فلا جدوى فى مثل هذا العبد ، وأقول هذا حتى
لا يشغل السپهسالار غازى قلبه بما جرى لحاله ليست كذلك ، فإننا لا ننسى تلك
الخدمة التى أداها لنا ونحن فى إصفهان حين كنا نريد السفر إلى خراسان . فقبّل
غازى الأرض وقال : إنى عبد مطيع ولو أن مولاى أقامنى لتعهد الدواب لكفانى
بهذا فخرا فإن الأمر لمولاى وهو أدرى بأحوال رعيته . وتكلم الأستاذ كلاماً لطيفاً
بما كان يحسن قوله فى هذا المعنى يناسب ما ٢٣١ كان عليه أريارق ويطمئن
خاطر الغازى فى وقت واحد . ثم خرج الوزير مع الغازى وجلسا فى الإيوان
ودعا الوزير أستاذى أبا نصر فأخذ يشرح ما كان عليه أريارق من الظلم والتهور
والطغيان حسبما يتكلم به الخصوم ويدونه فتعجب الغازى لذلك وقال : إذا لم
يكن جائزا تركه وشأنه على أى حال . فذهب أبو نصر وأبلغ ما سمعه للسلطان ثم
عاد بجواب حسن . وأخذ هذان السيدان يكلمان الغازى بما يطيب خاطره ويزيد
فى اطمئنانه حتى سر قلبه وعاد . وقد سمعت من الخواجة أبى نصر يروى عن

الخواجة أحمد الوزير أن هذا التركى أى الغازى قد أساء الظن وهو من أشد الدهاة فلا تنطلى عليه أمثال هذه الأمور . ولقد كان من الحيف أن يقضى على رجل كأريارق يستطيع ضبط إقليم عظيم كالهند لاسيا وقد كنت متعهدا أعماله ، ولكن هـــذا السلطان استمع لتخرصات الوشاة الذين لايدعونه وشأنه ولا تقر عيونهم إلابقلب الأوضاع رأسا على عقب ولسوف يقضى على الغازى أيضاً فاحفظ عنى هـذا الكلام . ثم قال أبو نصر : وسار إلى الديوان وهو شديد الوجوم غارقا فى التفكير ، وأذكر أن هذا الذئب العجوز قال لى : إن شرذمة من أصحاب محمود وأتباع هذا السلطان منصرفون إلى تنفيذ مآربهم بكل ما يستطيعون فنسأل الله حسن العاقبة .

ذكر القبض على صاحب الجيش أشفتكين الغازى

وكيف جرى ذلك إلى أن أنفذ إلى قلعة كرديز وتوفى بها رحمة الله عليه

إنه لمن المحال أن أكتب غير الحق ، وقد توفى القوم الذين أذكر حديثهم منذ سنوات وتأجلت بذلك خصوماتهم إلى يوم الحساب . ويجب أن نعرف حقاً أن السلطان مسعود لم يكن يضمر فى قلبه أية خصومة للغازى حين أمر بإلقاء القبض عليه ، ولم يعامله بجفاء قط وقد أسند إليه سپهسالارية العراق التى أعطوها « لتاش » ويجب أن نعلم أنه قد وقعت هنا نادرتان اقترنتا بالقدر الغالب وأدتا إلى القضاء على قائد كهذا ، ولا مرد لقضاء الله . فأولاهما أن أصحاب محمود لم يكفوا عن الدس لهـذا الرجل ، واستمروا فى تدبير المكائد والحيل حتى أوغروا صدر السلطان عليه من كثرة ما سمع فنالوا فى النهاية بغيتهم . وأدهى من ذلك وأمر أن هذا القائد كان شاباً لا يقيم للشيوخ وزناً فأدى به نزق الشباب إلى التورط فى أمور دفعت به إلى الردى على غير رغبة من سيده . فقد اتفق أن أساء الغازى الظن بعد أن رأى مصير أريارق . فاستجمع أمره وكف عن

الشراب ٢٣٢ وأخذ يغدو ويروح كاليائس وكان إذا تكلم فى الخلوة مع أحد يظهر البأس ويبكى ، وكان الوشاة يجعلون الواحد عشرة ويلفقون الأكاذيب وينهونها إلى السلطان ، حتى فاض الإناء وضاق صدر السلطان ، ولكنه مع كل ذلك كان يستشعر الصبر الجميل . وبلغ من حيلة المحموديين أن كانت لحسن مهران امرأة مجربة جدّ حصيفة تقيم بنيسابور وكانت تلك المرأة ابنة لأبى الفضل البستى توفى عنها زوجها ولم تقبل الاقتران بأحد ممن كانوا يتقدمون لخطبتها من أعيان نيسابور وتبنت هذه السيدةَ وصيفةٌ تشرف على أمور الحرم فى قصر الغازى هنالك ومن ثم كانت تتردد على القصر وكان لها خط جميل فكانت تكتب الفارسية بكل جودة ، فأوعزوا إلى أناس غير معروفين ليخدعوها باسم النصيحة وليقولوا لها : يا للغازى من مسكين ، إن السلطان سيأمر بالقبض عليه قريباً ، وسوف يكون ذلك ليلة كذا . فأبلغت تلك المرأة الخبر للوصيفة المذكورة ، وأنهت الوصيفة هذا الكلام من جهتها إلى الغازى وأخافته كثيراً ، وقالت له : فلتبادرن إلى تدبير أمرك مادمت طليقاً حتى لا تؤخذ على غرة كما أخذ أريارق . فقلق الغازى قلقاً شديداً وقال للوصيفة : استقدمى هذه السيدة لنرى ما هو الأفضل وسأقوم بحقها إذا مرت هذه الحادثة بسلام . فاستدعتها الوصيفة فأجابت بأنها تخشى الحضور ولكنها ستكتب إليها بما يكون وحيث أنك تستطيعين القراءة فستبلغينه للغازى . فقالت الوصيفة : حسناً جداً . وأرسلت السيدة رسائل وضحت فيها كل ما سمعته . لقد كان لأصحاب محمود مهارة عظيمة فى هذا الأمر وإلا فكيف كانوا يستطيعون الوصول إلى هذه المرأة . وهكذا تنفذ أحكام القضاء .

وعند صلاة العصر من يوم الإثنين التاسع من ربيع الأول لسنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (١٠٣١) قالوا لهذه المرأة ، سوف يلقى القبض غداً على الغازى عند حضوره إلى البلاط . وأحكموا هذا التدبير وذكروا لها علامات .

فكتبت المرأة من فورها رقعة شرحت فيها الأمر وأبلغتها الوصيفة للغازى فميز من الغيظ لأن أشخاصاً آخرين كانوا قد أخافوه أيضاً ، فأمر فى الحال أن تخلع نعال الخيول سراً ولم يطلع على ذلك كتخداه سعيد الصراف أو أحداً من الآخرين ، وصادف ذلك صلاة العشاء فتظاهر الغازى بأن السلطان أمره بالذهاب إلى مكان ما فى هذه الليلة حتى لا يتسرب الخبر إلى الخارج ٢٣٣ وفتحوا الخزانة وأعطى ما خف حمله من الجواهر والذهب والفضة والملابس للغلمان فحملوها ثم ركب بعد صلاة العشاء . وأركبوا هذه الوصيفة مع أربع أخر من الجوارى ، ومكث الغازى واقفا حتى ركب الغلمان جميعا وحملوا البغال القوية والهجان السريعة وتم كل ذلك فى قصر أرسلان جاذب فى جهة من بلخ شديدة البعد عن قصر السلطان وأسرع فى المسير حتى بلغ مفترق الطريق بين خراسان وما وراء النهر ثم وقف هنالك متحيراً وهو يقول : صوب أى جهة أسير لأنقذ حياتى ؟ . فأجابه قومه وغلمانه : إلى حيث ترى ، فإذا جدوا فى طلبك قاتلناهم حتى الموت . فقال : الأولى أن نسير شطر جيحون ونعبره فنصبح آمنين إذ ان خراسان بعيدة . فقالوا لك الأمر . ثم عطف العنان نحو قرية سياه كرد وتابع سيره مسرعا فبلغ جيحون ولما يبق غير ردح من الليل فركب سفينة من الموضع المعروف برباط ذى القرنين وعبر النهر إلى الجانب الآخر بسلام إزاء ترمذ ، وكان النهر هادئا ، ولكنه بعد أن وقف على الضفة القصوى ندم وقال : قد أخطأت صنعا إذ لجأت إلى بلاد الأعداء وستسوء سمعتى لأنى فى بلد عدو لدود للدولة المحمودية كعلى تكين وقد كان الأولى بنا أن نذهب إلى خراسان . ثم قفل راجعا إلى الضفة الدنيا وقد أشرف الصباح فأدى فريضة الصبح وقصد أن يعطف العنان إلى قلعة كالف ليتخذ الطريق إلى آموى ويلوذ بخوارزمشاه ليشفع له فتصلح حاله . وفجأة نظر وإذا بفوج من عسكر السلطان يتقدمون فى حملة وأمامهم المبارزون الأشداء والفرسان الأقوياء ، فقد نمى الخبر إلى السلطان مسعود

فى نصف الليل بخروج الغازى وفراره إلى قرية سياه كَرد فخرج السلطان فى الحال وأمر أن يسير الجند من جهات أربع ، فاشتدت حيرة الغازى . وفى اليوم التالى عند حضورنا إلى البلاط سمعنا إشاعات وأقاويل كثيرة . والرجال المجهزون يسيرون تباعا وقلب السلطان جد مشتغل وفى خلال ذلك نادى عبدوس وأعطاه خاتمه وكتب أماناً بخطه وقال له اذهب وبلغه إن حسادك قد نالوا مأربهم وإن الفرصة لا تزال مواتية لعودتك فارجع حتى لا ينالوا مرادهم وسيظل شأنك لدينا كما كان ، وأقسم الإيمان المغلظة على هذا . فذهب عبدوس مسرعا وقابله وكان المحموديون هم الذين أرسلوا تلك الحملة لمنازلة الغازى أو قتله إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وأخذت أفواج الجند تترى وكان الغازى قد همّ بعبور النهر طلباً للنجاة ولكن الريح كان شديداً وكان جيحون هائجاً بحيث لم تستطع السفينه حراكا ، وقصد الجند قتله واضطر فى النهاية إلى النزال وكان بطلا مغواراً ، وأبلى ٢٣٤ غلمانه بلاء حسناً وحمى وطيس القتال ، ولما كانت الأفواج السلطانية تصل تباعا إلى الميدان فقد ضعف أمله فى النجاة وشوهد درعه مملوء بالسهام وأصيبت ركبته بسهم قوى أدى إلى خذلانه بحيث أشرف على الهلاك . وهنا وصل عبدوس فأوقف القتال ولام الجند قائلا لماذا بادرتم إلى القتال ولم تؤمروا ، كان ينبغى أن تقفوا أمامه حتى تصل أوامر أخرى . فأجابوا : لقد اضطررنا إلى القتال لأننا شاهدناه يريد عبور الماء ولما لم يتمكن من ذلك أراد أن يلوذ بالفرار شطر آموى فلجأنا إلى إيقافه حتى لا يغضب علينا السلطان ، والآن وقد حضرت فقد كففنا عن القتال لنرى ما يكون . فسار عبدوس إلى الغازى وكان واقفاً على ربوة يائساً مهموماً وخاطبه قائلا : يا أيها السپهسالار أى شيطان حاد بك عن الصواب فعرضك لشماتة الأعداء . فارتمى الغازى على الأرض باكياً وهو يقول : هكذا حكم القضاء إنهم أخافونى . فقال عبدوس : طب نفساً فإن

الفرصة لم تفت ، وأعطاه صك الأمان والخاتم وأبلغه رسالة السلطان وأيمانه ، فترجل الغازى وقبّل الأرض وكان الجند وغلمانه وقوفا إلى الجانبين فطمأنه عبدوس ثم نزع الغازى سلاحه ووصل آنذاك فيل عليه مهد ، فأركبوه فيه وطمأنوا رجاله وغلمانه أيضاً . وأرسل عبدوس درع الغازى وعليه السهام إلى الحضرة ذاكرا ماجرى مع رسل مسرعين ، فوصل الدرع إلى البلاط عند منتصف الليل . وبعد أن شاهد السلطان الدرع وسمع رسالة عبدوس اطمأن وهدأ باله ، وكان الخواجة أحمد وكافة الأعيان حضورا فى القصر حتى ذلك الوقت فأذن لهم السلطان بالانصراف ودخل الحرم فى التو وتناول شيئا من الطعام. ووصل عبدوس وقت السحر بالجيش ومعه الغازى وغلمانه وجنده جميعا ، فأخبروا السلطان بذلك، فخرج واختلى وقتا بعبدوس، ثم رجع يبلغ الغازى عطف السلطان وقال له : إن الأوامر تقضى بإنزالك فى القصر المحمدى تجاه الحديقة السلطانية وأن تستريح هنالك حتى يتقرر غدا ما ينبغى . ومن ثم ذهبوا بالغازى وأنزلوه هنالك وأحضروا أبا القاسم الكحال فى الحال لينتزع السهم من ركبته ويداويه فهدأت آلامه ، وجاءوا ٢٣٥ له بغذاء من المطبخ الخاص ، وكانت التبليغات المطمئنة تصله من السلطان تباعا ، فتناول اليسير من الطعام ونام ، وأنزلوا الغلمان والجند عن خيولهم وأسكنوهم فى الوثاقات وقدموا لهم الطعام فاستراحوا وكانوا قد أوقفوا ألفاً من الرجالة على يمين القصر وشماله دون أن يشعر الغازى ، ثم عاد عبدوس بعد أن أراح الجوارى اللائى كن برفقة الغازى. ولما طلع النهار أذن السلطان وجاء الأعيان إلى الحضرة ، فخاطبهم بقوله : إن الغازى رجل مخلص وهو ممن يعول عليهم ولم يأت حتى الآن أى جريرة غير أنهم أخافوه وسنأمر بالتحقيق لمعرفة من سبب له هذا الخوف فيلقون جزاءهم . فقال الأستاذ الرئيس والأعيان : نعم ، هذا ما ينبغى . وأبلغ عبدوس

هذا الحديث للغازى مع أحد رجاله فسرّ بذلك سرورا بالغا . وبعد انصراف الجمع أرسل السلطان ثلاثة من أطباء الخاصة هم أبا الحسن العقيلى ويعقوب دانيال وأبا العلاء إلى الغازى ليقولوا له : لا تشغلن خاطرك فقد دبروا هذا لك فإنا سنتحقق من الأسباب التى أدت إلى هذه الحال ثم نأمر بما يلزم ، ولا يشوبن خاطرك شىء فإنا أنزلناك فى حديقة أخينا هذه لتكون قريبا منا وليستطيع أطباؤنا إسعافك ومداواتك فيزول هذا العارض ثم نأمر بما ينبغى بعد ذلك . فما أن سمع الغازى هذا الكلام حتى نهض من فراشه جالساً ، إذ لم يكن يستطيع الوقوف ، وقبّل الأرض وبكى وأكثر من الدعاء للسلطان ثم قال : لقد موّهوا علىّ الحقيقة فورطونى فى هذا المأزق ، ولكن يخطىء العبيد ويصفح الأسياد ، وليس للعبد مجال إلى الاعتذار ويقينى أن السلطان يفعل الجدير بجلال شأنه . فعاد أبو الحسن وذكر للسلطان كل ماجرى . ولما بلغت هذه الأحاديث أصحاب محمود اعتراهم غم شـــديد وأخذوا فى تدبير الحيل من جديد حتى لا تستطيع الفريسة الإفلات من براثنهم . ولما عرف كتخدا الغازى وأتباعه الآخرون بما جرى من الأمور خرجوا من مكامنهم وذهبوا إليه . ولن أطيل فى الحديث أكثر من هذا فقد أبلغ الخصوم حال الغازى إلى حيث أخذ يزداد استياء السلطان منه يوما بعد يوم ، إذ كانوا ينهون إلى السلطان أحاديث مخالفة كان يؤيدها ذلك الشطط الذى صدر عن الغازى لأنه أيقن أن الأساس أضحى غير ثابت فاختلى بعبدوس وقال له : إن هذا اللئيم لن يفيدنا فى شىء فقد أساء إلى سمعته بما أقدم عليه ، وفضلا عن ذلك فإن أصحاب أبينا سوف ييأسون منا ، وليس من العقل ٢٣٦ أن نضحى بالناس جميعاً من أجل رجل واحد فاذهب إلى الغازى وقل له إن مصلحتك تقضى بأن تقيم فى غزنة بعيدا عنا مدة حتى ينسى الناس تدريجيا هذه السمعة السيئة التى لحقت بك ويُتلافى الأمر ، وبعد أن تبلغه هذا ينبغى أن تعمل على فصل قومه عنه عدا المخدرتين اللتين يجب تركهما له ، وابعث بالرجال الذين يمكن استيفاء مال منهم إلى البلاط ، كما يجب

إحضار سعيد الصراف وإخباره بضرورة الحضور إلى الدركّاه لمهمة يقوم بها ، وأحضر كافة غلمانه إلى قصرنا ليبحثوا معهم بشأن الأموال التى كانت لديهم وليحملوها إلى الخزائن ثم يحتفظوا بعد ذلك بمن يليق منهم للخدمة بالسراى ونرى رأينا فيمن لا يليق لذلك ، وانتبه حتى لا يخفى عليك شىء من ممتلكات هذا الرجل سواء منها الناطق أو الصامت ، وبعد الفراغ من كل هذا أوعز إلى فريق من الرجّالة ليراقبوا الغازى ولا يدعون أحداً يقترب منه دون علمك ، حتى نأمر بعد ذلك بما ينبغى من الرأى . فذهب عبدوس وبلغ رسالة السلطان ولما سمعها الغازى قبّل الأرض وانتحب باكيا وقال : إن صلاح العبيد فيما يأمر به أسيادهم ، وإن للعبد حقوقا فى الخدمة لجدير أن يأمر السلطان بإقامتى فى موضع أكون فيه آمنا على نفسى ، لأن الأعداء يقصدون حياتى ، حتى إذا رضى السلطان عنى يوما وأراد أن يقيمنى سائساً للدواب يجدنى حيا ويمنّ علىّ بهاتين المخدرتين وبكساء وغذاء لا غنى عنهما ، وأنت أيها السيد فلتعاهدنى على أن تطلب العون لى من الله فإنى أراك مهتما بشأنى . وكان يبكى أثناء قوله هـــذا . فقال عبدوس : إن الأمر خير مما تظن ، فلا تسىء ظنا . فأجاب الغازى : إنى لست طفلا وإنى لعلى يقين بأنى لن أقابل الخواجة بعد اليوم . فمد عبدوس إليه يده وضمن له الوفاء وضمه إليه واحتضنه ، ثم عاد وخرج لجلس على تلك الصفة الكبرى وأتم كل ما كان السلطان قد أوعز به بحيث لم يبق شىء من الأمر عند صلاة العصر . وعاد إلى ٢٣٧ السلطان بعد أن عهد إلى الرجّالة بمراقبة الغازى وذكر له كل ما جرى وعرض عليه المحاضر وتجمعت أموال طائلة من الصامت والناطق ، وجىء بالغلمان إلى الوثاقات وأخذت الحيطة لحفظ الأموال . وقيل لقد أخذ منهم كل ما كان الغازى قد أعطاه لهم ، ثم أدناهم السلطان منه وأرسل الممتازين منهم إلى الوثاق ووزع الباقين على الحجاب ورجال البلاط .

وبعد أن انتهى الأمر على هذه الصورة قال السلطان لعبدوس : يجب أن

يرسل الغازى إلى غزنة . فسأل عبدوس : على أى نحو يأمر مولانا ؟ وذكر للسلطان مقالة الغازى وبكاءه وإمساكه بيده . فتأثر السلطان وقال لعبدوس : هذا الرجل برىء وإن الله تعالى يحفظ عباده بقدرته ، فينبغى أن لا يقصده أحد بسوء وقد سلمناه إليك ، فاعتن بأمره . فقال عبدوس : على أى نحو يأمر مولانا فقال السلطان : أوعز إليهم أن يجهزوا عشرة من الإبل وأن يهيئوا محملا وهوادج وثلاثة بغال وملابس كثيرة للغازى وكذلك للجوارى وثلاثة من الطباخين وألف دينار وعشرين ألف درهم لنفقاتهم ، ومرهم ليكتبوا إلى أبى على الكوتوال رسالة موقعة ليعد للغازى ومن معه مكانا يسكن فيه الغازى ومن معه بالقلعة ، ولكن ينبغى إبقاؤهم مقيدين على سبيل الاحتياط ، كما يجب شراء ثلاثة غلمان من الهنود لخدمة الغازى وقضاء حوائجه ، وبعد أن يتم كل ذلك إبعث بهم سرا فى نصف الليل بحيث لا يعرفون شيئاً على أن يكون معهم ثلثمائة فارس ومثنان من الرجالة عليهم قائد وكلهم من الهنود ، وابعث أنت معتمداً من لدنك ليكون فى الطريق مع الغازى وليسهر على راحته وعليه أن لا يدع أحدا يطلب منه شيئا حتى يبلغ قلعة غزنة بسلام ، وعليهم أن يأتوا بجواب الرسالة بخط أبى على الكوتوال . فجهز عبدوس كل ذلك وساروا بالغازى وكان ذلك آخر العهد به إذ لم يُرَ بعد ذلك وسأذكر عام وفاته وقصة ذلك فى موضع آخر .

٢٣٨ هذا وقد انتهى حديث هذين القائدين العظيمين وكان حديثاً طويلا ولكن حيث أن القاعدة والقانون يحتمان شرح القصة بتمامها فقد راعيت الأصول ، إذ كانا رجلين عظيمين وهذا الكلام وإن كان قد طال فإنه لا يخلو من النكت والنوادر . والآن إذ انتهى مصير القائدين ، فقد انتهى جميع هذا وصار أثرا بعد عين ، وإن مرّ الزمان ودوران الفلك يحدثان بأمر الله عز ذكره الكثير من الأمور كما سيحدثان الكثير من أمثالها بعد أيضاً ، والعاقل من لا يغتر بنعمة أو متعة يحصل عليها ويكون على حذر دائم خشية زوالها لأنها تسلب منه بمنتهى

القسوة ودون محاباة : فينبغى بذل الجهد لاصطناع الأحرار ونشر بذور الخير للدنيا وللآخرة لتبقى السمعة الطيبة تذكارا لهم ، ولا يقصر الأمر على أن يأكل المرء وحده ويلبس وحده ، فإن أحداً لم يتيسر له الذكر الجميل بذلك . وقد كان من قديم الزمان رجل يدعى الزبرقان بن بدر كان ذا مال كثير وكان من عادته أن يأكل وحده ويلبس وحده ولا يصل خيره لغيره فقال فى حقه الحطيئة الشاعر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

قرأت أن ندماء الزبرقان بعد أن قرأوا عليه قصيدة الحطيئة قالوا : هذا هجاء قبيح قاله فى حقك الحطيئة فجاء الزبرقان إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وشكا له متظلما قائلا : أنصفنى . فأمر عمر بإحضار الحطيئة وقال هذا : إنى لا أرى فى هذا الشعر هجاء وفحشا ، وقرض الشعر ودقائقه مما لا يدخل فى أعمال أمير المؤمنين فليأمر بإحضار حسان بن ثابت وليقسم عليه بأن يقول ما يعرفه عن هذا الشعر حقا . فأرسل عمر رجلا واستدعوا حسانا وكان قد كف بصره فأجلسوه وقرئ عليه البيت فقال حسان : يا أمير المؤمنين ماهجا الحطيئة الزبرقان ولكن سلح عليه . فابتسم عمر وأشار إليهم بالعودة وقد ظل هذا البيت متداولا رغم مضى أربعمائة سنة على قوله وقد كتبته بالعربية ليتحفظ بنصه القراء ، فإن السمعة الطيبة تعيش أبدا . وقد أجاد المتنبي فى هذا البيت :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته ما فاته وفضول العيش أشغال

ولو أنى أردت الكتابة فى أمثال هذه المعانى لطال بنا المقال وفى هذه العظة ٢٣٩ ما يكفى للعقلاء والأذكياء ، بيد أنى أذكر ثلاثة أبيات لأبى العتاهية علقت بذهنى تمثل ما كان عليه هذان القائدان من شتى الأحوال ، فأردت ذكرها هنا لما فيها من العبر :

أفنيت عمـــرك إدبارا وإقبالا   تبغى البنين وتبغى الأهل والمالا
ألم تر الملك الأمسى[1] حين مضى   هل نال حىٌّ من الدنيا كما نالا
إذا يُشد لقوم عقدُ ملكِهِمُ   لاقوا زمانا لعقـد الملك حلالا

وما أحسن ما قاله الرودكى فى هذا المعنى :

لقد مات سادة العـــالم جميعا ، وطأطأوا الرؤوس أمام جلال الموت ، لقـــد ووري فى التراب كل أولئك الذين شادوا هذه القصور المنيعـة ، هل فازوا من آلاف النعم ومن العزّ فى النهاية بغير الكفن ؟ حقا لقد كانت نعمتهم فيما ألبسوه وما أعطوه وما أكلوه .

انتهت هذه القصة وإن كان فيها بعض الطول فإن البديع غير مملول .

وبعد أن ارتاح قلب السلطان مسعود لمـا تم من أمر أريارق والغازي وسوقهما إلى غزنة ، مال إلى الشراب والصيد فى جانب ترمذ كعادة أبيه السلطان محمود رحمة الله عليه وتحرك ركابه من بلخ فى يوم الخميس التاسع عشر من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (١٠٣١) وبمعيته أكثر الموالى والحشم . وذهب أستاذى أبو نصر مشكان مع السلطان ، وقد كان يرى نفسه مضطرا إلى ذلك ، خشية أن يستفيد من غيابه الوشاة فيدبرون له المكائد ، وكنت أنا فى صحبته . وعندما وصلنا إلى ضفاف جيحون نزل السلطان وبادروا إلى الشرب والطرب واستمروا فى ذلك أياما ثلاثة . وركب فى اليوم الرابع لصيد الأسود وغيرها من الوحوش ، فقضى بيده على أربعة أسود ، إذ كان ٢٤٠ آية فى الشجاعة كما مرّ بنا فى عدة مواضع من هـــذا التاريخ . وكذلك وقع فى أيديهم أنواع شتى من الصيد . وطلب السلطان أثناء الصيد الطعام

(١) المراد بالملك الأمسى هرون الرشيد، راجع الأغانى ج٤ ص٨٩ والبيت الثالث غير مذكور).

فقدمت صناديق المأكولات المعدة للأسفار ، فطعموا وشربوا . وكان يسير رويدا رويدا وهو يأكل حتى وصل خيمته حيث قضى أغلب الليل ساهرا . وركب فى اليوم التالى ميمما شطر شاطىء جيحون . فأحضروا له السفن وكانوا قد جهزوا القلعة بكافة أنواع الأسلحة . كما حضر جم غفير من الرّجالة والمقدمين للخدمة فى العدوة الأخرى من النهر . واستقل السلطان سفينة وركب الخدم والغلمان والندماء والمطربون السفن الأخرى . وخرجت السفن فى النهر حتى جاورت القلعة . وكان كوتوالها آنذاك قتلغ غلام سبكتكين ، وكان رجلا وقورا مهابا فقبّل هو وجماعة المقدمين الأرض ونثروا الصدقات وسجد الرّجالة احتراما . ونفخت الأبواق وضربت الطبول وتعالت الهتافات من القلعة ، وسارت موائد الأكابر متتالية كعادة القوم فى غزنة ومن جملة ما كان عليها لحوم الصيد والأسماك والنقل والرقاق[1] مما طاب للسلطان كثيرا فأكلوا وأديرت كؤوس الشراب بينهم وعلت أصوات المطربين من السفن وكان على الشاطىء أكثر من ثلثمائة شخص من مطربى ترمذ والنساء اللائى يرقصن ويضربن الدفوف فأخذوا جميعا يرقصون ويلعبون وهذا المنظر الذى رأيته فى ترمذ قل أن رأيت له نظيرا فى مكان آخر . لقد كان احتفالا لم ير أحد مثله. ووصل فى أثناء ذلك خمسة من الفرسان ، اثنان منهم من قبل الأمير يوسف بن ناصر الدين المقيم فى قصدار ، كما مر بنا ، والثلاثة الآخرون من قبل الحاجب الجامه دار ويارق تغمش[2] يحملون خبر فتح مكران ومقتل عيسى معدان وقيام أخيه أبى العسكر بدلا منه ، واستتباب الأمر ٢٤١ فى هذه الولاية . وسيأتى تفصيل ذلك فيما بعد . فأخبروا السلطان بذلك وبعثوا بزورق وجاءوا بحاملى

---

(١) نانهاى تخه أو نانهاى تخته ، كلمة تركية لا تزال تستعمل وتطلق على الخبز الدقيق الرقيق . غنى — فياض حاشية ٣ .

(٢) انظر حاشية ٢ ص ٦٨ من هذا الكتاب .

البشائر إلى سفينته . فما أن وصلوا إليها حتى أدوا فروض الخدمة وقدموا الرسالة ، فاستلمها أبو نصر مشكان وكان فى مركب الندماء . ثم نهض على قدميه وأخذ يقرأ الرسالة بصوت عال فسر السلطان سرورا بالغا والتفت نحو الكوتوال والمقدمين وهو يقول : ما زالت مدينتكم هذه مباركة لدولتنا ، وقد زادها الله اليوم بركة أخرى لوصول هذا النبأ السار وفتح قطر كبير . فقبل الجميع ، رجالا ونساء ، الأرض وتبعهم فى ذلك أهل القلعة وهم على السطوح . وتعالت الأصوات دفعة واحدة بالسرور ثم التفت السلطان إلى رئيس ترمذ وعاملها وقال : لقد وضعت عن الرعية مائة ألف درهم من خراج هذه السنة فلتوضع عنهم بنسبة عادلة ، كما يجب أن يوزع على رجالة القلعة خمسون ألف درهم من بيت المال وخمسون ألف درهم أخرى لهؤلاء المطربين والراقصات . فقالوا سمعا وطاعة . ونادى المنادى بأن السلطان قد تكرم بهذه الصلات الثلاث فدعا له الجميع الخاص والعام ، ثم خاطب الكوتوال بقوله : إحضر على إثرنا ومعك مقدمو القلعة كلهم إلى المعسكر لتمنح لكم الخلع والصلات كالرسم المعتاد ، لأننا سنعود غدا إلى بلخ . وسارت السفن فوصلت إلى المعسكر قرب صلاة الظهر . وجلس السلطان للشراب . وحضر كوتوال ترمذ والمقدمين فأنزلهم كبير الحجاب بلكاتكين عنده فى الخيمة . وأرسل وكيله طاهر كنده ليبلغ أبا سهل الزوزنى العارض الذى كان مشتغلا بالشراب فى صحبة السلطان . وأمر السلطان أبا سهل قائلا له : « اذهب إلى الخباء وقل للقائمين والمشرفين على الخزائن أن يعطوهم جميعا الخلع حسبما كانت تمنح لهم ثم يقدموهم لنا » . فخرج أبو سهل وجهز كل ذلك . وارتدى الكوتوال والمقدمون الخلع ، وتقدموا . فأمر السلطان أن يجلس كوتوال القلعة قتلغ وأبو الحسن بانصر ، المعروفان بثروتهما الطائلة ؛ وأن يظل الباقون وقوفا . ودارت كئوس الشراب على الجميع فشربوا وأدوا التحية الواجبة فقال السلطان : « عودوا إلى أماكنكم ولتكونوا

أذكياء يقظين فإنكم موضع عنايتنا أبداً » . فقالوا سمعا وطاعة ، ثم قبلوا الأرض وخرجوا فركبوا السفن راجعين . وظل الأمير يشرب إلى منتصف الليل ، ثم استيقظ مبكرا فى الصباح وضربوا الطبول وركبوا وساروا إلى أن نزلوا موضع سياه كَرد . وبلغوا بلخ فى يوم الجمعة لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر. واستهل السلطان بالسعد هلال جمادى الأولى ، ثم ارتحل من ٢٤٢ البستان ونزل فى جوسق عبد الأعلى . وأمر بإنجاز ما يجب إنجازه من الأعمال ، لأنه عازم على الرحيل إلى غزنة بعد أسبوعين ، لأن الوقت قد حان . فقالوا سمعا وطاعة . ونشطوا فى القيام بالأعمال والله أعلم بالصواب .

ذكر قصة ولاية مكران

وما جرى فيها أيام السلطان محمود رضى الله عنه

بعد أن توفى معدان والى مكران وقع بين ولديه عيسى وأبى العسكر خلاف، وتجاوز الأمر بينهما حد الكلام إلى حد الحسام ، ومال الجند والرعية إلى جانب عيسى ففر أخوه إلى سيستان وكنا وقتئذ بسومنات ، فأنزله السيد الخواجة أبو نصر الخوافى ، ذلك الرجـــل الشهم ، على الرحب والسعة فى منزل لائق وأكرم وفادته . وكان قد حضر إلى سيستان فى ذلك العام السيد الخواجة أبو الفرج عالى بن المظفر أدام الله عزه ، وهو الذى يشرف اليوم مع نوابه على شئون المملكة فى دولة السلطان المعظم أبى شجاع فرخ زاد بن ناصر الدين أطال الله بقاءه ونصر أولياءه ، وإنه لعمرى فريد زمانه وآية عصره فى الفضل والعقل والعلم والأدب ، وقد توثقت هنالك بين الخواجة والدى وبينه صداقة وصحبة . فكان يقص علينا الكثير مما سمعه عنه . وهو اليوم صديق . وقد جاء أخوه الخواجة أبو نصر فى هذه السنة نفسها إلى قائن ، وحضر كلاهما إلى غزنة

حيث قاما بأعمال جليلة ، إلى أن بلغا هذه المنزلة ، فتوفى أبو نصر وهو يقوم بوظيفة العارض ، وكان رجلا عظيم الفضل جميل الصورة أديباً عاقلا ، ومايزال نجله النجيب على قيد الحيـــاة . وهو يلى الآن منصب الإشراف على غزنة ونواحيها . وشرح أبو نصر الخوافى حال أبى العسكر ، فلما عـــدنا من غزو سومنات أرسل السلطان محمود خطابا كى يرسله معززا إلى الدركَاه . فأنعم عليه السلطان وأبقـــاه بها . واتصل الخبر بأخيه والى مكران فتوجس خيفة ، واستولى عليه القلق ، فأنفذ قاضى مكران ومعه الرئيس ونفر مـن الصلحاء وأعيان الرعية برسـائل ووثائق إلى الدركَاه ، يبين فيها أنه ولى عهد أبيه وأن أخاه لو لم يسلك طريق الخلاف لكان قد نعم بكل شىء ويقول فيها للسلطان : « والآن إذا رأى مولانا ٢٤٣ أن تبقى هذه الولاية لى ، فليطلب كل مايطلب ، كما فعل الأمير العظيم العادل مع أبيه ؛ وإنى أرسلها فورا مع خدمات النوروز والمهرجان ، كما أرسل للأخ كل ما يكفيه ويأمر به السلطان ، بحيث لا يبقى محتاجا وليسلم السلطان معتمدى تحريرا بكل ماتتم عليه الشروط حتى أوقعها طائعاً ، كما أنى ألتمس أن يوفد رســـول من قبل السلطان بمنشور التولية وخلعتها إذا رأى مولانا ذلك فإنى أقمت الخطبة باسم سيدى ، ليشتد أزرى وتستقر هذه الناحية التى خطب فيها لمولاى » . فأجاب السلطان محمود رضى الله عنه ملتمسه ، واشترطوا ما كان ينبغى من شروط ثم أعادوا المكرانيين إلى حيث أتوا وأوفدوا حسن الإصفهانى الجمال برسالة ومعه منشور وخلعة فاخرة للغاية ليوصلها إليه ثم يعود بخراج مكران وقصدار . فاستقام بعد ذلك أمر مكران وعاد حسن الإصفهانى بأحمال مكران وقصدار ومعه رسول من مكران بمال وهدايا للسلطان وأعيان الدركَاه من الذهب واللؤلؤ والعنبر ، ومن كل ماتخرج تلك الديار . وقد تعهد والى مكران بأن يرسل كل سنة من الخراج

عشرة آلاف من الدنانير الهروية لأخيه فضلا عن الألبسة والطرائف . وقد وصل كل ذلك مع الرسول عن سنة واحدة بالفعل . وتم بذلك التراضى وعاد الرسل إلى مكران .

أما أبو العسكر فقد ظل بالحضرة يؤدى واجب الخدمة . وأمر السلطان محمود بأن يرتب له خمسة آلاف درهم فى كل شهر ، وأن يمنح خلعتين كل عام . وما شاهدته قط فى مجلس السلطان يتناول الشراب أو يلهو بالصولجان كعادة أبى طاهر السيمجورى ومن على شاكلتهم . إذ كان أبو العسكر هـذا رجلا رزينا ضخما . وكانوا قلما يدعونه إلى المائدة فى الحفلات الكبرى التى كانت تقام بين الحين والحين . وكان يؤذن له بالعودة بعد أن ترتفع الموائد وكذلك كان يصحبنا فى الأسفار .

وفى تلك السنة التى سرنا فيها إلى خراسان وامتد بنا المسير إلى الرى ودام بنا السفر طويلا ، أخذ كل من يحلم من أمراء الأطراف والنواحى بمنام يستيقظ فيرى رأسه وقد طاحت وولايته وقد ضاعت . فإن السلطان كان يئن من الأنين من ضعف الشيخوخة وقد بلغت روحه التراقى .

وكان عيسى المكرانى أحد أولئك الذين حلموا فى منامهم وقد أمل السلطان محمود أبا العسكر بأن يمده عند الوصول إلى غزنة بجيش عليه قائد عظيم ، ٢٤٤ حتى يطرد أخاه ويوليه الولاية . ولكن بعد وصوله إلى غزنة لم تمهله الأيام ، وقعد عن العمل . كما أن الأمير محمد لم يتمكن من تنفيذ هذه الوصية إذ كانت أمامه مهمة كبرى ، ولكنه طيب خاطر أبى العسكر وخلع عليه ومناه بذلك ولم ينفذ شيئا ، فقد وقع ما وقع . ولما استتب الأمر للسلطان مسعود بهراة كما مر ذلك فى المجلد الخامس من هذا التاريخ : أمر يارق تغمش ، المعروف بصاحب

جامه دار ، بقيادة فوج قوى من عساكره الخاصة ، ومن التراكمة من قبائل القزل والبوقة والكوكتاش الذين كانوا قد انضموا إلى الخدمة مستأمنين ، ليسير بهم إلى سيستان ومنها إلى مكران ، وأرسل الأمير يوسف بجيش قوى إلى قصدار وقال : إنه مددكم ، فإذا ما احتجتم إلى إمدادات أمدكم بها ، وإن احتاج الأمر إلى الذهاب بنفسه ذهب أيضا. ولكنه كان قد أسر إلى قائد هـــذا الجيش بأن يراقب الأمير يوسف ، إذ كان الغرض من إرساله إلى قصدار أن يكون بعيدا زمنا ما عن أعين الجند ، لأنهم كانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى سپهسالار. وانتهى الأمر بالقبض عليه فى ناحية باق[1] عند « بل خمار تكين » فى هذه السنة. وذلك عنـــد مجيئنا إلى غزنة . وستأتى تلك القصة فى الجزء السابع . أما المكرانى فإنه ، بعد سماعه خبر هذه الحملة ومجىء أخيه ، أخذ يتأهب للحرب وأعد عشرين ألفا من الكيجيين[2] والريكيين[3] والمكرانيين ورجالا من كل صنف ومن كل ناحية مع ستة آلاف من الخيالة . ثم وصل الحاجب جامه دار أرض مكران. وكان قائدا يقظا ذكيا للغاية مبارزاً مقداما . وكان المقدمون والجيش الذى معه على أتم أهبة واستعداد. فجعلوا ألفين من الفرسان السلطانية والتركمان بين نخيل المكرانيين كمينـــا ، وقرعوا الطبول فبرز المكرانى على فيل وتقدم بجيشه من فرسان ورجاله ومعهم عشرة من الفيلة المقاتلة فوقعت حرب دارت بالدماء رحاها. وأبلى الفريقان بلاء حسنا ، وكادت الهزيمة أن تلحق بالجامه دار لولا أنه تقدم صارخا فى جنده ، وآزره المبارزون والأعيان وأمدوه

---

(١) باق ــ ناحية قرب غزنة من أعمال زابلستان .

(٢) كيج اسم ناحية فى بلوجستان وتعرف بهذا الاسم اليــوم . وكانت معروفة عند الجغرافيين القدماء الذين يسمونها أحيانا بالتسمية الكاملة فيقولون « كيج مكران » . وعربت هذه الكلمة فصارت « كيز » غنى ــ فياض حاشية ٢ .

(٣) ريك اسم ناحية واسم طائفة أيضا فى بلوجستان . غنى ــ فياض حاشية ٣ .

وفتحوا الكمين فدارت الدائرة على المكرانى. فلحقوا به فى مضيق وهو يفر فقتلوه وأخذوا رأسه وقتلوا من جنده خلقا كثيرا. واستمر النهب والسلب فى المدينة ونواحيها ثلاثة أيام. ووقع كثير من الأموال والمواشى فى يد الجند. ثم نصبوا أبا العسكر أميرا هنالك. فلما استقر به المقام وأذعن الجميع لطاعته عاد الجامه دار مع الجند كما سيأتى بعد ذلك. وبقيت مكران ٢٤٥ ونواحيها بيد أبى العسكر إلى أن توفاه الله كما سيأتى بيانه عند ذكر تاريخ الملوك فى هذا الكتاب، فليتغمدهم الله برحمته وليمتع السلطان الأعظم فرخ زاد بطول العمر والسعادة والشباب بمنه وكرمه.

ذكر خروج السلطان مسعود رضى الله عنه

من بلخ إلى غزنة

ذكرت فى آخر المجلد السادس أن السلطان رجع من البستان إلى جوسق عبد الأعلى فى غرّة جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (١٠٣١). وأمر بإنجاز كل ما تأخر من الأعمال لأنه يزمع السفر إلى غزنة فى نفس الأسبوع. فهدوا كل شىء، ولما هم بالرحيل خاطب الخواجة أحمد حسن بقوله: يجب أن تمكث أسبوعا ببلخ فهنالك أصناف شتى من الناس بين عمال وقضاة وأصحاب شرطة متظلمين ظلوا ببلخ فامكث لتسمع أقوالهم وتصرفهم جميعاً وتلحق بنا بعد ذلك فى بغلان فإننا سنقضى بسمنكان فى عرض الطريق فترة فى القنص والشراب، فقال: سمعاً وطاعة، ولكن يجب أن يظل معى كاتب من كتاب ديوان الرسائل ليكتب ما قد يأمر به مولانا، وخازن يعطى الخلعة لمن يستحقها إذا ما دعت الضرورة. فقال السلطان: حسنا فلتخبر أبا نصر مشكان ليرشح كاتباً ويعين خازنا من الخزنة ومعه الدراهم والدنانير والألبسه حتى يمتثل

لمـا يأمر به الخواجة الذى عليه أن ينتهى من كل هذه المهام فى عشرة أيام ليلحق بنا بعدها فى بغلان . فرشحنى أنا ، أبا الفضل ، أستاذى أبو النصر للكتابة . وسُمِّيت الخزانة باسم كاتب الخزانة أبى الحسن قريش . وكان أبو الحسن هذا من أكفأ الكتاب ، خدم السامانيين وعمل فى خزائنهم ببخارى وقد جاء به أبو العباس الإسفرايينى الوزير معه ، وكان السلطان محمود يثق فيه كثيرا . وكان لأبى الحسن هذا مساعدان ، أحدهما على عبد الجليل بن عم أبى الحسن عبد الجليل . وقد توفوا جميعاً رحمهم الله . أما غرضى من ذكر أسماء هؤلاء الرجال فأمران : الأول ذكر نبذة عن أحوالهم لما كان بينى وبينهم من الصحبة والصداقة والعيش ٢٤٦ معهم ، والثانى الاطلاع على كيفية سير الأعمال فى تلك الأيام لتتم بذلك لقراء هذا التاريخ التجربة والعبرة .

غادر السلطان مسعود ، رضى الله عنه ، بلخ يوم الأحد الثالث عشر من جمادى الأولى ، ونزل قرب المدينة ببستان الخواجة ميكائيل لأن الأمور لم تكن بعد قد مهدت كل التمهيد ، وقد قام الخواجة المظفر[1] على ميكائيل بأمر الضيافة هنالك كما تحدث بذلك الجميع . وقدم أعيان الدركاه النزل والهدايا الكثيرة والذهب والفضة . ثم ارتحل الأمير من ذلك الموضع تحفه السعادة والبهجة والهناء ، مستمتعاً بالشراب واللهو والصيد تستقبله بمنازل فى خلم وبه بيروز ونخجير[2] ضيافة بعد ضيافة ، كما استضافه ببدخشان أحمد على نوشتكين ، الذى كان يتولى الأعمال فيها . ونزل فى بغلان وتخارستان ضيفا على كبير الحجاب بلكاتكين . وكان الخواجة الوزير أحمد حسن يأذن بالمقابلة كل يوم فى قصره بحيى ، على عبد

(١) يحتمل أن تكون « أبو المظفر » . غنى — فياض حاشية ١ .

(٢) أسما مكانين نزل بهما السلطان ضيفا على الأمراء ، ولم يرد ذكرهما فى كتب الجغرافية القديمة ولعلهما « بروان وبنجهير » اللذين ورد ذكرهما فى هذه الكتب ، وفى هذا الكتاب أيضا وهما بلدان على طريق بلخ — غزنة . غنى — فياض حاشية ٢ .

الأعلى، ويجلس إلى وقت الظهيرة ليباشر الأعمال . وكنت أعمل مع كتابه فأكتب كل ما يأمر به وأدير الأعمال وكان يأمر بتوزيع الخلع والصلات السلطانية . وكان الغرباء يغادرون المجلس بعد الفراغ من صلاة الظهر ، وكنت أدعى مع كتابه وأتباعه إلى المائدة فنأكل ثم نعود ، وجرى الحال على هذا المنوال أسبوعا كاملا تمت فيه جميع الأعمال وأصبت فى تلك الأيام خيرا كثيرا . ثم غادر بلخ ، ومع أنه كان معه أثناء السير فى الطريق فيل ومحفة وبغل بالمحامل فإن الخواجة كان يؤثر أن يحمل على تخت له نوافذ[1] يحمله خمسة من الرجال وكان قد أتى من الهند إلى بلخ على هذا النحو الذى كان أكثر راحة ورفاهية من غيره من الوسائل ٢٤٧. ولحقنا بالسلطان فى بغلان ، حيث كان يستمتع بالشراب والصيد ، منتظرا قدوم الوزير الذى عرض عليه فور وصوله كل ما قام به من الأمور ، فسر السلطان بذلك سرورا عظيما . وبعد يوم من إقامتهم ارتحلوا بالجيش من مضايق زرقان وغور وند[2] . وأقاموا بعد خروجهم من تلك المضايق ثلاثة أيام فى سهل حورانه مستمتعين بالشراب والقنص ولم يدر بخيال أحد مثل هذا الزمان ، فلقد كانت الدنيا أشبه بالعروس وكان السلطان العظيم يسير هانئا سعيدا ، رافع الرأس بلا منازع ، حتى وصل إلى مرحلة پروان ، ثم غادروها مبتهجين مسرورين إلى مرحلة باق[3] . وكان يستقبله كل يوم جمع آخر من أهل غزنة كما تقدم إليه أبو المظفر[4] رئيس غزنة ونائب أبيه الخواجة على فى پروان ، يحمل الكثير من أنواع المأكولات الطريفة

---

(١) الكلمة الفارسية دار وزينها وهى جمع دار وزين التى حرفت وأصبحت دار بزين وتطلق على النوافذ كما تستخدم بنفس المعنى الذى تستخدم فيه بمصر .

(٢) أسماء لأمكنة مر بها موكب السلطان .

(٣) أنظر حاشية ١ ص ٢٦٦ .

(٤) ذكر اسم المظفر من قبل . وهما المظفر الابن وهناك أبو المظفر الأب . غني فياض حاشية ٣ .

اللطيفة . وجاء الآخرون تباعا فى أثره ، حتى وصلنا إلى هنا ، أى فى بلق ، فشمل السلطان بعطفه المستقبلين كلا على قدر منزلته والله أعلم بالصواب .

ذكر القبض على الأمير أبى يعقوب

يوسف بن ناصر الدين سبكتكين العادل رحمة الله عليهم

كان القبض على هذا الأمير فى موضع بلق هذه ، وفى ذلك قصة طويلة لامناص من ذكرها حتى يحاط خبرا بالأمر كله : كان الأمير يوسف رجـــلا لايحمل بين جوانحه حقدا ولا غلا ، ولم يرتكب إثما أو فسادا . وكان يعمل على عهد أخيه السلطان محمود فى الخدمة بالحضرة مرتين فى اليوم ، على صورة لم تترك له وقتا للاشتغال بغيرها من الأمور . وكان يجد فى أوقات فراغه من الخدمة ما يتمتع به من اللهو والشراب ، هذا ولا يخفى مقدار ما يحصل عليه المرء من التجـــارب إذا كان على هذه الحال من شباب وقوة وجدة ومال أتاه عفوا . فبعد أن توفى السلطان محمود ونامت تلك العين اليقظة ، قدم الأمير محمد إلى غزنة واعتلى سرير الملك وأسند سپهسالارية الجيش إلى عمه الأمير يوسف ، وجرى ماجرى من الأمور التى ذكرتها سابقاً وهذه الفترة القصيرة التى دامت فيها تلك الحكومة وظلت فيها هذه السپهسالارية تشهد بمقدار مايمكن أن يكون من اليقظة لأمثالها . ثم انتهى الأمر باعتقال الأمير محمد بقلعة كوهتيز بتكيناباد ، وبالرغم من أنهم دخلوا فى طاعة ملك عظيم ونالوا لديه ٢٤٨ قربى عظيمه فإن الملوك سرعان ماتغض الطرف عن تلك القربى ولا يعتمدون على مثل هؤلاء . وأذكر أنى قرأت فى سيرة يعقوب بن الليث الصفار ، أنه قصد نيسابور للقبض على أمير خراسان محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر ، وكان أعيان دولته يتقربون بالرسل المسرعين إلى يعقوب ويرسلون إليه الرسائل بأنه ينبغي الإسراع ، إذ أن أميرهم لاعمل له سوى اللهو والمجـــون ، وأنه

من الحيف أن يضيع ثغر عظيم كخراسان هباء ، إلا أن ثلاثة من أكابر الشيوخ علماً وخبرة وتجربة لم يلتفتوا إلى يعقوب ولم يتقربوا إليه بل آثروا البقاء فى الخدمة على باب محمد بن طاهر حتى وصل يعقوب بن الليث وألقى القبض على محمد بن طاهر فقبضوا على هؤلاء الثلاثة ، وجاؤا بهم إلى حضرة يعقوب فسألهم : « لماذا لم تتقربوا إلينا كما فعل أصحابكم ؟ » فقالوا « أنت الآن ملك عظيم ، وسوف تكون أعظم من هذا . فإن وعدتنا ألا تغضب بينا لك الواقع » فقال « لن أغضب ، فهاتوا ماعندكم » فقالوا : « هل رآنا الأمير قبل اليوم قط ؟ » فقال « كلا » فقالوا : « هل كانت لنا مع الأمير أو للأمير معنا فى أى وقت مضى مراســـلة أو مكاتبة ؟ » فقال « لم يحدث ذلك » . فقالوا : « إنا شيوخ كبار وقد قضينا فى خدمة آل طاهر أعواما طويلة ونلنا فى دولتهم إعزازا وافرا ومراتب عديدة ، فهل كان من الإنصاف أن نكفر بنعمتهم ونتقرب إلى خصومهم ولو كان دون ذلك ضرب الرقاب . تلك هى أحوالنا وما كنا عليه ، ونحن الآن فى يد الأمير وقد ذهب سيدنا فافعل بنا أيها الأمير ما يرضى به الله سبحانه وتعالى وما يليق بمروءتك وسؤددك » . فقال يعقوب : « عودوا إلى بيوتكم آمنين وعلينا أن نحافظ على الأحرار أمثالكم وأن نفيد من خدماتكم ألا فلتكونوا دائما فى حضرتنا » فعادوا إلى منازلهم آمنين شاكرين . ثم أمر يعقوب بالقبض على أولئك القوم الذين تقربوا إليه ومصادرة جميع أموالهم وطردهم ورفع منزلة هؤلاء الثـــلاثة ، ثم اعتمد عليهم فى أسباب الملك .

وغرضى من أمثال هذه الحكايات إنما هو أن لا يتسرع الطاعنون فى النيل من السلطان العظيم مسعود وأن ينطقوا بالحق فإن طباع الملوك وأحوالهم وعاداتهم لا تشبه الآخرين . وما يراه هؤلاء ، أى الملوك ، لايتسنى رؤيته لغيرهم . والسبب الذى دعا الأمير يوسف للعمل على تأييـــد الأمير محمد

إنما هو مراعاة لميل قاب السلطان محمود نحوه ، فأسخط ذلك السلطان مسعود .
وكان للأمير يوسف ابنتان بلغت أحداهما سن الرشد ولم تزل الأخرى صغيرة .
فأعطى السلطان محمود الأبنة البالغة ٢٤٩ للأمير محمد وعقدوا له عليها ، على أن
تبق الصغرى للأمير مسعود كيلا تأخذه الغيرة من أخيه ولم يعقدوا النكاح ،
وهيأ السلطان محمود من المعدات للعرس ما لا يذكر أحد له مثيلا . وتم ذلك
فى قصر الأمير محمد أمام الميدان الصغير . وبعد أن زينت القصور ومهدت
الأسباب كلها ، ركب السلطان محمود وسار إلى هنالك وشمل الأمير محمد
بعطفه العظيم وأكرمه بخلعة سلطانية ووهبه شيئا كثيرا ثم عاد . وتركوا القصر
للعريس والحرائر من النساء . ومن عجيب القضاء أن اعترت العروس الحمى ،
وجاءوا بالمهد وقت صلاة العشاء ، وكان نهر غزنة قد امتلأ بشريفات النساء
فأضاؤا شموعا ومشاعل كثيرة حتى يذهبوا بالعروس ، فلقيت المسكينة التى
لم تر الدنيا حتفها وهى مزدانة غارقة فى الذهب والجواهر والزينة . فذهبت
كل تلك الأمانى والآمال سدى ، ونقلوا الخبر حالا إلى السلطان محمود فاعتراه
غم شديد . ولكن ما الحيلة والقضاء مقدر ، فإن الله عز ذكره يقدر أمثال هذه
الأمور . حتى يعرف العبد عجزه . وفى اليوم التالى أمر السلطان بعقد قران
الأمير محمد على الإبنة الأخرى التى كانت باسم الأمير مسعود ، فاغتم مسعود
لذلك كثيرا ولكنه لم يستطع التفوه بكلمة . وكانت تلك الإبنة طفلة جدّ صغيرة .
فأحضروها إلى الدار وأبقوها حتى دار الزمان وتوفى السلطان محمود ، وانتهى
أمر تلك الفتاة إلى أن دخلت حرم الأمير محمد عند وصوله إلى غزنة وجلوسه
على سرير الملك وقيل إنها كانت فى ذلك الوقت تبلغ الرابعة عشرة من عمرها .
وفى الليلة التى زفت فيها للأمير محمد وانتقلت من حينا (سرآسيا) إلى دار
الإمارة شاهدت احتفالا يفوق الوصف . وقد أرسلت هذه الفتاة إلى الأمير
محمد بالقلعة بعد اعتقاله حيث مكثت مدة هنالك فاعتراها ضيق أدى إلى عودتها

وهى ما تزال للآن تقيم بغزنة . وكان قلب السلطان مسعود متحاملا من الجفاء الذى لقيه من عمه وسايره القضاء الغالب حتى سقط من الثريا إلى الثرى ونعوذ بالله من الإدبار . وعندما استتب الأمر بهراة للسلطان مسعود ، كما مرّ ، أرسل الحاجب يارق تغمش الجامه دار إلى مكران بجيش كثيف ليضبط أمورها وينصب أبا العسكر والياً عليها ، كما أرسل الأمير يوسف مع عشرة من المقدمين وكتيبة من الجيش إلى قصدار ، ليكون ظهيرا للجامه دار ، حتى تستقر أمور مكران سريعا . وكانت تلك حجة ليبعد بها يوسف مدة عن وجهه وعن أعين الجند ، ٢٥٠ فيظل فى تلك المدينة كالمحدد الإقامة ، يراقبه فيها أولئك المقدمون ، وخدعوا سرا ، بإيعاز من السلطان ، حاجبه طغرل الذى كان يعزه كأحد أبنائه ؛ فدسوا الدسائس ليكون عينا على سيده وينهى إلى السلطان كل ما يجرى ، حتى ينال ثمرات هذه الخدمة بمنصب رفيع ، وانطلت الحيلة على هذا التركى الأبله ، ولم يعرف كيف تكون عاقبة الكفران بالنعمة ، وأخذ يرسل من قصدار السعاة إلى بلخ يذكر الغث والسمين من الأخبار ، ويبلغها سرا إلى عبدوس ، فينهونها إلى السلطان . وأنّى ليوسف أن يعرف أن عشيق روحه وأنيس قلبه أمسى رقيبه ؟ فكان يبث شكواه لهذا الرقيب دائما ولا سيما وقت الشراب . ويرسل الكلام إرسالا فيقول : « ما هذا الذى جنيناه على أنفسنا فسنذهب جميعا واحداً بعد الآخر ، هذا ولعمرى جزاؤنا لأنا نكثنا العهد ، وجفونا الصديق » ، وكانوا يكتبون كل ذلك ويزيدون عليه فيزداد حقد السلطان عليه . وبلغت القحة بطغرل أن كتب إلى السلطان يقول « إن يوسف أخذ يدبر ليلتقى بنفسه فى تركستان وهو يكاتب الخانيين » فأوعز السلطان سرا بالكتابة إلى الأعيان الذين كانوا مع الأمير يوسف بتشديد الرقابة عليه ، حتى يصل موكبه إلى غزنة وقال : إنا سندعوه إذا ما اعتزمنا السير من بلخ إلى غزنة . وينبغى أن لا يدعوه يسير إلى جهة أخرى إذا أراد ذلك ، وعليهم أن يأتوا به إلينا حينئذ مصفدا

فى القيد ، وإذا اتجه فى سيره شطر بست أو غزنة فينبغى ألا يحاط خبرا البتة بما أمرنا . فقام أولئك الأعيان بما عهد إليهم بكل دقة واحتياط . وكنا وقتئذ فى بلخ حيث وصلت الجمّازة ثلاث أو أربع أو خمس مرات من قصدار وهم يحملون أنواع الفواكه من الأترج والرمان وقصب السكر ، ويحملون معها الرسائل التى يبدى فيها الأمير يوسف فروض طاعته وخضوعه للسلطان ، شارحا أحوال قصدار ومكران . وكان السلطان يجيبه بردود لطيفة مخاطبا إياه بالأمير الجليل العم أبى يعقوب يوسف بن ناصر الدين وكتب له « إننا سنغادر بلخ يوم كذا وقد استقر أمر مكران ، فينبغى أن ترحل سريعا عن قصدار وتسير إلى غزنة كى تصل إليها حين وصولنا ، فنقـــدر حقوقك كما ينبغى . فسار الأمير يوسف من قصدار ووصل غزنة قبل أن يصل إليها السلطان مسعود . فلما سمع بأن السلطان قد اتجه شطر غزنة من پروان ، خرج بكل بساطة وتواضع لاستقباله ومعه ابنه سليمان وخادمه طغرل الخائن وخمسون غلاما . وتحرك السلطان من موضع سناج ولما يبق غير ردح من الليل ٢٥١ مستقلا المهد الذى كانت تحمله أنثى من الفيلة ، والمشاعل تضىء الطريق بينما هم يتسامرون ميممين شطر بلق ، حيث كانوا قد نصبوا سرادقه السلطانى هناك . وقرب المدينة لاح ضوء مشعل من بعيد فى تلك الصحراء من جهة غزنة ، فقال السلطان لعله عمى يوسف الذى دعوناه فجاء يستقبلنا . ثم بعث باثنين من ثقاته للاستطلاع فسارعا نحو المشعل ووصلا ثم عادا أدراجهما مسرعين يقولان : « أطال الله حياة مولانا إنه الأمير يوسف » . ووصل الأمير يوسف بعد ساعة . فأوقف السلطان الفيل ، وترجل الأمير يوسف وقبل الأرض إجلالا . وترجل كبير الحجاب بلكاتكين وكافة الأعيان الذين كانوا برفقة السلطان ، وطلبوا جواد الأمير يوسف ثم أركبوه بكل تجلة واحترام . وأبدى السلطان نحوه عطفا بالغا جاوز حد الوصف . ثم ساروا واختصه وحده بالكلام حتى طلع النهار ونزلوا للصلاة . ثم امتطى السلطان

جوادا بدلا من الفيل وساق ويوسف إلى يساره يتحدثان ، حتى وصلا إلى المعسكر . فالتفت السلطان لعبدوس وقال « لقد حضر عمنا متخففا فأوعز أن ينصبوا هنا قرب السرادق ستارا وخياما وأخبية وينزل العم فيها ليكون قريبا منا » فقال سأفعل . ودخل السلطان السرادق ، ونزل فى الخركاه . وأجلسوا الأمير يوسف فى الفسطاط ونصبوا له صفة وستارا ، فذهب هنالك ثم نصبوا خياما أخرى نزل فيها غلمانه وأتوا بالموائد فدوها . وكنت أراقب من ديوانى ما يجرى ، فرأيته لا يمد يده إلى شىء من الطعام مستغرقا فى الفكر إلى حد بعيد كأنه أحس بمكروه دبر له . فلما رفعت الموائد وتفرق الأعيان اختلى السلطان ودعا عبدوس وأبقاه طويلا . ثم خرج عبدوس من لدن السلطان وسار إلى الأمير يوسف واختليا وتحادثا طويلا . وكان عبدوس يروح ويغدو محدثا إياه معددا خياناته . وكان مصيره أن أوقفوا هنالك عدة عند صلاة الظهر ثلاثة من مقدمى الهنود مع خمسمائة فارس هندى فى أتم سلاح ، وثلاثة من النقباء الهنود معهم ثلاثمائة من الرجالة المختارين ، وأحضروا بغلة مسرجة أوقفوها ، فرأيت الأمير يوسف ينهض ، وكان ما يزال بقلنسوته وحذائه ومنطقته . فاحتضن ابنه وبكى ثم حل منطقته ورماها جانبا وهو يقول لعبدوس « إننى ، ٢٥٢ أستودع هذا الغلام الله أولا ثم إياك من بعد » وقال لطغرل « لتهنأ أيها الكافر بالنعمة . هل ربيتك لهذا ؟ وهل كنت أعزك أكثر من ابنى لتدبر بخداعك لى هـــذه المكيدة ؟ فليكن جزاؤك ما تستحق » ثم ركب وسيق إلى قلعة سكاوند ولم أره بعد ذلك أبدا . وفى السنة التالية ، أى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة (١٠٣١ — ١٠٣٢) ، سمعنا ونحن فى الطريق عند رجوعنا من بلخ أنه قضى نحبه فى القلعة الداخلية رحمة الله عليه ، وقصة طغرل هذا قصيرة نوعا ما ولكنها طريفة ولذا وجب ذكرها . ثم أعود إلى سرد التاريخ .

ذكر قصة هذا الغلام طغرل العضدى

كان غلاما لا يرى مثله فى ألف غلام منظرا وقواما ولوناً وظرفا وكفاءةً .
وهو ممن بعثت به من التركستان السيدة خاتون أرسلان خصيصا إلى السلطان
محمود . إذ كانت تلك السيدة قد اعتادت أن تهدى إليه فى كل عام غلاما نادرا
وجارية بكرا ممتازة . وكان السلطان يقابل هديتها بهدايا من الثياب المقصبة
والأقمشة المزركشة وعقود اللؤلؤ والديباج الرومى البديع . وقد أعجب السلطان
بطغرل هذا وجعله فى زمرة سبعة أو ثمانية من غلمانه المكلفين بشرابه بعد مرتبة
اياز . واتفق بعد عامين أن جلس السلطان للشراب يوما وسط الزهور والرياض
فى روضة فيروزى ، وقد نثروا هنالك مالا يحصى من نوع زهر « صد برك »[١] .
وكان هؤلاء السعاة يأتون بالتناوب اثنين اثنين بوجوه يسطع منها نور الأقمار .
وجاء طغرل هذا وعليه قباء لعلى اللون مع زميل له عليه قباء فيروزى . وطفق
القمران يقدمان كؤوس الشراب وكان طغرل واقفا وبيده كأس من شراب
ذى لون بديع وقد لعبت الخمر برأس الأمير يوسف فجمدت عينه عليه وعشقه
ولم يستطع تحويل عينه عنه ، رغم كل ما بذله من الجهود . وكان السلطان
محمود يختلس إليه النظرات ويشاهد افتتان أخيه وهيامه . ولكنه تغافل ثم خاطبه
بعد ساعة قائلا « أى أخى لقد توفى أبوك عنك وأنت صغير وقد أوصى عند
وفاته عبد الله الكاتب بقوله « قررت أن يرعى محمود ملك غزنة يوسف ، لأن
اسماعيل لا يقوى على ذلك ، ٢٥٣ فقل لمحمود عن لسانى بأنى مهتم بأمر يوسف ،
وجعلته فى عهدتك فينبغى أن تنشئه على خلقك وتعزه كابنك » وأنت تعلم
مقدار ما بذلنا حتى الآن من العناية بشأنك وظننا أنك قد بلغت مراتب الأدب .

---

(١) أى الورد ذو المائة ورقة . انظر فصل Legacy of Persia: Persian Gardens

ولكنا نراك الآن على غير ما كنا نظن وإلا فماذا دعاك إلى اختلاس النظر فى مجلس الشراب إلى غلماننا ؟ لقد رأيتك لا ترفع العين مرة عن وجه طغرل . فهل يعجبك أن ينظر أحد فى مجلس الشراب إلى غلمانك ؟ والحق انى لو لم ارعَ حرمة روح أبى لعنفتك اليوم تعنيفا شديدا . إنى لأصفح عنك هذه المرة وأهبك هذا الغلام ، فإن لنا كثيرا من أمثاله ، ولكن أحذر أن تبدو منك هذه الفعلة مرة أخرى . إنه لا يُلعب مثلُ هذا اللعب بمحمود » .

فتحير يوسف فى أمره ونهض من مقامه فقبل الأرض وقال . « لقد ثبت الآن ولن أرتكب مثل هذا الخطأ مرة أخرى » ، فقال السلطان له : « فلتجلس » ، فجلس وانقطع ذلك الحديث . وامتد بهم المجلس وأخذ الشراب من يوسف مأخذه . فعاد إلى منزله فنادى السلطان محمود خادمه الخاص « صافى » المعهود إليه أمر هؤلاء الغلمان وقال له « ابعث بطغرل إلى أخى » فبعثوا به . وفرح الأمير يوسف بذلك فرحاً عظيما ومنح الخدم مالا وفيراً ، كما تصدق كثيرا . ورفع هـذا الغلام حتى صار حاجبا له بل أصبح أعز لديه من أبنائه . وعندما هاجم سواد الليل بياض نهاره وانكسفت شمس سعده ؛ تقدم لخطبة فتاة من أسرة رفيعة القدر ، وتكلف فى عقده وزفافه تكاليف لم تكن الحاجة تدعو إليها ، مما لم يعجب جماعة من العقلاء . فصار جزاء ذلك السيد هو ما ذكرناه . وبعد وفاة سيده حصل على منزلة وكوفىء من السلطان مسعود ولكنه صار ممقوتا لدى السلطان ولدى الآخرين وحالفه الإدبار ، ثم توفى ملوما محسورا فى ريعان شبابه . وتلك عاقبة من يكفر بالنعمة ألا فليعصمنا الله تعالى وجميع المسلمين بعصمته ، ويوفقنا إلى الأصلح لنبلغ بسعة رحمته ومنه شكر آلائه ونعمى عباده المنعمين . أما غلمان الأمير يوسف رحمة الله عليه فقد تفرقوا بعد وفاته

أيدى سبا. ٢٥٤ ووقعت لكتخداه أبى سهل لكشن[1] من بعده أحداث وأزمات وصودر عدة مرات. وكان رجلا بالغ الفضل ذا أناة عاقلا لبيبا فانتهى أمره إلى أن أسندوا إليه عمل ناحية بست إذ كان من أهلها وقد توفى وهو يعمل فيها. ولحقت بالخواجة إسماعيل متاعب عديدة فذاق كثيرا من المرارة والحلاوة. ولكنه حفظ حق هذه الأسرة بخدمة أولاد هذا الأمير وأوقف نفسه على خدمتهم وسقط ونهض فى سبيلهم وازداد شهرة فى عهد السلطان مودود رحمة الله عليه، وباشر الأعمال الشخصية للسلطان المذكور وأبدى كفاءة وأمانة حتى أصبح، ولا جرم، وجيها عنده كما يقوم اليوم بمباشرة الأموال والضياع الخاصة بالسلطان الحالى أبى شجاع فرخ زاد بن ناصر دين الله مع كثير من المهام وقد مرت عليه مدة وهو يقوم بأمثال هذه الأعمال دون أن يؤخذ عليه عيب أو تقصير. وكان من جملة خدم الأمير يوسف رجل يدعى آموى آثر بعد وفاة سيده أن يعتزل خدمة الخلق ويشتغل بالمحراب والصلاة والقرآن والعبادة واستمر على ذلك إلى اليوم. إلا أن ملوك هذه الأسرة طلبوا إليه عدة مرات أن يستأنف الخدمة فقبل قيادة المطوّعة فى غزنة، سلمهم الله، وأبدى فى ذلك همة فائقة ولكنه ما لبث أن وسط الشفعاء ملتمسا إعفاءه، فنجا بنفسه. وكثيرا ما عزموا على إيفاده سفيرا ولكنه كان يتخلص منهم بلطيف الحيل أيضا. وعادوا فى سنة تسع وأربعين(١٠٥٧) فألحوا عليه إلحاحا بالغا ليقبل منصب الإشراف على أوقاف غزنة لتزدهر ويعلو شأنها ولكنه احتال بشتى الحيل فانصرم حبل هذا الحديث. والرجل كل الرجل من يستطيع أن يعمل مثل هذا، فيكسر بذلك عنق الحرص والنهم. وكل من يرعَ جانب الله فى أعماله وأفعاله فسوف

---

(١) فى النسخ « لنكش » وهذا خطأ. ولكشن هو جد أبى سهل هذا وقد ذكر كثيرا فى شعر فرخى. غنى — فياض حاشية ١.

لا يضيع الله ، جلت عظمته . أجر عبده هذا . وكذلك مثل أبى القاسم حكيك[1] ذلك الرجل اللطيف اللبيب الذى كان نديما للأمير يوسف فلم يقبل خدمة أحد ، فكان وفيا كريما فيما فعل . وهذان الرجلان يقيمان الآن بغزنة وهما من زمرة أصدقائى . وما كان عذرى إذا لم أقدر صداقة الجميع وأتحدث عنهم ، فإن ذلك لا يباين أصول التاريخ .

وبعد الفراغ من هذه القصة استأنف تاريخ السلطان مسعود رضى الله عنه ٢٥٥ بعد إلقاء القبض على الأمير يوسف وسوقه إلى قلعة سكاوند .

ارتحل موكب السلطان فى اليوم الثانى من بلق ، وتقدم إليه فى موضع باجكاه المقدم أبو على كوتوال وأبو القاسم على نوكى صاحب البريد ، ولم يكن مسموحا لهذين الشخصين فى أى عهد بالتقدم للاستقبال إلى أبعد من هـــذا الموضع ، وأكرم السلطان كلا منهما بما يستحق ، وكان الكوتوال قد أتى معه بما لا يحصى من أصناف المأكولات والنقل التى كان بارعا فى انتقائها وتقديمها . فسر السلطان غاية السرور وأثنى عليهما وأعادهما إلى المدينـــة ، وأمر الكوتوال أن يبذل اهتمامه ويحشد الرجالة فى أهبة تامة من ساحة الخلقانى حتى الجوسق حيث كانت أقواس النصر مقامة الواحد تلو الآخر ، كى لا يحدث مكروه أو خلل . وفى اليوم التالى ، الخميس الثامن من جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (١٠٣١) ، تقدم السلطان إلى حاضرة ملكه فى موكب عظيم حافل . فخرج أهل المدينة رجالا ونساء وأطفالا لاستقباله فى حماس وسرور . وكانوا قد نصبوا فى ساحة الخلقانى قبابا مزينة فى غاية الأبهة ، كان الشيوخ يقولون إنهم لم يعهدوا مثلها ، ونثرت صدقات لا تحصى . وكان العبور بين أقواس النصر

(١) يذكر فى بعض النسخ خليك وفى أخرى خكيك . غنى فياض — حاشية ٢ .

من الصعوبة بمكان ، مما حمل جمعاً كثيراً من الناس على السير من ناحية خشك رود وشابهار[1] . ونزل السلطان باليمن والإقبال فى الجوسق المعمور قبل الظهر. وكانت عمته الحرة الختلية ، رضى الله عنها ، قد أعدت كثيراً من أنواع المآكل اللذيذة وأرسلتها إليه على جارى عادتها أيام السلطان محمود . فسر بذلك السلطان مسعود سرورا بالغا . ولم يأذن عصر ذلك اليوم لأحد وخص ليلته لاستقبال حرائر النساء والسرارى السلطانية اللائى حضرن لرؤيته . وفى هذا اليوم وفى ليله عم المدينة السرور والطرب والغناء . وطفق الأهلون ينجولون ويشربون ويقيمون الولائم والحفلات ٢٥٦ بصورة لاتخطر على بال . ثم أذن السلطان للاستقبال فى اليوم التالى : وجلس فى قاعة العرش مكان أبيه وجده رحمة الله عليهم أجمعين. فأخذ أهل المدينة يفدون لزيارته أفواجا ، ونثر الموالى والحشم والجنود والأهلون أموالا طائلة ترحيباً بملك عظيم يتربع على دست الملك فى ذلك اليوم. وأنشد الشعراء أشعارا كثيرة امتلأت بها الدواوين ، وقد ضربنا صفحاً عن ذكرها كيلا يطول المقام . واستمر ازدحام الخلق حتى صلاة الظهر . ثم دخل السلطان السراى وعمد إلى الشراب دون أن يحضر الندماء ، ولم يأذن بالاستقبال عصر ذلك اليوم ولا فى اليوم الذى يليه ، ولكنه ركب ميمما شطر حديقة النصر (باغ فيروزى) فى حى يست زار ، ليزور ضريح والده رضى الله عنه ، حيث بكى هنالك وأمر بعشرين ألف درهم للقوم الذين يعملون به . وخاطب نبيه الفقيه ونصر بن خلف قاضى العسكر بقوله : « ينبغى أن تحشدوا الكثير من العمال حتى يتم هذا الرباط ، كما يجب مراقبة أوقاف هذا الضريح ليصرف ريعها فى طرقها وسبلها . وقد كان أبى يحب هذا البستان ولذلك أوصى بدفنه فيه ، وقد حرمنا هذه البقعة على أنفسنا . ولا نأت هنا لغير الزيارة

---

(١) كان شابهار ميدانا خاصا لعرض الجند ، وقد تكرر فى هذا الكتاب. فى ص قياس٣ .

حرمة له » لذلك يجب اقتلاع ما يؤكل من الخضر والنبات ويجب أن لا تسمحوا لأحد بالمجيء إلى هنا للنزهة » فقالوا : « سمعاً وطاعة » وألسنة الحضور تلهج بالدعاء الكثير .

ثم خرج السلطان من البستان ميمماً طريق الصحراء يصحبه الموالى والحاشية حتى وصل إلى موضع أفغان شال حيث نزل لزيارة قبر الأمير العادل سبكتكين رضى الله عنه . وأمر لمن كان هناك من الناس بعشرة آلاف درهم . ثم آب إلى السراى المعروف بجوسق الدولة . وجلس الأعيان فى الدواوين وأخذوا بعد ذلك فى مباشرة أعمالهم. وفى يوم الثلاثاء لعشرين خلون من جمادى الآخر ذهب السلطان إلى الروضة المحمودية . حيث تناول الشراب وسرّ بالمكان فأمر أن تحمل الرحال والدواوين إليه فانتقل إليه رجال الحاشية جميعهم والغلمان والحرم ودواوين الوزارة والعرض والرسالة والوكالة وجلس الأكابر والأعيان ، وسارت الأمور سيرها المعتاد واغتبط رجال الجيش والأكابر والأعيان جميعاً ، وتعلقت قلوبهم بهذا السلطان العظيم ، الذى يسير فى الناس سيرا ٢٥٧ محمودا . ولو أنه استمر على ذلك المنوال لما تطرق خلل إلى أى باب. ولكن كان هنالك وزراء يعملون فى خفية بعيدا عن متناول الأستاذ الرئيس أحمد حسن . وكانوا لا يرعون صالح الملك فأقدموا من أجل تحقيق أطماعهم على أعمال الملوك وخاصة إذا كانوا شباناً فرهين . وكان أول عمل سببوا به قنوط الناس ويأسهم من هذا السلطان أن دبر أبو سهل الزوزنى والآخرون سرا وجوب استرجاع أموال البيعة والصلات التى منحها أخوه الأمير محمد ، وأن من الحيف أن يبذل من أجل أمر لم يتم أكثر من سبعين أو ثمانين ألف ألف درهم للأتراك والأعراب وأصناف الجند . وزينوا هذا الحديث للسلطان

وقالوا « إن المحمودين لخداعهم وريائهم لايرغبون أن يسترد السلطان هذه الأموال ، فهم ملوثون وقد أخذوا الأموال فلا يرضيهم أن تؤخذ منهم ثانية. فالرأى أن يطالب إلى القائمين على الخزائن قوائم بالمصروفات التى انفقت وأن ترسل هذه القوائم إلى ديوان العرض ، وأحيل أنا ، أى أبو سهل ، مرتبات الجند بعضهم إلى بعض بطريقة التسبيب[1] ، ويكتبون البراآت حتى تستوفى تلك الأموال ، وينبغى أن لا يصرف مال للمرتبات من الخزانة لمدة عام حتى يستوفى كل ذلك المال بما كان قد أخذه الجنود والأعراب ، فقد استمروا فى أخذ الأموال أربعين عاما وكلهم فى رفاهية من العيش ، وما العمل الذى قاموا به فيستحقون من أجله كل هـــذه الأموال الطائلة ؟ إنه يجب طردهم » . فقال السلطان « حسناً » واختلى بالأستاذ الرئيس وتكلم معه فى هذا الشأن ، فأجاب الوزير إن الرأى لمولانا فيما يأمر ، ولكن هل فكر السلطان فى هذا مليا ؟ فقال السلطان : « نعم لقد فكرت فى ذلك ورأيت العمل به صوابا فإنه مال كثير » ، فقال الوزير « ليمهل العبد حتى يفكر أيضاً ويعرض كل ما يعن له ، لأن الجواب لا يستقيم على البديهة ، وعندئذ يأمر الرأى العالى بما يرى » فأجاب السلطان « حسنا » .

وعاد الوزير وظل معتكفاً طوال ذلك اليوم وليله يفكر فى هذا الأمر . فبدا له أن هـذا العمل منكر ، فإنه لم يكن من أولئك الأكابر المحنكين الذين عركوا الزمان ثم تخفى على ضمائرهم النيرة مغبة هذه الأشياء . وفى اليوم التالى بعد أن أذن السلطان وانصرف القوم من حضرته اختلى بالوزير ٢٥٨ وسأله : مارأيك فى حديث أمس ؟ فأجاب : سأذهب إلى الإيوان ثم أطلعكم على

---

(١) التسبيب : أن يسبب رزق رجل على مال متعذر ليعين المسبب له العامل على استخراجه فيجعل وردا للعامل وإخراجا إلى المرتزق بالقلم . مفاتيح العلوم ، ٤١ .

الجواب . فقال السلطان : حسنا . وجلس الوزير فى الإيوان واستدعى أبا نصر واختلى به وقال له : هل لك علم بما دبروا ؟ فقال كلا فقال الوزير : لقد حملوا السلطان على أن يسترد كل مامنحه وأعطاه أخوه الأمير محمد للجند والسادة والشعراء وحتى ما أعطاه للطبالين والزمارين[1] والمضحكين ، وقد فاتحنى السلطان فى هذا الأمر إلا أنى لا أرى هذا لائقا بأية حال . ولكنى لم أبد رأيا فى هذا الشأن فقد رأيه حريصاً على استرداد هذه الأموال فقلت سأفكر فى ذلك ، وقضيت البارحة بلياليها أفكر فى هذا الأمر ومهما أعملت النظر لم أر الإقدام على هذا العمل لائقا لأنه يؤدى إلى سوء سمعة فاحشة ، وسيضيع الكثير من هذا المال ، إذ ليس من الممكن استيفاؤه فما قولك فى هذا الأمر ؟ فقال أبو نصر : إن الأستاذ الرئيس هو سيد العبيد وأستاذهم جميعاً ، والصواب ليس فى غير ما رآه وإنى أقول ما قاله ولعمرى فلم يصنع أحد هذا الصنيع ولم يقرأ أحد أو يسمع أبداً أنهم أقدموا على عمل كهذا ، نعم إن شيئا كهذا لم نسمع به فى أخبار ملوك الفرس لتقادم عهدهم عنا ، ولكننا لم نقرأ على أى حال عن ملوك المسلمين أن أحداً من الخلفاء أو أمراء خراسان أو العراق أقدم على استرداد هبات الصلات والبيعة ويقينى أن هذا الكلام لن يجدى نفعاً فى هذه الأيام ، أما أنا أبو نصر فقد أعددت كل ما كان الأمير محمد قد وهبنى إياه من الذهب والفضة والألبسة غير المخيطة والأقبية والعمائم وغيرها لأقدمها فورا ، فقدكنت حقا أفكر فى هذه الأيام وسأبعث بها اليوم توا إلى الخزانة قبل أن يأخذوها منى بالتسييب[2] وتذهب حرمتى إذ الكلام فى مثل هذه الأبواب لايجدى وإعادة ما أخذته سهل يسير لأنه موجود ، كما أستطيع دفع عوضه فيما إذا كان قد تلف أما استرداد ما أخذه فارس بسيط أو أحـــد

---

(١) استخدم كلمة « دبدبة » العربية .

(٢) انظر ٢٨٢ حاشية ١ من هذا الكتاب .

صغار الناس فأمره مضن يستلزم القيـــل والقال الكثير ويورث آلام الرأس وما أعرف إلى أين تصل الحال مع هذا الملك الرحيم الحليم الخجول ، فإنهم على ما يبدو لم يدعوه يستقر على حال واحد إذ هم يعملون دائمـا لحمله على تغيير القواعد والأوضاع المرســـومة . فقـال الأستاذ الرئيس فلتذهب وتبلغه من قبلي فى هذا الباب مشافهة صريحة دون أى محاباة ، حتى إذا ظهرت مغبة هذا الأمر غدا وندم على صنيعه ٢٥٩ هذا لا يبقى له مجال للقول بأنه لم يكن أحد ينصحنى ويوضح لى مغبة مثل هـــذا العمل . فذهب أبو نصر وعرض مقالة الرئيس بصراحة محكمة قوية جازمة ولكنها ذهبت سدى لأن وزراء السوء كانوا قد أحكموا الخطة تماما ، فكان جواب السلطان إن مايراه الوزير حسن وإنا سننظر فيه ونأمر بما ينبغى . فرجع أبو نصر إلى الإيوان وشرح للوزير ما سمعه من مقالة السلطان وأضاف إلى ذلك قوله : إنى لا أرى فائدة فى محاولتنا هذه . وعاد الوزير إلى ديوانه : أما أستاذى أبو نصر فإنه أرسل سرا أحد معتمديه بعد أن رجع إلى منزله ليطلب من الخزانة سجلا بكل ما كانوا قد منحوه إياه أيام ولاية الأمير محمد من الذهب والفضة والثياب والأقبية وشتى الطرائف ، فكتبوا له السجل وأرسلوه إليه فجمع كل ما جاء بالسجل وأرسله إلى الخزانة فى الحال وأخذ توقيع الخازن على النسخة كحجة عليه . وبلغ هذا الخبر السلطان فأعجبه وقال أبو سهل الزوزنى وغيره : يجدر بالآخرين أن يعملوا على هـــذا المنوال . وأجلسوا أبا منصور المستوفى وعمال الخزائن والمشرفين والكتاب فى هذين اليومين ليدونوا قوائم بالصلات والخلع التى وزعت إبان ولاية الأمير محمد على الأعيان وأركان الدولة والحاشية وأصناف الناس فتبين أنه مال كثير لا يحصى . واطلع السلطان عليها وسلمها لأبى سهل الزوزنى وقال له : سوف نذهب للصيد فى أرض زه [1]

---

(١) اسم مكان كما يبدو من الحديث . غنى — فياض حاشية ٢ .

حيث نمكث عشرين يوما فأوعز إليهم بعد سيرنا أن يكتبوا البراآت فيحيلوا هذه الجماعة على تلك وتلك على هذه حتى تستنو فى الأموال بالمقاصة[1]، ويحملوا بعد ذلك إلى الخزانة كل ما ينبغى حمله إليها . فقال : سمعا وطاعة . وذهب السلطان بعد صلاة الجمعة الموافق غرة رجب من هذه السنة للصيد فى ناحية زه بعدة وأهبة تامة وبقى الأستاذ الرئيس والعارض وصاحب ديوان الرسائل بغزنة . وبعد مسير السلطان أخذت البراآت تترى على الناس وانتشر بينهم القيل والقال والإشاعات بشكل يفوق الحد وبلغ سوء السمعة إلى ما لا يمكن وصفه . وكان الأستاذ الرئيس يرد على من كان يذهب إليه شاكيا بقوله : إن هذا الأمر بيد السلطان والعارض وليس لى دخل فيــــه . وكان السلطان من جهته يجيب الندماء والحشم بأن هذا الأمر يعود إلى الوزير والعارض .فكان ٢٦٠ يظهر وكأنه لا يعرف شيئا مطلقا عما يجرى . وقد اضطهدوا الناس وشددوا عليهم فى تحصيل الأموال، وجمع فى النهاية منهم مال كثير فيئست قلوب الناس دفعة واحدة ، فخمدت فى نفوسهم كل تلك الميول والعواطف البالغة التى كانوا يبدونها ، ولاكت أفواه الناس أبا سهل وأيقنوا أن كل ذلك لم يصدر إلا عنه ولم يذكروا أحدا من رفاقه الذين شاركوه الإثم وساءت سمعته وندم على ذلك حين لا ينفع الندم . وقد جاء فى الأمثال أن « قدر ثم اقطع » ولكنه قطع أولا دون أن يقدر ثم خاط فبدا الثوب ضيقا والحذاء لا تستوعبه القدم .

ذكر الســــيل

كانت السماء تمطر رذاذا بين الصلاتين فى يوم السبت التاسع من رجب ، بحيث بدا وجه الأرض مبالا ، وفى إبان ذلك أنزل جماعة من الرعاة قطعان

---

(١) المقاصة أن يحبس القابض له ما كان له عطاء واستلفه . وربما يقاص من رزقه بحق بيت المال قبله من خراج أو نحوه فيجعل ما استلفه أخراجا إليه وورداً له. مفاتيح العلوم ص٤٣.

الماشية من البقر وغيرها فى مجرى نهر غزنة — الذى كان يجف عادة فى ذلك الموسم — وكلما ألحوا عليهم ليخرجوا ماشيتهم من ذلك المجرى موضحين لهم أنه من المحال الوقوف فى طريق السيل لم يأبهوا لشىء حتى اشتد المطر، فخرجوا متكاسلين ميممين شطر الجدران الموصلة إلى محلة قرية الحدادين فنجوا برهة ولكنهم أخطأوا بتريثهم وكانوا قد ربطوا فى العدوة الأخرى من النهر مما يلى أفغان شال عدداً كبيراً من البغال السلطانية بين الأشجار، وكانت مرابط تلك البغال تمتد إلى جدران الطواحين بتلك الناحية، وكان المكلفون بها فى غفلة، وكانت الحمير من ورائهم وهذا هو الخطأ الآخر إذ كانت فى طريق السيل. وقد قال نبينا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم: نعوذ بالله من الأخرسين الأصمين. وكان عليه الصلاة والسلام يقصد بقوله هذا النار والماء. ولم تكن قنطرة باميان هذه مبنية فى تلك الأيام على هذه الشاكلة فقد كانت محكمة البناء مقامة على أعمدة قوية وعلى تلك الأعمدة يمتد بناء المعبر قصيرا نوعا ما وعلى جانبيه صفين من الحوانيت كالحوانيت التى نراها الآن فلما تهدمت بفعل السيل، شيد التاجر الطيب الذكر عبويه القنطرة الحالية الجميلة ذات الطابق الواحد بدلا منها فصارت مأثرة منه، وإن مثل هذه الآثار تبقى ذكرى لبانيها. وقصارى القول أن تلك القنطرة تهدمت بعد ٢٦١ صلاة العصر بتأثير السيل على صورة لم يعهد مثلها أحد من الشيوخ الذى شاهدوا أمثال هذه النكبات، إذ دهم السيل الناس فجأة فاقتلع الأشجار من جذورها، ودفعها أمامه فنهض على أثر ذلك الرعاة وعمال الاصطبلات ونشطوا لجمع الحيوانات وسوقها إلى ركن أمين وأنى لهم أن يقدروا على ذلك وقد أخذ السيل يسوق الدواب والأشجار والغصون الملتفة بعضها ببعض ويدفعها أمامه صوب القنطرة فانسدت فتحاتها وارتفع سطح الماء حتى أغرق القنطرة، واشتد طغيان السيل فمال إلى الصعود منتشرا هنا وهنالك كجند اختل نظامها وارتفع مستوى النهر حتى وصل الماء إلى

الأسواق ومنها إلى الصيارف وأحدث أضراراً جساما. ومن أفدح ما اتفق أن السيل اقتلع القنطرة بحوانيتها فوجد الماء طريقهُ إلا أنه أتى فى تدفقه على الأربطة والفنادق وتهدمت الأسواق فأمست أثرا بعد عين وبلغ الماء حتى أسفل سور القلعة فتهدمت وصارت كما كانت عليه قديماً قبل أيام يعقوب بن الليث الصفّار ذلك لأن قلعة غزنة والموضع المعروف اليوم بشارستان من مآثر أخيه عمرو بن الليث الذى ولى الحكم بعده. وقد شرح كل هذه الأحداث الأستاذ محمود الوراق فى تاريخه الذى ألفه فى سنة خمسين وأربعمائة[1] (١٠٥٨) فإنه ذكر الحوادث منذ آلاف السنين حتى سنة أربعمائة وتسع (١٠١٨) وهى السنة التى ٢٦٢ بدأت التاريخ بها، ومحمود هذا ثقة مقبول القول ولو أردت الثناء عليه لطال الكلام فى ذلك وقد رأيت من مؤلفاته النادرة العشرة أو الخمسة عشر كتابا فى شتّى الموضوعات، فلما بلغ خبرى أبناءه صاحوا فى قائلين: نحن أبناؤه لا نوافق على أن تأخذ من كلام أبينا أو تترك منه شيئاً بعد هذا فاضطررت للوقوف عند هذا الحدّ. وقد أضر هذا السيل الجارف بالناس ضررا بليغاً لا يمكن وصفه. وفى اليوم التالى وقف الناس على جانبي النهر للمشاهدة وقد مال مستوى طغيانه إلى الهبوط قبيل صلاة الظهر ولم يكن من قنطرة هنالك وظل الناس يترددون بين جانبى النهر بكل صعوبة عدة أيام حتى أقيمت القناطر من جديد. وقد ذكر لى نفر من ثقات الزابليين أن الناس أخذوا حين انحسر السيل يلتقطون أشياء ثمينة من الذهب والفضة والملابس الغالية الممزقة مما قذفه السيل هنا وهنالك. والله تعالى وحده يعلم ماحصل عليه الفقراء من هذا السيل من النعم.

* * *

(١) هكذا فى نسخة أديب، أما النسخ الثلاث الأخرى فقد ذكرت « فى سنة ثلاثمائة وخمسين ». ورجح نفيسي نسخة أديب فى هذا (ص ١١٣ حاشية ١)، وأخذنا بهذا الرأى فى الترجمة.

وعاد السلطان بعد ذلك من ساحة الصيد فى جهة زه إلى البستان المعروف بصد هزار ، ووافق ذلك يوم السبت السادس عشر من شهر رجب واستمر مقيما هنالك يلهو ويشرب سبعة أيام حتى وصلت جميع الحيوانات التى صادها ، ومن ثم انتقل إلى الحديقة المحمودية . وكانت الرسائل قد وصلت إليه من الرى قبل ذلك بأيام تصف هدوء الأحوال وتقول « إن ابن كاكو وأمراء تلك النواحى قد انصاعوا لحكمه وثبتوا على العهود لأنهم لم يروا ما يشجعهم على تحقيق الأحلام التى كانت تحدثهم بها نفوسهم ، ولكن يجب أن يكون هنا قائد عظيم ، فإن الرى بلد كبير كما رآها مولانا ومن الممكن أن تحدث بعض القلاقل فيما بعد رغم انتظام الأمور فيها الآن » . فاختلى السلطان رضى الله عنه بالأستاذ الرئيس أحمد حسن والأعيان وأركان الدولة من أرباب السيف والقلم وتجاذبوا أطراف الحديث فى هذا الشأن . فقال السلطان : إن تلك الولاية إقليم عظيم واسع يدر على الدولة مالا وفيرا فلا يمكن تركه وشأنه بأى حال بعد أن استولينا عليه عنوة بحد السيف ، ولم يبق هنالك ما قد يسبب قلقا من الخصوم ، ولو أن الفرصة أتيحت لنا فتريثنا هنالك مدة أخرى لاستطعنا الوصول إلى بغداد ، فإنه من اليسير أن يقال إنه لا يوجد فى العراق من أقصاه إلى أقصاه رجل عسكرى كفء ، نعم هنالك شراذم من أصحاب السراويل الفضفاضة[1] ، ونحن الآن بحاجة إلى قائد شديد المراس ذكى ٢٦٣ الفؤاد وإلى كتخدا محكم التدبير فمن ترون جديرا بهذين المنصبين ؟ . فظل الجميع سكوتا منتظرين ما يشير به الخواجة أحمد والتفت هـذا إلى القوم قائلا : أجيبوا السلطان . فأجابوا : من الأفضل أن يبدأ الوزير الحديث لنسمع منه ثم نبدى رأينا بقدر ما نستطيع . فقال الخواجة :

(١) يقصد بهذا الوصف التعريض بالديالمه .

«أطال الله حياة مولانا ، إن الرى والجبال بلاد واسعة ذات دخل عظيم ، وكانت على عهد بنى بويه مستقرا للملوك العظام والوزراء الكبار كالصاحب إسمعيل بن عباد وغيره كما هو معروف ، وقد التهمت بلاد الرى خزائن آل سامان لتردد أبى على الصاغانى وأبيه عليها ؛ فقد كانوا يستحوذون على الرى والجبال تارة ويستردها البويهيون تارة أخرى ، ودامت الحال على ذلك بين أخذ ورد حتى قضى على الصاغانيين وقطع دابرهم وانتهى أمرهم وانتقلت إمارة خراسان إلى يد أبى الحسن سيمجور ، وكان من المحنكين الدهاة إلا أنه كانت تنقصه الشجاعة ورباطة الجأش فتقدم وأبرم بين السامانيين والبويهيين وفنا خسرو عهدا ينص على أن يحملوا كل عام أربعة ألف ألف درهم من الرى إلى نيسابور لتوزع على الجند ، وأغمدت السيوف واستقام الصلح بينهم . واستمرت هذه المعاهدة مدة ثلاثين عاما حتى توفى أبو الحسن فاختل شأن البويهيين والسامانيين معاً ، ومن ثم استولى السلطان محمود على خراسان وكان يحدثنى فى خلواته كثيرا فى شأن الرى ويقول لى : ينبغى لنا أن نقصدها . فكنت أجيبه بأن الرأى ما يراه السلطان فإن ذلك الإقليم ليس بذات خطر والقائم على أمره امرأة فكان السلطان يضحك ويقول : ولو أن هذه المرأة كانت رجلا لاحتجنا إلى إبقاء جيش عظيم فى نيسابور . ولم يقصد السلطان الرى فى حياة تلك المرأة ، وبعد أن قصدها واستولى عليها دون عناء نصب مولانا عليها . وذلك الإقليم شديد البعد عنا وكان ظل السلطان الماضى شيئا أما اليوم فقد تغير الحال ، ويرى العبد أن الأفضل هو أن تبقى تلك النواحى بيد ابن كاكو لأنه رغم أنه أقرب لأن يكون عدوا فإن من المستطاع أخذ الحق منه فلا تبقى ثمة حاجة إلى ترك جيش كثيف وقائد كبير هنالك ، على أن تبرم معه معاهدة يسلم بموجبها المال كل عام ويكون القضاة وأصحاب البريد من قبل الحضرة العلية معه نوابا له» .

فقال السلطان نعم إننى فكرت فى هذا الأمر إلا أنى أراه لا يخلو من

عيب كبير ، وذلك أن هذا الرجل حينما كانت له إصفهان وحدها ٢٦٤ كان مجد الدولة والرازيون يلقون منه عنتا شديدا ، واليوم لو تركت له الرى وقم وكاشان وجملة تلك النواحي فلن تمضى سنتان على سيره بالجسنى حتى يفتر ويدعى الشاهنشاهية ويجمع الناس حوله ، فلا بد والحالة هذه من أن نوفد إلى تلك الجهات قائدا عظيما بجيش كثيف يستأصل شره ، وإصفهان وحدها تكفيه على أن يحكمها باسمنا وليبق القائد والكتخدا اللذان نبعثهما اليوم رابضين على رأسه وقلبه وتكون لنا الرى والجبال ، وعندئذ يرضح ابن كاكو راغما . فقال الأستاذ الرئيس : الحق فى هـــذا الباب ما يراه مولانا ولكن ما الرأى فى الجرجانيين وأبى كاليجار[1] ؟ فأجاب السلطان : إن أبا كاليجار لا بأس به ولكن الأعمال فى جرجان وطبرستان سوف تنقد لأن هذا الصبى ابن منوجهر لم ينضج بعد للقيـــام بأعباء الحكم كما ينبغى وليست فيه همة الملوك فإذا ابتعد هذا الرجل عن تلك الولاية آل أمر الجبال وتلك النواحي إلى الفساد ودعت الحاجة إلى إيفاد قائد إليها . فقال الخواجة : فيلزم تعيين قائد كبير ومولانا يعرف القادة جميعا فليأمر بتعيين من يراه لائقا من بين الخدم سواء القائمين الآن بالعمل أو من الخدم المعتقلين الذين يأملون أن يشملهم عطف السلطان ورحمته؛ فقال السلطان : لا يمكن الوثوق بأى حال من الأحوال بالمعتقلين ، لأن كلا منهم قد اعتقل لذنب كبير . كما أنه لا يجوز الثقة بالمحدثين ، وأما هؤلاء الأعيان الذين يخدمون فى الحضرة فلكل منهم عمل كالحجابة الكبرى وقيادة غلمان السراى وغيرها فلا يجوز إبعادهم عن أعمالهم كيلا يحدث خلل فينبغى اختيار واحد من غير أولئك . فقال الأستاذ الرئيس : فماذا يرى مولانا فى على دايه ، فإنه رجل كفء عظيم وقد قام فى غيبة مولانا بتلك الخدمات التى لا تخفى ،

---

(١) كاليجار كلمة بهلوية معناها الحرب أو المعركة وقد ركبت مع كلمة أب العربية . غنى ث فياض حاشية ١ .

أو أياز الذى يعد من خيرة القادة ، وقدصحب السلطان الماضى فى كل الأحوال.
فقال السلطان : إن عليا كفء وجدير بهذا المنصب ولكننا سنسند إليه منصبا كبيرا
وسوف أخبر به الخواجة ، أما أياز فإنه نشأ فى العز والدلال وكان كالظل
لوالدنا ولم يبتعد خطوة عن السراى ولم يذق حلو الدهر ومره ولم يتدرب فهو
لا يستطيع القيام بأعباء مثل هذا المنصب ويجب أن يبقى مدة لدينا بعيدا عن
السراى حتى يمارس كل عمل ويختبر فى كل أمر فننظر فى شأنه ونأمر بما ينبغى
له . فقال الخواجة : إن هذا ما كان يراه العبد ٢٦٥ وليس من شك أن مولانا
قد فكر ودبّر فالرأى العالى فوق جميع الآراء . فقال السلطان : إن قلبى يميل
إلى تاش فراش فإنه من أصحاب أبى وقد كان فى الرى معنا ، وقد وضعناه هناك
فى مقام كريم ولم يزل معروفا به فليذهب الآن ليقيم بنيسابور شهرين أو ثلاثة
فى طريقه ليتمّ هنالك بعض الأمور والمهام التى سأفضى بها إلى الخواجة ومن
ثمّ يزحف إلى الرى ، حتّى إذا ما رحلنا فى هذا الشتاء إلى بلخ نأمر بتعيين
الكتخدا وصاحب البريد وغيرهما ممن يجب أن يعينوا حتّى يذهبوا . فقال
الخواجة : نعم الرأى ما رآه واختاره مولانا إلا أن القوم الذين يقع عليهم
الاختيار ينبغى أن يكونوا مجهزين بكل ما يقوى شأنهم من معدات وآلات .
فقال السلطان : نعم سيكون ذلك وسنأمر بما يلزم .

وتفرق القوم وأمر السلطان أن يعدوا لتاش فراش خلعة فاخرة للغاية
تشتمل على منطقة من ذهب وقبعة ذات ركنين وسرج ذهبى بألف مثقال
وعشرين غلاماً ومائة ألف درهم وستة أفيال فحول وثلاث إناثا وعشر بدلات
خاصة وكوسات وراية . فجهزوا كل ما يستلزمه ذلك على أتم وجه فى بقية هذا
الشهر . ثم أذن السلطان وأمر بعد أن انتهى الاستقبال أن يذهبوا بتاش فراش
إلى خزانة الألبسة وألبسوه الخلعة وتقدموا به فخاطبه السلطان بقوله : بورك
لك ولنا إن هذه خلعة سپهسالارية العراق وإنك تعلم أن لنا خداماً كثيرين

وإنما وقع اختيارنا عليك لتشريفك بهذا المنصب الجليل لأنك خدمتنا فى الرى وكنت قائدنا ، فكلما ازددت إخلاصاً فى خدمتنا أمرنا لك بازدياد المنزلة والجاه والرعاية . فقبّل تاش الأرض وقال : ما كان العبد مستحقا هذه المرتبة وهذا الجاه وقد كان من أقل العبيد فتفضل علىّ مولاى بما يقتضيه جلاله ، وسأبذل قصارى جهدى طالبا التوفيق من الله عز وجل حتى أتمكن من تقديم خدمة تقع موقع الرضا والقبـــول . وقبّل الأرض وآب إلى داره . ثم ذهب إليه أعيان الحضرة وأدوا حقه على أحسن ما يكون .

وبعد أسبوع اختلى السلطان بتاش فراش ٢٦٦ وحضر تلك الخلوة كل من الأستاذ الرئيس أحمد حسن والخواجة أبى نصر مشكان وأبى سهل الزوزنى وأعطى السلطان تاش الأوامر بشأن الرى والجبال وقال له : ينبغى أن تمكث ثلاثة أشهر بنيسابور حتى تصل الجيوش المزمع إيفادها إلى هنالك ويدفع سورى صاحب الديوان مرتباتهم ثم تسير بعد ذلك بأهبـــة كاملة ، وقد أمرنا يغمر وبوقه وكوكتاش وقزل وكافة التركمانية بنيسابور أن ينضموا إليك وأن يكون الحاجب خمارتاش قائدا عليهم ، فينبغى أن تبذل غاية الجهد للقبض على هؤلاء المقدّمين إذ قد اتضح لدينا أنهم يريدون فسادا وعليك بتطييب خواطر التركمان ، وتسليمهم إلى خمارتاش ثم تسير بعد ذلك إلى الرى . فقال تاش : سمعاً وطاعة وانصرف . فقال الأستاذ الرئيس : أدام الله حياة مولانا السلطان لقد كان من الخطأ بادىء الأمر أن يؤتى بهؤلاء التركمان إلى عقر دارنا وقد تكلمنا كثيرا ، التونتاش وأرسلان جاذب وأنا والآخرون فى تلك الأيام دون جدوى ؛ وإذ كان السلطان الماضى عنيدا مستبدا برأيه فارتكب ذلك الخطأ ونجم عن ذلك المفاســـد العديدة فضربوهم وأجلوهم عن خراسان ، ولكن مولانا سمح لهم بالعودة ، والآن وقد أخلدوا إلى السكينة والتحقوا بالخدمة ، فمن الخير أن

يتعهدهم أحد الحجاب ولكن ليس من الحكمة القضاء على رؤسائهم لأن ذلك قد يؤدى إلى سوء ظنهم وانحرافهم . فقال السلطان : لقد التمس ذلك بعض المقدّمين منهم وسنفعله ليهدأ خاطرهم . فقال الخواجة : لقدكنت بعيداً عن مزاولة أمثال هذه الأمور عدة سنين ومولانا دون شك أعرف بها منى وما يراه الرأى العالى لايتسنى للعبيد رؤيته والصواب مايراه . ثم قام وانصرف وقد قال وهو فى طريقه إلى الديوان لأبى نصر مشكان وأبى سهل الزوزنى : إن هذا الرأى خطأ فاحش أما أنا فقد أبرأت ذمتى وأنتما شاهداى على ذلك. ومضى لشأنه .

وبعد أيام قال السلطان للأستاذ الرئيس : إن بلاد الهندلن يستقيم أمرها دون قائد فمن تراه جديرا بهذا المنصب ؟ . فقال الوزير : إن مولانا يعرف عبيده حق المعرفة وهو لابد قد فكر فى العبد الذى يليق بهذه المهمة وإنها لعظيمة وخطيرة وحيث أن رجلا كأريارق كان يقوم بهذا الأمر هنالك فكن لمهابتنا وسطوتنا ٢٦٧ فيجب أن يحل محله من يكون بمنزلته وإن تكن الأمور تسير بهيبة السلطان ، وعلى كل يجب اختيار قائد محنك مارس الخدمات وعرف واجباتها . فقال السلطان : لقد عقدت النية على إسناد هذا المنصب إلى أحمد ينالتكين فإنه وإن لم يكن قد زاول الخدمة مع القادة فإنه كان خازنا لوالدنا ومرافقاً له فى كل أسفاره وقد تعرف على أحوال السلطان الماضى رحمه الله وعاداته . ففكر الوزير مليا ، وكان مستاء من أحمد هذا لأنه كان قد أساء إليه إبان استجوابه واشترى متاعه بأبخس الأثمان وقد انتهى الأمر إلى حبس الخواجة ولم يعاقب أحمد ينالتكين حتى أمر الوزير بمحاسبته فى هذا العهد وتتبع أخطاءه ودارت المناقشات حتى أخذوا منه مالا ، فأراد الوزير أن يضع بلسما على جراح قلبه إذ وجد أن السلطان راض عنه من جهة ومن جهة

أخرى فإنه كان على كره شديد لأبى الحسن قاضى شيراز ، لأن السلطان محمود كان قد صرح عدة مرات على جارى عادته قائلا : حتام نتحمل دلال أحمد هذا ، أى الوزير ، أليس لدينا رجال آخرون جديرون بمنصب الوزارة ومن جملتهم قاضى شيراز . مع أن هذا القــاضى لم يكن له عشر شأن ذلك الوزير العظيم. ولكن الملوك يقولون ما يشاؤون ولا تفيد معهم الحجة بأى حال . فراق للوزير فى هذا المجلس أن يلقى بعبء ثقيل كأحمد ينالتكين على عاتق قاضى شيراز ليقضى عليه ولذلك قال : أطال الله حياة السلطان ، لعمرى إن هذا الرأى سديد ولا يليق به غير أحمد ولكن ينبغى وضع الشروط معه وأخذ الإيمان عليه وحمله على أن يترك ولده هنا رهينة . فقال السلطان : نعم إن الأمر كذلك فليستدعه الخواجة ويقول ويعمل ما ينبغى فى هـذا الباب . فذهب الخواجة إلى ديوان الوزارة واستدعوا أحمد فارتعد فرقا خشية أن تلحقه تبعة أخرى . ولكنه أتى فأجلسه الخواجة وخاطبه قائلا : تعلم أنك حوسبت بشأن الأموال التى كانت فى عهدتك منذ عدة سنين وقصدى من ذلك العمل بالأيمان المغلظة التى فى عنقى للسلطان والتى توجبُ على الأمانة فى خدمته فينبغى ٢٦٨ ألا تظن بى سوءاً فإنى لا أقصد إيذاءك أو الإساءة إليك فإن السلطان حين يرغب فى إنفاذ أمر يجب ألا يتأخر عبيد الدولة عن تقديم النصح وإبداء الولاء . فقبّل أحمد الأرض وقال : إن العبد لا يفكر فى أمر محال كهذا بأية حال وإن كل ما يختاره لى مولاى السلطان ويراه الأستاذ الرئيس صواباً فيه عين صلاحى ولست حديث العهد بالسلطان فقد قضيت فى خدمته سنين عديدة . فقال الوزير : لقد اختلى السلطان بى اليوم ودار الحديث فى شتى الأمور وكان أهمها ما يختص بالهند فقال : إن قاضى شيراز بدرّاعته الآن هنالك وهو لا يليق بالقيادة فينبغى إيفاد قائد عظيم مهاب للغزو ولاستيفاء الخراج بحيث يبقى القاضى لتدبير الأعمال وجباية الأموال بينما يذهب القائد للغزو وأخذ

الخراج وجلب الأفيال ولضرب جباة العصاة من الهنود . وعند ما سألته . « إن مولانا يعرف العبيد كلهم فمن يراه أهلا بهذا المنصب أجاب إن قلبي ميال ومتجه إلى تعيين أحمد ينالتكين ، وقد رأيت السلطان يحسن الظن بك وقد بينت من جانبي أيضـــاً ما كنت أعرفه من شهامتك وكفاءتك ، فأمرني أن أحضرك وأن أبلغك عطفه وثقته وأن أمهد لك الأمور حتى تسير إلى عملك فماذا تقول . فقبّل أحمد الأرض ثم نهض وقال : إن العبد لا يستطيع شكر هذه النعمة ولا يرى نفسه حقيقاً بهذه الدرجة وإنى لعبد مطيع أقوم بكل خدمة وأبذل قصارى جهدى لإنجاحها فإذا تقرر هـذا أرجو ألا أحرم من الشفقة والنصيحة . فطيّب الخواجة خاطره وأثنى عليه وأعاده . ثم دعا مظفر حاكم النديم وحدثه بكل ما جرى وقال له : قل للسلطان أن يأمر أن يعدوا لأحمد خلعة أفخر بكثير مما كانوا قد أعدوا لأريارق إبان قيادته لهندوستان وأن يكتب منشوره أبو نصر مشكان وأن يزدان بالتوقيع حتى إذا ما ارتدى الخلعة يؤخذ منه كل ما يجب من الأحكام ومن ثم يرحل مسرعا ويصل إلى عمله ويبادر فى الوقت المناسب إلى الغزو . فذهب المظفر وأبلغ الرسالة فأمر السلطان أن يعدوا لأحمد الخلعة والطبل والعلم والكوس وما ينبغى لهـا مما يمنح للقادة . وأمر السلطان يوم الأحد الثاني من شعبان من تلك السنة أن يذهبوا بأحمد ينالتكين إلى خزانة الألبسة فألبسوه ٢٦٩ خلعة فاخرة للغاية وتقدم إلى الحضرة وقد تمنطق بحزام ذهبي بألف مثقال وقبعة ذات ركنين مصاغة هي الأخرى بألف مثقال . وأدى فروض الطاعة فعطف عليه السلطان ثم عاد إلى منزله بأبهة فائقة وأدى له الجميع ما يستحقه من الاحترام ، ثم جاء فى الغد إلى الحضرة واختلى السلطان بالأستاذ الرئيس والخواجة أبي نصر صاحب ديوان الرسائل واستدعوا أحمد فأسمعه السلطان أوامره العالية بلفظه الكريم . ثم جاءوا إلى الإيوان وجلس هؤلاء الثلاثة مختلين وقد حرر المنشور وشروط الأجوبة وكلاهما مؤكد بالتوقيع

فذهبوا بها مع أحمد وأتوا بصيغة القسم ، فأقسم بها كالعادة ووقع بخط يده عليها ثم سلمت إلى الدوات‌دار بعد عرضها على السلطان . وقال له الخواجة :

« إن ذاك الشيرازى الحقير المغرور يود أن يأتمر القادة بأمره وقد كانت له صلة مع رجل خامل كعبد الله قراتكين وما أن سمع باسم أريارق وأدرك أن رجلا قوياً قد جاء حتى صمم على أن يرسل من قبله عاملا أو مشرفاً فأرسل أبا الفتح الدامغانى وأبا الفرج الكرمانى ولكنهما لم يستطعا احتمال أريارق ، وأما ما حدث لأريارق فقد كان نتيجة استبداده برأيه ، أما أنت باعتبارك قائداً فينبغى أن تعمل حسب الشروط والأحكام ولا تتكلم البتة فى الأموال والأعمال كيلا يسمعوا قولا لأحد فيك ، ولكن يجب أن تعمل بشروط القيادة إلى النهاية بحيث لا تقع يد ذاك الرجيل على هفوة فى عملك فيستصغرن شأنك وسينهى إلينا أبو القاسم أبو الحكم صاحب البريد الأوامر السلطانية والأحكام الديوانية كما ينبغى أن تتجنبا أنت وهو إزعاج المجلس العالى ، ولتكتبا إلىّ ما ينبغى كتابته بصورة أكثر تفصيلا حتى أرسل إليكما التعليمات القاطعة ؛ ويقضى الرأى العالى بإيفاد نفر من أعيان الديلم بصحبتك كأبى نصر طيفور وغيره ليظلوا بعيدين عن الحضرة فإنهم قوم غرباء ، كما تقرر إرسال آخرين ممن يتعصبون لهم أمثال أبى نصر البامياني وأخى زعيم بلخ وابن عم الرئيس وعدد من متمردى غلمان السراى ممن ظهرت خيانتهم ، هذا وقد وعدوهم بالحرية والصلات ، فيجب أن تظهر لهم أنهم يستطيعون أن يكونوا من أجلة الفرسان حتى يظنوا أن لهم لديك الحظوة ٢٧٠ والمنزلة الرفيعة ولكن يجب ألا يستطيع أحد منهم عبور ماء چند راهه دون إذن من السلطان وبغير إجازتك وعلمك ويجب أن تصحبهم عند ذهابك للغزو وأن تأخذ الحيطة التامة كيلا يختلطوا بأفراد جند لاهور وألا تدعهم يمارسون اللهو والشراب ولعب الصولجان معهم وأن تقيم عليهم العيون والأرصاد ليحصوا حركاتهم

وسكناتهم ولتعلمن أن ذلك من الواجبات التى لاتقبل الإهمال . ويعد أبو القاسم أبو الحكم آية فى أمثال هذه الأمور وسنخبره وسنكتب اليه حتى يتفق معك على ماينبغى عمله والقيام به . وقد انتهينا من تحرير جميع مايقتضيه الأمر العالى من عقود وشروط وأحكام .وكل ماسمعته الآن هو سر تفضل بهمولانا كما ينبغى أن يظل سرا ، وبعد أن تصل إلى مقر عملك ينبغى أن تشرح مايستجد من الأحوال وما ينسب إلى كل شخص حتى تعمل حسب الأوامر التى تصلك » .

فأجاب أحمد ينالتكين : لقد اتضح لى كل ذلك وسأبذل قصارى الجهد كى لايحدث خلل : وعاد . ثم أرسل الخواجة فى أثره مشافهة مع حاجبه الخاص المدعو حسن بأن الأمر العالى يقضى ببقاء نجلك هنا وليس من شك فى أنك ستصحب معك الحرائر من أهلك والمخدارات من بناتك ، فمهد لهذا الولد ليبقى هنا فى دارك مع مؤدب ومشرف من لدنك فذلك أولى له وأفضل لأن مولانا السلطان آثر رعاية لك ألا يحشر هذا الولد فى سراى الغلمان الخاصة ، وقد خجلت من التحدث اليك فى هذا الأمر ، وليس هذا من قبيل الرهينة . ومع أن السلطان لم يأمر بشىء من ذلك فإنه لايمكن التغاضى عن الشروط والرسوم المتبعة ، وليس لى بد من مراعاة مقتضيات مصالح الدولة دقيقها وعظيمها وما يهمك ويهم أمثالك من المصالح . فأجاب أحمد : سمعاً وطاعة وإن صلاحى اليوم وغدا إنما هو فيما يراه ويأمر به الأستاذ الرئيس. ومنح الحاجب منحة سخية وأعاده ، ورتب شئون ولده كما ينبغى ثم جهز مايلزم لمنصب القيادة من زينة وعتاد وغلمان وغير ذلك مما كان قد رآه ومارسه لأنه كان آية فى مثل هذه الأمور ، وبعد أن مهد كل الأعمال تقدم بطلب الإذن فى الرحيل فأذن له .

وفى يوم السبت لخمس بقين من شعبان ركب السلطان إلى وادى شابهار فى موكب حافل على مهد يحمله فيل ثم وقف على ضفة حيث تقدم إليه أحمد

ينالتكين مرتديا حلة حمراء وأدى الخدمة وسار بعده ٢٧١ ركب عظيم حافل بالعدد والمعدات التامة والمقدمين والديالمة وبقية الأفواج التي تقرر أن تصحبه، ومشى على أثرهم مائة وثلاثون ممن كان أعتقهم السلطان وسلمهم إليه مع ثلاثة من مقدمي السراي ومعهم ثلاث رايات رسم عليها صور الأسود ومطارد[1] باسم غلمان السراي ومن ورائهم كوس ولواء أحمد الحريري الأحمر والعلم وخمسة وسبعون غلاما وكثير من النجائب والإبل السريعة. وقال السلطان لأحمد: سر باليمن والسرور وكن يقظا وقدر حق هذه النعمة وضع شخصنا نصب عينك واجعل خدماتك محمودة لتكن مستحقا لمزيد العناية. فأجاب: سأعمل بما تقتضيه العبودية. ثم قبل الأرض، وأحضروا جواد قائد الهند فامتطاه وسار. وكان آخر العهد بلقائه لأنهم أفسدوا الرجل فمال عن الطريق السوي وسوف أذكر ذلك في موضعه.

وعاد السلطان إلى القصر المحمودي في حي أفغان شال وقضى بقية شعبان متمتعاً بهنيء العيش والشراب، كما يقول البحتري.

روّياني إذ حل شعبان شهرا   من سلاف الرحيق والسلسبيل

وحملت الأمتعة والآلات إلى الجوسق واستعدوا لاستقبال شهر رمضان وصاموا يوم الإثنين غرة الشهر، واتخذ السلطان مجلسه على الصفة الكبرى يوم الثلاء وتناول الإفطار مع الأعيان وكانت الموائد قد أعدت إعدادا تاما، وجلس الأميران سعيد ومودود كل بنوبته على الخوان يحف بهما الندماء والحجاب، كما جلس الفرسان والقباء على سماطين آخرين. وكان السلطان

(١) الطراد والمطارد الرمح القصير.

يفطر وحده فى السراى ، وقد أمر أن تكتب قوائم بأسماء المسجونين فى سجون غزنة ونواحيها ومن فى القلاع لتعرض عليه ، ويرى رأيه فى كل شخص منهم ، وأمر كذلك بتوزيع ألف ألف درهم على الفقراء والمحتاجين بغزنة ونواحيها ، وسارت الكتب والرسائل إلى كافة البلدان لتخليق [1] المساجد وإقامة المجالس ، ولم يأمر السلطان بشيء عن وجوه صرف مال الزكاة التى كان والده رضى الله عنه يوزعها كل عام . وليس لأحد أن يقول شيئا فى هذا المعنى لأن السلاطين العظام يأمرون بما يوافق رغباتهم ولا يحق لخدمهم أن ٢٧٢ يعترضوا عليهم ، إذ السكوت أولى معهم وذلك لمن يريد حفظ حياته .

وفى هذا الصيف طلب أبو القاسم على النوكى صاحب بريد غزنة إلى الخواجة أبى نصر مشكان أن يوظف أبناءه بديوان الرسائل ، وقد شاهدت بينهما صداقة جاوزت حد الأخوة ، فاستجاب أبو نصر لطلبه . وكان نجله الأكبر المظفر شابا حصيفاً يشغل منصباً فى الديوان منذ عهد السلطان محمود وهو لايزال فى منصبه وكان قد عهد إليه إذ ذاك بالإشراف على أعمال غلمان السراى بالإضافة إلى عمله فى الكتابة وبنفس مرتبه ، وكان إشرافه يسير بصورة سرية جدا فيبثه الغلمان شكواهم وأسرارهم ويقوم هو بتلخيصها وعرضها على السلطان مباشرة دون واسطة . وكان السلطان محمود يعتمد كثيرا على أبى القاسم فى تلك الأسرار ، وقد شاهدت المظفر يمنح صلات جليلة عدة مرات وكان صديقى للغاية بما كان شاباً ناضجاً يكتب الخط الجيد ولكنه لايجيد الإنشاء ، وقد توفى فى ميعة الصبا رحمة الله على الولد والوالد . ومهما يكن فقد تحدث أستاذى مع السلطان فى شأن

(١) خلقه طيبه بالخلوق وهو ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران .

أولاد أبى القاسم ونال منه الإذن بتوظيفهم ، فأتى بأبى منصور وأبى بكر إلى ديوان الرسائل وبعث بهما إلى حضرة السلطان لأداء الخدمة وتقديم النثار ، وكان أبو منصور أديباً فاضلا جميل الخط وقد أرسل بأمر من السلطان إلى لاهور مع الأمير مجدود كما سيأتى بيانه ، وكان فى ابن منصور هذا حدّة وغلظة وقد توفى فى سن الشباب أيضاً رحمة الله عليه ، وكذلك كان أبو بكر أديباً فاضلا حسن الخط وقد لبث مدة فى خدمة الديوان ولكنه كان يميل بطبعه إلى المكر والدهاء فأصيب بمحنة تأتى قصتها فى مكانها ولا مرد لقضاء الله عز ذكره ، فقد أبعد عن عمله بالديوان أولا ثم عطف السلاطين عليه رعاية لسابق خدمات والده وأسندوا إليه عمل الإشراف بناحية كَيرى (؟) حيث مضى عليه فى الخدمة هناك زمن طويل وهو لم يزل هنالك حتى الآن ، سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٥٩) ، أما الخواجة أبو نصر فقـــد كان أصغر إخوته سنا ولكنه امتاز منهم بكونه شريف الأبوين ، والعرق نزاع ، فوالده أبو القاسم وأمه ينتهى نسبها إلى محمود الحاجب زعيم حجاب أبى الحسن سيمجور ، فلا جرم أن استكمل أسباب الفضل ، وقد ظل يعمل فى ديوان الرسائل بحصافته وسداد رأيه وما لبث أن صار كاتباً ٢٧٣ حسن الخط بارعا وبلغ منصب صاحب بريد غزنة وقد أوكلوا إليه خلال هذه المدة أعمالا مختلفة كصاحب بريد الجيش وغير ذلك من الأعمال الهامة التى لو أردنا تعدادها لضاق بنا المقام ، وانتهى الأمر به إلى أن تصدر ديوان الرسائل فى عهد السلطان العادل أبى شجاع فرخ زاد ناصر دين الله ، وقد اختير لأن الحاجة مست إلى أن يكون لهذه الحاضرة والمدينة العظمى رئيس يجمع بين الكفاءة وكرم المحتد ، ونال خلعة سنية وهو إلى الآن ، وأنا أكتب هـذا التاريخ ، يزاول هذا العمل فضلا عن البريد ، وهو من أصدقائى القدامى وإن أنا أطلت الكلام فجدير بقراء هذا التاريخ أن يتحملوا بفضلهم

وكرمهم ما أثقل به عليهم ، إذ لم يكن بد من رعاية حق الصداقة ولا سيما إذا كانت قديمة العهد ، والله الموفق لإتمام ما فى نيتى بفضله .

وفى الثالث من رمضان قال السلطان لكبير الحجاب بلكاتكين : ينبغى أن ترسلوا قوما إلى ناحية خارمرغ لحشر الحيوان[1] لأنا مزمعون على الصيد هنالك . فجاء الحاجب إلى ديواننا وأحضر أولاد نيازى قودقش المختصين بمثل هذا العمل فطلبوا السجل الخاص بهذه الأمور من ديواننا وكتبت الأوامر وسار الفرسان فجمعوا المشاة لإعداد حشر الصيد . وذهب السلطان فى يوم السبت الثالث عشر من هذا الشهر إلى نواحى خروار وخارمرغ وكان صيداً ممتعاً جدا ثم رجع إلى غزنة فى يوم الأحد لسبع بقين من هذا الشهر .

وفى يوم الإثنين ليومين بقيا من رمضان احتفل السلطان بعيد المهرجان وكانوا قد أحضروا من النثار والهدايا والطرف والدواب ما يفوق العدّ والحصر وقد أرسل سورى صاحب الديوان مع وكيله بالبلاط أشياء لاتحصى لتقديمها ، كما أحضر نواب عظماء الأقاليم كخوارزمشاه التونتاش وأمير الصغانيين وأمير جرجان وولاة قصدار ومكران وغيرهم على يد وكلائهم أشياء كثيرة . وكان يوما مشهودا . واحتفلوا يوم الأربعاء بالعيد وقد أعدوا فيه عرضاً عسكريا بأمر السلطان رضى الله عنه ، كان مماثلا لما شاهدته فى عهد أبيه السلطان الماضى رحمة ٢٧٤ الله عليه . واتفق ان كان رسل الأعيان وأكابر رجال العراق والتركستان بالحضرة أثناء العرض ، فلما احتفل السلطان بالعيد انتقل من الميدان إلى الصفة الكبرى وجلس إلى خوان غاية فى الروعة والبهاء وكذلك أجلسوا الموالى والحاشية والأكابر ، وتقدم الشعراء ينشدون

---

(١) المقصود أن تعد ساحة كبيرة على شكل دائرة واسعة يجمع فيها حيوانات الصيد من كل مكان فيأتى السلطان ويصطاد فيها .

أشعارهم وأخذ المطربون بعـــد ذلك فى العزف والغناء ، ودار الشراب فى كئوس كبيرة على هذه المـائدة والمائدة الأخرى التى جلس إليها المقدمون والفرسان وشتى أصناف الجند . وغادر الجمع المائدة ثملين . وشرب السلطان بضعة أقداح على المائدة ثم قفل راجعاً إلى العرش الرئيسى الكبير القائم على الصفة ، وكانوا قد أعدوا حفلا لم يشهد أحد مثله وحضره الوزير والعارض وصاحب ديوان الرسائل والندماء وبادر المطربون من السراى ومن غيرها إلى الغناء ، وبلغ الفرح والسرور أقصاه بحيث يخيل إلى الناظر ألا مكان للحزن فى هذه البقعة ، فقد ولى الحزن الأدبار . وأمر السلطان للشعراء الغرباء بعشرين ألف درهم وأعطى للزينبى العلوى خمسين ألف درهم حملت إلى منزله على ظهر فيل وللعنصرى ألف دينار وللمطربين وللمضحكين ثلاثين ألف درهم . وما أنشدوا من الأشعار مدرج كله بالدواوين ، ويطول بنا المقام لو أردنا ذكر ما نظمه الأساتذة فى أوصاف المجلس والشراب وتهانى العيد ومدائح الملوك ؛ على أنى أذكر هنا قصيدة لطيفة للغاية سجلتها لأنها تحوى وفاة السلطان محمود وجلوس الأمير محمد وقدوم السلطان مسعود رضى الله عنه من إصفهان ، وقد تعرضت هذه القصيدة لذكر كل الأحوال . وكان سبب ذلك أنى عند وصولى لهذا الجزء من التاريخ اتصلت بناظمها الشاعر أبى حنيفة الإسكافى وما أكثر ما سمعت عن فضله وعلمه وأدبه وبعد أن شاهدته اتضح لى معنى هذا البيت الذى قاله المتنبى :

وأستكبر الأخبار قبـــل لقائه   فلما التقينا صغّر الخبرَ الخُبْرُ

وقد قلت له فى أثناء الكلام ولو أنك لم تدرك عهد السلاطين الماضين إلا أنهم لو اطلعوا على شعرك لما كانت صلاتك تقل عن صلات الشعراء الآخرين ، فينبغى أن تنظم الآن قصيدة تجدد فيها ذلك الماضى فيزدان بذلك التاريخ ، فأنشأ هـــذه القصيدة وأرسلها إلىّ . وإذ استطاع أن ينظم شعراً فى السلاطين المـاضين بهذه الجودة فكيف به وماذا ٢٧٥ كان يبلغ شعره من

الإبداع إذا أقبل عليه سلطان وطلب منه شعراً ؟ واليوم والحمد لله لا يوجد فى أى بقعة فى العالم بلد كبلدنا من حيث العمران وكثرة السكان والأمن والرخاء وسلطان عادل رحيم فليدم هذا السلطان وأهل هذا البلد ؛ إلا أن سوق الفضل والأدب فيه كاسدة وأرباب هذه الصناعة يعيشون فى بؤس وحرمان .

وإذ ذكرت فصلا طويلا فى مدح غزنة فى بداية هذا التاريخ على عهد هذه الحضرة العلية دام عزها أرى فريضة أن أتحدث الآن عمن يكون له فضل من أهل هذه المدينة ، ولا سيما رجل كأبى حنيفة أقل فضائله قرض الشعر وهو يزاول تعليم الأدب والعلم دون أجر وراتب بل يعلم الناس العلم بالمجان وسوف أعتمد بعد هذا على فضله وأروى كل ما يفيد تاريخنا هذا من شعره فأذكر الآن أن ذلك هذه القصيدة التى رجوته نظمها للاطلاع عليها :

إذا مارس المرء عملا والحظ حليفه ظهر التراب المعتم للناس فى يده ذهباً خالصاً ، ينظر الفلك بعين الإكبار إلى كل من لا يتذرع بحجة لمزاولة عمل صغير ، الفارس الذى ليس له فرس يطوى به الطــريق يقع أسيراً للحظ الراكب ، لقد رفع الله قاب قوسين ذلك الذى نظر بعين الاستخفاف إلى وحشة الغار ، كن عظيما ولا تأس على صغير الأمور فإن ورد الزمان يخرج من الشوك تماما بعد عام ، لا تحسبن أى أمر فى الدارين أشرف من النبوة فإن آثارها فى الدنيا عظيمة ، إن السيادة حصن منيع محكم البــاب لا يتسنى لأحد دخوله بغير السعى والاجتهاد ٢٧٦ ، إن فى صورة كل شخص دليل ما يستطيع القيام به ، كما تنعكس خصائص الوجوه على سطح المرآة ، تتجلى قدرة المرء فى إدارته والصيد أفضل فى اليوم الغائم ، إن الشراب والرقاد والرباب والكباب والنكرات والخبز طمست معالم ألف قصر وأحالتها أثراً بعد عين ، إذا رأى محفل خسرو وشهد حربه يعلم أن نصره ومنحته تتجاوز الحد والعد ، فمن قدر لنبى كنبيّنا أن يكون عظيما لم يصعب انقياد سلمان وصهيب إليه ،

هو ذاك الذى دعا أخاك لذلك الخطأ وهو الذى سمر أخاك بعد ذلك بمئة مسمار، عند ما يظلم نهار المرء ويدبر حظه يرى حسناته سيئات ، وما انتفع أحد من الخداع والمكر أبداً ألم تقرأ كليلة ودمنة عشر مرات ؟ ، وحين ارتأى الرأى العالى أن يعود من بلخ ويضع سن الفرجار فى مركز دائرة الملك ، لم يكن قد بقى فى غزنة من الرجال والنساء حتى اثنين لم تشملهما خمر الشوق إليه فى أى زمان ، فقد فتح سكان غزنة عيونهم وآذانهم تشوقاً على الطريق لرؤية مَن طلعته كورد الربيع ، وبينا هم يتأملون إذ نثرت شمس الملوك أشعة طلعتها من مهد الفلك ، ودخل إلى دار ملك جده وأبيه وبلغ مرامه واتخذ من شكر الله شعاراً ، لم تقطر من أنف أحد قطرة دم بعد أن دانت للسلطان الدنيا من أقصاها إلى أقصاها ، لقد عاد إلى موطنه وإن القطرة لتصير لؤلؤة تعود ثمت إلى البحر ، لقد نهض هذا السلطان للطواف بالعالم لا لتنزله الفضة كسائر السلاطين ، هو رب الفلك فلا يزعمن أحد أنه الفلك فإن للفلك مدارا آخر ، أيها الموفق للسلطنة عش طويلا فإن شكر النعمة يورث دوام خدمتك ، ٢٧٧ بعد أن صورك الله من التراب ، أصبح الفلك الدوار عبدا من عبيد الأرض لك ، وأثار الهواء النقع فى الشهور والأعوام أملا فى أن يقبل الفلك تراب قدميك ، يقتنص سيفك الدرهم ، فكنه من رأس العدو واسجنه وأقم عليه سجانا ، إذا لم تكن رأيت جبلا يستقر على لبنة فانظر إلى جوادك ترى ذلك عيانا ، ما نفع العجلة للشيخ إن أراد الورع ، وما نفع التأنى للشاب إن أصر على العصيان ، ليس أفراد جيشك من البشر فهل هم جنود القضاء فإنه لا يمكن ردهم عن الأسوار ، إنا نعوذ بالله أن يمثل بواحد منهم فيصبح الجيش كله حرصاً على الانتقام له كجعفر الطيار ، إذ فى الوقت الذى يشتبك فيه الجنود بالرماح كما تشتبك أهداب الأجفان عند النوم ، يخيل إليك من كثرة ركوع السيوف وسجودها أن الفضاء قد تعمم

بالحديد، فر عقبان السماء من عقبان الأرض وتراكمت الجثث حتى علت أسرجة الخيول ، من حركة سنابك الخيل غطى الهواء نسيج من رقيق التراب وردّدت الأقطار صدى صرخات الأبطال ، فترى فريقاً وقد امتلأ حمية وحماساً للحرب والظفر والآخر وقد انقلب كله لساناً يطلب الأمان ، وهكذا يؤيد حزمك جرأتك كما تحلو الراحة والطرب لشارب الخمر ، بعد أن رأى الفلك إذعان العالم لك استقر ودان العالم لسلطانك ؛ أضحى الذهب، والفضة مبتذلين فى العالم بفضل جودك أفلا يكون مبتذلا ذلك الشيء الذى يصبح كثيرا ، أى مولاى لقد كان برهان الحق فى يدك ولو أن الباطل انتصر يوماً فوا عجبا لا يتسنى لكل أحد القيام على شئون العالم ولو كان رجلا ماهراً حنكته الأعوام ، إن القمر لا يفيض علينا ما تفيضه الشمس ولو أن فائدة القمر أيضاً ليست قليله ٢٧٨ ، إن الله تعالى يمنح المرء شرف النبوة وعز الإمارة ومحبة الرعية وطاعة الجند لعراقة أصله وطيب محتده ، لن تجد أستاذاً خيراً من أبيك فى العالم فاصنع ماصنع أبوك فى كل حال، إعمل على العدل لتنم الليل مرتاحا آمناً من كل سوء فإن الظالم يظل الليل ساهرا من شؤم ظلمه ، وليس بعجيب أن يكون لأب واحد ابنان فإن الشجرة الواحدة يصنع من خشبها العنبر والمشنقة ، أهجر الشعر وإن لم تر بدا من نظمه فقل أبذر الإحسان وأمح الشر ، وتكلم بهذا فإنه كالدر النظيم لفظاً وقل به فإنه كصورة الحسناء معنى، ليس بعزيز ذاك الذى تعزه فإن عزيزك سرعان ما يصبح ذليلا ، حقاً إن العزيز هو الذى يعزه الله وليست عزته بتأثير اقتران الكواكب ، إن العزيز هو من قدّر الله له الرفعة لا من تحبه أنت وتميل إليه ، والكليم موسى قد ألقته أمه فى اليم صغيرا خوفاً من فرعون اللئيم القاسى القلب ، ألم ينقذه فرعون من اليم ويربيه إلى جواره مدة طويلة شفقة عليه ، ومن يخلقه الله ليمكّن له فى العالم يكن مثله كمثل يوسف الذى رفعه من البئر إلى العرش ، يضربون المثل قائلين إن من عظم رأسه زاد عناؤه والمثل صحيح فإن الثمل من الشراب والشراب من الثمل ،

إن لم تصدق قولى فالأمر سهل إقرأ مديح السلطان وأت بمثله ، ملك العالم وسلطان الزمان مسعود الذى اعتز به دين أحمد المختار ، يتحدث عن المجد حديث الزاهد فى العفة وينكر الظلم نكران العاشق للهجر ، لا يبدأ بالنظر إلى الشاكى حتى لتأخذ الشاكى هيبة فيعجز عن الإفصاح بشكواه ، وكذلك لا يفيد أحد من حربه فإن جلد الثعبان يجب أن يتناسب ورأسه ، إنه كالعقل الذى أوجد بالعلم الخزائن والجيوش وكالعدل الذى شاد من الحديد القصور والقلاع ٢٧٩ ، فإذا ما منحه أبوه ملك الرى فقد كان ذلك لداعى الشفقة لا للإيذاء . وحينما يخرج الأسد شبله من الأجمة فإنما يكون ذلك لتنشيطه لا لإيذائه ، وبعد أن أراد أن يبعدك عنه إلى تلك البقعة من الأرض لم يمنحك فضة أو ذهباً ولا خيلا ولا رجالا ، ألا ترى أن الوالدين كليهما يمنحان العليل الضعيف من أبنائهم النصيب الأوفى من حبهم ؛ لم يمده بما يحتاجه من عون حتى يثبت بنفسه حسن استعداده أمام السلاطين ، إذا سودت الأم ثدييها عند فطام طفلها فليس ذلك دليلا على كرهها له ، وتهذيب الأولاد يتم بتعنيف الآباء إياهم كما يعلو نور الشمعة ويزداد بقطف فتيلها ، بعد أن استقام العالم لمحمود أمير الدين امتد سلطانه من سومنات حتى ثغور البلغار ، استولى على العالم كفريدون وقسّمه فقد كان مثله ملكا عظيم التوفيق فى أعماله ، ولما رأى حقارة ملك الدنيا وجه نشاطه إلى بناء دار القرار ، وكأنما قامت بفقده القيامه كما تأتى الساعة عندما يفقد القمر دورانه فى فلكه . وقد كان للسلطان مسعود كما كان لجده وأبيه سيوف فى تلك الأصقاع . فإن سياسة الملك اقتضت ماصنعه كما كانوا يشيرون إلى السها مدة بدل القمر ، كيف يمكن أن تكون الكعبة عاصمة ملك العالم بينما تسلب ريح الغفلة منها كل الأستار ، أدى ملك العالم النافلة وعقد من بعد الإزار لصلاة الفرض ، وأرسل إلى أخيه رسولا يبلغه برفق ويبدى له ألف لطف ، يقول له إن دار الملك وطراز السكة وكسوة

الآفاق ليست إلا لنا ، ولم يفد النصح لأن مرآة سعادته كانت صدئة بتأثير ثقات الحاسدين، ألم يكتب الإسكندر ذكرى منه بأن الجواد والسيف والمرآة لا تليق إلا بمن هو جدير بها ، فسرعان ما سارت ألوية الملك المنصور من إصفهان نحو مقر الملك فى أمان ٢٨٠ ، وأزال نور وجه الملك ظلام غبار الموكب كما يزيل القمر ظلام الليل فى الليلة الرابعة عشرة من الشهرة ، وقبل أن تسعد بقدومه نيسابور جاءت أفواج الجنود تستقبله كأمواج البحار ، يقولون فى الأمثال إن الطبيب يحضر من تلقاء نفسه حينما يتماثل المريض إلى الشفاء ، فعندما قدم السلطان إلى هراة قدمت إليه جيوش أبيه من كل حدب تسعى إليه كالنمال ،وجاءت قصيدتى كالفرقان فتأمل فإن قدر العلم تعرفه القلوب والعيون ، إنى وإن رأيت من الزمان العجائب إلا أننى لا أستطيع الكشف عما رأيت خوفا من طى الطومار ، ولكثرة ما شاهدت الألفاظ معى أبكار المعانى يئس القلب من دلالتها ونفر عنها ، وبما أنى من غزنة ولم أزل شابا فلذلك لا أرى سوقا لعلمى ،يامولاى ، إن الشعر الجيد كثوب لا تنفصل لحمته عن سداة إلى الأبد ، إنى أروى هذه العجائب من حياتك كما يستخرج اللؤلؤ من عميق البحار ، وما دامت الصعوبات تمر وتمضى فى العالم فلا تمضين وعش مائة عمر بالمسرات ، وما دام الفلك يجد الشهور والأعوام فعش أنت على مر الزمان منعما بالملك والسلطان ، وما دام الورد ينبت فى الجبال بين الأحجار وما دامت الأمطار تقطر من السماء، عش ثابتاً كالجبل ضاحكا كالورد واطو الأرض كالفلك وأمطر كالسحاب . »

انتهيت من ذكر هذه القصيدة العصماء المحاكة كالديباج فكأن معانيها العذبة يعانق بعضها بعضاً ، ولو أن الزمان الجائر أنصف هذا الأديب الفاضل وتعهد ملكته الشعرية سلطان بالإحسان إليه كما حظى بذلك أساتذة العصر من أمثال عنصرى وعسجدى وزينبى وفرخى رحمة الله عليهم أجمعين لاستطاع أن يفاق بكلامه الشعرة فائقين وأن يمرغ أيدى الكثيرين فى التراب فإن اللهى تفتح

باللهو ولعله يبلغ المراد ، فإنه مازال شابا وما ذلك على الله بعزيز . وقد انتهت هذه القصة .

* * *

استقل السلطان مسعود رضى الله عنه فى يوم الأحد الخامس من شوال مهدا على ٢٨١ فيل ميمما شطر مرج شابهار فى موكب حافل للغاية ، فيه الفيلة والجنائب ومنها ثلاثون جوادا بالسروج المرصعة بالجواهر والفيروز واليشم وطرائف أخرى ، فضلا عن ثلثمائة من الغلمان يرتدون حللا من الديباج الرومى موشاة بالذهب والفضة وأقبية صقلبية وخمسين أخرى من الجنائب بسروج بالذهب ويمشى فى المقدمة غلمان السراى ، والكل يحمل السهام والأقواس وبيد كل منهم عمود من الذهب والفضة وألف جندى دارع وثلاثة آلاف من الرجّالة السجزيين والغزنويين والهرويين والبلخيين والسرخسيين وجيش كثيف والأعيان والموالى وأمناء الدولة . وقد امتطيت أنا أبو الفضل جوادى للمشاهدة ، وأمر السلطان أن يوقفوا الفيل الذى يحمل المهد لينزل فى صفة هنالك ، وكان قرب الفيل الخواجة الوزير أحمد حسن والعارض والخواجة أبو نصر مشكان ، فنظر السلطان فى المظالم وطلبوا المحاضر واستمعوا إلى شكاوى المتظلمين ثم صرفوهم ، واستدعى السلطان الندماء وأمر بالشراب والمطربين ودعا أولئك الأعيان إلى الشراب ، ودارت صحاف الرقاق والقطايف بحيث وصلت إلى أيدى أصحاب الحاجات ، وأخذوا يقدمون الشراب والمطربون يعزفون ويغنون وكان يوما أغر محجلا شق فيه الفرح والسرور طريقه إلى عنان السماء .

وتعالى قبل الضحى قرع الطبول والكوسات وارتفع نفير الأبواق إذ كان تاش فراش يتجه اليوم صوب خراسان والعراق عن طريق بست ، وظهر أولا الحاجب الجامه دار ريارق تغمش فى أبهة فائقة ومر برجاله وأدى التحية ثم

وقف ، وجاء على أثره ثلاثة من مقدمى الجيش المحمودى متمنطقين بالأحزمة الذهبية وسبعة آخرون بالمناطق الفضية فى استعداد تام يتلوهم خادم السلطان جوهر آيين وكان السلطان قد رفع شأنه وأحلّه مقاما عليا كما مر ، كذلك عدد من المقدمين وحجاب السلطان فكانت الخيول تمر والمقدمون يقفون . وظهر بعد كل ذلك تاش فراش الاسپهسالار تحف به الألوية والكوسات وهو فى أتم أهبة واستعداد ، وكان فى صحبته مئة وخمسون من غلمانه فضلا عن مئة غلام كان السلطان قد أعتقهم وسلمهم إليه ، وترجل تاش وأدى التحية فأمر السلطان أن يركبوه فأحضروا له جواد سپهسالار العراق ، ٢٨٢ وناولوه ومن تعين معه من المقدمين كؤوس الشراب ودارت الأقداح ثلاث مرات أو أربع ، وخاطب السلطان تاش قائلا : انتبه فإن ما أسندناه إليك عمل خطير وأصغ إلى ما يشير به الكتخدا الذى سيلحق بك فى كل ماله صلة بمصالح الدولة واكتب لنا فيما يعن لك حتى تصل إليك أوامرنا فى شأنه للعمل بها ، وقد رشحنا أحد الثقات للقيام بعمل البريد كى يحيطنا خبرا بكل شىء ؛ وينبغى أن تقيم من فى معيتك من الأعيان فى المقام الذى كانوا عليه على عهد أبينا ليطيعوك وينفذوا أوامرك فتستقر الأمور وتستقيم الأحوال ، وأملى أن يفتح الله تعالى على يدك أبواب العراق جميعها فأجاب تاش ومن معه : كلنا عبيد مطيعون وترجلوا ثم قبّلوا الأرض . فقـــال السلطان : سيروا باسم الله باليمن والإقبال. فركبوا وساروا شطر بُست وسوف يأتى فى التاريخ باب مفصل عما تم فى سپهسالارية تاش وعمادة العميدين أبى سهل الحمدوى وطاهر الكرخى وفيه كلام طويل حتى يُعلم ذلك .

عاد السلطان ونزل فى قصر الدولة حيث جلس للشراب واستمر على ذلك يومين ثم أذن فى اليوم الثانى وقال : ينبغى إنجاز ما تأخر من المهام فإننا نزمع السير إلى كابل حتى نرحل من هنا حسبما يقتضيه رأينا . وخاطب

كبير الحاجب بلكاتكين بقوله : لقد أمرنا أن يسوقوا الفيلة ويأتوا بها إلى كابل لنستعرضها ، فمتى يتم ذلك ؟ فأجاب بلكاتكين إن الفرسان مضوا لتنفيذ الأمر منذ أيام وسوف يحضرون الفيلة كلها هذا الأسبوع إلى كابل . فقال السلطان : حسنا . وانفض المجلس إلا أنه استبقى الخواجة الوزير والعارض وأبا نصر مشكان والحاجبين بلكاتكين وبكتغدى واختلى بهم وسألهم : إلى أى ناحية نسير ؟ . فأجاب الخواجة : ماذا يرى مولانا وماذا يريد ؟ فقال : إن قلبى يميل إلى أن نسير غازين إلى أبعد ثغر من ثغور الهند إحياء لسنة أبينا وشكرا لله على ما أولانا من شتى النعم الجليلة التى نلناها دون عناء ، لننال بُعد الصيت وتقع هيبتنا فى نفوس الكفار ويعلموا أننا وقد مات والدنا لن ندعهم يغمضون الطرف ويهنأون بعيش رغيد . فأجاب الخواجة : ٢٨٣ إن هذا الرأى سديد وليس أفضل منه والصواب ما يراه الرأى العالى بيد أن هنالك مسألة أرى لزاما علىّ تبيانها الآن إن أمرتم بتبادل الرأى فيها ، فالرجاء أن يعنى بها السلطان ويستمع إليها الحضور ليتبينوا صوابها أو خطأها ويأمر مولانا بما هو الأفضل ، لقد أوفد مولانا قائدا عظيما فى أهبة تامة إلى الهند ، وهناك جند مجهزون وطفق رجال ماوراء النهر يفدون تباعا ويجتمعون مع السعداء [1] ليتم على يدهم غزو عظيم هذا العام ويكون ثواب ذلك لمولانا ، كما سار قائد آخر صوب خراسان والرى ويحتاج إلى مدة من الزمن لتستقر على يده الأمور وتتوطد قدمه فى تلك الديار ، ولا يتم ذلك إلا بأن تستمر إقامة السلطان بخراسان ، وعلى تكين كالحية المقطوعة الذنب فقد قضى على أخيه وبقى وحيدا بغير معين ، وقد مهدت العهود والعقود والمواثيق مع قدرخان وذهب الرسل إليه وما زالوا يفاوضونه ولم ينتهوا معه إلى شىء كما تدل على ذلك رسائلهم ، فإذا سارت الألوية السلطانية إلى الهند أهملت هذه

---

(١) استخدم النص هذا اللفظ وذهب غنى – فياض الى أن القصد منه قد يكون «المطوعة» حاشية ١ .

الأمور جميعها ولعلها تنعقد ، هذا وعلى تكّين قريب من بلخ وله رجال كثيرون وقد اتفق معه السلاجقة ، وهو وإن لم يزحف إلى بلخ وطخارستان فقد يسير إلى أرض ختلان وإمارة الصغانيين وترمذ حيث يعيث فسادا هنالك فتزول الهيبة ، وأرى من الأصوب أن يسير السلطان إلى بلخ حيث يقضى هذا الشتاء فتكون هيبة وجوده سببا فى إعادة الرسل ناجحين فى إبرام العهود والعقود ، وأن يعين السلطان كتخدا ليسير من بلخ على آمو تاش ، فإن الأمور جميعها لن تستقيم هناك مالم يصل الكتخدا ، وكذلك ينتهى أمر على تكّين صلحا أو حربا لأنهم غرورا به عندما قصد موكب السلطان إلى خراسان وكان الأمير محمد ما يزال فى مكانه وأرسل السلطان الرسول لتعطى له ختلان ، وبقى فى قلبه ذلك الهوس . وقد وصل أيضا من بغداد خبر مرض الخليفة القادر بالله وهو يائس من نفسه وقد فوض الأمور لابنه القائم فإذا وصل نعيه فمن المستحسن أن يكون مولانا بخراسان ؛ ويجب أن يعين رسل للذهاب إلى جرجان أيضا على أن تؤخذ عليهم العهود ، وفضلا عن ذلك فإن لنا مصالح أخرى وكلها من الواجبات ؛ وبعد أن تنتهى هذه الأمور وتستقر الأحوال فلا مانع ٢٨٤ من الغزو فيما إذا عنيتم به فى مكان بعيد ويكون ذلك فى العام القادم مع فراغ البال ؛ والتفت الوزير وقال : وأنتم أيها الحضور ما رأيكم فيما أقول وماذا تقولون . فأجاب الجميع : إن كل ما يراه الأستاذ الرئيس ويعرفه هو عين الحق والصواب وأنى لنا أن نرى ونعرف ما يراه ويعرفه فإن إخلاصه ونصحه معروفان لمولانا . فقال السلطان : إن الصواب هو ما قاله الأستاذ الرئيس ولا يجوز غير ذلك وهو أبونا وقد استقر الرأى على هذا فسيروا وأعدوا العدة فإن الرحيل سيكون فى هذا الأسبوع . فتفرق القوم وهم يثنون على الوزير قائلين : إن هذا الرجل نسيج وحده حقا . وارتحل السلطان من غزنة فى يوم الخميس من منتصف شوال متجها نحو كابل

حيث قضى ثلاثة أيام استعرض فيها الأفيال وكانت سبعين وستمائة وألف بين ذكر وأنثى فأعجب بها أيما إعجاب ، إذ كانت سمينة نشيطة ولا غرو فقد كان المقدّم على سواس الفيلة رجلا كأبى النصر الحاجب وتحت إمرته أبناء قرقمان وجميع الحراس . فأثنى السلطان على أبى النصر هذا وشمله بعطفه البالغ وقال : لقد لقى هذا الرجل النبيل فى هوانا مصائب لا تحصى ولحقته آلام شديدة من السلطان الماضى فقد ضرب فى إحدى المرات ألف عصى ولكنه راعى جانبنا فى استجوابه إذ ذاك فضحى فى سبيلنا بجسمه وروحه حقا ، وقد حان الوقت لتقدير حقه وإنه لمن الحيف أن يظل رجل له هذه الكفاءة والإخلاص وحضور البديهة فى حسن الخطاب والجواب فى حضرة الملوك زعيما لسواس الأفيال . فقال الخواجة أحمد : إن لأبى نصر هذا الحق وحرى بمثل هذا الرجل البقاء إلى جانب سدة العرش لحمل الأوامر والرسائل . فأمر السلطان أن يأخذوه إلى خزانة الألبسة ويلبسوه خلعة الحجابة التى كانت له فلبسها وتقدم نحو الحضرة بقباء أسود وقبعة ذات ركنين ومنطقة من ذهب ، وأدى مراسم الخدمة وعاد إلى خيمته وقدر حقه كما ينبغى جميع أعيان الدركاه ، وأخذ يزداد وجاهة بعد ذلك كل يوم حتى صار زعيما للحجاب مما سأذكره فى موضعه وهو ما يزال للآن فى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٥٩) باقيا ولله الحمد ، لبدم السلطان المعظم أبو شجاع فرخ زاد بن ناصر دين الله الذى رعاه وعرف سابق خدمته فهو اليوم يقود الجيوش وتم على يده أعمال خطيرة سأذكرها . وحينما يكون هذا الرجل فى غزنه يبدى نصائحه وإذا وفد رسول يبين له مراسم الاستقبال وهو الحجة والمرجع فى المشاكل المحمودية والمسعودية والمودودية وباسمه ٢٨٥ أيضاً كوتوالية قلعة غزنة التى تعد من المهام الجسيمة وينوب عنه فى ذلك حاجبه قتلغ .

عمد السلطان إلى الشراب بعد فراغه من استعراض الفيلة وخلع على ساسة الأفيال بواسطه كبير الحجاب بلكاتكين : وانتقوا مئة فحل من الفيلة لتكون فى موكب السلطان إلى بلخ وأعادوا بقيتها إلى مواضعها . ثم غادر السلطان كابل إلى پروان حيث قضى خمسة أيام يصطاد ويشرب حتى عبرت الأحمال والرحال والأفيال من مضيق پرْغورْك[1] ثم ارتحل من پرْ وتناول الشراب بموضع پحوكانى وسار من هناك إلى ولوالج حيث لبث يومين وسار منها إلى بلخ فدخلها فى يوم الإثنين السادس عشر من ذى القعدة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (١٠٣١)، وأقام أسبوعاً بجوسق عبد الأعلى ثم ذهب إلى الحديقة الكبرى حيث أتوا بالرجال وأنشئوا الدواوين هنالك حسبما أشار به السلطان وقد خطط الدهاليز والميادين والدواوين وغيرها ، وأقيمت وثاقات الغلمان جميعها وحولوا النهر الكبير الذى كان يجرى فى الحديقة إلى نافورة مائية . وعند ما كانوا فى غزنة دبر أبو سهل الزوزنى حيلة للإيقاع بخوارزمشاه ألتونتاش فدس الدسائس وأثار الأطماع فى مجلس السلطان مما أدى إلى أن يولى وجهه عنهم ، وقد أصاب أبا سهل الزوزنى أيضاً لهذا السبب نكبة فى بلخ قاسى آلامها مدة ، وليس هنا مجال للإشارة إليها وسوف أفرد لها مقامة كاملة لما تتضمنه من النوادر والعجائب الجديرة بالمعرفة وذلك بعد وصول هذا السلطان إلى بلخ وإتمام عدة مشاغل هامة كانت أمامه وأخرى عرضت له بعد ذلك .

وفى يوم الثلاثاء لعشر بقين من هذا الشهر وصل نعى أمير المؤمنين القادر بالله ٢٨٦ أنار الله برهانه ومبايعة أمير المؤمنين أبى جعفر الإمام القائم بأمر الله أدام سلطانه الذى كان ولياً للعهد وإجلاسه على عرش الخلافة . وكان ذلك

---

(١) الظاهر أنه يقصد مضيق غورك الذى ورد ذكره فى تاريخ العتبى حيث دارت معركة بين سبكتكين وجيبال .

(٢) هى موضع من بدخشان قرب بلخ . ياقوت .

سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٦٠) وقد دان له وبايعه أعيان البيتين العظيمين من العلويين والعباسيين من بنى هاشم وجميع أهل بغداد وسارت الرسل بالرسائل من أقصى البلاد إلى أقصاها لأخذ البيعة من الولاة والأعيان فيها ، وتوجه الفقيه أبو بكر محمد السليمانى الطوسى من أجل هذه المهمة إلى الحضرة السلطانية بخراسان ، وأدى هذا الخبر إلى استغراق السلطان مسعود فى التفكير ثم اختلى بالوزير وأستاذى أبى نصر وقال لهما : ماذا ينبغى عمله فى هذا الباب . فقال الأستاذ الرئيس : أطال الله حياة مولانا منعما بالملك والسؤدد وجعله وارثا للأعمار ، إن هذا الخبر ولو أنه لا يخلو من صحة إلا أن الأفضل إخفاؤه وأن تستمر الخطبة باسم القادر فإن الرسول سائر كما كتبوا فى أثر الخبر ، ولعله يصل قريبا فعندما يصل ويأخذ قسطا من الراحة يؤتى به إلى الحضرة بما يليق بمقامه ليقدم رسائل التعزية والتهنئة ثم يعود ، وفى اليوم التالى يجلس مولانا ويقيم مراسم العزاء ثلاثة أيام ثم يذهب يوم الجمعة إلى مسجد الجمعة حيث تؤدى مراسم التهنئة بالخطبة للقائم وتوزع النثار . فقال السلطان : نعم إنه لكذلك . فأخفوا هذا الخبر ولم يعلنوه واحتفلوا يوم السبت العاشر من ذى الحجة بعيد الأضحى المبارك احتفالا كبيرا شاملا وأقاموا فيه الزينات من كل نوع .

وفى يوم الثلاثاء من منتصف ذى الحجة وصلت رسالة تنبىء بوصول السليمانى الرسول إلى موضع شابرقان ، وقد استقبله عمال السلطان وولاته ووكلاؤه من الرى حتى الموضع المذكور وقاموا بما ينبغى من الإعزاز والإكرام ، فدعى السلطان الخواجة على ميكائيل رحمة الله عليه وقال : سوف يأتى رسول فأعد العدة لاستقباله بموكب جليل يضم أشراف العلويين والقضاة والعلماء والفقهاء ويسير على أثرك أعيان الدركاه وأصحاب الرتب واستقدم الرسول بكل ما ينبغى من الاحترام إلى المدينة . فأعد على لهذا الأمر عدة تفوق الوصف إذ كان رئيس الرؤساء وقد مرت به أمثال هذه الأمور ، كما مرت بتلك الأسرة

المباركة الى تتمنى دوامها بدوام السيد الأستاذ أبى عبد الله الحسين بن ميكائيل أدام الله ٢٨٧ تأييده فنعم البقية هذا الصدر . ومهما يكن فقد سار الخواجة على ميكائيل لاستقبال الرسول وفى أثره أبو على الموكل بالضيافة مع أرباب المناصب والأعيان بالخيول المطهمة والجنائب الكثيرة وحينما قرب الرسول من المدينة استقبله ثلاثة من الحجاب وأبو الحسن الكرخى والمظفر حاكم اللذان كانا يحسنان التكلم بالعربية مع عشرة من المقدّمين وألف من الفرسان وأدخلوا الرسول المدينة فى حفاوة بالغة وكان ذلك فى يوم السبت لثمان بقين من ذى الحجة وأنزلوه دارا فخمة فى حى سبد إفان وأحضروا فى التو كثيرا من من الأطعمة والمآكل الفاخرة والله أعلم بالصواب .

* * *

ذكر ورود الرسول من بغداد

وإعلان وفاة الخليفة القادر بالله رضى الله عنه

وإقامة رسم الخطبة للإمام القائم بأمر الله أطال الله بقاءه وأدام سموه وارتقاءه

وبعد أن أكرموا وفادة الرسول واستراح ثلاثة أيام قال السلطان للأستاذ الرئيس : الآن وقد استراح الرسول ينبغى أن يقدم إلينا . فقال الخواجة : نعم حان الوقت ولكن على أية صورة يأمر مولانا أن يكون ذلك . فقال السلطان : نرى من المناسب أن نذهب لعدة أيام إلى جوسق عبد الأعلى حيث المكان أرحب وأليق بمثل هذه الأمور وهنالك قصران ويستطيع الغلمان وأهل المناصب الوقوف حسب المراسيم ، ويمكننا هناك القيام بأداء مراسيم التهانى والتعازى على نحو أتم وأكمل ، وبعد الفراغ من ذلك نعود ثانية إلى الحديقة . فقال الخواجة : إنه لرأى حسن وينبغى العمل به . ثم عقدوا خلوة دعوا إليها كبير الحجاب وقائد الغلمان والعارض وصاحب ديوان الرسائل فحضروا جميعاً ،

وأصدر السلطان ماينبغى من الأوامر بشأن الرسول والرسالة والجند وأصحاب الرتب وغلمان السراى . ثم انصرفوا وركب السلطان عنـــد صلاة العصر إلى جوسق عبد الأعلى حيث أحضروا الرحال كلها هنالك واستقروا بالدواوين وتقرر أن يمثُل الرسول فى الحضرة فى اليوم الأول من شهر المحرم أى ٢٨٨ فى رأس السنة الهجرية ، وسلم أستاذى أبو نصر مشكان البلاغ الذى تقضى به المراسيم لأبى على ، ثم أحضروا رسالة كانت قد كتبت فى معنى التعزية والتهنئة ووقعوا عليها وسوف ترد هذه الرسـالة وكتاب البيعة فى ختام هذه القصة للوقوف عليهما . ولقد ظللت أبحث عن هذا الخطاب طويلا حتى وجدته فى هذه الأيام ، حيث بلغت بالتاريخ إلى هـذا الحد ، لدى نجل أستاذى أبى نصر أدام الله سلامته ورحم والده . ولو أنهم لم يتعمدوا إتلاف أوراقى ومذكراتى التى كنت قد جمعتها لا كتسى هذا التاريخ حلة أخرى ، حكم الله بينى وبين من فعل ذلك . وأعد كبير الحجاب وجماعة المقدمين جميع مايلزم لإعداد الجند وغلمان السراى وأصحاب المراتب ، وكان الفراغ من هذا الأمر قبل أن يطلع شمس الخميس غرة المحرم سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة (١٠٣١) ، فلما تنفس الصبح وقف أربعة آلاف من غلمان السراى فى صفين من جهه القصر مقسمين إلى عدة كتائب ، ألفان منهم بقبعات ذات ركنين ومناطق ثمينة وبيد كل غلام دبوس فضى ، وألفان آخران بقبعات ذات أربعة أشرطة وقد شد كل إلى وسطه المنطقة وكنانة الأسهم وجعبة الأقواس ، وبيد كل غلام قوس وثلاثة سهام وكلهم يرتدون أقبية من الديباج التسترى ، كما وقف ثلثمائة من خاصة الغلمان عند ممرات البهو مما يلى مجلس السلطان بألبسة أفخر وقبعات ذات ركنين ومناطق ذهبية ودبابيس من ذهب ، وكان عدد منهم يتمنطق بالأحزمة المرصّعة بالجواهر ، وأقاموا خمسين أو ســـتين جنديا من المدعويين على

الباب وسط سراى الديالمة حيث كان أصحاب الرتب وأكابر رجال القصر والولاة والحجاب بمناطقهم الذهبية وقبعاتهم ذات الركنين ، وقد وقف على باب القصر جماعة آخرون من أصحاب الرتب ، وأوقفوا عددا كبيراً من الفيلة واصطف الجنود بأسلحتهم فى صفين بلاماتهم وألبستهم الحريرية المختلفة الألوان ومعهم العماريات والرايات ليستعرضهم الرسول أثناء مروره بينهم ، ثم ذهب الموكل بالضيافة ومعه الجنائب وخلق كثير وأركبوا الرسول وجاءوا به . وتعالت أصوات الأبواق والطبول والكوسات كأنما نفخ فى الصور . ومروا بالرسول على هذا المشهد المهيب فأخذته الدهشة ٢٨٩ والعجب إذ رأى عرضاً لم يره طول حياته ، ثم دخل القصر وكان السلطان رضى الله عنه جالسا على السرير تجاه الصفة ، فسلّم رسول الخليفة وهو مرتد السواد ورد عليه الأستاذ الرئيس أحمد حسن ولم يكن غيره جالساً فى حضرة السلطان ، أما الآخرون فكانوا جميعاً وقوفا ، فأخذ الحاجب أبو نصر بساعد الرسول وأجلسه فنادى السلطان الرسول قائلا : كيف تركت مولانا الخليفة . فأجاب الرسول : عظم الله أجر السلطان لوفاة أمير المؤمنين القادر بالله أنار برهانه إنا لله وإنا إليه راجعون ، إن الخطب جد عظيم ولكنه تعالى وهبنا راعيا أعظم ، أسكن الله الخليفة الماضى فسيح جناته وحفظ إمام الدين والدنيا أمير المؤمنين . ثم تكلم الأستاذ الرئيس فصلا بالعربية فى هذا المعنى وكان بليغا للغاية وطلب إلى الرسول أثناء ذلك الحديث أن يقدم الرسالة فنهض وفى يده الرسالة فى خريطة سوداء وتقدم فوضعها أمام السلطان ثم عاد لجلس حيث كانوا قد أجلسوه ، فنادى السلطان أبا نصر فتقدم نحو السرير وتناول الرسالة ثم عاد ثانية ووقف إزاء السرير وفتح الخريطة وقرأ الرسالة . فلما انتهى من قراءتها قال له السلطان إقرأ ترجمتها ليطلع عليها الجميع . فتلا

ترجمتها بالفارسية فكانت بحيث أقر السامعون أن ليس لأحد غيره هذه القدرة . ثم صرفوا الرسول وأعادوه مكرما إلى داره وبعد ذلك قصد السلطان المأتم . وفى اليوم التالى حين أذن للاستقبال كان مرتديا عمامة وقباء أبيضين كما حضر الموالى والحشم جميعا مرتدين البياض وجىء بالرسول ليشهد العزاء وعطلت الأسواق حدادا وأخذ الناس يفدون أفواجا واستمر العزاء ثلاثة أيام كانوا يحضرون الرسول فيها ويعيدونه وقت الضحى بعد أن ينهض السلطان . وعاد الناس بعد ثلاثة أيام إلى الأسواق وفتحوا أبواب الدواوين وقرعت الطبول والدبادب إيذانا بانتهاء الحداد . واستدعى السلطان الخواجة على وقال له : أوعز ليقيموا الأقواس من الدركاه حتى باب مسجد الجمعة وأعد كل ما يمكن إعداده من أسباب الأبهة والجلال فالجمعة قربت وسوف نذهب بنفسنا إلى الجامع حتى يخطب لأمير المؤمنين . فقال : سمعاً وطاعة . وعاد ثم استدعى أعيان بلخ وأوعز إليهم بما يجب فبادروا إلى العمل فزينوا المدينة من باب قصر عبد الأعلى حتى مسجد ٢٩٠ الجمعة فى خلال أيام الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس بصورة لا يذكر أحد يوماً يبلغ مثلها ، وامتدت الأقواس الكثيرة من الأسواق إلى حى عبد الأعلى ومنه حتى الدركاه وأحياء الوجهاء التى يقيمون بها ، فاشتغلوا بالزينة منذ ليلة الجمعة حتى الفجر ولم يبق عند طلوع النهار حاجة إلى مزيد من الزينات . وأذن السلطان للاستقبال يوم الجمعة . وبعد أن تفرق المجلس قال الخواجة على ميكائيل : أطال الله حياة السلطان ، لقد تم كل ما أمرتم بإقامته من أقواس النصر والزينات فهل هناك أمر آخر ؟ فقال السلطان : ينبغى أن يوعز للرعية بأن يجلسوا هادئين صامتين فتكون كل جماعة فى مكانها محافظة على ما أقامت من أقواس وزينات ويجب ألا يبدر من شخص شىء من حركة أو لعب حتى نمر فلا نسمع صوت أحد ، ولهم أن يكونوا أحراراً فيما يريدون عمله بعد مرورنا ، فإنا بعد الصلاة سوف

نذهب إلى الحديقة من الجانب الآخر للشارستان . فقال : سمعاً وطاعة ثم عاد فأصدر هذا الأمر وخرج الرجال المرتدون السواد وأخذوا الحجة من الناس .

ركب السلطان قبيل الظهر وأمامه أربعة آلاف من الغلمان على تلك الزينة التي ذكرتها من قبل يوم تقديم الرسول وكان القائد بكتغدى من ورائه وفى أثره غلمان الخاصة وكانت راية السلطان وأصحاب الرتب والحجاب فى المقدمة ومن ورائهم كبير الحجاب بالـكانكين ، وكان الأستاذ الرئيس يسير خلف السلطان مع الوجوه وأعيان الحضرة وخلفه الخواجة على ميكائيل والقضاة والفقهاء والعلماء وزعيم بلخ وأعيانها ومعهم رسول الخليفة يسير فى الموكب عن يمين على ميكائيل ، ووصل موكب السلطان إلى المسجد على هذا الوضع المهيب والسكوت الرهيب الذى لم يكن يقطعه سوى قرع المقارع وجلجلة أسلحة أرباب الرتب ، فلما دخل المسجد جلس تحت المنبر وكانوا قد كسوه كله بالديباج الموشى بالذهب وجلس الأستاذ الرئيس وأعيان الحضرة ، كما جلس فى مكان أبعد على ميكائيل ورسول الخليفة . وقام الخطيب بقراءة الخطبة وإقامة الصلاة ، وبعد أن فرغوا واستراحوا حضر خزنة السلطان ٢٩١ووضعوا تحت المنبرعشرة آلاف دينار فى خمسة أكياس من الحرير نثارا للخليفة ، وأخذالنثار يترى بعـــد ذلك مما قدمه الأمراء وأنجال السلطان والأستاذ الرئيس وكبير الحجاب والآخرون من بعدهم ، وكانوا يضعون كل هدية وينادى المنادى باسم مهديها فتجمع من ذلك مقادير كبيرة من الذهب والفضة . وبعد الفراغ من كل ذلك نهض السلطان وعاد راكباً إلى الحديقة الـكبرى من جهة الشارستان ومعه الغلمان والحاشية وأهل البلاط وصحبه الأستاذ الرئيس ، وحمل الخزنة وكتاب الخزانة والمستوفون النثار إلى الخزانة عن طريق السوق ، وركب الخواجة على ميكائيل وذهب بالرسول إلى السوق وأبدى أهل بلخ سرورا بالغاً ونثروا كثيراً من الدنانير والدراهم والطرائف المختلفة ، واستمر الحال كذلك حتى

المساء حين وصلوا إلى قصر عبد الأعلى ، ثم عاد عليّ من طريق آخر وسار بالرسول فى ذلك الموكب إلى داره ، وكانوا قد أعدوا مأدبة فاخرة فأكلوا وقدم عليّ للرسول مالا طائلا لقاء « تعب الأسنان »[1] مما صار له وقع حسن لدى السلطان .

وفى اليوم التالى أمر السلطان أن يذهب الخواجة أبو نصر مشكان إلى الأستاذ الرئيس ليتكلم معه بشأن إبرام العهد مع الخليفة وعودة الرسول ، فذهب أبو نصر إلى ديوان الوزارة حيث اختلوا هنالك ودعوا رسول الخليفة ودار بينهم حديث طويل حتّى فرغوا من إقرار كل ماينبغى وضعه ودوّنوا كل ذلك فى نسخة يوقع عليها السلطان تتضمن أن يطلب الرسول إلى الخليفة بعد بلوغه بغداد إصدار عهد جديد يفوّض فيه السلطان أمور خراسان وخوارزم ونيمروز وزاباستان وجملة الهند والسند وبلاد الصغانيين وختل وقباديان وترمذ وقصدار ومكران والشتان وكيكانان وبلاد الرى والجبال وولاية إصفهان بكاملها حتى عقبة حلوان وجرجان وطبرستان ، وأن لايكاتب الخليفة أيضاً خانات التركستان ولا يمنحهم أى لقب من الألقاب، كما لايجوز أن يرسل إليهم خلعاً عن طريق هذه الأسرة كما كان الحال عليه سابقاً بين السلطان الماضى والخليفة أمير المؤمنين القادر بالله ، وأن يعود هذا الرسول ، السليمانى ، نفسه خاصة بهذا العهد على أن يكون معه خلعة تدل على مدى حسن رأى أمير المؤمنين فى السلطان فتكون لها ميزة أنه لم يحصل على مثلها أحد من قبـــل ، ويصدر منشوراً للسير إلى كرمان عن طريق سيستان وإلى عمان عن طريق مكران للقضاء على القرامطة ، هذا وقد تُجمع جيوش لاتحصى والحاجة ٢٩٢

---

(١) كانت هذه عادة متبعة آنذاك ولم تزل معروفة فى إيران الآن حيث يعطون للضيف مالا باسم مزد دندان أو دندان مزد مكافأة له على ما تجشمت أسنانه من المشقة أثناء الأكل .

ماسة إلى التوسع فى الفتوح ولا بد للجيش من أن يوجه إلى عمل ، ولولا احترامنا لمقام الخلافة لكنا قصدنا بغداد يقيناً كى يفتح بذلك طريق الحج فإن والدنا كان قد أبقانا فى الرى لهذا القصد، ولو لم اضطر بعد وفاته للعودة إلى خراسان لكنت اليوم على أبواب مصر أو الشام ، وقد رزقنا بأنجال نجباء وسوف نرزق بغيرهم ولا بد من أن يقوموا بأعمال ، وإن لنا صداقة بآل بويه ونحن لانريد إخراجهم بأى حال ولكن عليهم أن يكونوا أكثر يقظة وأن يبلغوا منزلة الخلافة إلى ما كانت عليه وأن يفتحوا طريق الحج ، لأنا قد أذنا للناس أن يستعدوا للحج هذا العام على أن يسيروا بإشراف أحد قوادنا ، وها نحن قد أتممنا الحجة بهذا الخطاب ، وإن لم يبذل جهد فى هذا الباب فإنا سنجدّ فى ذلك لأن الله تعالى سوف يحاسبنا بما لنا من الهيبة والعدة والعدد والجيوش التى لاتحصى .

فقال الرسول إن هذا الكلام كله حق فينبغى تحرير مذكرة تكون حجة فى يدى . فقالوا : حسنا . وأعادوه إلى مقامه . ثم أخبر أبو نصر السلطان بكل ما جرى فسر بذلك سرورا بالغا . وفى يوم الخميس الخامس عشر من شهر المحرم أحضروا قضاة بلخ وأعيانها وسادتها وقدموهم للحضرة بعد انتهاء الاستقبال وحضر على ميكائيل أيضا كما جاء الرسول يصحبه الموكل بالضيوف ، وكان الأستاذ الرئيس قد حضر الاجتماع هو والعارض وأبو نصر مشكان وكبير الحجاب بلكاتكين والحاجب بكتغدى ، وكان أستاذى قد ترجم صيغة البيعة إلى الفارسية ترجمة رائعة كالديباج ضمنت كل ما ينبغى ذكره من الشروط وعرضت على الرسول ، ثم قدمت إليه نسخة عربية ليراها ويطلع عليها وتلى النص بصوت جهير سمعه جمهور الحاضرين فقال الرسول : عين الله على الشيخ إنها تطابق النسخة العربية تماما ، إنه لم يترك منها شيئا ولأخبرن أمير المؤمنين

بكل ذلك أيضا أطال الله بقاءه . ثم قرأ أبو نصر النسخة العربية فقال السلطان : نعم قد سمعت وتأكد لدىّ كل ما جاء فيها فأعطى النسخة الفارسية . فسلمها أبو نصر له وأخذ السلطان مسعود فى قراءتها . ولم أر أحدا من ملوك هذه الأسرة يستطيع قراءة الفارسية وكتابتها كهذا السلطان . فقرأ صيغة العهد أولا دفعة واحدة دون توقف ، ثم قدّموا له المحبرة الخاصة ٢٩٣ فكتب تحتها بخط يده بالفارسية والعربية جميع ما كانوا قد جاءوا به من بغداد وما ترجمه أستاذى ، ثم أحضروا محبرة أخرى من ديوان الرسائل وسجّل الأستاذ الرئيس وجملة الحاضرين شهاداتهم على هذا بخطهم ، إلا القائد بكتغدى الذى كتب شهادته عن لسانه أبو نصر لأنه لم يكن يعرف الكتابة . وعاد الرسول ومن حضروا ذلك المجلس من أهل بلخ وكذلك عاد الحجاب ، وبقى السلطان مع هؤلاء الثلاثة فقال للأستاذ الرئيس . ينبغى أن يعاد الرسول . فأجاب : نعم لابد من ذلك ، وسيكتب أبو نصر الكتاب والتذكرة والرسائل ويعرضها على الرأى العالى ويعطى الخلعة والصلة للرسول كما يسلم إليه كل ما سيرسل حسب الرسم لحضره الخلافة حتى يذهب . فسأل السلطان وماذا ينبغى أن نرسل إلى الخليفة . فقال أحمد (أى الوزير) كان الرسم السابق أن يرسلوا عشرين ألف منّ من النسايج خاصة للخليفة وخمسة آلاف منّ منها للحاشية وكل ما جمع من النثار فى يوم الخطبة وهو محفوظ فى الخزانة العامرة ، هذا إلى جانب ما يأمر به مولانا من الألبسة والجواهر والعطور ؛ ومعلوم ما يعطى للرسول ، وأذكر أنى قرأت فى أخبار عمرو بن الليث أنه بعدما توفى أخوه يعقوب فى الأهواز ، وكان الخليفة المعتمد على الله متحاملا عليه لسيره للحرب وانهزامه فيها ، فذهب أحمد بن أبى الإصبع للسفارة لدى عمرو أخى يعقوب وقد وعدوا عمرو بالعودة والبقاء بنيسابور حتى يصله منشور التولية والعهد واللواء هنالك ، فنقد عمرو الرسول مائة ألف دينار فى الحال وأعاده ، ولكن الرسول نفسه بعد أن عاد

إلى نيسابور وبصحبته خادمان وخلعتان والهدايا واللواء والعهد أنفق عمرو سبعمائة ألف درهم فى هذا الشأن ، أما السليمانى هذا فقد جاء فى سفارة ومهمة خطيرة فينبغى أن ينعم عليه بخلعة فاخرة وصلة بمائة ألف درهم وحبذا يؤوب ومعه ما طلبنا إليه أن يعود به يمنح ما يأمر به مولانا وقتئذ . فقال السلطان : حسن جدا ، ثم أضاف إلى هداياه للخليفة أكثر مما كان قد اقترحه الأستاذ الرئيس فسجل مائة حلة من شتى الأنواع وكلها ثمينة بينها عشر منسوجة بالذهب وخمسون حقة من المسك ومائة شمامة[1] من الكافور ومائتا شارة مقصبة جيدة للغاية وخمسون سيفا هنديا ثمينا وكأس من ذهب يزن ألف مثقال ملوء باللؤلؤ ثم عشر قطع من الياقوت وعشرون قطعة نفيسة جدا من لعل بدخشان وعشرة رؤوس من ٢٩٤ خيل خراسان الختلية بسروج وبراقع من ديباج وخمسة من غلمان الأتراك الممتازين ، ثم قال السلطان بعد الانتهاء من تسجيلها : يجب تهيئة هذا كله : فقال الأستاذ الرئيس : حسنا . ثم قفل راجعا وجلس فى إيوان ديوان الرسائل واستدعى القائمين على الخزانة وأصدر إليهم الأوامر وانصرفوا . وأعد عمال الخزائن كل ذلك فشاهده السلطان وأعجبه . وكتب أستاذى أبو نصر نسخة للرسالة بليغة للغاية ، فقد كان إمام زمانه حقا فى الترسل والإنشاء ، وقد حررتها أنا — أبو الفضل — إذ كانت الكتب ترسل لسدة الخلافة وخانات التركستان وملوك الأطراف كلها بخطى وكان لدى صور تلك الرسائل كلها ، لكنهم أتلفوها عمداً والأسف كل الأسف على أن ضاعت منى تلك الرياض الرضوانية أعنى الرسائل ، فقد كانت تجعل من هذا التاريخ سجلا فريداً على أنى لست يائساً من العثور عليها يوماً ما بفضل الله عز وجل لتدرج جميعاً وليطلع الناس على حال هذا الصدر العظيم وما ذلك على الله بعزيز . ودونت

(١) الشمامات ما يتشمم من الروائح الطيبة . عن القاموس . غى . وباقى حاشية ٤ .

التذكرة وعرضها أبو نصر على الأستاذ الرئيس ثم قام بترجمتها ثم قرئت باللغتين العربية والفارسية على السلطان وصارت موضع إعجاب بالغ .

وجاءوا بالرسول فى يوم السبت العشرين من محرم وألبسوه خلعة فاخرة مما يخلع على الفقهاء ، فى نسيجها خمسمائة مثقال من الذهب كما منح بغلة ورأسين من الخيل ، وأعادوه ، ثم حملوا إليه فى أثره كل ما كان من الهدايا باسم الخليفه ومعها مائة ألف درهم صلة للرسول نفسه وعشرون حلة ثمينة ، كما أهدى الأستاذ الرئيس الرسول بغلة مسرجة عليها برقعها وخمسمائة دينار وعشر قطع من الألبسة. وبعث أستاذى أبو نصر جواب الرسالة إلى الرسول مع الموكل بالضيافة . وغادر الرسول مدينة بلخ فى يوم الخميس الثانى والعشرين من شهر المحرم وقد أرسلوا معه خمسة من السعاة على أن يعود ثلاثة منهم واحد بعد الآخر فى أثناء الطريق حاملين كل ما يستجد من الأخبار وأن يعاد الآخران من بغداد ليذكرا كل ما جرى ، كما دسوا بين الرجّالة والسواس رجلا من العيون يسير متنكرا لينهى كل ما يرى قلّ أو كثر إلى الحضرة السلطانية على يد هؤلاء السعاة ، وكان السلطان مسعود آية فى مثل ٢٩٥ هذه الأمور وسأذكر فى عدة مواضع طرفا من أخباره فى هذا الشأن . وأرسلت الرسائل بواسطة الأسكدارية[١] إلى كافة الولايات التى فى طريق الرسول ليستقبلوه بما يليق له ويحتفوا به كثيرا حتى يذهب راضيا .

أما وقد فرغت من سرد هذه القصة ، فسأكتب خطاب الخليفة وصورة العهد لأكون قد وفيت بوعدى .

---

(١) يستعمل النص الفارسى كلمة اسكدار ، وتفسيره : ازكو دارى ، أى من أين تمسك وهو مدرج يكتب فيه عدد الخرائط والكتب الواردة والنافذة وأسامى أربابها . مفاتيح العلوم ص ٤٢

والكلمة فى لغت فرس بمعنى ساعى البريد الذى يسير دابته فى كل منزل ليركب دابة أخرى مستريحة . لغت فرس ص ١٢٦ . ولاحظ غنى ـ فياض أن الكلمة تستخدم فى هذا الكلام على وجهين : ساعى البريد ، والخريطة نفسها . حاشية ١ .

نسخة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أبى جعفر الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى ناصر دين الله الحافظ لعباد الله المنتقم من أعداء الله ظهير خليفة الله أبى سعيد مولى أمير المؤمنين ابن نظام الدين وكهف الاسلام والمسلمين يمين الدولة وأمين الملة أبى القاسم ولى أمير المؤمنين ـ التوقيع العالى : اعتضادى بالله ـ سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمد (إليك) ٢٩٦ الله الذى لا إله إلا هو ويسأله أن يصلى على محمد رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

أما بعد ، أحسن الله حفظك وحياطتك ، وأمتع أمير المؤمنين بك وبالنعمة الجسيمه والمنحة الجليلة والموهبة النفيسة فيك وعندك ولا أخلاه منك والحمد لله القاهر بعظمته القادر بعزته الدائم القديم العزيز الرحيم الملك المتجبر المهيمن المتكبر ذى الآلاء والجبروت والبهاء والملكوت الحى الذى لا يموت ، فالق الأصباح وقابض الأرواح ، لا يعجزه معناص ولا يوجد من قضائه مناص ، لا تدركه الأبصار ولا يتعاقب عليه الليل والنهار ، الجاعل لكل أجل كتابا ولكل عمل بابا ولكل مورد مصدرا ولكل حى أمدا مقدرا ، الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون المتفرد بالربوبيه الحاكم لكل من خلقه من البقاء بمدة معلومة حتما منه على البرية وعدلا فى القضية لا يخرج عنه ملك مقرب ولا نبى مرسل ولا صفى لمصافاته ولا خليل لمناجاته قال الله عز وجل ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، وقال عز اسمه إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا ترجعون .

والحمد لله الذى اختار محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم من خير أسرة اجتباه من أكرم أرومة واصطفاه من أفضل قريش حسبا وأكرمها نسبا وأشرفها

أصلا وأزكاها فرعا، وبعثه سراجا منيرا ومبشرا ونذيرا وهاديا ومهديا ورسولا مرضيا داعيا إليه و دالا عليه وحجة بين يديه لينذر الدين ظلموا وبشرى للمحسنين، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد فى سبيل الله وعبده حتى أتاه اليقين صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرّف وكرّم وعظمّ .

والحمد لله الذى انتخب أمير المؤمنين من أهل تلك الملة التى علت غراسها ورست٢٩٧أساسها واستحكمت أرومتها وسخت جرثومتها وتزين أصلها وتصون فرعها، واجتباه من بين الأمة التى يذكو زنادها، واصطفاه من لباب الخلافة التى ينير شهابها، وأوحده بالسجايا الجميلة، وأفرده بالخلائق الزكية، واختصه بالطرائق الرضية التى من أوجبها وأولاها وأحقها وأجراها التسليم لأمر الله تعالى وقضائه والرضاء بيأسائه وضرائه، فأوفى كل ما (هو) من ذلك القبيل واتبعه وسلكه وقصد على منهاج سلفه الصالح وسلك طريقهم المنير الواضح وهو فى المنحة على ما يرطب لسانه من الشكر ويقابل مولم الرزّية بما أسبغ الله تعالى عليه من الصبر ويتلقى النازلة برضائه بقضائها على ما سخر له الذى جل ذراه ويقضى حق الشكر فى الحالين لخالقه ومولاه ويرتبط النعمة بما يقررها ويهنيها والنازلة بالاحتساب الذى يعفيها ويرى أن الموهبة لديه فيهما سابغة والحجة عليه باعتقاد المصلحة بهما معا بالغة فلا يعذر فى النقمة من ربه سبحانه وهو معترف فى العارفة بإحسانه راض فى النائبة بابتلائه ليكون للمزيد من فضل الله حائزا ومن الثواب بالقدح المعلىّ فائزا ولا يفيده الفائدة من جميع الجهات ولا يعنيه العائدة كيف انصرفت الحالات علما منه بأن الله سبحانه يبتدى النعم بفضله ويقضى فيها بعدله ويقدر الأشياء بحكمته ويدبر اختلافها بإرادته ويمضيها بمشيته ويتفرد فى ملكه وخلقه ويصرف أحوالهم على حكمه ويوجب على كل منهم أن يكون لأوامره مسلما وبأحكامه راضيا مذعنا، فسبحان من لا يحمد سواه على السراء والضراء وتبارك من لا يتهم (فى) قضاياه فى الشدة والرخاء، وهو جل اسمه

يقول ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون .

٢٩٨ولما استبد الله تعالى بمشيته من نقل الإمام التقى الطاهر الزكى القادر بالله ، صلى الله عليه حيا وميتا وقدس روحه باقيا وفانيا . إلى محل إجلاله ودار كرامته عند اشفائه على نهاية الأمد المعلوم وبلوغه غاية الأجل المحتوم وألحقه بآبائه الخلفاء الراشدين صلوات الله عليهم أجمعين أسوة ما حتمه الله تعالى على كل حى سواه ومخلوق فطره بداه وأحسن أمير المؤمنين انتقاله إلى دار القرار لعلمه بتعويض الله إياه مرافقة أنبيائه الأبرار وإعطائه ما أعد الله الكريم له من الراحة والكرامة والحلول فى دار المقامة لكن لدغ ألحرقة ومولم الفرقة أورثه استكانة ووجوما وكسبه تأسفا وهموما فوقف بين الأمر والنهى مسترجعا وسلم لمن له الخلق والأمر معطفاً ومرتجعا لا يغالب فى أحكامه ولا يعارض فى نقضه وإبرامه ، يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن فلجأ أمير المؤمنين عقب هذه القادمة التى ألمت والهادمة التى أظلت إلى ما يريد الله منه وأوجبه عليه واستكان واسترجع بعد أن ارتاع وتفجع وقال إنا لله وإنا إليه راجعون واحتسب وصبر ورضى وشكر بعد معالجة كل مغاق من الغمرات ومدافعة كل مولم من الملمات إذ كان رأى الإمام القادر بالله رضى الله عنه وقدس روحه نجما ثاقبا وحلمه جبلا راسيا شديد الشكيمة فى الدين وثيق العزيمة فى إطاعة الله رب العالمين صلى الله عليه صلوة أسكنه بها فى جنات النعيم ويهديه إلى صراط مستقيم . وله قدس روحه من جميل أفعاله وكريم أخلاقه مايعلى درجته فى الأئمة الصالحين وتفلج حجته فى العالمين إنه لا يضيع أجر المحسنين ، ورأى أمير المؤمنين بفطرته الثاقبة وفكرته الصافية صرف الخاطر عن الجزع على هذه المصائب إلى ابتغاء الأجر عنه والثواب ووصل الرغبة إلى الله تعالى فى رد أمانته على مولاه وإنهاضه بما استكفاه٢٩٩ يسأله أن يحظى الإمام الطاهر القادر بالله عليه صلوات الله ورضوانه وغفرانه بما قدمه من أفعال الخير المقربة إليه ويزلفه بما

سبق منها لديه حتى تتلقاه الملائكة مبشرة بالغفران وموصلة إليه كرائم التحف والرضوان ، قال الله تبارك وتعالى فبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم .

وانتدب أمير المؤمنين للقيام بما وكله الله إليه ووجب عليه بالنص من الإمام الطاهر القادر بالله كرم الله مضجعه ونور مصرعه عليه ليرتب الصدع ويقيم السنن ويضم ما تشتت من الأمر ويجبر الوهن والخلل ويتلافى ما حدث من الزيغ والزلل ويقوم بحق الله فى رعيته ويحفظ ما استحفظه إياه فى أمر بريته فجلس مجلساً عاماً بحضرة أولياء الدعوة وزعائمها وأكابر الأسرة وجماهرها وأعيان القضاة والفقهاء والشهود والعلماء والأماثل والصلحاء فرغبوا إلى أمير المؤمنين فى القيام بحق الله فيهم والتزموا ما أوجبه الله من الطاعة عليهم وأعطوا للصفق إيمانهم بالبيعة إصفاق رضى وانقياد وتبرك واستسعاد وقد أنار الله بصائرهم وأخلص ضمائرهم وأرشدهم إلى الهدى ودلهم على التمسك بالعروة الوثقى وكان الخطب مما يجل والنقض مما يخل فأصبح كل نازلة زائلة وكل عضلة جالية وكل متفرق مؤتلفا وكل صلاح بادياً منكشفا وأصدر أمير المؤمنين كتابه هذا وقد استقامت له الأمور وجرى على إذلاله التدبير وانتصب منصب آبائه الراشدين وقعد مقعد سلفه من الأئمة المهديين فصلوات الله عليهم أجمعين مستشعراً من قهر الله تعالى فيما يسر ويعان ويظهر ويبطن موثرا رضاه فيما يحل ويعقد ويأتى ويقصد آخذاً بأمر الله فيما يقضى متقرباً إليه بما يزلف ويرضى طالبا ما عنده من الثواب خائفا من سوء الحساب لا يؤثر تقربا بقرابته ولا يوخر التعبد عن استحقاقه ولا يعمل فكرا ولا روية إلا فى حياطة الحوزة والرعية إلى أن يقوّم الحقوق ٣٠٠ ويرتق الفتوق ويؤمن السرب ويعذب الشرب ويطفىء الفتن ويخمد نارها ويهدم منارها ويعفى آثارها ويمزق أتباعها ويفرق

أشياعها ، ويسأل الله المعونة على ما ولاه وإرشاده فيما استرعاه جميع أموره وأنحائه ويوفقه للصواب فى عزائمه وآرائه .

فامدد متعنى الله بك على بركة الله وحسن توفيقه إلى بيعة أمير المؤمنين يدك وليمدد إليها كل من صحبك وسائر من يحويه مصرك فإنك شهاب دولته الذى لا يخمد ورائدها الذى لا ينكد وحسامها الذى لا يركد ، واجر على أحمد طرائفك وأرشد خلائقك وأجمل سجاياك وأكرم مزاياك فى رعاية ما سولناه لك وحياطته وحفظه وكلائته ، وكن للرعية أبا رؤوفا وأمّا عطوفا فإن أمير المؤمنين قد استرعاك لسياستهم واستدعاك لإيالتهم وخذ على نفسك اليمين المنفذة إليك من أخذ هذا الكتاب واستوفها على جميع من لديك بمشهد أمين أمير المؤمنين محمد بن محمد السليمانى لتكون حجة الله وحجة أمير المؤمنين عليك وعليهم قائمة والوفاء بها واجبة لازمة ، واعلم أنّ محلك عند أمير المؤمنين محل الثقة الأمين لا المتهم الظنين إذ كان فوّض الأمر إليك واستظهر بك ولم يستظهر عليك علما منه بأنك تسلك فيها مسالك المخلصين وتكون من المفلحين فإن السعادة بذلك مقترنة والبركة فيه مجتمعة والخير كل الخير عليك متوفر ولك فيه تام مستمر ، وقرّر عند الخاصة والعامة أنّ أمير المؤمنين لا يهمل مصلحتها ولا يخل برعايتها آخذا فى ذلك بأمر الله رب العالمين حيث يقول وهو أصدق القائلين الذين إن مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور .

وهذه مناجاة أمير المؤمنين إياك أحسن الله بك الامتاع وأدام عنك الرقاع فتلقها بالاحنان لها والاعظام لقدرها وقرر ما تضمنته على الكافة لينشر ذكرها فى الجمهور ويتكامل به الجذل والسرور ولتسكنوا إلى ما أباحه الله لهم من عطوفة أمير المؤمنين ٣٠١ عليهم ونظره بعين الرأفة إليهم ، وأقم الدعوة لأمير المؤمنين على

منابر ممالكك مسمعا بها ومفيدا ومُبدئا ومعيدا، وبادر إلى أمير المؤمنين بالجواب من هذا الكتاب باختيارك ما منه فيه فإنه يتشوقه ويستدعيه، وأطلعه بصواب أثرك فيما نلته وسداد ما تريده وتمضيه واستقامتك على أحمد الشواكل فى طاعته وأجمل الطرائق فى متابعته فإنه يتوكف ذلك ويتطلبه ويترقبه ويتوقعه إنشاء الله، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وبركة عند أمير المؤمنين بك وبالنعمة الحابلة والمنحة الجسيمة والموهبة النفيسة فيك وعندك ولا أخلاه منك وصلى الله على محمد وآله أجمعين وحسبنا الله وحده.

نسخة العهد

بايعت سيدنا ومولانا عبد الله بن عبد الله أبا جعفر الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين بيعة طوع واتباع ورضى واختيار واعتقاد وإضمار واسرار بصدق من نيتى وإخلاص من طويتى وصحة من عقيدتى وثبات من عزيمتى طائعا غير مكره ومختارا غير مجبر بل مقرا بفضله مذعنا بحقه معترفا ببركته معتمدا بحسن عائدته عالما بما عنده من العلم بمصالح من فى توكيد عهده من الخاصة والعامة ولم الشعث وأمن العواقب وسكون الدهماء وعز الأولياء وقمع الملحدين ورغم أنف المعاندين على أنّ سيدنا ومولانا الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين عبد الله وخليفته مفترضة على طاعته ومناصحته الواجبة على الأمة إمامته وولايته اللازم لهم القيام لحقه والوفاء بعهده لا أشك فى ذلك ولا أرتاب به ولا أُداهِنُ فى أمره ولا أميل إلى غيره، وعلى أنى ولى أوليائه وعدو أعدائه من خاص وعام وقريب وبعيد وحاضر وغائب متمسك فى بيعته بوفاء العهد وإبراء ذمة العقد سرّى فى ذلك مثل علانيتى وضميرى فيه مثل ظاهرى، وعلى أنّ إطاعتى هذه البيعة التى وقعت فى نفسى وتوكيدى إياه الذى [لزم] فى عنق لسيدنا ومولانا القائم بأمر الله أمير المؤمنين بسلامة من نيتى واستقامة من عزيمتى

واستمرار من هوائى ورائى٣٠٢وعلى أن لاأسعى فى نقض شيئ منها ولا أؤول عليه فيها ولا أقصد مضرته فى الرخاء والشدة ولا أدع النصح له فى كل حال دانية وقاصية ولا أخلى من موالاته فى كل الأمور النية ولا أغير شيئا مما عقد على فى هذ البيعة ولا أرجع عنه ولا أتوب منه ولا أشوب نيتى وطويتى بضده ولا أخالفه فى وقت من الأوقات ولا على كل حال من الأحوال بما يفسده ، وعلى أيضا لكتابه وخدمه وحجابه وجميع حواشيه وأربابه مثل هذه البيعة فى التزام شروطها والوفاء بعهودها .

وأقسمت مع ذالك راضيا غير كاره وآمنا غير خائف يمينا يؤاخذنى الله بها يوم أعرض عليه ويطالبنى بدرك حقه يوم أقف بين يديه فقلت والله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم الكبير المتعال الغالب المدرك القاهر المهلك الذى نفذ علمه فى الأرضين والسموات وعلمه بما مضى كعلمه بما هو آت وحق أسماء الله الحسنى وآياته العليا وكلماته التامات كلها وحق كل عهد وميثاق أخذ الله على جميع خلقه وحق القرآن العظيم ومن أنزل ونزل به وحق التورية والإنجيل والزبور والفرقان وبحق محمد النبى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وحق أهل بيته الطاهرين وأصحابه المنتجبين وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين عليهم السلام أجمعين وحق الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين أن بيعتى هذه التى عقدت بها لسانى ويدى بيعة طوع يطلع الله جل جلاله منى على تقلدها وعلى الوفاء برمته بما فيها وعلى الإخلاص فى نصرتها وموالاة أهلها أعرض ذلك بطيب البال لا إدهان ولا احتيال ولا عيب ولا مكر حتى ألقى الله موفيا بعهدى فيها ومؤديا للأمانة فيما لزمنى منها غير مستريب ولا ناكث ولا متأول ولا حانث إذكان الذين يبايعون ولاة الأمر يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما ، وعلى أن هذه البيعـــة التى طوقتها عنقى وبسطت بها يدى وأعطيت بها صفقتى

وما اشترط علىّ فيها من وفاء وموالاة ونصح ومشايعة وطاعة وموافقة واجتهاد ومبالغة ٣٠٣ عهد الله إن عهده كان (عنه) مسئولا وما أخذ على أنبيائه ورسله عليهم السلام وعلى كل أحد من عباده من مؤكد مواثيقه وعلىّ أن أتشبث بما أخذ على منها ولا أبدل وأطيع ولا أعصى وأخلص ولا أرتاب وأستقيم ولا أميل وأتمسك بما عاهدت الله عليه تمسك أهل الطاعة بطاعتهم وذوى الحق والوفاء بحقهم ووفائهم، فإن نكثت هذه البيعة أو شيئا منها أو بدلت شرطا من شروطها أو نقضت رسماً من رسومها أو غيرت أمرا من أمورها مسرا أو معلنا أو محتالا أو متأولا أو مستعميا عليها أو مكفرا عنها أو أدهنت أو أخليت فيما أعطيت من نفسي وفيما أخذت به من عهود الله ومواثيقه على أن أرغب عن السبل التى يعتصم بها من لا يحتقر الأمانة ولا يستحل الغدر والخيانة ويثبطه شيئ عن العقود المعقودة فكفرت بالقـــرآن العظيم ومن أنزله ومن نزل به ومن أنزله عليه وبرئت من الله ورسوله والله ورسوله منى بريئان وما آمنت بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكل ما أملكه فى وقت تلفظى بهذه اليمين أو أتملكه بقية عمرى من مال عين أو رزق أو جوهر أو أبنية أو ثياب أو فرش أو عرض أو عقار أو ضياع أو سائمة أو زرع أوضرع أو غير ذلك من صنوف الأملاك المعتادة مما يجل قدره أو يقل خطبه صدقة على المساكين فى وجوه سبيل الله رب العالمين محرم علىّ أن يرجع ذلك أو شيء منه إلى مالى وملكى بحيلة من الحيل أو وجه من الوجوه أو سبب من الأسباب أو تعريض من معاريض الإيمان وكل مملوك أملك من ذكر أو أنثى فى وقت تلفظى بهذه اليمين أو أتملكه بقية عمرى أحرار لوجه الله لا يرجع شيء من ولائهم وكل كراع أملكه من دابة أو بغل أو حمار أو جمل أو أتملكه بقية عمرى طالق فى سبيل الله وكل زوج زوجتها أو أتزوجها بقية عمرى طالق طلاقا بائنا لا رجعة ولا تعمية بمذهب من المذاهب التى يستعمل فيه الرخص فى مثل هذه الحال ومتى نقضت

شرطاً من شروط بيعتى هذه أو خالفت قاعدة من قواعدها أو استعميت عليها أوكفرّت أو تأوّلت فيها أو ذكرت بلسانى خلاف ما [هو] عقيدتى أو لم يوافق ظاهر قولى باطن عملى فعلىّ ٣٠٤ الحج إلى بيت الله الحرام العتيق ببطن مكة ثلاثين حجا راجلا لا فارساً فيها وإن لم أوف بهذه اليمين فلا تقبل الله منى صرفا ولا عدلا إلا بعد التزامى بشرائطها وخذلنى الله يوم احتاج إلى نصرته ومعونته وأحالنى الله إلى حول نفسى وقوتى ومنعنى حوله وقوته وحرمنى العافية فى الدنيا والعفو فى الآخرة . وهذه اليمين يمينى والبيعة المسطورة فيها بيعتى حلفت بها من أولها إلى آخرها حلفا معتقدا لوفائها وهى لازمة مطوقة فى عنقى معقودة بعضها إلى بعض والنية فى جميعها نية سيدنا عبـــد الله أبى جعفر الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه طولا وافياً للدنيا والدين وعمرا كافياً للمصالح أجمعين ونصر راياته وأكرم خطابه وأعلى كلمته وكب أعداءه وأعز أحبابه وأشهد الله تعالى على نفسى بذلك وكفى به شهيدا[1] .

ذكر أحوال الخواجة أبى سهل

محمد بن حسن الزوزنى العارض ، والقبض عليـه

سبق أن ذكرت فى هذا المجلد أن أبا سهل الزوزنى دبّر قبل رحيلنا ، ٣١٦ أى حينما أراد السلطان مسعود رضى الله عنه السفر من غزنة إلى بلخ مكيدة لخوارزمشاه ألتونتـاش ودس دسيسة قوية للإيقاع به ، مكيـــدة وقع بسببها أبو سهل نفسه فى محنة كبرى وسأشرح قصة هـذه المكيدة وأوضح أسباب القبض عليه تفصيلا .

سمعت من الخواجة أبى نصر أن أبا سهل الزوزنى أوقع فى روع السلطان

(١) أورد البيهقى بعد هذا الترجمة الفارسية للكتاب والبيعة ، ص ٣٠٤ إلى ٣١٦ .

أن خوارزمشاه ألتونتاش ميال إلى السوء وكان ينبغى القبض عليه فى شابرقان أما وقد ذهب فكأنما أفلت الصيد من الشباك ،وقد قضى على المردةالعتاة كعلى قريب وأريارق والغازى بينما ظل خوارزمشاه ألتونتاش حياً له الخزائن والأموال الوفيرة إلى جانب ملكه الواسع وجنده وعدته فلو قضى عليه وفوّض الأمر فى بلاده إلى معتمدٍ من قبل السلطان لغنمت الدولة دولة عظيمة وخزانة عامرة وجندا كثيرا . فقال السلطان : وما الحيلة فى ذلك إذ ينبغى أن يكون هنالك جيش وقائد عظيم للقيام بهذه الأعمال . فقال أبو سهل : هذا عمل يسير بشرط أن يظل الأمر سراً مكتوما ، وذلك بأن يكتب السلطان بخط ٣١٧ يده خطابا إلى القائد منجوق أمير جيوش كجات وهو من الموالين للحضرة السلطانية فى خوارزم والمتعطشين لدم خوارزمشاه فيدبر القبض عليه وقتله وللسلطان هنالك قرابة الثلاثة آلاف فارس من الأتباع ومعلوم مالخوارزمشاه من الأتباع فمن السهل القضاء عليه ، وعندما يرى منجوق أن الخطاب مكتوب بيد مولانا تقوى عزيمته ويقدم على هذا الأمر على أنه ينبغى ألا يطلع أحد غيره أو أحد الكتاب على ذلك . فقال السلطان : نعم الرأى وحيث أنك العارض فسجل اسم كل واحد من المقدّمين . ففعل ذلك وكتب السلطان بخطه ملطفة وذكر فيها اسم كل مقدم والجهة التى هو فيها ، ولم يدر بخلد أبى سهل أن مثل هـذا الأمر لايمكن أن يظل خافياً وأن خوارزمشاه سيفلت منه إذ ليس ثمة أحد مثله يقظة وذكاء ، فلا يمكن القضاء عليه بهذه السهولة بل وقد يثور من أجله العالم . وبعد قضاء الله تعالى ينبغى أن نعلم أن خراسان ضاعت نتيجة مكائد أبى سهل ضد خوارزمشاه ، وأن الخواجة أحمد عبد الصمد وزير خوارزمشاه لم يكن يماثله أحد كفاية وحسن تدبير وسيأتى بيان كل ذلك فى موضعه .

قال أستاذى أبو نصر إن السلطان باح بهذا السر إلى عبدوس بعد إرسال هذه الملطفة ، فأسر عبدوس به فى مجلس الشراب إلى كاتم سره أبى الفتح الحاتمى،

وكان بين عبدوس وأبى سهل عداء شديد فقال عبدوس إن أبا سهل سيقضى بدسائسه على هذه الدولة العظيمة ، وفى اليوم التالى قص أبو الفتح الحاتمى هذه الحكاية على صديقه محمد مسعدى وكيل خوارزمشاه فى البلاط ونال على ذلك أجرا حسنا ، فكتب مسعدى هذا الخبر مفصلا فى معماة[1] إلى الخواجة أحمد عبد الصمد وكانت رموز هذه المعماة مصطلحة بينهما ، وكان أبو سهل قد أحاط بالطرق المؤدية إلى خوارزم وكانوا يصادرون الرسائل ويحتاطون لما يمكن أن يقع ، فوقع فى يدهم معمّى مسعدى ، فأرسل السلطان إلى الأستاذ الرئيس يقول : لماذا تركتم معتمد خوارزمشاه يكتب المعميات ينبغى أن تحتاطوا وتحققوا . فأحضروا مسعدى ، وكنت أنا ، أعنى أبا نصر ، حاضرا أثناء ذلك فسألوه عن المعمى فقال : إنى معتمد لرجل عظيم وهو يمنحنى أجرا كبيرا ويهبنى صلات طيبة وقد أخذوا على الأيمان المغلظة أن أنهى إليهم فورا كل ما يكون فى صالحهم ويعلم مولانا أنى لست ممن يعيثون فى الأرض فسادا كما يعرف الخواجة أبو نصر حقيقة أمرى وقد كتبت هذا المعمّى لأمر هام . فسألوه : وما هو هذا الأمر الهام . فأجاب : هذا ما لا أستطيع البوح به . فقالوا لا بد من ذلك وإنا احتراما لشأن سيدك ٣١٨ جعلنا التحقيق معك على هذا المنوال ، وإلا لكان يجرى على صورة أخرى . فقال فإن كان ولا بد من ذلك فينبغى أن أحصل على أمان من السلطان . فعرضوا الأمر على السلطان وأخذوا له الأمان فبيّن الواقعة بقوله : كنت قد سمعت كذا وكذا من أبى الفتح الحاتمى نقلا عن عبدوس . فلما عرف الخواجة بذلك استشاط غيظا والتفت إلىّ قائلا أترى ماذا يفعلون ؟ ثم سأل مسعدى وهل كتبت شيئا قبل هذا . فقال نعم قد كتبت وأرسلت هذا تأييدا لذلك . فقال الأستاذ الرئيس : إن هذا

(١) المعمى من الكلام ما عمى معناه وخفى ، ما يطلق عليه اليوم كلمة الشفرة .

الرجل لأنه معتمد لدى البلاط ويتقاضى أجرا وراتبا ويمنح صلات ولأنه أقسم أيمانا مغلظة يعتبر معذورا فيما فعل ، ولكن ينبغى أن يعنف أبو الفتح الحاتمى على هذه الكذبة الشنعاء . ثم قال لى سرا أبلغ السلطان أن لا يبوح الآن بهذا السر إلى عبدوس أو الزوزنى لنرى ماذا سيكون بعد ذلك . وأوعزوا إلى مسعدى كى يكتب معماة أخرى يقول فيها أن لا صحة لما جاء بكتابه الأول ويرسلها مع ساع من قبله وأن يكتب لصاحب البريد بهذا المعنى أيضا ، إذ ليس لنا اليوم طريق آخر غـــير هذا وسنعرف غدا بعد وصول الرسالة ما يجرى هنالك وما يصنعون وماذا نرى ، وينبغى للسلطان أن لا يتمادى فى هذا الحديث وأن يجعل الحاتمى فداءً ، ولو أن هذا السر لن يظل خافيا وسوف يترتب عليه خلل كبير . فذهبت للسلطان وأبلغت مقالة الأستاذ الرئيس فلما سمع ذلك ظل واجما ولم ينبس ببنت شفة وجلست ثم إلتفت نحوى وقال : يجب العمل بما يؤول إلى الصلاح فى هذا الباب فإن أبا الفتح الحاتمى هو الذى اختلق هذا الكذب والصلة بين أبى سهل وعبدوس سيئة وهذا الكاتب قد حاك هذه الدسيسة ودبر هذا المكر . فعدتُ وذكرت كل ما جرى للخواجة فأخذ هذا يطمئن مسعدى وكتب معمّاتين بالمعنى الذى حررت خلاصته بيدى جاء فيهما إن ما كتبته سابقا لم يكن إلا عن كذب اختلقه أبو الفتح لتعكير صفاء المودة بين العاهلين وقد عنف أبو الفتح لما ارتكبه . وأرسل الكتابين أحدهما بيد قاصد والآخر مع أحد فرسان السلطان ، وصرفوا مسعدى وضربوا أبا الفتح خمسمائة عصى وعزلوه عن منصب الإشراف فى بلخ الذى كان قد أسند إليه ، ثم اختلى بى الأستاذ الرئيس بعد ذهاب مسعدى وقال لى ٣١٩ « أرأيت ما فعلوا ؟ لقد أثاروا الدنيا وإنه البون تاش لا الغول البرى[1] وإن لديه داهية كأحمد عبد الصمد فكيف

---

(١) ديوسبا ، وفى نسخة أخرى ديوسياه ، وقد يحتمل أن يكون هذا اللفظ مما يستخدم للتحقير فى ذلك الوقت . غنى — فياض ٣١٩ .

يجوز هذا ؟ لقد خسرنا ألتونتاش ، إلا أنه تركى عاقل وقد أشرف على سن الشيخوخة ولن يرضى لنفسه بسوء السمعة فى هذه السن ولولا هذا لأثار شراً عظيما علينا ، والأعجب من كل هذا هو أنى كما ترى بعيد كل البعد عن أمثال هذه الأمور ، ولكن التونتاش سيعتقد أن كل هذا بتدبير منى فاذهب إلى السلطان وقل له إن فلانا يقول لقد جرت أمور دون سابق علمى بها فإذا رأى السلطان أطلع العبد عليها كى يتخذ ما ينبغى لتداركها . فذهبت وبلغت وكان السلطان محتداً للغاية فقال : لم يقع فى هذا الباب شىء يثير القلق إلا أن أبا سهل كان يقول لنا فقط إن التونتاش أفلت دون ثمن من يدنا فى شبورقان فصرخت فى وجهه وذهب عبدوس وتبادل والحاتمى الأحاديث الحلوة المرة وقالا إن أبا سهل لم يكف عن دس الدسائس فاتخذ الحاتمى هذه التقولات بضاعة رائجة لنفسه فلاقى جزاءه . فقلت : هذا قول سديد أطال الله حياة مولانا ، ومن الممكن تلافى ما وقع إذا لم يكن هنالك شىء آخر . وعدت فذكرت للخواجة ما جرى فقال : يا أبا نصر إن هناك شيئاً آخر وقد جرى فى السر وهم يخفونه عنا وسوف ترى ما يخرج من طياته . ثم رجعت . وبعد ذلك ، وكنت جالساً حين صلاة العصر فى مجلس السلطان ، إذا بهم يأتون بحقيبة بريد خوارزم مغلقة مختومة وكان حارس الديوان يعرف أن كل حقيبة تصل على هذه الصورة لابد أن تحتوى على أمر هام ، فجاء بها وتسلمتها وفتحتها فوجدتها كتاب صاحب البريد أخى أبى الفتح الحاتمى فسلمتها للسلطان فأخذها ٣٢٠ وقرأها فبهت ، وأيقنت بوقوع أمر خطير ، ولكنى لم أقل شيئاً واستأذنت فى الذهاب فقال لا تبرح ، فجلست وأشار فانصرف الندماء والحجاب وانتهى الإذن ولم يبق أحد هنالك ، فرمى إلىّ بالكتاب وقال : إقرأ فقرأته وإذا فيه أن خوارزمشاه أذن اليوم (الجمعة) للموالى والحشم بالحضور إلى مجلسه فحضروا وكان منجوق قائد كجاتان نشوان فلم يجلس فى مكانه الخاص به وإنما

تجاوزه فضحك خوارزمشاه وقال له لعل القائد أفرط فى الليلة الماضية ونام متأخراً ، فأجاب القائد غاضباً : إن نعمتك قد فاضت على فعمدت إلى اللهو والشراب وسيقضى على هذا الضلال ، فالخبز أولا ومن بعده الشراب ومن يكن فى نعيم يعكف على الشراب . فضحك خوارزمشاه وقال لاتحدثنى بحديث السكارى . فقال منجوق نعم إن الشبعان يعد الجـــائع سكراناً ويحسبه سفيهاً ونحن المذنبون باصطبارنا على هذا الحال .فصاح فى وجهه تاش ماهروى سپهسالار خوارزمشاه قائلا أتعرف معنى ما تقول ؟ إن سيداً عظيما يمازحك ويضحك معك وأنت تتجاوز حدك ولولا حرمة هذا المجلس العالى لكان الجواب على هذا بحد السيف . فصرخ فيه القائد ومد يده إلى سيفه [1] فتعلق به الغلمان والحجاب وأخذوا يتدافعون وهو يتمادى فى سقط القول ويقاومهم وكان خوارزمشاه فى أثناء ذلك يناديهم قائلا دعوه واتركوه . وبينما هم على هذه الحال إذ أصاب صدر منجوق وخصيته عدة رفسات فحملوه إلى المنزل حيث توفى حين صلاة الظهر وأسلم روحه للحضرة العلية ، فليدم ملك العالم .ثم إن خوارزمشاه دعانى وقال لى إنك صاحب البريد وقد شهدت ما جرى فلتكتبن حقيقة ما وقع كيلا يصل خلافها إلى المجلس العالى . فشرحت ذلك ليتفضل الرأى العالى بالاطلاع عليه زاده الله علواً إن شاء الله تعالى. وكان مع الكتاب رقعة تفيد أنه بعد ما حدث للقائد منجوق هذه الواقعة اتخذت الاحتياطات اللازمة للمحافظة على داره وأمتعته خوف الضياع والتفريط وأتوا بكاتبه ونجله إلى الديوان حيث اعتقلوهما حتى يتقرر ما ينبغى بإذن الله تعالى .

فلما فرغت من قراءة الرسالة قال لى السلطان ما رأيك وماذا يمكن أن ٣٢١ يكون . فأجبته : أطال الله حياة السلطان إنى لا أستطيع التكهن بالغيب ولكنى بقدر علمى أرى أن خوارزمشاه رجل عاقل عظيم ذا أناة وليس لأحد جرأة

---

(١) قراجولى . يعنى السيف وكذلك قراجوى .

على إثارة مثل هذا الهياج فى حضرته حتى يؤول الأمر إلى قتل رجل مثل القائد خطأ فلا بد أن يكون هناك سر خاف وراء هذه الواقعة على كل حال وصاحب البريد لا يستطيع عادة أن يكتب خبرا دون إرادتهم وإملائهم ولكن قد أخذت عليه الإيمان ليكتب كل ما يجرى سرا بأية طريقة يستطيع فعليه لا يمكن التثبت من حقيقة الحال إلا بعد وصول رسالته السرية . فقال السلطان : حتى متى أخفى عنك يا أبا نصر الحقائق ، إن أبا سهل هو الذى أوقعنا فى هذه الورطة فصدرت بخطنا رسالة فيها كذا وكذا فلعلهم قتلوا القائد بعد أن وصلت رسالة الوكيل وتذرعوا بهذه الظواهر ، أما قلقى فليس مرجعه إلى قتل القائد ، وإنما أخشى أن تكون الرقعة التى كتبتها بخطى قد وقعت فى أيديهم ، ويطول بنا الأمر ، لأن اعتقال نجل القائد وكاتبه له مغزى عميق ولعل تلك الملطفة وجدت فعلا بيد الكاتب ، فما الرأى فى ذلك والتدبير ؟ فقلت إن الأستاذ الرئيس هو الذى يستطيع مداواة هذا الداء ، ولا يمكن القطع فى أمثاله من الأمور دون حضوره .
فقال : إذا ينبغى كتمان حديث الليلة حتى يحضر الأستاذ الرئيس غدا . فانصرفت راجعاً أفكر فيما وقع وأنا شديد الأسف والحزن ليقينى بأننا قد خسرنا خوارزمشاه تماما ، وبت ساهراً أفكر طول ليلى ، وفى اليوم التالى بعد أن فض الاستقبال اختلى السلطان بالأستاذ الرئيس وطلب الرسائل فقدمتها فأعطاها للخواجة فلما قرأها قال : لقد صادف القائد المسكين شراً كان من الممكن درؤه .
فقال السلطان : إن عندنا أشياء أخرى لا يعرفها الأستاذ الرئيس وقد أطلعت عليها أبا نصر ليلة أمس فإن أبا سهل هو الذى أوقعنا فى هذه الورطة حتى أرسل إلى القائد كتاب بخطنا ، وإن ما أخشاه الآن أن تكون الرسالة قد وقعت بيد التونتاش . فقال الأستاذ الرئيس : إنه من الممكن أن تكون الرسالة لدى ذاك الكاتب . فينبغى والحالة هذه إسقاط اسم خوارزمشاه من سجل الموالين ويا ليت الأمر يقف عند هذا الحد ولا ينجم عنه فساد آخر ولكنى أعتقد أن

ذلك لن يكون ، فإن هذا التركى شيخ على جانب من العقل والسداد . ولعلهم تعمدوا إدخال السلطان فى هذا المأزق ٣٢٢ ، ولم يكن بينى وبين خوارزمشاه صفاء فى يوم من الأيام فسيعتقد على كل حال أن ما جرى لم يكن إلا بتدبير منى ؛ هذا ولم يحسن أبو سهل صنعا ، فجحد نعمة السلطان ولم يعرف حقه بإقدامه على هذا التدبير الخاطىء وأنا لا أعلم السر فى إخفاء هذا الأمر عنى إذ لو كنت عالما به لبينت وجه الخطأ والصواب فيه . فقال السلطان : لقد كان ما كان فما الحيلة الآن . فأجاب الأستاذ الرئيس : أرى من المناسب الآن أن يكتب جواب لصاحب البريد دون أن نظهر اكتراثا لمقتل القائد ، وأن لا نكتب البتة شيئاً لخوارزمشاه حتى نرى ما يكون وينبغى ألا ننسى أن القائد ارتكب شططا وتجاوز حده فجاء قضاء الله موافقا لما جرى فلقى حتفه ، ويجب أن نرعى حقه ونرى هل يردون ما خلّفه لنجله أم لا ، وعلى أى حال فإن رسالة صاحب البريد ستصل فى هذه الأيام سرا ، لو أنه استطاع إرسالها ولم يحولوا دون إمكان وصولها وسيشرح الأحوال بالتفصيل وسنتخذ تدابير أخرى على ضوء ما نقرأه فى تلك الرسالة ، وحيث أن أخا أبى الفتح الحاتمى هذا صاحب البريد هناك ، فليس ببعيد أن يكون أبو الفتح قد فعل هذا من أجل أخيه . فقال السلطان : إنه لكذلك فإن أبا الفتح هذا كان يكتب إلينا إبان وجوده فى ديوان أبى نصر بواسطة أبيه الذى كان فى ديوان خليفة هراة عن جميع ما كان يجرى من شئون والدنا . فقلت أنا أى أبو نصر : وآأسفاه على أن أسمع هذا الكلام فى مثل هذا اليوم . فقال السلطان : وماذا كنت تفعل إن عرفت ذلك آنذاك . فقلت : كنت أوعز بسلخ قفاه وطرده من الديوان فإن الكاتب الخائن لا يعتمد عليه . ثم قمنا وانصرفنا عائدين . وأحضر السلطان أبا سهل العارض وعنفه وأهانه وقال له إلى متى أحتمل وزر أخطائك ، لآمرن بضرب عنقك إن تكلمت بعد هذا في حضرتي فيما لا يختص بعمل العرض ؛ واستدعي كذلك عبدوس ولامه

بأقسى الكلم وقال له لقد بحت بسرنا الذى كلمناك فيه وإنكم لستم جديرين بالصحبة ؛ ولسوف تلقون جزاء ما اقترفتم من خيانة .

٣٢٣واشتدقلق السلطان بعدهذهالواقعة ولم يكن يتحدث بعد ذلك فيما ينبغى التحدث فيه إلا مع الأستاذ الرئيس ومعى . وقضى على نفوذ هؤلاء الجماعة إذ قد أصبح مؤكدا أن كل ما يقولونه ويسمونه خطأ محض .

وكنت يوما فى منزلى فأخبرونى أن سائحا بالباب يقول إن لدى خبرا هاما ،فوقع فى قلبى فورا أنه لابد آت من خوارزم وقلت أدخلوه فدخل وطلب الخلوة ، ثم شق العصا التى كانت بيده وأخرج منها وريقة صغيرة من أبى عبد الله الحاتمى نائب البريد يخاطبنى بها وأعطانيها ، وكان مكتوبا بها : لقد دبرت الحيل وأعطيت السائح هذا مالا وضمنت له مالاً يصله من الحضرة حتى خاطر بنفسه وسافر وهو إن وصل سالما إلى الحضرة العلية سيبلغكم برسائلى الشفوية وهو رجل نبيه وقد شهد عيانا الأحوال هنا فينبغى الاستماع إليه واعتماد أقواله إن شاء الله . فقلت وما هى المشافهات . فقال إنه يقول إن كل ما كتبته إليكم من قبل من أنهم رفسوا القائد عدة رفسات فى قلبه وخصيته أثناء الشجار فى سراى خوارزمشاه مما أدى إلى موته إنما كان وفق ما كتبه لى كتخداه أحمد عبد الصمد وقد أعطونى لقاء ذلك مالا وألبسة ولو أنى كتبت غير ذلك لخاطرت بحياتى ، والحقيقة أن القائد قبل مقتله بيوم عقد اجتماعا كبيرا دعا إليه أتباعه من مشاغبى بجات وجغرات وأخذ يشكو من خوارزمشاه علنا ويذكره بالسوء إلى أن قال إن أمور الدنيا لاتبقى على حال واحد وإن التونتاش وأحمد لايرعيان مصالحهم ومصالح أبنائهم وغلمانهم ولابد لهذه الحال من مآل وواضح أنى وهؤلاء الرجال الأحرار لا نستطيع الصبر على المكروه أكثر من هذا .فنقلوا ذلك الخبر إلى خوارزمشاه فقال للقائد غداة ذلك اليوم فى مجلسه : أكنت البارحةوليلتها مستضيفا ؟ فقال نعم . فقال ألم تجد لحماً ونفلا للضيافة حتى نهشت لحمى ولحم

كتخداى .فأجابه القائد بإجابات كانت أدهى و أمر . فضحك خوارزمشاه والتفت إلى أحمد . ولما انصرف القائد قال خوارزمشاه لأحمد أما رأيت كيف يلعب غرور الحضرة فى رأس القائد . فقال أحمد نعم ينبغى أن يطرد من هنا. وعاد إلى داره . وكان الرسم المتبع أن يعود أحمد فى أيام الجمعة قبل ميعاد عودته فى سائر الأيام ويذهب الجميع للسلام عليه وكنتُ حاضراً هنالك فجاء القائد ٣٢٤ وأخذ يكلم أحمد معاتباً وقد قال فى أثناء ذلك ما هذا الكلام الذى كان يخاطبنى به اليوم خوارزمشاه ؟ فأجاب أحمد إن سيدى كريم حليم ولو أنه تكلم بالسيف والعصى لما كان لك ولا لأمثالك جرأة على أن تحتسوا ثمالة وتتجاوزوا فى الكلام حدكم . فرد القائد بإجابة مهينة وبسط يده فى وجه أحمد فقال أحمد إنما أتت هـــذه النخوة من قبل الحضرة وكان الأولى إخفاؤها مدة حتى تصلك الخوارزمشاهية . فقال القائد ولكن لن تدوم لك الخوارزمشاهية . ثم نهض لينصرف فقال أحمد لا يفوتنكم هذا الكاتب . فقال القائد إنك لن تستطيع علىّ أمرا . فصفق أحمد بيده وقال أعطوه . فظهر على الفور مائتا رجل كانوا قد أعدوهم وكان القائد قد وصل إلى وسط السراى فأعملوا فيه السيوف والخناجر والمعاول وقضوا عليه ثم ربطوا رجله بحبل وداروا به فى طرقات المدينة وهدموا قصره واعتقلوا نجله وكاتبه وحملونى على أن أكتب رسالة من نسخة أعدوها كما قرئت فى وقتها . وغداة ذلك اليوم طلبوا من كاتبه رسالة قالوا إنها جاءت من الحضرة فأنكر أن القائد أعطاه شيئا ففتشوا دار القائد وأوراقه فلم يجدوا الرسالة فشددوا على الكاتب حتى أقر واعترف وأعطاهم الرسالة فأخذوها ولم يبرزوها وقالوا إنهم أخفوها بحيث لم يطلع عليها أحد ولم يأذن خوارزمشاه للاستقبال بمجلسه ثلاثة أيام ، إذ كان مختلياً بأحمد . وفى اليوم الرابع وكان يوم جمعة ؛ أذن خوارزمشاه للناس كسائر الأيام بل كان مجلسه أكثر أبهة وجلالا من ذى قبل وخطبوا وقت الصلاة الخطبة المعتادة ولم يبدوا

شيئاً يدل على العصيان . هذا ولم يوقفونى على شيء إلا ما كان له شأن رسمى وأخذوا فى شراء الغلمان والدواب أكثر من المعتاد وسيكون ما أكتبه بعد الآن بإيعازهم وموافقاً لرغباتهم فينبغى أن لا يعتمد عليه ، وهـــذا ما ألجأنى إلى الإفادة فى عملى من السياح والسعاة المتنكرين وإن حياتى لفى خطر والله ولى الكفاية .

فنسخت هذه الرسالة الشفوية وحملتها إلى الدركاه فقرأها السلطان وتولته حيرة شديدة وقال ينبغى ختم هـــذه الرسالة حتى يأتى الأستاذ الرئيس غداً ففعلت ذلك . وفى اليوم التالى اختلى السلطان بالأستاذ الرئيس وبى بعد أن ٣٢٥ انفض الاستقبال فلما طالع الأستاذ الرئيس رسالة البريد وقرأ التقرير قال : أطال الله حياة مولانا هذه هى عاقبة الإقدام على أمر دون روية ، ينبغى أن نقطع الأمل من ألتونتاش فإنا لن نفيد منه شيئاً ، وليته لا يقدم على فساد بالاتحاد مع على تكين ، فإنهما قريبان من بعضهما ، فيثير بذلك شراً مستطيراً ، فقلت : لا أعتقد أنه يفعل ذلك، لأنه يرعى حق السلطان الماضى ويعلم يقيناً أن نفساً خبيثة حملت مولانا إلى الطريق المعوج . فقال السلطان ماذا أفعل وقد أخذوا خطى حجة علىّ ، وإن احتجوا علىّ به فكيف أتنصل منه . فقال الأستاذ الرئيس لقد وقع ما وقع وثمت شيء واحد لو عملنا به لأمكن تهدئة الحال إلى حد ما ولهذا الشيء عوض ولو أن قلب السلطان سيتألم نوعا إلا أن ألتونتاش وثغر خوارزم العظيم ليس لكليهما عوض . فقال السلطان وما ذلك الشيء ، إنى لحريص على تلافى ما حدث وإن اقتضى الأمر التضحية بنجل عزيز كى أنهى الأمر ولا يطول . فأجاب الأستاذ الرئيس إن هذا العبد لا يقول إلا ما تتطلبه مصلحة مولانا ، فينبغى أن لا يظن أن ما يقوله صادر عن تعصب لنفسه وأنه لا يحتمل أن يرى أحد عبيد الدركاه العالى فى منزلة عالية . فقال السلطان حقاً لا يظن بالخواجة هذا ولن يكون ذلك أبداً . فقال : إن أبا سهل هو مصدر كل هذا

الفساد وألتونتاش متمحض منه وهو يعلم أن هذه الرقعة ولو أنها مكتوبة بخط السلطان فما هي إلا من دسائس أبي سهل أجراها على يد السلطان وبعث بها ، فينبغي أن يكون هو فداء لهذا الأمر بأن يأمر بإقالته لأنه أقدم على أمرين ضارين ندم عليهما السلطان ويحتاج الأمر لتلافي عواقبهما إلى زمن طويل ، فأولهما أنه أشار باسترجاع صلات الأمير محمد أخي مولانا والآخر أنه تسبب في أن يسيء ألتونتاش الظن بالحضرة ولو أنه عوقب لثبتت هذه الجريمة عليه، ومن الممكن أن يكتب السلطان رسالة تزيل الشك عن نفس ألتونتاش ولكنه سوف لا يأتي إلى الحضرة أبداً إلا أنه لن يتحد مع عدو ولن يثير فساداً ، هذا ويستطيع العبد أن يكتب رسالة أيضاً وأن يحمل المرآة تجاهه حتى يعلم أنه ما كان لي في هذا الأمر ناقة ولا جمل فيصغي إلى نصحي ويعمل بما أقول . فقال السلطان نعم الرأي سآمر غداً باعتقاله وعلى الخواجة أن يأخذ الحيطة عليه وعلى أتباعه كي لا يفلت من اليد ٣٢٦ ولا يضيع شيء . قال سأفعل ذلك . وانصرفنا فقال لي الأستاذ الرئيس ونحن في الطريق لقد أدرك السلطان الآن أن القطيع تباعد ولكن لا بأس مع هذا حتى يبتعد القطيع أكثر من هذا .

وفي اليوم التالي بعد انتهاء المجلس سار الخواجة إلى ديوانه وسار أبو سهل إلى ديوان العرض بينما جلست مختلياً بديوان الرسائل وأرسلت الكتب بسرعة إلى مرو وزوزن ونيسابور وغور وهراة وبادغيس وغزنة بشأن القبض على رجال أبي سهل ومصادرة أمواله، وبعد أن ساروا بالرسائل وصل أمر السلطان إلى الأستاذ الرئيس على لسان أبي الحسن الكدياني النديم [1] يقول: هل أرسلت الرسائل التي تكلمنا بشأنها مع الخواجة ليلة أمس وهل سار الفرسان المسرعون، فليتخذ الخواجة ما ينبغي بشأن هذا الرجل . فاستدعى الأستاذ الرئيس أبا سهل

---

(١) جاءت هكذا ، ولعله الكوراني نسبة إلى قرية من أعمال اسفرايين بخراسان غني — فياض حاشية ١

ونواب ديوان العرض وطالب منهم الحسابات والقوائم الخاصة بالجيش ، ثم اختلى بهم واشتغلوا بالأمر بينما أمر سرا ليركب صاحب النوبة ويذهب إلى دار أبي سهل مع المشرفين وثقات الخواجة فذهبوا وصادروا سراى أبي سهل كما صادروا واعتقلوا قومه ومن كان من أتباعه في بلخ ثم أبلغوا الخواجة كل ما صنعوا فعاد من الديوان وأمر أن يساق أبو سهل إلى قهندز [1] فأركبه حاجب النوبة بغلة وبعث به في حراسة جم غفير من الفرسان والرجالة إلى قهندز وكان قد حضر إليه في عرض الطريق خادمان وستون غلاما فساقوهم إلى السراى ثم ساروا به إلى قهندز وسجنوه ، ولقى بهذا جزاء ما قدمت يداه . ومن ثم أطلعوا السلطان على كل ما جرى بشأنه وفي اليوم التالي اختلى السلطان بالأستاذ الرئيس بعد انتهاء الاستقبال ثم دعونى وقال السلطان : لقد انتهينا من حديث أبي سهل وكان الخير في ذلك لأن هذا الرجل لم يترك لنا مجالا للسير بما تقتضيه مصلحة الملك فماذا ينبغي عمله الآن؟ فقال الأستاذ الرئيس : إن الصواب في أن يوعز إلى مسعدى ليكتب في النو رسالة إلى خوارزمشاه كما هي العادة في مثل هذه الأحوال بأن يكتب وكيل البلاط ويشرح ما جرى ويقول حيث أنه قد تأكد لدى مجلس السلطان العالى ٣٢٧ أن أبا سهل قد ارتكب خيانة وأثار فسادا في الملك حتى أدى الأمر إلى دس الدسائس في حق شيخ عظيم كخوارزمشاه ولم يقف عند هذا الحد بل أخذ يكيد له وللآخرين وذلك منذ أن التحق بالبلاط إلى أن أقصى عنه ملوما محسورا فقد صحت نية السلطان على كف يده عن العمل بديوان العرض واعتقاله لأمن الملك وخدامه من دسائسه وشروره ، ثم يوعز العبد (الوزير) إليه سرا ليكتب بالمعنى رسالة يقول فيها : إنما فعل السلطان كل هذا ، بعد أن تأكد لديه أن أبا سهل كتب رقعة وأخذ يتحين الفرص إلى أن وجد السلطان في مجلس

---

(١) هذا الاسم باق الى اليوم «قهندز بلخ» ، وهى ناحية شرقى بلخ وغربى بدخشان ويسميها العامة قندوس . غنى — فياض حاشية ٣ .

الشراب وقد أخذت الخمر منه مأخذا فحمله على كتابة تلك الرقعة ومن ثم أرسلها إلى خوارزم ولما كان الغد وانتبه السلطان لما حدث وطلب تلك الرقعة قال أبو سهل وحلف برأس السلطان وبحياته بأنه فكر فى ذلك أيضاً وتبين خطأه فمزقها وإذ تقرر لدى السلطان بعد ذلك كذب أبى سهل فقد أمر بعقابه . وبعد أن يرسل هذا الخطاب بأسبوع يكتب أبو نصر رسالة أخرى يشرح فيها هذا الأمر ليسترضيه بها ، ويكتب العبد (الوزير) أيضاً من جانبه ، كما ينبغى إيفاد معتمد من لدن الدركاه العالى من ذوى الرأى وأرباب الفصاحة والحجى إلى خوارزم فيوصل الرسائل ويبلغ المشافهات ويحيط خبرا بكل شىء ثم يعود راجعاً بالتالى ، ولو أن كل هذه التدابير ظاهر اصطناعها ولا تنطلى على أولئك الدهاة المحنكين إذ سيعرفون أنها كحلوى الآفروشة[1] ولكنها على كل حال ستترك مكانا للمجاملة فيهدأ ذلك التركى ، هذا وينبغى أن يشمل السلطان برعايته ابنه ستى أيضاً فيمنحه الحجابة ويصله بخمسة آلاف دينار حتى يفرغ قلب ذلك الشيخ . فقال السلطان : أجل كل هذا صحيح ويجب العمل به وليعلم الأستاذ الرئيس أننا لن نقطع بعد هذا فى سياسة الملك أو أمر المال أو الشئون العامة أمرا دون مشورته ورأيه . فقبّل الوزير الأرض وبكى وقال : ينبغى أن يتعين لدى مولانا أن هؤلاء الثلاثة ٣٢٨أو الأربعة الشيوخ الباقين هم خير من ألف شاب فليبقهم الله عز وجل تأييدا لدولة السلطان ولا يسوغ التفريط فى حقهم . فأدناه السلطان وضمه إلى صدره وأثنى عليه كثيرا كما شملنى بعطفه أيضاً . ثم عدنا واستدعى بعد ذلك مسعدى واختلى به ثم دونتُ النسخة اللازمة فكتب ما ينبغى كتابته من ظاهر ومعمّى واختار الأستاذ الرئيس أبا القاسم الدامغانى بعد ذلك بأسبوع ليذهب إلى خوارزم ، وكان أبو القاسم هذا شيخا فاضلا أريبا فصيحا ،

---

(١) آفروشه اسم حلوى تصنع من العجين .

وكتب الأستاذ الرئيس باسمه كتابا لطيفاً يخاطب فيه خوارزمشاه وقد استنسخت في مجلس الحضرة نسخة منه .

صورة الخطاب الذى كتبه شهاب الدولة

السلطان أبو سعيد مسعود رضى الله عنه لألتونتاش خوارزمشاه

« بسم الله الرحمن الرحيم إلى العم الفاضل الحاجب خوارزمشاه أدام الله تأييده الذى هو اليوم لنا بمنزلة الوالد وهو أعظم ركن يستند إليه الملك وقد أظهر فى كل آونة صدقه وثباته وتقواه وأبدى ما فى ضميره دون رياء أو وجل بما قام به إبان وفاة والدنا السلطان الماضى رحمة الله عليه ، كما أبدى ما رآه لازما من النصح والإرشاد للجفاخين فى غزنة مما لا ينبغى نسيانه أبدا ، وكذلك قدومه بعد إلى الدركاه بقلب خال من الرياء والنفاق وتقديمه النصح لصالح الدولة وتأييدها مما يستحق أن يدون تاريخا فى بابه ، وإن شخصاً ينطوى على مثل هذا الولاء ويعترف بأنه يدين للدولة بكل ما يملك من جلد ولحم وعظم لخليق بأن يكون على مثل هذا الوفاء مراعيا لحق نعمة سلطانه الماضى وسلطانه الحالى كما ينبغى مجتهدا فى أداء بقية حقوق مواليه ويمكن أن يقال إنه فاز بأوفى نصيب من السعادة فى الدنيا والآخرة وإنه لجدير بقولهم عاش سعيدا ومات حميدا فليعش دائماً ولا تسمع أذن عن فقده يوما . وحيث أنه أبدى من جانبه الصـــدق والاتحاد والنصرة والاعتقاد الراسخ ولم يجد من قبلنا تقديرا يحق لشخصه بل لقد ظهر من المتسوقين النهازين والدساسين وقصار النظر وغير المجربين من الشبان أمور غير لائقة أدت إلى خجلنا ولوم أنفسنا لحسن رأينا الذى كنا نراه ٣٢٩ دائما لصالحه وكنا واثقين أنه بحصافته وحسن رأيه سينظر إلى الأصل ولا يعبأ بالفرع ، فألتونتاش هو ذلك الفذ الصادق المخلص ولو أنهم كانوا قد أسمعوه شيئا أو أرادوا أن يسمعوه أو يظهروه على شيء بالمعاينة كى يقلقوا باله فالأولى أن يضع شخص السلطان

الماضى تجاه قلبه وبصره ويأمل تلك النعم والأفضال والجاه والمنزلة ولا يلتفت إلى ما يصوره الحاسدون والمسوءون . فله من العقل والمعرفة والبصيرة والروية مالا يستطيعون معه سهولة زحزحته عن آرائه[1] وإنا لنسأل الله عز وجل التوفيق للقيام بحقوقه وأن نتلافى كما ينبغى ماقد يكون مسّ جاهه من وهن أو علق بقلبه من كراهية ، وهو سبحانه ولى ذلك والمتفضل والموفق بمنه وسعة رحمه . وإنا بعد أن نهضنا من الرى لضبط حاضرة ملك والدنا وبلغنا دامغان التحق بنا أبو سهل الزوزنى ، وكان قد خدمنا فى وقت ما وأصابته فى ولايتنا محنة كبرى وظل بقلعة غزنة ، فتراءى لنا كأخلص العبيد وأشفقهم إذ ذاك ولم يكن وقتئذ فى حضرتنا أحد من شيوخ الدولة ليؤدى خدمة أو يدبر أمرا ، وكنا مزمعين السير لأمر خطير ، وإذ كان حينئذ مقدّما على الآخرين فكان ولابد أن يتكلم فى كل باب وكنا نزيّن ما يقول بموافقتنا فعلت لذلك منزلته وعلق الناس عليه آمالهم كما هى العادة وانقاد إليه نفر آخرون كطاهر وعبدوس وغيرهما ، وظل فى تلك المكانة حتى بلغنا هراة واعتقلوا أخانا فى مكان ما والتحق جميع الموالى والخدم وكافة الجند بخدمتنا ، وأخذ هذا الرجل يدبر الأمور على حين كان أصحاب أبينا متخاذلين مبعدين حتى بلغ الحال به إلى أن أخذ يبدى ترفعا ، ونحن بعد أن ازددنا معرفة بسير الأعمال وتأملنا بدايتها ونهايتها وفهمنا هذا الرجل وعجمنا عوده استصوبنا أن نأمر فيحضروا أبا القاسم أحمد بن الحسن أدام الله تأييده من الهند ٣٣٠ وقطعنا يد تلك المحنة الطويلة التى كان يعانيها وزيّنا الوزارة بكفاءته ، وأقمنا أبا سهل هذا على عمل العرض حتى ينشغل بأمر واحد ويستريح مجلسنا من دلاله وخيلائه ، ولكنه سدّ طريق الرشد على نفسه ولم يفارقه ذلك الغرور الذى كان مستوليا عليه وتمادى

---

(١) الترجمة الحرفية لهذا التعبير لا يستطيعون معه الإسراع الى حمل حجره ضعيفا فى مجرى النهر .

فى دلاله وخيلائه حتى دميت قلوب أعيان حضرتنا من فعاله وأخذوا يستعفون الواحد بعد الآخر من تلك الأعمال التى كانت فى عهدتهم والتى لم تكن تستقيم إلا بهم ولم يكن ثمة من يقوم بها وقطعوا الأمل منا ومن أعمالنا وأخل ذلك بشئون الملك . وفضلا عن ذلك فقد كان يتطاول على أرباب السيف ويحيك الدسائس لهم ، ومن ذلك ما كان منه فى حق الحاجب حتى بلبل خاطره وأغرى به القائد منجوق وجعله وسيلة ، وحملنا على تغيير حسن رأينا فى الحاجب الذى هو لنا بمنزلة الأب والعم . فلما جاوز حده وثبتت لدينا خياناته الكبرى أمرنا بكف يده عن أعمال العرض فسجنوه فى مكان ما وصادروا جميع ممتلكاته حتى يرتجف سائر المتهورين ويكون عبرة لهم . وليس من شك فى أن ثقات الحاجب قد أنهوا له ذلك وبينوا وجوهه ، وقد أمرنا الآن والحالة هذه برعاية ولدنا ومعتمدنا « ستى » نجل الحاجب وصاناه بإنعامات شاملة ونال الحجابة أيضاً وإنه لعزيز علينا كأحد أبنائنا ، ومن كان أليق منه بهذا العمل ، فإنه نجل والد له الأصالة والكفاءة ،وكل هـذا جد قليل بالنسبة إلى حقوق الحاجب ، وإذا كانت صلاتنا الواجبة لم تصل من مجلسنا حتى الآن إلى الحاجب فسوف تصله تباعا كى يزول كل ما دبره ذلك الأرعن من النفرة وسوء الظن . هذا وقد أوفد الأستاذ الرئيس بأمرنا معتمدا وكتب هـذه المعانى وحمله المشافهات حسبما سمع فينبغى على الحاجب أن يعتمد عليه وأن يصير قلبه أكثر صفاء مما كان وأن يعيد المعتمد سريعاً وأن يذكر مطمئناً مايريد فإن كل ما يطلبه سيتم موافقاً ٣٣١ لرغباته بإذن الله » .

* * *

حررت هـذه الرسالة وذهب معتمد ديوان الوزارة فأبلغها وعاد ، وساد الجو هدوء ظاهر ولم يحدث وقتئذ فساد خطير . أما خوارزمشاه فقد كان

يتلوى كمدا إلى أن سار جيش بأمر السلطان فصدر إليه الأمر بأن يسير مع جيش خوارزم إلى جيحون وانضمت إليه الجند ، وتوجه لقتال على تكين ودارت بينهما معركة فى موضع دبوسى[1] انهارت على أثرها قوة على تكين وقتل من جنده جمع كثير وأصيب خوارزمشاه بسهم ولقى حتفه فى الليلة التالية . وعقد الخواجة أحمد عبد الصمد رحمه الله ذلك الرجل العالم الكفء الناصح الصلح ليلاً مع على تكين قبل أن يذيع خبر موت خوارزمشاه ، وقد تقبل على تكين هذا الصلح شاكرا وانسحب أحمد عبد الصمد فى اليوم التالى بذلك الجيش والخزائن وغلمان السراى مستخدماً ما يمكن من لطائف الحيل حتى جاء بهم سالمين إلى خوارزم . رحمة الله عليهم أجمعين وسأذكر تفصيل ذلك فى موضعه

وقد سمعت ، أنا أبو الفضل وصفا أقرب إلى الحقيقة لمقتل القائد منجوق من الخواجة أحمد عبد الصمد وذلك فى السنة التى وصل فيها الأمير مودود إلى دينور[2] فثأر لمقتل أبيه السلطان الشهيد ثم قفل راجعا إلى غزنة حيث تربع على سرير الملك وفوض الوزارة إلى الخواجة أحمد عبد الصمد ولكنه لم يعش بعد الوزارة إلا أياما قليلة رحمة الله عليه .

وأذكر أنى كنت جالسا يوما عند هذا الوزير إذ كنت قد ذهبت لإبلاغ رسالة، وكان أبو سهل الزوزنى لم يصل بعد من بست فسألنى متى يعود الخواجة أبو سهل . فأجبته بأنه لم يصل خبر ٣٣٢ من بست ولكنه ينبغى أن يصل خلال عشرة أيام فقال وهل يفوض إليه السلطان ديوان الرسائل فقلت ومن أليق به منه وقد كان

---

(١) دبوسى بلدة صغيرة من أعمال الصغد فيما وراء النهر .

(٢) جاء فى حاشية ب أن هذا الاسم لا محل له هنا قطعا فان دينور فى حدود كرمانشاه ولا مناسبة لها أو صلة بهذه القصة ونقول لعلها تكون برشور (بشاور) القريبة من البنجاب وكان فيها مقتل السلطان مسعود .

يشغل هــــذا المنصب على عهد السلطان الشهيد رضى الله عنه . وتسلسلت الأحاديث إلى أن انتهينا إلى حديث خوارزم وقصد القائد منجوق وكنت أشرح له شتى الأحوال بالتفصيل لأنها كانت تدور حولى فقال : إن ما قاله صحيح وقد وقع فعلا بيد أن هناك نقطة تلمق بالمعرفة لم يصل إليها علمك . فقلت إذا شاء مولانا فليمن علىّ بشرحها فإن فيها للعبد فائدة ، ولما كنت مزمعاً تدوين هذا التاريخ فلذلك جمعت فيه كل نكتة أينما وجدتها ، وسألته عن كيفية مقتل القائد منجوق فقال : فى أول يوم فوض إلى خوارزمشاه منصب الكنخدائية تقرر الرسم على أن أذهب كل يوم إلى حضرته حيث أمكث معه وحدى ساعة أو ساعتين فإذا نادى بأن يؤذن بالدخول دخل الآخرون عليه ، وكان يختلى بى سواء كان لديه أمر هام أو لم يكن وكان يسألنى ماذا فعلت البارحة وماذا أكلت وكيف كان يومك فإنى عملت كذا وكذا ، فكنت أقول لنفسى ما هذا الهوس العجيب الذى يدعوه للاختلاء بى ، حتى اتفق أن كنا يوما فى هراة وقد حدث فى تلك الليلة أمر هام إذ وصل كتاب الخوارزمشاه من السلطان الماضى فدبرنا الأمر فى تلك الخلوة ولم يعرف بها أحد فقال لى : إننى أعقد الخلوة كل يوم لمثل هذا اليوم ، فقلت لنفسى أجل لقــــد كنت فى خطأ كبير فإن الحق مع خوارزمشاه وكانت الأمور فى خوارزم تسير على هذا المنوال . فلما وصلت معياة مسعدى اختلى بى خوارزمشاه طويلا فى اليوم التالى وانقطع أمله فى السلطان ثم أجهش بالبكاء وهو يقول لتكن اللعنة على هؤلاء اللئام فقد قضوا بمكائدهم على رجل منقطع النظير كعلى قريب وأتوا على آخرين كالغازى وأريارق كما هموا بالقضاء علىّ فى شبورقان إلا أن الله تبارك وتعالى حفظنى والآن يتشبثون بهذه الحيل وقد خفى عليهم أن رجلا كالقائد لا يستطيع القبض علىّ وإذا فرضنا أنه قضى علىّ فكيف يمكن المحافظة على إيالة للسلطان بهذه السعة من يد الخصوم. ولكنهم لو أقدموا على ألف مكيدة كهذه فإنى لن أسىء إلى سمعتى الطيبة لا سيما

وقد طعنت فى السن وأتوقع الموت بين ساعة وأخرى . فقلت إن الأمر لكذلك بيد أننا يجب أن نبدى شيئاً من القوة بحيث تقع بها الهيبة هنا ويعرفون فى الحضرة أن خوارزمشاه لا ينام وأن الأيدى لن يمكنها أن تمتد إليه فى سرعة ويسر . فقال : وقد ظهر الغرور فى القائد فيجب القبض عليه . فقلت : بل يجب فعل ما هو أعظم من ذلك وهو قطع ذلك الرأس الذى ملأه ٣٣٣ ملك كسود غروراً وزين له أن يحل محل خوارز مشاه وإلا وقع من جراء ذلك شر مستطير. فقال : ولكن هذا أمر جد قبيح وغير لائق . فقلت : فليأذن لى مولاى بأخذ الأمر على عاتقى وحدى . فقال : وقد أذنت لك . وكان هذا الحديث فى خلوة يوم الخميس وكانت رسالة بخط السلطان قد وصلت إلى القائد وأثارت فى رأسه غرورا كبيرا فأقام تلك المأدبة الكبيرة فى يوم الخميس المذكور وأقدم بذلك على أمر خطير ، وجاء يوم الجمعة لتحية خوارز مشاه وكان ثملا فأفحش فى القول ونادى مهددا فاحتمله خوارز مشاه مع أن تاش ماهروى سپهسالار خوارزمشاه سبه وشتمه ، فذهبت إلى دارى وأعددت له العدة وعندما حضر لدى كما كانت العادة بأن يجتمع الزملاء عندى يوم الجمعة وجدت فى رأسه غرورا لم يكن أشد منـــه فبادرته بالشتم والإهانة أن لماذا لم يراع حد الأدب مع خوارز مشاه وأفحشت فى القول فضاق صدرا وتميز غيظا وبدأ يهذر بالسب والشتم صارخا فصفقت إيذانا فخرج رجال كوجان دفعة واحدة وقطعوه إربا إربا . واتصل خبره بخوارز مشاه حينما سمع صوت الغوغاء فى المدينة فقد ربطوا رجله بحبل وأخذوا يسحبونه، ثم أحضرت نائب البريد وأعطيته الدراهم والألبسة حتى كتبت الواقعة على الصورة التى قرأتها آنذاك ، ثم استدعانى خوارز مشاه وسألنى قائلا : ما هذا الذى جرى يا أحمد فقلت : أمر جاء فى محله . فقال : فماذا تقول للحضرة السلطانية . فقلت لقد دبرت ذلك ، وذكرت له ما كتبت . فقال : لعمرى إنك لرجل رشيد . فقلت : لا يكون ملك الخوارزمشاهية

ملكا إلا بأمثال هذه التدابير . فكان لذلك أثره العظيم .

وحيث أن حديث هذا السجين أى أبى سهل الزوزنى قد انتهى فقد وجب علىّ أن أسرد قصة الحبس .

حكاية

قرأت أنه بعد أن ترك بزرجمهر الحكيم دين زرادشت لاعتقاده بأنه لايخلو من خلل واعتنق ديانة المسيح عليه السلام ، خاطب إخوته قائلا : « إنى قرأت أنه سيظهر فى آخر الزمان نبى اسمه محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم، فإذاسعدت فإنى أكون أول من يؤمن به وإلا فإنى أدعوالله أن أكون يوم الحشرمع ٣٣٤ أمته ، فأوصوا أبناءكم بذلك لتسعدوا بالجنة » . وأبلغوا هذا الخبر كسرى أنو شروان فكتب إلى عامله أن أرسل بزرجمهر للدركاه مقيداً بالأغلال الثقيلة بعد قراءة هذا الكتاب، وصدع العامل بما أمر وأرسله . وذاع الخبر فى فارس بأن بزرجمهر سيوفد غدا . فلما أقبل التف حوله العلماء ، وقالوا : لقد كان لنا من علمك نصيب وما بخلت علينا بشىء منه حتى بلغنا مرتبة العلماء ، لقد كنت نجمنا اللامع ترشدنا إلى سواء السبيل ، وكنت نميرنا الفياض تروى غلتنا ، وكنت روضتنا الفيحاء تطعمنا من الثمار شتى الألوان ، ولقد حاق عليك غضب الملك وسوف تساق إليه ، وإنك لست من الحكماء الذين يعدلون عن الصراط المستقيم فزوّدنا من حكمتك بحكمة نذكرك بها . قال : « أوصيكم أن تؤمنوا بالله الواحد وأن تطيعوه ، واعلموا أنه يطلع على أعمالكم شرها وخيرها، وهو يعلم ماتخفون فى أنفسكم ، وحياتكم منوطة بأمره ، وإليه ترجعون ، وأن الحشر والقيامة والسؤال والجواب والثواب والعقاب حق ، فقولوا خيرا واعملوا صالحا وأحسنوا فإن الله تعالى ما خلقكم إلا للخير ،فإياكم والتردى فى الشر، واجتنبوا صحبة الأشرار ،فإن عمر الشر قصير ، وعليكم بالصلاح . وأحصنوا عيونكم وآذانكم وأيديكم وفروجكم من

الحرام والعبث وأموال الناس . واعلموا أن الموت دار الحياة . إليها مرجعكم مهما طال بكم أمد الأعمار . واستشعروا الحياء فإن الحياء شعار الأبرار ، وتخلقوا بالصدق فإن الصدق ينير الوجوه ؛ والناس يحبون الصادقين والصادق لا يهلك. واحذروا الكذب فإن الكذوب لا يصدّق ولو قال صدقا . والحسد يأكل الجسم والحسود قلق أبدا لأنه فى حرب دائمة مع الله تعالى ، ويموت الحسود بحسده قبل بلوغ أجله . ولا راحة للحريص لأنه يطلب شيئاً لم يقدّر له . وابتعدوا عن النساء فإنهن يستنفدن النعمة ويخربن البيوت . ومن أراد أن تبق زوجه عفيفة فلا يحومنّ حول نساء الآخرين . ولا تعيبن أحداً فإن أحدا لا يخلو من عيب . وأجهل الناس من لا يرى عيب نفسه ، والخلق الحسن خير ٣٣٥ هبات الله عز وجل . وتجنبوا سوء الخلق فإنها غل ثقيل على القلب والقدم ، وسيء الخلق فى هم مقيم دائم والناس منه فى ضيق ، وصاحب الخلق الحسن محمود فى الدنيا والآخرة . وعظموا من هو أكبر منكم سنا وراعوا حرمته ولا تعصوه . ولا تعولوا على الآمال فتصرفكم عن الأعمال . إن الذين بنوا المدن والقرى والعمائر وشقوا الترع والقنوات وتحملوا هموم الدنيا تركوها وراءهم ظهريا وقضوا ودرس ما شادوا . إن فيما قلت الكفاية وإنى لعلى يقين من أن لقاءنا يوم القيامة » . فلما أتوا ببزرجمهر إلى باب كسرى أمر بإدخاله إلى الحضرة مصفدا فى قيوده وأغلاله . فلما مثل بين يديه قال كسرى : « يابزرجمهر ماذا تبق من النعم والمراتب لم تنله بلطيف رعايتنا . لقد نلت الوزارة وكان تدبير ملكنا منوطا برأيك فلماذا ارتددت عن دين آبائك . وإذا كنت حكيم زمانك فلم دعوت الناس إلى أن الملك والجيش والرعية ليسوا على الحق . أكنت تقصد من هذا إثارة الناس علىّ وخروج الخاصة والعامة عن طاعتى فلأقتلنك قتلة لم يقتل بمثلها آثم ، فإن ذنبك جد عظيم ، أو أن تتوب وترجع إلى دين آبائك وأجدادك فأعفو عنك ، فإنه عزيز علىّ قتل حكيم مثلك وليس

كذلك أحد » . قال بزرجمهر : « أطال الله حياة الملك . لقد اعتقد الناس بأنى حكيم الزمان . وإذ خرجت من الظلمات إلى النور فإنى لن أعود إلى الظلام ، فأكون جاهلا سفيها » . فقال كسرى : « سآمر بضرب عنقك » . فقال الحكيم : « إن القاضى الذى سأذهب إليه هو عدل ، لايحتاج إلى الشهود ولسوف يقتص منك ويحرمك من رحمته » . فتميز كسرى من الغيظ وقال : « نعَمْ ، زجوه فى السجن مرة أخرى حتى نرى رأينا فيه » . فساقوه . فلما هدأت ثورة كسرى قال : « حرام قتل رجل مثل هذا » . وأمر أن يلقوه فى حجرة شديدة الظلام كأنها القبر ، وبأن يقيدوه بقيد ثقيل ، وبأن يلبسوه جبة صوف خشنة . وجعلوا له كل يوم رغيفين من شعير وحفنة من ملح وكوزا من الماء . ووكل به ٣٣٦ حراساً يعدون أنفاسه ، ثم ينهونها إليه . وقضى بزرجمهر سنتين على هذا الوضع حتى إذا كان ذات يوم خيم الصمت على سجنه ، فأبلغوا الأمر كسرى ، فقلق عليه وأمر بفتح السجن ، وأتوا بأقاربه وأصحابه ليتحدثوا إليه لعله يجيب . وخرجوا به إلى النور فرأوه قوى الجسم مشرق الوجه . فقالوا أيها الحكيم إنا وجدناك بهذه العباءة الخشنة والقيد الثقيل والمكان الضيق المظلم فكيف أشرق وجهك وازداد جسمك قوة .

قال بزرجمهر : لقد أعددت لنفسى داء قوامه ستة تراكيب ، كنت أتناول كل يوم بُلغة منه فبقيت كما ترون . قالوا : أيها الحكيم هل لك أن تعلمنا طريقة إعداد هذا الدواء حتى إذا وقع لأحد منا أو من أصدقائنا حاجة إليه أفدنا منه . قال : أولا آمنت بأن كل ما يقدره الله تعالى فهو كائن . وثانيا أسلمت لقضاء ربى . وثالثا تدثرت بالصبر فليس للمحنة دواء مثله . ورابعا أيقنت أنى سأكون فريسة الضيق والهم إذا لم أصطبر . وخامسا شكرت الله حين قدرت أن جزاء من كان مثلى هو شر من جزائى . وسادساً لم أقنت من رحمة الله فإنه مفرج الكروب والغمرات تنجلين وأبلغوا كسرى بما كان ، فقال فى نفسه كيف

يسوغ قتل حكيم مثله . وأخيرا أمر بقتله والتمثيل به . فدخل بزرجمهر الجنة وسيق كسرى إلى النار . وأنا على يقين من أن كل من يقرأ هـذه القصة لن يلومنى على ذكرها ، إذ هى لا تخلو من فائدة ، وإن التاريخ ليزدان بمثل هـذه القصص . والآن أعود إلى ذكر التاريخ بعون الله تعالى .

* * *

فلما فرغوا من إقالة أبى سهل الزوزنى ، اختلى السلطان مسعود رضى الله عنه بالوزير أحمد حسن ليرى رأيه فيمن يصلح ليسند إليه عمل ديوان العرض . فقال الوزير إن أبا سهل الحمدوى هو خير من يصلح لهذا الأمر . فأجاب السلطان إننا قد عهدنا إليه بالإشراف على المملكة وذاك أهم ، وليس له نظير فيه فلا بد من اختيار غيره . فأجاب الوزير بأن مولانا أدرى بالآخرين ، فمن ٣٣٧ يختار . فقال السلطان : إنى أفضل أبا الفتح الرازى ، وكان قد عمل مدة مع الوزير ، فقال هذا : نعم إنه جميل الطلعة وكفء وكريم ولكن به عيبا واحدا هو أنه كسول ضعيف الرأى ، وهـذا العمل بحاجة إلى خبير أريب . فقال السلطان : إن من التلاميذ من يكونون خاملى الرأى ضعفاء ، فإذا ما أصبحوا أساتذة وولوا المناصب الرفيعة تغير سلوكهم ، فينبغى تنصيبه وتشجيعه على هذا العمل . فقال الوزير : سمعاً وطاعة .

فلما عاد استدعى أبا الفتح الرازى واختلى به وقال له : إن الحديث جرى عنك اليوم ، ووقع اختيار السلطان عليك لتكون رئيساً لديوان العرض ، وإنى أعلم منذ أمد طويل أنك كنت ترغب فى بلوغ هذا المنصب ، دون إذنى ومشورتى . فرأيت هذا عجبا ، ولكن يجب أن تعلم أن مثل هذه الأمور لا تخفى على رجل مثلى ، ومهما يكن من شىء فأنا الذى زينت للسلطان تعيينك ، وكان الأولى بك أن تخبرنى بما كنت تصبو إليه ، والآن هذا خير ، وقد صفحت عما كان منك ،

فكن مقداما وانهض بأعباء منصبك ، ولست أرى حكمة فى إنقاص عدد الجند وعدتهم لتوفير المال ، لأن هذا يخل بشئون الدولة والناس . ولكنك إذا استرجعت تلك الأموال التى استحوذ عليها أبو القاسم كثير وأعوانه وأعدتها إلى بيت المال فستكون قد أديت خدمة جليلة . قال : « إننى منذ عشرين عاما كنت مستوفيا للسلطان . وقد عركنى وعرف صدقى ، وكنت أرى الخيانات تترى ، ولكننى على أمل إحياء مأثرة فى عهد وزارتكم ، سعيت لهذا التوفير وعرضته على مجلسكم العالى ، فإذا رأيتم الصفح عنى فى أمر لم أعرضه على السلطان حتى الآن ، فإن هذا الخطأ لن يتكرر » . قال : عفوت عنك فعد فإن هذا المنصب قد تقرر لك .

وفى اليوم التالى ، السبت ، ذهبوا بأبى الفتح إلى خزانة الألبسة وألبسوه خلعة رئيس ديوان العرض . وتمنطق بالمنطقة ذات السبعمائة مثقال . وتقدم وقبّل الأرض ، ثم عاد الى الديوان حيث أدى له أعيان الدولة ورؤساء الجند أحسن فروض الطاعة . وفى اليوم التالى توجه إلى البلاط وأخذ فى تدبير الأمور . وكان رجلا قديرا كفءً . وظل مستقيما طوال حياة الرئيس أحمد حسن فلما مات ٤٢٨ خلا له الجو وبسط يده بالتوفير على حساب الجند ، ونتج عن هذا خلل كبير ، سنذكر أمره فى موضعه . وفى هذا الوقت وصلت رقاع من عيون السلطان فى بخارا تقول إن على تكين لن يهدأ له بال ، وهو يطلق لسانه ، ويعد الجيوش ، وإنه حانق من أمرين : أحدهما أن السلطان الماضى (محمود) احتفى بقدر خان ، فأدى هذا إلى ضياع هيبة إمارته فى تركستان . والثانى أن السلطان كان قد أمله قبل استقرار الأمر له ، إذا أمده بالجيوش مع أخذ أولاده ، بأن ينعم عليه بالإمارة . فلما استقامت له الأمور بغير حرب أو كرب ، واستقر له الملك ، وأصبح لا منازع له فى الدولة ، فكر فى أن ينتهز الفرصة ويبادر بالعدوان . فوجب قطع دابره ما دام السلطان فى بلخ . ولما وقفت

السلطان على جلية الأمر استدعى إليه الأستاذ الرئيس أحمد حسن وأبا نصر مشكان واختلى بهما وتشاور معهما وتبادلوا شتى الآراء. قال السلطان : إن على تكين خصم لدود، وإنه ليطمع فى المحال ، والأصلح أن تستأصل شأفته من بلاد ما وراء النهر ، فإذا حضر صهرنا بغرا تكين بن قدرخان فسوف يكون خليفتنا ، وسنبعث إليه بأختنا ليتزوجها ، ويكون بذلك صهرنا وخليفتنا فى تلك البلاد ، ونقضى على شر هذا المتربص بالعصيان . وإذا لم يأت بغرا تكين فسنوعز إلى خوارزمشاه ألتونتاش أن يتوجه إلى ما وراء النهر بجيش قوى ؛ لأن خوارزم هادئة فهناك أمير واحد لا منازع له، هو المستحق للعرش وفيها جيش كامل . قال الوزير : إن ما وراء النهر ولاية كبيرة ، وكان السامانيون أمراء خراسان قد اختاروا قاعدة حكمهم فيها ، فإذا انضمت إلينا فذاك فتح مبين ، أما على تكين فهو منافق محتال قد مضى عليه ثلاثون عاما هناك ، وإذا رأى السلطان اختيار خوارزمشاه فمن الخير إيفاد رسول بكتاب إليه ، ثم يتحدث معه شفاها أيضا فى هذا الأمر ، فإذا ما ماطل بسبب ما فى نفسه من قصة منجوق القائد ، فإن عليه أن يزيل ما فى نفسه ، إذ دون التوسل بسطوته لن يمكن استئصال شأفة على تكين ، وإذا نهض بالأمر فينبغى أن نكون على يقين من أن هذا الجرح قد اندمل ، وأن ليس فى نفسه شيء من قصة منجوق القائد . فقال السلطان : هذا رأى سديد ٣٣٩ فمن يكون الرسول . فقال : الخواجة أبو النصر : نرسل أميرك البيهقى صاحب بريد بلخ ، فإذا كنا نريد أن يقوم خوارزمشاه بالأمر فإن علينا أن نرسل عبدوس كتخدا العسكر . فقال السلطان : لا يليق غير هذا . وفى التو استدعى عبدوس ودبج أستاذى كتبا غاية فى البلاغة ، ومعها هدايا فاخرة لخوارزمشاه منها فيلة بين ذكر وأنثى ، وهدايا أخرى للوزير أحمد عبد الصمد ولبقية خاصة خوارزمشاه وأوليائه وحشمه . وسار عبدوس من بلخ إلى حيث خوارزمشاه . أما خوارزمشاه فقد توجه إلى على تكين وقتل .

وفى تلك المدة قام السلطان مسعود بعدة مهام عظيمة سنأتى على ذكرها ليتم بذلك التاريخ الصحيح .

ذهب السلطان يوم الجمعة ثانى ربيع الأول للصيد فى ناحية منجوقيان ، وهناك كان الاستقبال رائعا ، وكان بها كل ما لذ وطاب من أنواع النعمة وألوان الزينة . وأمر السلطان بإقامة خيام الخدم فى مكان بعيد ، ثم أخذ فى الشراب والطرب ، وعاد إلى البستان فى أواخر ربيع الأول . وفى غرّة ربيع الثانى جاء بعض الرسل من قبل عبدوس ينبئون بأن الأمور سائرة حسب المراد . وارتدى التونتاش الخلعة واستعد للزحف . وكان السلطان قد أمر طاهر الكاتب بالذهاب إلى الرى ليكون كتخدا الجند الذين كانوا تحت السپهسالار تاش فراش . ثم عين معه الخازن وصاحب البريد بعد أن أعادوا له الخلعة . وعهد بالخزانة إلى أبى الحسن الكرخى النديم . وبالبريد إلى أبى الحسن الحبشى ، وأسند القيادة إلى كوهر آئين الخازندار . كما اختير يارق تغمش الحاجب لخزانة الملابس المحمودية وعين آخرون من الحجاب والضباط فى قم وكاشان والجبال وتلك النواحى . وفى الثلاثاء السادس من ربيع الثانى إرتدوا الخلع التى كانت قد أعدت لهم ، ثم مثلوا ٢٤٠ فى الحضرة فشملهم السلطان بعطفه . ثم أمروا بالسير يوم الخميس الثامن من هذا الشهر . وفى هذا اليوم نفسه وصل الخبر بنعى أنو شروان بن منوچهر فى جرجان ، وقيل إن موته كان بسبب المؤامرة التى كانت بين خاله أبى كاليجار وبين كبير حجاب منوچهر لقتله بالسم . ولم يكن هـذا الطفل قد بلغ الحلم ليستطيع منازعة باكاليجار الملك . كما أن الرسائل التى جاءت إلى غزنة كانت تشير إلى أنه لم يبق من سلالة مرداويز وآل وشمكير أبناء ذكور يمكن إسناد الملك لهم . ولو أن السلطان استعمل باكاليجار الذى كان يدير البلاد أيام منوچهر لكان ذلك من الحكمة . فاستصوب السلطان هذا الرأى . وكان الموكب العالى يريد المسير إلى بلخ فى المهرجان فوجب إيفاد الرسل ليتم ما يجب

إنجازه هناك. ولما وصل إلى بلخ كان قد بلغها أبو المحاسن رئيس جرجان وطبرستان وأبو محمد البسطامى والشريف أبو البركات المحتشم الديلمى وشيرج ليلى. واستدعوا إلى الحضرة، ثم جلس الأستاذ الرئيس فى الديوان، واستقر الرأى على إرسال مرسوم الإمارة لبا كاليجار على أن يبعث إبنته من جرجان. وحرر أستاذى منشور با كاليجار، وأعدت له خلعة فاخرة، وسلمت للرسل الذين خلعوا عليهم. وكان طاهر الحاجب قد كلف بتحصيل الضرائب المتأخرة بعهدتهم، والتى تستحق الآن، وبإرسالها إلى نيسابور إلى سورى صاحب الديوان، حتى ترسل مع بريد نيسابور إلى حضرة السلطان.

وفى الثامن عشر من هذا الشهر جاء نعى والدة أبى نصر مشكان وكانت سيدة عاقلة. وقد سمعت من أستاذى: قالت لى والدتى يا بنى إن السلطان إذا استوزر أحدا فإنه يعاديه بعد أسبوع رغم حبه إياه إذ يتصوره شريكا له فى الملك. والملك لا يتم بالشريك. وجلس أبو نصر للعزاء، وأدوا له ما عليهم، وقد حضر الأستاذ الرئيس معزيا، وأدار طرفه نحو هذه الحديقة التى كانت تشبه الجنة لكثرة ما فيها من الياسمين المنور والرياض والورود والنرجس والسرو الباسق، فقال لأبى نصر ما كان بودنا أن نأتى لمشاهدة هذه الحديقة الغناء معزين، بل كنا نأمل زيارتها كما كنا نجتمع فى حديقة غزنة أيام السلطان محمود. وأتوا بحصانه ٣٤١ قرب الرواق المعد للمعزين فركب، وقبل أبو نصر ركابه وقال له أطال الله حياة مولانا، إن الفخر الذى أولانيه بتجشمه هذا العناء لا أنساه أبدا، وستنال هذه الحديقة إن شاء ذلك الشرف الذى حازته حديقة غزنة. ومع أن السلطان كان أوفد أبا الحسن العقيلى ليعزيه بلسانه، فإنه عندما مثل فى الحضرة يوم الأربعاء، عزاه بنطقه السامى.

قصة حديقة غزنة ومجيء الأستاذ الرئيس

والآن سأذكر قصة حديقة غزنة ومجيء الأستاذ الرئيس ، لأوضح منزلة أستاذى بأن يحضر وزير عظيم كأحمد حسن للتعزية فى وفاة والدته . سمعت أستاذى يقول إن السلطان الراحل محمود جلس يوما للشراب فى غزنة ، وكانوا قدأحضروا ورودا كثيرة وجاءوا بما كان فى حديقتى اليانعة من الزهور المتنوعة ذات المائة ورقة . وقد أرسلتها ليلا إلى مجلس السلطان وسرت إلى الحضرة على الأثر ، وحضر الأستاذ الرئيس والموالى والحشم ، وكان السلطان فى مجلس الشراب ، واستبق الوزير وإياى عنده واستمتعنا كثيرا . وقال الوزير فى ضحى اليوم التالى أطال الله حياة مولانا ، لقد جرت العادة بشرب الساتكين[1] فى موسم الورد ، لأن الورد ضيف لا يقيم أكثر من أربعين يوما ، ولا سيما مثل هذه الورود التى لا يوجد خير منها نضارة وأريجا . فقال السلطان إن أبا نصر قد أرسلها من بستانه . فقال الخواجة إن هــــذا البستان جدير بالرؤية . فقال السلطان أتبحث عن مضيف . فقال بلى ، فالتفت السلطان إلىّ وقال : ماذا تقول ؟ فقلت أطال الله حيـاة مولانا إن الثعالب لاتجرؤ على اصطياد الأيول خشية الأسود الكاسرة فإن هـذا عزيز عليها . فقال السلطان : « فإن أذن الأسد » فقلت حينئذ تفعل . قال السلطان : لقد أذنت فهلموا . فامتثل السيدان وأحضر الساتكين ، وتمتعوا ما أرادوا وانتهى المجلس . وبعد أسبوع استأذن أستاذى السلطان فأذن له ، وجاء الوزير أحمد إلى البستان ، وقد أعد أحسن إعداد . وعند صلاة العصر أرسل السلطان أبا الحسن العقيلى إلى هناك برسالة شفوية ، وقال إنه يجب إبقاء أبى الحسن وقد أوعزنا بإعداد الصبوح غدا فالبستان أجمل

---

(١) نوع من النبيذ .

فى الصباح . وقد سعد السيدان بهذا العطف . وفى الغداة استمتعوا كثيراً وانفض الجميع قرب صلاة العصر .

* * *

وفى يوم الثلاثاء عشرين من هذا الشهر وصل كتاب عبدوس مع فرسان ٣٤٢ مسرعين يقول فيه : إن خوارزمشاه توجه من خوارزم شطر جيحون ، وأعادنى إلى الحضرة حسب المراد ، وفى اليوم التالى ركب السلطان وذهب إلى الصحراء ، واستعرض القواد والجيوش التى جهزت للالتحاق بجيش التونتاش ، واستمر استعراض الفرسان بعدتهم وجحافل المشاة حتى صلاة العصر . وقيل إنهم كانوا خمســـة عشر ألفاً . وبعد أن انتهى مرور العسكر ، نادى السلطان هذين القائدين بكتكين جوكانى وبيرى قائد الاصطبلات المسعودية والقواد الآخرين ، وخاطبهم بقوله : كونوا عقلاء يقظين وامنعوا الجند من التعدى على الناس سواء فى بلادكم أو فى غيرها من بلاد الأعداء حتى لا يقع ظلم على أحد ، وحين تلتحقون بجيش التونتاش أدوا واجبكم خير أداء ، وائتمروا بأمره ولا تخالفوه فى شىء . فقالوا جميعاً سمعاً وطاعة وترجلوا وقبّلوا الأرض ثم ساروا . وعين أميرك البيهقى صاحب البريد فى مثل منصبه مع هذا الجيش ، فاستقدمه مختلياً به مع الوزير وأبى نصر مشكان وتكلم معه فى كل شىء وقد أدى فروض الطاعة ثم ســار فى طريقه . وفى يوم الإثنين غرة جمادى الأولى من هذا العام ذهبوا بعلى دايه إلى ديوان الألبسة وألبسوه خلعة إمارة الجيش ، فإن الأستاذ الرئيس كان قد ذكر عنه أن ليس أوجه منه فى الرجال والشيوخ ، وذلك إلى ما عنده من السلاح والخدم والحشم . وألبسوه من تلك الخلع التى كانت مخصصة لأمثاله حسب الرسم القديم ، ثم عاد وأدوا حقه خير أداء . وفى اليوم التالى توجه نحو خراسان ومعه أربعة آلاف من فرسان السلطان

على أن يكونوا جميعاً مطيعين لأوامر تاش فرّاش السپهسالار وطاهر الكاتب ، وأن يعسكروا فى طوس ليكونوا مددا للجيش الزاحف كما أوعز إليه أن يقوى عزائم أصحابه ، وأن يتخذ الحيطة لكى لاتكون فتنة فى خراسان ، ثم وصلت معماة من رسائل أميرك يقول فيها : « إن خوارزمشاه عندما شاهد جيش السلطان استولى عليه الذعر لأنه حسبه من تعبئة على تكّين فأعد عدته واسترجع السفن من وسط جيحون لكن كتخداه أحمد عبد الصمد أزال ما فى قلبه من الهلع ، وقوى عزيمته ، ومع هذا كله فإن خوارزمشاه يبدو مذهولا ، وقد ذهبت إليه مرات لأهدىء من روعه . ولعل العاقبة تكون خيرا إذ أن المصير ٣٤٣ يبدو الآن مظلماً » . فقال الوزير : « إن خوارزمشاه لم يتراجع ، وقد ذهب ، وإن هذا الأمر سينتهى ولا يكون منه أى خلل » . وكانوا قد أقاموا على طريق بلخ مراقباً للبريد لمنع تسرب الأخبار إليها . وكل يوم يصل البريد ، ووصل أحد السعاة وقت الضحى ، ومعه رسالة مغلقة مختومة فيها أن على تكّين قد عرف أن خوارزمشاه قد عبر جيحون ، فسلم مدينة بخارا إلى غزاة ماوراء النهر ، وحمل معه الخزانة وما خف حمله إلى دبوسى ليحارب عندها . وأمر مائة وخمسين غلاما كان قد اختارهم بأن يحموا قلعتهم . فلما سمع خوارزمشاه ذلك اختار عشرة من السرهنكية مع خيولهم ليسرعوا إلى بخارا ، واشتغل هو بالتعبئة ، واستولى على الطرق من يمين وشمال ، لكى لا يحدث خلل من الكمين ، ولما بلغ بخارا هربت شحنة على تكّين إلى دبوسى ، وقدّم غزاة ما وراء النهر وأهل بخارا الطاعة ، وأظهروا الخضوع للدولة العلية وقالوا : إنا كنا نأمل منذ زمن بعيد أن نكون من رعايا السلطان الأعظم ملك الإسلام شهاب الدولة أدام الله سلطانه ، فتلطف معهم خوارزمشاه وأمر باقتحام القلعة فاستولوا

عليها، وأسروا سبعين من خيرة الغلمان، فسيّروهم إلى الحضرة العلية، ونهبوا القلعة واستولوا على كثير من الغنائم والدواب. وفى اليوم الثانى قصد خوارزمشاه دبوسى، وجاء الجواسيس يخبرون بأن على تكين قد أعد جيشا عظيما ممن معه ومن التركمان والسلاجقة والحشرية[1] وأن الحرب ستكون فى دبوسى لأنها تتصل بصغانيان، وهى مكان مكين به أنهار جارية وأشجار غناء وأن النصر سيكون حليف الدولة العلية. وقد أمر السلطان بإقامة مصطبة على الجانب الآخر من البستان تطل على القلعة الخضراء، فكانت مصطبة كثيرة الارتفاع واسعة وتشرف على الحديقة من جهة أخرى. وأمامها الحوض الكبير والساحة التى تستوعب الجيش فى صفين متواجهين. وكانوا قد بدءوا بإقامة المصطبة منذ مدة وتمت فى ذلك الوقت، وقد أوعزوا إلى الخواجة عبد الله الحسينى بن على ميكائيل لينظمها على خير ٣٤٤ وجه، لأن السلطان فى الثلاثاء الثامن عشر من جمادى الأولى سوف يجلس على هذه المصطبة الجديدة. وقد أذن السلطان بالاستقبال فى هذا اليوم، ونثر من الأموال مالا يحده العد. ثم قام من الحفل وامتطى جواده إلى الميدان الذى كان يلى المصطبة، ليشاهد لعب الصولجان ورمى المطارد، ونصب خوان عظيم فى هذه المصطبة، وسار السلطان من الميدان إلى الحمام ومنه إلى الخوان، وقد دعى الأعيان والعظماء إليه. وأكلوا ودار الشراب عليهم وقاموا وهم سكارى. ومال السلطان إلى النوم، وكانوا قد أحضروا هنالك الزهور المختلفة، وقد أمروا بألا ينصرف أحد فإن مجلس الشراب سوف يقام، وجاء أستاذى من البستان إلى الديوان. وجاء ساع من قبل البيهقى برسالة مغلقة مختومة ففتحها أستاذى وتغير وجهه. وكان الرسم المعمول به حين تصل رسالة، أن يكتب أبو نصر رقعة ويعطيها لأهل

---

(١) جنود قليل السلاح.

الديوان لتوصيلها إلى الخادم الخاص . أما إذا كانت الرسالة مهمة فإنه كان يعطينيها . ولكنه حمل هذه الرسالة بنفسه وذهب بها إلى آغاجى الأمين الخاص ، ونقل آغاجى الخبر فاستدعاه السلطان فدخل وأمر بعودة المطربين وأرسل فى طلب الأستاذ الرئيس . ثم خرج السلطان من القصر ، واختلى بهم حتى صلاة العصر . ثم عاد الوزير وجلس أستاذى فى الديوان ونادانى وشرعت فى نسخ الرسائل وكانت لأميرك البيهقى . وكانت تقول :

رسالة أميرك البيهقى :

« إنه حين وصل التونتاش إلى دبوسى ظهرت طليعة جيش على تكين ، فأمر التونتاش أن تدق الطبول وأن ينفخ فى الأبواق ، ثم سار فى تعبئة تامة ، وأقام معسكرا قويا تجاه جيش العدو ، ويشرف على نهر عظيم يعززه حصن أمين ، ووصل المدد إلى كل من الطليعتين . ثم عادت الطليعتان بين صلاتى العصر والمغرب ، بعد أن استقر الجيشان فى موضعيهما . فوقف خوارزمشاه على ربوة ودعا كافة القادة والأعيان وخاطبهم بقوله : غدا تقع الحرب بيننا ، على كل حال عودوا إلى أماكنكم وراقبوا الأوضاع الليلة ٣٤٥ بدقة ، فإذا حدث أمر فلا تجزعوا ولا تتفرقوا ، فإنى قد أخذت الحيطة للكيد ولإعداد الطليعة وللحرب ، بحيث إذا ظهر العدو يكون أمام الأمر الواقع . وصحب أميرك البيهقى وتناول معه الطعام ، وأمر باستدعاء كتخداه وخاصته . ولما فرغ من الأكل اختلى مع أحمد وتاش السپهسالار وجماعة من السرهنكية المحموديين وقال : إن على تكين هذا عدو مبين ، لزم الهدوء خشية بطش السلطان الماضى ، وقد غرروا به ؛ ولو ساروا على الطريق السوى لما فسد هذا الرجل ، ولما حدثته نفسه بالعصيان ، وإذ كتب العيون إلى السلطان بأنه رجل غير مستقيم ، فأرسل إلىّ حاجبه عبدوس يأمرنى بهذا فلم يكن لى من الطاعة بد ؛ لأن الوشاة كانوا قد شوهوا صورتى فى نظره ؛

والكلمة الآن للسيف ، وغدا ستكون الحرب الطاحنة . وأنا لست ممن يولون ظهرهم فى المعركة ، فإذا كان الأمر على غير ما أرجو ، فإنى لن أعود إلى خوارزم. وإذا قتلت فذاك خير لأنى أقتل فى طاعة مولاى ، ولكن ينبغى أن تحفظ سابقتى فى الخدمة لأولادى من بعدى . فأجاب الحاضرون : سيكون الخير والنصر إن شاء الله تعالى . ثم أمر بأن تزحف الطلائع من أربع جهات وتمت كل الاحتياطات اللازمة من القائد الأعظم ، وتلقوها بالطاعة ، وعاد القوم إلى مواضعهم وشن العدو الهجوم مرات عليهم ووقعت أحداث انتهت بهزيمة العدو فانقلب بخفى حنين . فلما أشرق الصبح وقف خوارزمشاه على ربوة ومعـــه السالارية والمقدمون والجيش معبأ كما ينبغى ، وقال : « أيها الأحرار عندما يطلع النهار سوف يقابلنا خصم لدود ماكر وله جيش متـــحد ، سيقاتلونكم مستميتين ، وها قد جئنا لسلب أموالهم واجتثاث أرواحهم ، فكونوا ٣٤٦ يقظين فطنين ، وسددوا أنظاركم إلى رايتى التى معى فى قلب الجيش فإذا تراخيتم والعياذ بالله اختلت أموركم . إن نهر جيحون العظيم أمامكم ، والشقة بعيدة بينكم وبين المفر فى خوارزم ، والحق أنى لن أولى ظهرى فرارا ، ولو تركتمونى وحيدا ، فبأى وجه تقابلون السلطان بعد ذلك ، وقد أعذر من أنذر » . قالوا : « لقد أنصفنا خوارزمشاه وسنقاتل حتى نموت » . ثم وقف خوارزمشاه فى القلب . وعين فى الجناح مما يلى القلب أقوى رجال الجيش حتى يستطيع أن يمد الميمنة أو الميسرة بالأمداد عند الحاجة .

وأمر بكتكين الجوكانى وبيرى الآخورسالار ليكونا على الميمنة بجيش عظيم القوة ، وجعل سالاره تاش على الميسرة مع ثلة من الجيش السلطانى وعبأوا ساقتين قويتين للطرفين . وأمر بخمسة من القادة العظماء ، مع المبارزين ، أن يشطروا نصفين كل من يفر من المعركة . وأخذ يوجه إلى الطليعة أكثر الفرسان خبرة . فلما طلع النهار دقوا الكوس ونفخوا الأبواق وعلت الأصوات ،

وسار خوارزمشاه بالحشد فلما سار على شاطىء النهر فرسخا ، بلغوا موضعا من النهر يتيسر فيه عبوره سيرا على الأقدام مع قليل من الحذر ، وحينئذ عاد من الطليعة بعض الفرسان مسرعين يقولون إن على تكين قد عبر النهر واتخذ له موضعا فى صحراء واسعة ، من ناحية النهر والأشجار الكثيرة ، ومن ناحية أخرى امتدت الجيوش إلى مسافات شاسعة ، فإن رحى الحرب لابد دائرة هنا ، ويقال إنه أعد المكامن فى ثلاثة مواضع تتصل بمؤن الجيش وبساقته ، كما أعد الجند ليخرجوا من شاطىء النهر من جهة ، ويناوشوا من الخلف . ومع أن خوارزمشاه كان قد عين كتخداه مع المعدات الحربية فإنه سيّر ألف فارس مع ألف راجل ليقابلوا تلك الجماعة . وأسرع النقباء إلى أحمد الكتخدا وأوقف ساقة الجيش وأرسل الرسائل إلى المقدمين الذين كانوا فى صف بجانب النهر يبلغهم بما عليه الحال . ثم سار بالجند والتقى الجيشان ، وقد اصطحب أميرك ليراقب الحالة وليكون شاهد عيان له . ووقفا معا على ربوة ، وكان على تكين بدوره فوق ربوة تحت شارة حمراء محفوفا بالمظلات . وبدأ الجيشان القتال وجرت حرب قال خوارزمشاه عنها انه لا يذكر لها٢٤٧ مثيلا فى حياته. ففى صلاة الظهر ضربت ميمنة على تكين ميسرة خوارزمشاه ضربة ماحقة فألحقت الهزيمة بخوارزمشاه . فصاح خوارزمشاه فى جنده ، وأرسل لهم الأمداد من القلب ، لكنه لم يستطيع السيطرة على الموقف وولى رجال الميسرة الأدبار ، ولم يبق الا قائده تاش ماهروى مع مائتى فارس ، فألقوا أنفسهم فى النهر وهلكوا جميعا ، فأرسل خوارزمشاه ميمنته على ميسرة على تكين ،فثبتوا وأبدى العدو جرأة شديدة ، بحيث قتل كثير من الجانبين وأنهكت قواهم . وتراجع جند الميمنة ، فى حين كان بكتكين الجوكانى الحاجب وبيرى الآخور سالار ومعهما خمسمائة فارس يواصلون المناوشة ، فتوجه العدو نحوهم بعدد كثيف من الجند وكان الخطر محدقا بهم الى حد أن خشى هلاكهم جميعا ، فزحف خوارزمشاه

مع جند القلب نحو على تكين ولحق به بكتكين ويبرى يتبعهم الفرسان الذين كانوا قد ولوا هاربين، واقتحم على تكين الميدان مع قلب جيشه وميسرته ؛ وأخذ خوارزمشاه الرمح وتقدم الصفوف ، فلما أبصر الجيشان شارته التحما كأنهما جبل من حديد . وقتل كثيرون من الجانبين حتى عز على الفرسان التجوال. وثبت الجيشان لهذه الحرب التى لاهوادة فيها حتى المساء . ثم تراجع كل الى موضعه دون أن تقف المعركة . ولو لم يتخذ خوارزمشاه هذه الخطة لهلك هذا الجيش العظيم . وقد أصيب خوارزمشاه بسهم فى نفس الجزء من قدمه اليسرى التى كان قد أصابه بها حجر من حصن فى الهند . فتأمل هذه الشهامة اذ يتحمل هذا الألم ويخفيه والحرب دائرة رحاها ويأمر غلامه أن ينتزع السهم وأن يضمد الجرح . وحين بلغ المعسكر رأى الجند لايبدو عليهم أى اضطراب فشجع من يئس منهم وأعادهم الى مراكزهم . هذا وكان كتخداه أحمد ومن كان تحت امرته قد اتخذوا الأهبة حتى لا يصيبهم أذى من مكامن الأعداء ، فرحب بهم خوارزمشاه أيما ترحيب . ولم يعرف أحد أنه أصيب . وقد استدعى المقدمين ونزل عن جواده وأخذ يلوم نفرا منهم ، لكنه صفح عن كل من تقدم اليه بعذر منهم ، وأمرهم بالعودة الى مراكزهم على أن يعودوا مجهزين فى الصباح الباكر ، ليتم القضاء على العدو ، لأنه مشرف على الهزيمة ، « ولو لم يأت الليل لتم النصر لنا » . فقالوا سمعا وطاعة . واستبقانى خوارزمشاه ، أحمد وأنا[1] وقال كان هذا الجيش قارب اليوم الهلاك لو لم أثبت وأبذل روحى ، ولكنى أصابنى سهم فى الموضع الذى أصبت فيه بحجر ورغم هذا فإنى سائر للميدان غدا . فقال أحمد : « لا يصح أن يذهب للقتال جريح ، ولعله من الخير أن يبدأ القتال فترة حتى نرى مايصنع العدو ، لأنى قد سيرت الجواسيس وسيعودون إلينا

---

(١) أمير البيهقى .

فى جوف الليل . ثم عين خوارزمشاه الطلائع من بين من أخذوا قسطاً من الراحة ، وعدت إلى مكانى . وجاءنى رسول وقت السحر يدعونى أن أسارع إليه ، فذهبت فقال لى : « لم أنم البارحة أبدا ألماً من هذا الجرح ؛ ومنذ ساعة وصل الجواسيس يقولون : إن على تكين قد تحطم جيشه وهو فى حيرة من أمره ، إذ أن رجاله قد اعتراهم نقص بالغ وإنه يفكر فى أن يبعث الرسل ليتفاوضوا فى الصلح . ولا أرى بدأ مع ما أنا عليه من هذا الحال إلا أن نركب ونسير ، وقد قال أحمد لنرى ماذا يقول الخواجة أميرك » . قلت : ينبغى دعوة الأعيان والجيش ، وأن نبين أننا سنذهب للحرب ليتأهب الجميع ومن ثمّ نبعث رسولا ليخرج عليهم من الطليعة ، ويقول إن العدو سوف لا يتقدم للحرب ، وأنه سيبعث إلينا رسولا ليكون اليوم راحة لخوارزمشاه ، ثم ننظر ما سيكون . قال خوارزمشاه هذا رأى سليم ، ودعى الأعيان والمقدمين ، فرأوا خوارزمشاه ثم عادوا ووقف الفرسان . ودقوا كوس الحرب ، وطلب خوارزمشاه حصانه وامتطاه فى جهد ، فركض به فوقع قضاء وقدرا على الجانب الذى به الجرح وكسرت يده ، وذهبوا به إلى السرادق سرا بمضرب الخيام وأناموه على سريره ، ووقع فى غيبوبة ثم استدعى أحمد وأميرك وقال لقد أصبت بما ترون واشتغل اليوم بنفسى ، فاعملوا ما ترون صواباً لكى لا يشمت بنا الأعداء وحتى لا يشتت شمل هذا الجيش . فبكى أحمد وقال أرجو أن يكون الأمر خيرا مما يظن الأمير وسندبر الأمر . وذهب بأميرك إلى الجند ، وقال لهم اليوم تقع الحرب ٣٤٩ ويقال إن على تكين قد تحطم وأنه سيرسل إلينا رسولا فاجعلوا طلائع الجيش صفوفا متلاصقة حتى تقابل جيش العدو ، فإذا تقدم محارباً نركب ونذكى نار الحرب ، أما إذا أرسل رسولا فسنرى رأينا فيه . فقالوا هذا رأى صائب ، وسيّروا الطلائع ، وكانوا يدقون الكوس ويراقبون الوضع فى حزم . وكان هذا الذئب العجوز الذى شاهد الموقعة بالأمس ، واطلع

على مرض مولاه ، قد أرسل ليلا رسولا لمقابلة كتخدا على تكين والتحدث إليه مبيناً : « أنكم قد بدأتم بالعدوان وهـــذا ما دعا السلطان إلى أن يبعث خوارزمشاه إلى هنا ، وكان من الواجب بعد ما اجتزنا النهر أن يرسل مولاك إلينا رسولا يقدم العذر عما كان من تطاوله وتجاوزه عما أغضب السلطان ، وذلك ليتدخل خوارزمشاه فى الأمر ويكون له شفيعاً ، فتستقيم الأمور ولا تراق هذه الدماء ، ولا أقول هذا عن عجز ، فقد ذقتم مرارة الشطط بالأمس ، ومولانا السلطان فى بلخ الآن ، والجيوش تترى فوجا بعد فوج ، ونحن الكتخدائية ننفذ أوامر الملوك ، وفريضة علينا مراعاة المصلحة ، ولو أن خوارزمشاه لا يعرف شيئا عما قات لك ، ولو عرف لمسنى منه الضر ، ولكنى لا أريد أن يراق مزيد من الدماء ، ولقد أبرأت ذمتى بمـا علىّ من حق الإسلام والجوار . فاعملوا بما فيه صلاحكم » . فاغتنم على تكين وكتخداه هذه الرسالة ، وأرسلوا فى تلك الليلة رجلا علويا من وجهاء سمرقند وحملاه رسالات ، وفى ضحى ذلك اليوم كان الجيش قد أخذ أهبته لمجاء الرسول المذكور . وكان أحمد قد قص على خوارزمشاه كل ما فعله ، ومع أن خوارزمشاه كان مشتغلا بآلامه ، وكان يعتزم التنحى تلك الليلة فإنه قال : « يا أحمد لقد انتهيت ولا يجوز أن يمس أبنائى الضر بأن يقول السلطان بأنى قد تواطأت مع على تكين » . فأجاب أحمد : « لقد تجاوز الأمر هذه الدرجة ، والخير فيما دبرت لإتمام الصلح ، والسير من هنا سالمين شطر آموى ، ومن ثمة إلى الجانب الآخر منه . وعندئذ سأبين هذا الأمر ، إن للسلطان معتمدا مثل أميرك ٣٥٠ قد اتضحت له الأمور كالشمس الساطعة ، ولو لم نقدم على مثل ما كان لحدث خلل كبير ، فعليك يا مولاى خوارزمشاه أن تتحمل الألم صابرا ، ولو لساعة واحدة حتى يحضر الرسول » . فلبس خوارزمشاه حذاءه وقلنسوته وجاء إلى الخيمة الكبيرة ، ووقف الغلمان وكوكبة كبيرة من الجيش والأعيان ، وتقدم الرسول

وقبّل الأرض وأجلسوه بحيث يكون قريبا من خوارزمشاه ، وجرى الحديث عن الصلح : قال الرسول إن على تكين يقول بأن السلطان السابق كان يدعوه ابنه وقد قدّم لهذا السلطان الجيش والولد حين قصد أخاه وتوجه إلى غزنة فهل هذا جزاؤه . وخوارزمشاه هو اليوم كبير الدولة فهو يرجو عفوه عما حدث ليسير بموافقة السلطان إلى آموى ليقيم هناك مع الجيش ، وأن يشفع خوارزمشاه عند مولانا السلطان ليقبل عذره ، فتستقر الأحوال كما كانت فى عهد السلطان السابق وذلك حقناً للدماء . فقال خوارزمشاه : أحسنت القول ، وإنى عامل على إتمام هذا الأمر وقائم بهذا الصلح ، وقد انتهت الحرب وإنا ذاهبون صوب آموى ومقيمون هناك . فدعا له العلوى ثم أعادوه وأجلسوه بالخيمة . ثم استدعى خوارزمشاه بكتكين وبيرى الآخورسالار وغيرهما من المقدّمين وسألهم ماذا تقولون وماذا ترون . فقالوا : « إن مولانا السلطان قد أمرنا بأن نطيع خوارزمشاه ، وأن نعمل بأمره ولقد أصيب جناح من أجنحتنا بهزيمة منكرة ، ولو لم يثبت خوارزمشاه ويضحى بنفسه ، لحدث الخلل الذى لا يمكن تلافيه ، هذا وقد جرح خوارزمشاه وقتل جمع كبير » . فقال لهم : « لا تتحدثوا عن هذا الآن ، وأعدوا أنفسكم للتعبئة فرسانا ورجالة ، وأحزموا أمركم وثبتوا طلائعكم على الجوانب الأربعة ، فإنه لا يجوز الأمان من مكر العدو » . قالوا : « سمعا وطاعة » . وقام خوارزمشاه وقد اشتد ضعفه بحيث أسهل ثلاث مرات . فدعا أحمد وقال له لقد دنت منيّتى فعجل فى إنهاء مهمة الرسول . فبكى أحمد وخرج من السرادق وجلس فى الخيمة الكبرى وخلع على الرسول وأعطاه حلة فاخرة ، وأعاده وفى صحبته رجل جلد فصيح من رجاله ، واتفقوا على أنه حين يصل العلوى إلى على تكين فعليه أن يعيد رسولنا ، وأن يتراجع على تكين منزلا بحيث يتحرك أمام رسولنـــا ، وسوف نخطو نحن منزلا فى هذه الليلة نحو آموى ٣٥١ وساقوا الجيش وأعدوا الطلائع

على الجوانب الأربعة . واشتد إسهال خوارزمشاه وضعفه فطلب كبير خدام الحضرة « شكر » وقال له أدع أحمد . فلما رأى أحمد قال له :

« إنى انتهيت ليس اليوم يوم جزع ولا يجوز البكاء ، فإن الموت نهاية كل حيّ ، فعليكم أيها الرجال أن تكونوا جميعاً ، وأن تعملوا على أن يبقى موتى سرا فى هذه الليلة وغدها ، فإذا ذاع خبر موتى بعد مسيرة منزل فاعملوا ما ترون ، فإن بلغ خبر موتى إلى أسماع على تكين قبل أن تعبروا جيحون والعياذ بالله ، فإنكم وهذا الجيش تلقون مالم تلقوا طول حياتكم ، وعلى أميرك ، بعد أن يبلغ الحضرة مع الجيش أن يخبر السلطان بما كان من أمرى إذ أننى بذلت أعز شىء وهو روحى فى رضاه ، وأملى أن يرعى حقوق خدمتى فى أولادى ، ليس لدى قدرة على الكلام أكثر من هذا وإنى الآن منصرف إلى إسلام الروح وتكرار الشهادة » . فبكى أحمد وشكر وخرجا وبادرا بضبط الأمور وتدبيرها . وحين اقتربت صلاة العصر لم يبق من أمل فى حياة خوارزمشاه ، فجاء أحمد إلى مخيمه الكبير ودعا النقباء ليبلغوا الجند أن الصلح قد تم وأن على تكين قد تراجع منزلا شطر سمرقند ، وعند صلاة العشاء حضر رسوله إلى طليعتنا ، ثم أعاد الطليعة بحجة أن خوارزمشاه سيسير فانتظروا دق الكوس ، ويجب أن تسيروا بحيث تكون الميمنة والطليعة والساقة معبأة لأننا ، ولو كنا فى صلح ، إلا أننا لم نزل فى أرض العدو ولا يجوز الأمان من العدو . وكان المقدمون يتمنون ذلك . وهذه هى عاقبة كل الإنسان ، كما يقول الشاعر :

وإن امرءً قد سار سبعين حجة   إلى منهل من ورده لقريب

والعاقل من اتخذ القناعة شعاره ، فالمرء يولد عاريا ويذهب عاريا . وقد جاء فى الحديث « من أصبح آمنا فى سربه ، معافى بدنه ، وعنده قوت يومه فكأنما حاز الدنيا بحذافيرها » . فليرزقنا الله تعالى التوفيق إلى الخير والسعادة

فى الدنيا والآخرة . وكان من العسير تجهيز التابوت وغيره من غير أن يفشو خبر موت خوارزمشاه . وأعدوا مهد فيل وفى جوف الليل وسدوه فيه ، وأقاموا خادما لحراسته . وقالوا له إنه جريح لا يقوى على الوقوف ، وإنه ٣٥٢ فى المهد ممدد للراحة والاستجمام . وقد سرى خبر موته بين الغلمان . وأمر شُكر الخادم بأن تدق الكوس ، فسار الجيش بأسلحته وتعبئته ، ومشاعله تضىء ، حتى إذا دنت ساعة صلاة الصبح كانوا قد قطعوا سبعة فراسخ . فنصبوا الخيام والخركاهات و السرادق الكبير ، وأنزلوا خوارزمشاه من على الفيل وتسامع الناس بخبر موته . ثم إن أحمد وشكر الخادم دعيا بعض نفر من الخواص والطبيب وحاكم الجيش وكلفاهم بالقيام على غسله وإعداد التابوت . وأرسل أحمد النقباء ودعا أعيان الجيش ، برسالة من خوارزمشاه ، ليحضر كل منهم فوجا من جنده معه ، ففعلوا وجاءوا واصطف الجند وأدخلهم أحمد ثم اختلى معهم وأعاد عليهم ماعمل قبل موت خوارزمشاه من الكتابة والرسول والصلح حتى جاء هذا المكان . وقد علاهم الغم لموت خوارزمشاه وشكروا أحمد الذى قال إن علينا أن نسرع إلى آموى . ثم قال إن على تكين قد غُلب على أمره وتضعضعت قواه وهو بعيد اليوم عنا بعشرين فرسخا ، وسوف نبلغ آموى قبل أن يصله خبر موت خوارزمشاه ، وإن الغلمان الشجعان قد أحسوا بموت خوارزمشاه وإنى أشق عليكم حتى تسيطروا عليهم ، وسوف نركب حين صلاة العصر ونسير الليل كله بحيث نصل إلى النهر فى وضح النهار ونجتهد فى عبوره مسرعين . فأجابوا أن حسنا فعل وأنهم جميعاً خاضعون لأمره وممتثلون لكل مايريد . فنادى أحمد شكرا الخادم وقال ناد قواد خوارزمشاه . فلما حضروا أجلسهم ولكنهم استحوا فلم يجلسوا أمام أحمد فبذل الجهد لإقناعهم حتى جلسوا . ثم وجه إليهم الحديث قائلا : إنكم تعرفون مدى اجتهاد خوارزمشاه كى يوصلكم إلى هذه الدرجة ، وقد توفى بالأمس وكل من عليها

فأن ، والله يطيل عمر السلطان ، وإن له أولادا صالحين ، وقد أدى للدولة ٣٥٣
خدمات كثيرة ، وإن معتمدى السلطان . ألقادة وأميرك ، حين يبلغون البلاط
ويرفعون الأمر للسلطان فإنه سيعين أحد أبناء خوارزمشاه مكانه ويرسله إلى
خوارزم وعلى هذا قد عقدت الصلح مع على تكين ، وإنه بعيد منا ، وسوف
نرحل حين صلاة العصر إلى أن نصل مسرعين إلى آموى . أما هؤلاء السادة ،
خدام السلطان ، فسيتجهون إلى بلخ . وأما نحن فإلى خوارزم . فإذا عاهدتمونى
وأقنعتم غلمان القصر بالتزام الهدوء ، وبأنا سنوزع الصلات عند بلوغ آموى
من خزائن خوارزمشاه ، إذا فعلتم ذلك ، فلن تسوء سمعتكم وسيبقى ذكركم عاطرا ،
فإنكم والعياذ بالله ، لو ثارت بينكم الفتنة ، والجلى أنكم كثيرون ، فإن الفرسان
الستة آلاف والحاشية سيلقون منكم الدمار فى ساعة واحدة ، وإذا انضم بعضكم
إلى على تكين فستذهب هيبتكم من نفسه ولا يقر لكم قرار . ولقد كشفت
لكم عن هذا السر حتى لا يحدثن أحد منكم نفسه بسوء ، وإن هؤلاء السادة
الجالسين متفقون معى . ثم اتجه إلى القوم وقال وأنتم ماذا تقولون . فقالوا
نحن عبيد مطيعون فأخذ عليهم أحمد القسم . ثم انصرفوا فقالوا للغلمان فثار
هؤلاء وارتفع صياحهم وجروا إلى خيولهم وسلاحهم ، فركب هؤلاء
المقدمون ، وأمر أحمد بأن يركب الجيش كله . فلما رأى الغلمان ذلك تحدثوا
لحظة مع المقدمين . وجاء المقدمون إلى أحمد فأخبروه أنهم اتخذوا قرارا ، وأنهم
يريدون عهدا وميثاقا من الخواجة العميد بأن لا يؤذيهم ، وأن يعاملهم كما كانوا
يعاملون أيام خوارزمشاه . فقال أحمد هذا حسن ، وسيكونون أحسن حالا
مما كانوا أيام خوارزمشاه . وانصرفوا ثم عادوا ، وأقسم أحمد ولكنه قال
إنهم يأخذون منكم الخيول الليلة وتركبون الجمال وسترد إليكم الخيول غدا ،
وتتم رحلة هذه المرحلة على هذا النحو ، ففكروا فى هذا الأمر قليلا ثم رضوا
أخيراً قائلين إننا خاضعون لما يأمر به الخواجة ، ولكن ليركب من كل وثاق

من عشرة غلمان فارس ويذهب مع القواد حتى تطمئن قلوبنا . فقال هذا صواب ، وعلى هذا النحو رجعوا ثم أكلوا واستقام أمرهم . وساروا طول الليل حتى إذا لاح الصبح نزلوا فأعطوا الخيول للغلمان . وعلى هذا النحو مشوا حتى عبروا جيحون وهناك بقى أميرك البيهقى . قال أحمد والآن وقد رجع هذا الجيش ٣٥٤ الكبير سالما فإنى أريد السير إلى الدركاه ببلخ . وإذا بلغ هذا الخبر خوارزم فإنه يقضى على اضطراب كثير . وستقولون للسلطان ماجرى وسيأمر بإجراء اللازم نحو هذه الأسرة القديمة ، فأثنوا جميعاً على الخواجة أحمد وشكروه وأمر الخواجة بأن يعيدوا الخيل للغلمان .

وكنت قد كتبت هذه الملطفة مختصرة ، ففصلتها حتى يقف عليها السلطان إن شاء الله » .

انتهت رسالة أميرك البيهقى .

* * *

وهذه الأقاصيص ولو أنها بعيدة عن التاريخ ، فإن هذا قد جرى على ذكر أن فلانا السلطان قد بعث القائد فلانا للحرب ، وأن يوم كذا جرت المعركة أو تم الصلح وأن هذا غلب ذاك أو العكس وهكذا ، ولكنى أكتب ما أراه واجب التدوين . واختلى الوزير الكبير وأستاذى ، وقد نودى أبو الحسن عبد الله وعبد الجليل وكذلك كنت حاضرا وكتبت الكتب لأميرك البيهقى الذى يجب أن يحضر قبل الجيش . وقد كلف بكتكين ويرى بالذهاب إلى كالِف وزَم[1] ، وكف جيشنا عن الرعية ، وأمر محمد الأعرابى بأن يجيء حتى آموى

(١) كالف ، على وزن فاعل ، كانت قلعة على شاطىء جيحون . زم مدينة صغيرة فى تلك الجهة . انظر غنى — فياض حاشية ٢ .

ويقف عنده بجيش من الكرد والعرب ، ووجه كتابا إلى أمير صغانيان فيه شرح لهذه الأمور حتى يتصرف بحكمة ، فإن على تكين سوف يرسل له رسولا وستقبل شروطه حتى لا تتجدد الفتنة ، وبعث بكتاب إلى الخواجة أحمد عبد الصمد ، خاطبوه فيه بلقب « شيخى ومعتمدى » مع مجاملة خاصة ، وقال « إنا مقدرون ما بذله خوارزمشاه هذا الشيخ المخلص فى خدمتنا حتى أنه ضحى بنفسه فى سبيلنا ، وإنا حافظون له حقوقه فى أبنائه المقيمين عندنا ، وهم أهل لخدمتنا ، وسنرسل رجلا لتدبير الأمر على أثر هذا حتى يقوم بما يجب » . وجاء كتاب إلى الخدم فى خوارزم ، فيه ثناء على ما بذل خوارزمشاه من الجهد . وكان هذا الخطاب بخط السلطان وتوقيعه . ثم إنه جلس يوماً فى القصر ، واستبق ٣٥٥ هارون بن خوارزمشاه ساعة فى حضرته ، وهو رافعىّ من ناحية أمه . ثم أعلن فى الناس أنه تقرر تنصيبه مكان أبيه فى خوارزم . وكانت إمارة خراسان لرافع بن سيّار قبل يعقوب بن الليث ، وكانت عاصمته بوشنك ، فتزوج خوارزمشاه أم هارون فى ذلك الوقت حين كان فى هراة أيام يمين الدولة وقبل أن يلى خوارزم . وعادوا بين صلاتى الظهر والعصر . وقد كتب منشور ولاية هارون إمارة خوارزم الأمير سعيد بن مسعود وسمى هرون فى هذا المنشور خوارزمشاه ، ولقب « بخليفة الدار » خوارزمشاه . ووقع السلطان المنشور وجاءت الكتب إلى أحمد عبد الصمد والحاشية كى يلى أحمد منصب الكتخذا . وخوطب هرون « بولدى ومعتمدى » . وألبس هرون الخلعة يوم الخميس الثامن من جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة (١٠٣٢) وكانت خلعته نصف خلعة أبيه ، ثم إنه ذهب بعد ذلك إلى بيته بعد ما لقى من التكريم . وكان ستى ، أخو هرون ، أكثر قوة ويقظة منه ، وكان ينتظر أن يوليه السلطان ، فحزن ويئس لتخطيه ، ولكن السلطان طيّب خاطره وقال له إنك جدير بما هو أكبر من ولاية خوارزم . فقبّل الأرض وقال إن صلاح

الرعية فيما يراه السلطان ؛ وإن خدمة السلطان يوما واحدا أعز عندى من نعيم ولاية الدنيا . وفى يوم الجمعة جاء هرون إلى القبة ، وكان أبو نصر قد حرر نص القسم ثم عرضه لحلف هرون أمام شهود من الأعيان والعظماء . ثم مثل أمام السلطان واستأذن فى السفر فقال له السلطان : كن يقظا واجعلنى نصب عينيك ، لتزداد منزلتك عندى ، وإن أحمد منك كأبيك فأطع أوامره ، وارع خدام أبيك واعرف لهم ماضيهم ولا تنس اصطناع عظمائنا . ولكنه نسى هذا الحق فحدثت بعد ذلك بضع سنين الفتنة فى خراسان ، بسبب التركمان ، وانفتح طريق الشر لهذا الشاب الغر الذى ركب رأسه ٣٥٦ وسأذكر هذا فى مكانه ، وكذلك سأذكر ما جرى من مختلف الأحداث إلى أن استدعى الخواجة أحمد عبدالصمد ، وأسندت إليه الوزارة ، وبعث ابنه مكانه ليعمل عند هرون . وهكذا أسند العمل للشابين فتنازعا ، واضطربت أمور هذه الولاية بحيث خرجت من أملاك دولة السلطان مسعود ، وسوف أعود لبيان ذلك مرة أخرى وأذكر حوادث عجيبة فيه إن شاء الله . وجاء أميرك البيهقى وشرح الأحوال ، وكانوا قد أوغروا صدر السلطان عليه ، فإن الأستاذ الرئيس كان يمقته بسبب غلامه أبى عبد الله الفارسى ، ذلك أن أميرك كان قد ذهب إلى بلخ للقبض على أبى عبد الله وصاحب البريد أيام محنة الرئيس . وكان الرئيس يتحين الفرص كل يوم ، ففى رحلته إلى بخارى كتب فى حقه تقارير استخدم فيها الحيل حتى فصل من منصب صاحب بريد بلخ ، فأسند إلى أبى القاسم حاتمك . ولكن السلطان طمأن أميرك وقال له : « سنعهد إليك بمنصب أكبر من هذا ، ذلك أنه لم يصدر منك خيانة نحونا » ولم يكن هناك من هو أكرم من السلطان وأشد حياء منه . وسأذكر أحواله بعد هذا الفصل . وإذ سارت الأمور على هذا النحو ، وكان الجو حارا فى بلخ ، رحل السلطان عنها لثمانية أيام بقيت من جمادى الأول سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة ، عن طريق دره كز لاهيا شاربا صائدا . وفى

الحادى عشر من جمادى الآخر استقر به المقام فى الجوسق المحمودى ، وهو سراى إمارة غزنة . ونزل فى منتصف هـذا الشهر فى الحديقـة المحمودية ، وأرسلت الخيول إلى المرعى وسيقت الإبل السلطانية حسب الرسم إلى صحراء رباط كرنان[1] . والله أعلم بالصواب .

ذكر أخبار الرسل الذين أوفدوا من غزنة

إلى دار الخلافة وأحوالهم ثم عودتهم

بعد أن أعيد رسول القائم بالله أمير المؤمنين المدعو السليمانى من بلخ ٣٥٧ وكان السلطان قد أبدى إليه اهتمامه بقضية الحج وقطع الطريق إليه ، فطلب إليه بذل الجهد لإعادة فتحه ، وجاء الرد من دار الخلافة بأن الخليفة قد عهد إلى آل بويه فى تعمير طريق الحج ، وأنهم أصلحوا الأحواض فيه فلم يبق ثمة عائق ، وليعين أمير للحج من قبل الحضرة المسعودية فتسير قوافل الحاج آمنة من خراسان وما وراء النهر . وسرعان ما أصدرت الأوامر إلى خراسان للتأهب على عجل ، وكان الناس مشوقين إلى زيارة بيت الله الحرام . وقد اختار السلطان الخواجة على ميكائيل لإمارة الحج ، فعنى بترتيب الحج ترتيباً يفوق حد التصور . ذلك أنه كان على جانب عظيم من الاستعداد والغنى والمروءة . فاختار حسن البرمكى الفقيه رسولا ، وقد سبق له العمل فى مثل هذه المهمة مرتين أو ثلاثا ، وسافر إلى بغداد . وكتب أستاذى الرسائل إلى الخليفة ووزيره ، وكذلك إلى تاش فرّاش قائد العراق ، وإلى طاهر الكاتب وإلى غيرهم . ويوم الأحد ، لثمان بقيت من هذا الشهر ، ارتدى على ميكائيل خلعة فاخرة كان من ضمنها المهد وعدة

---

(١) فى نسخة ط كرمان (نفيسى ص ٤٢٩ حاشية ١٠) ، ورجح غنى ـ فياض أن تكون كروان عند حدود غزنة (حاشية ٢) .

من ذهب وغاشية وخوطب بلقب « الخواجة » وكان هـــذا اللقب من أسمى الألقاب في ذلك الوقت وإن يكن اليوم قل شأنه وتنوسى العمل به وسأذكر قصة عن الغاشية جرت في نيسابور .

حكاية

كان للسامانيين وزير يلقب بالخواجة أبي المظفرى البرغشى وكان قد أحس بإدبار دولتهم فأخذ يدبر حيلة يهرب بها ، فمنح طبيباً سامانياً خمسة آلاف دينار وتعاهد معه على أن يعاونه على الهرب . وفي يوم كان الجليد يكسو البلد ، ركب حصانه وسار على الثلج ثم ألقى بنفسه على الأرض ، وأخذ يئن ، وتظاهر بالإغماء ، فحملوه إلى داره ووزعوا الصدقات التي لا تحصى ، وجاء الأمير الساماني يعوده فحياه الوزير بالإشارة ٣٥٨ ، وأحضر الطبيب العيدان والرباط والضماد وقال إن هـذه الرجل قد كسرت . وكان السلطان يسأل الطبيب عنه كل يوم . فكان يقول إنه قد أصيب بصدمة قوية وكل يوم يقول شيئاً مختلفاً عن هذا الحادث حتى يئس الأمير وتعطلت الأعمال ، إلى أن اختار الأمير خلفاً له شابا من ثقاته ، وكان غرور الوزارة قد استولى على هذا الشاب . وكان الأمير يأمل في شفاء وزيره ولـكن الطبيب كان يزيد من يأسه في شفاء الوزير يوماً بعد يوم ؛ حتى قطع الأمير الأمل من شفائه ، وفي أثناء ذلك كله كان الوزير ينتهز كل فرصة ليبعث إلى جوزجان بكل ما خف وغلا من أمواله ، واشترى بها ضيعة عظيمة ، ثم أعد قائمة بكل ما يملك من صامت وناطق ودواب وعبيد ، وأحضر الفقهاء والأعيان وأقسم بأنه لا يملك شيئاً سوى الضيعة التي له في جوزجان وما تحتويه هذه القائمة وأنه لم يودع أمانة عند أحد ، ثم بعث إلى الأمير بالقـائمة والتمس منه الإذن في أن يذهب إلى ضيعته ، ذلك لأن الهواء في المدينة لا يلائمه وليقضي الوقت هناك في الدعاء للأمير . وصح ذلك عنـد

الأمير فأذن له وأعفاه من الخدمة ومنحه الضياع الأميرية فى جوزجان وأصدر لأمير جوزجان أمراً حتى يقـــوم بإعزازه ، ثم أمر بمنحه وأتباعه الإبل والدواب[1] ، فسار واستقر به المقام هناك حتى دالت دولة السامانيين . فباع ضياع جوزجان وسار إلى نيسابور فى صحة تامة وقلب سعيد بل وفى رجل سليمة ليقيم بهـا .

وقد رأيت (أنا أبو الفضل) أبا المظفر هـذا فى نيسابور سنة أربعمائة (١٠٠٩) وكان شيخاً طويل القامة مشرب الوجه بالحمرة ، أبيض الشعر كالكافور ، وكان على جانب عظيم من المهابة ، يرتدى دراعة بيضاء من القماش المرغزى الملحم ؛ وكان يركب جواداً فارعا ، مزين الوجه باللجام ٣٥٩ وعليه رباط للذيل وسرج من الحديد المطعم بالفضة البديعة وقد شد برباط إلى صدره وذيله وقربوسه من الأديم الأبيض ، وكان ركابداره يحتضنه أثناء سيره ، وكان لا يذهب للسلام على أحد ولا يستقبل أحدا ولا يختلط بأحد ، وكان يجالسه ندماء ممن كانوا فى سنه ، وكان له بستان فى محمد آباد مما يلى المدينة ، يمضى جل أوقاته به ; لـكنه كان يحضر للعزاء فى كبراء القوم . وقد رأيته معزياً فى مأتم إسمعيل الديوانى ، وكنت فى الخامسة عشرة من عمرى إذ ذاك ، وكان ممن حضر فى هذا المـأتم الخواجة الإمام أبو سهل الصعلوكى والقاضى الإمام أبو الهيثم والقاضى صاعد وصاحب ديوان نيسابور ورئيس بوشنك والشحنة بكتكين حاجب أمير الجيوش ، وقد أجلسوه فى الصدر وأبدوا له مزيد الإجلال ، ولمـا هم بالانصراف طلبوا إليه حصان الأستاذ الرئيس . وقد مات عزيزاً مكرماً . وكان السلطان محمود يدعوه « بالخواجة » ويخاطبه بهذا اللقب . وقد طلب إليه عدة مرات أن يقبل الوزارة ولـكنه كان يأبى ذلك .

(١) أنظر نفيسى ص ٢٤١ حيث أخذنا عن نسخته فى هذه الجملة .

وكان فى نيسابور رجل يقال له أبو القاسم الرازى ، كان يربى الجوارى ويذهب بهن إلى الأمير نصر ويعود من خدمته بالصلات . وكان قدأتى ببعض الجوارى يوماً فأعطاه الأمير نصر عمامة وأوصى به . فهنأه أهل نيسابور ، وجاء بخطاب قرىء فى ديوان المظالم وسمعت من أبى أن القاضى أبا الهيثم قال له سراً — وكان رجلا كثير المزاح — أنعم يا أبا القاسم فإن صناعة القوّاد خير من القضاء . واتفق أن كان أبو المظفر البرغشى عائداً من بستانه فى محمد آباد فرأى أبا القاسم الرازى راكباً حصاناً ثميناً عليه سرج غال مطعم بالذهب وعليه غاشية فضفاضة مزدانة بالتصاوير ، فلما قابل أبو القاسم أبا المظفر البرغشى ترجل وقبّل الأرض ، فقال له البرغشى بورك لك فى خلعة القوادة . فقبّل الأرض ثانية . وساق أبو المظفر فلما ابتعد قليلا قال لركابداره إرم الغاشية تحت هذا ٣٦٠ الجدار فألقاها ، ولم يجرؤ على سؤاله عن السبب ، وبعد أسبوع أراد أبو المظفر أن يركب ، فسأل الركابدار أحد ندمائه عما يأمر به فى أمر الغاشية فجاء النديم وسأله فقال : ضعوا الشال الدامغانى فى القباء لتغطوا به السرج حين أترجل . فكانوا يفعلون ذلك حتى مات . وقد تناول أصدقاؤه القدامى الغاشية فى مجالسه فقال أبو المظفر: بعد أن صار أبو القاسم الرازى من أصحاب الغاشية أصبح من المحال علينا أن نحملها . وفشا هذا الحديث فى نيسابور وبلغ الخبر السلطان محمود فغضب ولام أخاه ، وصدر الأمر المشدد من البلاط للأميرين محمد ومسعود بشأن الغاشية والقربوس . واليوم كل من معه خمسون درهما ويستطيع أن يشترى الغاشية فإنه يشتريها ويحملها الخدم أمامه .

قل أن يلتفت الملوك لمثل هذه الأمور وعلى المنهين والجواسيس مراعاة ذلك وعليهم ألا يخفوا مثل هذه الأخبار ، ولكن كل مايكتب على القرطاس خير من القرطاس نفسه ولو ذهب سدى ، ولنعد إلى التاريخ .

بعد أن خلع السلطان مسعود على الخواجة على ميكائيل ذهب إلى بستان صد هزاره ثم أصحر منه ، ومر به على ميكائيل فى أبهة بالغة ، فترجل وقدم فروض الولاء ، وعيّن معه أستاذى منهيا متنكرا فكان يكتب الأخبار ويرسلها مع السعاة تباعا ويعطيهم أجورهم حتى لايتعطل العمل ، وكانت معه جريدة وكان يسجل فيها المهمات ، وكان السلطان مسعود آية فى هذا الباب ويؤثر عنه نكات كثيرة . وسار الخواجة على ميكائيل والحجاب إلى بلخ حتى يذهبوا إلى حاضرة الخلافة بغداد . وأقام السلطان أسبوعا فى بستان صـــد هزاره ، وقد أمر بزخرفة وإعداد القصر المحمودى الزاولى القديم ، حتى يختن فيه بعض الأمراء . فزينوا القصر بطرائف الأقمشة المذهبة وبالجواهر الكثيرة وزينت الحجرات بالنقوش المذهبة ، ووضع فيها العنبر والكافور والمسك ، وكانت الزخارف من الأبهة والجمال بحيث لم تكن تخطر على بال أحد . وأقيمت مأدبة فى غرّة رجب حضرها الموالى والحاشية جميعاً ، وركب السلطان يوم الخميس وذهب إلى القصر الأبيض ومعه سبعة من أبنائه مع المقدّمين والحجاب والأقارب ولبث هنالك أسبوعا حتى تم الختان ثم عاد ونزل فى دار الإمارة . وفى الخامس عشر من هـذا الشهر جاء السعاة من تركستان ، من قبل كل ٣٦١ من الخواجة أبى القاسم الحصيرى وأبى طاهر التبانى يقولون لقد أقمنا مدة طويلة فى كاشغر وقد منعونا من مغادرتها . فأمر السلطان باستضافة السعاة ، وأن تمنح لهم الصلات حتى يستريحوا ، وكان فى نيته السفر إلى هراة ، وقد نصبوا السرادق على الطريق إليها . وفى غرّة ذى الحجة أخذ فى صيد الأسود فى رباط شيرو بر[1] وقتل عدة أسود بيده وتناول الشراب . وفى منتصف الشهر جاء إلى

---

(١) لعلها كلة « شيرتر » التى سبق ذكرها فى ص ١٣١ . انظر غني — فياض حاشية ١ .

هراة فى أبهة تامة وموكب نخم رائع وكان يحب هذه المدينة كثيرا لأنه كان قد أمضى بها وقتاً طيباً .

* * *

تاريخ سنة ٤٢٤ (١٠٣٢-١٠٣٣)

وأقبلت سنة أربع وعشرين وأربعمائة ، وكان أول العام يوم الخميس ، وفى الطريق جاءت رسالة صاحب بريد الرى تقول : « إن تاش فراش قد استطاع أن يسيطر على الموقف هنا فى حزم تام ، وإن ابن كاكو وكل من بالأطراف قد أذعنوا بالطاعة ، وإن طاهر الكاتب يقوم بالكتخدائية على خير وجه ، وليس يخشى من أى خلل ، وإن ابن كَوهر آكَين ، شهره نوش ، قد أخذته العزة بالإثم ، واستحوذ على قزوين التى كانت من أملاك أبيه ، فأوفد تاش فرّاش ، يارق تغمش خازن الألبسة جامه دار ، مع جماعة من القادة الماهرين وكَوهر آكَين الخازن وخمار تاش وجماعة من فرسان التراكمة . فكفوه شر هذا المخذول . وقد صمم تاش على أن يجول فى تلك الأنحاء لإقرار هيبة الدولة ، وقد شاعت أراجيف فى العراق » .

وقد أجيب عن هذه الرسالة بالثناء وقيل له : « إنا قصدنا إلى هراة من بست ، وبعد أن نبلغها سنعين معتمدا يحمل الخلع لتاش وطاهر الكاتب والجماعة التى حاربت ابن كَوهر اكَين ، شهره نوش ، وسنرسل الأوامر للسير إلى الرى والجبال وهمدان » .

ولما بلغ السلطان هراة بعث هذه الخلع مع مسعود بن محمد بن الليث الذى كان شهما عاقلا ذا دهاء . والذى كان قد التحق بخدمة السلطان فى هراة ، وصار من فحول الرجال ومات فى شبابه . وقالوا له إن راية السلطان العالية ستقصد

نيسابور على الأثر بحيث يمضى السلطان هـــذا الشتاء ثم الربيع هناك ، وسار مسعود بالخاع . وفى العاشر ٢٦٢ من محرم أصيب الخواجة أحمد حسن بمرض عضال كانت فيه منيته ، وكان لا يقدر على الحضور إلى ديوان الوزارة ، وكان يتعقب بعض الناس ، وكانوا يلوكونه بألسنة حداد .

وكان قد أمر بفصل أبى القاسم كثير صاحب ديوان خراسان ، وأخذ يحاسبه حسابا عسيرا ونوى له شرا ، فأمر بإعداد العقابين والسوط والجلاد ، وأراد أن يُضرب . فتوسل أبو القاسم بأستاذى مستغيثا . فكتب أستاذى إلى السلطان رقعة أيدها برسالة على لسان عبدوس : « بأنى لا أقول ألا يسأل أحد عن حسابات الديوان ، ثم إن عليه أن يرد ما فى ذمته من الأموال رغم أنفه ، ولكن الخدم الذين رفع السلطان الوالد درجاتهم لا يجوز إهلاكهم عمدا ، وإن هذا الوزير مريض مرضا شديدا ، وقد يئس من الحياة ، ويريد أن ينتقم من خصومه قبل موته ، وإن لأبى القاسم كثير سابقة الخدمة وقد أصبح من الوجوه فلو يرى مولاى السلطان فليتدارك أمره » . فلما وقف السلطان على هذا أمر قائلا : « اذهب أنت يا أبا نصر إلى الأستاذ الرئيس بحجة عيادته ثم يأتى عبدوس على أثرك ويبلغه سؤالى عنه ويعمل ماينبغى فى هذا الشأن . فلما دخل أبو نصر دار الوزير وجد أبا القاسم كثير وقد أجلس على الصفة وهم يحاسبونه على الأموال ، وقد جيء بالمستخرج والعقابين والسوط وآلات التعذيب والجلاد ، وكانوا يبلغونه رسائل خشنة من الوزير . فقال أبو نصر للمستخرج وللآخرين كفوا عنه ساعة بقدر ما أرى الوزير . ثم دخل عنده فرآه فى صدر غرفة خالية مسندا ظهره وقد استغرق فى التفكير ، وكان يئن من المرض . فقال أبو نصر كيف حال سيدنا . فقال : أنا اليوم أحسن حالا ، ولكن صدرى يضيق كل ساعة بابن كثير ، إنه سرق المال وانتوى نهبه ولا يدرى أنى سوف آخذه رغم أنفه قبل أن أموت ، وإنى آمر حتى يشدوه إلى العقابين وأن يضربوه

حتى يرد ما أخذ . فقال أبو نصر لماذا يضيق صدر سيدنا ، إن أبا القاسم لا يجرؤ بأى حال على أخـــذ مال بيت المال ، ولو تأمر فإنى أقابله وأوقظه من غفلته[1] . فرد بأن هذا لا يجدى ٣٦٣ معه ، ولسوف يرى جزاءه . وبينما هما فى هذا الحديث إذ دخل عبدوس فحيّا وقال إن مولانا السلطان يسأل كيف حال الوزير اليوم . فقبّل الوسادة وقال : الآن ، ببركة السلطان أنا أحسن حالا ، ولعلى أقوى فى يومين أو ثلاثة على المثول بين يديه . قال عبدوس إن السلطان يقول : « إنا نسمع أن الأستاذ الرئيس قد أثقل كاهله بأعباء جسيمة ، وأنه يضيق صدره ، وأنه فى ضجر من أعمال أبى القاسم كثير من ناحية المال ، ولا يجرؤ أحد على أخذ مال بيت المال . فلا يحمل الوزير نفسه مشقة التفكير فى هذا ، وليكتب بيانا بما يجب على أبى القاسم أداؤه مما أخذ من الأموال وليعطيه إلى عبدوس حتى يأتوا بأبى القاسم إلى الدركاه ويسترد منه المال فوراه . فأمر المستوفين أن يكتبوا مذكرة وأعطيت لعبدوس وقال : ينبغى إرسال أبى القاسم معه إلى الدركاه . فقال أبو نصر وعبدوس لو يأذن سيدنا فإنه يأتى مستأذنا منه. فقال لا ولا كرامة . فقالا إنه شيخ وله حق الخدمة وتكلما كثيرا على هذا النحو حتى أذن لمجىء بأبى القاسم فحيّاه تحية طيبة ، فأجلسه وقال له لماذا لا تسلم مال السلطان . فقال أطال الله حياة مولاى ، إنى مستعد لتقديم كل ما يقتضيه الحق مما يرضى به مولاى . فقال رد ما سرقت وانزع فكرة الوزارة من رأسك فلا يكون لأحد شأن عندك . فقال سمعا وطاعة إنى أسلم كل ما يقتضيه الحق ولا تدور بخلدى فكرة الوزارة ولم تدر من قبل ، ولو جالت بخاطرى لما كان الأستاذ الرئيس فى هذا المقام مع كل ما دبر ضده . فقال : أأنت الذى دبرت أم سواك ؟. فأدخل أبو القاسم يده فى رقبة حذائه ، واستخرج كتابا ،

---

(١) استعمل هنا مثلا فارسيا معناه الحرفى انزع القطنة من أذنه : پنبه از گوش وى بيرون كنم .

وأعطاه للخادم ليحمله إلى الوزير ، فأخذه هذا فقرأه ثم أخذ يحركه محركا بيده ولما فرغ منه طواه وأخفى عنوانه ووضعه أمامه ، ثم فكر مليا وبدت عليه إمارات الخجل . ثم قال لعبدوس عد حتى آمر الليلة بأن يثبتوا ما تبقى عليه ، ويأتوا به معه غداً إلى الدركاه حتى يأمر السلطان بما يرى . فسلّم عبدوس ٣٦٤ وخرج . ثم وقف خارج قصر الوزير حتى خرج أبو نصر ، فلما التقيا قال عبدوس لأبي نصر لقد رأيت عجباً ، إن رجلا مقيداً ، أعدوا له العقابين ، وبلغت روحه التراقى ، وتصل فى حقه رسالة من السلطان على هذا النحو، فيعطى الوزير ورقة فيقرأها وتهدأ فيه كل هذه الثائرة . فضحك أبو نصر وقال ياسيدى أنت شاب ، إنه سوف يطلق سراحه الآن ، وسيحضر أبو القاسم إلى دارى فتعال أنت كذلك . وبعد صلاة المغرب جاء أبو القاسم لبيت أبى نصر وشكره وشكر لعبدوس ، لما أحاطاه به من الرعاية ، ودعا للسلطان كثيراً لما منحه من العطف السابغ ، وطلب إليهما أن يتحدثا عنه إلى السلطان على خير صورة ، وأن يبينا له : « أنه لم يثبت بذمته شىء من مال بيت المال ، ولكنهم نسبوا إليه أخذ بعض الزيادات ، وأن المستوفين خوفاً من الخواجة أحمد جمعوا ما أنفقه هو وأتباعه على القوت من الماهيات ، فى الفترة التى كان فيها صاحب الديوان ، وجعلوها ديناً عليه وهوّلوا فى مقدارها ، وأن كلّ ما يملك فإنما هو بأمر السلطان ، وقد قصدونى بالسوء لأنى لم أقر لهم بشىء » . فقال أبو نصر كل هذا سيقال للسلطان وأكثر منه . ولكن حدثنا عن قصة الرسالة التى لان جانب الرجل بعد قراءتها ، حتى يذكرها عبدوس للسلطان غداً . فقال إنها أمر من السلطان محمود بتوقيعه بقتل الخواجة أحمد قصاصاً للدماء التى أريقت بأمر منه ، وأنا قد خالفت أمر سلطان عظيم كمحمود وأجبت بأن « ليس من شأنى هذا » حتى عاش الرجل بفضلى ، ولو أردت إهلاكه لقتلوه فى الحال . فلما قرأ الرسالة علاه الخجل واعتذر لى كثيراً بعد انصرافكما . وذهب عبدوس وأعاد على مسامع السلطان

كل ما جرى . فقال السلطان ، كيف حال الوزير . فقال عبدوس إنه طريح الفراش وقد سألت الطبيب فقال إنه قد أشرف على الموت وإنه مصاب بثلاثة أمراض متضادة يصعب علاجها ولو نجا منها لكان أمراً عجيباً . فقال السلطان ينبغى أن تقول لأبى القاسم كثير ليسلِّم نفسه إليه ولا يبدى معه لجاجا وعناداً لئلا تشتد به العلة ، وإنا ذاهبون إلى نيسابور هذا الأسبوع ، ويجب أن يكون أبو القاسم هنا مع الوزير حتى تتبين عاقبة مرضه . وعلى هذا النحو نجا أبو القاسم من الموت . وفى الثامن عشر من محرم سار السلطان من هراة قاصداً نيسابور وبقى ٣٦٥ الوزير فى هراة مع جملة العمال . ونزل السلطان فى شادياخ غرة صفر . وكان ذلك اليوم قارس البرد ونزل ثلج كثيف ، وكان قد أمر بإعداد وثاقات الغلمان والدور حوله فى نيسابور ، وأن ينزلوا سائر القوم بعيداً عنه . وفى المساء جاء ساعى هراة برسالة تقول إن الوزير أحمد حسن قد توفى بعد أسبوع من مسير السلطان ، بعد أن أساء كثيراً إلى العمال . ولما قرأ أستاذى الرسالة توجه نحو السلطان وعرضها على مسامعه قائلا أبقى الله سلطان العالم ، إن الأستاذ الرئيس أحمد قد لحق بربه . فقال السلطان باللأسف لقد كان أحمد وحيد عصره وقلّ أن يوجد مثله . وتأسف كثيراً وتألم لفقده وقال لو كان يباع لما بخلت فى شرائه بأى ثمن . فقال أبو نصر كفاه سعادة أن يموت والسلطان راض عنه . ثم جاء إلى الديوان وأخذ يتفكر ساعة أو ساعتين ، وقال قطعة فى رثائه ضاعت مع أوراق أخرى ، وأذكر هذا البيت منها :

يا ناعياً بكسوف الشمس والقمر　　　بشرت بالنقص والتسويد والكمد

بموت هذا الوزير ماتت المهابة والشهامة والديانة والكفاية والعظمة . ولا خلود فى هذه الدنيا الفانية . وكلنا نسير فى القافلة ، ونذهب واحداً بعد آخر . ولن يبقى أحد فيها ، فعلينا أن نعيش حياة نذكر بالحمد بعدها ؛ وقد مات الخواجة

أبو نصر مشكان الذى نظم المرثية فى هراة كذلك بما سأذكره فى موضعه ، وقد أحسن ابن الرومى القول فى هذا المعنى شعر :

وتسلبنى الأيام كل وديعـــة ولا خير فى شىء يرد ويسلب
كستنى رداء من شباب ومنطقاً فسوف الذى ما قد كستنى ينهب

وبقيت متعجباً من حرص الناس ومجادلاتهم مع كل هذا الوزر والوبال والحساب ٣٦٦ والتبعة ، فإن الدرويش الجائع فى محنته ومرضه لا يستطاع تمييزه من الغنى مع كل ما يرفل فيه من نعمة حين يتوسدان الثرى . والرجل هو الذى يبقى ذكره حياً بعد موته . قال رودكى :

« قصرت الحياة أو طالت أفليس المآل إلى الموت ، إن هذا الحبل سوف يطوى مهما كان طويلا ، يستوى العيش فى شدة وعناء أو أن تظفر بأقل ما فيها أو أن تظفر بما بين الرى وطراز ، كل هذه كنفخة عفريت فى الريح كلها كالحلم ، لا حكم له إلا المجاز ، كل هؤلاء يوم الموت سواء ولا تستطيع أن تفرق بينهم » .

وبعد أن فرغ السلطان مسعود من الاستقبال اختلى بالأعيان وأركان الدولة والسپهسالار على دايه وكبير الحجاب بلكاتكين وأبى الفتح الرازى العارض ، وأبى سهل الحمدوى وأبى نصر مشكان ثم قال : « لقد مات الوزير أحمد ، كان شيخاً تفيض منه الحكمة والإجلال القديم وكنا فارغى البال فى حياته ، ولا بد لنا من وزير فإن الأمور لا تسير بغير واسطة . فمن تعرفون ليقوم بهذه المهمة الكبرى ؟ قالوا إن السلطان يعرف عبيده ويعرف من يختار من بين من رفع السلطان الراحل (محمود) درجاتهم ، فإنا جميعاً نطيعه ونرعى حرمته وليس لأحد الجرأة على أن يعترض على رأى السلطان الرفيع . قال اذهبوا إلى ديوان الكتاب واختلوا بأنفسكم وتدبروا الأمر . وجلسوا فى الإيوان الواقع وسط

البستان ، وهو معد لجلوس كتاب الرسائل . ثم إن السلطان دعا أبا نصر وقال إن والدى حين عزل أحمد كان قد ذكر أسماء عدة رجال قبل أن يقع اختياره على حسنك ، فاذكر أسماء هؤلاء . قال أبو نصر : منهم أبو الحسن السيارى الذى قال عنه السلطان محمود إنه رجل كفء ولكنه طويل وعمامته لا تروق لى ، وعمله رياسة الديوان وهو كفء أمين : وقال عن طاهر المستوفى إنه أجدرهم جميعاً ولكنه يميل إلى تعقيد الأمور وأنا عجول فسوف أنهره فيعتزل العمل ؛ وأما أبو ٣٦٧ الحسن العقيلى فإن له شهرة وجاها وكفاية ، ولكنه جلف ولا يبلغ أوامرى بدقة ، وقد تعودت على أن يتكلم الرجل بما أمر به دون محاباة وأن يرد علىّ بسرعة ؛ وأما أبو سهل الحمدوى فهو ممن رفعنا درجاتهم وقد تتلمذ طويلا على أحمد حسن ، وهو شاب بعد ويجب أن يظل تلميذا فترة أخرى حتى يصير أكثر تهذيبا ويليق حينئذ لأن يسند إليه عمل ذو خطر ، ثم إن عمل غزنه وحدودها عمل كبير للغاية ويجب أن يقوم به رجل يريحنا ؛ وأما حسنك فقد علت منزلته ، ولكنه لا يعرف الحساب والكتابة ، ولو أن نوابه يقومون بأعمال نيسابور على وجه حسن وهم يقومون بواجبهم استنادا إليه ؛ وأحمد عبد الصمد هو أجدرهم جميعاً ، ولم يكن لألتونتاش رجل مثله وخوارزم ثغر عظيم . هذا ما كان من أمر هؤلاء . أطال الله حياة السلطان وقد أسند الوزارة أخيراً إلى حسنك وندم على ذلك والآن كلهم أحياء إلا حسنك . وإن لمولاى عبيدا وخدما ذوى كفاية . فقال السلطان يجب كتابة أسماء هؤلاء وعرضها على الأعيان . فكتب أبو نصر أسماءهم وذهب إلى القوم ، فقالوا إن كلا منهم أجدر من أخيه والسلطان أعرف بمن هو أجدر بالاعتماد عليه منهم . قال السلطان لأبى نصر إن أبا الحسن السيارى صاحب ديوان الرى والجبال وقد انتظمت هذه الولاية بفضله ؛ وسيذهب أبو سهل الحمدوى إلى الرى فليس يفعل أبو طاهر الكاتب شيئا غير الشراب

والرعونة ، وديوان الاستيفاء لا يستغنى عن طاهر المستوفى ، وكذلك لا غنى لمجلسنا عن أبى الحسن العقيلى ؛ وكما رأى السلطان الماضى فى آخر الأمر ، فإن قلبى يميل إلى أحمد عبد الصمد الذى استطاع أن يخلص جيشا كبيرا ويعبر به بجيحون وخوارزمشاه ميت ، ثم إنه يجيد الكتابة والحساب والمعاملات وهو رجل ذكى . فقال أبو نصر : هذا رأى صائب لقد كانت الوزارة أيام خلفاء بنى العباس وأيام السامانيين تسند إلى كتخدائية الأمراء وإلى الحجاب ، وكان كثير كتخدا أبى الحسن سيمجور وأبى القاسم حفيده ، وقد طلبه السامانيون أكثر من مرة من أبى الحسن ليسندوا ٣٦٨ إليه الوزارة ، فوسط أبو الحسن الشفعاء ليقولوا ليس له أحد غيره ، وأحوال خوارزم منتظمة اليوم ، وعبد الجبار ابن الخواجة أحمد عبد الصمد[1] يستطيع القيام بأعمال أبيه إذا ولى هذا الوزارة . فأمر السلطان بإحضار الدواة وكتب ملطفة بيده إلى أحمد قال فيها : « إن لنا مع الخواجة مهمة خاصة بأعمال الدولة ، وقد أرسلت إليك هذا الفارس مسرعا ، وعليك حين تقرأ الرسالة التى كتبتها بيدى ، أن تأتى إلى الدركاه عن طريق نسا ، ولا تتريث فى خوارزم » .

وأعطى الملطفة لأبى نصر وقال : « اكتب شيئا بخطك وخاطبه بلقبه « شيخى ومعتمدى » واذكر له أنه إذا ظن أنه قد يقع خلل فى خوارزم فى غيبته فلينصب نائبا من قبله وليصحب معه ابنه عبد الجبار ليعود إلى خوارزم بعد أن ينعم بالخلعة والعطف وبعد الأصول والقواعد المنبعة . ثم اكتب من عندك خطابا وصرح فيه بأنك دعيت لتفوض إليك الوزارة وأن السلطان أسرّ لى بذلك . وذلك حتى يكون مطمئن القلب » . وكتب أبو نصر رسالة السلطان

---

(١) فى غنى ــ فياض « أحمد حسن » وهو خطأ مطبعى واضح كما يدل سياق الكتاب . وانظر نفيسى ص ٤٤٣ .

كما ينبغى فقد كان أستاذ زمانه فى ذلك الفن وكتب من ناحيته ملطفة على هذا النحو : أطال الله بقاء حياة الخواجة الأستاذ ولينعم طوال السنين بالعز والنعم ، فليعلم سيدى أن ضمير الزمان يحتوى التقادير ، وأن الله تعالى عالم بهذه الأسرار لأنه المقدر لها ، ثم إن ولى النعم السلطان الأعظم الذى اختار الصديق أبا نصر مشكان ليكون موضعا لهذا السر ، وقد كتبت بنفسى رسالة السلطان بأمره العالى زاده الله علوا وقد أكدها بتوقيعه ، وبطيها ملطفة بخطه الشريف ، ورسالتى هذه كتبتها بأمر منه فلماذا الإطالة . فليسرع السيد بالمجىء فإن صدر الوزارة مشتاق لمن يليق بأن يحل فيه ، وهو الخواجة الأستاذ فليسارع إلى هنا ، ولتقرّ به عيون الخدم « والله تعالى يمده ببقائه عزيزا مديدا ويبلغه غاية همته ويبلغنى فيه ما تمنيت له بمنة » . ووقّع هذه الكتب . واختير فارس من أمهر الفرسان فسلمت إليه ليذهب إلى خوارزم ٣٦٩ ويعود إلى نيسابور فى عشرة أيام . وذهب فورا .

وفى السابع من صفر جاءت رسالة من بست بالبريد بأن الفقيه أبا بكر الحصيرى الذى كان مريضا هناك قد مات . ومن العجائب أن الصلة بين الأستاذ أحمد حسن وبين هذا الفقيه كانت سيئة دائما ، وقد ماتا فى وقتين متقاربين . وفى هذه الأثناء جاء الخبر بأن رسول القائم بأمر الله أبا بكر السليمانى بلغ الرى ، ومعه خادم من أقارب خدام الخليفة معه الهدايا ، وأما المهمات الأخرى فقد عهد بها إلى الرسول . فأمر السلطان بحسن استقبالهما وقد أقاما أسبوعا واحتفى بهما احتفاء بالغا . ثم سارا إلى نيسابور مع توديع حافل ، وأمر السلطان أن يسارع من وكل إليهم أمر العناية بهما ، وأعدت العلوفة فى رساتيق بيهق ، وفى ثامن ربيع الآخر خرج فقهاء نيسابور وقضاتها والأعيان لاستقبالهما . وفى يوم الأربعاء ذهب أرباب المراتب والقائمون بالضيافة وكانوا قد زينوا الطريق من بوابة طريق الرى حتى مسجد الجمعة ، كما أنهم نثروا فى الأسواق الكثير

من الدراهم والدنانير والسكر والطرائف ، وقد أنزلوهما فى بستان أبى القاسم الخزانى ، وامتد الوقت حتى صلاة الظهر وحملوا إليهما كثيرا من المآكل الطيبة وقدموا لهما عشرة آلاف درهم لنفقة الحمام ، وكانوا كل يوم يتلطفون عليهما بشىء جديد . فلما مضى أسبوع على ذلك واستراحا أعدوا كوكبة من باب بستان شادياخ إلى باب سراى الرسول ، وقد ركب جميع الجند والأعيان والمقدّمين ورفعوا الألوية ، وكان الرّجالة كثيرين وكانوا وقوفا بأسلحتهم أمام الفرسان وقد اصطف أصحاب المراتب صفين . وجلس السلطان رضى الله عنه فى الصفة على السرير ، وكان القادة والحجاب يلبسون القلانس ذات الركنين ، وكان يوما مشهودا ، وكان الحاجب وعدة حكّام والموكلون بالستار وحملة الدروع والجنائب وعشرون بغلا يحملون الخلع ، وذهب الموكل بالضيافة إلى دار الرسول فى الصباح الباكر وحمل معه تلك الهدايا . وقد أركبوا الرسول والخادم وحملوا خلع الخليفة فى الصناديق على البغال : يتقدمهم الشاكرية يحملون الخزائن على رؤوسهم وثمانية ٣٧٠ خيول بالمقاود عليها سروج وعدد من الذهب وحمل أمام الرسول اللواء معقوداً بيد فارس ، كما طوى المنشور والكتاب فى الديباج الأسود وعهد به إلى فارس آخر ، ومن أمامهم الحجاب وأهل المراتب . وارتفعت أصوات الأبواق والطبول وعلا صوت النفير ، كأن القيامة قد قامت فى هذه الصحراء التى تعج بالجند والفيلة الكثيرة . وأنزلوا الرسول وخادمه وقدّموهما للسلطان ، وقد قبّل الرسول يد السلطان وقبّل الخادم الأرض ثم وقفا . فقال السلطان كيف حال مولانا ولىّ النعمة أمير المؤمنين . فقال الرسول إنه لله الحمد متمتع بالصحة والسعادة ، والأمور كلها وفق المراد ، وهو راض عن السلطان الأعظم أطال الله بقاءه ، ذلك أنه أعظم أركان الخلافة وأخذ الحاجب أبو نصر بذراع الرسول ، وجاء به من وسط الصفة

إلى قرب السرير وأجلسه . وكان جالسا فى هذه الصفة السپهسالار على دابه والعارض ، ولم يكن الوزير هنالك كما بيّنت . قال الرسول :

« أطال الله حياة السلطان ، حين بلغت حاضرة الخلافة وأكدت إطاعة وانقياد ومتابعة السلطان لمقام الخليفة ، وقدّمت كل ما كان ينبغى من أداء مراسم التعزية لوفاة القادر بالله ، ثم تلوتها بالتهانى العظمى لتسنم أمير المؤمنين القائم بأمر الله سرير الخلافة ، وكيف أن السلطان أقام العزاء وأدى واجب التهنئة ، وعلى أى نحو جعل رسم الخطبة ، ثم كيف كانت شرائط البيعة ، وقد أعادنى الخليفة بالحفاوة والتكريم . وقد جلس أمير المؤمنين بما هو جدير به من الوقار على سرير الخلافة ، وأذن للناس إذنا عاما فى ذلك الأسبوع ، وكان كل من يصل إلى سريره ويراه يسمع منه الثناء على السلطان . إلى حد أن قال إن ناصر دين الله وحافظ بلاد الله والمنتقم من أعداء الله أبا سعيد مسعود هو اليوم أعظم أركاننا وأقواها . وكذلك فإنه فى هذا المجلس نفسه أمر بأن يكتب منشور باسم السلطان يقول فيه إن كل الأملاك الموروثة والمكتسبة وما يستجد فتحه كلها له . وقرىء هذا المنشور على الملأ ، وجىء بالدواة فزين الكتاب بخطه الكريم وتوقيعه المبارك وبارك لكم بلسانه الشريف ، ثم أمر بختم المنشور ثم أعطى لخادم الداعى لكم مع كتاب ، وطلب اللواء فجىء به إليه فعقده بيده ، وأحضروا له الطوق والمنطقة والقلادة والتاج ، فسلمها واحدة واحدة ودعا للسلطان ليبارك له الله ، وجىء له بالألبسة المخيطة من كل صنف ، وتكلم كلاما يستحق ٣٧١ الثناء والفخر ، وكذلك تكلم عن الجياد الخاصة التى كانت واقفة هنالك ، ثم جىء إليه بالعمامة والسيف فجرى على لسانه الشريف قوله إن هذه العمامة التى لففناها بيدنا يجب أن تسلم لناصر الدين بهذه اللفة نفسها ، وأن يضعها على رأسه بعد التاج ، ثم سلّ السيف وقال يجب أن يقضى بهذا على الزنادقة والقرامطة . وأن يحافظ به على سنة والده يمين الدولة والدين ، وأن يستولى

بهذا السيف على ما فى يد أعدائه من البلاد ، وقد سلَّم إلىّ كل هذا فى ذلك المجلس واليوم أقدمها للسلطان ليقضى فيها بما يرى » .

فأشار السلطان إلى أبى نصر مشكان ليأخذ المنشور والكتاب . فخرج أبو نصر من الصف وقال للرسول بالعربية لينهض ويقدم ذلك المنشور المودع فى الديباج الأسود للسلطان فوضعه على السرير ، وأخذه أبو نصر ثم انتحى ناحية وكان الرسول واقفا فقال للسلطان : لو تفضلتم فنزلتم من على السرير لارتداء خلعة الخليفة . فقال افرشـــوا سجادة الصلاة ، وكانت بيد أحد الحراس ، ففرشها . واتجه السلطان ناحية القبلة ، ونُفخ فى الأبواق الذهبية التى كانت فى وسط البستان واتصلت أصواتها بغيرها فعلا دويها جميعاً ، ودقت الطبول فى الدركاه ، وأخذوا يهزون الأبواق ومرايا الفيلة كأن القيامة قد قامت (من شدة الأصوات والضجيج) ، وجرى بلـكاتـكين وسائر الحجاب فأمسكوا بذراع السلطان حتى نزل من على السرير وجلس فى المصلى ، وطلب الرسول صناديق الخلع فجىء بها ، سبع فراجيات[1] ، واحدة منها من الديباج الأسود والباقى من كل صنف ، وألبسة بغدادية ثمينة . فقبّلها السلطان وصلى ركعتين ثم اعتلى السرير ، وقدم إليه التاج المرصع بالجواهر والطوق والقلادة المرصعة فقبّلها ووضعها على عينيه فوق السرير . وحمل الخادم العمامة الملفوفة فقبّلها السلطان وخلع قلنسوته ولبس العمامة ، وحمل اللواءبيده اليمنى وشدالسيف إلى الحمائل وقبلها ، ثم وضعها بجانبه . وقرأ أبو نصر مشكان ٣٧٢ الـكتاب وترجمه إلى الفارســـية ثم قرأ المنشور ، وأخذوا ينثرون الذهب والفضة ، حتى صارت أرض الصفة وكأنها من الذهب ، وصارت الحديقة كالفضة من

---

(١) استخدمنا كلمة « فراجية » للتعبير عن الفارسية فرجى . وهى جبة فضفاضة عملاة بالفراء . وجاء فى قاموس الألبسة أنها جبة العظماء وملاءة النساء . مولانا نظام قارى ص ٢٠٢ .

كثرة مانثروا من أكياس الفضة ، وأعيد الرسول وقدمت طرائف لاحصر لها.
وبعد صلاة العصر بلغ الرسول داره بهذه الأبهة ، وامتد الشراب والطرب أياما متصلة وكانوا مشتغلين بالنهار بالأفراح والأعياد ، بما لم يخطر على بال أحد.
وفى هذه الأثناء جاء النبأ بأن ابن يغمر التركمانى وغيره من أبناء المقدمين التركمان الذين كان تاش فراش قد أمر سپهسالار العراق بقتلهم قد جاءوا أثناء مسيره إلى الرى من بلخان كوه مع كثير من التركمان وغيرهم قاصدين أطراف المملكة ، ليثأروا لقتل أبيهم من المسلمين . فأمر السلطان رضى الله عنه السپهسالار على دايه بأن يذهب إلى طوس وأن يذهب كبير الحجاب إلى سرخس وأن يبعثا الطليعة ليتعرفوا أحوال التركمانية ، وسار كبير الحجاب بلكاتكين من نيسابور مع غلمانه وفرسانه ، وسار السپهسالار على دايه فى اليوم التالى الأربعاء .
وسيّرت الكتب إلى باكاليجار مع الجمزين ليكون على يقظة وأهبة وليرسل جيشاً قوياً إلى دهستان ليقيم فى رباط ويحمى الطرق . وكذلك سيّرت الكتب إلى نسا وباورد كى يطيع الشحنة وأهل هذه النواحى أوامر السپهسالار على والحاجب بلكاتكين . وأما الفارس المسرع الذى أوفد إلى خوارزم إلى الأستاذ أحمد عبد الصمد فقد جاء بالجواب وقال إنه أبقانى يومين ووهبنى حصاناً كريماً وعشرين كسوة وعشرين ألف درهم وقال إنى سأسافر بعدك بثلاثة أيام . وكانت إجابته على هذا الوجه يقول : « إن الأمر العالى قد بلغه وهو بخط الأستاذ أبى نصر مشكان وقد زينه توقيع السلطان ، وقد درج فيه ملطفة بخط السلطان الشريف وقد وضعتها على الرأس والعين ، وقد كتب أبو نصر ملطفة كذلك بأمر من السلطان وهمس إلىّ بكلمات كانت سبباً فى عظيم افتخارى ، فقد سمعت شيئاً لست له أهلا ولا مر بخاطرى أبداً ولا أرانى به جديراً ، ولقد أعدت الفارس وسأفوض أعمالى هنا إلى أبى نصر البرغشى فإنه كفء وحميد السيرة ، وهرون كبير العقل وشديد الاتزان ، وإن شاء الله يظل

هكذا فى غيبتى . وسأجىء بعبد الجبار معى عملا بأمر السلطان ٢٧٣ ليعود مزوداً بالنصائح الغالية ويسعد بالخدمة فى الدركاه وسأسير من هنا بعد الفارس بثلاثة أيام حتى أبلغ الدركاه العالى بسرعة » . وقد أجاب على أستاذى وكان يخاطبه بالمخاطبة المعتادة إلى الشيخ الجليل السيد أبى نصر بن مشكان من أحمد عبد الصمد صغيره ووضيعه . وساق الحديث معه فى تواضع جم مما أثار تعجب أبى نصر فقال : « إن هذا الرجل العظيم الكامل قد عرفته ولكنى ما كنت أعلم أنه عظيم إلى هذا الحد » . وقد حمل الكتب إلى السلطان . ولما جاء الخبر بأن الخواجة عبد الصمد قد اقترب من نيسابور أمر السلطان بأن يخرج الجميع لاستقباله ، فتهيأوا جميعاً للخروج ، ولكنهم لم يكادوا يخرجون حتى كان الخواجة قد جاء إلى الدركاه وفى صحبته ولده ، وكان ذلك يوم الأربعاء العاشر من جمادى الأول ؛ فكان يسلم عليه كل وافد منهم وأذن السلطان بالاستقبال . وكانوا عرفوه بمجىء الخواجة فأمر بأن يمثل فى الحضرة . فجاء وقبل الأرض مرتين أو ثلاث ثم وقف فى ركن الصفة ، فأشار السلطان إلى بلكاتكين ، فأشار هذا إلى كبير الحجاب وأمره كى يذهب بالأستاذ إلى الصفة وأجلسه بعيداً عن السرير ، ونثروا عليه ألف دينار ، أما هو فقد أخرج من كمه عقداً ، يقال إن قيمته ألف دينار ، فأخذه منه الحاجب بلكاتكين فأعطاه إلى أبى نصر ليضعه أمام السلطان . فقال هذا لأحمد كيف تركت خوارزم وهرون والجند ؟ قال إنهم جميعا بيمن السلطان كما يرام وليس هناك أى خلل . فقال السلطان لقد أتعبك السفر فيجب أن تستريح . فحيا السلطان وخرج وطلبوا له حصانا مكنى باسمه فجهز على عجل ، وركبه وعاد إلى سراى أبى الفضل ميكائيل الذى أعد له ، أما ابنه فقد أنزل فى قصر مجاور . وأمر الوكيل بإرسال المآكل والنفقات على وجه التمام . وكان أحمد يفد على الدركاه كل يوم فيؤدى الخدمة ثم ينصرف . فلما مضت ثلاثة أيام أمر السلطان بإجلاسه فى الإيوان (طارم) قرب الصفة وأخلى السلطان مجلسه كذلك وظلت المشافهة بينهما بواسطة أبى نصر مشكان وأبى الحسن العقيلى

وعبدوس حتى صلاة الظهر وجرى حديث طويل بشأن الوزارة . فكان أحمد يمتنع عن قبولها ويقول إنى رجل غريب بين هؤلاء الناس ولا أعرف رسوم ٣٧٤ الوزارة ويرى أن الأجدر به أن يكون تلميذا أو مساعدا . ويطول الحديث لو شرحت هذه القصة . وأخيرا استقر الرأى وقبل الوزارة ، وقدموه إلى السلطان فلقى منه العطف والتقدير . ثم رجع كى يكتب عهد الوزارة ويضمنه شروطها . وطلب إليه حصانه بكنيته وتقرب منه الناس وحيوه بعد أن تقرر إسناد الوزارة إليه . وكتب عهد الوزارة وبعثه إلى أستاذى ، وقد أجابه السلطان بخطه مستجيبا إلى كل ما طلب واشترط ، وخلع عليه خلعة فاخرة . وقد ألبسوه الخلعة يوم الإثنين السادس من جمادى الأولى وكان منها منطقة تساوى ألف دينـــار ، وأخذ الحاجب بلكاتكين بذراعه فأجلسه قرب السرير ، وقال له السلطان خلعة مباركة لنا وللوزير وللجند والرعية . فوقف الوزير وحيا ، ووضع أمام السلطان عقدا من الجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ، فأعطاه السلطان خاتما من الفيروز عليه اسمه وقال هذا خاتم المملكة أعطيناه إلى الوزير وإنه خليفتنا ، وعليه أن يمارس عمله فى قوة ومضاء فإن الأمر له بعد أمرنا فى كل ما يعود على الدولة بالخير والإقبال . فقال الوزير إنى عبد مطيع وسأبذل غاية الجهد فى الخـــدمة تقديراً لحق نعمة مولاى على ثم قبل الأرض ورجع . وأعطى أحد خدمه خلعة برسم الحجابة وسار معه . ولما نزل بالسراى وفد عليه الموالى والحشم وأعيان الدولة مهنئين وأهدوه كثيراً من الهدايا . وقد أعدت قائمة بالذهب والفضة وبكل ما جاءوا به إليه ، وأرسلت كلها للسلطان ، وكانت كثيرة حقاً . وأرسل على حدة كذلك كل ما أتى به من خوارزم مع ماهروى ابن تاش ، ولم يُر مثل هذا الولد وأبيه أحد فى الجمال ، وقد قتل تاش فى حرب على تكين مع خوارزمشاه . وأعجب السلطان بهذه الهدايا كلها ، وجعل ابن تاش هذا من خاصته فلم يكن لديه أربعة أو ثلاثة مثله من بين الغلمان الذى كانوا أربعة

آلاف أو ثلاثة ، فظهر له حساد وعشاق من بين غلمان السراى . حتى إذا كانت ذات ليلة قصده أحد من كانوا معه فى الوثاق وكان يعشقه فدخل عليه فطعنه ماهروى بمديه فقتله نعوذ بالله من قضاء السوء . فأمر السلطان بوجوب القصاص فقال قهرمان القصر أطال الله حياة السلطان ٣٧٥ ، من الحيف أن يوسد هذا الوجه الجميل الثرى . فقال السلطان لا بد من ضربه ألف عصا وخصيه ، فإذا مات فإن القصاص قد وقع وإذا عاش فنرى ماذا ينبغى ، فعاش ودب فيه الشباب فى الخدمة وصار أجمل وأنضر مما كان ألف مرة . وأصبح حامل دواة السلطان ، وكانت عاقبة أمره أن اتهم فى إمارة عبد الرشيد بأنه أخذ البيعة للأمير مردانكاه رضى الله عنه الذى كان مسجوناً فى القلعة ، فقتل وآخرون مع هذا الأمير المسكين . وقد ألقى به بين أنياب الفيل مع جماعة من الحجاب والأعيان والقادة وقد خرجوا بجثثهم من الميدان ثم ألقوها رحمة الله عليهم أجمعين . وجلس الوزير أحمد فى الديوان ، وقام بعمل الوزارة على خير وجه ، ووضع القواعد والنظم ، فقد كان عظيم الكفاءة والجدارة والوقار ، وكان أديباً فاضلا عارفاً بآداب المعاملة ، ولقد كان مع كثرة محامده آية فى الرجولة . وقد تمت على يديه أعمال كثيرة شهدت على ما كان لهذا الرجل من الفضل ، كأن هذين البيتين قد قيلا فيه :

أتتــه الوزارة منقــادة إليــه تجر[1] بأذيالهــا
فــلم تك تصلح إلا لــه ولم يك يصلح إلا لهــا

وكان يجمع إلى فضله وسياسته الجرأة والشجاعة والإقدام ، فقد قاد الجند وشهد حروباً مشهورة فى عهد هذا السلطان المبارك . ولم يأخذ عليه طول أيام وزارته سوى أمر أو أمرين . والعصمة لله وحده ، أخذوا عليه أنه فى ابتداء

---

(١) إليه تجرر أذيالها .

وزارته خاطب عاناً السيدين على وعبد الرازق ولدى الوزير أحمد حسن بكلام جاف ، وذكر والدهم العظيم بشيء من الاستخفاف ، فانتقده الناس شريفهم ووضيعهم لهذا السلوك . والأمر الثانى الذى عابوه عليه أنه فى آخر وزارة السلطان مودود تكلم بشأن ارتكين الذى كان صاحب الفضل عليه بما أغضب هذا التركى فأساء به الظن . وصار الوزير ضحية ٣٧٦ هذه الكلمات . وسأذكر هذه القصة فى موضعها وهى من النوادر « وأين الرجال المهذبون » .

ويوم الجمعة العاشر من جمادى الأولى أمر السلطان بمنح الخلعة لابن الوزير، عبد الجبار ، ثم أمر فوراً بمطالبة أبى كاليجار والى جرجان بمال الضمان ، ويجب أن تحضر ابنته التى كان السلطان قد عقد عليها قبل أن يرتحل عن نيسابور . وقد تقرر إيفاد عبد الجبار ابن الوزير رسولا يصحبه أحد العلماء والخدم حسب الرسم . وقال السلطان للوزير إن هذه أول خدمة يكلف بها ولدك . وكتب أستاذى أبو نصر الكتب وقيد المشافهات ، وعين ، مع عبد الجبار ، أبو الحسن القطان العالم وهو من فحول تلاميذ القاضى الإمام صاعد ، كما عيّن معه كافور المعمرى الخادم من الثقات المحموديين . وأعد المهد والخدم والهدايا كما هو الرسم والعادة . وفى الثانى عشر من جمادى الأولى غادر عبد الجبار نيسابور قاصداً جرجان مع من معه .

فصل فى معنى الدنيا

إقرأ الآن فصلا من فصول الدنيا الخداعة التى تعطى المرء الحلوى بيد والسم الزعاف باليد الأخرى ، تمتحن أناساً بالمحن وتلبس آخرين ثياب النعمة ، وذلك حتى يعرف أولو الألباب أن من المحال التعلق بنعيم الدنيا . والمتنبى يقول :

ومن صحب الدنيا طويلا تقلبت   على عينه حتى يرى صدقها كذبا

وقد انتهيت من كتابة هذا الجزء من التاريخ إلى هنا ، وقد أسلم الأمير فرخ

زاد روحه العذبة الغالية إلى بارئها وقد غسلوه وحملوه فى التابوت ، وبعد البساتين الفيحاء والقصور الشامخة التى ورثها عن آبائه وأجداده قنع بأربعة أذرع أو خمسة من الأرض وهالوا عليه التراب .

يقول دقيقى فى هذا المعنى : ٣٧٧

يا أسفا الأمير أبى نصر يا أسفا لم يسعد كثيرا بالشباب ولكن نوابغ الرجال كالورد عمرهم قصير .

شعر [1]

أين كسرى كسرى الملوك أنو شروان أم أين قبله سابور

وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ روم لم يبق منهم مذكور

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجلة تجبى إليه والخابور

لم يهبه ريب المنون فباد الـ ملك عنه فبابه مهجور

ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

ولأبى طيب المصعبى :

يا دنيا إنما أنت حزن ولعب لأنك لا تدومى لأحد ولا تصاحبى أحدا . أنت كالقمر فى النظر إليك وأنت كالشمس فى السمع ، ولكن فى وقت القنص أنت كالصقر ، أنت كالسم فى المذاق ، وأنت كالعود فى السماع ، وأنت كالريح فى الهبوب ، وأنت كالماس فى الشق ، أنت كعود القمارى ، وكمسك تبت أنت ، كالعنبر المعجون ، اليمانى والحجازى ، أنت فى الظاهر كدار مملوءة بالقش الآذرى وأنت فى الباطن كالخنزير القذر ، الخنزير البرى ، تعطين واحدا النعيم وتمنحين

(١) من قصيدة لعدى بن زيد . أنظر تعليقات نفيسي ص ٤٠٥ حاشية ٤ .

واحدا الجحيم ، واحدا فى هبوط الانحدار ، وواحدا ترفعين ، أنت كروض مليء بشتى النعم موصد لهذا ، مفتوح لذاك ، كلك محنة، وكلك زخرف كلك مملوءة بالمظاهر كذب طراز ، موت الملك فى الشطرنج بيدك يا دنيا ، لقد ولدك الدهر للعبة الشطرنج . لم يضيق فى الرزق على أولى الفطنة ؟ ولم ينعم الحمقى بفراغ البال ، لم يقصر عمر الطاووس والدراج لم يطول عمر الثعبان والكركس ؟ . يعمر مائة ونيف سنة من لا قيمة له ولم يعمر أكثر من ثلاث وستين سنة نبينا العربى٣٧٨ ، إذا لم تسر كل أعمالك عوجا فلم تدللين أسافل الناس ، يادنيا إنما أنت فى غنى عن هذا ، نحن العصاة ولكنك حريصة على دفعنا إلى العصيان » .

إن مقدر الأعمار وخالق الليل والنهار العزيز الجبار مالك الملوك جل جلاله وتقدست أسماؤه قد قدّر عمر هذا الأمير وحدّد مدة ملكه . وقد حزن الخاص والعام لوفاته فى شبابه ولما شاع عنه من محامد الآثار وحسن السيرة والعدل :

وإنما الناس حديث حسن　　　فكن حديثاً حسناً لمن وعى

فلما مات رفع الله بالسعادة والإقبال إلى الملك ابن الأكاسرة وأفضل الملوك السلطان المعظم ولى النعم أبا المظفر إبراهيم بن ناصر دين الله ، فزين بجلوسه عرش أجداده ولقى الناس فى عهده ما كان قد درس من سياسة محمود ومسعود فليبقه الله دائما موفقاً متمتعاً بالملك والشباب . فى يوم الإثنين التاسع عشر من صفر سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٥٩) ، وكنت قد وصلت بالكتابة إلى هذا التاريخ ، زين السلطان المعظم أبو المظفر إبراهيم بن ناصر دين الله مملكة هذا الإقليم الكبير وتكلم الزمان بأفصح لسان فقال :

« مات ملك طابت سيرته ، وولى العرش ملك من نسل الحور . وقد حزنت

الدنيا كلها لفقد من مات ، وسعدت الدنيا كلها لارتقاء العرش من ارتقاه . »
فإذا كان المصباح قد ذهب، فإن الشمع قد حل مكانه . « إن كل من افتقد السلطان
فرخ زاد قد ظفر بعهد السلطان إبراهيم » .

إن عظمة هذا السلطان أنه أضاء الدنيا بعد ظلمتها بشمس وضاءة لها تسع عشرة
درجة ، ثم إنه حين ولى العرش ، قرّب إليه ، وفقا لرسوم الملك ، الأولياء
والحشم وكافة الناس على حسب مقتضيات السياسة وحدود الملك وكان يبين
للناس وهو يتحدث إليهم معنى الملك . وكان أول ما عمل أن جلس للعزاء ٣٧٩
فى أخيه ، وهو يعرف حقا أن الراعى قد قام على هذا القطيع وأنه لم يخف
الذئاب والوحوش . ثم إنه بذل للجند ، الذين كانت قلوبهم شتى ، الهبات
السلطانية فقويت روحهم واتحدت قلوبهم . واستمع إلى شكايا المتظلمين وأهل
المحن وأقام العدل فيهم كأنه أنوشروان . وإذا قال أحد إن أس الإمارة العظمة
والرفعة ، ولو أتيحت لسلطان موفق قادر فإنه يستطيع أن يتعهدها بحيث يتمكن
من الدين والدنيا جميعاً ، وإذا وقعت فى يد سلطان عاجز فإنه ينوء بحملها
وينقلب الناس عليه ، فمعاذ الله أن يكون خريدة نعمة سلاطين هذه الأسرة
رجلا يطلق لسان السوء فيهم . ولكن الشيوخ المحنكين ، الذين ذاقوا من الدنيا
حلوها ومرها ، يقولون بدافع من الشفقة والعطف الشديد إن فلانا قد أصاب
وإن فلانا أخطأ ، وهذه سيرة الناس منذ آدم إلى يومنا هذا ، وجاء فى الخبر :
أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقال له بئس الشىء الإمارة . فقال
عليه السلام : « نعم الشىء الإمارة إن أخذها بحقها وحلها وأين حقها وحلها » .
وقد أخذها السلطان المعظم بالحق والحل وسار فيها سيرة عظماء السلاطين .
وحديث آخر روى أنه حين مات كسرى پرويز بلغ النبأ النبى عليه السلام فقال:
من استخلفوا . قالوا ابنته بوران دخت قال عليه السلام : « لن يصلح قوم

أسندوا أمرهم إلى امرأة» وهذا أكبر دليل على وجوب إسناد الحكم إلى رجل شهم كفء جدير بمنصبه ، ولو لم يكن كذلك لاستوى الرجل مع المرأة . وقد قال كعب الأحبار : مثل السلطان والرعية كمثل خيمة محكمة أقيمت بعمود واحد وشدت طنابها وأحكمت بأوتاد قوية ، وخيمة الإسلام هي الملك وعمودها الملك والطناب والأوتاد الرعية . فإذا أمعنت النظر تجد العمود هو الأصل والخيمة قائمة به ، فإذا تراخى وسقط فلا خيمة ولا طناب ولا أوتاد . وقد قال أنو شروان : « لا تقيموا فى بلدة ليس فيها ملك قاهر وحاكم عادل ومطر ٣٨٠ دائم وطبيب عالم وماء جار ، وإذا توفرت كل هذه الأشياء وافتقدت المدينة الملك القاهر فإن هذه كلها لا تعتبر شيئاً ، فهذه الأمور تدور بالأمير كدوران الكرة على القطب والقطب هو الملك » . وقد ظهر ملك عادل رؤوف أدامه الله وأبقاه . وليس من العجيب أن تؤول السلطنة إلى سلطان عظيم من نسل محمود ومسعود ، فإن يعقوب بن الليث كان ابن صفار ، وإن أبا شجاع عضد الدولة والدين ابن الحسن بن بويه ، الذى كان ثائراً والتجأ إلى السامانيين ، قد ظفر من بين كل الديالمة بالملك ، بثقته بنفسه وهمته وبتقدير الله جلت عظمته ، ثم خلفه ابنه عضد الدولة وكان أعلى همة وأقوى نفساً من أبيه وآله ، وقام بتلك الأعمال التى ذكرها أبو إسحق الصابى فى كتاب « تاجى » . وقد درس أهل السير أخبار أبى مسلم صاحب دعوة العباسيين وطاهر ذى اليمينين ونصر ابن أحمد السامانى . وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين فى شأن طالوت « وزاده بسطة فى العلم والجسم[1] » ، وحيثما تتجه عناية الله جل جلاله يبرز كل الفضائل والسجايا ويخرج من الرماد جذوة نار تضىء ما حولها .

وحين قرأت هذا الكتاب ، التاجى ، طلبت من الفقيه أبى حنيفة الإسكافى

---

(١) ٢ : ٢٤٦ .

أن ينظم قصيدة فى وفاة السلطان محمود وجلوس السلطان محمد على التخت ، واستيلاء مسعود على الملك ، فأبدع أيما إبداع ، وقد خطر لى أنه قال هذه القصيدة العصماء بغير مطمع فى صلة أو مشاهرة فكيف به لو أن ملكا أقبل عليه . إن الفأل حق ، وكل ماجال بخاطرى جرى به يراعى . وحين ارتقى العرش مولاى السلطان المعظم إبراهيم كان قد رأى كتباً كثيرة بخط الفقيه أبى حنيفة فأعجب بخطه ولفظه وتحقق بذلك الفأل . فإنه حين ارتقى العرش سأل عن أبى حنيفة وطلب منه شعراً فنظم قصيدة وحظى بالصلة ، ثم طلب منه قصائد أخرى ، كما منح الصلات للشعراء الذين لم يظفروا بشىء منذ ٣٨١ سبع سنين واللذين لم يلتفت إليهم أحد أو ينظر إلى أحوالهم . وصار أبو حنيفة صاحب حظوة ، وقال قصائد غراء أخرى منها هذه القصيدة :

« مائة ألف حمد من رب العالمين هى سحاب الرحمة على إبراهيم ، شمس ملوك الأقاليم السبعة الذى ينتعش به الجلال القديم ، لقد أقبل مطر السخاء المقيم بعد بهجة روض الثناء ، وعند ليب الفضل أخذ يشجو وهب نسيم الفخر من البستان ، ولو أن الدرة اليتيمة بقيت فى الصدفة زمناً إثر دوران الفلك ، فالحمد لله والمنة إذ انجلت آخر الأمر تلكم الغمرات ، برز « جم[1] » من سماء الفضيلة فتعثر الشيطان الرجيم وأصابه العرج ، وكشر الأسد عن أنيابه وفتح براثنه وهزلت بقرة الفتنة ، ماذا يعمل سحر فرعون وقد صارت عصا الكليم ثعباناً ، وهل يصف عرش بلقيس من عرف مجد سليمان ، لا يعتمد الملك على التنجيم وقد عرف أن الأمر كله بيد ربه ، وإن حلمه وقت الغضب يبعد الندم عن قلبه ، رأيه الحسن وزيره ، وخلقه الطيب نديمه ، فلا حاجة به إلى نديم ، أيها الملك ، يا كسرى ، مولاى : أحدثك بكلمة كالدر المنظوم ، إن الفتوحات تترى على

---

(١) إشارة إلى جمشيد الملك الإيراني القديم .

الملك حين يقسم ظهر اللهو واللعب ، فاصبر على هوى قلبك ، إذا أردت سير
الأمور حسب ماتريد ، إن المجال فسيح لكل ملك يبغى السلطة الكاملة . وعليه
ن يحفظ نفسه من الفتنة أسبوعين محافظته على الغنيمة من عدو ، لا يخرج
الإناء من الماء نظيفاً ما لم يغمر تماما فى قاع البئر ، ومارس شطرنج السلطنة
ع رجلين أو ثلاثة ، بعينين مختلفتين ، دون حاجة إلى تعليم ٣٨٢ ، لترى مايلعب
الخصم وما يخبئه الزمن تحت بساطه ، خذ السيف واترك الكأس إذا سمعت أن
الملك عقيم ، ولن تعجز عن فتح الأقاليم السبعة إذا أعملت السيف والقلم جميعاً ،
لا « فلان » يجرؤ على الشطط ولا « بهمان » ولا تؤمل فى أحد ولا تخشى
حداً ، واعلم أن كل ما يصيبنا من خير أو شر فرده إلى الله الكريم ، ليكن
رجل كالحية الرقطاء لا براقا كالسمكة الجذابة ذات النقش ، ولكن الخير ألا
يكون حية وألا يكون سمكة ، كلاهما غير مبارك ، ورجل السوء أشد الناس
خسة ولو أنه موقر عند الناس ، لو نظرت بإمعان لوجدت عادة هؤلاء القوم
كالرجل الظليم ، ومن مالت إلى الجحيم نفسه ، فلا صديق له من الناس ، ولا
بد له من الله ، قصر القصص خير من الإضافة فيه ، المعدن لا يخرج منه الدر
البحر لا تخرج منه الفضة . دع عنك حدة العفاريت وغضبهم فإن الشيطان
صبح بهما رجيما ، ما دامت قدود الحسناوات ممشوقة كالألف وخصلات
شعرهن معقوسة كالجيم ، فليكن رأسك عالياً ووجهك مشرقا وجزاء الحسود
عذاب أليم ، ولتكن ساحتك مليئة بالعظماء كالركن الحطيم فى موسم الحج ، وكن
بجد جدك وبجد أبيك رحيما بالخاصة والعامة على حد سواء » .

* * *

أيضاً له :

« مرحباً بذلك العارض الطاهر الفضى وبزلفيك الفاحمين الملتويين كحرف

الجيم ، لا أرى من أخمص قدمك حتى رأسك شيئا ، ولو بقيت أمدحك أسبوعا كاملا ، إنك ترى تلك القامة السروية البهيجة فى الرؤيا ، وترى يد الطبيعة تعد باقة الورد على طبق الفضة ، ٣٨٣ مثل الحبيب الذى لاينال قربك كصاحب الهمة الذى يرى من الفقر سوء العذاب ، وإنك كالقمر وكالسمكة ، وجهك وقوامك ، هل رأى أحد قمرا ألطف من السمكة الناعمة ؟ يعيبون عليك اليتم وبعد الدار ، أليس الورد بعيد المنال والدر الثمين أليس يتيما ؟ لا عجب فى أن زلفيك لا يستقران ، لقد أهاجهما در العارض الفضى ، لا تحرمنى نعمة العقل ، أما يكفى قيد قدم الحكيم من أجلك وهو اليوم قتيل زلفيك ،كيف تخاف عيناك ، أو يبدو فيهما القلق ، لو لم يكونا كالزنجى الخائف من زلفيك هذين ، ما هذا الزلف كى يرعب عينيك ؟ ومن أنت حتى تعلم أحدا الخوف ؟ ولو سمعت اسم ملك الأقاليم السبعة فإنك لن تتجرأ مرة أخرى ، هو كسرى إيران ، أمير العرب شاه العجم ، هو فى كلمة واحدة ، إبراهيم سلطان العالم ، هو دائما لجده وأبيه ، ذاكر شاكر ، هو أقوى منك منزلة عند الله العليم ، هو ملك عند الناس ، زاهد عند نفسه ، ملك هذا شأنه لا يسقم ملكه ، لا يقدم فى دنياه على عمل قبل أن يعد له خير الرجال : هو طالب وصابر وأمين على سر قلبه ، هو غالب وقادر ورحيم بعدوه المنهزم ، همته كالفلك وعطاؤه كالشهاب ، ولو كانت مطامع الشيب والشبان كطمع الشيطان الرجيم ، قاسى صابرا ظلم الدنيا ثلاثة عشر عاما ، دون أن يخطىء فى قليل أو كثير ، ولو لبث رجل ثلاث عشرة سنة حبيس جنة الخلد ، فما أشبه هذا الخلد بالجحيم ، بقى الشاهنشاه فى السجن ثلاث عشرة سنة لا نديم له ، من الدنيا ، غير الصبر ، اللهم احفظه من شر الناس ، كيف يقال فى المثل « الملك عقيم » ، يا كسرى الزمان ، أيها الشاه الأمير ، يا مليكى العدل ، لماذا لا نصرح بفضلك ونشيد بذكرك ونكتفى بدق الطبل من تحت البساط ؟ ٣٨٤ استمع إلى النصيحة : من كل ناصح ،

ولا تركها ، خاصة إذا صدرت عن مثلى مخلصا عن قلب سليم ، أيها الملك العاقل خذ الحكمة من أفواه المجانين ، فقد استقام خط الرجل بتحريف القلم ، أقم سنة محمود بسيفك البتار ، لأن الكتب لا تحمل عدوك على أن يثوب لرشده، وإذا أردت بلوغ اسمك إلى الركن الحطيم ، فضع السيف على عاتقك ، ولا تسل عن أمس وليله ، أظهر قوتك بادئ ذى بدء ثم بيّن الحلم ، فليس حليما من لا يصدر عن القدرة حلمه ، مَن مِن العرب أو الترك يخدم هذه الدولة وليس المال أحب شيء إليه ؟ وسوف ينتظم عقد خراسان سريعا بفضل هؤلاء الشيوخ والشبان جميعا ، إن ما تأتيه من سيرتك الطيبة لم يأت به كسرى ولا غيره من الملوك ، ما العيب لو قال الرجل لا أعرف الكلام ؟ فقد استطاع الكليم أن يجعل من العصا ثعباناً ، يجب ألا تسحب جندك من أمام العدو ، ولو كان صفرا ، فالخير شطر الصفر نصفين ، لقد توارى الحاسد اليوم وسكت، وما كنت أعرف شيئا بالأمس عن دبلشيم ، أولى بمن لا أصل له ، ولا فضل فيه ، السكوت كالعدو الخالى الوفاض ، فاشكر لله شكرا إذ أعطاك ملك أجدادك دون تعب أحد ، هذا الملك لم يهيئه لك أحد ، لا شيخ ولا شاب ، ولا يمن السنين ولا يمن التقاويم ، إنما كله أتاك من ربك ، لله الأمر . وعلى العبد التسليم . لقد كان السلطان الشهيد بسجية الطيبة أعظم السلاطين همة ، فعش سعيدا طروبا ، ولتسقك الخمر حسناء ثغرها كالميم ، وليكن عدوك منهكا محطما مقيد القدمين ، أمسى كسير الفؤاد ، أضناه الخنوع ، واعمر البلاد بالعدل والإقبال ، ولا بارك الله من يخالفك » .

وقد أتينا فى هذا الكتاب بهاتين القصيدتين لما فيهما من العبر والمواعظ . وينبغى للملوك العظماء الأماجد أن يخاطبوا بمثل هذه العبارات الصريحة الرزينة الناصحة حتى تسجل بأسمائهم ، كما أننا لواجب يقتضى حث عظماء الملوك على تشييد بناء المعالى ، فإنه وإن كان سلوك المعالى من طبائعهم ، فإن الكلام والحث

يؤديان إلى إثارتها فى نفوسهم . والملوك ٣٨٥ ممن بلغوا أوج العز والجاه كانوا ممن يدخرون النصائح ويسيرون على هديهـــا ، وأقربهم إلينا سيف الدولة أبو الحسن على ، فلننظر قول المتنبى فيه مادحا ، حين رأى فيه الشهامة والكفاية والجد المحض ، فإن هذا القول سوف لا يدرس ما دامت اللغة العربية ، بل إنه سيزداد بهاؤه يوماً بعد يوم ، وقد خلد اسم سيف الدولة به . قال المتنبى[1] :

خليلى إنى لا أرى غـــير شاعر … فلم منهم الدعوى ومنى القصائد

فلا تعجبا إن السيوف كثيرة … ولكن سيف الدولة اليوم واحد

له من كريم الطبع فى الحرب منتض … ومن عادة الإحسان والصفح غامد

ولما رأيت الناس دون محله … تبينت أن الدهر للناس ناقد

أحقهم بالسيف من ضرب الطلى … وبالأمر من هانت عليه الشدائد

وأشقى بلاد الله ما الروم أهلها … بهذا وما فيها لمجدك جاحـــد

شننت بهـــا الغارات حتى تركتها … وجفن الذى خلف الفرنجـــة ساهد

وتضحى الحصون المشمخرات فى الـــذرى … وخيلك فى أعناقهن قلائد

أخو غزوات ما تغب ســـيوفه … رقابهم إلا وسيحان جامد

فلم يبق إلا من حماها من الظبا … لمى شفتيها والثـــدى النواهد

تبكى عليهن البطاريق فى الدجى … وهن لدينا ملقيات كواسد

بذا قضت الأيام ما بين أهلها … مصائب قوم عنـــد قوم فوائد

ومن شرف الإقدام أنك فيهم … على القتل مومق كأنك شاكد

نهبت من الأعمار ما لو حويته … لهنئت الدنيـــا بأنك خالد

---

(١) مطلع القصيدة :

عواذل ذات الخال فى حواسد … وإن ضجيع الخود منى لماجد

ص ٣٢٦ طبعة بيروت شرح اليازجى سنة ١٨٨٢ .

فأنت حسام الملك والله ضارب وأنت لواء الدين والله عاقد
أحبك ياشمس الزمان وبدره وإن لامنى فيك السها والفراقد
وذاك لأن الفضل عندك باهر وليس لأن العيش عندك بارد

ولولم يكن سيف الدولة على هذا القدر من الفضل فأنى للمتنبي الجرأة ٣٨٦ فى أن يخاطبه بهذا المحق، فإن الملوك لا يتقبلون النقد ويضربون الأعناق من أجله، وسيعمل الملوك جلائل الأعمال وسيمدحهم الشعراء، ما بقيت الدنيا. ويجب أن نمعن النظر فى أسباب عز أسرة السلطان محمود الكبيرة هذه وفيما يقوله العنصرى فى مدحه، وقد ذكرت عدة قصائد غراء له فى هذا الكتاب. وتدل الدلائل الواضحة على أن الآثار المحمودية ستتجدد على يد هذا السلطان الكبير إبراهيم فتنطلق ألسنة فرسان النظم والنثر فى ميدان البلاغة فيجولون ويصولون بأشعار تنسى الناس مآثر الشعراء السابقين. «والله عز ذكره بفضله وقدرته ييسر ذلك ويسهله فإنه القادر عليه وما ذلك على الله بعزيز».

وقد ذكرت على أثر هذه الأشعار ما قاله الدقيقى حتى يعتبر القراء بمطالعتها حين يبلغون هذا الفصل من الكتاب ثم أعود إلى سياق تاريخ عصر السلطان الشهيد مسعود رحمة الله عليه فأبدأ بالكتابة فيه من حيث انتهيت إن شاء الله عز وجل.

يقول الدقيقى:

«ترعى المملكة بأمرين الحرير والزعفران (السيف والذهب) أحدهما الذهب المكتوب عليه اسم الملك والثانى الحديد المشرب بالماء، اليمانى، إنه لا محيص عن المدد السماوى لكل من تحدثه نفسه بالملك، ولا بد أن يكون منطقيا، سخيا، وأن يكون فى قلبه الغضب والرحمة، لأن الملك صيد لا يصيده

العقاب الطائر ولا الأسد الضارى ، إنما ييسره أمران : السيف الهندى والذهب، والملك يؤخذ بالسيف وتوثق بالدينار قدمه ، لا يعطى الفلك مُلكا بالمجان ، إنما يعطه من له البخت والسيف والدينار والقامة ٣٨٧، العالية كالرمح والظهر الكيانى (الملكى)، ومن كان ذا عقل وجسارة »

وقد سجلت هذه القصيدة أيضا لما ظهر أخيرا من سيرة هذا السلطان العظيم ، وسنرى نحن الشيوخ ، إذا امتد بنا الأجل ، كثيرا من جلائل أعماله ، إذ حين نشاهد براعم الأشجار مزهرة نضرة ريانة نعرف ما ستكون عليه الثمار من النضج . وإنى ، أنا أبو الفضل ، آمل أن يمتد بى العمر فى هذه الدنيا الخداعة الغادرة حتى أتم كتابة سيرة هذه الأسرة ، وسوف أتوقف حينما أبلغ فى الكتابة عصر هذا الملك السعيد ، فأطرز هذه الديباجة الخسروانية باسمه الكريم بطراز من ذهب . » والله عز وجل ذكره ولى التوفيق فى النية والاعتقاد بمنّه وفضله » .

* * *

بقية سنة أربع وعشرين وأربعمائة (١٠٣٣)

بدأت تاريخ هذه السنة فى المجلد السابع وتحدثت إلى أن أوفد السلطان الشهيد مسعود عبد الجبار ابن الوزير أحمد عبد الصمد فى سفارة إلى جرجان ومعه الخادم والمهد ، وذلك ليحضر كريمة باكاليجار من حرم أبيها إلى حرمه . ويوم كتبت هذه القصة جدّت أمور فى بلاط هذا السلطان العظيم كما بينته وفرغت من بيانه ، والآن أعود إلى التاريخ .

وجاءت الكتب تترى من الرى بأن طاهر الكاتب (طاهر دبير) كتخدا الرى ونواحيها قد انهمك فى اللهو والشراب والمجون ، وبلغ من تهتكه أنه أخذ ينثر الورد فى موسمه يوما بصورة لم تصدر عن أى سلطان ، فقد كانت الدنانير

والدراهم مبثوثة بين أوراق الورد التي كانوا ينثرونها . وكان تاش والمقدمون بجانبه قد منحوا جميعاً منحة الأسنان . ولما عاد طاهر ثملا مع غلمانه وخاصته خلع العذار ، وبلغ به السخف إلى حد أن أمر بإحضار أواني ٣٨٨ الشرب الذهبية والفضية ، وربطت بحبال من حرير وتمنطق بها كأنها منطقة ، ووضع على رأسه تاجاً نسج من الياس والورد الجوري ،وكان يدق الأرض بقدميه ، وكذلك كان ندماؤه وغلمانه يدقون الأرض بأرجلهم راقصين ، وعلى رؤسهم الدبابيس . ثم ذاع حديث هذا المجلس في الغداة . وخاض فيه أهل المدينة من غريب وقريب . ولو أن هذه الأخبار قد بلغت الأعداء فعرفوا أن الكتخدا المشرف على الأعمال والأموال والتدبير يعيش على هذا النحو من الفساد ، وأن السپهسالار تاش وغيره من الكبراء يقتدون به في اللهو والطرب ، فأي هيبة تبقى للحكم . ولن يكون وراء ذلك إلا الأسف والقلق . ولم يكن بد من إبلاغ السلطان فإن من الخيانة إخفاء مثل هذه السيرة السيئة ، والرأي العالي لمولانا السلطان . وقد ضاق السلطان بهذا صدراً حين عرض عليه ، ولم يعقب بشيء . ولكنه في الغداة ، بعد انتهاء الاستقبال ، استبقى الوزير وأستاذي أبا نصر ، وأمر بإحضار الرسائل الممهورة ، وأخلى المجلس وأخذ يتحدث إليهما في هذا الأمر . قال السلطان : إني كنت أعرف طاهر دبير في رعونته وطيشه وكان من المحال أن أبعثه إلى الري . فقال الوزير : لم يحدث للآن ما يوجب القلق ويجب أن يكتب إليه بلومه وتوبيخه على ما بدر منه ، وأخذ العهد منه بألا يشرب مدة سنة . فقال السلطان : فليكن ذلك وليكتب أبو نصر الرسالة ، ولكن يجب التفكير في إعداد كتخدا آخر فمن ترونه أهلا لذلك ؟ فقالوا لو رأى السلطان أن يعفو عنه فإنه لم يصدر عنه سوى زلة واحدة . فقال السلطان إنكم لا تعرفون أحوال تلك الديار وقد عرفتها ، إنهم أناس يكرهون الخراسانيين ، فيجب أن تكون هيبتنا كاملة حتى يستتب الأمر ، ولو سرنا

على غير ذلك لاحتقروا شأننا وتنقلب كل هـذه النظم رأساً على عقب . قال الوزير إن السلطان أعرف بأحوال خدّامه ، ينبغى أن ينصب هناك رجل مهيب ، وقد حضر أبو القاسم كثير من هراة وهو رجل مشهور بالفضل ، وكذلك فإن أبا سهل الحمدوى شهم وكفء ، وأبا سهل الزوزنى قد عانى الكثير من المتاعب وهو من خاصة خدم السلطان ومن أهل السمعة الحسنة ، وكذلك عبدوس فإنه قد نال الشهرة والجاه وهؤلاء هم أكثر خدام السلطان قوة ، والآن فلينظر السلطان وليأمر بمن يرغب فى تنصيبه . فقال السلطان إن أبا القاسم كثير لم ينجز ما عليه حتى ٣٨٩ الآن وينبغى أن يحاسب وفقاً لما طالبه به أحمد حسن ثم نأمر بمـا ينبغى فى شأنه حين يفصل فى حسابه . وأما أبو سهل الزوزنى فإنه ليس أهلا لأى عمل كبر أو صغر إلا السعى بالنميمة والفساد وتخليط الأمور أما يكفى ما كان منه من الخيانات فى حق خوارزمشاه وفى الأمور الأخرى ؟ وأما عبدوس فإنما نحن فى حاجة إلى عمله عندنا ، ولكن أبا سهل الحمدوى أهل لهـذا المنصب فإنه ذو شهامة وكفاية وحنكة وله فى مهام الأمور سابقه . فقال الوزير نعم ما رآه مولاى فليس أجدر من أبى سهل الحمدوى . فنادى السلطان الخادم الموكل بالستار وأمر بأن ينادى أبا سهل الحمدوى ، فناداه فحضر وتقـدم من السلطان وجلس . فقال السلطان إنا قد جربنا عودك فى كل ما عهدنا به إليك فوجدناك شهماً وكفأً وأهلا للاعتماد عليك ، وإن أعمال الرى وما والاها من أهم الأعمال ، ولا يتأتى من ظاهر القيام بها ، وقص عليه أحواله ثم قال له إنا قد اخترناك بدلا منه ، فانصرف وتأهب للمسير وسنأمر بما ينبغى. فقبّل أبو سهل الأرض وقال : قد كنت أود أن أستمر بالخدمة فى البلاط ولكن لا رأى للخدم وإنما الأمر لمولاى ، فإن يأذن لى السلطان فإنى أجلس للتشاور مع الوزير وأبى نصر وأدلى إليهم بما أعرف فى هذا الباب وأكتب شروط العهد ، وأطلب كل ما ينبغى ، فإنه حسب ما سمعت ، قد تأزمت الأحوال هناك ،

وذلك كى أسير على هدًى . فقال السلطان : حسناً . واختلى ثلاثتهم وأعدوا الأمر على هذا النحو ، وطال الحديث بينهم كثيراً ، فقالوا وكتبوا كل ما ينبغى فيه القول والكتابة ثم انصرفوا . وكتب أبو سهل الحمدوى شروط العهد كاملة فى كل باب ، فإنه كان يجيد الكتابة ، وكان عظيم الكفاءة والتبصر . وعرض أبو نصر العهد ، فأجاب السلطان بخطه قائلا أولا ينبغى أن يكون لأبى سهل هناك جاه عريض ، وثانياً عليه أن يكون ذا مهابة وأبهة وتبصر تام . وكتب كل ما عنّ له ثم وقع العهد . وأعادوه إلى أبى سهل الحمدوى مع أكثر من أربعين رسالة موقع عليها من السلطان ، كنت (أبو الفضل) قد كتبتها ، وكان أستاذى قد ٣٩٠ أملاها علىّ . وأمر السلطان بأن تعد له خلعة مما يعد للوزراء ، إذ كان فيها المنطقة (الكمر) والمهد وعشرة غلمان من فرسان الترك ومائة ألف درهم ومائة ثوب ، وأمر بأن يخاطب بالشيخ العميد . وامتعض الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد من مخاطبته بهذا اللقب ، واستدعانى وعتب على أستاذى ، وأبدى اليأس وكلفنى بمشافهة طويلة ، فجئت وبلغتها لأستاذى . وكان أبو نصر رجلا مهذبا يرعى الحدود والآداب ، ويسلك مع الناس بكثير من التواضع والحسنى فقال : « إن الحمقى هم الذين يجادلون فى هذه الأمور فإن السلطان إذا رفع سائس الخيل درجات وولاه الوزارة فلا مناص من الامتثال لأمره ، بغض النظر عمّن نصّب ، خاملا كان أم مذكورا . وإنه لمن اللجاج الذى جاوز الحد أن يوجه هذا العتاب إلى رجل يحافظ على الحدود ولا يرضى مطلقا أن يعتدى على مكانة الوزير وديوانه » . ثم قال لى : « قل للأستاذ الرئيس إنى قد عرفته منذ أمد طويل وعرفته وزيرا شهما فاضلا كاتبا كبير العقل ، ولو لم يتصف بهذه الفضائل لما بلغ هذه المرتبة السامية ، فإنه قد اختير من بين زمرة الفحول الذين كتبت أسماؤهم ، وهو يعرف أنهم جميعا من العظماء ذوى الجاه وممن لهم فى خدمة السلاطين سابقة ، ولعله قد خفيت عليه آداب

خدمة السلاطين لأنه لم يشتغل بخدمتهم ولم يشاهد أخلاقهم وعاداتهم عن كثب ، ولم يكن متصلا بهم بل كانت صلته بأتباعهم ولا تقولنّ إنه قد قرأها فى الكتب ، فنى مثل هذه الأحوال ، الكتب شىء والتجارب شىء آخر . ولاغرو أن هذا السلطان نادرة عصره ولا سيما فى الكتابة وتوجيه أساليبها ، وفى منح الألقاب ، وقد قال منطقه السامى إنه يجب أن يخاطب أبو سهل بالعميد فأنا أعظم شأنا من آل بويه وخادمنا أعظم منزلة من الصاحب بن عباد ، والأستاذ الرئيس يعلم أن السلطان محق فى هذا ، ولكن لو أنصف الوزير وذكر أن أبا سهل الحمدوى قد نال فى شبابه عدة من ذهب لفرسه من سلطان عظيم كمحمود ، وأنه قد نال منصب صاحب ديوان غزنة وأطراف المملكة ٣٩١ وهندوستان القريبة من غزنة ، وتتلمذ طويلا على وزير نابه كأحمد بن حسن ، وولى الوزارة أيام الأمير محمد ، إبان تربعه على العرش ، وارتدى خلعة الوزارة ، وكتب إليه خوارزمشاه التونتاش ذلك الكتاب الذى يعرف الوزير محتوياته وماذا كتب عن نفسه فيه ، والذى لم أقف أنا على ما فيه ، لوأنصف الوزير لذكر هذا كله ولما عدّ هذه المخاطبة بالعميد أمرا فى غير محله ، فينبغى الإنصاف ، وإذا كنت أنا صاحب ديوان الرسائل الذى تجرى المخاطبات بمعرفتى قد كتبت إليه بهذا اللقب فلا يعيبن أحد علىّ ذلك ، فإنى قد كتبت ما يستحقه ، وإذاً فليس من الإنصاف معاتبتى وخاصة بعد أن أمر بذلك مولاى السلطان ، وإن الوزير لم يزل حديث عهد بأمثال هذه الأمور ، ولعله يعرفنى بعد انقضاء مدة من الزمن ، ومع هذا كله فإنى لا أستخف بأمر الوزير فى هذه الأمور ولو يكتب فى هذا المعنى رقعة أو يبلغنى إياها شفاها فإنى أؤديها للسلطان » .

وقد حملت هذه الرسالة للوزير أحمد ففكر مليا ثم قال : « إن الخواجة أبا نصر على حق فى هذا الشأن ، وليس من الصواب عرض هذا الأمر على السلطان ، وكذلك لا يجوز أن يطلع أبو سهل على هذا الحديث كى لا يستاء منى . وآمل

أن لا يحرمنى ويبخل علىّ أبو نصر بأمثال هذه النصائح فإن كل ما يقول « مقبول وموجب الشكر » . وعدت وذكرت ذلك لأستاذى وسرّ به كثيرا . وفى الغداة تحدثت مع الوزير فى هذا ، ثم انقطع الحديث فيه . وفى الثلاثاء لست خلت من جمادى الثانى لبس أبو سهل الحمدوى الخلعة بعد الاستقبال ، فدنا من السلطان وقبّل الأرض وقدم له عقدا من الجوهر ، وأجلسوه فقال السلطان « بورك فيك » وأعطاه خاتماً عليه اسم السلطان. وقال : «هذا خاتم ملك العراق وضعناه فى يدك فأنت خليفتنا فى تلك الديار ، والأمر لك من بعد أمرنا فى الجيش والرعية فى كل ما يؤول لصالح البلاد والعباد ، فسر فى عملك بجنان ثابت » . فقال أبو سهل : سمعا وطاعة وسوف أبذل قصارى الجهد ملتمسا من الله التوفيق للوفاء بهذه الثقة الغالية ، ثم قبّل الأرض وانصرف إلى بيته حيث وافاه العظماء جميعاً وأدوا حق قدره . وفى الغداة جلس السلطان للاستقبال ٣٩٢ وبعد انتهاء الاستقبال اختلى بالوزير وأبى سهل وأبى نصر مشكان . فقال السلطان لأبى سهل : فكرنا بالأمس فى أمر الرى والجبال فرأينا من الصواب أن نبعث معكم ولدنا الأمير سعيد بأبهة فائقة حتى يكون نائباً عنا وتكون كتخداه ؛ بحيث يكون الحل والعقد والخفض والرفع والأمر والنهى فى يدك ويصغى ولدنا إلى نصحك فتكمل بذلك أسباب الهيبة . فقال أبو سهل : إن رأى مولانا أفضل الآراء ، وهو أعرف بأحوال تلك البلاد ، والأمر له ولو أذنتم لى فإنى أرشده بمقدار علمى وتجاربى ، ويعمل بعد ذلك بأمركم السامى . فقال السلطان : لا بد من تبيين الأمور له فإن نصحك إياه مقرر . فقال أبو سهل :

« أطال الله حياة السلطان ، إن الحالة فى الرى والجبال اليوم على غير ما تركها مولاى ، فقد حدثت بها فتن ، ولم يحدث أثر لتحسن الأحوال على يد من أرسلوا هناك ، وإلا لما فكر مولاى فى إيفادى ، والرى والجبال ملؤهما الأعداء ، وأهل تلك البلاد لا يحبون الخراسانيين ، وقد أنفقت جميع خزائن

آل سامان على الرى إلى أن عقد معهم أبو الحسن سيمجور الصلح ، بين سادته وآل بويه ، ونامت الفتن وأغمدت السيوف بعض الوقت ، وابن كاكو الذى يملك اليوم ولاية إصفهان وهمدان وجزء من الجبال خصم مبين وماكر ، اجتمع له المال والجند والخداع والحيلة والمكر ، ولن تنتظم الأحوال فى الرى والجبال مالم يلق ابن كاكو منا ضربةً عقابا له على فعاله أو أن نحرمه من نعيم الملك ، أو أن يأتى صاغرا ويرسل ولده إلى الدركاه ويصبح عبدا مطيعا للسلطان ويسلم الخزانة كل سنة ما تجمع لديه من الأموال ، وينظر إليه حكام الأطراف فيلزمون الطاعة بدورهم ؛ ثم كيف تستقيم الأمور وطاهر وتاش ومن معهم هناك قد انهمكوا فى الشراب واللذات وهم عن واجبهم غافلون ؛ ثم إنى متى بلغت الرى أمكث بها شهرا واحدا ، ثم أقصد إصفهان وابن كاكو ولن أشتغل بأمر الرى قبل أن أفرغ من أمر ابن كاكو ؛ ولا يجوز حين يكون الأمير سعيد معى أن أتركه فى الرى ، فإنه لا يستطاع الاعتماد على الرازيين ، ٣٩٣ ولن يكون مناص من أن أصحبه معى إلى إصفهان ، ولن أستطيع أن أغفل عنه لحظة ، فإذا سرت للقاء العدو فلست أدرى أيكون سلم أم حرب ، فإذا كان السلم فالصلح خير ، ولكن إذا كانت الحرب فإنى وكثيرين من عبيد السلطان سنستشهد فى خدمته وطاعته ، ولا أعرف ماذا سيكون من أمر الأمير ، ولسوف يكون أمامه فى هذا السفر القاصد حتى نيسابور ألف عدو ، فلو يرى السلطان أن يجعل باسم الأمير ولاية الرى والعراق، وأن أذهب خليفة له هناك وأجعل الخطبة باسمه ، وأقيم فى الرى شهرا حتى يستقيم أمر العمال ، وأعد تاش والجند هناك وكذلك الجند الذين سيعينهم السلطان للسفر معى ، بكامل الأهبة للقاء ابن كاكو ، وتستقر الأمور صلحا أو حربا ، ونعود إلى الرى هادئى البال ، ونطلع مولانا على ما يتم ، وحينئذ يسير الأمير على أساس

سليم ، ويجيء إلى الرى وليس من شيء يقلق خاطره . وقد بينت ما رأيت والرأى للسلطان » .

فقال السلطان للأستاذ الرئيس وأبى نصر ما رأيكما . فقال أحمد عبد الصمد الرأى السليم ما قاله ولا يجوز غيره وينبغى المضى فيه . وقال أبو نصر : ولو أن هـــذا الكلام ليس من صناعتى فإنى أشتم منه رائحة فتح إصفهان . فضحك السلطان وقال : إنى رأيت ما رأى أبو سهل وهو عين الصواب ، وهناك جيش قوى ويجب أن نزيد عليه ، وأن نختار العمال من رجال الدركاه . وقال أبو سهل إنه رغم كثرة الجند هناك ، فإنه يجب أن أسير من هنا مجهزا بجيش آخر ، حتى تكون لى هيبة فى نفوس الأصدقاء والأعداء ، وكذلك ليعرف ابن كاكو وغيره أن جيشاً متصل الحلقات قد قام من خراسان فتأخذهم الهيبة . فقال السلطان : حسناً ، وإنك تعرف أعيان الجند ومقدميهم فاكتب قائمة بأسمائهم ورشح من تريد منهم حتى نعينهم معك . فطلب أبو سهل الدواة والورق لجيء له بهما من ديوان الرسائل . وأخذ أبو سهل يكتب ، وطلب ابن أرسلان الجاذب ، وقال للسلطان إنه ذو شهرة حسنة ، وله شخصية قوية . فاستجاب له السلطان . وطلب كذلك اثنين من كبار سرهنكية السراى مع مائتين من غلمانها الشجعان المبارزين الذين كادت تطر شواربهم ، ٣٩٤ فأجيب إلى طلبه . فقال أبو سهل : أطال الله حياة السلطان ، يلزمنى خمسة أفيال ذكور ممتازة وخمس إناث من التى تدك الأسوار وتحطم الأبواب ، فلعلنا نلجأ إليها فى حصار المدن . فاستجاب له السلطان . وطلب من العمال أبا الحسن السيّارى وأبا سعد الفسانى وعبد الرازق المستوفى وقبل السلطان طلبه .

وقال السلطان للوزير إذهب إلى الديوان وهيء ما يلزم من الجند والعمال

إلى أن نأمر بإعداد الغلمان والفيلة ، حتى يتمكن من السير إلى الرى فى غرة رجب ، فإنا على كل حال سائرون إلى هراة فى الثالث أو الرابع من هذا الشهر ، عسى أن يهدأ بالنا من ناحية الرى والعراق .

وعادوا من حضرة السلطان وظل الوزير فى ذلك اليوم بالديوان حتى صلاة المغرب إلى أن استدعى المقدّمين وأعطاهم ما يحتاجون إليه من نفقات ، وقال لهم استعدوا فإنكم سائرون إلى الرى مع أبى سهل . ثم إنهم عادوا وأخذوا يتهيأون لهذا الأمر . واستدعى السلطان أمين القصر وكاتب الغلمان واختار مائتين من الغلمان أكثرهم قد طر شاربه ، وكلهم ممتازون ومبارزون ومن المهرة فى حمل السلاح ثم كتبت أسماؤهم وقدموا للسلطان مع قائدين شجاعين واعتقهم جميعا وأمر لهم بالصلات والنفقات وكرام الخيل وأعطى القائدين الخلع والألوية وأمرهما أن يذهبا إلى أبى سهل وأمر أن يختاروا الفيلة ويسوقوها إليه . وكان أبو سهل يستعد بحماس ويهيىء الكثير من العدد والآلات ويمهد للخطة وكان له عشرون غلاما واشترى خمسين أو ستين غيرهم حتى يذهبوا إلى الرى معه .

وجاء عبد الجبار ابن الأستاذ الرئيس ومعه الوديعة (بنت باكاليجار وعروس السلطان) ومال الضمان ، وقد ظفر بكل ما طلب من باكاليجار وعقد معه عهدا وثيقا . وقد حظى برضاء السلطان الكامل فأمر بإدخال رسل جرجان بالنهار ، ثم ذهبوا ليلا بالمهود التى أعدت لزوجات عظماء نيسابور ، وزوجات كل من الرئيس والقضاة والفقهاء والأكابر والعمال لاستقبال مهد بنت باكاليجار ، وكان على مسيرة نصف فرسخ من المدينة ، وأكرموا وفادة خدام وجماعة جرجان ، وكانت سراى وبيوت حسنك قد زينت كأنها درجات الفردوس

الأعلى ، وأمر السلطان بأن ينزل مهد العروس بها مع الجوارى والمربيات[1] والمشرفين والنساء والخدم والخادمات . ورجع أكابر نيسابور ، وكانت هذه المدينة تلك الليلة ، من كثرة ما أضىء ٣٩٥ فيها من الشموع والمشاعل ، كأنها فى طالعة النهار ، وجلس خدام الحرم السلطانى على باب الحرم ، وقد عين كثير من الرجالة لتناوب الخدمة فى الدركاه مع حاجب يصحبه عدد غفير من الرجال . وأعدت حاجيات لا تحصى بأمر السلطان ، وأرسل جزء منها إلى سراى الحرم . وعند منتصف الليلة جاء إلى هناك أهل الحرم السلطانى جميعاً من شادياخ . وفى الغداة أمر السلطان بنقل الكثير من الذهب والفضة والطرائف هناك ، فكانت أبهة بالغة فى الضيافة . وجيء بنساء كبراء نيسابور ونثرت النقود ثم أكلن وانصرفن .ولم يرأحد «الوديعة» الزوجة التى كانت فى مهدها ،وبعد صلاة العشاء ركب السلطان من شادياخ ، ومعه جمع من حاشيته وثلاثمائة غلام من خاصته كلهم من الفرسان ، وثلاثمائة غلام رجّالة وخمسة من حجاب السراى ، وجاء إلى جوسق حسنك ، حيث نزل فى سراى الحرم مع عشرة من خاصة خدمه الذين يسمح لهم برؤية سيدات الحرم . وقد نزل هؤلاء الغلمان والخدم فى الوثاقات ـ البيوت ـ التى شيدها الوزير حسنك حول الجوسق لغلمانه الذين كانوا بين خمسمائة غلام وستمائة . وطلعت شمس السلطان المشرقة على عروسه التى كانت كالقمر ، وكان لأهل جرجان من هذه الشمس مزيد من الفخار والشرف ، وتم الزفاف ببركة الله .

وليس لمن هم خارج الحرم السلطانى أن يتحدثوا فى هذه الأمور سواء كان الحديث عما فات أو عما يجرى اليوم ، ويجدر بى ألا يجرى قلمى بما يحول

---

(١) الكلمة المستخدمة ـ دادا كان ـ وهى جمع داده . وهى الخادمة بوجه عام ، وتطلق خاصة على الخادم العجوز التى تخدم الأولاد منذ طفولتهم . برهان قاطع

بخاطرى . وظل الأمير فى خلوته ومرحه فى اليوم التالى ، وفى اليوم الثالث ، وقت السحر ، سار إلى شادياخ وفى الضحى أذن بالاستقبال فوفد الأولياء والحشم مهنئين ، ومثل فى حضرته أبو سهل الحمدوى ومن عين معه وقد ارتدوا ثياب السفر فسلموا مودعين فتلطف السلطان معهم وجدد لهم عطفه وساروا نحو الرى ، وكان ذلك بعد صلاة الجمعة غرة رجب من سنة أربع وعشرين وأربعمائة.
وفى الآونة التى كان فيها هذا الرجل القدير فى الرى حدثت أمور ذات بال منها الحسن والقبيح ، فمن الناس من أطاعه ومنهم من اتبع هواه ، إلى أن عاد أبو سهل إلى نيسابور عند السلطان ثم وقعت واقعة دندانقان . وسأفرد لها بابا خاصاً فى هذا الكتاب ، إذ أنهم كانوا فى عزلة عنا ، وقد ذهبوا إلى بلد ٣٩٦ قصى بحيث يتبين منه حقيقة هذه الأحوال كما سيكون الباب الخاص بخوارزم .
وسأتناول باب خوارزم أولا فأذكر أن هرون بن خوارزمشاه ألتونتاش قد أعلن العصيان ، وأن عبد الجبار ابن الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد قد توارى ، ففى هذين البابين عجائب ونوادر والآن نمضى فى ذكر ما كنا بصدده من التاريخ فنروى ماينبغى منه . وفى اليوم الثانى من رجب منح الرسل والخدم، الذين أوفدهم با كاليجار مع مهد ابنته ، خلعا لائقة ، وسلمت إليهم خلعة فاخرة مما يمنح للولاة باسم با كاليجار . وفى الغداة ، الأحد الثالث من رجب ساروا نحو جرجان ، وكانت ابنة با كاليجار قد أتت معها من جهازها بما لاحد له ولا وصف ويصعب بيانه تفصيلا . وقد سمعت (أبو الفضل) من ستى زرين المطربة ، وكانت مقربة من مسعود فبلغت منصب الحجابة فى الحرم وكان السلطان يعهد إليها بتبليغ مايريد من الرسائل لأهل السراى فى كل باب ، تقول: « كان للعروس سرير كأنه البستان ، وكان ضمن جهازها ، فأرضيته كانت من نسيج الفضة المزخرفة ، وقد اجتمعت عليها ثلاث أشجار من الذهب ، أوراقها

من الفيروز والزمرد ، وثمارها من أنواع اليواقيت وقد لفت هـذا السلطان فأمعن فيه النظر وأعجب به كثيرا ، ويحيط بهذه الأشجار الثلاث عشرون من آنية النرجس وأصناف الورود والرياحـين كلها من الذهب والفضة وأصناف الجواهر ، ومن حول هـذه الآنية الفضية طبق من الذهب مملوء بالعنبر ومشمومات الكافور » . هذه واحدة مما فى الجهاز تبين ما كان عليه باقيه من البهاء .

وفى آخر جمادى الثانى هـذا اعترت العلة السيد أبا الحسن العقيلى ، ٣٩٧ وظهر على ظهره شىء ، والعياذ بالله ، فبعث إليه السلطان الأطباء ، ولـكن ماحيلة الطبيب مع القضـاء . وقد مات رحمة الله عليه يوم الإثنين الرابع من رجب .

ذكر ما جد من النوادر والعجائب فى نيسابور فى صيف هذا العام

جلس السلطان مسعود ذات يوم للاستقبال ، وكانت رسالة من صاحب بريد الرى قد وصلت ، وفيها أن التركمان لا يقر لهم قرار ، وأنهم أصبحوا قوماً آخرين بعد أن سمعوا قصة ابن يغمر الذى جاء بجيش من بلخان كوه إلى الصحراء ليأخذ بثأر أبيه ومن قتل معه ، وأنهم على وشك أن يفسدوا فى الأرض ، وأن السپهسالار تاش وطاهر اشتد قلقهما لهذا السبب ، وقد قالا إنه يجب عرض الأمر على السلطان . وكنت (أبو الفضل) حاضرا ، فقد كانت النوبة علىّ وكان أستاذى أبو نصر غائبا . فصاح بى السلطان لأرسل رجلا لأبى نصر حتى يأتى . فسارعت بإرسال وكيل الباب . وجاء أبو نصر فورا وكان مضطربا . وقد اختلى معه السلطان إلى قرب الغروب . فلما خرج أسر لى بأن قل للسلطان إذا سأل عنى

إلى ذهبت بالأوراق لأكتب ما يلزم . وبعد صلاة المغرب جاء وقال لى : « إعلم يا أبا الفضل أنه قد أعدت خطة سينشأ عنها فساد عظيم » . وقد دعانى السلطان بعد انصرافه وقال متى مشى أبو نصر ؟ قلت مشى قرب صلاة المغرب وقد أخذمعه الورق. فقال : « أكتب له من عندك رقعة وقل له إن الرسالة التى أمرتُ بكتابتها الليـــلة تُكتب مسودتها ولا تبيض حتى ندرس المسودة غدا ونتشاور مع الوزير فيها ثم نأمر بما ينبغى » . وعدت وكتبت الرقعة لأستاذى وبعثت بها إليه وفى الغداة بعد الاستقبال اختلى السلطان بالوزير وبأبى نصر إلى قرب الظهر . ٣٩٨ ثم قاما وجلسا وحدهما على دكة كانت على حافة خمائل البستان وتحدثا طويلا وبعدئذ سار أحمد عبد الصمد إلى ديوانه ، وجلس أبو نصر على فراش أعد له على تلك الدكة بين الأشجار ، وقد استدعانى فذهبت إليه فأعطانى مسودة كتاب لأبى طاهر دبير وقال يجب أن تكتب ملطفة صغيرة وقد قيل لطاهر فيها : « إنا عزمنا على أن نرسل الأستاذ العميد أبا سهل الحمدوى مع جيش قوى ومقدّم مشهور وإنه سيأتى سريعا فى أثر هذه الملطفة ، وإنا سنتوجه نحو هراة فى الخامس من رجب ، وحين نصل هناك سالمين ، سنقبض على فرقة من التركمان هناك وننقل خيامهم وأمتعتهم إلى غزنة . فعليك يا طاهر أن تدبر لهذا الأمر سراً فتلقى القبض عليهم بحجة أنك ستجهز استعراضا ، وسيكون أبو سهل الحمدوى قد وصل فعليكم باتباع رأيه فى هذا الشأن ، ولا تظن أن هذا الأمر يسير ، وقد وقعنا هذه الملطفة الصغيرة لتأكيدها . وقيل سراً للفارس الذى يحملها أن يخفيها فى بطانة سرجه أوفى حذائه حسب ما يستصوب ، وإن معه رسالة مطولة علبها توقيعنا خاصة بأعمال تلك الناحية على ورق كبير ليظهر منها أنه قدم من أجلها ، ومعه كتاب آخر فى موضوع الحج فى الرى والجبال » .

وقد حررت (أبو الفضل) هذه الملطفة الصغيرة والرسالة المطولة فقدمهما أستاذي ووقعهما من السلطان ثم أعادهما . وجيء بفارس من المعتمدين وأعطاه

فرساً كريما وألفْ دينار صلة ثم سلّمه الملطفة والرسالة ، وأمره أستاذى بما يتّبع بشأن الملطفة الصغيرة وكيف يوصل الرسالة المطولة . وكتبت له خطا بامفتوحا . وسار الفارس ، كما سار أبو نصر إلى السلطان فأعاد على مسامعه ما عمل ، وقام السلطان فدخل سراى الحرم وأخذ ٣٩٩ يشرب وحده . ورجع أبو نصر إلى تلك الصفة بين الخمائل واختلى بى وقال . « أكتب إلى وكيل جوزجان وكروان رسالة منى لكى يعرض للبيع ، بمجرد قراءة هذه الرسالة ، عشرة آلاف من غنمى ، كباشا ونعاجا ، وأن يبيعها بسعر اليوم ويرسل ثمنها ذهبا وفضة إلى غزنة » . فكتبت الرسالة فذيّلها بخطه ثم أودعت ظرفا ووضعت فى بريد جوزجان ، ثم وضعت الحلقة فى كيس البريد وأغلق وأرسل . واسترسل أستاذى فى تفكير عميق . وكنت أحدث نفسى بأن السلطان إذا كان قد أمر بالقبض على التركمان فى الرى فما معنى بيع غنم رباط كروان بسعر اليوم ؟ وقال لى أستاذى أراك قد استغرقت فى التفكير فى حديث التركمان والقبض عليهم ورسالتى لوكيلى لبيع الغنم ؟ فقلت . والله وحياة مولاى إنى أفكر فى هذا . فقال : « اعلم أن القبض على التركمان أمر مخالف للصواب لأن من المحال أن تقبض على ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف فارس ولم يأت كتاب للسلطان يبين الحيلة فى القبض على التركمان ولكنه يسارع ويأمر بالقبض على نفر منهم فى هراة وبأن تجلى خيامهم وأمتعتهم وبهذا يثيرون هؤلاء القوم الذين جاءوا مع رحالهم وتصل الأخبار إلى الرى فيثيرون تركمانها ويجيء ابن يغمر من بلكان كوه مع فرسان آخرين أقوياء فينضم التركمان بعضهم إلى بعض ويدخلون خراسان ويسلبون كل ما يجدون من الماشية ، لقد تنبأت بهذه الأمور فأمرت ببيع غنمى لأنها لو بيعت بأقل من ثمنها الأصلى فإنى سأحصل من ثمنها على شيء ، ولا تنهب أموالى سدى ، فقد أخطأوا فى ما دبروا . وقد تناولنا ، الوزير وأنا ، هذا الموضوع كثيرا ، وبيّنا سوء العاقبة ولكن بلا جدوى ، فإن هذا السلطان على خلاف أبيه همة وقلبا ، كان أبوه

رجلا ذكيا بعيد النظر . كان إذا قال عن شيء مجانب للصواب إنى سأفعل هذا فإنه يقوله بجبروته وسلطته ، فإذا بيّن له أحد رجاله ما فى رأيه من الصواب والخطأ ، كان يغضب ويثور ويشتم ، ولكن كان حين يتدبر الأمر ثانية يعود إلى الصواب ، وطبع هذا السلطان (مسعود) شيء آخر ، فإنه مستبد برأيه عن غير روية ، ولست أدرى ماذا ستكون العاقبة » .

قال هذا ثم مضى إلى بيته . وأما أنا فحدثت نفسى بأن هذا الرجل بعيد النظر حقاً ، ولعل ما يخشاه لا يحدث . وحقاً ثم حقاً إن ما تنبأ به قد وقع فإن تدبير القبض على التركمان فى الرى لم يكن صواباً ، وقد فزعوا كما سأبين ، وجاءوا من الرى إلى خراسان ، وجرى منهم من الفساد ما كان ، وأخذوا كثيراً من الماشية فى جوزجان . وبعد سنة من هذا كنت فى غزنة على مائدة أستاذى ، وكان عليها حمل سمين فقال لى ولأبى نصر طيفور الذى كان سپهسالار شاهنشاهيان[1] : كيف وجدتما الحمل ؟ قلت غاية فى السمن . فقال لقد أحضروه من جوزجان . فنظر كل منا لصاحبه فضحك وقال إن هذا الحمل اشترى من ثمن تلك الأغنام التى بيعت فى رباط كروان ، وأعاد القصة التى ذكرتها . وجرى كذلك حدث آخر فى ذلك الصيف ، جرى على أحمد ينالتكين سالار الهند فقد ظلموا رجلا وحملوه على العصيان وكان من هذا فتنة فى خراسان وتقوية لشأن التركمان والسلاجقة وذلك بعد قضاء الله عز ذكره ، فإن لكل عمل سبباً . فقد كانت صلة الأستاذ الرئيس أحمد حسن بأحمد ينالتكين سيئة للسبب الذى ذكرته قبل هذا الباب ، فإنه مهّد لمصادرة أمواله حين كان الوزير بحاكم ، وكذلك كانت صلته بقاضى شيراز لأن السلطان محمود ذكر مراراً أن القاضى يليق للوزارة . وقد

---

(١) فى النص شاهنشاهان ، وذكر غنى ـ فياض حاشية ٢ إن اللفظ ورد فى نسخة أخرى بشاهنشاه . وجاء ذكر هذا البلد فى ص ٣٩ من البيهقى باسم شاهنشاهيان .

ألتى أحمد حسن فى روع ينالتكين حين أوفد كسالار للهندوستان أن لا يقيم وزناً لقاضى شيراز « لأنك سالار هندوستان بأمر السلطان وليس للقاضى سلطان عليك وليس له أن يحتال عليك ويخضعك لأمره » . وسار ينالتكين ثابت ٤٠١ الجنان فلم يقم وزناً للقاضى ولم يسأله شيئاً فى أمور السالارية . وكان ينالتكين رجلا ذا شهامة وكانوا يسمونه « عطسة » السلطان محمود ، وقد بقى وفياً له . وقيل كثير فى أمر والدته وولادته وصلتهما بالسلطان محمود ، وإن أمه كانت عشيقة للسلطان محمود . وعلم ذلك عند الله عز وجل .

وكان هذا الرجل يعرف أخلاق السلطان محمود معرفة تامة ، فى جلسته وحديثه . فلما ذهب إلى هندوستان كان معه عدة غلمان متكبرين شجعان فى كامل الأهبة والأبهة . وكان بينه وبين قاضى شيراز لجاج فى أمر السالارية . قال له القاضى كان يجب إسنادها إلى عبد الله قراتكين ، وأن يكون خاضعاً لأوامرى . فقال ينالتكين : « لن أخضع لأمرك أبداً ، لقد عهد السلطان إلىّ بهذا العمل وقد كنت دائماً أكثر وجاهة وأوفر احتراماً من عبد الله وكان عليه وعلى آخرين سواه أن يسيروا تحت لوائى » . وطال الحديث فى هذا . واستدعى حشم لاهور والمطوّعة ينالتكين فذهب ، كيدا منه للقاضى ، مع المطوّعة وقصد مكاناً بعيداً . وأرسل القاضى القصاد يشكوه . وبلغ القصاد بست . وكنا نزمع السير إلى هراة ونيسابور فسأل السلطان الأستاذ الرئيس أحمد حسن عن الصواب فى هذا ؟ فقال أحمد : « إن ينالتكين خير الجميع للسالارية ، ويجب إجابة القاضى بأن لك كتخدائية الأموال (جباية الأموال) فما شأنك بالسالارية والجند ؟ . وإن ينالتكين نفسه يعمل ماينبغى وسيأخذ مال تكران من الخراج والرسوم ثم يذهب للغزوفينهال من ذلك مال وفير على الخزانة ، وما ينبغى وقوع نزاع « ما بين الباب والدار » . فاستحسن السلطان هذا الرأى ، وكتب الجواب على هذا النحو ، واشتدت عزيمة أحمد ينالتكين ، فإن الوزير كتب له

يقول : « لقد كتب قاضى شيراز كذا وكذا وأجيب بكذا وكذا » . وسار ينالتكين مع المطوّعة وجند ٤٠٢ لاهور وتسلم الخراج كاملا من تكران ثم رجع فعبر نهر الكنج واتجه يساراً ، وانقض على مدينة يقال لها بنارس من ولاية الكنج لم تبلغها جيوش المسلمين من قبل ، وهى مدينة طولها فرسخان وعرضها كذلك وبها أنهار كثيرة ، ولم يستطع الجيش المكث بها أكثر مما أقام ، ما بين صلاتى الصبح والعصر ، فقد أحدق به الخطر . وكذلك لم يكن فى وسع الجند أن ينهبوا أكثر مما نهبوا من أسواق البزازين والعطارين وتجار الجواهر . وقد أثرى الجند ، فقد ظفروا جميعاً بالذهب والفضة والعطر والجواهر وعادوا بعد أن نالوا منها ما يشتهون . وأوشك القاضى أن يجن حين سمع خبر هذا الغزو العظيم ، فأرسل القاصدين على عجل إلى نيسابور ، فجاؤونا وبينوا الرسالة التى قال فيها : « إن ينالتكين قد أخذ أموالا طائلة من أموال تكران كما جمع الخراج وأنه قد أخفى أكثر ما حصل عليه وأرسل أقله إلى الدركاه العالى ، وقد بعثت معه خفية نفراً من ثقاتى فلم يكن يعرف من أمرهم شيئاً ، ومن هؤلاء المشرف وصاحب البريد ، وقد دوّنوا كل ما أخذ ، وأرسلت منه نسخة حتى يقف عليها الرأى العالى كيلا يقوى هذا الخائن على التلبيس . ثم إنه قد بعث سراً إلى تركستان عن طريق بنجهير ليشتروا له غلماناً من الترك ، وقد جىء له حتى الآن بأكثر من سبعين منهم وبقيتهم فى الطريق إليه . وقد جعل من التركمانية هنا أصدقاء له وأعداء للسلطان[1] ، ولا يعرف أحد ما يرمى إليه من ذلك ، فإنه يقول إنى ابن محمود . وعبيد السلطان قد أطلعوه على ما يجرى وله الرأى الأعلى » . وكان لرسالة القاضى وقع كبير فى نفس السلطان . وقد أمر أستاذى أبا نصر بأن يخفيها

---

(١) فى نص غنى — فياض : « وتركمانانرا باخويشتن ياركرد وآزرده اند » ، وفى نص نفيسى (ص ٤٩٧) « وتركمانانرا باخويشتن ياركرد وازخداوند آزرده اند » ، وقد اعتمدنا نص نسخة نفيسى .

حتى لا يقف أحد عليها . وتوالى مجىء المبشرين ومعهم كتب من ينالتكين قائد هندوستان ، ومن صاحب بريد الجند ، تنبىء بفتح بنارس المبين وبثراء الجند . وأن ينالتكين قد حصل منها على أموال طائلة ، كما أنه جمع خراج تكران وحصل على عدد من الفيلة . ثم يقول إن هذه الكتب سطرت فى أندريدى ، وإن الجند اتجهوا إلى لاهور عائدين على مهل . وبيّن ما جرى .

***

من عجائب تلك الفترة

صعد ستى بن ألتونتاش ذات يوم وهو ثمل ٤٠٣ إلى السطح للهو ، فشاء القضاء أن يسقط من عل ويموت وهكذا وسد هذا الشاب الثرى . وقد حزن السلطان لفقده فإنه كان أهلا للمجد وذا شهامة وكان حسن القد وجيهاً فاضلا ، ولكن عيبه أنه كان يسرف فى الشراب حتى ذاق كأس الردى أمرّ كأسه . وأدهى من هذا كله أن كل همازمشاء بنميم كتب إلى أخيه هرون ، أمير خوارزم ، بأن السلطان قد بعث قاتلا غادراً ليلقى بأخيك من فوق السطح ويقتله ، وأنه سوف يدبر مصرع كل واحد من أبناء خوارزمشاه . وكان هرون نفسه سىء الظن بالأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد وبولده عبد الجبار لما بدا منه من التطاول والتجاوز ، فلما قرأ كتب الوشاة ، وكان الشيطان قد وسوس له ، أخذه الغرور وأساء الظنون وأخذ يخالف عبد الجبار ويستخف به ويعترض على آرائه الصائبة ، وبلغ الأمر به إلى العصيان واضطر عبد الجبار إلى أن يتوارى خشية الموت ، وأصبحا عدوين . وسأبين ذلك فى باب خوارزم من هذا التاريخ بحيث يعرف كل شىء فى هذا الباب إن شاء الله .

ويوم الجمعة الرابع من جمادى الثانى قبل الصلاة ألبس السلطان الأستاذ الرئيس خلعة الرضا ، فإنه كان سيسير إلى طخارستان وبلخ بسبب ما كان من

ثورة نواحي ختلان لمجيء الـكمخيين[1] إليها وكذلك ليذهب إلى ولوالج وبنج آب حيث ينضم إليه شحنة تلك النواحي ويسيرون معه لهذا الأمر ويطردون هؤلاء الخوارج . وقد أبدى السلطان عطفه ٤٠٤ على الوزير وتلطف معه في الحديث. ثم إن الوزير عاد إلى بيته حيث وافاه الأعيان فحيوه أحسن تحية . وسار بعد الصلاة ومعه أربعة حجاب وعشرة بمرتبة سرهنك وألف فارس بعدة كاملة . وعين الفقيه أبو بكر المبشر صاحب ديوان الرسائل ليكون معه كصاحب بريد الجيش بأمر السلطان . ووجهت الكتب إلى جميع الأعيان ليستمعوا إلى أوامر الوزير ، وأمر أبو بكر كذلك ليكتب للسلطان كل يوم بما يراه الوزير خيرا لصالح الملك . وسار الوزير عن طريق يزغوزك ، وسأذكر فيما بعد ماجرى من مجيد الأعمال على يد هذا الرجل العظيم وفقا لشروط التاريخ . وفي اليوم التالي سار السلطان إلى بستان صـــد هزاره على أن يقيم به أسبوعا وقد حملوا إليه جملة الأحمال. وكانت الكتب تترى في هذه الأثناء بأن « أحمد ينالتكين قد عاد إلى لاهور مع التركمان ، وهناك التف حوله كثير من المقدمين وأصناف شتى من الرجال من كل جنس ، وإذا لم يتدارك أمره على عجل فإن الخرق يتسع على الراتق لأنه يزداد كل يوم شوكة وعزة » . وكان السلطان في ذلك الوقت في بستان صد هزاره فاختلى بالسپهسالار والأعيان والحشم وسألهم عما يجب عمله لإخماد فتنة هـذا الخارج العاصي بحيث يهدأ بال السلطان من ناحيته ، فقال السپهسالار : « إن ينالتكين هذا قد سبق له أن فر وزالت بذلك مهابته ، وأي قائد يختار لحربه يستطيع أن يكفينا أمره في يسر فإن لنا في لاهور جيشاً كبيرا ، ولو يأمرني السلطان فإني أذهب للقائه في أسبوع رغم حرارة الجو » .

---

(١) كمخيان أو كميجيان ، كتبناها في الترجمة الـكمخيين ، وذكرت في مواضع عدة من الكتاب . ولا يعرف مدلولها . غني ـ فياض ص ٤٦٥ حاشية ١ .

فقال السلطان : « إن الأمور معقدة بحيث يستحيل توجيهك إليه ، فإن فى خراسان فتنا شتى ، وكذلك الأمر فى ختلان وتخارستان ؛ ولو أن الوزير قد ذهب لإخمادها وفيه الكفاية ، إلا أنه فريضة علينا بعد انقضاء المهرجان أن نسير إلى بلخ وستذهب أنت مع رايتنا . وسترسل لينـــالتكين قائدا كفؤا » .
فقال السپهسالار : « الأمر لمولاى والسالارية والرؤساء حاضرون فى المجلس العالى وهناك غيرهم منتظرون فى الدركاه فأيهم يريد مولاى استدعاءه ؟ » . فقال ٤٠٥ تلك الهندى : « أطال الله حياة السلطان ، أذهب أنا وأقوم بهذا الأمر تأدية منى لشكر رعايتكم لى ونعمكم على . ومن ناحية أخرى فإنى من الهندوستان والوقت شديد الحرارة وأنا أقدر على سلوك طرق تلك البلاد ، فلو يرى الرأى العالى أن يمنّ علىّ بأداء هذه الخدمة » . فامتدحه السلطان لسبقه فى تقديم نفسه وسأل الحاضرين ماذا تقولون ؟ قالوا إن هند رجل مشهور ويليق لكل عمل وإن لديه السيف والعدة والرجال ، فإذا شرفه السلطان بأمره العالى فإنه يقدر على القيام بهذا الأمر . فقال السلطان عودوا إلى بيوتكم حتى نتدبر هذا الأمر . فرجع القوم . وفى سراى الحرم قال السلطان لخاصته : « ليس لأحد من هؤلاء الأعيان ميل للتطوع لهذا العمل والحق أن أحدا منهم لم يبد رغبة صادقة إلا ذلك الهندى فإنه أدرك حرجى فتقدم » . وأرسل السلطان العراقى الكاتب سرا إلى تلك الهندى فطيّب خاطره برسالة قال له فيها : « ليس يخاف علينا ما قلته اليوم وما تريد القيام به ، ولم يرق حديثك عن هؤلاء الجماعة الذين كانوا عندنا وإنك الآن قد أنبتهم بتقديم نفسك ولا بد أن تثبت صدق عزيمتك لهم . وغدا نقيمك لهذا الأمر ونمدك بكل ما يمكن لك من مال لايحصى ورجال وعدة كاملة حتى تقضى على ينالتكين وتخمد الفتنة دون استعطافهم واستمالتهم . وستكون أعلى منهم ذكرا فإن هذه الجماعة لا يروق لها أن نرفع أحدا لنكون دائما فى حاجة إليهم . وهم لا يقدرون على شىء ، وسوف يضطرون لرفع منزلتك ، فعليك الآن بالثبات

على ما أبديت حتى تذهب إلى ملاقاة ينالتكين ، وإن ما جرى من الخطأ فى حقك كان بتدليسهم وقد فات مافات ». فقبل تِلْك الأرض وقال : « لولم يكن لى قدرة على إنجاز ماعرضت لما كانت لى الجرأة فى هذا الجمع الكبير لأعلن تطوعى للقيام بهذا الأمر ، والآن سأطلب كل ما يجب وسأعد نسخة به حتى تعرض على السلطان ، وسأسرع فى السير حتى يقضى على هذا المخذول » . وعاد العراقى فقصّ ما كان مع تلك وقال السلطان : حسن جدا ويجب كتابة نسخة بطلباته . وبذل العراقى فى هذا جهده وعرض على السلطان النسخة المفصلة التى كان تلك قد كتبها . وقد أطلق السلطان يد تلك ومكنه ، بعد أن يجتاز٤٠٦ بزغوزك أن يفعل ما يريد بشأن إسناد أى عمل إلى الهنود . وأوصى صاحب ديوان الرسائل على لسان العراقى بأن عليه أن يكتب منشور وكتب تلك . وكان من عادة أبى نصر أن يبالغ فى أداء الواجب فى مثل هذه الأحوال فى كل ما كان يأمر به السلاطين ، حتى لا يؤخذ عليه شىء . وقد كتب كل ما ينبغى . وأثار هذا الحديث سخرية أعيان الدركاه ولكن « كانت رمية من غير رام » . وكان تلك سبب قتل رجل مثل أحمد ينالتكين كما سأذكر فى موضعه . ولكنى أبدأ بذكر أول شرط للتاريخ فأبين كيف كان تلك فى بدء حياته وكيف انتهى إلى بلوغ هذه المرتبة . فإن فى ذكر هذه الأخبار فائدة .

ذكر حال تلك الهندى

كان تلك ابن حجام ، ولكنه كان حسن اللقاء جميل الطلعة فصيح اللسان ، وكان حسن الخط فى الكتابتين الهندية والفارسية ، وقد أمضى كثيرا من حياته فى كشمير حيث اشتغل بالتحصيل ، فعرف قليلا من المكر والخداع والسحر ، ومن كشمير جاء عند قاضى شيراز أبى الحسن فاحتفى به وكان كل من رآه من الكبراء يتعلق به ، وعمل فى خدمة القاضى فحصل على بعض مال وعلت منزلته ،

وقد أمر القـــاضي بأن يعتنى بشأنه من جميع الوجوه . وقام بكثير من الحيل حتى حكوا عنه إلى الأستاذ الرئيس أحمد حسن رضى الله عنه . وقيل إنه يقدر على إحباط كيد القاضى ، وكانت الصلة بين الوزير والقاضى سيئة . فأرسل الوزير توقيعا سلطانيا مع ثلاثة من الفرسان لكى يحضر تلك إلى الدركاه رغم أنف القاضى ، واستمع الوزير أحمد حسن إليه ، وعرف منه « من أن يؤكل الكتف » ، وتريث حتى يبلغ وقيعته إلى السلطان محمود بحيث لا يفهم أن الوزير ٤٠٧ هو صاحب هذا التدبير . فأمر السلطان وزيره أن يستمع إلى كلام تِلك ، وأصبح القاضى فى بلاء عظيم فلما انقضت تلك الدسائس أصبح تلك من خاصة معتمدى الوزير ، وقد جعله كاتبا ومترجما فيما يخص الهنود ، مثل بيريال فى ديواننا وكبر شأنه . وقد رأيته (أنا أبو الفضل) فى ديوان الوزير ممن لا يؤذن لهم بالجلوس ، فإنه كان يخرج بالرسائل وبما يراد ترجمته ثم يعود به بعد إنجازه ، وكان يقوم بعمله على خير وجه . فلما ابتلى الوزير بالمحنة التى ذكرتها من قبل ، وطلب السلطان محمود خدَمه وكُتابه حتى يأمر بتعيين من يليق للخدمة فى الدركاه ، أعجب بتلك . وقد أصبح هذا صديقا لبهرام الترجمان ، وكان تلك أصغر منه سناً وأفصح منه لسانا . وكان السلطان محمود يتمنى وجود مثل هذا الرجل فارتفع شأنه . وقد أدى تِلك فى الخفاء خدمات جلى للسلطان مسعود فقد أدخل فى طاعته جميع هنود كتور وبعض البيرونيين ، وقام بمثل هذه الأعمال الخطيرة مع سلطان عظيم كمحمود . ولما وصل السلطان مسعود إلى بلخ من هراة ، وكان المُلك قد استقر له ولم يكن سوندر سپهسالار الهنود فى منصبه ، عطف على تِلك وأعطاه خلعة ذهبية وألبسه فى رقبته طوقا مذهبا مرصعا بالجواهر ، ومنحه الخيل . وذاع صيت الرجل وعمل لنفسه سرداقا صغيرا ومظلة وكانوا يدقون له الطبل أثناء مسيره حسب الرسم عند عظماء الهنود .

وكانت له راية[1] مع الطبول وهلم جرا إلى أن بلغ به الأمر أن كان يجلس بين الأعيان فى الخلوة وأثناء تدبير الأمور ، حتى تطوع كما قلت لإنهاء قضية أحمد ينالتكين وقد تم . فعلى نجمه وارتفعت مرتبته « ولكل أمر سبب والرجال يتلاحقون » ، والعاقل لا يستغرب هذه الأخبار فإن الرجل لا يولد وجيها والرجال ينضجون بمرور الزمن ولكن شرط ذلك أن يتركوا من بعدهم ذكرا جميلا . وكان تلك هذا رجلا جلدا ، حميد الخلق ، ولم يحط من شأنه طول حياته أنه ابن حجام . ولو اجتمع له مع هذه النفس القوية والعقل والهمة أرومة الأصل لكان أكثر سموا ، ففى اجتماع العظامية والعصامية خير كثير ، ٤٠٨ ولكن العظامى لا يقوّم بشروى نقير إذا أعوزه الفضل وأدب النفس والدرس ، وكان كل حديثه أن أبى كان كذا وكذا . وقد أحسن الشاعر حين قال :

ما قلت فى نسب لو قلت فى حسب لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

وقد ذكرت أبياتا فى العصامية والعظامية لجرير والمتنبي فكتبتها : شعر

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والإقداما
وصيرته ملكا هماما

وقول الآخر فى العظامى الأحمق :

إذا المرء عاش بعظم ميت فذاك العظم حى وهو ميت
تقول بنى لى الآباء بيتا فهدمت البناء فما بنيت
ومن يك بيته بيتا رفيعا ويهدمه فليس لذاك بيت

---

(١) التعبير الفارسى « علامت منجوق » ، ومنجوق هى الراية (Steingass) ، وفى لغت فرس ص ٢٤٩ منجوق آلة وتطلق أيضاً على الشجرة الباسقة .

وقد قرأت أن رجلا خامل الذكر وفد على يحي بن خالد البرمكي ، وكان فى مجلسه أناس من كل صنف ،كفاة وخاملون. فبدأ الرجل يتحدث فكأنه ينثر الجوهر ويفتح الصدف . وكان من الحاضرين جماعة من العظاميين قد ملئوا حسدا وضغنا فقالوا : أطال الله حياة الوزير ، أسفا على هذا الرجل ليته كان من أصل كريم . فضحك يحي وقال « هو بنفسه أصل قوى » . ورفع مرتبة الرجل فأصبح من فحول زمانه . وفى أيامنا هذه جماعة من العظاميين لهم الخيول المطهمة بأجلة مذهبة ولهم الملابس الثمينة والغاشية والشارات . وحين يتكلمون فكأنهم حمر غرزت فى الثلوج سنابكها، ولا يتحدثون إلا بقولهم كان أبونا كذا وعمل أبونا كذا . والطريف أن أفاضل الناس من سعاية هؤلاء وبطرهم فى ضيق . والله ولى الكفاية . فلما أنجزت الكتب والأمر الخاصة بتلك أمر السلطان مسعود رضى الله ٤٠٩ عنه بأن تجهز له خلعة فاخرة تشمل الكوس والعلم . فارتدى الخلعة وتلطف السلطان فى حديثه معه وأبدى عليه عطفا كثيرا . وفى الغداة عبأ تلك جنده ونزل فى باغ فيروزى . وركب السلطان ليستعرض جيش تلك الهندى . كان به كثير من الفرسان والرجّالة كلهم فى أهبة تامة . وكان فرسان القصر الذين اختيروا ليكونوا فى جيشه فوجا فى أحسن عدة ، ذلك لأن قاضى شيراز كان قد كتب إلى السلطان يقول إن هنا طبقة ممتازة من الرجال فينبغى أن يوفد لقيادتها قائدمشهور من قبل الدركاه ، وترجّل تلك وقبّل الأرض ثم ركب ،وقد طلبوا له جواد قائد الهند . وارتحل يوم الثلاثاء منتصف جمادى الثانى .

ورجع السلطان حين صلاة العصر من هذا اليوم إلى جوسق الدولة فى المدينة ، وفى الغداة سار إلى الجوسق الأبيض وأخذ يلهو ويلعب الصولجان

ويشرب ثلاثة أيام تباعا . ثم جاء إلى بستان محمودى ، وأتوا بالأمتعة هناك ، ولبث به حتى منتصف رجب ومنه قصد قلعة غزنة ، وكان السرهنك أبو على الكوتوال قائما بالضيافة ، وقد بلغها فى الخميس الثالث والعشرين من رجب فأقام بها أربعة أيام كان يوما ضيف السرهنك الكوتوال ، وفى اليوم التالى استضاف حاشيته ، وفى اليوم الثالث عقد المجلس الخاص . وقيل إنه أصدر الأوامر الخاصة بالخزائن لأنه أزفت ساعة الرحيل ، وشربوا مع الندماء والمطربين . وفى غرة شعبان عاد إلى المدينة ونزل فى جوسق محمود القديم. ويوم الثلاثاء الخامس من شعبان ، بعد انتهاء الاستقبال ، بكّر السلطان بالشراب فى صفة القاعة مع الندماء .

وحضر هناك غلام يدعى « نوشتكين نوبتى » وهو من غلمان السلطان محمود الذين جاء بهم بعد زيارته لقدرخان ، كان يساوى مائة ألف حسناء ، فإنه لم ير أكثر منه جلالا وجمالا ، وكان السلطان محمود قد أمر بأن يكون من بين خاصة غلمانه الأقربين ، فقد كان طفلا ، وبينا كان فى نية السلطان أن يجعله أعلى درجة من إياز ، فإنه فضلا عن جماله كان خفيف الحركة فى وقار ، إذ به يموت فى بوشنك . ٤١٠ فلما مات السلطان محمود اختار نجله محمد نوشتكين هذا ، حين ارتقى العرش فى غزنة ، لكى يكون ذوّاقه والموكّل على شرابه ، وأعطاه مالا لا يحصى . فلما زال الملك عن محمد وآل إلى مسعود رفع منزلة نوشتكين إلى أن أسند إليه ولاية جوزجان . وكان الرسم أن يوفد خادم واحد مع الغلام الذى يصبح من الخاصة ، ولكن نوشتكين ، تميز بأن عُيّن معه خادمان يتناوبان خدمته ليل نهار . وكان يقوم بجميع أعماله الخادم إقبال زرين دست ، فإنه كان أمين القصر . واتفق أن شغف أبو نعيم النديم حبا بهذا التركى ، وكثيرا ما كان يختلس النظرات إليه فى مجلس الشراب ، وأدرك ذلك السلطان واهتم به ، واتفق فى ذلك اليوم أن كان بأبى نعيم خمار شراب الليل ، وكان

السلطان ثملا كذلك فأعطى نوشتكين باقة من الشيبوى والسوسن ، وقال له قدّمها لأبى نعيم فأعطاه نوشتكين إياها . فضغط أبو نعيم بإصبعه على يد نوشتكين . فقال ما هذه الوقاحة ؟ إنك تضغط بإصبع التهتك على يد غلام السلطان . وغضب السلطان لذلك غضبا شديدا . والله جل شأنه أعرف بما يجول بخاطر السلاطين ، لأن أفكار الملوك وخيالهم لا يستطيع أن يقف عليها أحد . قال السلطان لأبى نعيم ألم تأت إلينا كغلام؟ فرد عليه أبو نعيم بجفاء ، وكان شديد الغلظة ، إذ قال متى رأى مولاى منى مثل هذا السلوك ؟ إذا كان السلطان قد مل صحبتى فليلتمس حجة أكثر حلاوة من هذه ! فاستشاط السلطان غيظا وأمر بأن يجر من رجليه ويحبس فى الحجرة : وقال لإقبال إنى وهبت كل ما يملك هذا الكلب الخائن من صامت وناطق إلى نوشتكين . وذهب الجند فاستولوا على سرايه وصادروا ممتلكاته ، وبعد صلاة العصر من هذا اليوم جاء إقبال ومعه نوشتكين إلى ديواننا ، وأخذ الأوامر والمنشورات وتوقيعاً رسمياً كى يصادروا جميع أملاك أبى نعيم فى سيستان والبلاد الأخرى ويسلموها لرجال نوشتكين . ولبث أبو نعيم مغضوباً عليه مدة طويلة بحيث قبض نوشتكين ريع تلك الضياع ، وتوسط أهل الخير وتشفعوا لأبى نعيم حتى رضى السلطان عنه وأمر بنقله من القلعة إلى بيته ، ثم استدعاه وخلع عليه ورضى عنه وأعاد إليه ضياعه وأعطاه صلة عشرة آلاف دينار حتى يستعيد ما أخذ منه من أسباب الترف والغلمان والدواب . وكنت أسمع بين آونة وأخرى أن السلطان كان يقول لأبى نعيم فى مجلس الشراب : أتحدق النظر فى نوشتكين ؟ وكان يجيب بأنى لم أفق بعد من النظرة الأولى فكيف أفكر فى نظرة أخرى . وكان السلطان يضحك . وما شاهد أحد ولا قرأ عن ملك أكثر منه كرما ورحمة . رحمة الله ٤١١ عليه . ثم إنه أسند إلى نوشتكين هذا منصب صاحب الدواة (دوات دار) مع الوظيفتين اللتين كانتا له . وأصبح عظيم القدر ، بحيث أنه حين طر

شاربه وظهرت عليه معالم الرجولة ، انتهى إلى قيادة الجيوش ، فصار الناس ينشدون أبيات الصابي الذى قال حين أوفد أمير العراق معز الدولة المدعو تكين حارس خزانة الملابس لتسلم القيادة :

طفل يرف الماء من وجناته ويرق عوده
ويكاد من شبه العذارى فيه أن تبدو نهوده
ناطوا بمقعد خصره سيفاً ومنطقة تؤوده
جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده .

ثم إنه مرت على أبي نعيم ونوشتكين أحوال إلى أن انتهى أمرهما ، كما تمر الأحداث المختلفة على الإنسان ، وستأتى بالتفصيل فى مكانها وفى هذا القدر هنا الكفاية . وفى يوم السبت السادس عشر من شعبان خرج السلطان للصيد فى مصطاد[1] زه ، وكانوا قد حشروا الناس منذ أسبوع ليجمعوا الصيد ويسوقوه ، وجاء إلى المصطاد كثير منه ، وكانت رحلة الصيد موفقة ، وعاد السلطان إلى باغ محمودى . وقبل انقضاء شعبان بيومين جاء من نيسابور صاحب الديوان أبو الفضل السورى المعز ، ثم مثل فى الحضرة ، وقدم للسلطان ألف دينار نيسابورى نثارا ، كما قدم عقداً من الجوهر الثمين وعاد السلطان من الحديقة إلى جوسق والده القديم بالمدينة ، ويوم السبت غرة رمضان بدءوا الصيام . وفى اليوم الثالث من رمضان قدموا للسلطان الهدايا التى كان قد أعدها صاحب ديوان خراسان . وكانت تشتمل على خمسمائة حمل من الهدايا التى كنت قد رأيت مثلها بين الهدايا التى جاء بها حسنك إلى السلطان محمود فى العام الذى عاد فيه من الحج بعد وصوله من نيسابور إلى بلخ . وقد احتوت هذه الهدايا على كثير من الألبسة والطرف وآلات الذهب والفضة والغلمان والجوارى ٤١٢

(١) شكار زه .

والمسك والكافور والعناب واللآلىء والأدوات المنقوشة والسجاد والمآزر وغيرها من النعم التى حوتها هذه الهدية السورية — نسبة إلى سورى — وقد أدهشت الحاضرين، فإنه كان قد جمع الطرائف فى مدن خراسان وبغداد والرى والجبال وجرجان وطبرستان. وفضلا عن ذلك فإنه قد أرسل مع هديته من المأكولات والمشروبات ما يناسبها. وقد وضع النقود الذهبية فى أكياس من الحرير الأحمر والأخضر ووضع النقود الفضية فى أكياس صفراء فاقع لونها. وسمعت من أبى منصور المستوفى، وهو الثقة الأمين الذى لا يحيد عن الحق فى عمله قيد شعرة وصاحب النفس الكبيرة والرأى المبين، يقول: « إن السلطان أوعز بأن تقوّم هذه الهدايا سرا، فكانت ألف ألف درهم مرات. فقال لى السلطان ياله من خادم طيب سورى هذا لو كان لنا مثله خادمان أو ثلاثة لحصلنا على فوائد عظيمة. قلتُ كذلك. وما كانت لى الجرأة أن أقول أولى بنا أن نسأل رعايا خراسان كم من العنت والإرهاق وقع عليهم، شريفهم ووضيعهم، حتى اكتملت هذه الهدية. وغدا يظهر اليوم الذى نشاهد فيه عاقبة هذه الأمور ». والحقيقة هى ماقاله أبو منصور[1]، فإن سورى كان رجلا مشهورا بالظلم، فإنه حين أطلقت يده فى خراسان استأصل شأفة أعيانها ورؤسائها واستحوذ على أموال لا تحصى، وامتد ظلمه إلى الضعفاء، وكان يقاسم السلطان، يعطيه خمسة من كل عشرة دراهم يغتصبها. أما الأعيان فقد تقطعت بهم الأسباب فكتبوا الرسائل إلى ما وراء النهر وأوفدوا رسلهم شاكين لأمراء الترك كى يغروا التركمان بالغزنويين، وأما الضعفاء فإنهم بثوا الله آلامهم. ولم تجرؤ عيون السلطان على أن ينهوا اليه حقيقة ظلم سورى للناس، وكان السلطان، رضى الله عنه، لا يصغى إلى أحد بشأن سورى، إنما كان ينظر

(١) جاء فى طبعة غنى ـــ فياض، « أبو نصر » وصحتها أبو منصور، كما يقتضي السياق وكما جاء فى نسخة نفيسى ص ٥٠٠.

السلطان إلى تلك الهدايا التى يقدمها له فى إسراف ، إلى أن ضاعت خراسان بسبب ظلمه وعدوانه . وبعد حدوث هذه الهزيمة (هزيمة مسعود فى دندانقان) جاء سورى معنا إلى غزنة ، وولى منصب صاحب الديوان فيها أيام الملك مودود ، فأراد أن يتابع سياسته فى خراسان ؛ ولكنه لم يستطع فقد كفت يده ونحى عن العمل . وانتهى أمر هذا الرجل بأن جُعل قائدا لقلعة غزنة كما سيأتى ذكره . رحمه الله عز وجل فإن أمره سيكون للحاكم الرحيم العادل ، ٤١٣ ولعل موازينه يوم الحساب تتعادل ، فإنه إلى جانب ظلمه ،كان رجلا كريما فى الصدقات مؤدياً للصلوات ، وله آثار طيبة فى مدينة طوس . ومن جملة هذه الآثار الزيادات الكثيرة التى أدخلها على قبر على بن موسى الرضا عليه السلام ، الذى بناه أبو بكر شهمرد ، الذى كان كتخدا فائق الخادم الخاص ، ومنها بناؤه مغارة لهذا الضريح وشراؤه قرية عامرة ووقفها عليه . وبنى فى نيسابور مصلى لم يبن مثله أحد من الأمراء قبله ، وهذا الأثر باق إلى الآن . وكان بين محلة بلقاباد وحيوة نهر صغير كان يفيض بشدة فى الربيع ، فكان يصيب المسلمين بأضرار بالغة فأمر سورى بتشييد سد يصبّ من الحجارة والآجر ، ودرأ هذا الخطر . وقد أوقف على هذين الأثرين حتى لا يدرسا . وقد أمر بأعمال عظيمة فى رباطى فراوه ونسا وهما باقيان . وهذه الأعمال كلها لا تنكر ولكنى أعتقد أن كل هذا ليس شيئاً بجانب ظلم الضعفاء . وقد أحسن الشاعر حين قال :

كسارقة الرمان من كوم جارها تعود به المرضى وتطمع فى الفضل[1]

وليس حلالا سرقة الخبز من الجار والتصدق به على الجار الآخر ، ولا أجر على ذلك . وما أدرى ماذا يغر هؤلاء المحدثين فى هـــذه الدنيا ، إذ هم ينهضون ويجمعون حفنة من حطامها ، وفى سبيل هذا يريقون الدماء ويثيرون

---

(١) من شعر أبى عبد الله الأبيوردى . نفيسى ص ١٠٥ حاشية ٨ .

الحروب ثم يتركونها فى يسر ويموتون بحسرتها . ليفتح علينا الله تعالى بمنه وكرمه . وفى أواخر أيام سورى ذهب أبو الفضل الجحى إلى نيسابور ، فقد أسند إليه فيها منصب صاحب البريد بأمر من السلطان مسعود رضى الله عنه . وقد ذكر ما كان من أمر هذا الفاضل فى مواضع عدة من هذا الكتاب . وكان الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد يجله ويعظمه . وقد أوعز إليه أن ينهى إليه سرا وبغير محاباة كل ما يصدر من سورى أو ما كان يصدر عنه وقد تسبب سورى فى قتله إذ أن كتاباته فى حقه قد أثرت فى قلب السلطان ، كما أنه كتب أكثر من ذلك إلى الوزير نفسه . أرسل ذات يوم بضعة أبيات للوزير وقد رأيتها ، وأكتب الآن ما بقى فى الذاكرة منها ، وقد تحايل الوزير حتى يسمعها للسلطان وقد كتبها إليه وكان لها أثر فيه :

شـــعر ٤١٤

« أيها الأمير أنظر إلى خراسان فإن سورى يجمع بها المال والمنال »

« لو بقيت يده المشؤومة ممتـــدة سيأتى إليـــك بالأمر الجلل »

« إن سورى ، فى أى منصب يسند إليه ، كالراعى الشرير الذى يكوى ماشيته »

وقد انتهى الأمر إلى دخول الأعداء خراسان والاستيلاء عليهـا كما سيأتى ذكـره .

وقد تذكرت بمناسبة هـذا الحديث حكاية جد نادرة ومفيدة فآثرت تسجيلها فإن فى العالم كثيرا من أشباه ما عمل سورى ، حتى يستفيد منها القراء ولو أن الكلام قد يطول .

حكاية

قرأت فى أخبار الخلفاء أنه حين علا شأن البرامكة ، وكان أمير المؤمنين

هرون الرشيد ينادى وزيره يحيى بن خالد البرمكى ياوالدى ، وحين رفع مرتبة ولديه الفضل وجعفر ، كما هو معروف وثابت فى الكتب ، خرج أحد العلويين واستولى على جرجان وطبرستان وكل جبال جيلان وقوى أمره ، فقلق هرون قلقاً شديدا ، لأنه كان قد قرأ فى الكتب أن أول خلل يقع فى الدولة العباسية يكون على يد علوى يخرج فى طبرستان ، فدعا يحيى بن خالد البرمكى واختلى به وتحدث إليه بما جرى ، وقال إن هذا الأمر ليس مما يستطيع قائد العمل على إزالته ، فإما أن أذهب بنفسى أو أن تذهب أنت أو أن يذهب أحد ولديك الفضل أو جعفر . فقال يحيى لا يجوز بأى حال أن يذهب أمير المؤمنين بنفسه لمواجهة كل من يخرج على الدولة ، ويجب علىّ أن أبقى مع الخليفة لأدبر شؤون الرجال والمال ، وأما ولداى الفضل وجعفر فهما طوع رأى أمير المؤمنين ليبادرا بأمره . فقال : ينبغى أن يذهب الفضل . وأن تُسند إليه إمارة خراسان والرى وجبال خوارزم وسيستان وما وراء النهر : على أن يقيم فى الرى ويرسل نوابه إلى المدن ، فيتولى أمر هذا الثائر ويكفينا أمره ويأتى به ٤١٥ صلحاً أو حرباً . ويجب أن تعد له الأمور غدا بحيث يرتدى الخلعة ويذهب بعد غد إلى النهروان ويقيم بها حتى تلحق به الجيوش والمدد والعدة . فقال يحيى سمعاً وطاعة . ثم عاد وقام بكل ما يجب . وقال للفضل سرا : « يابنى إن الخليفة قد أسند إليك عملا عظيما ، وإن المرتبة العالية التى منّ عليك بها عظيمة فى هذه الدنيا ، ولكن تقابلها عقوبة قوية فى الآخرة ، إذ أن عليك أن تقضى على أحد أحفاد الرسول عليه السلام ، وليس بد من الطاعة ، فإن لنا أعداء كثيرين وقد اتهمونا بأنا علويون . فينبغى العمل بحيث لا يسىء أمير المؤمنين الظن بنا » . فقال الفضل : « لا تشغل قلبك فإنى سأقوم بالأمر حتى ينتهى صلحاً ، ولو كان فى ذلك إزهاق روحى » . وفى الغد حضر يحيى والفضل إلى الحضرة فعقد هرون الرشيد الرمح والراية لإمارة خراسان على الفضل ، وسلمها إليه مع المنشور (أمر

التعيين) وألبسه الخلعة . ثم عاد بموكب عظيم إلى داره . وقد وفد عليه كل عظماء القصر وأدوا له التحية . وفى اليوم التالى سار إلى النهروان فأقام بها ثلاثة أيام حتى لحق به خمسون ألف فارس ، والقادة والمقدمون . فسار وجاء الرى ونزل بها وأرسل الطليعة فى عشرين ألف فارس على طريق دنباوند فى طبرستان ، وفرق باقى الجيش مع القادة فى أنحاء خراسان . ثم أرسل الرسل إلى يحيى العلوى ، وتلطف معه حتى استجاب إلى الصلح ، على شرط أن يرسل إليه هرون الرشيد عهدا بخطه على النسخة التى يحررها يحيى العلوى بنفسه . ورفع الفضل الأمر إلى الخليفة فقبله هرون الرشيد . وسر بذلك كثيرا . فأرسل يحيى العلوى نسخة مع رسول من ثقاته ، وكتب عليها هرون بخطه وأشهد عليها القضاة العدول بعد أن حلف اليمين : وقد اطمأن يحيى إلى هذا وجاء إلى الفضل فاحتفى به وأكرمه ثم إنه سار إلى بغداد فرحب به هرون وأجزل له العطاء . وذهب الفضل إلى خراسان ومكث فيها سنتين وأجزل العطاء للزوار والشعراء . ثم طلب أن يعفى من منصبه فأجيب طلبه وعاد إلى بغداد ، وكافأه هرون لإخلاصه مكافأة جاوزت كل حد . وذكر قصة العلوى ومآلها طويل وليس غرضى بيان ذلك ، بل هو أمر ٤١٦ آخر . جاء الفضل للرشيد بهدية حسب الرسم . ثم وقع اختيار هرون على على بن عيسى بن ماهان لإمارة خراسان ، واستشار فى ذلك يحيى البرمكى وطلب رأيه فقال يحيى إن علياً رجل جبار ظالم والرأى لأمير المؤمنين . وكانت أحوال البرامكة على وشك الانتكاس . فأرسل الرشيد علىّ بن عيسى إغاظة ليحيى . وبسط علىّ يده وأخذ ينهب الأموال ، ولم يكن لأحد جرأة على كشف أمره . وكانت العيون تكتب إلى يحيى فكان يتحين الفرص ويدبر الحيل حتى يسمع الرشيد شيئاً من هذا ، وأوعز إلى أحد المظلومين أن يعترض طريق هرون فجأة ولكن دون جدوى . حتى بلغ الأمر إلى حد أن أقسم الرشيد أن يرسل إلى على كل من يتظلم منه . فسكت يحيى والناس جميعاً . فاستأصل علىّ شأفة خراسان وماوراء

النهر والرى والجبال وجرجان وطبرستان وكرمان وإصفهان وخوارزم ونيمروز وسيستان وأحرقها ، وسلك أموالا لا تعد ولا تحصى ، ثم جهز من تلك الأموال هدية للرشيد ، لم يقدم مثلها أحد من قبله . وبلغت هذه الهدية بغداد وعرض على الرشيد بيان بها ، فسر به كثيرا وتعجب منها . وكان الفضل بن الربيع الحاجب مستعدا للإيقاع بالبرامكة فأخذ يكشف عن تعصب آل برمك وعن شهامة على ابن عيسى . فقال الرشيد ماذا يجب أن نعمل بشأن الهدية التى قدمت من خراسان ؟ فقال : فليجلس أمير المؤمنين فى المنظرة وليجلس أو يوقف يحيى وأبناءه حتى تعرض الهدية وتنفطر قلوب آل برمك ، ويثبت عند الخاص والعام ما أقدم عليه هؤلاء من الخيانة فإن الفضل بن يحيى قدم الهدية من خراسان فما كانت توازى هدية يقدمها عامل من مدينة واحدة ، فى حين أن على بن عيسى يقدم كل هذا . فسر الرشيد كثيرا بهذا الرأى ، فإنه كان قد تحامل على آل برمك ٤١٧ وعزم على إنهاء دولتهم . وفى اليوم التالى جاء إلى القلعة الخضراء بالميدان وجلس وأجلس يحيى وولديه والفضل بن الربيع وجماعة آخرين ، ووقفت جماعة أخرى ، وأحضرت الهدايا إلى الميدان ، كانت تشتمل على ألف غلام تركى بيد كل منهم حلتان ملونتان من الششترى والإصفهانى والسقلاطون والملحم من الديباج والديباج التركى والديدارى وغير ذلك من الأنواع . ووقف الغلمان بهذه الحلل وعلى أثرهم جاءت ألف جارية تركية بيد كل واحدة كأس من ذهب يحتوى على الياسمين ، وملؤه المسك والكافور والعنبر وأصناف العطر وطرائف البلاد ، ثم مائة غلام هندى ، ومائة جارية هندية ، فى غاية الجمال ، مرتدين ملابس ثمينة ، وكان بيد الغلمان السيوف الهندية من أجود الأنواع ، وكانت الجوارى تحمل الثياب الرقيقة فى أسفاط أحلى من القصب ، وكان معهم خمسة أفيال منها أثنين . وكان على الفيلة سروج من الديباج ومرايا من الذهب والفضة ، والأثنين منها كان عليهما مهدان من الذهب أحزمتهما وعدتهما

مرصعتان بالجواهر البدخشية والفيروز ؛ ثم خيول جيلانية ، ومائتا فرس من خراسان بسروج من الديباج ، وعشرون عقابا وعشرون شاهيناً ، وألف جمل ، منها مائتان بعدد وأجلة مغطاة بالحرير والديباج وكانت فى غاية الجمال وثلاثمائة أخرى عليها المحامل والمهود ، منها عشرون عليها محامل مذهبة ؛ومابين خمسمائة وثلاثمائة قطعة من البلور من شتى الأصناف ، ومائة زوج من الأبقار وعشرون عقداً من الجوهر الغالى القيمة ، وثلاثمائة ألف حبـــة من اللؤلؤ ، ومائتا قطعة من الصين الفغفورى من الصحون والكؤوس وغيرها ، مما لم يشاهد مثلها فى قصر أى ملك ، وألفا قطعـــة أخرى من الصينى من الأوانى الكبيرة والكاسات الواسعة ، وزهريات صينية كبيرة وصغيرة ، وأنواع أخرى ، وثلاثمائه من الستائر الملكية ، ومائتان من سجاد القصور ، ومائتان من السرر . فلما عرضت هذه الأنواع من النعائم فى مجلس الخلافة ارتفعت أصوات الجند بالتكبير ، ودقت الطبول ونفخت الأبواق ، بحيث لم يذكر أحد مثل هذا ولم يقرأ ولم يسمع بمثلها . والتفت هرون الرشيد إلى عين البرمكى وقال : « أين كانت هذه الأشياء أيام ابنك الفضل » . فقال يحيى : « أطال الله عمر أمير المؤمنين ، لقد كانت هذه الأشياء أيام ولاية ابنى الفضل فى بيوت أهلها فى مدن ٤١٨ العراق وخراسان » . فتضايق هرون الرشيد من هذا الجواب ضيقاً شديدا بحيث نغص عليه رؤية هذه الهدية وقطب حاجبيه وقام منصرفا من الخضراء . وأخرجت هذه الأشياء من الميدان فأودعت الخزائن والقصور والاصطبلات وحداة الإبل . وجلس الخليفة ، وقد علاه الهم ، متأثرا من جواب يحيى ، فإن هرون الرشيد كان عاقلا ، وقد أدرك المقصود من هذا الجواب . وبعدما عاد يحيى إلى الدار قال له ولداه جعفر والفضل : « نحن عبيدك ولا يحق لنا أن نعترض على قول أبينا ، إنا فى قلق عظيم من هذا الجواب الذى أجبت به الخليفة وكان الأجدر بك أن يصدر الجواب عن الروية واللين » . فقال يحيى « يا إبنى

إنا ذاهبون وأمرنا قد انتهى ، وأنتما بعد قضاء الله ، سبب هذه المحنة ، وعلىّ أن أقول الحق ما دمت حياً ، وعلىّ ألا ألجأ الملق والرياء ، فإن التصنع والشحوذة لا يغيران من قضاء الله ، فقد قيل « إذا انتهت المدة كان الحتف فى الحيلة » ، إن ما أجبت به سيدور الليلة فى رأس هذا الرجل الجبار ، ولا شك أنه سيتكلم عنه غدا ، ويستوضح جلية الأمر ، وسأبلغكما بما سيقال ، فعودا ولا تقلقا » .

فعادا حزينين فقد كانا شابين لا تجربة لهما . وكان أبوهما شيخ حنكه الزمان ، فتناول طعامه هنيئاً مع ندمائه ، ثم دخل الحرم فى غرفته الخاصة وأمر بإحضار العود والجوارى والشراب ، وبدأ يشرب وطلب كتابا اسمه « لطائف حيل الكفاة » وأخذ يحتسى الشراب فى تؤدة ، ويستمع إلى الغناء فى هدوء ولين ومتعة ، ويصغى إلى الألحان والأغانى وهو يقرأ الكتاب ، حتى انقضى باقى اليوم ونصف من الليل ، ثم قال لنفسه ها قد فهمت . ونام وصحا مبكرا وسار إلى البلاط فلما انقضت الحضرة اختلى هرون به وقال : « يا والدى لقد واجهتنى بالأمس بجواب غليظ فإلى أى شىء رميت » فقال يحيى : « أطال الله حياة أمير المؤمنين إن الحق مذاقه مر ، ولعل الناس فيما مضى كانوا يستحسنونه ٤١٩ واليوم تغير الحال ، وهذا هو شأن الدنيا الغرورة التى لا تدع الأحوال على منوال واحد . ولو أن الحساد قد غيروا رأى مولاى بالنسبة إلى ، وأشاهد بنفسى آثار التنكر والتغير ، فعلىّ ألا أخفى النصح ما دمت فى الخدمة وألا أكفر بالنعمة » . فقال هرون : « يا والدى لا تقل هذا ولا تتشاءم ، فإن مقامك ومقام ولديك عندى لم يتغير ، ولا تضن بنصحك فإن كلامك يطيب لى ويسعدنى حقا كان أم باطلا . وهذا الحديث الذى قلته بالأمس أثر فى قلبى أيما أثر ، فعليك أن تشرحه شرحا وافيا لنقطع فيه برأى » . فوقف يحيى وقبل الأرض ثم جلس وقال : « أطال الله عمر أمير المؤمنين ، أستطيع اليوم أن أشرح قليلا من حديث الأمس ، وسيتضح أكثره فى الغد » . فقال : حسنا . فقال يحيى :

« لقد أطلق أمير المؤمنين يد علي بن عيسى ليفعل ما يشاء . ولا يجرؤ العيون على كشف ما يجرى ، فإنه قتل منهم رجلين كنت قد وكلت إليهما أمر التجسس عليه . إنه قد أفقر أهل خراسان واستأصل شأفة الأقوياء والعظماء ، واستحوذ على ضياعهم وأموالهم ، ووقع جيش أمير المؤمنين فى الفاقة . وخراسان ثغر عظيم وعدو كالترك منه قريب . ولا يجوز الالتفات إلى الهدية التى أرسلها ، فإنه أرسل درهمين أو ثلاثة من كل عشرة دراهم سلبها ، بل يجب الالتفات إلى أن الخلل سوف يقع ساعة بعد ساعة ، وذلك الخطر لا يستطاع تلافيه ، فإن أهل خراسان حين ييأسون من أمير المؤمنين فإنهم يتوسلون إلى الله تعالى ، ويثيرون فتنة كبرى ، ويستعينون بالأتراك ، وأخشى أن يصل الأمر إلى حد أن يضطر أمير المؤمنين إلى السفر بنفسه لتلافيها ، ويضطر لإنفاق خمسين درهما أو أكثر بإزاء كل درهم قدمه علي بن عيسى . وقد قلت ما عرفت وأسقطته من عنق والأمر لأمير المؤمنين ، وغــــدا سأبين لأمير المؤمنين ظواهر ودلائل واضحة أخرى » . فقال هرون الرشيد : « حقاً ما قلت أيها الوالد جزاك الله خيرا ، وسنعمل ما ينبغى فعد إلى بيتك وبين غدا ما ذكرت اليوم » . فعاد يحيي قوى القلب ، وقص ما جرى على ولديه الفضل وجعفر فسرا بذلك ، وأرسل يحيي رسولا ودعا إليه عشرة رجال من أغنى تجار الجواهر فى بغداد ، وقال لهم إن الخليفة يريد شراء ما يساوى قيمته ثلاثين ألف ألف درهم ، من أثمن ٤٢٠ الجواهر وأندرها . فقالوا حسنا جدا ، إن فى وسعنا ببركات دولة أمير المؤمنين وعدله نحن العشرة أن نهيء ما قيمته ثلاثون ألف ألف دينار من الجواهر أو أكثر لمن يريد . فقال يحيي بارك الله فيكم ، انصرفوا وعودوا غدا إلى القصر ومعكم الجواهر حتى تقدموا للخليفة ليأمر بما يراه . فانصرف التجار وعادوا فى الغداة إلى القصر بأسفاط الجواهر ، واستأذن يحيي للخلوة مع الرشيد ، فأذن له ، وجيء بالتجار ومعهم الجواهر فعرضوها ، وأعجب الخليفة بها ، وسلم إليهم يحيي

صكا بسبعة وعشرين ألف ألف درهم ، وقد وقع عليه هرون الرشيد . وقال الرشيد انصرفوا لنقرر ما نرى . وعودوا غدا إلى يحي ليخبركم بما نأمر به . فرجع تجار الجواهر بعد أن أقفلوا الأسفاط وختموها وأودعوها فى الخزانة . قال هرون ليحي ما هذا الذى عملت يا أبى ؟ قال أطال الله عمر أمير المؤمنين فلتحفظ الجواهر فى خزائنك وسأسترجع غدا الصك من التجار وأمزقه . ولن يجرؤوا على التحدث بماجرى ، فإذا جاءوا إلى مولاى متظلمين فليحولهم مولاى إلى لأجيبهم . فقال هرون إنا على ذلك قادرون ، ولكن ماذا تكون حجتنا يوم القيامة أمام الله عز وجل ، ولسوف يجلو الناس عن هذه المدينة ، الرعايا والغرباء ، وتسوء سمعتنا فى العالم كله . فقال يحي : « هذا لعمرى ما كان من أمر على بن عيسى فى خراسان ، وإذا كان أمير المؤمنين لم يرض أن يتظلم ويتوجع منه عشرة رجال فكيف يرضى أن يتوجع مائة الف مسلم من وال واحد وأن يدعوا عليه بالســـوء » . فقال هرون : « أحسنت يا والدى وقد أحسنت الإيضاح ، خذ أسفاط الجواهر وردها لأصحابها ، وأنا أعرف ماينبغى عمله مع على بن عيسى الظالم » . ورجع يحي . وفى الغداة جاء تجار الجواهر إلى يحي ، فأمر بالأسفاط أن ترد لهم مقفولة ممهورة . وعدلوا عن البيع واسترد الصك . وقال ليس هذا المال جاهزا الآن ، وبعد أن تصل الأحمال من الشام ومصر سنشترى الجواهر . فدعوا له وعادوا . وبقى هذا الحديث فى قلب الرشيد ودأب على التفكير فيه ، وفى كيفية الإيقاع بعلى بن عيسى . إلا أن دولة ٤٢١ آل برمك قد آذنت بالزوال ، كما هو معروف . وخرج رافع بن الليث بن نصر بن سيار ، الذى كان واليا على بلاد ما وراء النهر من قبل على بن عيسى ، وانضم إليه كثيرون من وجوه مرو وكان معه كذلك جيش عظيم ، وانضم إليه طوائف عديدة من ما وراء النهر وتقدموا نحوه ، وانتشرت الفتنة فى خراسان كلها ، وقد هزم كثيرا من الجيوش التى كان قد أرسلها على بن عيسى ، الذى بلغ به

الأمر إلى طلب المعونة من هرون فأمده بجيش كبير على رأسه هرثمة بن الأعين وتواطأ معه سرا وأعطاه مرسوما بالولاية كي يفاجيء عليّ بن عيسى بالقبض عليه ويقيده، وينصف أهل خراسان منه، ثم يرسله إلى بغداد، وبعد ذلك يفرغ لأمر رافع بن الليث حتى ينتهي من أمره حربا أو صلحا. وسار هرثمة وقبض على عليّ بن عيسى فجأة، وأخذ كل ما كان يملك، ثم أرسله مقيدا إلى بغداد مع أحد خدم الرشيد. وضبط هرثمة الأحوال في خراسان بقدر ما استطاع وكان أمر رافع يعلو يوما بعد يوم، وهرثمة عاجز، مما اضطر الرشيد، وكان في آخر أيام حياته إلى أن يقود بجسده المحطم جيشا كبيرا، جعل على مقدمته ولده المأمون. وكان في طريقه يقول: «وا أسفا على آل برمك، إني لأذكر اليوم ما قال يحيى، ما استوزر الخلفاء مثل يحيى». وكان آخر أمره أن ذهب المأمون إلى مرو وأقام بها وأرسل جيشا إلى هرثمة في سمرقند، وأما الرشيد فإنه حين بلغ طوس، قضى نحبه.

انتهت هذه الحكاية وإني أذكرها ومثيلاتها ولو أنها تطيل كتابي، فإنها ذات فوائد والسلام.

* * *

وفي يوم الأحد العاشر من رمضان سنة خمس وعشرين وأربعمائة (١٠٣٤) جاء سائح من خوارزم، وكان معه رقعة صغيرة أخفاها في ركوته، وهي من رسائل صاحب البريد، كتبها في خمسة أسطر، ثم أحال التفصيل على السائح الذي يجب سؤاله عن الأموال. قال السائح إن صاحب البريد يقول: «إن واجبي الذي يقتضيني الكشف عن الأحوال قد أصبح يعرض حياتي إلى خطر الموت. وقد اختفى عبد الجبار بن الوزير، فإنه كان يخشى على حياته، وهم جادون في البحث عنه، ولن يجدوه لأنه في مكان أمين. وقد أصبح هرون ٤٢٢

جبارا فى الأرض ، وهو يعد جيشا ويكثر من شراء الغلمان والخيل وقصده مرو . وقد قبضوا على رجال الوزير الكبير ، وصادروا أموالهم ، ولكن الخطبة لا تزال على ما هى عليه فإنه لم يصرح بالعصيان ويقول « إن عبد الجبار يخاف من ظله ، وقد ولى فرارا بعد ما امتدت بالسوء يده » . وأما أنا ، صاحب البريد ، فقد استبقونى فى منصبى ، فأنا أعمل عندهم وكل ما أكتبه فلا يعبر إلا عن رغبتهم . ثم إن بايتكين الحاجب وآيتكين الموكل بالشراب وقلباق وهندوان ومعظم المقدمين المحموديين جديرون بالقيام بهذا الأمر ، ولكن ماذا بيدهم ، إنهم لا يقدرون على مقابلة الفرسان . ولا بد من اتخاذ التدابير إذا كان يعنيكم المحافظة على هذه الولاية فإن الشر يتزايد يوما بعد يوم . وليعلم والسلام» . فلما وقف السلطان مسعود على هذا الحال قلق واختلى مع أبى نصر مشكان وتحدث مليا معه . واستقر رأيه على أن يعاد الساعى ومعه كتاب إلى المقدمين كى ينصحوا هرون ويثنوا عزمه عن العناد ، حتى لا يستشرى الفساد فتدبر الأمور إلى أن تصل الراية العلية إلى خراسان . وتقرر أن يعلن السلطان عزمه على التوجه ناحية بست حتى يذهب منها إلى هراة . ووجه كتاب إلى الوزير أحمد عبد الصمد بهذا المعنى ليبدى ما يرى فيه ليعمل ما ينبغى عمله وليكتب بما يرى . وانفرد أبو نصر وكتب ملطفة إلى خوارزم مختصرة للغاية وقد مهرها السلطان بتوقيعه ، ومنح الساعى صلة كبيرة ، ثم توجه إلى خوارزم وكتب للوزير ما ينبغى أن يكتب فى مثل هذه الأحوال . وسيأتى باب خاص لأخبار خوارزم أتناول فيه الموضوع بشكل أتم ، أما هنا فلا أفضل الكلام . وفى منتصف هذا الشهر جاءت الكتب من لاهور تنبىء بأن أحمد ينالتكين قد جاء ومعه ٤٢٣ خلق كثيرون ، وأن قاضى شيراز وصفوة القوم قد ساروا إلى قلعة مندككور وأن القتال مستمر وأن النواحى تنهب والفساد ينتشر . فاستغرق السلطان

فى الفكر ، فإن قلبه كان قلقاً من ثلاث نواح ، تراكمة العراق وخوارزم ولاهور ، لهذه الأسباب التي قدمتها . وجاءت الكتب كذلك من نيسابور تقول إن أهل طوس وباورد سوف يقصدون نيسابور ، إذ أن سورى غائب ، وإن أحمد على نوشتكين الذى هرب من كرمان قد جاء إلى هنالك مع هذا الرجل الذى معه ليهيء لهم وسائل الحرب . فأمر السلطان رضى الله عنه سورى بأن يذهب فورا إلى نيسابور . فقال سمعاً وطاعة وفي اليوم الرابع من هذا الشهر أعطاه السلطان خلعة غاية فى الجمال والحسن .

وفى يوم الثلاثاء عيّدوا ، وأمر السلطان رضى الله عنه بأن يقيموا حفلا رائعاً ، وبعد ذلك نُصب الخوان ، وأمر بأن يسمح بالشراب على المائدة للموالى والحاشية فسكروا ، وشرب السلطان مع الندماء ولم يبد عليه الطرب ، فقد كان شديد القلق بشتى الأفكار . وجاءت الكتب من لاهور ، وكانت مهمة جدا ، إذ جاء بها أحمد ينالتكين كاد يستولى على القلعة لولا أن جاءه الخبر بأن تلك الهنــــدى قد جهز جيشاً عظيما من شتى الأجناس وأنه متجه نحو هراة . وقد أوقع الخبر الذعر فى قلب هذا المخذول (أحمد ينالتكين) ووقعت الفرقة فى صفوف جيشه . ومع أن السلطان قد قرأ هذه الرسائل وهو فى مجلس الشراب فإنه أمر بتوجيه كتاب إلى تلك الهندى وبوضع الرسائل فى درج الساعى ،وأمر تلك بأن يتوجه فورا إلى أحمد ينالتكين . ثم وقع الكتاب وكتب بخطه فى آخره كلمة قوية جدا كشأنه حين يكتب بأسلوبه السلطانى ، وفى هذا الوقت كان تلك يخاطب من ديواننا بكلمة « المعتمد » وأرسلت هذه الرسالة على عجل .

وفى يوم الخميس الثامن عشر من شوّال جاء كتاب من كَرديز يقول إن السپهسالار غازى الذى كان معتقلا هناك قد أدركته المنون . وقد سمعت أنهم ٤٢٤

كانوا قد اعتقلوه فى القلعة وقيدوه قيداً خفيفاً ، وأن شخصاً قد جاء سراً إلى الكوتوال وقال له إن غازى قد أعد الحيلة وأنهم حملوا إليه مطواة حادة وأنه يحفر نفقا أثناء الليل ، وأنه يفرش على المدخل مايخرج من التراب حتى لايشعر أحد بشيء ، وأنه يغطى النفق أثناء النهار . وذهب إليه الكوتوال فجأة بالليل ، ورأى التراب والمطواة والنفق ، ووجه إليه اللوم قائلا لماذا فعلت هذا ؟ وقد بذل لك من العطف وكان لك من حسن المعاملة مالا مزيد عليه . فأجابه غازى بأنه لم يرتكب ذنباً ؛ وأن الحساد قد حملوا السلطان لإغارة صدره عليه ، وكان أمله أن يلفت إليه نظره العالى ، فلما لم يجد عطفاً وطال حبسه أقدم على مايقدم عليه المسجونون والعجزة ، ولو تخلص من السجن لتقدم بنفسه إلى السلطان الذى كان ولا بد عاطفاً عليه . فنقله الكوتوال إلى حجرة أخرى واحتاط له ، وأمر بأن يسد النفق بالطوب والطين . ثم إنه رفع الأمر للسلطان فجاءه الجواب بأن غازى برىء وأن الرعاية السلطانية ستشمله فى الوقت المناسب ، ويجب أن يظل قلبه راضيا وأن يحافظ عليه بالحسنى . وقد سر غازى بهذه الكلمات ورق له قلب السلطان . ولكن الموت الذى لامنجى لإنسان من قضائه قد دهمه رحمة الله عليه ، كان قائدا فذا .

ذكر رسل الحضرة الذين عادوا من تركستان

مع المهد والوديعة ورسل الخان الذين صحبوهم

مضى قرابة أربع سنوات على سفر رسولينا الخواجة أبو القاسم الحصيرى النديم والقاضى أبى طاهر التبّانى إلى تركستان من بلخ ، لعقد الميثاق مع قدرخان ولطلب ابنته للسلطان مسعود ، ولطلب واحدة من بنات بغراتكين لابن السلطان الأكبر مودود ، وقد أبرموا الميثاق وعقدوا العقدين . وقد مات قدرخان وولى تركستان بغراتكين ابنه الأكبر وولى عهده ، وقد لقب ٤٢٥

بلقب أرسلان خان . ولهذا السبب امتدت الإقامة برسولينا فتأخرا ، وقد أرسلت كتب من هنا بالتهنئة والتعزية على الرسم المتبع فى هذه الأحوال . ولما استقر الأمر فى تركستان ونصب عليها ملكها ، عاد الرسولان موفقين ، وبعث معهما أرسلان خان رسلا وجاءوا بالمهود . ولكن حدث أن حم القضاء فى عروس نجل السلطان الأمير مودود ، فأحضروا شاه خاتون بنت قدرخان عروس السلطان مسعود ، ولما بلغوا پروان مات القاضى أبو طاهر التبانى . وذكرت قصص عن وفاته . قال جماعة إنه أصيب بإسهال شديد ثم لقى حتفه على أثره ، وقال آخرون إنهم قدموا إليه دجاجا مسموما فأكل منه ومات، ولا يعلم الغيب إلا الله عز وجل . وكم سيكشف يوم القيامة من الأسرار يَوْم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . وأرى من الحمق العظيم أن يقدم رجل على إراقة دماء المسلمين من أجل الجاه وحطام الدنيا ، والله عز ذكره يعصمنا وجميع المسلمين من الحرام والشر ومتابعة الهوى بمنّه وسعة فضله .

وفى يوم الجمعة التاسع عشر من شوال زينت مدينة غزنة بالزينة التى كانت عليها فى السنة التى جاء فيها هذا السلطان من العراق عن طريق بلخ حيث توّج بها. وقد نصبت الكثير من معالم الزينة والأفراح من مختلف الأصناف وكانت فى جمالها تفوق الوصف . وكان أولها المهد الذى أحضر من تركستان ، وقد أمر السلطان بأن يرى الترك من المباهج ما لم يروا من قبل . ولما بلغ الرسل والمهد ناحية شجكاو[1] كان عليهم أن يقيموا بها تنفيذا للأمر الصادر إليهم ، وجاء الخواجة أبو القاسم النديم فى الحال إلى البلاط ، وقابله السلطان وشمله

---

(١) باجكاه فى صفحة ٢٧٩ (٢٥٠ من غنى - فياض) وجاءت هنا شجكاو وجاء فى حاشية ب : شجكاو مكان على منزلين من غزنة وتسمى اليوم ششي كاو . غنى - فياض حاشية ١ .

بعطفه ، فإنه كان قد لقى كثيراً من المصاعب ، وقد اختلى به فلم يكن معهما غير الخواجة أبي نصر مشكان : وقد استمرت هذه الجلسة الخاصة حتى قرب صلاة العصر ، ثم عاد أبو القاسم إلى البيت . وفى اليوم التالى ، يوم الإثنين لثمان بقين من شوال ، ذهب أهل المراتب ووالى الحرس والقائم بأمر السفراء ومعهم الجنائب فأحضروا رسل الخان ، وكانت المدينة كلها محلاة بالزينات والزخرف ، فلما رأوا الرسل نثروا كثيرا فى أفغان شال وفى ميدان ٤٢٦ رسوله (؟) وفى الأسواق ، ونثروا الدنانير والدراهم وكل شىء ينثر به فى هـــذه المناسبات ، حتى كان الرسل فى عجب بما يرون . ثم إنهم أنزلوهم وقدّموا لهم مأكولات عدة . وبعد صلاة العصر ذهب كل نساء المحتشمين والخدم لاستقبال المهد ، وجاء هؤلاء من شجكاو ومعهم كوكبة عظيمة من الفرسان ، وقيل إن أحدا لم يرا مشهدا كهذا . وقد حكت إلىّ السيدة زرين وعندليب أن الجوسق زيّن زينة لم تحدث فى عهد السلطان ولا أمر بمثلها . وفى هذا الوقت جىء بكل جواهر السلطنة وآلاتها . فلتكن هذه الدولة قائمة أبدا .

وظلت المدينة ترفل فى الزينة بضعة أيام . وكان الأهالى فى حبور ، وأتى الأعيان بشتى أنواع النثار ، وجرت مجالس الشراب حتى نهاية هذا الحفل . ثم إنه بعد مدة وجيزة رجع الرسل مكرمين إلى تركستان ، وكانوا مسرورين بعد أن قابلوا السلطان عدة مرات وأبرموا معه المواثيق ودُعوا كثيرا إلى الولائم والشراب ولعب الصولجان . وكتبت فى هذا الشأن كتب كثيرة بالغة الجودة وقد ألفتُ فيها رسالة لو ذكرت ما بها هنا لطال الحديث . وإن هذا الكتاب نفسه سيطول ، وأنا اعرف أنى من الملحين فى الإشادة بهذه الأسرة . وأعلم أنهم يعدوننى من المبالغين فى مدح هذا البيت ، ولكنى أريد أن أؤدى حق هذه

الأسرة الكبيرة كاملاً ، وليس فى يدى سوى هذا القلم ، لذلك بادرت بهذا القول .

وفى يوم الخميس الخامس والعشرين من شوّال جاء الرسل مبشرين من نيسابور بكتب من أحمد على نوشتكين والشحنة تقول إن بين أهل نيسابور وأهل طوس خصاما قديما ، وإن سورى حين قصد الحضرة وذهب ، اغتنم هؤلاء المخاذيل الفرصة فجاء كثير من المفسدين ليغيروا على نيسابور ، واتفق أن هزم أحمد على نوشتكين هناك فى سيره من كرمان عن طريق تون ، فخجل من السلطان وأقام هناك . وقد وجه إليه كتاب ليعود إلى البلاط ، وقبل أن ٤٢٧ يذهب جاء هؤلاء المخاذيل إلى نيسابور ، وكان أحمد مبارزا ، واشتغل بقيادة الجند ، وله فى الفروسية ولعب الصولجان والكرة بأنواعها دراية تامة ، فاستعد لمقابلة الطوسيين . وجاء خلق كثيرون من طريق بزخرو[1] ويشقان[2] وخالنجوى[3] ، معظمهم رجّالة وبغير نظام ، كان يقودهم تارودى[4] وهو من بقايا المدبرين من آل عبد الرازق ، وجاءوا فى جلبة وشغب وضوضاء وكانوا يعدون ويتلفتون دون توقف ، حتى ليظن أن خانات نيسابور قد فتحت أبوابها وأن المدينة قد أضحت بغير حاكم يمنعها أو يذود عنها ، حتى أن قوافل المكوس تغزو وتنهب ثم تعود محملة بما غنمت . فلما وقف أحمد على نوشتكين الشجاع على هذا الأمر ورآهم فى حالة فوضى ، قال لقومه إنى أرى هؤلاء

---

(١) بز بمعنى رقبة والمقصود مدخل خرو — وخرو اسم جهة جبلية بين طوس ونيسابور تعرف اليوم بهذا الاسم نفسه . غنى—فياض ٢ .

(٢) يرجح غنى — فياض أن صحة هذا الاسم بشقان . وهو اسم قرية من قرى نيسابور قرب خرو . وتسمى هذه القرية بوشكان وفوشنجان كذلك . حاشية ٣ .

(٣) وتسمى اليوم كلنجو . غنى — فياض ٤ .

(٤) هكذا فى النسخ كلها كما يقول غنى — فياض (٥) ونفيسى (س ٥١٩) ويرجحون أن صحته باوردى .

يسعون لحتفهم بأرجلهم ، فأطيعوا ولا تتسرعوا . فقالوا الأمر للسلطان ونحن طائعون . ثم إنه تحدث للعامة والغوغاء الذين كانوا أكثر من عشرين ألفا ، معهم أسلحة وعصى وحجارة : التفتوا وأنتم فى أماكنكم ولا تتحركوا وأعينونى بصراخكم لأنه إذا تقدم منكم فوج ، خبط عشواء ، فإن الطوسيين ينتصرون عليه وتنكسر قلوب النيسابوريين إذا هزم جماعة من عامتنا . فقالوا سنعمل بما قلت واستعدوا وارتفع عويلهم وصراخهم كأن القيامة قد قامت . وكان لأحمد ثلاثمائة فارس مستخفون فى الكمين تحت جدران القلاع . فقال لهم : « كونوا على استعداد واستمعوا إلىّ فحين يقترب الطوسيون فإنى سأقابلهم ثم أناوشهم مناوشة قصيرة ثم أوليهم ظهرى وأتراجع منهزما حتى يصبح ٤٢٨ المدبرون أشد حرصا على التوغل ، ظنا منهم أنى قد وليت منهزما ، وأنا أجرهم خلفى رويدا رويدا حتى يعبروا كمينكم ، فحين يعبرون أرتد عليهم وأقاومهم ، فإذا حمى الوطيس وحين تسمعون النيسابوريين وطبلهم وصياحهم انطلقوا من الكمين ، وحينئذ يكون النصر من الله عز وجل ، وإنى أعلم أن سوف يكون النصر لنا بهذا التدبير المحكم الذى رسمت » . قالوا إنا هكذا فاعلون وعاد أحمد من مكان الكمين ثم تراجع بعيدا حتى الصحراء الواقعة على حافة ميدان عبد الرازق ، فعبأ رجّالته وفرسانه ، وأعد الميمنة والميسرة والقلب والجناحين والساقة ، وجعل على المقدمة خمسين فارسا على خيول مطهمة ، ثم أرسل الطليعة ، وارتفعت الأصوات بالتكبير وتلاوة القرآن ، وحدثت فى المدينة هزاهز شديدة . وأقبل الطوسيون قبيل صلاة الظهر ، كانوا كثيرين كالنمل والجراد ، ومن جملتهم ثلثمائة فارس من كل جنس وما يقرب من ستة آلاف راجل بأسلحتهم ، جاءوا ودخلوا فى سرعة ثم توقفوا . وفى هدوء تقدم أحمد ومعه أربعمائة فارس وألفان من الرّجالة ، وتجاوز المكان الذى أعد به الكمين ، واشتبكت مقدمة جنده بمقدمة جيش العدو ، وجرى بينهما قتال عنيف ، ثم التحم الجيشان وكانت معركة

شديدة انقلبت إلى مبارزة بالسيف بين الجند ، ومكثت المعركة بعض الوقت وقتل كثيرون من الطرفين ، وأما الجرحى فكانوا فوق الحد ؛ وكان المدد يصل إلى الطوسيين ، فأمر أحمد رجّالته ، وكان قد دبر الأمر معهم ، أن يتقهقروا وأن يرتدوا رويدا رويدا ، فلما رأى الطوسيون ذلك ازدادوا شجاعة ، وتوغلوا متعقبين رجال أحمد ، وكان أحمد يحارب وهو يتراجع حتى أدرك أنه تجاوز مكان الكمين ، فثبت لهم أقوى مما كان ، وانضم إلى ساقته الفرسان الذين كانوا فى فترة راحة ، والرجّالة الذين كان أوقفهم ، وحمى وطيس المعركة فأمر بأن تنفخ الأبواق وتدق الطبول دفعة واحدة وأن يصرخ العامة والغوغاء ، حتى لتحسب أن الدنيا قد تمزقت وخرج الفرسان المستريحون من المكامن ونفخوا فى الأبواق وحوصر الطوسيون من أمام ومن خلف ، واختل نظامهم وارتفعت ضجة القتال ، واختلط بعضهم ببعض واحتاروا فى أمرهم ثم انهزموا وأخذ ٤٢٩ يضرب المدبر منهم رفاقه القادمين لنصرته ولم يتورع أحد عن ضرب أخيه . وتعقبهم النيسابوريون بقلوب قوية وقتلوا كثيرا منهم حتى تجاوز عددهم العد . وكانوا من شدة الهزيمة ومن خوف النيسابوريين ، الذين كانوا يخشون على أرواحهم منهم ، كانوا قد رموا بأنفسهم فى الكروم والبساتين وألقوا أسلحتهم . وكان النيسابوريون يدخلون إليهم ويمسكون الرجال من لحاهم ويخرجونهم ويحزون رؤوسهم . وقد رأوا خمس أو ست نساء فى بساتين بأقصى المدينة يسقن أمامهن ما يزيد عن عشرين طوسيا وكنّ يصفعنهم .

وسار أحمد على نوشتكين مع صفوة فرسانه فى أثر هؤلاء المخاذيل حتى خالنجوى ، على ثلاثة فراسخ من نيسابور ، وقتل كثير منهم وأسر كثير . ثم عادوا إلى نيسابور منتصرين ومعهم الغنائم والدواب والسلاح الكثير وقت صلاة العشاء . وفى اليوم التالى أمر أحمد بنصب المشانق ، فساقوا إليها كثيرين من الطوسيين ، وقطعت رؤوسهم ووضعت فى أسفل المشانق . وأطلقوا سراح

المستضعفين منهم وأصبح لأهل نيسابور هيبة عظيمة حتى أن معظم الطوسيين كانوا لا يجرؤون على النظر إليهم . وقد سر السلطان من هذا الذى عمله أحمد وبه أمحى من صفحته ما قد لحقه من عار هزيمة كرمان .

ذكر أحوال كرمان وهزيمة الجيش الذى كان مقيما بها

ولا مفر من الاسترسال فى الحديث فنوضح أمر كرمان وأسباب الهزيمة فإن[ا] هذا من حق التاريخ عليها .

فى الوقت الذى جاء فيه السلطان مسعود من هراة إلى بلخ ، وكان قد أرسل جيشاً مع الحاجب الجامه دار إلى مكران ، وسارت الأمور على ما يرام ، واستقر الأمر لأبى العسكر وضبطت أمور هذه الولاية واستراح الناس ، أنهى العيون الذين كانوا فى ولاية كرمان إلى السلطان ، أن الحاكم هناك هو أمير بغداد[١] ، وأن أهل الفساد يفسدون فى الأرض ولا يخشون العدالة ، بحجة أنه مشغول بأمر نفسه وأنه عاجز . فحملت السلطان همته العالية ٤٣٠ على الاستيلاء على هذه الولاية ، فإنها متصلة بأقصى سيستان ، ثم من ناحية أخرى فإن الرى وإصفهان حتى همدان فى حوزة السلطان وبها حشم دولته ، واستشاروا الوزير الأستاذ الرئيس أحمد حسن فى الأمر فى مدينة بلخ ، وظلوا فى هذه المشاورات بضعة أيام حتى استقر الرأى على إيفاد أحمد على نوشتكين ، على أن يكون واليا وقائدا وأن يكون أبو الفرج الفارسى كتخدا للجيش

(ا) لاحظ غنى ـ فياض (١) أن حاكم كرمان فى ذلك الوقت كان باكاليجار الديلمى صاحب الأهواز . (وهو غير باكاليجار الجرجاني الذى تكرر الحديث عنه فى هذا الكتاب) ، وأن أمير بغداد كان جلال الدولة . وجاء فى حاشية يب أن إمارة بغداد فى ذلك الوقت كانت فى الغالب بيد الديالمة ولذلك ذكر أن باكاليجار كان أمير بغداد .

والأعمال والأموال ، وكتبت المنشورات وازدانت بتوقيع السلطان ، وأعطى الوالى خلعة عظيمة ، كمراً وعمامة من ذات الركنين وكوساً وراية وخمسة أفيال ، وكل ما هو جدير بهذه المرتبة من الآلات ،كما أعطى الكتخدا عدة من الذهب وسيفا ذا حمائل . ولبس الوالى الخلعة ، وجرت الأمور على خير وجه ، وأعد استعراض مهيب ، وأمر السلطان بأن تتلى عليه جريدة العرض ، فجاء العارض ومعه أربعة آلاف فارس ، ألفان من الهند وألف من الترك وألف بين كرد وعرب ، وخمسمائة راجل من كل صنف ، وكتبوا إلى عامل سيستان ليجهز ألفين من الرجّالة السجستانيين ومعهم مايلزمهم ، على أن يزودهم أبو الفرج من أموال كرمان . فلما تم هذا الأمر ركب السلطان وسار إلى الميدان ليستعرض هذا الجيش مع مقدّميه أصحاب الكمر المذهب ، وكان الجيش فى عدة كاملة ، وأعطى السلطان أوامره الشفوية للوالى والكتخدا والمقدمين . ثم إنهم قدموا التحية وانصرفوا واستولوا على كرمان وهرب من هناك جماعة الأوباش واستقام الأمر للوالى والكتخدا واطمأنت الرعية ، وأخذوا فى إعطاء الأموال وأرسل أمير بغداد رسولا معاتبا ، وكان صديقا للسلطان السابق ، وكان قد تألم من الكتابة والتراسل فى هذا الحديث ، فجاء الجواب بأن هذه الولاية مرتبطة بولايتنا من جانبين وهى مهملة وأهلها يستغيثون من المفسدين وفريضة علينا أن نفرج كرب المسلمين ، ثم إن أمير المؤمنين بعث إلينا منشورا أن نستولى على على مثل هذه الولاية التى لاسلطان عليها ولا حامى لها . وعاتب أمير بغداد الخليفة على ذلك ويئس . وأجاب الخليفة بأن هذا الحديث ينبغى أن يوضع له حد ، وأن بغداد والكوفه وأرض السواد ، وكلها تحت يدنا ، لم تر مثل ما هى فيه من الأمن اليوم ، وأنت تعتب اليوم عما ٤٣١ يجرى فى كرمان . وانقطع هذا الحديث ، ودب خلاف بين الطرفين وأصبح يُخشى من محاولة استرجاع كرمان ، فإن جيوشنا كانت تتقوى فى ناحية همدان ، فكانوا يخشون أن تفلت

بغداد بدورها من أيديهم . ومضى الوقت ومضت على ذلك مدة واجتازت خراسان وخوارزم وكل جهة فترات من الهدوء ، وبدأ الفتور ، وعلا شأن التركمان ، وامتدت أيدى رجالنا فى كرمان ، وارتكبوا المظالم ، حتى ضجت الرعية هناك وطلبوا الغوث . وفى الخفاء انسل بضعة رجال وذهبوا إلى وزير أمير بغداد ابن ماقيه ، وحملوا إليه أسماء أعيان كرمان واستغاثوا ، وقالوا : « إن جيش خراسان هذا غافل ورجاله يعيثون فى الأرض فسادا . فينبغى إرسال فوج من الفرسان مع قائد كبير لتبادر الرعية بعونه ولتخلص من ظلم الخراسانيين ونطردهم من ديارنا » . فسار ابن ماقيه[1] ومعـــه حاجب بغداد ليفاجىء الخراسانيين ، ومعهم خمسة آلاف فارس وانضم إليهم فى الطريق خمسة آلاف رجل من الثائرين ، وبلغوا كرمان على غرة من أهلها ، فدخلوها من جانبين ووقعت معركة هائلة فى نرماشير . وعاونهم الأهالى جميعا ضد جيش خراسان وبذل أحمد على نوشتكين أقصى ما فى وسعه ، ولكن الهنود تخاذلوا وولوا منهزمين ، فانهارت الروح المعنوية فى سائر الجند واضطر أحمد إلى الجلاء . وقد ذهب مع فوج من خاصته وخاصة جيش السلطان إلى نيسابور عن طريق قاين ، وبلغ مكران فوج آخر ، ونزل الهنود فى سيستان ومنها ساروا إلى غزنة . وكنت (أنا أبو الفضل) قد أتيت فى حاشية السلطان فى حديقة صد هزاره ، فرأيت مقدمى هؤلاء الهنود الذين كانوا قد بلغوها ، فأمر السلطان بإنزالهم فى خان كبير كان به ديوان الرسائل ، وقد حمل إليهم أبو سعيد المشرف رسالة من السلطان شديدة اللهجة ، وبلغ الأمر إلى حد أنهم أخبروا بالاستغناء عنهم . فضرب مقدموهم الستة أنفسهم بالحراب فسالت الدماء فى الخان ، فخرجتُ وأبا سعيد وآخرين منه ، وأبلغت السلطان الخبر فقال : كان عليهم أن يضربوا

(١) ذكر هـــذا الاسم فى ابن الأثير « ماقنه » وهو أبو منصور بهرام بن مافنه الملقب بالعادل : غنى — فياض ٢ .

هذه الحراب فى كرمان ، وحقّرهم كثيرا . ثم عفا عنهم . وبعد ذلك اضطربت الأمور وأصبح من العسير ٤٣٢ إرسال جيش آخر لكرمان ، وجاء أحمد على نوشتكين وكان فى غاية الخجل ، وقد انزوى ولم يمض زمان طويل حتى مات .

ذكرى خروج السلطان من غزنة

على جانب بست ومن بست إلى خراسان وجرجان

ولما حلّ موعد السفر وكانت الأحوال فى خراسان وخوارزم والرى والجبال على ما ذكرنا ، عزم السلطان مسعود رضى الله عنه على أن يذهب إلى بست ، ومنها يسير إلى هراة عاصمة خراسان حيث يقرر ما يرى فى هذه الأحوال . وقد خلع السلطان مسعود على الأمير سعيد ، وسلمه غزنة . بحيث يقيم فى القلعة بسراى السلطنة ، وينظر فى المظالم بها . وقد عهد إلى السرهنك أبى على الكوتوال بأن يكون مع الأمير مشيرا ومديرا للأعمال . وأرسل السلطان أبناء الأمراء الآخرين مع أهل الحرم والخدم والوصيفات إلى قلعتى ناى وديرى ، وأعطى الأمير مودود خلعة حتى يصحبه . وأمر بكتابة رسائل لتالك ليجد فى عمله وهو منهمك فى معالجة أمر أحمد ينالتكين وقد طرده من لاهور . ثم يأمره بالنسبة للقاضى والحشم الذين أنزلوا من القلعة بأن يعاملهم معاملة أشد من ذى قبل ، وأن ينفذ هذه الأوامر بحيث يفرغ من هذه المهمة . وكتب إلى الوزير أحمد عبد الصمد يأمره بالانتظار فى الدركاه إلى أن تصل إليها الراية العلية ، وذلك بعد الفراغ من عمله فى ختلان وطخارستان . وبعد أن فرغ من هذه المهام سار السلطان رضى الله عنه من غزنة يوم السبت لثلاثة أيام بقيت من شوال ، وقد بلغ تكيناباد فى السابع من ذى القعدة وبقى بها سبعة أيام ، وجلس مرة واحدة للشراب ، فقد كان قلقاً ومن هناك جاء إلى بست يوم الخميس السابع عشر من هذا الشهر ، ونزل فى جوسق دشت لنكان ، وكانوا قد ٤٣٣ أقاموا به الحدائق

والعمائر والسرايات الصغيرة . وجاءت من خراسان رسائل هامة عن أحوال التركمان ومجيئهم إلى حدود مرو وسرخس وبادغيس وباورد ، وما يجرى نتيجة لذلك من المفاسد الشديدة ، ومن عجز الوكلاء والشحنة عن مقاومتهم ومنعهم . وكان سورى قدكتب يقول : إذا ، والعياذ بالله ، لم يسارع السلطان بالذهاب إلى خراسان ، فإنه يخشى أن تخرج من حوزتنا ، فإن للتراكمة مدداً خفياً من على تكين ، وإن هرون يغوى الناس فى خوارزم ، ويقال إنه تواطأ سرّا مع على تكين على أن يجىء أولهما إلى مرو ، وأن يزحف ثانيهما على ترمذ وبلخ ، ثم يتقابلان . فلما بلغت هذه الأخبار مسامع السلطان لم يهدأ له قرار .

ويوم الأربعاء ، نهاية هذا الشهر ، سافر من بست ، وفى طريقه جاء المبشرون يحملون رسالة تلك التى يقول فيها إنه قتل أحمد ينالتكين العاصى المغرور وأسر ابنه وأن التراكمة الذين كانوا معه قد دخلوا فى الطاعة . وقد سر السلطان بهذا الخبر سرورا بالغاً ، فقد رفع عن كاهله عبئاً ثقيلا . وأمر بأن تدق الطبول وأن ينفخ فى الأبواق وأن يعطى المبشرون خلعاً ، وطافوا بين جند الجيش وانهال عليهم مال كثير . كانت الرسائل التى بعث بها تلك وقاضى شيراز والعيون تقول : « إن تلك بلغ لا هور وأسر جماعة من المسلمين من أصحاب أحمد ينالتكين ، ثم أمر بقطع أياديهم اليمنى فخاف من كان يناصر ينالتكين من من القوم لما رأوا من سياسته ، وطلبوا منه الأمان وانفضوا من حول أحمد واستقر نظام الأعمال والأموال . ثم إن تلك استعد مع رجاله الكثيرين ، وكان معظمهم هنودا ، وتعقب أحمد ، وحدثت فى الطريق معارك واشتباكات ، ورأى أحمد خذلان ربه له . وكان تلك يخدع جند عدوه ، فكانوا يتجمعون ، وحمى وطيس القتال وثبت فيه أحمد ، ولكن سرعان ما دارت عليه الدائرة وهزم ، وانفض التركمان جملة من حوله وطلبوا الأمان وهرب أحمد مع خاصته وجماعة من أشد أتباعه إثماً ، كانوا ثلاثمائة فارس . ولم يرجع تلك عن الجد

فى أثره ، وكتب إلى الهنود العصاة من طائفة الجتان[1] لكى يسدوا ٤٣٤ المنافذ على هذا المخذول ، وأن يتخذوا حيطتهم وقال لهم إن من يأتى به حياً أو يأتينى برأسه فله خمسمائة ألف درهم . ولهذا ضاقت الدنيا على أحمد بما رحبت ، وانفض الناس من حوله ، وكانت نهايته أن تعقبه الجتان والكفار من كل ملة حتى إذا بلغ نهرا ذات يوم ، وكان ممتطياً الفيل ، أراد أن يعبره فحمل عليه قرابة ثلاثة آلاف فارس من الجتان ، وكان قد بقى معه أقل من مائتى فارس ، فألقوا به فى اليم ولحقه الجتان من جهات عدة معظمهم يطمع فيما معه من المتاع والنعم . فلما اقتربوا منه أراد أن يقتل ولده بيده ، فمنعه الجتان ، وكان ولده على الفيل فاختطفوه . وأعملوا فى أحمد السهام والحراب والسيوف ، وقد قاوم كثيرا ، ولكنهم قتلوه وقطعوا رأسه . وأما رفاقه فكانوا بين قتيل وأسير ، واستولى الهنود على أموال كثيرة كانت معه . وأرسل كبيرهم ، فورا ، وفدا إلى تلك ، الذى لم يكن بعيدا ، يبشره بما جرى . فسر تلك كثيرا . وتدخل جماعة بين الوفد و تلك ، وطال الحديث إلى أن اتفقوا على إرسال ولد أحمد ينالتكين مع رأس أبيه ، وتكلموا فى موضوع الخمسمائة ألف درهم . فقال تلك إنكم قد حصلتم على مال أكثر من هذا ، بما أخذتم من أموال وأنكم إذا عدلتم عن المطالبة بهذا المال فإنكم تكونون قد أديتم خدمة كبيرة ، وتحصلون على ثمرة هذا التصرف الحميد ، فغضوا النظر عن المطالبة بالمال كله ، وتبودلت الرسل مرتين بين الفريقين وارتضوا آخر الأمر مائة ألف درهم . وقد أرسل تلك المبلغ ، فأحضر الجتان له رأس أحمد وولده . فعاد موفقاً إلى لاهور حتى يسوى بقية الأمور ، ثم يبادر بالسير إلى عاصمة الملك العالية بأسرع ما يمكن بإذن الله عز وجل » .

وقد أحسن السلطان الجواب ، وعطف على تلك وصحبه ، وحمد لهم

(١) جتان أو جطان اسم طائفة من الهنود أغلبهم مسلمون . حاشية نسخة ط . فى ـ فياض حاشية ١ ، نفيسى ص ٥٢٧ حاشية ٧

صنيعهم . وأعيد المبشرون ، وأمر تلك بأن يذهب إلى البلاط ومعه رأس أحمد ينالتكين وولده. وهذه هى عاقبة الخائنين العصاة ، وهذه سنة الخلق منذ آدم عليه السلام ألا يخرج أحد على مولاه إلا وينتهى أمره ٤٣٥ بقطع رأسه . وإذ جاء هذا فى الكتب فلا أطيل فى ذكره . وقد أمر السلطان بتحرير كتب إلى الأعيان والعظماء فى أطراف الممالك مع الرسل والمبشرين . فقد كان هذا فتحاً مبيناً .

وبلغ السلطان هراة يوم الخميس منتصف ذى الحجة . وفى يوم الأربعاء الواحد والعشرين من هذا الشهر سار من هراة إلى سرخس عن طريق پوشنك وهناك استعرض الجيش . وجيء بمظفر الطاهر مقيدا ، وكان عامل پوشنك وزعيمها . كان سورى صاحب ديوان خراسان قد دس له مستعيناً بأصدقاء له مثل أبى سهل الزوزنى وآخرين ، حتى ينجح مكره ، فإن السلطان كان شمل أبا سهل برضائه العالى وعاد إلى البلاط نديماً . ويشاء القضاء الذى لا يرد أن يكون السلطان قدس الله روحه شديد الضيق حين كانوا يتحدثون عن مظفر الطاهر ، فإن الكتب كانت قد جاءت بحديث التركمان ومفاسدهم ، فقال وهو ضيق الصدر : يجب تعليق مظفر هذا القوّاد من رجله . وكان حاجب السراى أبله اسمه خمار تكين ترك ، كان من رجال محمود ، قوى الجسم جريئاً ، فخرج وقص هذا الحديث ، واغتنم جماعة سورى وخصوم مظفر هـذا الكلام وأسرعوا بتقديم ألف دينار لهذا الحاجب ، وبدون مراجعة السلطان فى الحكم أمر بأن يعلق مظفر الطاهر على شجرة من أشجار حديقة القصر فعلقوه وأسلم الروح .

وكان الخواجة أبو نصر مشكان فى الديوان فلما سمع هذا الحديث حزن ؛ ودعا أمير الحرس وعتاج ولامهم بشدة وعنفهم ، وقال ليس هذا بعمل هيّن ، فإن السلطان قد أصدر أمره وهو غاضب ، فكان لابد من التوقف فى تنفيذه ، فإن الرجل لم يكن لصاً . قالوا . إن الحاجب قد خرج وأمر بهذا ، وقد أخطأنا

لأنا لم نعد السؤال ، والآن وقد حم القضاء فبماذا يأمر الخواجة ؟ فقال بماذا آمر ؟ إن هذا الخبر لا بد وأن يرفع للسلطان ولا أدرى بماذا يأمر . فانصرف الرجلان كالموتى من شدة الخوف . وهدأت ثورة السلطان ورغب فى الأكل فنادى أبو نصر ، وتناول الحديث بوشنكَ أثناء الطعام فقال السلطان : ٤٣٩ ماالعذر الذى ساقه هذا الكلب الذى لا يقدر النعمة — يعنى مظفر — عن ظلمه فقراء هذه النواحى ؟ فقال أبو نصر متى يتكلم مظفر وكيف يستطيع أن يتكلم ، البقاء للسلطان . فقال الأمير بأى سبب وكيف مات ؟ فأومأ أبو نصر إلى الحاجب بكتغدى فى ناحية جناح الغلمان ، فقال بكتغدى البقاء للسلطان . لقد علق مظفر فى جذع الشجرة كالأمر العالى . فقال السلطان ماذا تقول ؟ وصرخ وكف يده عن الطعام . فبادر السالار بالتوضيح . فتميز السلطان من الغيظ وقال : يا للعجب افتزهق أرواح الناس بهذا اليسر وخاصة من أمثال مظفر ؟ إنك كبير الحجاب ، وتدكنت بالباب فكيف ارتضيت هذا ولم تطلعنا على الأمر ؟ فقال : أطال الله حياة السلطان إننى سالار غلمان السراى ، وعملى جد ثقيل ، ولا أتدخل فى غيره ، ولا أقول شيئاً عن أعمال الآخرين فى القصر . وقد سمعت فى ذلك الوقت عن هذا الرجل إنه قتل . فقام السلطان من على المائدة وهو فى غضب شديد وغسل يديه وطلب الحاجب بكتغدى وأجلسوه وقال : نادوا حاجب السراى هنا ، فنادوه ، وكان يرتعد هلعاً فقال له أيها الكلب كيف قتل هذا الرجل ؟ . فقال إن السلطان قد أمر بكذا وكذا فظننت أنه حقاً يريد ذلك . فقال اقبضوا عليه . فأمسكه الخدم . قال اخرجوه من الخيمة وأضربوه ألف عصا كما يضرب الخدم حتى يقر كيف تم هذا . فحملوه وأخذوا يضربونه فأقر ، وعرف السلطان حديث المال فسخط سخطاً شديداً على أبى سهل وسورى ونادى وإلى الحرس ومحتاج ، وقال السلطان : لماذا قتلتما مظفر . فقالا لقد جاء أمر السلطان على لسان حاجب السراى . فقال : لماذا لم تراجعا

فى الأمر ؟ . قالا : كان ينبغى أن يكون هذا ، وسوف نتبعه فى المستقبل . فقال السلطان : لولا حديث حاجب القصر لأمرت بضرب عنقيكما . أما الآن فيضرب كل منكما ألف جلدة حتى يعود إليكما الصواب . وضربوهما .

سنة ست وعشرين وأربعمائة (١٠٣٤)

كانت غرة سـنة ست وعشرين وأربعمائة يوم السبت ، وقد جاء السلطان إلى سرخس فى الرابع من محرم ونصب السرادق وخيمة عظيمة ٤٣٧ على شاطىء نهر كبير ، وكان فى المعسكر جيش عديد . وفى يوم الأحد التاسع من هذا الشهر جاءت رسالة صاحب بريد رى بموت أبى الحسن السيارى رحمة الله عليه وكان يشغل منصب حاجب صاحب الديوان ، وكان رجلا كفؤا قديرا . وقد أمر السلطان بإرسال كتاب إلى سيستان ، وكان بها عزيز بو شحنة يقوم على استحثاث[1] جباية المال ، ليذهب إلى الرى ويقوم بوظيفة صاحب الديوان ، وأرسل كتابا بذلك إلى الخواجة أبى سهل الحدوى عميد العراق . وفى هذه الأيام القليلة وصلت الأنباء السرية من خوارزم منبئة بأن هرون يعد العدة ليغزو مرو . فبعث السلطان بهذه الرسائل إلى الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد وجاء الرد من قبل الوزير ، فخرجتُ به خفية وقد جاء فيه . « إنه على الرغم من اشتغالى بأمر ختلان وطخارستان ، فإنى جعلت موضوع هرون المخذول فى المكان الأول ، وإن الأمور سائرة على خير ما كنا نرجو بيمن الدولة العلية ، وقد أنفقت أموال طائلة لتدبير الأمر ، وقد اتفق على أنه ، يوم يسير هرون شطر مرو ، فإن هؤلاء الغلمان العشرة الذين بايعوا معتمدى ، سوف يغتالونه ، فإذا قتل تبددت أحلامه وتلاشى مقصده ، وحينئذ يخرج

---

(١) انظر ص ١٦٧ حاشية ١ من هذا الكتاب .

ولدى عبد الجبّار من مخبئه ، مجهزا ، فيضبط الأمن فى المدينة ويمكن للجيش بالسلاح والمال ، فإن أغلبية الجند المحمودية والألتونتاشية قد بايعونى على هذا الأمر ،وقد قمت بكل ما أستطيع وسوف نرى ما يكون وما قدره الله عز ذكره.
وهؤلاء الغلمان العشرة هم أقرب الغلمان لهرون وقد بادروا مرات عدة بقتله ، ولم تكن الفرص مواتية ، لأنه مقيم فى القصر وحوله حراسة شديدة ، ولم يركب أبداً للنزهة أو الصيد أو لعب الصولجان ؛ فإنه منكب أبدا على تهيئة العدة لغزو مرو ، ولن يصل هذا المدبر الجاحد إلى مراده إن شاء الله تعالى ؛ ولن يجنى شيئاً من عصيانه المشؤوم » .

فلما أخرجت المعمّى وحللت رمزه ثم سطرته فى نسخة مقروءة فقرأه الخواجة أبو نصر وسر بما جاء فيه سروراً شديدا ثم توجه إلى البلاط . فلما انتهى المجلس السلطانى ، وكنت واقفاً ، دار الحديث عن أحمد ينالتكين وتناول كل من الحاضرين طرفا من الحديث ٤٣٨ وتطرق الحديث كذلك إلى هرون وخوارزم ، وقال أبو النصر الحاجب إن هرون سوف يلقى مصير أحمد ، وإن خبره مرتقب بين ساعة وأخرى . فقال السلطان : الفأل حق ، هذا مصيره إن شاء الله . ثم أعطى أبو نصر ترجمة المعمى (يقصد نسخته التى لارموز فيها) إلى تُرك صاحب الدواة ، فقرأها السلطان وكتب عليها . وأعادوها إلى أبى نصر . واستمر الحديث ساعة أخرى . ثم قام السلطان وانصرف القوم . وعاد الخواجة أبو نصر إلى القصر وقرأ الرسالة مرة أخرى مع السلطان ، ولبثا مختليين حتى صلاة العشاء . وانصرف أبو نصر وسار إلى الخيمة وناداني ثم قال : « لقد سر السلطان أيما سرور بهذا المعمّى ، وقال إن رأيى أن نذهب إلى مرو ، فإذا انتهى أمر هرون نسير إلى نيسابور حتى نعيد النظام إلى الرى والجبال بعد ما اضطرب الأمن فيهما ، وحتى يرسل أهل جرجان ما عليهم من المال . فقلت أطال الله عمر السلطان ، إذ انتهى أمر هرون ، وإنه لمنته إن شاء الله بغاية

السرعة فإن أمارات ذلك واضحة ، وأما إذا تأخر فالرأى الراجح عندى هو أن يذهب السلطان إلى مرو فإن التراكمة منتشرون على حدود هذه الولاية ويركزون معظم قواتهم ناحية بلخ وطخارستان ، وذلك حتى يقطع دابرهم ، وحتى نقطع عليهم المدد ، فإن المنهين فى بخارى وسمرقند قد أنبئوا أن جماعة أخرى من المفسدين يستعدون لعبور جيحون ، وحين تقترب الراية العلية من بلخ وجيحون ، وتبقى فى مرو واسطة خراسان ، فإن هذا الخلل كله يزول . فقال السلطان هكذا نفعل . والآن نمكث أياما فى سرخس حتى نرى كيف تسير الأمور .

وكان أبو نصر ، فى مثل هذه الأمور ، أبعد الناس نظرا . رحم الله كل من مات بمنه وفضله وسعة جوده . وفى يوم الأحد منتصف محرم جاء إلى المعسكر السپهسالار على عبد الله وقابل السلطان ، وقص عليه ماجرى من الأحوال التى أرسل من أجلها . ويوم الأربعاء السادس والعشرين من هذا الشهر أتت رسالة من بلخ تنبىء بقتل الحاجب بكتكين السپهسالار . وكانت له كوتوالية ترمذ . وكان يشغل هذا المنصب أيام السطان محمود فى روستاق نيسابور ، وقد أسر أبا نصر طيفور سالار الشاهنشاهانية وأحضره إلى غزنة . وفى أيام هذا البادشاه قام بخدمات جليلة فى تكينا باد ، وقد ذكرت ٤٣٩ ذلك من قبل فى حديث الأمير محمد أخى السلطان مسعود . ويشاء القضاء فى هذا الوقت أن يأتى إلى حدود ترمذ فوج قوى من التراكمة : ويفسد فى قباديان فسادا عظيما ، ويسرق الماشية ويغير على البلاد ، فتعقبهم بكتكين الحاجب فى قوة كاملة فولوا منه فرارا إلى اندخود وسيلة[1] ، فسارع بكتكين فى مطاردتهم حتى

---

(١) يقول غنى — فياض (١) أنه يحتمل كثيرا أن تكون ميمنة أو ميمند المعروفة فى هذه الجهة .

لحق بهم عند حدود شبورقان واشتبك معهم فى معركة من الضحى حتى المساء ، وكان القتال شديد الوطأة ، وقتل فيه كثيرون أغلبهم من التراكمة ، وانجلت المعركة عن هزيمة هؤلاء المخاذيل وفرارهم إلى الصحراء ، فتعقبهم بكتكين ، وقد نصحه خاصته فقالوا إن العدو قد هزم وطحنته الحرب فولى فرارا ، وإن من الخطأ تعقبه ، ولكنه لم ينتصح فإن أجله قد آذن بالانتهاء . فلما تعقبهم لقى جماعة من أقوى مبارزيهم فجرى بينهم قتال عنيف استمات فيه الفارون ، وقد لحق بكتكين فارس منهم ، كان يستحثهم على قتاله ، فارتاع ، فكشف الدرع عن أسفل بطنه فرماه تركى بسهم أصابه فيه ، ولكنه ثبت وتحمل الألم وانتزع السهم بجهد كبير ، ولم يظهر لأحد أنه أصيب حتى اشتد به الألم فلم يستطع عليه صبرا فلما بلغ منزلا من الطريق أنزله رفاقه من على جواده فى طريق سندس وأرقدوه وقضى نحبه ، ثم عاد الجيش إلى آمد حيث دفنوه ، وقد عاد السلاجقة بعد ثلاثة أيام من سماعهم هذه الحادثة . وقد اغتم السلطان حين سمع هذا الخبر ، فقد كان بكتكين قائدا فذا ونادى على الفور السپهسالار على ابن عبد الله وقص عليه ما جرى ، فقال على فلتكن أرواح العبيد جميعاً فداء للواجب ، ولكن بالرغم من أن الأستاذ الرئيس هناك فليس فى طخارستان وجوزجان حتى شاطىء جيحون قائد ، ولا مناص من إرسال جيش قوى مع قائد إليها . فقال السلطان يجب أن يذهب إليها قائد وجيش ليقطع الطريق على الجمّالة المفسدين ويؤدبهم ثم يسير إلى بلخ . فقال على سمعاً وطاعة فمتى أرحل ؟ قال بعد غد إذ يجب الإسراع فى المسير بعد أن جاء هذا النبأ العظيم .

فقال على سمعا وطاعة ، ثم قبّل الأرض وعاد إلى بيته . ثم أعيد تعيين ٤٤٠ الرجال الذين كانوا معينين معه من قبل والذين حضروا هذا الأسبوع . وفى يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر محرم مثل للخدمة وقابل الأمير ثم سار

إلى جوزجان وبأمر سلطانى عين الخواجة أبو نصر أبا سهل الهمدانى الكاتب صاحبا للبريد فى الجيش ، وسار مع السپهسالار . وقد قام على بهذا الواجب خير قيام ، فقد كان رجلا شديد الحذر، وكان يقود الجيش بمهارة فائقة ، وحمل الجمّالة على الطاعة وأبرم معهم صلحا ، ثم توجه إلى بلخ ، وعظمت هيبة الدولة .
وفى اليوم التالى ، السبت، بعث نوشتكّين الخادم الخاص كتابا من مرو مع فارسين جاء فيه : « إن فوجا من التراكمة قد جاءوا من سرخس إلى هذه الناحية فجهزت من الجيش المنصور ، حين عرفت هذا الخبر ، جيشا من غلمانى ، وأسرعت إليهم فلقيتهم ، ودارت بينى وبينهم حرب طاحنة دامت من صلاة الظهر حتى أسدل الليل ستاره ، وانجلت عن هزيمتهم وفرارهم إلى صحراء نه كَنبدانَ ، ولم يكن من الصواب تعقبهم ليلا فى الصحراء ، فلما جاء الخبر فى الغداة بأنهم أعدوا العدة ، عدت إليهم وفرضت النظام ، وأمرت بنصب رؤوس القتلى الذين قاربوا المائتين على العيدان لتكون عبرة للناس ثم إنى مرسل إلى حضرة السلطان أربعة وعشرين من مبارزيهم أسروا فى الحرب ليأمر السلطان فيهم بما يتبع » . فأخذ السلطان فى الشراب بعد وصول هذه البشرى ، وأمر بالخلع وبالصلات للمبشرين بها ، ثم أعادوهما . ونفخوا الأبواق ودقوا الطبول وأخذوا فى الشراب بعد صلاة العصر من ذلك اليوم . ثم أمر بإلقاء الأسرى للفيلة أمام الخيمة الكبيرة ، وكان يوما هائلا عرفه البعيد والقريب على السواء .

وفى يوم الثلاثاء الثامن من صفر جاء الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد غانما ظافرا ، فقد جرى على يديه حادث عظيم عند حدود ختلان وطخارستان ، وأقر الأمن فى تلك النواحى واستقر بها النظام تماما ، وعملا بالأمر السلطانى سلمهما إلى الحاجب الكبير بلكاتكين ، ثم عاد وقد استقبل استقبالا جديرا به . فلما قابل السلطان شمله بعطفه أمام الناس ، ثم اختلى به فورا ، وكان صاحب ديوان الرسائل هناك فسمعت منه أن السلطان قال للوزير إن الأحوال فى

طخارستان وختلان قد استقرت بجد الوزير وسعيه الجميل ، وإن شاء الله يقضى قريبا على هرون ، وقد جفل التراكمة وتقهقروا من باورد ونسا ، وألقو بأنفسهم فى فراوة[1] ، وإن جيشا قويا يسير فى أثرهم برياسة بيرى قائد الاصطبلات ، يعاونه عدد من الحجاب والمقدّمين المشهورين ، ويعمل عبدوس كتخدا ومديرا لشئون هذا الجيش ، وإن سورى قد سار امتثالا للأمر من طريق استوا ومعه قدر الحاجب وشحنتا نيسابور وطوس ، وكانوا مجهزين لينضموا إلى هذا الجيش . ولم يكفوا عن تعقب أثر الأعداء حتى تواروا فى بلخـــان كوه ، وكان سورى قد حمل معه العلف وكل مايلزم من العدد لاجتياز الصحراء ، وقد استقر رأينا على أن نذهب إلى مرو وأن نبق بها هذا الشتاء حتى تستقر الأمور بها استقرارا تاما . فما رأى الوزير فى هذا الموضوع ؟ . فقال أحمد إن هذا عين الصواب ، فإن بهذا التدبير تعود خوارزم إلى حوزتنا ، ويقضى على التراكمة فى خراسان ، ثم إنهم من ناحية أخرى لن يجرؤا على عبور جيحون . فقال السلطان : عودوا إلى بيوتكم ودعونا نعمل الفكر فى هذه الأمور فإنا مقيمون هنا عدة أيام . فعادوا . وسار الوزير إلى خيمته فأقبل عليه العظماء والأعيان والحشم مسلمين .

وفى يوم الأحد الرابع عشر من صفر أحضر من الرى طاهر الكاتب ومعه جماعه وأبو المظفر الحبشى الذى كان صاحب البريد ، جاء بهم الفرسان غير مقيدين وأوقفوهم على باب الخيمة الكبير على البغال والركائب . ثم أطلعوا السلطان على الأمر فأمر باعتقالهم فى خيمة الحرس فاعتقلوهم جميعا . وبعد صلاة العصر جلس السلطان للاستقبال ، فلما فرغ منه أخذ العراقى الكاتب يروح ويغدو بين السلطان والمعتقلين حاملا الرسائل الشفوية . وقد انتهى الأمر

---

(١) مدينة صغيرة بين نسا ودهستان وخوارزم ، وتسمى رباط فراوه . هنى — قياس ١ .

بضرب أبي المظفر ألف جلدة وهو مشدود إلى العقابين . وكان هذا الرجل كفأً وشهما وكان صديقا حميما لصاحب ديوان الرسائل ، ولكن هذا لم يجرؤ على أن ينبس ببنت شفة دفاعا عن صديقه ، فإن السلطان كان شديد الحنق عليه . وضربوا بعده أربعة آلاف رجل من عمال طاهر وخدمه ، كلا منهم ألف جلدة ، ثم إنه أمر بأن يضرب طاهر أيضا ولكن الحاضرين جميعاً تشفعوا له والتمسوا من السلطان أن يعفو عنه ويصفح عن ضربه ، فأخذوه إلى هندوستان واعتقلوه فى قلعة كبرى ، وأما الآخرون فقد نقلوا إلى مدينة٤٤٢ سرخس وأقاموا فى سجنها . وقد عُنى أبو نصر بأمر أبي المظفر وأوصى برعايته وقد لبث حبيسا سنة ، ثم انتهزوا الفرصة وسعوا حتى أفرج عنه . وقد فقد طاهر مكانته عند السلطان وساء حظه فظل مقصيا ومات عاطلا » نعوذ بالله من انقلاب الحال » .

وفى يوم الأربعاء السابع عشر من صفر ، بعد الاستقبال ، اختلى السلطان بالوزير وبصاحب ديوان الرسائل وبالأولياء والحشم ، وكان الخواجة حسن ميكائيل حاضرا أيضاً ، وتشاوروا فى موضوع السفر وما استقر عليه رأى السلطان من التوجه إلى مرو ، ثم انفض الجمع وهم على هذا القرار . وقد أعد الخواجة حسين الوكيل العدة لهذا السفر . وفى العشرين من هذا الشهر سافر سورى ليأمر بتجهيز المؤن بحيث لا يظهر عجز فى أية ناحية منها حين تصل الراية العالية إلى هناك . وبعد ثلاثة أيام من سفره أمر السلطان بإقامة السرادق فى طريق مرو على مسيرة ثلاثة فراسخ من المعسكر ، وكان عيد سده[1] قد اقترب ، فساقوا إلى الصحراء جمال السلطان وكل جمال الجيش

---

(١) ويسمى السدق فى الكتب العربية ، ويسمى عند الفرس أبان روز أيضاً ، ويعمل فى ليلة الحادى عشر من شهر بهمن ماه من شهور الفرس (يناير — فبراير) ، وسنتهم فيه إيقاد النيران بسائر الأدهان والولوع بها حتى أنهم يلقون فيها سائر الحبوب . وقد ولعت الشعراء بوصف هذه الليلة . أنظر صبح الأعشى (القلقشندى) ج ٢ ، ٤٢٢ — ٤٢٣ . والآثار الباقية (البيرونى) ص ٢١٥ وما بعدها فى أعياد الفرس .

وأخذوا فى جمع حطب الطرفاء ليوم سده ، ثم بعد ذلك تحركوا ، وأحضروا عيدان الحطب وألقوها فى صحراء بها نهر كبير مملوء بالثلج فتراكمت وأصبحت كالقلعة وأقاموا عرائس من الخشب وملؤوها بالطرفاء ثم جمعوا أكواما أخرى كثيرة ، وصارت كالجبل ارتفاعا ، وأتوا بكثير من المعدات والطيور وما يلزم ليلة هذا العيد من الحاجيات .

وسمعت من الخواجة أبى نصر أن الوزير الكبير قال لى ماذا تظن فيما يجرى من التدبير للسير نحو مرو ؟ قلت ينبغى التريث فى إبداء الرأى فإن الجيش لم يسر بعد ، قال ليس هذا من قبيل الظن فإن الأمر قد قطع فيه وذهب الوكيل لإعداد العدة . قلت من الممكن أن يعاد النظر بعودة الوكيل كما صدر أمر بسفره ، ومن الممكن أن تأتى نوبة العودة كما مرت نوبة الذهاب والوكيل يعود كما ذهب ، إذ أنه غير ممكن بأية حال أن نتأكد من أن السفر مؤكد مالم نسر مرحلتين على الأقل .

وحل عيد سده فجلس السلطان فى الليلة الأولى فى مخيم أعد له على شاطىء النهر ، وجاء الندماء والمطربون وأشعلوا النار ، وبعد ذلك سمعت أن ضياء هذه ٤٤٣ النار كان يرى على بعد عشرة فراسخ تقريباً . وأطلقوا الطيور المبللة بالنفط ، وأطلقت الوحوش التى أحاط بها الثلج تجرى وقد علقت بها النار . ولم أر مثل هذا العيد بعد ذلك وقد انتهى بسرور .

ولم يجلس الأمير فى الغداة للاستقبال . وفى اليوم الثالث ، بعد الاستقبال اختلى بالوزير والأعيان وأركان الدولة وقال : « إنى عازم على الذهاب إلى مرو وقد تدبرت الأمر الآن فوجدت نوشتكين الخادم الخاص يقيم هناك مع جيش كامل ، وأنه قد هزم التراكمة الذين ولوا منه فرارا ، وقد أرسلنا فوجا آخر من الفرسان حتى ينضم إلى جيشه فيستظهر بهم . وقد ذهب إلى نسا

جيش قوى عليه سورى وعبدوس . وتوجه السپهسالار على إلى جوزجان وبلخ ، ويقيم فى طخارستان الحاجب الكبير مع جيش ، وهذه الجيوش قريب بعضها من بعض ، وكذلك فإن على تكين وغيره ممن قطعوا معنا العهود لن يجرؤوا على الإغارة علينا ، فالصواب الذى أرى هو أن نذهب إلى نيسابور حتى نكون قريبين من الرى وتستقر الأمور وتحل المشاكل التى أثيرت ويخشى أهل جرجان بأسنا ويرسلوا إلينا مال الضمان عن سنتين » . فقال الوزير : إن الصواب ما رآه السلطان . ولم ينطق أبو نصر ، ولم يكن للحجاب بكتغدى وسباشى وأبى النصر الجرأة على التدخل فى مثل هذا الكلام ، وخاصة بعد أن أجاب الوزير على هذا الوجه . وأمر السلطان بكتابة رسالة إلى حسين الوكيل حتى يعود ، وأمر بإعادة السرادق . فقالوا سمعاً وطاعة ، وعادوا ، وكتبت الرسالة وأعد لحملها فارسان ، فركبا على وجه السرعة وانطلقا . فقال أبو نصر للوزير : هل رأى الوزير كيف أنهم لم يتركوا رأياً سديداً يسير فى مجراه ؟ قال : « رأيت ، وقد عرفت أن هذا كله حدث بتدبير من العراقى الكاتب ، وليس للكلام مجال اليوم أبدا . ومهما يكن فسنذهب إلى نيسابور وسيقيم السلطان بها ، وحينئذ ، إذا كان هذا العــــراقى قد جعله يصمم على السير إلى جرجان وسارى (مازندران) ، لمصلحته الشخصية ، ليرى أهل هذه الولاية ما يرفل فيه من الخير وما ينعم به من القرب من السلطان ورأيت السلطان يعزم على السير فإنى ، بغير مبالاة ، سأبين له خطأ هـذا السير وأبرىء ذمتى ، فإن العراقى مجنون ، وهو يتحدث بكل ما يبدو له ، وهذا السلطان يستمع إليه ، وقد صور له أن ليس بين رجاله من هو أخلص فى النصح منه ، وإنى أرى أن خراسان والعراق سيفقدان نتيجة لأعماله » . وأعاد الفراشون السرادق وحملوه ناحية نيسابور .

ويوم الأحد ليومين بقيا ٤٤٤ من صفر ، ذهب السلطان من سرخس وبلغ نيسابور يوم السبت الرابع عشر من ربيع الأول ، ونزل فى شادياخ . وكانت

هذه السنة جفافا . وقد حلّ الشتاء بهذه البلاد ، ومضى قرابة عشرين يوما من شهر بهمن[1] ، ولم ينزل الثلج بها إلا مرة واحدة ، ولم يزد ارتفاعه فيها عن أربعة أصابع . وكان الناس جميعاً فى عجب من هذا . ونتيجة لهذا الجفاف ظهرت عجائب ونوادر سوف أتحدث عنها . فى اليوم الثالث من بلوغ السلطان نيسابور اختلى بالوزير وأعيان الدولة . وكان أبو الحسن العراقى واقفاً قرب السرير ، وتناول الحديث موضوعات شتى . قال السلطان إنى لا أريد البقاء هنا أكثر من أسبوع فإن الأمور قد استقرت فى خراسان وذهب التراكمة إلى جهم والجيش يسير فى أعقابهم ، وذلك حتى تبقى ذخيرة العلف فى نيسابور للصيف حين نعود ، وسوف يأتى سورى إلى هنا ويتولى تنظيم الشؤون الأخرى ، ويقال إن عشرة أمنان من القمح تباع بدرهم واحد ، فى دهستان وأن خمسة عشر منا من الشعير تباع بدرهم ، فلنذهب إلى هناك حيث تعلف الدواب بالمجان ، ويقضى الجيش وقته فى سعة من العيش وينجو من شدة البرد ، وسنكون قريبين من خوارزم وبلخان كوه ، وسيعرف عبدوس والجيش أحوالنا فتشتد عزائمهم ، كما يصل الخبر إلى الرى والجبال بأنا قد تحركنا من نيسابور إلى هذه الناحية فيقوى عزم أبى سهل وتاش ومن هناك من الحشم ، ويميل إلى طاعتنا ابن كاكو وغيره من العصاة ، ويسير تاش إلى همدان حيث لا منازع ، ويرسل إلى البلاط كل ما اجتمع من الأموال والذهب والألبسة ، ويرسل أبو كاليجار مال مواضعة جرجان عن سنتين مع الهدايا ، كما يقوم بخدمات أخرى ، وإذا لم يستقم الأمر بهذا فإنا نذهب إلى تاستار ، فإذا وجدنا هنالك ضرورة ذهبنا إلى سارى وآمل حيث المسافة قريبة . ويقال إن سكان آمل ألف ألف رجل فلو أخذ من كل رجل دينار لتجمع منهم ألف ألف

---

(١) يقابل يناير وفبراير

دينار ، ولحضلنا فضلا عن ذلك على الذهب والثياب، ويسوى كل هذا فى ثلاثة أشهر أو أربعة . وبعد النوروز[1] بمدة حين نكون فى نيسابور ، نقدر إذا شئنا البقاء بها فى الصيف ويهىء سورى والرعية مايلزم من العلف . على هذا استقر رأينا ،وإنا لامحالةمسافرون . فماذا ترون فى هذاوماذا تقولون ».فالتفت الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد إلى الحاضرين وقال : « أنتم يارؤساء الجيش ماذا ٤٤٥ تقولون » قالوا : « نحن عبيد ، وإن مهمتنا الحرب والضرب بالسيف والإكثار من الولايات التابعة للسلطان ، ونحن نقدم كالأرقاء ، على كل مايأمر السلطان ، وأرواحنا فداء له ، هذا هو رأينا ، أما ماينبغى ومالا ينبغى أو ما يليق وما لايليق ، فهذا من واجب الخواجة لأنه الوزير ، وليس من واجبنا » . فقال الوزير : « إن هندوستان ثائرة بالرغم من القضاء على أحمد ينالتكين والشقة بعيدة منها إلى غزنة ، وليس من الصواب أن نولى غزنة وهندوستان ظهورنا ، ومن ناحية أخرى فإنهم يرجفون بأن على تكين قد مات ، مقدما بقية حياته للسلطان ، وإنى مصدق لهذا الخبر ، فقد سمعت عن المرض الذى ألم به ، وكان على تكين ذكيا فذا محنكا يعرف كيف يُعمل المداراة مع الجانبين ، وكان يتخذ له عدة من التراكمة والسلاجقة ويكسبهم لجانبه بالقول الطيب والمال ، فقد كان يرى أنهم لو ابتعدوا عنه ضعف مركزه ، ولما مات انتقلت أمور هذه الولاية إلى ولدين ضعيفين ، وقد سمعت أن العلاقات ساءت بين السلاجقة من ناحية وبين هذين الولدين وقونش سپهسالار على تكين من ناحية أخرى ، ويجب أن نسعى لكى تزداد هذه العلاقات سوءً . ولا يستطيع السلاجقة البقاء هناك وليست لهم القوة للذهاب إلى خوارزم ، إذ أنه كما تقرر وكما دبرت يجب أن يكون هرون قد زحف ولقى حتفه ، وأن تكون الفوضى قد شملت

---

(١) تبدأ به السنة الإيرانية ويوافق ٢١ مارس .

هذه النواحى ، وأن يكون شاه ملك قد ذهب إليهـــا ، وهو عدو لدود للسلاجقة الذين لن يكون لهم مأوى فى غير خراسان ، وأخشى أن تلجئهم الضرورة إليها وخاصة بعد ما سمعوا عما حصل عليه أتباعهم من المكانة من أمثال بوقة ويغمر وكوكتاش وغيرهم ، فإذا ساءت الأمور والعياذ بالله على هذا النحو ، والسلطان غائب فإن الأمر يطول أمده . والصواب هو ما فكر فيه السلطان من الذهاب إلى مرو ، ولكن رأيه العالى عدل عنه . وقد أوضحت ما أعرف قدر استطاعتى والرأى للسلطان » . قال السلطان : « إن نوشتكين الخادم الخاص مقيم فى مرو مع جيش كامل ، وفى بلخ وطخارستان قائدان عظيمان بجيشيهما فكيف يمكن التراكمة رودبار غزو مرو واجتياز الصحراء ، وآل التونتاش فى شغل بأنفسهم ، وليس أصوب فى رأينا من الذهاب إلى ٤٤٦ دهستان لنرى ماذا يكون من أمر خوارزم » . فقال الوزير : « على بركة الله » . ثم قال السلطان للحاجب سباشى : « قل للجمّالة ألا يسيروا بالجمال بعيدا . فإنا راحلون فى مدى خمسة أيام وسنبقى حاجبا هنا مع نواب سورى ؛ وحين يجىء هذا فإنهما يعملان سويا لإعداد المؤن لحين عودتنا ؛ ثم إن الجيش بجملته يســـير مع رايتنا » . فقال الحاجب « سمعاً وطاعة » . وقال لأبى نصر مشكان ينبغى أن تكتب كتبا للقائمين بالأمر فى مرو وبلخ حتى يكونوا مستعدين يقظين ، ليراقبوا بدقة حـــدود الصحراوات ومعابر جيحون ؛ فإنا قاصدون إلى دهستان لنواجه خوارزم ونسا وبلخان كوه من هذا الجانب ، ولنطرد التراكمة جملة من خراسان فتهدأ نفوسنا . وقال الحاجب بكتغدى لرئيس غلمان السراى أن يعنى بالغلمان فيستبقى مرضاهم هنـا فى قهندز وأن يذهب الأصحاء مجهزين مع جند السلطان وكذلك خيول القيادة . وقاموا وساروا .

وقد سمعت الخواجة أبا نصر مشكان يقول :

« لقد نادانى السلطان بعد عودتنا وحدى واختلى بى ، وقال إنك لم تنطق بكلمة واحدة فى هذه الأمور . قلت : أطال الله حياة السلطان لقد طال المجلس ، وتكلم كل بما يعرف ، وإن مهنتى الكتابة ولا أتدخل فيما خفى من الأمور . فقال نعم ولكنك محيط بمهام الدولة منذ زمن طويل ، ولست أجهل أن أبى ، فى كل ما يفعل وفى كل ما يستشير وبعد أن يكون الجميع قد أبدوا آراءهم ، كان حين يرجع يعيد دراسة الموضوع معك ، فإن رأيك جلى وفيك من الإخلاص ما لا يتوفر فى غيرك ، وكل قصدك هو صلاح الدولة . قلت : أطال الله حياة السلطان إنه إذا صح ما قالوه لمولاى عن أحوال دهستان وجرجان وطبرستان بشأن المؤن والذهب والألبسة ولم يحدث خلل فى خراسان فهذا خير عظيم وفائدة عظمى . ولو حدث خلل نعوذ بالله ولم نحصل على ما قدروه ؛ فالخير والأولى أن نتدبر الأمر . ولست أقول أكثر من هذا ، خشيه أن يحدث لمولاى لبس بأنى أنحاز إلى أبى كاليجار وأهل جرجان ، فقد صورونى فى المجلس العالى على أنى وكيل أولئك القوم ، ووالله لست كذلك ، وما كنت عليه وماسعيت أبداً لغير ما فيه المصلحة ، ومن الممكن إصلاح حال أهل جرجان بالنصائح ٤٤٧ والرسل ، إذا لم يكن من غرض آخر فى جرجان . فقال السلطان : هناك أغراض أخرى كما سمعت فى عدة مجالس ، ولا مفر من الذهاب إليها . فقلت وفقكم الله يامولاى فى هذا الغزو . ثم عدت . وكان الوزير منتظرا وكان قد سمع بأن السلطان قد اختلى بى . فلما عدت قال لى الوزير لقد طالت الجلسة فقصصت عليه ما جرى . فقال إن حيل هذا العراقى قد رسخت فى رأس السلطان وتمكنت منه ، وإنه يمكن لها ويزينها عنده كل يوم فى سرخس وهنا فى نيسابور ، وسترى ماذا سينجم عنها ، وسوف نرى ، ومع هذا كله فإنى سأكتب إليه رقعة ، وأتحدث إليه فى صراحة ، وهذه الرقعة يجب ألا يعرضها عليه أحد غيرك . قلت إنى فاعل ، ولكنى أظن ألا جدوى من ذلك . فقال الوزير إنى فاعل ما يجب علىّ ، حتى

إذا جاء الغد وندم على ما فعل ، وإنه والله سيندم ، وهو بالطمع فى المحال والاستبداد بالرأى قد انزلق فى هذا الأمر ، لا يقولن لم أجد رجلا يبين لى خطأ هذا الغزو وضرره وسأشهدك على موقفى ، وإنى أعلم أنه سيغضب من رسالتى غضباً شديدا وسيتهمنى ، فلأكن أكثر تهمة ، وسيسبنى ، إنى أقبل هذا كله ولا أمنع عنه نصحى .

فقلت إن الوزير يقول قولا كريما يقتضيه الدين والاعتماد وحق النعمة . وذهبت إلى الديوان وكان قد أمر بكتب ترسل إلى مرو وبلخ ولجهات أخرى . وفى الغداة حين انفض مجلس السلطان وعاد الوزير إليه ، قال السلطان لا نزال على الرأى بأن نذهب غدا . فقال الوزير مبارك ، حقق الله الآمال ، وقد كتبت فى هذا الموضوع رقعة وحمّلت أبا نصر رسالة لينقلها إليكم إذا أمر السلطان . فقال حسناً . وعادوا وأعطى الرقعة لأبى نصر وكانت مقنعة للغاية وقد صرح فيها بأنه لا يتأتى للرعية أن تقول للملوك يجب عمل كذا ، فإن الملوك العظماء يفعلون ما يريدون ويأمرون بما يرون ، ولكن الرسم والأصل أن الرجل إذا بلغ هذه المكانة التى لى من اعتماد السلطان عليه فإن عليه ألا يضن بالنصيحة فى كل الأمور ، وقد جرى الحديث بالأمس عن هذا التوجه إلى دهستان وقرر الرأى العالى بألا مندوحة من السفر ، وقال رجال السيف فى مجلس السلطان إنهم يصدعون بالأمر فى كل ما يرى ، وإن هذه ٤٤٨ هى الأصول عندهم ، ولكنهم أسرّوا إلىّ حين خرجوا بأن هذا السفر مجانب للصواب وأنهم من تأييده أبرياء . وإن ما يراه السلطان هو دائماً الصلاح والخير والطيب ، فإذا والعياذ بالله حدث اضطراب فلا يقولن السلطان لم يكن من رعيتى من يبيّن لنا خطأ المسير . وإن الأمر للسلطان فى كل مايرى وليس للرعية غير الامتثال . قال أبو نصر إن هذه الرسالة غاية فى الشدة والإقناع . فما هى الرسالة الشفوية ؟ قال عليك أن تتحدث إليه بعد أن تستمع إليه فإن البلاغ مطابق تماما

لما سطرته على الورق . فذهب وأوصل الرقعة فقرأها السلطان ملياً مرتين .
ثم قال وما الرسالة الشفوية ؟ فقال أبو نصر : إن الوزير يقول إني ألزم حدود
الأدب في التوسع في هذا الحديث ولكن لا حيلة لي وما دمت مكلفاً بالعمل
فإني أقول ما أعرف قدر علمي وأعرضه على السلطان ، وبغض النظر عن كل
ما كتب فإن الغاية من هذا أن أقول أن ليس من الصواب التوجه إلى هذا الجانب
وترك خراسان مع كثرة ما فيها من الفتنة والخوارج والنهازين ، والأمر للسلطان. فقال
السلطان : إن ما يقوله الوزير ليس شيئاً . إن خراسان وطرقها مملوءة بالجند
الذين حملوا تراكمة العراق على الفرار وطاردوهم حتى بلخان كوه ، وإن الجيش
يتعقبهم والمسافة معروفة بين دهستان وجرجان ، فإذا شئنا فإنا نستطيع العودة
إلى نيسابور في أسبوعين . فقال أبو نصر : إنه كذلك وإن الأمر للسلطان ولا
محالة للعبيد من ذكر ما قالوا وخاصة بالنسبة للوزير . فقال السلطان كذلك » .

* * *

وسار السلطان رضي الله عنه من نيسابور عن طريق إسفرايين كي يذهب
إلى جرجان وكان ذلك يوم الأحد الثاني عشر من شهر ربيع الأول . وفي
الطريق كان البرد والمطر شديدين حتى رأس ممر دينار ساري . وكان هذا السفر
في شهر اسفندارمذ[1] . وكنت (أنا أبو الفضل) عند رأس هذا الممر ، مع ما
ألبس من الملابس وقباء الفرو الأحمر ولباس المطر وغيرها مما يلبس في هذه
الأيام وكأني ، وأنا على حصاني ، لا ألبس ٤٤٩ شيئاً ، وذلك من شدة البرد . فلما
بلغنا ممر دينار[2] (دينار ساري) ودخلناه وكان ذلك بعد مسيرة فرسخين ،
كان ما ارتديت من ملابس وبالاً عليّ ، فقد اجتزته إلى عالم مليء بالنرجس

(١) شهر إيراني يقابل فبراير — مارس .
(٢) يعرف هذا الجبل اليوم باسم « دينا » .

والبنفسج وشتى الرياحين وكانت الأراضى يانعة الزرع وأشجارها متشابكة لا حصر لها ، حتى يمكن القول بأن ليس فى الدنيا بقعة أنضر من جرجان وطبرستان ؛ ولكنها موبوءة كما قال أبو الفضل بديع :

« جرجان وما أدراك ما جرجان ، أكلة من التين وموتة فى الحين . والنجار إذا رأى الخراسانى ، نحت التابوت على قده ، واسلف الحفار على لحده وعطارا يعد الحنوط برسمه[1] . » وبلغ السلطان رضى الله عنه جرجان يوم الأحد السادس والعشرين من ربيع الأول ، ومر بقبر قابوس وهو على الطريق ، ونزل فى مكان على الجانب الآخر من المدينة اسمه محمد آباد على حافة نهر كبير ، وأثناء اجتيازه المدينة إلى جانبها الآخر سرق أحد أبنـــاء الموالى شاة ، فجاء صاحبها يتظلم للسلطان ويشكو ، فأوقف هذا حصانه وقال للنقباء ، أريد أن تحضروا هذا الغلام الآن . فأسرعوا وكان من قضاء الله ودنوا الأجل أن أحضروا هذا الولد ، وكان من المرتزقة ومعه الشاة التى سرقها . فسأله السلطان أعندك نفقتك ؟ قال عندى كذا وكذا . فسأله لماذا سرقت الشاة من أهل ولايتنا ؟ وإذا اشتهيت اللحم فلماذا لم تشتره بالدراهم فإنك قد أخذت أجرك ولست فقيرا ؟ فقال لقد أخطأت فقال لا جرم سترى جزاء المجرمين . وأمر بشنقه على بوابة جرجان وأعطى حصانه وعدته لصاحب الشاة ، وأطلقوا مناديا ينادى فى الناس هذا جزاء من يظلم أحدا فى هذه البلاد . ومن أجل هذا استولت الرهبة على الناس . وبهذا وأمثاله يسوس الراعى رعيته . فإن الملك إذا لم يجد بالعطاء ولم يجر الأحكام كما ينبغى أن تجرى فسدت الأمور عليه وصار ملكه بددا . والله أعلم .

* * *

---

(١) الجملة الأخيرة جاءت فى نسخة نفيسى ص ٥٤٦ .

الحكاية فى معنى السياسة
من الأمير العادل سبكتكين رحمة الله عليه

٤٥٠ سمعت من الخواجة أبى نصر رحمة الله عليه قال قصّ علىّ خوارزمشاه التونتاش ذات يوم، وكان الحديث حول الملوك وسيرهم وسياستهم التى اتبعوها فى وقتهم، والتى لو عدلوا عنها لما استقامت لهم الأمور، قال: لم أر رجلاقط كالسلطان العادل سبكتكين فى السياسة والجود وحسن التدبير والمعرفة بجميع رسوم الملك. قال حدث حين ذهب إلى بست وأطاح بولاية بايتوزيان بالمكر والحيلة وصفت له، كان ذات يوم متأخرا فى السرادق فى مضرب الخيام بصحراء بست، وكنت وأصدقائى التسعة من غلمانه الذين لا يغيبون عن ناظره ساعة، ليل نهار، وكنا نتناوب الوقوف ببابه اثنين اثنين، وإذا بمتظلم على باب السرادق قد أخذ ينتحب، وكانت النوبة لى، وكنت خارج مضارب الخيام مع صاحبى، وقد ارتديت الدرع وحملت السيف والقوس والحربة، فصاح السلطان فتوجهت إليه فقال أحضر هذا الشاكى الذى يئن، فأدخلته عنده. فقال له ما شكواك؟ فقال إنى رجل فقير ولا أملك غير نخلة واحدة، وقد ربطوا فيلا قرب نخلتى، ويستولى الفيّال على تمرى بالمجان، فليغثنى السلطان بالله. فركب السلطان على الفور، وكنا نحن الإثنين راكبين معه، وذهبنا والشاكى يتقدمنا، ومن المصادفات العجيبة أنا حين بلغنا النخيل وجدنا الفيّال قد شد الفيل إلى هذه النخلة وكان يقطع التمر، وهو لا يدرى أن السلطان واقف ويراه من بعيد، وكأن مَلَك الموت قد أتى ليقبض روح الفيّال. قال لى السلطان بالتركية فك الوتر من القوس واصعد على الفيل ثم اطلع النخلة واصلب الفيال بوتر القوس. فذهبت وكان الرجل مشتغلا بخطف التمر، فلما سمع حركتى التفت وكنت قد وصلت عنده ولما يتحرك، فقبضت عليه وشرعت أضع الوتر

فى رقبته وأخنقه فحاول الدفاع عن نفسه ، ولما كاد يرميني من على النخلة رآة السلطان ، فأسرع نحونا وصرخ فى وجهه فلما سمع صوت السلطان غشى عليه ، وضعف فتمكنت من إنجاز مهمتى ، فأمر السلطان برسن وبشد الفيال به . ٤٥١ ثم إنه أعطى الشاكى ألف درهم واشترى منه النخلة . وحدثت من هنا رهبة عظيمة ، حتى أنى ، طوال عهده : لم أسمع ولم أر أن أحدا اجترأ على اغتصاب شيء آخر فى أية جهة . وقد ذهبنا مرات عدة إلى بست وكان الفيّال معلقا على تلك الشجرة ، وفى النهاية قطعوا الرسن وسقط جثمان الرجل . وبمثل هذه السياسية يستتب الأمن فى البلاد . وقد ترك باكاليجار وجميع أهل جرجان بيوتهم المليئة بالنعمة ، وساروا فى أهبة نحو سارى ، وصحبوا معهم أنو شروان ابن منوچهر مع الأعيان والمقدمين مثل شهرآكيم ومردآويز وغيرهما من الوجوه الذين كان باكاليجار قد تعاهد معهم . وفى اليوم التالى جاء السلطان مسعود ، ومعه كافة مقدمى العرب مع الفرسان جميعا ، وقيل إنهم أربعة آلاف ، وقد جاءوا إلى الدركّاه فشملهم السلطان برعايته وخلع على المقدمين فيهم ، وكان هؤلاء العرب عماد قوة الجرجانيين ، وقد لبثوا فى الدركّاه ، ولا تزال بقية منهم هنا ، وقيل إن باكاليجار انتهز هذه الفرصة للتخلص منهم لأنهم كانوا يتحكمون فى شؤونه . واسندوا منصب صاحب ديوان جرجان لأبي سعيد الصراف الذى كان من قبل كتخدا السپهسالار غازى ، وقد ارتدى الخلعة وسار إلى البلد ، وأخذ فى تسلم الأموال والبحث عن سرايات وأموال الفارين ، وكانوا يستولون على كل ما يجدون ، ولم يبعثوا إلى الخزانة إلا أقله ، وأكثره نهب ، كما هو الجارى فى مثل هذه الأحوال . وجاء رسول من قبل باكاليجار ومنوچهر يقول إن سلطان العالم قد نزل فى مملكه وأنهم عبيد مطيعون ، وإن السبب الذى حدا بهم إلى هذا هو استحياؤهم لعدم قدرتهم على القيام بواجب الضيافة ، فأقاموا فى سارى منتظرين القيام قدر طاقتهم بما يأمر به السلطان . فأجابهم

السلطان بأنا قد عزمنا على التوجه إلى استراباد والإقامة فيها لأن طقسها أكثر ملاءمة . وسنأمر بكل ما ينبغي هناك . وأعيد الرسول على هذا النحو .

وبعد انقضاء عشرة أيام ، وكنا نشرب ليل نهار ، اختلى السلطان مع الوزير ٤٥٢ وأعيان الدولة وقرر أن يرابط الأمير مودود فى هذا المعسكر ، مع أربعة آلاف فارس من كل صنف بمقدميهم على أن يكون مقدمهم الحاجب ألتونتاش ، على أن يمتثل الجميع لأوامر الأمير ، وأن يذهب ألفان من هؤلاء العرب المستأمنة إلى دهستان ومعهم بيرى الموكل بالاصطبلات وثلاثة آلاف من فرسان السلطان ، نصفهم من الأتراك ونصفهم من الهنود ، وعليهم أيضا إطاعة أوامر مودود . وانتهت الخلوة ، وسار الجند إلى دهستان ، وزود السلطان ابنه بنصائحه . وفى يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول سار من جرجان ؛ ومنها إلى استراباد منزلان فى طريق يعرف بهشتادبل[1] ، قيل إن به أحراشا لا تحد ومياها جارية . ولم تجد السماء فى تلك السنة بالمطر ، ولو أمطرت مرة واحدة لاضطر الأمير إلى العودة ، ذلك أن الأرض فى تلك الأصقاع رخوة فضلا عن ضيقها وكثرة النهيرات والقنوات بها ، فلو أصابها المطر مرة فى أسبوع للزم انتظار الجيش بضعة أيام ، مهما كان قليلا ، حتى يتسنى له اجتيازها فأنى لهذا الجيش العظيم الذى كان مع السلطان العبور ؟ ولكن الله قضى بوقوع تلك الفتن الكثيرة فى خراسان فلطف فى قضائه لحبس الأمطار عن تلك البقاع التى كانت دائمة المطر ، وذلك حتى يستطيع السلطان فى يسر أن يقطع الطريق بهذا الجيش الكبير فيبلغ آمل كما سيجىء .

وفى الثالث عشر من شهر ربيع الثانى بلغ السلطان استراباد ، وكانوا قد نصبوا له خيمة كبيرة على ربوة تشرف على المدينة مما يلى طريق سارى ،

---

(١) معناها ثمانون قنطرة .

وكانت الخيمة واسعة مرتفعة بحيث كان يشاهد منها سواد سارى . كان الموضع شديد البهجة وقد نصبت من تحته السرادقات والدواوين . قال بوقى لأبى نصر، وكان حارس الجند ، وهو رجل صاحب نكتة وكان طيب القلب ، يحبه السلطان وجميع أعيان الجند وكان يعزف على الطنبور : « إنه حينما فرّ تاش سپهسالار السامانيين من وجه أبى الحسن سيمجور جاء إلى جرجان ، وقد منحه آل بويه والصاحب إسمعيل بن عباد هذه الناحية ، فنصب خيمة كبيرة على هذه الربوة ، وكنت (أنا بوقى) شابا ، وكنت أقوم على حراسة الجند ، وقدمات تاش، ودالت دولة السيمجوريين ، ومات السلطان محمود كذلك وها هو السلطان مسعود قد جاء فضربت له الخيمة هنا ، وأخاف أن يكون قد دنا أجلى » . فتطير ٤٥٣ المسكين بهذا . ولكن تحقق ماكان يخشاه ، فإنه اعتل فى الغداة ومات بالدبل ودفن هناك . ومن عجب أن يموت هذا الرجل وهو فى الثالثة والتسعين من عمره على فراشه وقد سار آلاف الفراسخ جلها مع السلطان محمود فى الهند . وكان رجلا كاملا ، وقد رأيته يشترك فى دك القلاع وقد أثخن بالجراح من الحجارة وغيرها ، فركب الأهوال وبلغ ما يريد . وما تدرى نفس بأى أرض تموت . وقد أحسن أبو إسحق حين قال :

وربما يرقد ذو غـــرة أصبح فى اللحد ولم يسقم
يا واضع الميت فى قبره خاطبك القبر ولم تفهم

ونشط السلطان للشراب على هذه الربوة ثلاثة أيام أخرى ، منذ الصباح الباكر ؛ وكان موسم الأترج والنارنج ، وكانت بساتين تلك البقعة مليئة بهما ، وكانت تتراءى من عل ؛ فأمر أن يقطفوا كثيرا من الأترج والنارنج وغصونا بثمارها وصفوها حول الخيمة ، وزينت الربوة فكأنها الفردوس ، ثم دعا الندماء وجاء المطربون وأخذوا يشربون ، والحق أنه كان يوماً طيباً وسعيداً .

وأمر السلطان أستاذى أبا نصر أن يقدم الرسائل التى وصلت وخلاصة ما فى الكتب . فلما فرغ من قراءتها أجلسه للشراب . وفى أثناء ذلك قال له السلطان إن بوقى قد مات . فقال أستاذى البقية فى حياة السلطان ليهنأ بالملك والشباب وليهلك كل عبيده فى طاعته ورضاه ففى ذلك خير لهم ، ولكن ليعلم مولاى أن بوقى قد ذهب ولست أعرف فى الجيش كله مثيلاله يستطيع أن يحل محله. ولكن السلطان لم يجبه بشىء وكان يدور بخلده أن أبا نصر يريد بقوله هذا أن يتناول الخدام الآخرين بأن كل من يموت من الخدم لا يخلفه أحد مثله . وكان كلام أبى نصر حقا ، فليس بعد بوقى أحد مثله . ويمكن القول أنهم لو فتشوا الدنيا لما عثروا على حارس للجند مثل بوقى ، ولكن مدار العمل هو البحث ، ولو أخذوا الأمر بخفة لظنوه يسيرا وما هو بيسير . وقد بينت فى هذا الكتاب كيف كان السلطان محمود رحمة الله عليه يربى رجاله بحيث كان يخدمهم عند الحاجة ، لا جرم أنه كان يستظهر برجاله ، وقد ذكرت هذه النقاط فى معنى رعاية الرعية ٤٥٤ عسى أن تفيد . ووصل هنا رسل آخرون من رجال باكاليجار وغيره ، وقد بعثوا معهم برسائل شفوية بأنهم عبيد مطيعون والطرق ضيقة لا تسمح بسير الركاب العالى ؛ فليأمر السلطان بما يشاء ، فنحن مستعدون لتقديمه على قدر الطاقة ، ونزولا على فروض الطاعة . فأجيبوا بأن قصدنا أن نذهب إلى سارى كى نشاهد هذه النواحى ، وحين نصل هنالك نأمر بما ينبغى . وعاد الرسل . وتحرك ركب السلطان من استراباد يوم النوروز لثمانية أيام بقيت من ربيع الثانى وبلغ سارى يوم الخميس لثلاثة أيام بقيت من هذا الشهر . وفى الغداة ، الجمعة أرسل إلى قرية نوشتكين ولوالجى الحاجب[1] ومعه فوج من الجيش ،

---

(١) هكذا ورد الإسم فى نسخة نفيسى ص ٥٠٢ وقد رجحناه على ما جاء فى نسخة غنى ـ فياض (نوشتكين وبوالجى ، ص ٤٠٤) وقد عدل غنى ـ فياض عما ذكراه فى هذه الصفحة (ص ٤٨٨) ، كما أدرجا الاسم كما أثبتناه وكما ذكره نفيسى فى فهرست أسامى الأشخاص ص ٧٢٤ .

وكان لهذه القرية حصن يقوم عليه شيخ من أعيان جرجان ، وذلك لفتح هذه القلعة ، وأوفد معه أبا الحسن دلشاد فى منصب صاحب بريد الجيش ، وكان هذا أول منصب كلف به أبو الحسن . وكانت هذه القلعة قريبة جدا من سارى . فساروا إليها وكانت خلوا من أدوات الحرب فاستولوا عليها فى يوم واحد ، ومن أول حملة ، ثم سرعان ما عادوا . وحكى أبو الحسن لأبى نصر أن الجند هناك نهبوا كثيرا ، واستباحوا النساء ، ولم يستتب الأمر لأبى الحسن ، وجىء للخزينة ببعض المال ؛ وكان يعرف كل ما تم فى الخفاء وقد ذكر ذلك فى المجلس العالى وحاز القبول ، وتقرر لدى السلطان أن أبا الحسن رجل سديد جلد . وقد أتوا إلى الدركاه بهذا الشيخ الذى كان قائما على الحصن مع عجوز وثلاث بنات ، وكانوا فى حالة يرثى لها ، وقد ندم السلطان وأبدى عطفه على الشيخ وطلب منه الصفح ثم أعادوه . وليس لى بد من كشف هذه الحقائق لأنها تزيد العبرة ، ويسير التاريخ بها فى الطريق السوى ، فليس من السائغ التخسير والتعريف والتقتير والتبذير فى كتابته . وإذا كان نوشتكين ولوالجى قد أثم فقد لقى ٤٥٥ جزاء ما قدمت يداه .

ويوم الأحد غرة جمادى الأولى سار السلطان من سارى قاصدا آمل . وهذه الطرق التى حضرنا منها والأخرى التى سرنا بها كانت شديدة الضيق بحيث لم تكن تسع أكثر من فارسين أو ثلاثة وكانت تحف بها الآجام عن يمين وشمال وتتشابك إلى سفوح الجبال ، وكانت مياهها متدفقة بحيث يتعذر على الفيل العبور . وفى هذا الطريق رأينا قنطرة كبيرة من خشب ونهرا يبعث على العجب الشديد يشبه القوس الملتوى . وعانى الجيش الصعاب الجمة حتى عبر هذه القنطرة . ولم يكن ماء النهر عميقا ، ولكنه كان يغطى حتى الرقبة كل حيوان يعبره ، وهذا هو سر وعورة هذه الجهة . وقد نزلوا هنا لأنه مدخل المدينة . وكانت الحشائش قصيرة وطويلة نامية فى ساحة واسعة يستطيع جيش كبير أن

يحل بها ، ووفد على السلطان ثلاثة رسل من قبل ناصر بن على ومقدّمى آمل ، وبيّنوا أن ابن منوچهر وباكاليجار وشهرآكيم وغيرهم حين سمعوا بقدوم السلطان نحو آمل : سارعوا إلى ناتل وبجور ورويان على أن يتجمعوا بناتل حيث الممرات الضيقة ليشتبكوا مع جند السلطان . وعزموا إذا عجزوا عن البقاء هناك ، على أن يجتازوا عقبة كالار ، لأنهم خفاف ، ويهربوا إلى جيلان . « وأن الداعى ناصر وبقية المقدّمين والرعايا كلنا عبيد السلطان . وقد أقمنا هنا فى انتظار ما يأمر به . » فأجاب السلطان بأنا قد أسقطنا عنكم خراج آمل ، وعلى الرعية أن تبقى فى أماكنها لأنا لا شأن لنا معهم وإنما غايتنا الإمساك بالفارين . وعاد الرسل بهذه الأخبار .

وحث السلطان السير ، وبلغ آمل يوم الجمعة السادس من جمادى الأولى ، وخرج للقائه أكثر من خمسمائة ألف رجل أو ستمائة ، جميلة وجوههم ٤٥٦ حسنة ألبستهم ، ولم أر بينهم أحدا بغير طيلسان شطوى أو تورى أو سترى أو قطنى أو بما يصنع باليد ويسمى فوطة ، وقيل إن هذه هى عادتهم . وحث السلطان السير من مصلى المدينة مع فوج من خاصة غلمانه ومضى إلى حدودها ، وعلى مسيرة نصف فرسخ من الجانب الآخر منها أقيمت خيمة فنزل بها وسار السالار بكتغدى بالجيش مع غلمان السراى ، ودخل المدينة حيث جاءوا المعسكر وعينوا الحرس[1] حتى لا يغتصب من أحد درهم واحد . ورفع النـــاس أيديهم بالدعاء لأنهم رأوا جيشاً وعدة لم يروا مثلهما من قبـــل . وكنت (أنا أبو الفضل) قد دخلت المدينة قبل دخول الجيش ، فرأيت مدينة جميلة حقاً ، كل حوانيتها مفتوحة وأهلها سعداء . وبعد هذا أروى ما وقع من الأحداث

---

(١) الكلمة الفارسية جنباشيان . وفسرها نفيسى ص ٥٥٥ بأنها من لفظى جان الفارسى بمعنى السلاح وباش التركى بمعنى الرئيس .

التي قلبت فردوس آمل إلى جحيم . أذن السلطان فى الغداة بالاستقبال ، وبعده اختلى بالوزير وأعيان الدولة وقال : « إنى سأقود بنفسى الحملة إلى ناتل » فقال الوزير : « ينبغى ألا نقيم للجرجانيين هذا الوزن بحيث يذهب السلطان بنفسه فى أثرهم فهنا ولله الحمد قادة عظماء . » وقال الأعيان ماذا يبقى لنا من عمل إذا تصدى السلطان بنفسه العالية لتجشم هذا النصب؟ فقال السلطان : « هذا ما أرى، وسيقيم الوزير هنا مع الأحمال لتدبير الأمور وسيكون أبو نصر معه لتحرير الرسائل والحاجب ليعد كل ما يلزم من احتياط فى أى وجه ويسير معنا فوج من الغلمان الأقوياء من ألف وخمسمائة غلام وثمانية آلاف فارس من شتى الأصناف الممتازة وعشرة فيلة ومعدات فتح الحصون وخمسمائة جمل تحمل الذخائر : فارجعوا وأقيموا فى أخبيتكم ، واستعدوا لهذه الأعمال فإنى سأذهب غدا فى المساء مهما تكن الأحوال ، وسيجيء معنا العراقى الكاتب ، ويبقى الندماء هنا . » فرجع الحضور وأعدوا ما أمر به السلطان . وركب السلطان فى منتصف ليلة الأحد ثامن جمادى الأولى ، وسار على المقدمة، ودقت الكوس ٤٥٧، وسار هذا الفوج من غلمان السراى وعلى أثرهم بقية الجيش فوجا بعد فوج ، وكلهم فى أهبة كاملة . وبلغوا ناتل فى الغداة حين صلاة الظهر ، ولما قطعوا منزلا وجدوا الجرجانيين صامدين وهم على أهبة تامة ، وقد خفى عليهم أن السلطان قد قدم إليهم بنفسه . وكانت حربا عوانا كما سأبين . وفى ضحى يوم الثلاثاء لعشرة خلون من جمادى الأولى جاء ثلاثة من غلمان السراى ببشارة الفتح ومعهم خاتم السلطان دليلا على صدق ما قالوا ، وقد أرسلهم السلطان من ساحة الوغى بعد أن تم الفتح ، وكانوا مسرعين وقد سلموا الخاتم للحاجب بكتغدى سالار غلمان السراى ، فأخذه وقبله ثم وقف ، وقبل الأرض ، وأمر بقرع الطبول ونفخ الأبواق ، وارتفع دوى من المعسكر . وطافوا بغلمان السراى بالمدينة وقدر الأعيان الحاضرون كالوزير والحاجب أبى النصر هذه البشرى

حق قدرها . وكتبوا للسلطان، شاكرين له هذا الفتح ، كتاباً من الوزير والحاجب والناس . وكتب أبو مشكان ، صاحب ديوان الرسائل ، كتاباً من أروع ما كتب ، بحيث اعترف الوزير بذلك قائلا لم أر قط فى معنى الخاتم كتاباً بهذا المعنى ، وقد أدرج فى كتابه هذا البيت للمتنبى :

وﷲ سر فى علاك وإنما كلام العدى ضرب من الهذيان[1]

وكانت عندى صورة من هذا الكتاب ولكنها ضاعت كما قلت فى عدة مواضع من هذا التاريخ ؛ وقد عيّن القائد بكتغدى غلامين من غلمان السراى وغلامين من عنده لحمل هذه الرسالة وحين صلاة العشاء جاءت رسالة الفتح بخط العراقى وكانت من إملاء السلطان وجاء فيها :

« حين سرنا من آمل وقضينا الليل فى السفر ، وقطعنا أحراشاً يصعب عبورها على المردة الشياطين ، بلغنا ناتل فى النهار حين صلاة الظهر ، وكنا قد أسرعنا الخطى بحيث كان الجيش يفد طوال الليل بعد وصولنا . فلما انتصف الليل كان الجند جميعاً قد وصلوا ، لأنا كنا قد قطعنا مرحلتين دفعة واحدة . وفى الغداة الإثنين جاء الجواسيس وقالوا إن الجرجانيين قد سيّروا أمتعتهم مع ابن منوچهر من مدينة ناتل ، وقد عسكروا فى الناحية الأخرى من المدينة ونصبوا الخيام ، وتركوا أثقالهم والعاجزين من رجالهم مع أمتعتهم ، وقد جاء إلى هذا الجانب من المدينة باكاليجار وشهرآكيم وفرسان كثيرون ورجّالة مختارون مجربون مع جماعة من المقدّمين والمبارزين ، وهنالك قنطرة شديدة الضيق ، ٤٥٨

(١) وهذا هو البيت الثانى من القصيدة التى قالها المتنبى يذكر قيام شبيب العقيلى على كافور وقتله بدمشق سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة والتى مطلعها :

عدوك مذموم بكل لسان ولو كان من أعدائك القمران

وليس من طريق للعبور غيرها ، قد استولوا عليها فهى أضيق ممرّ إلى ذلك السهل ، وسوف يقاتلون عند هذه القنطرة ؛ فالطريق واحد تحيط به الأحراش والمياه والغدران والأنهار ، وقد عقدوا النية على أنه لو حلت بهم الهزيمة فإن الفرسان يعودون من المضايق ، ويحمى القنطرة خمسون من خيرة محاربى الديالمة والجيليين ويصابرون ويرابطون حتى يتحقق لديهم أن رجالهم قد تركوا معسكراتهم وانسحبوا إلى الداخل حيث المعاقل الهائلة فى الجانب الآخر وأصبحوا فى مأمن من الأعداء . وبعـــد أن تحققت لدينا هذه الأحوال أعددنا العدة لهذا الأمر ، وأمرنا بكل ما يجب ولبسنا الجوشن وركبنا فيلة ووضعت الأسلحة أمامنا فى المهد ، وأمرنا بقرع كوسات الحرب ، وأحاط بفيلتنا الغلمان بين راكب وراجل ، وتقدمتنـــا جماعة قد ساقوا أمامهم فيلا هو أكبر الفيلة وأقواها وأشهرها وأمهرها فى الحرب ، وسرنا وفى أثرنا مالا يحصى من الفرسان والمشاة . فلما بلغنا هذا السهل لقينا عند هذه القنطرة كثيرا من الجرجانيين فرسانا ورجّالة ، ودارت رحا حرب طاحنة ، وكان العسير فيها كثرةُ الجند ، فلم يكن فى هذه المضايق مجال للتحرك ، ولا فرق بين مائة ألف فارس وراجل أو خمسمائة ألف منهم مادام المكان ضيقا ولا يسمح بالحرب[1] . ولو لم يكونوا بهذه الكثرة لما اجترأوا على الثبات فإن فوجا واحدا من جندنا كان يقدر على القضاء عليهم قضاء مبرما . وقد حمل علينا ، حملة قوية عدد من فرسانهم ورجّالتهم ، وكان قائدهم فارسا ملثما ماهرا فى أصول الكر والفر ، وبلغ الأمر بحيث وصل ضرب السنان إلى فيلتنا ومهدنا ؛ إلا أن غلمان سرايانا أشبعوهم ضربا . وقد دخلنا المعركة بنفسنا وقد أبلى العدو بلاءً حسنا ، وضربوا فيلنا الفحل الذى كان فى المقدمة بالسهم والسنان لجرحوه

---

(١) أخذنا بشرح نفيسى لمفهوم هذه الجملة . نفيسى ص ٨٠٥ حاشية ١ .

وأفزعوه فانقلب من شدة الألم راجعا إلينا ، فكان يجندل من يصادفه فى طريقه ؛ وزحف العدو على أثره صارخا ، ولو أن هذا الفيل الفحل صادفنا لضرب بغير شك فيلتنا ، ولنجم عن ذلك خطر عظيم لا يمكن تداركه ، فإن الفيل الذكر إذا جرح فى المعركة ٤٥٩ فانقلب راجعا لا يبقى على شىء ؛ ولكن حسن الصدف أنه فى انقلابه راجعا إلينا مال إلى اليسار على حافة السهل حيث نهير ضحل ألقى الفيال الجرىء بالفيل فيه ، نصرف الله بفضله شره إلى هذا المنقلب وأنجانا والجيش منه . ثم إن رجالنا جميعا هجموا على العدو ، وأظهر المبارزون من غلمان السراى والفرسان والرجّالة قوة هائلة ، وأقبل نحونا رجل من مقدمى الجرجانيين فصحنا من فوق الفيل ، وضربناه على رأسه ورقبته بالعمود ضربة أسقطته من على جواده ، وأسرع نحوه الغلمان ليجهزوا عليه فصرخ مستغيثا بنا يطلب الأمان وقال إنه شهرآكيم ، فأمرنا بإنزاله من على الجواد وأسره . فلما رآه أهل جرجان أسيرا ولوا فرارا ، وكان رجالنا قد أشبعوهم قتلا وأسرا حتى بلغوا القنطرة ، وولى فرارا يمنة ويسرة كثير من رجالهم وألقوا بأنفسهم فى النهر فقتلوا وأغرقوا . أما القنطرة فكان الموقف عندها سيرا ، واستمرت حولها حرب طاحنة . وانقض كل فريق على خصمه وهلك كثير من الجانبين ، ولم أر فى حياتى حربا ضروسا كهذه ، وقد احتفظ جند العدو بالقنطرة حتى قرب صلاة العصر ودافعوا عنها دفاعا مجيدا . ولم يكن للرجالة إليها من سبيل من أى جانب ، وأخيرا تقدم أشد رجّالتنا مراسا فى القتال ومعهم التروس والحراب والأقواس والعدة الكاملة ، فأمطروا العدو سهاما حجبت الشمس ثم حملوا عليه حملة صادقة واستولوا على القنطرة . وقد مكنهم من ذلك أن خمسة من رجالة العدو الأقوياء أو ستة ممن يعدون من السرهنكية قد طلبوا الأمان فأمنوهم وتقدموا صفوفنا . وحين انهزم العدو عند القنطرة أسرع إليها رجال مقدمتنا ثم تبعناهم وقد رجع إلينا جماعة من الفرسان يقولون إن

الجرجانيين منذ رأوا شهراً كيم أسيرا ولوا جميعا منهزمين ، وقد قلبوا المعسكر والخيام وكل ما عندهم رأسا على عقب ليستولوا على قدور الطبخ . وقد نزلنا هناك إذ لم يكن موضع غير هذا يصلح للنزول به . وتعقب الفرسان ، الذين نالوا من الراحة قسطا ، العدو فأسروا عددا من الرجّالة من كل صنف ، أما أعيان الجيش والمقدمون ومهرة الفرسان ٤٦٠ فكانوا قد لاذوا بالفرار . وكان الطريق شديد الضيق فاضطر مطاردوهم إلى الكف عنهم ورجعوا . وقد شرحت ما جرى حتى يتقرر ما يكون عليه الأمر بعد . وقد عدنا من هناك إلى ناحية آمل لنصل إليها في سرعة . إن شاء الله عز وجل » .

وبلغ السلطان مسعود رضى الله عنه آمل يوم السبت الثانى عشر من ربيع الأول سالما ظافراً منصوراً ، وقد توقف فى مكان ليقيم فيه وأمر بنصب السرادق والخيمة الكبيرة ونزل هنالك باليمن والإقبال . وقد قال لصاحب ديوان الرسائل أبى نصر يجب أن ترسل لأطراف المملكة كتب الفتح الذى فتحنا على يد المبشرين . وكتبت الكتب وسار بها الفرسان وغلمان السراى. ويوم الجمعة أذن بالاستقبال ، وكان يوما مشهودا ، وقد تقدم للخدمة الشريف العلوى وأعيان المدينة . وقد قال السلطان لوزيره اجلس فى الخباء وأجلس العلوى وأعيان المدينة فإن لنا معهم حديثا . فسار الوزير إلى الخباء وأجلس هؤلاء الناس ، ونشط السلطان للشراب وبدىء فى اللهو وجاء الندماء والمطربون وقد رجع أبو نصر لكثرة مالقى من المشقة فى توجيه كتب الفتح والمبشرين . وقد أقمت فى ديوان الرسائل فقد كانت النوبة لى ، فجاء الفراش ودعانى فذهبت ومعى الدواة والورق واقتربت من التخت فأشير إلى بالجلوس فجلست ، وقال السلطان « أكتب مايجب أن يحصّل من آمل وطبرستان وما يجب أن يجبيه أبو سهل إسمعيل وهو ألف ألف دينار من الذهب النيسابورى ، وألف قطعة من الألبسة الرومية وغيرها ، وألف قطعة من المحفوريات والسجاد ، وخمسة

آلاف كساء . فكتبت هذا ثم قمت فقال خذ هذه النسخة إلى الوزير واذكر له رأينا حتى يقول لهؤلاء القوم ليدبروا ما طلبنا ، ويسارعوا بإرساله كاملا حتى لا نضطر إلى أن نبعث اليهم مستخرجا ، وأن نمنح الجند براءات ليأخذوا الأموال بعنف . فأخذت النسخة للوزير وعرضتها عليه سرا وبلغته رسالة السلطان ، فضحك وقال لى : « ها أنت ترى أنهم ينهبون هذه البلاد ويحرقونها فتفسد سيرتنا ، ولن نحصل من هذه البلاد على ثلاثة آلاف درهم ، إن هذا إثم عظيم ، ولو قلبوا خراسان كلها رأسا ٤٦١ على عقب لما حصلوا على هذه الأموال وتلك الألبسة ، أما السلطان فمنهمك فى الشراب ، وإنما دعاه إلى هذا القول ظنه أن لدى الناس مالديه من النعم والأموال والخزائن » ثم إن الوزير التفت إلى الشريف العلوى وأعيان آمل وقال : « إعلموا أن الجرجانيين بعد أن شهروا سيوفهم فى وجه سلطانهم وعصوه ، وبعد أن شتتوا ، فإنهم لن يروا هذه البلاد بأعينهم ، وسيعين هنا حاكم قوى ليضبط الأمن كهذا الذى ولى خوارزم ، وسوف تستريحون مما لقيتم من مشاق » فدعا له الآمليون كثيراً . ثم قال واعلموا أن السلطان أنفق كثيراً من المال حتى يسير جيشه إلى هنا ، وحتى يقضى على هؤلاء القوم الظالمين ، فيجب على أعيان هذه البلاد أن يقدموا نثارا لائقا به . فقالوا سنبذل فى الطاعة كل ما فى طاقتنا ، فإن هذه البلاد فقيرة وأهلها معسرون ، وجرى الرسم منذ زمان على أن يكون نثارنا من آمل وطبرستان مائة ألف درهم وما يساوى هذا المقدار من المحفوريات والأبسطة ، ولو طلب إلينا أكثر من هذا فإن الرعية تتكبد مشقة عظيمة فبماذا يأمر الأستاذ الرئيس الآن . فقال : لقد أمر السلطان بتحصيل ماتحتويه هــــذه النسخة من طلبات وقد أبلغنى أبو الفضل رسالة قال فيها كذا وكذا . ثم إنه عرض عليهم النسخة وبين لهم الأوامر وقال « إنى سأيسر الأمر بأن أجعل ما كتب فى

النسخة يجبى من جوزجان وطبرستان وسارى وجميع النواحى حتى لاتجبى الأموال منكم وحدكم بكيفية تشق عليكم » ولما سمع أهل آمل هذا الحديث أسقط فى أيديهم ، وحاروا فى أمرهم ، وقالوا إنا لا نستطيع الإجابة على هذا الحديث على البديهة ، وليس لأحد طاقة على سداد هذا المال فإذا أذن لنا فإنا نرجع إلى الملأ ونقص عليهم الأمر .

فقال لى الوزير قل للسلطان ما سمعت . فذهبت وقلت له ، فأجاب قائلا : هذا حسن فليذهبوا اليوم إلى قومهم وليعودوا غدا مستعدين للدفع فإن هذا المال يجب أن يجبى سريعا حتى لا يطول مكثنا هنا . فجئت وقلت ما سمعت . وعاد الآمليون وقد علاهم الهم ، وكذلك عاد الوزير . وفى الغداة أذن السلطان بالاستقبال ثم اختلى بعد فضه بالوزير وقال له ما رأيك فى هذا المال الذى تقررت جبايته من هؤلاء ؟ فقال الوزير أطال الله عمر مولاى إننى أزداد سرورا حين تعمر الخزانة بما يدفعه بلد ، ولكن هذا المال المطلوب منهم كثير وقد قابل الآمليون هذا الأمر بفتور بالأمس . فماذا يأمر مولاى ؟ قال إن ما جاء فى النسخة مقصور على آمل وحدها ، ولو قبلوا طواعية « فبها ونعم » وإذا لم يقبلوا فيجب إرسال أبى سهل إسمعيل إلى المدينة ليأخذ منهم المال قهرا وبنسبة ٤٦٢ أكبر مما قررنا . وعاد الوزير إلى الخباء ، وجمع أهل آمل ، وكانوا أقل مما كانوا بالأمس ، وحدثهم بمقالة السلطان . فقال العلوى والقاضى : « إننا عقدنا مجلسا بالأمس وتشاورنا فى هذا الأمر فعلا ضجيج الناس وتفرقوا ولم يبدوا استعدادهم لتقديم أى شىء ، وقد تبين لنا أن كثيرا من الناس قد هاجروا من المدينة بالأمس أما نحن فقد بقينا لأنا مطيعون ، ولم نرتكب إثما والأمر الآن بيد السلطان والأستاذ الرئيس ليأمرا بما تقتضيه الأحوال » . وكان الوزير يعرف حقيقة ما يقولون . ولكن لم ير أمامه مجالا للتحدث مع السلطان . فدعا الوزير أبا سهل إسمعيل وسلم إليه هؤلاء الأعيان وأوفده إلى المدينة . فأقام

أبو سهل ديوانا وجمع الناس وكان من يقع فى يده منهم يرشده عن الهاربين ، ولم يبق فى المدينة مكان لا يعلو منه نواح الناس وعويلهم ، وكان الفرسان والرّجالة يتجولون للقبض على الفارين وإعادتهم . ووزع أبو سهل إسماعيل البراءات على الجند ليحصلوا بها على رواتبهم من الناس ، فأضرموا النار فى المدينة ، واستباحوا الحرمات ، وقبضوا على كل من يريدون ، فكأن القيامة قد قامت . وكان الديوان مشتغلا بتنفيذ أعماله الجائرة ، والسلطان لا يعرف شيئا مما يجرى ، ولم يكن لأحد جرأة على أن يخبره به ويذكر الحق ، حتى استخرج الجنـــد فى أربعة أيام مائة وستين ألف دينار . وكانوا قد نهبوا من الناس ضعف هذا المقدار ، وذلك غير ماسلبوا من المؤن . وكانت فضيحة كبرى أدت إلى أن يلجأ المتظلمون ، بعد سبعة أشهر أو ثمانية ، للسفر إلى بغداد ، يستصرخون الخليفة وقيل إنهم ذهبوا كذلك إلى مكة ، حرسها الله ، فإن أهل آمل ضعفاء ولكنهم بارعون فى الكلام واللجاج ، وكان لهم الحق فيما يقولون .

هذه الآثام والأوزار كلها فى عنق أبى الحسن العراقى والآخرين ولكن كان لزاما على السلطان أن يتريث فى مثل هذه الأعمال ; إنه لعزيز علىّ أن يجرى قلمى بمثل هذا النقد للسلطان ، ولكن ما حيلتى فى ذلك والتاريخ لا يعرف المحاباة . ولو قرأ هذه الفصول من كانوا معنا فى آمل ، وأرادوا الإنصاف ، لقالوا إن كل ما كتبت هو حق لا مراء فيه . وكان السلطان رضى الله عنه منهمكا فى الشراب واللهو . ويوم الجمعة ٤٦٣ ليومين بقيا من جمادى الأولى سار السلطان بالجند إلى ساحل بحر آبسكون (قزوين) حيث نصبت الخيام وأخذوا فى الشراب وصيد السمك ، وشاهدوا سفنا كالعرائس تروح وتغدو دون أن تصل إليها أيدى أحد ، فقد كان اتجاه كل منها واضحا إلى الفُرضة (المرفأ) التى تقصدها ، اللهم إنى لم أر [1]

(١) هكذا فى طبعتى غنى ـ فياض ونفيسى (٥٦٣) .

هذه البلدة الصغيرة ، وقد حكى لى كل هذا أبو الحسن دلشاد وكان قد ذهب إليها . ورجع السلطان يوم الإثنين الثانى من جمادى الثانى إلى معسكر آمل ، وكان أكثر أهلها قد هربوا وتواروا فى الأحراش . وفى تلك الأثناء كان قد ذهب رجل من سقاة الحاجب بكتغدى ليحضر قليلا من الثلج من قرية على حافة تلك الأحراش ، فهمّ بفتاة فيها فمنعه أبوها وأخوها ، وكانا على حق فى هذا ، وحدثت معركة مع هذا الساقى وأصحابه وضُرب بالسوط . فعاد إلى بكتغدى وأخبره بالأمر فثار غضبه فركب فى اليوم التالى فيله دون استئذان السلطان ، وسار مع فوج من غلمان السراى إلى هذه القرية والأحراش المحيطة بها . وكان قتلٌ ونهب . وقد قيل إنّ عددا من الزهاد والصالحين قتلوا وهم جلوس على سجاد الصلاة والمصاحف فى حجورهم . وكان كل من يسمع هذا يلعن المجرمين . وبلغ الخبر السلطان فاستشاط غيظاً ، وعاتب بكتغدى عتاباً شديداً ، لأنه كان قد ندم على كل ماجرى فى هذه الناحية . وكان يلوم أبا الحسن لوما عنيفاً «والخوخ أسفل[1]» .فبعد أن رجعنا وقعت الطامة الكبرى . وفى هذا الأسبوع جاءت كتب مهمة من دهستان ونسا وفراوة بأن أفراد التركمان قد أخذوا يفدون من السهول ، ويقصدون دهستان للنهب والسلب . وكتب الأمير مودود يقول إنه أرسل طلائع الفرسان إلى جهات أربع وأصدر الأوامر ليأتوا بالإبل والخيول من مراعى ريكستان إلى أقرب مكان من جرجان ، وإنه جعل مع كل فارس حصانين أو ثلاثة . فأجيب بأن يتخذ الحيطة التامة فإن الراية السلطانية قادمة على الأثر .

ويوم الثلاثاء الثالث من جمادى الثانى وفد على السلطان رسول من قبل

---

(١) من أمثال المولدين ، يطلق على مايتنظر من وخيم العواقب . أمثال الميدانى ص ٢٤١ طبعة مصر .

باكاليجار ، وكان قد أرسل ولده مع الرسول يعتذر عن الحرب التى جرت ويطلب العفو ، ويقول : « إن أحد أولادى فى خدمة مولاى فى غزنة وهو بعيد عنى ، ولم يستطع الشفاعة لى ، وقد بعثت بأخيه للحضرة السلطانية ، وإنى لعلى يقين من أن مولاى سيعطف على حتى لا يشمت الأعداء فى هذه الأسرة القديمة . » وقدموا الرسول والولد ، وأحسنوا وفادتهما . وسأل السلطان الوزير وأعيان الدولة رأيهم ، فقال الوزير : « الأصوب عندى أن يُخلع على الولد والرسول وأن يعادا بالحسنى فإن أمامنا مهام خطيرة ، حتى يتبين ماتؤول إليه الأحوال وحينئذ يدبر أمر هذه النواحى حسب مشاهدتنا ولا نفقد هذا الرجل إلى النهاية » . فاستحسن السلطان هذا الرأى وأحسن رد كتاب باكاليجار وخلع على ابنه خلعة فاخرة ، وكذلك كانت خلعة الرسول ، وأعيدا عوداً كريماً .

ويوم الجمعة السادس من جمادى الثانى جاء كتاب من بلخ بوفاة على تكين وإقرار إسناد ملك هذه النواحى إلى ابنه الأكبر . فقلق السلطان لهذا لأن الأمر قد آل إلى شاب غير مجرب ، وكان يخشى تهوره ، فأمر بالكتابة إلى السپهسالار على دايه فى هذا الشأن ليذهب إلى بلخ ويضبط الطرق وليأخذ الحيطة التامة حتى لا يحدث خلل . وكذلك كتب إلى ترمذ وإلى كوتوالها والقائدين أبى نصر وأبى الحسن ، وكان الكوتوال حينئذ يدعى قتلغ ، وهو من رجال السلطان الوالد محمود ، وكان يجمع بين اللين والحزم . وعين فارسان ، فسارا مع كتب التعزية والتهنئة إلى بخارى لابن على تكين حسب الرسم المعتاد ، وذلك ليذهبا فى سرعة ويأتيا بالأخبار الصحيحة ، وحتى إذا أراد هذا الشاب الغر أن يثير فسادا فى الأرض فإنه يخجل مما جاء بهذه الكتب . وقد خوطب « بالأمير الفاضل الولد » . ولكن هذه الرسالة لم تؤثر فى ابن الشيطان هذا ٤٢٥

فقد أغتنم موت أبيه وبعد السلطان عن خراسان واضطراب الأحوال فيها فرصة سانحة لتحقيق أغراضه .

وكان هرون العاصى المخذول يستعد للسير إلى مرو مع جيش جرار ليستولى على خراسان فتحالف الشابان واتفقا على أن يأتى هرون إلى مرو ، وأن يغير أبناء على تكين على صغانيان وترمذ وينهبوها ، ومن هناك يسيرون إلى اندخود عن طريق قباديان حيث ينضمون إلى هرون . فاجتاح أبناء على تكين صغانيان ، وفر واليها أبو القاسم الداماد ، ولجأ إلى الكمخيين [١] وبعد أن دمروا صغانيان جاءوا إلى ترمذ عن طريق دارزنكى ، وأخذوا يستهزئون بقلعتها فأرسلوا أوكار مع لواء وثلاثمائة فارس إلى باب القلعة ، وظنوا أن أوكار حين يصل إلى هناك ، تقع القلعة بيدهم فوراً صلحاً أو حرباً، وحينئذ ينشرون راية الشجاعة من فوق القلعة ، والظن يخطىء ويصيب ، فقد غاب عنهم أنها عرين الأسود . وما أن بلغوا القلعة حتى فتح أولئك الأسود الأبواب وصاحوا بسم الله أدخلوها إن كنتم شجعانا . وكان رجال على تكين يظنون الأمر يسيرا وأنهم قد حضروا لأكل الفالوذج وما كادوا يدخلونها حتى انقض عليهم فرسان القلعة وأمسكوا جمعاً منهم على الفور وأسروهم وولى الباقون فرارا إلى ابن على تكين ولام الناس أوكار فأجابهم بقوله « إن القدر لايزال فى مكانه على الموقد وقد ذقنا طعمه فعلى من يشتهى أكلة منه أن يذهب » فسبوه ورموه بالتخنث ونفخوا الأبواق وسار قونش السپهسالار فى المقدمة والباقون من ورائه وأحدق الجيش بالقلعة من كل جهة ونزلوا عند أسوارها . وسمعت من الأستاذ عبد الرحمن القوال ، ٤٦٦ وكان ممن غادر صغانيان بعد نهبها والتجأ إلى ترمذ ، قال « إن رجال على تكين حاربوا عدة

---

(١) ص ٤٢٨ .

مرات مع فرسان القلعة ، وهُزموا فى المعارك كلها ، حتى خارت قواهم وكانت قلوبهم تمتلىء غيظاً من الشتائم التى كان يكيلها لهم السجزيات . وقد أراد أوكار الذى كان من عظمائهم ، وكان تحت إمرته ألف فارس ، أن يقتحم القلعة فتقدم وعليه درع فضفاض وكان راجلا ، فقال أبو نصر وأبو الحسن خاف لصاحب العرّادة نعطيك خمسين ديناراً وكسائين إذا رددت أوكار عن القلعة . فأعد حجرا من خمسة أمنان أو ستة وتفحصه وفكّر ثم سحب حبال العرادة فإندفع الحجر فأصاب وسط أوكار فمات لساعته . وفى تلك الأيام كان الحجر الذى يزن خمسة أمنان إذا اندفع من العرادة وأصاب رأس رجل فإنه يصرعه . وحين سقط أوكار ارتفع ضجيج هائل من جيش العدو ، فقد كان رجلا عظيما جداً ، وقد اختطفه رجاله وحملوه وكان فى موته قاصمة الظهر لرجال أبناء على تكّين . وأخذ الغورى ، صاحب العرادة ، الذهب والكسوة . وبلغ أبناء على تكّين أن هرون المخذول قد قتل ، وأن السپهسالار قد جاء خائباً خاسراً إلى بلخ ، فرجعوا من ترمذ وساروا إلى سمرقند عن طريق دره آهنين [1] .

وجاءت رسالة من أبى نصر البيهقى صاحب بريد الرى وأخى أميرك البيهقى ، بعد وصول القاصد تفيد أن أبا المظفر الحبشى قد عزل من عمل البريد الذى عهد به إلى أبى نصر ، وكان هذا الرجل النبيل وكيل البلاط أيام السلطان محمود رضى الله عنه ، وقد عرض نفسه لمخاطر كثيرة وأدى خدمات جليلة ، وكان رجلا شجاعاً وهو من أصدقائى القدامى ، وبعد أن فقدنا الرى ذاق من الأيام حلوها ومرها كما سيأتى فى هذا التصنيف . وهو مقيم اليوم هنا فى غزنة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٥٩) ، فى خدمة سلطان

(١) دره آهنين ، درآهنين ، در آهنى .

العالم أبى المظفر إبراهيم بن الناصر لدين الله أطال الله بقاءه . وقد جاء فى هذه الرسالة أن السپهسالار تاش فراش قد أصيب بهزيمة من مقدمة ابن كاكو . وقد جاء فى جواب هذه الرسالة « الأفضل اتخاذ الحيطة فى الأمور وقد فرغنا من مهمتنا فى جرجان وطبرستان ؛ والآن نعود من آمل إلى الرى عن طريق دماوند ، إذ لسنا ٤٦٧ قاقبين من ناحية خراسان . وقد كتبنا هذا حتى نوقع الرعب فى قلوب أعداء تلك الديار ، فقد كان لنا فى خراسان أعمال كثيرة هامة تنسينا الرى وابن كاكو . »

وسأذكر نبذا نبذا ، وقليلا قليلا من أخبار الرى وخوارزم، فسيكون لهما بابان منفصلان كما بينّت من قبل ، وفيما أذكره الآن الكفاية لمن يحفظ التاريخ من ناحية الأشهر والسنين .

وغادر السلطان آمل يوم الأحد الثانى والعشرين من جمادى الثانى بعد أن أقام بها سنة وأربعين يوما . وقد رأى فى طريقه رجّالة الدركاه يسيرون بجماعة من أهل آمل المقيدين فسأل من هؤلاء ؟ قالوا أهل آمل الذين لم يدفعوا الإتاوة . فقال أطلقوا سراحهم فلعنة الله على من دبّر أمر مجيئنا إلى هنا، وأمر أحد الحجاب أن يقوم بتنفيذ هذا الأمر حتى لا يؤخذ من أحد شىء ؛ وحتى يسرحوا جميعاً ، وكذلك فعلوا . وهطلت الأمطار مدرارا فى الطريق ، وأصاب الناس والدواب عناء كثير . ويوم الأربعاء الثالث من رجب جاءت رسالة تقول إنهم قتلوا هرون بن خوارزمشاه آلتونتاش ، وإن الجيش الذى كان يقصد مروقد رجع إلى خوارزم . وقد سر السلطان سرورا بالغاً لهذا الخبر وأثنى كثيراً على الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد لأنه هو الذى دبّر هذه الحيلة ، كما بينت قبل ذلك ، للإيقاع بكافر النعمة هذا . ونعم قول الشاعر معروف البلخى، قال :

إن كافر النعمة كالكافر بالدين ، فاجتهد واسع لقتل الكافر .

اللهم أهلك كل من ينكر المعروف ويكفر بالنعمة بمحمد وآله . وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام « اتق شر من أحسنت إليه » وكلام صاحب الشريعة حق وصدق . وقال العلماء إنه يقصد من ذلك من لا أصل له فإن الرجل الشريف الأصل لا ينسى حق صاحب الجميل ولا المنعم عليه .

وبيان ذلك أن هرون بعد أن غادر خوارزم كان هناك إثنا عشر غلاما ٤٦٨ قد اتفقوا على اغتياله فأعملوا فيه السيوف والخناجر والدبابيس ، ومزقوا هذا الكافر بالنعمة إربا إربا فى موضع يبعد عن المدينة أربعة فراسخ ، وثار الجيش وعاد أدراجه . وهذه الأقاصيص نوادر سوف آتى بذكرها فى باب أفرده لها كما وعدت . وفى هذا القدر هنا الكفاية . ويوم السبت السادس من رجب جاء نبأ بوفاة كبير الحجاب بلكاتكين رحمة الله عليه . ولما بلغ السپهسالار على داية بلخ جاء كبير الحجاب ، نزولا على الأمر السلطانى ، إلى نيسابور ، وسار من نيسابور إلى جرجان ، وقد سلم إليه أكثر المستأمنة من عرب جرجان حتى يسير بهم إلى نيسابور وقد توفى بعد وصوله إلى هناك ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت . ويوم الإثنين الثامن من رجب بلغ السلطان جرجان ، وكان الهواء شديد الحرارة راكدا وخاصة هناك حيث يكون الجو عادة دافئا ، وقد دب الضعف فى الدواب أكثر مما كانت عليه فى آمل ، وكانت تأكل قش الأرز فى الطريق . وقد سمعت من الخواجة أبى نصر مشكان رحمة الله عليه قال : « وكان السلطان نادما على مجيئه إلى آمل ، فقد رأى ماسينجم عن ذلك ، وقد دعانى واختلى بى وجلسنا وحدنا قال أى خطأ إرتكبنا ! لعنة الله على هذا العريق . لم نفد شيئا ولم يفد

الجيش ، وقد سمعت أن الرعايا فى تلك النواحى قد اضطهدوا . قلت « أطال الله حياة مولاى كان الوزير وغيره يقدمون نصاحهم ، ولم يكن فى طاقتهم الاعتراض على رأى السلطان بأكثر مما قالوا ، فإن اعتراضهم قد يؤول إلى شيء آخر ، وإن ما جرى به لفظكم الشريف « ما فائدة مجيئنا إلى هذه النواحى » حق ولكن إذا لم يفد منه مولاى فقد كان فيه فائدة لآخرين . ولا يحسن إعادة القول فى هذا ، فليس فى التكرار فائدة إلا أن يشمت بنا الآخرون » فقال السلطان « إن حديثك حق كله لا هزل فيه ، وإنك ترعى مصالحنا ، فتحدث بصراحة بحقنا عليك » قلت « أطال الله حياة مولانا ، لقد أفاد باكاليجار فائدة عظمى ، فقد كان مستضعفاً لا يطاع من جنده ورعيته ، فقبض السلطان على الكبراء الذين كان باكاليجار منهم فى خوف ، وجاء بهم مصفدين بالأغلال ، وكذلك قضى السلطان على مقدّمى العرب وقبائلهم فى هذه النواحى ، وكان نصيب باكاليجار منهم القلق والإفراط فى إنفاق المال فأنجاه السلطان منهم ، وأما الرعية فقد عرفت لباكاليجار قدره بعد ما رأت شتى ضروب ظلم أبى سهل أسمعيل ، ولكن من اليسير ٤٦٩ أطال الله حياة مولاى، تلافى كل هذا بقليل من العناية ، فإن باكاليجار رجل عاقل وعبد صادق وابنه يعود طائعاً خاضعاً برسالة واحدة ورسول ، وإنا نأمل ، بفضل الله عز وجل ، ألا يحدث خلل فى خراسان فى غيبة السلطان عنها » فقال السلطان هو كذلك .

ورجعتُ ولكن حاشية السوء لم تقبل أن يعود باكاليجار طائعاً بعد ما كان من النفور ، وقالوا يجب أن يعين هناك عامل وشحنة ، وقد خفى عليهم أن راية السلطان حين تبعد عن هذه الديار سيعود إليها باكاليجار وسينضم إليه الرعايا الذين ذاقوا منا الذل والهوان. وعين أبو الحسن عبدالجليل رحمة الله عليه فى منصب صاحب الديوان وكتخدائية الجيش ، وسير معه

فوج قوى من الجند ، ليبقوا هناك حين يتحرك الركب العالى إلى نيسابور .

ولما سارت الأحوال على هذا المنوال كانت الطامة الكبرى . لحين صلاة العصر من ذلك اليوم الذى بلغ فيه السلطان جرجان ، وكان مسروراً بحديث خوارزم وبقتل هرون المخذول ، وكان له أن يُسر ، فإن خطراً كبيراً قد زال بقتل هرون ، فأخذ فى الشراب وظل يشرب طول الليل ، ولم يجلس للاستقبال فى الغداة اتباعا لرسم أبيه ، وكان القوم قد غادروا الدركاه جميعاً ، وبالرغم من حرارة الهواء فإنه قد عزم على البقاء فى جرجان أسبوعين ، وقد دعانى الأستاذ أبو نصر بعد صلاة الظهر وجلسنا للأكل وإذا بفارسين من رجال أبى الفضل السورى ، فارسين مسرعين من شياطين فرسان فراوى ، قد أقبلا فتقدما وسلما فقال لهما أبو نصر ماذا وراءكما ؟ قالا : لقد جئنا من نيسابور فى يومين ونصف يوم ، وكنا نركب طول الطريق خيولا مستريحة فكانت تسير مناقلة[1] حتى أننا لم نسترح ليلا أو نهاراً ، اللهم إلا بقدر ما نتناول طعامنا ، وبهذا أمرنا صاحب الديوان ولا ندرى سبب ذلك . فكف الأستاذ عن الطعام وأجلسهما للأكل وأخذ الكتب وفتح الخريطة وأخذ يقرأ ، فاضطرب اضطرابا شديدا وأخذ يهز رأسه . فعرفت (أنا أبو الفضل) أن حدثا جللا قد وقع . ثم قال أسرجوا الخيل ، وغسل يديه وطلب الرداء . فوقفنا فقال لى اتبعنى إلى الدركاه . وجهز مكانا للفارسين . وسرت إلى الدركاه وكان خاليا ، وقد شرب السلطان حتى الضحى ثم استسلم للنوم . فقال لى أبو نصر ، وكان وحده ٤٧٠ إن التركمان والسلاجقة مع جمع كبير من الرجال قد عبروا النهر وإنهم مروا عن طريق سهل ده كنبدان بجانب مرو وساروا إلى نسا وإنهم استشفعوا صاحب الديوان

---

(١) استعمل المؤلف هذا اللفظ . يقال فرس مناقل أى سريع نقل القوائم .

سوری إلى السلطان لتترك لهم نسا حتى يأتى أحد قادتهم الثلاثة إلى الدركاه ويقوم بالخدمة فيه ، ويصبح هؤلاء جيشا يوجهه السلطان حيث يشاء . يا أبا الفضل إن خراسان قد ضاعت ، إذهب إلى الأستاذ الرئيس وقل له هذا . »

فذهبت إليه فوجدته قد صحا من نومه وكان يقرأ فى كتاب ، فلما رآنى قال خيرا ، قلت هو خير . قال أعرف ان السلاجقة قد دخلوا خراسان قلت نعم . وجلست وحكيت ما كان فقال لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ثم قال هاهى نتيجة السفر إلى آمل ومشورة العراقى الكاتب ، أعدوا الخيول . فخرجت وأما هو فقد ركب إلى حيث وافاه أبو نصر الذى جاء من ديوانه واختلى به ؛ ولم يكن معهما أحد سواى فأعطاه أبو نصر رسالة سورى وقد كتب فيها إن عشرة آلاف فارس من السلاجقة واليناليين قد جاءوا إلى نسا من جانب مرو ، وإن التركمان مع فوج آخر من الخوارزميين الذين كانوا هناك سيّرهم السلاجقة أمامهم ولم يتيحوا لهم الركوب ولم يجيزوا ذلك .

يقول سورى : « وقد أرسلت للدركاه الخطاب الذى بعثوه إلىّ ليقف عليه السلطان » وهذا نص الكتاب :

« إلى حضرة الشيخ الرئيس الجليل السيد مولانا أبى الفضل سورى من العبيد بيغو وطغرل وداود موالى أمير المؤمنين ، لقد استحالت علينا الإقامة فى بخارى ، فى بلاد ماوراء النهر ، فقد كانت صلتنا بعلى تكين إبان حياته صلة مجاملة وود وصداقة ؛ واليوم وقد مات وآل الأمر إلى ولديه وهما طفلان طائشان قد استولى عليهما وعلى الدولة والجيش والسپهسالار قونش قائدو الدهماء وقد عادانا حتى استحال علينا العيش هناك . وإن خوارزم مضطربة أحوالها بعد قتل هرون ، مما يجعل مسيرنا إليها متعذرا ، ولذلك جئنا نلوذ بسلطان العالم ولى النعم ليكرمنا الشيخ سورى ويكتب إلى الأستاذ الرئيس احمد عبد الصمد

ليكون ٤٧١ شفيعا لنا عند السلطان فانه يعرفنا وكنا بفضل وساطته نقيم كل شتاء في ولاية خوارزمشاه التونتاش رحمة الله عليه ، نحن ورجالنا وأنعامنا حتى الربيع ، لعل السلطان يقبلنا عبيدا له ، فيقوم أحدنا بالخدمة في الدركاه وينفذ الآخران ما يأمر به السلطان من خدمات ، فنستريح في ظله الوارف ويمن علينا بولايتي نسا وفراوة ، وهما على حدود الصحراء ، حتى نستقر فيهما ويهدأ بالنا ، ولن ندع مفسدا يخرج على الدولة من بلخان كوه ودهستان وحدود خوارزم وجوانب جيحون ، وسنطارد تركمان العراق وخوارزم . ولا ندري ، إذا رفض السلطان ، والعياذ بالله ، التماسنا كيف تصير الأمور ، فليس لنا على وجه الأرض مكان نقيم به . ولم نجرؤ أن نكتب للسلطان شيئا ، فإنا هبنا مجلسه العالي الوقور ، فكتبنا إلى الشيخ سوري ليقضي في الأمر بنفوذه التام إن شاء الله عز وجل . »

فلما قرأ الوزير هذا الكتاب قال لأبي نصر : « يا أستاذ كنا نتعامل حتى الآن مع الرعاة ولعلك تعرف كم قاسينا منهم وكم نقاسي حتى الآن من بلاياهم . أما اليوم فإنهم قد أتوا إلينا أمراء ممن يلون الولايات . لكم صرخت بأن لا وجه للذهاب إلى طبرستان وجرجان فلم يستمع مولاي إلي ، وإن رجيلا كعراقي لا يميز يمناه من يسراه قد دبر هذا في خداع وشعوذة . وما كان لنا في ذلك من فائدة ، فقد كان المسير خطأ وباطلا . وإن ولاية هادئة كجرجان وطبرستان قد اضطربت الأحوال فيهما وذهبنا هباء ، وخرج علينا أهلهما وكانوا عبيدا طائعين ؛ وكذلك لن يخلص لنا باكاليجار بعد هذا ، واضطربت أحوال خراسان اضطرابا شديداً . فليجعل الله السلامة عاقبة لهذا التصرف . ومع هذا الخلل كله فإنهم يدعون أن الأمور تسير الآن على النهج السوي ، ولسوف يثيرون هؤلاء السلاجقة ، ومن اليسير التنبؤ بما سيكون حينئذ وإن هذا الأمر أهم من أن يتغافل عنه لحظة ويجب أن

يعرفه السلطان » . فقال أبو نصر : إنه كان يشرب طول الليل حتى قرب الظهر ثم استغرق فى النوم . فقال الوزير ليس هذا أوان النوم ، لابد له أن يعرف ثم قال إن أمرا جللا قد وقع ولابد من أن يوقظوه .

وأرسلنى (أنا أبو الفضل) إلى آغاجى الخادم الخاص فقلت له ٤٧٢ ما جرى ، فدخل إلى السرادق ووقف و تنحنح فسمعت صوت السلطان يقول ماذا ؟ فقال الخادم لقد جاء أبو الفضل يقول إن الأستاذ الرئيس وأبا نصر قد جاءا إلى الخباء ولا بد أن يريا مولاى فإن أمرا جللا قد وقع . فقال خيرا . وقام ودعوت له ، وطلب السلطان رضى الله عنه الطست والماء فتوضأ ، وخرج من السرادق إلى الخيمة ، ودعاهما واختلى بهما وكنت (أبو الفضل) واقفا . فقرأ الرسائل ؛ فاستشاط غضباً وسب العراق . فقال الأستاذ الرئيس إنها تقادير الله تسير ، وما العراق وغيره إلا وسائلها . والخير أن يتفكر السلطان ملياً قبل الإقدام على عمل . والآن وقد حدث ما حدث فلنبذل الجهد حتى لا يتسع الخرق على الراتق . فقال ماذا نعمل ؟ قال الوزير : لو يرى مولاى أن ندعو الحاجبين بكتغدى وأبا النصر ، إذ ليس هناك سپهسالار ، ويجيء الحاجب سباشى فإنه أوجههم مع من يرى السلطان مجيئهم معه من أهل السلاح والفرسان العرب حتى نتشاور فى هذا الأمر ويتضح الرأى . فقال : حسنا . ثم خرجا وذهب الخدم لدعوة المقدّمين . وبدأ المدعوون يفدون حسب الرسم وجلس لاستقبالهم بعد صلاة العصر . فاستقبل الأستاذ الرئيس أحمد عبدالصمد والعارض أبا الفتح الرازى وصاحب ديوان الرسائل أبا نصر مشكان والحاجبين بكتغدى وأبا النصر وسباشى ، ودعى من بين الندماء ، أبو سهل الزوزنى الذى كان يدعوه من حين إلى حين ويجلسه فى مثل هذه الخلوات . وتحدثوا فى هذا الباب شتى الأحاديث وتشاوروا . قال السلطان رضى الله عنه : « ليس هذا أمرا هينا لقد جاء عشرة آلاف فارس تركى مع كثير من القادة وأقاموا وسط

بلادنا ، ويقولون لم يبق لنا من مكان نأوى إليه ، والحق أنهم استضعفوا بلدنا ، لن نمهلهم ليجدوا فى بلادنا مستقرا يترعرعون فيه . أنظروا ماذا كان من هؤلاء التراكمة من البلاء والإزعاج بعد أن جاء بهم أبى وأتاح لهم عبور النهر وأقامهم فى خراسان ، كانوا رعاة إبل وهم الآن كما يقـــول الوزير « طالبو إمارة » فيجب ألا ندعهم يتنفسون فى بلادنا ، والصواب أن نسير بأنفسنا لطردهم من جرجان مع غلمان السراى وجند مختارين عن طريق سمنكان الواقع بين إسفرايين ٤٧٣ واستوا ، وأن نزحف إلى نسا زحفاً قويا حتى نستأصل شأفتهم » .

فقال الوزير الصواب ما يراه السلطان . وكذلك قال العارض وصاحب ديوان الرسائل وأبو سهل الزوزنى . فسأل الوزير الحاجبين ما رأيكما ؟ قالا : « نحن رجال حرب نسير حسب ما نتاق من أمر ، ونعمل سيوفنا حتى نهزم الأعداء ، أما التدبير فمن عمل الوزير » فقال الوزير : « يجب أن نسأل عن أحوال الطريق » فجىء فورا ببضعة رجال يعرفون هذا الطريق ، فذكروا أن هناك ثلاثة طرق أحدها صحراوى من جانب دهستان وهو وعر لا ماء فيه ولا علف ، والآخران أشد منه وعورة وفيهما عقبات جمة . قال الوزير إنى أنصح بما أعرف والأمر لمولاى ، وإن أكثر خيول الفرسان الفرادى وبعض خيول غلمان السراى قد أكل قش الأرز وقتاً طويلا فى آمل وكانت تأكل الحشائش حتى عدنا ، والطريق على ما وصفوا من هنا إلى نسا ، وعر ومتعب ، فلو ذهب السلطان للقتال بنفسه وحث السير فإن الدواب ستتخلف والجنـد الذين يصلون معه سيكونون قلة منهوكة القوى ، هـــذا والأعداء مستريحون متأهبون ودوابهم قوية ، ولابد من أن نفكر ملياً حتى لا تختل الأمور وتصبح هباء فإن تحرك السلطان بنفسه ليس هيناً ؛ ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء التركمان هادئون ، ولم يظهر منهم فساد ، وقد كتبوا إلى سورى على هذا النحو وأظهروا طاعتهم ، ويبدو لى أن الأصوب أن نرد على سورى رداً جميلا وأن نقول له

ليخبر الدهاقنة ألا يقلقوا فإنهم نزلوا فى بيوتهم ، وإنهم فى ولايتنا وفى أماننا وإنا قد قصدنا الرى لحين نبلغها نأمر بما يجب لإصلاح حالهم . فحتى ترسل هذه الرسالة ويسير السلطان باليمن إلى نيسابور وتستريح الدواب وتقوى يتضح بجلاء أمر هؤلاء الوافدين الجدد (السلاجقة) فإذا اقتضت الضرورة وكان من الصواب إخراجهم من خراسان توجّه إليهم جيش قوى عليه قائد ٤٧٤ مشهود له بالقوة والمهارة وقضى عليهم ، فإن هيبتنا تزول لو ذهب إليهم السلطان بنفسه وخاصة إذا بدأ زحفه عليهم من هنا . لقد قلت ما بدا لى والرأى لمولاى » .

واتفق الحاضرون على صحة هذا الرأى واستقر الرأى على العودة إلى نيسابور خلال ثلاثة أيام . فأمر السلطان بدعوة أبى الحسن عبد الجليل إلى هذا المجلس فجاء وتلقى الأمر بالذهاب نحو مدينة جرجان مع خمسة من المقدمين والسرهنكية وحاجب وألف فارس وأن يكون هو كتخدا الجيش ليرى ماذا سيعمل با كاليجار فى الأموال التى تعهد بدفعها ، وحينئذ نأمره بما ينبغى عمله . وقد تحدثوا زمناً فى هذا ثم أخذوا أبا الحسن إلى خزانة الألبسة فارتدى الخلعة ، ثم جاء إلى الحضرة السلطانية مع المقدمين والحاجب وقد خلع عليهم أيضاً ، ثم رجعوا وبدأ سير الجيش من الدركاه وخرج من المدينة .

ويوم الأربعاء العاشر من رجب وصل السعاة المسرعون من خوارزم ينبئون بخبر وفاة عبد الجبار ابن الأستاذ الرئيس ومن معه . ذلك أن عبدالجبار كان قد أسرع بالخروج من مخبئه ساعة قتل هرون فامتطى فيلا وأقبل على ميدان سراى الإمارة وقد هرب خندان بن خوارزمشاه مع شكر الخادم وبعض الغلمان ، ومن سوء الصدف أن جاء شكر الخادم مع بضعة غلمان لعمل ما إلى الميدان ، فكانت مقابلة مفاجئة بينه وبين عبد الجبار ، وقد سبه عبد الجبار فأمر

شكر الغلمان يرميه بالسهام فطعنوه بالسهام والبلط وقتلوه وولدين له وابن عمه وأكثر من أربعين رجلا من أتباعه . ورجع القتلة فأتوا بخندان وأقاموه بالإمارة ، وسيأتى ذكر ذلك فى باب خوارزم .

جلس الوزير فى مأتم ولده ، وذهب لعزائه جميع الأعيان والعظماء ورأيت من قوته أنه لم يذرف دمعة واحدة . وقد كان هذا الرجل نسيج وحده فى كل نواحى العظمة ، لقد رأوه فى هذه المصيبة صابرا وأعجبوا به وحقا كأن الشاعر قصده فى قوله :

يبكى علينا ولا نبكى على أحد   لنحن أغلظ أكبادا من الإبل

وأوفد إليه السلطان الفقيه عبد الملك الطوسى النديم برسالة العزاء ، وكان هذا الفقيه حلو الحديث عاقلا ، فلما بلغ عزاء السلطان للوزير نهض هذا ٤٧٥ وقبّل الأرض ثم جلس وقال : « إنى وأولادى وكل من أعول فداء شعرة واحدة من مولاى فإن سعادة الخلق فى أن يموتوا فى رضاء السلطان . وقد خلق الناس سواسية ولا ينال أحدهم حسن الذكر عفوا » .

وهذا التجلد أشبه ما يكون بما كان من عمرو بن الليث وسأذكر ما قرأت فى هذا الشأن والله أعلم بالصواب .

حكاية عمرو بن الليث أمير خراسان

وما كان من صبره حين نعى ابنه إليه

رجع عمرو بن الليث فى إحدى السنين من كرمان إلى سيستان ، وكان ابنه محمد الذى يسمى فى العسكر شابا صالحا ، وقد نضج وأصبح أهلا للعمل وشاء القضاء أن يصاب هذا الولد بالقولنج فى صحراء كرمان على مسيرة خمسة منازل

من مدينة سيستان ، ولم يكن ممكنا أن يقيم عمرو هناك فبقى ابنه مع الأطبـــاء والمعتمدين وكاتب ومائة مجمّز . وقد قال لزعيم المجمزين يجب أن يفد على مجمز فى أثر الآخر ، وكان الكاتب يكتب كيف حال المريض وماذا أكل وماذا قال وهل نام أو لم ينم حتى يقف عمرو على كل أحوال ولده إلى أن يرى ماقدره الله عز ذكره . ودخل عمرو البلد ونزل فى سراى الحرم وخلا إلى ربه على حصير للصلاة خشنة ، وظل هكذا نهاره وليله وكان ينام على الأرض بغـير وسادة،والمجمزون يفدون دواماعشرين أوثلاثين مرة كل يوم ، وكانوا يقرءون عليه ما يكتبه الكاتب فكان يجزع ويبكى ويسرف فى الصدقات ، وأمضى على هذا النحو سبعة أيام يصوم النهار ويفطر على خبز جاف ويأكل الخبز بغير أدام ، كان فى رعب شديد . وفى اليوم الثامن ، وقت السحر ، جاء زعيم المجمزين بغير كتاب فإن الولد كان قد مات ، ولم يقو الكاتب على نعيه ، فأرسله وحده لعل الأمير يدرك ما جرى .

فلما دخل على عمرو ، قبل الأرض ولم يكن معه كتاب . فقال عمرو أقضى الولد ؟ فقال كبير المجمزين : « مد الله فى عمر مولاى » فقال عمرو « الحمد لله عز وجل إنه فعل ما أراد ويفعل ما يريد ، انصرف واكتم هذا الخبر » . ثم إنه قام وذهب إلى الحمام حيث صفف شعره واغتسل ثم خرج واستراح ثم ٤٧٦ نام . وبعد الصلاة أمر باستدعاء الوكيل ، فجاء وأمره قائلا : « اذهب وأقم وليمة حافلة للغد فيها ثلاثة آلاف حمل وما يلزمها ، وفيها الشراب وعدته والمطربون » . فعاد الوكيل وأعد كل شىء . ثم قال عمرو للحاجب : « غدا استقبال عام فأعلم الجيش والرعية شريفهم ووضيعهم » . وبكّر بالاستقبال فى الغـــداة ، وكانت الموائد الكثيرة قد صفت ، وبعد انفضاض الاستقبال جلس الناس إلى الموائد وبدأوا يشربون والمطربون يغنون ، فلما أشرفوا على الفراغ اتجه عمرو إلى خاصته وأوليائه وحشمه وقال : « اعلموا أن الموت حق ، وأنا لبثنا سبعة أيام

بلياليها فى قلق على ولدنا محمد لم ننم خلالها ولم نشرب ولم يكن لنا من قرار ، كنا نرجو ألا يموت وشاء حكم الله عز وجل أن يتوفاه ، ولو كانت الحياة تباع لاشتريناه بأعز ما نملك ، ولكن أنى لابن آدم هذا . وبعد أن توفى ، ومن مات فات ، فالجزع والبكاء ضرب من الجنون وهو من عادة النساء . عودوا إلى بيوتكم وكونوا على سجيتكم وعيشوا سعداء فإن الحزن لا يليق بالسلاطين » . فدعا له الحاضرون وعادوا . وبمثل هذه النوادر تشتد عزمات الرجال ، وتقوى قلوب الضعفاء من الناس .

* * *

وسار السلطان مسعود من جرجان يوم الخميس الحادى عشر من شهر رجب وبلغ نيسابور يوم الإثنين لثمان بقين من هذا الشهر ، ونزل فى حديقة شادياخ . ويوم الأحد ليومين بقيا من هذا الشهر توفى أحمد على نوشتكين فى نيسابور رحمة الله عليه ، ولكل أجل كتاب ؛ وبموته درست الفروسية ولعب الصولجان والرمى بالقرص وهذه الرياضات كلها . وحين جاء السلطان إلى المدينة تحمس فى تهيئة الجيش حتى يوفده إلى نسا ، وكان التركمان يتربصون هادئين ليروا ماذا سيحدث . وكانت كتب المنهيين تقول إنه منذ غادرنا جرجان حتى أتينا نيسابور لم يحدث منهم خيانة أو غدر ، وإن أكثر أمتعتهم كان قد نهبها شاه ملك وإن قلوبهم حزينة من أجلها ، وقد أتوا معهم بما بقى لهم و قد حملوه إلى حافة ٤٧٧ الصحراء ، وهم يحتاطون لحمايته احتياطا كبيرا ليلا ونهارا . وهم يعملون للحرب وللصلح على السواء ، وقد جنحوا إلى السلم قليلا بعد جواب سورى إليهم ولكنهم وجلون ، وإن السلاجقة والينالِيين يمتطون جيادهم من الصباح الباكر إلى قبيل الظهر ويظلون يرقبون الطرق فوق الربا وهم يدبرون الخطة خفية لأنهم فى خوف شديد منذ سمعوا أن السلطان قد اتجه ناحية نيسابور .

وقد عرض أبو نصر هذه الرسائل ، فكف السلطان عن الشراب ، وظل يفكر مليا وملء قلبه الندم على هذه الرحلة إلى طبرستان فلم يكن من ورائها شيء سوى سوء السمعة . ولم يبق للعراقى جرأة على أن يتكلم فى حضرته فى أمور السلطنة .

والطريف حقاً أن السلطان قد أساء الظن بالأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد مع ما أدى من جليل الخدمات ومع مادبر من خطط سديدة أدت قتل المخذول هرون ، ذلك أنه قد قر فى نفس السلطان أن سبب عصيان هرون هو عبد الجبّار ابن الأستاذ الرئيس ؛ كما صوروا له أن للوزير حديثاً مع الأعداء أرادمنه التمهيد لمجىء السلاجقة إلى خراسان . وسمعت الخواجة أبا نصر رحمة الله عليه ، فى خلوة كان معى فيها أبو منصور طيفور ، يقول :

« إن الله عز وجل يعلم أن هذا الوزير صادق وناصح وأنه برىءمن مثل هذه التهم ولكن الملوك كثيراً ما يأخذون بالظنّة ، ولا يستطيع أحد أن يسبر غورهم ويتبين مافى ضمائرهم وأنا (أبو نصر) أكثر علماً بأحوالهم بحكم اتصالى بهم منذ كنت شابا إلى يومنا هذا . وكأن القضاء أراد أن يكون هذا السلطان سيّء الظن بالوزير ، رغم أنه خبره مرات عدة وكلفه بخطير الأمور . وقد رأينا أنه أمره على جيش جرار ليسير إلى بلخ وطخارستان وختلان ووضع عليه خفية عينا ، قائداً كبيراً . وكان الوزير يعرف هذا كله من السلطان ويتغاضى عنه ولا يبخل بنصحه . والآن وقد وقعت حادثة السلاجقة والسلطان فى غم وقلق من هذا ويعمل على إيفاد الجند إلى نسا ، فقد دعا إلى خلوة لنظر هذه المهمة . وجرى الحديث شتى ، وكان يسخر من كل ما يعرضه الوزير . فلما عدنا اختلى بى الوزير وقال : « ألا ترى مايجرى معى ؟ ياسبحان الله العظيم ٤٧٨ · يقتل ولد لى مثـــل عبد الجبّار مع كثيرين من خلاّنى ويستشهدون فى سبيل

خوارزم ، ومع هذا كله فإن السلطان لم يتأكد من أنى كنت بريئاً براءة تامة بما جرى فى خوارزم ، ولست أملك فى كل وقت يسىء بى الظن فيه أو يتخيل الخيالات عنى ولدا ورجالا كثيرين لأضحى بهم حتى يعلم أو لا يعلم أنى برىء ، وأطرف من ذلك كله أن يظن أنى أميل إلى السلاجقة حتى إذا ما كبر شأنهم فوّضوا إلى الوزارة من بعد أن كانوا يقبّلون يدى ومهما يكن فأنا اليوم وزير سلطان كمسعود بن محمود وأرانى أعظم منزلة من أن أكون وزيراً لجماعة كانوا يوماً ما خدماً لى . وكيف يطاوعنى قلبى وكيف تعمل جوارحى وكيف أبدى الرأى والتدبير وتفكير السلطان فى على هذا النحو ؟ » قلت : « أطال الله حياة مولاى ليس الأمر كما تظن ولا يجوز أن تشغل خاطرك بهذا ، لأن المرء لا يستطيع القيام بهذه المهام إذا كان مريض القلب سىء الظن . » فقال : « ياخواجة أتجاملنى ؟ لست طفلا صغيراً . ألم تسمعه اليوم يطعن فى كثير مما قلت ، وقد كنت أرى هذا منذ زمن بعيد ، لكنى كنت أتغافل عنه ، ولكن الأمر قد تجاوز الحد اليوم » . قلت أيأذن لى الوزير أن أفضى بهذا للسلطان ؟ قال : لاجدوى فى هذا ؟ فقد أفسدوا قلبــــه علىّ ولكن إذا حانت فرصة للتحدث وأخلصت النصح بما هو جدير بك ، فلتبين له حقيقة ما تعرف عنى ، فإن هذا من الخير وإنك تؤدى به عملا مجيدا . » قلت : هـــذا حسن . وحدث أن خلوت بالسلطان وجرى الحديث عن بلخ وأبناء على تكين وخوارزم والسلاجقة . قلت : «أطال الله حياة السلطان لا يجوز أن يترك مولاى المهمات حتى تتراكم أو أن يستهين بها فإن هذا يثير القلق ولا بد من الكف إلى حين عن الطرب ، ولا بد من مواصلة العمل واستشارة الوزير » . فقال : « ماذا تقول ؟ كل هذا نجم عن تصرف الوزير فإنه ليس مخلصاً لنا » . ثم وقف ٤٧٩ وأخذ يسرد عتاباً على الأستاذ الرئيس قائلا لقد حدث فى خوارزم كذا

وكذا ، وإن ولده عمل كذا وكذا ، وآخر الأمر جاء بالسلاجقة . قلت : ٤٧٩
أطال الله حياة السلطان ، لقد تكلم الوزير طويلا معى بالأمس ، وأبدى يأساً
لاحد له ، فقلت له هل تأذن لى أن أبلغ هذا الكلام إلى السلطان ، فقال إذا
جرى حديث فمن الخير أن تتحدث به من تلقاء نفسك . فالآن إذا أذن لى
مولاى شرحت ذلك . قال حسناً . فوقفت وذكرت كل ما قال الوزير .
ففكر ملياً ثم قال إنه يقول صدقا فإن بيته وماله وولده وأهله كلهم راحوا
ضحية خوارزم ، وقد دبّر تدابير صادقة أدت إلى القضاء على ذلك المغرور
هرون . قلت : « مادام السلطان يعلم أن الأمر كذلك وهذا الرجل وزيره ، وقد
أدى الخدمات التى كلف بها على خير وجه ، وبذل الروح والمال ، فأية فائدة
فى إساءة الظن به واتهامه ؟ فإن إثم ذلك يعود على أعمال مولاى ، فكيف
يستطيع الوزير الذى أسىء به الظن أن يعمل فى صدق ؟ إنه يظن أن كل
ما يفكر فيه ويعزم على التفوه به سوف يستمع إليه على وجه آخر ، فلهذا
يتجنب إبداء الرأى الصائب ويذكر ما يوافق ظاهر الحال ، وبذلك تضيع
الاستقامة فى الرأى . » فقال السلطان رضى الله عنه : « إنه كما قلت ، ولم تبد
لنا حتى الآن خيانة من هذا الرجل ولكنهم أوغروا صدرنا عليه ولا يزالون
يفعلون » قلت : « إن أمام مولاى اليوم مهام كثيرة ، فإذا رأى فليستمل قلبه
إليه ولينهر كل من يتحدث عنه بغير حق ، حتى يطيب خاطره ويرضى قلبه
ولا تتعقد مصالح مولاى بل تسير الأمور على خير وجه » . قال فما التدبير فى
هذا الأمر ، قلت إذا رأى مولاى فليستدعه ويخل معه ويطيب خاطره . فقال
إنا نخجل من ذلك . فليغفر الله لهذا السلطان العظيم إذ لم يكن أكرم منه وأحلم .
قلت فماذا يرى مولاى ؟ قال تذهب إليه عند صلاة العصر برسالة منا ، وتقول
كل ما تراه لازماً ومؤدياً إلى استمالته ، وسوف نتحدث إليه غداً بحيث نزيل

كل ما فى قلبه من سوء الظن ، وعليك أن ترانا بعد حديثك إليـــه ٤٨٠
لتروى إلينا ما جرى . فقلت إذا رأى مولاى فليبعث معى عبدوس أو رجلا من
المقربين فليس الشفع كالوتر . قال أعرف ماتفكر فيه ولسنا بحاجة إلى مشرف
عليك وإن ولاءك وإخلاصك لا شك فيهما . وأثنى علىّ كثيرا حتّى خجلت
ثمّ حييت وانصرفت . وحين صلاة العصر ذهبت إلى الوزير وذكرت له كل
ما كان بينى وبين السلطان وبلغته الرسالة التى كانت كلها عطف وتكريم . فلما
انتهيت من الحديث وقف الوزير ثم قبّل الأرض ثم جلس وبكى ، وقال لن
أنسى ما حييت حق سيادة هذا السلطان ولن أبخل بخدمتى ونصحى وشفقتى
ما دمت حيا بعد هذه الدرجة الرفيعة التى منّ بها علىّ ، ولكنى أتوقع ألا يستمع
إلى حسد الحاسدين والنامين ، وإذا أخطأت فلينبهنى إلى خطئى ويعنفنى بنفسه
ولا يدخر ضغنا علىّ فى قلبه ، فإنه لو يسىء بى الظن يضطرب خاطرى وأعجز
عن العمل ويعود ذلك بالضرر على أعمال السلطنة ، وكيف أقوى على إبداء
الرأى فى المهمات وهذا حالى . قلت فليطب خاطر الأستاذ الرئيس وليهدأ بالا
ولو حدث بعد هذا نفاق فليؤاخذ عنه أبا نصر ، وطيبت خاطره . وعدت ورويت
كل ما جرى للسلطان . ثم قلت لو رأى مولاى فليتفضل على الوزير غدا بإبداء
العطف عليه ، فإن لكلمات مولاى أثرا آخر . قال سأفعل كذلك . وفى الغداة
اختلى بالوزير بعد الاستقبال وانصراف الناس ، وقد دعانى معه وقال له قولا
كريما بحيث أزال كل شك من نفسه . وكان هذا الحديث فريضة لحل هـذه
المشكلات فإن الأمور لا تستقيم بغير وزير[1] » . فقلنا له إنه لكذلك ودعونا
له لرعايته مصالح الملك .

---

(١) هذه نهاية كلام أبى نصر مع أبى الفضل وأبى نصر طيفور . وجملة « فقلنا له ... » هى من كلام أبى الفضل وأبى نصر طيفور .

وحين صدق عزم السلطان مسعود رضي الله عنه على إرسال جيش قوى ٤٨١
مع سالار عظيم إلى نسا ، اختلى مع الوزير والعارض وصاحب ديوان الرسائل
وأبي سهل الزوزني النديم ، والحجاب بكتغدى وأبي النصر وسباشي ، وذهب
رسول فدعا الأعيان والسرهنكية والحاجب وأصحاب الولايات من أمثال
الحاجب نوشتكين ولواجى وبيرى الموكل بالاصطبلات وغيرهم فلما اكتمل
الجمع قال السلطان : لقد أقمنا عدة أيام ، وتنفس الجند الصعداء ، واستراحت
الدواب ، وكتب المنهين فى نسا وباورد تقول إن السلاجقة قد أخلدوا إلى
السكينة ، وإنهم فى خشية منا ، ولم يؤذوا الناس ، ولكننا نفكر دائما فيما نرى
من وجود عشرة آلاف فارس تركى بيننا فبماذا تشيرون ؟ فأخذ ينظر بعضهم
إلى بعض وقال الوزير : « تكلموا فإن السلطان يسألكم ، ومن أجل هذا دعاكم ،
والوضع كما ذكر مولاى ، إما أن نطهر خراسان منهم ويلقى بهم إلى الجانب
الآخر من النهر (جيحون) وإما أن يحضروا فوجا فوجا لخدمة السلطان
ويظهروا الطاعة ، وأن يرسلوا مقدميهم رهينة إلى الدركاه العالى» قال بكتغدى :
معروف أن السلطان الماضى استقدم باختياره فوجا من التركمان إلى خراسان ،
وقد رأينا ما ظهر منهم من الفساد منذ قدومهم حتى الآن . وقد ولّد مجيئهم
الأمل فى نفوس الآخرين من بنى جلدتهم ، والعدو لا يصبح صديقا أبدا ،
ولا بد من إعمال السيف فيهم كما قال أرسلان الجاذب ولم يستمع إلى كلامه
أحد حتى كان ما كان ، وكذلك قال بقية الأعيان . وتقرر إيفاد جيش مع سالار
محنك إلى نسا . فقال السلطان ومن يكون هذا السالار ؟ فقالوا لو يأذن مولانا
فإنا نجلس ، نحن العبيد ، فى الخارج مع الوزير ونتبادل الرأى ونخبر مولانا .
فقال حسنا ، ورجعوا ، وكان أبو نصر مشكان يروح ويغدو بين الجماعة والسلطان ،
وطال الكلام إلى أن تقرر إيفاد عشرة قواد من مقدمى الحشم وعلى رأسهم
الحاجب بكتغدى والكتخدا الخواجه حسين على ميكائيل وخمسة عشر ألف

فارس من كل صنف فى أهبة تامة وألفين من غلمان السراى . فقال بكتغدى : « إنى عبد مطيع ولكن قد قيل إن القدر لا ينضج إذا كثر الشركاء[1] ، وقد رشحوا لرياسة هذا الجيش عددا من القادة المشهورين وفيهم جماعة من أصحاب محمود وعدد من الشبان الذين لا تجربة لهم والذين رفع السلطان مراتبهم ، ٤٨٢ وينبغى أن يكون القائد الأعلى واحدا ، وأنا رجل قد بلغت من الكبر عتيا ووهن عظمى وضعف بصرى ، ولا يجوز النقص فى القيادة ، فإنه يؤدى إلى خلل عظيم ، فيؤاخذنى به السلطان » . فأجاب السلطان رضى الله عنه : « ليس بين هؤلاء القادة من يجرؤ على التوانى فى تنفيذ أمرك » . ولم يرق للقوم ذهاب بكتغدى وقالوا إن الحقيقة كما يقول هذا الشيخ ، ينبغى ألا يتعقد هذا الأمر . فقال السلطان « لا بد أن يذهب بكتغدى » . فاستقر الرأى عليه وعاد القوم حتى يستعد من كان عليهم أن يذهبوا معه . فأسر الوزير لأبى نصر قال : « إنى شديد الكراهية لذهاب هذا الجيش ولا أجرؤ على الكلام فإنهم يؤولونه تأويلا آخر » . فقال أبو نصر ولماذا ؟ قال إن الطالع سىء جدا — وكان متبحرا فى علم النجوم — . فقال أبو نصر وأنا كاره كذلك ، إنى لا علم لى بالنجوم ، لكنى أعرف أن جماعة من الغرباء نزحوا إلى هذه الديار وهم يظهرون الطاعة فقبول طاعتهم أولى من إهاجتهم وإثارة ظنون السوء فيهم ، أما والسلطان والقادة يرون هذا فلا حيلة لنا إلا السكوت وسنرى ماذا قدر الله تعالى . فقال الوزير أرى لزاما على أن أبين الحق فإذا لم يصغ إليه أكون قد أبرأت ذمتى . وعرض رأيه على السلطان ولكن بلا جدوى ، فإن القضاء قضى ولا يمكن التغلب على القضاء . وفى الغداة ركب السلطان ووقف فى الوادى أمام حديقة شادياخ وعدوا أفراد الجيش بضربات السياط وقد أقر الجميع بأن هذا الجيش كاف

---

(١) ديك بهنبازان بسيار بجوش نيايد .

لتركستان كلها ، وأن ألفين من غلمان السراى ، تكفى لضبط العالم . وقد أثنى السلطان كثيرا على قائد غلمان السراى الحاجب بكتغدى وأبدى عطفه عليه ، وقال لجميع الأعيان والمقدمين إن هذا الرجل هو قائدكم وهو خليفتنا فأطيعوه جميعاً فإن أوامره كأنها أوامرنا . فقبّلوا جميعاً الأرض وقالوا سمعاً وطاعة . وكانت الموائد قد صفت ، وقد أجلسوا عليها كافة الأعيان والمقدمين والموالى والحشم . وبعد الفراغ من الطعام ٤٨٣ خلعوا على الحاجب بكتغدى والمقدمين الآخرين الذين عينوا لهذه الحرب . ثم مثلوا بين يدى السلطان وادوا التحية ورجعوا . وفى الغداة ، الخميس التاسع من شعبان سار هذا الجيش صوب نسا فى أهبة كاملة ، وقد رافقهم الخواجه حسين على ميكائيل ، ومعه الألبسة والذهب الكثير ليبذل الصلات إلى كل من يراه قد أحسن يوم الوغى ، لكل حسب بلائه ، واختيرت الفيلة التى تصاحبهم ، حتى إذا استقل القائد الفيل يوم المعركة يركب حسين فيلا كذلك ليرى ما يدور .

ويوم الجمعة العاشر من هذا الشهر أمر السلطان بتفويض الخطبة فى نيسابور إلى الأستاذ أبى عثمان اسمعيل عبد الرحمن الصابونى رحمة الله ، وكان هذا الرجل آية عصره فى كافة الفضائل وخاصة فى مجالس الوعظ والخطابة ؛ وقد أقر الجميع بأن الفصحاء جميعا قد بايعوه ، وفى هذا اليوم خطب خطبة جامعة مانعة . وتأثر القاضى أبو العـــلا صاعد تغمده الله برحمته لإحلال أبى عثمان محله وأبلغ السلطان أن تغيير القواعد المتبعة ليس بمستحب . فأجيب بأنا رأينا هذا فينبغى ألا يضيق به صدرك .

وحين صلاة العصر من يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان جاءت رسالة من المنهى الذى كان يصاحب الجيش المنصور يقول فيها إن التركمان قد منوا بهزيمة من أول معركة دارت مع مقدمة الجيش بحيث لم يكن ثمة حاجة

للقلب والميمنة والميسرة وقطعت رؤوس سبعمائة أو ثمانمائة منهم فورا ، وأسر كثيرون وغنموا منهم كثيرا . فذهب الفراشون على الفور بالبشرى إلى بيوت الأعيان فبشروهم ونالوا من خيرهم كثيرا ؛ وأمر السلطان بنفخ الأبواق وقرع الطبول إيذانا بوصول المبشرين ، وطلب إحضار المطربين والندماء وبدأوا فى اللهو والطرب . واستمر السلطان يشرب حتى الصباح وامتد وقت اللهو ، لأنه كان قد كف عن الشراب عدة أيام ، وكان رمضان قد اقترب ، واقتدى به الأعيان فكان كل يلهو فى داره . ووقت السحر جاء النبأ بأن جيش السلطان قد منى ٤٨٤ بهزيمة منكرة ، وأن كل ما لدى الجيش من آلات وعدد قد وقع غنيمة فى يد العدو ، وأن غلمان القائد بكتغدى قد أنزلوه من على الفيل وأجلسوه على حصان وساروا به مسرعين . أما الخواجه على حسين ميكائيل فقد أسر لأنه كان قد امتطى الفيل ولم يستطع الحصول على حصان ، وتفرق الجيش فى تقهقره أيدى سبا . وحين جاء هذا النبأ أسرع كاتب النوبة بإطلاع أبى نصر عليه ، وكانت دار أبى نصر فى محمد آباد قرب شادياخ ، فلم يكد يقرأ الرسالة حتى ذهب إلى الدركاه وكانت رسالة موجزة للغاية ، وقد بدت عليه الحيرة والهم ، فسأل عن السلطان فقيل له إنه آوى إلى النوم فى السحر ولا يمكن إيقاظه بأية حال حتى قبيل الظهر . فكتب رقعة للوزير ذكر فيها الخبر ، وجاء الوزير وأخذ الموالى والأعيان والكبراء يتوافدون حسب العادة فى مثل هذه الأحوال . وقد وجدت (أنا أبو الفضل) حين بلغت الدركاه الوزير والعارض وصاحب ديوان الرسائل وأباسهل الزوزنى وسورى صاحب ديوان خراسان والحاجب سباشى والحاجب أبا النصر ، وقد جلسوا مختلين عند مدخل البستان وأوصدوا الباب عليهم وكانوا يتبادلون العزاء فيما جرى ، ويقولون إنهم فى حيرة من السبب الذى أدى إلى تلك الهزيمة .

وفى الضحى كتبوا رقعة للسلطان وذكروا له وقوع تلك الكارثة وأرفقوا

معها رسالة المنهى فأخذها الخادم وسلمها للسلطان وجاء بالجواب يقول يجب ألا يعودوا لأن الأخبار سوف ترد تباعا فقد رتب الفرسان فى الطريق ليزودونا بالأخبار ، وبعد الصلاة سيؤذن بالاستقبال ، للتحدث فى هذا الشأن . ثم أعيد قوم آخرون وظل من ذكرت أسماؤهم وحدهم فى الدركاه ، وقرب صلاة الظهر جاء رسولان فراويان من رسل سورى ومن مهرة فرسانه ، وكانا قد عادا من المعركة بعدتهما وقد حثا السير حتى جاءا بأسرع وقت ، فجىء بهما فسئلا عن سبب إرسال الرسالة الأولى بأن التراكمة قد قتلوا وغلبوا وعما كان فى الرسالة الثانية من انقلاب الأمر وغلبة العدو . فقالا لقد كان هذا الأمر بأمر الله ، ولم يخطر على بال أحد، فإن الأعداء كانوا خائفين وبغير سلاح ولا ذخيرة ولا وسيلة وما كانت حربهم لنا لتؤدى إلى انهزام جيش عظيم كجيشنا بهذه السهولة فينقلب رأسا على عقب ، ولو أطاع رجالنا أوامر بكتغدى القائد لما حلت بنا هذه الهزيمة ، ولكن رجالنا لم يطيعوا أوامره ، وعمل كل ٤٨٥ منهم بهواه ، فإن القادة كانوا عديدين . وحين ساروا من هنا كانوا يراعون الحزم والحيطة ولا يتحركون فى أى منزل إلا بالنظام التام ، فكان القلب والميمنة والميسرة والجناحان وذخيرة الإحتياط والساقة والمقدمة كانت كلها تسير فى نظام تام ، وحين واجهوا خركاهات العدو رأوها خالية إلا من القليلين و عدد الدواب وعدة رعاة ؛ فقال القائد بكتغدى انتبهوا وحافظوا على النظام فإن الأعداء رابضون فى حافة الصحراء وقد أعدوا المكامن وذلك حتى لا يحدث إضطراب فى صفوفنا ، ولا تحركوا ساكنا حتى تذهب طليعتنا ونعرف جلية الأمر. ولكن رجالنا لم يذعنوا لأمره ، فإنهم بعد تحرك الطليعة انقضوا على هذه الخركاهات والخيام والدواب الهزيلة وقتلوا كثيرا من التركمان من شتى الأصناف ،وهذا هو الخبر الأول الذى يقول إن التراكمة قد غلبوا ، فلما رأى القائد الحال على هذا النحو ، وأن الزمام قد أفلت من يده ، اضطر إلى أن يسير بالقلب فاختلط

الحابل بالنابل بين جندنا ، واختل نظام التعبئة ، وخاصة حين بلغوا تلك القرية التى كانت فيها مكامن العدو ، وحيث كان متأهبا للحرب فتقدم ، وكان الخواجه حسين ممتطيا الفيل ، ودارت رحى حرب شعواء ، أعمل فيها العدو الحيل وأبلى بلاء حسنا ، ولم يحدث ما كان يتوقع جندنا من أن العدو سيولى فرارا من أول حملة ، وكان اليوم شديد القيظ واشتعلت الرمضاء وجفت شفاه الجند والدواب من العطش ، وكان من ورائنا ماء ، فأشار نفر من القادة الأعزاء بأن يتراجع الجيش رويدا رويدا بالكر والفر حتى يصل إلى الماء وفاتهم أن ذلك التراجع هو أشبه بالهزيمة ، ولم يستطع صغار الجند أن يفهموا السبب فيه ، فولوا مدبرين بغير أمر القائد . أما الأعداء فإنهم حين رأوا ذلك ظنوا أن جيشنا قد هزم فخرجوا من مكامنهم ، وجدوا فى الحرب ، وحار القائد بكتغدى فى أمره؛ كيف يستطيع السيطرة على الموقف ، جسم ضعيف ، مبتور الساق واليد ، يركب أنثى الفيل ، وجيشه قد ركب رأسه . أما الأعداء فقداقتحموا المعركة فى قوة؛ واستفحل أمرهم فلما أحدق الأعداء بالفيل . أنزل الغلمان بكتغدى من عليه وحملوه وهم يجادلون عنه وإلا لوقع أسيرا . وأى ماء وأى منزل هناك ! لم يستطع أحد أن ينجى أحدا ، كان لكل منهم شأن يغنيه ، واستولى أعداؤنا على ما كان لنا من المال الكثير ووافر العدد وأسباب القتال . وتفرق جندنا ٤٨٦ أيدى سبا ؛ وكنا هناك صديقين ؛ وقد أمنا بعد عودة التركمان من تعقب رجالنا ؛ وسرنا طول الليل ؛ وها قد جئنا ولم يصل أحد قبلنا ؛ وقد ذكرنا ما حدث فعلا وكان صاحب ديوان الرسائل قد عيننا وثمانية من أصدقائنا مع هذا الجيش لنقل الأخبار ، ولسنا ندرى ماذا كان من أمر أصحابنا وأين رسا بهم المطاف ، وإذا قيل لكم خلاف هذا فلا تستمعوا إليه فليس لنا من عمل مع الجيش سوى الوقوف على الأخبار ، وإنه لمن المؤسف أن ينهار جيش بهذه العظمة والعدة بسبب اختلاف رؤسائه ولكنه قضاء الله .

فلما سمع الأعيان والمقدمون هذا القول حزنوا حزنا شديدا لفقد جيش كبير كهذا بهذه السهولة . وقد أملى علىّ الأستاذ أبو نصر ما سمع فكتبته ، وقد جلس السلطان بعد الصلاة لاستقبال الأعيان فجلسوا وظلت هذه الخلوة حتى صلاة المغرب . وقد قرأ السلطان الخبر ودار الحديث طويلا ثم إن الوزير قال يطيب خاطر مولاه : « هذه مشيئة الله وهذا هو حال الدنيا وكثيرا ما هزمت الجيوش الجرارة والله يحفظ السلطان ليتـــدارك بحكمته كل شيء » . وقال العارض إن سبب هذه الهزيمة ، بعد قضاء الله عز وجل تخاذل قادة الجيش . وتحدث كل على هذا النحو ، تارة فى لطف وتارة فى خشونة . فلما عادوا قال الوزير لأبى نصر لقد كنت شديد الصمت ولم تتكلم فلما تكلمت انطلق حجر المنجانيق إلى بيت من زجاج . فقال : « ما حيلتى فإنى رجل صريح اللهجة ولا أغالب غضبى ، ثم إن هذا السلطان لم يستمع إلى حديثى وأنا أخبره بما قلت حتى وقعت كارثة بهذه الجسامة ، لن تذهب مرارة هذا من نفسى ما حييت ، ولم أتعود أن أرى مهزلة كهذه فى هذه الدولة الكبيرة ، ولذا فإنى أقول لمولاى الأستاذ الرئيس وللآخرين إنهم كانوا يطيبون خاطر السلطان مراعاة لشعوره حتى لا يحرج على حرجه ، فكنت أهز رأسى بالموافقة وأقول نعم ، ولم يكن من ذلك بد ، وقد ألح علىّ السلطان وبالغ فى إلحاحه ماذا تقول يا أبانصر ، ولكم ٤٨٧ عملت ولكم قلت الحق ولكم بذلت النصح عسى أن يرجع عن استبداده ويحسن الاستماع لما فيه صالح الأمور » . فقالوا جميعا لأبى نصر جزاك الله خيرا لقد أحسنت القول وإنك لتقول الحق ، ثم انصرفوا .

وقد سألت الأستاذ أبا نصر ماذا كان الحديث الذى دار والذى أرعب الناس على هذا النحو ؟ قال : « كانوا يخادعون السلطان ويهونون عليه ما وقع من مصيبة كما هو الرسم فى مثل هذا الموقف وأما أنا فلم أنبس ببنت شفة ، وكنت أتميز غيظا ، وكان السلطان ينكر علىّ ذلك فقلت أطال الله حياة مولاى

إنه ولو أن الحرب ليست صناعتى ومع أنى لم أتكلم وقت تسيير الجيش ولا الآن وقد وقعت الواقعة ، ولكن إلحاح السلطان علىّ يحملنى على التكلم ، فإن الصمت بعد هذا إساءة للأدب ، إن قلبي يا مولاى ملىء بالزحير ويا ليتنى مت قبل هذا فلم أر ما نحن فيه اليوم . قال السلطان يجب أن نتحدث فى صراحة فإنا لا نشك فى صدق نواياك . قلت أطال الله عمر مولاى ينبغى أن تقتصد قليلا فى اللهو والطرب وأن تشرف بنفسك على الجيش وأن تطرح التوفير الذى يقترحه العارض ظنا منه بأنه يؤدى خدمة للسلطان ، وأن تستميل الجند وأن تراعى جانب الناس فإن السلطان الماضى حصل على الأموال الكثيرة بمعونة الأكفاء من الرجال ، وإذا لم يراع جانب الشعب والعياذ بالله فإنه يثور ويستحوذ على الأموال ، ويخشى حينئذ من حدوث شتى الفتن ، وإنى على يقين أن مولاى لا يرضى بهذا الحديث لأن الحق مر ، ولكن لا بد من قوله ، والمخلصون لا يمسكون عن إبداء النصح بأية حال . فقال السلطان « إن الأمر لكما تقول وإن إخلاصك لا شك فيه عندنا » ودار الحديث فى كل شيء وتقرر إيفاد رسول فقد كان لزاما إيفاده من قبل لمنع مثل هذا الحرج وإنى لا أستطيع استجلاء حقيقة هذا الأمر ولست أدرى ماذا تكون العاقبة والله ولى الكفاية بمنه » .

* * *

ويوم السبت لستة أيام بقين من شعبان جاءت رسالة من غزنة بوفاة أبى القاسم على النوكى رحمة الله عليه ، وهو والد الخواجه أبى نصر مشرف[488] المملكة اليوم فى عهد السلطان المعظم ابراهيم بن ناصر دين الله مسعود رضى الله عنهم ، وكان السلطان قد فوض فى هاتين السنتين إدارة البريد التى كان يرأسها أبو القاسم إلى حسين بن عبد الله الكاتب كما فوض منصب الإشراف على غزنة

لأبى القاسم بدله ، لا نتيجة لخيانة بدت ولكن لأن حسينا طلب عمل البريد ، وكان ابن صاحب ديوان الرسائل فى عهد السلطان محمود رضى الله عنه ، وقد شغل منصب الوزارة فى هراة لهذا السلطان أيام حياة أبيه (حين كان السلطان مسعود أميرا) ولذلك استحيا مسعود من عدم الاستجابة إليه ، وفوض إليه منصب صاحب البريد كما جعل الإشراف وهو أكثر أهمية لأبى القاسم .

ولم أر بدا من بيان هذه الأمور وفاء منى بحق عظماء وشيوخ هذه الأسرة الكبيرة ، وعملا بما لهم على من حق الصداقة .

* * *

ثم إن المنهزمين من رجالنا أخذوا يفدون عن كل طريق ، وقد امتلأت قلوبهم حسرة وهم فى خجل مما جرى ، فأمر السلطان بالعطف عليهم وحمل ما كان على أنه قضاء وقدر . وقد عاتب مقدميهم عتابا شديدا لمخالفتهم أوامر السالارية فاعتذروا عن ذلك ، وسمعت من نوشتكين ولوالجى الحاجب أنه كان يقول فى حضرة الخواجه أبى نصر إنه قد زيد له وحده ألف ألف درهم مرتين ، وجاء السالار بكتغدى كذلك وقابل السلطان فى الحال ، وتحدث إليه وقال لو أن المقدمين لم يعصوا الأوامر لاستطعت أن أهزم تركستان كلها بهذا الجيش . فقال السلطان رضى الله عنه لقد ثبت لنا من هذا أن خدماتك ونصائحك لا شك فيها ، وأقبل غلمان السراى منهزمين محطمين وكان معظمهم من الفرسان .

وكانت هذه أول هزيمة جدية وقعت على هذا السلطان ، وتوالت الهزائم بعدها وهنا على وهن حتى لقى الشهادة وترك هذه الدنيا الخداعة بآلامها وظلمها ، كما سأبين فى محله إن شاء الله عز وجل . وكيف يغالب القضاء إذا

حل ، فقد قدر فى الغيب أن يصل السلاجقة إلى هذا الحال ، يفعل الله ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

وتقوم الدولة دائما على الاتفاقات السعيدة ولا بد من قراءة الكتب ونوادر السمر والأخبار ، فإن العجائب والنوادر كثيرة ، وكذلك كانت ، وذلك حتى لا تترى الافتراءات على هذا السلطان الطيب قلبه وتصفه بالعجز . ٤٨٩ ولو أنه كان شديد الاستبداد وأخطأ كثيرا فى تدبير ملكه ولكن هذا كله كان بقضاء الله ، فإن أحدا من الخلق لا يريد شرا بنفسه . وبعد هذه الواقعة كان لا يتحدث إلا عنها ، وكان يضيق بأبى فتح الرازى العارض ويراعى جانب الجند وينظر شؤونهم ، وخاصة من كان قد حارب منهم ، فقد كان أكثرهم قد فقد عدته ودابته .

وأقبل شهر رمضان وبدءوا الصوم ، وجاءت الكتب من هؤلاء المنهين الذين كانوا يختفون فى نسا ، قالوا فيها ، إن كثيرا من الآلات والنعم والدواب والذهب والفضة والألبسة والسلاح والعدد قد وقع فى يد التركمان حتى أنهم تحيروا فى أمرها وكأنهم لا يصدقون أن هذا كله قد حدث . وحين أمنوا عقدوا مجلسا ، وجلس الأعيان والمقدمون والشيوخ فى خركاه وأخذوا يتشاورون . وقالوا إننا قد ظفرنا بهذا كله دون تفكر أو تمهيد ، وإن من المحال الوقوف عند هذا الحد ، ولسنا نحن الذين غلبنا هذا الجيش العظيم ، ولم يتجاوز الأمر أننا حافظنا على أنفسنا وأنهم لم يحسنوا تدبير أمرهم . وقد أراد الله سبحانه وتعالى وقوع هذا حتى لا نذهب هباء دفعة واحدة ، فغنمنا بغير قصد كل هذه الآلات وكنا فقراء فأصبحنا بفضل الله أغنياء ، والسلطان مسعود ملك عظيم وليس له فى بلاد المسلمين نظير ، وقد حلت الهزيمة بجيشه لسوء التدبير وضعف القيادة ولكن له جندا وقادة كثيرين فعلينا أن لا نغتر بنصرنا ، وعلينا

أن نوفد إليه رسولا يتحدث إليه عن ولائنا له ويلتمس العذر ويبين أن رأينا هو دائما ما كنا عليه من قبل . وإنه لم يكن لنا من حيلة سوى المقاومة حين قصد الجند بيوتنا ومتاعنا . ولنرى ماسيكون جوابه حتى نستطيع أن نتبين طريقنا بعد ذلك .

فلما وقف السلطان على هذه الكتب هدأ روعه بعض الشيء وحدث الوزير عما يرى فيها فى خلوة . ولكن الوزير قال له ، بعد أن سمع رأيه ، أن ليس هذا بتدبير صالح ، أن ننتظر حتى نرى مايفعلون . فليس بجائز أبداً أن نتحدث إليهم بغير السيف ، وقد كان من الخطل إرسال الجند إليهم ، وشاهدى على هذا أبو نصر فإنى كنت حدثته به ، ولكن إذ كان مولاى ضيق الصدر ، ٤٩٠ وكان كل رجل يتحدث عن غير رؤية ، فلم يكن بد من السكوت حتى نرى مايجد من الأمر .

وعلى أثر هذه الكتب أقبل رسول السلاجقة على حضرة السلطان ، وهو شيخ من علماء بخارى كان حسن الحديث وقد تقدم برسالة إلى الأستاذ الرئيس تعرب عن ندم السلاجقة ، وهى تنم عن تواضع شديد ، وقد استطردت تقول: «وقد أخطأنا فى اختيار سورى للوساطة والشفاعة عند السلطان فإنه متهور ولا يرعى المصلحة فى عواقب الأمور وانتهى الأمر إلى أن سير السلطان إلينا جيشاً ، ومعاذ الله ما كنا نجرؤ على امتشاق الحسام فى وجه الجيش المنصور ، لولا أنهم انقضوا على دورنا كما تنقض الذئاب على الحملان ، واعتدوا على نسائنا وأطفالنا ، مع أنا كنا حاصلين على الأمان ، فلم نجد بدا من أن ندافع عن أنفسنا ، والنفس عزيزة ، وإنا نؤكد ما ذكرنا أول الأمر ، وكل ما حدث لم يكن إلا من قبيل عين حاسدة أصابت الجيش المنصور على الرغم منا . ولما كان للأستاذ الرئيس سابقة معرفتنا فى خوارزم أثناء حكم خوارزمشاه

التونتاش ، وله بنا صلة أكل الخبز والملح معاً لجدير به أن يتفضل بالوساطة والشفاعة لنا عند السلطان ، فيستعطف قلبه ليحنو علينا ، ويقبل أعذارنا ، ويعيد رسولنا موفقاً مكرماً لتطمئن بذلك قلوبنا ، وأفضل من هذا أن يوفد الأستاذ الرئيس إلينا أحد ثقاته مع هذا الرسول ليسمع أقوالنا ويتأكد من عبوديتنا وإخلاصنا وبأنا لانبغى غير السلم » .

وقرأ الأستاذ الرئيس الرسالة ، واستمع إلى ما أدلى به رسول السلاجقة، الذى زاد على ماجاء بها ، ثم أمر الوزير باستضافة الرسول . وذهب إلى السلطان فاختلى به وقصّ عليه ماجرى ، ثم أقبل الأعيان . لم يكره السلطان توسل السلاجقة إليه ، وتقرر إيفاد القاضى أبى نصر الصينى مع الفقيه البخارى هذا (رسول السلاجقة) كى يستمع عن كثب إلى مايقول أعيان التركمان ، حتى إذا ثبت لديه أنهم لا يضمرون شراً وأنهم يسلكون الطريق المستقيم يطلب إليهم أن يوفدوا معه الرسل ، فيبدأ الحديث فى وضوح وجلاء وتوضع الأمور فى نصابها وتطمئن القلوب . وعادوا جميعاً من حضرة السلطان وهم على هذا الرأى .

ثم اختلى الوزير وصاحب ديوان الرسائل وكانا يريان أنهما قد بذلا جهداً كبيراً فى استعطاف قلب السلطان حتى قبل اعتذار السلاجقة وأن الفقيه البخارى رسول هؤلاء هو من ٤٩١ أكبر ثقاتهم فينبغى أن يعاد بالحسنى حتى تصلح الأحوال التى ساءت .

ولا بد لى من ذكر شىء عن الصينى هذا تكملة للتاريخ فقد كان من دهاة الرجال ، وكان يجمع إلى قليل من الفضل ، حسن التدبير والحيلة والمكر . وكان أبوه مؤدبا للسلطان محمود أيام طفولته وقد حفظه القرآن . وكان

السلطان العادل رحمه الله يأتم به فى الصلاة ، ثم نقم عليه لسوء خلقه ، فذهب إلى تركستان ونزل فى أوزكند حيث آواه الإيلك رحمه الله . ولما عرف السلطان محمود ذلك اختاره سرا لينهى إليه أخبار تلك النواحى، فأفاد منه كثيرا ، ولهذين السببين تهيأت لأبى نصر الصينى منزلة قوية . وفى أواخر عهد السلطان الماضى فوّض إليه منصب الإشراف على البلاط فقام بعمله على خير وجه ، وقد أبقاه السلطان مسعود فى منصبه فى أوائل عهده ، ولكنه عاد فغضب عليه لكثرة وساطاته وتدخله فيما لا يعنيه ، فأسند عمله فى الديوان إلى أبى سعيد المشرف ، ونصبه زعيما على طالقان ومرو ، فأرسل ولده نائبا عنه فى تلك الجهات ، أما هو فكان يصاحبنا فى كل الأسفار وانتهى أمره بأن بعثه أبو سهل الزوزنى معتقلا إلى أحدى قلاع الهند فى عهد السلطان مودود ، ذلك لأن الزوزنى كان يبغضه فدبر له من المكائد ما أدى لإبعاده وسجنه إلى أن مات هناك . وكثرت أحاديث الناس عن هذا الموت ؛ فذكروا الفقاع والشراب والكباب والخصى المشوية ، والله تعالى أعلم بالحقيقة . ولم يبق من هذه الأسرة أحد وسوف تقوم القيامة ويقوم الحساب الحق ويجرى القضاء العادل وستظهر فضائح كثيرة كانت تحت الأرض ؛ فليمن الله سبحانه وتعالى علينا بالصلاح ، بمحمد وآله أجمعين .

مهما يكن فإن السلطان مسعود قد منح القاضى الصينى فاخر الصلات واستقبله قبل الرحلة وتحدث إليه بشأن سفارته بحضور الوزير وصاحب ديوان الرسائل . ثم عاد وأخذ يستعد للسفر . وكذلك قدمت للفقيه البخارى الصلات ، ودعاه الوزير وتكلم معه عما يجب عن الرسالة التى جاء بها .

وسار الرسولان من نيسابور يوم الخميس الثانى من رمضان وقد لبث أبو نصر الصينى ٤٩٢ مدة هناك ، وعاد القاصدون الذين كانوا قد صحبوه يحملون الكتب التى تحوى ما دار بين الفريقين من أحاديث . وصدرت

الأجوبة عما يجب البت فيه . وعاد الصينى إلى نيسابور يوم الأربعاء لعشرة بقين من شوال ، يصحبه ثلاثة رسل من قبل مقدمى التركمان ، أحدهم عن بيغو والثانى عن طغرل والثالث عن داود ، ومعهم الفقيه البخارى . وفى غداة وصولهم ذهبوا إلى ديوان الوزارة وطال الكلام هناك حتى صلاة العصر ، وكانت المفاوضات تروح وتغدو بينهم وبين السلطان ثم استقر الرأى فى النهاية على أنه تعطى لهؤلاء المقدمين الثلاثة ولايات نسا وفراوه ودهستان ، وعلى أن يرسل لكل منهم خلعة ومنشور ولواء . وتقرر أن يذهب أبو نصر الصينى ليسلمهم إياها بنفسه، وأن يأخذ عليهم الميثاق بالوفاء بالعهد مع السلطان ، وعلى أن يقتصروا على هذه الولايات الثلاث ، ثم إنه بعد أن يصل السلطان بلخ ويطمئنوا إلى عطفه ، يأتى أحد هؤلاء الثلاثة إلى الدركاه ليكون فى خدمة السلطان . وقد أكرم الموكل بالضيافة وفادة هؤلاء الرسل ، وكتب أستاذى نسخ المنشورات ثم حررتها، وقد كتبت دهستان باسم داود ونسا باسم طغرل وفراوه باسم بيغو ، ثم وقعها السلطان ووجهت إليهم رسائل منه ، خوطبوا فيها بلقب « الدهقان » وأعدت لهم ثلاث خلع كما هو الرسم فى خلع الولاة ، تشتمل الواحدة على قلنسوة ذات ركنين ولواء وحلة مطرزة برسمنا وجواد وسرج وكمر من ذهب برسم التركمان وثلاثين ثوبا غير مخيطة لكل واحد منهم .

وجىء بالرسل فى الغداة ، وأمروا لهم بالصلات . ويوم الجمعة لثمان بقين من شوال ، غادر الصينى وهؤلاء الرسل نيسابور إلى نسا . وهدأ بال السلطان قليلا وأخذ فى الشراب والطرب لأنه لم يشرب منذ أمد طويل .

وفى هذا الأسبوع جاءت رسائل من السپهسالار على عبد الله وأبى القاسم حاتمك صاحب بريد بلخ تقول إن أبناء على تكين حين علموا أن السالار بكتغدى وجيوشنا قد عادوا منهزمين من نسا ، عزموا على معاودة الكرة

والإغارة على نواحى صغانيان وترمذ ، وكانوا قد ابتعدوا ثلاثة منازل عن ٤٩٣ سمرقند حين بلغهم أن أبا القاسم والى صغانيان قد عبأ رجالا كثيرين فى كنج[1] وأن الكنجيين والسپهسالار على قد جاءوا إلى بلخ مع جيش عظيم وأن هذا قد عزم على عبور جيحون ، فعادوا وأفسدوا هذا التدبير .

وقد أجيب على هذه الرسائل بأن أمر التركمان السلاجقة الذين كانوا فى نسا قد استقر ، وأنهم دانوا لنا بالولاء ، واعترفوا بأن ماحدث من تقهقر بكتغدى لم يكن بفضل شجاعتهم، وأنهم قد أثيبوا بالولاية عندما كسبوا حسن رأينا فيهم، وأنهم قد هدءوا وأن واحدا من مقدميهم سيأتى للخدمة فى الدركاه . وقد أقمنا فى نيسابور فترة إلى أن يصل رسولنا ، وقد اقترب المهرجان ، وسنأتى إلى بلخ عن طريق هراة كى نمضى الشتاء بها ، وحينئذ نرد على هذا التهور الذى وقع فيه أبناء على تكين .

وصادف عيد المهرجان يوم الجمعة سادس عشر ذى القعدة ، فجلس السلطان رضى الله عنه صباحاً للمعايدة ولكنه لم يشرب ، وقدمت الهدايا والتحف بمناسبة العيد على خير وجه .

وعاد الصينى من عند السلاجقة واختلى بالوزير وبصاحب ديوان الرسائل وقال لهما : « لايجوز خداع السلطان فقد وجدت القوم فى رحلتى هذه على غاية من الغرور والخيلاء ، وكانوا كأنهم نفخ فيهم روح العصيان ، ومع أنهم عقدوا الميثاق إلا أنى لا أثق بما عاهدونى عليه ، فقد سمعت أنهم كانوا يسخرون منا إذا خلوا إلى أنفسهم ويدوسون القلنسوات ذوات الركنين بأقدامهم ، فينبغى

---

(١) جاء فى نسخة فى — فياض (حاشية ٣) أن هذه الكلمة تكررت ، وأنه جاء فى حاشية ب : كنج أصلها كنجت وهى من رساتيق صغانيان :

ألا يســـير السلطان إلى هراة حتى لاتحدث فتنة ولعمرى لقد أبرأت ذمتى بما قلت » .

فقال الوزير إنك تريد المستحيل فإنهم قد حملوا سرادق السلطان إلى الخارج وهو عازم على الرحيل غدا ، ولكن الواجب يقتضينا أن نبين هذه الأمور . فإذا كان مصمما على السفر فليأمر بإبقاء جيش كبير هنا على سبيل الحيطة .

وأوفد الوزير الأستاذ أبا نصر ليحدث السلطان فى هذا فقابله وأفضى بالأمر إليه ، فأجابه السلطان بلا ، وبأنا سوف نأمر بتأديب هؤلاء إذا بغوا فى الأرض فسادا ، لأنا لانود المقام هنا أكثر من هذا ، وقد أصبح أمر العلف عسيرا للغاية ، ويجب أن يبقى قدر الحاجب مع ألف فارس وآخرين فى نيسابور ، وأن يبقى معه سورى صاحب الديوان ومعه كثير من الرجال ، وفى سرخس جيش كامل وكذلك فى قاين وسوف نحشد فوجاً قوياً فى هراة . ويجب ٤٩٤ أن ينبه على الجميع ليكونوا على استعداد لتنفيذ أوامر صاحب الديوان حتى يلحقوا به فورا إذا دعت الحاجة . وسنوالى فى بلخ قراءة أخبار المنهين ونأمر بما ينبغى ، لاسيما والمسافة ليست بعيدة ، وعلى الوزير إتمام أمرنا اليوم فإنا غدا راحلون لامحالة .

فعاد أبو نصر وأخبر الوزير بما سمعه ، فقاموا بما عليهم . وغادر السلطان رضى الله عنه نيسابور يوم الأحد التاسع عشر من ذى القعدة وبلغ هراة فى نهاية هذا الشهر . ثم سار منها يوم الأحد لست خلت من ذى الحجة ميمما شطر بون وبغ [1] وباد غيس ، وكان طوال الطريق ثملا مسروراً يقضى جل

---

(١) بون مدينة قديمة بين هراة وبغشور ، وبغ هى بغشور وينسب اليها بغوى على خلاف الفيزابى . غنى — فياض حاشية ٤ ونفيسى ص ٦٠٠ هامش ٨ .

وقته فى الشراب واللهو والقنص . وتقدم إليه فى مرو الرود ، السالار تلك الهندى ، فأدى فروض الطاعة وكان قد عاد مظفرا من حرب أحمد ينالتكين العاصى المغرور ؛ وكان معه جيش تام الأهبة عليه كثير من المقدمين ومعه الراية والمظلة وفى صحبته تلك الهندى ، وكان معه رجل آخر اسمه تلك أيضاً ؛ وقد شمله السلطان بعطفه وتلطف معه وأحاطه برعايته ، كما أسبغ عطفه على مقدمى الهنود . ووقف السلطان على ربوة هناك لاستعراض الجيش الهندى ، فسار الجند أمامه فرساناً ورجّالة فى هدوء وهم فى أهبة كاملة ، وقد سار فى العرض خمسة وخمسون من الفيلة التى أخذوها خراجا من مكران ، وقد أعجب السلطان بهذا الجيش أيما إعجاب . وقال للأستاذ أبى نصر عندما بلغ حدود جوزجان إن مسعود بن محمد الليث قد صار شابا وقد أدى خدمات جليلة فى الرى ، ولما آنسناه فيه من الثقة بعد ماقام به من الأعمال التى كلف بها ، يجب أن يعمل بديوان الرسائل . فقال أبو نصر سمعاً وطاعة وإنه جدير بهذه الرعاية ، ومن ثم ألحقوه بالديوان .

سنة سبع وعشرين وأربعمائة

١٠٣٥ — ١٠٣٦

كانت غرة محرم يوم الأحد وقد بلغ السلطان بلخ يوم الأربعاء رابع محرم من هذا العام وكان يوافق اليوم الأول من شهر آذار[1] ، فنزل فى جوسق عبد الأعلى . وانتقل٤٩٥يوم الإثنين ، لتسع خلون من هذا الشهر إلى الحديقة الكبرى حيث نقلوا منازل الخدم والدواوين وكانوا قد نسقوها أحسن تنسيق

---

(١) نوفمبر — ديسمبر

فبدا مكانها رحبا فسيحا بهيجا . وقد اتفق أن وفد والى صغانيان على باخ يوم بلغها السلطان فاستقبلوه استقبالا حافلا وأنزلوه فى مكان يليق به وأعدوا له الضيافة على خير وجه بما يجاوز حد الوصف ، وفى الغداة جاء إلى الحضرة فقابله السلطان ، وشمله بعطفه ورعايته ثم عاد إلى الجوسق الذى أعد لنزوله ، وكان أبو على الموكل بالضيافة يذهب لمقابلته عدة مرات كل يوم ويقدم له كل مرة تحفة وهدية بأمر السلطان .

وقدمت الهدايا الكثيرة التى جاء بها والى صغانيان للسلطان وفيها الخيول الثمينة وغلمان الترك والصقور والفهود وشتى التحف التى عرفت بها تلك البلاد ، فأعجب السلطان بها . وفى الخميس التاسع من محرم أقيمت مأدبة فاخرة ، وأعدت الجنائب وجىء بالوالى وقد لعبوا الصولجان . ثم دعوه إلى المائدة ودارت كئوس الشراب وانتهى اليوم فى مرح وسرور . وفى الأربعاء منتصف المحرم خلع عليه خلعة جليلة مما يخلع على الولاة ، وقد أضافوا إلى خلعته أشياء كثيرة لأن هذا السيد النبيل كان صهرا ، لأنه تزوج من حرة من هذه الأسرة الكريمة . وهذا الوالى لم يزل حتى الآن سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٥٩ - ١٠٦٠) حيا يرزق لكنه قد انحط شأنه ، لأنه لم يحسن تدبير أمره وقد تغلب عليه الأستاذ الرئيس على ميكائيل فى صغانيان . وفيما ذكرناه الكفاية .

وبعد أن لبس والى صغانيان الخلعة قدموه للسلطان فأدى فروض الولاء ، وأسبغ عليه السلطان عطفه ، وقال له لقد احتمل الأمير متاعب جمة من هؤلاء الأغرار أبناء على تكين ، فلما بلغنا ذلك أوفدنا إليه السپهسالار مع الجيوش وجئنا إلى هنا لتلافى هذه الأحوال ، فينبغى أن تعود بالتوفيق إلى بلادك وأن تجمع رجالك من حولك حتى يأتى قائد عظيم مع جيش كبير من قبلنا ، فيعبر جيحون ويتعاون معك على القضاء على هذه الشرذمة المتهورة الباغية . فأجاب

الوالى : سأفعل . وأدى فروض الطاعة والولاء مرة أخرى ثم انصرف . وقد أجلسوه فى إيوان بالحديقة ، وحضر إليه الوزير وصاحب ديوان الرسائل وجددا معه عهد السلطان وحلفاه يمينا جديدة ثم رجعا . أما هو فركب بعد صلاة العصر ميمما شطر صغانيان ويوم الأحد ٤٩٦ لأربعة أيام بقيت من المحرم ذهب السلطان للصيد إلى دره‌گز ، يصحبه الخاصة والمطربون والندماء . وفى الأحد ، الثالث من صفر ، جاء إلى الحديقة الكبرى . وفى الغداة جاء رسول من قبل أبناء على تكين اسمه موسى تكين ولقبه أوكا وبصحبته فقيه من سمرقند ، فأنزلهما الموكل بالضيافة فى مكان لائق بالمدينة ، وبعد أن استراحا ثلاثة أيام قدما للسلطان ، فلم يتحدث إليهما لأنه كان ناقما على من أرسلوهما . وسألهما الوزير كيف خلفتما الأمراء ؟ فلم يستطع أوكا الكلام وبادر الفقيه قائلا ، وكان فصيحا ، لقد أوفدنا إلى الحضرة لتقديم الاعتذار وحقيق بالسلطان أن يتنازل بالقبول ، لأن أمراءنا لا يزالون فى ريعان الشباب وقد افتتنوا بمكر الماكرين . فأجاب الأستاذ الرئيس بأن الأعمال بالنيات . ثم ذهبا إلى الإيوان واختلى السلطان بالوزير وبصاحب ديوان الرسائل للتشاور فى هذا الشأن . قال الوزير أطال الله حياة مولانا إن خراسان والرى وجرجان وطبرستان كلها ثائرة ، وقد استدعيتم أبا الحسن عبد الجليل مع جيشه من جرجان ، وأبرمت شبه مواثيق مع الجرجانيين ، وكان من الصواب أن يعود أبو الحسن بحجة ما ، وأما أبناء على تكين هؤلاء . فإنهم نصف أعداء والأولى أن نجاملهم حتى لا يصبحوا أعداء حقا ، وأرى من الأصلح قبول اعتذارهم ، وإقرار عهد معهم ، كما كان الحال مع والدهم . فقال السلطان حسنا ، إذهب إلى الإيوان وأنجز هذا العمل . وجلس الأستاذ الرئيس والأستاذ أبو نصر فى الإيوان وأمعنا النظر فى كتاب أبناء على تكين ، وكان منطويا على كثير من عبارات التواضع والاعتذار ، لا سيما عن واقعة ترمذ وحديث الصغانيين ويقول الكتاب

إن ما وقع كان عن خطأ ، وإن من غرر بنا قد لقى جزاءه ، فإذا رأى السلطان الأعظم فليغفر لنا ما مضى ليتجدد بذلك الود الموروث .

وجرت الأحاديث على هذا النحو ، ثم ذهب أبو نصر إلى السلطان وأحاطه خبراً بذلك كله ، وعاد بالأجوبة الطيبة المحببة إليهم . وأعاد الموكل بالضيوف الرسولين . وعيّن الوزير مسعدى[1] للسفارة ، وأعدوا له كل ما ينبغى وكتبت الرسالة والمشافهات . وأعطى الرسولان الخلع والصلات ، وذهبوا جميعاً . وتم الصلح وأبرمت العهود والمواثيق لتهدئة الأحوال ، وأشركوا والى صغانيان فى العهد كيلا يراد بسوء .

وفى يوم الأحد العاشر من صفر ، خلع على الوزير خلعة فاخرة . وفى هذا اليوم ٤٩٧ أسند إلى الحاجب سباشى منصب كبير الحجاب وخلع عليه خلعة كاملة من العلم واللواء والطبل والكوس والألبسة وحقائب وخرائط الفضة وغيرها مما يختص بهذا المنصب . وعاد الرجلان العظيمان إلى داريهما وقدمت لهما على أثر ذلك الكثير من الهدايا .

وفى اليوم التالى خلعوا على « تلك » خلعة سالارية جيش الهند وكانت فاخرة للغاية ، فحين مثل فى حضرة السلطان لأداء فروض الولاء أمر السلطان الخازن أن يأتى له بطوق مرصع كان قد أعد من قبل ، فأتوا به فأخذه السلطان وأدنى منه تلك وطوق به عنقه بيده الكريمة . ثم تحدث إليه فى عطف سابغ جزاء الخدمات التى أداها للقضاء على أحمد ينالتكين ، ثم انصرف .

ويوم الأربعاء الرابع عشر من ربيع الأول ، أقيمت مأدبة عظيمة مدت فيها سبع موائد فى الصفة الكبرى ، كما أعدت موائد أخرى فى جميع خمائل الحديقة الكبرى ، وأجلسوا كافة العظماء والموالى والحشم على تلك الموائد ،

---

(١) أبا محمد مسعدى .

ودار الشراب وطال الأنس والاستمتاع ، ثم عاد الجميع ثملين من المـأدبة .
وذهب السلطان من الحديقة إلى المصطبة حيث جلس للشراب . وانتهى اليوم حافلا بالسرور . وخلعوا على أبي الحسن الكاتب العراقي ، يوم الثلاثاء العشرين من هذا الشهر خلعة وكرا من الذهب ليلي سالارية الكرد والعرب كما خلعوا على أخيه أبي سعيد ليكون نائباً عنه وليخلفه في رياسة هذا الفوج وليذهب به إلى خراسان إلى أن يلحق به أخوه .

ويوم الأحد الخامس والعشرين من هـذا الشهر جاءت رسالة من غزنة بنعي أبي المظفر بن الخواجة علي ميكائيل رحمة الله عليه ، وكان قديراً في عمله أثناء نيابته عن أبيه .

وفي هذه الأثناء كانت الرسل والسعاة تتوافد من قبل سوري صاحب ديوان خراسان وأصحاب البريد ، تفيد بأن السلاجقة التركمان وتركمان العراق الذى انضموا إليهم قد أخذوا في إثارة الفتن ، وأنهم يرسلون رجالهم إلى كافة النواحي ، ويخيفون الناس ويسلبون كل ما يجدون ، وأنهم متمادون في الفساد كما جاءت رسالة من بست تفيد بأن جماعة منهم قد جاءوا إلى فراوه وزيركان ونهبوا كثيرا من الأنعام ، وكذلك وصلت رسائل من جوزجان وسرخس بهذا المعنى ، وقد جاء فيها أنه لا بد من اتخاذ إجراء حاسم وإلا ضاعت خراسان . ٤٩٨

فاختلى السلطان رضي الله عنه مع الوزير وأركان الدولة وخاصته ومواليه للمشورة ، واستقر الرأى على أن يسير سباشي كبير الحجاب على رأس عشرة آلاف فارس وخمسة آلاف راجل إلى خراسان ، وأن يرابط أخو أبي الحسن العراقي مع جيش العرب والكرد كله في هراة إلى أن يلحق به أخوه أبو الحسن ، على أن يمتثلوا جميعا لأوامر كبير الحجاب ويعملوا حسب ما تشير به الظروف والأحوال ،

وكلف سورى صاحب ديوان خراسان بإعداد نفقات الجند حتى لا يعوزهم شىء ، ويتسنى بذلك تطهير أرض خراسان من التركمان فى أقرب وقت .

وخرج السلطان يوم الإثنين الرابع عشر من شهر ربيع الآخر إلى الصحراء . فوقف على ربوة بأبهة فائقة ، وكان فى حضرته ولده الأمير مودود والأستاذ الرئيس وجميع أركان الدولة ، وكان الفرسان والرّجالة مجهزين فى كامل أهبتهم ، ووقفت الفيلة المختارة السكرى وعليها السروج والعماريات والمهود ؛ ووقف الجند المعينون للسير إلى خراسان أفواجا متباعدة . وظهر كبير الحجاب سباشى فى زينة بالغة بما أثار إعجاب السلطان ، وكذلك كان أبو الحسن العراقى وسائر المقدمين ، وانتهى الاستعراض بعد صلاة الظهر .

وفى ليلة الغد سار أخو العراقى على رأس جيش الكرد والعرب ، وبعد ثلاثة أيام زحف سباشى بجيشه ، وقد أسندت الكتخدائية وعمل البريد لأبى سعيد الصراف الذى سار وراء الحاجب بعد أن تلقى أوامر السلطان . وقد أشاروا بأنه ينبغى لهذا الجيش العظيم عارض من الثقاة فى شئونه ، على أن يوكل إليه نفقات الجيش وأرزاق جنده ، وأن يكون له الحل والعقد والإثبات والإسقاط ، وذلك حتى يسيّر أمر الجيش فى خراسان إذ ليس فى الوسع الرجوع إلى السلطان فى كل وقت وهم هناك ؛ فوقع الاختيار على أبى سهل أحمد على ، فأرسله أستاذه الخواجة أبو الفتح الرازى العارض إلى الحضرة ، وأثنى عليه الوزير كثيراً ، وأمر السلطان بأن تكتب له الأوامر السلطانية ، وكتبت ، أنا أبو الفضل ، منشوره ، وارتفعت منزلته فى هذه الخدمة . وبعد أن حلت تلك النكبة بكبير الحجاب فى خراسان تهيأت لهذا الرجل منزلة عظيمة وجمع أموالا طائلة وسيأتى ذكر ذلك فيما بعد . لكنه وقع فى أسر التركمان وأذاقوه سوء العذاب ، وصودرت أمواله وأخيرا نال حريته ولحق بالحضرة ، وهو

لايزال حيا وأنا ٤٩٩ أكتب هذا التاريخ ، وهو الآن من أقوى أركان ديوان العرض ولكنه لم يرق عن مرتبة النيابة (لم يبلغ رياسة الديوان) ولذلك فهو مستريح هادىء البال ويمضى حياته على الهامش لايسأل إذا عزل عارض وولى غيره . والعاقل من يسير سيرته ، وقد سار ولحق بكبير الحجاب ورحلوا جميعا إلى خراسان .

ركب السلطان يوم الخميس التاسع من جمادى الأولى للصيد فى مرو الرود ، وفى الإثنين الثالث عشر من هذا الشهر جاء إلى الحديقة الكبرى ، ثم عاد يوم الأربعاء السابع عشر من جمادى الآخر إلى جوسق عبد الأعلى . وفى الغداة سار لصيد الأسود فى ترمذ وقضى فى صيده الموفق سبعة أيام ، ثم عاد إلى الجوسق . وغادر بلخ يوم السبت غرة رجب قاصدا حاضرة ملكه غزنة ، فبلغها يوم الجمعة الحادى والعشرين من هذا الشهر ، ونزل سالما سعيدا فى الجوسق المحمودى القديم فى أفغان شال ، وكان الجوسق المسعودى قد تم إعداده فسار إليه فى ضحى أحد الأيام فتفقده ، واطلع على كل مرافقه ، وعين منازل الموظفين وأوثقة (بيوت) غلمان السراى ، ودواوين الوزير والعارض وصاحب ديوان الرسائل والوكيل . ثم آب إلى الجوسق المحمودى القديم ، وسارع الرجال إلى إنجاز العمل وأخذ كل منهم يعد مكانه وانهمك الفراشون فى فرش السجاد وتعليق الستائر ، ولم ير أحد مثل هذا الجوسق فى أى بلد ولم يشيد ملك مثله . وقد تم تشييده بمعرفة السلطان الذى رسم تخطيطه وأتم هندسته بيديه الكريمتين ، فقد كان رضى الله عنه آية فى مثل هذه الأمور وخاصة الهندسة . وقد استغرق بناء هذا الجوسق أربع سنوات . وعلاوة على ما أنفق عليه من الأموال فإن عمال السخرة الذين اشتركوا فى البناء كانوا أضعاف المأجورين . وقد سمعت عبد الملك النقاش

المهندس يقول فى مجلس السرهنك أبى على الكوتوال : لقد سحات نفقات هذا الجوسق ألف ألف درهم سبع مرات . فقـــال أبو على إنى علمت أنهم سخروا للعمل به عمالا لو دفعت أجورهم لبلغت ضعفى هذا المبلغ ، وقد أشرفت على هذا كله . ولايزال هذا ٥٠٠ الجوسق اليوم قائما رغم ماأصابه من خلل ، تشهد بذلك أبنيته وبساتينه . وقد ظلوا يزيدون فى مبانيه عشرين عاما ، ولـكن خللا قد أصاب بعض أبنيته .

عاش هذا السلطان العظيم وعاشت مبانيه وآثاره سعيدة بسا كنيها ، بحق محمد وآله .

وانتقل السلطان رضى الله عنه يوم الثلاثاء لخمس بقين من شهر رجب إلى هذا القصر الجديد وأقام به . ويوم الإثنين التاسع من شعبان احتفل بختان بعض الأمراء الأنجال وكان يوما مشهودا ، وامتد الحفل والشراب سبعة أيام بلياليها ، وكان السلطان يتنزه فى هذا القصر ورياضه ويشرب طروبا بهذه الأفراح مبتهجا بعيد « كلوخ انداز [1] » فإن شهر رمضان كان قد قرب . ثم أخذوا يستعدون لهذا الشهر وبدأ الصيام يوم الإثنين .

وفى يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان وصلت أخبار سرية جدّ خطيرة من خوارزم ، تفيد بأن هذه النواحى قد رضخت لحكم اسمعيل خندان ، ابن خوارزمشاه آلتونتاش ، وأنهم قبضوا على من اشترك فى اغتيال أخيه من الغلمان وقتلوهم جميعاً على الفور ، وكذلك قتلوا كل من ينتمى إلى الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد كما قتلوا ولده أيضاً ، وأنهم جعلوا الخطبة باسمى أمير المؤمنين وخندان ، وأن الأمور هناك كلها بيد شكر الخادم . وأنهم سدوا جميع الطرق ، وأن الرسل تترى بين خندان والتركمان .

---

(١) عيد كان يحتفل به قبل حلول شهر رمضان .

واغتم السلطان من هذه الأنباء وأمر باعتقال رشيد أخي خندان في غزنة، وأوصى رجاله بألا يتعرضوا بسوء لبنات خوارزمشاه. ويوم الأربعاء احتفل بالعيد احتفالا رائعا، وأجلسوا الموالى والحشم على الموائد وطرب الجميع وشربوا. وفى الأحد الخامس من شوال سار السلطان فى خاصة عسكره إلى زه متصيدا وكان يصحبه الندماء والمطربون، وصادوا كثيرا ثم رجعوا بصيدهم إلى غزنة، حيث قدموا كثيرا منه إلى العظماء والأعيان. ويوم الأحد التاسع عشر من هذا الشهر، انتقل السلطان إلى حديقة صدهزاره.

وفى الأحد التالى، السادس والعشرين، سار أبو الحسن العراقى الكاتب قائد الكرد والعرب إلى هراة عن طريق غور، وهو فى أتم أهبة وقد سبقه إلى خراسان الحاجب سباشي مع جيشه.

٥٠١ وكذلك كانت بلاد الجبل قد ثارت لهذا السبب[1]. وفى السبت ثالث ذى القعدة لبس الأمير مجدود نجل السلطان خلعة إمارة الهند الفاخرة، ليسير إلى لوهور. كانت الخلعة من العظمة مما يليق بالأمراء لاسيما إذا كان ابن سلطان عظيم كمسعود. وقد جعلوا فى خدمته ثلاثة من الحجاب بشعار السواد الخاص بالحجابة، كما صحبه من ديواننا أبو نصر بن أبى القاسم على النوكى ليكون كاتباً له، وسعد سلمان[2] لأعمال الاستيفاء والسرهنگ محمد لأعمال الحل والعقد. وكان مع هذا الأمير الطبل والعلم والكوس والفيل والمهد. وفى الغداة حضر الأمير لمقابلة والده، رضى الله عنهما، بكامل أهبته فى باغ فيروزى، فأدى

---

(١) يرجح غنى – فياض أن جملة قد سقطت هنا وهى الجملة التى تبين السبب. غنى – فياض حاشية ١.

(٢) الظاهر أنه والد الشاعر مسعود. غنى – فياض حاشية ٣.

فروض الولاء والتحية ، فاحتضنه أبوه وقبله ثم ودّعه وصرفه . و بعثوا فى أثره برشيد ، ابن خوارزمشاه ، مقيدا ليسجن فى لوهور .

وفى الخميس ، ثامن ذى القعدة ، جاءت رسالة من الرى مع ثلاثة من الفرسان ، تبشر بانهزام علاء الدولة بن كاكو على يد الجيش المنصور ، وباستتباب الأمن فى نواحى الجبال ، وأن فرسان التركمان الذين كان قد استمالهم إليه من خراسان ، وأغدق عليهم الأموال ، قد أقلوا راجعين من حيث أتوا عن طريق طبس .

فسرّ السلطان بهذه البشرى ، ودقت الطبول ونفخ فى الأبواق ، وخلع على المبشرين ، وأعيدوا بعد ما أغدق عليهم النعم . وكتبت الأجوبة شاكرة لعميد العراق أبى سهل الحمدوى والسپهسالار تاش ، وجاء فى هذه الكتب أن راية السلطان ستسير إلى بست ومنها إلى هراة لتدبير الأحوال بها . ورجع المبشرون ، ولا أتناول هذه الحروب بالحديث تجنباً للإطالة . وسأفرد باباً خاصاً لكل ماجرى فى الرى والجبال منذ سار الحمدوى حتى رجع منها إلى نيسابور ، وضاعت من يدنا تلك البلاد .

وقد وافق عيد المهرجان يوم السبت الرابع والعشرين من ذى القعدة ، فجلس السلطان رضى الله عنه للاحتفال فى البهو المقابل للجوسق الجديد ، فإن العرش الذهبى والتاج وقاعة العرش لم تكن قد تمت بعد ، وكان الصاغة يجدون فى إنجازها . وقد تمت بعد فترة مديدة ، وسأذكرها فى موضعها إن شاء الله .

وتقدم الأمراء الأنجال والموالى والحشم بالهدايا ٥٠٢ والنثار ثم عادوا . وقد أجلسوهم حسب مراتبهم ، كل فى مكانه ، إلى يمين ويسار ذلك البهو الكبير .

وجاءت هدايا كثيرة منها ما هو من قبل والى صغانيان ثم هدايا باكاليجار والى جرجان ، لأن السلطان بعــد أن عاد أبو الحسن عبد الجليل من جرجان ، واضطربت أحوال خراسان رأى من الأصلح أن يتودد إلى باكاليجار ليستميله إليه ثانية ، فجاء من لدنه رسول ، وسار إليه من الحضرة رسول ، وعقدت معه عهود جديدة ، ورغم أن هذا الرجل كان شديد التألم والحسرة من الضربات والمتاعب التى أصابته من السلطان ، فإنه أخلد إلى السكينة وهدأت نفسه فلم يصدر عنه شر أو فساد . وأمضى السلطان طول الوقت فى النظر فى شؤون والى مكران وسورى صاحب ديوان خراسان وبقية عمال البلاد ، ثم قام وذهب إلى السراى الصغيرة الخاصة به حيث أبدل ثيابه وسار إلى البيت الشتوى ، إلى القبة ، الواقع إلى يسار بهو الاستقبال. ولم ير أحد بيتين ، أولهما : الواقع ناحية اليمين ، شتوى ، وثانيهما ، الواقع ناحية الشمال ، صيفى ، كهذين البيتين ، روعة وبهاء ، وهما باقيان للآن شاهدى عدل على قولى. أبقاهما الله ، فليذهب لرؤيتهما من يشاء . وقد زينوا هذين القصرين بأبهى الزينات كما وضعوا فيهما تنورا يصعد إليه الفراشون بالسلالم ليلقوا فيه بالحطب ، ولا يزال هذا التنور قائما ، ثم يشعلون النار فيه . وقد أتى غلمان الموكل بالمائدة وفى أيديهم الأسياخ وقد علق بها الدجاج والخصى والبيض المسلوق وكل ما يلزم الملوك فى عيد المهرجان من المحمرات ، واجتمع أعيان الدولة فى المجلس وجلس الندماء كذلك وبادروا جميعا إلى اللهو والطرب ، وكانوا يتناولون الطعام على طريقة الاستلات [1] ، ودارت أقداح الشراب بكثرة ، كما عزفت القيثارة ٥٠٣ وآلات الطرب وأخذ المطربون فى الغناء ، فكان يوما عظيما يليق بملك كهذا . بيد أن الوزير لم يتناول شرابا ، وانصرف بعد دورين منه ، وظل السلطان فى المجلس

---

(١) استلات القصعة مسحها بيده ، وفى الصحاح السلاتة ما يؤخذ بالإصبع من جوانب القصعة لتنظف .

حتى صلاة الظهر إلى أن عاد الندماء الذين لم يكونوا ملحقين بالبلاط ، ثم مضى إلى بهو النواب القريب من الحديقة . وكانوا قد أعدوا به مجلسا سلطانيا حضره خاصة الندماء والمطربين ، وظل السلطان به حتى صلاة العصر ثم عاد .

وكان اليوم التالى لعيد المهرجان يوافق يوم الإثنين التاسع من ذى الحجة ، وفى غداته احتفلوا بعيد النحر ، وجاء السلطان فى ذلك اليوم إلى القلعة الخضراء المطلة على الميدان إزاء مرج شابهار ، وأدى صلاة العيد ثم نحرت الأضحيات ، ونزل السلطان من الخضراء وجلس فى البهو الكبير حيث أعدت المائدة ، وأجلس إليها الموالى والكبراء والحشم ، ودارت عليهم كؤوس الشراب ثم انصرفوا عائدين .

وفى الغداة أذن السلطان بالاستقبال ، ثم اختلى بالوزير وأركان الدولة ، وبعد تبادل الرأى طويلا تقرر أن يسير السلطان إلى جانب بست على أن يكون الوزير بصحبته ، حتى إذا دعت الحاجة سارت الرايات السلطانية صوب هراة وإلا فيكتفى بإرسال الوزير . وقد أمر السلطان نجله الأمير مودود والسپهسالار على عبد الله بالسير على رأس رجاله ومعهما جيش قوى إلى بلخ ، وبأن يرابطا هنالك حتى تشحن خراسان بالعظماء والحشم . وعادوا جميعاً وأعدوا العدة . وفى الغداة امتطى السلطان الفيل ووقف مع خاصته فى مرج شابهار حيث جاء ولده العزيز مع السپهسار بجيشهما الجرار ، وسارا للعرض أمام السلطان . وبعد أن أديا مراسم التحية ومعهما المقدمون ، استأذنا وسارا إلى بلخ ، وكان قد خلع عليهما قبل سيرهما . وعاد السلطان بالسعادة إلى الجوسق ، وارتدى الأمير سعيد الخلعة الفاخرة التى كانت قد أعدت له ، فتقدم إلى أبيه الذى شمله بحبه وعطفه وأمره بالإقامة فى غزنة ، وبالنزول فى جوسق الخواجة الكبير أبى العباس الإسفراينى بقرية آهنكران . وخلعوا على السرهنك أبى على الكوتوال

فى القلعة ، وكلفه السلطان أن يكون مقدما للأمير مودود ولأعمال غزنة ٥٠٤
وفى هذه السنة عين السلطان الفقيه نوح نديما لنجله الأمير ، وهذا الرجل لاتخفى
وجاهته على أحد اليوم ، وهو من أصدقائى ، وقد ذكرت هذا عنه هنا ، لأعيد
ذكره فى موضعه من هذا التاريخ . وكذلك عين السلطان الخواجة محمد بن منصور
مشكان رحمة الله عليه لمنادمة نجله أيضا . وكان السلطان يرفع من قدر ولده كل
يوم ، ويوسع عليه من النعم والخدم والغلمان والجوارى وما ينبغى له من
العظمة والهيبة ، وكان يبدو أن هذا الأمير أحب إليه من أخوته . ولكن
الأب أراد شيئاً وأراد الله شيئاً آخر . ذلك أن هذا الأمير قضى نحبه وهو فى
زهرة الشباب كما سأذكر فى موضعه ، وتولى الملك من بعد مسعود ولده مودود
ونال ما كان يتمناه من هذا الشبل ؛ وقد ماتوا جميعا رحمة الله عليهم وليحيا
السلطان الأعظم ابراهيم بحق محمد وآله أجمعين . وبعد أن فرغ السلطان
مسعود من هذه الأعمال نصبوا سرادقه على طريق بست ؛ وغادر غزنة يوم
الخميس الثالث عشر من ذى الحجة ، ونزل يوم الأربعاء السادس والعشرين
من هذا الشهر فى تكين آباد حيث أمضى سبعة أيام فى اللهو والشراب ،
ثم سار فى اتجاه بست والله أعلم .

تاريخ سنة ثمان وعشرين وأربعمائة

١٠٣٦ — ١٠٣٧

كانت غرة محرم يوم الإثنين . نزل السلطان رضى الله عنه يوم الخميس الرابع
من محرم فى جوسق دشت لنكان على مسيرة فرسخ من بست . وقرب صلاة
الظهر أحاط الجند كلهم بالساحة لحشر الصيد فتجمع بها عدد كبير منه لأن
حيوانات الصيد فى هذه النواحى وافرة لا تحصى . وبعد أن ضاقت به الساحة
اندفع الصيد كله إلى داخل الحديقة أمام القصر ، وكانت الحيوانات أكثر من

خمسمائة أو ستمائة وكانوا قد اصطادوا كثيرا منها فى الصحراء بواسطة الفهود والكلاب . وانتهى يوم حافل بالصيد .

وأذكر أنى قرأت أن السلطان محمود رحمة الله أمضى يوما فى الصيد فى هذا المكان نفسه من بست ، حيث صاد حمار وحش فقيدوه بالحبال ، وأمر محمود بأن يوسم باسمه ، فوسموه وأطلقوه لأن أصحاب سير الملوك كانوا قد ذكروا له أن بهرام گوركان قد فعل مثل هذا .

وفى يوم الجمعة التاسع عشر من شهر محرم جيء برسولين من قبل السلاجقة إلى المعسكر حيث عوملا بالحسنى ، وكان أحدهما فقيها من أهل بخارا يمتاز بحلو الحديث ، وكان الثانى تركمانيا يمت إلى السلاجقة بصلة القرابة . وفى اليوم التالى جلس السلطان فى أبهة تامة للاستقبال وقدموا له الرسولين ، فأديا مراسم الطاعة ، ثم ذهبوا بهما إلى ديوان الوزير حيث ذهب رئيس ديوان الرسائل الخواجة أبو نصر مشكان وعقدت خلوة هناك . وكان مع الرسولين رسالة إلى الوزير أحمد عبد الصمد جاء فيها إن المشافهة تفصلها وهى تقول :

« إننا إلى الآن لم نتجاوز حدنا بشيء ، ولكن فى خراسان — كما لا يخفى — تركمان آخرون وهم لا يزالون يفدون عليها لأن طريق جيحون وبلخان كوه مفتوحين أمامهم ، وهذه الولاية التى منحها إيانا السلطان قد أخذت تضيق علينا وأصبحت لا تكفى لسكنى من معنا من الناس ، وكان يرجى أن يتوسط الأستاذ الرئيس لنا عند السلطان ، كى يمنحنا بعض المدن الصغيرة ، مثل مرو وسرخس وباورد ، على أن يكون صاحب البريد والقضاة وصاحب الديوان فيها من قبل السلطان ، فيجبوا الأموال ويصرفوا أرزاقنا ونكون نحن جند السلطان ، فنطهر أرض خراسان من المفسدين ، ونؤدى ما يوكل إلينا من خدمات فى العراق ، أو فى أية ناحية أخرى ، طائعين ، ونقدم على أخطر الأعمال بأمره ،

ومن الجائز أن يرابط الحاجب سباشي بجيشه فى نيسابور وهراة ، ولكن إذا قصدنا بسوء فسنضطر إلى الدفاع عن أنفسنا فتزول الهيبة من بيننا ، هذا هو ملتمسنا والأمر للسلطان » .

فذهب أبو نصر وأخبر السلطان بما قالوا ، فقال له : « اصرفوا الرسولين ولتحضرن أنت والوزير لنتداول فى هذا الأمر » . فحضر الوزير وأبو نصر لدى السلطان فوجداه يتميز غيظا ، وقال للوزير :

« لقد تجاوز هؤلاء القوم الحد فى تعديهم وتحكمهم ، فقد دمروا خراسان من جهة ، بينما يتحايلون بالمكر وزخرف القول من ناحية أخرى ، فيجب صرف هذين الرسولين بعد إفهامهما بأن الحكم بيننا وبينهم سيكون السيف ، وأن الجيوش قد سيرت للقتال ، وأنا سنرحل من بست إلى هراة » .

فقال الوزير : « مادام هؤلاء القوم يتكلمون بهذا الأسلوب فمن الخير أن ٥٠٦ يبقى حجاب الهيبة مسدلا بيننا ، وأرى أن نجيبهم إجابة تجمع بين الشدة واللين، حفظا للمجاملة ، وإذا رأى السلطان فإنى أذهب بعد ذلك إلى هراة ، ويأتى كبير الحجاب مع كافة الجند هناك ، ونقضى بذلك عليهم صلحاً أو حربا ، على أن يكون السلطان قريبا منا ، فإذا دعت الحاجة سار إلينا » .

فقال السلطان :

« نعم هذا الرأى ، أجل ينبغى إعادة الرسولين على هذا الوجه ، وعلى الخواجة أبى نصر أن يكتب ما ينبغى حتى يوقظهم من غفلتهم ، فلا يحلمون بعد ذلك ، وأن يقول لك يا أحمد إنه يجب أن تحضر بنفسك لإقرار هذا الأمر » .

فعادا واستمرا فى مفاوضات يومين أو ثلاثة مع الرسولين ، حتّى وافقا على رأيهما ، ومن ثمّ سلماهما جواب الرسالة والمشافهة . ومنح الرسولان الخلع وأعيدا إلى خراسان يوم الخميس لخمس بقين من المحرم .

ويوم الثلاثاء أول صفر وصل تقرير من صاحب بريد هراة وباد غيس وغرجستان يقول : إن داود التركمانى يقصد السير إلى غزنة على رأس أربعة آلاف من خيرة الفرسان عن طريق رباط رزن وغور وسياه كوه وهذا ما اتصل بعلمى والله اعلم بالصواب .

فاشتد قلق السلطان لهذا الخبر واستدعى الوزير ، وقال له :

« لايمكن أن تكون لهؤلاء القوم نية صادقة ، وكيف يمكن أن يكون العدو صديقا ؟ ومادام الأمر كذلك فعليك بالسير على رأس جيش قوى إلى هراة ، وعلينا أن نسير نحن إلى غزنة ، فإنه لا يمكن أن نترك الدار خلوا بأية حال » .

فقال الوزير : « سمعا وطاعة ولكنى لا اعتقد صحة هذا الخبر فقد انقضت مدة طويلة على المهرجان ، ولا يستطيع الطير نفسه العبور إلى غزنة عن طريق رباط رزن فى مثل هذا الوقت . » فقال السلطان :«ماهذا المحال الذى تقول، إن هذا العدو لايعوقه الثلج والجليد فقم واستعد للسير إلى هراة لأنى ذاهب بعد غد إلى غزنة على كل حال » .

فعاد الوزير ، وكان الجماعة قد اجتمعوا هناك وانتحوا ناحية ،وبعثوا أبانصر للسلطان ليقول له : إن الأولى بالسلطان أن يتريث بموضعه قليلا حتى يصل خبر آخر ، ولو صدق والعياذ بالله هـذا الخبر . فذهب أبو نصر وأبلغ رأيهم للسلطان فقال : « حسنا سنبقى هنا ثلاثة أيام إلا أنه ينبغى٥٠٧ أن يأتوا بالإبل

وخيل العبيد إلى هنا من سه بنج » فقالوا نعم الرأى . وذهب قوم لإعادة الخيل والجمال ، وشاعت أراجيف بين الجند فى المعسكر ، وأخذ الذين كانوا قد ادخروا العلف يبيعونه بثمن بخس ، وقال لى أستاذى أبو نصر : « احتفظ بما عندك من العلف واشتر ما يقع لك منه ، فمن المستحيل صحة هذا الخبر ، ولا يصدقه العقل والقلب بأية حال ، فقد قيل لا تصدقن من الأخبار ما لا يستقيم فيه الرأى ، وإن مولانا هذا كله فضل وشجاعة ، إلا أن استبداده العظيم قد أخفى كل فضله » . وكان قوله حقا . فقد وصلت رسالة أخرى يوم السبت الخامس من صفر تكذب ذاك الخبر ، وكانت الحقيقة أن مائة وخمسين فارسا قد عبروا الحدود فى تلك الأنحاء ، فزعموا أن هؤلاء مقدمة جيش داود ، وقد أشاعوا هذا الخبر كى لا يجرؤ أحد على تعقبهم . فهدأ روع السلطان بهذه الرسالة وعدل عن السير إلى غزنة كما هدأت النفوس جميعا .

وفى يوم الإثنين السابع من صفر تحرك موكب السلطان ليلا إلى شاطىء نهر هيرمند ومعه الصقور والفهود والحشم والندماء والمطربون ، وقد حملوا معهم شتى المآكل والشراب ، ووقع لهم صيد كثير لأنهم استمروا فى الصيد حتى الضحى ، ثم نزلوا على ضفاف النهر حيث كانت مضارب الخيام والمظلات فطعموا وشربوا وطاب لهم اللهو والطرب . وحدث قضاء وقدرا ، أن أمر السلطان بعد الصلاة بإحضار السفن فجاءوا بعشر منها ، وأعدوا أكبرها لركوبه وفرشوها ونصبوا شراعها ، فركب ومعه نديمان وأحد من يعدون الشراب وساقيان وغلام وسلاحدار . أما الندماء والمطربون والفراشون وغيرهم من شتى الطبقات فقد استقلوا السفن الأخرى ، ولم يكن أحد يعرف ما يخبىء القدر ، حتى رأوا فجأة ماء النهر وقد طغى على سفينة السلطان فأمتلأت به وأشرفت على الغرق ، وعلا الصراخ والعويل . ونهض السلطان يطلب النجاة بنفسه ، ومن حسن الحظ كانت السفن الأخرى قريبة منه ، فوثب منها سبعة رجال أو ثمانية

وأمسكوا بالسلطان وأنقذوه وحملوه إلى سفينة أخرى ، وكانت قواه قد خارت وجرحت قدمه اليمنى وتمزق جزء من جلده ولحمه ، وكان قد أشرف على الغرق لولا ماشمله الله به من العناية ، بعد إظهار قدرته . وبذلك زال ما كانوا فيه ٥٠٨من سرور بالغ ومتعةعظيمة « وأى نعيم لا يكدره الدهر ». وبعد نقل السلطان إلى السفينة الأخرى أقلعت السفن حتى بلغت الشاطىء ، ونزل السلطان الذى نجا من الموت فى خيمة ، حيث أبدل ملابسه وكان مبللا مرهقا . وركب ميمما نحو القصر . وكانت الإشاعات قد سرت بين الجند فى المعسكرات فأثارت قلقاً شديدا بينهم . وسارع الوزير والأعيان للقاء السلطان ، فلما رأوه فى صحة وعافية تعالت أصوات الجند والرعيةبالشكر والدعاء ووزعوا من الصدقات ما لا يحصى. وأمر السلطان أن يكتبوا فى اليوم الثانى إلى غزنة وسائر أنحاء المملكة بتفصيل هذا الحادث وببشرى السلامة ، كما أمر بتوزيع ألف ألف درهم بغزنة : وألفى ألف درهم فى البلاد الأخرى على المستحقين والفقراء شكرا لله على نجاته . وكتبت هذه الرسائل ووقعها السلطان ، ثم سار بها المبشرون . ويوم الخميس أصيب السلطان بحمى شديدة وراح فى غيبوبة ، فامتنع عن الاستقبال واحتجب عن الناس ، إلا عن أطبائه ونفر من القائمين على خدمته من الرجال والنساء، فقلق الجميع لمرضه لتفكيرهم فى مصيره .

ويوم الأربعاء السابع عشر من شهر صفر وفد رسول من قبل على تكين يدعى البتكين وبصحبته عبد الله الفارسى خطيب بخارى ، فتقدم لاستقبالهما الموكل بالضيافة ومعه الجنائب وأرباب الرتب وأنزلهما بالمعسكر مكرمين معززين حيث ضيفوهما على الرحب والسعة ، وأبلغوا السلطان عنهما فبعث إلى الوزير على لسان أبى العلاء الطبيب يقول « إنا وإن كانت هذه العلة قد أقعدتنا إلا أنه لامفر من التجلد ، وسنستقبل غدا استقبالا عاما حتى يرانا الجند جميعاً ، فيجب

استدعاء الرسولين حتى يريانى ثم يعادان بعد هذا التدبير » . فقال الوزير : نعم ما يقول مولاى ، فإن القلوب قلقة عليه وسيكون لتحمل ذاته هذا التعب أثر نافع .

وفى الغداة تربع السلطان على العرش فى القاعة الكبرى ، وحضر الموالى وأركان الدولة ٥٠٩ والوزير إلى الحضرة ، وقد علت وجوههم آيات البشر والسرور ، ولهجت ألسنتهم بالدعاء له ووزعت الصدقات الكثيرة ، وقدم الرسولان فأديا مراسم الاحترام ثم أجلسا . فقال لهما السلطان كيف تركتما أخانا إيلك خان ؟ قالا لقد تركناه ببركة حياة السلطان الأعظم محاطا بكل متعة وراحة وما دامت رعاية الجانب العالى فى ازدياد فإنه يزداد يوما بعد يوم عزا ومجدا وسؤددا ، ولقد أرسلنا ، نحن العبيد ، لتقوية أواصر الألفة والمودة . ثم أعادهما الموكل بالضيافة إلى ديوان الوزارة . واختلى السلطان بالوزير أحمد عبد الصمد وأبى الفتح الرازى العارض وأبى نصر مشكان والحاجبين بكتغدى وأبى النصر . وكانت منزلة أبى النصر قد علت حتى أصبح يصرف أمور البلاط جميعها نيابة عن كبير الحجاب سباشى الذى كان قد طلب ذلك من السلطان إبان ذهابه من بلخ إلى خراسان فأجيب إلى طلبه . وقال السلطان ينبغى الاستماع إلى قول هذين الرسولين كما تجب إعادتهما خلال هـذا الأسبوع ، ويجب ألا يتصل بهما أحد من غير إذننا ؛ وينبغى ألا يطلع من معهما على شىء ، وأنا لا أستطيع الجلوس أكثر من هذا ، فادعوا أبا العلاء الطبيب وخذوه معكم حتى يكون الواسطة بيننا وبينكم ، وحتى ينتهى كل شىء اليوم . فقالوا : سمعا وطاعة وإذا كان السلطان قد شق على نفسه بهذا الاستقبال إلا أن ذلك تقتضيه المصلحة . فقال السلطان نعم إنه كذلك .

وانصرف الجميع وقام السلطان عائدا إلى فراشه . وجاء أبو العلاء إلى

ديوان الوزارة ، وتسلم أستاذى الرسائل والمشافهات وقرأها ، وقد جاء فيها :

« إننا لا ندرى كيف نعتذر عما صدر منا من السهو ، مع تلك الرعاية التى أفاضها السلطان علينا ، وإذ بلغت صلتنا بالسلطان إلى هذا الحد من الألفة والصداقة ، فإن لنا مقاصد ثلاثة حفزتنا إلى إيفاد هذين الرسولين وسوف نكون قد حصلنا على كل ما نبغى حين تبرم العهود بين الطرفين وتجاب هذه المقاصد الثلاثة . وأولها أن يرفع السلطان قدرنا بتزويج أحدنا إحدى كريمات الأسرة . والثانى أن يكرمنا بتزويج أحد أبنائه من إحدى بناتنا ، حتى تنقطع كل المطامع التى تستهدف إليها بلاد السلطان . والثالث أن تتوثق بيننا وبين أرسلان خان صاحب تركستان وأميرها العهود والمواثيق بواسطة السلطان ، ٥١٠ ليثبت لديه أن لا خلاف بيننا ، وأن البيوت قد أصبحت بيتا واحدا ، فتنقطع بذلك كل أسباب الخصام والعداء . وهذا ما دعانا إلى إيفاد هذين الرسولين بالرسائل والمشافهات . والمتوقع من همة السلطان العالية أن يجيبنا إلى هذه المقاصد ، وأن يصحب رسل الحضرة العلية رسولينا ، حتى نقوم نحن أيضا بما يطلب منا ، فإن جيوشنا سوف تعبر النهر وتتحد مع جيوش السلطان وتعمل على إخماد الفتنة ، بعد أن نجاب إلى هذه المقاصد . ولسوف نرعى أوامر السلطان فى هذا الأمر ونفى بكل ما تقتضيه الوحدة فى كل باب ، بإذن الله عز وجل » .

وكتب أستاذى بخط يده هذه الرسائل كما دون المشافهات وسلمها لأبى العلاء ليذهب بها إلى السلطان وقد عاد هذا بعد ساعة أو ساعتين يقول : إن السلطان قد استحسنها . فأعادوا الرسولين إلى منزل الضيافة وانصرف أبو العلاء . ثم عاد ثانية وقال للوزير وأبى نصر : يسألكما السلطان ماذا يعمل فى هذا الأمر

وما الصواب فيه ؟ فأجابا : « بأن هذا الشاب لا يطلب شططا ومن المفيد أن يجاب إلى ما طلب ، وذلك أننا سنأمن جانبه ، فلا تكون قلاقل ولا فتن ، ثم إن لديه عددا كبيرا من الجند يحتمل أن نحتاج إليهم ، هذا ما تبين لنا والأمر لمولانا » . فذهب أبو العلاء ثم عاد يقول إن السلطان يرى أن ما يقولانه حق وينبغي أن يجاب الرجل إلى مقاصده الثلاثة ، وأن تكتب أجوبة رسائله وأن يعين رسول ليصحب رسوليه . فكتبت أسماء بعض الرجال ليختار السلطان واحدا منهم ، ثم قدمت إليه الأسماء بواسطة أبي العلاء ، فاختار عبد السلام ، رئيس ديوان بلخ ، وكان من الندماء وله سابقة في السفارة .

وعاد الخواجة أبو نصر وسلموه الرسائل والمشافهات ، وتقرر أن تخطب إحدى أخوات أيلك للأمير سعيد نجل السلطان ، وأن تزف إحدى بنات الأمير نصر السپهسالار إلى إيلك . وعلى هذا النحو ذهب الرسولان ظافرين بالأماني . وكان ذلك يوم الثلاثاء الموافق ثلاثة وعشرين من شهر صفر .

وقبل شفاء السلطان وصلت رسائل من قبل أبي سهل الحمدوي عميد العراق جاء فيها ٥١١ : « إن ابن كاكو قد يئس وأدرك أنه لا يقوى على استخدام العنف فأقبل معتذرا وإنه يلتمس أن يفوض إليه أمر إصفهان ولا أستطيع (أبو سهل الحمدوي) أن أقطع في هذا الالتماس بغير أمر من السلطان ، ولذلك فقد استبقيت رسوله ، كما بعثت إليكم أيضا الرسائل التي كتبها محمد أيوب وزير الخليفة يستشفع لهذا الرجل عند الحضرة السلطانية وعندي ، لكي يتقرر مصيره ، وإني في انتظار أوامركم السامية في هذا الأمر لأعمل حسب ما ترون » .

فلخص أبو نصر بخطه ما جاء في تلك الرسائل ، عملا بما اعتاد عليه بعد حادثة السلطان ، فكان يرسل إلى القصر ، على يدي ، ملخصات ما يقرأ من رسائل ، وكان يتخذ الحيطة بحيث لا يدون ما يثير الحزن والقلق في نفس

السلطان ، وكنت أسلمها لآغاجي الخادم ، وأعود بالأجوبة شيئا فشيئا ، ولم أر السلطان مطلقا فى تلك الفترة . ولما كانت خلاصة الرسائل فى هذه المرة تتضمن البشرى فقد أقبل آغاجي بعد ساعة يقول إن السلطان يدعوك يا أبا الفضل . فدخلت إلى حجرة مظلمة قد أسدلت على نوافذها ستائر من الكتان المبلل وعليها كثير من الغصون الخضراء ووضعت بها طاسات واسعة مملوءة بالثلج ، وشاهدت السلطان جالسا على سرير وعليه قميص توزى وعلى عنقه مخنقة عليها عقدان من الكافور . ورأيت أبا العلاء الطبيب جالسا تحت السرير . قال السلطان :

« بلغ أبا نصر بأنى اليوم فى صحة وعافية ، وسأجلس فى مدى يومين للاستقبال ، فإن العلة والحمى قد زالتا تماما . وليكتب لأبى سهل بالموافقة على ما يطلب ابن كاكو ، بعد أن تتم كل الشروط . وليأخذ عليه عهدا بأنا قد أمنا إليه هذه المرة رعاية منا لشفاعة وزير الخليفة ، ولو أقدم على نكث العهد بعد هذا فلسوف نستأصل شأفة أسرته ، كما ينبغى أن يرد على كتاب وزير الخليفة حسب الرسم ويخبر ما يكتب فى هذا الباب ، ولتعديا أبا الفضل إلينا بالجواب الذى سيكتب لأبى سهل حتى نوقعه لأن لنا معك عملا آخر » .

وأخبرت أبا نصر بما كان ، فسر كثيرا وسجد لله عز وجل شكراً على سلامة السلطان ثم كتب الرسالة وحملتها إلى آغاجي وأتيح لى أن أزور مولانا مرة ثانية . فقرأ الرسالة وطلب دواة ووقعها ، وألقى بها إلى ، وقال :

« ابعثوا فارسين مشهورين ليسرعا مع فارس أبى سهل وليعودا بالجواب ، ولتكتب إجابة كتاب صاحب بريد الرى « بأنه قد صحت عزيمتنا على السير من بست ٥١٢ إلى هراة ونيسابور حتى نكون أقرب إليكم ، وحتى تنتهى المهام التى هى نصب أعينكم على أسرع وجه وبأحسن صورة » ، كما ينبغى أن تكتب

رسالة بهذا إلى صاحب الديوان سورى ، وأن ترسل على يد هؤلاء الفرسان ويجب أن يوعز له بأن يجهز المؤن لجيشنا فى نيسابور ومراحل طريق الرى ، فإن العلة التى اعترتنا قد زالت وستتحرك راياتنا بأسرع وقت حتى نتلافى ماوقع فى خراسان من الاضطراب ، وعد إلىّ يا أبا الفضل بعد أن ترسل الكتب حتى أبعثك برسالة لأبى نصر » .

فقلت سمعا وطاعة . وعدت بالرسالة الموقعة ، وقصصت ما جرى على أبى نصر ، فأخذ هذا الكاتب القدير رحمة الله عليه يكتب بهمة عظيمة ، حتى أتم الرسائل قبيل صلاة الظهر ، وأوفد الفرسان والساعى ثم كتب رقعة للسلطان شرح فيها كل ما عمل وسلمها إلىّ فحملتها ، وأذن لى بالدخول فقدمتها للسلطان : فقرأها وقال حسنا ثم قال لآغاجى الخادم : « أحضر الكيسين » وقال لى : « خذهما ، إن فى كل منهما ألف مثقال من قطع الذهب ، وقل لأبى نصر هذا من الذهب الذى جاء به والدنا رحمة الله عليه من الهند ، وقد جمعه من تماثيل الذهب التى أمر بكسرها وإذابتها ، وهذا الذهب من أحل الأموال ، ولذلك فإنا نطلب إحضاره فى جميع أسفارنا لتكون منه صدقاتنا حلالاً لا شبهة فيه ، وقد سمعنا أن أبا الحسن البولانى وولده أبا بكر فى فاقة شديدة وليس لهما إلا ضيعة صغيرة ، وهما لا يقبلان من أحد شيئاً ، فيجب أن يعطى كيس من الذهب للوالد وآخر للولد ليشتريا ضيعة صغيرة من المال الحلال ، وليعيشا عيشا رغدا ، ونكون بذلك قد أدينا بعض الشكر على نعمة السلامة » .

فحملت الكيسين وسلمتهما لأبى نصر وذكرت له الأمر فدعا للسلطان وقال : « نعم ما أمر به مولانا فقد سمعت أن أبا الحسن وولده يحتاجان أحيانا عشرة دراهم . وانصرف إلى داره وحملوا الكيسين معه ، ثم دعا بعد الصلاة القاضى أبا الحسن وابنه فحضرا ، وأبلغ أبو نصر مقالة السلطان إلى القاضى

فدعا له كثيرا ثم قال : « إنى نخور بهذه الصلة وأقبلها ثم أردها لأنى لست فى حاجة إليها ، فإن القيامة قريبة ولا أستطيع أن أؤدى يومئذ عنها حسابا ، ولست أتظاهر بالعفة ولكن ما دمت أملك من القليل ما أنا قانع به ففيم وزر هذا الذهب ووباله ؟ » فقال أبو نصر : « يا سبحان الله ألا يقبل القاضى هذا الذهب الذى أتى ٥١٣ به السلطان محمود عن طريق الجهاد بالسيف من معابد الوثنية وتحطيم الأصنام وإذابتها وإن أمير المؤمنين يحل أخذه » فقال القاضى « أمد الله فى حياة سيدنا إن حال أمير المؤمنين يختلف عن حالى ، لأنه ولى أمر المسلمين ، وقد رافقتم السلطان محمود فى الغزوات ولم أكن معكم ، ولا أدرى إذا كانت هذه الغزوات قد تمت وفق سنة المصطفى عليه السلام أم أنها كانت مخالفة للسنة ، ومهما يكن من شىء فإنى لن أقبل هذا المال ، ولن أتحمل تبعة اقتنائه » . قال أبو نصر : « إن كنت لا تقبله لنفسك فاعط لمريديك والمستحقين والفقراء » . فقال القاضى : « إنى لا أعرف فى بست أحدا يستحق أن يأخذ الذهب ، ثم ماذا أصابنى إذ يأخذ الذهب غيرى وأقدم أنا حسابه يوم القيامة » . فقال أبو نصر لابن القاضى : « خذ أنت نصيبك من الذهب » . فقال : « أطال الله حياة السيد العميد إنى ابن الأب الذى أجاب هذا الجواب » . وقد أخذت العلم عنه : ولو أنى رأيته يوما واحدا طول حياتى وعرفت سلوكه لوجب على اتباعه ، فكيف بى وقد صحبته أعواما ، فضلا عن أنى أخشى ما يخشاه هو من الحساب والإمهال والسؤال يوم القيامة ، وما عندى من حطام الدنيا حلال وفيه كفايتى ، ولست فى حاجة معه إلى مزيد » . فقال أبو نصر : « لله دركما من رجلين عظيمين » . وبكى ثم صرفهما ، وظل طول يومه يردد حديثهما متفكرا . وفى الغداة كتب للسلطان كل ماجرى ، وأعاد إليه الذهب ، فبقى هذا فى عجب من أمر الرجلين . وسمعت غير مرة أنه كان كلما صادف أحدا من المتصوفة أو رجلا ذا شارب كث ، قد نصب شرك الرياء أو ارتدى

ثوبا خلقا وقلبه أشد من ثوبه سوادا ، كان يضحك ويقول لأبى نصر : لله در البولانيين.

وتحضرنى قصة نادرة قرأتها فى سير الخلفاء من بنى العباس آثرت ذكرها هنا .

حكاية أمير المؤمنين مع ابن السماك

وابن عبد العزيز الزاهدين

ذهب هارون الرشيد فى إحدى السنوات إلى مكة حرسها الله تعالى ، فلما أتم مناسك الحج ، سمع عن رجلين من كبار الزهاد . أحدهما يقال له ابن السماك. والثانى ابن عبد العزيز العمرى ، لم يقصدا سلطانا قط . فقال هارون للفضل الربيع : يا عباس ، وهكذا ٥١٤ كان يناديه ، أود أن أرى هذين الزاهدين اللذين لا يسعيان للسلاطين ، وأن أستمع إلى حديثهما وأن أطلع على حاليهما وسيرتهما فى السر والعلن فما السبيل إلى ذلك ؟ فقال الفضل ، فليأمر أمير المؤمنين بما يرى حتى أمهد له زيارتهما . فقال هرون أريد أن نذهب إليهما متنكرين لنرى كيف يعيشان ، فما أيسر معرفة المنافقين بشىء من حطام الدنيا . فقال الفضل أصبت يا أمير المؤمنين فماذا تأمر ؟ فقال له إذهب وأحضر حمارين من الحمر المصرية ، وكيسين فى كل منها ألف دينار ذهب ، والبس مما يلبس التجار ، ثم عد إلى بعد صلاة العشاء ، لأقول لك مايكون بعد ذلك .

وانصرف الفضل ثم أعد هذا كله ، ورجع إلى هرون بعد الصلاة ، فوجده قد ارتدى زى التجار أيضا فقام وركب الحمار وركب الربيع الحمار الثانى ، وأعطى الذهب إلى رجل كان يعرف منزلى الزاهدين ، فتقدمهما مع اثنين من خاصة الركابدارية ، وساروا جميعاً متنكرين لا يعرفهم أحد ، ولم يكن معهم شمع ولا

مشعل . فبلغوا أولا باب بيت العمرى فطرقوه عدة مرات حتى سمعوا صوتا يسأل من بالباب ، فقالوا افتح الباب فإن هنا من يريد لقاء الزاهد فى الخفاء . ففتحت الباب جارية قليلة البهاء ، فدخل هرون والفضل والدليل فوجدوا العمرى قائما يصلى على حصير خلقة ووجدوا مسرجة على قعر جرة ، فجلس هرون والفضل فترة حتى فرغ الرجل من الصلاة وسلم ، فالتفت إليهما وقال : من أنتما وما شأنكما . قال الفضل : هذا أمير المؤمنين جاء متبركا بلقائك . فقال الزاهد جزاك الله خيرا ، ولماذا شق على نفسه ، وكان الأولى أن يطلبنى فأذهب إليه فإنى أطيعه وأخضع لأمره ، وإنه خليفة رسول الله وطاعته فريضة على المسلمين جميعا. فقال الفضل : لقد آثر الخليفة أن يسعى إليك بنفسه . فقال الزاهد : زاده الله تعالى عظمة وجلالا كما عرف حرمة عبده . فقال هرون : عظنا وقل قولا نستمع إليه ونعمل به : فقال الزاهد : أيها الرجل إنك أمّرت على خلق الله عز وجل ، وقد ولاك الله أعظم قسط من أرضه كى تخلص نفسك من نار جهنم بإقامة العدل بين الناس ، وانظر إلى المرآة لترى فيها وجهك الجميل هذا فتعلم أن من الظلم إحراقه فى النار ، والتفت ولا تفعلن مايغضب الله جل جلاله. فبكى هرون وقال « زدنى نصحا » . فقال يا أمير المؤمنين تذكر أنك مررت فى ٥١٥ طريقك من بغداد إلى مكة بكثير من القبور التى إليها معاد الناس جميعا فاذهب واعمل للآخرة فالبقاء فى هذه الدنيا قليل . فازداد هرون بكاء . فقال الفضل : كفاك ياعمرى إلى متى هذه الغلظة ، ألا تعرف مع من تتكلم . فصمت الزاهد وأشار هرون ليضعوا الكيس أمامه وقال « أردنا أن نوسع عليك بهذا » فقال العمرى : صاحب العيال لا يفلح أبدا ، إن لى أربع بنات ولولا تفكيرى فيهن لما قبلت هذا المال فإنى فى غنى عنه . فنهض هرون وشيعه العمرى إلى الباب حتى ركب ومضى . فقال هرون للفضل فى الطريق « لقد وجدت العمرى فصيح

اللسان ولكنه راغب فى الدنيا ، ألا ما أشد إغراء هذه الدراهم والدنانير والعظيم حقا من يستطيع أن يهملها. فلنذهب الآن لنرى ابن السماك » .

وساروا حتى بلغوا باب دار ابن السماك ، فطرقوه مرات حتى سمعوا صوتا يقول من بالباب ؟ قالوا نريد ابن السماك . فذهب صاحب الصوت ، وبعد فترة عاد يقول ماذا تريدون منه ؟ . قالوا افتح الباب فإن لنا معه شأنا هاما . ففتحت الباب جارية . فدخلوا ولبثوا جالسين فترة على الأرض فى الظلام ، وكانت الأرض عارية ، فنادى الفضل الجارية التى فتحت الباب لتأتى بسراج فلما جاءت قالت لا أذكر أنى وجدت عند هذا الرجل سراجا منذ اشترانى . وأضيئت الدار فقال الفضل للجارية وأين الشيخ ؟ قالت إنه فوق هذا السطح ، فصعدوا إليه فرأوه يبكى فى الصلاة ويتلو هذه الآية « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا» وكان يرددها كثيرا . فلما أحس بنور السراج سلم ، ولما سمع أصوات القوم تلفت فقال السلام عليكم ، فرد عليه هرون والفضل التحية بمثلها ، فسألهم ابن السماك ما الذى جاء بكم فى هذا الوقت ومن أنتم ؟ قال الفضل هذا أمير المؤمنين جاء ليزورك وكان مشوقا إلى رؤياك . فقال ٥١٦ كان عليه أن يستأذننى قبل مجيئه ثم يأتى بعد أن آذن له لأنه لا يجوز صرف الناس عن شئونهم . قال الفضل نعم كان ذلك واجبا ولكن هكذا كان ، إنه خليفة رسول الله عليه السلام وطاعته فرض على كافة المسلمين وأنت منهم والله تعالى يقول « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . فأجاب ابن السماك : هل يسلك هذا الخليفة مسلك الشيخين ، أريد بهما أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، حتى أعد أوامره كأوامر الرسول ؟ قال نعم إنه لكذلك . قال إنى أتعجب من هذا الجواب. فلست أجد أثرا لسيرته فى بلد مثل مكة ، وهى بلد الحرم ، فكيف يكون الحال فى سائر البلدان . فلبث الفضل صامتا . فالتفت هرون إلى ابن السماك وقال له عظنى موعظة فقد جئت من أجل هذا ، جئت لأستمع قولك ولتزيدنى قوة .

فقال اخش الله عز وجل يا أمير المؤمنين وإنه واحد لا شريك له ، غنى عن كل أحد واعلم أنك ستحشر يوم القيامة أمامه ، وأن حالك لن يخلو من اثنتين فإما أن تذهب إلى الجنة وإما أن تلقى فى جهنم ولا دار غير هاتين . فبكى هرون بكاء مراحتى ابتل وجهه وصدره . فقال الفضل أتدرى ماذا تقول أيها الشيخ ؟ هل من شك فى أن أمير المؤمنين لا يذهب إلا إلى الجنة ؟ فلم يجبه ابن السماك ولم يعبأ به والتفت نحو هرون وقال : يا أمير المؤمنين هذا الفضل يصحبك الليلة ولن يكون معك غدا فى يوم القيامة ولن يتكلم عنك كلمة وإذا تكلم فلن يستمع إليه ، فانظر إلى شخصك وارفق بنفسك . فتحير الفضل وبكى هرون حتى خافوا أن يغشى عليه ، فقال اسقونى ماء . فنهض ابن السماك وجاء بكوز ماء وقدمه إلى هرون . فلما همّ بالشرب قال له : أيها الخليفة إنى أستحلفك بحرمة قرابتك من الرسول عليه السلام أن تقول بكم تشترى هذا الماء إذا منعوك شربه ؟ قال هرون : أشتريه بنصف ملكى، قال اشربه هنيئا، وبعد أن شرب قال له إذا انحبس هذا الماء الذى شربت فى جسدك فكم تعطى لانطلاقه ؟ قال : نصف ملكى . فقال ابن السماك : يا أمير المؤمنين إن الملك الذى يساوى ثمنه شربة ماء لا يجدر بالرجل أن يغتر به ، وإذ قمت بأمر خلافة رسول الله فاعدل بين الناس وأحسن إليهم . فقال هرون سمعا وطاعة . وأشار فقدموا إليه الكيس، وقال ٥١٧ الفضل أيها الشيخ لقد سمع أمير المؤمنين بضيق ذات يدك وأمر لك الليلة بهذه الصلة الحلال فاقبلها . فتبسم ابن السماك وقال « سبحان الله العظيم ، إنى أنصح أمير المؤمنين أن يصون نفسه من جهنم فيأتى ليوقعنى فيها . هيهات هيهات ، أبعدوا هذه النار من أمامى لئلا نحترق الآن ، نحن والبيت وأهل هذه المحلة . ثم قام فخرج إلى السطح ، وجاءت الجارية تعدو وتقول انصرفوا ياسادة فإنكم قد آذيتم الشيخ المسكين إيذاء شديدا هذه الليلة . فقام هرون والفضل وحمل الدليل الكيس وركبوا وانصرفوا .

وكان هرون يردد فى الطريق قوله « هذا لعمرى هو الرجل الحق » وكثيرا ما كان يذكر حديث ابن السماك بعد هذا . وإنى أقص هذه الحكاية للقراء لتنفعهم وتؤثر فى قلوبهم . والآن نعود إلى ذكر التاريخ .

* * *

وجلس السلطان مسعود فى يوم الخميس غرة شهر ربيع الأول (١٠٣٦) للاستقبال ، فإنه كان قد شفى تماما . وأذن للناس إذنا عاما ، فتقدم الحشم والموالى ورعايا بست إلى الحضرة ، ونثروا المال كثيرا ، ودعا له الناس ، وجاءوا إلى الدركاه بكثير من القرابين فذبحوها ووزعوها مع الخبز على الفقراء . وكانت بهجة لا يذكر أحد أنه رأى مثلها .

ويوم الإثنين الثانى عشر من هذا الشهر جاءت رسالة من مرو تنعى نوشتكين خاصة الذى كان شحنة لتلك النواحى وقد جاء فى الرسالة أنه ذكر قبيل وفاته أن السلطان محمود لم يعتقه وأن أملاكه جميعا ملك للسلطان ، فينبغى إعلام السلطان بذلك حتى إذا رأى أن يعتقه فعل ، فيهبه أملاكه ويقرر صحة ما أوقفه منها ، وإن كل ما عنده من الغلمان والتحف والأدوات والضياع ملك للسلطان أيضا ، هذا وغلمانه مستعدون لكل عمل وإنه قد تعب فى إعدادهم كثيراً فيجب ألا يتفرقوا وألا يهمل شأنهم وأن مقدمهم اسمه خمارتكين المقرىء[1] وقد رباه بنفسه ، وهو ناصح أمين جدير بأن يعتمد عليه ، فينبغى ، وإنه لمن الخير ، أن يبقى زعيما للغلمان . فاعتق السلطان نوشتكين خاصة وأجاز أوقافه . وحررت الأجوبة على تلك الرسائل ، وطيبوا خواطر الغلمان . واحتفظوا بخمارتكين مقدما عليهم ، وقد أمروا بالبقاء فى أماكنهم ١٨*

---

(١) قرآن خوان .

« حتى يصرف لهم العامل نفقاتهم وأرزاقهم ، وعلى كل منهم أن يؤدى ما كان يقوم به من الأعمال إلى أن ندعوهم ونهبهم إلى أحد أبنائنا ونسلمهم إليه » وتأكدت هذه الرسائل بالتوقيعات لحماها اثنان من فرسان البريد .

وفى الخميس الثانى والعشرين من هذا الشهر وصلت رسائل من خراسان تفيد بأن التركمان قد انتشروا فى حدود تلك البلاد ونهبوا مدينة تون ، وأن أبا الحسن العراقى أمير الكرد والعرب عاكف فى هراة على الشراب ليلا ونهارا ، وأن العامل أبا طلحة الشيبانى قد ضج منه ، وكذلك بقية الأعيان والثقاة قد ضاقوا بسلوكه ذرعا ، وأنه قد بعث أحد غلمانه على رأس فوج من الكرد والعرب لمطاردة التركمان دون أن يتبصر بالعواقب ، فوقعت الكارثة وقتل وأسر كثير من الناس . فضاق السلطان بهذه الأخبار صدرا ، ودعا الوزير ودار الحديث بينهما فى كل ما يحتمل ، وفى النهاية قال السلطان لوزيره : « يجب أن تسير إلى هراة وأن ترابط بها حتى يلحق بك الحاجب سباشى وكافة جند خراسان ، فتنظر فى شئونهم جميعا وتوزع عليهم أرزاقهم ، حتى يسيروا مجهزين نحو التراكمة ويجلوهم تماماً عن أرض خراسان وذلك بحد السيف ، فإنه لا ترجى منهم الاستقامة ، وكانت جميع عهودهم حتى اليوم خداعا وكذبا ، فقد أبادوا النسل والحرث حيثما حلوا ورحلوا ، وهذا العراقى الغادر يجب أن تكف يده عن قيادة الكرد والعرب ، وعليك أن تجعل عليهم قائدين مجربين من أنفسهم ، وأن تسلم أمر الفريقين إلى الحاجب ، وأن تبعث بالعراقى إلى الحضرة حتى يلقى جزاءه ، فقد ضاعت خراسان والعراق ضحية له ولأخيه ، واكتب إلينا الرسائل تباعا بعد أن تبلغ مقر عملك وتشاهد الأحوال ، حتى يصلك منا ما يجب من الأوامر » . فأجاب الوزير « سمعا وطاعة » وانصرف ، ثم إنه جلس مع أبى نصر فتحدثا ملياً فى هذه الأمور .

وفى الغداة كتبت المواضعة ، وجىء بها إلى الدركاه ، فعرضها أبو نصر على السلطان فى خلوة وكتب أجوبتها فى المجلس حسب ما رأى السلطان ، ثم أكدها بتوقيعه . وخلع يوم الثلاثاء الخامس من ربيع الثانى خلعة فاخرة للغاية على الأستاذ الرئيس ، وكان من جملتها فيلان ذكر وأنثى ، والبغل والمهد والصقر وكثير من غلمان الترك . ثم تقدم الوزير ٥١٩ من السلطان فأسبغ عليه العطف حتى قال : « إن الأستاذ الرئيس منا بمنزلة الوالد ، وهو يحمل عنا كل ما ينبغى علينا حمله من المتاعب وإنا لنرجو أن يوفق إلى تهدئة أنفسنا عما نحن فيه ، وإن أوامره تلى أوامرنا[1] » . فقال الوزير : إنى عبد السلطان ولسوف أفتدى أوامره بروحى ، ولسوف أبذل ما فى طاقة البشر فى هذا العمل . وعاد الوزير بموكب يحيطه العز والتكريم ، وقد احتفوا به حفاوة لا يذكر أحدأنه رأى مثلها. وكان بينه وبين الخواجة أبى نصر فى ذلك الوقت مودة تفوق الحد ، ولا عجب فقد عرفه الوزير حق المعرفة ، وكان أبو نصر نسيج وحده ، فطلب منه أن يرسل معه ثقة من كتاب الديوان ليكتب الرسائل السلطانية حسبما يشير به وليبين للسلطان ما يعمل أو يذهب إليه . فعين الفقيه أبو بكر المبشر الكاتب لهذا العمل ، وزوّده أبو نصر بكل ما ينبغى له من الأوامر .

وفى الغداة سار الوزير إلى هراة فى قوة وعدة وأبهة وكان معه ألف فارس . ثم سار السلطان رضى الله عنه يوم الخميس الخامس من شهر ربيع الثانى إلى يمين آباد وميمند طلباً للنزهة والصيد ، وقد استضافه الخواجة عبد الرازق بن حسن الميمندى فى ميمند ، وأبدى من الخدمة فى هذه الضيافة ما ينتظر من مثله ، وكان أنيقا فى كل أعماله كما كان نسيج وحده فقدم للسلطان ما يليق من

---

(١) العبارة هنا مبهمة . غنى ـ فياض حاشية ١ .

الهدايا الوافرة باسم منحة الأسنان ، كما قدم وكلاؤه منحا كثيرة لمن كانوا بصحبة السلطان . وقد أقام هذا فى تلك المبانى السلطانية التى أقامها هناك الخواجة أحمد حسن الميمندى رحمة الله عليه . ثم عاد السلطان يوم الأربعاء رابع جمادى الأول إلى جوسق دشت لنكان .

* * *

وفى الغداة وصلت رسالة بنعى الخواجة ساتلمش حاجب أرسلان ، وكان السلطان قد رفع منزلته وأسند إليه شحنة بادغيس بحكم أنه كان خازنا فى عهد الأمير محمد وكان أول من ذهب من خراسان لاستقبال السلطان مسعود وقد صحب معه عدداً من غلمان أرسلان كما بينت من قبل

ويوم الأحد ثامن هذا الشهر توفى أبو سعيد بن محمود طاهر الخازن فى بست رحمة الله عليه وكان كريما نافعا وكان له عقل الشيخ ، وكان الخواجة أبو نصر يجالسه كثيرا وكان يقول عنه : « إن هذا الشاب لا يبقى على هذه الحال إذا امتد به الأجل وهو لا ينقطع عن الشراب وأكثر ما يشرب الصبوح » ولم يعش ، وقيل إنه مات لهذا ، فما هذا الحديث « إن لله جنودا منها العسل » ، لقد مات بعد انتهاء أجله . والعجيب أنه فى الأيام القليلة الأخيرة له وجه لأصحابه دعوة ، وأعد لهم مجلسا ٥٢٠ لطيفا دعا إليه أبا نصر مع جماعة ، وكنت ضمن الحاضرين وقد دارت الكؤوس وكان هذا وداعه ، فبعد ذلك بثلاثة أيام مضى مضيًّا لا رجوع بعده . وخطر لنا هذا البيت :

فكم أتتنا الليالى وما أتت إلينا   ورب يوم يعود ولم يعد علينا

وكان والده محمود طاهر ، أحد خازنى السلطان محمود رضى الله عنه ، من ذوى المكانة والغنى ، وكان السلطان يعتمد عليه اعتمادا كبيرا ، وقد توفى صغيرا

كذلك ، ورعى ذلك السلطان حق الميت الكريم ، فرعا ابنه النجيب فأصبح هذا الرجل وجيها فى قومه ، واشتهر اسمه . وكان للسلطان مسعود فى اصطناعه إياه رعاية أخرى ، فازدادت مكانته ، ولكن الزمن لم يمهله فقضى نحبه شابا . وكان قد صاهر أسرة كبيرة ، أسرة أبى النصر الزخودى ، الذى كان من أعاظم قوم خوارزمشاه التونتاش ، كما كان من أصدقاء السلطان محمود ، وقد ترك ولدين بالغين ، وخالهم هو الخواجة مسعود الزخودى الذى شغل مرتين وظيفة العارض للسلطانين مودود وفرخ زاد رحمة الله عليهما ، وله آثار محمودة ، وقد لوحظ فيه همة الرجال وسخاء العظماء وأهل الجود . وإذا كان قد لقى فى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٥٩) شدة فى أوقات الأزمات ، وواجهته الصعاب ، فقد كان بعد العسر يسرا ، والماء يعود إلى مجرى النهر مرتين بعد النضوب ، والأيام دُوَل . والخير أن يحتفظ المرء بروحه العالى ، والمال يأتى ويذهب ، ويقول كل رجل يسمع عن محنة من هذه تصيب رجلا كريماً إن هذه لا تعد محنة . وقد ذكرت هذا الفصل فهنا مكانه ، وقد اشتغلت بخدمة هذا السيد وشاركت فى أعماله التى قرب ذكرها ، والتى كان السلطان مسعود رضى الله عنه يرفع منزلته من أجلها ، وسوف يستخدمه فى مهمات الدولة ، ولقى من الأيام حلوها ومرها وسيأتى كل هذا على التوالى بمشيئة الله تعالى .

وفى يوم السبت السابع عشر من جمادى الأولى عزل أبو الحسن العراقى الكاتب من سالارية الكرد والعرب ، وجاء إلى البلاط ، وقد صرفه الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد بالحسنى ، ولكنهم وكلوا به خمسة فرسان ليراقبوه ، ولم يتح له السلطان المثول بين يديه ، وأرسله إلى مسعود بن محمد بن الليث الكاتب حتى يتدبر أمر اعتقاله ، وكان كل من يذهب لزيارته يعود شديد الحيرة وقد امتلأ قلبه أسفا . وأخيرا : فإن أبا نصر ، ٥٢١ رعاية منه لاشتغال هذا الرجل بالكتابة ، تحدث عنه للسلطان متشفعا حتى استمال له قلبه ، فتل

فى الحضرة السلطانية وأدى التحية وأعيد إلى ديوان الرسائل ولكنه كان كمن أريق ماء وجهه وأفل نجمه : فلم يكن يجرؤ على التوسع فى شىء من الكلام . وانتهى الأمر بموته كما سأذكر بعد ذلك .

* * *

وفى يوم الأحد الحادى والعشرين من هذا الشهر وصلت الرسائل من أبى سهل الحمدوى وصاحب بريد الرى « بأن حديث ابن كاكو كان رياء وافتعالا وكسبا للوقت ، وأنه استمال الناس من الأطراف وتجمعوا حوله وكذلك انضم إليه ، لماله الوفير والخزائن وأصناف النعم ، جماعة من تراكمة قزل ويغمر وبلخان كوه الذين كانوا قد فروا من السلاجقة ، وأنه اتجه إلى غزو الرى مستعدا . ويخشى أن يعرف أن خراسان مضطربة نتيجة لقلاقل السلاجقة وأن المدد لا يستطيع أن يصل إلينا . هذا وسنبذل ما فى طاقتنا من جهد إلى أن يفعل الله مايريد » .

فتحير السلطان كثيرا وأمر بكتابة الرد قائلا : « إن الوزير والحاجب الكبير والجيوش فى خراسان كافية لرد السلاجقة ، ثم إننا قاصدون خراسان كذلك ، فلتكن قلوبكم قوية وتقدموا للحرب كالرجال فإنكم بالجيش الذى معكم قادرون على ضبط العراق كله » . وسيرت هذه الرسالة مع عامل البريد والسعاة . وسأشرح هذه الأحوال فى باب خاص عن الرى . وأما هنا ففى هذا القدر الكفاية .

ويوم الثلاثاء سلخ جمادى الأخرى جاءت الرسائل من الوزير وفيها : « إنى أخذت الأمور بالجد وإن عمال المدن الذين استدعيتهم يفدون على ، ويسلمون الأموال ؛ ووصل الحاجب الكبير والجيوش إلى هراة . وإن أباسهل

علاء نائب العارض يستعرض الجيش بدقة أمامى ويوزع أجور الجند ؛ وحين تنتهى تعبئة الجيش ويسير نحو الأعداء فإنى سأعد التدبير الواجب وأواجهم به وسأبذل أقصى الجهد ، وأملى أن تتحقق الآمال بفضل الله عز ذكره ، ويبدو لى أن الصواب أن يتوجه السلطان إلى هراة بعد انقضاء النوروز ، وأن يقيم بها فصل الصيف. فإن الأوضاع مهدت، وليس من شىء يقلق البال غير٥٢٢ موضوع العلف ، وذلك حتى أذهب إلى مرو ويسير الحاجب الكبير بالجيش لملاقاة العدو ، فليكن السلطان مطمئنا من جميع الوجوه . وهذه الفتنة سوف تخمد ، وكذلك سيستقيم الحال الذى اضطرب فى الرى والجبال ويطيب خاطر السلطان » .

فأجابه السلطان : « إن الوزير خليفتنا فى خراسان وإن مرو والمدن الأخرى كلها مملوءة بالجند : فما حاجتنا الآن للتوجه إلى هراة ؟ إننا سنذهب إلى غزنة ، فهذا هو الصواب ، ثم إن أبناء على تكين قد صلح حالهم . ولا يقلقنا شىء من ناحية بلخ وتخارستان وإن ولدنا العزيز مودود والسپهسالار على هناك ، فإذا مست الحاجة لمزيد من الجند فالتمسه منهما » .

ومضى الجواب على هذا النحو وقد سمعت من أبى نصر قال : « الخطة الحكيمة هى التى رسمها الوزير ولكن السلطان لم يستمع إليه ولا مفر من أنه سيذهب إلى غزنة ، فقد هاجه إليها الشوق . وغزنة ليست مطمعاً لأحد . سبحان الله إن عليه أن يذهب إلى هراة وإلى مرو أو إلى نيسابور وعليه أن يمضى سنة أو سنتين فى خراسان عسى أن تهدأ هذه الفتنة الكبيرة . ولقد عرضت عدة مرات ما كتبه إلىّ الوزير وما كتبه أيضاً فى جرأة ولكن لم يكن لهذا من فائدة ، وقد قدر الله سبحانه وتعالى للناس مصائرهم لايحيدون عنها » .

وفى الحادى عشر من شهر رجب سار السلطان من بست إلى غزنة فبلغها يوم الخميس السابع من شعبان ، ونزل فى الحديقة المحمودية (باغ محمودى) عازما أن يقيم مدة بها ، وقد أخذ فى السمر والشرب وكان منكبا على الشراب ولم يكف عنه لحظة .

وفى يوم الثلاثاء الثانى عشر من شعبان جاء ابن السلطان الأمير مودود رحمة الله عليه من بلخ إلى غزنة ، وكانوا قد كتبوا له من بست ليجىء فجاء فى هذا الوقت ولقى الحفاوة . ويوم الثلاثاء التاسع عشر من شعبان صعد السلطان إلى القلعة ، وقام بضيافته السرهنك أبو على الكوتوال . وفى يوم الجمعة الثانى والعشرين من هذا الشهر عاد السلطان إلى الجوسق المسعودى الجديد (كوشكى نومسعودى) ، وقبل أن يعود إلى الحديقة المحمودية وصل كتاب من الوزير يقول فيه : « إن أعمال الجيش قد أعدت وإن الجند توجهوا لملاقاة العدو فى بسالة ، وإن التراكمة حين علموا أن الأمر سيؤخذ بالجد انصرفوا إلى نسا وفراوه بحيث لم يبق منهم أحد على حدود جرجان وهراة وهذه النواحى ، وإن الحاجب الكبير قد ذهب إلى مرو واتخذ معسكره خارج المدينة وأرسل شحنة ٥٢٣ إلى كل جهة وصدرت أنسب الأوامر » ، ثم يسأل الوزير ماذا يجب عمله بعد ذلك ؟ فأرسل إليه الرد بأنه مادامت الأمور تجرى على هذا النحو فإن على الوزير أن يعود من غور إلى غزنة حتى نراه فيعرض علينا ما قصه فى كتابه ، ولتدبر الأمور على وجه أقوى .

وأقبل شهر رمضان وبدأ السلطان الصيام فى الجوسق الجديد ، وكان أبناؤه الأمراء سعيد ومودود وعبد الرازق رضى الله عنهم يقيمون فى البيت الكبير ويتناوب خدمتهم الحجاب والحشم والندماء ، وأما السلطان فكان يفطر فى قصر الحريم وحده . وفى يوم السبت منتصف رمضان جاء الوزير إلى غزنة

فقابل السلطان ومعه صاحب ديوان الرسائل فى جلسة خاصة استمرت حتى صلاة الظهر ، وقد عرض الوزير كل ما جرى فكان لهذا وقع حسن على السلطان وأثنى على الوزير كثيرا ، ثم انصرف الوزير . وفى الغداة خلوا إلى بعضهم مرة أخرى ، وقد قال الوزير : «لو أن السلطان أتى إلى هراة لما بقى فى خراسان كلها تركمانى واحد ولم تمض مدة طويلة إلى الآن على بقائهم ، ومهما يكن فما دام كبير الحجاب والجيوش فى المدن فلن يحدث عن التراكمة شر ، ولكن قلبى مضطرب لما يجرى فى الرى ولأبى سهل وذلك الجيش وما معه من أحمال الذهب والثياب ولخصم مثل ابن كاكو ، إذ إنه مالم يذهب السلطان إلى خراسان فليس من الممكن التنبؤ بمصير هؤلاء» .

فقال السلطان : «إنه ان يكون هناك اضطراب فهناك جيش كامل وقواد عظام وأبو سهل من ثقاتنا ولا يأبهون بأمر ابن كاكو أو الديالمة أو الكرد ، فإنى قد رأيتهم واختبرتهم ورأيت هذه الأمور بعينى» .

فقال الوزير إن شاء الله يكون الخير والعافية بدولة السلطان .

وفى يوم الإثنين السابع عشر من رمضان جاء السپهسالار على أيضاً من بلخ ومعه غلمانه وخاصته خفافا ، وذلك إطاعة للأمر العالى الذى صدر إليه بأن يمنح الجند إجازة ، وأن تأتى الجريدة المعول عليها فى تدبير كل شىء . وقد قابل السلطان فاحتفى به ثم انصرف إلى بيته .

ويوم الإثنين كان عيد الفطر ، وكان السلطان قد أمر قبل أسبوع بإعداد العدة لهذا اليوم فعبىء الجيش على وجه أقر الشيوخ بأنهم لا يذكرون فى أى وقت تعبئة على هذا النحو ، وكان الفرسان كثيرين فى وادى شابهار ، وجلس

السلطان على صفة كبيرة فى السراى الجديدة على تخت من الخشب ، فإن ٥٢٤ التخت الذهبي لم يكن قد صنع بعد ، وأخذ غلمان السراى يفدون على الميدان الجديد ويقفون ، حتى كان الميدان ووادى شابهار كله كحديقة الأزهار. ثم ركب السلطان وجاء إلى القلعة الخضراء فى الميدان ووادى شابهار ، وصلى صلاة العيد ، ثم جلس إلى المائدة فى قصر الربيع هذا الواقع على يمين الصفة ، وجلس على مائدته الأمراء والوزير والسپسالار وأمراء الديلم وعظماء البلاط ، وجلس الآخرون ، على موائد أخرى ، وأنشد الشعراء الشعر وتلاهم المطربون، ودارت الكؤوس بحيث انصرفوا من على الموائد وهم سكارى . وركب السلطان وجاء إلى البيت الذهبي (خانه زرين) وصعد إلى السطح حيث أعدوا مجلساً طيباً للشراب .

وفى اليوم التالى لم يجلس للاستقبال ، وجلس فى اليوم الثالث وجاء من مروغلمان نوشتكين الخادم الخاص مع مقدم اسمه خمارتكين وكتخدا نوشتكين واسمه محمودك الكاتب ونفر من رجال الحاشية وكلهم فى أبهى حلة وأتم زينة ، وقد مثلوا أمام السلطان فأكرم وفادتهم وأمر بإنزال غلمان الحرم فى مكان منعزل فى الجوسق المحمودى القديم وبأن يعنى بأمرهم . وفى الغداة أمر بإحضارهم عنده وحدهم ، فحجز ثلاثين غلاما من أفضلهم ، ومنح الآخرين لأبنائه الأربعة سعيد ومودود ومجدود وعبد الرازق ، وأمر بأن يكون لهذا الأخير ضعف ما لإخوته لأن لديهم الكثيرين من الغلمان وهو لا يملك منهم أحدا ، وكان يريد أن يمنحه ولاية .

ثم إن السلطان ذهب فى شوال إلى مصطاد زه (شكارزه) مع فوج من غلمان السراى والجند وصحبه الندماء والمطربون وجرى الصيد فى ظروف مواتية ، وأقيم مجلس الأنس عند كمين الصيادين ودارت فيه كؤوس الشراب .

وقد حضرت رحلة الصيد هذه ، ولم يكن الخواجة أبو نصر حاضرا . وقد أتى الهجانة بكثير من الصيد إلى غزنة . وقد صحب السلطان في الرحلة أولياؤه وحشمه وأبناؤه رضي الله عنهم أجمعين . وفي يوم الأربعاء الرابع والعشرين من هذا الشهر رجع السلطان ، إلى حديقة صد هزاره ، وفي الغداة أمر بإعادة النظر واستقصاء مابقي من أموال وضياع نوشتكين الخادم الخاص بحضور الكتخدا وكاتبه محمودك وغيرهما من الوكلاء ، كما أمر بإبقاء الأموال ٥٢٥ الخاصة بمدفنه على ماهي عليه ، ووهب الأمير عبد الرازق ما كان لنوشتكين من أدوات السفر من الخيمة والخركاه والخيل والجمال العديدة مع ثلاث قرى واحدة في زاولستان واثنتين في برشور ، وحفظوا كل ما بقي من خاصة أمواله، وأعطيت سرايه إلى ابن السلطان مردانشاه مع كثير من الأبسطة وعدة قطع من الفضة . وكان نوشتكين قد ترك من بعده مالا يعد ولا يحصى من أصناف النعم . وأمر السلطان بإعطاء ولاية مرو التي كانت لنوشتكين إلى سالار غلمان السراي الحاجب بكتغدى . وكُتب بذلك منشور . وأرسل السلطان كتخداه أبا على الزوزني إلى هناك .

وفي هذا الأسبوع فوتح السالار بكتغدى في أمر زواج ابنته بابن السلطان الأمير مردانشاه وكانت الرسالة على لسان أبي نصر مشكان . ورد بكتغدى موجزا بأنه لاطاقة له على هذا التشريف وأنّى يكون له ذلك ؟ وذكر له أبو النصر كل ماينبغي الكلام فيه ، واتفقا على أن يعين السلطان موعد العقد . وكان السالار بكتغدى يعرف ماذا ينبغي عمله ومايلزم لهذا فبدأ فورا بتمهيد الأمور . وبعد هذا بسنة أقيم حفل عقد القران ولم أر له مثيلا في هذا القصر . لم يبق أحد، سيد أو خادم ، وضيع أو شريف ، قائد أو حاجب ، زمار أو طبال ، إلا ونال صلة من السالار بكتغدى منها مابين إثنى عشر ألف وألف درهم (إلى خمسة آلاف أو

ثلاثة آلاف أو ألفين أو ألف) ، ومنها ما كان خمسمائة وثلاثمائة ومائة ، ولم تكن صلة أقل من مائة . وجيء بالأمير مرد انشاه إلى قصر السالار بكتغدى حيث تمت مراسيم العقد ، ونثرت الدنانير والدراهم على الناس ، وألبس الأمير مرد انشاه قباء من الحرير الأسود الموشى باللؤلؤ وقلنسوة ذات أربعة أركان محلاة بالذهب ومرصعة بالجواهر وتمنطق بحزام مكلل بالجواهر . وأعطاه بكتغدى حصانا كريما غطيت حوافره بالذهب، وعليه سرج مغطى بالذهب ، ولجام مزين بالجواهر ، وعشرة غلمان من الترك مع خيولهم وما ينبغى لهم من أدوات الخدمة السلطانية ، وعشرة آلاف دينار ومائة ثوب فاخر من كل لون. فلما فرغوا من عقد القران أحضروا الأمير مراد نشاه عند السلطان ليراه وقصوا عليه ماجرى وما عمل ، ثم عاد الأمير إلى والدته . وكان الأمير مرد انشاه حدثا لا يتجاوز عمره الثالثة عشرة . وبعد انقضاء فترة زفت بنت القائد بكتغدى إلى الأمير ، وكان ذلك فى أوائل سنة ثلاثين وأربعمائة (١٠٣٨ - ١٠٣٩) ، وكانت صغيرة ، وقد أجلسا معا ثم زفا فى حفل لم يشاهد مثله أحد ، فإن السلطان قد أمر بإقامة حفل رائع لأنه كان يحب ابنه هـذا كثيرا ٥٢٦ وكانت لأمه مكانة . وقد سمعت من أبى منصور المستوفى يقول إنه قضى عدة أيام مع جماعة من تلاميذه لكتابة قائمة بجهاز العروس ، كان ألف ألف درهم عشر مرات . وقد رأيت (أبو الفضل) قائمة الجهاز هذه بعد وفاة كل من السلطان مسعود والأمير مردانشاه رضى الله عنهما ، فتملكنى العجب إذ كيف يقدر رجل على إعداد هذا كله ، وإنى لذاكر بعض مافيها : كان بها أربعة تيجان ذهبية مرصعة بالجواهر ، وعشرون طبقا من ذهب فيها فواكه من مختلف أنواع الجوهر ، وعشرون صندوقا للمغازل من ذهب مرصع بالجواهر ومكنسة من الذهب نظمت أليافها باللؤلؤ . كان هذا من جملة ما رأيت وقد ذكرت واحدا من ألف عما شاهدته ، ففى هذا ما يكفى لبيان ما كانت عليه سائر أدوات الجهاز .

ذكر ما كان من الجفوة بين السلطان مسعود رضى الله عنه وبغراخان، وإيفاد أبى صادق التبانى برسالة إلى كاشغر وطراز تركستان لإزالة هذه الجفوة بوساطة أرسلان خان

ذكرت فى تاريخ السلطان الماضى، رضى الله عنه، مجىء بغراخان، أيام أبيه وكان لقبه حينئذ بغاتكين، جاء إلى بلخ ليذهب منها إلى غزنة بحكم أنه صهر السلطان (داماد)، فقد كان سيتزوج من الحرة زينب ابنة السلطان محمود، وذلك ليطلب معاونتنا له ليستولى على بخارى وسمرقند من على تكين، كما كان يأمل منا. وأجيب بأنه «ينبغى أن تعود وتعمل على جمع الكلمة فإنا قاصدون سومنات، فحين نفرغ من أمرها وتكون قد استوليت على خانية تركستان فإنا ندبر أمر ما تطلب»، ثم ذكرت عودة بغاتكين من بلخ وفى نفسه شىء من الوحشة. وعودتنا بعد ذلك من الغزو، واستيلاءه على الخانية ومجيئه لقتال على تكين حين قضى على أخيه طغان خان، وإرسال الفقيه أبى بكر الحصيرى إلى مرو، والحروب التى دارت والصلح الذى انتهت إليه؛ فإن أرسلان خان ٥٢٧ لم يرد أن يكون أخوه بغراخان مجاورا لنا، واليأس الذى استولى على هذا من بعد ذلك، مما جعلناه فى باب وحده من هذا التصنيف

ولم يتيسر بعد ذلك إرسال الحرة زينب فإن السلطان محمود مات، واعتلى مسعود العرش، وتوفى قدر خان بعد ذلك بسنة واحدة، فخلفه ولى عهده أرسلان خان على تركستان؛ فمنح أخاه بغراخان ولاية طراز واسبيجاب ونواحيها ومنحه هذا اللقب، وكانت الصلة بينهما حسنة فى الظاهر سيئة فى الباطن وقد أوفد السلطان مسعود، كما بينت من قبل، كلا من أبى القاسم الحصيرى والقاضى أبى طاهر التبانى، قريب هذا الإمام أبى صادق التبانى، فى سفارة إلى أرسلان خان وبغراخان لتجديد العهد والميثاق، فذهبا وبقيا فى تركستان

زمنا طويلا حتى استقامت الأحوال وعادا ظافرين ومعهما الخاتون بنت قدرخان ، التى كانت خطيبة السلطان مسعود ، وخاتون أخرى هى بنت أرسلان خان وكانت مخطوبة للأمير مودود ، وقد ماتت هذه فى الطريق ، وكذلك مات القاضى التبانى فى پروان ؛ وجاء أبو القاسم الحصيرى مع الخدم والمهد إلى غزنة حيث احتفل بزواج السلطان من عروسه . وقد بعث بغراخان مع رسولينا حاجبا مع أحد العلماء فى سفارة إلينا ، طالبا إرسال الحرة زينب ، وكان لأرسلان خان كلام فى هـذا الشأن، وعزموا على إيفاد العروس ولكن بلغ مسامع السلطان أن بغراخان تحدث حديثا لايليق فى أمر الميراث المستحق لزينب بوصفها شقيقة السلطان ، فغضب غضبا شديدا وأعاد الرسول بخفى حنين مع وعود معسولة وأجل لم يسم ، ثم بعث إلى أرسلان بكتاب يشكو فيه ، وتحدث إليه عن هذا الطمع الدنىء . وعاتب أرسلان خان أخاه على ذلك وكيف قال هـذا العبث عن غير روية . فأغضب هذا بغراخان وثار وأفلت منه زمام نفسه وأصبح عدوا سافرا لأخيه ولنا جميعا . وبلغ الأمر إلى حد أنه حين دخل السلاجقة خراسان وهزموا بكتغدى وبلغ هـذا الخبر تركسان قال المنهون إن بغراخان أظهر شماتة وفرح ، من جهة لأنه كان عدوا لنا ومن جهة أخرى لأن طغرل كان صديقه ومن صنائعه ، فأغرى السلاجقة سرا وقوى عزائمهم ٥٢٨ وقال يجب أن تحاربوا ، ووعدهم بأن يمدهم بما يحتاجون من رجال من الخانيين على شاكلة التركمان . وما أن علم السلطان بهذه الأخبار حتى علاه الهم فإنها لم تكن أمراً هينا . وحدث بعد ذلك أن أمسكوا إسكافيا وهو يعبر آموى ، على نحو يثير الريبة ، فلما استجوبوه ظهر أنه جاسوس بغراخان ، وأنه قاصد إلى التركمان ومعه منه كتاب إليهم ، وقد خبأه ، فبعثوا به إلى الدركاه ، وقد اختلى به أستاذى أبو نصر واستجوبه فاعترف ، وأخرجت أدوات الإسكافية والخراز من حقيبته ، وكانوا قد جوفوا الخشب وأخفوا به رسالة صغيرة ؛ ثم أحكموا

وضعها ، وملؤوا الفراغ بنشارة الخشب ، ولوّنوا قطعة الخشب بحيث يصعب تمييزها ، وقد اعترف الرجل بأن هذه التدابير من صنع بغراخان نفسه .

وقد أمر أبو نصر بإجلاس الرجل فى مكان خفى . وأخـــذ الرسالة إلى السلطان ، وكانت ممهورة وهى موجهة إلى طغرل وداود وبيغو والينالبين ، وفيها إغراء لهم بنا وتهوين أمرنا فى نظرهم ، ويقول لهم أصمدوا ورابطوا حتى نرسل لكم أى عدد من الرجال تريدون . وقد غضب السلطان حين عرف هذا وأمر بكتابة رسالة إلى أرسلان خان يذهب بها فارس مسرع ، وقال ليس من الخير أن تجرى الأمور على هذا النحو وأن يرضى بهما الخان . فقال أبو نصر « أطال الله حياة مولاى إن الترك لا يحبوننا أبدا ولقد سمعت السلطان محمود يقول : « إن الترك يتقـــربون منا بحكم الضرورة وإنهم كلما أوتوا القوة لا يبقون علينا ولا يجاملون » والصواب عندى أن نبعث هذا الجاسوس إلى الهند ليعمل فى مهنته بلاهور وتودع هذه الرسائل ممهورة فى حرز ؛ ثم نبعث رسولا إلى أرسلان خان وبغراخان بحيث نستعين فى رقة بأرسلان خان لمنع هذه التدابير حتى لا يقدم بغراخان على تدبير شىء جديد » .

فقال السلطان هذا جد الصواب . ومهر الرسالة بخاتمه ثم حفظت ، وأعطى الجاسوس مائة دينار . وقال له أستاذى لقد حفظت لك حياتك فاذهب إلى لاهور واشتغل بتصليح الأحذية . وسيق الرجل إلى لاهور ثم إن السلطان والوزير وأبا نصر مشكان قد خلوا إلى أنفسهم واتفقوا على أن يكون الإمام أبو صادق التبانى صاحب هـذه السفارة ، لأنه كان من أقارب أبى طاهر التبانى ، فناداه السلطان وأبدى عطفه عليه وقال له « قم بهذه السفارة ، بما يحقق المقصود منها ، وحين تعود سأعطيك قضاء نيسابور » . فاستعد أبو صادق وذهب من غزنة ومعه أمتعة تربو قيمتها على عشرة آلاف دينار ، وكان ذلك يوم الثلاثاء السابع من ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وأربعمائة (١٠٣٧) ، وظل يعانى أداء ٥٢٩

هذه المهمة ويجادل عنها ، حتى قال عنه بخراخان إنه يذكرنا بمناظرات وجدل أبى حنيفة ، وقد أقروا جميعاً أنهم لم يروا كمثله أحداً فى الصدق والأمانة . ونجح بعدمفاوضات طويلة فى إبرام العهد مع أرسلان خان وأخيه ، وأقنعهما بوجوب إيثار الود مع السلطان . ونقل المنهون هذه الأخبار ، واطلع عليها السلطان . فقال مرات للأستاذ الرئيس ولأبى نصر : «لم يكن حب أبى لهذا الرجل خطأ» وعادهذا الإمام وفى الطريق أمسكه والى جرم[1] وأخذ كل ما معه فإن ولاة الجبال كانوا قد طغوا ، ولكنه استطاع بحيلته أن يفلت من هؤلاء اللصوص ، وكان يخشى على حياته منهم ، فسار إلى غزنة وبلغها فى سنة ثلاثين وأربعمائة (١٠٣٨) قبل عزمنا على الارتحال منها بعشرة أيام تماما ، ولقى من عطف السلطان ما يتجاوز حد الوصف ، وقد قال له : «إن كل ما اغتصبه منك اللصوص سيرد إليك بل وأكثر منه وهذا فوق ما وعدناك به من قضاء نيسابور» .

وذهب السلطان إلى الصيد ، قبل صلاة الجمعة ، الحادى عشر من ذى القعدة وفى صحبته أستاذى والحاشية كلها وكان ذلك فى صحراء رخا مرغ ، وكان اليوم موفقا والصيد كثيرا ومن كل صنف ، وعاد السلطان إلى الجوسق الجديد يوم الأحد الحادى والعشرين من هذا الشهر . ويوم الأحد الرابع من ذى الحجة جلس السلطان للمهرجان ، حتى جيء بالهدايا التى أعدت له من جميع أرجاء مملكته . وقد قدّم له مواليه وحاشيته هدايا جمة وقال الشعراء الشعر وأنعم عليهم بالصلات فقد كان هذا السلطان محبا للشعر ويجزل فيه العطاء . ولم أكتب ما أنشد من القصائد ، فإذا اعترض أحد بقوله لماذا ذكرت ما قيل من شعر فى السلطان محمود رضى الله عنه ولم تذكر ما قيل فى السلطان مسعود رضى الله عنه ؟ فجوابى

---

(١) مدينة من نواحى بدخشان .

أن هذه الأيام أكثر قربا منا ، ولو ذكرت هذه القصائد كلها لطال ذكرها ، ومعروف على أي نمط ينظمون الشعر في الأعياد . وبعد أن استمع السلطان للقصائد انصرف إلى الشراب واللهو وقضى يوما سعيدا . وكان السبت عيد الأضحى فاحتفل به احتفالا رائعا وجرى استعراض للجيش من رجّالة وخيالة ممن كانوا في الدركاه وأقيمت الزينات التي تجاوزت الحد ، ذلك أن رسل أرسلان خان وبغراخان ولشكرخان والى مكان (؟) ٥٣٠ كانوا قد وفدوا على السلطان ، ومدت الموائد الكبيرة ودارت الكؤوس . وفي الغداة خلع على الأمير مودود خلعة لا نظير لها فيها الكوس والأعلام والدبدبة ، وقد منح ولاية بلخ وأعطى المنشور . ثم رجع إلى قصره حيث وفد عليه بأمر السلطان جميع الكبراء والموالي والحشم ، وكان ينزل سراى أرسلان الجاذب ، وقد أدوا له فروض الطاعة والولاء على أحسن وجه .

وفي اليوم الثالث من العيد استبقى السلطان ، بعد انفضاض الاستقبال كلا من الوزير والسپهسالار والعارض وأستاذى والحاجبين بكتغدى وأبي النصر ، وجرى الحديث في سفر السلطان وإلى أي ناحية يكون . فقالوا فليتفضل مولانا بأن يحدثنا برأيه ، فإن الصواب هو ما يراه وذلك حتى نقول ما نعرف . فقال السلطان : « إني نذرت بعد المحنة التي عانيتها في بست هذا العام بعد حادثة الماء ، أنه إذا منّ الله علي بالشفاء فإني أسير إلى الهند وأفتح قلعة هانسى لأني تراجعت عنها قبل بلوغ الغاية مضطرا لمرضى ، ولذلك يجب علي أن أفي بنذرى فقد بقيت القصة في قلبي والسفر قريب ، ولذلك فقد عزمت على أن أرسل ولدى مودود إلى بلخ وأن يذهب معه الوزير والسپهسالار ومعهم جيش كامل الأهبة ، وأن يذهب سباشى الحاجب إلى مرو مع جيش بحيث لا يجرؤ التركمان على دخول البلاد ، ثم إن سورى في نيسابور مع فوج من الجند ، وفي طوس وقهستان وهراة والمدن الأخرى شحنات كاملة ، فلن تكون فتنة في خراسان.

فإذا حدث شيء فأنتم قريب بعضكم من بعض وفى وسعكم تدارك الأمر على عجل ، وقد هدأ أبناء على تكين باتفاقنا معهم ، وإن عبد السلام عندهم يعقد المواثيق ، ولم يبق لابن كاكو من قوة ولا يخشى شيء من رجاله كما كتبه أبو سهل الحمدوى ، والتراكمة لا يعتمدون على قوله فلن يكون هناك خلل .
ولن أقوم بعمل آخر بعد الوفاء بنذرى وفتح قلعة هانسى ، ولكنى سأعود بحيث أبلغ نيسابور قبل النوروز . لقد عزمنا على هذا . وإنا لا محالة فاعلون » فقولوا الآن ما يعن لكم ٥٣١ فى هذا دون محاباة » فالتفت الوزير إلى الحضور وقال لهم ما رأيكم فيما يقول السلطان ؟ فقال السپهسالار : « إنى وأضرابى من حملة السيف نعمل على تحقيق أوامر السلطان ونتجه إلى حيث يوجهنا ونفتديه بأرواحنا ، وإنما يعرف الوزير ما فى هذه الأمور من المثالب والمزايا ، فإنها من مهام الملك ولا قدرة لنا على إدراك ما يعرف ويرى من قراءاته ومما سمع ، فهذه صناعة الوزراء وليست صناعتنا » . والتفت إلى الحاجب وقال : « وأنت أتقول بما قلت » ؟ قال أقول به . فقال الوزير للعارض وأبى نصر لقد ألقى علىّ السپهسالار والحاجب تبعـــة هذا الأمر وتنصلا منه فما رأيكما ؟ وكان العارض رجلا قويا فقال : « معلوم أن صناعتى هى العرض ولا أستطيع أن أبتعد عن دائرتها وهى من الجسامة بحيث لا أستطيع أن أتوجه إلى غيرها » .
وقال أبو نصر مشكان : « إن هذا العمل كما يبدو هو من اختصاص الأستاذ الرئيس ولا بد من التكلم بصراحة كما يأمر السلطان وسأقول كل ما أعرف .
وقسما بنعمة مولاى علىّ فإنى لن أداهن » . فقال الوزير : « إنى لا أوافق مطلقا على سير السلطان للهند وإنمــا الصواب أن يذهب إلى بلخ ويقيم بها إلى أن يتيسر له التوجه إلى مرو حتى تعود خراسان إلينا ، وتضبط الأمور فى الرى والجبال ، ويستطيع بهذا أن يفى بالنذر ، وإذا كان المقصود فتح هانسى فإن سالار الغزاة وجيش لاهور وحاجبا يعينه الدركاه يستطيعون القيام بهذا الفتح

وبهـــذا يتحقق المراد فى هانسى وتظل خراسان فى أيدينا ، وإذا لم يتوجه السلطان إلى خراسان وظفر التركمان لا بناحية بل بقرية منها لخربوها كما هى عادتهم ، وأجروا بها المثلة والقتل والحرق فإن عشر غزوات من مثل هانسى لا تساوى شيئا بالنسبة لهذا ، فالذهاب إلى آمل والإياب منها قد سبب هذا البلاء ، وهذا الزحف إلى الهند أدهى وأمر ، هذا ما عندى قد بينته وأبرأت منه ذمتى والرأى للسلطان » . فقال أستاذى : « وأنا على هذا الرأى أيضا وأضيف إليه أن السلطان لو يشاء يعين فى السر رجالا ينبثون وسط الجند والرعية وضيعهم وشريفهم ليسألوا هل من الصواب أن يسير السلطان إلى الهند والحال فى خراسان وخوارزم والرى والجبال على هذا النحو من الاضطراب أم ليس هذا من الصواب فى شىء ؟ وذلك ليقف مولاى على ٥٣٢ رأى الناس ، إنى لعلى يقين من أنهم جميعا سيقولون إنه من خطل الرأى ، وإن العبيد يبالغون بقولهم إن السلطان قد أمر وإنه صاحب الأمر » .

فقال السلطان : « إنى على ثقة من صداقتكم وإخلاص نصحكم ، وتوجهى إلى هانسى هو وفاء بالنذر الذى نذرت ، وسأوفيه بنفسى ولو حدث فى خراسان اضطراب كثير فإنه يهون على لأنى أكون قد وفيت بنذرى وأرضيت الله عز وجل وهو سبحانه وتعالى يسدد خطانا » : فقال الوزير : « مادام الأمر كذلك فإنا سنبذل أقصى ما فى جهدنا آملين ألا تكون فتنة فى هذه الغيبة » وعادوا ، وكذلك حيا بقية القوم وانصرفوا . ثم إن الوزير وصحبه بعد عودتهم جلسوا فى خلوة وقالوا إن هذا السلطان مستبد استبدادا يفوق الحد ولا يمكن التصريح له بأكثر مما قلنا ، ومن المحال أن نتحدث مرة أخرى فى هذا خروج على الأدب وسوف يقع ما قدره الله تعالى ، ثم تفرقوا .

وفى يوم الخميس منتصف ذى الحجة ألبس السپهسالار على الخلعة وكانت

غاية فى الأبهة ، وجاء إلى الحضرة وقدم فروض الطاعة والولاء وقد أثنى عليه السلطان وأسبغ عليه من عطفه وقال له إن اعتماد ولدنا ووزيرنا وجندنا قاصر عليك . وسيجىء الوزير معك ويكون خليفتنا وله تدبير الأمور وأموال الجند . وأما قيادتهم والحرب ففى يديك ، فارع أوامره ، ويجب أن تتحد قواكم وقلوبكم وآراؤكم حتى لا تحدث فتنة فى غيبتى . فقبل السپهسالار الأرض وقال : « إن لى روحا واحدا أضحيه فى سبيل أوامر مولاى » ثم عاد . وفى يوم الأحد[1] السابع عشر من هذا الشهر خلع على الوزير خلعة فاخرة للغاية كما هو الرسم بل وأكثر مما يفرضه الرسم ، فإنه كان يرعى خاطره فى كل أمر وذلك لأنه قد تقرر أن يكون عليه مدار الأمور فى غيبة السلطان . وحين مثل فى الحضرة قال له : « بورك فى الخلعة ، وإن اعتمادنا فى رحلتنا هذه إلى الهند لهو بعد فضل الله تعالى على الوزير ، إنه نذر وسنوفى به ، وقد أودعناه أمر ولدنا والسپهسالار وكافة الحشم الذين سيبقون هناك وعليهم جميعا امتثال أمره » : فقال الوزير : « إنى عبد مطيع وسأقوم بشروط العبودية » ثم عاد إلى بيته حيث أدرا له حقه من التكريم .

ويوم الإثنين التاسع عشر من ذى الحجة ركب السلطان وخرج مبكرا إلى ٥٣٣ باغ فيروزى حيث ركب ومر الجيش أمامه فوجا فوجا ، وبعد ذلك وقبيل صلاة الظهر ترجل الثلاثة الكبار ،ابن السلطان والوزير والسپهسالار ، وقدموا فروض الولاء ثم ذهبوا ، وقد عين السلطان الأستاذ أبا نصر النوكى ، أستاذى ، ليكون مع الوزير قائما بوظيفة الإنهاء . ويوم الخميس لثمانية أيام بقين من ذى الحجة سار السلطان من غزنة عن طريق كابل قاصدا الهند ليغزو قلعة هانسى ، وقد أقام فى كابل عشرة أيام .

---

(١) نسخة غنى — فياض تقول الثلاثاء ، ونسخة نفيسى تقول الأحد (٦٤٨ وملحوظة ٣) ، وأخذنا عن نفيسى لصحته .

تاريخ سنة تسع وعشرين وأربعمائة

١٠٣٧ — ١٠٣٨

كانت غرة محرم يوم السبت . وقد غادر السلطان كابل يوم الخميس السادس من هذا الشهر . ويوم السبت الثامن منه جاءت الأنباء من خراسان والرى وكانت هامة كلها ، ولكن السلطان لم يلتفت إليها ، وقال لأستاذى اكتب رسالة للوزير وضع فى طيها هذه الكتب ليقف عليها ويتخذ الواجب فى كل منها فليس لنا طاقة على التفكير فيها . ويوم الثلاثاء لخمسة أيام بقين من المحرم بلغ السلطان جيلم[1] ونزل على شاطىء نهر قرب دينار كونه ، وقد أصيب بعلة فلبث هناك خمسة عشر يوما لم يستقبل إبانها أحدا وتاب عن الشراب وأمر بسكب ما فى خزائن الشراب فى نهر جيلم ، وحطموا آلات الملاهى والطرب ، ولم يكن أحد يجرؤ على أن يصرح بالشراب لأنه كان قد عين العسكر[2] والمحتسبين لمراعاة منعه وشدد فيه . وأرسل أبا سعيد المشرف فى مهمة إلى جكى الهندى[3] فى قلعته ولم يقف أحد على هذا الأمر . وكنا لا نزال فى جيلم حين وصلت أنباء عن الراى[4] الأعظم وراى كشمير وكنا هناك حين علمنا نبأ وفاة راى كشمير . ويوم السبت الرابع عشر من صفر تحسنت صحة السلطان فسمح لهم

---

(١) جاء فى حاشية نسخة يب : جيلم نهر كبير بين پشاور ولاهور ويقطع ولاية كشمير وهو أحد انهار البنجاب الخمسة الكبيرة . غنى — فياض ص ٥٣٣ هامش ١ .

(٢) النص المطبوع ، غنى — فياض ٥٣٣ ونفيسى ٦٤٩ يذكر كلمة جنباشيان ، وقال غنى — فياض إن نسخة يب ذكرت جاووشان بدلا منها (هامش ٣) ، وقال نفيسى إن نسخة ط ذكرت جاووشان كذلك (هامش ٤) .

(٣) لعله يقصد جنكى الهندى الذى مر ذكره فى ص ١٥٧ . غنى — فياض ص ٥٣٣ هامش ٤ .

(٤) الراى الحاكم .

بالاستقبال وغادر جيلم يوم الثلاثاء السابع عشر من هذا الشهر . وفى الأربعاء التاسع من ربيع الأول بلغ قلعة هانسى ، وعسكر الجند عند سفح القلعة وحاصروها ، وجرت الحرب كل يوم وكانت حربا لم ير أشد هولا منها ، فإن جند القلعة دافعوا عنها دفاعا مجيدا ولم يقصروا ، وأبلى الجيش المنصور وخاصة فرقة غلمان السراى بلاء ٥٣٤ حسنا . وكانت القلعة كالعروس البكر ولكنهم استطاعوا نقب جدارها فى خمسة مواضع ، ثم هدم الجدار كله ، واستولوا على القلعة بالسيف يوم السبت لعشرة أيام بقين من شهر ربيع الأول وقتلوا البراهمة مع المقاتلة وسبوا نساءهم وأولادهم وأصاب الجيش ماكان لهم من الأمتعة . وهذه القلعة تسمى فى الهند بالقلعة العذراء ، لأن أحدا لم يستطع فتحها فى أى زمان ، وعاد من هناك يوم السبت لأربعة أيام بقين من هذا الشهر ، وبلغ غزنة يوم الأحد الثالث من جمادى الأولى وخرج من مضيق سكاوند ، وتراكم الثلج فى الصحراء بحيث لم يعرف أحد مداه ، وكانوا قدكتبوا للكوتوال أبى على حتى يبعث عمال السخرة ليزيلوا الثلج من الطريق ، وقد فعلوا ولو لم يزيلوا الثلج لما استطاع أحد المسير ، وقد بدا كأنه شارع يمتد من رباط محمد سلطان إلى المدينة ، وفى هذه الأيام الثلاثة التى قربنا من المدينة خلالها كانت الثلوج تهطل بغير انقطاع . وقد خرج لاستقبال السلطان على مسافة منزلين الأمير سعيد والكوتوال والرئيس وغيرهم . ونزل السلطان فى الجوسق المحمودى القديم ، وأقام به أسبوعا وذلك إلى أن فرشوا الجوسق الجديد وزينوه فانتقل إليه . وعاد إلى غزنة وكذلك الأمتعة والأعزاء والأمراء الذين كانوا فى قلاع سبيخ . وطوال خدمتى لهذه الأسرة الكريمة لم أشاهد شتاء قارسا كشتاء هذا العام فى غزنة . والآن قد ضعفت فقد أمضيت عشرين سنة هنا ، وأرجو أن تستعيد هذه المدينة مجدها القديم بيمن السلطان المعظم إبراهيم بن ناصر دين الله خلد الله سلطانه إن شاء الله . ويوم الثلاثاء لأربعة أيام بقين

من جمادى الأولى جلس الأمير لاحتفال النوروز . وقد أدوا هذا اليوم حقه ، وقدم الموالى الهدايا فبادلهم السلطان إياها اتباعا للرسم . ودار الشراب والطرب فوق ما يتصور لأن السلطان لم يكن يتناوله منذ توبة جيلم حتى اليوم .

ويوم الثلاثاء الثالث من جمادى الثانى جاءت الكتب فى غاية من الخطورة من خراسان والرى ، تقول إن التركمان وفدوا خلال الشتاء إبان غيبة السلطان وقد نهبوا طالقان وفرياب ، وألحقوا أضرارا بأماكن أخرى ، لأنه كان من العســـير على جيوش السلطان المنصورة أن تسير فى هذا الموسم . وقد نجم عن غزو السلطان لقلعة هانسى خلل كثير لاحدّ له ،وقد حوصرت الرى نفسها . وقد ندم السلطان ٥٣٥ رضى الله عنه على ذهابه إلى الهند ولكن لات حين مناص ، ومن ذا الذى يغالب القدر . وأجاب السلطان بأنه لا بد من التجلد فإن رايته العالية سوف تتحرك حين يتحسن الجو . ويوم السبت منتصف هذا الشهر وفد على غزنة من بلخ الأمير مودود والسپهسالار على ، وبقى الوزير هناك بأمر السلطان حيث اقتضت الضرورة بقاءه . ويوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب ارتدى الأمير عبد الرازق خلعة إمارة پرشور . وقد أدى مراسم الولاء ، وأعطى غلاماه السواد الذى كان شعار الحجابة ، وعهد إلى سهل بن عبد الملك بالكتخدائية ومنح الخلعة ، وكان ذا كفاءة فائقة ، وهو من أبناء خدم أحمد بن ميكائيل ، وكان مرؤوسا فترة طويلة لأبى سهل الحمدوى . وقد سار هذا الأمير يوم الثلاثاء التاسع من هذا الشهر إلى پرشور فى أبهة عظيمة ومعه مائتا غلام .

وفى اليوم الثانى جاء كتاب من نيسابور يقول إن أبا سهل الحمدوى قد بلغها فإنه لم يستطع البقاء فى الرى ، وذلك لأن تاش فراش قد قتل وقبضوا على كثير من الأعيان وقد بقى محاصرا فى القلعة فترة طويلة حتى انتهز الفرصة

ولاذ بالفرار وقد استولى التركمان على الري وسأذكر هذه الأحوال في باب خاص، فقد قلت إني سأفرد للري والجبال وما فيهما من نوادر وعجائب فصلا خاصا .

وحين بلغ أبو سهل الحمدوي نيسابور كان بها كبير الحجاب سباشي وكان التركمان في مرو ؛ وكان كل من الفريقين يستعد للحرب ويحذر كل منهما الآخر، وكان السلطان يعتبر الحاجب مقصرا تقصيرا جسيما ، وكان على لسانه دائما « إنه لا يليق للقيام بمثل هذه المهمة بيد أنه معجب بإمارة خراسان ولابد من استدعائه وإيفاد قائد آخر ليبادر بالحرب » وكان هذا نتيجة إطلاعه على الرسائل التي كانت تصله تباعا من سعيد الصراف كتخدا الجيش ومنهيه والتي يقول فيها إن الحاجب الذي لم يكن معتادا على الشراب قد انكب عليه منذ سنة ولا ينقطع عنه ويلهو مع الجواري الترك الجميلات ويختلي بهن ، وهو ينتقل بالجند في كل وقت، ويحمل جماله التي تزيد على الألف الغلة من بلد تباع فيه السبعة أمنان منها بدرهم إلى حيث يباع المن الواحد من الخبز بدرهم ثم يسوق إليه الجند ويقول إني أحتاط فيبيع ثمة الغلة للجيش ويحصل على أرباح باهظة وهكذا تدخل جيبه ٥٣٦ أموال الجند. وهذا لاشك يؤدي إلى ضيق صدر السلطان ، ولم يكن الأمر كذلك بل قيل إن سباشي يحتاط كل الحيطة بحيث لقبه التركمان بسباشي الساحر وحين تجاوز استبطاء السلطان له وعتابه عليه الحد اضطر سباشي إلى المبادرة بالحرب كما سأذكر . والله سبحانه وتعالى لم يطلع أحدا على الغيب وكان القضاء قد حكم بضياع خراسان من يدنا ؛ وأن يبلغ شأن هؤلاء القوم المكانة التي بلغوها ، ولم يكن بد من فشل كل تدبير ، ومن المحال مغالبة القدر . ثم إن أبا سهل الموكل بالستار ، معتمد الحاجب سباشي ، جاء إلى غزنة عن طريق غور ليمكث ثلاثة أيام ، وكان ذلك يوم الأربعاء الثاني عشر من شهر رجب ، وقد تسلم منه أستاذي رسالة فور وصوله وحملها للسلطان فعرضها عليه ، وقد جاء

فيها : « لقد أوغروا صدر السلطان من كثرة ما افتروه عليّ كذبا ، ولقد امتثلت لأوامر السلطان حتى الآن امتثال الخادم الأمين وحين جاءنى أمر مولاى بوجوب المبادرة بالحرب هممت بالزحف من نيسابور إلى سرخس للقتال ، ولكن أبا سهل الحمدوى وسورى صاحب الديوان قالا ليس هذا الزحف من الصواب ويجب المحافظة على الذخيرة والإفادة من وجودها ، فإنه إذا ما آل الأمر إلى السيف فمن الممكن أن تنفد ونحن لاندرى مصير الأمور . وهذا مارآه القاضى صاعد وشيوخ نيسابور ، فخشيت الملامة فطلبت منهم محضرا ، فاجتمعوا ووقعوا على المحضر وإنى مرسله لمولاى ليقف عليه رأيه العالى وذلك فى انتظار الجواب ، الجواب القاطع فى أمر الحرب ، أشنها أو أتريث حتى أعمل بما يراه مولاى ، وها هو معتمدى ، أبو سهل ، قد أرسلته فى هذا الأمر وأوعزت إليه أن يسير إلى غزنة عن طريق غور فى خمسة عشر يوما ، وأن يمكث ثلاثة أيام ويعود إلى نيسابور فى خمسة عشر يوما ، وحين يعود ومعه أمر السلطان إلى فإنى سأقوم بالأمر إن شاء الله عزوجل » وقد قرأ السلطان هذه الرسالة ووقف على ما فى المحضر فاستدعى أبا سهل واختلى به من الضحى حتى صلاة الظهر ، وقد استدعى أستاذى ثم أعاد سؤال أبى سهل عن الأحوال فأعاد ذكر أحوال تركمان السلاجقة على لسان سباشى ، وكيف أنهم « قسموا رجالهم إلى عشر أو ثلاثين فرقة ٥٣٧ وهم يعتبرون الصحراء بمثابة الأب والأم منهم كما هو حال المدن بالنسبة لنا ، وإنى سباشى لا أزال فى الحرب معهم حتى الآن ، وواليت إرسال الطلائع ومواصلة القتال ، وقد تعرفت بحقيقة أحوالهم وأساليبهم فى الحرب ، وقد حفظت الذخيرة ، ولم يستطيعوا تثبيت أقدامهم فى أى بلد فى خراسان حتى الآن ، وجباية الأموال جارية وعمال مولاى يزاولون أعمالهم .

وأما حديث فارياب وطالقان عن القتل والغارة مرتين مرة فى الصيف

ومرة فى الشتاء فقد كانت مناوشة ، وكان العبد مشتغلا بمواجهة القسم الأعظم منهم ، وكانوا أفواجا غير منتظمة ، وقد أغاروا فجأة ولم أعرف الأمر إلا بعد أن انتهى كل شيء ، وليس من الممكن أن يصمد جيش السلطان بغير مدد يعينه فإن خطة هؤلاء الخوارج من طراز خاص ، والحق ما كتبه أبو سهل الحمدوى وسورى فى المحضر بخطهما من أن حرب التعبئة هذه ليست من الصواب والرأى ما يرى السلطان وإنى منتظر جوابه وأنا على أهبة تامة ، ولو رأى السلطان ضرورة ضربهم ضربة قاضية والحملة عليهم حملة رجل واحد ، فليأمر بالكتابة إلىّ بخط أبى نصر مشكان مع توقيعه العالى ويثبت بخطه الكريم فى نهاية الكتاب الأمر بوجوب المبادرة بالقتال إذ حين تصلنى هذه الرسالة لن أبقى يوما واحدا فى نيسابور بل سأزحف فورا على سرخس ومرو وأبادر بالقتال ، فليس ثمة عذر والجيش على أتم الاستعداد ، أسلحته كاملة ونفقات الجند صرفت لهم نقدا » .

فقال السلطان لأبى نصر ماذا ترى ؟ فقال: «ليس هذا من عملى ولا أفوه بكلمة عن الحرب وإن السپهسالار هنا فمن الخير استشارته ، ومن الصواب أيضاً الكتابة للوزير للوقوف على رأيه » . فقال السلطان ليس من المستطاع إبقاء أبى سهل هنا حتى تصل الرسالة للوزير فى بلخ وحتى يعود الرسول بالجواب ، وسنتحدث غدا إلى السپهسالار وسنفكر مليا فى الأمر اليوم والليلة . فقال أبو نصر : هذا ما ينبغى عمله .

ثم انصرف إلى منزله وهو منهمك فى التفكير ، وقد قال لى : « إن أمراً جللا قد وقع ولست أدرى ماذا ستكون عاقبته ، فقد كان أرسلان جاذب داهية ليس له نظير مع ما له من العدد والآلات والجند ، وأعداؤنا التراكمة لم يكونوا على ما هم عليه اليوم من القوة والشوكة ، ولا مراء فى أن الحرب معهم ٥٣٨

قد استمرت مدة طويلة وكانت معقـــدة ، ولو لم يذهب السلطان محمود بنفســـه إلى پوشنك ، ولو لم يرسل الحاجب الغازى مع جيش بتلك الأهبة لما ظفرنا بما كنا نريد . وأمر السلاجقة اليوم غير ما كان عليه بالأمس وهم يغررون بالسلطان وقد افتضح أمرنا معهم مرة، نتيجة قصة بكتغدى ، تلك الكارثة الخطيرة التى لم يكن لها من سبب إلا الاستبداد بالرأى ولو، والعياذ بالله ، وقعت لهذا الحاجب هزيمة فإنه لا مفر من أن يذهب السلطان بنفسه وتزول هيبتنا حينئذ تماما ، وإنى أعرف ما ينبغى فى هذا الأمر ولكنى لا أجرؤ على التصريح به ، وسنرى ماذا يقضى به الله عز وجل . هذا ما آل إليه أمر الرى والجبال وما أدى إلى تشتيت هذا الجيش العظيم مع ما كان له من وسائل ، وهذه حالة خراسان ، وقد أحاط بنا الخطر من كل جانب ، والسلطان منغمس فى اللهو والطرب ومستبد برأيه والوزير متهم وخائف والسالارية العظام قد قضى عليهم بلا جريرة وقد شتت خليفة العارض هذا شمل الجيش بما يبديه من حرص على التوفير مما خدع به السلطان ، ولست أدرى ما المصير وإنى أتميز غيظاً [1] ويا ليتنى مت قبل هذا فإنى لا أتحمل رؤية هذه المحنة » .

يقول الخواجه أبو الفضل الكاتب مصنف هذا الكتاب إنه فى ذلك الوقت الذى جاء فيه السلطان مسعود بن محمود رحمة الله عليهما إلى غزنة من الهند وأقام بها بضعة أيام أقبل عليه قائد الفرسان أبو سهل وقص عليه ما جرى وعرف السلطان كل شىء فأمر بحرب المصاف . وكان أبو سهل قد بلغ غزنة يوم السبت الحادى والعشرين من رجب ، فاستراح يوما ثم إنه فى الغداة ، بعد انفضاض الاستقبال ، اختلى السلطان مع السپهسالار وأستاذى وأخذوا فى

(١) خون جگر ميخورم أى أشرب دم كبدى .

دراسة هذا الأمر حتى قرب الظهر ، ثم استقر الرأى على أن لا مندوحة من أن يبادر سباشى بهذه الحرب . وعاد السپهسالار وطلب أبو نصر الدواة والكاغد وكتب هذه الرسالة أمام السلطان الذى طلب الدواة والقلم ووقعها ثم كتب بخطه فى أسفلها إنّ على الحاجب الفاضل أن يعتمد على ما كتبه أبو نصر بأمرنا وفى مجلسنا وأن يبادر بقتال العدو حتى نرى ما يقدره الله لنا ، وإن رجاءنا فى الله عز وجل أن ينصرنا والسلام . ثم طلب السلطان أبا سهل وسلّمه الرساله وقال : «قل للحاجب أن يتخذ ما يجب من الحيطة وأن يتصرف بحكمة » . فقبّل الأرض وخرج ، وقد أنعم عليه بخمسة آلاف درهم وخمسة أكسية وحصان غورى . وقد انصرف عن طريق غور .

ثم إن السلطان أمر بالكتابة للوزير فى هذا الشأن ، وأرسل الكتاب مع الساعى الذى جاء بالرد بعد أسبوعين وفيه : « إن الصلاح والصواب فيما يراه السلطان » . ولكن الوزير كتب إلى أستاذى كتابا تحدث إليه فيه بصراحة قائلا : « إنه مما لا حاجة إلى ذكره أنه لم يكن من الجائز التورط فى عمل عظيم كهذا إذ ليس من المستطاع التكهن بمصيره فالأولى أن نترك الحكم للمشاهدة بعد أن انطلق السهم من القوس ، ولعله يكون خيراً وبركة إن شاء الله تعالى » . وقد عرض أستاذى هذا الكتاب على السلطان .

ويوم الإثنين ، ليومين بقيا من رجب ، سار السلطان إلى الحديقة المحمودية على أن يمكث بها مدة وقد حملوا إليها الأمتعة اللازمة .

ويوم الإثنين السادس من شعبان توفى أبو الحسن العراقى الكاتب رحمة الله عليه . وقد قيل إن نساءه قد دسسن له السم لأنه تزوج مطربة راقصة . وكان سىء الطبع ظنيناً ولا أعرف حقيقة سبب وفاته . وقد عدته فى الأسبوع الذى لقى

خنقه فيه فوجدته قد أشرف على الهلاك ولكنه كان حافظا لوعيه . وقد أوصى بنقل رفاته إلى مشهد على بن موسى الرضا رضوان الله عليه فى طوس ليدفن هناك ، وكان قد أعد العدة لذلك من قبل فأجرى الماء فى قناة المشهد ، وكانت قد جفت ، وأقام هناك خانا ، وأوقف على القناة والخان قرية قليلة الإيراد .

وقد ذهبت إلى طوس سنة إحدى وثلاثين (١٠٣٩ — ١٠٤٠) مع السلطان ، قبل هزيمة دندانقان ، فسرت إلى نوقان وزرت قبر الرضا رضى الله عنه ، فرأيت قبر العراقى هناك فى المسجد الذى يقال له الآن مشهد ، وكان فى طاق ارتفاعه خمسة أذرع ، وقد زرته وعجبت من حال هذه الدنيا الخدّاعة التى أعلت شأنه ثمان أو تسع سنوات ورفعته إلى السماء ، ثم سرعان ما سقته كأس المنية فأصبح لاشىء .

وكان السلطان شديد الاهتمام بأخبار سباشى فى تلك الأيام ، وكان لا يتحدث عن شىء سواها ، وقد فوض الأمر لله ، وأمر بترتيب الفرسان على طريق غور لينقلوا إليه أهم الأخبار . وكان قد تم إعداد السرير الذهبى والبساط ومجلس القصر التى أمر السلطان بإعدادها من قبل ، والتى عمل فيها أكثر من ثلاث سنوات ، وقيل إن السلطان قد أمر بوضعها فى الصفة الكبيرة بالسراى فوضعت بها ، وزين الجوسق ، وكل ٥٤٠ من رأى تلك الزينة فى ذلك اليوم لم يعد يرق فى نظره مايرى بعد ذلك . هذا ما أعرفه أما مايعرفه الآخرون فلا علم لى به . كان السرير كله من الذهب الإبريز ، وقد تدلت منه تماثيل وصور ، كما تتدلى غصون الشجر ، وكانت مطعمة بكثير من الجواهر الغالية وقد أحيط بسياج مكلل بأنواع الجواهر ، وغطى السرير بالديباج الرومى ووضع عليه أربع وسادات محاكة بخيوط من ذهب ومحشاة بالحرير ، وسجادة ومسند للظهر وأربعة مساند ، إثنين

عن يمين واثنين عن شمال . وفى سقف الصفة علقت سلسلة ذهبية تصل إلى قرب صفة التاج والسرير ، وقد شد إليها التاج . ونصبت على أعمدة ، مما يلى السرير ، أربعة تماثيل من نحاس لرجال بسطوا أيديهم وكأنهم يحملون التاج ، ولم يكن التاج يزعج رأس السلطان فإنه كان مشدودا إلى السلاسل والعمد ، وكان السلطان يجلس تحته . وقد زينت هذه الصفة بالسجاجيد والديباج الرومى والأبوقلمون المحلّى بالذهب ، وقد وضعوا بها ثلاثمائة كرسى مذهب ، طول الواحد منها ذراع وعرضه أقل من ذراع ، وقد علق عليها مشمومات الكافور ونافة المسك والعود والعنبر ، وأمام السرير العلوى خمس عشرة قطعة من الياقوت الرومانى والبدخشى ومن الزمرد واللؤلؤ والفيروز . وأقاموا فى قصر الربيع خوانا فى وسطه جوسق من الحلوى يرتفع حتى السقف ، وعليه حملان كثيرة . وانتقل السلطان رضى الله عنه منه من الحديقة المحمودية إلى هذا الجوسق الجديد ، وجلس فى هذه الصفة على السرير الذهبى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان ، وكان التاج معلقاً فوق رأسه ، وقد ارتدى قباء من الديباج الأحمر المطرز بالذهب الذى كان يخفى أكثر قماش القباء . وكان غلمان الخاصة حول السياج فى أكسية سقلاطونية وبغدادية وإصفهانية وعلى رؤوسهم العمامات ذوات الغصنين وقد شدوا خصورهم بأحزمة من الذهب ، وفى أيديهم المعاليق والأعمدة الذهبية . وفى الصفة عشرة غلمان ، عن يمين وعن شمال ، على رؤوسهم عمائم ذات أربع ريشات وفى وسطهم أحزمة ثمينة كلها مرصعة بالجواهر ، وكذلك كانت حمائل سيوفهم مرصعة . وفى وسط السراى صفان من الغلمان ، وقف صف منهما قرب السور وكان على رؤوسهم عمائم ذات أربع ريشات ، وفى أيديهم السهام والسيوف والخناجر والأقواس ، والصف الثانى فى سراى الحرم ، على رؤوسهم عمائم ذات غصنين وقد تمنطقوا بأحزمة ثمينة من الفضة وفى أيديهم معاليق وعمد من الفضة أيضاً . وغلمان هذين الصفين يرتدون أقبية من الديباج الششترى .

وكان هناك عشرة خيول عليها عدد مرصعة بالجواهر وعشرون عدتها من الذهب الخالص . وكان لديهم خمسون مجنا ٥٤١ ديلميا ، منها عشرة مرصعة بالجواهر وكان أصحاب المراتب وقوفا . ووقف خارج السرادق كثير من عمال البلاط وحشد من الجند المسلمين .

وأذن بالاستقبال ، ومثل فى حضرة السلطان أركان لدولة والموالى والحشم ونثروا مالا يحصى من الأموال . وقد أجلسوا على هذه الصفة الفسيحة كبار الموالى والعظماء ، وجلس السلطان حتى الضحى ، وكان جالسا فوق السرير إلى أن أقبل الندماء فأدوا التحية ونثروا الأموال . ثم قام السلطان وركب واتجه نحو الحديقة فبدل ملابسه وعاد راكبا إلى قصر الربيع حيث جلس إلى المائدة ، وقد دعى إليها العظماء وأركان الدولة وقد مدت موائد أخرى خارج القصر على هذا الجانب من السراى ، أجلس إليها المقدمون والفرسان وأصناف الجند ، وقد أخذوا جميعا فى الطعام ، وكان المطربون يغنون وجرى الشراب كالأنهار ، حتى ترك القوم الموائد وهم سكارى ، وقام السلطان مسرورا فركب ومضى إلى الحديقة وكانوا قد أعدوا بها مجلسا كثير الزينة . وقد أقبل عليه الندماء فظلوا يشربون حتى قرب صلاة العصر ثم انصرفوا .

كان السلطان أثناء هذا كله ضيق الصدر ، كان يفكر فى سباشى والجيش ، وقد ورد كتاب من نيسابور يقول إنه حين جاء أبو سهل الموكل بالستار دعا الحاجب الأعيان إلى مجلس . واختلى مع أبى سهل الحمدوى وسورى وعدة رجال ممن كانوا هنـــاك ، وقد عرض عليهم كتاب السلطان وقال لهم بهذا جاء الأمر فلم يبق للحديث مجال ، وإنى ذاهب على أية حال غدا لأنهى هذا الأمر ، فهذا ما قدر الله ، وأما أنتم فعليكم البقاء هنا لتودعوا ما يرد من الرى من المال والألبسة مكانا أمينا ، إذ ليس فى القدرة التنبؤ بمـا سيؤول إليه الأمر ،

ولا بأس من الاحتياط والحزم . قالوا سنفعل ما أمرت به ولو أنا كارهون سيرك هذا للقتال ، ولكن لا مناص منه بعد صدور أمر السلطان وحكمه الجازم .

وفى الغداة سار سباشى الحاجب فى طريق نيسابور على جانب سرخس مع جيش كامل الأهبة كثير العدد والآلات . وبعد هذا جمع سورى ما لديه من مال نيسابور وما له ثم قال لأبى سهل الحمدوى إن عليك أن تعد ما أحضرته من مال كذلك حتى يرسل إلى قلعة ميكالى فى رستاق بست حتى لا تقع هذه الأموال فى يد العدو إذا تغيرت ٥٤٢ الأحوال والعياذ بالله . فقال أبو سهل حسنا ما رأيت ويجب أن يظل هذا الأمر سرا . ثم إن هذين الرجلين قد أعدا كل ما عندهما من أموال وعينا فرسانا ممتازين وحملاهم هذه المهمة السرية بحيث لا يشعر بهم أحد وأرسلاهم فى جوف الليل فبلغوا القلعة سالمين ، وسلموا ما معهم إلى كوتوالها وبقى ثقاة هذين الرجلين بالقلعة مع خمسين من الرجالة ، وأما ما كان من أثقال نيسابور من الألبسة وفروش شادياخ والأسلحة وغيرها مما لم يكن فى الوسع نقله إلى قلعة ميكالى فقد أمر سورى بإيداعه كله الخزائن . وظل سورى وأبو سهل ينتظران وقد رتبا فرسانا على طريق سرخس لينقلوا إليهما فى سرعة ما يجد من الأخبار .

وسمعت من أبى نصر أستاذى قال حين وصلت الرسائل بهذا عن أبى سهل وسورى عرضتها على السلطان فقال : « لقد تسرعنا ولسنا ندرى مصير الحاجب والجيش مع هؤلاء الأعداء » . قلت « إن شاء الله لا يكون غير الخير واليمن » . ولم يذق السلطان الشراب آخر يوم من شعبان فقد كان مضطرب الفكر . وجاءت الكتب من سرخس ومرو تقول إن الأعداء حين سمعوا بأن الحاجب سار من نيسابور ليحاربهم جزعوا وقالوا هذا هو الأمر الواقع ونقلوا أمتعتهم

إلى وسط صحراء مرو مع فرسان من أكثر رجالهم جسارة . ثم إنهم أعدوا فوجا من جيشهم ليتقدم نحو طلخاب سرخس ليحارب هناك ، وذلك حتى يستطيع إذا هزم ، أن يكر راجعا فيحمل أثقاله ويتوجه ناحية الرى ، فإنهم يقدّرون أنه إذا استؤصلت شأفتهم من خراسان فلن يجدوا لهم مأوى فى غير الرى ونواحيها ، لأنها أقل تحصينا من أى مكان آخر .

ويوم الخميس بدأ السلطان رضى الله عنه الصيام وكان يفطر مع الندماء والحاشية فى شهر رمضان هذا ، وكان يجلس مرتين كل يوم للاستقبال فقدكان يكثر من الاستقبال جريا على عادة أبيه السلطان محمود رضى الله عنه ، ذلك أنه كان قلقا ، وكان الموقف ٥٤٣ يوجب ذلك ، ولكن ما جدوى القلق والتأمل مع القضاء إذا قضى ؟ .

ويوم الأربعاء ، رابع هذا الشهر ، ظل السلطان جالسا فى البلاط حتى صلاة الظهر ، على الصفة الكبيرة بالجوسق الجديد ، وقد صرف الأمور التى عرضت عليه ، ثم قام وسار إلى الخضراء . وبينما كان أستاذى يهم بالخروج ليعود إلى الديوان ، إذا بفارس من الفرسان المعينين على طريق غور يدخل ومعه مدرج البريد ففضت الحلقات والأختام فإذا به رسالة بخط أبى الفتح الحاتمى نائب بريد هراة ، فأخذه أستاذى وفتحه فإذا بخريطة مختومة ففضها وقرأ من الرسالة فصلا أو فصلين وطار صوابه ، ثم لفّ الرسالة وأمر بأن تعاد إلى الخريطة وختمت بخاتم البريد . ثم دعا أبا منصور حارس الديوان وحمله رسالة شفوية فذهب بها . وبدا على أستاذى شديد الحزن وعميق التفكير ، وقد أدرك جميع كتاب الديوان أن حادثا جللا قد وقع . وعاد أبو منصور حارس الديوان بغير رسالة وقال إنه (السلطان) يدعوك . فسار أستاذى وظل عند السلطان حتى صلاة العصر ، ثم رجع إلى الديوان وأعطانى رسالة

أبي الفتح الحاتمي نائب البريد قائلا « اختمها وضعها فى خزانة الحجج » ثم عاد ومعه الكتاب . فقرأت هذه الرسالة فوجدت فيها :

« إن سباشي قد وفد على هراة فى هذا اليوم ، وكان معه عشرون غلاما وقد أنزله أبو طلحة الشيباني العامل فى مكان لائق وأكرم وفادته وقابله حين صلاة العصر ، وكنت فى صحبته ومعنا أعيان هراة ، وكان كسير الخاطر وكانوا جميعاً يطيبون خاطره ويقولون هذا حال الدنيا مابقيت ، والبقاء للسلطان المعظم فإن الجند والعدد والآلات كثيرة ومن الممكن تلافى هذه الهزيمة والحمد لله أن الحاجب حيّ يرزق، فبكى وقال لا أعرف كيف أنظر إلى وجه السلطان ، لقد قامت حرب مع العدو ، لم أر أصعب منها ، وظلت المعركة من الصباح حتى صلاة العصر ، وحين أوشكنا على الانتصار تركنى رفاقى اللئام حتى جرحت واضطررت إلى التراجع على هـــذا النحو الذى ترون . وعاد القوم ولكنه استبقانى وأبا طلحة واختلى بنا ، وقال إنهم خانوا السلطان وكذلك خانه ٥٤٤ المنهون حين حدّثوه عن الأعداء فهونوا من شأنهم ، وكنت أعمل فى صبر يؤدى إلى فرارهم ، ولكن المنهين ضللوا السلطان حتى أوغروا صدره علىّ ، فأمر أمرا جزما بوجوب حرب المصاف ، فلما لقيت الأعداء وجدتهم نخبة من المحاربين المعدّين وقد أراحوا أنفسهم من أثقالهم وجرت موقعة ليس أشد هولا منها حتى صلاة الظهر ، وقد بذل جندنا جهدهم ، ولم يكد الفتح يتم لنا حتى تسرب إلى نفوسهم الخور ولاذ كل منهم بعنق حمار أو امرأة وهرب وكنت قد صحت مائةألف مرة بأن لا تصحبوا النساء فلم يسمعوا أمرى ، فلما رأى الأعداء حالنا على هذا النحو ازداد واجرأة ، فأمرت بنصب خيمة فى وسط ميدان المعركة ونزلت بها حتى يقتدوا بى ويبذلوا غاية الجهد فلا يقع خلل ، ولكنهم لم يفعلوا وتركونى وحيدا واتبعوا أهواءهم ، وإن الأعيان والمقدمين شهود على أنى لم أقصر فى واجبى ، ولو سئلوا لشهدوا بذلك ، وقد لبثت فى الميدان حتى وقعت

الواقعة وأصابنى سهم فاضطررت إلى الانسحاب وأتيت هنا بخوادين وعشرين غلاما ، واستولى العدو على كل ما كان لى وما كان لهؤلاء اللئام ، وذلك حسب ما سمعت من الفرسان الذين لحقوا بى ، وسأبقى هنا بضعة أيام حتى يلحق بى كل من يستطيع العودة ، ثم أذهب إلى الدركاه عن طريق غور فأشرح لمولاى الأمر شفاها ، فعليكم إيضاح كل ما سمعتموه منى » .

ولم يأذن السلطان بالاستقبال فى مساء ذلك اليوم ، ولم يخرج للإفطار ، وقيل إنه أفطر على شربة ماء ولم يأكل شيئا ، فإن الذى حدث لم يكن أمرا سهلا . ورأيت أستاذى فإذا به لم يأكل شيئا أيضا ، وكنت معه على المائدة . وفى اليوم التالى أذن السلطان بالاستقبال ، وبعد الفراغ منه اختلى بالسپهسالار والعارض وأبى نصر والحاجبين بكتغدى وأبى النصرويين لهم الأمر ، وقرأ أستاذى عليهم رسالة نائب بريد هراة . فقال الحاضرون أطال الله حياة السلطان ، هذه حال الدنيا دائما ، وهذا أمر يمكن تلافيه ولعل من الخير إرسال أحد الثقاة إلى الحاجب ليطيب خاطره ومن معه من الجند ليكون بلسما على قلوبهم . فقال السلطان هكذا نفعل ولا يزال أمامنا متسع من الوقت وسنأمر بما ينبغى فى هذا الأمر . ولكن ما رأيكم فيما يعمل لملاقاة الهزيمة ؟ قالوا لا نستطيع أن نقول شيئا قبل أن يصل الحاجب وإذا رأى السلطان ليكتب للأستاذ الرئيس بما حدث ولو أن هذا الخبر قد بلغه ، وذلك حتى يكتب ما يراه الأصلح ٥٤٥ فى هذا الشأن . فقال السلطان هذا حسن . وأمر أستاذى ليكتب للرئيس . وطيّب القوم قلب السلطان ، وتحدث كل منهم إليه بهذا المعنى ، مظهرين الولاء ومقدمين أموالهم وأنفسهم ثم انصرفوا . وكتبت للوزير رسالة مسهبة وطلب إليه إبداء الرأى . وقبل[1] هذه الواقعة لم يكن محظورا التحدث أمام السلطان عن ضعف

---

(١) فى نسخة نفيسى ص ٦٦٣ « بس » وهو خطأ مطبعى وصححه بيش .

وحقارة التركمان ولكن بعد الواقعة لم يكن أحد يجرؤ على التحدث عنهم بغير الحق ، لأن السلطان صرخ فى وجه واحد أو اثنين من رجاله ممن كانوا يتحدثون على هذا النحو وأنبهم . وكان السلطان شديد الحزن والكآبة .

وفى الأيام الباقية من رمضان كان يصل كل يوم بل كل ساعة نبأ موحش ، حتى جاءت رسالة أبى المظفر الجمحى صاحب بريد نيسابور ، وكان فيها :

« إنى تواريت ، وأنا الآن فى مخبأ ، وما أن بلغ نيسابور نبأ ما حل بالحاجب الكبير وجيشه حتى استعرض سورى المسجونين وأطاح برؤوس بعضهم وأطلق سراح آخرين ، ثم إنه ذهب مسرعا مع أبى سهل الحمدوى إلى رستاق بست ، ولحق بهما كل من كان فى جيشنا من الجند ، وساروا ولا يعرف إلى أين يتجهون ، ولم يتيسر لى الذهاب معهم لأن سورى متعطش إلى دمى فخفت على حياتى واختبأت هنا فى مخبأ حصين وخفى ، وقد نصبت العيون فى كل مكان ليأتونى بالأخبار ، حتى أرى ماذا يجرى وإلى أى قرار تصير الأمور ، وسأرسل العيون كلما تيسر لى ذلك وأستطلع الأحوال وأكتب بكل ما هو مهم معماة أرسلها للوزير ليعرض الأمر على الرأى العالى » .

فلما قرأ السلطان هذه الرسالة علاه الغم ، وقال لأستاذى ماذا تقول وماذا يكون مصير أبى سهل وسورى وأين سيذهبان وماذا يكون مصير تلك الأموال ؟ فقال إن مولاى يعرف أن أبا سهل رجل عاقل وصائب الرأى وأن سورى رجل جرىء وشهم ولا شك أنهما دبرا أمرهما أو أنهما سيدبرانه بحيث لا تصل إليهما يد أحد من الأعداء ، ولو تسنى لهما الأمر لألقيا بنفسيهما إلى الدركاه عن طريق صحراء طبسين من جانب بست ، فإنهما سارا إلى جانب رستاق بست . ولكن إذا حدثت لهما مفاجأة فإنه لا يمكن معرفة المكان الذى ٥٤٦ يلجآن إليه ، ومهما يكن فإنهما لن يسلما نفسيهما

إلى العدو فإنهما يعرفان ما يحل بهما حينذاك . فقـــال السلطان إنهما لن يستطيعا بأية حال أن يتجها ناحية الرى فهناك ابن كاكو والتركمان وجند كثيرون ، وكذلك لا يذهبان إلى جرجان فإن باكاليجار قد أفلت من يدنا كذلك ولست أدرى مطلقا ماذا يكون مصيرهما ، يالهفى على هذين الرجلين وعلى كل تلك الأموال والنعم إذا وقعت فى يد العدو . فقال أبو نصر لن تمتد يد أحد إلى تلك الأموال فإنها محفوظة فى قلعة ميكالى ، وليس فى إمكان أحد اقتحام هذه القلعة والكوتوال هناك شيخ حازم ، وهو من أقدم خدم السلطان ويصون الأموال ، وإنه قوى بما لديه من المؤن والماء ، ولدى أبى سهل وسورى فرسان معينون على طريق سرخس حتى نيسابور فلا بد أن بلغت مسامعهم هذه الحادثة فى ثلاثة أيام ، فعجلا بالسير ، ولابد أيضا أن الأعداء لم يذهبوا فورا إلى نيسابور على أثر الموقعة لأنهم فى حاجة إلى المقام فى دندانقان أسبوعا حتى يفرغوا من أعمالهم ثم يدبرون أمرهم ويبادرون بالعمل ، وإلى أن يبلغوا نيسابور سيكون أبو سهل وسورى قد طويا الأرض طيا. فقال السلطان يجب أن يُكتب إليهما بما ترى مع السعاة . فقال أبو نصر لا جدوى من إرسال الساعى جزافا مالم يتحقق مستقرهما ، ولا شك أنهما حين يستقران ويصبحان آمنين سيوفدان إلينا السعاة ، ويشرحان الأحوال ويستطلعان رأى السلطان ، ولكن الواجب إرسال قاصدين أوثلاثة إلى قلعة ميكالى بكتب لتثبيت قلب الكوتوال ، ولابد من أنه سيوفد من ناحيته قاصدا برسالة . فقال السلطان فلا بد من كتابة الرسالة حالا فهذا ضرورى . فجاء أستاذى إلى الديوان وكتب رسالة ووقعها السلطان وأسرع بها قاصدان إلى قلعة ميكالى ، وقد قيل للكوتوال إنا أرسلنا رسالة الآن وسنسير بعد المهرجان شطر خراسان ، ونبقى بها سنتين حتى يتسنى لنا تلافى كل ما حدث ، فعليك بالمحافظة على القلعة وبالحيطة وبالحذر .

وصادف يوم الجمعة عيد الفطر ولكن السلطان لم يسمع شعرا ولم يتناول

شرابا لما كان فيه من حرج ، فقد كان يرد ، كل ساعة ، من خراسان خبر ينقض عليه كالصاعقة . ويوم الأحد ٥٤٧ أمر السلطان بتعيين أبي سهل الهمدانى الكاتب لإستقبال الحاجب والجيش وتهدئة روعهم مما حدث وبث الأمل الطيب في نفوسهم من ناحية السلطان بحيث يذهب عنهم الخجل والغم . وكتب أستاذي نسخة المثال ثم كتب وأكده السلطان بتوقيعه وقد سار الرسول حين صلاة العصر من ذلك اليوم .

وفى الغداة وصلت رسالة الوزير كاشفة عن شديد قلقه وحزنه لهذا الحادث العظيم الذى وقع وقد صرح بأنه « مهما يكن من أمر هذه النازلة فإن السلطان كاشفها ببركته وإقباله ، ولا بد من أن تسير الأمور على نحو آخر » . وأرسل كتاب أبى إسحق إبراهيم بن ايلك الذى كان قد كتبه إليه من ناحية أوركنج وقال « يجب إطلاع الرأى العالى عليه ، ويجب قبول تقرب هذا الرجل ولو أنه ابن عدو لنا ، فإنه رجل فاضل وذو رأى ، وقد أفلت من حبائل أبناء على تكين مع فوج من الفرسان ، وهو ذائع الشهرة فنسترضيه حتى لا تقوم فتنة فى جانب آخر » . وكتب الوزير إلى أستاذى كتابا مسهبا كشف فيه عن كل ما يدور بخلده وقال : « إن هذا الحادث قد وقع ، بعد مشيئة الله عز وجل ، بسبب السفر مرتين ، مرة إلى الهند وأخرى إلى طبرستان ، وما فات فات ولا ملافاة له ، وقد بلغ أمر الأعداء اليوم إلى حد أن لا يقدر عليهم أى سالار ، فقد هزموا قائدين عظيمين يقودان الجيوش الجرارة ، وغنموا كثيرا من النعم وقويت عزائمهم ، ولن تستقيم الأمور بغير حضور السلطان ، وعلى مولاى أن يغير سياسته وأن يكف عن اللهو ، وأن يستعرض الجيش بنفسه وألا يكل هذا إلى أحد ، وأن يطرح حديث التوفير هذا ، ويجب عرض هذا الكتاب عليه والتحدث إليه بكل ما ينبغى وذلك إلى أن تتاح لى الفرصة للقائه والتحدث إليه فى هذه الأمور على وجه أكثر صراحة » . .

وعرض أستاذى هذه الرسالة وقال ما يجب ، فقال السلطان إن الخواجة على حق فيما يقول ، وإنا منتصحون بنصحه وسنعمل به ، فاكتب إليه جوابا على هذا النحو واكتب من عندك كذلك ما يجب فى هذا المعنى ، وأما عن پورتكين بن إيلك فهو شريف وابن شريف ويحتاج اليوم إلى مثله ؛ فليكتب الخواجة رسالة إليه وليقل له إنه عرض علينا ٥٤٨ أمره وإن بيتنا مفتوح له فعليه أن يوفد إلينا رسولا برسالة لنتعرف أغراضه ونأمر بما يجب له. وكتبت هذه الرسالة وأرسلت فى مدرج .

ويوم الأحد العاشر من شوال بلغ الحاجب سباشي غزنة ، وجاء إلى الدركاه مباشرة فأدى التحية وقد عطف عليه السلطان وطيب خاطره ، وكذلك شأن عدة مقدمين جاءوا معه ، ثم انصرفوا إلى بيوتهم ، وكان الرجال يصلون على أثرهم ويواسونهم ، وبعد أسبوع من وصول الحاجب اختلى به السلطان طويلا واستبان كل شيء ، وكان السلطان يستدعى كل رجل على حدة ويسأله عما جرى فى خراسان وعن الأعداء والحاجب والموقعة التى جرت حتى اتضح له كل شيء وضوح الشمس فى رابعة النهار . ولم يكن الظرف ملائما للعتاب فلم يتحدث السلطان بشيء منه مع أحد ، بل كان مجاملا متلطفا . وكتب إلى الوزير بكل ما جرى .

وسلخ شوال جاءت رسالة الوزير عن پورتكين قال فيها يجب توجيه كتاب إليه من المجلس العالى بأنا قد قررنا كل ما كتبه لأحد وأن الدار داره ، وسنقصد بلخ بعد المهرجان فالآن يجب إيفاد رسول ليبين القصد من المجيء إلى خراسان ويشرح كل ما يتصل بذلك للاطلاع عليه وليؤمر بكل ما يؤدى إلى صلاح حاله ومزيد جلاله . فقال السلطان لأبى نصر اكتب ما ينبغى فى هذا الشأن حسب الرسم بحيث لا يحدث ضرر إذا وقع الكتاب فى يد أبناء

على تكين . فكتب أستاذى نسخة الكتاب كما هو دأبه، حسب ما يليق فى مثل هذه الأحوال، وخاطبه « بالأمير الفاضل » وسماه « الأمير » ووضعت الرسالة فى درج الوزير .

ويوم الأربعاء الثالث من ذى القعدة جاءت من جرجان رسائل أبى سهل الحمدوى وصاحب الديوان سورى مع قاصدين مسرعين كتبا فيها : إنه حين تحرج موقف الحاجب والجيش المنصور بلغهما الخبر بسرعة ، إذ أنهما كانا قد رتبا الفرسان على طريق سرخس ليأتوهما بالأخبار، فغادرا نيسابور على الفور عن طريق بست وبلغا باب قلعة أميرى ، ليقيما بها ، ثم لم يستصوبا هذا الرأى فناديا الكوتوال ومعتمديه الذين ٥٤٩ كانوا عند باب القلعة ليحرسوا الأموال ، وقالا لهم ما ينبغى أن يقال حتى يتخذوا الحيطة التامة للمحافظة على القلعة ، وأعطيا الكوتوال والرجالة أجور سنة ، ولما فرغا من هذا الأمر الهام تركا القلعة ليأتيا عن طريق ما إلى حضرة السلطان وقد استغرقا فى التفكير أما الأعداء فجاءت جموعهم تترى ، فازداد مركزهما خطرا لأن أمرهما قد عرف عند السلاجقة ، ولكن أدلاءهما كانوا مهرة فواصلا السير معهم ليل نهار عن غير الطريق المألوف لإسفرايين حتى بلغا جرجان ، وكان باكاليجار فى أستراباد فأطلعاه على الأمر فجاء فورا ، وقد قال إنى عبد السلطان وإنهما أحسنا صنعا إذ لجآ إليه فإنه سيحافظ عليهما ما بقيت الروح فى جسده بحيث لا تصل إليهما يد أحد من الأعداء ، وقال إن جرجان بلد غير حصين وليس من الحكمة البقاء به ، ويجب السير إلى أستراباد والمقام بها وذلك حتى « أدفع عنكما الأعداء إذا قصدا اللحاق بكما » وأما أنتما فتسيران إلى استراباد فإن السير فى مضايقها غير مستطاع للعدو ولا تمتد إليكما يد أحد ، فسارا وأما باكاليجار فقد أقام مع الجند فى جرجان مترقبا ما يحدث . وإنا نقيم فى

استراباد مع جند من كل صنف عدا الحاشية ، وإن با كاليجار كان يقوم بنفقاتهم ولم يدخر وسعا فى بذل كل ما يستطيع ، فلو رأى السلطان أن يسبغ عليه من العطف ما يرضيه من جميع الوجوه ويعفيه من مال الضمان ويجعله منحة له ، فإنه يلق مخنا من كل صنف وخاصة اليوم حين لجأ إليه خدم السلطان وعبيده فالتزم بحمايتهم ، وأن يقال له إن السلطان سيرحل على الأثر ، وليس هذا القول جزافا فمن المستحيل ترك خراسان لمثل هؤلاء القوم ، وذلك حتى يقوى قلب هذا الرجل . فبعد أن تصفو لنا خراسان تعود الرى والجبال وتلك النواحى إلينا ، وكذلك حتى يفهم أن السلطان معنى بأمر عبيده وجنده الذين هم بعيدون عنه ، وذلك حتى لا يحدث خلل .

فلما قرأ السلطان هذه الرسالة سر سرورا عظيما ، فقد كان قلقا على هذين الرجلين وعلى ما معهما من المال الكثير ، وجىء بقاصديهما أمامه فكانا يجيبان على كل ما يسألان عنه وقالا : « إن التركمان قد استولوا على منافذ الطرق على سبيل الاحتياط ، »» وإنهما تحايلا كثيرا حتى استطاعا المجىء عن غير الطريق العادى » . وقد أعد لهما الموكل بالضيافة مكانا خفيا حتى لا يراهما أحد ، وأمر السلطان بكتابة إجابة الرسالة وقد حث فيها أبا سهل الحمدوى وصاحب الديوان سورى على اتخاذ الحيطة ، وإذا قصد التركمان أستراباد فعليهما بالسير إلى سارى فإذا قصدوها فإلى طبرستان ، فإنهم لا يستطيعون بلوغها عن طريق تلك المضايق ، وإن عليهما مداومة الكتابة وإرسال القاصدين بانتظام الواحد فى أثر الآخر كما هو الحال عند السلطان ، وليعلما أنا سنزحف بعد المهرجان بجيش ، لم ير مثله من قبل ، إلى طخارستان وبلخ بحيث لا نتزحزح أبدا عن خراسان حتى تهدأ نار هذه الفتنة بها ، ويطلب السلطان منهما أن يظلا رابطى الجأش فكم من ساعات عسرة مرت بالعالم وتلوق خطرها ، ويخبرهما

بأنه قد كتب لباكاليجار ما ينبغى أن يكتب له وأنه أرسل هذا الكتاب إليهما ليطلعا عليه ثم يوصلانه إليه .

ثم إنه كتب لباكاليجار فى هذا الشأن كتابا رقيقا للغاية وقد قال فيه إن كل مما ينفقه فهو لحسابنا وكل ما يبذل من عون لمعتمدينا غير ضائع وها نحن قادمون ، وحين نبلغ خراسان ونقضى على الفتنة فيها فسوف نوفى له مقابل إحسانه بما لم يخطر له على بال ثم إن السلطان وقع هذا الكتاب وسار به الرسل يتبعهم آخرون بكتب هامة فى هذه المعانى ، وكان ذلك يوم الخميس السابع من ذى القعدة .

رسالة الجمحى :

ووصلت رسالة من أبى المظفر الجمحى صاحب بريد نيسابور يقول فيها : إنه يكتب هذه الرسالة من مخبئه وقد استطاع أن يبعثها مع قاصد بشتى الحيل وقد بين فيها أنه بعد أن جاءت الأخبار بما حل بالحاجب سباشى أقبل ابراهيم ينال ، بعد إثنى عشر يوما على حدود نيسابور ومعه مائتا رجل وأبلغ إنذارا مع رسول له « بأنه يمثل مقدمة جيش طغرل وداود وبيغو فإذا كنتم ستحاربون فإنه يعود ليخبرهم بالأمر وإذا كنتم مسالمين فايدخل المدينة وليغير الخطبة فإن جيشا كبيراً يسير فى أثره » فأنزلوا الرسول فى المدينة التى سرى فيها الإضطراب وأقبل الأعيان جميعاً إلى بيت القاضى صاعد وقالوا له إنك إمامنا ومرشدنا فما قولك فى الإنذار الذى أنذرنا به ؟ فقال لهم وماذا ترون أنتم وعلى أى أمر عقدتم نواياكم ؟ فقالوا إن حال هذه المدينة لا يخفى عليك فإنها غير حصينة وأهلها ليسوا رجال حرب وقد هزم السلاجقة جيش الحاجب سباشى مع ضخامته وقوته ٥٥١ فأى خطر لنا بعد هذا ؟ هذا رأينا . فقال القاضى صاعد . حسنا ما رأيتم فإن الأهالى لا يقوون على قتال الجيوش وإن

لكم سلطاناً قوياً كمسعود ولا شك أنه سيجيء بنفسه أو سيرسل قائداً من عنده ليضبط الأمن فى هذه الولاية إذا رأى الاحتفاظ بها . واليوم قد أشتعلت نار الفتنة وعلا لهيبها ودخل المدينة جماعة قد غمسوا أيديهم فى الدم وعزموا على نهبها ولا سبيل غير الإذعان لهم. فقال الإمام الموفق صاحب الحديث وقال معه جميع الأعيان هذا هو الصواب بعينه ولو فعلنا غير هذا فستكون المدينة لقمة سائغة للناهبين ، والسلطان بعيد منا ومن الميسور طلب المعذرة عن هذا التصرف وإنه لعذر مقبول . قال القاضى صاعد : « حين زحفت جيوش ايلك من بخارا بقيادة سباشى تكين خرج أهل بلخ وقاتلوه إلى أن انتهى الأمر بقتل الناس ونهب المدينة وأما أهل نيسابور فكان موقفهم بالأمس كموقفهم اليوم فحين جاء السلطان محمود رحمة الله عليه من ملتان إلى غزنة مكث بها فترة وأعد الأمور وسار إلى خراسان ، ولما بلغ بلخ وجد سوق العشاق (بازار عاشقان) الذى كان قد أمر بإنشائه ، وقد اشتعلت النار فيه فلام أهل بلخ وقال لهم ماشأن الرعية بالقتال ؟ لاجرم قد هلكت مدينتكم وأحرق من أملاكى بلد يغل على أموالا طائلة وإنى أحملكم غرامة هذه الخسارة ، ولكنى أعفو عنكم فانظروا واحذروا أن يتكرر هذا ، فإن كل ملك يتسلط عليكم ويلزمكم بالخراج ويؤمنكم عليكم أن تدفعوا له الخراج وتحافظوا على أنفسكم ، ولماذا لم تقلدوا أهل نيسابور والبلدان الأخرى فقد أذعنوا بالطاعة وكان صواباً مافعلوا حتى لا تنهب بلادهم ، ولماذا لم تلتفتوا إلى ماجرى فى البلاد الأخرى التى لم يطلب منها شيء غير الخراج فقد احتسب كل ما أخذ العدو منهم من خراجنا . قالوا لقد تبنا ولن نخطىء مرة أخرى ، واليوم يحدث ماحدث بالأمس » فقالوا جميعاً إنه كذلك . ثم نادوا رسول ابراهيم ينال وسلموه إجابة رسالته : « بأنا رعية ولنا سلطان والرعية ليس من شأنها أن تحارب وللأمراء السلاجقة أن يدخلوا المدينة فإنها مفتوحة لهم ، فإذا كانت لازمة للسلطان فإنه سيأتى للمطالبة بها أو سيرسل قائداً لهذا الأمر

ولكن عليكم أن تعرفوا أن الناس قد خافوكم لما حدث منكم فى بلاد أخرى من النهب والمثلة والقتل وقطع الرقاب ، ولا بد من انتهاج سبيل آخر ، فإن هناك آخرة غير هذه الدنيا وقد رأت نيسابور كثيرا مثلكم وسلاح أهل هذه البقعة ٥٥٢ هو دعاء القوّامين منهم بالليل ، وإذا كان سلطاننا بعيدا عنا فإن الله وعبده ملك الموت قريبان ، وانصرف الرسول · فلما اطلع ابراهيم ينال على الجواب دخل المدينة وكان على مسيرة فرسخ منها ، وأرسل لأهلها رسولا يقول لهم نعم الرأى ما رأيتم وقد قلتم قولا حكيما وقد كتبت لطغرل فورا وأطلعته على الحال فإنه كبيرنا . وذلك حتى يجعل داود ربيغو فى سرخس ومرو ويجعل الأعيان الآخرين ، وهم كثيرون ، فى البلاد الأخرى وحتى يحضر هنا السلطان العادل طغرل مع خاصته ، فلتطب قلوبكم فإن ما حدث حتى الآن من النهب والسلب قد صدر عن صغار الجند بالضرورة فإنهم كانوا فى حرب ، ولليوم شأن آخر ؛ وقد أصبحت الولاية لنا فلن يجرؤ أحد على الإخلال بالأمن ولسوف أجيء غدا وأنزل فى باغ خرمك لأتأكد من ذلك · فلما سمع أعيان نيسابور هذا الكلام هدأ روعهم ، وتجول المنادون بالأسواق ونادوا به فى الناس حتى يهدأ العامة . ثم إنهم فرشوا باغ خرمك وأعدوا النزل والاستقبال. وشمر عن ساعد الجد ، لمناصرة التركمان ، أبو القاسم سالار بوزكان ، وهو رجل من الكفاة الدهاة الذين غلبهم وحطمهم سورى . واجتمع الإمام الموفق صاحب الحديث وسائر الأعيان وجاءوا لاستقبال إبراهيم ينال ، عدا القاضى صاعد والسيد زيد نقيب العلويين فإنهما لم يذهبا . وعلى بعد نصف فرسخ من المدينة ظهر إبراهيم ينال مع أكثر من مائتى فارس وكان معه لواء وجنيبتان وكان فى زينة ذابلة وبسيطة . فلما وصل المستقبلون إليه أوقف حصانه ، وكان شاباً جميل الطلعة حلو الحديث ، فطيّب خواطرهم جميعاً ، ثم ساق . وخرج لرؤيته مالا يحصى من الناس ، وكان الشيوخ المعمرون يبكون خفية ، فإنهم لم يروا من

قبل أحدا غير رجال محمود ومسعود ، وكانوا يسخرون من هذه الزينة وتلك الكوكبة . ونزل إبراهيم ينال فى باغ خرمك وجىء إليه بما أعدوه من المآكل الكثيرة والنزل ، وكانوا يذهبون لتحيته كل يوم. ويوم الجمعة أقبل إبراهيم على المسجد الجامع وكان مزدانا ؛ وقد أتى سالار بوزكان بثلاثة آلاف رجل أو أربعة مدججين بالسلاح ، فإنه كان يعاون إبراهيم ينال وكان له مكاتبات مع٥٥٣ هؤلاء القوم حتى أصبحوا أصدقاءه ، وذلك نتيجة عدوان سورى ، فالحق أن خراسان قد ضاعت ضحية لسورى . وحاولوا كثيراً مع إسمعيل الصابونى ليعد الخطبة خفية ، فلما دعى باسم طغرل فيها علت ضجة عظيمة من الناس وخشيت الفتنة ، إلى أن أسكتوا الناس وأتموا الصلاة ثم عادوا .وبعد سبعة أيام من هذا اليوم أقبل الفرسان ومعهم كتب طغرل لسالار بوزكان والموفق ، وكان طغرل قد كتب لإبراهيم ينال يقول « إن أعيان نيسابور قد تصرفوا بحكمة فلا جرم أن يروا ماسيكون لهم وللرعايا جميعاً من الطيبات ، وقد أقمنا على الجيوش أخانا داود وعمنا بيغو ومعهما المقدمون ، وسنحضر نحن على المقدمة مع خاصتنا وذلك حتى لا يمس رعايا تلك البلاد سوء جزاء ما قدموا من الطاعة وحفظوا أنفسهم » واطمأن الناس بما جاء فى هذه الكتب ، وفرشوا باغ شادياخ حسنكى، وبلغ طغرل نيسابور بعد ثلاثة أيام ، وخرج الأعيان جميعاً لاستقباله عدا القاضى صاعد . كان مع طغرل ثلاثة آلاف فارس أكثرهم مدرعون ، وكان له قوس بنشاب معلق فى كتفه وفى وسطه ثلاثة سهام وكان مدججا بالسلاح ، ونزل فى باغ شادياخ كما نزل بها مقدار ما تستوعبه من الجند ونزل الآخرون حول الحديقة ، وقد أعدوا لهم الكثير من المآكل التى حملت إلى هذا المكان ، وقدم الأكل والعلف للجيش كله ، وكان وهو سائر فى الطريق يتحدث إلى الموفق وإلى سالار بوزكان وكان السالار قائما بكل الأعمال ، وفى الغداة أقبل لتحيته القاضى صاعد ، بعد أن ألحوا عليه فى المساء ، وكان معه أولاده وأحفاده.

ومريدوه وكوكبة كبيرة ، وكذلك وفد للتحية نقيب العلويين مع جميع السادات ولكن المجلس كان خلوا من البهجة وكان السلاجقة كأنهم جماعة من الغوغاء لا نظام لهم ، وكان من يريد التحدث لطغرل يتجرأ عليه ويتحدث إليه . وكان طغرل قد اعتلى سرير السلطان أمام الصفة ، وقد أخذ بيد القاضي صاعد ، وكانوا قد وضعوا وسادة تحت السرير فأجلسه عليها . وقال القاضي : « أطال الله حياة مولاى ، هذا سرير السلطان مسعود جلست عليه ، وفي الغيب أمور كهذه ولا يدرى أحد كيف تصير الأمور فالتفت واخش الله عز ذكره واعدل بين الناس واستمع للمظلومين والمساكين ولا تترك هذا الجيش يظلم الناس ٥٥٤ فإن الظلم شؤم ، ولقد أديت حقك بهذه الزيارة ولن آتى بعدها فإنى مشتغل بالقراءة ولا أعدل عن العلم شيئاً ، وحين تفكر مليا ستجد أن فى هذه النصيحة التى بذلتها لك الكفاية » فقال طغرل « إنى لا أريد أن أشق على القاضى ليجىء بعد هذه المرة وليبعث إلى برسالة عما يلزم ولقد قبلت أن أعمل حسب ماقلت ، إننا قوم جدد وغرباء ولا دراية لنا بشريعة العرب فلا يبخلن القاضى بنصائحه على . فقال القاضى سأفعل ثم انصرف ومعه الأعيان الذين صحبوه . وفى الغداة ولى طغرل سالار بوزكان ولبس الخلعة وهى جبة ودراعة ، وكان قد أعدهما هو بنفسه ، وسرجا ذهبيا تركيا ، ثم عاد إلى بيته وأخذ فى مباشرة الولاية . وقد ارتاع الناس حين رأوه متشحا الدراعة السوداء وهو يعمل بأمر طغرل .

ثم يقول الجحى فى رسالته :

وأنا الآن فى خدمة السيد زيد نقيب العلويين وهو صديق وفى ونسيج وحده ثم إنى سأوالى إنفاد الرسل ، وسوف أوفق فى هذا بفضل هذا العلوى »

* * *

ووقف السلطان على رسالة أبي المظفر الجمحي هذه فاضطرب اضطرابا شديدا ، ولم ينبس ببنت شفة . وفى الغداة قال سرا لأستاذى ألا ترى إلى أين بلغ أمر التركمان ؟ فأجابه أطال الله حياة مولاى هذا حال الدنيا ما بقيت وإن الحق حق دائما والباطل باطل والأمل معقود على حركة الركاب العالى لتحقيق المراد كله . فقال السلطان يجب أن يرد على رسالة الجمحي مع الثناء الجميل والشكر الجزيل ، وأن يكتب لنقيب العلويين حتى يعنى بشأن أبي المظفر الجمحي فلا تصل إليه يد أحد من الأعداء ، وإلى القاضى صاعد ، والأعيان الآخرين ، عدا الموفق ، وأن يصرح لهم « بأننا زاحفون مع خمسين ألف فارس وراجل وثلاثمائة فيل ولن نعود إلى غزنة مهما تكن الظروف حتى نخلص خراسان ، وذلك حتى يسعدوا وحتى لا تميل قلوبهم كل الميل إلى السلاجقة » . فقال أستاذى سأكتب ثم جاء وجلس منفردا وكتب هذه الكتب وكتبت أنا الرسائل الصغيرة ووقعها السلطان ... ثم سار بها القاصد بعد أن منح صلة عظيمة .

* * *

وإنى أذكر هذه الأخبار بهذا التفصيل لأنى كنت معتمدا فى تلك الأيام ، ولم يكن أحد من الكتاب واقفا على هذه الأحوال سوى أستاذى أبي نصر رحمه الله الذى كان يعد المسودة وكنت أقوم بنسخها . وكانت هذه هى القاعدة طوال حياة أبي نصر فيما يختص بكتب ملوك الأطراف والخليفة أطال الله بقاءه وخانات تركستان وبكل ما هو هام من أعمال الديوان . ولست أذكر هذا مباهاة أو مبالغة إنما أقول ذلك حتى لا يتصور القراء أنى قلت لأتحدث عن نفسى ، إنما هو التاريخ الذى حملنى على ذلك والشاهد العدل على ما قلت هو ما لدى من التقاويم فكلها ناطق بهذه الأخبار ، ولكل من لا يعتقد فى صحة

قولى أن يحضر أمام قاض عادل لتعرض عليه الحوليات فتكون شاهد صدق على قولى وبهذا يتضح الغامض والسلام .

* * *

ويوم الخميس ثامن ذى القعدة جاءت رسالة من الوزير يستطلع رأى السلطان هل يبقى فى بلخ وطخارستان أم يجىء إلى الحضرة فإنه قلق ويود أن يكون مع مولاه حتى يدلى برأيه فى هذه المهام والأمور المقلقة التى جدت . فأمر السلطان بأن يجاب عليه بأن زحفنا قريب وسيكون بعد المهرجان ، ويجب أن يجىء الوزير إلى ولوالج وأن يقيم بها ، وأن يأمر حتى يعدوا العلف لشهر ، وأن يعد لمدة عشرين يوما فى كل من راون وروقان وبغلان ، بحيث لا يحدث نقص بأى وجه من الوجوه ، وأن يبقى معتمدا فى بلخ من قبله ليقوم على بقية العلف ، بحيث لا يكون عجز حين تصل جيوشنا . وكتبت الرسالة وأرسلت فى مدرج البريد .

ويوم الأربعاء التاسع من ذى الحجة جلس السلطان فى عيد المهرجان وقدمت له هدايا كثيرة ، وكان ذلك يوم عرفات وكان السلطان صائما فلم يجرؤ أحد أن يلهو خفية أو جهارا . وفى الغداة احتفل بعيد الأضحى ، وأمر السلطان بإعداد حفل كان عظيما من ناحية ما أعد به من الموائد أو لما جرى فيه من حديث اشتباك الجند ، وكان السلطان لم يشرب منذ زمن بعيد . وقد جلس إلى المائدة بعد الصلاة والقربان وجىء بأركان الدولة ٥٥٦ والموالى والحشم وأجلسوهم على الموائد ، وأنشد الشعراء الشعر ، فإنه لم يستمع إليه فى عيد الفطر ، وعلى أثرهم أخذ المطربون فى الطرب والغناء ، ودارت كؤوس الشراب

فأصبحوا سكارى ، وقد أمر للشعراء بالصلات وكذلك للمطربين[1] . وقام من على المائدة بعد أن شرب سبعة كئوس وسار إلى قصر الحرم ، وانصرف الحاضرون ، وظل يشرب أسبوعا بعد ذلك ، وكان معظم شرابه مع الندماء ، وأمر للمطربين بخمسين ألف درهم ، وقال أشبعونا طربا ولهوا فإنا سنزحف ولن يكون فى خراسان لهو أولعب حتى لايذوق الأعداء النوم . فسمع محمد البرطى هذا — وكان أستاذا ماهرا فى فنه وكانت له جرأة على السلطان — وقال حين يتوالى الفتح لمولاى ويجلس الندماء وينشدون الدوبيت ويأتى المطربون فيعزفون على العود والبربط ، فى هذا اليوم ما حكم الشراب ؟ فاستحسن السلطان هذا الكلام ، وأمر له بألف دينار علاوة على ماله . وبعد ذلك بأسبوع ركب السلطان من الصباح حتى الظهر حتى استعرض الجيش كله ثم صرف للجند أرزاقهم جملة واحدة .

وفى الثلاثاء خلع على الحاجب سباشى خلعة فاخرة وكذلك نال الخلع كثير من المقدمين الذين عادوا معه من خراسان . وفى الغداة ركب السلطان وجاء إلى صحراء شابهار وجلس على تلك الصفة ، واستعرض الجيش وكان جيشا كثيفا ، قيل إنه أكثر من خمسين ألف فارس وراجل ، كلهم مجهزون بالخيول القوية والسلاح التام ، وقال المحققون بل كانوا أربعين ألفا وقد ظل حتى ما بين الصلاتين إلى أن مر الجيش كله أمامه .

---

(١) فى نسخة غنى — فياض ص ٥٥٦ (ومطر بانرا نفرمود) أى ولم يأمر بها للمطربين وجاء فى هامش هذه الصفحة أن نسخة أخرى تقول : (ومطر بانرا نيز) أى وللمطربين كذلك . وأخذنا بهذا الأخير .

تاريخ سنة ثلاثين وأربعمائة

١٠٣٨ — ١٠٣٩

كانت غرة محرم يوم الأربعاء وفى الثانى منه ، الخميس ، حملوا السرادق وأقاموه على مرتفع خلف باغ فيروزى ، وأمر السلطان بأن يخلع على الأمير سعيد فى هذا اليوم ، حتى يبقى فى غزنة أميرا عليها . وخلع على الحجاب والكتاب والندماء وأبى على الكوتوال وصاحب الديوان أبى سعيد سهل وصاحب البريد حسن عبد الله خلعا نفيسة . وقد ٥٥٧ تضمنت خلعة الأمير كل ما يليق بالإمارة ، وكذلك خلع الحجاب والكتاب والندماء .

وامتثالا لأمر السلطان ، بعثوا بالأمراء الآخرين مع سيدات الحرم إلى حصون ناى مسعودى وديرى بعد صلاة العشاء . وسار السلطان رضى الله عنه من غزنة رابع محرم ونزل فى السرادق الذى ضرب بباغ فيروزى ولبث به يومين حتى خرج الجند والناس جملة ، ثم ارتحل وجدّ فى السير ، وفى استاخ جاءت رسالة من الوزير جاء فيها : إنه أمر ، امتثالا للأمر العالى ، بإعداد العلف فى بلخ ، ولما قصد ولوالج أبقى أبا الحسن هريرة خليفة له فى بلخ حتى يكمل إنجاز ما بقى من العمل ، وأخذ العهد على أعيان الإقليم ليبذلوا غاية الجهد لأن الراية العالية ستصل سريعا ، ولما بلغ خلم وصلته رسالة من بريد وخش تقول إن بورتكين يعد العدة ليأتى إلى بركة من بين الكمخيين وأنهم يقصدون هلبك ، وأن معه ، حسب ما قدروا ، ثلاثة آلاف فارس مدربين وقد تعدوا على الناس هنا ولو أن بورتكين يقول إن هذا الجيش يجيء لخدمة السلطان ولكن الواقع هو كما بيّن ، وأنه (الوزير) بحكم ما قرأ فى هذه الرسالة ، أقام هناك بضعة أيام ، وتوالت عليه رسائل أخرى من حدود ختلان تستغيث منه فهو ينهب كل مكان يحل

فيه جيشه هذا ، لذلك لم ير الوزير صوابا أن يسير إلى بركة وغيّر خطة سيره ، وسار صوب بيروز ونخجير حتى يبلغ بغلان ومن هناك ، عن طريق حشم كَرد ؟ يذهب إلى ٥٥٨ ولوالج . ثم يقول الوزير : « فإذا أسرع بورتـكين بدخوله ختلان وعبر آب بنج وكان يفكر فى أمرها ، فإنى سأذهب إلى مضيق شنكوى (؟) وأسرع إلى خدمة الركاب العالى ، إذ ليس من وجهٍ للذهاب إلى طخارستان ، فإنه منذ جرت هذه الحادثة لـكبير الحجاب فى سرخس اغتر كل لئيم بنفسه ، وقد أعد العلف فى ولوالج وكُتبت الـكتب حتى يحتاطوا ، كما أن هناك العمال والشحنة أيضا ، ومع هذا كله فقد كتبتُ (الوزير) إلى بورتـكين وأرسلتُ له رسولا وبيّنتُ له سوء ما جرى فى وخش وختلان ، وصارحته بأن السلطان قد ارتحل عن غزنة ، فإذا كنتَ تقصد الدخول فى طاعته فهذه الأحوال ليست من الطاعة فى شىء ، وأظن أنه حين تصله هذه الرسالة فإنه سيقيم حيث هو ، وقد بينتُ كل ما حدث حتى يلمّ به السلطان ، وإنى أتوقع الجواب سريعا لأعمل حسب أمر مولاى إن شاء الله تعالى » .

وأغرق السلطان فى التفكير بعد قراءة هذه الرسالة ، وأمر بأن يكتب له هانحن قد جئنا وسنصل عن طريق بزغوزك فيجب أن يأتى الخواجة إلى بغلان وأن يلحق بنا من هناك فى اند رآب بمنزل جوكَانى . وأرسلت هذه الرسالة مع فرسان مسرعين . وسار السلطان على عجل وأقام يوما فى بروان ومر ببزغوزك ، فلما بلغ جوكَانى أقام بضعة أيام حتى تصل المؤن والأسلحة والفيلة والجند . وجاء الوزير وقابل السلطان وطالت خلوتهما كثيرا ، وجرى الحديث فيها عن هذه الأمور . وقال له السلطان يجب أن نبدأ ببورتـكين فإنه عدو وابن عدو ، ولم يكن له موضع بجانب أخيه عين الدولة ، وليس له من الجرأة ما يتيح له المرور بأطراف ولاية أبناء على تـكين فهو يخشاهم ، وكذلك يخشى

والى صغانيان ، لهذا كله هو يتجه إلينا ، فإن بلادنا أضعف من غيرها ولذلك يلوذ بها كل من لا يجد له موضعا . فقال الوزير سوف يتبين للسلطان ما يجب عمله فى هذا بعد أن يبلغ ولوالج .

وفى الغداة حث السلطان السير إلى ولوالج حيث نزل يوم الإثنين لعشرة بقين من محرم وهناك مكث قليلا ، ثم جاء إلى پروان وأخذ فى تدبير الأمر لإيقاع الرعب فى نفس پورتكَين ، وقال إنى ذاهب بنفسى للزحف . واستعدّ للحملة عليه ، وكان پورتكَين قد سمع بأخبار السلطان ، فعاد من آب بنج ، وقام فى العدوة القصوى ، وكتب يجيب على رسالة الوزير بأنه ٥٥٩ حاضر للخدمة ، وأن ما حدث فى وخش وعند حدود هلبك كان بغير علمه .

فقال الوزير للسلطان لعل الصواب ألا يقوم السلطان بهذا الزحف ، وأن يقيم هنا فى پروان ريثما يأتى رسول پورتكَين فنسمع قوله ، فإذا استقام[1] ناديناه وأيدناه وعقدنا معه كل ما يجب من العهود والمواثيق ، ذلك أنه رجل جسور مجد شجاع ومعه فوج من الجند ، وحينئذ نوجهه لمقابلة التركمان فى جيش كامل العدة حسن القيادة ، ثم إنه أعرف بأساليب الحرب معهم ، ويبقى السلطان فى بلخ معظما ، ويذهب السپهسالار مع جيش مجهز إلى مرو ، ويسير كبير الحجاب مع جيش آخر نحو هراة ونيسابور ، وينقض على الأعداء ويبطش بهم حتى يشتتهم وتلحقهم الهزيمة أو القتل أو الأسر ، فيهربون ويلجأون إلى ساحل جيحون ، وأسير أنا إلى خوارزم فأستعيدها ، لأن بها حشم السلطان ، وحين يسمع الألتونتاشيون عن مجىء السلطان إلى بلخ ، وذهابى من هناك إلى

(١) النص الفارسى « اكر راه بديه برد » ، وفى نفيسى ص ٦٨٠ ملحوظة . ا « راه بديه (باديه) بردن » يعنى الامتناع عن المكر والحيلة والخداع ، ثم السير فى الطريق المستقيم .

خوارزم ، فإنهم سينفرون من أبناء التونتاش ويعودون إلى طاعتنا وتصفو الأحوال فى تلك الناحية .

فقال السلطان : « إن كل ما يقوله الوزير مجانب للصواب ، وسوف أقوم بنفسى بهذه الأعمال ، ولهذا جئت ، لأن الجند كما أقول ، لا يؤدون واجبهم ، ولكن حين أكون معهم يبذلون أرواحهم رخيصة أمامى أرادوا أولم يريدوا ، وإن بورتكين لأكثر شرا من التركمان ، فإنه قد انتهز الفرصة وزحف بجنده وأكثر من نهب ختلان ، ولو تأخرنا قليلا لخرب تلك النواحى ، وسوف أتعقبه أولا حتى إذا فرغت من أمره اتجهت إلى الآخرين » .

فقال الوزير إن على الرعية أن يعرضوا على السلطان ما يرونه خيرا أو ما يعرفون أنه الخـــير ، ولكن رأى السلطان هو الأصوب . وقال السپهسالار وكبير الحجاب والسالارية الذين حضروا هذه الخلوة إن بورتكين لص شريد فكيف نوليه هذه الأهمية بحيث يطارده السلطان بنفسه ، وإذاً فما عملنا نحن ؟ قال الوزير حقا ما يقولون . فقال السلطان إذا نرسل ولدنا مودود . فقال الوزير وهذا أيضا ليس من الصواب . واتفقوا آخر الأمر على إيفاد السپهسالار ، وسجلوا فى هذا المجلس أسماء عشرة آلاف فارس ثم انصرفوا وأعدوا للأمر عدته ، وسار الجيش فى الغداة ، لست بقين ٥٦٠ من شهر محرم إلى ختلان .

وسمعت من أستاذى أبى النصر قال : « فلما فرغنا من المجلس الخاص قال لى الوزير ألا ترى ما يسير عليه هذا السلطان من الاستبداد ؟ إنى أخاف أن تضيع خراسان منا ، فإنى لا أرى على الإقبال دليلا . فأجبته قائلا « إن الخواجة كان غائبا عنا ردحا طويلا من الزمان ، وقد تغيرت أحوال السلطان عما عرفته ، وكان لا يستطيع الإصغاء إلى النصح ، وإن الله عز ذكره تقادير فى

مثل هذه الأمور لا يستطيع الإنسان أن يكشف عنها ، وليس لنا من شيء غير الصمت والصبر ، ولكننا لحق نعمته علينا نرى لزاما أن نعرض عليه ما نعلم ، استمع إلينا أو أعرض عن حديثنا » .

ولما سار السپهسالار مضى السلطان إلى حدود جزجانان .

شرح أحوال على القهندزى وأسره

كان فى هذه النواحى رجل يسمى القهندزى ، توطن منذ مدة وكان له فى السرقات والنهب والفساد جولات بها . وقد انضم إليه جماعة من الأقوياء فكانوا يتربصون بالقوافل وينهبون القرى . وبلغ السلطان هذا ، فأراد أن يدفع شره ، ولكن كانت كل شحنة يوجهها إليه تعود خائبة ، فلما وصل السلطان إلى هنالك كان على القهندزى هذا قد استولى على مكان اسمه قهندز ، وهو قلعة حصينة أقام بها فى غار على رأس جبل ، بحيث لا يمكن بأية حال الاستيلاء عليها عنوة ، وقد احتمى بالقلعة وأقام فيها كثيرين من اللصوص والعيارين بأمتعتهم . وكان قد أفسد كثيرا وقطع الطرقات وقتل الناس فى هذه الفترات التى كان فيها بخراسان ، واشتهر أمره ، فلما سمع أن الراية السلطانية تحركت وأنها بلغت بروان ، اختفى فى هذا الغار وأخذ يقاوم ، فقد كان لديه علف متوفر كثير وعنده الماء الجارى والمروج على الربوة ، وكان هناك ممر واحد إلى الغار بحيث لا يستطاع الاستيلاء عليها قهرا وقد نزل السلطان رضى الله عنه على شاطىء نهر على هذا الطريق ، على مسيرة نصف فرسخ من هذا الغار . واجتمع للجيش كثير من العلف بحيث وقاه الحاجة فقد كان الوادى مملوء بالخضرة — وليس من حصر لحدود جوزجان التى كانت مروجا يانعة ورائعة . وقد تطوع لمحاربة هذا العيار نوشتكين نوبتى ، باعتباره أميرا لجوزجان ، ولو أنه كان

حدثا وكان يقيم بالسراى . فأجابه السلطان إلى ما أراد فذهب مع غلمانه الأحداث الخمسين إلى ما يلى أسفل الغار ، وكان معه كذلك خمسمائة غلام من غلمان السراى ، ورجال من مختلف الأجناس يبلغ عددهم ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف رجل ، منهم من جاء محاربا ٥٦١ ومنهم جاء متفرجا .

تقدم نوشتكين واستمر يقاتل ، ولكن المحاصرين لم يتعبوا ، وكانوا يدحرجون الحجارة على المهاجمين ، وكان غلام أستاذى ، بايتكين ، قد ذهب ومعه سهام وقوس للمساعدة فى القتال . وبايتكين هذا حى يرزق وهو رجل شجاع مناضل مبارز ، وله مقدرة على استعمال شتى أنواع الأسلحة بحيث لا يضارعه أحد ، وخاصة فى لعب الصولجان . وهو اليوم فى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٥٩) ، السنة التى أوصلت إليها التاريخ فى هذا الكتاب ، يعمل فى خدمة السلطان الكبير أبى المظفر إبراهيم أنار الله برهانه ؛ وعمله أخص الخدمات ، وهو الإشراف على الصولجان والسلاح والحراب ورمى السهام والرياضات الأخرى . وقد شمله أستاذى برعايته وعطفه أخيرًا حتى بلغ هذه المنزلة الرفيعة .

وقد ألقى بايتكين هذا نفسه أمام نوشتكين نوبتى ، فقال نوشتكين أين تذهب فإن الحجارة تلقى من هناك وكل حجر منها يقتل رجلا ولو أنك أصبت بسوء فلن يخلص أحد من مؤاخذة الخواجة العميد أبى نصر . فقال بايتكين سأتقدم قليلا وأتعرف الموقف وذهب وانهالت الحجارة ولكنه حافظ على نفسه ، ثم صاح قائلا « لقد جئت رسولا فلا تضربوا وكفوا أيديكم » ، وسار حتى أصبح تحت الغار فأنزلوا إليه حبلا ورفعوه به . فرأى مكانا مخيفا منيعاً فقال لنفسه ، لقد وقعت فى الشرك . وساروا به إلى على القهندزى ومر فى طريقه على كثير من الرجال فرآهم مدججين بسلاح كامل . فسأله على : بأى شىء

جئت ؟ ولو رآك أبو نصر يوما لما أجاز لك هذه المخاطرة ، إذ ليست هـــذه المشورة مما يصدر عن أبي علي . ومن هذا الطفل الذى أتيت معه ؟ فأجاب بأن هذا الطفل الذى جاء لمحاربتك هو أمير جوزجان وهو أحد غلمان السلطان الستة آلاف . وقد أوفدنى برسالة إليك فإنه من المؤسف أن يصدر من رجل مثلك هلاك الناس والبلاد ، فتعال للسلم حتى أقدمك للسلطان وآخذ لك الخلعة والسرهنكية . فقال على : لابد من الأمان والاطمئنان . فنزع بايتكين من إصبعه خاتما فصه من حجر اليشم وقال : « هذا خاتم السلطان أعطاه للأمير نوشتكين وأمره أن يرسله إليك » .

وكان أجل هذا الغر قد دنا ، فانخدع بهذا الحديث ونهض يريد أن ٥٦٢، ينزل معه ، فتعلق به رجاله وأخافوه من الخديعة ، ولكنه لم يلتفت إليهم ، حتى إذا اقترب من باب الغار ندم على مافعل وعاد . فأخذ بايتكين يشعوذ عليه ، وكان أجله قد حان ، وكانت جرأته على السفك قد طمست على عقله ، فعزم على أن ينزل من كمينه . وفى هذا الوقت كان عدد لايحصى من رجال السلطان قد تجمعوا تحت الغار . وفتح الباب وكان بايتكين ممسكا عليا من كمه ، فنزل وكانت هذه نزلته الأخيرة فاستولى جنود السلطان على القلعة وأسر رجاله جميعاً . وبلغ السلطان الخبر وقال نوشتكين إنه هو الذى فعل هذا ، فزاد جاهه وذاع صيته مع أن هذا كله من صنيع بايتكين الذى كان فى ذلك الوقت شابا صغيرا واستطاع أن يفعل مافعل . واليوم وقد رفع مرتبته السلطان الكبير أدام الله سلطانه وقربه منه ، فإنه إذا لقى مزيدا من الإقبال والإكرام فمن اليسير إدراك مايقدر عليه . وها قد أديت حق من رفعه أســتاذى وهو بمنزلة أخى . وذكرت فتح هذه القلعة إتماما للتاريخ .

أمر السلطان أن يسلم للحرس هذا المجرم الملعون الذى ارتكب الكثير

من الآثام وأزهق كثيرا من الأرواح بغير حق هو وأنصاره المجرمون الآخرون . فشنق مع سبعين ومائة من رجاله فى يوم الأربعاء ، وقد نصبت المشانق بعيدا عنا فى صفين وكانت تبدأ من باب الغار ، ثم هدم الغار وخربت القلعة حتى لا يحتمى بها عيار .

وسار السلطان من هناك واتجه نحو بلخ ، وفى الطريق وصلت رسالة من السپهسالار على : بأن پورتكين قد هرب ولجأ إلى الكمخيين فبأى أمر تأمرون ؟ هل أتأثر من ختلان خطاه أم أبقى هناك أم أعود ؟ فأرسل إليه الجواب بوجوب مجيئه إلى بلخ حتى يتخذ ما يلزمه من تدبير .

وبلغ السلطان بلخ يوم الخميس الرابع عشر من صفر ونزل فى الحديقة . وجاء كذلك السپهسالار على بعدنا بأحد عشر يوما فقابل السلطان وقال : كان الصواب فى تعقب أثر هذا العدو فإن رأسه ملىء بالفساد ، ثم بيّن للسلطان أن أهل ختلان قد ضاقوا بپورتكين وبجيشه ولكنهم يبالغون فى الكلام عنه ، ويقولون إنه إذا أتيح للسلاجقة أن يستولوا على خراسان فإن هذا الرجل أولى بها منهم لأنه ابن ملك .

واختلى السلطان فى اليوم التالى بالوزير والأعيان وقال : « لقد أصبح فريضة علينا أن نبدأ بموضوع پورتكين وأن نفرغ من أمره هذا الشتاء ٥٦٣ ثم نقصد السلاجقة حين يظهر الربيع » . فلم ينبس الوزير ببنت شفة . فقال السلطان : لابد لك من الكلام . فأجاب : « إن أمر الحرب دقيق وإن على أرباب السيف وحدهم أن يتكلموا فيه . أما أنا فأتحاشى التحدث فى مثل هذه الأمور ما استطعت ، فإن حديثى عنها لا يستسيغه السلطان » . فقال أستاذى « إن على الأستاذ الرئيس أن يشير إلى الحسن والقبيح فإن السلطان لو يصر على أمر ما فإنه ـ حين يعيد التفكير فيه ـ قد يستمع آخر الأمر لكلام الناصحين المخلصين » .

فقال الوزير : « إنى لا أستصوب بأية حال أن يسير جيش فى هذا الوقت الذى لو ألقى فيه الماء على الأرض لجمد ، إنما تساق الجيوش إما فى وقت النوروز حين تخضر أوراق الشجر وإما حين تجمع الغلات ، إن أمامنا خطباً أعظم وتسيير الجيش لحرب بورتكين بعيد جدا عن الصواب ، فأعتقد أن الأفضل توجيه كتاب إلى والى صغانيان وإلى أبناء على تكين الذين تعاهدوا معنا حتى يقتفوا أثر هذا الرجل ويطاردوا أتباعه ، فنضرب عصفورين بحجر ، وحتى إذا حلت الهزيمة فإنها تقع على أحد الفريقين ولا تقع على جيشنا » فقال الجميع هذا رأى صائب . وقال السلطان : إلى أن أفكر فيه مليا . وانصرفوا .

وبعد ذلك قال السلطان إن الصواب هو أن نذهب لمحاربة هذا الرجل .

وفى الثامن من شهر ربيع الأول أرسل كتاب إلى بكتكين صاحب الصولجان المحمودى وفيه أمر له بأن يقيم جسرا على جيحون لأن الركاب العالى سوف يتحرك على عجل .

وكان السلطان سبكتكين قد أسند قيادة قلعة ترمذ إلى بكتكين بعد قتلغ . وكان بكتكين مبارزاً وشهما وقاد كثيرا من الجيوش كما ذكرت فى عدة مواضع من هذا الكتاب . وجاء الرد . « بأن الجسر قد شد إلى مكانين وفى وسط الجزيرة ، وأنه جسر قوى شديد الإحكام لأن الآلات والسفن اللازمة لإقامته كانت كلها موجودة سليمة منذ أوعز السلطان محمود بإقامته ، وقد وكلتُ حراسا لحماية هذا الجسر من الجانبين ليلا ونهارا حتى لا يحتال العدو ويتلفه » . فلما جاءت هذه الرسالة أخذ السلطان فى التحرك بالجيش ، على أن يذهب بنفسه ، ولم يجرؤ أحد على التكلم فى هذا الأمر ، فقد كان شديد الضجر من كثرة الأخبار المختلفة التى تلاحقت عليه كل يوم منبئة بحدث جديد .

وتكررت التصرفات التى لا تصدر عن روية مدة تسع سنوات مما كانت

تبدو نتائجها الآن . والأعجب من هذا كله أنه لا يقف عند حد فى ٥٦٤ استبداده، وكيف كان يستطيع التروى والتبصر وقضاء الله وقدره مخبأ له. وقد قال الوزير عدة مرات لأستاذى :

« أترى ماذا سيفعل ؟ إنه عازم على عبور جيحون فى مثل هذا الوقت لكى يطرد بورتكين لأنه جاء إلى ختلان ولأنه عبر نهر بج آب ، وهذا العمل لا يعرف عاقبته إلا الله ، وإن الأوهام والخواطر لعاجزة عن إدراكه .

فأجاب أبو نصر : « ليس لغير الصمت مجال ، فإن النصيحة التى تنقلب تهمة ليس من الحكمة إبداؤها » .

وكان رجال الحاشية جميعا يعرفون ذلك . وكانوا يتحدثون فى الخارج عن مغبة هذه الأمور ، فوسطوا أبا سعيد المشرف كى يكتب للسلطان . ولكن بلا جدوى . وكانوا حين يجتمعون بالسلطان يوافقون على رأيه فإنه كان يغضب على من يخالفه .

وفى يوم الجمعة الثالث عشر من ربيع الأول توفى أبو القاسم الكاتب صاحب بريد بلخ . وقد تحدثت فى هذا الكتاب عن أحواله فلا محل لإعادة الحديث . وفى الغداة أعاد السلطان عمل البريد إلى أميرك البيهق ، وقد عاونه أستاذى معونة صادقة ليؤول إليه هذا المنصب ، وأزال ما كان بينه وبين الوزير من سوء التفاهم ، حتى استقام له هذا الأمر ومنح خلعة قيمة .

ويوم السبت منتصف هذا الشهر جاء كتاب غزنة ينبىء بوفاة الأمير سعيد رحمة الله عليه . وكان السلطان فى سراى الحرم وكان يشرب . فوضعوا الكتاب ولم يجرءوا على أن ينقلوا إليه هذا النبأ وهو بين كؤوس الشراب . وفى الغداة ، حين جلس على التخت ، وقبل أن يعدوا الأمر للاستقبال ، حمل خادم الرسالة

وأعطاه إياها ثم انصرف . فلما قرأ السلطان النبأ نزل من على التخت وأنّ أنّة دوّت فى سراى الحرم . ثم أمر الخدم أن يسدلوا الستار الذى رفعوه أمام التخت ونودى بأن لا استقبال اليوم . وعاد الغلمان وجاء الوزير والأولياء والحشم إلى الإيوان ، وظلوا جالسين إلى قبيل الظهر عسى ٥٦٥ أن يخرج السلطان للعزاء ، فأوفد إليهم رسولا بأن يعودوا إلى بيوتهم ، لأنا لن نجلس للعزاء ، فانصرف القوم .

ولوفاة هذا الشاب قصة من النوادر لا محالة من ذكرها . كان هذا الأمير أقرب أبنائه منه وأحبهم إليه ، وكان قد نصبه ولى عهده ، والله تعالى قد قدر للأمير مودود ، أن يخلف أباه . فماذا يستطيع الوالد ؟ وقبل أن يصل خبر موته جاءت الكتب بأنه مصاب بالجدرى ، وكان السلطان رضى الله عنه قلقا وكان يقول : « لقد مرض هذا الولد بالجدرى من قبل وإصابته به مرة أخرى أمر عجيب » . ولم يكن الجدرى هو الذى سبب موته إنما هى علة أصابته ولما يتمتع بزهرة شبابه ، فقد كان لا يستطيع أن يقترب من النساء وأن يعاشرهن ؛ فلم يطلعوا على أمره طبيبا لكى يعالجه العلاج الناجع ، فإنه لم يكن عنينا ، وقد يصاب الشبان بأمثال هذه العلة . وظن النساء كما هو دأبهن أن الأمير « مربوط » .

وجهزت عجوز كردية سماً واستخرجت منه ماء وألقت فى الماء شيئا ثم سقته لهذا الشاب العزيز فشربه وشلت منه سبعة أعضاء ، وغشى عليه أحد عشر يوما ثم قضى نحبه . وقد جزع السلطان لوفاة هذا الأمير جزعا شديدا وأقام فى سراى الحرم ، وكان هذا الموت المفاجىء أحد الحوادث السيئة التى جعلت الناس لا يجرؤن على إخباره بأن عبور جيحون خطأ ، فإنه لم يستقبل أحدا ، وفجأة امتطى جواده وسار إلى ترمذ .

وجاءت فى هذين اليومين رسالة شفوية منه إلى الوزير يقول فيها : « إنه لابد من المسير ، وإن عليك أن تقيم والأمير مودود فى بلخ مع الجيش الذى أقمناه هناك من غلمان السراى ومن الأصناف الأخرى ، وعلى الحاجب سباشى أن يذهب إلى دره‌گز ، وكان قد أقام ثمة الفرسان وغلمان السراى ومعهم أسلحتهم ، وكذلك فإن معه ألفين من الفرسان الترك والهنود عدا غلمانه وفرسانه ، وعلى الحاجب بكتغدى أن يبقى هناك على رأس الغلمان ، وعلى السپهسالار أن يأتى معنا ومعه رجال الجيش من المقدمين والقادة والحجاب الذين دونت أسماؤهم وينبغى أن يتم هذا العمل بدقة » . فقال الوزير سمعا وطاعة . وبقى فى البلاط إلى قبيل صلاة العشاء حتى أعد الأمر على خير وجه . وسار السلطان من بلخ إلى ناحية ترمذ يوم الإثنين التاسع عشر من هذا الشهر ، وعبر الجسر ونزل فى الوادى المحاذى لقلعة ترمذ . وكان أستاذى مع السلطان فى هذه الرحلة ، وقد ذهبت معه وكان الجو باردا برودة لا يذكر أحد أنه شعر بمثلها فى حياته .

ويوم الخميس لثمانية أيام بقيت من هذا الشهر رحل السلطان من ترمذ ، وبلغ صغانيان يوم الأحد آخر هذا الشهر ، ورحل من هناك يوم الأربعاء الثالث من ربيع الآخر ، وسار على طريق مضيق شونيان (سومان) حيث أخبروه بمسير بورتكين ، وكان البرد هناك من نوع آخر ، ولم ينقطع هطول الثلج ، ولم يلق الجيش من مشاق الطريق مثل ما لقى فى هذا السفر .

ويوم السبت التاسع من هذا الشهر جاء الفرسان المعينون على الطريق برسالة الوزير ففتحها السلطان وكان فيها : « إن الأخبار قد جاءت بأن داود قد قصد جوزجان فى جيش قوى حتى يأتى إلى جيحون عن طريق أندخود ، والظاهر أن قصده من هذا هو أن يخرب الجسر ، ويستولى على ضفاف النهر ، ويثير فسادا

كثيراً ، وإنى أعرض هذا حتى يتبدبر السلطان الأمر ، فإنه خطر عظيم ، إذ أن فى هدم الجسر والعياذ بالله ضياع هيبتنا » . وقلق السلطان كثيراً ، وكان يورتكين قد سار من سومان واستولى على المضيق ، فقد كان يعرف الأراضى المحيطة به وكان له أدلاء ماهرون . فعاد السلطان من هناك بخفى حنين ، وكان ذلك يوم الجمعة الثانى عشر من هذا الشهر ، وحث السير حتى بلغ آمد . وقد انتهز يورتكين الفرصة ، فنهب بعض أمتعتنا وخطف كثيرا من جمالنا وخيولنا وساقها إلى معسكره ، فكان لنا فى هذا المهانة والقلق .

وبلغ السلطان ترمذ يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر ، وكان قائد القلعة بكتكين صاحب الصولجان (جوكاندار) يصحب السلطان فى هذه الرحلة ، وقد أتى بخدمات جليلة : وكذلك فعل نوابه وقواده فى القلعة حيث اتخذوا الحيطة الكاملة ، فحمد لهم السلطان ذلك وأمر لهم بالخلع . وفى الغداة كان فى ترمذ ، ثم عبر الجسر يوم الأحد ليومين بقيا من هذا الشهر ، وبعد ذلك جاء بلخ يوم الأربعاء الثانى من جمادى الأخرى .

وجاءت الكتب من نيسابور يوم الإثنين السابع من هذا الشهر تقول إن داود قد جاء إلى نيسابور ليرى أخاه ، وإنه أقام بها أربعين يوما فى قصر شادياخ، ٥٦٧ وقد منحه طغرل خمسمائة ألف درهم . وهذا المال وغيره من الأموال التى كانت تحت تصرفهم كان قد جمعهما السالار بوزكان ، ثم إنه عاد من نيسابور إلى سرخس على أن يجىء إلى جوزجان .

وجلس السلطان للاحتفال بالنوروز يوم الأربعاء الثامن من جمادى الأخرى . وفى يوم الجمعة العاشر من هذا الشهر جاءت الأنباء بأن داود قد بلغ طالقان مع جيش قوى كامل الأهبة . وفى يوم الخميس السادس عشر من هذا الشهر وصل نبأ آخر يقول إنه دخل فارياب و وإنه سيسرع منها إلى شبورقان،

وإن السلاجقة ينهبون ويقتلون حيثما حلوا . وفى ليل السبت الثامن عشر من هذا الشهر جاء عشرة فرسان من التراكمة بقصد السرقة قرب حديقة السلطان ، وقتلوا أربعة من الرّجالة الهنود ، ثم واصلوا السير إلى قرب قهندز — وبها تحفظ الفيلة — فرأو فيلا وقد نام طفل على ظهره فأسرع التراكمة وساقوا الفيل ، والطفل يغط فى النوم ، حتى إذا قطعوا فرسخا بعيداً عن المدينة أيقظوا الطفل وأمروه بأن يسوق الفيل بأقصى سرعة « وإلا قتلناك » . فقال : سمعاً وطاعة . ثم ساق الفيل والفرسان على أثره يستحثونه وينخسونه بالرماح ، وقطعوا شوطاً طويلا قبل نهاية النهار وأتوا بالفيل إلى شبورقان . فأمر داود بالصلات للفرسان ، وأمر بأخذ الفيل إلى نيسابور . وترتب على ذلك أن ساءت سمعة رجالنا فقد قيل إن هؤلاء القوم من الغفلة بحيث يتمكن العدو من سرقة الفيل من معسكرهم . وعلم السلطان بالحادث فى اليوم التالى ، فضاق به صدرا ، ولام الفيّالة لوما شديدا ، وفرض عليهم غرامة مائة ألف درهم ثمنا للفيل ، وضرب جماعة من الفيالة الهنود .

وفى يوم الإثنين الموافق لعشرين من هذا الشهر طرق أبواب بلخ آلتى التركمانى حاجب داود ومعه ألفان من الفرسان ثم وقف بجنده فى مكان منها يسمى «بندكافران» ونهب قرية من قراها ، ولما بلغ الخبر المدينة ضاق صدر السلطان فقد كان الفرسان فى قرية دره‌كَز ، وكان الحاجب الكبير على رأسهم فطلب السلطان عدة القتال ولبسها وركب مع غلمان الخاصة الذين توفرت لهم الخيول فحدث هرج ومرج فى البلاط . وجاء الوزير والسپهسالار ، فقالا للسلطان : « أطال الله حياتك ماذا حدث ٥٦٨ حتى يكرر السلطان الأمر بطلب السلاح ؟ إنه لم يحدث شىء سوى أن رجلا جاء وكأنه من المقدّمين فوجب إرسال رجل مثله لمقابلته ، فإذا كان أرفع من ذلك مرتبة فالواجب أن يرسل إلى لقائه السپهسالار » . فقال السلطان : « ما حيلتى ؟ إن هؤلاء الجند

الخائرة عزائمهم لا يقدرون على شيء وقد أراقوا ماء وجهى — وكانت هذه أكبر شتائمه — . وأخيرا أمر بأن يذهب الحاجب مع بعض الفرسان وصنوف أخرى من الجند . وسار السپهسالار ، متنكرا بغير كوس أو علم على أثره . وعند صلاة العصر بدأت المناوشة وحمى وطيس القتال وقتل وجرح كثير من الفريقين ، وفى المساء رجع آلتى وجاء إلى علياباد . وقيل إنه أقام بها تلك الليلة ، وإنه أطلع داود على ماجرى فجاء من شبورقان. وفى يوم الخميس لسبعة أيام بقيت من الشهر ذاع الخبر بأن التعبئة والزحف قد أعدا فى علياباد . فأمر السلطان بأن يستعد الجيش ، وجىء بالخيول من دره كز وعاد الحاجب سباشى مع الجيش . وسار السلطان رضى الله عنه من بلخ يوم الخميس غرة رجب ، وحطت القافلة رحلها عند الجسر ، ثم جاءت الجيوش . وهناك أمر بالتعبئة ، وكنت قد ذهبت معهم ، وسار السلطان من هناك مع جيش مجهز وثلاثين فيلا أكثرها تمل . وفى يوم الإثنين الثامن من الشهر ظهر العدو فى وادى علياباد من ناحية الصحراء ، ووقف السلطان على ربوة وكان يمتطى فيلة وبدأ الجيش القتال ، وكان كل رجل يقول عن داود « يا له من فارس مغوار ، لقد جاء وحيـــدا بغير أخ ولا قوم ولا أعيان ليحارب بهذه القوة » . واشتد أوار الحرب بينهم . ولأول مرة فى حياتى شاهدت حرب الميدان ، وكان ظنى قويا بأن جيشنا سيقضى على الأعداء قبل الضحى . فقد كان فى جيشنا ستة آلاف غلام من غلمان السراى ، عـــدا الطبقات الأخرى من المقاتلة ، ولـكن الواقع كان غير ما ظننت فقد بلغت الحرب أشدها ، وكان الاشتباك فى الميدان بين جماعتين كل منهما أقل من خمسمائة فارس ، وظلت بقية الجيش كالمتفرجين ، وكلما تعب فوج اعتزل وحل محله فوج ممن أخذوا حظهم من الراحة . واستمر الحال على هذا النحو حتى صلاة الظهر . فضاق صدر السلطان وطلب حصانا فامتطاه مدججا بسلاحه وأرسل رجلا إلى بكتغدى ليمده بألف من خيرة الفرسان المدرعين

الذين كان قد انتقام والتف حوله أصناف شتى . وحمل السلطان بنفسه فى الميدان ثم وقف وحمل الغلمان على الأعداء حملة شعواء فولوا منهزمين ، وكان كل منهم يريد النجاة بنفسه وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر منهم عشرون وتشتت الباقون وتفرقوا فى الصحراء ورغب جند السلطان فى تعقبهم فأرسل السلطان النقباء ليمنعوهم من مطاردتهم حتى لايذهب أحد فى أثر المنهزمين وقد قال : « إنها ٥٦٩ الصحراء ومن المحال ارتكاب المخاطر وكل قصدنا أن نقضى عليهم جملة واحدة، وهؤلاء الذين جاءوا ذاقوا ضربتنا » ولو أتى من العدو مدد على أثرهم فلن ينجو منهم أحد ، فقد ثبت ذلك بعد شهر من هذا الحادث إذ بيّن جواسيسنا وعيوننا أن الأعداء كانوا يقولون : « من المحال أن يقف أحد أمام صفوف هذا السلطان ولو تعقبنا أحد بعد أن ولينا منهزمين لما قامت لنا قائمة » . وجيء بالأسرى وسئلوا فقالوا إن داود جاء هنا دون إذن من طغرل وإنه قال « أنهض إليهم مرة أستكشف ماهم عليه » فامر السلطان بأن تصرف إليهم النفقات وأن يطلق سراحهم ونزل فى عليا باد يوما واحدا ، ثم سار منها إلى بلخ فى يوم السبت السابع عشر من رجب ولبث فيها حتى وصلت الإمدادات الإضافية من غزنة .

وجاء رسول بكتاب من بورتكين يعتذر عما بدر منه ، فرد عليه السلطان ردا جميلا فإن هذا الرجل ، بعد وفاة والى صغانيان فى شبابه وبغير عقب ، ذهب مؤازرا الكمخيين فى صغانيان ، وكان بينه وبين أبناء على تكين خلاف شديد . ولما كان أمام السلطان عمل جدير بالتفرغ له لم ير غير انتهاج سياسة الود معه ، نظراً لما هو فيه ، وذلك حتى يضرب بعضهم بعضاو تغير « الكلاب على[1] البقر » . فيشتغل كل منهم بعدوه ، ويتقى شر فتنهما فى ملكه إبان غيبته . ولكن الأمر

---

(١) هكذا كتبت باللغة العربية .

لم يتم على هذا النحو أخيراً وسأذكر فيما بعد كيف كان مآل الأمور ، فقد كان من العجائب والنوادر ما كان ستار الغيب قد أخفاه مما تقصر عن إدراكه الخواطر والأوهام .

وتحرك السلطان رضى الله عنه من بلخ ، على أن يذهب إلى سرخس ، وذلك فى يوم الثلاثاء نصف شعبان وكان معه جيش كامل الأهبة ، وقد أجمع الناس على أنه قادر على غلبة أهل تركستان أجمعين لو واجهوه . واستراح قليلا فى الطريق حتى تصل الجيوش التى أمر بتوجيهها إليه من كل فج . ويوم الأحد غرة رمضان بلغ طالقان حيث لبث يومين ثم رحل عنها ، وجهز التعبئة .

وجاءت العيون والجواسيس تنبىء بأن طغرل قد جاء من نيسابور إلى سرخس ، وأن داود ٥٧٠ كان بها ، وأن بيغو قد بلغها من مرو ، ويقال إن بها عشرين ألف فارس وإنهم قد عقدوا العزم على أن يواجهوا السلطان محاربين غير عابئين بالعواقب ، وإنهم سيحاربون فى طلخاب وفى قرية بازركان ، وإن طغرل والينالبين يقولون إن الرى والجبال وجرجان وحفنة من المرتزقة والديلم والكرد سيقابلوننا هناك ، والصواب أن نذهب ونغتنم الفرصة لأن ثغور الروم ليس فيها مقاتلون ، وأن نترك خراسان وهذه النواحى مع هذا السلطان العظيم القوى صاحب الجيوش الجرارة والرعية العديدة . فقال داود : « ما أفدح ما وقعتم فيه من الخطأ . لو أنكم تزحزحتم عن خراسان فلن يقر لكم على الأرض قرار ، لغارات هذا السلطان علينا ولما سيثيره حولنا من الأعداء الأشداء ، فإن هذا السلطان سيغزونا وسيثير من كل جانب أعداء أشداء علينا ، وقد رأيت حرب الميدان فى عليا باد ، لقد كان له كل ما يريد من رجال وعتاد ولكن الأحمال الثقيلة ، وليس فى وسعهم أن يكونوا بعيدين عنها فبغيرها لا عيش لهم ، هى

سبب عجزهم لأنهم مضطرون إلى حماية أنفسهم وحماية متاعهم ، أما نحن فخفاف لا متاع لنا وقد حلت الهزيمة بيكتغدى وبسباشى بسبب ثقل متاعهم ، ومتاعنا خلفنا على مسيرة ثلاثين فرسخا ونحن بهذا قانعون ، فينبغى أن نمضى فى الحرب كالرجال حتى نرى تقدير الله عز وعلا » . فسر الجميع بهذا الرأى وأقروه .

وكان بورتكين يزداد بمضى الأيام قوة فى الحرب ، وكذلك كان جميع الفارين المشردين الذين كانوا معنا من قبل ، أمثال الأمير يوسف والحاجب على قريب والغازى وأريارق وغيرهم . وقال طغرل وبيغو يجب ألا يحدث هؤلاء حدثا فى أى مكان فلعلهم أن يكونوا قد خدعوهم بالمراسلات . فقال داود ليس من الصواب أن ندع هؤلاء وراءنا ، إنهم موتورون لقتل ملكهم ، وقد ألجأتهم الضرورة إلى هنا ، وأما الزعماء منهم أمثال سليمان أرسلان جاذب وقدر الحاجب وغيرهما فيجب أن نرسلهم فى مقدمة الجيش ونرى ما سيكون إذا كانوا قد أضمروا الغدر فإن جماعة منهم ستفر وتضم إلى سلطانها وإذا استبسلوا فى الحرب فهذا خير لنا وذلك حتى نكون آمنين . فقالوا هذا هو الأصوب ، وقالوا لهؤلاء الفارين إن السلطان قد أتى وقد سمعنا أنهم خدعوكم وأنكم تريدون أن تولوا فرارا فى المعركة ، فإذا صح هذا فاذهبوا لأنكم إذا فررتم أثناء المعركة فإنه من الممكن أن يعيدوا الكرة عليكم فيصيبكم بلاء عظيم ، ويبطل حق ما بيننا من الخبز والملح . فقالوا جميعا إنهم ٥٧١ قتلوا ملكنا وقد لجأنا إليكم من الخوف والحاجة ، وسنقاتلهم ما بقى فينا عرق ينبض ودليل ذلك ما نريد من أن ترسلونا فى طليعة جيشكم حتى يتبين ما يكون منا وأى نتيجة لمشاركتنا . فقال السلاجقة لم يبق شك فى نفوسنا ، وعينوا بورتكين فسار على رأس الطليعة ومعه ألف فارس وأغلبهم ممن فروا

من جيش السلطان والتجأوا إلى السلاجقة ، وسار على أثره فى مثل هذا العدد سليمان أرسلان جاذب .

محاربة السلاجقة فى بيداء سرخس وهزيمتهم

فلما وقف السلطان على هذه الأمور أخذ يسير فى التدبير على وجه آخر وكان يتوقع أن يعود هؤلاء الغلمان إليه حين يرون رايته ، وكانوا قد خدعوه بهذا الزعم وقد دفعنا ثمن هذه الخدعة . ويوم الأربعاء الثامن عشر من رمضان ظهرت طلائع العدو قبيل الضحى ، كانوا ثلاثمائة فارس عند طلخ آب ونزلنا بقربهم وكانت الأمتعة تسير وراءنا . وتوقف السلطان وكان ممتطيا الفيل ، حتى نصبوا الخيمة . ودنت طليعة العدو كذلك ، فأسرع من جانبنا جماعة نحوهم ، وكان اشتباكا قويا ، وجاء فرسانهم وذهب إليهم من جانبنا جماعة ، وضربت الخيام ونزل السلطان مع الجيش وانسحب الأعداء ، وفى تلك الليلة اتخذت الحيطة الكاملة حتى لا يحدث اضطراب فى المعسكر . وفى الصباح الباكر دقوا الكوس وركب الجند وذهبوا للتعبئة . فلما ساروا فرسخين ظهر جيش كبير للعدو ، واشتبكت الطليعتان وكانت حربا عوانا ، وأظهر جند الفريقين حمية حتى ظهرت أمامهم قرية بازركان وفيها نهر يجرى وعيون متفجرة وصحراء ملؤها الرمل والحصى . وكان السلطان ممتطيا فيلة فى القلب ، فتقدم حتى ارتقى مكانا ليس بالمرتفع كثيرا ، وأمر بنصب الخيمة الكبيرة هناك ، حتى ينزل الجيش على شاطىء الماء ، وأخذ العدو يزحف عليهم من أربع جهات وقامت معركة حامية الوطيس وأحرج الجيش حرجا شديدا ، إلى أن تمكن من النزول وأقاموا خياما لا تحصى وكان الخوف شديدا من احتمال وقوع خطر عظيم . ولكن العظماء ومقدمى الجيش قد بذلوا ٢٧٥ غاية الجهد حتى أمسكوا بالزمام . ومع هذا كله فإن العدو قد أخذ كثيرا

من الجمال كما قتل وجرح كثيرين منا ، وكانت قوى الحرب منبعثة من ناحية الفارين من معسكرنا ، أولئك الذين أرادوا أن يثبتوا للسلاجقة أنهم ليسوا كما زعموا على الصورة التى تصوروها عنهم ، وأنهم مخلصون ، وذلك حتى يأمنوا جانبهم ، وقد أمنوا فإن أحدا منهم لم ينحز إلى ناحيتنا . وكان جواسيسنا قد كذبوا كثيرا فى هذا الشأن ، وقد أغرتهم الرشوة ، وتبين اليوم أن كل ما قالوه كان بهتانا وزورا . ولما نزل الجيش مع التعبئة كان السلطان فى القلب وكان على الميمنة السپهسالار على ، وعلى الميسرة الحاجب الكبير سباشى ، وكان على الساقة أرتكين . وكذلك رجع الأعداء وأقاموا معسكرهم قريبا على حافة مرج ونزلوا بحيث كان قرع طبول الجيشين مسموعا من كل منهما . وكان معنا كثير من الرجالة فحفروا الخنادق حول المعسكر ، واتخذوا كل ما يمكن من الحيطة فى هذا اليوم ، وقد كان السلطان رضى الله عنه آية فى تعبئة الجيوش ، وقد بذل أقصى ما يملك الرجل من الجهد ، ولكن نجمه لم يتغير ، فقد أراد الله أمرا آخر وكان ما أراد . ولم يكن من المستطاع المسير بجمل واحد خطوة واحدة فى معسكرنا فكان كل جمال يحتفظ بجمله أمام خيمته ، وعند صلاة العصر جاء فوج قوى من الأعداء ليحولوا دون شرب جيشنا من هذا النهر . فبعث السلطان بدر الحاجب وأرتكين مع خمسمائة غلام للقائهم فأشبعوا العدو قتلا وتجريحا . ولما اقترب الليل انتشرت الطلائع الاحتياطية القوية من الجهات الأربع . وفى اليوم التالى جاء من العدو فوج أكبر ونشبت الحرب فى الجهات كلها . ولم يشترك السلطان فى المعركة لأن الوقت كان آخر شهر رمضان ، فآثر أن يحارب بنفسه بعد العيد حتى لا يراق دم فى هذا الشهر . ودامت الحرب سجالا فى عدة جهات كل يوم ، وكان لا بد من بذل جهد كبير لتوفير العلف للجمال .

وكان يستطاع المجىء بالعلف بواسطة ألف أو ألفين من الفرسان، ولكن الأعداء كانوا يطاردونهم يمنة ويسرة ويبدون كل ما فى وسعهم من الجلد.

وكان موضوع العلف شاقا، والسلطان قلق من أجله فاختلى لذلك أكثر من مرة بالوزير ٥٧٣ والأعيان وقال لهم: «إنى لم أكن أعرف أن هؤلاء القوم على هذه الدرجة من القوة، ولقد خدعونى فى الحديث عنهم، ولم يذكروا الصدق كما كان الواجب، وكان ينبغى أن نبدأ بتدبير هذا الأمر، ولا بد من حرب المصاف بعد العيد، ثم نتخذ بعد ذلك منهم سلوكا آخر».

واستمر الحال على هذا الوضع وظلت الحرب قائمة بقية شهر رمضان، فلما انتهى الشهر عيد الأمير وكان قد جاء من الأعداء أربعة آلاف أو خمسة ورموا علينا سهاما كثيرة وقت اشتغالنا بالصلاة. فلما فرغنا من الصلاة كال لهم جنودنا ضربة قوية وقتلوا منهم مائتين وشفوا ما فى قلوبهم من غل فقد أذاقوهم مر القتال. وقد كافأ السلطان هؤلاء المقدمين الذين دافعوا عن الشرب وأمر لهم بصلات. وكانوا يستعدون طول الليل وفى الصباح دقوا الكوس وامتطى السلطان فيله ومن حوله الجنائب من خمسين فارسا. وكان المقدمون قد وفدوا واتخذوا مواقفهم فى الميمنة والميسرة والجناحين وعند مخازن الذخيرة والمقدمة والساقة. وصاح السلطان بالسپهسالار وأمره أن «إذهب إلى مكانك وكن حذرا وجاهد ما استطعت فإنا نريد أن نفرغ من هذا الأمر اليوم بعون الله تعالى». وأمر الحاجب الكبير أن «إذهب على رأس الميسرة وفكر مليا واصغ لأمرنا وارقب حركاتنا فحين نكر على العدو إحمل أنت فى دقة على ميمنته ويحمل السپهسالار على ميسرته وسأراقب المعركة وأرسل إليكم الإمداد من الجناحين حتى نرى كيف يتطور الحال». فقال الحاجب سمعا وطاعة. وساق السپهسالار وكذلك سار سباشى. ثم أمر السلطان أرتكين أن يكون على الساقة مع خمسمائة من أقوى فرسان السرائى وخمسمائة فارس

عندى وقال : التفت حتى لا يحدث خلل فى الإمدادات والجرش الطريق احراسة دقيقة حتى إذا رأيت رجلا من جيشنا يفر من الصف فاشطره نصفين . فقال سأفعل هذا وسار .

فلما فرغ السلطان من هذه الأمور ساق الفيلة وتحرك الجيش حتى لتظن أن الدنيا تحركت وأن الفلك حائر من ضجيج الرجال وأصوات الكوس والأبواق والطبول . فلما قطع الجيش فرسخا فى الطريق ظهر العدو فى جيش قوى جدا بعدد وآلات كاملة . ثم نظمت التعبئة حسب رسم الملوك . واشتدت الحرب بشى الوسائل . وكنت وأمثالى من غير المحاربين لا نعرف أين نحن من الدنيا ولا كيف يكون المصير .

وهبت الريح عند صلاة الظهر وثار النقع ، حتى لم ير الناس بعضهم بعضا ، واختل ٥٧٤ نظام التعبئة بسبب هذه الريح العاصفة ، ووجدت نفسى بغيلة وراء فيلة القلب ، وقد ابتعد عنا بعض من كان معى من الغلمان والعبيد . وكان هلعنا عظيما إذ وجدنا أنفسنا فوق تل آخر ، وهنا وجدت أبا الفتح البستى وقد أنزله من على الحصان خمسة أو ستة من غلمانه وكان يبكى إذ لم يكن يقدر على امتطاء حصانه من ألم النقرس . فلما رآنى قال كيف الحال ؟ قلت لا تقلق فكله خير وبركة وإن هذه العاصفة هبت وزادت الحيرة . وبينما نحن نتكلم فى هذا إذ ظهرت مظلة السلطان وكان قد نزل من على الفيلة وركب الفرس وجاء متنكرا مع خمسمائة غلام من الخاصة كلهم مدرعون ، وكان مع السلطان حربة قصيرة وبقيت الراية السوداء فى القلب . فقلت لأبى الفتح لقد جاء السلطان ولم يحدث شيء أبدا ، وإذا بخلف معروف ربيع معتمد كبير الحجاب سباشى وأميرك الختلى معتمد السپهسالار يجريان إلى حيث السلطان ويقولان : « لا يقلق السلطان فإن التعبئة كما هى وإن

الأعداء مقهورون ولم يصلوا أبداً إلى ما أرادوا . ولكن المقدمين الثلاثة فيهم ،طغرل وداود وبيغو ، قد توجهوا إلى قلب جيشنا مع خيرة رجالهم وإن الينالين وغيرهم من المقدمين قد أصبحوا فى مواجهتنا » . وكان السلطان يخشى وقوع خلل فى القلب فقال لهما « إنى سأنسلخ من القلب بسبب اتجاه هؤلاء الثلاثة نحونا ، وإن الكمين يعد حتى نحمل حملتنا ؛ فقولوا للجند أن يثبتوا ويتخذوا الحيطة جيداً فإن المعركة الفاصلة قادمة بقوة الله عز وجل » . فعادا مسرعين ، وسير السلطان النقباء ناحية القلب ليقولوا للجند : « اثبتوا فإن كثرة جيش العدو متجهة لكم وإنى أعددت الكمين فاستمعوا إلى واحملوا على ميسرة العدو حتى يشتبكوا معكم وأنا قادم على الأثر » . ثم أمر بكتغدى أن « ابعث إلىّ فورا ألف غلام شجاع من المدرعين » ، فأجاب ليطب السلطان بالا فإن العالم كله لا يستطيع أن يزعزع هذا القلب وقد جاء الأعداء وعجزوا وإن ميمنتنا وميسرتنا فى أماكنهما .

وجاء الغلمان ومعهم ألفان من الفرسان المبارزين وألفان من الرجالة السجستانيين٥٧٥ والغزنويين والغوريين وأخذ السلطان رضى الله عنا الرمح وسار مع هذا الجيش الكبير المجهز وارتقى تلا آخر وترجل . وكنت معه ، ثم ابتعدت عن رفاقى فرأيت من بعد ثلاثة أعلام سود كانوا قد رفعوها على تل من الرمال فأتيت قبلها ، ورأيتها أعلام الثلاثة المقدمين السلاجقة ، وكانوا قد عرفوا أن السلطان قد اتجه إليهم من القلب . وكانت الصحراء فسيحة بين هذين التلين فأنزل السلطان الرجالة ومعهم الرماح الطويلة والدروع العريضة ، وبعث على أثرهم ثلاثمائة فارس . وسير الأعداء من الجانبين ألف فارس فلما بلغوا الصحراء أوقفهم رجالنا برماحهم ، وأبدى فرساننا قوة من ورائهم ، وحمى وطيس القتال وإذا براية سوداء تقع من الربوة وكان يحملها ألفا فارس مدرعين وقالوا إنها كانت راية داود ، وقد تقهقر رجاله إلى الخلاء ...

وسار السلطان بغاية السرعة وصاح : « هان أيها الأبناء » . فتقدم الغلمان مسرعين والسلطان واقف على التل ، ووقع جنود الكمين على الأعداء وثار النقع ، وقد لبثت صامدا فى مكانى لأرى ما يكون ، وكنت مع فارس يطلب النجاة وأنا أرمق من بعد مظلة السلطان الذى كان قد استولى عليه الهلع وامتلأت الساحة بالضجة والصياح وعلت قعقعة السيوف حتى كأن ألف ألف رجل يدقون بالمطارق وكنت أرى وميض السـيوف من خلال النقع .

ومن الله علينا بالفتح وهزم الأخوة الثلاثة (طغرل وجغرى وداود) ومن معهم وتقهقروا حتى لم يبق من الأعداء أحد . وجاء السلطان وكان يركب الفيلة فتعقب العدو نصف فرسخ ، وقد أسرعت وهذا الفارس حتى لقينا السلطان وجاء الحاجب الكبير والمقدمون وقبلوا الأرض ، وهنأوا بالفتح ، فسألهم السلطان « ماذا ينبغى بعد ذلك » قالوا تقام الخيام على الجانب الأيسر من نهر سموه على الجانب ونغزل بها فرحين فلقد منى العدو بالهزيمة وأخذ درسا قاسيا وذلك حتى يذهب القائد الذى عينه السلطان ليتعقب المنهزمين .

وقال أبو الحسن عبد الجليل : « حبذا لو ذهب السلطان فى أثرهم فرسخين فى هذه الفرصة السانحة متحملا فى ذلك مشقة أخرى حتى نستأصل شأفتهم وهنالك ينزل السلطان » . ولكن السپهسالار صرخ فى وجهه ، وكانت الصلة بينهما سيئة ، وقال : « أتتكلم حتى فى الحرب لماذا لا تلزم حدك ؟ » . وكذلك تحدث إليه بقية المقدمين . ولم يستنكر السلطان حديثهم ٥٧٦ وأرتج على أبى الحسن . وتبين بعد ذلك أن الرأى الذى أبداه هذا المسكين هو الصواب . فلو أن السلطان تعقب السلاجقة لما استطاعوا أن يجمعوا شملهم .

ولكن ما يريده المخلوق لا يعلو على إرادة الخالق . فقد قدر أن يصل هؤلاء القوم إلى هذه المنزلة ، فكيف تكون الحيلة فى دفع القضاء . وأرسلوا بيرى قائد الاصطبلات مع جماعة من المقدمين للاحقة المنهزمين ، فذهبوا منوكى القوى مع جماعة من الفرسان على شاكلتهم ولم يقدروا على شىء ، وتريثوا فى مكان ما ، وحين صلاة العشاء قفلوا راجعين إلى معسكر السلطان وقالوا : « لقد ذهب الأعداء بعيدا ولم نجد أحدا من رجالهم فعدنا وقد انسحب العدو إلى الرمال والصحراء ، وليس معنا آلات السير بها ، وخشينا أن يلم بنا لذلك حادث » وكانوا قد اصطنعوا هذا العذر . وسأذكر فيما بعد ما كان . ولو أن السلطان لم ينزل حيث نزل ولاحق الأعداء لتبعه الجيش برمته ، ولكنى قلت إن الله عز ذكره لم يشأ وقضى بما كان ولا مهرب من قضائه . وفى هذه الأثناء نادانى السلطان قائلا : « أين أبو نصر مشكان ؟ » قلت : أطال الله حياة السلطان ، لقد كان مع أبى سهل الزوزنى أمام فرقة الفيلة وكنت معهم فلما عصفت الريح وثار النقع وجدتنى وحيدا بعيدا عنهما ، ثم جئت إلى هنا ، ولعلهما لجآ إلى مكان أمين . فقال « اذهب وقل لأبى نصر ليكتب كتاب الفتح » فقلت سمعا وطاعة . وانصرفت وأمر السلطان النقيبين وقال إذهبا مع أبى الفضل حتى المعسكر . فجاء النقيبان معى وقد سرنا طويلا حتى بلغنا المعسكر ، فوجدت أستاذى وأبا سهل الزوزنى جالسين وقد ارتديا القباء والحذاء وحصانيهما مسرجين وكانا قد عرفا بأمر الفتح . فدعوانى وجلست وأبلغت رسالة السلطان . فقال أبو نصر « نعم ماتم » ، ثم سألنى عن الأحوال فقصصت عليه كل شىء ، فقال لأبى سهل « إن الصواب ما رأى أبو الحسن عبد الجليل ولكنهم لا يريدون ترك هذا السلطان ليسير فى الأمور على الوجه الصحيح . » وجلس الاثنان ثم قاما لاستقبال السلطان . وقدما التهنئة بالفتح المبارك ٥٧٧ وأبديا ما لهما من الآراء ، ثم استأذنا وانصرفا ، ولما رجع

أستاذى أبدع فى تسطير كتاب الفتح ، ثم أعدت نسخه ، وعند صلاة العصر رفعه للسلطان فقرأه وسر به وقال له : « عليك أن تعرف أنا سنذهب غدا إلى سرخس وحين نبلغها سنكتب كتابا آخر ، وسيذهب به الرسل مبشرين » وفى الغداة ، الثالث من شوال ، نزل السلطان وجنده على ضفة نهر كأنه البحر اتساعا ، وظهرت هناك طلائع العدو ، ولكنهم لم يحاربوا ، واكتفوا بأن أرونا أنفسهم ثم انقلبوا راجعين ، ورأينا مدينة سرخس خرابا وقد جف ماؤها ؛ وكانت من قبل زاهرة عامرة . واستغرق السلطان فى الفكر بسبب تراتى طليعة العدو هنا ، وقال للأعيان : « أيمكن أن يوجد أناس أكثر صلفا من هؤلاء ؟ فقد كنا نحسب أنهم بعد ما منوا به من الهزيمة لن يثنوا أعنتهم إلا عند جيحون وبلخان كوه » . فقالوا : « إنما يهزم السلاطين الأعداء بحيث لا تقوم لهم قائمة ، فإن السلطان الراحل (محمود) قد هزم الخانيين فلم ير فرد منهم بعد ذلك . وهؤلاء القوم فئة من الخارجين على السلطان فإذا فكروا فى العودة فسيلقون أكثر مما لقوا من الغلبة » .

وبعد صلاة العصر جاءت الأنباء بأن الأعداء قد عادوا ، وأنهم على مسيرة فرسخين ، وقد تجمعوا ، وهم يعملون على تحويل مجرى هذا النهر (الذى نقيم على شاطئه) ، وأنهم سيعاودون القتال . فضاق صدر السلطان. وفى المساء أقبل الجواسيس والسعاة ومعهم الكتب من المنهين ، وفيها أن الأعداء قد لبثوا يتدبرون واتفقوا على : « أنه ليس من الصواب مواجهة السلطان فى المصاف ، وأنه يجب المحافظة على تقاليدنا الحربية ونحن فارغو البال من الأثقال والأمتعة ، ولقد أصابتنا هذه الهزيمة ، ويجب ألا نتفرق حتى نقلقه فيكف عنا راضيا أوكارها ، وقد انقضى الشتاء وأقبل الصيف ونحن أهل بادية ولنا جلد على الحر والبرد ونقدر على الصبر ، أما

السلطان وجيشه فلا طاقة لهم به ، وإلا كيف يستطيعون المقاومة مع هذه المتاعب ، إنهم لا بد سيتراجعون » .

فعرض أستاذى هذه الكتب على السلطان ، وكان شديد اليأس لخارف أمره ، وفى الغداة بعد أن فرغ من الاستقبال اختلى بالوزير والأعيان وأخبرهم بهذه الأنباء وقرأ عليهم الكتب . وسألهم السلطان ما الرأى ؟ قالوا إنا نعمل بما يأمر به مولانا فماذا يفكر السلطان ؟ قال ٥٧٨ إنى أظن أن نبقى ها هنا ونعد آلات الصحراء ونشعل حربا أخرى ، مصافا ، فإذا هزموا فإنا لا نعود عن مطاردتهم حتى شاطىء جيحون . قال الوزير : « يجب أن نفكر فى طريقة خير من هذه ، فإن الظروف غير مواتية والمخاطرة من المحال » . وبينا هم يتحدثون على هذا النحو إذا بماء هذا النهر ينقطع جريانه ، وكان ذلك فى الضحى ، وقد هاجمت طليعتنا العدو فإنه أحاط بمعسكرنا الذى كان ضيقا وخيامه متشابكة بحيث لم يكن من سعة بين الميمنة والميسرة والقلب . ولم أر فى أى وقت معسكرا أقيم على هذا النحو . واتجه السلطان نحو هؤلاء الأعيان وقال « بسم الله قوموا حتى نركب » . فقالوا « ليبق السلطان فى مكانه فإنه قيل إن قادة الأعداء لم يحضروا ، ونحن العبيد سوف نذهب ونؤدى ما ينبغى أداؤه ، وإذا احتجنا إلى مدد فإنا نطلبه » . وانصرفوا ثم اتجهوا نحو العدو متأهبين . ولبث الوزير وأستاذى فترة مع السلطان يطيبان خاطره ، ويدبران إيقاف إرسال الكتب والمبشرين بالفتح حتى ينجلى الموقف ثم انصرفا . وبعد عنا الماء الجارى واضطررنا إلى التعويل على ماء الآبار ، وكان لدينا كثير منها ، وكنا على مسافة قريبة من سرخس . ولم يستطيعوا جلب ما كان تبقى من الثلج لمطاردة العدو لهم وتضييقه عليهم . ودامت الحرب بشدة حتى صلاة العصر وجرح وقتل كثيرون من الفريقين ، وعاد جندنا وقد علاهم

الغم وقد ظهر النصر فى كفة العدو ، واستحوذ على رجالنا الضعف والخور وانهارت عزائمهم . وأبلغ المنهون السرّيون الذين كانوا فى صفوف الجيش هذه الأخبار للسلطان ، وكذلك أرسل أعيان الجيش ومقدموه سرا بهذه الأنباء للوزير على لسان معتمديه ، وشكوا تقاعس الجند الذين كانوا لا يحركون ساكنا ، كما شكوا من قلة العلف والفقر وقالوا :

« إن العارض قتلنا بالحرص على التوفير ، وإنا نخاف أن تحدث فتنة هنا إذا ماسرى القيل والقال بين الجند ، ومصير الأمور رجحان كفة العدو ، فلامناص من اتخاذ الحيطة لتفادى ماقد يحدث من شر » .

وبعد صلاة المغرب ركب الوزير وجاء إلى البلاط وطلب المقابلة الخاصة ، وبقى مع السلطان حتى صلاة العشاء : وقد ذكر له كل هذه الأمور ثم انصرف وكان فى الطريق يتحدث إلى أستاذى فى هذه الأمور ، وقد عادا إلى الخيام .

وفى الغداة عاد الأعداء أشد قوة وأقوى جرأة وأكثر عددا وأشد إقداما ، واشتبكوا ٥٧٩ معنا فى كل الجوانب ، وتحرج الموقف وعلت قعقعة السيوف والنفير فى المعسكر . فركب السلطان متخفيا وسار إلى جانب المعسكر ليعاين ماتحدث عنه القادة ، ثم رجع عند صلاة الظهر وأرسل للوزير رسالة قال فيها : « إن ما قصه على الخواجة كأنه رآه بعينه » وعند صلاة العصر نادى أعيان الجيش وقال ما السبب فى أن الأمور تسير بتهاون شديد . قالوا « أطال الله عمر السلطان ، إن الجو شديد القيظ والعلف شحيح ، وقد أشرفت الدواب على التهلكة ، ولابد من اتخاذ تدبير ناجع فى حرب هؤلاء الناس » . ثم قالوا « إنا أرسلنا رسالة للوزير وبيّنا أعذارنا ، ولا شك فى أنه أطلعكم عليها ، ولا بد كذلك

أن المنهين المنبثين وسط الجند قد عرفوا السلطان حقيقة الحال . » فقال الوزير: « لقد تحدثت إلى السلطان فى هذا وقد تفكرت فيه طوال ليلة الأمس وقد خطر لى أمر لم أقله للسلطان وسوف أقوله له سراً » .

وغادر أعيان الجيش جميعاً وبقى السلطان والوزير وأستاذى . قال الوزير

أطال الله عمر السلطان وسيّر الأمور وفقاً لمراده ، الحق أن جيشنا إذا اعتراه التعب فإن جيش العدو يكون أشد تعباً ، والرأى عندى أن أرسل رسولا ينصحهم من قبلى ، ينصحهم وهم فى فزع من هذه الهزيمة التى لحقتهم ، ويقول لهم إنه إذا عزمتم على القتال مرة أخرى فإنه لن يبقى منكم أحد ، والأجدر بكم أن تقدموا المعذرة وتظهروا الطاعة حتى أتوسط لدى السلطان ليقبل تقربكم منه ، ولأبين له أن إقدامكم على الحرب كان حرصاً على الحياة ، وأتودد إليه حتى يذهب إلى هراة وتبقوا أنتم فى هذه الحدود ، ونتبادل الرسل حتى نضع قاعدة ثابتة وذلك حتى تزول هذه الشكوك . وتستقر تلك الأحوال » . فقال السلطان إن هذا الرأى يبدو سديداً ولكن الصديق والعدو سيعرفان أنه عن عجز . فقال الوزير :

« إنه كذلك ، ولكنه أفضل وأسلم وسنعود بهذا الحال سالمين ، وقد خبر السلطان قتالهم وعرف مصير الأمور ، وإذا كانت للسلطان نية لقتالهم فإنه يتوجه إليهم من هراة متأهباً وبصيراً بعد المهرجان ، فإذا ساروا على شروطنا التى نراها تستقر الأمور ، وإذا أبوا فالعياذ بالله يبلغ السيل الزبى : ولات حين مناص ، فإذا أمعن السلطان النظر فى هذا وتدبره ملياً وأعمل فيه فكره المبارك لكى يتخذ قراراً فإنه سيعمل بهذا الرأى » .

٥٨٠ ورجع الوزير وأستاذى . ولما عاد أستاذى إلى خيمته نادانى وقال ألا ترى

إلى أى حد بلغت الأمور . ياليتنا متنا ولم نر هذه الفضائح . ثم سكت هنيهة وأعاد على كل ماجرى ورأى الوزير فى قرار السلطان وقال وهكذا يقول السلطان إن هذا عجز وهذا ظاهر ولكنها الضرورة تلجئنا إليه . ثم قال لى يا أبا الفضل إن الوزير رأى صوابا ، فلعل هذا التدبير يتم كاملا حتى نذهب إلى هراة ونورى الكرامة ، فينبغى بذل قصارى الجهد حتى لا تكون فتنة تشغل البال ؛ فإنا سنتلافى هذا العجز ، وليهيء الله عز وجل كل الخير . وما كدنا نفرغ من هذا الحديث حتى جاء فراش من قبل السلطان وقال إن السلطان يدعوك ، فقام أستاذى وذهب . وعدت أنا إلى خيمتى شديد الحزن وطال ليلى حتى عاد أستاذى ونادانى فذهبت عنده وبقيت معه وحدى قال : « كان السلطان فى الخركاه حين ذهبت إليه فأجلسنى وحدى وأخرج من كانوا معه وقال لى « إن الأمر يتعقد ويطول كما ترى ، وقد عاد الأعداء المنهزمون فى صلف ، والآن قد قررنا وشاهدنا أن محاربة بكتغدى وسباشى معهم كانت خطأ ، ولقد فات ما فات ، وإنما ينبغى أن نرسل لمقاتلتهم رجالا خفافا مثلهم : أقوياء ليس معهم أثقال حتى نقهرهم ، ولم نجد جوابا شافيا لدى كل من كلمناهم فى هذا الأمر ، فإن القائدين العظيمين قد هزما وتضعضعا على يد هؤلاء الأعداء ، وهما يريان أن لا كاشف لهذا الأمر ، وذلك حتى نعذرهما ، والوزير رجل من طراز آخر لا أفهم كنهه ، إنه يحيل وهذا يحيل إليه ؛ وقد تحيرنا فى هذا ، وأنت رجل لا تقول الأمر إلى السپهسالار إلا الصدق ولا تبغى غير الخير ، فحدثنى عما ترى فى هذا الأمر بلا محاباة ، فإنا قد اعتمدنا عليك دون سائر رجالنا كى تصارحنى بما ترى وتقضى على هذه الحيرة فى نفسى ، وتبين ما فيه الخير » . فقلت (أنا أبو النصر) : أطال الله عمر السلطان فليصارحنى مولاى بما فى ضميره ، ماذا يرى ، حتى أبين الصلاح والصواب بقدر علمى ، ولا أجيب بشىء قبل أن أعرف رأى مولاى .

فقال السلطان « لقد استصوبت ما اقترحه الأستاذ الرئيس اليوم عند

صلاة العصر من إيفاد رسول ٥٨١ لإتمام صلح مع هؤلاء الذئاب، على أن نذهب إلى هراة ونقضى بها هذا الصيف حتى يستريح الجيش وتأتى إلينا الأمداد التى نريدها من غزنة، من الخيل والجمال والأسلحة، ثم نسوس الأمور بشكل آخر بعد أن عرفنا نظام أعدائنا. وحين يقبل المهرجان سنقصد بوشنك وطوس ونيسابور فإذ تعرضوا لنا وثبتوا نحاربهم خفافاً ولا يكون لهم من الخطر ما كان، وإذا لم يثبتوا وتراجعوا فإنا نسير على أثرهم حتى باوردونسا، وسنحد هذا الأمر فى هذا الشتاء حتى نطهر منهم خراسان بتوفيق الله».

فقلتُ هذه نظرة صائبة، ولكنى لا أظن أن الوزير أو أحد القادة، يستطيع أن يشير بأن يعود السلطان إلى هراة فى حين أن حرباً قد قامت ولم يهزم فيها العدو تماما لأنهم يخافون أن يلومهم السلطان غداً، حين يبلغ هراة بقوله « لقد تقاعستم عن القتال وحملتمونى على العودة إلى هنا » وأنا كذلك لا أشير بهذا لأنه ليس من رأيى. ولكن هناك مشكلة يجب السؤال عنها. فقال السلطان: ماهى ؟ قلت إنى أرى معسكرنا كلما أقيم أتخذ له مكان صخرى أو أرض ملؤها الشوك، فى حين أن العدو يقيم عسكره على أرض خضراء آن حصاد ثمارها وغلاتها، فيها الأنهار، فيتوفر لديهم الثلج والماء الجارى، أما نحن فعلينا أن نشرب من ماء الآبار، فليس لدينا ثلج أو أنهار جارية؛ فجمالهم ترعى فى المراعى الخصبة وفى مقدورهم أن يأتوها بعلف من الأماكن البعيدة، أما نحن فنلزم جمالنا أبواب خيامنا، فإنها لا تقدر على الرعى خارج المعسكر. فقال السلطان: سبب ذلك أنهم ليس معهم أثقال فهم يتحركون كما يريدون، أما نحن فمعنا أحمال ثقيلة تعوقنا رعايتها عن القيام بعمل آخر، ولهذا أرى لزوم تخلينا عن الأحمال، وليس للأعداء خطر كبير فمن المستطاع أن نقضى عليهم. قلتُ: ومسألة أخرى لا يستقيم التحدث فيها إلا بحضور الوزير والسپهسالار وكبير الحجاب وأعيان

الجيش ، فإذا رأى السلطان أن نعقد المجلس غداً حتى نتشاور فى خطة محكمة ونقوم بتنفيذها . فقال حسنا قلت وهناك مسألة أخرى أطال الله حياة السلطان أخجل من ذكرها . فقال ٥٨٢ بل يجب أن تذكرها وتوضحها فإنى أستمع إليك راضيا قلتُ أطال الله حياة السلطان ، إن ما يجرى اليوم فى خراسان من أمر السلاجقة من الفساد والقتل والمثلة واغتصاب المسلمات معروف وواضح ، ولم يحدث مثله فى هذه المائة سنة الأخيرة ، ولم يذكر شىء منه فى التاريخ ، ومع كل هذه الآثام فإنهم ينصرون فى حروبهم ، فيالنا من قوم سوء سلط الله عز وعلا مثل هؤلاء الناس علينا ونصرهم ، وإن أمور الدنيا متوقفة على الملوك والشريعة ، والدولة والدين توأمان يسيران جنباً إلى جنب ولا يتباعدان ؛ فإذا كان الله عز وجل قد تخلى بعنايته عن السلطان حتى يغلب على أمره من أمثال هؤلاء القوم ، فهذا دليل على أنه تعالى غاضب عليه ، فيجب أن يتفكر السلطان كيف يرعى الأمانة التى أودعها الله لديه . فقال السلطان لست أعرف أن ظلما أصاب أحداً أو أننا أقدمنا على شىء لم نراع فيه مرضاة الله . قلت : الحمد لله وإن ما جرى على لسانى من سوء الأدب وما أقول فإنما أقوله عن شفقة كى يُنعم السلطان النظر فيما بينه وبين الله عز وجل : فإذا استوجب الأمر الاستغفار فليستغفر وليسرع به الليلة فيضرع إلى ربه ويمرغ وجهه فى التراب إنابة وابتهالا ولينذر النذور وليبدى الندم على ما قد يكون بدر منه حتى يرى منذ الغد آثار مغفرة الله له ؛ فإن دعاء الملوك الصادر عن قلوب عامرة واعتقاد صحيح لا حاجب بينه وبين الله ، وأرجو أن لا يلومنى السلطان على هذه الصراحة فى التحدث إليه فإنه قد أذن لى بأن أتكلم .

فلما فرغت من كلامى قال سأفعل هكذا ، ولقد قبلت عذرك فقد تحدثت بأمر منى وأديت حق نعمتى ونعمة والدى عليك ، فارجع إلينا وتحدث كما تشاء متى تحب ، وقدّم نصحك فإنك من المخلصين . فأديت التحية وانصرفت

وأملى أن يجزينى الله خيرا على ما قلت وأنا لا أدرى أرضىَ به السلطان أم سخط عليه ، ولكنى أبرأت منه ذمتى » .

فقلت (أنا أبو الفضل) لأستاذى حين قص علىّ هذا : أطال الله عمر مولاى الأستاذ ، لقد أديت واجبك وقمت بحق نعمة السلطان والدولة عليك . ثم رجعت . وفى الغداة اجتمع ٥٨٣ المجلس فى حضرة السلطان ودار الحديث فى شتى المواضيع وتشاوروا فيها ثم أعادوا النظر فيما قاله الأعداء وفيما أقدموا عليه . واستقر الرأى على أن يوفد الوزير رسولا ينصحهم حتى يتفرقوا ، وتدور المفاوضات بين الجماعتين ، ويعودوا إلى وضعهم الذى كانوا عليه أول الأمر ، حتى تهدأ الأمور ، ويقضى على أسباب الحرب والتنافر .

فلما عادوا من مجلس السلطان ، نادى الوزير الحاكم أبا نصر المطوعى الزوزنى وكان رجلا شجاعا فصيحا وخدم زمنا طويلا محمدا العلوى ، وكان قائدا عظيما حقا وتمرس بالأعمال ، وبعد وفاة العلوى عرفه السلطان واطلع على جدارته وكفايته فعهد إليه بشئون الحرب خيرها وشرها . وأعلمه الوزير بالأمر وزوده بالإرشادات وقال « يجب ألا تذكر أن السلطان مطلع على هذا الأمر ، ولكن لما كنتُ الوزير وقد نيط بى أمور المسلمين وعلىّ أن أتدبر أمور الأصدقاء والأعداء فلا مناص لى من التحدث فى هذا الأمر ، حتى تغمد السيوف ولا تراق الدماء بغير حق ، وحتى تأمن الرعية ، ولقد رأيتم صنوف المشاق وهزمتم وأهلكتم وقتلتم ، وجعلتم من هذا السلطان العظيم عدوا لكم ، وإنه غدا لن يرجع عن مطاردتكم حتى يقضى عليكم ، وإذا كنتم تظفرون فى هذه الصحراء بين آونة وأخرى بغنيمة ، فهذا لا يعول عليه ، ولو أنكم أذعنتم وأطعتم فإنى شفيع لكم بهذا

عنده ، ومبين له أنه ما حدا بهم إلى هذه الحرب وذاك الجدل وما حملهم على هذا المركب الصعب وما دفعهم إلى هذا التشتت إلا خوفهم على حياتهم ونسائهم وأطفالهم ، فقد ضاقت بهم الدنيا على رحبها وليس لهم فيها قرار ، فلو أن السلطان شملهم برحمته وعطفه ، ومنحهم مرعى وولاية ، فإنهم يؤدون واجب الطاعة ، وعندئذ يستريح عباد الله من هذه المشاحنات والحروب ، وسأفعل هكذا فأعين لهم موضعا ليسكنوه فيستريحوا ويعيشوا عيشا رغدا » .
وتحدث إليه على هذا النحو من الحديث القوى الحاسى حينا ، الضعيف الفاتر حينا آخر ، وشدّد فى التذكير والإنذار والموعظة ثم أرسله . وسار الحاكم المطوعى نحو السلاجقة الجفاخين وشرح لهم بإسهاب رسالة الوزير الكبير وبين إليهم ما يعود عليهم بالخير منها ، وأقسم لهم أن السلطان لا يعرف من أمر وساطته شيئا ، ولكن الوزير الساهر على مصالحهم ومصالح سائر المسلمين هو الذى بعثه إليهم ، فبجلوه وأنزلوه مكانا لائقا وبعثوا إليه بالهدايا .
٥٨٤ ثم انفرد رؤساؤهم وتشاوروا فى هذه الرسالة وعلى أى وجه يجيبون الوزير ، وقلبوا الموضوع على كل وجوهه ، ثم أخذوا يتدبرون واستقر رأيهم على أن انتهوا إلى ما انتهى إليه رأى الوزير السديد ، « فإن مسعود سلطان عظيم يملك من الجيوش والخزائن والولايات ما لا حد له ، ولو أن الغلبة كانت لنا مرات عدة ، ورغم أننا هزمنا جنده عدة مرات وأخذنا بعض الولايات ، فإنه فى المرة الوحيدة التى قاد فيها الجند بنفسه أذاقنا شديد نكايته ولو أنه تعقبنا لما سلم أحد منا أو من نسائنا وأطفالنا ، وكان من حسن حظنا أن عسكر بجنـــده ولم يأت على أثرنا ، وصالحنا حقا هو فيما يقوله الوزير » . فلما اتفقوا على هذا الرأى نادوا فى الغداة الحاكم المطوعى فأظهروا له ولاءهم للسلطان وأحاطوه بالرعاية ، وقالوا : « نحن على ما رأى الوزير الكبير وأن عليه الآن أن يبين عظمته ومكانته ، وأن يعنى بأمرنا عند السلطان ، فيكون شفيعنا إليه

حتى يذهب غضبه عنا ، فيمنحنا الولاية والأودية والمراعى لنسكن فيها ونبقى فى دولته قائمين على خدمته ، وبهذا يستريح أهل خراسان من النهب وشن الغارات » . وعينوا جماعة من ثقاتهم مع الحاكم المطوعى وحملوهم رسالة مفصلة بما رأوا ، وأحسنوا وفادة المطوعى وأعادوه مع رسلهم ، فلما بلغوا المعسكر تقدمهم الحاكم المطوعى ودخل على الوزير وشرح له تفصيل ما جرى وقال له : إن السلاجقة وإن كانت رسالتهم على نحو يفيد الموافقة على رأى الوزير وفيها التماس رضا السلطان ، إلا أنه لن يصدق لهم قول ولن تنزع من رؤوسهم شهوة الحكم ، ولكنها ستهدأ إلى حين ، أما هم فلن يهدءوا ، ولقد عرضت على الوزير ما علمت حتى يعمل بما يراه صالحا . فلما وقف الوزير على هذه الأحوال أمر بمناداة رسول هذه الجماعة الجفاخين ، فجىء به فشكره ثم إن الرسول أدى التحية وأظهر الطاعة وذكر الأمر الذى كلف بأدائه . وبعد ذلك صحبوه إلى الخارج وأنزلوه فى قصر الضيافة وأكرموا وفادته .

وذهب الوزير إلى الحضرة السلطانية ، فاختلى بالسلطان وكان معه الخواجة أبو نصر ، فقص ما سمع من الحاكم المطوعى وذكر فحـوى رسالة مبعوث السلاجقة . فلما تبين السلطان كل شىء قال ولو أن هذا الذى يجرى يظهر منه عجزنا ، إلا أنه كما يرى الوزير الكبير فإن فيه المصلحة والوقت يقتضيه فليعمل به كما ينبغى . وعاد الوزير . ثم إنه فى الغداة دعا الرسول وكان معه الخواجة أبو النصر ، وتحدثوا عما يجب الحديث فيه وعملوا ما يجب عمله وبالجملة فقد قال الوزير للرسول : « إنى شفعت لكم عند السلطان وأقنعته بأن تقيموا الآن حيث أنتم ، على أن تسلم إليكم حين نذهب إلى هراة نسا وباورد وفراه وهذه الصحراوات والحدود ، على شرط ألا تؤذوا المسلمين وألا تتعرضوا لخيارهم أو أشرارهم وألا تصادروا أموالا أو تبغوا فتنة ، ثم عليكم أن تتركوا البقاع الثلاث التى أنتم بها الآن وأن تسيروا إلى البلاد التى عينت لإقامتكم ،

حتى نعود وتذهب إلى هراة، وهناك توفدون رسلكم مرة أخرى لتأدية فروض الطاعة للسلطان، ولتكتب العهود والمواثيق التى لا تنقض، ومن ثمة تأمن الرعية وتستريح من الكر والفر والحرب والاضطراب.». وعلى هذا النحو أبلغ الوزير الرسالة ثم إنه أكرم وفادة رسول السلاجقة وأغدق عليه التشريف والصلات وأعاده معززا مكرما، وعين الحاكم المطوعى ليصحبه، فسارا سويا حتى بلغا السلاجقة. وقد أثنى الرسول على الوزير كثيرا ودعا له، ثم إنهم اختلوا به. وكذلك أفضى الحاكم المطوعى برسالة الوزير فأظهروا له الولاء وأحسنوا له القول. وفى التوظهر الهدوء، ولو أنهم لم يهدءوا أبدا، فإن شهوة الحكم وحب الحل والعقد والأمر والنهى والاستيلاء على البلاد قد تمكن من رؤوسهم. وجاملوا المطوعى، وتفانوا فى خدمته وناشدوه المعذرة التى لاحد لها، وقالوا: «إنا نطيع أمر الوزير، ولكن يجب أن يكونوا معنا صادقين، وألا يغدر بنا غادر من أى مكان، وألا يمكر أحد بنا، وذلك حتى نستقر ولا نضطر إلى امتشاق الحسام مرة أخرى، وألا يرجعوا عما قالوا وقرروا، وأن يعملوا على مقتضاه، وذلك حتى تأمن الرعية ويستريح الجيش من الجانبين ولا تراق دماء بغير حق».

ثم إن السلاجقة عملا بالقرار الخاص بإقامتهم ساروا إلى الولايات التى سميت لهم. ولما قاموا ذاهبين إليها، عاد الحاكم المطوعى، وجاء إلى المعسكر المنصور واختلى مع الوزير وقص عليه ما سمع وما رأى من أحوال الجفاخين وحركاتهم وألفاظهم ٥٨٦ التى يتفوهون بها فى سخرية، وقال إنه لا يجوز الاعتماد عليهم بأية حال؛ وإنه لا بد من إعداد العدة للقضاء عليهم أو لإخراجهم من البلاد، ويجب ألا نخدع بكلماتهم الخداعة الغرارة، فإنهم لن يصدقوا أبدا، ولن يخرج من رأسهم الأمل فى الملك والحكم، إلا بحد السيف. وقد قبلوا هذا النوع من الصلح نتيجة لما رأوه من شدة نكاية السلطان على أعدائه فى هذه

المعركة الواحدة التي قادها بنفسه ، وهم قد ذهبوا إلى البلاد التي حددت لهم، ولكنهم لن يفرطوا في شيء مما يساعدهم من المكر والدغل وخداع الخدم، وضبط الأمن في البلاد وزيادة عدد الجند ومناشدة أهل ما وراء النهر النصرة، وقد تعاهدوا معهم ، والعمل على ازدياد عددهم ، ثم هم لا يميلون إلى الصدق أبدا ، وهم يسرفون في القول إذا تحدث بعضهم إلى بعض ، وقد أيقنت أنهم مؤمنون « بأن هذا السلطان (مسعود) عاجز ، وبأن وزيره قد عمل على تهدئتنا بكفايته ، وبهذا أخمد الفتنة حتى تستريح جيوشه ، وأنهم يتأهبون وسوف يتعقبوننا ولن يهدأ لهم بال حتى يقضوا علينا أو يخرجونا من هذه الديار ، وقد توصلوا بالصلح لبلوغ مآربهم هذا ولقد وافقناهم أيضا حتى نستريح قليلا من هذه الحروب ، وننظم أحوالنا ونجمع جندنا ونستعد ولا نغفل ونتهيأ للحرب ومبادرة العدو ، حتى إذا قصدونا فجأة ننقض عليهم ونواجههم فنضربهم حتى الموت فإما أن نظفر أو نهلك جميعا ، فإن السلطان الذي نتحرش به رجل جد عظيم » وتحدثوا على هذا الغرار طويلا ثم هدءوا ، وقاموا وساروا ، فحين نبلغ هراة يرسلون إلينا رسلا معروفين ويبدون قدرتهم ، ولسوف يتقدمون متذرعين بالطاعة والخضوع ويطلبون ولايات أخرى بحجة « أننا قد زاد عددنا ولا يسعنا ما أعطيتموه لنا ، أو حين نعجز عن أداء الخراج ويقل الدخل فسنلجأ مضطرين للمصادرة والمطاردة والاستيلاء على البلاد فلا تعيبونا حينئذ على ما ألجأتنا إليه الضرورة » ، وفضلا عن ذلك فقد ذكر للوزير كل ما اتضح له . قال الوزير لقد عرفت آراءهم ووقفت عليها ، وإني أعرف ما ينبغي عمله ، فإن السلطان إذا استمع لقولي وعمل برأيي فإني أدبر الأمر بحيث لا يستطيعون تقديم رجل على أخرى حتى ٥٨٧ أزيلهم جملة أو يجلوا عن أرض خراسان ويعبروا النهر وتنقطع عنا فتنتهم بالتدبير الصائب والرأي المتين ، ولكني أعرف أن الحاشية لا تترك هذا السلطان ليسمع رأيي ، وهم يعترضون على نصائحي له ولا يقتنعون بها »

وسوف يرسلون الجند إلى الأطراف ويفسدون هذه الخطة المدبرة ويهيجون السلاجقة ويخيفونهم ، فيزداد هذا الأمر تعقيدا كل يوم ، وتزداد قوة التركمان ويزداد عددهم ، ويسيرون إلى أبعد مما ساروا ، وتضيع منا خراسان والعراق جميعا ، ولسوف نرى هزائم أخرى إلى أن يتم حكم الله عز وجل،ولعله يكون خيرا إن شاء الله . ولا تقل عما حدثتني به ومما سمعت عني شيئا لأحـــد حتى نرى ما يكون .

ثم إن الوزير أعاد الرسول وسار إلى مجلس السلطان ، وأقبل الخواجة أبو نصر مشكان واختلوا وقتا طويلا ، وعرض الوزير كل ما سمع وما استوضح من الحاكم المطوعي بالشرح والتفصيل ، وبين ما فيه من الصلاح والفساد ،ومهما يكن فقد استقرت الأمور نوعا ما ، واتفق في هذا المجلس على أن تشد الرحال غدا نحو هراة ، ليقيموا بها حتى يخلص الجند من الضيق والقحط ، وتستريح وتسمن الأنعام ، ويستجلبوا ما يلزم من أهبة وعدة وخزائن وسلاح وجند من العاصمة غزنة ومن أطراف الولايات ، ويستعدوا ، فإذا ما تمت الأهبة واستراح الجند وجاءت الإمدادات وغيرها ينظرون في أمر هؤلاء الصعاليك ،فإذا كانوا قد أخلدوا إلى السكينة وجاملوا يبقونهم على ما هم فيه فترة ولا يثيرونهم،وسوف تنظم الخطة بعد رؤية الاستعدادات وجملة الجيش وأفواج الحشم . وأثنى السلطان كثيرا على الوزير وأيده وقال له إن الأمور قد هدأت إلى حين بفضل كفايتك ، ومنذ اليوم عليك أن تعمل بما يعـــود بالخير على دولتنا ، فإنا لن نعترض على آرائك حتى تتدارك هذا الخلل بكفايتك ودرايتك وحسن تدبيرك . فأدى الوزير الخدمة وفروض الطاعة . وانصرفوا على هذا القرار . وفي الغداة عادت هذه المواكب وتلك الجيوش ، واتجهوا ناحية هراة وساروا رويدا رويدا ، حتى خرجوا من هذه الصحاري ونزلوا في الوادي واستراحوا، ثم ساروا الهوينا حتى بلغوا هراة ونزلوا بها . والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب .

ذكر وصول السلطان شهاب الدولة وقطب الملة

أبي سعيد مسعود بن يمين الدولة وأمين الملة رضي الله عنهما إلى مدينة هراة وإقامته بها وحديث ماجرى من الحوادث هناك إلى إن سار لمطاردة التركمان وما جرى في ذلك

في ذي القعده سنة ثلاثين وأربعمائة بلغ السلطان شهاب الدولة وقطب الملة رضي الله عنه مركز العز بهراة، ونزل هناك، فاستراح بضعة أيام مع الجند، ثم دبر الأمر لإرسال الجند إلى الأطراف، ولترتيب الطلائع والأفواج، حتى يحتشد الجيش على الحدود فتتوفر المؤن للجند والتبن والشعير للأنعام، وينال الجميع قسطا من الراحة. فأرسل أول الأمر كبير الحجاب إلى بوشنك مع جيش عرمرم، وأمر بتجهيز الطلائع من هناك لتذهب إلى خواجة — وهي ضاحية من ضواحي نيسابور —، وأرسل الحاجب بدر إلى بادغيس مع جيش قوى، وعلى هذا النحو بعث لكل ناحية فوجا قويا، فذهبوا وضبطوا الأمن في جميع النواحي وبدأ العمال أعمالهم وجمعوا الأموال. وأما السلطان فقد انهمك في اللهو والشراب، ولم يسترح لحظة واحدة، فكان يأذن بالاستقبال ويواصل العمل. وأرسل كتابا لأبي على الكوتوال في غزنة طالبا منه عدة أشياء من آلات الحرب في الصحراء والخيل والجمال والذهب والألبسة ليرسلها على عجل. وكتبت براءات بألف ألف دينار للجند ليتقاضوها من هراة ونواحيها، بادغيس وكنج روستاق وكل مكان تصل إليه أيديهم، وبدءوا في جمعها بالعنف بحجة أنهم «لماذا وافقوا التركمان؟» وتغيرت الأحوال فإن عمر هذا السلطان كان قد بلغ أجله، ولم يجرؤ أحد على مفاتحته في هذا والنصح له. وكان أعيان هراة مثل أبي الحسن العلوي وغيره قد ولوا

فرارا ، وقد نصحوا أبا طاحه الشيبانى العامل بأن يتوارى ولكنه لم يفعل ، وأمر السلطان بضبطه فألقوا القبض عليه وسجنوه وصادروا كل أملاكه ثم سلخوا جلده ، فلما بلغ مبضع الحجام فخذه فاضت روحه رحمة الله عليه . وقد رأيته بعد أن ألقوا به على مزبلة بجوار الجوسق العدنانى المشهور بسنكين وقد وكلوا به تكين السقلابى . وكان أبو طلحة هذا قد هرع لاستقبال التركمان بعد٥٨٩أن هزموا الحاجب سباشى ودخلوا هراة ،وأقام لهم مأدبة وقدم لهم الهدايا : وكان هذا سبب موته . وقبضوا على أبى الفتح الحاتمى نائب بريد هراة نيابة عن أستاذى أبى نصر ،وكان قد قابل السلاجقة أيضا ولم يتدخل أستاذى من أجله، إذ لم يكن لهذا التدخل وجه فى هذا والوقت ، وأجلسوه مع أبى على شادان الطوسى كتخدا شحنة خراسان ، وأخذوهما إلى قلعة بركز على حدود برشور حيث سجنا .

وجاءت الكتب تقول إن طغرل عاد إلى نيسابور ، وإن دواد أقام فى سرخس ، وذهب الينالبون إلى نسا وباورد . فقال الوزير لأستاذى كيف ترى الأمور ؟ لقد نسى السلطان ما مضى وانصرف إلى اللهو ، وأما حديث الرسول والأعداء وما اتفقنا عليه فكأن شيئا منه لم يكن ، وهذا عندى شديد الخطورة لأن الأحوال بقيت على ماهى عليه بل زادت تعقيدا . فقال أستاذى لقد بلغ السيل الزبى ولات حين مناص ، والسكوت خير من كلام لن يحظى بالقبول لدى السلطان ، فإنه اليوم يستاء من كلامنا نحن الشيوخ ويريد أن يستمع لكلام هؤلاء الشبان الأغرار ، وهم لهذا يشوهون صور الشيوخ عنده ، وليس لنا من سبيل غير التزام الصمت . فقال الوزير إنه لكذلك وحتى لو سألنا عن شىء من هذا الحديث فلنكن صامتين .

وأعد السلطان يوم السبت غرة ذى الحجه خمسة فرسان ليذهبوا إلى

جرجان وأمر بكتابة رسالة لأبي سهل الحمدوى وسورى وبا كاليجار على هذا النحو « لقد جئنا هراة فى عزة النصر والسعادة ونقيم هنا فترة إلى أن يصل ما طلبنا من غزنة من الجمال والمال والخيل والذخيرة وآلات الصحراء، ثم نتجه فى أهبة نحو طوس ونيسابور فإنا قد وقفنا على جملة عادات العدو وشعوذته وعرفنا أسرار تظمهم فى الحرب ولسوف نرسل عليهم رجالا خفافا مثلهم على أن نكون لهم ذخيرة ، وذلك حتى نطهر الأرض من التركمان . ولقد أدى باكاليجار خدمة جليلة حقا كان لها وقع عظيم وستكون ثمرتها عندنا بما يفوق ما استحقه أى من خدام هذه الدولة ، وقد بعثنا هذه الكتب لبقوى قلبه ، وحين تصل مواكبنا إلى نيسابور تعالوا إلى ٥٩٠ البلاط بقلوب مطمئنة واستبقوا الفرسان عندكم حتى يجيئوا معكم » ووقع السلطان هذه الكتب وأمر الفرسان بأن يسيروا عن طريق بران فيسلكوا الطريق العادى والطرق الأخرى الوعرة بحيث يوصلوا هذه الكتب إلى جرجان ، فساروا .

وأقبل عيد الأضحى فأمر السلطان بالاحتفال به احتفالا عظيما يفوق حد الوصف ، وكانت الأسلحة المتوفرة فى هراة لا توجد فى مدينة أخرى ، فخرج يوم العيد إلى الميدان كثير من الفرسان والرجالة فى كامل أسلحتهم ، بحيث قال الشيوخ الثقاة إنهم لا يذكرون أنهم رأوا مثل هذا فى أى وقت . واحتفل بالعيد ، وصفت الموائد وقدم الشراب . وبعد العيد استعرض السلطان الجيش فى صحراء خداهان ، وقد أقر كل من رأى هذا الاستعراض أنه لم ير فى أى وقت جيشا عظيما كهذا الجيش .

ودنا أجل أستاذى وجرت على لسانه فى هذه الأيام ألفاظ جارحة لا تعجب أهل العقل ، منها أنه كان يوم الاستعراض هذا يمر على جبانة وكنت معه ، فانتحى ناحية وفكر مليا ثم سار إلى المدينة حيث لحق به أبو سهل الزوزنى

فسارا معا ، وكانت سراى أبى سهل على الطريق فاستضافه ، فقال أستاذى لا رغبة لى فى الشراب فإنى حزين » ولكن الزوزنى ألح عليه ولم يجد اعتذار أبى نصر فنزل آخر الأمر ونزلت معه ، قاصدين المأكولات ، وكان قد أعد الندماء والمطربين ، وكان أستاذى غارقا فى التفكير وقد تهيأ كل شيء على المائدة ، فقال أبو سهل إنك شديد الكسل ، لم يحدث شيء . فقال أستاذى إنى أفكر فى هذه الأحوال فإنى أرى الأمر قد أشكل بحيث لا تنصرف أفكارى عنه بأية حال ، وإنى خائف ، حتى لكأنى أرى أننا قد هزمنا فى الصحراء وتفرقنا ولكل منا شأن يغنيه ، وأصبحنا ولا خادم لنا ولا حميم ، وإنا هالكون وكأن علينا أن نرى من الهوان ما لم يره أحد ، واليوم وأنا عائد من الاستعراض مررت بالجبانة فرأيت مقبرتين نظيفتين مطليتين بالجص ، فتمنيت فى الحال لو كنت قد مت كصاحبيهما وأنا عزيز ، حتى لا أضطر إلى معاناة الذل فإنى لا طاقة لى به . فضحك أبو سهل وقال هذه هى السودا المحترقة ، إشرب واطرب ودع الدنيا بخير .[1] وجيء بالمأكل الطيب والشراب الرائق وجاء المطربون والندماء . وأكلنا ونعمنا وبادرنا إلى الطرب وانتهى اليوم نهاية سعيدة حقا ، فقد استمعنا إلى كثير من الأدب والغناء والفكاهات ، وعدنا ثملين . وبعد أربعين يوما من ذلك التاريخ مات أستاذى رضى الله عنه ؛ وسأذكر هذا بعد .

وسرنا من هراة وبعد سبعة أشهر وقعت الواقعة فى دندانقان مرو ، ولحقتنا هزائم كثيرة بعدها ، وقد قال لى أبو سهل عدة مرات ونحن فى الطريق: سبحان الله العظيم كم كان أبو نصر مشكان رجلا بصيرا ، كأنه كان يرى هذا اليوم الذى نحن فيه . وقد أشاعوا كل ما جرى على لسان أبى نصر فى هذا المجلس حتى

(١) هنا كلمة (نخور) وقد علق عليها غنى — فياض بقولهما كذا ، ويحتمل أن يكون محرفة أو أن جملة سقطت من النص ، ص ٥٩٠ ملحوظة ٤ ورجحنا أنها بخير .

أوصلوه إلى مسامع السلطان ، وقالوا إذا بلغ الأعداء كلام كهذا صادر عن صاحب ديوان الرسائل وهو أعقل أركان الدولة فإنه يؤدى إلى الفتنة ويقوى عزائم الأعداء . لهذا أغضب عليه السلطان غضبا شديدا ولكنه كظم غيظه منه إلى أن مات .

وأذكر هنا قصة عن الأدب جرت فى ذلك المجلس ولو أن كتاب التاريخ هذا سيصبح «كجامع صفاهان» من الإسهاب الذى يسير عليه فسأذكر إتماما للقصة أبياتا مما تبودل فى مجلس ذلك اليوم ، ولم تكن هذه الأبيات عندى ، ولكنى سأذكر كيف حصلت عليها : كان فى هراة رجل اسمه القاضى منصور رحمة الله عليه ، كان يملك ناصية الفضل والعلم والكتابة والشعر والرسائل والفضائل ؛ يحب مجالس العشرة ، وينهج مسلك «خذ العيش ودع الطيش» وخذ حقك من هذه الدنيا الخداعة ؛ كان له فلسفة أخرى : وقد عاش عيشة طيبة وأكل هنيئا وكان ريحانة مجالس العظماء ، بحيث لم يكن يروق مجلس لايكون فيه . وكان له صلة بأبى سهل الزوزنى بحكم رابطة الأدب التى تجمعهما ، فكانا معادائما ويشربان سويا ، وفى هذا اليوم كان القاضى منصور قد بكر بالخروج ، وأخذ يلهو ويشرب ، وعكف على الطرب وأخذ حظا وافرا من الشراب فأرسل أبو سهل قطعة الشعر إليه فكتب الجواب على ظهرها فورا . فأعاد أبو سهل الكتابة فرد القاضى أيضا ولم يحضروا وانقضى النهار ، وكنت متعطشا للحصول على هذه القطع حتى حصلت عليها . وكان سبب ذلك أن أحد الأفاضل ٥٩٢ من الأسرة السلطانية المنصورة يدعى مسعود كان يتردد على هذا القاضى ويعلق على كل مايجرى معه . ولما اختل أمر هراة جلا هذا الفقيه الحر عن بلده وسار رويدا رويدا إلى أرسلان خان بن قدرخان ، الذى كان ملكا على تركستان ، وبقى هناك أعواما على أحسن ما يكون ، فإنه كان فريد عصره فى العلم

والوعظ والإرشاد ، ولما رأى أن أمر هذه المملكة سيؤول إلى الاضطراب. لما وقع من التعصب والانقسام بين الأخوة والأقارب « وللعاقل شمة ». استأذن ليجيء هنا ، فأذن له وجاء سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة (١٠٤٦ — ١٠٤٧) فاستحوذ على قلوب الخاصة والعامة فى هذا البلد بحلو حديثه ولقى من الملك القبول والإعزاز والتقرب ، ولهذا صار وجيها يشار إليه . وهو اليوم فى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٥٩ — ١٠٦٠) أكثر وجاهة بفضل رعاية السلطان المعظم إبى المظفر إبراهيم أدام الله سلطانه ، وقد آل حاله إلى هذا فإنه شاب ذو مروءة وجلال ، وإذ كانت لى به صداقة تامة معتمدة ، وقد تبادلنا الملح والزاد والصحبة ، أتيت بذكره فى هذا التاريخ رعاية لمقتضى الصداقة .

« الأبيات التى كتبها الشيخ أبو سهل الزوزنى »

أيها الصدر الذى دانت لعزته الرقاب

انتدب ترض الندامى هم على الدهر كئاب

وأسِغ غصة شرب ليس يكفيها الشراب

وأحضرن لطفا بناد فيه للشوق التهاب

ودع العذر وزرنا أيها المحض اللباب

بينك المر عذاب وسجاياك عذاب

إنما أنت غناء وشراب وشباب

جودك الموجود بحر فضلك الوافى سحاب

إنما الدنيا ظلام ومعاليك شهاب

فأجابه القاضى على الفور :

أيها الصدر السعيد الماجد القرم اللباب
وجهك الوجه المضىء رأيك الرأى الصواب
عندك الدنيا جميعا وإليها لى مآب
ولقد أقعدنى السكر وأعيانى الجواب
فى ذرى من قد حوى من كل شىء يستطاب
ولو استطعت قسمت الجسم قسمين لطاب
غير أنى عاجز عنه وقلبى ذو التهاب
فبسطت العذر عنى فى أساطير الكتاب

فأجابه أبو سهل :

أيها الصدر تأن ليس لى عنك ذهاب
كل ما عندك فخر كل ما دونك عاب
وجهك البدر ولكن بعد ما انجاب السحاب
قربك المحبوب روض صدك المكروه غاب
عودك المقبول عندى أبد الدهر يصاب
أنت إن أبت إلينا فكما آب الشباب
أو كما كان على المحل من الغيث الضباب
بل كما ينتاش ميت حين واراه التراب

فكتب منصور بعد ما أدركه السكر :

نام رجلى مذ عبرت القنطرة فاقبلن إن شئت منى المعذرة

إن هذا الكأس شيء عجب كل من أغرق فيه أسكره

هكذا كان هؤلاء الكبراء ، وقد مات ثلاثتهم رحمهم الله وإنا كذلك ميتون ، اللهم اجعل عاقبتنا خيرا ، إن شاء الله عز وجل .

° ° °

وجلس السلطان رضى الله عنه لعيد المهرجان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ٥٩٤ ذى الحجة وجيء بكثير من الهدايا والنثار ، ولم يأمر بشيء للشعراء. وغضب على مسعود[1] الرازى ، وأمر بإبعاده إلى هندوستان ، وقد قيل إنه نظم قصيدة تنطوى على نصائح للسلطان ومنها هذان البيتان :

« لقد كان أعداؤك نملا فصاروا ثعابينا ، فبادر باستئصال شأفة النملة التى صارت ثعبانا لا تتح لهم الفرصة أكثر من هذا ولا تصبر عليهم ، فإن الثعبان إذا امتد به الزمان يصير تنينا » .

وكان هذا المسكين قد أدى نصيحة جليلة ، رغم أن القصيدة عدت من الفضول . ولا يحق للشعراء هذا السلوك مع الملوك . وكذلك لم يأمر بصلات للمطربين فقد كانت السحابة التى تمطر الذهب قد وهنت وقل إمطارها ، ودارت المناقشات بين الناس ، والأجل قد دنا وهذا هو حال الناس والدنيا . وهكذا انقضت أيام هذا المهرجان .

تاريخ سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة

١٠٣٩ — ١٠٤٠

وفى سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة التى بدأت بيوم الثلاثاء ، كان

(١) مسعود سعد سلمان ــ أنظر جهار مقاله (الترجمة العربية عزام ــ الخشاب ص ٥٢ ، ٥٣ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤) وحواشى القزوينى ص ١٣٥ و ١٤٢ ــ ١٥٠ من طبعة جب التذكارية .

السلطان قد فرض على نفسه أن يخلو بالوزير وأركان الدولة والقادة ، قبل الإذن بالاستقبال حتى الضحى . وكان يتحدث معهم فيما كان أمامهم من الأمر ثم يعودون . ويستمر السلطان فى العمل حتى الليل ولم يره أحد فى أى وقت منهمكا فى العمل كما كان فى تلكم الأيام .

كانت الكتب تترى من كل فج بأن الأعداء يعدون عدتهم وأنهم كانوا يمدون بورتكين بالعون من الرجال حتى اشتبك فى عدة معارك مع أبناء على تكين وغلبهم ، وقد أشرف على انتزاع بلاد ما وراء النهر منهم ، وأن خندان بن التونتاش قد حالف هؤلاء الناس ، وقد كشفوا حدود جيحون من كل جهة ، وأخذ الناس يفدون طمعا فى النهب من خراسان . وأذكر أنى قرأت فى رسالة أنه رؤيت عجوز بتراء عرجاء عوراء وفى يدها معول فى نهر آموى (جيحون) فسألوها لماذا حضرت ؟ فأجابت إنى سمعت أنهم يخرجون كنوز خراسان من تحت الأرض فجئت لآخذ نصيبى منها . وكان السلطان يسخر من هذه الأخبار . ولكن كم كان هذا الأمر أليما عند العارفين ببواطن الأمور . وبدأ يترى علينا ما طلبنا من غزنة من الاستعدادات ، وجاء الجنود بكثرة . وقد اختلى أبو الحسن عبد الجليل مع السلطان وقال :

« نحن ٥٩٥ العرب لدينا إبل وخيول كثيرة ، والسلطان فى حاجة إلى المزيد منها للجيش الذى يعده ، وكل ما لدينا هو من نعمه ومن دولته ، فيجب إعداد سجل وأن يفرض على كل منا شىء منها . »

ولم يكن يقصد مصلحة بل كان يريد أن يقيد شيئا باسم أستاذى أبى نصر ، إذ كان يعرف أنه سوف لا يقبل لسوء طبعه وشططه وأنه سينتقد أمر السلطان مما يزيد فى حقده عليه . وقد وافق السلطان على هذا الذى أبداه أبو الحسن

عبد الجليل ، الذى أعد السجل وقيد فيه أسماء أعيان العرب جميعا ، ثم عرضه على السلطان .

وقال كل من طلب إليه شيء سمعا وطاعة ، والله عز اسمه يعرف ما تخفى صدورهم ، أما أبو نصر فقد استشاط غضبا وقال : « بلغ الحال بنا إلى الحاجة إلى حصان واحد وجمل ! لقد هان السجن والذل والفقر والموت على أبى نصر حين يقيد دابة باسمه رجل خامل كأبى الحسن » ثم بعث على لسان أبى العلاء الطبيب رسالة يقول فيها : « إنى قد وهن العظم منى ، وإن ما لدى من قليل المال قد اكتسبته من عملى ؛ فإذا مست الحاجة إليه فليأمر السلطان بذهابى إلى إحدى القلاع لأقيم فيها » فأجابه أبو العلاء : ألا يعرف الأستاذ أنى صديقه القديم ؟ قال نعم . قال فهذه الرسالة ليست من الخير فى شيء ، فإن السلطان ليس كما عهدت ، وإنه يتلمس الحجة ضد كل رجل ؛ فلنعمل على تلافى ما نكره واعفنى من أداء هذه الرسالة ، فإنى لا أحب أن أسمع عنك ما لا يليق بك . فكتب أستاذى رقعة شديدة اللهجة فصل فيها البيان عن كل ما لديه من صامت وناطق ، وكتب الحديث الذى طلب أن يذكره عنه أبو العلاء كتابة مفصلة ، ثم جاء إلى وثاق آغاجى ، ولم يكن قد أقدم على مثل هذا الصغار طيلة حياته ، فأظهر المزيد من العبودية والطاعة وسلمه الرقعة . فوعده آغاجى بإيصال الرسالة فى وقت ملائم . وعاد أستاذى إلى الديوان ، وأخذ يستعجل آغاجى فى تبليغ رسالته حتى اضطر لذلك فى وقت كان الأمير غاضبا فيه من الأخبار المؤلمة التى وصلت إليه . وبعد ذلك خرج آغاجى من عند السلطان ونادانى وقال : قل للأستاذ العميد أنى أبلغت رسالته وأن السلطان قال « لقد عفوت » . قالها أغاجى بلطف حتى لا يكون الأستاذ قلقا ، ثم أعاد لى الرقعة وقال لى سراً : لا تقل لأستاذك لكى لا يحزن فإن السلطان قد ألقى رسالته واستشاط منها

غضبا وقال « ليس الذنب ذنب أبى نصر ٥٩٦ إنما هو ذنبنا إذ صفحنا عنه حين أرادوا الوقيعة به فى ثلاثمائة ألف دينار[1] . » وجئت إلى الديوان وقدمت له الرقعة وأخبرته بالحديث الأول الذى قاله آغاجى ، فأثنى على السلطان وهدأ روعه ثم عاد إلى بيته ودعانى واختلى بى بعد الغداء وقال لى : إنى متيقن أن هذا ليس كلام السلطان فبحق صحبتنا وما بيننا من الخبز والملح قل لى إذا كان آغاجى قال لك قولا آخر وأخذ عليك عهدا ألا تحدثنى عنه ، قله حتى أدبر شأنى . فرويت له رواية آغاجى . قال : « عرفت وهذا ما كنت أتوقع ، تعسا لهؤلاء الأذلاء الذين يخدمون الملوك ، فليس للملوك وفاء أو حرمة أو رحمة . ولقد وطدت النفس على كل بلاء ولن أقدم شيئا بطلب رجل كأبى الحسن » . ثم عدت وبقى بعد ذلك حزينا كئيبا بيد أن السلطان كان يرعى حرمته ، وقد دعاه يوما للشراب وشمله بعطفه ، فعاد إلى بيته قرير العين ، ودعا أبا منصور الطبيب ، وكنت حاضرا ، وكذلك وفد عليه جماعة من الأصدقاء والمطربين ، وجاء أبو سعيد البغلانى أيضا ، وكان نائبا عن أستاذى فى بريد هراة وقد ذكر هذا فى أثناء الحديث « إن حديقتى على نصف فرسخ من المدينة لا تزال على بهجتها ، فليتفضل مولاى بالمجىء إليها غدا » . فقال ، حسنا . وعاد أبو سعيد ليعد أسباب الضيافة وعدنا إلى بيوتنا ، وكانت نوبتى فى غداة ذلك اليوم فسرت إلى الديوان ، وقد ذهب أستاذى إلى البستان ، وأوعز إلى أبى الحسن دلشاد بالمجىء هناك وكذلك أبى نصر طيفور وجماعة آخرين .

وعاد لصلاة المغرب لأنها كانت ليلة الجمعة . وفى اليوم التالى حضر إلى البلاط وبعد الاستقبال توجه للديوان وكان اليوم شديد البرودة ، فأوى إلى ركن فى صفة الحديقة العدنانية ، وكانت الريح عاصفة ، وقد لقى السلطان

---

(١) انظر القصة ص ٦٥ من هذا الكتاب.

وعرض عليه خمس رسائل أو ست ، ثم آب إلى الصفة وأمر بكتابة الأجوبة وخرج . وفجأة أصيب باللقوة والفالج والسكتة ، وكان ذلك يوم الجمعة ، فأخبروا السلطان بمرضه فقال إنه لا يعافى ما لم أصحبه معى فى السفر . فقال أبو القاسم كثير وأبو سهل الزوزنى ليس أبو نصر عمن يقدرون على السفر وهم مرضى . فأمر السلطان أبا العلاء الطبيب ليعوده ثم يشرح للسلطان حاله . وجاء أبو العلاء . وكان الرجل طريح الفراش ففحصه فحصا دقيقا وعاد يائسا ، وقال للسلطان أطال الله حياتك فإن أبا نصر قد راح ولا مفر من البحث عن أبى نصر آخر . فصرخ السلطان فى ألم وقال ماذا تقول ؟ فقال إنه كما قلت فقد ابتلى ٥٩٧فى يوم واحد بل فى ساعة واحدة بثلاث علل لا تستطاع النجاة من واحدة منها ، والأرواح فى خزانة الله تعالى فإذا بقيت روحه فإن نصف جسده سيظل مشلولا . فقال السلطان « أسفا على أبى نصر » ثم قام . وسار الأساتذة إلى حيث يرقد المريض فبكوه كثيرا وحزنوا عليه ووضعوه فى محفة على الفيل وقد حمله خمسة من الحمالين أو ستة وأعادوه إلى منزله وامتد أجله ذلك اليوم وليلته ومات فى اليوم التالى ، رحمة الله عليه . وقيل إنهم سقوه فى ذلك اليوم ، وهو فى الحديقه كمية كبيرة من شراب القرع (كدو) حين كان ضيفا على نائبه ، وكان قد أخذ من هذا النائب خمسة آلاف دينار . وقالوا فى شأن موته شتى الأقاويل ، ولا دخل لى فى هذا والله سبحانه وتعالى أعلم ، فإن الجميع قد قضوا وعندى أنى لا أقبل ملك الدنيا مع تحمل تبعة إيذاء الناس ، فكيف الأمر إذا تعلق بإراقة الدم . فلا مراء فى أن الرجل إذا قضى فإنه لن يحمل معه شيئا من ماله الوفير وجاهه العريض ، وأى خير لم يمس هذا الرجل العظيم من الدولة والنعمة والجاه والمنزلة والعقل ونفاذ الرأى والعلم ؟ وقد تجرع الغصص ثلاثين سنة كاملة ولم ينعم بشىء منها يوما واحدا . وآثاره وأخباره وأحواله ذكرتها فى مقامات محمودى[1] وفى هذا الكتاب .

(١) اسم كتاب : مقامات محمودى .

والحقيقة المسلم بها هى أنه قد ختمت الكفاية والبلاغة والعقل به ، وهو مصداق قول أبى القاسم الإسكافى الكاتب رحمه الله قال :

ألم تر ديوان الرسائل عطلت بفقدانه أقلامه ودفاتره

وقد كنت عزيزا عليه وعملت معه تسع عشرة سنة وكنت عنده أعز عليه من أولاده ، ورعانى فحصلت معه على الشهرة والمال والجاه والعز ، ولذا وجب على أن أذكر بعض مناقبه وسجاياه بما وقفت عليه منه. وقد استطعت أن أذكر واحدة من كل اثنتين منها كى أقوم بحق من الحقوق التى له عندى ، وقد انتهت أيام هـذا الرجل العظيم بعد فراغى من الخطبة . وكيف السبيل إلى اتمام هذا التاريخ من غير أن يذكر فيه اسم أبى نصر ؟ فليبكه يراعى قليلا . وسأذكر من نظم ونثر الكبراء ماقيل فى أمثال هذا الرجل وفى مثل مصابه حتى تكون تسلية لى وللقراء ثم أعود بعدها إلى التاريخ .

ولم تمر على لحظة بعد وفاته إلا وأذكر فيها كلماته الحكيمة كأنها كانت تذكرنى ٥٩٨ بهذه الأبيات التى قالها أبو المظفر القاينى الكاتب فى رثاء المتنبي : شعر .

لارعى الله سرب هذا الزمان إذ دهانا فى مثل ذاك اللسان
ما رأى الناس ثانى المتنبى أى ثان يرى لبكر الزمان
كان فى نفسه العلية فى عز وفى كبرياء ذى سلطان
كان فى لفظه نبيا ولكن ظهرت معجزاته فى المعانى

ولم أمر بباب بيته يوما من غير أن أذكر هذين البيتين اللذين قالها أبو العباس الضبي يوم مر بباب سراى الصاحب بن عباد بعد وفاته وهذان هما :

أيها الباب لم علاك اكتئاب أين ذاك الحجاب والحجاب

أين من كان يفزع الدهر منه ‏ فهو الآن فى التراب تراب

وقد أحسن أبو نواس رحمة الله عليه إذ قال :

أيا رب وجه فى التراب عتيق ‏ ويارب حسن فى التراب رقيق
ويارب حزم فى التراب ونجدة ‏ ويارب قد فى التراب رشيق
ألا كل حى هالك وابن هالك ‏ وذو نسب فى الهالكين عريق

وقال رودكى : ٥٩٩

« يامن تعيش حزينا وجدير بك أن تحزن ، وأن تصب الدمع سرا فى قلبك من أجل هذا الذى لا أذكر اسمه ؟ إنى أخاف على حظى أن تغمره الهموم مضى ما مضى وأتى ما أتى ، وكان ما كان فيم الحزن ياجاهل ؟ تأمل أن تسير الدنيا باعتدال ، وهذه الدنيا متى سارت فى اعتدال ؟ فيم الرعونة ، إنها لاتعبأ بها ، فيم النواح ، إنها لاتقيم له وزنا ! إذهب وابك حتى يوم القيامة ، متى أعاد البكاء الأموات ؟ يكثر عذابك فى هذه الدنيا بقدر تعلقك بأسباب العذاب ! تحسب بلاءها موكلا بمن تعلق به قلبك لا يبدو سحاب ، ولا يبدو كسوف ، خسف القمر وأظلم الكون فسواء أمرت أو لم تأمر إنى أخاف ألا تقهر نفسك مرة واحدة فتهزم جيش الغم عن قلبك، أولى بك إذاً أن تأتى بالشراب وتحتسى . عند الشدائد تظهر فضائل الرجل وعظمته و سلطانه . »

ولم يكن مصاب هذا الرجل الكبير بهذا المعنى بل كان كما قيل : « أكوى الفؤاد والقلوب وفرقها وجرح النفوس والأكباد وأحرقها ، وأغص الصدور بسهم أصابها ، وأقذى العيون على فزع نابها ، وملأ الصدور ارتياعا ، وقسم

الألباب شعاعاً ، وترك الخدود مجروحة والدموع مسفوحة ممدودة ، والطرق مسدودة ، وما أعظمه مفقودا . وأكرمه ملحودا ، وإنى لأنوح عليه نوح المناقب ، وأرثيه مع النجوم الثواقب ، وأثكله مع المعالى ٦٠٠ والمحاسن ، وأثنى عليه ثناء المساعى والمآثر . لو كان حلول المنية مما يفدى بالأموال والأنصار بل الأسماع والأبصار لوجد عند الاحرار من فدية ذلك الصدر ما يستخلص به مهجته ؛ هذا ولا مصيبة مع الإيمان ، ولا فجيعة مع القرآن ؛ وكفى بكتاب الله معزّيا وبعموم الموت مسليا ، وإن الله عز ذكره يخفف ثقل النوائب ، ويحدث السلو عند المصائب بذكر حكم الله فى سيد المرسلين وخاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين . ورضى عن ذلك العميد الصدر الكامل وأرضاه وجعل الجنة مأواه ومثواه ، وغفر له ذنبه وخفف حسابه ، ونبهنا عن نومة الغافلين آمين آمين يارب العالمين » .

وقد كلف السلطان كلا من أبى القاسم كثير وأبى سهل الزوزنى بالجلوس فى مأتمه وتقبل العزاء فيه . وقد جاءا ومكثا ذلك اليوم كله فى تجهيز جنازته وحمل نعشه إلى المدافن وصلى عليه خلق كثيرون . وقد حضر ذلك اليوم السپهسالار والحاجب الكبير ومعهما كثير من الوجهاء . ومن العجائب أنه كان فى ذلك المكان الذى دفن فيه رباط بجواره قبران ، وكان أبو نصر قد قال « ياليت هذا الرباط يكون قبرا ثالثا لى » .. وقد أعد له قبر فيه ، وهنالك ظل جثمانه عشرين يوما ، ثم نقل إلى رباط كان قد أعده فى حديقته بحى لشكرى . ونقل الغلمان المدربون إلى سراى السلطان ووسمت الخيول والجمال والبغال بالوسم السلطانى . وقد ترك من بعده كذلك تلك الدواب التى كانوا قد طلبوها منه فاستشاط من من هذا الطلب غيظا ، تركها كلها فى سهولة ومضى إلى ربه . وجاء أبو سعيد المشرف بأمر لكى يجرد الخزانة ، فظهر أن أبا نصر كان صادقا فى إقراره عما يملك . وقد حمل أبو سعيد بيان ثروته إلى السلطان ، وتبين أنه لا يوجد خيط

واحد أكثر مما كان أبو نصر قد كتبه فى بيانه . وقد أعجب السلطان بصدق هذا الرجل فى الحياة وفى الممات وأثنى عليه كثيرا ، وكان كلما ذكر اسمه توجع لفقده وترحم عليه وسب أبا الحسن عبد الجليل وكان يسميه كافر النعمة . وقدعهد السلطان بأعماله فى ديوان الرسائل — فى خلوة له — إلى الأستاذ أبى سهل الزوزنى ، على أن أكون نائبه وخليفته . وقد قال السلطان فى المجلس الذى اتخذ فيه هذا القرار إنه لو لم يكن أبو الفضل شابا صغيرا لأسندنا اليه هذا العمل فإن أبا نصر ، قبل أن يذهب إلى ٦٠١ مجلس شرابه الأخير هذا ، حدثنا سرا فقال : «لقد صرت شيخا كبيرا ، ودنت منيتى ، فإذا مت فاحتفظوا بأبى الفضل» وقد ذكرنى للوزير بالخير كذلك . فذهبت اليه بعد صلاة العصر ، وكان فى الديوان فشكرت له صنيعه وقال « لاتشكرنى ولكن اشكر لأستاذك الذى قال كذا وكذا قبل موته وقد ذكر السلطان هذا الكلام اليوم فى الخلوة » فدعوت للأحياء جميعا .

واستقر الأمر وجاء أبو سهل وجلس فى ركن من الحديقة حتى جاء وقت لبس الخلعة ، وكانت فاخرة . وقد ذهب بخلعته إلى البيت ، ووفد عليه العظماء مهنئين ، فإنه كان عظيما حقا . وجلس فى الديوان بخلعته يوم الأربعاء الحادى عشر من صفر ، وأخذ يباشر عمله . وكان بعيدا كل البعد عن هذه الأمور ، فبذلت غاية الجهد لأحفظ له هيبته ومكانته ، ولكنى بعد أن أدركت ما ينطوى عليه من الشر والحمق ، ورأيت أنه كان يعمل على مخالفة أبى نصر فى كل أمر ، كتبت رقعة للسلطان ألتمس فيها إعفائى من الكتابة وفقاً للرسم المعهود وقلت فيها « قد كان أبو نصر عماداً لى ، فلما مات فى سبيل السلطان ، تغيرت الأحوال وفقدت ما فى قلبى من قوة ، وإن لى حق الخدمة القديمة ، وأخاف ألا يتفق سيرى مع أستاذى ، فإنه سىء الخلق ، وإن لدى مولاى أعمالا أخرى فإذا رأى السلطان فإنى أقوم بعمل منها » . وسلمت هذه الرقعة لأغاجى فأوصلها

للسلطان ، ثم أعادها وأعلاها كتابة بخط السلطان يقول فيها إذا كان أبو نصر قد مات فإنا فى مكانه وإنا نعرفك حق المعرفة فلماذا هذا اليأس ؟ فأعاد لى هذا الرد السلطانى الحياة والقوة . وكانت عظمة هذا السلطان وحسن رعايته لخدامه إلى درجة أنه قال للوزير وهو فى خلوة معه « قل لأبى سهل إن أبا الفضل ليس تلميذك ، إنه كان كاتب أبى ومعتمده ، فلترع عشرته ، وإذا شكوته لى فإنى لن أقبل شكايتك » . فقال الوزير سمعا وطاعة ، ثم قال له « إنى عهدت إليك بأبى الفضل فارع مصالحه » وقد أسر لى الوزير بهذا الحديث ، وشد به عزمى ». فظل أمرى يسير بانتظام ، وأعزنى أستاذى كثيراً ، وأحسن معاملتى مابقى هذا السلطان حيا ، فلما مات تغيرت الأحوال ، وكنت فيها الجانى أحيانا فإن الرجل (السلطان) قد مضى وحلت الغمرات ، ووقعت فى الشرك وأنا فى شرخ الشباب ، وكثرت السقطات فكنت أهوى ثم أنهض ، ورأيت كثيرا من الحلو ٦٠٢ وكثيرا من المر أيضا ، ومضت على النحو عشرون سنة ، ولا أزال فى تبعة ماحملته هذه السنون . لقد مضى كل شىء ، وكان أستاذى هذا رجلا عظيما ولست أجانب الحق فى قولى . ولم يكن لى بد من كشف هذه الحقائق فى التاريخ فإنى كما أتحدث عن الأصدقاء والعظماء تحدثت عن نفسى أيضا ، ثم عدت إلى العمل حتى لا يقال إن أبا الفضل قد سار سيرة الصولى وامتدح نفسه . ذلك أن الصولى صنف كتابا فى أخبار الخلفاء العباسيين وسماه « الأوراق » ، وقد بذل فى كتابته جهدا كبيرا ، فإنه كان رجلا فاضلا ، وكان وحيد زمانه فى الأدب والنحو واللغة ، وقلما يجود الزمان بمثله ، إلا أنه تمادى فى امتداح نفسه ، والإشادة بشعره ، وذكر منه كثيرا حتى برم الناس بمسلكه وعابوه به ومن ذلك ما كان يكتبه فى ذيل كل قصيدة فلما أنشدتها أبا الحسن على بن الفرات الوزير قلت له : لو طلبت من البحترى الشاعر قصيدة على هذا الروى والوزن والقافية لعجز . فكان الوزير يضحك ويقول انه كذلك . وقد سخر منه

لذلك أبناء عصره وكذلك يسخر منه قراؤه اليوم . ولما وقفت : أنا أبو الفضل على هذا الخبر لم أر أتباع الصولى فأمدح نفسى . وقد ذكرت ذلك لكى لا يعيب على شيوخ عَهْدَى محمود ومسعود حين يقرءون كتابى والله يعصمنا من الخطايا والزلل بمنه وفضله .

قصة حرب السلطان مسعود مع السلاجقة فى مرو

وفى يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر صفر ، سار السلطان رضى الله عنه من هراة عن طريق پوشنگ ، مع جيش جرار كامل العدة فيه فيلة القتال ورجالة كثيرون وأحمال خفيفة . وفى پوشنگ أمر السلطان بالتعبئة ، وكان هو على القلب وعلى الميمنة السپهسالار على ، وعلى الميسرة الحاجب الكبير سوباشى ، وسار فى المقدمة بيرى قائد الاصطبلات (آخور سالار) وبايتگين[1] وأيد سنقر وأبو بكر الحاجب مع جماعة الكرد والعرب وخمسمائة من الفرسان ٦٠٣ وأمر السلطان بخلعة فاخرة لأرتگين حاجب السراى ، كما أمر لقائد الاصطبلات بالقلنسوة ذات الركنين ومنحه المنطقة ، وجعل الحاجب بكتغدى خليفة لينهى إلى غلمان السراى الأوامر التى يصدرها وكان فى جيشه كثير من الهنود منهم من يركب خيولا عليها وسم السلطان ، ومنهم الرجالة ، يقودهم قادة مشهورون ، وقد وزعوا على القلب والميمنة والميسرة والساقة ، كما أن فيه رجالة الدرگاه وقد اعتلى معظمهم النجائب . وكان فى هذا الجيش خمسون من أحسن الفيلة . وأجمع كل من رأى هذا الجيش على أنه لم ير له من قبل مثيلا . ولقد ارتفع الضجيج فى كل مكان

---

(١) فى نسخة غنى وفياض « بايتكين إيدو سنقر » على أنه اسم واحد ص ٦٠٣ السطر ١ وفى نسخة نفيسى بايتگين وإيد سنقر . وقد أشار نفيسى فى الهامش إلى أن النسخة جاء فيها اروسنقر . ص ٧٢٣ سطر ٤ .

لحركة هذا الجيش العظيم. وكان طغرل فى نيسابور ، فلما بلغ السلطان سراى سنجد ، على ملتقى طريقى نيسابور وطوس ، عزم على التوجه إلى طوس حتى يخدع طغرل فيبقى مطمئنا ويتأخر طويلا فى نيسابور ، حتى يستطيع السلطان أن يحث السير عن طريق نوق ، إلى أستوا ، ويقطع عليه خط الرجعة بحيث لا يستطيع السير إلى نسا ، وإذا عجز عن المسير فى هذا الطريق فسوف يسهل أسره فيما إذا سلك طريق هراة وسرخس . وعلى هذا العزم سار ناحية طابران طوس ، ولبث هناك يومين فى سعد آباد حتى وصل الجيش بأكمله ، فتوجه إلى عين شيرخان . وقد شرب مسهلا فلما فرغ منه نام نوما خفيفا ، وعند صلاة العصر طلب أنثى فيل فركبها . ثم أمر الوزير بالسير بعد صلاة العشاء ومعه الرجالة والأمتعة والطبل والعلم والحاجب بكتغدى وغلمان السراى على أن يلحق بهم الجيش . أمر بهذا ثم ساق فيلته مسرعا كأنه يجرى مطاردا عدوه ، وكان معه ألف من غلمان السراى وألفا فارس من كل صنف وألفان من الرجالة المسلحين الذين ٦٠٤ يركبون النجائب . وقبل أن يتحرك أخذ الجيش بدوره يتحرك دون أن تصدر إليه أوامر بذلك ، وتعذر على الوزير ضبطه ، رغم ما بذل من جهد ، مما حمله على أن يأمر بالمسير ، وكان ذلك بعد صلاة المغرب فحملوا أمتعتهم وساروا .

وكان عند طغرل فرسان ممتازون ، فلما سمع أن السلطان اتجه إلى ناحية طوس تأكد أنه سيقطع عليه الطريق ، فانسحب مسرعا إلى أون . ومن العجائب التى أدت إلى إنقاذ طغرل من هذا المأزق أن السلطان كان قد تناول قليلا من الأفيون ولم ينم جيدا فنام بعد صلاة العشاء نوما عميقا ، وهو على الفيلة ، فلما رأى الفيالة ذلك لم يجرءوا على الإسراع فى سوق الفيلة وساقوا على مهل ، وظل السلطان يغط فى نومه حتى السحر . وضاعت الفرصة ،

إذ لو لم ينم حتى ذلك الوقت ، لكانت له الغلبة على طغرل . وقد كنت مع السلطان ، ومررنا مسرعين بعد السحر ، فبلغنا نوق فى الصباح ، ونزلنا بها ، فصلى الصبح ثم دقت الكوس النحاسية التى كانت على النجائب وحث السلطان فيلته مسرعا ، وأسرع كذلك بدر الحاجب مع فوج الكرد والعرب وأرتكين الحاجب مع خمسمائة من غلمان السراى . فلما بلغوا خوجان[١] قصبة أستوا ، كان طغرل قد غادرها فى الصباح ، فقد سمع أصوات قرع الكوس فخرج عن طريق العقبة ، وكان السلاجقة قد اضطروا إلى ترك كثير من أمتعتهم الثقيلة فى عدة أماكن من شدة ما أسرعوا . ووصل السلطان على أثرهم ، وكان ذلك فى يوم السبت الخامس من ربيع الأول ، فنزل حانقا ضيق الصدر ، لفوات هذه الفرصة ، وأفحش فى السباب لرجاله ، ولم أشاهده فى مثل هذه الحال من الغضب من قبل . وأمر بأن يسير فى أثرهم تكين الديلمى فورا ، وهو فارس قوى الشكيمة كان رئيسا لغلمان الوثاق ، وأن يسير معه خمسمائة من غلمان السراى ممن أخذوا قسطهم من الراحة وخمسمائة من الفرسان وغيرهم . فساروا وهم يطمعون فى بلوغ شيء مما يبغون ، ولكنهم عادوا بعد صلاة المغرب ، وقد حملوا معهم كثيرا من الأمتعة والأقمشة قائلين « إن طغرل قد ولى مسرعا وكان له فى الطريق خيول معدة فركبها وسار فلم يره أحد ولكنا صادفنا كتيبة قالوا إنها تحت إمرة سليمان أرسلان جاذب وقدرخان الحاجب وكان الطريق شديد الضيق والرئيسان يعرفان طريقا آخر فتسلقوا الجبل بأهبتهم ٦٠٥ التامة وقد وجدنا جماعة يبدو أنهم ليسوا من التراكمة » .

وعسكر السلطان هنا يومين كى يستريح الجند ، ولحق بنا هنا أبو سهل

---

(١) هى قوجان اليوم .

الحمدوى وسورى ومعهما حاجب خزانة الملابس (جامه دار) وجوهر آيين الخازن (خزينه دار) وغيرهما من المقدمين ومعهم خمسمائة فارس . وقد أمرهم السلطان بالسير إلى نيسابور وإقرار الأمن فيها . وقد وردت إلينا رسالة أبى المظفر الجمحى ، صاحب البريد ، يفيد أنه خرج من مخبئه وأن العلويين متفقون معه ، أما الأعيان فقد ثاروا وأفسدوا فى الأرض ، فينبغى استتباب الأمن وإعداد العلف اللازم بمقدار ما يكفى لمؤونتنا بقية الشتاء الذى سنمضيه هنالك .

فذهبوا وزحف السلطان مسرعا إلى باورد ، وأمر الوزير الفرسان الذين عينوا فى هذا الزحف بالسير على أثره وكان مع السلطان فى زحفه جريدة من الخيالة المسرعين ، فوجد أن طريق بيرهى قد سدوه . وأما طغرل فإنه حين بلغ باورد وجد داود والينالين مع جميع جند التراكمة وجملة الإمدادات ، فقالوا لنسرع إلى الوادى لنبق فيه ونسبر غور العدو ، فإن السلطان قد جاء هذه المرة أكثر أهبة مما عهدنا . وبينما هم فى هـــذا الحديث إذا بالحراس (الديدبانات) المعينين فوق الجبل يجرى بعضهم إلى بعض ويقولون إن السلطان قد جاء وأبلغ الخبر إلى طغرل وداود وغيرهما من المقدمين فدفعوا إمداداتهم أمامهم ، وساروا . فلما قطعنا التلال وبلغنا وادى باورد ، وكان بين بلوغنا الوادى ومغـــادرتهم إياه وقت قليل ، فكان من الممكن أن نلحق بهم لو أننا سرنا مسرعين ، ولكن القدر محتوم والأمور لا تسير إلا بإرادة الله ، فشأن أن يقع فى أسرنا ولد أحد الموالى ، فجاء به الحاجب إلى السلطان ، فسأله عن خبر التراكمة فقال : « منذ أيام حمل على وميكائيل إمداداتهم إلى صحراء نسا وفراوة وكذلك سار الأعيان والمقدمون ومعهم جيش كبير العدد عظيم الأهبة على حافة الوادى على بعد عشرة فراسخ من الطريق ، وكان

لى حصان أعرج فبقيت » . فتحير السلطان رضى الله ٦٠٦ عنه ، ودخل بعض الفرسان من طليعة مقدمتنا وقالوا له إن ابن المولى يكذب فإنهم ساروا بالإمدادات فى الضحى وقد شاهدنا ما أثاروه من النقع . فقال السپهسالار على والآخرون « إن الجيش هو الذى أثار هذا النقع وهم ليسوا من الغفلة بحيث يجعلون إمداداتهم قريبة منهم إلى هذا الحد » . وبهذا أضعفوا خطة السلطان ، فسار طويلا ، وكان اليوم شديد الحرارة ، حتى نزل على حدود باورد . ولو أنه حث السير نحو عدوه أو أرسل جيشا يتعقبه ، لوقعوا جميعا فى قبضته ، فقد أقبل الجواسيس ليلا وقالوا إن التراكمة قد ذهلوا ويئسوا من الحياة ، وكانت أحمالهم قريبة جدا منهم ، ولو أن السلطان دهمهم هناك ، لتم له نصر مبين . ولما كانوا خائفين فقد ساقوا الأحمال أمامهم حتى يبلغوا ناحية نسا لأن قلوبهم كانت قد ملئت رعبا ، ولو أن السلطان بلغ فراوة لما استطاعوا أمامه ثباتا ، إذ كانوا فى أشد الحاجة إلى العلف وكانوا يقولون أننا سنسبق العدو بتقدمنا فإذا تعقبونا وحل الشتاء استولى عليهم الضجر ورجعوا من حيث أتوا ، فإذا ما جاء الربيع نعود للقائهم متخففين من الأحمال .

فلما وقف السلطان على هذه الأخبار ، أقام فى باورد ، ودعا الأعيان وتشاور معهم ؛ وكان أبو سهل الزوزنى ، أستاذ ديوان النكت ، مقيما هناك فقص عليهم ماذكره الجواسيس من قبل . وقلبوا الرأى على جميع الاحتمالات . وقال الوزير : « إن الرأى السلطانى هو الرأى الأعلى ، وإن الشقة من هنا ليست بعيدة ، ويبدو لى أن الخير فى أن نذهب إلى نسا ، حيث نقيم بضعة أيام ويتيسر لنا العلف ، فهناك يزداد فزع العدو ، ويوغل فى الهروب ، ويصل الخبر إلى خوارزم فيكون له أثر طيب ، ويعرف القاصى والدانى أن السلطان قد نزل بخراسان وأنه لن يغادرها إلا بعد أن يجتث الفتنة من

أصولها » . فقال السلطان هذا عين الصواب . وفى الغداة تحرك الركب وسار إلى نسا واهتزت تلك النواحى بحركة الجيش ، وانسحب العدو من فراوة إلى الصحراء ، وحمل أحماله إلى جانب بلخان كوه ، ولو أن السلطان قصدهم لنم له كثير مما يبغى . وبعد ذلك بفترة طويلة تبين أن الأعداء كانوا من الفزع إلى حد أن طغرل لبث مستعدا للحرب أياما فلم يخلع حذاءه ولم ينزع عنه الزرد وكان يتوسد درعه حين ينام . وإذا كان حال قائد هذه الجماعة على هذا النحو فمن اليسير معرفة حال الآخرين . وأقام السلطان فى نسا بضعة أيام ، ونصبت مجالس الشراب . فقد كان المقام طيبا ٦٠٧ وبعث الجيش السلطانى رسالة سرية من خوارزم يظهر فيها التفانى فى الولاء وقد كتبنا ردا عليه توقيع السلطان . قال لى الوزير : « هذا كله خداع فإنهم يعرفون أننا لا نقدر على حربهم لأن القحط قد ألم بهذه البلاد ، ولا يستطيع الجيش أن يقيم طويلاهنا حتى يحين ميعاد سيره إلى خوارزم ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لأن أعداءنا فى خراسان على مقربة منا وقد تقدمنا لقتالهم ، هذا والخوارزمية يرون تضليلنا بأقاويلهم الجوفاء فيجب أن يكون ردنا عليهم قويا حتى إذا ما كانوا يضمرون الفتنة أرتج عليهم فيفزعون ويذهلون »

فلما سار الأعداء إلى الصحراء ، ولم يجدوا بها علفا تعقدت الأمور عليهم ، وارتفع صوت الجند شاكين من القحط وعاد السلطان من نسا عن طريق باورد واستوا ، وسار إلى نيسابور فخرج لاستقباله عند قصبة استوا التى تسمى خوجان القضاة والعلماء والفقهاء وأبناء القاضى صاعد ، الذى لم يستطع الحضور لضعف صحته ، وكان ذلك يوم الخميس منتصف شهر ربيع الثانى . وبلغ السلطان نيسابور فنزل فى حديقة شادياخ فى السابع والعشرين من

هذا الشهر . وأمر سورى بتجديد وإصلاح تخت السلطان مسعود الذى كان طغرل قد جلس عليه ، وفرش الصفة الذى كانوا قد قطعوه ووزعوه على الفقراء كما أمر بترميم الاصطبلات التى كانوا قد هدموها . وكان لهذا وقع حسن فى نفس السلطان ، فأثنى عليه ، وقد بذل جهدا كبيرا حتى استطاع أن يهيء علف عشرين يوما . ولم تكن نيسابور هذه المرة كعهدى بها ، فقد كانت خرابا كلها ، ولم يبق من مظاهر العمران فيها إلا القليل ، فصار المن من الخبز بثلاثة دراهم : وأخذ أصحاب البيوت ينزعون سقوفها ويبيعونها . وكانوا يموتون جوعا مع عائلاتهم وأبنائهم ، وتدهورت قيمة الضياع ، وهبط سعر الدرهم فأصبح دانقا .

وقد سار الإمام الموفق المحدّث مع طغرل . وبعد أسبوع بعث السلطان بدرا الحاجب إلى ضواحى بست والتونتاش الحاجب إلى ضواحى بيهق وكبير الحجاب إلى خواف وباخرز واسفند ، والسبهسالار إلى طوس ، وملأ الأطراف كلها بالرجال . ثم أخذ السلطان ٦٠٨ فى الشراب واللهو ، وكان الطقس شديد البرودة ، وبلغت الحالة أشدها ، ولا يذكر أحد قحطا كهذا حاق بنيسابور ، وهلك خلق كثيرون من الجند والرعية . ورأيت كثيرا من العجائب فى تلكم الأيام ، فلا محالة من ذكرها ، إذ فى كل منها تبصرة للعقلاء بهذه الدنيا الخداعة .

كان فى نيسابور قرية تسمى محمد آباد تابعة لشاد ياخ ، وكانت أراضيها غالية الثمن فكان الجفت وار ، الذى يسمى فى نيسابور وإصفهان وكرمان جريبا ، من الأرض الغير مزروعة يباع بألف درهم ، فإن كان عامرا بالشجر والزرع بيع بثلاثة آلاف درهم ، وكان لأستاذى أبى نصر قصر بهذه القرية ، أحسن بناؤه وأحيط بالحدائق من جهات ثلاث ، فأراد فى تلك السنة التى

رجعنا فيها من طبرستان وأقمنا خلالها فى نيسابور ، أن يشترى قطعة أخرى من الأرض ليبنى عليها قصرا تحيط به حديقة. فاشترى الأرض بعشرة آلاف درهم من ملاك ثلاث ، وكتبوا القبالة وأشهدوا الشهود ، وكنت حاضرا عند دفع الثمن ، فقال أستاذى يجب أن تقبلوا الثمن قسما بالفضة وقسما بالذهب ، وعارض البائعون لأنهم يشترطون أن يكون الثمن ذهبا ، فأطرق أستاذى قليلا ثم أخذ القبالة ومزقها قائلا « لاحاجة لى بالأرض » فندم الملاك واعتذروا فقال « لن اشترى » وانصرف القوم. ثم قال لى « ما هـــذا الهوس الذى أصاب عقلى حتى فكرت فى شراء الأرض . إذا كانت الدنيا كما أرى فإن الذى يعيش سوف يرى كيف يكون الحال وسوف يرى أن جفت وار الأرض يباع بعشرة دراهم » فعدت وأنا أقول لنفسى إن هذا كله من تصورات الأستاذ المتشائمة .

وفى هذا العام جئنا إلى نيسابور ، ونزل أبو سهل الزوزنى فى قصر أستاذى هذا ، وذهبت لزيارته ذات يوم فوجدت عنده جماعة من الدهاقنة ، كانوا يبيعون ثلاثين جفت وارمن الأرض القريبة من هذا القصر لكى يشيدوا باسمه هنالك قصرا وحديقة ، وكانوا يطلبون ثمنا للجفت وار الواحد مائتى درهم فكان يعارضهم ثم اشترى فى آخر الأمر ونقدهم الثمن . فابتسمت ، ورآنى ، وكان رجلا سيء الظن ، يخلق من الحبة قبة ، فقال لى بعد انصراف البائعين : « لقد تعبت فى هذه الصفقة حتى أنهيتها » ثم التمست العودة فقال . « إنك كنت تبتسم ساعة دفع الثمن فماذا أضحكك ؟ » فقصصت عليه ما كان من أمر أستاذى أبى نصر ورغبته فى شراء الأرض . ففكر مليا ثم قال : واحسرتاه لموت أبى نصر ، لقد كان حكيما ثاقب الرأى ، ولو حدثنى بهذا الحديث ٦٠٩ من قبل لما اشتريت هذه الأرض . أما وقد اشتريت الآن ودفعت الذهب فقبيح منى أن أعدل عن الشراء » .

هذا وبعد ماحل بنا فى دندانقان عرفت أن الأمر فى قرية محمد آباد هذه صار بحيث يباع الجفت وارمن الأرض بمن واحد من القمح ولا يجد من يشتريه . ولننظر إلى ماقبل سنة من هذا الحادث حين كان الجفت وارمن الأرض يباع بألف درهم ثم بعد ذلك بمائتين وبعد ذلك بمن واحد من القمح ولا يجد من يشتريه ، فإن علينا أن نعتبر دائما بمثل هذه الأحوال . ورأيت مرايا بغدادية مجردة ومخروطة ، اشتريت الواحدة منها بدينار ، كانت تباع بثلاثة دراهم . وبعد عودتنا إلى نيسابور بلغ ثمن المن من الخبز ثلاثة عشر درهما ، ومات أكثر أهل المدينة ونواحيها . وبلغ أمر العلف من الصعوبة بحيث رأيت السلطان جالسا ذات يوم — وكانت على النوبة فى الديوان — ومعه الوزير وصاحب ديوان الرسائل وقد ظلوا مجتمعين حتى الظهر إلى أن أتموا جمع علف لخمسة أيام ، إذ أعوز الغلمان الخبز واللحم ، ولم تجد الدواب التبن والشعير . وقد فرغنا من إعداد العلف بعد صلاة الظهر ، وكان السلطان ضاحكا ، وهذا الحديث من الطرائف التى حدثت ، إذ جاء ساعى بريد غزنة فى تلك الساعة ، فقدموه للسلطان وكان يحمل رسالة من أبى على قائد قلعة غزنة فقرأها السلطان والتفت إلى ندمائه وقال : « إن قائد القلعة يقول فى كتابه إن أكثر من عشرين ألف قفيز من الغلة قد أودعت المخازن ويسأل أيبيعها أم يبقيها ؟ إن لنا فى غزنة غلالا وافرة ونحن هنا فى ضيق شديد » فتعجب الندماء . وحدثت بعد ذلك وحتى وفاة هذا السلطان رضى الله عنه عجائب كثيرة وسأذكر أندرها فى مكانه حتى يتأكد القراء أن هذه الدنيا الغرورة لا تساوى شروى نقير . وأما العلف فكانوا يأخذون الجمال حتى دامغان ويجلبونه من هناك . ولم يتحرش بنا التراكمة فقد كانوا فى شغل بالبحث عن أقواتهم ، إذ أن هذا القحط قد ألم بالبلاد كلها .

ولم يكن السلطان على وفاق مع أبى سهل الحمدوى ، وقد حزن لذلك وحار

فى أمره وكان ٦١٠ الوزير ينافق بينهما سرا، ووسط أبو سهل مسعود بن الليث، ودامت الوساطة عدة أيام ، حتى تقرر أن يقدم أبو سهل للسلطان خمسين ألف دينار . فكتب تعهدا بذلك ، وأرسل المال إلى الخزانة حين جمعه . وقد أمر السلطان له بخلعة فاخرة ، ودخل الحضرة وجلس بين الندماء ، ثم إنه أمر بعد ذلك بأيام بأن يذهب إلى غزنة وأن يستعفى من عمله فى نيسـابور ، وأن يخرج ما كان قد أخفاه فى قلعة ميكائيل ، وأن يسير عن طريق رستاق بست إلى سيستان ، ومن هناك يذهب إلى بست . وقد أعد له الرحلة قائد قلعة غزنة فعين مقدما[1] ومعه مائتا فارس مجهزين ليصحبوه فى سفره . وساروا من نيسابور ، وقد أرسل كتاب إلى بدر الحاجب ليخرج فى توديعهم وتشييعهم إلى الحدود ، ففعل . وبلغوا غزنة سالمين ومعهم أموالهم وأنجاهم الله من البلاء الذى امتحنا به وقد عهد السلطان إلى أبى الحسن عبد الجليل برياسة نيسابور على نفس الخط والطراز الذى منحه السلطان محمود لحسنك حين ولاه ، إذ منحه خلعة فاخرة وطيلسانا ودراعة . وقد جاء أبو الحسن إلى البلاط مقدما فروض الطاعة ثم خرج ، وقد طلبوا له حصان الأستاذ الكبير رئيس نيسابور فركبه إلى بيته وقد أحيط بغاية الرعاية ووفد عليه أعيان نيسابور وقادتها فلم يحسن استقبالهم وكشف لهم عن رعونته قائلا : إنى اليوم بمنزلة الوزير حسنك . فأخذوا يسلقونه بألسنة حداد ، فشتان بين هـذا العصر وعصر حسنك .

وفى هذا الوقت جاءت الكتب تترى من الخليفة أطال الله بقاءه إلى السلطان ، وكلها عطف عليه ، يطلب اليه فيها ألا يتحرك من خراسان حتى تخمد الفتنة التى أشعل نارها التراكمة ، فإذا فرغ من القضاء عليها فإن عليه أن يسير

---

(١) الكلمة المذكورة فى النص « مينة » — غنى ـ فياض ص ٦١٠ ونفيسى ص ٧٤١ — وذكر فى نسخة غنى ـ فياض أنها قد تكون «مقدمى» .

نحو الرى والجبال حتى يطرد الغاصب منها . وقد أرسلت الإجابة إلى الخليفة كما يلى : « تلقيت الأمر العالى بالسمع والطاعة وكانت عزيمتى معقودة عليه، وسأبذل المزيد من الجهد بعد أن تلقيت أمر الخليفة » .

وكان سلطان بغداد قد كتب لمسعود أيضا متقربا منه فقد كان يتهيب حركته . وقد رد عليه مسعود ردا جميلا ، وبعث إلى با كاليجار والى جرجان وطبرستان خلعة قيمة مع رسول يحمل إليه خطابا ملؤه الود والعطف ، لما أسدى من خدمات حظيت بالقبول أيام كان هناك أبو سهل الحمدوى وسورى .

وأمر السلطان بإعادة أبى الحسن الكرجى نديماً له ، وكان خازن ٦١١ العراق ، وقد عاد مع هؤلاء القوم وخلع عليه ، وكان قد أصبح شيخا كبيرا فلم يكن هو أبا الحسن الذى رأيته من قبل . وتغيرت الأيام والناس وكل شىء .

وفى يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الثانى جلس السلطان لاحتفال النوروز وقدمت إليه هدايا كثيرة ، وأقاموا زينات بهيجة واستمع للشعراء ، فقد كان مسرورا فى أيام الشتاء هذه وخالى البال وكانت الفترة خلوا من الحوادث ، وأمر بالصلات للحاضرين وللمطربين أيضا . وشفعوا للشاعر مسعود ، فأمر له السلطان بصلة ثلاثمائة دينار مع كتاب منه وبألف دينار شهريا يتقاضاها من معاملات جيلم ، وقال يجب أن يظل مقيما هناك . ثم أخذ السلطان فى إعداد العدة للسير بعد النوروز ، وأتموا ما كانوا بدءوا فيه قبل ذلك . وقال لصاحب الديوان سورى استعد حتى تجىء معنا فلا تمكث فى نيسابور وليكن أخوك نائبا عنك هنا . فأجاب سورى أن « سمعا وطاعة ولقد كنت عازما على ألا أبتعد

عن ركاب مولاى لحظةً لما قد ألم بى فى هذه الأيام » . وأقام أخاه نائبا عنه واستعد للسفر . وقال السلطان كذلك بأنه لا بد أن يأخذ سورى معه فإذا هدأت الأحوال فى خراسان أمكن إعادته إليها ، وإذا سارت الأمور فيها على نحو آخر لا يقع هذا الرجل فى أيدى الأعداء ، لكيلا يثير الدنيا علىّ . وقيل إن أبا سهل الحمدوى هو الذى ألقى هذا فى روع السلطان . وقد أمر السلطان بخلعة لأبى المظفر الجمحى ، وأسند إليه منصب ديوان البريد . كما خلع على العلويين ونقيبهم وقد سلمها لأبى المظفر . ورأى القاضى صاعد السلطان مرة واحدة فى هذه الأيام ، ولكنّ ولديه كانا فى خدمته دواما . وفى هذا الوقت جاء القاضى مودعا وداعيا وناصحا وقد خلع السلطان على ولديه وعادوا معززين إلى دارهم .

وسار السلطان من نيسابور إلى ناحية طوس ، يوم السبت ، ليومين بقيا من جمادى الثانى ، عاشر أيام النوروز ، وقد سلك طريق المضيق الأحمر[1] ونزل فى الوادى عند مفترق طريق سرخس ونسا وباورد واستوا ونيسابور . وبعث بجانب من الجيش مجهزا مع المقدمين الكفاة بقيادة القادة المشهورين ليكونوا فى الطليعة . وكذلك تحرك الأعداء وزحفوا إلى سرخس مع ٦١٢ كثير من الرجال المدربين ، وأرسلوا طلائعهم لمواجهة جيشنا . وكان الفريقان على أتم يقظة : فكانت الحرب . وضرب السلطان خيمته على تلٍ وقد نزل بتعبئة كاملة ، وأخذ فى الشراب ولم يقد بنفسه معظم الجيش لمقابلة الأعداء ، فقد كان ينتظر موسم الحصاد . وبلغ ارتفاع الأسعار إلى حد أن بيع المنّ من الخبز بثلاثة عشر درهما وكان نادرا ، أما الشعير فلم يره أحد بعينيه . وقد خربوا طوس ونواحيها ، وسلبوا الغلة حتى ممن معهم منّ واحد منها . وأشعل سورى

---

(١) يقول غنى وفياض يحتمل كثيرا أن يكون القرية الحمراء (ده سرخ) ص ٦١١ حاشية ٣ .

النار فى هذه النواحى ، وهلك كثير من الناس والدواب من شدة القحط ، فقد كان واضحا عدم استمرار الحياة طويلا بالعيش على الحشائش . وبلغ الأمر إلى حد أنه كان يخشى أن يثور الجيش من القحط ، وأن يفلت الزمام . فأطلعوا السلطان على الأمر ، وصارحوه بأن الأمر سيفلت من أيديهم ، وأنه لا بد من الحركة ، فإن لم يدبر الأمر على عجل فلا شك أنه يبلغ إلى حيث لا يستطاع تلافيه . فسار السلطان من هناك صوب سرخس ، وكان ذلك يوم السبت التاسع عشر من شعبان . وقد هلك فى الطريق إلى سرخس من قلة العلف ومن الجوع ما لا يحصى من الدواب ، مما أحزن الناس وغمهم . وبلغنا سرخس فى آخر يوم من شعبان ، وكانت المدينة خرابا وليس بها ماء ولا سنبلة واحدة من الغلة ، وقد هجرها الناس جميعا ، وكأنما الوديان والجبال قد أحرقت وليس فيها عود من الحشائش ، وحار الناس فى أمرهم ، وأخذوا يذهبون إلى الأمكنة البعيدة ويأتون بالحشائش الجافة الفاسدة ، مما كان يرمى عادة فى تلك الصحراء ، فكانوا يأتون بها ويرشونها بالماء ويقدمونها للبهائم فتأكل منها مرة أو مرتين ثم تزور عنها ولا تلتفت إليها ، حتى تموت جوعا . وكان المشاة أسوأ حالا .

وكان السلطان شديد الحيرة من هذه الأحوال ، فدعا إلى مجلس ضم الوزير وأبا سهل وأركان الدولة وقادة الجيش ، وتحدثوا فى تدبير هذا الأمر . ولو أن الحال استمر على هذا النحو لما بقى ثمة آدمى ولا دابة . وقال السلطان إن الأعداء ، ولو أنهم قد اجتمعوا ، فإنى على يقين من أن هذا القحط قد ألم بهم أيضا . قالوا أطال الله عمر السلطان ليس الأمر هكذا فى مرو فالناس هناك فى سعة ، وأدهى من هذا كله أن غلتهم قد آن حصادها وهم بها ينعمون وسوف تكون دوابهم مستريحة وسمينة ونشطة حين نصل إليهم ،

وإنا لن نجد فى هذا الطريق ما يسد الرمق ، فالصواب عندنا أن يذهب السلطان إلى هراة فإن العلف متوفر هناك فى بادغيس ، فنمكث ٦١٣ هناك أياما ثم نقصد الأعداء على استعداد . فقال السلطان محال ما تقولون ، لن أذهب لغير مرو ، لأن الأعداء فيها ، وليكن ما يكون ، لأنى لا أستطيع أن آتى كل يوم للحرب . فقالوا إن الأمر للسلطان وما علينا إلا الطاعة حيثما يذهب . وعادوا من حضرته يائسين ، فجلسوا مختلين ، وبعثوا برسائل على لسان أبى الحسن عبد الجليل ومسعود بن الليث أن ليس من الصـــواب الذهاب إلى مرو ، فإن السنة قحط ، ويقال أن ليس فى الطريق ماء ولا علف ، وإن الجند يتضجرون فى هذا الطريق ولا ينبغى أن تحدث فتنة — والعياذ بالله — يصعب تلافيها . فذهبا وأديا هذه الرسالة فغضب السلطان غضبا شديدا ، وأنبهما وشتمهما وقال « إنكم جميعا قوادون وقد اتفقتم بعضكم مع بعض ولا تريدون إنجاز ما نحن فيه ، حتى أبقى فى هذا الهم مقيما ، وأنتم لا همّ لكم سوى التفكير فى السرقات ، ولسوف آخذكم إلى مكان فألقى بكم فى بئر فأهلككم وأستريح منكم ومن خياناتكم ، وتستريحون منا كذلك ولا يكلمنى ثانية أحد فى هذا الشأن وإلا ضربت عنقه » . فعادا ، وقد اعترتهما الدهشة ، إلى القوم وجلسا صامتين . فقال القادة بماذا أجاب ؟ فأخذ أبو الفتح بن الليث يتكلم مداريا ، فقال أبو الحسن لا تسمعوا له ، فإن السلطان لم يقل هذا ، ومن المحال أن يخدعوا السادة من أمثالكم فى مثل هذا الوقت الخطير ، إن السلطان قال كذا وكذا . فحدق الوزير فى السپهسالار وقال كبير الحجاب لهذا لم يبق للكلام مجال وإن الأمر للسلطان ونحن عبيده وخيرنا فيما يريده لنا ثم قاموا وانصرفوا وأبلغوا هذا للسلطان . وأخذوا على السپهسالار أمورا عدة وكذلك علىّ على داية مما أثار عليهما قلب السلطان . من ذلك أنه حين كنا فى طوس جاء كتاب من ألتونتاش يقول فيه إن الأعداء

يشددون الضغط فى الناحية التى أقيم بها ، وإنى فى حاجة إلى معين . فأجيب أن «كن رابط الجأش فقد أمرنا السپهسالار أن يلحق بك» . ووجه السلطان إلى السپهسالار كتابا يأمره فيه أن «أدرك ألتونتاش» ، فقال هذا ما الفائدة من الكوس والطبل والدبدبة وقد كلفت بأن أكون تابعاً لألتونتاش ؟ وأمر بتحطيمها ثم إحراقها . وأبلغوا السلطان هذا الخبر . واضطر إلى أن يبعث إليه مسعود بن الليث لكى يسترضيه ، فذهب إليه ولكنه ٦١٤ لم يستطع إرضاءه ، فدعاه السلطان وطيب خاطره بنفسه . هكذا سارت الأحوال ، ووقعت الملمات ، وكان السلطان ناقما على القادة ، وهم منه يائسون ، فكانوا يعودون من حضرته وقد امتلأت قلوبهم حسرة ، حتى جاءت الطامة الكبرى .

ولما دخل السلطان رضى الله عنه سراى الحرم وجلس وحده فى سرادقه ، أخذ يلوم الوزير وقادة الجيش أمام الخدم : وقال إنهم لا يريدون أن يتم لى القضاء على السلاجقة حتى أستريح من هذا النصب والغم . وقد جرى منهم هذا اليوم ، ومهما يكن فإنى ذاهب إلى مرو غدا ، وقال له الخدم ينبغى ألا يستشيرهم مولانا ، وإنما يجب أن يكون كل أمر برأيه وتدبيره . وسمع الوزير بهذا الخبر فقال لأبى سهل الزوزنى : «آه ، ما حيلتنا وقد آل الأمر الآن لتدبير الخدم ؟ إن من هؤلاء الخدم رجلا اسمه إقبال زرين دست كان يدعى الذكاء ، ولست أقول إنه ليس ذكيا وماكرا وواسع العلم ، ولكن أنى له التجربة فى مثل هذه الأمور الخطيرة» ؟ فقال أبو سهل : «مهما يكن فإن على الأستاذ الرئيس أن يراعى المصلحة وألا يلق سلاحه وألا يبخل بنصيحة» . قال وإنى أرى هذا أيضا . ثم عاد إلى خيمته وأرسل رسولا ونادى ألتونتاش . فجاء واختلى معه . وقال الوزير : «لقد دعوتك

من بين المقدمين جميعا لأنك رجل مخلص غير منافق تقول ما فيه المصلحة والحق عن نية صادقة ، وإنى والسپهسالار وكبير الحجاب قد عجزنا مع مولانا السلطان فإنه لا يستمع إلى قولنا ونصحنا إليه ، بل إنه يتهمنا ومصيبتنا الآن هى عزمه على التوجه إلى مرو ، وأنا لا أستطيع أن أرى كل هؤلاء الفرسان يتضورون جوعا ويفقدون دوابهم ، وغلمان السراى كلهم من أصحاب النجائب ، والحاجب بكتغدى يصيح قائلا إن هؤلاء الغلمان لن يشتركوا فى الحرب ، فإنهم يقولون ما ذنبهم ليبقوا جياعا ، فكثيرا ما طلبوا القمح والشعير فلم يحصلوا عليهما ، وهم لم يسيروا مع سلطان على هذا الوجه ، وظاهر مقدار ما يحتملون فى هذه الحال ، وبقية الجنود رجالة وجياع فما رأيك فى تدبير هذا الأمر ؟ » فقال : أطال الله حياة الأستاذ الرئيس ، إنى رجل ٦١٥ تركى صميم أقول الحق ولا أبالى ، إنى أرى أن هذا الجيش لن يحارب وسوف يتخلى عنا ، فإنه جيش عاجز وجائع ، وأخاف أن تضطرب الأمور إذا أقبل العدو فلا يمكن تلافيها . قال الوزير أفى وسعك أن تحدث السلطان بهذا ؟ . قال ألتونتاش « وكيف لا أستطيع ، لقد كنت نقيب فرسان السلطان محمود وقد أبقانى فى الرى مع هذا السلطان (مسعود) ، وهناك رفعنى إلى منصب كبير وأغدق على النعم الكثيرة ، وأنا اليوم فى مرتبة السالار (القائد) فلماذا أمسك عن إبداء هذه النصيحة ؟ » قال الوزير : « إذن فاطلب الخلوة معه بعد الصلاة وحدثه فى هذا ، فإذا استمع إلى نصحك تكون قد أديت مكرمة كبرى لهذه الدولة ولنا جميعا ، وإذا لم يستمع إليك تكون قد أديت واجبك وقدمت للسلطان ما ينبغى له عليك » . فقال إنى فاعل ثم انصرف .

ثم دعاني (أبا الفضل) الوزير وحملني رسالة إلى أبي سهل يحكي فيها ماجرى ويقول إن هذا آخر ما أستطيع من المحاولات لإقناع السلطان حتى نرى ماسيكون ، وإن هذا التركي (ألتونتاش) ما كان ليقبل أداء هذه الرسالة لولا سلامة قلبه واستقامته . فسرت إلى أبي سهل وأبلغته رسالة الوزير فقال لقد قام هذا الرجل الأمين بواجبه ولننظر ما سيكون . ثم إن الوزير أرسل بعض ثقاته إلى كل من السپهسالار وكبير الحجاب بكتغدى وذكر لهما مافعل فأثنوا عليه جميعا . وأقبلوا إلى الدركاه بين الصلاتين ، فقد كانوا جميعاً جزعين مما هم فيه ، وكان السلطان في خيمته ، فحثوا ألتونتاش حتى ذهب إلى الخدم والتمس المقابلة قائلا إن حديثه مع السلطان فريضة لشدة أهميته . فأذن له . ودخل فصرح بكل شيء في جرأة تامة . فقال له السلطان لقد خدعوك حتى تتكلم بما قلت بهذه السذاجة وإلا فأنى لك القدرة على مثل هذا الحديث ؟ فاذهب فإنا سنعفو عنك لأنك رجل مستقيم ساذج وحذار من هذا التهور مرة أخرى . وعاد ألتونتاش واسرّ إلى هؤلاء العظماء بما جرى . فقالوا له لقد أديت واجبك فاحفظ سر هذا الحديث ولا تبح به . ثم رجع الوزير . وكان أبو سهل مهتما بالأمر فأرسلني إليه مستفسرا . فذهبت إلى الوزير وقلت إن أبا سهل يسأل عما جرى . فقال قل لأبي سهل إن السلطان قد أجاب ألتونتاش بكذا وكذا ، وإن أمرا جللا يوشك أن يقع ولا مرد لقضاء الله ، فمثل هذا السلطان كمثل عمرو بن الليث إذ قال له وزيره أن سر من نيسابور إلى بلخ واحتفظ بمكانتك وابعث الجيش فإن تحطم وهزم فإنك قادر على تلافي الهزيمة مادمت حياً ، ولكن ٦١٦ إذا ذهبت بنفسك وهُزمت فلن تستطيع البقاء في الدنيا . فقال لوزيره «يا أستاذ إن الصواب والحق فيما رأيت وقلت ، وكان الواجب اتباع طريقك ولكن كأن في الأمر شيئاً وكأن القضاء المحتوم قد طوق بالرسن عنقي وأخذ يقودني » . وكانت العاقبة ماقرأت . هذا السلطان على تلك الشاكلة لا يجدي النصح معه نفعا.

ولقد وطدنا العزم على استقبال النوائب كلها ، وكذلك فإنك لن تستطيع أن تفكر في شيء خيراً مما نفكر نحن فيه . فذهبت وأبلغت الرسالة فيئس أبو سهل ، وكان من المتشائمين .

وكان السلطان صائماً فلم يجلس للاستقبال بعد صلاة العصر وقد بعث إلينا يأمرنا بأن « عودوا إلى بيوتكم ثم استعدوا فإنا سائرون غداً إلى مرو فرجع القوم وقد استولى اليأس على قلوبهم . وأعدوا عدتهم . »

وفي اليوم التالي ، الجمعة ثاني رمضان ، دقت الكوس وركب السلطان وسلك طريق مرو فسار الجند وراءه ، متخاذلين ، كأنهم حقا يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى .وكان اليوم شديد القيظ ، والمؤن قليلة والعلف لا وجود له ، والدواب هزيلة ، والناس صيام . وقد مر السلطان في الطريق على كثيرين يجرون جيادهم ويبكون فامتلأ قلبه حسرة وقال «ما أسوأ حال هذا الجيش . » وأمر لهم بآلاف الدنانير . وكانوا جميعا يأملون في أنه قد يعود من حيث أتى ، ولكن قضاء الله كان أشد غلبة . وتحدث السلطان بهذا بعد صلاة العصر . ثم قال إن هذا التعب وتلك المشقة نتحملها حتى مرو . وفي اليوم التالي واصل السير . والطريف أن الماء أيضا أعوزنا في هذا الطريق ، ولا يذكر أحد منا جفافا على هذا النحو ، فإن الأنهار الكبيرة التي بلغناها كانت كلها جافة . وبلغ بنا الأمر في اليوم الثالث من السير من سرخس إلى الحاجة إلى حفر الآبار بغية الشرب ، وقد حفروا آبارا كثيرة فكان منها العذب ومنها الملح الأجاج. وأشعلوا النار في تلك الأدغال وهبت الريح وعلا الدخان فأصاب أحمال الجند التي فوق ظهورهم فاسودت . وأمثال هذا النصب لم تكن قليلة في هذا السفر .

وفي يوم الأربعاء ، السابع من شهر رمضان ، حين سرنا في الضحى بدا لنا ألف فارس من التركمان ، وقد قيل إنهم يناليون ، ومعهم خمسمائة فارس ممن فروا

من رجالنا ، قالوا برأسهم پورتكين . وقد أحدقوا بنا وحمى وطيس الحرب ، فاستولوا على كثير من إبلنا وأبلوا بلاء حسنا ، ٦١٧ وذهب رجالنا للقائهم فدحروهم حتى حملوهم على الابتعاد ، ثم تعقبونا خطوة خطوة إلى مكان نزولنا وقد أفاق السلطان قليلا من غفلته فى هذا اليوم ، حين لمس قوة الأعداء واتضح لنا جميعا أنه نادم على مافرط منه . وبعد صلاة العصر ، حين أذن بالاستقبال جاء الوزير والسپهسالار والأعيان ، فتحدث فى هذا الأمر وقال : أيكون أسوأ من هذا ؟ يهاجمنا أقل من ألفين من الأعداء وينهبون الجمال بغير اكتراث وجيش بهذا العدد والعدة لا يقوى على ردهم ؟ فقال السپهسالار وكبير الحجاب « أطال الله حياة السلطان لقد انقض الأعداء علينا اليوم فجأة فإذا جاءوا غدا فإنهم سيرون دفاعا من لون جديد . قالوا هذا ثم قاموا ، فناداهم السلطان مرة أخرى واختلى بالوزير وبأبى سهل الزوزنى وتحدثوا طويلا حتى قرب المغرب ، ثم تفرقوا وقد دعانى أبو سهل واختلى بى وقال لى : « ما أسعد أبو نصر مشكان الذى مات فى عز ولم ير هذا اليوم ولم يسمع مافيه من فتنة . لقد طالما نصحوا هذا السلطان بغير جدوى ، ولقد ذاق اليوم ضربة خفيفة أيقظته فندم على ما كان منه ولكن ما جدوى الندم بعد الوقوع فى الشرك ؟ . »

ثم تحدث أعيان الجيش والمقدمون ، فى خلوة العصر هذه ، صراحة فى الموقف وقالوا إن الفرسان قد بدا عليهم الوهن من شدة ما قاسوا من الآلام وهم يائسون جائعون ، وليس على القادة والمقدمين أكثر من بذل أرواحهم فى سبيل السلطان ، ولكن الجلى أن عددهم محدود والحرب لا تتأتى إلا بالفرسان وقد تعذر علاج هذه الحال . ولم تتغير لهجتهم هذه رغم مبالغة السلطان فى الحديث إليهم حتى ضاق صدره فقال وكيف ندبر هذا ؟ قالوا السلطان أدرى منا . ثم إن الوزير قال « لا يمكن العودة بأية حال لأننا بلغنا مرحلة يعتبر التراجع فيها هزيمة ، ولم يقع بعد اشتباك مع العدو ، ولم يتبين العدو قوتنا حتى يستطاع الكلام على ضوء الواقع . ومن رأيى أن يكون القتال أول شىء نفكر فيه ،

فإن المسافة بيننا وبين العدو قريبة ، وحين نبلغ مرو ستمع المدينة والغلات فى أيدينا وسيلجأ العدو إلى حافة الصحراء ، ونظفر بما نريد ، ولا بد من اتخاذ الحيطة التامة فى المرحلتين الباقيتين ، فوافق الجميع على رأى الوزير وقاموا وهم مجمعون ٦١٨ على تلافى كل نقص فى الجيش . واستحسن الأستاذ الرئيس هذا الرأى ولكنا كنا فى هلع شديد ونخاف أن يتمرد جندنا علينا ،ونعوذ بالله ، فإن الحاجب بكتغدى قد حدث السلطان إجمالا بأن الغلمان كانوا يتحدثون فيما بينهم اليوم قائلين : حتى متى نستطيع امتطاء الإبل ، إنا إذا وقعت الواقعة غدا سنأخذ الخيول العربية لأنا لا نقدر على الحرب ونحن على النجائب . ولم يجب السلطان ولكنه فقد رشده حقا .

وبينما نحن فى هذا الحديث ، إذا بساع يصل وهو يحمل إلينا رسائل العيون ، وقد جاء بها : «إنه حين جاءت الأنباء بأن السلطان قد سار من سرخس ارتعدت فرائص هؤلاء الناس (السلاجقة) ، فجمع طغرل الأعيان وتحدثوا طويلا فى شتى الاحتمالات ، وأخيرا قالوا لطغرل إنك كبيرنا وإنا لفاعلون ما تراه صوابا . فقال لهم : « الصواب عندى أن نسوق أمتعتنا أمامنا ، وأن نسير إلى دهستان ونستولى على جرجان وتلك النواحى ، فإن الأعراب هناك قليلو العدة وتعوزهم أسباب القتال ، فإذا لم نستطع البقاء هناك ، سرنا إلى الرى فتصبح هى والجبال وإصفهان لنا ، ولن يتعقبنا السلطان لأنا قد جلونا عن بلاده ، ولا يزال الفرار خيرا لنا من التظاهر بالعظمة ، فإن السلطان رجل عظيم ولديه جيش كامل العدد والآلات ، ويملك بلادا واسعة ويعرف أسرار الحرب عندنا ، ولن يتركنا وشأننا ، وكما يعرف مدى ما عانينا من المتاعب فى هذا الشتاء » . فقالوا جميعا هذا هو خير الآراء وينبغى أن نعمل به . ولم ينطق داود بكلمة ، فقالوا له : ماذا ترى ؟ . فقال « إن ما قلتم وقررتم ليس شيئا ، وقد كان الأولى ألا نبدأ بما كان ، وألا نتحرش بمثل هـذا السلطان ، أما وقد خاصمناه اليوم وغضب

منا ، ودارت بيننا الحرب ، وخربنا عدة ولايات من بلاده ، فلا مفر من المقاومة حتى الرمق الأخير ، فإنا إن قهرناه صارت الدنيا كلها لنا ، وإن غلبنا فلن يفوتنا هذا الفرار ، لأنا نعلم إلى أى حد سوف يتعقبوننا أثناء فرارنا ، لكنّ أمتعتنا يجب أن تكون بعيدة عنا أينما نكون ، فإن الفارس المتخفّف يصبح أكثر جرأة . واعلموا أنا لو انسحبنا دون قتال ، فإن هذا السلطان سيحسب ٦١٩ أنا قد خشيناه وولينا هاربين ، فيتعقبنا ويثير علينا جميع الولاة برسائله ، فينقلب الصديق عدوا لنا ، وهذا القحط الذى ألمّ بنا ويلم اليوم بنا . قد ألم بهم أيضا ولا يزال يضيق الخناق عليهم ، كما اتضح لنا من صحيح الأنباء .وقد مضت علينا أيام ونحن ننعم بالعلف وإن دوابنا ورجالنا قد استراحوا ، أماهم فلا يزالون يفدون من الصحراء . فالانسحاب أمامهم عجز . ويجب الانخاف » فقال بيغو وطغرل واليناليون وجميع المقدمين إن هذا هو الرأى الأقوم . ثم بعثوا بأحمالهم مع ألفين من فرسانهم الأصغر سناً الذين كانت خيولهم هزيلة . وتقول الرسالة بعدهذا : ثم إنهم استعرضوا بقية الجيش . وكان ستة عشر ألف فارس ، وسيختارون منه الطليعة بقيادة الينالين وبورتكين . فينبغى الحيطة التامة فهذه هى حقيقة ما يجرى . »

فركب أبو سهل على الفور وسار إلى الدركاه ، وكنت بصحبته ، وقد قرأ السلطان هذه الرسالة فهدأ روعه قليلا ، ثم قال لأبى سهل : إن أمامنا عملا خطيرا ، وكان الخير أن نسير إلى هراة وأن نصالح هؤلاء الناس ، والآن وقد فات الأوان فلننتظر تقادير الله تعالى فإنها طامة كبرى ، ستة عشر ألف فارس مدربون فى مقابل رجالنا المتخاذلين المتقاعسين . فقال أبو سهل لن يكون إلا خيرا ، ولا بد من بذل غاية الجهد حتى نصل إلى مرو فهناك نستطيع أن نتلافى كل هذه الأحوال صلحا أو حربا . قال إنه كذلك . وسار الخدم ودعوا

الوزير والسپهسالار وكبير الحجاب والأعيان وقرئت عليهم هذه الرسالة فقويت عزائمهم : وقالوا إن الأعداء قد ألقى فى قلوبهم الرعب .

وقال الوزير : يتراءى لى أن هذا من تدبير داود . والمهم أننا قد زايلناوقت العصر فينبغى أن نواصل السير حتى نلتقى بأنفسنا فى مرو قبل أن يحدث خلل ، فهناك نستطيع أن ندبر لتلافيه ، إذ أن حال الأعداء هو ما كتبه العيون » . فقالوا جميعا إنه كذلك . وعادوا وأخذوا فى إعداد العدة طول الليل ، وأخذ القادة ينصحون الفرسان ويمنونهم . ودعا السلطان أرتكين الحاجب الذى كان خليفة لبكتغدى مع مقدمى القصور والغلمان الذين هم أكثر شجاعة وقال لهم ما ينبغى من التنبيه حتى يكونوا يقظين . ومن سوء الصدف أنه لم يدع ٦٢٠ بكتغدى فغضب ، لأنه كان بمثابة أمير الغلمان ، وكانوا يمتثلون لأوامره . وكان كل ما يجرى من الأعمال مخالفا اصلاح الدولة ، فإن القضاء كان قد دبر أمره ، وإذا أراد الله شيئا هيأ أسبابه .

وفى اليوم التالى الخميس الثامن من رمضان ، ركب السلطان فى عدة كاملة وسار . ولم نسر أكثر من فرسخ إلا وظهر أمامنا الأعداء . كانوا فى جمع كثيف ينثالون علينا من حافة الصحراء عن يمين وشمال ، فاشتبكوا بنا واشتدت المعركة ، وكانوا حين يهجمون من كل جانب يقابلهم جيشنا بدفاع اليائس المتخاذل ، وكنا نحارب مضطرين ، مما زاد فى جرأة خصومنا . وهكذا كنا نسير فى كروفر . وكم من مرة رأيت غلمان السلطان ينضمون إلى الفارين ، وكانوا يتراجعون مع الغلمان الذين يمتطون النجائب ويتحدثون . وكان الحاجب بكتغدى يسير ممتطيا فيلا مع غلمانه لأنه لم يكن فى حالة يستطيع معها ركوب دابة غير الفيل ، وقد ضعفت عينه ويده ورجله ، وكانوا كلما سألوه عن تدبير أمر الغلمان أو توجيه فوج منهم إلى مكان ما ، كان يجيب قائلا

« علم ذلك عند أرتكين فإن السلطان قد خوله هذا الأمر كما خوله للمقدمين ».
وأنا لا أرى شيئا ، وقد عجزت عن العمل فماذا تريدون منى » . وكان الغلمان
يتقاعسون عن واجباتهم . هذا هو حال الغلمان ، وأما الفرسان فكانوا
كالمتفرجين لا يحركون ساكنا والعدو يزداد قوة ساعة بعد أخرى بقدر
ما يزداد رجالنا فتورا . وكان الأعيان والمقدمون يبذلون أقصى الجهد مع
السلطان ، والسلطان رضى الله عنه يهجم على العدو هجمات شديدة ، وأصبح
واضحا لديه وضوح الشمس فى رابعة النهار أنهم سيخذلونه ، والعجيب أنه لم
تحدث فتنة فى هذا اليوم إذ لم يبق لدينا شىء . فإن العدو قد نهب كثيرا من
الجمال والأقمشة ، ودامت الحرب حتى وقت الصلاة ، وكنا قد قطعنا مرحلة فى
الطريق ، وكانت المسافة بيننا وبين المياه ثلاثة فراسخ . ونزلنا على شاطىء
النهر فى غير ترتيب مخذولين والجند جميعهم يائسون إذ تأكد لديهم أن سوف
يقع حادث جلل . وبدأ الهجانة خفية يتأهبون ويعدون الدواب القوية من
الجنائب ويفكرون فى الأمتعة والنقود ، وأخذ كل يودع صاحبه ، وكأن
القيامة قد قامت . واستولى اليأس على السلطان ٦٢١ ولم يكن له إلا أن يتجلد
فأذن للاستقبال عند صلاة العصر ، ودعا الأعيان واختلى بهم وتحدثوا
طويلا ، وقالوا « إن أمامنا مرحلتين لنبلغ مرو ، وعلينا مواصلة الحيطة حتى
ينتهى هذا اليوم . فإذا بلغنا مرو يمكن تلافى كل شىء ، أما الفرسان فإنهم لم
يفعلوا اليوم شيئا وكذلك الهنود وهم يثبطون عزائم باقى الجند ، وحينما يهجم
عشرة من التراكمة على خمسمائة منهم يولون منهم فرارا ، ولسنا ندرى ما ألم
بهم وجعلهم يولون هاربين مع أنهم هم الذين حاربوا فى خوارزم ، وكان
على غلمان السراى أن يبذلوا غاية الجهد فإنهم قلب الجيش لكنهم لم يفعلوا مع
ذلك شيئا » . فسأل السلطان بكتغدى : لماذا لا يبدى الغلمان بأسهم ؟ فقال :
« معظمهم بلا خيول ومن لديه خيل فخيله ضعيفة من قلة الشعير ومع هذا كله

فإنهم لم يقصروا اليوم ولقد عركت آذانهم حتى يجدوا ويجتهدوا قدر طاقتهم غداً » . ودار حديث منمق على هذا النحو . وعادوا . واختلى السلطان بأبي سهل الزوزني والوزير وقال لقد بلغ السيل الزبا فما الرأى ؟ فقال الوزير : كان الأولى ألا نأتى وكانوا يتقولون وكنت أصرخ ، وهذا أبو سهل شاهد عدل على ما أقول ، واليوم ليس من المصلحة فى شىء أن نعود وقد اقتربنا من مرو ، ويجب استدعاء بكتغدى فإن أبا الحسن عبد الجليل كان قد تجادل معه فى غلظة فى مراة حتى أبكاه ، ولم يتدارك الأمر بإرضائه . ثم إن قصة أرتكين قد أطارت صواب بكتغدى ، وهو تركى عظيم الشأن رغم أنه قد بلغ من الكبر عتيا ، ولو أنه قال للغلمان اقتلوا أنفسكم لفعلوا ؛ فإذا كان راضى النفس فإن الغلمان يقومون بما يأمرهم به ولا يكون للأعداء خطر ، ويجب كذلك تعنيف قائد الهنود » . فذهب رجل ودعا بكتغدى وحده فجاء ، واسترضاه السلطان وقال له « إنك منا بمنزلة العم وإن ما جرى فى غزنة مع رجالك ولم يتدارك أمره سيكون تداركه فى حضرتنا حين نكون هناك ، وسترى بماذا سنأمر ويجب ألا تقيم وزنا لأبى الحسن عبد الجليل فهو ليس كفأ لك حتى تشتكى منه ، وقد لقى جزاءه وسيرى أكثر منه ، وأنت الذى طلبت أن يكون أرتكين حاجبا لك لينوب عنك ٦٢٢ فإذا لم يعجبك سيره فإننا ننحيه» . فقبل بكتغدى الأرض وقال : « من أنا حتى يرفعنى السلطان إلى هـــذه المنزلة ويتحدث إلىّ على هذا النحو ؟ إن معاملة السلطان لى كانت دائما عطفـــا ورفقا ، وإن الكوتوال هو الآن أمير غزنة ولا يروق له أن يرى أحدا غيره هنـــالك فيعود الأمر إلى السلطان فى القصاص منه لتجاوزه علىّ ; وإنى كذلك لست عاجزا عن الانتقام منه بنفسى مشتعينا بدولة السلطان . ثم من هو أبو الحسن الكاتب ؟ لولا حرمة مجلس السلطان لرأى جزاءه ، وإنه لعار علىّ أن أعتب عليه . وأما أرتكين فهو كبير

العقل ويليق بالعمل ولا يستساغ أن يحل غيره محله . أما تهاون الغلمان فى واجبهم فلأنهم لا خيل لهم فلو رأى السلطان فليأمر بأن يعطوا مائتين من الخيول العربية الممتازة القوية حتى تسير الأمور على وجهها الصحيح ، . فقال السلطان هذا حسن يجب أن يعطوا الخيل الليلة . وكذلك نودى على قادة الهنود وعنفوا ، فقالوا إنا نخجل أن نقول للسلطان إن رجالنا جائعون وإن خيولنا هزيلة فإن أربعة أيام قد مضت ولم يجد أحدنا الدقيق والشعير : ومع هذا كله فإنا سنقاتل بأرواحنا ولن نقصر فى أداء واجبنا ، وسنقول لهم جميعا الليلة ما يجب . ثم انصرفوا . وبعد أن انصرم قليل من الليل دعانى أبو سهل ، وكان شديد الحزن والحيرة وقص علىّ كل هذه الأحوال ، ثم نادى الغلمان وقال حملوا النجائب الليلة النقود وملابس النوم ، إنه لم يحدث شىء ولكن لا بأس من الحيطة ، وقد أعدوا كل شىء أمامه على النجائب فلما فرغ من هذا قال لى إنى لشديد الخوف من هذه الأحوال . فقلت سوف يكون الخير والبركة إن شاء الله . ثم رجعت إلى خيمتى وأخذت الحيطة على هذا النحو . وكان السلطان رضى الله عنه ساهرا معظم الليل ، كان يعد العدة ويعطى الغلمان الخيول ويأمر بما يتبع فى أمر الخزانة وفى غيرها وكذلك كان يفعل القواد والمقدمون .

وصلوا صلاة الصبح ثم دقت الكوس وارتحلوا ، وكنت أرى السلطان وقد أحاط به خمسون أو ستون جمازة من الجنائب وثلاثمائة من الغلمان المدججين بالسلاح وإثنا عشر فيلا بالمهود ، وكلهم على أتم أهبة .

وسرنا هذا اليوم نصف فرسخ ، ثم علا ضجيج العدو ، وحملوا علينا ٦٢٣ من كل جانب ، ودارت رحى الحرب على أشدها ، ولم تظهر فى أية جبهة راية لطغرل أو بيغو أو داود ، فقد قيل إنهم فى الساقة ، وقد جعلوا فى مقدمتهم المحاربين الممتازين ، وهم من ورائهم مستعدون ، حتى إذا لحقتهم الهزيمة ولوا

الأدبار إلى حيث أمتعتهم . وكان اليوم رهيبا بحيث لم يستطع أحد من رجالنا أن يتقدم خطوة ، ومع ذلك فقد أبلوا بلاء حسنا إلى أن بلغنا حصن دندانقان في رائعة النهار . هناك وقف السلطان على ربوة وطلب ماء ووقف الآخرون كذلك ، وتجمع الأعداء بدورهم واصطفوا وكان يبدو عليهم الملل . وأطل كثير من الناس من جدار الحصن . وكانوا يدلون بآنية الماء فكان الجند يأخذونها ويشربون ، فقد كانوا عطشى وفى أسى . وكانت الأنهار الواسعة جافة كلها ، ولم يكن بها قطرة ماء . وقال السلطان اسألوا عن حوض ماء الدواب . فقالوا إن فى القلعة خمس آبار تكفى لسقاية الجيش كما أن بخارج القلعة أربع آبار ألقى الأعداء فيها الجيف وردموها وفى وسعنا أن نعدها فى ساعة واحدة . ومن ها حتى حوض المياه الذى حدثوا السلطان عنه خمسة فراسخ ، ولا يوجد ماء فى مكان آخر . وقالوا للسلطان ينبغى أن ننزل هنا فقد انجزنا اليوم عملا مثمرا وكان الزمام بأيدينا . فقال « ما هذا الكلام كيف يكفى الجيش الكبير سبع آبار أو ثمان فلنذهب رأسا إلى موضع الحوض . وكيف ننزل هنا » ؟ . فقد قدر علينا أن تقع الواقعة ، فما أن ذهبنا إلا ووقعت واختل النظام حينما سار السلطان . فإن غلمان السراى قد نزلوا من على الجمال وأخذوا يستولون على الخيل ممن كانوا يستضعفونه من العرب بحجة أنهم سوف يحاربون ، فاستولوا على كثير من الخيل ، ولما امتطوها اتفقوا مع الفرسان الذين كانوا قد استولوا ليلا على الخيول العربية والختلية ، وفجأة انضم ثلاثمائة وسبعون غلاما من أصحاب شارات الأسد إلى التركمان وأقبل الفارون من غلماننا أيام يورتكين وتماسكوا جميعا وأخذوا ينادون مستنهضين بعضهم بعضا « يا صاح »[1] ، وحملوا حملة شعواء على جيش السلطان واختلط الحابل بالنابل ، واختل النظام من كل جانب

---

(١) يار يار . وهو نداء كان معروفا لدى الفرسان والعيارين .

وولى رجالنا جميعا الأدبار . أما السلطان ٦٢٤ فقد بقى مع الأستاذ عبد الرازق أحمد حسن وأبى سهل وأبى النصر وأبى الحسن وغلمانهم . وكنت أنا وأبو الحسن دلشاد قد وقفنا صدفة هنالك فرأينا القيامة فى هذه الدنيا . وكان بكتغدى والغلمان يحثون السير فى حافة الصحراء على الإبل ، وكان الهنود ، منهزمين ، يسيرون فى ناحية أخرى ولم ير أحد الكرد والعرب وانعزل الفرسان إلى جانب آخر ، واختل نظام الميمنة والميسرة ، وكان كل رجل يقول نفسى نفسى ، وانقض الأعداء على أمتعتنا فكانوا ينهبون وقد واصلوا هجماتهم الشعواء ، والسلطان واقف ، فحملوا عليه فقاومهم بشدة ، وكان بيده حربة مسمومة يقضى بها على من يضربه فلا هو ينجو ولا دابته ، وكم من مرة اقترب منه مبارزو الأعداء فكانوا يصرخون فيشبعهم تقتيلا ويتقهقرون ، ولو أن ألف فارس قد عاونوا السلطان فى ذلك اليوم معاونة صادقة لكانت له الغلبة ، ولكن أحدا لم يعنه . ورأيت الأمير مودود رضى الله عنه قد وضع وجهه على قربوس السرج والسيف مصلت فى يده ، وظل يجرى بحصانه ويصيح فى الجند أيها الأنذال ليأت إلىّ جماعة من الفرسان . فلم يستجب أحد لندائه وعاد يائسا إلى أبيه . وقد أبلى الغلمان العرب أحسن البلاء مع السلطان ، وخاصة حاجب من رجال الأستاذ عبد الرازق ؛ كان غلاما فارع القامة وقد اشتبك مع تركانى فضربه برمح فى عنقه وألقاه أرضا ، فانقض عليه آخرون ونزعوا منه حصانه وسلاحه وأسلم الغلام الروح ، وانكسرت قلوب من حوله . وبرز التركمان والغلمان الأشداء وأوشك أمر خطير أن يقع (بقتل السلطان) فقال عبد الرازق وأبو النصر وغيرهما أطال الله حياة السلطان لا وجه للمقاومة أكثر من هذا ولا مفر من المسير . وقال الحاجب الجامه

دار (صاحب ديوان الألبسة) بالتركية إن السلطان قد يقع الآن فى يد العدو إذا لم يبادر بالسير وقد انفجرت مرارة هذا الحاجب حزنا حين بلغوا مرو الروذ .

وقد جد السلطان فى السير ميمما شطر حوض الماء ، وظهر له نهر جاف وكان كل من على الضفة الأخرى لهذا النهر قد وقع أسيرا ، ونجا من كان على هذه الضفة من البلاء . وقد عبر بى (أبى الفضل) النهر خادم خاص مع عشرة غلمان بأعجوبة ، ثم فروا وراحوا ، وبقيت وحدى . فجريت مع ٦٢٥ الآخرين حتى بلغت شاطىء الحوض فوجدت السلطان قد نزل هناك . وقد اتجه إلى هذا المكان الأعيان والمقدمون وأخذ الآخرون يفدون عليه وقد خيل إلى أنه قد يلبث هنا ويلم شعث الجيش . ولكن الأمر كان قد جاوز هذا الحد ، فإنهم كانوا يستعدون للرحيل وكانوا يرفعون الرايات ويبقونها مرفوعة حتى يسترشد بها من تخلف من الأعيان، ودام هذا الحال حتى صلاة الظهر فقد ظهرت أفواج التركمان الذين ظنوا أن السلطان قد يبقى هناك حتى يعيد الكرة عليهم . فركب السلطان مع أخيه وابنه وجميع الأعيان وغيرهم من وجوه القوم ، وجد فى السير بحيث تخلف كثيرون فى الطريق ، ويمم شطر القلعة وأخذ معه رجلين يدلانه على الطريق . وجاء التركمان فى أثره وكان فوج منهم يرعبون الناس حتى يتمكن الفوج الآخر من نهب الأمتعة ، وحين غروب الشمس بلغ السلطان ماء جاريا ، كان بحيرة كبيرة ، وقد وصلت هناك حين صلاة المغرب وكانوا قد أعدوا النجائب للسلطان ، وصمم على أن يسير على جمل لأنه كان قد ترك فى هذه المرحلة الواحدة ستة عشر حصانا لعجزها عن السير . وكان

يسير خلفه تركبه الحاجب ، وكان يجمع الخيول الثمينة المتخلفة . ولما بلغت هذا المكان وجدت فوجا من الرجال فذهبت إليهم ، فرأيت الوزير والعارض أبا الفتح الرازى وأبا سهل إسمعيل ؛ وكانوا يعدون النجائب فلما رأونى قالوا هات كيف نجوت ؟ فذكرت لهم ما لقيت من المشاق والأهوال ، فقالوا تعال حتى نذهب جميعا . فقلت إنى جد متعب ، وحينئذ صرخ رجل قائلا إن السلطان قد مشى ، فساروا على أثره وسرت على أثرهم ولم أر السلطان طيلة سبعة أيام قبل إقامته فى غرجستان . وسأذكر ذلك بالتفصيل .

ينبغى أن يمتد العمر بالرجل وأن تمضى عليه الأيام حتى يستطيع مشاهدة ما شاهدت . ظللت أسير فى الطريق حتى الليل ، فرأيت فيلتين ليس عليهما مهد ، كانتا تسيران على مهل ، وكان الفيال يعرفنى فسألته لماذا تأخرت ، فقال إن السلطان قد عدى الجزى ، وجعل لنا دليلا وها نحن نسير . فقلت من كان مع السلطان من الأعيان والوجوه قال : أخوه الأمير عبد الرشيد وابنه الأمير مودود وعبد الرازق أحمد حسن والحاجب أبو النصر ٦٢٦ وأبو سهل الزوزنى وأبو الحسن عبد الجليل وقائد الغزاة عبد الله قراتكين ومن خلفهم كبير الحجاب وكثير من غلمان السراى مشتتين ومن ورائهم بكتغدى مع غلمانه . وسرت مع هذا الفيال ، وكانت أفواج من الناس تصل متفرقة . وقد مررت فى الطريق وكان مليئا بما ألقى فيه من الدروع والجواشن واللاّم والأثقال . وفى السحر أسرعت الفيلتان فتأخرت عنهما ثم استرحت ، وكنت أرى من بعيد نار المعسكر ،

وفى رائعة النهار بلغت قلعة بركرد[1] وكان التراكمة قد تخلفوا هناك ، ولقيت صعابا جمة لكى أعبر نهر بركرد ، ووجدت السلطان قد اتجه شطر مرو فبقيت هناك مع جماعة من الأصدقاء ، وقد واجهنا كثيرا من البلايا والمحن ، وبلغت قصبة غرجستان راجلا مع نفر من الأصدقاء . وكان السلطان حين بلغها يوم الجمعة السادس عشر من شهر رمضان أقام يومين ريثما يبلغها من قصدها من الرجال .

وقد ذهبت إلى أبى سهل الزوزنى فوجدته فى المدينة يعد العدة للسفر ، فسألنى فى لهفة عن حالى . وقد وصل جماعة من رجالى وكانوا كلهم راجلين ، فاشتروا طعاما وأكلنا معه . ثم جئنا إلى المعسكر فلم أجد به غير ثلاث خيام صغيرة ، واحدة للسلطان ، والثانية للأمير مودود ، والثالثة لأحمد عبد الصمد أما الآخرون فكانت لهم مظلات من الكرباس ؛ وأما نحن فكنا فى حرج شديد . وبعد صلاة العصر رحلنا وكنا قرابة سبعين رجلا ، وسلكنا طريق غور : وارتحل السلطان على أثرنا فى منتصف الليل فبلغنا فى الصباح منزلا وجدت به أبا الحسن دلشاد ، وكان راكبا فرسا ، وقد أتيت كذلك بفرس اشتريته نسيئة ، واجتمعنا مع الأصدقاء . وقد قال لى مسعود الليث إن السلطان سأل مرارا كيف حال أبى الفضل وكان خائفا عليك . فذهبت لحضرة السلطان وقت صلاة العصر وكنت أنتعل حذاء ضيق الساق وقباء ممزقا ، فقبلت الأرض فضحك وقال كيف حالك ، إن مظهرك لطيف ،

---

(١) فى بعض النسخ « حصار كرد » وهذه الكلمة ليست واردة فى كتب تقويم البلدان وذكرت فى كتاب « حدود عالم » ص ٨٥ بركدر ، وفى جغرافية بارتولد « بركديز » وفى معجم ياقوت بروجرد .

فقلت إنى ببركة السلطان قد نجوت من الهلاك وإن لدى من نعم السلطان ملابس كثيرة .

وارتحلنا من هناك وبلغنا غور ونزلنا فى منزل بها . وكانت أفواج أخرى تفد ٦٢٧ علينا حاملة ماجد من الأخبار . وهناك رأيت من أصدقائى رجلا سجزيا شجاعا فسألته عن كل شيء وقد قال « إنه يوم سفر السلطان ويوم اشتد ساعد الأعداء وأخذوا فى النهب ، رأيت أبا الحسن الكرجى ملقى تحت شجرة يئن من جراحه ، فاقتربت منه فعرفنى وبكى ، فقلت ماذا بك ، قال لقد جاء التركمان ورأوا المتاع والجواد فصاحوا بى أن ترجل ، فشرعت فى النزول ثم ابتعدت عن الجواد فظنوا أنى أعاندهم لأنى أسير ببطء لشيخوختى فطعنونى بالرمح فى ظهرى ثم أخرجوه من بطنى وأخذوا الحصان ، وقد تحاملت على نفسى حتى بلغت هذه الشجرة وقد أوشكت على الموت ، هذا هو حالى فحدث به من يسأل عنى من الإخوان والأصدقاء ، ثم طلب ماء وبعد صعوبات جمة جئت إليه بكوز فيه قليل منه فشرب ثم اعترته غيبوبة فتركت بقية الماء بجانبه ومضيت ولم أعرف ما كان من أمره بعد ذلك ، وعلمت أنه مات فى تلك الليلة . ورأيت بين الصلاتين رايات تتقدم قيـــل إنها لطغرل وبيغو وداود . ورأيت ابن كاكو مقيدا على جمل ورأيتهم وقد أنزلوه وفكوا قيده ثم أركبوه جملا من جمال الأستاذ عبد الصمد التى استولوا عليها وأخذوه إلى طغرل ثم مضيت ولا أعرف كيف سارت الأمور بعد ذلك » .

وقد قصصت على السلطان ما سمعت ، وكان السلطان يسرع فى الارتحال من منزل إلى منزل وإذا بثلاثة من السعاة من عيوننا لدى الأعداء يصلون فى وقت واحد ، ومعهم الرسائل التى حملها أبو سهل الزوزنى إلى السلطان فقرأها وقال له يجب إخفاء هذه الرسائل فلا يطلع عليها أحد . فقال سمعا وطاعة

وأحضرناها إلى وأعطانيها فقرأتها وختمتها وسلمتها إلى حارس الديوان .

وقد جاء فى هذه الرسائل ما جرى من عجيب النوادر فى هذه الواقعة، فإن السلاجقة كانوا يحاربون بلا وعى ، وكانوا قد أبعدوا عنهم أحمالهم ستة عشر منزلا ، إذ كانوا يعدون العدة للفرار ، وكانوا يرسلون كل من عندهم من الفرسان لمواجهة جيش السلطان ، وهم يتوقعون أن جيشه سيردهم على أعقابهم مغلوبين منهزمين ، ولكن الأحوال أدت إلى أن يتفرق غلمان السراى من تلقاء أنفسهم حتى بلغ الأمر من الخطورة ما بلغ. وأعجب العجب أن قدوقع فى يد السلاجقة أحد أولاد الفقهاء وكان يعرف علم النجوم وتتلمذ على المنجمين وقـــد صح عندهم كثير من تنبؤاته ، فتنبأ لهم بأنهم يقيمون فى مرو وأكد لهم أنهم إذا لم يصلوا إلى إمارة خراسان ٦٢٨ فلهم أن يقتلوه وكان يقول لهم يوم الجمعة حين وقعت هذه الواقعة أن رابطوا ساعة أخرى حتى الظـــهر ، وتحققت لهم نبوءته. ففى تلك الساعة جاء الفرسان من غلمان السلطان ووقعت الواقعة وتم لهم ما تنبأ به وتراجع جيش السلطان ، فنزل المقدمون الثلاثة عن خيولهم وسجدوا لابن الفقيه وأعطوه فورا بضعة آلاف من الدنانير ، واتسعت آفاق آمالهم وساروا إلى حيث جرت المعركة فأقاموا خيمة ووضعوا بها التخت فجلس عليه طغرل، وجاء الأعيان جميعا وسلموا عليه مهنئين بإمارة خراسان وجىء بفرامرز بن كاكو فأحسن طغرل لقاءه ، وقال له لقد لقيت من المصاعب ما لقيت فطب نفسا فإن لكم إصفهان والرى . واستمر النهب حتى صلاة المغرب وكانوا يفرقون كل شىء على أتباعهم ، وأثرى المنجم من الصامت والناطق ، وجمعوا الأوراق وأدوات ديوان الرسائل ، وكان أكثرها قد فقد، وقد وجدوا بضع نسخ وعدة كتب وفرحوا لعثورهم عليها ، ثم كتبوا الرسائل لخانات تركستان وأولاد على تكين وامين الدولة ولجميع أعيان تركستان ينبئونهم بالفتح . وبعثوا مع المبشرين

علامات ديوان الرسائل (دواة خانها) وبألوية الجيش . وأما هؤلاء الغلمان الجفاة الذين خانوا العهد ، فقد أحسنوا إليهم كثيرا ، ومنحوهم إمارة الولايات والسرادقات وكل شيء . وأثرى السلاجقة أنفسهم فقد نهبوا مالا يحصى ، ولم يكن أحـــد يجرؤ على التحدث عنهم ، وكان الترك يقولون « إنا فعلنا هذا » . ثم إنهم أمروا بأن يساق المشاة المنهزمون من كل جنس صوب وادى آموى حتى يراهم الناس فى بخارى وفى تلك النواحى . وثبت أن موقعة دندانقان انتهت بهزيمة حاسمة . وأن السلاجقة قد غنموا مالا حصر له من الذهب والفضة والملابس والدواب ، وقد اتفقوا على أن يذهب طغرل إلى نيسابور مع ألف فارس ، وأن يستقر بيغو فى مرو مع الينالين . وأن يسير داود مع معظم الجند إلى بلخ حتى يستولى عليها وعلى طخارستان . وقد بينا ما جرى حتى هذا الوقت ، وبعد ذلك نذكر ما يجد من حوادث التاريخ ويجب أن يكون السعاة الآن أكثر اتصالا بنا .

ولما اقترب السلطان من قرية أبى الحسن خلف جاء المقدمون للتحية، ٦٢٩ وأصلحوا كثيرا من الأدوات ، من الخيمة والخركاة ومن كل مالا غنى عنه وأقام هنـــاك يومين حتى يستطيع الرجال إصلاح أحوالهم ، على قدر الطاقة ، وقد أحسن الغوريون لقاءنا وقدموا الهدايا وبدا السلطان هادىء الروع : وقد أمضى هناك العيد وكان عيدا حزينا . وعند صلاة العصر كنت فى الخدمة فقال لى السلطان ماذا ينبغى أن يكتب لخانات تركستان فى هذا الباب . فقلت بماذا يأمر مولانا؟ قال لقد كتب أبو الحسن عبدالجليل ومسعود الليث فى هذا الشأن نسختين ألم تقرأهما ؟ قلت لم أرهما وكلاهما يجيد الكتابة . فضحك السلطان وقال للموكل بالدواة (دواة دار) أحضر النسختين ، فأحضرهما وتأملت فيهما ، والحق أنهما قد راعيا جانب مولانا السلطان وأثنيا عليه ثم سطرا عدة سطور

معماة ، وكان عيبهما أنهما كتبا إنا كنا نزمع الرحيل إلى غزنة ، ولذلك تركنا الأمتعة والدواب والعدة فى دندانقان . وكان هذان الفاضلان يسخران من أبى سهل لأنهما كانا طامعين فى منصب رياسة ديوان الرسائل ، وكانا يتتبعان عثراته، وكلما حدث أمر تصعب الكتابة عنه ويتكلم السلطان فيه ، كانا يقولان لا بد من التحدث مع أبى سهل حتى يكتب فى هذا الأمر ، فقد كانا يعلمان أنه قليل الخبرة فى هذا الفن . وكان على أن أعمل فى ثبات وكنت كذلك . وقد قرأت النسختين وقلت حسنا ، فقال السلطان رضى الله عنه ، ولم يكن له نظير بهذه الدنيا فى معرفة دقائق الأمور ، ينبغى أن تكون خيرا من هذا لأن هذه معاذير وخانات تركستان ممن لا يخفى عليهم أمثال هذه الأحوال . قلت أطال الله حياة السلطان إذا كنـــا سنحتاج إلى الخانات فلا بد من الكتابة على وجه آخر لطلب العدة والمعونة . فقال نحن لا محالة محتاجون وسنرسل لهم رسولا بالرسائل والمشافهات حين نصل إلى غزنة ، أما الآن فيجب الكتابة إليهم بما حدث مع أحد فرسان البريد . قلت وإذا لا بد من أن نصدقهم الخبر حتى لا يعيبونا ، فإن رسل الأعداء سيبشرونهم ومعهم الشارات والأعلام كرسم التركمان قبل أن يصل رسولنا بالنبأ . فقال السلطان إنه كذلك ، أكتب نسخة ثم أحضرها لأراها، فرجعت وكتبت الرسالة هذه الليلة . ٦٣٠ وفى الغداة وفى منزل آخر . وقبل أن أبلغ منزل الشاكرية ، مثلت فى الحضرة واستلم الداوتدار الرسالة وقرأها . وقال السلطان حقا لقد كنت أريد هذا، إقرأ فقرأت جهارا وكان أستاذ الديوان حاضرا وكذلك جملة الندماء وأبو الحسن عبد الجليل ، وكانوا جلوسا كلهم : أما أبو الفتح الليث وأنا فكنا واقفين ، ولما فرغت من القراءة قال السلطان هذا ما كنت أريد . واستحسن الحاضرون الرسالة متابعة لقوله رغم أنها لم تحز رضا رجلين من الحضور . وقد أثبت هذه الرسالة هنا كما أثبت كتابات أخرى

كثيرة ، وإنى متقبل كل ما يقول القراء ، فإن قصدى أن أؤدى واجبى . وتحدثت بهذا الحديث قبلها للعلم .

نص الكتاب إلى أرسلان خان

« بسم الله الرحمن الرحيم . أطال الله بقاء الخان الأجل الحميم ، هذا كتاب منى اليه برباط كروان على سبع مراحل من غزنة ، والله عز ذكره فى جميع الأحوال محمود ، والصلاة على النبى المصطفى محمد وآله الطيبين ، وبعدفإنه لايخفى على الخان أن لله تقادير كالسيف البتار الذى لا يستطاع إدراك سيره ومضائه، ولا يستطاع تدارك ما يأتى به القدر ، وهذا هو سر عجز الإنسان فى كل وقت عن معرفة ماتلد حبالى الليالى ، والعاقل من يستسلم لأمر الله وقضائه ولا يعتمد على ماله من الحول والطول والعدة ، فيسلم أمره لربه ويعرف أن مايصيبه من خير أو شر إنما هو بإذنه ، وأن منه النصر وأنه ينصر ويعز من يشاء ، فإنه لو أنكر التوكل لحظة وسلك طريق التكبر والبطر يقع فيما لايمر بخاطر وما لا تصل اليه الأوهام ويسقط عاجزا . وإنا نطلب إلى الله تعالى ، فى رغبة صادقة ونية خالصة واعتقاد تام ، أن يعيننا ويأخذ بيدنا فى السراء والضراء والشدة والرخاء ، وألا يتخلى عنا ساعة بل لحظة ، وأن يلهمنا تقدير النعم وإدراك الشدائد ، لنشكر ولنصبر ولنستمسك بعروته الوثقى فإن النعمة تزداد بالشكر والثواب يحصل بالصبر إنه سبحانه خير موفق ومعين .

إن الخان قد اطلع على كل ما مر بنا منذ قرابة سنتين ، حين رفعنا علمنا على خراسان ، عام ٤٣١ نحب ومما نكره ، من اليسير والعسير ، وقد حفظ الخان العهد معنا فى الشدة والرخاء ، فإن شرط الود الخالص بين الأصدقاء هو أن لايخفى بينهم شيء صغر أو كبر . وقد بعثنا آخر كتاب مع فارس شبيه بالرسول من طوس على سبع مراحل من نيسابور ، وبينا فيه أننا أقمنا هناك مع الجند ، فهناك الثغور

بجوانب سرخس وباورد ونسا ومرو وهراة حتى نرى ما يقتضيه الموقف وماذا سيعمل هؤلاء الأدعياء الذين وقعوا على أطراف الوديان، وبعد سفر الرسول أقمنا ستة أيام ثم اقتضى الأمر أن نسير إلى جانب سرخس فلما بلغناها غرة رمضان وجدناها خرابا بلقعا بحيث كانت الذرة من الحشائش مثلا تشترى بدينار ولكنها لا توجد وبلغ الغلاء إلى درجة أن الشيوخ الكبار كانوا يقولون إنهم لا يذكرون غلاء فاحشا كهذا فى المائة سنة الماضية، كان المن من الدقيق يباع بعشرة دراهم إذا وجد، ولم يكن أحد يرى الشعير والتبن مما آذى الفرسان والجند كثيرا بحيث تعرض رجال خاصتنا مع مالهم من وافر الدواب والعدة لمصائب لا تحد، وهذا يبين إلى أى مدى من الضيق كان حال أتباعنا وصغار الناس عندنا. وقد بلغ الأمر إلى حد أنه كانه فى كل وقت وفى كل مناسبة لجاج وخصومات بين فرق الجند والسرائيين بشأن القوت والعلف والدواب، وكان هذا اللجاج يتعدى حدود القول إلى السيف، وأكد لى ثقاتى الذين أستشيرهم فى مهام الأمور، تصريحا وتلميحا، بأن الصواب أن نسير إلى هراة فإن العلف هناك وفير، وهى قريبة إلى كل ناحية: هى واسطة خراسان، وكان الخير فيما قالوا ولكنا عاندنا وأصررنا ولأن الموقف كان لا يزال حرجا مع الأدعياء فقد رأينا أن نذهب إلى مرو حتى ينجلى الموقف، ولأن القضاء كان يسوقنا وكان لابد لنا من معاناة ما وقع، فقد سرنا إلى مرو وكأن القلوب شاهدة على أن السير إليها ليس من الصواب فى شىء. وكان الطريق غير ما كنا نتوقع من الافتقار إلى العلف والماء ومن شدة الحر وعورة المسالك، وحدثت مشاحنات خطيرة بين فرق الجيش فى المراحل الثلاث أو الأربع التى قطعناها بشأن وقت القيام والعلف والدواب والغذاء وغيرها وكان ٦٣٢ الأعيان المقامون فى القلب والميمنة والميسرة وغيرها من المواضع يعملون على تهدئة هذه المشاحنات، ولكن الأمر كان قد تجاوز الحد، فلم تخمد الفتن.

وازدادت كل يوم بل كل ساعة ، حتى كان يوم كذا عند صلاة العصر حين ارتحلنا من مرحلة كذا قاصدين مرحلة كذا إذا بفوج من الأعداء يبرز على حافة الطريق فانقضوا علينا وأرادوا أن ينهبوا شيئا من عندنا ، فردهم رجالنا ولم يمكنوهم من شيء ، وقد استمرت هذه المناوشات حتى صلاة المغرب ، وكان الجيش مستعدا للمغالبة والقتال ، ولكن الحرب لم تكن شديدة لأن الأعداء كانوا يتجنبون أن تصيبهم السنان ، فلم يحدث اشتباك ولو أخذ الجند الأمر على محمل الجد لطارد المبارزون الأعداء من كل جانب. وفى المساء نزلنا فى محلة كذا ، ولم يكن فى الجيش فتنة ، ولم يقتل كبير من القادة ، وكنا نعد العدة من الدراجة والطليعة حتى لانفاجأ فى ظلام الليل ، وعلى هذا النحو سارت الأمور فى الغداة حتى اقتربنا من مرو . وفى اليوم الثالث تحرك الجيش وهو أكثر استعدادا وأتم تعبئة على الرسم فى مثل هذه الأحوال ، وقال لنا الأدلاء إن المياه الجارية على على مسيرة فرسخ واحد من قلعة داندنقان ، فلما بلغنا هذه القلعة فى رائعة النهار وجدنا الأعداء قد ردموا الآبار التى عند المدخل وجعلوها قبورا ، حتى يستحيل النزول إلى مياهها . فصاح الرجال من قلعة دندانقان بأن بالقلعة خمس آبار تكفى لمد الجند بالماء ولو نزلنا بالقلعة فإن أهلها ينظفون الآبار الكائنة خارجها بحيث يصبح الماء متوفرا ولا يحدث أى خلل ، وكان اليوم شديد الحرارة وكان الصواب أن ننزل بالقلعة ، ولكن لم يكن من وقوع القضاء مفر فسرنا من هنالك وابتعدنا ٦٣٣ أكثر من فرسخ فوجدنا أنهارا جافة ، وأحواضا صغيرة ناضبة ، وحار الأدلاء الذين ظنوا أن هناك ماء ، فإن أحدا لايذكر أنه رأى هذه الأنهار جافة ، فلما افتقدنا الماء ولم نجده استولى الهلع على الجند واختل النظام وعدا علينا الأعداء من جميع الجهات عدوانا شديدا ، بحيث اقتضى الأمر أن نخرج بأنفسنا من القلب لنتقدم الجيش ، وحملنا على العدو حملة صادقة ، وكنا نحسب أن كراديس الميمنة والميسرة لم تزل فى مواضعها ، ولم

نكن نعلم أن فوجا من غلمان السراى من ذوى النجائب قد ترجلوا وخطفوا
الخيول من كل من قابلوه من الفرسان ليركبوها ويتقدموا للحرب ، وقد بلغ
اللجاج فى الاستيلاء على الخيل وإنزال بعضهم بعضا عنها إلى القتال عليها والتخلى
عن أماكنهم فى الصفوف ، واغتنم الأعداء هذه الفرصة ، وتحرج الموقف ، ولم
يكن بد من ترك آلاتنا وأمتعتنا فضاعت واشتغل الأعداء بها ، أما نحن فسرنا
فرسخا حتى بلغنا حوض ماء كبير راكد ، وهناك جاء أولياؤنا وحشمنا من
الأخوة والأولاد والعظماء والخدم بسلام ، بحيث لم يصب أحد من الأكابر
وقد أشاروا علينا بوجوب المسير ، لأن تدارك ما كنا فيه مستحيل ، فاستصوبنا
هذا الرأى وسرنا حتى بلغنا قصبة غرجستان فى اليوم الثامن فأقمنا
بها يومين حتى وصل غلمان السراى وجملة الجند ، ولم يتأخر عن اللحاق بنا واحد
من أصحاب الشهرة . وتخلف جماعة من الرجالة وصغار القوم الخاملين وسرنا
من غرجستان عن طريق رباط بزى وجبال هراة وجانب غور فنزلنا فى
قلعة أبى العباس أبى الحسن خلف وهو من عبيد الدولة ومن مقدمى
الغور ومن هناك استرحنا ثلاثة أيام ومن هناك بلغنا هذا الرباط
(رباط كروان) وهو على ستة فراسخ أو سبعة من غزنة ، ورأينا أن نكتب إلى
الخان ولو أن كتابتنا ستقلق باله فإن ذلك أفضل من أن يسمعه من غيرنا ، فالذى
لاشك فيه أن الأعداء سيبالغون فى روايتهم ويطنبون فى وصف الحادث ، فإن
هذا الخلل الذى أصاب جيشنا كان مقدرا وقوعه ، وإذا كان فى العمر بقية فإنا
نتلافى هذه المحنة ، بفضل الله تعالى وحسن صنيعه ٦٣٤ وتوفيقه ، والخان بما
أوتى من حكمة العقل وهو فريد عصره فى التجارب ، يعرف أن هذا هو حال
الدنيا ما وجد بها ملوك وجيوش تتحارب ، وقد لقى النبى محمد صلى الله عليه
وسلم من كفار قريش يوم أحد مالقينا من انكسار ولم يؤثر هذا فى نبوته ، وقد

تم له ما أراد بعد ذلك ، والحق حق أبدا ، وإذ نحن بحمد الله كالقطب فى صدر ملكنا ، والدنيا مقبلة علينا ، وأولادنا وأولياؤنا وحشمنا نصرهم الله كلهم سالمون فإن تدارك هذه المحنة فى سرعة قريب ، فلدينا من وفير الآلات والعدد مالا يحصى ، وخاصة إن لنا صديقا حليفا كالخان الذى تعهد بألا يبخل علينا بشىء من الجيش والرجال ، والذى إذا التمسنا منه أن يشق على نفسه فإنه لا يضن علينا بجهده ، حتى يبعد عنا ماتكبنا الدهر به ونستريح ؛ متعنا الله بصداقته وإخلاص قلبه بمنه وفضله . وإنا نرسل هذا الكتاب مع فارس سريع وحين نبلغ غزنة سالمين نوفد رسولا من المعتمدين فى مجلسنا ، يحمل اليكم منا رسالة أكثر إيضاحا نذكر فيها ما أغفلنا ذكره ونتحدث فيها بما يجب أن نقول . وإنا فى انتظار رد هذه الرسالة بأسرع ما يمكن ، حتى نقف على رأى واعتقاد الخان فيما نحن فيه لتتجدد صداقتنا ولنرفل فى حلة السعادة ، ويكون هذا عندنا من أعظم المواهب باذن الله عز وجل » .

* * *

وحين عدنا إلى غزنة كان السلطان والناس جميعا فى فزع من هول هذا الحادث ، ولم يكن لهذا السلطان العظيم رحمه الله بقية من عمر ، وقد أردت حين كتبت هذا الكتاب أن أجعل هذه الهزيمة فى صورة أجلى ببيان هذه المعاذير ، وكان من المناسب أن ينشد أحد الشعراء بعض أبيات من الشعر ، لتكون الرواية منظومة ومنثورة ، فلم أجد أحدا من ٦٣٥ شعراء العصر الذين عاشوا فى ظل هذه الدولة فى هذه السنين العشرين غير الفقيه أبى حنيفة أيده الله ، وقد أنشد وأجاد وبعث بشعره إلينا « وكل خير عندنا من عنده » . وما بقى أمر أبى حنيفة الشاعر على هذه الحال وقد أخطأ فإلى فقد لقى عطفا كثيرا من السلطان أبى المظفر إبراهيم أطال الله بقاءه إذ أمده بالصلات

الغالية وفوض إليه شغل إشراف ترنك ولا ينبغى الاستخفاف بترنك فإنها كانت أول ولاية لخوارزمشاه النوشتاش والقصيدة هى :

« قصـــيدة »

إذا عدل السلطان (عن اللهو) فى حفلات الرياض يستطيع فى يسر أن يقبض على أزمة الملك ، الملك كالوحش وأنا على يقين من أنه لا يأتلف مع أى إنسان . العدل قيده ، فإذا ربطته به يصبح أليفا سهل القياد . من الذى يقول لك لا تشرب الخمر ؟ إشرب وخذ نصيبك من طرب السكارى ، واشرب اللبن ، ولكن لا تشرب بحيث لا تسلو الشراب ، كالرضيع لا يسلو ثدى أمه ، ماذا يعرف الملك عن الطعام والمنام ؟ علم هذا كله أطفال المدارس . إذا كان الملك يقظا فى سياسته ، فإنه ينقل العدو مقيدا من البستان إلى السجن ، العدو كالثعبان ، يجب اقتلاع أنيابه ، فلا تأمن له إذا شئت سلامة أسنانك ، واحذر العدو حين يصبح صديقا ، واحذر الموبد بعد إسلامه . الشكر عنوان كتاب النعمة ، والكتاب يقرأ من عنوانه ٦٣٦ . إذا ارتدى الملك رداء الزهو ، يمزقه العدو حين يتمكن من جيبه ، ومن رأى ذل ركوب الإبل والأقتاب لا يغره عز الفيلة والمهود . إن الرجل الجاد لا يهدأ : فإن عجلة الزمان تدور بالأعمال . إن المأمون ، وهو من خلفاء المسلمين ، ذاك الذى لم يشاهد العربى أو الدهقان خليفة مثله كان يرتدى جبة من الخز وظل يلبسها حتى رثت وبليت فعجب الندماء من ذلك وسألوه عن سببه فقال لهم يبقى من الملوك ، عربا وعجما ، ذكرهم لا الحرير والكتان . والملك الذى يجلس على الخز والحرير وينام عليهما يثقل عليه لبس القفطان ، والملك الذى تأخذه بالدرع والحراب والرماح لا يستطاع تعويضه بماء الحوض والريحان . إذا لم يحتفظ الملك بحب جنده فإنهم يصبحون فى ميدان

الوغى وكأنهم فى الإيوان ، وإنه ليرى الهوان ممن أذلهم فى الإيوان إذا كان لهم عمل فى الميدان . ولو أن الجند يشد من عزمهم المال ، لكن يجب تشجيعهم أيضا بالطعام . راغ الطبيب فى صحتك يعن بك فى مرضك ، علاجا ودواء . وإذا أردت الأمان من شر الأقران ، فلا تعرض عن القرآن واتل آياته . الزهد مقيد بالدين ، والعلم بالطاعة ، والمجد بالجود ، والشعر بالديوان . يقوى الرجل بالجسم السليم، والخلق بحسن السيرة ، والدين بالسريرة يقوى ، والملك بالسلطان مسعود ، أيها السلطان الفاضل ، يا أسد الميدان الذى عقدت السعادة معه عقدا أبديا ، يا من يزدان دواما بك الزمان زينة الروض الزاهر بالربيع ، إذا أراد ذكى أن يدعو إلى نبوة فإنه ان يجد خيرا من كفك برهانا على صدق دعوته . قوة الإسلام ونصرة الحق ٦٣٧ كلاهما فى حاجة إلى النبوة وإلى حجة الإيمان . إن لك اليد الطولى واللسان الفصيح وكان لموسى بن عمران واحدة منهما. الحمد لله الذى رزقنى نعمة لقائك ثانية فى هذا الإيوان المبارك. وبعد أن بلغت دار ملكك سالما فإنا لا نخاف إذ مات أى رجل! يقال فى المثل إنه لا ينقص قدر الرجل فقدان الذخيرة وقلة الأسباب مادام حيا، وليس ماحدث فى خراسان جديدا ، هكذا كان حالها مذ كانت خراسان. ملك ربك أوسع من ملكك أليس الخراب أعظم قسم فى ملك ربك ، وإذا كان العدو قد انتزع منك بعض ملكك ألم تأخذ الجن من قبل تخت سليمان ؟ وإذا أصابك الضر من أعدائك ألم يصب المشترى من كيوان ؟ فإن المطر الذى هو رحمة الله على الأرض ، تسببه الصواعق ، وإذا أمعنت النظر تجد بلاءنا منا ، كمثل الفأس مع الشجرة والمبرد مع الحديد . أعد الكرة وجهز الخيل والسلاح لاسيما وقد ولى الشتاء وأقبل الربيع ، وإذا صفا قلبك للجيش والرعية أتاك من طريق واحد رستمان[1] ، فإنك سيد ملوك زمانك وأنت مختار ربك بينهم لهذه المكانة

---

(١) رستم بطل الفرس فى تاريخهم القديم .

لقد ريعت الأسود والتماسيح والعقبان تحت الماء وفى جوف الصحراء من هذا النبأ المحزن ، لن يعتمد أحد أتباعك عليك ويتمسك بك مالم تستضفه على دم العدو . لو اغتم لهذه الحال ملاك أو حزن عليها آدمى ما تعجب من هذا انسان ، لن يشرب الورد ولن تضحك السماء مالم تأمر هما بذلك . أنت ملك إيران ، هكذا كنت وستكون ، ولو أن الصعلوك اغتر بعصيانه ، لأن هذا الذى ذهب يحارب الله عن جهالة رمى بالسهم الدامى وخذل ، وغرق فرعون فى النيل يوم ذهب يسير خطوات فى أثرها مان . فثق بأن قاعدة ملك الناصرى واليمينى هى أحكم قواعد الدنيا وأقواها . ولسوف يذهب الأعداء مثخنين بالجراح من هول سيف الظهيرى ٦٣٨ إذا لم يقو الجواد على حملك فإن الفيل يحملك كما حمل رستم المعروف، وإذا كان عبدك قد أساء فإنه لم يقصد الإساءة فإن سير الزمان رهن بالحاجة للخبز والكساء ، فإذا قبلت عذر الزمان فهذا بك جدير فقد ندم الزمان على ما كان . لك الجوهر الفرد فى بحر ملكك ، والآخرون يكدون بأرواحهم بحثا عن المرجان. لك تاج الذهب والدولة العظيمة ،وأعداؤك يشقون فى طلب الخبز. الورد لا يضن عليك برائحته عندما يجب التحدث عن شوك أم غيلان . أولى بك ألا تشغل قلبك عن العمل بعد أن ذاع هذا الحديث فى العالم كله .لا أقول الشعر بل أقول كلاما فيه من حكمة لقمان . وجلى أنى لم أذكر فى شـــعرى الخط والخال والزلف ونجل العيـــون . لست أمدح السلطان طامعا فى شىء فإنه يعرف أن جزائى عن مدحه محفوظ فى الدنيا وفى الآخرة . إن فى هذا الرأس المستدير كالكرة شيئا من الهمة ولذا انحنى ظهرى فى الشباب كالصولجان . أيها السلطان زاد الله فى عمرك كل مانقص فى زحفك من العتاد . لا أستطيع أن أتفوه بمديح أحد غيرك فقد حييت بك وواجبى الظفر بالاسم الطيب فعش سعيدا وانثر الذهب والفضة ، واحفظ الملك . وكن أنت الآمر الناهى ما أنارت

الشمس الفلك ، كما يلمع الكأس الذهبي فى الحوض ، وليكن وجهك موردا نضرا ، وليكن العدو قربانا لسيفك .

* * *

ولو أن الحديث يطول بهذا الشعر ، ولكن كلاما بهذه الصنعة وبهذ المعنى هو كالتاج المرصع فوق الرؤوس ، وإنه لمن المؤسف أن يموت هذا الرجل الفاضل وكان جديرا بطول العمر . وإنى إذ فرغت من هذا أعود إلى ما كنت فيه من سرد التاريخ « والله المسهل بحوله وطوله » .

* * *

وقبل أن يرحل السلطان من رباط كروان جاء رجل من معتمدى أبى على كوتوال القلعة ٦٣٩ ومعه مظلتان وراية كلها سوداء ورماح قصيرة كلها فى أغلفة من الديباج الأسود مع مهدى فيل وبغل وآلات أخرى ، وهذه كلها كانت قد فقدت ، وكذلك جاء بأثواب من القماش لم تمس وأشياء أخرى أرسلها أبو على من تلقاء نفسه ؛ ولا شك أن هذا التصرف حاز رضا السلطان وكذلك بعثت كل من أم السلطان وحرة الختلية وعمات السلطان الأخريات وخالاته بمعتمدين من قبلهن يحملون أشياء كثيرة ؛ كما أرسل أهل رجال الحاشية والجند لذويهم من كل شيء ، فقد كانوا فى حاجة ماسة ، وخرج أهل غزنة للاستقبال وكان السلطان شديد الخجل ، ودخول جيشه فى غزنة هذه المرة لم يكن مشابها لدخول أى من السلاطين والجيوش إلى هذه المدينة من قبل ، ولكن يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد . دخل السلطان غزنة يوم السبت السابع من شوال ونزل فى الجوسق ، وقد رفهوا عنه قائلين إن الدنيا قلب وإن تلافى الهزائم ممكن ما دام السلطان حيا ، ولكن حقيقة الأمر أن الهزيمة لم تكن خافية عليه ، فإنه كان يمر يوما فى صحراء غور وفى ركابه

جماعة كأبى الحسن عبد الجليل وقائد الغزاة عبد الله قراتكين وغيرهما ، وكان هذا السيدان يتحدثان دائما مع السلطان ويواسيانه قائلين : إن هذه الواقعة قد فاتت وهى لم تكن بسبب قوة العدو ولكنه قضاء الله والظروف الأخرى التى لا تخفى ، وحين يبلغ السلطان عاصمة ملكه فى سلام يمكن أن تأخذ الأمور لونا آخر ، وها هو عبد الله قراتكين يقول إذا أمر السلطان فإنه يذهب إلى الهند ويحضر عشرة آلاف من مغاوير الفرسان يستطيعون الاستيلاء على العالم ويأتى بفرسان آخرين مجهزين ثم يسير بهذا الجيش لقتال عدو عرفت حيله الحربية كى يعيد الأمر إلى نصابه ، وكان أبو الحسن والآخرون يتحدثون على هذا النحو ، فالتفت السلطان إلى الأستاذ عبد الرازق وقال : « ما هذا الهذيان الذى يقولون لقد أحرزنا الملك فى مرو وضاع منا الملك فى مرو » ، وكلام السلاطين لا يؤخذ على محمل الخفة أو الصغار وخاصة هذا السلطان الذى كان نسيج وحده ؛ وقد أراد أن يرمز بقوله هذا إلى أن والده السلطان محمود ملك خراسان فى مرو حين غلب السامانيين وفى مرو ضاعت خراسان منه . وهذه القصة من النوادر وما أعجب أحوال الدنيا فإن السلطان الراحل (محمود) قد جاء ليجعل أمر العراق والرى فى عهدة الأمير مسعود رضى الله عنه ثم يرجع على أن يقيم مقامه على إمارة ٦٤٠ خراسان الأمير محمدا ، ولكن الله تعالى لم يرد ذلك وقضى بغيره .

وقد كتبت هذه القصة حتى يعلم كل فرد كيف كانت هذه الأحوال ، ليفيد منها القراء ويعرف المحققون أخبار التاريخ ولا بد لى من أن أبين كل ذلك فى كتابى هذا .

قصة الأمير منصور بن نوح السامانى

قرأت فى أخبار السامانيين أنه حين مات الأمير نوح بن منصور فى بخارى أقيم على العرش ولده وولى عهده أبو الحارث منصور ، وقد اطمأن إليه الأولياء والحشم ، وكان شابا جميل الطلعة شجاعا فصيحا ، ولكن كانت

به رعونة الشباب إلى حد أن كانوا يخافونه جميعا ، وكان جلوسه بعد أبيه في رجب سنة سبع وثمانين وثلاثمائة (٩٩٧) ، فأدار الملك في مهارة وقوة سياسة ، وجعل بكتوزن قائدا في نيسابور ، خلافا لما كان يرام السلطان محمود حينما كان في بلخ وعارض في تفويض قيادة نيسابور إلى بكتوزن ، وكان أمير خراسان يخطب ودهما معاً ولكنه كان أكثر ميلا لبكتوزن ، فلما وقف السلطان محمود على جلية الأمر أخذ في التأهب لقتال بكتوزن ، فخاف هذا وشكا لأمير خراسان الذي سار من بخارا قاصدا مرو ومعه جيوشه وفائق الخاصة ؛ وكانوا يريدون القضاء على هذا الخلاف بسلام ، فظلوا في مرو عدة أيام ، ثم عادوا إلى سرخس حيث استقبلهم بكتوزن بجيش كثيف ، ولم ير من أمير خراسان ما كان يتوقعه لأنه كان أكثر ميلا إلى جانب السلطان محمود ، فأسر إلى فائق بأن هذا الأمير حدث وهواه مع السلطان محمود مما زاد في قوته ولا بقاء لي ولا بقاء لك ، فقال فائق إنه كما قلت وإن هذا الأمير مستخف بنا ولا يقدر حق الخدمة وإنه لشديد الميل إلى محمود ٦٤١ وأخشى أن يسلمني وإياك اليه ، كما سلم أبوه أبا علي سيمجور إلى سبكتكين والد السلطان محمود . وقد قال لي يوما « لماذا لقبت بالجليل ولا جلال فيك . » فقال بكتوزن الرأي أن نعزله عن الملك وأن ننصب بدله أحد أخوته . فقال فائق لقد أصبت فهذا هو الرأي السديد وأخذا يعدان لهذا الأمر .

وذات يوم ركب أبو الحارث من سراى رئيس سرخس التي كان قد نزل بها ثم سار إلى الصيد ، وكان فائق وبكتوزن قد نزلا على حدود سرخس وضربا خيامهما هناك ، فلما رجع من الصيد مع مائتين من الغلمان قال له بكتوزن . لعل الأمير يسره أن ينزل بخيمتي فيتناول شيئا وهناك حديث بشأن محمود . فقال حسنا ونزل ، فانخدع لطيش شبابه وقلة تبصره ، فنزل بخيمة بكتوزن : فإن القضاء كان قد حم ، فلما اتخذ مكانه في المخيم سمع جلبة فأساء الظن وظهر عليه الخوف ، لكنهم أحضروا القيد فورا وقيدوه ، وكان هذا يوم الأربعاء الثاني عشر من صفر سنة تسع وثمانين وثلاثمائة ،

وبعد أسبوع سملوا عينيه وحملوه إلى بخارى ، ولم تزد مدة حكمه عن تسعة عشر شهرا ، وبعد أن ارتكب بكتوزن وفائق هذه الفعلة الشنعاء زحفوا إلى مرو فوأقاموا الأمير أبو الفوارس عبد الملك بن نوح ، وكان حدثا فأجلسوه على العرش ، وجعلوا أمور الملك فى يد سديد بن الليث فأخذ فى تدبيرها ، ولكنه كان خائفا وجلا . ثم وفد أبو القاسم سيمجور مع جيش عظيم ولقى عطفا وترحيبا ، ولما بلغت هذه الأنباء السلطان محمود اشتد غضبه لما حدث للأمير أبى الحارث ، وقال « أقسم بالله لو رأيت بكتوزن لاقتلعن عينه بيده » ثم زحف من هراة وجاء مرو الرود مع جيش جرار ونزل بإزاء هؤلاء القوم كالأسد الهائج ، ولما اشتد التقارب بين الجيشين واتخذ كل منهما حيطته سارت الرسل بينهما من الأركان والقضاة والأئمة والفقهاء وطالت المفاوضات حتى استقر الرأى على أن يكون بكتوزن سپهسالار لخراسان ويمنح ولاية نيسابور مع الولايات التى تتبع السپهسالارية وأن تكون ولاية بلخ وهراة للسلطان محمود وتعاهد الفريقان على هذا واستقر الرأى بينهما ورضى السلطان محمود به وتصدق بكثير من المال لإبرام الصلح على هذا النحو دون إراقة دماء . وفى يوم السبت لأربعة أيام بقيت من جمادى الأولى سنة تسع وثمانين وثلاثمائة (٩٩٨) أمر السلطان محمود بدق الكوس ٦٤٢ وجعل أخاه الأمير نصر على الساقة ، ثم سار بنفسه . وقال دارا بن قابوس للسديديين والحميديين وغيرهم من أصناف الجند : لقد كان غبنا فاحشا أن يفوتكم محمود فاذهبوا الآن واخطفوا ما استطعتم من أمتعة ، فسارع الناس لحرصهم على الذهب والثياب دون إذن أو رضا من قادتهم وأخذوا فى نهب أمتعة محمود وجيشــــه . فلما رأى الأمير نصر ذلك تقدم بشجاعة وحاربهم وبعث بالفرسان ليطلعوا أخاه السلطان على الأمر فعاد على الفور وحمل على المعتدين وهزمهم ودامت الاضطرابات يومين فى المعسكر وكان الرجل لا يعرف أخاه فى حومة الوغى واسترد السلطان وجيشه كل ما كان

فى يد المعتدين ، وولى أمير خراسان الأدبار إلى بخارى مهزوما مدحورا .
وقال السلطان محمود : إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، إن
هؤلاء القوم قد عقدوا معنا العهود والمواثيق ثم نقضوها فلم يرض الله بهذا
ونصرنا عليهم لأنهم غدروا بنجل مولاهم على هذا النحو ، فقد حرمهم الله من
توفيقه وهداه وسلبهم الملك والنعمة ومنّ بهما علينا . وتوفى فائق فى شعبان
هذه السنة وفر بكتوزن من وجه السلطان محمود إلى بخارى ، وجاء أبو القاسم
سيمجور لاجئا . وأغار من ناحية أخرى إيلك أبو الحسن نصر على من
أوزكند فى غرة ذى القعدة من هذه السنة وجاء إلى بخارى يتظاهر بالطاعة
وتقديم العون . ثم إنهم قبضوا ذات يوم فجأة على بكتوزن مع كثير من المقدمين
وقيدوهم ، وتوارى أمير خراسان لكنهم قبضوا عليه مع جميع أخوته وأقاربه
وساروا بهم فى المحامل صوب أوزكند ، فدالت على هذا النحو دولة السامانيين ،
وظفر السلطان محمود بإمارة خراسان بسرعة لم يكن يتوقعها . وقد أتينا بهذه
الحكاية ليتبين منها مغزى حديث السلطان مسعود رضى الله عنه ولتكون
عبرة فإن فى أمثال هذه القصة فوائد للناس .

* * *

ولما أدرك السلطان مسعود أن ليس فى الحزن جدوى أقبل على اللهو
فأخذ يشرب ، ولكنه كان متكلفا . وأطلق سراح نوشتكين نوبتى ، ثم
خرج من السراى وجلس مع ابنة ٦٤٣ أرسلان جاذب ، ومن ثم بعث بنوشتكين
إلى بست مع جيش قوى من الفرسان والرجالة ليكون شحنة فيها وفوض
اليه أمر تلك النواحى ، كما أوفد مسعود بن محمد الليث رسولا إلى أرسلان
خان يحمل كتبا ومشافهات بشأن طلب المدد وتوثيق العهود ، فذهب من غزنة
عن طريق بنجهير يوم الاثنين الرابع والعشرين من شوال . ووصلت رقاع
معماة من صاحب بريد بلخ أميرك البيهق . فحلت رموزها وقد جاء فيها أن
داود جاء هناك على أبواب بلخ مع جيش جرار ظانا أن المدينة ستسلم إليه فى

يلسر ... وكنت قد مهدت كل شيء واستقدمت العيارين من الريف وقد ترك والى ختلان المدينة خالية ولجأ إلينا لأنه لم يستطع المقام هناك . والآن وقد اتفقنا جميعا والحرب قائمة والعدو يناوشنا كل يوم وقد بعث إلينا وسنوا لا تتكن تسلمه المدينة وتذهب لشأننا ، فأجيب بغلظة وأريناه حد السيف فعاد بخفى حنين ، فلعل مولانا يرى أن يرسل إلينا فوجا من الجيش مع قائد محنك من غزنة حتى نحافظ على هذه المدينة فإن خراسان كلها مرتبطة بها . ولو أن الأعداء استحوذوا عليها لذهبت ريحنا إلى الأبد » . فاختلى السلطان مع الوزير والعارض وأبى سهل الزوزنى وكبير الحجاب وعرض عليهم الرسالة فقالوا : « لقد أحسنوا صنعا بالمحافظة على تلك المدينة وأميرك هو الذى حماها رغم كل الأزمات التى حدثت فى هذه الفترة ولا بد من إرسال المدد لتبقى بلخ فى حوزتنا فإن الأعداء لو استحوذوا عليها تضيع على أثرها ترمذ وقباديان وطخارستان » . وقال الوزير : « إن ما كتبه أميرك البيهقى ليس حسنا لأن ما حل بخراسان لن يتدارك إلا بذهاب السلطان نفسه إليها ولن تستقيم الأمور بمحافظة شرذمة من الجند على أسوار المدينة لأن العدو تصله الإمدادات وفى بلخ كثير من أهل الفساد والشر والفتنة وليس لأميرك أى مدد هذا ما أعرفه والرأى لمولانا » . فقال أبو سهل الزوزنى : « إنى على رأى الوزير كذلك فإن أميرك يزعم أن أهل بلخ يدينون له ٦٤٤ بالطاعة كما كانوا من قبل ، ولو تقرر إرسال جيش إلى هناك لوجب ألا يقل عدده عن ألفى فارس لأن عدده لو قل عن هذا لكان كالماء المنسكب تبتلعه الأرض ، هذا وقد ذهب الرسول إلى أرسلان خان والرأى عندى التريث فى مثل هذه الأحوال لنرى ماذا يعمل الخان وعلينا من ناحيتنا أن نعد العدة ، فإن شاء الخان معونتنا فسيفعل فى إخلاص ويبعث بالجيوش إلينا وحينئذ يسير السلطان من هنا وتتحد الجيوش ويتسق العمل ، وإن لم يستمع الخان إلى طلبنا وماطلنا ولم يرسل جيشا فحينئذ نعمل حسب ما تقتضيه الظروف ، أما إرسال جيش للمحافظة على بلخ فليس من الصواب فى شيء » . وقال السپهسالار وكبير الحجاب وسائر الأعيان : « إنه لكذلك

ولكن لا بأس من إيفاد قائد مع قوة إلى طخارستان فإنها فى حوزتنا ولو أنهم استطاعوا المحافظة على بلخ فهذا خير وإن لم يقدروا على ذلك فلا ضير ، ولو أننا لم نرسل إليهم جيشا ليئس الخراسانيون كافة رغبة وجندا من هذه الدولة . » ثم استقر الرأى على الإسراع بإرسال التونتاش الحاجب مع ألف فارس من شتى الأصناف . فعادوا وأخذوا يعدون العدة فى حماس لألتونتاش وجلس الوزير والعارض والسپهسالار وكبير الحجاب يسجلون أسماء الجند الممتازين ويدفعون مرتباتهم نقدا حتى أعد جيش قوى ، وكنا قد كتبنا لأميرك بالبريد من جهة ومن جهة أخرى مع قاصدين مسرعين أن سيفد إليك جيش قوى على رأسه قائد مشهور ، فكن رابط الجأش وليكن كذلك أهل المدينة وغيرهم وخذوا الحيطة التامة للمحافظة عليها فإن الجيش قادم على الأثر . وفى يوم الثلاثاء جاء السلطان إلى قلعة الخضراء المقابلة لميدان دشت شابهار وجلس واستعرض هذا الجيش الذى كان مجهزا بالعدد والآلات والخيول الممتازة ، وصعد ألتونتاش الحاجب مع المقدمين إلى الخضراء فقال السلطان « سيروا فى شجاعة فإنا سنبعث على أثركم جيشا آخر مع القادة ، ونحن على أثرهم حاضرون فلم يكن ما حصل عليه الأعداء نتيجة لشجاعتهم وبأسهم ، إنما كان نتيجة للقحط ، وسوف يلحق بنا خان تركستان مع جند عديدين ، وسننهض نحن كذلك حتى نتلافى ما حدث ، فلتكن ٦٤٥ عزائمكم قوية ، وحين تصلون إلى بغلان دبروا أمركم لتدخلوا المدينة على حين غفلة ، وخذوا الحيطة ثم سيروا للاستيلاء عليها ، وستقوى عزائم أهل المدينة والجيش المرابط بها إذا رأوكم وحينئذ تكونون جميعا ؛ وإذا تعذر عليكم بلوغ بلخ فسيروا إلى ولوالج واضبطوا الأمن فى طخارستان حتى تصلكم الأوامر الواجبة ، واستمعوا إلى أميرك البيهقى وأطيعوه » فقالوا « سمعا وطاعة » ثم رحلوا .

وجلس الأمير للشراب . ودعانى الوزير وقال أبلغ عنى أبا سهل وقل له أترى ماذا يجرى ؟ لقد جاء عدو كداود بجيش هائل وحاصر بلخ وها هو السلطان يستمع إلى قول ثلاثة أو أربعة من العجزة ويغتر بنصحهم فيرسل

جيشا على جناح غراب البين وسوف نرى عاقبة هذا الشطط. فعدت وقلت لقد أجاب بقوله « لقد جاوز هذا الأمر الحد ولا يمكن الإدلاء بأقوى مما صرح به الأستاذ الرئيس ، وقد سمعت ما قلته تأييدا لهذا الرأى فلم يأبه به ولسنا هنا فى صحراء سرخس وقد أصبح تدبير الوزارة بيد أبى الحسن عبد الجليل فلنرى ماذا يكون ».

ويوم الثلاثاء السابع عشر من ذى القعدة صعد السلطان إلى القلعة واستضافه قائدها. وكانوا قد أعدوا له مأدبة فاخرة وأجلسوا القوم كلهم على المائدة وشربوا ، وغمر السلطان بعطفه السپهسالار والحاجب سباشى . وعادوا عند صلاة الظهر ، وكانوا جميعا مسرورين. ونام السلطان فقد لبث هناك طويلا. وفى اليوم التالى ، الأربعاء ، جلس للاستقبال فى القلعة ونظر فى المظالم ، ثم كانت خلوة بعد ذلك استمرت إلى قبيل الظهر . قال السلطان : انصرفوا ، فقد تم كل شئ بيمن هذا اليوم. وخرج السپهسالار — على داية — فذهبوا به إلى القصر الصغير ذى الدهليز الذى ينتهى إلى دار الإمارة ، وهناك ألقوه. وحملوا الحاجب سباشى إلى سراى الخزانة الصغرى ، وحملوا بكتغدى إلى دار كوتوال القلعة ليذهبوا من هناك إلى المائدة ، فإنهم كانوا قد دبروا هذا بالأمس. وبعد أن تم هذا الأمر ذهب رجالة القلعة ومعهم المقدمون والحجاب فوراً حسب ما دبر بالليل ، واستولوا على قصور هؤلاء الثلاثة ، وكذلك ٦٤٦ قبضوا على كل من كان متصلا بهم ، بحيث لم يفلت منهم أحد. وكان السلطان قد دبر هذه المكيدة سراً وبالليل مع قائد القلعة وسورى وأبى الحسن عبد الجليل ، ولم يطلع عليها أحدا غير هؤلاء. وكان الوزير وأبو سهل فى حضرة السلطان وأنا والكتاب الآخرون فى مسجد الدهليز الذى كان يعقد فيه ديوان الرسائل حين يقيم السلاطين فى القلعة ، فجاء فراش ودعانى ، فسرت إلى الحضرة فوجدت سورى واقفا مع أبى الحسن عبد الجليل وأبى العلاء الطبيب. فقال لى السلطان إذهب مع سورى إلى سباشى وعلى داية فإن هناك رسالة لهما فاصغ إليها واستمع جوابيهما فقد جعلناك مشرفا فلتقص علينا ما تسمع. وقال لأبى الحسن

يذهب مع أبي العلاء إلى بكتغدى وأبلغاه رسالتي وإن أبا العلاء مشرف .
فخرجنا وذهبا هما إلى بكتغدى . وذهبنا نحن إلى هذين الرجلين فبدأنا بسباشي
وكان حارسه حسن عنده ، فلما رأى سورى اصفر وجهه الأحمر ولم يتكلم
معه بشيء ؛ أما أنا فقد رحب بي ؛ ثم جلست فالتفت إلى قائلا ما خطبكما ؟
قلت رسالة من السلطان يبلغها إليك وأنا مشرف أنقل الجواب . فجمد في
مكانه وفكر مليا ثم قال ما الرسالة ؟ وأبعد سورى حارسه فخرج فقبضوا
عليه . ثم إن سورى أخرج طومارا من كمه بخط أبي الحسن مكتوبا به خيانات
سباشي واحدة واحدة منذ أن أوفد لحرب التراكمة في خراسان حتى يوم
واقعة دندانقان؛ وقد جاء في آخره : « إنك قد أسلمتنا للعدو وتذرعت
بالمعاذير عن هزيمتك » . فاستمع سباشي إلى كل ما في الطومار وقال « كل هذا
من إملاء هـــذا الرجل ، يعني سورى ، قل لمولانا السلطان إني أجبت
عن هذه التهم حين بلغت غزنة من هراة فأحسن السلطان الإصغاء إلي
وثبت لديه بطلان ما دبروه من التهم ؛ وجرى على لسانه الكريم أني عفوت
فقد كان اتهامك كذبا ولا يليق أن يعود السلطان لهذا ، وأما ما نسب إلي
من تهمة أني دبرت ماجرى في دندانقان ، فإن السلطان يعلم أني لم أغدر وأني
قلت ينبغي ألا نذهب إلى مرو ، ولم يبق لي من حطام الدنيا شيء ينتفع
به ، ولو كان في حبسي ٦٤٧ صلاح الأمور والقضاء على هؤلاء الأعداء فإن
أرواح مائة مثلي فداء لأمر السلطان ، ولأني بريء فإني آمل ألا أمس بسوء ،
وأن ينشأ ولدي الوحيد في سراي السلطان حتى لا يشرد » ، ثم بكى فتأثرت
له كثيرا . ولكن سورى جادله جدالا عنيفا . وطال حبسه في هذه الحجرة
مدة كما سيأتي ذكره في موضعه من هذا الكتاب ، وذهبنا من هناك وقال لي
سورى في الطريق هل قصرت في أداء الرسالة ؟ قلت « كلا » قال « حتى
تروي كل شيء » ، قلت شكرا ، وسرنا إلى السپهسالار علي داية فرأيته قد
أسند ظهره إلى صندوق وارتدى قميصا ملحما من الخز فلما رآني قال ما الأمر ؟
قلت « إن السلطان بعثنا برسالة إليك وهي بخط أبي الحسن عبد الجليل وأنا

مشرف أستمع إلى وابك . قال اتلوها . فقرأ عليه سورى حوارا آخر ؛ فلما انتهى من القراءة قال لى اسپهسالار « لقد علمت ، هذه بعض ترهات وأراجيف افتراها أبو الحسن وآخرون ، وصاغوها كما يشتهون ، وقد تركوا الحقيقة جانبا وهم بذلك يطمعون فى اغتصاب ما بيدى ، والأمر لكم . قل للسلطان إنى قد كبرت وقد تمتعت بحياتى وإن ماأقضيه من العمر بعد السلطان محمود حتى اليوم فضل وسترى من خيانة أبى الحسن غدا ما سوف ترى . ولقد ضاعت خراسان بسوء تصرف سورى فلا تبح له مجالا كيلا تضيع غزنة » ؛ فرجعت وقد قال لى سورى فى الطريق دعك من حديثه عنى ، فقلت إنى لا أطيق الخيانة قال « إذا فلا نقل هذا للوزير فإنه يبغضنى ويشمت بى ويجب أن تخلو بالسلطان حين تنقل إليه ما سمعت . قلت سأفعل . وقابلت السلطان وقصصت عليـــه إجابة الرجلين إلا ما يمس سورى وكذلك جاء أبو الحسن وأبو العلاء وقصوا إجابة بكتغدى كما مر ؛ وقد أسلم ابنه وابنته للسلطان وقال « إنه سئم الحياة بعد فقد عينه ويده ورجله » .

ورجعنا ، الوزير وأبو سهل ونحن جميعا ، وكذلك صرف بقية الناس بحيث لم يبق فى القلعة ديار من الرجال . وفى الغداة لم يأذن السلطان بالاستقبال ، وبعد صلاة العصر٦٤٨ عاد من القلعة إلى الجوسق الجديد . ويوم الجمعة أذن بالحضرة وطال المكث بها فقد عرضوا عليه أعمال القادة المعتقلين ونقودهم وأمتعتهم ودوابهم . ولم يظفروا بشىء لدى سباشى فإنه كان قد نهب مرتين ؛ ولكنهم وجدوا كثيرا من أموال على دايه وبكتغدى ؛ وقرب صلاة العصر قام السلطان وذهبت إلى آغاجى وقلت له : عندى حديث أريد أن أسره للسلطان . فدعانى وقصصت عليه حديث سورى وقلت « لقد أغفلت ذكر هذا الحديث فى ذلك اليوم لأن سورى قال كذا وكذا » فقال السلطان « لقد عرفت وهذا حق ؛ إذا سألك سورى فقل له شيئا آخر » ؛ فرجعت وسألنى سورى فموهت عليه الحقيقة وقلت له : « إن السلطان يقول إن العاجزين يثرثرون ويبالغون بقول المحال » .

وفى يوم الأربعاء ، لأربعة أيام بقيت من ذى القعدة خلع على الحاجبين ، وعلى أرتكين الحاجب خلعا فاخرة ، لبدو كبير الحجاب ولأرتكين قائد الغلمان ثم عادوا إلى بيوتهم حيث احتفى بهم ، وكانوا كل يوم يفدون على البلاط فى وقار وأبهة .

وفى هذا الأسبوع عتب السلطان ، شفاها وكتابة ، على أبى السهل الزوزنى لما كان من تصرفه مع أبى الفضل الكرنكى قائلا : « إنك سبب عصيانه فإن صاحب البريد هناك نائبك وقد تواطأ معه وتحالفا فلم يكشف أحواله ؛ وإذا تقدم رجل ليكشف عن الحقيقة فإنه يخاطر بحياته ، ثم إن أبا الفضل وقع فى قبضتنا ولكنك وأبا القاسم الحصيرى دافعتما عنه وخلصتماه حتى يكون اليوم على صلة بالتراكمة ، وحين اضطربت خراسان خرج علينا وهو يقصد اليوم بست فعليك الآن أن تذهب هناك حيث نوشتكين نوبتى مع جيش كامل لكى يعيد الأمر معه إلى نصابه ؛ صلحا أو حربا » فاضطرب أبو سهل واستغاث بالوزير ووسط الشفعاء وكان السلطان يزداد غضبا كلما زادت شفاعتهم كما هى عادة السلاطين . وأسر الوزير لأبى سهل : ليس هذا السلطان كعهدنا به ولست أدرى ٦٤٩ ماذا سيقع ؛ فامتثل للأمر ولا تمتنع وسر حتى لا يقع ما يسىء إلينا جميعا » . فخاف أبو سهل وامتثل . وأنى له أن يعرف ما يخبئه له الغيب ؛ عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم . ولو أنه ذهب إلى بست وتغلب الأمير محمد على هذا السلطان لكان أبو سهل أول رجل يذهب به إلى قلعة ماريكله ليشطره نصفين لما يكن له من حقد دفين . وحين استسلم وسافر جعلنى خليفته واستصدر توقيعا جديدا من السلطان فى هذا الشأن ، لأنه خشى أن ينتهز خصومه فى الديوان فرصة غيبته ليفسدوا فيه . وكتبت مواضعة فى معنى الديوان والكتاب . أما هو فقد حرر الخطابات وأصدر الأوامر . ثم قابل السلطان فى الصباح فأحسن لقاءه . وسار من غزنة يوم الخميس الثالث من ذى الحجة ونزل فى بستان على حدود المدينة . نذهبت إليه وحررنا رسالة معماة ثم حييته ورجعت .

وأقبل عيد الأضحى وقد أصدر السلطان أمرا بألا يقام أى احتفال فيما يخص الغلمان والرجالة والحشم ومائدة السلطان . ثم إنه جاء إلى القلعة الخضراء بالميدان فأدى صلاة العيد ، ونحرت الأضحيات . وكان عيدا هادئاً وبغير أبهة ، ولم تنصب فيه المائدة . وأمر الناس بالانصراف فرجعوا متشائمين . ومضت الأمور على هذا النحو فإن أجل السلطان قد دنا والناس لاتدرى .

وفى يوم الأحد ليومين بقيا من ذى الحجة جاء أحد سعاة البريد من دربند شكورد ، فنزعت حلقة الكيس وفضت أختامه الكثيرة ، ثم فتحت الرسالة وكنا على وشك صلاة الظهر ، فاختلى السلطان فى سراى الحرم ليرى الرسالة التى جاء بها هذا الساعى والتى كتب فيها صاحب بريد دربند يقول « لقد حدث فى هذه الساعة أمر جلل ، وكنت أود ألا أخبر السلطان لظنى أنه من الأراجيف فتريثت حتى صلاة العصر عسى أن يأتى الأعوان بالأنباء الصحيحة . وبعد العصر حمل إلى الأعوان كتابا معمى من أميرك البيهقى فبعثته ليعلم السلطان مافيه » . وقد أخرجت هذا الكتاب وكان فيه : « فور وصول الخبر بأن ألتونتاش قد غادر غزنة كنت أرسل إليه كل يوم قاصدا أو اثنين لأطلعه على مايجد من أمور الأعداء ، ولأبين له كيف يجب أن يكون ٦٥٠ مسيره وما يجب عليه من الحيطة ، وكان يتصرف وفق ما يقرأ من رسائلى ، ويسير فى حيطة واستعداد ، وبعد أن تجاوز بغلان وأصبح قاب قوسين من العدو ترك الحيطة وأطلق يده للنهب والسلب ، حتى جاءت الرعية تستغيث ، فأسرعوا إلى داود وأطلعوه على ما جرى وكان قد سمع أن القائد يأتى من غزنة ، وأى قائد ، فأخذ للأمر عدته . فلما تأكد من صحة كلام الرعية تذرع بهذه الحجة فورا ، وعين حاجباً مع ستة آلاف فارس وعدداً من المقدمين وبعث بهم لملاقاة ألتونتاش ، وأمر بنصب المكامن فى عدة أماكن ، وتقدم بنفسه فى ألفى فارس واشتبك مع ألتونتاش فى معركة حامية ، ثم تظاهر بالتراجع ليحرصوا على تعقبه ويعبروا المكامن المعدة لهم وحينئذ يخرج الكمناء منها ، ويعود داود فيحاصر رجالنا ويحصدهم حصدا . فلما وصلتنى هذه الأنباء بعثت فورا إلى ألتونتاش ،

وكتبت إليه أن يأخذ الحيطة عند الاقتراب من العدو ، ولكنهم لم يفعلوا ، وأدى ذلك إلى حدوث اضطراب شديد . ثم انقض عليهم العدو فى بهمة الليل وقامت معركة عنيفة أبلى فيها بلاء حسنا ثم ولى الأدبار ، فعقبوه ، طامعا فيما قد تصل إليه أيديهم ، ولم يتدخل رجال القائد أو المقدمون لمنعهم ، وخرج الأعداء من مكامنهم فقتلوا كثيرا وأسروا كثيرا . وقفل ألتونتاش يجر أذياله إلى المدينة راجعا مع مائتين من الفرسان فأخذنا نواسيه ورجاله الذين جاءوا معه ، حتى هدأ واستقر ولا ندرى ماذا كان مصير الجيش » . فوضعت رسالة دربند مع الملطفة المسماة وقد حللت رموزها فى خطاب وسلمتها إلى آغاجى ، فحملها إلى سراى الحرم وغاب طويلا ثم عاد ، وقال لى إن السلطان يدعوك . فذهبت فقال لى « إن هــذا الأمر يزداد كل يوم تعقيدا ، وما كنا نتوقع ذلك ، لقد أصبحت القلعة شركا وقع فيه أميرك ، وقد مزق شمله قبــل بلخ ، ولم يفعل جيش من جيوشنا ٦٥١ شيئا ، خذ هذه الرسالة إلى الوزير ليقف على مافيها ، وقل له لقد كان الصواب ما رأى الوزير ولكنهم لم يتركونا وشأننا ، فقد حملنا على عدم الأخذ برأيه على داية وسباشى وبكتغدى ، وها هى خيانتهم ظاهرة حتى لا يقول الوزير إنهم أبرياء » . فسرت إلى الوزير وقرأ الرسائل واستمع إلى رسالة السلطان ثم قال لى « ستصل إلينا أمثال هذه الأخبار فى كل لحظة ، والمؤكد أن السلطان لن يعدل عن استبداده برأيه والسير فى الخطأ ، والآن وقد حلت بنا هذه الكوارث ينبغى أن نكتب إلى أميرك لكى يحافظوا جيدا على بلخ ، وأن يطيبوا خاطر ألتونتاش حتى لا يتفرق الناس من حوله ، وأن يعدوا العــدة ليستطيعوا بلوغ ترمذ عند كوتوال القلعة بكتكين الجوكانى فإنه يخشى أن تروح بلخ وفيها كثير من المسلمين ، ضحية لرعونة أميرك وقيادته » . فعدت وقصصت على السلطان رأيه فقال « نعم يجب الكتابة لأميرك » فكتبنا الرسالة وأرسلت نسخا منها مع الساعى إلى الكوتوال بكتكين ومع الرســل أيضا وبعد هذا التاريخ يئس السلطان تماما من أمر غزنة وكانت منيته قد اقتربت وقلبه قد امتلأ رعبا وطارت نفسه شعاعا .

تاريخ سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة

(١٠٤٠ — ١٠٤١)

كان يوم الجمعة غرة المحرم ، وقد اختلى السلطان ، بعد الحضرة ، مع الوزير والكوتوال وأبي سهل الحمدوى والعارض أبي الفتح الرازى وبدر كبير الحجاب وأرتكين القائد الجديد وخرج الموكل بالستار (پرده دار) فدعا ابن السلطان الأمير مودود ، وطلبت جريدة ديوان العارض فجيء بها ، وجاء الفراش وقال لي أحضر الدواة والقرطاس (الكاغد) فذهبت وأجلسني فقد كانوا ، بعد أبي سهل يجلسونني في مجلس المظالم ، وكان السلطان ينظر إلى نظرة أخرى . ثم أمر العارض بالقراءة وبدأ يذكر أسماء المقدمين وخاطبني السلطان والعارض لأكتب أسماء الفوجين كل منهما في موضع خاص ، حتى تكون أكثرية الغلمان في جانب هيبان . ولما فرغنا من ذلك أحضر كاتب السراى فجاء بجريدة الغلمان وكان يذكر الأسماء وكنت أقيدها وأجمل كل ممتاز منهم لهيبان وقد أختار أجدرهم وأجملهم وجها ٦٥٢ فلما فرغنا من هذا كله التفت السلطان إلى الوزير وقال : « لقد دارت على ألتونتاش الدوائر ، ولجأ بمن معه من الفرسان إلى بلخ ، أما الجيش الذى كان معه فإنه وإن كان قد منى بالهزيمة وذهبت أمتعته بددا ، فإنه سوف يرجع الينا بلا ريب لنجهزهم بالعدد ، وسوف نعين ولدنا مودود ليذهب إلى هيبان ويقيم عنده مع هؤلاء الجند الذين دونت أسماؤهم ، وسيذهب بدر الحاجب معه وكذلك أرتكين والغلمان ، وأما أنت يا أحمد فستكون أمينا له ومشرفا على شئونه ، وذلك إلى أن تعود تلك الجيوش من بلخ الينا ونستعرضها ويقوم النائب العارض بصرف نفقاتهم ، ونكون قد أعددنا جنودا آخرين لنرسلهم على أثركم ، وحينئذ تكونون على مقدمتنا ، ونأتى نحن على أثركم مجهزين ، ونضع حداً لهذا الذى حدث بأقصى ما لدينا من الجهد والجد حتى يتم الله أمرا كان مقضيا ، فعودوا وأعدوا لأنفسكم العدة ، وسوف نصدر لكم من الأوامر ما ينبغى أثناء إقامتكم هناك » فقالوا سمعا وطاعة ثم انصرفوا .

وذهب الوزير الى الديوان وحده حيث دعانى وقال ما هذه الخطة التى أخذ يسير عليها الآن . قلت لاأستطيع أن أتمكن بمصير الأحوال ولا بما ينطوى عليه قلبه من تدبير ، ولكن أرى أن أحوال هذا السلطان ستأخذ لونا آخر إلى أن تصل الرسالة الى أميرك عن حادثة ألتونتاش ، وسوف يتسرب اليأس إلى نفسه . فقال إذا كان الأمر كذلك فلا محل لأن أقول أذهب أولا أذهب ، ولكن عليك إبلاغ رسالتى . فقلت سمعا وطاعة ، قال : أخبره أن أحمد يقول إن السلطان قد أمره بأن يصحب الأمير نجله إلى هيبان ومعهما الأعيان والمقدمون وأن الجيوش الأخرى ستأتى على أثرنا وهذا أمر مبهم ، وأنا لاأعرف ماذا يجب عمله ، فإذا سمح السلطان فإنى أكتب منهاجا وأطلب كل ماتستوجبه هذه الرحلة ، فإنها أكثر دقة من سائر الأسفار ، لأن ابن السلطان وهؤلاء الأعيان سيكونون على المقدمة ، ويبدو أن السلطان سيسير من بعدنا باليمن والإقبال والأمر له وعلينا الطاعة ، وإنا باذلون غاية الجهد حتى ٦٥٣ آخر رمق فى حياتنا فى كل مايأمرنا بعمله ، ولكن ليس من المتوقع أن يخفى السلطان عنى مافى قلبه وأنا وزيره ، لأن هذا يسىء إلى كرامتى ، فإذا سمح السلطان فليصارحنى بالغرض الذى يريد ، حتى أعد الأمور وفق ما أسمع منه وأؤدى واجبى حسبما ينبغى حتى يعمل الأمير مودود ومقدمو الجند على تنفيذ مايأمر به السلطان ، ولا تكون فتنة ، ومن الخير أن يصدر الينا أمر سلطانى ليرسل إلى بلخ وطخارستان بأسرع مايمكن ، ولا يجوز مطلقا أن يكون هذا الأمر بكتاب يخفى على نصه بل يجب أن أعرف به قبل مسيرى ، ثم إن السلطان قد عهد إلى الأمير مودود بمهمة كبرى هى خلافة السلطان ، وسوف يلى قيادة الجيش اليوم ، فينبغى أن نزيد عدته من الغلمان ومن كل شىء عما يكون لغيره من القادة ، وهو لامحالة محتاج إلى كتخدا يتولى شئونه الخاصة ، وأبلغ السلطان أن هذا واجب على لأبين له ما ينبغى لصالح الأمير مودود . »

وسرت وبلغت هذه الرسالة ففكر السلطان مليا ثم قال اذهب وادع الوزير فذهبت ودعوته وأقبل الوزير فاستقبله آغاجى وأدخله ، وكان السلطان

فى القصر العالى وقد دخل وطال مكثه ، ثم جاء آغاجى ودعانى مع الدواة والقرطاس فمثلت بين يدى السلطان فقال لى « إذهب إلى بيت الوزير وادخل إليه ليقول لك كل ماقلت وما أمرت به حتى يكتب المنهاج الذى عليك إحضاره بعد صلاة العصر لتكتب الرسائل ولا تتحدثن بشىء عما تعملان أو عما تسمع منه . قلت سمعا وطاعة وخرجت مع الوزير إلى داره فأكلنا واسترحنا ، وحين انفرد بنفسه دعانى فجلست ، قال : « إعلم أن السلطان شديد الخوف من هؤلاء الأعداء وقد حاولت عبثا أن أحمله على التجلد ، ولكن يبدو أن الله قد قضى أمره وأنا غير قادرين على شىء بعد ذلك ، وقد قر فى نفسه أن داود لا محالة قاصد غزنة بعد أن هزم ألتونتاش وتكلمت كثيرا مبينا أنه ليس من المعقول أن يقصد داود بلدا آخر ولما يفرغ من أمر بلخ ، وخاصة غزنة ، ولكن كلامى ضاع سدى ، فقد قال إنى أعلم مالا تعلمون ، ولا بد من التأهب والإسراع نحو پراون وهيبان ٦٥٤ وفى تقديرى أنه سيذهب إلى الهند بمجرد بلوغى هيبان ، ولكنه أخفى ذلك على وهو يتظاهر بأنه سيظل وقتا فى غزنة ، ثم يلحق بنا ، ومن المحال استقصاء الأمور أكثر من هذا . وقد أمر بتسجيل التعليمات لكى تعرضها عليه ، ثم تكتب الجواب فيوقعه وتسلمه إلىّ ، وقد قرر أن يكون كنخدا ولده الأمير مودود صهرنا أبو الفتح مسعود فهو أجدر الناس بهذا المنصب » .

فقلت للوزير هذا اختيار جد موفق ، وسيقوم إن شاء الله بعمله على خير وجه . قال إنى أخشى هذه الأحوال . ثم أخذ يكتب المنهاج بنفسه ، ومكث وقتا طويلا حتى فرغ من تدوينه ، وكان مولاى الوزير آية فى مثل هذه الشئون ، وقل من لهم مثل قدرته فيها ، فقد كان أكفأ وأكتب أهل زمانه . فذكر الأعمال التى عليه أن يؤديها للأمير ، وكيف يجب أن يرعى الأمير حرمته ، وذكر فصلا فى معنى غلمان السراى وقائدهم ، وفصلا فى معنى كبير الحجاب وغيره من المقدمين ، وفصلا فى السير بالجيش والنزول به وتسمع أخبار العدو وفصلا فى نفقات الجند وإثبات وإسقاط نائب ديوان العرض . فسرت إليه

البلاط وأخبرت السلطان بواسطة الخادم بأنى أحضرت المنهاج فدعانى وأمر بألا يؤذن لأحد فى الدخول عليه . وأخذ المنهاج وقرأه بإمعان ثم قال على أى وجه ستكتب الرسائل فى هذه الموضوعات ؟ لا شك أنك أدرى بطريقة أبى نصر مشكان فى الكتابة فيها . فقلت إنى أعرف وإذا رأى السلطان فإنى أكتب المنهاج ومولاى يوقعه بخطه الكريم ، فقال اجلس واكتب هنا . فأخذت المنهاج وكتبت الرسائل فى موضوع فصوله ، وقرأته على السلطان فاستحسنه وأمر بتغيير بعض النقاط فأجريت التعديل حسبما قال ، فأقرها ثم كتبت تحت فصول هذا المنهاج ووقع السلطان وكتب فى ذيلها بخطه : « إن على الوزير الفاضل أدام الله تأييده أن يعتمد هذه المسائل التى كتبت بأمر منا والتى أيدناها ٦٥٥ بتوقيعنا وعليه أن يبذل كفايته ونصحه فى كل من هذه الأبواب ليكون جديراً بثنائنا واعتمادنا عليه . إن شاء الله » . ثم أعطانى المنهاج وأمرنى أن أضع الرموز المعماة لنكتب بها الرسائل الهامة المتبادلة بين السلطان والوزير . ثم قال : « قل له أن يدعو الليلة إلى داره أبا الفتح مسعود وأن يبلغه عطفنا ويؤمله خيراً منا ويحضره غداً إلينا ليرانا ولنفوض إليه كتخدائية ولدنا ثم يعود إلى بيته بالخلعة » . قلت «سمعاً وطاعة» ثم ذهبت إلى الوزير وأعطيته منهاجه ، وأبلغته رسالة السلطان فسر سروراً عظيما . وقال لقد أتعبتك اليوم وأنت تعمل من أجلى فقلت إنى خادمك وليت الأمر يستقيم بمسعاى . ثم هممت بالانصراف فقال لى إجلس لقد نسيت حديث « المعمى » فقلت لم أنسه ، وقد أردت أن أعده غدا لأن السلطان كان قد اعتراه الملل . فقال . دعنى أقدم لك درسا ، اجتهد ألا تؤجل عمل اليوم إلى غد فإن كل يوم يأتى ومعه أعماله وقد قيل ان تأجيل عمل اليوم إلى غدهو من الكسل . قلت إن لقاء مولاى ومجلسه متعة وفائدة فأخذ القلم وكتب معى رموز المعمى وكانت دقيقة ، ثم تناول كتابا من على المائدة وكتب على ظهره المعمى وأعطانى منه نسخة بخطه ، وخاطب غلاما بالتركية فأحضر كيسابه ذهب وفضة وكسوة ووضعها أمامى ، فقبلت الأرض وقلت فليعفنى مولاى من هذا فقال لقد مارست الكتابة ومن المحال أن يعمل الكتاب حسبة . فقلت إن ما يأمر به

بالوزير مطاع . ورجعت . هذا وقد منح خادمي خمسة آلاف درهم وخمسة أثواب
وفي اليوم التالي جاء الوزير إلى السلطان ومعه أبو الفتح مسعود وهو شاب
نبيل جميل الوجه والمنظر، ولكن لم يحنكه الدهر ولم يذقه حلوه ومره . ولا غنى
للشباب من أن تعجم أعوادهم الأيام والحوادث .

حكاية جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ٦٥٦

قرأت في أخبار الخلفاء أن جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي كان وحيد زمانه
في آداب السياسة والفضل والأدب والعقل والاعتداد بالنفس والكفاية ، إلى
حد أنه كان يلقب إبان وزارة أبيه بالوزير الثاني ، إذ كان يتولى أكثر أعماله .
وذات يوم كان جالسا للمظالم يعد القضايا ويكتب التوجيهات عليها ، كما كان
الرسم المعتاد فوقع على قرابة ألف مظلمة بأن يتخذ في شأن فلان كذا وكذا ،
وهكذا . وكانت آخر مظلمة سطرت على طومار يحوى أكثر من مائة سطر
بخط مقرمط ، وجاء الخادم ليجمع الأوراق حتى لا يرهق نفسه أكثر من ذلك
فكتب جعفر على هذه القضية ينظر فيها ويفعل في بابها ما يفعل في أمثالها .
ولما خرج جعفر أخذت القضايا إلى مجلس القضاء والوزارة ومجلس الأحكام
والأوقاف والنذور والخراج فدرسوها وتعجبوا من توجيهاته وهنأوا والده
يحيى به فقال لهم «إن أبا أحمد ، يعنى جعفر ، واحد زمانه في كل شيء من الأدب
إلا أنه محتاج إلى محنة تهذبه » . وكان السيد أبو الفتح مسعود من هذا الطراز
من الشبان ، فقد جيء به من البيت والمدرسة إلى حضرة الملوك ، ولا جرم أنه
رأى من الزمان ما رأى وجرب ما جرب كما سأبين في مكانه من هذا الكتاب .
وهو اليوم في سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٥٩) قابع في بيته بأمر مولاي السلطان
المعظم أبي المظفر ابراهيم أطال الله بقاءه ونصر أولياءه ، إلى أن يؤذن له بالعودة
إلى البلاط . وقد قيل لا بد للدولة من الإقبال والإدبار حتى تستقيم ، والدولة
التي تسير أمورها دائما وفق المراد ولا تتعرض لمكروه يسقط سلطانها دفعة
واحدة . نعوذ بالله من الإدبار وتقلب الأحوال .

* * *

وقد أذن السلطان مسعود رضى الله عنه بالاستقبال ، وأقبل الوزير والأعيان . فلما جلسوا جاءوا بالسيد أبى الفتح مسعود أمام السلطان فأدى فروض الطاعة وبقى واقفا ، فقال السلطان لقد اخترناك لكتخدائية ولدنا الأمير مودود فكن حكيما وامتثل لأوامر الوزير . فقال مسعود سمعا وطاعة ، وقبل الأرض ورجع ، وقد احتفوا به حفاوة بالغة ثم عاد إلى داره حيث مكث ساعة ثم خرج إلى قصر الأمير مودود فأحضروا له كل ما جهزوه من أجله ، وقد شمله الأمير مودود بعطفه ، ومن هناك سار إلى منزل صهره الوزير فغمره ٨٥٦ بعطف كبير ثم عاد إلى داره .

وفى يوم الأحد العاشر من محرم خلع على الأمير مودود والوزير وبدر كبير الحجاب وأرتكين القائد وآخرين خلعا فاخرة لا يذكر أحد أنه رأى مثلها يوما ما ، ولا خلع على أحد بمثلها . وقد جاء هؤلاء إلى البلاط فأدوا فروض الطاعة والولاء وانصرفوا . وقد خصوا الأمير بفيلين ذكر وأنثى وطبل ودبدبة وكثير مما يلزم هذا كله ، وكذلك أعطى الآخرون . وتم إعداد كل شىء .

وفى يوم الثلاثاء الثانى عشر من هذا الشهر ركب السلطان رضى الله عنه ونزل فى باغ فيروزى واعتلى خضراء ميدان زرين . هذا وقد تغيرت أحوال ذلك الميدان والبناء اليوم وقد كانا حينذاك فى أتم بهجة ورواء . وأمر بإقامة اجتماع حافل قدمت فيه الهريسة ، ودعى الأمير والوزير ، وجلسا ، وأخذوا يستعرضون الجيش فمرت أولا كوكبة الأمير مودود والمظلة والألوية الكبيرة ومائتا جندى من غلمان السراى بالجواشن والمطارد وكثير من الجنائب والنجائب والرجالة ، ومائة وسبعون غلاما بكامل العدة وخيولهم مردفة فى كوكبة كاملة ، ومن ورائه أرتكين الحاجب وغلمانه وكانوا أكثر من ثمانين ، وفى أثرهم خمسون فوجا من غلمان السراى يتقدمهم عشرون من السرهنكية فى حلل بهيجة مع الجنائب والنجائب الكثيرة ، وخلفهم سرهنكية فى حلل زاهية وهكذا حتى انتهى العرض ، وكان ذلك قرب صلاة الظهر ، فأمر السلطان بأن

يدعى للمائدة ولده مودود والوزير وكبير الحجاب والمقدمون ، ثم جلس وتناولوا غداءهم وحيوه تحية الوداع ثم ساروا ، وكان آخر العهد بلقاء هذا السلطان رحمة الله عليه .

وقال السلطان لعبد الرازق بعد سفرهم ماذا تقول فى كأس من شراب البيليا . فقال : فى يوم كهذا ، السلطان سعيد والأمير والوزير والأعيان قد ساروا كما يريد ومع كل هذه الهريسة التى أكلناها كيف يمنع الشراب ؟ فقال ٦٥٨ السلطان يجب أن نذهب إلى الخلاء فى بساطة وأن نشرب فى باغ فيروزى . فجىء بالشراب فورا من الميدان إلى البستان ووضعت الكؤوس وخمسون من القنانى الكبيرة فى وسط السرادق ودارت الكؤوس . وقال السلطان فلنراع العدل ولنشرب جميعا معاً حتى لا يظلم أحد . فشرب كل واحد نصف من ، وأخذت الخمر بألبابهم ، وعلا غناء المطربين . وشرب أبو الحسن خمسة أقداح ، وألقى درعه فى السادس ، وفقد رشده فى السابع ، وبدأ يتقايأ فى الثامن ، فأخرجه الفراشون . وتدلى رأس أبى العلاء الطبيب فى الخامس ، فحملوه . وشرب خليل داود عشرة كؤوس وشرب سيابيروز تسعة ، وحملا إلى حى الديالمة . كما شرب أبو نعيم اثنى عشر كأسا ثم هرب ، وسقط داود الميمندى ثملا . وسكر المطربون والمضحكون جميعا ثم هربوا . وبقى السلطان والأستاذ عبد الرازق ، وقد شرب الأستاذ ثمانية عشر كأسا ثم استأذن فى الانصراف وهو يقول للسلطان : « كفى فإنى لو شربت أكثر من هذا فقد أسىء الأدب وأفقد الرشد » . فضحك السلطان وأذن له بالانصراف فقام وانصرف فى أدب جم . واستأنف السلطان بعد ذلك الشراب وقد شرب سبعة وعشرين كأسا ، كل كأس نصف من ، ثم قام وطلب الماء والطشت وسجادة الصلاة وغسل فمه وتوضأ ثم صلى الظهر والعصر وكأنه لم يشرب شيئا . وقد رأيت أنا أبو الفضل هذا كله بعينى ، وبعد ذلك ركب السلطان الفيل وسار إلى الجوسق .

ويوم الخميس التاسع عشر من محرم سار الكوتوال أبو على فى جيش كبير

من غزنة إلى ناحية خلج ، فإن أهلها كانوا قد أفسدوا فيها في غيبة السلطان ، وذلك كي يصلح حالهم ، صلحا أوحربا . وكان السلطان بعد ذهاب الوزير يرجع في كل أمر إلى أبي سهل الحمدوى ؛ ولكن أبا سهل كان يكره هذا الإيثار كرها شديدا ويحاول أن يبتعد وأن يراعى مقام الوزير وحرمته ، وكان يظهر لى بعد كل خلوة وتدبير مع السلطان كراهته لما يعمل ، وقد شاركته تلك المهام . وبلغ يأس السلطان وضعف رأيه إلى درجة أنه قال ذات يوم في خلوة له مع أبي سهل وكنت واقفا : « يجب أن نعطى ولاية بلخ وطخارستان إلى بورتكين حتى ٦٥٩ يجيء بعسكر وحشم ما وراء النهر ويحارب التراكمة » . فقال أبو سهل ينبغى أخذ رأى الوزير في هذا . فقال السلطان : « لا تحل أمرا عليه فإنه رجل معروفة مآربه » ثم أمرنى أن أكتب في هـــذا المجلس المنشور والكتب ووقعها وقال اعطها إلى فارس يبلغها . فقلت سمعا وطاعة . وحينئذ قال أبو سهل : « لعل الصواب أن يذهب الفارس إلى الوزير فيبرم الأمر بنفسه وليرسله هو » فقال حسنا . ثم كتب للوزير « بأن السلطان يريد السير على هذا النهج الأخرق والوزير أدرى بما يؤمر به » . وقال لى « إنى أريد أن أثبت للوزير أنى برىء بما يدبر في هـذه الخلوات من آراء سقيمة » فكتبت المعنى للوزير وبينت فيه الأحوال . وحملها فارس إلى الوزير ، فاستبقى الوزير الفارس والمنشور والكتاب ، فقد عرف أن هذا خطل . ثم كتب إلى مع أحد السعاة .

ويوم الاثنين غرة صفر جاء الأمير إزديار من نغر[1] إلى غزنة فقابل السلطان ثم عاد . وفي المساء جيء بالأمير محمد ، أخى السلطان ، من قلعة نغر في صحبة هذا النجل الأمير ، وحمل إلى قلعة غزنة ووكل به سنكوى أمير الحرس . ونزل أبناؤه الأربعة الذين كانوا برفقته ، أحمد وعبد الرحمن وعمر وعثمان ، ليلا في القلعة الخضراء بباغ فيروزى . وفي اليوم التالى نشط السلطان للشراب من الصباح الباكر . وفي رائعة النهار دعانى وقال لى « إذهب سرا إلى أبناء أخى

---

(١) مدينة ببلاد السند بينها وبين غزنة ستة أيام . على وفياض ص ٦٥٩ ملحوظة ٥ .

محمد واستحلفهم بأغلظ الأيمان بأن يخلصوا فى خدمتى وألا يعصونى » وكن شديد الحيطة، فإذا فرغت من هذا فطيب خواطرهم من ناحيتى ومر ليلبسوا الخلع ، ثم ارجع إلى حتى ينزلهم ابن سنكوى فى السراى التى أعدت لهم فى الشارستان » . فذهبت إلى باغ فيروزى ، وطلعت الخضراء التى نزلوا بها ، وكان كل منهم مرتديا قميصا خلقا ، وكانوا جميعا حيارى ذاهلين . فبلغت الرسالة ٦٦٠ خروا على الأرض سجدا من شدة الفرح . وحررت صورة القسم وكان « يمين البيعة » فأقسموا واحدا واحدا ووقع كل منهم على البيعة . ثم جيء بالخلع من أقبية السقلاطون الثمينة وعمائم القصب والأحذية الحمراء ، فدخلوا البيت وارتدوها . ثم خرجوا وركبوا خيولا كريمة مزدانة ألجمتها بالذهب وساروا . وحضرت لدى السلطان وقصصت ما كان فقال لأكتب إلى أخى فقل له بأنا أمرنا بكذا وكذا بخصوص أبناء أخينا وأنا قد أقمناهم لخدمتنا وسيكونون فى رعايتنا حتى ينشئوا على طباعنا وسنزوجهم من بناتنا ، ليعلم ذلك . وأمر بأن يخاطب أخوه « بالأمير الجليل الأخ » . فكتبت الرسالة ووقعها وأعطاها لابن سنكوى وقال « ارسلها إلى أبيك » وقد فعل هذا حتى لا يعلم أحد أن أخاه محمدا فى قلعة غزنة .

وفى الغداة مثل فى حضرة السلطان أبناء أخيه هؤلاء وعلى رؤوسهم العمائم ، فقدموا فروض الطاعة والولاء ، وأرسلهم السلطان إلى خزانة الألبسة (جامه خانه) ليلبسوهم الخلع وكانت أقبية مذهبة وعمائم من ذات الأربعة أركان مذهبة وأركبوهم خيولا كريمة، وأمر لكل منهم بصلة ألف دينار وعشرين ثوبا ، ثم عادوا إلى تلك السراى . وعين لهم وكيلا وراتبا ، وكانوا يذهبون للخدمة مرتين فى اليوم ، صباحا ومساء ؛ وخطبت الحرة كوهر لأحمد فملا حتى يحين وقت الخطبة للآخرين وتم عقد النكاح .

وبعد ذلك أرسل المعتمدين سرا ليحملوا كل مافى خزائن غزنة من الذهب والدراهم والألبسة والجواهر وغيرها ، وأخذوا يستعدون . وأرسل إلى الحرائر

العمات والأخوات والوالدة والبنات أن يتأهبن للرحيل معى لهندوستان فلم يبق مايقلق البال فى غزنة . وسواء أردن أو لم يردن فقد أخذن فى الاستعداد جميعا. وقد طلبوا من الحرة الختلية ، عمة السلطان ، ومن والدته أيضا أن يدليا برأيهما فى هذا الشأن فأجابتا . ثم قيل لهما فليبق كل من يريد أن يقع فى يد العدو فى غزنة . ولم يكن أحد ليجرؤ على الاعتراض بعد هذا . وبدأ السلطان يوزع الجمال ، وقد اختلى معظم اليوم لترتيب هذا مع أبى منصور المستوفى ، وكانت الحاجة ماسة الى جمال كثيرة ولم يكن لديهم الا القليل منها . وكان الأولياء والحشم يسألوننى لكثرة ما رأوا من الخزائن ما هذا ؟ ولم يكن لأحد جرأة [٦٦١] على الكلام وذات يوم قال أبو سهل الحمدوى وأبو القاسم كثير « يجب أن يدلى الوزير برأيه فى مثل هذه الرحلة حتى يعمل السلطان برأى وكيله » . وقلت « إنه يعرف ذلك ولكنه لا يستطيع إبداء رأيه قبل أن يفاتحه السلطان » . فاتفق فى الغداة أن أمر بكتابة رسالة للوزير : « بأنا قد عزمنا على التوجه الى هندوستان وأن نمضى هذا الشتاء فى ويهند ومرمناره وپرشور وكيرى وتلك النواحى فيجب أن تظلوا أنتم هناك حتى نرحل ونبلغ پرشور ويصل كتابنا إليكم، وحينئذ سيروا إلى طخارستان وابقوا بها فى الشتاء ، وإذا تيسر لكم الذهاب إلى بلخ فتوجهوا إليها حتى لا تتحقق جميع أهداف الأعداء .

وقد كتبت هذه الرسالة وأرسلت . وبينت بجلاء فى المعمى « أن هذا السلطان قد ذهل من أمر لم يقع ولن يثنى العنان حتى يبلغ لاهور ، وقد بعث بالكتب سرا ليعدوا له العدة ، ويبدو أنه لن يلبث فى لاهور . هذا ولم يبق أحد من الحرم فى غزنة ، وليس بها شىء من الخزائن ، وقد أسقط فى أيدى هؤلاء الأولياء والحشم المقيمين هنا ، وهم جميعا فى حيرة من أمرهم ، وكلهم معلق أمله على الوزير فالغوث الغوث ليتدارك سريعا هذا التصرف الأخرق وليكتب له بصراحة فإنه على بضعة منازل منا ، ويستطيع أن يوضح الرأى لعله يرجع عن تفكيره السقيم » . وقلت لكبار رجال القصر إنى كتبت للوزير كذا وكذا ، وبعثت اليه برسالة معماة فيها كذا وكذا ، فقالوا حسنا فعلت وسيبعث

هذا الشيخ المجرب برسالة مقنعة إن شاء الله فيوقظ هذا السلطان من غفلته . وجاء جواب هذه الرسالة وكانت حاوية على نصائح سديدة حقا فى غير متكلف ، كما يكتب الند لنده ولم يترك الوزير شيئا إلا ذكره وتكلم بصراحة تامة قائلا : «إذا كان السلطان يريد الرحيل من غزنة لأن الأعداء سيحاربون عند حدود بلخ ، فإنهم لن يجرءوا على دخول المدينة ، لأن أهلها أقوياء ويستطيعون الخروج من مدينتهم ومقاتلة العدو . فلو يأمر السلطان فإن الجيش مستعد لأن يذهب لدحر الأعداء وطردهم بعيدا عن بلخ،فما الحاجة إذا لأن يترك بلاده ويذهب إلى هندوستان ؟ الأولى أن يمكث مولانا هذا الشتاء فى غزنة فلا يوجد ثمة عجز بحمدالله . وليعلم مولاى علم اليقين أنه لو يذهب الى هندوستان ، ومعه ٦٦٢ الحرم والخزائن وتنتشر هذه الأنباء وتبلغ أسماع الصديق والعدو ، فإن هيبة هذه الدولة العظيمة تزول ويزداد طمع الناس فيها . ثم إنه لا يجوز الاعتماد على الهنود وليس من الحكمة نقل الحرم وكل هذه الخزائن والأموال إلى بلادهم ، لأنا لم نكن يوما محسنين اليهم . وفضلا عن ذلك فما هذه الثقة فى الغلمان بأن يكشف لهم ما للسلطان من الخزائن فى الصحراء ؟ هذا وإن السلطان لا يزال يعمل مستبدا برأيه ، وقد رأى عاقبة ذلك ، ويأسف الجميع لهذه السياسة . ولو أصر السلطان على مغادرة البلاد فإن الرعية تنكسر قلوبها . ألا أنى قد بلغت وأديت ما على من حق النعمة لمولاى وأبرأت ذمتى ، والرأى رأى السلطان » .

فلما قرأ السلطان هذا الكتاب قال لى فورا ، إن هـذا الرجل قد خرف ولا يدرى ما يقول ، أكتب إليه : « إن الصواب ما رأينا ، وإن ما عرضه علينا إنما كان لوفائه لنا ، فلينتظر أوامرنا لنأمر بما ينبغى ، فإنا نرى ما لا ترون » فكتبت الجواب وعرف به الجميع فاعتراهم اليأس والقنوط وأخذوا يعدون العدة للرحيل . وعاد أبو على الكوتوال من خليج ومهد لهذا السفر ، وقد قابل السلطان يوم الإثنين غرة ربيع الأول فأسبغ عليه عطفه ثم انصرف . وفى اليوم التالى اختلى السلطان به وحده وامتد مجلسهما حتى صلاة الظهر . وسمعت أنه سلم إليه المدينة والقلعة وتلك النواحي وقال له : « إنا عائدون فى الربيع

فعليك بالحيطة التامة حتى لا تكون فتنة فى المدينة ، فإن ولدنامودود والوزير قد خرجا منها مع جيش عظيم ، وسنرى ماذا يكون من أمر العدو هذا الشتاء وسوف يكون لنا معه شأن آخر فى الربيع ، فقدكان هذا الشتاء سىء الطالع كما قال المنجمون فقال الكوتوال : «لعل الأصوب إبقاء الحرم والخزائن٦٦٣ فى قلاع محكمة فهذا خير من حملها فى صحراء الهند» . فأجاب بأن الأصلح أن تكون كلها معنا . فقال الكوتوال ليجعل الله عز وعلا سفر السلطان مقترنا باليمن والخير والسعادة . ورجع . وحين صلاة العصر ذهب أعيان الجند إلى الكوتوال وجلسوا معه وطال مجلسهم ولكن بلا جدوى . ولله فى خلقه شؤون خفية . وقالوا سنرمى غدا بآخر سهم فى جعبتنا لنرى ماسيكون . فقال اعملوا ماترون مع أنى واثق بعدم جدوى هذه المحاولة ، بل وأرى أنه سيزداد ضجرا وفى الغداة بعد الاستقبال اختلى السلطان بأبى منصور المستوفى لأن الحاجة كانت تستدعى عددا من الإبل حتى يستطاع الرحيل ولم يكن عنده مايسد الحاجة منها فازداد ضجر السلطان . وأقبل هؤلاء الأعيان على القصر وقالوا العبد الجليل ابن الخواجة عبد الرازق عليك أن تبلغه رسالتنا ثم تكلم عن نفسك ، فقال لا طاقة لى بسماع ما أكره .

ورجع وجلس هؤلاء عند الباب الحديدى للقصر وبعثوا إلى يقولون إن لنا كلاما مع السلطان فأبلغه على الفور . فذهبت وكان السلطان مختليا بأبى منصور المستوفى فى قصر المشتى ، فبلغته الرسالة فقال : « إنى أعلم أنهم قد لعب برؤوسهم الخبال ، اسمع مقالتهم ثم تعال وقل لى مايريدون » . فرجعت إليهم وقلت : « الرائد لا يكذب أهله ، لقد قال قبل أن يستمع إلى رسالتكم إنهم جماعة لعب برؤوسهم الخبال » . فقالوا «فليكن ، أما نحن فنريد أن نبرىء ذمتنا» ثم وقفوا وأبلغونى مشافهة طويلة على نسق ماجاء فى كتاب الوزير وأكثر صراحة منها . فقلت لا أجرؤ على أداء التفاصيل على هذا النحو ، فالأصوب أن أكتب مشافهتكم فإنه لا محالة سيقرأ الكتابة كلها . قالوا نعم ماتقول . فأخذت القلم

وكتبت بدقة ماقالوا ، وكانوا يعاونونني ، ثم ذيلوا الرسالة بخطوطهم ، وأقروا أنها رسالتهم ٦٦٤ .

وتقدمت بها فأخذها السلطان وقرأها مرتين متمهلا ثم قال : « إذا جاء الأعداء هنا فإن أبا القاسم كثير سيعطيهم ماعنده من الذهب ويصبح عارضا ، وكذلك لدى أبي سهل الحمدوى من الذهب مايحصل به على منصب الوزارة ، وهذا حال طاهر وأبي الحسن ، إن الأصلح لي هو ماأعمل ، فاذهب وأقفل باب هذا الحديث . » فعدت إليهم وذكرت ما سمعت فصاروا جميعا يائسين حيارى . وقال الكوتوال ماذا قال عني ؟ قلت إنه والله لم يذكرك . وقاموا وهم يقولون « إنا أدينا ماعلينا ولم يبق لنا حديث هنا » وقفلوا راجعين . ثم غادر السلطان غزنة بعد هذه الرسالة بأربعة أيام .

انتهى هذا المجلد ودونت التاريخ إلى هنا . وتركت ذكر رحيل هذا السلطان رضي الله عنه إلى هندوستان إلى أن أذكره في المجلد العاشر فأبدأ بكتابة بابين عن خوارزم والجبال حتى اليوم كما هو شرط التاريخ وبعد الفراغ من ذلك أعود إلى ذكر الحوادث فأذكر رحيل هذا السلطان إلى هندوستان حتى نهاية حياته إن شاء الله عز وجل .

وقد بلغت في آخر المجلد التاسع من الحديث عن عصر السلطان مسعود إلى عزمه على الرحيل إلى هندوستان ، وقد قضى أربعة أيام تمهيدا للرحيل ، وبهذا ختمت المجلد . وقلت إني سأبدأ هذا المجلد العاشر بذكر بابين عن خوارزم والري ، كما أني سأذكر وجود أبي سهل الحمدوى والقوم هنالك وعودتهم وضياع البلاد من يدنا ، وقصة خوارزم وألتونتاش وخروج تلك الولاية من قبضتنا نهائيا ، حتى يستقيم السياق . وبعد الفراغ من هذا كله سأعود إلى سيرة هذا السلطان وأذكر ما كان في هذه الأيام الأربعة حتى آخر يوم من حياته التي دنت .

والآن أبدأ هذين البابين فإن فى كل منهما عجائب ونوادر كثيرة ، وسوف يتضح للعقلاء الذين يتأملون هذه القصص ، أنه مالم تصاحب عناية الله الناس فإن أمورهم لا تستقيم مهما كان عددهم وآلاتهم وحشمهم ، ومهما بذلوا من الجهد والجد ، فإلى أى شىء كان يفتقر السلطان مسعود مما ينبغى للملوك ، وقد كان لديه الحشم والخدم وأعيان الدولة وأرباب السيف والقلم والجيوش ٦٦٥ والفيلة الجرارة والدواب الكثيرة والخزائن العامرة ، ولكن حين قدر الله أن يقضى أيام ملكه فى الحسرة والألم ، وأن تضيع منه خراسان والرى والجبال وخوارزم ، لم يكن فى طوقه غير الصبر والاستسلام . فليس القضاء مما يستطيع الرجل أن يصارعه . وهذا السلطان رحمه الله لم يقصر ولو أنه كان مستبداً برأيه ، لقد جد ليلا ونهاراً ، ولكنه لم يوفق ، فإن الله تعالى كان قدر فى الأزل أن يفرط فى خراسان كما ذكرت . وكذلك الحال فى خوارزم والرى والجبال كما سأبين والله أعلم بالصواب .

ذكر خوارزم

خوارزم ولاية تشبه المملكة ، وهى ثمانون فى ثمانين ، بها مساجد كثيرة وكانت دائماً حاضرة للملوك العظام المستقلين ، فقد جاء فى سير ملوك الفرس أن أحد أقارب بهرام كور أتى إلى هذا الإقليم ، وكان قائداً لملك الفرس فاستولى عليه وهم يؤيدون صدق هذه الرواية . ولما جاءت دولة العرب أدامها الله ، وأبطلت رسوم الفرس ، وعلا شأنها بسيد الأولين والآخرين محمد المصطفى عليه السلام ، كانت خوارزم مستقلة . فقد أثبت التاريخ أن خوارزم كان يحكمها دائماً ملك مستقل ، ولم تكن هذه الولاية جزءاً من خراسان كختلان وصغانيان . وفى أيام المعاذيين والطاهريين حين تطرق بعض الضعف إلى الخلافة العباسية ظلت خوارزم على ما كانت عليه . والمأمونيون الذين انتهت دولتهم فى عهد السلطان محمود المبارك رضى الله عنه شهود عدول على ذلك .

وحيث أن أحوال هذه الولاية كانت على نحو ما ذكرت فقد رأيت لزاماً

أن أقدم خطبة فى افتتاح الحديث عنها وأن أتحدث بعض الحديث فى أخبارها وما يروى عنها مما يستسيغه العقلاء .

خطبـــة

إعلم أن الناس سموا بهذه التسمية لما لهم من القلوب والقلب يقوى ويضعف ٦٦٦ نتيجة لما يسمع وما يرى ، فلو لم ير ويسمع جيداً لما استطاع أن يسعد أو يشقى فى هذه الدنيـــا . فيجب أن نعلم أن العين والأذنـــين هى للقلب كالجواسيس والعيون يوصلون له ما يرون ويسمعون . والقلب يفيد مما تنقل إليه العين والأذن ، ثم يعرض القلب ما يتصل به من العلم على العقل الذى هو الحكم العدل لتمييز الحق من الباطل فيتقبل السمين ويرفض الغث . وهذا هو حرص الناس على سماع أو مشاهدة ما لم يعرفوا أو يسمعوا عنه من أحوال وأخبار الزمان ، ما كان منها قد مضى أو ماهو آت . ومن العسير الاطلاع على ما مضى من الأخبار التى يحصل عليها بالرحلة وتحمل المتاعب ، والتحرى عن الأحوال والأخبار أو بمطالعة الكتب الصحيحة ، والتأكد من الأخبار الموثوقة من بين سطورها . أما المستقبل فطريق معرفته مقفل لأنه أمر لم يأت أوانه فهو غيب محض ولو عرف الناس ما سيصيبهم من خير أو شر لما أصابهم ما يسيئهم . ولا يعلم الغيب إلا الله عز وجل. ومع ذلك فإن العقلاء شمروا عن ساعد الجد فى التحقيق عما يمكن التنبؤ به من أمور الغد، وهم لايزالون يحومون حوله ويتحدثون فى جد بأنهم لو تبصروا فيه لعرفوا شيئاً منه . وأخبار الماضى قسمان ليس لهما ثالث . فإما أن تسمعها من رجل أو تقرأهـا فى كتاب . ويشترط فى السماع أن يكون المتحدث ثقة صادقا ويشهد على صحة قوله العقل ويؤيده كلام الله تعـــالى ، فقد قيل لا تصدقن من الأخبار مالا يستقيم فيه الرأى . وكذلك يكون حكم الكتاب فتكون الأخبار التى به على صورة لا يردها العقل ويؤمن بها السامع ويستمع إليها العقلاء ويتقبلونها .

أما العامة فأكثرهم يميل إلى قبول الباطل المستحيل ، كأخبار العفاريت

والجن وغول الصحراء والجبل والبحر ، كأن يأتى أحد الحمق ويجتمع حوله خاق فيقول لهم بأنى رأيت فى البحر الفلانى جزيرة ، فنزلت بها مع خمسمائة من المسافرين ، وأعددنا الخبز ووضعنا القدور فلما حما وطيس النار وأثرت الحرارة فى الأرض تحولت من مكانها ، فنظرنا فإذا بها سمكة .ورأيت فى جبل كذا وكذا . ورأيت عجوزاً ساحرة أحالت رجلا إلى صورة حمار ثم جاءت عجوز أخرى فدهنت أذنه بدهن فارتد رجلا ، وأشباه ذلك من الخرافات التى تمهد النوم للحمق . وأما الذين يطلبون الصدق من القول ليتأكدوا ٦٦٧منه فهم العقلاء ولكنهم قليلون ، وهم يقبلون الحق ويرفضون الباطل .

قال أبو الفتح البستى ونعم ما قال :

إن العقول لها موازين بها   تلقى رشاد الأمر وهى تجارب

وإنى إذ عزمت على تدوين هذا التاريخ التزمت فى تدوينه هذا الرسم ، فهو إما عن مشاهدتى أو عن استماعى لثقة . وأذكر أنى رأيت منذ أمد بعيد كتاباً بخط الأستاذ أبى ريحان وهو نسيج وحده فى الأدب والفضل والهندسة والفلسفة ولم يكتب جزافاً وقد أطلت فى هذا الكتاب أكثر منه ، ليتقرر إلى أى حد احتاط لصحة ما أقول ، ولو أن الجماعة الذين أتحدث عنهم قد ذهب أكثرهم ولم يبق إلا القليل منهم . وقد صدق أبو تمام حين قال :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها   وكأنها وكأنهم أحلام

وليس لى بد من إتمام هذا الكتاب إحياء لأولئك العظماء ليكون ذكرى من بعدى ، يتصفحه الناس فتثبت لديهم مدى عظمة هذه الأسرة أدامها الله .

هذا وقد رأيت من الأصوب الابتداء بذكر المأمونيين فى تاريخ ملوك خوارزم . كما أن عندى ملاحظات من أبى ريحان تشير إلى الأسباب التى أدت إلى زوال دولتهم ، وكيف استولت عليها الدولة المحمودية ، ومتى سار السلطان الفقيد محمود إلى تلك البلاد ، وكيف دانت له ، وإقامته الحاجب ألتونتاش حاكماً عليها ، وعودته بعد ذلك ، وكيف سارت الأمور فيها إلى أن تمرد

هرون بن ألتونتاش وسلك طريق الخيانة ، وانقرضت أسرة ألتونتاش فى خوارزم ، فإن فى هذه الأخبار عجائب ونوادر كثيرة تفيد القراء والمستمعين وتوقظهم .

وأسأل الله التوفيق لإنجاز هذا التأليف إنه سبحانه وتعالى خير موفق ومعين .

حكاية خوارزم شاه أبو العباس ٦٦٨

يقول أبو ريحان فى مسامرة خوارزم[1] كان خوارزمشاه أبو العباس المأمون ابن المأمون رحمة الله عليه آخر أمراء هذه الأسرة التى انقرضت بوفاته وانتهت دولة المأمونيين . وقد كان رجلا فاضلا شهماً نشيطاً بعيد النظر فى التدبير يتحلى بالأخلاق الفاضلة إلا أنه لم يخل كذلك من مساوىء . وأقرر هذا حتى يعرف أنى لا أحابى فقد قيل : « إنما الحكم فى أمثال هذه الأمور على الأغلب الأكثر ، فالأفضل من إذا عدت فضائله استخفت فى خلال مناقبه مساويه ، وإذا عدت محامده تلاشت فيما بينها مثالبه » . وأكبر فضائل الأمير أبى العباس عفة لسانه وإمساكه عن الشتم والفحش والخرافات ، فإنى أنا أبو ريحان ، وقد خدمته سبع سنين ، لم أسمع لفظاً نابياً جرى على لسانه ، وكان أقصى ما يقول وهو فى شدة الغيظ يا كلب . وكان بينه وبين السلطان محمود صداقة متينة وكان بينهما عهد . وقد تزوج أخت الأمير سبكتكين السيدة كالجى فأقامت فى ستره ، واتصلت بينه وبين محمود المكاتبات والملاحظات والمهاداة . وكان أبو العباس يراعى جانب السلطان محمود فى كل شىء ، ويبدى له من التواضع ما لا حد له ، إلى درجة أنه كان حين يجلس للشراب يدعو صفوة الأولياء والحشم والندماء وأبناء الأمراء الذين كانوا فى البلاط من السامانيين وغيرهم ، وكان يأمرهم بدعوة الرسل الذين جاءوا من الأطراف ، وكانوا يدعونهم

---

(١) يشير إلى كتاب « المسامره فى أخبار خوارزم » لأبى ريحان البيرونى (مقدمة الآثار الباقية) .

بما يليق بمكانتهم ويجلسونهم ، فكان إذا أمسك بالقدح الثالث يقف ويشربه في نخب ذكرى السلطان محمود ثم يجلس . وكان الحاضرون جميعاً يقفون ثم يشير إليهم واحدا واحدا فيقبلون الأرض ويقفون حتى يشربوا الكأس جميعاً ثم يشير إليهم بالجلوس ويجيء الخادم وفي أثره يؤتى بصلات المغنين ، لكل واحد منهم حصان قيم وكسوة وكيس به عشرة آلاف درهم . وكذلك كان يرعى جانب السلطان محمود إلى حد أن أمير المؤمنين القادر بالله رحمة ٦٦٩ الله عليه كان قد أرسل إليه خلعة مع العهد واللواء ولقب عين الدولة وزين الملة بواسطة حسين سالار الحجاب وخشي خوارزمشاه أن يغضب السلطان محمود ويستقصي الأمر ويقول كيف ينال من الخليفة خلعة ويحصل منه على هذا التكريم والإجلال بغير وساطتي وشفاعتي ، وعلى هذا فقد أرسلني ، مجاملة منه لمحمود ، لاستقبال الرسول عند منتصف الطريق ، فتسلمت سراً هذه الخلع وجئت بها إلى خوارزم وأعطيتها إليه ، فأمر بكتمان خبرها ، فلم يعلن أمرها طوال فترة اتصال الود بينهما . وبعد ذلك ، وحين آوان زوال هذه الدولة ، ظهرت تلك الفعال . وكان من الأمر ما كان .

وكان خوارزمشاه حليما إلى حد أنه كان ذات يوم يشرب وهو يستمع إلى عزف العود ، وكان يرعى الآداب كثيراً فإنه كان رجلا واسع الفضل أديباً كبيراً ، وكنت في حضرته ومعي رجل اسمه صخرى ، كان رجلا فاضلا وأديباً يحسن الرواية والترسل ، ولكنه كان قليل الحياء ، إذ رغم ما أوتيه من الفضل لم يكن لديه أدب النفس ، وقد قيل إن أدب النفس خير من أدب الدرس . كان صخرى هذا يمسك الكأس ويريد أن يحتسى منها حين صهلت خيول النوبة التي كانت على باب السراى ، وأطلق أحدها ريحاً قوياً فقال خوارزمشاه ممازحاً : في شارب الشراب . فألقى صخرى ، لرعونته وسوء أدبه ، بالكأس . فخفت وظننت أنه سيأمر بضرب عنقه ، ولكنه لم يفعل بل ضحك وتغاضى عما فرط من الرجل كما يفعل الحليم الكريم .

وسمعت أنا ، أبو الفضل ، حين كنت بنيسابور من الخواجة أبي منصور الثعالبي مؤلف كتاب « يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر » وغيره كثير ، وكان

قد رحل إلى خوارزم وعمل قديما لخوارزمشاه فترة ، وألف باسمه كتباً كثيرة سمعته يقول كنا ذات يوم فى مجلس الشراب نتحدث فى الأدب فجرى الحديث عن نظر فقال خوارزمشاه « همتى كتاب أنظر فيه وحبيب أنظر إليه وكريم أنظر له » وحكى أبو ريحان أن خوارزمشاه ركب ذات يوم وكان ثملا فاقترب من حجرتى وأمر بمناداتى فتمهلت فأسرع بحصانه حتى باب حجرة ٦٧٠ نوبتى ، وأراد أن يترجل ، فقبلت الأرض وأقسمت أغلظ الأيمان حتى لا يدخل فقال : «العلم من أشرف الولايات يأتيه كل الورى ولا يأتى »

ثم قال : « لولا الرسوم الدنياوية لما استدعيتك فالعلم يعلو ولا يعلى » ولعله قد طالع أخبار المعتضد أمير المؤمنين إذ قرأت فيها أن المعتضد كان يوماً فى البستان وكان يمسك بيده ثابت بن قرة ويسير معه ، وفجأة سحب يده فسأله ثابت لماذا سحبت يدك يا أمير المؤمنين فقال «كانت يدى فوق يدك والعلم يعلو ولا يعلى » والله أعلم بالصواب .

ذكر سبب انقطاع المالك عن ذلك البيت وانتقاله إلى الحاجب ألتونتاش رحمة الله عليهم

كانت الصلة بين السلطان محمود وأبى العباس خوارزمشاه تبدو فى الظاهر على خير ما يرام ، وكانت الصداقة والعهود مؤكدة ، ثم رغب السلطان محمود فى أن يكون بينه وبين الخانيين صداقة وعهد ، بعد حرب أوزكند ، وذهب القادة لهذا الأمر ، فأحب أن يذهب رسول من قبل خوارزمشاه مع رسله حتى يكون على بينة مما يجرى ساعة عقد الميثاق مع الخانيين . فلم يرق هذا الطلب لخوارزمشاه وأبى أن يشترك فيه ، فأجاب على لسان رسوله قائلا : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ثم قال إنى واحد من خاصة السلطان ولا صلة لى بالخانيين فلا أبعث لهم الرسول بأية حال» فتلقى منه السلطان محمود هذا الجواب

على غير ما كان يتوقع من جهة ومن جهة أخرى داخل قلبه البغض لخوارزمشاه، فأساء به الظن، وقال للوزير أحمد حسن يبدو أن هذا الرجل ليس مخلصا لنا حتى أنه يجيبنا على هذا النحو . فقال الوزير سأعرض عليه أمرا لنتأكد إذا كان معنا أو علينا . فقال السلطان ماذا ستفعل . فأطلعه على نيته فاستحسنها السلطان . ثم أسر الوزير لرسول خوارزمشاه قائلا « ماهذه التصورات الباطلة التي يسير عليها أميرك وماهذه الخيالات التي تتراءى له بشأن إيفاد سفير إلى الخانيين»،

٦٧١ وظل يحدثه على هذا النحو إلى أن قال له : « وأنه يجلب على نفسه التهمة على غير أساس فى أمر سلطاننا بعيد عنه كل البعد ، فإذا أراد أن يخلص من هذا القيل والقال ويقضى على مطامع الطامعين فى ولايته فلماذا لا يجعل الخطبة باسم السلطان حتى يستريح من هذا كله . والحق أنى أتحدث إليك ناصحاً من تلقاء نفسى لأنى عنه التهمة وليس للسلطان علم بما أقول ولم يأمرنى به » .

ذكر ما جرى فى باب الخطبة وما ظهر من الفساد والبلايا لأجلها

قال أبو ريحان : فلما جاء إلينا هذا الرسول من كابل ، فقد كان السلطان محمود فى ذلك العام بالهندوستان ، وروى هذا الحديث ، نادانى خوارزمشاه واختلى بى وقص على ما قاله الوزير أحمد حسن فى هذا الأمر فقلت له . إنس هذا الحديث ، « أعرض عن العواء ولا تسمعها فما كل خطاب محوج إلى جواب » واغتنم قول الوزير إنه متبرع بهذا القول ، وإنه يسديه نصيحة منه ، وإن سلطانه لا يدرى عنه شيئاً ، واكتم هذا الحديث ولا تفض به لأحد ، لأن فى الإفضاء به شراً عظيما . فقال خوارزمشاه : « ما هذا الذى تقول ، إن هذا كلام لا يقال بغير أمر السلطان وليس محمود ممن يلعب معهم بمثل هذا ، وأخشى إذا لم أجعل الخطبة باسمه طوعاً أن يحملنى عليها كرها ، والصواب أن نبعث سفيراً على عجل يتحدث إلى الوزير فى هذا الأمر ، على نحو يحملهم على أن يطلبوا منا الخطبة بأنفسهم فتكون منة منا ، ولا يجوز أن نقهر على هذا » فقلت الأمر للأمير . وكان هناك رجل اسمه يعقوب الجندى ، كان شريرا طماعا ملتوى

القصد ، وكان قد سفر أيام السامانيين وأرسل إلى بخارى ، فطلب سراً من خوارزمشاه أن يجعله سفيره ، فعينه لهذا وحاول أبو سهل وغيره عبثاً منع هـذا التعيين فإن القضاء قضى ، وخفى على الأمير حال هـذا الرجل الماكر وبعثه . فلما بلغ غزنة تظاهر بأن أمر الخطبة وغيرها سيتم بواسطته وأخذ يبالغ ويمن وكان محمود والوزير لا يقيمان لكلامه هـذا وزنا ، فلما يئس من ٦٧٢ نجاح مسعاه أقام فى غزنة وكتب رقعة لخوارزمشاه بلهجة خوارزم ، وأسرف فى الكلام والنميمة بين السلطان محمود وخوارزمشاه ، فأضرم نار الفتنة بينهما . ومن النوادر والعجائب أن تقع هذه الرقعة فى يد السلطان محمود ، بعد ذلك بثلاث سنوات ، وكان قد استولى على خوارزم ، وأعيد النظر فى الوثائق وفى ديوان الرسائل ، فأمر بترجمتها ، فلما تليت عليه استشاط غيظا ، وأمر بتعليق الجندى على المشنقة ويقتله رجما بالحجارة : « فأين الرابح إذا كان رأس المال خسران[1] » ، فإن الحيطة واجبة على الكتاب فى كل ما تسطر أقلامهم لأن القول يمكن العدول عنه وأما المسطور فلا رجعة فيه . وكتب الوزير لخوارزمشاه وأسدى له النصائح ، وأرهبه ، لأن القلم يؤثر إذا آزره السيف . وكان الوزير يتخذ من السلطان محمود ظهيرا . فلما وقف خوارزمشاه على جلية الأمر اشتد خوفه من سطوة محمود ، الذى كان قد أوقع الفزع فى قلوب ملوك عصره ، وعز عليه النوم ، فدعا إليه أعيان جيشه مع مقدمى الرعية وبين لهم ما ينوى عمله فى أمر الخطبة فإنه يخاف على نفسه وعلى أهل بلاده إذا لم يخطب لمحمود ؛ فتصايحوا جميعاً وقالوا لا نرضى بهذا على أية صورة ، وخرجوا من عنده فنشروا الأعلام وامتشقوا السيوف وسبوا خوارزمشاه سباً مقذعا ، ولكنه استطاع أن يهدئهم بعد جهد كبير ، ذلك أنه قال لهم إنا نمتحنكم فى هذه القضية لنعرف حقيقة نواياكم وما تنطوى عليه قلوبكم . واختلى بى خوارزمشاه وقال لقد رأيت ما جرى فمن يكون هؤلاء حتى يتطاولوا على أميرهم ؟ قلت « لقد

---

(١) انظر نسخة فياض وغنى ص ٦٧٢ ونسخة نفيسى ٨١٧

بينت للأمير أن ليس من الصواب الدخول فى هـذا الأمر فلم يقبل ، والآن وقد حدث هذا ، فلا مفر من تلافيه حتى لا يراق ماء وجهنا ، وقد كان الأولى أن نفاجئهم بهذه الخطبـة بغير استشارتهم ، فإذا سمعوها لا يجرؤ أحد على التحدث عنها ، والآن وقد بدا عجزك فسوف تفقد صداقة محمود ، ولا يمكن التغاضى عما حدث . قال الأمير : راجع هؤلاء القوم رجلا رجلا لترى ما يمكن عمله . فذهبت وألنت عريكة زعمائهم بحديث الذهب والفضـة ، فعدلوا عن العصيان وجاءوا إلى البلاط فرغوا وجوههم فى تراب عتبة الباب وبكوا ٦٧٣ وقالوا إنا أخطأنا . فنادانى خوارزمشاه واختلى بى وقال إن هـذا الأمر لن يستقيم . قلت إنه لكذلك . قال فما الحل . قلت إن السلطان محمـود قد أصبح عدوا لنا وأخاف أن ينتهى الأمر إلى السيف . قال حينئذ ماذا يكون من مثل جيشنا هـذا ؟ قلت لست أدرى فإن العدو شـديد البأس قوى الشكيمة لديه الوافر من الآلات والعدد وعنده جنـد من كل صنف ؛ ولو أن جيشـه هزم مائة مرة لعاد من هزائمه أقوى منا ، ولو هزمنا مرة واحدة والعياذ بالله لتغير حالنا . فضجر الأمير ضجرا شديدا من قولى حتى أنى لمست كراهيته لى « وتذكيرى إياه معتاد البتة » . قلت : هناك شىء آخر أهم من كل ما سبق أذكره لو أذن الأمير . قال قل . قلت إن خانات تركستان ساخطون على الأمير وهم أصدقاء للسلطان محمود ومن الصعب التغلب على خصم واحد ، فإذا اتحد الخصمان فإن أمر مقاومتهما يطول ، فلابد من استمالة الخانيين فإنهم اليوم مشتغلون بحرب على حدود أوزكند ، وعلينـا بذل الجهد لإقرار الصلح بين الخان والإيلك بواسطة الأمير ، فإنهم سيقدرون هذا كثيرا ويقبلون الصلح ، ويفيد الأمير بذلك فائدة عظيمة ، وإذا تصالحوا فإنهم لن يثيروا خصومة أبدا . قال : « أرجىء هذا حتى أتفكر فيه » فقد أراد أن يظهر بأنه وحده صاحب هذه الفكرة . ثم إنه صمم على هذا الرأى وجد فيه ، وبعث الرسل مع الهدايا الغالية حتى يتم الصلح بين المتقاتلين على يديه ، فاصطلحوا ، وحفظوا له هـذا الجميل ، فقد كان حديثه أطيب أثرا فى تهدئة الحرب من حديث السلطان محمود .

وأوفدوا إليه الرسل وقالوا له إن هذا الصلح من بركات اهتمامه وشفقته . وعقدوا معه العهد وتبادلوا وإياه الصلات . فلما بلغ هذا الخبر السلطان محمود أعمل فيه خياله وأساء الظن بكل من خوارزمشاه وخانات تركستان ، وسار حتى بلغ بلخ ، وبعث برسله معاتباً الخان والإيلك عما جرى . وأجاباه : « بأنا كنا نعرف أن خوارزمشاه صديق السلطان وصهره ، ونعرف أن السلطان كان راضيا عنه إلى حد أنه حين أرسل إلينا رسله وأبرم العهد معنا ، طلب من خوارزمشاه أن يعين رسولا من قبله ليشهد ما يكون بيننا وبين رسله ، فلم يستجب لذلك ولم يوفد رسولا ، وإذا كان السلطان غاضباً عليه اليوم فالواجب ألا يعتب علينا . والخير أن نتوسط حتى تعود الألفة بينكما إلى ما كانت عليه » . ولم يكن لدى السلطان محمود ما يجيب به على هذا الحديث فقد كان حديثا ٦٧٤ مسكتا . فظل صامتا وأساء الظن بالخانيين . ومن ناحية أخرى أوفد الخان رسولا إلى خوارزمشاه سرا ليقص عليه ما جرى فأجابه « بأن الصواب هو أن نرسل عدة أفواج من الفرسان المسرعين إلى خراسان وعليهم ثلاثة من المقدمين المتنكرين ، ونبعث معهم بجماعات غير معروفة حتى ينبثوا فى خراسان ويقع محمود ، رغم أنه رجل صنديد خفيف الحركة ، فى حيرة إذ أنه لا يعرف أى فوج يقابل ، فكلما قصد جماعة واتجه إليها برزت له جماعة من جهة أخرى فيظل حائرا . ولكن لا بد من أخذ المواثيق على الأفواج ممن أرسلهم وعمن توفدونهم كيلا يزعجوا الرعية بعد تلك الغارات وكى يهدؤوا روع الناس حتى يطمئنوا إلينا . وهذه هى الخطة الواجبة لأننا لا نستطيع ملاقاة جيوشه الجرارة » .

وتدبر الخان والإيلك الأمر فلم يجدا من الصواب اتباع هذه السياسة وأجابا بأن خوارزمشاه يرمى من هذا العرض إلى أن يبقى وبلاده فى أمان وبيننا وبين السلطان محمود عهد وميثاق . ولا نستطيع أبدا أن ننكث بعهدنا ، فإذا أراد خوارزمشاه فإنا نتوسط للصلح ونصلح ما فسد بينه وبين السلطان محمود . فقال خوارزمشاه حسنا .

. . كان السلطان محمود يقيم فى هذا الشتاء فى بلخ ، فاطلع على ماجرى إذ كانت له عيون يعدون على الناس أنفاسهم ويرفعونها إليه ، فكان شديد القلق والاضطراب . فلما استقر الرأى على وساطة الخان والإيلك اطمأن وهدأ ، وجاءت إليه رسلهما يحملون كتباً فى هذا الأمر ، وأدوا رسائلهم . فأجابهم بما ينبغى أن يجيب به من أنه لم يكن أكثر من القلق وقد زال هذا كله بوساطتهم وحديثهم . وعاد الرسل. ثم إن السلطان محمودا أرسل رسولا إلى خوارزمشاه « ليخبره بحقيقة ما تقضى به العهود والمواثيق التى كانت بيننا ومدى حقنا عليه وأنه راعى جانبنا فى أمر الخطبة لأنه عرف ما سيكون عليه مآل أمره إذا تجنبها ، ولكن قومه ولا أقول حاشيته لم ينصاعوا وليس للرعية حق فى أن يقولوا للسلطان إفعل أو لا تفعل ، فذلك دليل على عجزه وعلى أنه ليس حرا فى شئون ملكه ، وإنا قد أقمنا مدة طويلة فى بلخ وعبأنا مائة ألف فارس وراجل وخمسمائة فيل لعلاج هذا الأمر ولنؤدب هؤلاء القوم العصاة الذين يعترضون على أمر ملكهم ليعودوا إلى الصراط المستقيم وكذلك لنرفع من شأن الأمير الذى هو أخونا وصهرنا ونفهمه كيف تكون الإمارة فإن الأمير الضعيف لا يجدى نفعا ، والآن يجب أن يكون أمامنا عذر واضح حتى نعود إلى غزنة ، فلا مفر من اختيار أحد أمور ثلاثة إما أن تقرأ الخطبة باسمنا طوعا أو كرها وإما أن ترسل إلينا النثار والهدايا العظيمة التى تليق بنا على أنا سنعيدها سراً إليكم إذ ليس لنا حاجة إلى مزيد من المال فإن أرض قلاعنا لتميد من ثقل ما تحمل من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وإما أن ترسل إلينا أعيان بلادك وأئمتها وفقهاءها حتى يقدموا المعاذير ويطلبوا الصفح وذلك حتى نستطيع العودة بهذه الآلاف العديدة من الجند » . فارتعدت فرائص خوارزمشاه من هذه الرسالة ولم ير بدا من إطاعة أمر السلطان بعد هذه الحجة القوية فتقدم اليه بالمجاملة والمداراة ، وقرر أن تكون الخطبة باسم السلطان محمود فى نسا وفراوة فقد كانتا فى حوزته حينذاك وفى سائر البلاد كذلك عدا خوارزم وكركانج ، كما أرسل للسلطان ثمانين ألف دينار وثلاثة آلاف حصان مع مشايخ هذه البلاد

٦٧٥

وقضاتها وأعيانها وذلك حتى تستقر الأمور وتبقى المجاملة بينه وبين السلطان قائمة وتخمد الفتنة بينهما والله أعلم .

تسلط الأشرار

كان لخوارزمشاه جيش قوى يتكون من ألف فارس على رأسهم كبير الحجاب البتكين البخارى وقد انطوت قلوبهم جميعاً على الغدر والمكر ، فلما سمعوا بهذا الحديث رأوا لأنفسهم فيه حجة بالغة ، فصاحوا بأن ليس لمحمود سلطان علينا ، وتحركوا بخيولهم الألف وقد صرح الشر فقتلوا وزير هذا الأمير وشيوخه الذين نصحوه ودفعوا عنه هذا الحرج العظيم ، وهرب بقية رجال الأمير وتواروا عن الأنظار لأنهم كانوا يعرفون نوايا هؤلاء الأوباش . ثم قصد الأوغاد دار الإمارة فحاصروها وفر خوارزمشاه من فوق القصر فأشعلوا النار فيه ، ثم لحقوا به وقتلوه . وكان ذلك يوم الأربعاء منتصف شوال سنة سبع وأربعمائة (١٠١٦-١٠١٧) ، وكان عمر هذا الأمير المنكود إثنين وثلاثين ٦٧٦ عاما . ثم جاء الثوار فى الحال بابن أخيه أبى الحرث محمد بن على بن مأمون وأجلسوه على العرش ، وكان فى السابعة عشرة من عمره ، واستولى البتكين على شؤون الملك وكان وزيره أحمد طغان . وقد نحى هذا الطفل جانباً ، فإنه لم يكن يعرف من أمور الدنيا شيئاً ، فكانوا يفعلون باسمه ما يريدون من القتل وسلب الأموال ونهب البيوت ، ويشيعون بكل قواهم الضغائن والخصومات بينه وبين الناس ، وخلا لهم الجو أربعة أشهر ، فدرست على أيديهم قاعدة ملك تلك البلاد وجرى على المسلمين من الجور ما لم يعانوا مثله فى بلاد الكفار . فلما وقف السلطان محمود على كل هذا قال للأستاذ الوزير أحمد حسن لم يبق ثمة عذر وقد غنمنا خوارزم فلابد لنا من المطالبة بهذا الدم الذى أريق فنقتل من قتل صهرنا بدمه ونطلب ميراثه . فقال الوزير « الأمر كما يقول السلطان فإننا لو قصرنا فى هذا الأمر فإن الله لا يرضى بتقصيرنا ويسألنا عنه يوم القيامة ، ونحن ولله الحمد نملك كل شىء ، والجيش تام الأهبة كامل العدة ، والجنود

بفضل الله الأكبر مستريحون إذ قضوا شتاء فى غير مشقة ، وسنحصل على ما نريد فى أسرع وقت ، ولكن الصواب أن نرسل أولا رسولا ليلق الرعب فى قلوب هؤلاء الناس لهذا الذى اجترءوا عليه ، ويبين لهم إنه اذا أردتم ألا نطالب بالثأر ،وأن نبقى هذه الأسرة على العرش ، فعليكم أن ترسلوا الجانين إلى بلاطنا ، وأن تكون الخطبة باسمنا ، فإنهم سوف يختتمون هذا العرض ويسلمون نفرا من المشاغبين ويقولون ها هم الذين قتلوه ، ويتظاهر رسولنا بالرضا عن هذا ويأتى بالتراب والملح وذلك حتى يقع فى روعهم أن الأمر استتب ، فحينئذ يقول لهم الرسول من تلقاء نفسه : الأصلح لكم أن تعيدوا السيدة أخت السلطان بكامل الإجلال لتكون شفيعة لكم عنده ، فسوف يقبلون هذا خوفا مما قدمت أيديهم ، أما نحن فنعد العدة لهم خفية ، فإذا جاءت الكتب بأن السيدة قد بلغت آموى سالمة نشعل الفتيل ونرفع النقاب ونصرح بما لا نستطيع أن نقوله اليوم لوجود السيدة هنالك ، فنقول إن هذه الفتنة قد أشعلها المقدمون من أمثال البتكين وغيره فإذا أردتم ألا نغزو بلادكم فعليكم ٦٧٧ بالإسراع فى تسليمهم حتى لا نتعرض لكم . فقال السلطان نعم هذا ما يجب عمله وعين الرسول وسلموه هذه الأوامر ، وأطلعوه على الحيل وسار وأرسل الوزير سرا ، رسولا إلى ختلان وقباديان وترمذ ، فدبروا الأمور وأعدوا السفن وجمعوا العلف عند آموى . ووصل الرسول إلى خوارزم وأفضى بسفارته وأعمل لطائف الحيـــل حتى أوقع القوم فى الشرك[1] فأعد الجماعة العدة اللازمة برحيل السيدة على أحسن وجه خشية غضب السلطان. فوصلت مع التوديع اللائق بها . ثم أمسكوا بستة رجال وقالوا هؤلاء هم الذين أراقوا دم الأمير وألقوا بهم فى السجن وقالوا حين يعود رسولنا ويتم الاتفاق بيننا ، يرسل هؤلاء إلى بلاط السلطان ؛ وعينوا رسولا من قبلهم حتى يذهب مع رسول السلطان ، وضمنوا أنهم إذا عدل السلطان عن قصد خوارزم وزال الغل عن قلبه وأبرم معهم العهد والميثاق ، فإنهم يقدمون له مائتى ألف دينار

---

(١) المثل الفارسى يقول دوم رانحوال درو كرد . ومعناه أدخل القوم فى الشوال

وأربعة آلاف فرس . فلما اطلع السلطان على الكتاب سار إلى غزنة ، وأقبل الرسل كذلك وشرحوا له الأمر فأصدر أوامره ثم طلب إرسال البتكين والمقدمين الآخرين حتى يتم القصاص . فتبين لهم حينئذ أنهم خدعوا . وأخذوا يستعدون لخوض المعركة وجمعوا من الرجال خمسين ألفا من خيرة الفرسان ، وتعاهدوا على أن يقاتلوا حتى الموت ، فإن جيش السلطان يأتى ليثأر من الجميع ، وقالوا فلنتضافر ولنسند كل منا أخاه فنبذل كل ما فى طاقة البشر من جهد . وكان السلطان قد أمر بالكتابة إلى كل من الخان والإيلك عن مقتل خوارزمشاه ، وأن ترسل الكتب على يد فرسان مسرعين ، وأن يبين فيها سوء ما جرى واستنكاره ، وأن يذكر فيها صراحة بأنه سيطالب بالثأر لصهره وسيستولى على خوارزم ، حتى تنتهى مناعبه ومتاعبهما بذلك . ورغم أن الخان والإيلك لم يعجبهما هذا الأمر ، ورغم علمهما بأنه حين يستولى على خوارزم سيكون كالشوكة القوية فى قلبيهما ، فإنهما كتبا إليه أن الصواب ما رأى السلطان ، وأن ما سيعمله واجب تقتضيه المروءة والسياسة والدين ، حتى لا يجرؤ أحد من الرعية بعد هذا على إراقة دم الملوك . ولما كانت الاستعدادات قد تمت كلها توجه السلطان إلى خوارزم ، رغم حرارة الجو ، وقد سار فى حيطة عن طريق آموى . وبدت فى المقدمة التى يرأسها محمد الأعرابى اضطرابات ٦٧٨ شديدة فسارع السلطان بإخمادها ، وفى اليوم التالى قابل السلطان العصاة قتلة الأمير فرأى جيشا عظيما يمكن السيطرة على الدنيا بمثله ، ويستطيع أن يهزم كثيرا من الأعداء ولكن سخط الله تعالى عليهم كان قد أذهلهم ، وكان دم الملك القتيل قد هد عزائمهم ، فهاجموا قلب جيش السلطان بشدة ، وما لبثوا أن هزموا بحيث ارتطم بعضهم ببعض . وهذه القصة طويلة مشهورة فلن أطيل الحديث فيها ، وأعود إلى كتابة التاريخ حتى لا أبتعد عن الغاية من الكتابة . وفى هذا القدر الكفاية .

وللعنصرى قصيدة عصماء فى هذا الباب ، فيجب التأمل فيها حتى تتضح الغاية التى قيلت فيها وهذا هو مطلعها :

« هكذا تخلد الآثار بسيف الملوك ، وهذا هو عمل العظماء حينما يقدمون على أمر ، لا تقرأ التاريخ بل انظر إلى سيف السلطان ، فإن سيفه أصدق إنباء من الكتب . »

وليس أجل منها قصيدة . فقد جمع فيها كل ما يمكن من المهارة وروعة التعبير . وكان هذا مقتضى الحال ، حال الفتح وحال الممدوح . وبعد إلحاق الهزيمة بجيش الأعداء تعقبهم المبارزون المسرعون وعلى رأسهم السپهسالار الأمير نصر رحمة الله عليه فلحقوا بالمنهزمين ، وأسروا منهم كثيرين ، وانتهى الأمر بالقبض على البتكين البخاري وخمارتاش الشرابي وشادتكين الخاني ، الذين كانوا رؤوس هذه الفتنة والمدبرين لها ، وعلى عدد من شركائهم في القتل وأحضروهم جميعاً حاسري الرؤوس أمام السلطان . وقد سر بهذا كثيراً وأمر باعتقالهم والتحفظ عليهم . جاء السلطان إلى خوارزم واستولى عليها وجمعوا الخزائن وقضوا على الأمير الجديد مع جميع أفراد الأسرة المأمونية ومن إليهم . ولما فرغوا من هذا ، أمر بنصب ثلاث مشانق ، وألقى الرؤساء الثلاثة تحت أقدام الفيلة فقتلتهم ، ثم وضعوهم على أنيابها ليطاف بهم في المدينة ونودي « هذا جزاء كل من يقتل أميره » ، ثم علقوا الجثث بالمشانق وقد شدت إليها بالحبال ووصلوا بين رؤوس المشانق ببناء من الآجر والجص كأنها جسور ثلاثة وكتبوا أسماءهم عليها . وقدوا كثيراً من القتلة نصفين ، ٦٧٩ وقطعوا من كثيرين منهم أيديهم وأرجلهم ، وحصلت بهذا هيبة عظيمة . ثم فوض السلطان أمر هذه البلاد إلى ألتونتاش وأبقى معه أرسلان جاذب مدة حتى تستقر أحوال تلك الناحية تماما ، وعزم على العودة سريعاً بعد أن أحضروا له فرس خوارزمشاه . وهكذا عاد السلطان رضى الله عنه مظفراً منصوراً إلى غزنة . وكان قطار الأسرى ممتداً من بلخ حتى لاهور وملتان وقد حمل المأمونيون إلى القلاع ليعتقلوا بها . وبعد عودة السلطان جمع أبو إسحق حمو أبي العباس كثيراً من الرجال وجاء فجأة إلى خوارزم ليستولي عليها ، ودارت حرب طاحنة وهزم أبو إسحق وفر وشرد معظم رجاله ، وأمر أرسلان

جاذب بإجراء مقتلة عظيمة منهم ، مما ذكر الناس بأيام الحجاج ، وترتب على هذا ضبط تلك النواحي فخلدت إلى الهدوء ، ولم يبق ثمة حاجة للتنكيل . ورجع أرسلان جاذب . وبقي ألتونتاش هناك ، وكان رجلا كفئا ذا رأي وتدبير كما جاء مرات في هذا التاريخ عن آثاره وأخباره . وها هنا مثل يدل على شهامته لم أشر إليه من قبل فرأيت لزاما ذكره هنا . سمعت الأستاذ أحمد عبد الصمد يقول « بعد أن عاد السلطان محمود من خوارزم ، وكانت الأمور قد استقرت ، كان هناك ألف من فرسان السلطان مع مقدميهم مثل قلباق وغيره عدا الغلمان ، فقال لي ألتونتاش ينبغي أن توضع قاعدة قوية تجعل الأوامر على نسق واحد ، فلا يجرؤ أحد على أن يتذرع بحجة إقامته في البلاد ويثور غاضبا ، فهذا الجيش يلزمه كل عام أموال طائلة لنفقاته وهـــدايا فاخرة من السلطان للأعيان ، وهؤلاء الناس يعتقدون أن هذه البلاد طعم لهم ، فاغتصابها غير محرم عليهم ، ولو سار الأمر على هذا النحو لأصبح متعذراً علينا أن نعمل فقلت إنه لكذلك ولا يمكن غير هذا . فوضعنا ، ألتونتاش وأنا ، قاعدة محكمة . وكانت الهيبة تزداد يوما بعد يوم ، واستقام تدريجا أمر كل من كان يدعي القوة والبأس . وركبت ذات يوم لأذهب إلى الديوان فتقدم نحوي وكيل البلاط تاش وقال ٦٨٠ إن الغلمان يركبون ويحملون النجائب وإن ألتونتاش يلبس لامته ولا أدري ما الخبر ؟ فتحيرت كثيراً وأمعنت في التفكير ولم أستطع الحدس بالسبب الذي دعاه إلى هذا . فسارعت بالسير إليه فلما قربت منه وجدته واقفا يشد منطقته . قلت ماذا ؟ قال إني سائر للقتال ، قلت ليس هناك ما يدل على مجيء عدو . فقال : ألا تعلم أن غلمان وسوباشي قلباق قد ساروا لينهبوا رحل السلطان وفي ذلك فساد عظيم ، وإذا ما خرج عليّ أهل داري فليس لي من سبيل لمقاتلة أعدائي . فتلطفت معه كثيراً حتى يجلس وجاء قلباق وقبل الأرض واعتذر كثيراً وقال إني تبت إليك ولن يحدث شيء مثل هذا بعد الآن . وهدأت الأحوال وانتهى هذا الحديث ولم يحدث شيء كهذا طول حياته . والرجل كل الرجل من عرف من أين تؤكل الكتف . وبعد أن توفي في قلعة دبوسي أثر عودته من بخارى

كابينت ، أعادوا هرون من بلخ للمرة الثانية ثم استدعوا بعد ذلك أحمد عبد الصمد إلى نيسابور وقلدوه الوزارة ، وعاد ابنه عبد الجبار من سفارة جرجان وخلعوا عليه خلعة كتخدائية خوارزم ، فسار إليها فطغى هنالك وتجبر اعتزازاً بمقام أبيه الوزير ، وكف يد هرون ورجاله عن التصرف فى أى شيء[1] فضاق هرون صدرا بذلك ونفد صبره وأحاط به قرناء السوء والنمامون وأخذوا فى الدس ، وانتهى بهم الأمر إلى أن صوروا له أن أخاه ستى قد مات فى غزنة نتيجة لإلقائه من فوق السطح ، وأن خراسان تلوثت بالتراكمة قبل أن تطأ أقدام السلاجقة أرضها ، كما أن منجما تنبأ لهرون بأنه سيكون حاكما لخراسان فأخذته العزة بذلك ، وبدأ يحتقر أوامر عبد الجبار ، وينتقد أعماله ، وكانوا ينقدون أقواله فى مجلس المظالم حتى بلغ الأمر بهرون إلى أن صرخ يوما فى وجه عبد الجبار فى مجلس المظالم وأهانه ، ولذا عاد إلى داره يتميز غيظا . وتوسط الناس لإصلاح ذات بينهما فكان بينهما صلح غادر . وكان عبد الجبار يضيق بحاله ولم يستطع أبوه إغاثته ، لأن السلطان مسعود لم يكن يصغى لكلام عن هرون ، ولم يكن على صفاء مع الوزير ، فقد كان لهرون صلة بالسلطان بحيث لم يكن لأحد جرأة على أن يكتب شيئا فى ذمه ، وقد خدع صاحب البريد حتى يكتب للسلطان وفق هواه ، وهكذا ظل أمره خافيا حتى جهز أكثر من ألفى غلام وأعد لنفسه المظلة والراية السوداء[2] واتخذ لنفسه ٦٨١ جبروت الملوك . ولبث عبد الجبار عاطلا . وانثال قوم هرون من كل فج واتصلت رسله بعلى تكين وغيره من الأمراء وسلك طريق العصيان ، واتحد معه التراكمة والسلاجقة ، حتى صار الرسم على أن يأتوا كل سنة من نور بخارى إلى أندر غاز ويقيموا بها مدة . وانتهى الأمر إلى التفكير فى القبض على عبد الجبار . وكان لهذا عيون على هرون فدبر أمر هروبه وتوارى عن الأنظار واستحال العثور عليه . ففى منتصف ليل الأربعاء غرة رجب سنة

---

(١) المثل الفارسى دست هرون وفومش حتك برجوب ببسب وهذا المثل غير مستعمل الآن .

(٢) كدليل على استقلاله بالأمر .

خمس وعشرين وأربعمائة (١٠٣٤) خرج من بيته متنكراً مع خادم أمين بحيث لم يعرفه أحد ، ودلف إلى منزل إبى سعيد السهلى ، وكان قد تواطأ معه ، فأخفاه أبو سعيد فى سرداب ، وكانوا قد أعدوه فى الشهر الماضى سراً بحيث لم يعلم به أحد . وفى اليوم التالى قالوا لهرون إن عبد الجبار هرب بالأمس ، فاستشاط غضبا وأرسل الفرسان على جميع المنافذ فعادوا بخفى حنين . ونادى المنادى فى المدينة أنه إذا عثر عليه فى دار فإن صاحبها سيفقد نصفين . وأخذوا فى البحث عنه فلم يجدوا له أثرا . واتهم أبو سعيد بما قيل من أنه أخفى عبد الجبار تحت الأرض فاستولوا على بيته وضياعه وأمواله واستأصلوا شأفة كل من له صلة به . وعلم السلطان مسعود بهذا الأمر فضاق ذرعا . والطريف أنه كان يعتب على وزيره ويقول له إن خوارزم قد ذهبت ضحية ابنك ، ولم يجد الوزير غير الإخلاد إلى الصمت ، وقد أحاطه بشتى ألوان الحرج فلم يجرؤ على الكلام . وبعد ذلك بفترة قصيرة اتضح للسلطان أن هرون سوف يشق عليه عصى الطاعة . وجاء كتاب من أحد الجواسيس بأن هرون أسند الوزارة لأبى نصر البرغشى يوم الخميس ليومين بقيا من شعبان سنة خمس وعشرين وأربعمائة (١٠٣٤) ، وعلى أثره جاء كتاب آخر يوم الجمعة الثالث والعشرين من رمضان بأن الخطبة غيرت وأن هرون قد أمر بألا يذكر فيها اسم السلطان وبأن يذكر اسمه هو . وأخذ عيوننا يعملون هناك . كما وصل بعض سعاة الوزير أحمد وبينوا له كل ماعمله هرون ، فوقع السلطان مسعود فى حيرة شديدة ، لأنه لم يستطع ضبط الأمن فى خوارزم فى الوقت الذى ٦٨٢ اضطربت فيه أحوال خراسان . واختلى بالوزير وأبى نصر مشكان . ووجهت إلى الحاشية بخوارزم كتب رصينة عليها توقيع السلطان ، وفيها تحريض لهم على خلع هرون ، ولكنها لم تغن من الأمر شيئا .

وجاء طغرل وداود واليناليون والسلاجقة مع جيش كبير وخركاهات وإبل وخيل وخراف لاتحصى إلى حدود خوارزم ، لمساعدة هرون الذى منحهم مراتع وأماكن خاصة فى رباط ماشه وشراه خان ، وأرسل لهم العلف والهدايا

والصلات الكثيرة ، وقال لهم ينبغي أن تستريحوا فإنى قاصد خراسان وسوف أحارب ، فعليكم أن تحكموا إعداد المعدات هنا عند سيرى ، وأن تسيروا مع مقدمة جيشي . فأقاموا هنالك آمنين . فلما مات على تكين وقعت النفرة بينهم وبين أولاده ولم يستطيعوا الإقامة فى نور بخارى وتلك النواحي ، وكان بين هؤلاء السلاجقة وشاه ملك نزاع قديم وضغائن قوية وثأر ، وكان لشاه ملك جواسيس ، فلما عرف أنهم أقاموا هناك سار فى جيش قوى من ولايته ، جند ، ودهم هؤلاء التراكمة على حين غفلة وقت السحر ، وكان ذلك فى ذى الحجة سنة خمس وعشرين وأربعمائة (١٠٣٤) بعد ثلاثة أيام من عيد الأضحى وأجرى فيهم مقتلة عظيمة قتل فيها سبعة آلاف أو ثمانية منهم ، واستولى على كثير من الخيل وسبي جمعا غفيرا من النساء والأطفال ، وفر من بقى منهم من معابر خوارزم فعبروا جيحون على الجليد إذ كان الوقت شتاء ، وساروا إلى رباط نمك ، وكانت خيولهم عارية من السروج . ويقابل رباط نمك قرية كبيرة كثيرة العدد سمع رجالها خبر هؤلاء الفارين فحمل شبابهم السلاح وقالوا فلنذهب لنقتلهم حتى نخلص المسلمين منهم . وكان بين هؤلاء القوم شيخ فى التسعين من عمره مقبول القول مهيب فقال لهم : أيها الشباب لا تقتلوا مغلوبا آوى إليكم فإنهم أنفسهم مقتولون إذ لم يبق معهم امرأة ولا ولد ولا رجل ولا دابة . فتوقف الشباب ولم يسيروا إلى قتل السلاجقة . وما أعجب الدنيا ودولها وتقلب أحوالها . فكيف يقدمون على قتلهم وقد قدر لهم أن يكونوا يوما بهذه المنزلة فى سعة الملك والهيبة والدولة والعدد والسلطان . إن الله يفعل مايشاء ويحكم ما يريد .

ولما بلغ هرون هذا الخبر اغتم غما شديدا ولكنه تجلد ولم يظهر الكراهية ، وأرسل للسلاجقة رسولا يقول لهم لموا شعثكم وأتوا برجال آخرين فإنى ٦٨٣ مازلت مقيما على العهد الذى قطعته معكم . فهدأ بهذه الرسالة روعهم . وعادوا من رباط نمك إلى موضع أحمالهم فوجدوا أن أكثر ما كان لهم من أولادهم

وعددهم ودوابهم قد ذهب ولم يبق إلا القليل . فبدءوا فى تجهيز أنفسهم ، وعاد بعضهم إلى هناك .

ثم بعث هرون من ناحية أخرى رسولا إلى شاه ملك وعاتبه بشتى ألوان العتاب قائلا : « إنك قدمت وأهلكت قوما من موالىّ وهم جيشى ، ومهما يكن فإنهم ، إذا كانوا قد بدءوك بالعدوان ، فقد أذقتهم جزاء ما عملوا ، والآن يجب أن تقابلنى حتى نتعاهد ، فتكون لى وأكون لك ، ولنجتهد فى أن نزيل ما بينك وبين السلاجقة من جفاء ، فإنى عازم على أمر جلل هو الاستيلاء على خراسان » . فأجابه شاه ملك : « لقد أحسنت كثيراً وسوف أكون على هذا الجانب من جيحون فتعال أنت كذلك وانزل على ذلك الجانب حتى نتناوب الرسل ونتفق على ما يجب وحين نبرم الميثاق أجىء حتى منتصف النهر فى زورق وكذلك تجىء حتى نتقابل وأعطيك فوجا قويا من رجالى يعاونك فى المعركة التى ستخوض غمارها ومن ثم أعود إلى جنـد ، ولكن اشترط ألا تفاوضنى فى الصلح مع السلاجقة ، فإن بينى وبينهم ثأرا وسيفا ولسوف أمضى فى قتلهم حتى يفعل الله ما يريد » . هدأ روع هرون لهذا الجواب واستعد للمقابلة ومعه جيش كثيف قرابة ثلاثين ألف فارس وراجل وكثير من الغلمان وكوكبة كبيرة حوله . وقد بقى ثلاثة أيام من ذى الحجة سنة خمس وعشرين وأربعمائة (١٠٣٤) ، ونزل على ضفه النهر قبالة شاه ملك فلما رأى هذا ما معه من الجيش الكثيف والعدد العديد أخذه الرعب وقال لثقاته : « إن مهمتنا قد انتهت وقهرنا أعداءنا ، والصواب أن نسالم مسالمة الذئب[1] وأن نعود إلى ديارنا آمنين فلا نتورط فى خطأ وإنه لفضل عظيم أن يفصل جيحون بين بلدينا » . فقالوا هذا ما يجب عمله . وأخذ الرسل يغدون ويروحون من الجانبين ، وأعد العهد ، وجاء الأميران وسط جيحون حيث تقابلا ثم رجعا مسرعين . وفجأة ، دون أن يعرف هرون ، انسحب شاه ملك وأخذ طريقه إلى ولايته جند ، حاثا

---

(١) المثل الفارسى كرك آشتى كردن

السير اليهما. وبلغ الخبر هرون فقال : «إن هذا الرجل هو العدو الأكبر ٦٨٤
جاء إلى خوارزم وقتل السلاجقة وقابلنا وتعاهدنا ، وهو لا يستطيع المجيء من
جند إلى هنا إلا فى الشتاء حين يغطى الثلج هذا الوادى ، وإنى متجه إلى خراسان
ولدى مهمة كبرى ، فحين أسير من هنا فإن قلبى لن يشتغل بما ورائى » . فقالوا إنه
كذلك ، وكذلك عاد هرون وجاء خوارزم وأخذ يستعد بجد . وأقبل عليه
الناس من كل فوج من يكات وجغراق وجنجاخ بجيش جرار ، وأعان السلاجقة
بالدواب والسلاح حتى تشتد عزائمهم ، وأمر بأن يقيموا منتظرين فى درغان ،
(دره خان) وهى فى حدود خوارزم ، حتى إذا قطع خمسة منازل أو ستة
من خوارزم سار منهم أربعة آلاف فارس حتى يكونوا مقدمة له إلى مرو ،
ويسير هو على أثرهم .

وكانت هذه الأخبار تصل السلطان مسعود رضى الله عنه بواسطة المنهين
والجواسيس ، فكان يختلى مع الوزير وأبى نصر مشكان ويتدبرون الأمر .
قال الوزير أحمد عبد الصمد : « أطال الله عمر السلطان ، لم يدر بخاطر أحد أن
يحدث مثل هذا على يد ذلك المنكود وقد نشأ أبناء ألتونتاش جميعا على الخيانة
وهذا المخذول الماكر قد فاقهم جميعا ، ولكن التوفيق لم يصاحب قط عبدا
يتنكب الطريق السوى ويخرج على مولاه ، ولسوف يرى السلطان ما يحل بهذا
الخائن ، وقد دبرت مكيدة وبعثت بكتاب معمى إلى أبى سعيد السهلى الذى
يختبىء ولدى فى داره ، ليبذل المال بقدر ما يستطيع لإغراء جماعة بقتل هذا
الخائن الغادر ، فجدوا فى الأمر وأجابوا بأنهم أغروا بالمال ثمانية من أقرب
الغلمان إلى هرون كالسلاحدار وحامل المظلة ، وحامل العلم [1] ، واتفقت كلمتهم
على أنهم قد يستطيعون اغتياله فى الطريق يوم يسير من المدينة لأن اغتياله فى

---

(١) سلاحدار ، چتردار ، علمدار .

داخلها غير مستطاع لما أعده له شكر الخادم من الحيطة التامة ، فلنضرع إلى الله أن يكلل هذا التدبير بالنجاح فإن هذا الكلب إذا قتل تتغير الأوضاع، ويتفرق ذلك الجيش ولا يتجمع بعد ذلك أبدا » . فقال السلطان : «هذا تدبير ثاقب ورأى صائب ويجب أن نمد يد العون والتشجيع لهذا الذئب العجوز، أبي سعيد السهلي ، حتى يقضى على هرون فى أشهر أربعة أو خمسة » ٦٨٥-

ولما فرغ هرون من إعداد جيشه واقتربت ساعة الرحيل ، حملوا سرادقه المشؤوم وغيره من الأدوات وأقاموه على مسيرة ثلاثة فراسخ من المدينة ، ثم ركب على طالع النحس وغادر المدينة يوم الأحد الثانى من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وأربعمائة (١٠٣٥) وسار فى عدة تامة للغاية ، لكى يستولى على خراسان . ولكن كان القضاء يسخر منه فإنه سيلقى حتفه بعد يومين . وكان غلمان السراى الآخرون قد بايعوا هؤلاء الغلمان الثمانية . فلما وصل الرجل قرب السرادق صعد على ربوة ، بينما كان شكر الخادم يعمل على إنزال غلمان السراى ، وكان على بعد منه كثير من الرجالة الأقوياء ؛ فأعمل الغلمان فى هرون السيوف والحراب والدبابيس وألقوه أرضا ثم ولوا مدبرين ومعهم كوكبة من الغلمان ، ولما يلفظ أنفاسه الأخيرة . وظل شكر الخادم كالمذهول حتى حملوا هرون وصاحوا بأنه على قيد الحياة ، فوضعوه فى المهد على الفيل ورجعوا به إلى المدينة . وحدث هرج ومرج ، واشتغل كل بأمر نفسه كى ينجو بها إلى المدينة ، وغلب القوى الضعيف ونهبت الأموال واختل النظام وفسد الأمر جميعه . وحملوا هرون إلى المدينة وتعقب الفرسان القتلة . وظل هرون ثلاثة أيام يصارع الموت ، وفى يوم الخميس أسلم الروح رحمة الله عليه . فقد كان رجلا صالحا ولكنه أخطأ خطأ كبيراً حين جلس على عرش السلطان . وأنى للعصفور أن يتمنى عش الصفور . تلك هى سنة الخلق منذ آدم عليه السلام إلى يومنا هذا ، فكل عبد يخرج على مولاه يفقد حياته العزيزة ، ولو هبت الريح لعونه مرة فسرعان ما تتخلى عنه تاركة إياه وتنساه ؛ ولا بد من تأمل التاريخ لمعرفة الأمثلة الكثيرة على هذا مما يقع فى كل آونة وفى كل دولة . وينبغى

كذلك تذكر حال طغرل المغرور المخذول الذى قصد هذه الأسرة الغزنوية وجلس على عرش السلاطين محمود ومسعود ومودود وكيف كان مصيره ، وماذا فعل السرهنك قاتل طغرل ، معه ومع أتباعه ؟ اللهم اجعل لنا خير العاقبة . ولما ذاع فى المدينة خبر وفاة هرون صرحت الفتنة ، فركب شكر الخادم جاعلا أمامه أخا هرون إسماعيل الملقب بخندان (الضاحك) مع جملة ٦٨٦ غلمان الأمير المقتول وخرجوا من المدينة وكان ذلك يوم الجمعة عشرين[1] من جمادى الآخرة واضطرب البلد وتسرع عبد الجبار فإن منيته كانت قد دنت ذلك أنه حين خرج خندان وشكر الخادم ظهر عبد الجبار من مخبئه وقصد إلى سراى الإمارة ، وكان السهلى يقول له إن وقت الخروج والركوب لم يحن بعد فتريث حتى يبتعد خندان وشكر ثلاث مراحل وكذلك الألتونتاشيون[2] وحتى تصلك إمدادات السلطان فإن المدينة منقسمة ومضطربة . ولكن عبد الجبار لم يستمع للنصح وساق الفيل وتجمع حوله الغوغاء ، وهم كما قيل فى المثل ، « إذا اجتمعوا غلبوا وإذا تفرقوا لم يعرفوا » وجاء إلى الميدان ووقف ودقوا الطبول ونفخوا الأبواق ، وخرج رجاله من مخابئهم ، وعلا الصياح وثارت الفتنة ثورة عنيفة . وعاد شكر من حدود المدينة مسرعا ومعه خمسمائة غلام مجهزين والتقى بعبد الجبار . ولو أن هذا عامله بالحسنى لهدأ . ولكنه لم يفعل بل قال له قولا فاحشا . (٣) فقال شكر لغلمانه اضربوا . وطارت السهام من يمين وشمال نحو الفيل فاخترقت جسد عبد الجبار فصار كالغربال من كثرة الثقوب ، ولم يجرؤ أحد على إغاثته ، وسقط من على الفيل وأسلم الروح ، فشدوا بالرسن رجله ، وطاف به

---

(١) قال قبل ذلك يوم الأحد الثانى من جمادى الآخرة ولو صح هذا فلابد أن يكون هذا التاريخ الحادى والعشرين وأن يكون السبت (٢٧) الثامن والعشرين وخاصة أنه يقول الأحد التاسع بعد هذا . ملحوظة غنى – فياض ، ص٦٨٦ .

(٢) فى نسخة غنى — فياض « وهمچنين التونتاشيان مانند » ، ص ٦٨٦ سطره ، وكلمة بيابند زائدة فى نسخة كلكتا ، أنظر نسخة نفيسى ص ٨٣٤ سطر ١٨ .

(٣) النص الفارسى يذكر الكلمة التى قذفه بها : اى فلان فلان تو .

الأشرار والغوغاء وهم يتصايحون واشتد ازر إسماعيل خندان وآل التونتاش . أما أنصار عبد الجبار فقد قتلوا ودحروا واختفوا . وأرسلوا إلى إسمعيل رسلا مبشرين بما حدث « فعد عوداً حميداً وادخل المدينة » . فسر إسمعيل بهذا سرورا عظيما وأكثر من الصلات ووفى بالنذور ونثر الصدقات ودخل المدينة فى ضحى يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الآخرة ، وقد استقبله شكر الخادم والغلمان وأهل المدينة فدخلها وأقام فى القصر ، وضبط أمور المدينة وعين الوكلاء . وقضوا ذلك اليوم حتى منتصف الليل فى هذا الأمر ، ثم إنهم اتفقوا مع إسمعيل على مايجب عمله ، وقطعوا معه العهود وقدموا له أموال البيعة . وفى اليوم التالى الأحد التاسع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وأربعمائة (١٠٣٥) جلس إسمعيل على العرش ، وأذن بالاستقبال فى الحضرة ، وجاء جميع الجند والأعيان واعترفوا بإمارته وقدموا التحية وقاموا بالنثار ٦٨٧ ثم عادوا . وقد استقر له الأمر وهدأ باله . ولما بلغ الخبر السلطان مسعود توجه لعزاء وزيره لما حل به وبأهله من عظيم المصاب . وقد أجاب الوزير قائلا : « أطال الله حياة السلطان سعيدا ، لمثل هذا الأمر أعد العبيد وأبناء البيوت ، وهو أن يموتوا فى سبيل سلاطينهم ، مافات مات فلندبر لما هو آت » قال فماذا ينبغى مع هذا الصعلوك الذى نصبوه ؟ قال الوزير « علينا أن نوفد رسولا دون أن يعلم به جند آلتونتاش وأن يكون معه كتب عليها التوقيع السلطانى لالبتكين الحاجب وغيره من المقدمين المحموديين لكى يسدوا النصح إلى هذا الطفل إذا أمكن ذلك ، وأنا بدورى سأكتب بما يلزم لأبى سعيد السهلى وأبى القاسم الإسكافى لنرى مايقدرون عليه » . فقال السلطان حسنا ، ثم عاد إلى قصره وعين الرسول وكتبت الرسائل أثناء النهار وسار بها . ثم عاد بعد ذلك وأطلعهم على أن أمور الملك قد آلت إلى شكر الخادم ، وأن هذا الطفل يلهو بالشراب والصيد ولا يذكره أحد ، وقد كتب البتكين والآخرون الرسائل

فقدموا خضوعهم وطلبوا المعذرة ، وقالوا إن الأمر لن يستقيم فى هذه الناحية بغير السيف والسياسة الصارمة ، فإن الأصول فيها قد قلبت رأسا على عقب ، وقضى هرون على كل قاعدة . فيئس السلطان من أمر خوارزم ، فأمامه مهمات جسام فى خراسان والرى وهندوستان ، كما بينت من قبل فى هذا الكتاب . ولما سارت أحوال خوارزم وهرون على هذا النحو اشتد اليأس بالسلاجقة فإنهم لا يقدرون على السير إلى بخارى فإن على تكين كان قد مات ، وولى أولاده الملك من بعده ، ثم إنهم مشردون بلا مأوى ؛ وهم كذلك لا يستطيعون الإقامة فى خوارزم خوفا من شاه ملك . فاستعدوا للرحيل من خوارزم إلى خراسان كى يقيموا فيها آمنين . وأعدوا لذلك الرحال ، ثم ساروا فجأة فعبروا جيحون ، وكان من عبر النهر منهم ذلك اليوم تسعمائة فارس ، ثم انضم إليهم بعد ذلك خلق كثيرون ، وتهيوا مدينة آموى ، ثم عبروا النهر ونزلوا على جانب مرو ونسا فى الوقت الذى كنا قد عدنا فيه من آمل وطبرستان وبلغنا فيه جرجان ، وقد مر ذكر ذلك فى التاريخ بالتفصيل . وهذه هى فائدة « باب خوارزم » الذى وضعته فإن فيه أصل هذه الحوادث وكيف كان سير السلاجقة من خوارزم ومجيئهم إلى خراسان وكيف علا شأنهم . وأوفد شاه ملك رسولا إلى إسمعيل فى خوارزم ومعه رسالة جاء فيها : « إن هرون قد شد من عزائم السلاجقة ٦٨٨ الذين هم أعدائى وقد هزمتهم وأفنيت رجالهم وتركتهم معدمين مشردين بلا مأوى ، ثم إنه (هرون) قد كفر بالنعمة وأراد أن يقصد السلطان مسعود وبلاده ، على أن يكون السلاجقة فى مقدمة جيشه ، فلم يرض الله بهذا وأنزل به ما أنزل . واليوم يذهب السلاجقة إلى خراسان . وإذا كان لنا مع هرون عهد فإن هرون قد مات والسيف اليوم يحكم بينى وبينكم ، وإنى لقادم فأعدوا عدتكم فسوف أستولى على خوارزم وأقضى عليكم أيها الجاحدون للنعمة . وحين أفرغ من أمركم سأسير إلى خراسان فأشرد السلاجقة أعدائى جميعا .

سأفعل هذا خدمة للسلطان وتلبية لإرادته وإنى على ثقة من أن هذا السلطان لن يبخل على بهذه الولاية بعد أن أكون قد قدمت خدمة كهذه واستأصلت شأفة العدو من بلاده ».

وكان الوزير أحمد عبد الصمد قد قوى الكبرياء والصلف فى رأس شاه ملك ليقضى على شكر الخادم وإسمعيل خندان. وهكذا ثأر لولده ولمن قتل معه، رغم أن شاه ملك نفسه راح ضحية لهذه الغاية كما سيجىء فى حكم السلطان مودود رحمة الله عليه. وأدرك إسمعيل وشكر أن هذا السهم إنما أصابهم من جهة أحمد عبد الصمد، وأنه هو الذى مهد لهذا الجو، فأعادا رسول شاه ملك مع إجابات صارمة، ملؤها الوعيد وقالا « إنا مستعدون للقائك فتقدم إذا شئت، هذا والذنب ذنب هرون الذى أقام لك وزنا مع عظمة الجيش الذى كان له وأنت ضعيف ولم يأمر أتباعه السلاجقة بأن يدمروك تدميرا حتى لا تتراءى لك اليوم هذه الأحلام ».

وبعد فترة قبضوا على أبى نصر البرغشى، وأسندوا الوزارة إلى أبى القاسم الإسكافى غرة محرم سنة ثمان وعشرين وأربعمائة (٢٥ أكتوبر ١٠٣٦)، واحتجوا على عزل البرغشى بأن هواه كان مع السلطان مسعود، وأن أحمد عبد الصمد كان يمده ويمد شاه ملك بالرأى السديد وبالرسل والكتب السلطانية إلى أن صارت الأمور بحيث أنه حين علا شأن السلاجقة وهزموا بكتغدى والحاجب سباشى، اختلى السلطان بالوزير وقال له لقد تجاوز اعتداء السلاجقة كل حد، ٦٨٩ وقد وجب منح شاه ملك ولاية خوارزم، حتى يقضى على أطماع الطامعين، ويطرد هؤلاء الجاحدين ويمسك بالزمام فى خوارزم. فإنا بهذا يزول قلقنا من ناحية الخوارزمية والسلاجقة جميعا. فقال الوزير هذا رأى سديد حقا. وكتب المنشور باسم شاه ملك وأرسلت معه خلعة غالية. وعين لهذا حسن التبانى وهو من أمير المعتمدين فى البلاط وقد سفر مرات من قبل، وهو عجوز

ماكر حسن الرأى ، فذهب مع عدد من الفرسان بالخلعة والمنشور والتعليمات الجازمة .

واستغرق تبادل الرسل فترة من الزمن بين شاه ملك والخوارزميه وطال بينهما الحديث ، حتى احتج شاه ملك بقوله إن السلطان مسعود هو السلطان حقا بأمر أمير المؤمنين ؛ وقد أعطانى هذه الولاية فعليكم تسليمها لى . فأجاب الخوارزميه بأنهم لا يعترفون بأحد وأن الولاية ولا يتهم ولا يتخلون عنها إلا بالسيف « فتعالوا إلينا لنرى ماذا قدر الله ولمن تكون الغلبة » . ونزل شاه ملك إلى صحراء تدعى آسيب بجيش عظيم ، والتقى بجيش خصومه وبدأت الحرب بينهما يوم الجمعة السادس من جمادى الآخرة سنة إثنتين وثلاثين وأربعمائة (١٠٤١) ودامت ثلاثة أيام بلياليها ، وكانت من الشدة بحيث دارت الطواحين بما سال من دماء فيها ، وقتل كثير من الطرفين ؛ وكان حسن التبانى مع شاه ملك وقال لى لقد شهدت معارك كثيرة مع السلطان محمود مثل معارك مرو وهراة مع السيمجورية وطغرل فى مرو والخانيين فى دشت كرد وغيرها ، ولكنى لا أذكر معركة أشد هولا من تلك التى كانت بين شاه ملك والخوارزمية . وقد انتصر شاه ملك آخر الأمر فقد هزمهم فى اليوم الثالث ظهراً فانسحبوا مدحورين إلى المدينة ، ولجأوا إلى القلعة ولو أنهم بادروا إلى حرب القلاع لتعقد الأمر ولطالت المعركة ، ولكنهم لم يفعلوا ، فإن غضب الله كان قد حل بهم . وبقى شاه ملك خمسة عشر يوما فى الرباط الذى هزمهم عنده حتى دفن القتلى وبرىء الجرحى . وكانت الرسل تترى بين الطرفين وقد سعى الخوارزميه للصلح وبذلوا المال ، فقال شاه ملك إنى أريد الولاية فإنها من حقى بأمر خليفة أمير المؤمنين . واتفق أن أقبل عليه جيش آخر بكامل العدة فتقوى به شاه ملك ، وعرف الخوارزمية ٦٩٠ ذلك فارتعدت فرائصهم ، وتأهب شاه ملك لمعاودة القتال ، وكان الخوارزمية يؤملون أنه سوف يعود إلى بلاده بين لحظة وأخرى . ومن عجيب ما اتفق وقوع حادثة أدت إلى إخافة إسمعيل وشكر والألتونتاشية من جند السلطان ، فأدت هذه الحادثة إلى انقسامهم وخيل لإسماعيل وشكر بأنهم سقيضون

عليهما ليسلموهما إلى شاه ملك ، وأن هذه خطة دبرها السلطان مسعود ووزيره أحمد عبدالصمد وقدآزرهما فيها رجال الحاشية . فهرب إسمعيل وشكر وخاصته والألتونتاشية من خوارزم ليلجأوا إلى السلاجقة إذ كانوا حلفاءهم ، وكان ذلك يوم السبت الثانى والعشرين من رجب سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة (١٠٤١) .
وقد بعث شاه ملك بجيش لتعقب إسمعيل يوم هرب ، فسار وراءه حتى الحدود ولم يجده ، وظل شاه ملك خارج المدينة عشرين يوما حتى أتم تدبير كل شيء ، وأمنت المدينة وعاد كل من أراد العودة طائعا آمنا . ولما تأكد شاه ملك أن الأمور قد استقرت دخل المدينة واعتلى أريكة الملك ، وكان ذلك يوم الخميس منتصف شعبان سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة (١٠٤١) ، وقد نثروا الصدقات وأقاموا الزينات وزالت الاضطرابات ، وجاء يوم الجمعة من غد ذلك اليوم إلى المسجد الجامع بموكب عظيم فيه كثير من الفرسان والرجالة ، وخطبوا باسم أمير المؤمنين والسلطان مسعود وباسمه بعدهما .

ومن العجائب التى ينبغى أن نقف عندها أنه فى اليوم الذى خطب فيه للسلطان مسعود كان هذا قد اغتيل منذ فترة فى قلعة كيرى ، وكان السلطان مودود قد جاء إلى دينور فى شهر شعبان هذا ، الذى غير شاه ملك الخطبة فيه ، وحارب عمه وأسره مع أبنائه ومن انضم إليه وقتلهم جميعا فى تلك الأيام ، كما سأبين ذلك عند الكلام عن بقية عهد السلطان الشهيد مسعود وعن عهد السلطان مودود رضى الله عنهما .

ولم يكن السلاجقة أوفياء لإسمعيل وشكر وآلتونتاش فقد أكرموا وفادتهم أياما وما لبثوا أن قيدوهم . والله عز وجل يعرف سر ذلك ، وقد خذل الألتونتاشية ولحقتهم الذلة . وسأبين مصير شاه ملك والخوارزمية أيام السلطان مودود حتى وقوعه فى قبضة السلاجقة ، نتيجة ولائه للدولة الغزنوية ، وكيف قضى عليه وكيف ٦٩١ وقع نساؤه وأبناؤه فى أيدى البغاة . فهذه كلها من النوادر والعجائب .

انتهينا من باب خوارزم وفيه فوائد جمة من كل جنس . ولو قيل إنه جدير بأن يكون كتاب تاريخ وحده لما كان هذا القول بعيدا عن الصواب ، لأن فيه عبرة لأولى الألباب . وبعد فراغى من هذا الباب بادرت لتدوين باب آخر حتى أفى بما وعدت إن شاء الله تعالى .

(تم الكتاب)

كشاف

أكتفينا فى هذا الكشاف بأعداد الآحاد بين كل عقدين . وعلامة = تدل على أن العلم الذى قبلها ذكر بالاسم الذى بعدها فى موضع آخر من الكشاف .

(١) ترجمنا أمير بجه بالأمير الطفل ويذهب غنى — فياض إلى أنها اسم علم ، ص ٧٠٩ من كشاف النص الفارسى لها .

(٢) أوكا لقب يلقب به المكبر فى العقل — ديوان لغات الترك ، تعليقات غنى — فياض ص ٧٠٣

(ح)

(ش)

---

(١) قرأها كاز بمرسكى ، مقدمة ديوان منوجهرى شكر بمعنى السكر .

---

(١) الشاعر العربی ٣٦٠ — ٩٧١ — ٤٠١ — ١٠١٠

(ق)

(١) هكذا رجح غني — قياس ص ٥٨٣ حاشية ١ .

(و)

(ه)

٢ — كشاف البلدان والأمكنة

[1] بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٥٤

(١) رجح أديب ، ويعلق على نسخته يب ، أنه جامع سفيان . ويقول غني — فياض ص ٧٠٥ إن هذا الرأى يؤيده ماجاء فى ثمار القلوب للثعالبي حيث يقول : يضرب المثل بجامع سفيان الثورى فى الفقه للشيء الجامع لكل شيء كما يضرب بسفينة نوح .

(چ)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(١) صحتها در آهنين أى باب الحديد كما يسميها الكتاب العرب. تعليقات غنى ـ فياض ص ٧٠٢ ـ ٧٠٣

(ع)

(غ)

(١) ذكرنا فى السطر العاشر من صفحة ٦٢٢ « وحطت القافلة رحلها عند الجسر » ، والترجمة الصحيحة « ونزل السلطان عند جسر كاروان »

(ن)

(١) ذهب غني ـ فياض إلى قراءة عورو ند بدلا من فور، وند . صفحة ٢٤٧ من النص الفارسي لهما

(هـ)

(و)

(ى)

---

(١) ذهب غنى — بياض إلى أنه اسم مكان ووضعاه فى الفهرست ، وذهبنا فى الترجمة العربيـة إلى أنه « ألف فارس » ، ص ٧٤٢

٣ - كشاف بأسماء الأسر والجماعات

٤ — كشاف المصطلحات التاريخية التى وردت بالكتاب

(ا)

آخورسالار: الموكل بالاصطبلات

أستاذ: بمعنى الرئيس وتستعمل مع كلمة شاكرد بمعنى النائب أو التلميذ

أسكدار: وتفسيره ازكو دارى أى من أين تمسك . وهو مدرج يكتب فيه عدد الخرائط والكتب الواردة والنافذة وأسامى أربابها . (مفاتيح العلوم ٤٢) وهو مدرج يكتب فيه جوامع الكتب المنفذة للختم (مفاتيح ص ٥٠) . وفى لغت فرس هو ساعى البريد الذى يغير دابته كل منزل والذى يتمنطق بحزام حتى لا يتعب (ص١٢٦).

إشراف دركاه: الإشراف على الدركاه .

إقطاع: أن يقطع السلطان رجلا أرضا فتصير له رقبتها ، وتسمى تلك الأرضون قطائع واحدتها قطيعة (مفاتيح العلوم ص ١٢٦).

(ب)

البراءة: حجة يبذلها الجهبذ أى الخازن للمؤدى بما يؤديه إليه (مفاتيح العلوم ص ٣٧ ، ٣٨) . ويعطى الجند أحيانا براءات لتحصيل مال السلطان عنوة .

برده دار: الموكل بالستار

---

(١) أسرة فارسية قديمة يرجع نسبها إلى بهرام كور الملك الساسانى. وقد مدحهم البحترى وأبو بكر الخوارزمى وعبرهما . وكان ابن دريد من حاشية واحد منهم وباسمه جعل كتابه جمهرة اللغة وباسمه أيضا قال مقصورته وتحدث البيهقى هنا كثيرا عن على ميكائيل ووصفه بأنه رئيس الرؤساء وامتدحه وامتدح أسرته .
وتحدث عنهم نفيسى تفصيلا فى حواشيه الجزء ٣ ص ٩٦٩ ومابعدها.

بيستكانى : مرتبات الجند التى تدفع لهم أربع مرات فى السنة وهذا هو رسم ديوان خراسان (مفاتيح العلوم ص٤٢) .

وتعرف الكلمة فى العربية بالعشرينية ولعلها تقديرن عشرين مثقالا (غنى - قياض ٥٩ حاشية ١)

(ت)

التسبيب : أن يسبب رزق رجل على مال متعذر ليعين المسبب له العامل على استخراجه فيجعل ورداً للعامل وإخراجا إلى المرتزق بالقلم (مفاتيح العلوم ص٤١) .

التوقيع العظيم : كتاب من السلطان.

(ج)

جامه خانه : ديوان أو خزانة الألبسة

جامه دار : الموكل بالألبسة

جاندار = سلاحدار .

الجريدة: خيل لا رجالة فيها.

والجريدة من دفاتر ديوان الجيش الجريدة السوداء وهى تكسر القيادة قيادة فى كل سنة بأسامى الرجال وأنسابهم وأجناسهم وحلاهم ومبالغ أرزاقهم وقبوضهم وسائر أحوالهم وهو الأصل الذى يرجع إليه فى هذا الديوان فى كل شىء (مفاتيح ص٣٨)

الجاز : الجمل السريع الذى يحمل البريد ويقصد به الساعى المسرع

جبباشى : الحرس . فسرها نفيسى بأنها من جان الفارسية بمعنى السلاح أو الحربة وباش التركية بمعنى الرئيس وخففت إلى جنباش (ص ٥٥٥)

(ح)

حاجى سقا : الساقى

الحرة : لقب السيدة أو الأميرة . وبه نودى نساء الأشراف والعظماء تمييزا لهن عن الجوارى فى القصور ، وكانت هذه الكلمة متداولة فى العصرين الأموى والعباسى (كتاب التاج ص١٤٢ ، نشر أحمد زكى باشا)

(خ)

خاصة خادم: الخادم الخاص

خركاه (خركاهات) الخيمة أو مضرب الخيام واستعملناه كما هو، لوروده بهذا المعنى فى الكتب العربية

خزانة الحجج : الخزانة التى تودع بها الأوراق الرسمية الهامة .

خزينه دار : الموكل بالخزانة .

خريطه أنظر اسكدار

خليفة الدار: لقب يطلق على كبار ولاة الأقاليم ، وقد لقب به هرون بن التونتاش بعد وفاة أبيه وإقامته مكانه فى خوارزم .
خليفة المدينة : صاحب الشرطة فيها
خواجة : لقب من أسمى الألقاب فى ذلك الوقت وإن يكن اليوم قل شأنه وتنوسى العمل به . وقد أطلقه السلطان محمود على أبى المظفر البرغشى الذى كان وزيراً للسامانيين والذى عرض محمود عليه الوزارة عدة مرات فأبى (ص ٢٨٠ هنا) .
خواجه بزرك : الخواجة الكبير وترجمناه بالأستاذ الرئيس أحيانا .
خوانسالار : الموكل بالمائدة .

(د)

داماد : الصهر . واستعملناه أحيانا كما هو حين يدل على لقب .
الدانق : أربعة طساسيج والدينار أربعة وعشرون طسوجا والطسوج ثلث ثمن مثقال (مفاتيح العلوم ص ٤١) ويقرر بارتولد أن الجنيه يساوى دينارين وأن الدينار عشرون درهما (تاريخ الحضارة الإسلامية الترجمة العربية لحمزة طاهر ص ٤٤)
الدبير : الكاتب .
دبيرنوبت : كاتب النوبة .
دبيرى : الكتابة .
الدراجة والطليعة : فرق الحراسة والاستطلاع .
دركاه : البلاط واستعملناها أحيانا كما هى لشيوعها فى الكتب العربية .
دندان مزد : هبة يمنحها الداعى بعد الوليمة المدعوين مقابل ما تحملته أسنانهم من المشقة فى الأكل .
دهقان : الوالى وأطلق فى هذا الكتاب على السلاجقة الثلاثة الكبار حين ولاهم مسعود بعض ولاياته واستعملناه كما هو لشيوعه فى فى الكتب العربية وأصله فى الفارسية بمعنى رئيس القرية .
دوات خانه : ديوان التحرير .
دوات دار : الموكل بالدواة .
ديدبان : الحارس .
ديوان بان : حارس الديوان .
ديوان عرض : ديوان الجند ، العرض .

ديو سوار : الفارس الذى يتشح بزى الحرب (تعليقات نفيسى ص ١٠٢٦) .

دينار هريوه : الدينار الهروى ، نسبة إلى هراة ويقال إنه يطلق على الذهب الخالص (برهان قاطع) .

(ر)

الرائج من المال : ما يسهل استخراجه.

رسولدار : الموكل بالضيافة أو بضيافة الرسل .

ركابدار (ركابدارية) : القائم على الركائب واستعملناه كما هو .

ركابدار خاص : القائم على ركائب السلطان .

(ز)

زراد خانه : مكان تعد فيه الأسلحة وأدوات الحرب .

الزعيم : يفيد أحيانا معنى الوالى ، وأحيانا معنى كبير القوم . ووردت بالمعنى الأول فى صفحة ٥٢٧ .

الزيادة : أن يزاد للجندى ، إذا تعلقت به ، فى جاريه شيء معلوم (مفاتيح ص ٤٢) .

(س)

ساربان : الجمال وهكذا ترجمناها ، واستعملت كما هى فى الكتب العربية (الشاهنامة العربية لعبد الوهاب عزام) .

سالار : القائد واستعملناها أحيانا بلفظها لشيوعه فى الكتب العربية .

سالار حاجبان : سالار الحجاب .

سباهدار : قائد دون السباهسالار .

سباهسالار : القائد الأعلى أو المقدم (تاريخ ابن الأثير ، ج٩ ، ص٤٣٢ طبعة مصر) .

سراى : تطلق على القصر وعلى البيت عامة . (مراى عمر الزاهد الفقير) .

سرهنك : ضابط كبير وهى شائعة فى الكتب العربية .

سلاحدار : الموكل بالسلاح

سروثاقان : رئيس غلمان السراى

سوار سالار : قائد الفرسان .

(ش)

الشاذروان : أساس يوثق حوالى القناطر ونحوها (مفاتيح ص٤٦).

شاكرد : التلميذ وتستخدم بمعنى المرؤوس أو النائب .

شرابدار : الموكل بالشراب .

شارستان : إقليم مزدحم بالمـــدن أو قصر تحوطه الحدائق أو الضاحية أو المدينة الحصينة واستعملت كما هي .

(ط)

طشتدار . الموكل بالطشت .

(ع)

العارض : رئيس ديوان الجنـد ويوكل إليه نفقات الجيش وأرزاق جنده ، وله الحل والعقد والإثبات والإسقاط (ص ٥٣٦) .

(غ)

غازيان : (الغزاة) انظر المطوعة .

الغاشية : كسوة توضع على السرج لتغطيته حـين يترجل الراكب ، وكانت امتيازاً يمنح للعظماء . وقال البيهقي (ص ٣٨١) وكل من معه خمسـون درهما اليوم يستطيع أن يشترى الغاشية ويحملها الخـدم أمامه .

(ف)

فراجيـة : جبة فضفاضة محلاة بالفراء وهى جبة العظماء ومـلاءة النساء (قاموس الألبسة ، مولانا نظام قارى ص٢٠٢) .

فيل وار : تطلق على أكبر وزن فى ذلك الوقت وهو ألف ألف من الدراهم التى يبلغ عيار كل عشرة منها تسعة دراهم ونصف من خالص الفضة (البيهق ص ١٣٧) .

(ق)

القاصد : العين والرسول والساعى .

قهرمان : ناظر القصر .

قهندز : معرب كهن دز أى قلعة عتيقة (الشاهنامة العربية . عزام).

(ك)

كارداران : الموظفون

الكاغد : الورق

كتخـدا : الموكل بالشؤون الخاصة لمن يلحق به ، ويكون له الحل والعقد والخفض والرفع والأمر والنهى (البيهق ص ٤١٥) .

كوتوال : قائد القلعـــة واستعملناها كما هى . وكوت بالهندى القلعـة (برهان قاطع) والـكلمة تركيـة الأصل ومعناها فى الجغتائية حارس القلعة أو قائدها .

كهريز : قناة يجرى فيها المـاء تحت الأرض وعربها الخوارزمى بالكظائم واستعملناها كما هى لذيوعهـا فى

الكتب العربية (مفاتيح ص ٤٦)

الكوس : الطبل الكبير (الشاهنامة عزام)

(ك)

كشادنامة : الكتاب المفتوح الذى يسلم للمأمور متضمنا الاوامر التى يكلف بها حتى لا يعترضه أحد، ومن أمثلته ماجاء فى صفحة ١٢٨ .

(م)

المرزبان : صاحب الثغر ويطلق على الحاكم (عزام ، الشاهنامة) .

المستأكلة : الذين يأكلون أموال الضعفاء .

المستحث : جابى الخراج (غنى — فياض حاشية ٤ ص ١٥٧ هنا ص ١٦٧)

المستخرج : من يستخرج مال الدولة بالقوة ممن اغتصبه ، وقد يستخدم العقابين والسوط وآلات التعذيب والجلاد (ص ٣٨٤) ، وهدد السلطان أعيان آمل بالمستخرج (ص ٤٩٢) .

المستوفى : يتبع ديوان الاستيفاء وهو ديوان المحاسبة والمستوفى المحاسب وكان محمود الغزنوى يستخدم الشدة فى المحاسبة ، كالضرب بالسياط وقطع الأيدى والأرجل والتعذيب (ص ١٣٦).

المشرف : يعينه السلطان جاسوسا على رسول له لينقل إليه مايجرى أثناء أداء الرسالة .

مشرف المملكة : المكلف بالإشراف العام ، والإشراف أكثر أهمية من عمل صاحب البريد (ص ٥٢٣)

المطوعة: أو الغزاة (غازيان) وهم جماعة يجمعون لقتال الكفار ويكونون جيشاً عليه سالار خاص هو سالار غازيان أو سالار غازى . وكان هذا النظام متبعا أيام الغزنويين فى فتح الهند (غنى - فياض نقلا عن بارتولد) .

المعاة : المعمى من الكلام ما عمى معناه وخفى ويطلق عليه اليوم كلمة « الشفرة » وكان لكل معاة رموز يصطلح عليها حتى لا تعرف إلا لمن يهمهم الأمر (ص ٣٣٥ ، ٧٢١).

معدلدار : المحاسب .

المقاصة : أن يحبس القابض لماله ما كان تلمظه[1] واستلفه وربما يقاص من رزقه بحق بيت المال قبله

---

(١) التلمظ أن يطلق لطائفة من المرتزقين بعض أرزاقهم قبل أن يستحقوا (مفاتيح ص ٤٣).

من خراج أو نحوه فيجعل ما استلفه اخراجا إليه ووردا له (مفاتيح ص ٤٣).

المقدم : القائد وتأتى بمعنى المرشد أو الرئيس .

الملطفة : تطلق على الكتب القصيرة وتكون فى الأمور العاجلة على الأكثر (غنى — فياض ص ٣ حاشية ٤)

المنشور : ماكان غير مختوم من كتب السلطان (القاموس) .

منهى : الجاسوس أو العين

مهتر سراى : أمين القصر

محفوريات : محفورة بلدة بشط الروم ينسج بها البسط . واستخدمها البيهقى بمعنى البساط المحفورى .

(ن)

النثار : ما يقدم من المال كهدية فى المناسبات العامة .

نيم ترك : نوع من الخيام الصغيرة (حاشية لأديب ، ص ٢٣ هنا) .

(و)

الوثاق : بمعنى الحجرة ويقول عباس إقبال (فى إيران امروز السنة ٢ العدد ١٠) إنها تحريف كلمة أتاق . وتطلق الكلمة فى هذا الكتاب على عنابر الغلمان المتصلة بالسراى ، ويسمون الوثاقيين أى خاصة الخدم (غنى فياض ص ٥٨ (١)) .

الوثاق باشى : رئيس عنبر من عنابر الغلمان او رئيس الغلمان (سياستنامه ص ١٢٩ من طبعة إقبال والحاشية ٢ من هذه الصفحة)

الورِق . الدرهم المسكوك .

الوضع : اصطلاح إدارى معناه أن يعلق على اسم الرجل فيوضع عن الجريدة (مفاتيح ٤٣) .

وكيل در : وكيل البلاط ، وهو الموظف الذى يوفده حكام الأقاليم إلى بلاط السلطان لينهى إليهم ما يعنيهم مما يجرى فيه ، وليراقب مصالحهم عند السلطان .

(هـ)

هدية الحمام : ما يمنح للضيف نظير نفقات الحمام .

٥ - كشاف الكتب التي ذكرت في كتاب البيهقي

٦ - كشاف المواضيع

---

(١) هو أبو العلاء الطبيب وكان مشهوراً فى عصره وكان يصحب ملوك الديلميين فى السفر والحضر . تاريخ الحكماء للقفطى ، طبعة ليبسك ص ١٣٢٠ .

(٢) أبو العباس بن السماك توفى فى الكوفة سنة ١٨٣ طبقات الصوفية للشعرانى ص ٦٠ .

(٣) عبد الله بن عبد العزيز العمرى توفى بالمدينة سنة ١٨٤ طبقات الصوفية للشعرانى ص ٦٤

الكشاف:

تصويب

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
المهمة	الهمة	٦٤	٩
من	عن	٧٩	٥
إذ	إذا	٨١	١٧
إذا	إذ	٩٤	١٦
نثار	نثارا	١٢٠	٢
ورجاله	ورجالة	١٢٠	١
مقدم	مقدما	١٢٠	٢
بلا بست	بلاد بست	١١٥	٤
رجلين	رجلان	١٢١	١١
هزات	هراة	١٢٩	٤
نوشتكين	نوشتكين	١٢٩	٦
المجهرة	الجهزة	١٣٥	٣
أقدامه	إقدامه	١٤١	١٣
محمود	مسعود	١٥٠	٥
الرحام	الزحام	١٥٤	١٠
الصيوح	الصبوح	١٧١	١٢
الحمدونى	الحمدوى	١٩٥	٤
معلقة	معقله	٢٢٣	٨
وعلى	على	٢٤١	١٠
زبرقان	زبرقان	٢٦٩	١٢
ابن منصور	أبى منصور	٣٠٠	٤
لم	ثم	٣٠٦	١١
إخراجهم	إحراجهم	٣٢١	٦
حقة	حقه	٣٧٧	١٧

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
مردانـكاه	مردانشاه	٣٩٨	٩
المعصبي	المصعي	٤٠٠	١٣
بلـكان	بلخان	٤٢٣	١٨
بيها	فيها	٤١٣	١٠
هند	تلك	٤٢٩	١١
يغر	يغرى	٤٣٨	٢٠
سلك	سلب	٤٤٢	٢
عين	يحيى	٤٤٣	١٣
عليها	علينا	٤٥٦	٦
ترك	ترشك	٤٦٢	١٥
إل	إلى	٤٦٤	١٠
عل	على	٤٦٨	١٩
بايتوزيان	البايتوزيين	٤٨٠	٥
فوح	فوج	٤٨٦	١٤
قنرل	فنزل	٤٨٦	١٥
نصاحهم	نصائحهم	٥٠١	٢
الدكاه	الدركاه	٥٠٣	١
أ	أنى	٥١٠	٣
وغيرعا	وغيرها	٥٣٤	١٢
منه	(تشطب)	٥٨٨	١١
عمدى	عدو	٥٩٦	١٢
إ	إلى	٥٩٦	١٤
دراة	دراعة	٦٠٤	١٥
البرطى	البربطى	٦٠٧	٦
ختلان	ختلان	٦٠٨	١٩
بج	بنج	٦١٧	٥

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
آمد	ترمذ	٦٢٠	٥
حطت القافلة رحلها عند الجسر	ونزل عند جسر كاروان	٦٢٢	١٠
المرتزقة	المستأكلة	٦٢٤	١٤
تضاف إلى السپهسالار من آخر السطر ١٧	إلى آخر السطر ١٦	٦٢٧	١٦ ، ١٧
فراه	فراوه	٦٤٢	١٩
إن	أن	٦٤٦	٤
أتباع	اتباع	٦٦٣	٢
حاس	جاس	٦٦٩	٢
لمواحهة	لمواجهة	٦٩٤	٥
المقلب	الملقب	٧٥٣	٥
وابك	جوابك	٤١٧	١
حومارا	طومارا	٤١٧	١
وحيئذ	وحينئذ	٧٧٢	٤

هذا وقد وضعنا أرقام الصفحات الفارسية من طبعة غنى — فياض فى أماكنها من الترجمة وقد وقع فيها بعض الخطأ :

ففى الصفحات ٥١ ، ٣٨٤ ، ٦٢٦ ، ٧٢٣ ، تصحح أرقام النص الفارسى إلى ٥٤، ٣٦٢ ، ٥٧٢ ، ٧٥٧

وتوضح صفحات النص الفارسى ١٨ ، ١٩٢ ، ٣٤٨ ، ٤٠٠ ، ٤٤١ ، ٤٦٤ ، ٥٨٨ ، ٥٩٣ ، فى الصفحات العربية ١٨ ، ٢٠٥ ، ٣٦٩ ، ٤٢٤ ، ٤٦٩ ، ٤٩٥ ، ٦٤٦ ، ٦٥٢ ، وذلك فى الأسطر ٦ ، ٣ ، ٣ ، ١ ، ٢ ، ١٥ ، ١ ، ١ .

وأما فيما يتعلق بالأحرف الفارسية الخاصة بهذه اللغة فلم نتمكن من ضبطها كلها وهى لا تخفى على القارىء المتخصص .



ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)